مع صبغة الله الصمد
على
خُطى التراجعات والتخذيل... محواً

هداية صبغة الله الصمد في مغازي للماحي محمد ﷺ
قراءة تفسيرية لمغازي رسول الله ﷺ في القرآن الكريم

الشيخ عمر بن محمود أبو عمر
أبو قتادة الفلسطيني
حفظه الله تعالى

النور للإعلام الإسلامي

مع صِبغة الله الصمد «على خُطى التراجعات والتخذيل.. محواً»
هداية صبغة الله الصمد في مغازي الماحي محمد ﷺ
«قراءة تفسيرية لمغازي رسول الله ﷺ في القرآن الكريم»

t y

١٤٣٣ – ٢٠١٢م

النَّاشِر :

النور للإعلام الإسلامي

AL NUR ISLAMIC INFORMATION

Vesterbrogade 208 Box: 276 – 1800 Frederiksberg C. Denmark
Phone: (45) 2077 4828. E-mail: alnur_islamic_info@yahoo.com



فحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وبالجُملة فالسلامة من الخطر، أمرٌ يعِز على البشر، فسترَ الله على مَن ستر وغفرَ لمن غفر:

فَانْظُرْ إِلَيْهَا نَظَرَ الْمُسْتَحْسِنِ	وَأَحْسِنْ الظَّنَّ بِهَا وحَسِّنِ
وَإِنْ تَجِدْ عَيْباً فَسُدَّ الخَلَلا	فَجَلَّ مَنْ لاَ فِيهِ عَيبٌ وَعَلا
وَالحَمْدُ للهِ عَلَى مَا أَوْلَى	فَنِعْمَ مَا أَوْلَى وَنِعْمَ المَوْلَى
ثُمَّ الصَّلاةُ بَعْدَ حَمْدِ الصَّمَدِ	عَلَى النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى مُحمَّدِ
وَءَالِهِ الأَفَاضِلِ الأخْيَارِ	مَا انْسَلَخَ اللَّيْلُ مِنَ النَّهَارِ[1]

[1] الأبيات من «مُلحة الإعراب» للقاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبي محمد الحريري البصري. (٤٤٦ـ٥١٦هـ / ١٠٥٤ـ١١٢٢م).

الإهْدَاء

إليهم:

أبي وأمي وزوجي

...

...

...

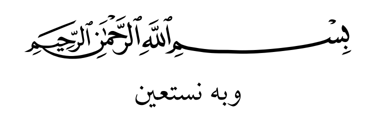
...

أُسِرُّ أسماءهم مخافة الرُقباء،

مع أنَّ أكثرهم أحياء عند ربِّهم يُرزقون،

وآخرين ينتظرون في الثغور أو القيود.





وبه نستعين

D

السير والمغازي في القرآن الكريم

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على محمدٍ الأمين، وعلى آله الطيِّبين، وعلى أصحابه أجمعين. وبعد:ـ

فإنَّ القرآن الكريم هو المصدر الأول لسيرة النَّبيِّ ﷺ وغزواته، فهو يُوثِق الغزوات الكُبرى ويُفصِّل الكثير من قضاياها الجغرافيَّة والتنظيميَّة وكذلك النفسيَّة، ويكشفُ بواطن الحركة الإنسانيَّة في الأطراف المُتعددة؛ المُشاركة والمُراقبة والمُتخاذِلة، ويُعَالج ويُصَوِّبُ ويُنمي ويمدحُ ويذمُ، وهو يحكمُ ويُشرع ويقضي على ما يحصل من تنازعٍ وخلافٍ بين أصحاب القضية الواحدة، ولذلك فأبعاد ما يقصه القرآن من سِيَّرٍ تتجاوز كلَّ روايةٍ أُخرى لهذه السِيَّر، فهو يقفُ على ما لم يقفْ عليه غيره، ويُنبه بالقَطع على ما يتوقفُ فيه غيره، وهو يهدي ويرشد حين تكون روايات غيره مجرد حكاية وقصة فقط، وهو يُعالج أسباب الحدث ويستطلعه من بِداياته كما يسير بعده إلى آثاره ونتائجه دون توقفٍ أمام وِلادته فحسب، كما أنَّ سِرَّ هذه القصة أنها تسير في سِياقات ما قبلها وما بعدها فتجعل القصة جُزءً من حياةٍ مُتعددة الجوانب، فتكون الغزوة جُزءً منها، فللمجاهد زوجة تُعالج قضاياهما (الزوج والزوجة) في سِياق حركة الحياة التي فيها غزوة وغزوات.

أمام هذه الخُصوصية الفريدة للسِيَّر والغزوات النَّبويَّة في القرآن الكريم نجد أنَّ الكتابة في السيرة قد استخدمت هذه الأصالة القرآنية فرعاً للرواية الأُخرى التي جاءت عن طريق الرُواة، وهم ثِقات ولا شكَّ، لكنها رواية فرعيَّة أمام القصة القرآنية، وقد يكون سبب ذلك أنَّ اهتمام الباحثين مُنْصَبٌ على الخبرِ أكثر من غيره، وهذا يدفعهم لجمع تفاصيل هذه الأخبار، والقرآن الكريم يهتم بالعُنصر الأهم للحدث وهو الإنسان؛ قُدرته ونفسيته ومِقدار ثِقته، وكيفية تلقيه للحدث، فأضواءُ القرآن تتجه إلى داخل الإنسان؛ المُقاتل وغيره، وروايات الإنسان عن غيره تُصور ظاهر الحدث وجَسمه، وحين يذهبُ إلى الإنسان وداخله يذهبُ إليه مُسْتَنْتِجاً لاَ رَاوِياً، والقرآن يذهب إليه قاصاً وكاشفاً، وشتان

ما بينهما، فالقرآن كتاب الله وكلامه وهو كذلك كتاب الإنسان لأنه مقصوده، فهو خطاب الله إليه، يكشفُ له ما خَفِي عنه من داخله ومن داخلِ غيره، فيقدم له الكلمة الجامعة لما تشتت في مجموع الإنسان من عقلٍ ونفسٍ وبدنٍ ومحيطٍ خارجيٍّ، فبهذا كان القصص القرآني للسِّير والغزوات النَّبويَّة فيه الإحاطة لهذا كلِّه، والمَقصد هو تحقق العِبرة التي بها يتم صناعة العبد ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾[1].

صِبْغَةُ الله روحٌ تسري في الإنسان، فرداً، وجماعةً، وفي التاريخ لا باعتبارها خبراً يُروَى للذاكرة ولكن باعتبارها مَصنعاً للأجيال، ومرآةً للإنسان ليرى نفسه في كلِّ أحواله مع أيِّ عُدْوَةٍ هو، وليبصر واقعه وواقع غيره، فالإنسان هو الإنسان ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ﴾[2]. والسُنن تجري لا تبديل لها ولا تغيِّير.

السيرة النَّبويَّة بصِبغتها الإلهية لها خصوصيَّة وواقع الأسلوب والمُحتوى كما لها شرف القصد والمُنتهى، وهذه الصِبغة هي الأصل في هذا الكتاب الذي أكتبه، فلا يُوثِّق كتابي هذا خبراً من أخبار السيرة النَّبويَّة، فلهذا المقصد يُوجَد كُتُبٌ كثيرةٌ وعديدةٌ، كما أنه لا يُفسِّر هذه الصِبغة من خِلال الرِوايات الحديثيَّة الأُخرى، فهذا ليس بالأمر الجديد الذي أَنْشُطُ له، لكني أسيرُ إلى الإنسان، إلى الأنا والآخر، من خِلال هذه الصِبغة، ليعرف كلّ طرفٍ شبيهه، ويحكم المرء على نفسه بنفسه، فالمرء يقول ولا يدري حُكْمَ ما يقول، فيكفر دون إرادة الكُفر، ويعصي دون إرادة المعصية، ويرد حُكْمَ الله دون أن يعرفَ أنَّ سبب هذا هو النِّفاق الذي تسللَ إليه دون أنْ يعرفَ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾[3]. كما أنَّ هناك مَنْ هو بحاجةٍ للتثبيت حين يرى قُدوته رسول الله ﷺ وأصحابه، فهو يفعل فِعلهم ويَلقى في حياته ما لاقوه، وسَمِعَ من النَّاس ـ قريبين وبعيدين ـ ما سمعوه، فيحيى مَن حيَّ عن بيِّنةٍ، وتحصل الشهادة التي أخذها الله على أتباع الأنبياء.

العودة إلى الصِبْغَةِ الإلهيَّة في قَصِّها للسِّير النَّبويَّة ضرورةٌ في عصرنا، لأنَّ السيرة النَّبويَّة في الكِتابات المُعاصرة صارت تابعةً للأهواء، ومُتكأً للآراء المُتضاربة، كلُّ طرفٍ يَرْجُمُ خَصْمَهُ بروايةٍ تَشْتَهِيهَا نَفْسُهُ، وينتقيها دون غيرها، دون إعمالِ القواعد العلميَّة سواء كانت هذه القواعد تختص بالرواية أو الدِراية، مع أنهم في اجتهاداتهم هذه قد يقولون ما قال خُصوم الحقِّ كما ورد في صِبْغَةِ الله، وهذه الصِبْغَة لها خصوصيَّة الكَشْفِ الصريح فلا عجبَ أنْ تُسمى سورة تتعلَّقُ بهذا الباب باسم «الكاشفة»[4]، كثُر فيها قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم﴾ تحكي قَوْلَهُمْ وفِعْلَهُمْ، وتكشف خبايا نفوسهم، فما

[1] سورة طه، الآية: ٣٩.
[2] سورة الروم، الآية: ٣٠.
[3] سورة البقرة، الآية: ١٣.
[4] يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ ولها تسعة أسماء. أحدها: سورة التوبة. والثاني: براءة؛ وهذان مشهوران بين النَّاس. والثالث: سورة العذاب، قاله حُذيفة. والرابع: المقشقشة، قاله ابن عمر. والخامس: سورة البحوث، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين، قاله المِقْدَاد بن الأسود. والسادس: الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين، قاله ابن عباس. والسابع: المبعثرة، لأنها بعثرت أخبار النَّاس، وكشفت عن

أبعد من كان هذه صِفته أن يتكئ عليه المُتخاصمون المُتشاكِسون، إذ كَثُر اليوم ما يُقال له بفقه السيرة النَّبويَّة، أو ما يُسميه أصحابه بالوقفات التربويَّة في السيرة النَّبويَّة، وما أشبهها، وهو نوعٌ شرعيٌّ صحيحٌ من التأليف في هذا الباب، ولكنَّ الخطأ فيه تلك الإسقاطات الفِكرية والذاتية على السيرة، فتصبح تابعة لا هادية، ومستأجرة لا أصيلة، بل ذهب البعض إلى صِياغة السيرة في أسلوبها ومُصطلحاتها من خِلال مُصطلحات جماعته وحزبه وأفكاره، فالصَّحابة ﷺ في صِياغته هم الكُتلة السياسية، أو الكُتلة الصلبة، وهذا خطأٌ في الرِواية، ولكن لا بأس به في التفسير والشرح والفَرق بينهما واضحٌ، هذه الأمور وأمثالها تُفقد السيرة مُهمتها في جمع المُختلفين وتبصيرهم، والسيرة ـ ولا شك ـ هي شرع يحصل به الهداية لا التنازع.

اختيارُ السِيَّر والغزوات النَّبويَّة لكشف الإنسان ـ الأنا والآخر ـ ليس لِمُتعة التأليف، ولكنه اختيارٌ له مقصده، فالجهاد ذروة سنام الإسلام، فهو القمة التي تكشف أدقَّ الخفايا وبواطنها في هذا الإنسان، هي لحظة الاختيار، ونقطة الابتلاء العُليا، فالصلاة وإن كانت أعظم في الشرع من الجهاد، لكن محنَّة اعتلاء القمة ثم الثبات عليها ليست كغيرها في عالم الوجود، ولذلك ليس هناك في القرآن الكريم أكثر عرضاً من قضية «المسلمين» مع الجهاد، وتفاعل المجتمع المسلم معه، بكلِّ طوائفه، فالقصة القرآنية للسِيَّر والمغازي حديث عن الداخل، وهو ما نحتاجه في عصرنا هذا، ثم إنَّ اختيار هذا الباب لأنَّ الجهاد وغزواته وأهله المُعاصرين اليوم يتعرضون لأشدِّ الهجمات، ويُقذفون بأشدِّ التُّهم، ويُقال فيهم من داخل المسلمين أشدَّ مما يُقال فيهم من غيرهم، فهل هناك أعظم من دِفاع الله عنهم؟ وهل هناك أهدى من كتاب الله في كشف كلِّ المواقع والنفوس؟ ثمَّ إنَّ هذا هو التطبيق العِلمي لقضيةٍ آمنتُ بها وهي: القرآن أولاً، وهي إحدى مسائل العِلم التي رددتُ فيها على ابن حزم رحمه الله ومن تبعه حين جعلوا السنَّة في مرتبة القرآن، واستخدموا هذه الحُجة في ردِّ حديث معاذ بن جبل ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن، **قال كيف تصنعُ إنْ عُرض لك قضاءٌ؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: فإنْ لم يكن في كتاب الله؟ قال: فبِسُنَّةِ رسول الله...**[1]. والردُّ على

سرائرهم، قاله الحارث بن يزيد، وابن إسحاق. والثامن: المثيرة، لأنها أثارت مخازي المنافقين ومثالبهم، قاله قتادة. والتاسع: الحافرة، لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قاله الزجاج. «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي. ٣٨٩/٣.

[1] جزء من حديث أخرجه أحمد في «المسند» حديث رقم: ٢١٩٠٦و ٢١٩٩٩ بتحقيق أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ وقال: **حديث حسن**، وأقول ـ أي أحمد شاكر ـ هذا رغم أنَّ كثيراً من العلماء ضعفوه، وقال البخاري: غير صحيح، وقال الترمذي: ليس بمتصل، وإنما ضعفوه لجهالة عمرو بن الحارث بن أخي المُغيرة بن شُعبة. ولم يُسلِّم المحققون بأنه مجهول لأنه ليس مجهول العين. فقد حددوا أنه ابن أخي المُغيرة بن شُعبة. ولم يجرحه أحدٌ جرحاً مفسراً. لأنَّ كبار التابعين يكفي أن يعرف شخصهم وألاَّ يكون أحدهم متهماً على دينه وعدالته. وأكثر المحدّثين الذين ضعفوا هذا الحديث يأخذون بمثله ويعملون بمقتضاه كما قال الترمذي في حديث: «**لا يرث القاتل**». وأما جهالة الرواة عن معاذ فغير مسلَّمٍ أنهم مجهولون، وإنما الراوي لما وجد أصحاب معاذ كلّهم يحدّثون هذا الحديث لم يستطع أن يُسمي واحداً منهم لاستفاضة الخبر بينهم فليس هذا مُنقطعاً. والغريب أنَّ البخاري وغيره ممن جعل هذا الحديث منقطعاً يذهبون إلى أنَّ الراوي إذا حدّث عن جماعة قُبل ذلك منه وإن لم يُسمِّهم. وإنما استعملوا قواعدهم هنا بالذات لأنَّ الحديث عُمدة الأُصوليين والفقهاء في إثبات القياس، وأكثر المحدّثين لا يحبون القياس ولا الرأي. وفوق كلِّ ما تقدم فقد نقل الخطيب أنه رُوي من وجهٍ متصلاً عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ. فيقول دليل الأُصوليين ونُزول العِلَّة. انظر «الفقيه والمُتفقه» ص١٥٤ وما بعدها (طبعة الرياض). وقال ابن القيم في «أعلام المُوقعين» ٢٤٣/١: «فهذا حديثٌ وإن

هؤلاء في هذه المسألة الأصولية والتربوية لا في صحة حديث معاذ بن جبل ﷺ رِوايةً وسنداً[1]، وهو بحثٌ ضِمن بحوث كتبتها قديماً وأسميتها «**الحِوار مع الكِبار**» ضاعت فيما ضاع من ورقات أتلفها خصوم هذا الدِّين ودعوته.

فالقرآن الكريم هو الأول مصدراً للفقه، وهو الأول مُربيّاً للمسلم الصَّحابي الذي ننشده ونسعى لتحصيله في هذا الزمان وكلِّ زمانٍ، وفيه الهداية لأنه يقضي بين المُتخاذلين والمُختلفين وهو ما نحتاجه اليوم مع كثرة الخِلاف والدعاوى والاتهامات المُتبادلة بين الفُرقاء في الصف المسلم نفسه.

فهذه الورقات مُقاربة ينشد منها صاحبها أن يهتدي بالقرآن ويهدي به، ويتعلم منه ويسترشد به، فالكتابة طريقة راقية للتعلم قبل التعليم، وللاسترشاد قبل الإرشاد، وهي كذلك محاولة للإبانة عن نفسي عما رأيتُ في كتاب الله من أجوبة عما يدور اليوم حول واقع المسلمين وموقفهم من ذروة سنام الإسلام، إذ هو أكثر ما اختلف النَّاس حوله اليوم، وهو أكثر ما قذف اليوم من المُعممين والمُفكرين وأصحاب الأقلام، وأغلب ما قالوه هو صدٌّ عن سبيل الله، وفيه المُشابهة الجليَّة لكلامٍ قِيل من قبلِ زمن النُّبوة صَدَرَ عن المُنافقين ـ والعياذ بالله ـ، والحال هو الحال، قاله الأوائل وهم لا يشعرون، وقاله المتأخرون وهم لا يشعرون، فلعلَّ هذه الورقات تهدي مَنْ أخْلَصَ في طلب الهداية، وأراد النُصح لنفسه وأُمَّته.

لقد آمنتُ ـ بهديِ القرآن ـ أنَّ الجهاد حالة علميَّة ونفسيَّة، كل منهما يمد الآخر ضُعفاً وقوةً، وأنَّ الاختلاف اليوم أكثره مبنيٌّ على الانهيار النفسي الذي يعيشه المُفتون وأصحاب الأقلام ومُدَّعُو الفكر والنظر، وسبب هذا بُعدهم الكبير عن كتاب الله تعالى، مع أنَّ الدعوة والشِعار في كلِّ الطوائف هو إحياءُ الكتاب والسنَّة، لكنها شعارات لم ترقَ إلى فَهْمِ الكتاب إلاَّ مِنْ خلال الاستخدام لنصوصه لخدمة النفس والذات لا غير، والإكثار من نقل النصوص لعلماء سابقين اهتموا بإبراز المعنى في تفسيرهم لكتاب الله تعالى، ولكن لم يُكتب التفسير في زمانهم من أجل حلِّ قضايا الإنسان

كان عن غير مُسَمَّيْنَ فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك؛ لأنه يدل على شهرة الحديث... وشهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى». **وبناءً على ما تقدم كله فأرى أنَّ الحديث حسن إن شاء الله تعالى وإلاَّ لما اعتمد عليه أئمة المسلمين**. علماً بأنَّ المحدّثين أنفسهم يقولون: معناه صحيح. هذا الحديث رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٢٣٩/٧ رقم ٣٠٣٠ و ١٧٧١ رقم ٩١٤٩، والطيالسي ٢٨٦/١ رقم ١٤٥٢ «منحة». وعبد بن حميد ٧٢ رقم ١٢٤ «المنتخب». وأبو داود ٣٠٢/٣ رقم ٣٥٩٢، والترمذي ٦٠٧/٣ رقم ١٣٢٧ و ١٣٢٨ وقال: ليس عندي بمتصل. والدارمي ٦٠/١، وابن سعد ١٢١/٢/٢، والبيهقي في «السنن» ١١٤/١٠، والبغوي في «شرح السنة» ١١٦/١٠، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» ٦١٩/١٦ (مخطوط).

[1] فائدة ذكرها محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ في «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» ٦٠٢/٤ بعد أن أورد حديث معاذ بن جبل ﷺ فقال: «فهذا حديث وإن كان عن غير مُسَمَّيْنَ فهم أصحاب معاذ فلا يضره ذلك؛ لأنه يدل على شُهرة الحديث. وأن الذي حدّث له الحرث بن عمرو عن جماعة من أصحاب معاذ لا واحد منهم، وهذا أبلغ في الشُهرة من أن يكون عن واحدٍ منهم ولو سُمي، كيف وشُهرة أصحاب معاذ بالعلم والدين والفضل والصدق بالمحل الذي لا يخفى، ولا يُعرف في أصحابه متهمٌ ولا كذابٌ، ولا مجروحٌ؛ بل أصحابه من أفاضل المسلمين وخِيارهم، لا يشك أهل العلم بالنقل في ذلك، كيف وشُعبة حامل لواء هذا الحديث؟؟ وقال بعض أئمة الحديث: إذا رأيتَ شُعبة في إسناد حديث فاشددْ يديك به. قال أبو بكر الخطيب: وقد قيل إنَّ عُبادة بن نسى رواه عن عبد الرحمن بن غنم، عن معاذ، وهذا إسنادٌ متصلٌ، ورجاله معروفون بالثقة على أنَّ أهل العلم قد نقلوه، واحتجوا به؛ فوقفنا بذلك على صحته عندهم» انتهى.

ومشاكله، لأنهم يعلمون وهمُ الفقهاء أنَّ هذا عمل الإنسان نفسه مع القرآن، فهل عَمِلَ كل قارئٍ وكل ناظرٍ في كتاب الله سبحانه وتعالى، إذ يقوم القرآن نفسه في صوغ النُّفوس وتربيتها وهِدايتها، واليوم وقد نشأت عوائق كثيرة عن إعمال هذا الفِعل الذاتي للقارئ كان لا بدَّ من عملٍ يُساعد المسلم في تحقيق هذه النتيجة، فتكون هذه الأعمال العِلمية كاشفةً لمواطن الحلول لمشكلاته وقضاياه، لا الفقهية فقط، لكن النفسيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة، وهذه مهمة عظيمة ولها ضوابط شديدة، وتحتاج إلى قُدرات، قُدرات بها تستطيع الاستنباط من العُمق، وقُدرات تستطيع إيصال كُبرى القضايا وأشقها لأوسع نِطَاقٍ من المسلمين علماء وعامة، ولمشقة هذه المهمة فإنَّ هذا الأمر لم يعد له وجود في مساجد المسلمين ومجالس علومهم، إذ قد تسمع الكثير عن حلقات العلم التي تدور حول الفقه وأبوابه العلميَّة المعروفة، أو تجد نِزاعاً لعلم الحديث وتخريجه، ومثلها قراءة كُتب الأقدمين لحلِّ مشكلاتها ومُصطلحاتها وألفاظها، لكن قلَّما تسمع ـ بل ربَّما لا تعلم أبداً ـ عن حلقات ومجالس من هذا النوع، أي التي تُفسر كتاب الله تفسيراً يُجيبُ عن أسئلة العصر وقضاياه ومشاكله، هذه الحلقات العلميَّة ومثلها الكُتب هي الخُطوة الأولى «لو كان النَّاس يعلمون» هي التي تحقق شعار العودة للكتاب، لأنَّ القرآن يُعالج الإنسان وأمراضه وأسئلته،فالفقه فيه ليس هو الفقه بمعناه الاصطلاحي الموجود في كُتب الفقه بحركة الصلاة وظاهرها،فتجد أنَّ هذا مُرادها، فهي لا تغوص ولا تتعرض لباطن المُصلي ولا نفسيته، ولكنَّ القرآن يُعْلِي هذا الشأن ويُعلِّق عليه الأثر دون غيره فيقول: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢** ﴾[1]، ويقول: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥** ﴾[2]. فهذه هي التربية القرآنية، تربية تعود إلى الإنسان ونفسيته، فهي تُربي الإرادة قبل كلِّ شيءٍ، وهذا ما غفل عنه الكثير من دُعاة الإصلاح اليوم، وانعكس هذا الضعف على فهمهم وعلومهم وفتاويهم ومواقفهم، وكأن أعظم موطنٍ برز فيه هذا الضُعف عندهم هو موقفهم من الجهاد في سبيل الله تعالى، لأنه أعظم بابٍ من أبواب الحياة تُمتحن فيه الإرادة، وتسبر فيه الأغوار النفسية العميقة، وتنكشفُ فيه حقيقة الإيمان بالله تعالى وحُبِّ الدار الآخرة، فيظهر المُدَّعي من غيره، وخاصةً حين يكون الجهاد في عَراء الوحدة بلا ناصرٍ ولا مُؤيدٍ، بل يكون مُطارداً يُعادَى مِنَ الصديقِ والعدوِّ.

مع القرآن الكريم في عرضه للإنسان في حديثه عن غزوات النَّبيِّ ﷺ وأصحابه سنكتشفُ أنَّ هناك الحلَّ لكلِّ قضايانا، وسنعرفُ معالم الإنسان الذي نبحث عنه منذ زمنٍ ليتحقق به التغيِّير الذي نسعى إليه ونتمناه، لأنَّ هذا الإنسان هو المسلم الصَّحابي الذي حققه التحول التاريخي الأول، وكلما اقتدى به التابعون كان التغيِّير والإصلاح والهداية.

[1] سورة المؤمنون، الآيتان: ١ـ٢.

[2] سورة الماعون، الآيتان: ٤ـ٥.

هذا بعض ما أبحث عنه وأسعى له، والله المُوفق، فإنْ أصبتُ فمن الله تعالى، إذ كل حمدٍ له، وإنْ أخطأتُ فمِن جهلي وضعفي وذنبي، والشر ليس إلى الله تعالى.

والحمد لله ربِّ العالمين.



اعتذار

أعتقدُ أنَّ هذا الكتاب سيُطبع بعيداً عني، وقد يُطبع مُفرَّقاً[١]، لأنَّ حال صاحبه أنه سجين، فهو قد كتبَ أكثر ما كتبَ ولا يُوجد بين يديه سِوى كتاب الله تعالى، ولذلك سيجد أهل العلم فيه من الزلات والأخطاء والنقائص، وهذا طبعُ البشر، وقد أبى الله أن يتم إلاَّ كتابه كما قال الشافعي ﷺ.

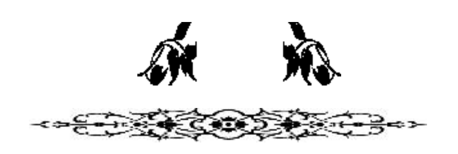
وسيجدون فيه أغلاطاً مطبعية إذْ مِنْ طَبْعِ هذا السجين أن لا يرجع إليه ما يُكتب ويُطبع ليُصححه ويُراجعه، ثمَّ إنَّ خط هذا الكاتب ليس بالجيد كما قال أبوه وإخوانه وأصدقاؤه[٢].

أما إنه سيُطبع مُفرَّقاً فإنَّ هذا السجين يُرسل ما يكتب مُفرَّقاً حين يقدر على الإرسال، وقد يحصل أن تأتي فرصة للإرسال دون أن يُراجع ما كتب.

إني أطلبُ صادقاً من أهل العلم أن يقرأوا كتابي هذا ويقولوا ما رأوا فيه بأمانةٍ وصِدقٍ، وعلى وجه النصيحة وسيجدون من هذا السجين آذاناً سامعةً[٣]، وقد تعوَد في سجنه على هذا.

إنَّ الكاتب يعتبر السجن سبباً للاعتذار لا غير، فلا حُجة لأي خطأٍ مهما كان سببه ومكانه وقائله، إذِ المُنكر مُنكرٌ، ولكن الاستغفار يُسقط اللَّوم والتأنيب والعِتاب.

والله يغفرُ لنا ويرحمنا، كما أرجو أن لا يكوِّنَ أحدٌ فيه رأي حتى يتمه كلّه ويأتي على آخره إذ قد يرفض أولاً ويرضى آخراً.



[1] وإخوانكم في «النور للإعلام الإسلامي» يتشرفون بطبع الكتاب كاملاً مع بدل جُهدهم في إخراجه للقارئ بحلية جميلة... فالحمد والشكر لله أولاً، ونُنوه أن الهوامش كلّها من عملنا، وإن كان بها خطأ أو تقصير فهو راجعٌ إلينا، ونحن المسؤولون عنه، ونُبرئ الشيخ منه لأن ما قمنا به لم يُعرض على الشيخ لمراجعته... غفر الله لنا تقصيرنا وتفريطنا، ورحم الله من أعاننا من أجل إصلاحه واستدراكه في طبعة جديدة بإذنه تعالى، فهو الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

[2] هذا من جمِّ تواضع الشيخ حفظه الله تعالى، وعجل بفك أسره، فإنَّ خطه من أجمل وأحسن ما رأت عيناي.

[3] ونحن في «النور للإعلام الإسلامي» على أتم الاستعداد لاستقبال رسائلكم على عنواننا البريدي أو البريد الإلكتروني التالي: alnur_islamic_info@yahoo.com ومن ثم نقوم بإيصالها إلى الشيخ حفظه الله تعالى.

إضاءة

قال لي أحدهم أذكرُ منهجك في هذا الكتاب.

قلتُ: قال أهل العلم: الألفاظ إما تدل بمنطوقها، أو بفحواها ومفهومها، أو باقتضائها وضرورتها، أو بمعقولها المُستنبط منها.

فالأول: دلالة المنطوق.

والثاني: دلالة المفهوم.

والثالث: دلالة الاقتضاء.

والرابع: دلالة الإشارة.



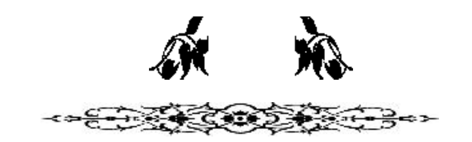
غزوة بدر الكبرى

هذه الغزوة هي أول لقاءٍ حقيقيٍّ بين رسول الله ﷺ وأصحابه وبين قريش، حصلت بإرادةٍ إلهيةٍ لم يُردها أغلب الأصحاب رضوان الله عليهم، وهذه طبيعة اللقاء الأول بين قوةٍ مُستقرةٍ، لها سطوتها، وتاريخها، وتحمل اسماً مُرعِباً في المحيط الذي تعيش فيه القبائل، وبين قوةٍ ناشئةٍ لم تختبر نفسها من قبلُ تحت هذا التجمع الجديد في تكوينه ومفاهيمه.

هذه الغزوة ذُكرت تفصيلاً في سورة «الأنفال».

وذُكرت تنبيهاً وتذكيراً في سورة «آل عمران».

ووقفت سورة «الحج» مع موقفٍ إيمانيٍّ بالإشادة به والمدح له.



غزوة بدر في سورة «الأنفال»

الخط الجامع في الحديث القرآني للسِيَر النبَّويَّة يعود إلى بيان أمرين اثنين :ـ

الأول: المِنن الإلهية والمِنح الربَّانيَّة على عباده المؤمنين، وما يحصل لهم من نصرٍ وفضلٍ وغنائم وتثبيت إنما هو بفضله وحده، نَعم هم يستحقون لملائمته لأوعيتهم الإيمانية من قلوب طاهرةٍ مؤمنةٍ نقيةٍ، ومن إرادات تُقبل على إرضاء الله وابتغاءِ جنته، ومن أفعالٍ تُوافق هذا النَّصر الذي تحقق بعدها، لكن كلّ هذه الأفعال لا تصلح بدون توفيق الله، وما كانَ للنَّصر أن يقع إلاَّ بتدبيرٍ منه سبحانه وتعالى، فالواجب إسناد كلِّ هذه النِعم من المُقدمات له وحده، كما يجب إسناد هذه النتائج من النَّصر والغنائم والعطايا له وحده كذلك، وهذا هو الذي يحقق جوهر العبودية الحقة، وهي المُراد من ذلك كلّه، فلا بطرَ ولا فخرَ ولا بغيَ ولا غرورَ عند النَّصر الذي يحصل لهم، بل يجب الحمد والشكر اللذان يستلزمان دوام الثَّبات على الطاعات، والخوف من عدم اجتناب المعاصي وما يُغضب الله تعالى، فالعناية الإلهية هي مادة النَّصر وحده في المُقدمات وفي النهايات، ولا دوام لها إلاَّ بدوام الخوف من الوقوع في موانعها من المعاصي والغفلة.

الآخر: كشفُ الواقع الإيماني للجماعة المُؤمنة، وما هي عليه، فهي تكشف النفوس قبل وقوع الحدث، وحين الحدث، وما بعده، على ضوء هذا الكشف؛ وفي عامته تصحيحٌ وتقويمٌ يتم الإرشاد الإلهي ويقع معه الأحكام الشرعية المُوافقة له، والمؤمنون حين يسمعون هذا يحصل لهمُ الذكرى التي يحتاجونها، فلا تطغى أحداث الغزوة على خبايا النفوس وإراداتِ القلوب، فالفعل مع أهميته إلاَّ أنَّ هناك ما هو أكثر أهمية منه وهو المَرجل والمَوقد الذي صنع هذا الحدث، والمقصود الإرادات والمشاعر القلبية وأحاديث النفوس ومكنُوناتها، وهذا الحديث القرآني عن نفس المُخاطب بالحديث ـ وهو المسلم ـ مهمٌ جداً في تحقيق التربية القرآنية، لأنه يُشعرِكَ بقُربِ وحُنوِ وعطفِ هذا الصانع العظيم ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾[1]. وهو يُشعرِكَ ويُعلِمُكَ أهمية هذه الإرادات والمشاعر والأحاديث، فتُقبل عليها إحساناً وتربيةً وتقويماً.

في سورة «الأنفال» سِرٌّ عظيمٌ في أن تبدأ السورة حديثها عن هذه الغزوة المُباركة بما حدث للصَّحابة ﷺ من خلافٍ حول ما نفلهم الله تعالى به من مالٍ لقريش.

[1] سورة طه، الآية: ٣٩.

هذه البداية في الحديث هي النهاية في الحدث، ولما كان السرد القرآني له أهمية في توافقه مع جوهر العقدة التي تركب عليها القصة، كان لا بدَّ من أن يكون سرد قصة غزوة بدر مسبوقاً بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[1].

هذا نصرٌ خارج إطار ميزان القِوى، وعلى خلاف المُعتاد في حياة البشر بدون عُنصر الإيمان في إحدى الطائفتين.

وهذا نصرٌ «أول» له بهجته وأُلفه وروعته.

وحين يكون كذلك فلابدَّ أن تميل النفوس إلى «النِسيان» فلا تسأل نفسها: كيف كُنا؟ ولكنها تستغرق في الفرح: كيف صِرنا؟!.

فالحديث عنِ النهاية في الابتداء ثمَّ شرح البدايات بعده ليكون التقويم والإرشاد والتسديد، وحين يأتي الحُكم الذي يسألون عنه يكون الإقرار والرضا به أقوى وأدعى.

الصَّحابة ﷺ يسألون عن الأنفال لأنهم «هم» الذين نفلوه، وعلى أيديهم تحقق النَّصر، وبأيديهم تساقطت رِقاب الأعداء، ويأتي «آخرون» يقولون: نحن كُنا الرِدْءَ لكم فلنا حق فيه.

نعم هو حديث ألسنة، لكنه قبل الألسنة صنيع قلوب ونفوس.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾.

ويأتي الجواب الربَّاني: الأنفال لله وللرسول.

جوابٌ يُغيِّب تماماً الجنود، ويُبْعِدْهُمْ عنِ المشهدِ كُلِياً، وينزع منهم هذا الحق الذي تخاصموا وتحامَواْ عليه، فهو ليس لكم ولستم صانعيه وليس عليكم إلاَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾[2].

كلماتٌ جامعةٌ ذات تأثيرٍ إيمانيٍّ رادعٍ لهذه الخُصومة الحاصلة بينهم، فأنتم تتنازعون فيما ليس لكم، فتلقاه النفوس المؤمنة بالخضوع والخشوع والإخبات والرضا.

ويذهب بهم الإرشاد الإلهي إلى أبعد مِن فضِّ الخصومة حين يحمل المُتنازع عليه من بينهم ويسلبهم التحامه والخصومة حوله لأنه ليس لهم إلى أُفق الإيمان الأعظم، وإلى مراتبه العُليا التي يُريدها من هؤلاء الجُند ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾[3].

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ١.

[2] سورة الأنفال، الآية: ١.

[3] سورة الأنفال، الآيات: ٢-٤.

ولولا أنَّ هذه الورقات فقط للحديث عن مهمة القرآن الكريم في سرد السِير النبَّويَّة لوقفتُ كثيراً عند دلائل أُخرى تحملها هذه الآيات، ولكن لا يفوت القارئ أن يُبصر فيها عظيمَ فضل الصَّحابة ورِفعة درجاتهم وتحققهم بهذه الصفات الإيمانية، وإنَّ مِن أعظم الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٤﴾ ﴾. فتأملْ قولَ الله تعالى في قَرْنِ هذه المراتب الثلاثة بعضها ببعضٍ، والتي سبقتها الدرجة الأعظم ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا** ﴾. وهذا الاقتران بين الدرجات والمغفرة والرزق الكريم يجعل الترقب حاصلاً في النُّفوس، فهذا رزقٌ كريمٌ نفلناه فهل سيكون لنا منه شيء أم لا؟.

إنْ كانت لنا الأوائل فسيكون لنا الرزق الكريم، وقد كانت لهم، ولذلك بعد أنْ مضى نصف السورة وهو يحكي الحدث ويُفَصِّلُ جوانبه النفسيَّة والظاهرة، ويكشف الرُؤى الواقعية يأتي الجواب: نعم لكم من هذا الرزق الكريم وتستحقونه لأنكم من المؤمنين حقاً الذين لهم درجات عند ربِّهم ومغفرة.

حين ذلك هل تكون الفرصة والبهجة بحصول الرزق الكريم أم بما هو أعظم منها. ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴿٢﴾ **ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ** ﴿٣﴾ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ** ﴿٤﴾ ﴾.

هذه مهمةٌ قرآنيةٌ جليلةٌ تتخلل النفوس الرفيعة العالية، وتنساب في الأرواح التي تتعاطى مع المعاني التي لا تلتقط إلاَّ بالنبط والتفكر والاستخراج.

وحريٌّ بنا أنْ نقفَ مع مدح هؤلاء الأصحاب الذين هم خير البشر بعد الأنبياء، وهم أفضل أصحاب النَّبيِّ ﷺ «أهل بدر» حين يأتي الأمر لهم بقوله: ﴿ **يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١﴾ ﴾. فيرون أنَّ نفوسهم قد ثابت حين حصل لهمُ الذِكرى، ورفع التنازع من قلوبهم لحظة رفعه الأنفال من بين أيديهم، ويصغون إلى كلام الله وأمرِ رسوله ﷺ فيحسون صِدقاً ما هم عليه من هذه الإثابة فيحصل لهم الرضا بنعمة الله عليهم ويُشكرونه.

بهذا يحصل لهم شهادتان: **شهادة السماء العالمة بخبايا نفوسهم، وشهادة أنفسهم على أنفسهم**، وهما ضروريتان، إذ في أحدهما دون الأُخرى ضعف يحصل به العجز في الإعداد لهؤلاء الجُند لمهمات الحياة، فمَن بعدهم من جُند المؤمنين يتوافق لديهم أنَّ النَّصر لا يكون إلاَّ مع الإيمان، وهذا حُكْمٌ مُضْطَرِدٌ في كتاب الله العزيز.

هذا السلب: «**ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ**» أي أنه ليس لكم، تقف السورة «أغلب السورة» معه لتقدم مُبرراته، وليقف المُؤمن مع صناعة الله لجُنده، ومع تدبيره لخطواته، ومع إعداده لمُهماته.

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾[1].

كما كانت البداية: فِعْلُ الربِّ الحكيم، وههنا ليس ثمَّ التفاتٍ فالخطاب من أول السورة مُتوجِهٌ إلى شخص النَّبِيِّ الكريم ﷺ «**يَسۡـَٔلُونَكَ**» فبعد أنْ فصَّل صفات المؤمنين العُليا عاد الخطاب إلى سيرته الأُولى مُتوجهاً إلى رسول الله ﷺ: ﴿ **كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ** ﴾، ولكن هل ثمَّ إعراضٍ مِن الله تعالى عن المؤمنين في الخطاب وهو الذي يقول عنهم: ﴿ **كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥** ﴾. فهمُ المؤمنون مع مجادلتهم لك في كراهيتهم للقتال؟! فما هو سرُّ هذا الخطاب للنَّبيِّ ﷺ مع أنَّ ما يأتي من الآيات فيها التفاتٌ في الخطاب حيث تُوَجه إلى المؤمنين: ﴿ **وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ** ﴾[2].

يمكن أن يُقال الكثير لكن أظن أنَّ هذا ترفقٌ بالصَّحابة ﷺ، إذ لو تَوجه الخطاب لهم لَكان فيه لَوْمٌ مُباشرٌ شديدٌ، فلو قال قائل: تسألون عن الأنفال وهي لله ولرسوله. أو قال: وإنَّ فريقاً منكم لَكارهون، لَكان اللوم شديداً، مع أنَّ الحال في عُمقه هو موقفُ مدحٍ وثناءٍ عليهم، لا تقريع ولا لوم لمعصية أصابوها، بل هو الإرشاد والأخذ باليد إلى مقاماتٍ عُليا من مراتب الصِّديقين والأولياء والصالحين، وفي المقام كذلك ذِكرٌ للمِنن الإلهيَّة والعطايا الجزيلة التي أسبغها الله عليهم، ومع أنَّ الصَّحابة في رزايتهم قالوا: «**ساءت أخلاقنا يوم بدر فحُرمنا**»[3] حين ذكروا أمرَ التنازع في الأنفال، وهذا من غمطهم لأنفسهم رضوان الله عليهم، إلاَّ أنَّ الله تعالى قالها على وجهٍ آخرٍ - **يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِ** - وهي في واقعها مدحٌ لهم حين وقفوا أمامه يسندون له الحق في حُكمها، ولم يقلْ: «يسألونك الأنفال» بل هم يسألون عنها.

إنه مقام المدح والثناء وتِعداد المِنن والمِنح والعطايا، وهذا المقام لا يصلح فيه اللوم والتقريع. ﴿ **كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ** ﴾، والبيت ههنا والله أعلم هو المدينة النبَّويَّة[4]، إذ لم يكن للنَّبيِّ بيتٌ يُنسب إليه، إنما هي بيوت أزواجه رضوان الله عليهنَّ، نُسبت لهنَّ كما قال تعالى: ﴿ **وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** ﴾[5]، وكما في

[1] سورة الأنفال، الآيتان: ٥-٦.
[2] سورة الأنفال، الآية: ٧.
[3] قال عُبادة بن الصامت ﷺ: «فينا - أصحاب بدر - نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ..». «المبسوط» لشمس الدين السرخسي. ١٠ / ٢، و«شرح السير الكبير» لمحمد بن الحسن الشيباني. ١٢١/٢.
[4] ذكره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» ١٨٢/٦.
[5] سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

الأحاديث النَّبويَّة الشريفة، كذلك لم تُؤخذ منهنَّ حين توفي ﷺ إعمالاً لقوله ﷺ: «**لاَ نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ**»[1].

هكذا هو الحال: ﴿**كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ**﴾، خرج من أجل العِير كما كان قصدهم كما سيأتي من قوله تعالى: وهو خروج «**بِٱلۡحَقِّ**»، وكلمة الحق تكررت ههنا في هذا الموقف أكثر من غيرها في أي سورةٍ أُخرى من كتاب الله، وفي كلِّ موطنٍ لها معنىً خاصٌّ بها.

فقد أخرجه ربُّه بالحقِّ، وما خروجهم إلاَّ من أجل العِير، فلا عيبَ ولا ذمَ في ذلك، وحريٌّ بمن كتب في السيرة أن يقفَ عند هذا المعنى، وهو أنَّ أول معركةٍ كُبرى تمت في الإسلام كان مقصد الخارجين فيها ـ قيادةً وجُنداً ـ هو المال والغنيمة من أعدائهم، ذلك لأنَّ المال قِوام الخَلق كما قال تعالى: ﴿**وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا**﴾[2]. ففيها قِوامهم، فإنْ فاتتهم فقد حصلَ لهمُ العجز والضعف وذهاب القوام، فهذه معركةُ قائدٍ مهديٍ هو رسول الله ﷺ يضربُ قِوام مادة العدوِّ، ويُوجه سِهامه إلى ما يُؤلمهم ويُؤذيهم ويُذهبُ شوكتهم، وفي ذلك كذلك ردٌّ على أُولئك الذين يستدلون بالأخبار في ردِّ الأحكام، ذلك أنَّ الله قال عن قريش في معرض مِنته عليهم في بلده الحرام ﴿**ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ**﴾[3]. فَلِقَائِلٍ جَاهِلٍ أن يقول: الله أطعمهم من جوعٍ وهذا القائد يريدُ أن يجيعهم، والله آمنهم وهو يريدُ أن يُروعهم، ومثل هذه الآيات من الأخبار قوله تعالى: ﴿**يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ**﴾[4]. وغيرها مما منَّ الله تعالى به على أهل مكة يُذكرهم بها ليذكروا حقَّ الله عليهم بتوحيده وعبادته، لكنَّ العالِم الثبت لا يضربُ أحكام الشرع بالأخبار، ولا يرد أحكامه الشرعية بأحكامه القدَرية، إذ ليس هذا هو صنيع العلماء الثقات.

أخرجه ربُّه بالحقِّ ـ أي العِناية والتدبير ـ، فليس في خروجه للعِير ولمال قريش ما يُعاب، فهذا النبيّ على الحقِّ، وهو على هُدىً من ربِّه حتى لو كان بعض جُنده كارهاً لهذا الخروج، ولستُ ممن يقول في قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥**﴾. أنَّ هذا لوصفهم بعد فوات العِير والغنيمة ومُواجهتهم للمعركة والحرب، بل السِياق يدل أنَّ هذه الكراهية كانت حال الخروج من البيت «المدينة النَّبويَّة»، ومما يدل عليه أنَّ كثيراً من الصَّحابة لم ينشطْ لهذه الغزوة لما كانتِ النُفرة للعِير ولم يعلموا أنَّ هناك موقعةٌ وقِتالٌ كما هو في خبر أنس بن النضر قال الله تعالى فيه: ﴿**مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝٢٣**﴾[5]. ومما يُلفتُ في هذه

---

[1] البخاري في «كتاب الفرائض» باب قول النبي ﷺ: «**لا نُورثُ، ما تركنا صدقةٌ**» حديث رقم: ٦٧٢٧، ٦٧٢٨، ٦٧٣٠، ومسلم في «كتاب الجهاد والسيَّر» باب قول النَّبي ﷺ: «**لا نُورثُ ما تركنا فهو صدقةٌ**» حديث رقم: ١٧٥٨، ١٧٥٩.

[2] سورة النساء، الآية: ٥.

[3] سورة قريش، الآية: ٤.

[4] سورة القصص، الآية: ٥٧.

[5] سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

الآية أنَّ هذا الفريق «رجال الصِدق والعهد الحق» ليسوا إلاَّ صِنفين: **شهيدٌ وآخرٌ ينتظر المواقع والمعامع لينال الشهادة** ـ فلا نامتْ أعينُ الجُبناء..

إذاً حتى الخروج لهذه العِير والغنيمة هناك مَن كرهه، ولكن يكفيه شرفاً أنه من المؤمنين، والكراهية لهذا الخروج ليس فيها ما يُعاب، لأنها ليس على معنىً من الشرِّ في شيءٍ، فإنَّ طبيعة الخروج الذي تمت به الغزوة من المدينة من الإسراع وعدم التحضير، وعدم تعميم الأخبار بها يمكن أن تجعل بعض وربما الأكثر أن يكره هذا الخروج على هذا النحو، أما كراهية القِتال عند حضوره فلم يأتِ به خبرٌ واحدٌ يُعتد به، نعم كانوا يحبون العِير، لكن لما فاتت لم يكرهوا القِتال بل خُطَبُهم كانت تدل على أنهم قد تدافعوا له ولم يخشوه.

هذه الكراهية لهذا الخروج على هذه الصفة التي دُبِّر أمرها من عالِم الغيبِ ربِّ العالمين، ولم يعرف أهل الأرض عنها من المؤمنين وغيرهم هي التي جعلت المؤمنين يجادلون في صفتها، وهذا الجِدال بعد الشروع والنفرة الفِعلية على أيِّ صفة ليس ممدوحاً في الشريعة كما قال تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ**﴾[1]. ويقول المصطفى ﷺ: «**إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ**»[2]. فللنَّاس أن يختلفوا قبل الفِعْلِ حول الطريقة المثلى لإِتْيَانِ هذا الفِعْلِ، لكن بعد الشروع لا ينبغي الجِدال لأنه حينئذٍ يكون تَثْبِيطاً وإن لم يُرِدهُ صاحبه، وقد تتوضح هذه القضية بأجلِ صُوَرِهَا في غزوة أُحد كما فصلها القرآن في سورة «آل عمران»، وهناك جعلَ هذا الصنيع هو صنيع المُنافقين والمُخذلين بل سمَّاهم الكفار والعياذ بالله، وسيأتي ذلك إن شاء الله تعالى.

لقد تمتِ النُفرة للعِيرِ وكَرِهَهَا مَنْ كَرِهَهَا على الصِفَةِ التي تمت، وجادل فيها مَن جادل لأنَّهم رأواْ في هذه الصِنعة سُرعة يمكن لغيرها أنْ يكون خيراً منها، وبتدبيرٍ وإعْدادٍ أفضل مما تمت فيه، فكان حجة المجادلين رضوان الله عليهم أنَّ الخروج على هذه الصفة هو الموت المُحقق، فلا أَسْيَافَ وَلاَ خُيُولَ وَلاَ عُدَّة وَلاَ عَتَاد، ولا عَدَدٍ كَافٍ، وإنما تمتِ الاستجابة السريعة لنداء رسول الله ﷺ أن ينفر مَن يريد على الصِفة التي هو عليها دون إبطاءٍ أو تأخيرٍ حتى لو كان مِنْ أَجْلِ إِعْدَادٍ وَتجهيزٍ.

﴿**يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦**﴾[3].

وههنا وقفة لا بدَّ منها، وهي جوابٌ على سؤالٍ قد يتبادر إلى الذهن: هل هذه الغزوة «فَلتة» لا يُقتدى بها على هذه الصفة التي تمت فيه؟ الجواب: لا، لأنَّ تطور هذه الغزوة كان سَنَنياً لا مطعن فيه في العسكرية، فهذه عِير أبي سفيان قادمة من الشام، فيها مسالحة وحُماة يَدفعون اللصوص ولا

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

[2] أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٤٧٢٣ وإسناده صحيح، وهو عند الدارمي في الرؤيا، القصيص والبئر واللبن. والحاكم في «المستدرك» ١٢٩/٢، وصححه ووافقه الذهبي. وابن سعد في «الطبقات الكبرى» ٢:١:٣٢.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٦.

يقدرون على الجيوش، فالخروج لهم بهذه الصفة هو خروج يُعادل الموقعة القادمة، ثمَ جاءتْ المرحلة الوسطى بعد هذا الخروج الصريح للعير أنه يمكن أنْ تفوتَ العِير ويكون القِتال، وهذا الوجه الجديد هو الذي قوي فيه الجِدال الذي حكاه القرآن، فهناك مَن جادلَ ابتداءً ولكن قوي هذا الجِدال بعد أنْ لاحَ في الأُفق احتمال أنْ تفوتَ القافلة ويتم لقاء فيه قتال مع قريش، وعند حصول هذا العامل الجديد جاء قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾** ﴾[1].

وهذا هو المكرُ الحَسَن مِن الله بالمؤمنين.

خرجوا للعِير، وأرادوها وُسعهم كلَّه، وكان ثمَّ كلامٌ حول هذا الخروج السريع، القليل من الجِدال، ثمَّ: لعلَّ القافلة تفوت، وهناك أخبارٌ أنَّ قريش نفرتْ لنُصرة القافلة، إذاً ربما يكون هناك قتالٌ، فزادَ صوت الجِدال، ثمَّ زادَ احتمال القتال وقلَّ احتمال القافلة، وهنا وقع الجِدال الصريح: ﴿ **يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ** ﴾. والحقُّ هنا هو القتال لا شك ولا ريب.

لقد تمَ الوعد الإلهي بإحدى الطائفتين عند وُجودهما، طائفة مالٍ وغنيمةٍ وعيرٍ، وطائفة لا تحمل معها إلاَّ السلاح والعُدة والعَتاد، والنفوس تتشوق إلى ما خرجتْ من أجله، فلمثله نفروا وعلى ميزانه أعدوا أنفسهم، ثم تبيَّن أنَّ القتال هو الذي سيقع لا غير، فقد ذهبت القافلة.

كيف للمرءِ المسلم أن ينظر إلى هذا التدبير الإلهي: فقد ساقهم إلى رغبة تحبها أنفسهم وهي العير، على صفة لا تصلح أبداً على مُواجهةٍ عسكريةٍ ثمَّ يقع القِتال، فيقع أمران عظيمان جليلان لأهل الإيمان: **أولاهما**: أنَّ هذا الحضور من أهل بدر هم خير أهل الأرض يومئذٍ: إن يرد الله به خيراً يأت به، ومثلها غزوة «حُنين» جريانها على غير الصفة التي رُتبت له، ومثل ذلك غزوة «حمراء الأسد»، كل هذه الغزوات وأمثالها الكثير كانت تعطي صِفة الاختيار الإلهي للنافرين ﴿ ۞ **وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾[2].

إنه الاختيار الإلهي للمواقع وأهلها الذين هم رجالها.

كل هذا الوصف الإلهي لحال البعض ـ فريقاً ـ ولحال كل ﴿ **وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** ﴾. لا يُلغي صِفة الوِلاية والصِّدِّيقية عن هذه العُصبة العظيمة، لأنه الإنسان، فليس على الأرض ملائكة يمشون، فهم أبناء الأرض ما داموا يأكلون من طعامها ويعيشون سُننها ورغباتها ونواميسها، لكن تأملْ هذا الحب الإلهي، وهذا الرفع الربَّاني، وهذا الإحسان مِن البَر الرحيم وهو يخاطبهم خطاب الغيبة وهم يجادلون ﴿ **يُجَٰدِلُونَكَ** ﴾ فإذا جاء الوعد الإلهي والضمان الربَّاني التفتَ

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٧.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤٦.

إليهم التفاتَ الرحيم الودود بهم فيقول لهم: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ﴾. إنهم أحبابه وأصفياؤه وأولياؤه، وهم في ذلك كلِّه هذا الإنسان في رغبته وشهوته وتقديراته.

هكذا هي الحياة، و هذا حال وقائع الإيمان فيها: الإنسان يخرج للرزق والاكتساب، ـ رزق كريم ـ من يد أعدائه، فهو ابنٌ لهذه الحياة، رزقٌ تحت ظلِّ رُمحه، فتجري به الحياة بتدبير الله تعالى إلى مراتب أعلى يقول الله فيها: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۞ ﴾[1].

لكن دَعُونا نتصور النهاية على غير ما وقعت، لتخلُفِ عاملٍ من عوامل النَّصر السَنَنية، وهذا الاحتمال يقع للأنبياء ولأتباعهم كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ ﴾[2]، ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾[3]. فما هو حال فِرق النَّاس يومئذٍ: مؤمنين ومنافقين، أقول: لقد كان الجواب على هذا التصور تفصيلياً بما لا مزيدَ عليه في سورة «آل عمران» مع غزوة «أُحد»، فقد كان كلّ ذلك فلا تستعجلْ، فالأيام دُولٌ، والوقائع: «يَوْمٌ نُسَرُّ وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَلاَ سَوَاء، قَتْلاَنَا في الجَنَّة وقَتْلاَكُمْ في النَّارِ».

﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۞ ﴾.

أما الكلمات ههنا فهي الكونيَّة ولا شك، وهذا مدحٌ آخرٌ عظيمٌ لأصحاب النَّبيِّ ﷺ في بدر، فَهُمْ كلماته الكونيَّة الذين أحقَّ بهمُ الحقَّ، والحقُّ ههنا هو النَّصر، فبِهِمْ ـ وهم كلماته ـ أوقعَ الله نصره، لكن أي دابر للكافرين قُطِعَ في بدر؟!

ولقائلٍ أن يقول: إنما هي أولى لم يقتل فيها مِن قريش سوى سبعين رجلاً، وقريش عادت بعد عامٍ من هذه المعركة إلى معركةٍ أُخرى أقوى وأكثر استعداداً، وحققتْ بعض مقاصدها في غزوة «أُحد»، فأيُّ دابرٍ للكافرين قُطِعَ في غزوة «بدر»، والنَّاس إنما يستخدمون هذا القول: «قُطِعَ دابره» إذا محي أثره وذهبتْ قُوته وزالَ أمرهُ، وقريش ما زالت قويَّة هي صاحبة الإرادة في كلِّ المعارك القادمة حتى فتح مكة؟

إنها البدايات الصغيرة في حجمها لكنها الجليلة في إرساء القواعد لما بعدها: ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾، فبمجرد أن وُضعت الحبة في الأرض، وأطلقت برعمها الأول فقد آن لفرعون أن يحزم حقائبه.

إنَّ فرعون قد دُمِّر وزالَ مُلْكُهُ منذ أنْ حفظ الله موسى وجعله ينشأ ويترعرع في قصره.

[1] سورة الأنفال، الآيتان: ٧ـ٨.
[2] سورة النساء، الآية: ١٤١.
[3] سورة التوبة، الآية: ١١١.

إنها النطفة التي تتشكل منها العَلقة فالُمضغة حتى يستوي الإنسان على سُوقِه.

لقد وقعتْ بدر قبل ذلك، بل وقعتْ بِداياتها في الحقيقة والصَّحابة في مكة لما قال الله تعالى في سورة «القمر»: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1]. وحينها تساءل الصَّحابة الكِرام عن هذه الجموع التي ستُهزم، ثمَّ رأوها يوم بدر. إنها البدايات التي لا تتحقق النهايات إلاَّ بها فلها الفضل بقطع دابر الكافرين.

إنها البدايات الخجولة كشُعاع الفجر تشق الظلمة الغاشية فتبصرها الأعين التي تعرف مكر الله الحسن بالمؤمنين فيأخذهم بِرِفْقٍ وأَناةٍ وحُبٍ ورعايةٍ يُقيم بهم دورةً من دوراتِ الإيمان، ولكلِّ دورةٍ مُستقرها فقد يكون الأُخدود مُستقرهم، وقد يقف بهم على مرمى حجرٍ من الأرض المُقدسة كما وقع لموسى عليه السلام، وقد يفتح بهم بيت المقدس كما وقع لآل زنكي والناصر صلاح الدين وقد يدفع الله بهم بلاءً عن بلدهم كما وقع في عين جالوت وشقحب، فهي دورات الإيمان لها مستقرها التي يريدها الله بها، لكنها تكون لها بدايات لا يفقهها إلاَّ القليل، أما أنْ يعتقدَ بعض النَّاس أنَّ دورةَ الإيمانِ لا تكون إلاَّ بأن تجتمع سيرة الرسول ﷺ كلّها في شخصه وشخص جماعته وحزبه وتنظيمه أو دولته فهو واهِمٌ لأنه لا يفهم سنن التاريخ ولا فقه الحياة، ومثل هؤلاء «المساكين بقلَّة عِلمهم وفهمهم» كثيرٌ في وسطنا الإسلامي اليوم. فهم يُريدون فتح مكة من أول موقعةٍ، ويُريدون قائداً وراءه الأُمَّة بأجمعها يسيرُ بهم نحو فرعون عصرهم فيُفتح له كما فُتح للصَّحابة في القادسية واليرموك، فلهؤلاء يُقال: إنَّ هذه أحلام الجهلة العاجزين، وليس بمثل هذه الأحلام تسير الحياة ودوراتها.

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

هذه مقاصد الربِّ جلَّ في عُلاه في سَوْقِ النَّاس من خلال إراداتهم إلى ما يُريد، ومِن خلال ما يحبون إلى ما يحب، يخرجهم ويُدبر لهم الأمر ليصل بهم - وهم أحبابه - إلى رِفعة هذا الدين وعِزته، وهذه المقاصد الإلهية مِنْ قَطْعِ دابرِ الكافرينَ، ومِنْ إبطالِ الباطلِ وإحقاقِ الحقِّ بإبانته وإظهارهِ للنَّاس وإشهارهِ لهم بضربِ القرن الكبير - وهي قُريش يومذاك - هي التي يهرب منها المُعممون اليوم والمُفكرون، ومَن لم يهربْ منها فإنه يُريدها من غير الطريق الذي أراده الله لهذا الدين.

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يجعل الحقَّ - وهو الدين ههنا - حقاً له حياة بين النَّاس، وله ظهورٌ واشتهارٌ وليس شُهرته تعني رضا الكافرين عنه، بل ﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

إنَّ هذا الدين لا يقبل التساوي مع الباطل، ولا يتعايش معه تحت أي دعوى كانت، فهما على الضِدِّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وهذه الآيات تكشفُ أنَّ هذا الحقَّ بكلِّ جَلاَئِهِ ووُضُوحِهِ - لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ - لا يمكن

[1] سورة القمر، الآية: ٤٥.

أن يكون كذلك دون صِراعٍ مع الآخرِ، ودون مُنازلةٍ له، ودون صِدامٍ بينهما، وإنَّ مجردَ قبول الباطل للحقِّ يعني أنَّ الحقَّ قد تخلى عن «حقِّهِ» بأنْ يحقَّه ويكون هو الأعلى، وإنَّ قبولَ الحقِّ للباطل يعني أنه لم يعدْ حقاً يُنازع الآخرين بأن يؤوبوا إليه ويتركوا ظُلمتهم وجاهليتهم، وهذا ما يُريده الباطل منه في هذا الصِّراع اليوم، وهذا ما تجشأَ به الكثير من الُمعممين والُمفكرين الذين ينطقون باسم الإسلام زُوراً وكَذِباً.

لقد رأينا «ٱلْحَقَّ» في هذه الآيات هو النَّصر وهو القِتال وهو الإسلام، وإنه ليس من الصدمة أنْ تتسمى هذه باسمٍ واحدٍ يجمع بينها وهو الحقّ، فلا حقَّ هناك خارجَ الإسلام، ولا حقَّ بلا قتال ولا من غير تحقق النَّصر على المعنى الشرعي الذي يحتاج إلى شرحٍ كثيرٍ، وإنه لمن الحقيق بالالتفات إليه أنه قد تمت هذه باسمٍ مُعرفٍ بـ«أل»، فكأنها واحدة، وهي كذلك في جوهرها.

ثمَّ إنَّ هذا كلَّه لا يجتمع إلاَّ في سبيلٍ واحدٍ وهو الجهاد، يعني القتال، فلا سبيل سِواه تقع به هذه الإرادات الإلهية الجليلة، وإنَّ الذاهبين إلى تحقيق سلطان الله ودينه في الأرض بغير هذه السبيل واهمون، بل لن يسلكوا سبيلاً غيره إلاَّ واضطروا لُمسايرة الباطل والجاهلية، شاءوا أم أبواْ.

وقبل أن يتسم الجاهل بلاهةً واستهزاءً بحُجة أنَّ الجهاد اليوم ـ في زمن كتابة هذه الكلمات ـ إنما هو وقائع صغيرة ليس فيها إظهارٌ لدين الله، بل هي البلاء للمؤمنين، أو هي عملُ أفرادٍ لا أُمَّة ودولة، وليس فيها قطعٌ لدابر الكافرين. فأقول: سيكون الجواب تحت قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[1]. فهناك جواب الله لهم إن شاء الله تعالى.

﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ لقد صُدمتِ الجاهلية، وحصل عندها الخوف من هذا الوليد الجديد، فاهتز منها بعض أركانها ـ اهتز ولم يسقط ـ وضُرِبَتْ في كِبْرِيَائِهَا، وهي التي بكتها الله بقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾[2]. فقد قالوا الكلمة القديمة الجديدة: «لسنا سواء»، وهي عين الشعار الجاهلي في كلِّ وقتٍ ـ نهاية التاريخ ـ والحقّ أنه «مكرُ الله» الذي سمَّاه بعض فلاسفة الغرب ـ مكر التاريخ ـ لأنه لم يهتدِ إلى يد الله الخفية التي تعمل عملها في الوجود.

لقد زهقَ باطلهم حين اهتزتْ النُّبوءة الجاهلية أنهم لا يُغلبون، وأنَّ يدهم أقوى مِن كلِّ يدٍ، وسُلطانهم لا يُنازعه أحد.

لقد بطلَ باطلهم حين تمتْ الصدمة الأُولى تحت أعينهم، من خلال هؤلاء الفقراء الضعفاء المساكين، هؤلاء الذين لم يأتوا وهم كثيرٌ، ولم يقدموا بعتادٍ كعتادهم ولا بقوةٍ كقوتهم.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٤١.

[2] سورة القمر، الآية: ٤٣.

قد بطلَ باطلهم حين ظهر خواء كلّ دعاواهم أنهم ملكوا البر والبحر والجو فلا يفلت من تحت أيديهم شيء.

لقد اهتزتْ قريش هزة أصابت كِبرياءها وشُموخها بين القبائل، وهذا في البدايات يستحق أن يُقال له: بطلَ الباطل.

﴿ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾: إنَّ حصول الألم لهم ووقوعهم فيما يكرهون مقصدٌ إلهيٌّ فانشطوا له وعليكم به، فإنَّ مِن عِلْمِ أُصول الفقه أنَّ أفعال الله يُقتدى بها ما لم يكن من خُصوصياته جلَّ في عُلاه.

هذه مقاصد الإله العظيم، وهذه مقاصد ربِّ محمد ﷺ، وهذه مقاصد مَن نصر الصَّحابة ﷺ، وهذه مقاصد مَن أنزلَ الكتاب على أُمَّة الإسلام.

وهذه هي الوسيلة الرَّبَّانيَّة الناجحة الناجعة الجليلة في إحقاق هذه المقاصد.

أقول هذا وليتألم الُمنافقون والُمخالفون الجاهلون، ولكن مهما تألموا فلن يأتوا من التاريخ ولو بحادثةٍ واحدةٍ خارج إطار «القتال» حصل فيها كلّ هذا الفضل أو ما يستحق اسمه.

إلى هنا وانتهى وصف حال أهل الأرض من المؤمنين وما هم عليه قبل اللقاء، وتدبير ربِّ السماء، وصفٌ يُلقي صورةً جامعةً لمراد الإنسان الُمؤمن ومُراد ربِّه منه، والُمفارقة بينهما، ولكن هذا الُمؤمن يصلح بإيمانه واستعداده لأنْ تقع منه كلمة الله الكونية بالنَّصر، لأنه هو قدر الله بإبطال الكُفر وقَطْعِ دابره.

هذه الصورة تُلقي الثِّقة في نفس المؤمن أنَّ رعاية الله التي تُديره وتُدبر أمره، وأنَّ ما يجري على الأرض إنما هو بحكم السماء تجرِيه وتُوقِعُه.

هذه الُمفارقة بين مُراد المؤمن في ما يجري له وبين مُراد الله في سَوقه إليه مقصدها الأول الُمناسب لموضوع الأنفال ليقول لهم لماذا: ﴿ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ وليست لكم، ولكنها تحمل دلالات أُخرى يمكن للمرء أن يخوض فيها ويُكثر القول ولكن حسبنا هنا أن نقف على هذا المعنى، ولكن حين ترى فئة مؤمنة أنَّ ما أرادته ذهبَ ووقعَ غيره فإنَّ حِكمة الله أعظم وأوعب من مُراد الإنسان في ضُعفه وعجزه.

هذه روايةٌ قرآنيةٌ فريدةٌ تخللت عالَم الغيب، كما تغلغلتْ في بواطن النفوس الإنسانية وجمعتْ بينهما في مشهدِ الحبِّ الإلهي لهذه الفِئة المؤمنة، تُرشده إلى يد الله، وتهديه إلى مقاصده سبحانه وتعالى، وتهديه تقليب الحبيب لحبيبه حين تُذكره بضُعفه وعجزه؛ لَكنَّكَ أَنْتَ كَلِمَتِي وَبِكَ سَيُصْنَعُ التَارِيخ.

هذه رواية القرآن بخصوصيتها لأنها صِبغة الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾[1].

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[2].

هذا مشهدُ البلاءِ بين الجَمعين، نقدم بوصف العلاقة بين الجُند وربِّهم على وصف المشهد في صورته الواقعية الذي تأخر ذكره إلى قوله تعالى: ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾[3]. لأنَّ هذا المشهد الباطني فيه الجمع بين مِنَّة الله سبحانه وتعالى على جُنده ومُلائمة هذه المِنَّة لهذا الوِعاء الإيماني من أعمالهم ﷺ، فهم يستغيثون ربَّهم، وهذا مدحٌ جليلٌ من الله لهم، وفيه وصفٌ لضُعفهم وقِلَّة ما هم عليه من العَدد والعَتاد، فطلبتم من ربِّكم الغوث، فلأنكم أنتم ـ **فَٱسْتَجَابَ** ـ.

إنها صورٌ مختلفةٌ تتراءى للناظرين لكنها تقفُ أمام خلفيةٍ واحدةٍ هي المُراد، خلفية المِنَّة الإلهية على أهل الاستعداد لها.

إنَّ هذه اللحظة التي يحصل فيها هذا الفعل الإيماني العميق ﴿ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ لَتستحق أن يقفَ عندها المرء متأملاً غورها ورهبتها وصِراع النفوس فيها، فهذا هولٌ تقدم بعض وصفه في قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾. فهذا موت الصَّبر، هو ينظر إليهم بانتظارٍ وهم يتأملون برهبةٍ، وها هو قد حضر بأسبابه، فارتجفتِ القلوب ولا أكنان باطنة أو ظاهرة، إنما الإنسان في عراء نفسه أمام أعظم ما يُصيبه وهو الموت، والموت مصيبة كما قال تعالى: ﴿ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[4]، فحينها تحصل الذِكرى للنفوس المُؤمنة فتتوجه إلى ربِّها، فهو مولاها، وهو الذي رعاها ووعدها إحدى الطائفتين.

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾.

استغاثة النَّبيِّ الرحيم الشفيق على هذا الدين وأهله: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[5].

واستغاثة الجنود مخافة الهلكة والضَّيَّاع، والإشفاق على رسول الله ﷺ أن يُصيبه ما يكرهون.

إنه طلبُ العون لا مجرد الدعاء والسؤال، لأنَّ الأمرَ جدٌّ عظيمٍ.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

[2] سورة الأنفال، الآيتان: ٩-١٠.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

[4] سورة المائدة، الآية: ١٠٦.

[5] مسلم في «كتاب الجهاد والسِّيَر» باب الإمدادِ بالملائكةِ في غزوةِ بدرٍ وإباحةِ الغنائمِ. حديث رقم: ١٧٦٣.

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾.

هذه هي حقيقة المعركة في وصفها القرآني، وهو يقررُ الحقيقة التي يعلمها ربُّ العباد، وكيف تسري حركة الوجود الظاهري الذي يقفُ عنده المحجوبون ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[1]. فههنا المعركة الحقيقية، وههنا ينبثقُ ما يراه النَّاس من وقائع، فهو عالم الغيب الذي تسير تقريراته من خلال أهلية أهلِ الأرض لوقائعه.

حقيقة المعركة التي يرى النَّاس نتائجها إنما حصلتْ حين وقفَ المؤمن بباب ربِّه يستغيثُ به، ويرقُبُ عطاءه ورضاه ونصره وتأييده، فيستجيبُ الله له استغاثته، ويُلبي له طلبه فيبدأ الإمداد الإلهي: ﴿ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾[2]، وقد عَلِمَ كلّ المعانين السالكين في معارج العبودية أنَّ هذا القول الربَّاني: العبادة: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ أنه أحب إليهم من الدُّنيا وما فيها، بل أنْ يرى الدَّاعي المُستغيث وقد أجاب الله دعاءه هو أحب إليه من الشيء الذي أعطاه إِيَّاه بهذا الدُّعاء، فقلوب السالكين إنما تطلِعُ لهذا وهو أن يَصلوا إلى حالةِ القُرب التي يُستجاب لهم إذا سألوه، وتكون الحال استجابةَ الحبيبِ لمحبوبه، فأيُّ بردٍ يغشى القلوب المؤمنة إنْ حصل لها؟! وأي فرحٍ غاش يبسط ظلَّه على النفوس الظامئة لهذه المرتبة؟! لقد تقلبَ المرء في هذه الحياة، وقلبته ظهراً لبطنٍ، وخاضَ فيها وخاضتْ به، فقطعتْ ووصلتْ، وحازَ ومنع فوالله الذي لا يحلف إلاَّ به وهو مطلعٍ على خائنة العيون وخفايا الصدور لم يرَ المرء في هذه الدُّنيا أحلى مذاقاً ولا أطيب عطاءً ولا أغلى نعمة وأجزل عطية من أن يرى دعاءه الذي استغاث به قد استجاب الله له، فيحس القُرب، ويستشعرُ جلال الربوبية التي يقشعر منها البدن فرحاً إيمانياً، فكأنه في كنفِ النُّور يحيط به ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[3].

واقع المعركة أنَّ أهل الإيمان لا ينقصهم العزيمة، ولا الإرادات التي استعدت أن تخوضَ بركَ الغِماد مع قائدها النَّبيِّ ﷺ، لكنه العَدد الذي يشكون من قِلته، فيرسل الله المدد، مدد السماء من جُند السماء، يتبع بعضهم بعضاً، ليكون تتابعهم عوناً لكم وتكثيراً لعُدتكم، ومع ذلك فكلّ هذا هو لِترواْ دلائل البُشرى التي وعدكم الله إيَّاها ـ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ـ ولِتسكنَ القلوب فلا تجيش، ولِتسكنَ النُّفوس فَتُقْبِلَ على أعدائها بثباتِ جنانٍ وقوةِ عزيمةٍ، ومع ذلك فليستِ الملائكة وما هم حاملين وقادرين عليه إلاَّ أدوات ربَّانيَّة وأما حقيقةُ «النَّصر» فليس إلاَّ بيده سبحانه وتعالى، فهو الذي عزتْ وتفردتْ قُدرته، وهو الحكيم بهذه العزَّة لا يضعها إلاَّ مواضعها.

---

[1] سورة الروم، الآية: ٧.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٩.

[3] سورة يونس، الآية: ٥٨.

وبدأت جنود السماء تعملُ عملها لتُمهد لحصول النتائج، ولكن لا بدَّ من وقفةٍ ههنا، وهي سؤالٌ يحضرُ في النُّفوس كثيراً؛ هل هذه سُنَّةٌ مُضطردةٌ؟ وإذا استغاث رجالٌ مؤمنون بربِّهم لِنقص عددهم فهل ستحضر الملائكة عند كلِّ استغاثة؟ وإذا كان كذلك فلماذا يتخلف النَّصر كثيراً عن جماعاتٍ تقفُ هذا الموقف ولا يحصل لها هذا الذي حصل لجند الله في بدر؟

والحقّ أنَّ هذا سؤالٌ مهمٌ وحريٌّ بالوقوف عنده، ولكنه سؤالٌ كبيرٌ كذلك يحتاج إلى كثيرِ شرحٍ ليتم استيفاءُ بعض حقوقه، ولكن يكفي أنْ نقفَ هذه الوقفات فنقول:-

أولاً: لقد جرتْ سنة الله تعالى أن لا تنزل بركات السماء إلاَّ على وُجود مثلها من مادة الأرض، ولو تأملَ النَّاس الأحاديث الكثيرة في دلائل النُّبوَّة ووقفوا عند حصول البركة في الطعام والماء لَوجدوا أنه ما مِنْ بركةٍ حصلتْ لهم في شيءٍ منهما إلاَّ بعد أنْ وُجِدَ أصلُهُ مِنْ مادته الأُولى بين يدي رسول الله ﷺ، فقد بصقَ رسول الله ﷺ بريقه الشريف في بئرِ ماءٍ، وكذا وضعَ يده الشريفة في إناءِ ماءٍ، وكذلك جَمَعَ ما تبقى في أيديهم في غزوة تبوك من طعامٍ فدعا له حتى أكلوا كلّهم منه، ومثله حديث جذعة جابر ﷺ، كل هذا يدل على بركة السماء لا تنزل إلاَّ على وُجود مثلها من مادة الأرض، فهلِ الملائكة نزلت تضربُ الأعناق وتبشرُ المؤمنين بالنَّصر وتُسكِن قلوبهم التي هالها كثرة عدد أعدائها إلاَّ وهم يحملون مادة الأرض من أدوات القتال والحرب، بل أحضروا كلّ وُسعهم الذي قدروا عليه؟!، ولذلك فبركة السماء هي كنار السماء التي كانت تنزلُ على غنائم الأُمم السابقة فتحرقها، فإنْ لم تنزلْ دلَّ على أنَّ في النَّاس خِيانة وتقصير، فترك البذل يعني منعُ البركة، والتقصير في أداء الوُسع مانعٌ من حصولِ النماء، فهذه قاعدةٌ مُضطردة في مُعاملة ربِّ العالمين لعباده المؤمنين في كلِّ وقتٍ، ومَنْ تأملَ هذا عَلِمَ أنَّ الكثير مِنْ هزائمنا سببه خِيانة مَنْ خَانَ، وحبس من حبسٍ ما يقدر عليه، وتقصير من قصر فيما يستطيع أن يأتيه، حينها لا يكون القوم أهلاً ولا وِعاءً صالحاً لما سينزل من السماء، والنازل من السماء عزيزٌ ليس بالهين ولا بالرخيص، فلا يُبذل إلاَّ لمستحقيه، ولذلك وُجِدَ جهلة في هذه الأُمَّة يُريدون نزول الملائكة تُؤيدهم وتُقاتل عنهم وهم مجرد أحلاس بيوت لم ينفروا حتى لكلمة يصيحون بها بين النَّاس يُقَوُّونَ بها عزائمهم، والحق أنَّ هذه الأسئلة لم أرها بين المجاهدين لأنهم يرون نصر الله لهم في الواقعات، وتأييد الله لهم في العمليات والنزالات لكن هذه الأسئلة إنما تَرِدْ كثيراً على ألسنة القاعدين بل على كثيرٍ مِنْ ألسنةِ المُثبطين.

ثانياً: عوامل النَّصر السَّننية كثيرة فمنها ما يتخلف بالعجز ومنها ما يتخلف بالكسل، وليس أحدهما كالآخر، ومنها ما يكون ضدُّه قد حضرَ كجهلٍ وسوءِ تدبيرٍ، فإجابة الدُّعاء تحصل عند استعداد وِعائه له، وأما عند حصول ضدِّه فالإجابة حينئذٍ على خِلاف السُّنة، ولذلك فليتأملِ النَّاس سببَ تخلف النَّصر ولا يُعلِّقوه على عدم إجابة الدُّعاء، فإنَّ الإيمان قَوْلٌ وَعَمَلٌ، والعمل لا يصح إلاَّ بإرادةٍ جازمةٍ وقُوةٍ تامةٍ، والقوة هي سلامة الأعضاء وخُلُو الموانع، وشرح ذلك يطول لكن هو موجود في مظانه من كُتب أهل العلم، ومَن تأمله على بصيرةٍ وفِقْهٍ أدركَ الكثيرَ من أسباب

تخلف النَّصر، ولذلك مِنَ الخطأ أن يظن البعض أنَّ مجرد العدد في حديث النَّبيِّ ﷺ: «**لا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفاً مِنْ قِلَّةٍ**»[1] به يتحقق النَّصر لُزُوماً، فهذا باطلٌ في الفقه والنظر، لأنَّ المقصود عدم تعليق سبب الهزيمة إنْ حصلت على قِلَّةِ العَدد إنْ وُجِدَ هذا الرقم، لكن يمكن أن يُغلبَ مائة ألفٍ وأكثر لسببٍ آخرٍ لكنه لا يعود إلى قلَّة العدد، بل ربما للعجز أو الكسل أو الجهل، فإنَّ المئات أو الآلاف قد تُحصد بقذيفةٍ واحدةٍ لأنهم ليسوا أهل قِتالٍ، وقد يكونون أهل قِتال من غير أدواته، وقد يأخذهم بطر العدد إلى الغفلة وسوء التدبير، لكن لا يمكن أن يكون سبب هزيمتهم قد جاء من جهة العَدد.

ثالثاً: لا بدَّ من معرفة معنى النَّصر في كتاب الله تعالى، لأنَّ فَهْمَ الكثير من النَّاس لمعنى النَّصر على غير مدرك القرآن ومقاصده، وهذه تحتاج إلى بيانٍ مستقلٍ ومُؤَلَّفٍ شاملٍ لأهميتها، فإنَّ كثيراً من الألفاظ القرآنية لها معانٍ تحتاجُ إلى كشفٍ وتوضيحٍ لِنعرفَ حقيقتها ومن ذلك كلمة «النَّصر»، فالنَّصر الذي يطلبه النَّاس اليوم من أيِّ فعلٍ جهاديٍّ لا يمكن وُجوده إلاَّ في الذهن لعدم سننيته وإغراقه في الوهم والحُلم، فالبعض يطلب من أيِّ فعلٍ جهاديٍّ في العالم أن يُعيد له فلسطين، وبعضهم يطلب من أيِّ فعلٍ جهاديٍّ أن يُقيم دولة الخلافة، وهذا لم يقع لرسول الله ﷺ وهو مَنْ هو فكيف لمن بعده، فهذه بدر ـ نصرٌ عظيمٌ ـ أعظم ما تحقق منها أن حُميت العِصابة المؤمنة من الفناء كما كان يرجو قائدهم رسول الله ﷺ في الخروج من مكة مُهاجراً مُنْتَصِراً فقال تعالى في وصف هذا الموطن: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[2]، وهذا الخروج لو وقع اليوم لمجاهدٍ فأطلقَ عليه واصفٌ هذه الأوصاف القرآنية لَضحكتْ منه عمائم ولحى لا المُلحدين فقط، ولكن الكثير من المسلمين يتعاملون مع سيرة النَّبيِّ ﷺ بشيءٍ من التقديس الذي يخرجها عن عالمها الأرضي فلا يتأملون الوصف القرآني الجليل للحدث نفسه كما هو مجرداً، والواجب النظر إلى الحدث نفسه كما هو في عالمه الأرضي بعيداً عن الوهم الذِهني وسطوة الأسماء ثم يرون بعد ذلك وصف الله لهذا الحدث حينها تقع العِبرة القرآنية، وبهذه العِبرة يرون التجدد لهذا الحدث في التاريخ وفي زمانهم ما كان في النَّاس جهادٌ ومجاهدون، أما خلط الأمرين ابتداءً دون ربطِ الحدثِ بالفعلِ الإنساني والسنَّة الأرضية فإنَّ الكثير من المعاني القرآنية تُصبح مغرقة في الحُلم البعيد، فهجرة النَّبيِّ ﷺ حدثٌ إنسانيٌّ لقائدٍ أراده أعداؤه ﴿**لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ**﴾[3]. فخرج من

[1] أحمد في «المسند» عن ابن عباس رضي الله عنهما. حديث رقم: ٢٦٨٠. وأخرج الحاكم في «المُستدرك على الصحيحين» ١٢٢/٢ حديث رقم: ٢٥٤٤: «خير الصَّحابة أربعة وخير السرايا أربعمائة وخير الجيوش أربعة آلاف **ولن يُغلب اثنا عشر آلفاً من قِلَّة**». وقال: هذا إسنادٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه لخلافٍ بين الناقلين فيه عنِ الزُهري.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤٠.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

بينهم، وهذا الخروج كما ترى إحدى احتمالاتِ المكر الذي أراده بعضٌ منهم، وهو مع كلِّ هذا نصرٌ عظيمٌ في نجاة هذا القائد من بين أيدي أعدائه، ومثلُ ذلك ما وصفه الله من نصره لنوحٍ عليه السلام حين قال تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾[1] . فالنَّصر هنا هو نجاته من الهَلكة التي وقعت بأعدائه من إفنائهم بالآيات الكونية، فالنَّصر هو تحقق مُراد المؤمن في موقعته التي هو فيها، فقد يكون مُراده النَّجاة فينجو فيكون هذا نصراً ويقع فيه ما قال تعالى لنبيِّه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]، وقد يكون النَّصر إذهابَ مُرادِ الكافرين الذين أرادوه من المجاهد أو المؤمن، فيحميه، فكلّ هذا نصرٌ ينبغي تسجيله كآية من آيات الله في جعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا، فالسائلون عن النَّصر كما في أذهانهم إنما هم يسألون معدوماً لا وُجُودَ له في سنَّة الأرض ولم يجرِ قط لنَّبيٍّ أو لوليٍّ أو لمجاهدٍ، ولذلك فالحقّ أنَّ بدر تتكرر في كلِّ زمنٍ، ويتكرر بعضها في مواطنٍ عدةٍ من حياة المجاهدين ـ هم يرونها دون غيرهم من أهل الوهم والأحلام العريضة.

وبهذا أقف ههنا وإن كان في النفس مقالات أُخرى للإجابة على السؤال المُتقدم.

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[3].

لقد تقدم وصف جيشين نفوسهما: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ فكان ما يُقابلها ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم ﴾[4]. وقد حصل، وها هنا مزيد إحسانٍ وعَطاءٍ ومِنَّةٍ، إنه الفتح الإلهي للنِّعم التي لا رادَ لها ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾[5]، ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾[6]، فها هي نِعَمٌ زائدةٌ بعد حصول الاطمئنان، إذ غشي عيونهم النُّعاس لما حصل لهم من الاطمئنان الباطني بأنْ شعروا أنهم في كنف الإله العظيم فقرت نفوسهم بالأمن فجال فيها النُّعاس يغشاها، فخفقتِ الرؤوس في موطن تجهر العيون بأحداقها فتكاد تفر من محاجرها، والمرء قد يكون في أمانٍ باطنيٍّ لكنه يتفكر في ما أمامه فيشغله في ذهنه وعقله، وأما هؤلاء الجُند الأحباب لربِّهم فقد غشيهم النُّعاس حتى أسبلتِ العيون وخفقتِ الرؤوس ولا يكاد المرء يصمدُ واقفاً أو جالساً على دابته، وتفلتُ الأيدي ما بها، وكلّ هذا لما حلَّ بهم من الاطمئنان وغشيان الأمان.

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٧٧.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤٠.

[3] سورة الأنفال، الآية: ١١.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٢٦.

[5] سورة فاطر، الآية: ٢.

[6] سورة يونس، الآية: ١٠٧.

ثم نزل المطر بماءٍ طهورٍ من السماء ليغسل عنهم حَوْباتهم الباطنية وغُبار أبدانهم الظاهرة ويصرف عنهم كلّ علائق الشيطان التي في نفس الإنسان، فتربط القلوب على ما فيها من أمانٍ واطمئنانٍ وإيمانٍ وثقةٍ بالله تعالى فتقف الأرجل بثباتٍ لا يتزعزع ولا يَريم[1].

ولهذا المطر سِرٌّ في طبيعة الأرض وأثره عليها يُراجع في مواطن من السيرة النَّبويَّة الشريفة.

لكن تأملْ غيرَ مأمورٍ هذه الأسباب التي كان الصَّحابة وِعاءً لها، وهي أسباب النَّصر العُظمى التي تبذل الجيوش الكثير من جُهدها لتُهيئ جنودها بها، وهي أسباب يعرف بعضها عندهم ويجهلون أكثرها، فما معرفتهم بسر هذا المطر النازل من السماء في هذه الحقائق العسكرية التي تلزم المجاهد في سبيل الله تعالى؟!

هذه أدوات السماء التي بها يحقق النَّصر، وهي أدوات يحملها مستحقوها من الشُعث الغُبر الذين استجابوا لله وللرسول ولم يقولوا له إلاَّ اذهب أنتَ وربك فقاتلا ونحن معكما مُقاتلون.

﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾** ﴾[2].

قِفْ على أعتاب هذا الخبر الإلهي وطُفْ بكلِّ تدبرٍ لترى هذه الهزة والقشعريرة التي ستعتري جلدك، ولترى هذا الخفقان الندي بين جنبيك، وتنعم بتجدد ذِكر الربِّ وهو يقول: ﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ** ﴾. لهول ما سيكون، وارتدْ ببصرك إلى عالمٍ آخرٍ لا تشهده أبداً إلاَّ من خلال خبر الله له، لترى المعركة في جوها وميدانها الآخر، حيث يصدر أمر الربِّ لجنوده الأخفياء لتحقيق أعمالهم الظاهرة والباطنة، فهناك ثمّ قيادة وجنود آخرين هم معكم، يرونكم ولا ترونهم، ثمَّ تنعمْ أنَّ الله كفَّل المؤمنين للملائكة، وأنزل عليهم الأدوات التي بها يتم فِعلهم في أعدائهم، لكن تكفل الله بفعله بأعدائه فقال: ﴿ **سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ** ﴾. فإنْ طاشت عقولهم وحلومهم وصارت قلوبهم هواء فعليكم بهم ﴿ **فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾** ﴾.

إنَّ هذا الهول العارم، وهذه الحركة السماوية العجيبة لَتدفعُ المرءَ للتساؤل: لِمَ كل هذا؟ فيأتي الجواب: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾** ﴾[3]. فحين تكون المعركة على هذا المعنى أو ما كان منه من المعاني فإنه يستحق هذا الدفق الغيبي الكبير، فتعساً لقومٍ يستحقون أن يجعلوا معاركهم وحروبهم على غير حقِّ الإسلام والإيمان، وعلى غير حقِّ الله ورسوله ﷺ.

---

[1] مِن رامَ يريمُ أي بَرِحَ يُقال: لا رِمْتَ أي لا بَرِحْتَ، وهو دعاءٌ بالإقامة أي لا زِلْتَ مُقيماً. [مختار الصحاح].

[2] سورة الأنفال، الآية: ١٢.

[3] سورة الأنفال، الآية: ١٣.

ويحق للمرء أن يقف فيقول:ـ

هل كلّ هذا يستحق نتيجته الواقعية؟

وهل كلّ هذا يستحق طبيعة المعركة من حيث جنود الأعداء وعتادهم وقوتهم؟

فَمَلَكٌ وَاحِدٌ يقدر على إزالة الكافرين وإبادتهم.

وَمَلَكٌ وَاحِدٌ قادرٌ على أخذِ المؤمنين فوق رقاب الكافرين أجمعهم.

أسئلةٌ تتبادرُ إلى الأذهان في هذا السِياق العظيم مع وصفها لحدث السماء مع ما علموا من حدث الأرض، ولكن لو تأملَ المرء معنى الاحتفاء الإلهي بجنده في الأرض لما استكثر عليهم هذا، فإنَّ هذا الموطن هو موطن الكِرام وإعداد الإنعام لقومٍ يحبهم الله ويحبونه فكان هذا.

ثمَّ إنَّه من سُنن الله تعالى مع نبيِّه محمد ﷺ أن يجري ما يقع معه على معنى السُنن الأرضية لتكون عِبرة للمؤمنين من أتباعه بعد ذلك، فإنَّ ما جرى من بدر هو على سُنن الأرض في كلِّ شيءٍ، لكن هذا الحدث ما كان ليقع على هذا المعنى لولا هذه العِناية الإلهية التي وصفها في كتابه لهذا الحدث، فالصَّحابة ضربوا فوق الأعناق وضربوا كلَّ بنانٍ، وثبتوا ثبات الجبال الرواسي، وتدافعوا تدافع الحمم نحو مستقرها، لكن كلّ هذا وقع بسرٍ إلهيٍ خفيٍ هو فضل الله عليهم ومِنته التي تتخللهم، فالفِعْلُ فِعْلُ الصَّحابة، والتوفيق والإمداد والإعداد والإعانة والنَّصر والتأييد وتخذيل الكافرين إنما هي عطايا ربِّهم الكريم، فليس لأحدٍ بعد ذلك أن يتألى على الله تعالى أنَّ تعامله مع أصحاب رسول الله ﷺ في بدرٍ جرى على خلاف السنن الكونية ووقع على معنى المُعجزة التامة فلا تصلح للاهتداء والإقتداء والإتباع، فإنَّ هذا يفقد السيرة النَّبويَّة معنى الأُسوة وهي المُراد الإلهي لكلِّ قارئٍ لكتاب الله بعد ذلك، فالملائكة تنزل دوماً في كلِّ معارك المؤمنين، تنزل على معنىً مِنَ المعاني، فيقع معنىً مِنْ معاني النَّصر الذي تنزلُ به، فيحمدِ المؤمنون ربَّهم على هذا التأييد والإمداد، ولا يحسُّ بهذا إلاَّ مَن وقفَ هذه المواقف أو أحبها ووالاها.

هذه الكرامات الإلهية ما هو موطنها؟ إنه الجهاد في سبيل الله تعالى.

إنَّ هذه الحركة السماوية العجيبة لا تُرى ولا تُشهد إلاَّ في مواطنها التي كانت فيها لأصحاب رسول الله ﷺ كبدرٍ هذه، إنها لا تُشهد إلاَّ في غمرات الجهاد وما معه، والعابدون بغير هذه العبادة ـ أي القتال في سبيل الله ـ يُقْطِّعُون أنفاسهم حتى يحسوا هذه المعاني فلا تحصل لهم، فإنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى لا يعدله شيءٌ كما قال النَّبيُّ ﷺ[١].

---

[1] في الحديث الذي أخرجه البخاري في «كتاب الجهاد والسير»، «باب فضل الجهاد والسير» حديث رقم: ٢٧٨٥، ومسلم في «كتاب الإمارة»، «باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى» حديث رقم: ١٨٧٨. عن أبي هريرة ؓ قال: «جَاءَ رَجُلٌ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ. قال: «**لاَ أَجِدُهُ**». قال: «**هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ؟**» قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ» اللفظ للبخاري.

هكذا تتقدم هذه الآيات وتقدِّم وصفها الدقيق الشامل لكلِّ القضايا التي سبقت المعركة وواقع المعركة، فهذه هي الصِبغة الإلهية في كشف الحقائق عن الإنسان ودخائله واختياراته، وكيف يكون المؤمن في المحن وهو يبسط كف الضَراعة والاستغاثة، ثم هذه الصِبغة بخصوصيتها في حديثها عن السماء، حديث الإله عن نفسه وعن أمره، ومقاصده العُليا الجليلة، وتدبيره المُحكم، وعن علاقته بجنود الأرض وجُند السماء فما الذي يبقى للمؤمن من إدراكٍ وفِقْهٍ ليجتهد ويبحث ويقول؟، هذا السؤال هو أعظم أنواع الاجتهاد الذي يبتلي الله به عباده العلماء، والأمر كما قال الشافعي في «الرسالة» ـ ما معناه ـ: «أنَّ الله ابتلى عباده بالاجتهاد والنظر كما ابتلاهم بالأمر والنهي»[1]، فالفقه كلّ الفقه هو هذا التالي اللاحق لتلاوة صِبغة الله تعالى.

إنَّ أعظم مدارك الفقه كلّ الفقه للفقهاء الربَّانيِّين أن يرواْ هذا الحدث يتجدد في كلِّ الأزمان، لا حادثة عين لها فرادتها في تاريخ الإيمان، فإنَّ القول بهذا القول هو قطع لمعنى العِبرة القرآنية في سَوق هذه الآيات ليتلوها المؤمنون في كلِّ وقتٍ، فحين يجهل «فقيهٌ مُدَّعي» بدراً أُخرى في تاريخ الإيمان بعد رسول الله ﷺ وبعد أصحابه، وحين يجهل هذا بدراً أُخرى في زمانه الذي يعيشه، والجهاد قائمٌ على سُوقه، فهو في الحقيقة أعمى وأضل سبيلاً، فما كان الفقه يوماً إدراك معنى للفظ فقط، ولا لرواية نص فقط، إنما هذا هو أعظم درجات الفقه لكتاب الله الذي طلبه من المجتهدين والعلماء الربَّانيِّين، وهؤلاء الذين يتلون كتاب الله تعالى وكأنه ينزل عليهم، ويصف وقائعهم فتحصل لهم مشاعر عزة المؤمنين، وتثبت عندهم معاني الصلة بالسابقين، ويترسخ لديهم اليقين على كلام الله ووعده وتأييده، وخُلُوُ النَّاس من هذه المعاني هو عين الجهل بكتاب الله تعالى. كما أنه جهلٌ بالله تعالى وسُنته في الوقائع والأحداث.

لقد كانت بدر بهذا الوصف القرآني جامعة لمنحٍ وعطايا عديدة، وإنَّ من الفقه أن يُدرك «الفقيه» أنَّ هذه المعاني المجموعة هنا قد تتفرقُ فيأتي بعضها في حادثة أو ما كان في معناها كالمطر الذي نزل على أهل بدر، وقد يحصل تخذيلٌ للكافرين وبث الرعب في قلوبهم فينصرفون عن القِلَّة المؤمنة دون تحقيق مقاصدهم الكافرة فيهم، وقد وقد، فبعض هذا قد يقع فحينئذٍ تقع بدر في معنى من معانيها، وتسري في الزمان آيات الله تحيى واقعاً وفِعلاً، وتجدد للمؤمنين فتحصل العِبرة القرآنية ؛ فبدر في هذه الآيات ليست حدثاً ماضياً ذهب وانقضى بل هي روحٌ تسري في التاريخ، لأنها في واقعها: مكر الله الحَسن بالمؤمنين، ويد الله التي تُجري الأُمور إلى مستقرها، وهي عناية الله بهذا الدين وأهله.

في أثناء ذِكر هذه المنن والعطايا تأتي الأوامر الإلهية لتُهيئ أوعيتها الصالحة لها، وهذا فِقْهٌ آخرٌ يُريده الله من عِباده، فإنَّ العطايا لو أُعطيت لغير مُستحِقِها فلن ينتفع بها، ولذلك قال تعالى في

[1] رجعتُ إلى كتاب «الرسالة» للشافعي بتحقيق وشرح أحمد شاكر رحمهما الله تعالى، فوجدتُ عبارته تحت باب: «كيف البيان؟» كالتالي: «**ومِنْهُ: ما فرضَ اللهُ على خلقه الاجتهادَ في طلبه، وابْتَلَى طاعتَهم في الاجتهاد، كما ابتَلَى طاعتَهم في غيره مما فَرَضَ عليهم**». ص ٢٢.

معرض أوامره التي تلت ذلك: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]. وأمرُ هؤلاء كأمرِ دعاء رسول الله ﷺ: «**فنعم إذاً**»[2].

فالنَّاس حين يطلبون مَدد السماء بدون وُجُودِ أصله في الأرض وبدون استعداد الطالبين له إنما هم مُعتدون في الدعاء، ثمَّ كيف يطلبون النَّصر دون لقاء الأعداء والثبات لهم وثني الرُكب في مطاعنتهم؛ وللأسف هذا حال الكثير من هذه الأُمَّة في هذه الأيام، فالجهاد عندهم كلمةٌ جميلةٌ يتغنون بها في خُطبهم ودروسهم، فإذا حضر واقعاً ذموه بكلِّ مقالة، وطعنوا في أهله كلَّ الطعن، هذا إنْ كان الرجل منهم حاملاً معنى الجهاد على معناه الشرعي، فإنَّ الكثير من المُعممين وأصحاب اللحى اليوم يذمون الجهاد وفي أصل وصفه الشرعي حيث يحملونه على غير مُراد الله سبحانه ومُراد رسوله ﷺ.

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾[3].

إنَّ مناسبة هذه الآيات مع قضية الأنفال واضحة جلِيَّة وهي ضمن سِياق المُراد الإلهي في نزع الأنفال منهم، لكن الأمر أجل من ذلك وأعظم في مُعاملة الله تعالى لأصحاب نبيِّه ﷺ، فإنَّ الأمر في باطنه هو ارتقاء هؤلاء الصحب ليكونوا قدره الحسن «**وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا**» فهذا بلاءٌ حسنٌ وهو أن يضرب الله بهم، ويقتل بهم، ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾. فلقد كنتم إرادته، ولقد كنتم سيوفه وحِرابه التي أعملها في الكافرين، فهل هناك ـ يا قوم ـ أجل من هذه المرتبة؟ هذه المرتبة التي تُساق في وضع الصحاب مقام الرسول ﷺ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾. وبهذا يرد على الذين يريدون أن يكِلُوا أمرَ الفضل الإلهي بين الخَلق، مؤمنهم وكافرهم، صالحهم وفاسدهم، ليوم القيامة، والحق أنَّ المؤمنين هم كلمته وبهم يقع قضاؤه على النَّاس، فبهذا تحصل مشاعر العِزة وتتحقق الربَّانيَّة فيهم ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾[4]، ولذلك فليس البعث شرعياً للتبليغ فقط، بل

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

[2] ففي قصة جُلَيْبيب ﷺ يروي أنس ﷺ فيقول: خَطبَ النَّبي ﷺ على جُلَيْبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها، فقال: حتّى أستأمر أمَّها. فقال النَّبي ﷺ: «**فنعم إذاً**». قال: فانطلق الرجل إلى امرأته فذكر ذلك لها فقالت: لا ها الله إذاً ما وجد رسول الله ﷺ إلاَّ جُلَيْبيباً وقد منعناها مِنْ فُلان وفُلان، قال: والجارية في سِترها تستمع، قال: قال فانطلق الرجل يُريد أَنْ يُخبر النبي ﷺ بذلك، فقالت الجارية: أتريدون أنْ تردُّوا على رسول الله ﷺ، فقال: إنْ كنتِ قد رضيته فقد رضيناه، قال: «فإنِّي قد رضيته» فزوَّجها، ثمَّ فزع أهل المدينة فركب جُلَيْبيب فوجدوه قد قُتل وحوله ناس من المُشركين قد قتلهم. قال أنس: فلقد رأيتها وإنَّها لمن أنفق بيتٍ في المدينة. «المسند» للإمام أحمد، حديث رقم: ١٢٣٧٨.

[3] سورة الأنفال، الآية: ١٧

[4] سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

هو بعث ليتحقق قدر الله في إصلاح الخَلق ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[1].
فهذه صفة الطائفة المجاهدة في رُقيِّها وصِلتها بالله وتمكن معاني العزة الإيمانية في قلوبهم.

أنتم أيها المجاهدون المُقاتلون سيوف الله، بكم يضرب أعداءه.

أنتم أيُّها المجاهدون المُقاتلون قدر الله الذي يحقق بكم صلاح الوجود، هذا الصلاح الذي قرنه الله تعالى بوصف القتل فقال: ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ ﴾. فإنَّ قتل أئمة الكفر لا يتم صلاح العالم إلاَّ به.

أما أنَّ هذا هو البلاءُ الحَسن، فهو بلاء الكلمات التي تُصِيبُ هذه السيوف في قتلها وقِتالها، وهو بلاء الألم حين تجهد وتتعب، أما أنه حَسن، فهو حَسنٌ حين انتسبت هذه السيوف له، فَصِرْتُمْ به وله ومعه، وهو حَسَنٌ بعاقبته التي يفرحون بها.

في هذه الآية إفراغ النفس في دفائنها ومقاصدها ورغباتها، لكنه إفراغ ليتحقق الإملاء بأنكم صِرتم لله وحده سبحانه، وهذا المعنى هو الذي هدد الله به الكافرين من أعدائه حين قال عقب ذلك: ﴿ **إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٩** ﴾[2].

نعم: إنَّ الله مع المؤمنين حقاً وصِدقاً ويقيناً.

لقد مضتِ السورة إلى نصفها والسؤال ما زال قائماً في نفوس الصَّحابة ﷺ: هل نحن لنا الرزق الكريم؟ وخلال هذا الترقب والتلهف وردتِ الأوامر الإلهية المُرشدة مع النداء المُحبب لهم: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ... ﴾ فتُصْغِي القلوب بإخْبَاتٍ وخُضُوعٍ واستماعٍ، وتتخلل هذه الأوامر نعماؤه فيعد بعضها مما يُناسب المقام: ﴿ **وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ** ﴾[3]، وهذه النِعم العظيمة من نصر الأمان والإيواء هي التي مهدت لكم أن تنفروا لغيركم فتصبح إرادتكم مني نيل أعدائكم ممكنة، وهذا النَّصر من الأمان والإيواء ورزق الطيبات يُوجِب عليكم شكره تعالى.

هذه الأوامر الإلهية تقترنُ مع وصف الكافرين، وهذا الوصف مقصده تجريد الكافرين من أُسس فَخارهم وسلطانهم على قلوب النَّاس وحياتهم، وهذه مهمة قرآنية جليلة يحتاجها المؤمنون لتقوية إرادتهم في النيل منهم، ويحتاجونها لردِّ الاتهامات التي يرميهم النَّاس بها، ويحتاجونها لإرساء قواعد جديدة في الحقوق التي يتعامل بها الخَلق.

---

[1] سورة الرعد، الآية: ١٧.
[2] سورة الأنفال، الآية: ١٩.
[3] سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

لقد جردهم الله من نِسبتهم لإبراهيم عليه السلام: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾** ﴾[1].

وجردهم من قيمة إعمار المسجد الحرام: ﴿ **أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾** ﴾[2].

وههنا جردهم من صَلاتهم عند البيت وما كانوا أولياءه إنْ أولياءهم إلاَّ المُتقون، وما صَلاتهم إلاَّ صُراخٌ ورقصٌ وتصفيقٌ ﴿ **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾** ﴾[3].

هذه هي قيم الحقِّ ومِعيار الله سبحانه وتعالى في وزن البشر وأفعالهم لا ما يصرخ به هؤلاء ولا ما يتبجحون به فإنَّ الأمر كما قال تعالى لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾[4]. فهذا هو ميزانه الحق والإيمان في الحقوق والسلطان والوجود، بل إنَّ وُجود رسول الله ﷺ بشخصه بينكم هو ما يمنع عذاب الله عليكم ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ** ﴾[5]. فهذه قيمة يجلُّ الله بها رسوله وهي تحتاج إلى بيان عظمة هذا النَّبي وقِيمته ومِقدار رحمة الله به ومقدار رحمته على أُمَّته، تُراجع في مظانها.

﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾. فهذه قيمةٌ أُخرى في رفع البلاء وهي باقية بقاءَ هذه الدُّنيا حتى تخرج الشمس من مغربها.

هذه قيم الإيمان والإسلام في حركة الحياة، وكما أنَّ الصِّراع في الأرض بين شريعتين فكذلك الصِّراع بين الفئة المؤمنة والآخر إنما يكون حول هذه المعايير والقِيم، والحقّ أنَّ الصِّراع اليوم حول قيم الوُجود هي أشدّ من الصِّراع حول غيرها، والنَّاس اليوم أصابهم الضعف في إعمال هذه الموازين وصار أهل الإسلام وأهل الفكر والنظر فيهم يأنفون من الحديث حول هذه القِيم، بل صاروا يتهوكون بقيم ما يُسمى بالحضارة الإنسانية الحديثة، وما قدمت للإنسانية من معارف واكتشافات ومبادئ، وصار «السيد» منهم مَن يحاول أن يُثبت تطابق هذه القِيم «الإنسانيَّة البهيميَّة» مع قِيم الإسلام والإيمان.

إنَّ من مُهمات الدُّعاة إلى الله أن يجُردوا هذه الشعارات التي ترفعها منظمات وحكومات وعوائل وتنظيمات من قيمتها، وبيان فراغها من قيمهَا الربَّانيَّة القرآنية، وكذبها في نسبتها إلى القرآن والسنَّة،

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ٦٧.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٩.
[3] سورة الأنفال، الآية: ٣٥.
[4] سورة المائدة، الآية: ٦٨.
[5] سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

ويُقابل هذا أن ترفع الفئة المُؤمنة من دُعاة ومجاهدين وعلماء راية يؤوب المؤمنون إليها، ليس فقط في المفهوم والتجريد بل لا بدَّ من بقعة حقيقية من أشخاص وألوية وما أمكن من أماكن وهذا تطبيقٌ لما قاله نبي الله سليمان عليه السلام: ﴿ **أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾** ﴾[1]، فقد دعا إلى الخُضوع لحُكمه والاستسلام لسُلطانه، وهو تطبيقٌ لقول موسى عليه السلام وهارون لقومهم فيما أمرهم الله تعالى به: ﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾[2]. فهذه هجرات مادية كلّ تتناسب مع الفئة المؤمنة وتمكنها في الأرض.

إنَّ المِعيار الوحيد الذي يصح الانتساب إليه هو قوله: ﴿ **لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾[3]. فكلها ليس بشيءٍ، وأنتم لستم بشيءٍ مِنَ الحقِّ، فكلّ نسبكم باطلٌ، وكلّ شعاراتكم أكاذيبٌ وتمويهاتٌ وفراغٌ حتى تُقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم مِنْ ربِّكم.

وأما الصِّراع بين المؤمنين وبين أعدائهم فهو على بعض الحقِّ لا كلِّه كما قال تعالى: ﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾[4]. فإنَّ هذا البعض هو الكلّ في مفهوم الالتزام، فمَن نقضَ البعض غير ملتزمٍ به فقد نقض الكلّ ولن تنفعه هذه البقية لأنَّ الصورة على هذه الحال هي نَقْصٌ لمرجعية الإنسان في ما يُدين ويعبد لقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾** ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ** ﴾[6]. فهذا هو الذي حذر الله منه رسوله ﷺ، وإلاَّ فإنَّ الكثير من دين الله تعالى يرضى عنه الكافرون لأنه لا يضرهم ولا يَعنيهم، وقد يكون ما هو مَرْضِيٌّ عند قومٍ مرفوضاً عند آخرين، حينها ينتهي الإسلام إلى مجرد خِرقٍ باليةٍ يتلبس النَّاس منها ما يُلائِمُ أمزجتهم وأهواءهم، وهذا هو أصل الكفر الذي يدعو إليه البعض اليوم من إسلامٍ مُتنوعٍ بحسب الشعوب والجنسيات والثقافات، فهناك إسلامٌ عجميٌّ، وإسلامٌ غربيٌّ، وإسلامٌ شرقيٌّ، فبدل أن يلتزم النَّاس بالدِّين الحقِّ صار الدين مطية للأهواء والرغبات والعادات، وهذه الدعوة اليوم لها رجالها وقُضاتها ومُفكروها ومُفتوها، وهي دعوة كُفرٍ صريحٍ وردةٍ عن إسلام القرآن والسنَّة بلا مثنوية.

1 سورة النمل، الآية: ٣١.
2 سورة يونس، الآية: ٨٧.
3 سورة المائدة، الآية: ٦٨.
4 سورة المائدة، الآية: ٤٩.
5 سورة محمد، الآيتان: ٢٥-٢٦.
6 سورة هود، الآية: ١٢.

إنَّ الواجب أن يلتزم كلّ مسلمٍ بدين الله تعالى ولا يرد منه شيئاً ولا يكون المرء مسلماً إلاَّ بهذا، وأما العمل به فهذا له بابٌ آخرٌ، فإنَّ الأعمال تتفاوت درجاتها في الشريعة وبالتالي يتفاوت النَّاس في درجات إيمانهم.

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

لقد تحقق لهمُ الرزق الكريم بعد هذه النقلة الإيمانية الجليلة الجميلة مع النُّور والتربية، ومع الإرشادات والوصف، ومع المدح والثناء والمِنح، بعد كلِّ هذا هم أصحاب الدرجات والمغفرة فلهمُ الرزق الكريم، ذلك لأنهمُ المُؤمنون حقاً.

ومع هذا العطاء الربَّاني غاب ما سيأخذون فلم يُذكر، وذُكر ما يُؤخذ منهم مع أنه القليل لأنه الأبقى «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**»[2]، وقد نسب الله تعالى إليهمُ الغنيمة ﴿غَنِمْتُم﴾ فكان ما سيُؤخذ من الخُمس هو مما لكم تصدقتم به صدقة واجبة، لكم أجرها وبرها وقبولها منكم أحسن القبول.

لقد تقدم الوصف التفصيلي لعالَم الغيب وأثره في عالَم الشهادة، وههنا قد تأخر وصف جغرافية المعركة لكن لِنقف مع قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ إذ في هذا الوصف ليوم بدر ما يستحق أن يُقال.

لقد كان الوعد قبلَ أن نرد على الذين يعيبون وقائع الجهاد بأنها وقائع صغيرة في حجمها، إذ ليست هي بحجم وقائع العالم الكُبرى وحروب الأُمم، وعلقت الرد على هذه النقيصة المزعومة عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ فأقول وبالله التوفيق:-

هذه بدر بين أيديكم، ضعوها في مسيرة تاريخ البشرية، ضعوها من حيث عدد الجنود المُتقابلين، ورتِبوا لها مرتبة بحسب السلاح الذي استُخدم فيها، وبحسب عدد القتلى فيها ونتائجها، وبحسب آثارها القصيرة ثم أجيبوا بعد ذلك عن هذا السؤال: هل هذه تستحقُ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾؟.

إنَّ هذه المعركة في أبعادها المادية، وبالمُقارنة مع حروب العالم ووقائع التاريخ ليست شيئاً، فلولا شخص الرسول ﷺ كقائد لها، ولولا أنها فِعل صحابة ﷺ، ولولا هذه الآيات الواصفة لها لما وقف الكثير ممن فتنتهم حروب العالم من المسلمين وُقُوفَ التعظيم لها، وسبب ذلك أنَّ هؤلاء لا يقرأون التاريخ من كتاب التاريخ الحقيقي لحركة الإنسانية وهو القرآن الكريم فهذا الكتاب الذي قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾[3]، وقال: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ

[1] سورة الأنفال، الآية: ٤١.

[2] الترمذي في «السنن» من حديث عائشة رضي الله عنها، أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النبيُّ: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**» قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قالَ: «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**» حديث رقم: ٢٥١٨. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

[3] سورة الأنبياء، الآية: ١٠.

عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ [1]. أي أنَّ فيه سِير الإنسان وتاريخه الحقيقي، لأنَّ هؤلاء تُشغلهم عوامل أُخرى غير الإنسان في حياة البشر وبقاء الأُمم وهلاك الشعوب، والقرآن يُعلِّق حركة حياة الأُمم صعوداً وهبوطاً على عاملٍ واحدٍ وهو الإيمان؛ الإيمان بمفهومه الشرعي لا بمفاهيمه الغنوصية الباطلة، فهذه البشرية الهائلة التي جاءت على هذه الأرض، وهذا الإنسان الذي عاش ومات فأبقى وورث ما الذي بقي منه ليذكره القرآن؟.

إنَّ خط النُّبوة في مسيرة البشرية هو كعِرق الذهب في سلسلة الجبال، خيطٌ دقيقٌ يتواصل مخفِياً لكنه ثمينٌ وعزيزٌ، وغيره إنما هو الحجارة والركام، هذا الخط الذي يُشير إليه القرآن ويُرشِد أتباعه إليه، لأنه ومِن أجله فقط أقام الله هذا الوجود، ومن أجله فقط قامت سُوق الجنَّة والنَّار، ومن أجله فقط تنزل ملائكة التأييد والنَّصر والعذاب، ومن أجله فقط تستقرُ هذه الحياة وتبقى، وحين ينقطع هذا الخيط ينتهي هذا الوجود كلّه لانتهاء مقصده، ومن ميزة هذا الخط أنه دقيقٌ قد يأتي على هامش الصخب البشري كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ ﴾ [2]. وقد يتسلل خُفية ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤۡمِنٌ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ ﴾ [3]. وقد يسرى هذا الخط لاجئاً إلى كهفٍ يستتر منه لعدم اتساع الوجود مع سِعته له ﴿ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ ﴾ [4]، وهو خطٌ على الدوام تدخله العيون ـ شرذمة قليلون ـ ويحتقره الملأ ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا ﴾ [5]، ويأنفُ منه المُستكبرون ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [6]، لكنه خط الذهب الذي يقدره أهله لأنهم يرونه بما يراه الله به، لا بما يراه الجاهلون ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [7]. ويقولون: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [8]، فمنطقهم هو منطق وخطاب فرعون: ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡ هَـٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [9].

هؤلاء الذين يُعظمون حوادث العالم دون النظر إلى وُجود هذا الفَرْقِ بين الذهب هم أهل الجهالة، ولذلك لما كانت بدر بين فئةٍ هم أعظم مَن دبَّ على الأرض بعد الأنبياء، وبين فرعون هذا الوجود استحقت هذا الاسم القرآني المجيد ﴿ يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ ﴾، ولذلك كانت نتائجها عظيمة حيث يقول الله

1 سورة المؤمنون، الآية: ٧١.
2 سورة القصص، الآية: ٢٠.
3 سورة غافر، الآية: ٢٨.
4 سورة الكهف، الآية: ١٠.
5 سورة هود، الآية: ٢٧.
6 سورة الأعراف، الآية: ٧٦.
7 سورة القصص، الآية: ٧٩.
8 سورة الزخرف، الآية: ٣١.
9 سورة الزخرف، الآيتان: ٥٢-٥٣.

تعالى عن موقف أهلها فيها: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. كما ورد في وصف المُتبارزين في سورة «الحج» أمام هذه الغزوة من حمزة وعليٍّ وعُبيد بن الحارث ﷺ مُقابل خصومهم[2]، وهذا وإنْ كان وصفاً للمُتبارزين فهو وصفٌ لحقيقة الفِئتين جميعاً.

إنَّ وجود عامل الإيمان في حادثةٍ تاريخيةٍ هو ما يستحق أن يُبجل ويُعظم ويُشاد به ويُمدح، أما وقائع الحياة الأُخرى من غير وُجود عاملِ الإيمان فهذه هباءٌ وفراغٌ لا تستحق الذِكر ولا التنويه.

إنَّ خُطوات موسى وهو يسير في الصحراء مُتوجهاً إلى مَدْيَنَ يتبعها القرآن فيُسجلها ويُعلم المؤمنين بها، وإنَّ رجلين يخرجان في سبيل الله لإقامة دين الله ليقص القرآن علينا حديثهما وخبرهما، وإنَّ فئةً مؤمنةً تهربُ حتى لا تُفتن في دينها ليفصل القرآن لنا أخبارهم وحديثهم بل ماذا يحبون من الطعام ﴿ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ ﴾[3].

إنه مما أصاب المسلمين من وهنٍ في فِقْهِهِم ونفوسهم ومَداركهم أن توقفت رِواياتهم لحوادث الإيمان التي يُعظمها القرآن من خِلال مِعياره الحقّ، لأنَّ منَ الانهزام الذي أصابهم هو تعظيم الآخر في كثرته وأفعاله وحُروبه وقضاياه، فقد رأينا من المسلمين الملايين الذين يُتابعون خبراً لزواج عظيمٍ من عُظماء الكُفر، ورأينا لحى وعمائم من يستطيع أن يلوك مئات الأسماء لفسقةٍ أو فجرةٍ في بابٍ من أبوابِ مُتع الحياة وبضاعة الاستهلاك، وإن سُئِل عن قضيةٍ حيَّةٍ من قضايا الإيمان في بلدٍ من البلاد كان فيها أجهل من أبي جهل، فـ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ عند هؤلاء هو يحكيه العالم الآخر عن قضايا الإسلام والمسلمين، لأنه من أقماع الباطل في ما يسمع ويذر.

لقد توقفت كتابة التاريخ الإسلامي اليوم لأنَّ مَن يهتم بالتاريخ وكتابته لم يَعُد لديهم اهتمامٌ بالحدث الإيماني كما كان عند أسلافهم ممن كتبوا عن رجال الإيمان وأحداثه ووقائعه اقتداءً بالقرآن

---

[1] سورة الحج، الآيات: ١٩ـ٢٤.

[2] ثبت في الصحيحين عن أبي ذر ﷺ: أَنَّهُ كَانَ يُقْسِمُ فِيهَا قَسَماً إِنَّ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ نَزَلَتْ فِي حَمْزَةَ وَصَاحِبَيْهِ، وَعُتْبَةَ وَصَاحِبَيْهِ يَوْمَ بَرَزُوا فِي يَوْمِ بَدْرٍ. رواه سفيان عن أبي هاشم. وقال عثمان عن جرير عن منصور عن أبي هاشم عن أبي مِجْلَزٍ.. قوله. هذا لفظ البخاري في «كتاب التفسير» باب ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ حديث رقم: ٤٧٤٣. ومسلم في «كتاب التفسير» باب في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ حديث رقم: ٣٠٣٣. وحديث آخر تفرد به البخاري رحمه الله تعالى: عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَجْثُو بَيْنَ يَدَيِ الرَّحْمَنِ لِلْخُصُومَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ قَيْسٌ: وَفِيهِمْ نَزَلَتْ ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ قَالَ هُمُ الَّذِينَ بَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ: عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ وَعُبَيْدَةُ وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَعُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَالوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ. رواه أيضاً في «كتاب التفسير» باب ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ حديث رقم: ٤٧٤٤. وأيضاً في «كتاب المغازي» باب قتلِ أبي جهلٍ. حديث رقم: ٣٩٦٥، ٣٩٦٧، ٣٩٦٦.

[3] سورة الكهف، الآية: ١٩.

الكريم، لكن أين هؤلاء اليوم الذين يُفقِهُهُم القرآن ويُربيهم ويُثقف عقولهم ونفوسهم ومناهجهم؟ إنَّ ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ يومٌ من أيام الله عِلَّة قيمته أنَّ الإيمان قد فرَّقَ بين الطائفتين ﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾. كما قال عنه في سورة «الحج»، ولا عِبرة بالكثرة ولا بالقِلّة كما لا عِبرة بالسلاح والعَتاد حين يُطلق هذا الوصف الجليل، إنما العِبرة أن تكون فيه خُصومة المُتقاتلين على ربِّهم.

وحتى لا ننسى ونحن في سِياق بيان خصومة الطائفتين على ربِّهم أنْ نذكر أنَّ الصَّحابة رضوان الله عليهم خرجوا للعِير ليغنموها، وخرجت قريش لتمنع النَّبي ﷺ وأصحابه من أخذ المال، ولكن ساقهم الله جميعاً إلى «الفُرقان» و«الحرب» و«القتال»، ذلك لأنَّ الصَّحابة استحلوا مال قريش لكُفرها، فإنَّ عدد الأنصار يومئذٍ أكثر من ثُلثي الجيش وهؤلاء لم يخسروا مالاً في مكة يستردوه لو كانت عِلَّة الأخذ هي المُقابلة، فإنَّ مَن تفكر بهذا عَلِمَ بعض فقه هذا الوصف ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾.

سيبقى الجزء الأكبر من معركتنا مع فقهاء التخذيل وأقماع الباطل ودُعاة الخبال، وألسنة السوء حول شرعية المعارك التي يخوضها المجاهدون اليوم وغداً، وبالرغم من ظهور الآيات العظيمة أنَّ هؤلاء المجاهدين يعيشون بدراً في كلِّ معركةٍ يخوضونها على معنىً من المعاني إلاَّ أنه عَقِبَ كلِّ معركةٍ سيُشهر هؤلاء سيفاً من خشب الباطل والنِّفاق، إذ ليس عجيباً أن يُوقت المؤرخون انتشار النِّفاق في الصف المسلم إنما كان عقب بدر هذه التي كانت آية من آيات الله تعالى، لكن ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[1].

إنَّ امتحان المؤمنين بقول الله لهم: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾. هو امتحانٌ أبدي لكلِّ مَوقعةٍ يشهدها المجاهدون فيرون نصر الله لهم، وتأييده، وإنزاله الجنود السماوية عليهم، وهو امتحانٌ لكلِّ مؤمنٍ وعبدٍ ينتسبُ لهذا الدين، فقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، هو ما ينزل على المجاهدين الذين يُصيبون من أعدائهم تلك الغنائم الكريمة، فإذا كان حُكم الغنائم أبدي لا ينتهي وليس مُعلّقاً على وجود الرسول ﷺ فإنَّ السبيل واحدٌ حيث يُنزِّل الله تعالى نصره على أمثال بدر.

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[2].

---

[1] سورة يونس، الآية: ١٠١.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

هذه جغرافية المعركة دَبرها الحكيم العليم على هيئة تحقق النَّصر، إذ هَدى الله أصحاب رسول الله ﷺ إلى الإشارة إليه ﷺ ليُقيموا في مكانٍ أصلح لهم في مُقابلة عدوِّهم، وبعد ذِكر المكان ووصفه جاء ذِكر تدبير الزمن بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾. فقد ذَكر تدبير المكان وتدبير الزمن لِيبيِّن الله إحاطته التامة لجنده وتدبيره المُحكم حتى يقع الفِعل الذي قدره، وكل ذلك: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. وهذه فضيلةٌ أُخرى للجهاد في سبيل الله تعالى وهي إبانة الله تعالى الحقائق للخَلق حتى تقوم عليهمُ الحجة بكاملها وتمامها.

لا أحد أحبّ إليه العذر من الله تعالى، ولذلك أرسل الله رسله، وأنزل معهم البراهين الدالة على صِدقهم ونوبتهم، ونصب الآيات حتى تنقطع أعذار الكافرين، وانقطاع الأعذار لا يعني أبداً أن يصيحوا ويعترفوا بخطئهم وصواب دعوة الحقِّ، فإنَّ هذا لا يكون أبداً، لأنَّ الجحد الذي ينهجوه هو سبيلهم دوماً كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[1]. وقال تعالى عن أعداء محمد ﷺ من الكافرين: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2]. ولذلك كانت آيات الله مُبصرة لا ظلمة فيها كما قال تعالى على لسان موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾[3]، ومن دلائل ربَّانيَّة هذا الدين هو بقاؤه وانتشاره، وكذلك نُصرة الله تعالى الدائم لها والتحاق النَّاس بها في زمن الضعف كما في زمن القوة حتى تدوم وتتواصل، وفي زماننا هذا لا نَعرفُ ولا يعرفُ النَّاس أنَّ هناك طائفةً تحارَب وتُلاحق وتُسجن وتُقتل وتحاصر كما هو حال الطائفة المنصورة المجاهدة، ومع ذلك هي باقيةٌ حيَّةٌ يأتيها من النَّاس من أصقاع الأرض، ويلتحق بها من كلِّ البلاد، يقبل الله بقلوب النَّاس عليها غير هيابين لما أصاب إخوانهم من قبلُ من البلاء الحَسن، بل قد يكون من غرائب هذا في حال غربة هذه الطائفة المنصورة أنَّ الكثير من العُمال والمُشتغلين بالوظائف الدينية كالإمامة والخِطابة والقضاء والإفتاء يقولون مُرددين ومُقلدين ما يقوله أعداء الدين فيهم، ومع ذلك يرى النَّاس ظُلمة هؤلاء ونور المجاهدين فتحصل لهمُ البصيرة والفُرقان.

إنه من الهَلكة على بيِّنةٍ والحياة على بيِّنةٍ أن تصل الفِرق المُتنازعة في ربِّها إلى درجة القتال، فبيِّنة الله تعالى وحُجته على الكافرين أنهم قاتلوا أهل الحقِّ وحاربوهم وأرادوا استئصال شأفتهم، وبيِّنة الله على المؤمنين في رضاه عنهم ومحبته لهم أنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، والشاة العائرة لا تريد هذا، لأنها تريد أن تعير لهؤلاء مرةً وللآخرين مرة، ولذلك قال تعالى في سورة «الفتح»: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ

[1] سورة النمل، الآية: ١٤.
[2] سورة الأنعام، الآية: ٣٣.
[3] سورة الإسراء، الآية: ١٠٢.

أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾[1]، لذلك كان القتال هو أعلى درجات الولاء وإثبات صِدقه، وهو أعلى درجات الابتلاء لإثبات الدعاوى، فالنَّاس حال السعة يزعمون ويتمنون لكن إنْ حق الحق وحضر الأمر فحينها تتمايز الصفوف وتُخرج القلوب دفائنها.

أما هذه الحقيقة ليس عجيباً أن نرى منافقي كلِّ زمانٍ - وفي زماننا خاصة - يبذلون كلَّ الجهود ويُعانون كلَّ المُعاناة حتى لا يكون جهادٌ بين المسلمين والكافرين، حتى في البلاد التي احتلها الكافرون صراحةً، بل هم يزعمون أنَّ هناك من الوسائل المُعاصرة - زعموا - ما هو كفيلٌ بتحقيق مقاصد المسلمين من أعدائهم دون قتالٍ يكون فيه الموت والقتل - ولا يقولون الشهادة في سبيل الله -، وهم إنما يفعلون ذلك حِفاظاً على دُنياهم ومخافة القتل في سبيل الله والابتلاء، وهؤلاء عند حضور القتال نراهم يقفون مع صف الكُفر بوجهٍ من الوجوه، بل رأينا مِنْ مُنتسبيهم مَن يُقاتل صف المجاهدين نُصرةً للكافرين، وأما رؤوسهم فهم جُبناء كما قال تعالى في أمثالهم: ﴿ **سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا** ﴾[2]. وهي صفة المنافقين على الدوام مع أمر التمايز بين الصفين، ولكن قال الله تعالى: ﴿ **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ** ﴾[3]. وهذه الآية إنما قِيلت ختاماً لقصة القرآن مع غزوة أُحد، فالحمد لله ربِّ العالمين.

لكن هل حقاً يمكن لأهل الإسلام ودُعاة الحقِّ والطائفة المنصورة أن يَصلوا المقاصد دون قِتَالٍ؟

للجواب على هذا السؤال يحتاج المُجيب أنْ يُبيِّن للسائلين ما هي مقاصد هؤلاء، فحين يُعرف هذا يكون الجواب واضحاً.

لقد كان طلب موسى من فرعون حين دعاه إلى الحقِّ أن يُبيِّن له حقين: **أولاهما**: حقُّ الله في توحيده وعبادته، **وثانيهما**: حقُّ بني إسرائيل بالانقياد من العبودية والتسخير كما قال تعالى على لسان قوم فرعون: ﴿ **لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ** ﴾[4]. وأهل الإسلام لو تأملوا دين الله أولاً وواقعهم ثانياً لَرأوْا أنَّ مطالبهم على الدوام حقان: حقّ الله تعالى، وحقوقهم التي سلبها الفراعنة دوماً، فهل يقبل فرعون بهذا؟! وهو إنما قام مُلكه على هذين الأمرين، ولذلك قال له الملأ: ﴿ **أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ** ﴾[5]. هكذا سموا طلب إخراج بني إسرائيل من التغيِّير بالإفساد في الأرض، وسموا توحيد الله إذهاب لعبادتهم وآلهتهم الباطلة، فهل حقاً يمكن لفرعون أن يتخلى عن هذا دون قِتالٍ؟!.

[1] سورة الفتح، الآية: ١٦.
[2] سورة النساء، الآية: ٩١.
[3] سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
[4] سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.
[5] سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

الجواب: ليت.

لكن حين يقبل أهل الإسلام أن يبقوا سخرة للكفرة، ويحكم بلادهم فراعنة وأكاسرة وقياصرة ولا يكون لهم من الأمر سِوَى عيش الدواب من أكلٍ وشُربٍ وفسادٍ، وحين يُصبح توحيد الله مجرد علاقةٍ غيبيةٍ ولا صِلة له بالحياة حينها يسمح لهم فرعون بهذا، بل ربما يمدح ذلك حين يرى أنَّ المقدمين في هؤلاء يُسبغون الشرعية على هذا الواقع، ويُوجبون على النَّاس إحناء الرؤوس أكثر مما هي محنية، ويزيدون في العطاء إخلاصاً له، حينئذٍ فَلتنعم نفس فرعون، ولتقر عينه بهذه الرعية الفريدة من نوعها.

والحقّ أنَّ المرء لَيعجب من رفض الكفار لهذه الخساسة والدناءة ثم لا يأنف بعض المُعممين واللحى من أن يجعلوا هذه ديناً لله تعالى الذي يقول: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾** ﴾[1]. لكن ﴿ **فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾** ﴾[2].

﴿ **إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾** ﴾[3].

هذا هو دور القائد المُسدد المهدي الرشيد، وهي مِنَّةٌ أُخرى مَنَّ الله تعالى بها على أصحاب رسول الله ﷺ في بدرٍ الكُبرى.

فهذه رؤيا منامية وقعت لرسول الله ﷺ قبل المعركة ليحملها لأصحابها بشارة لهم، فقد تضائل عدد الكافرين فرآهم قليلاً لا يُهاب منهم، والعَدد في حروب الأمس خاصة له دور في تحقيق غلبة أحد الطرفين، فحين يرى صف من الصفوف أنَّ عدوَّه أكثر منه عدداً، وقتها يقع في نفسه من التهيب والخوف وضُعف الإقدام، ثم يقع التنازع بينهم، فيفترقون في تقدير النتائج، فتُصاب النفوس بالفشل والخوف، وهذا ما عصم الله سبحانه رسوله ﷺ من الوقوع فيه، فلم يَعُدِ العَدد له دورٌ في هزِّ النفوس وإرجافِ القلوب.

وهذه الآية تبيِّن الرابط بين رؤية القائد وقوله، وبين أثر ذلك على الجُند التابعين له، فهي رؤيا لرسول الله ﷺ، ولكن أثرها كان على الأصحاب: ﴿ **وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ** ﴾.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

[2] سورة الأعراف، الآيتان: ١٦٩-١٧٠.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٤٣.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾[1].

هذا من إغراء الله تعالى للطائفتين، مُؤْمِنِهم وكافِرِهم، فحين التقى الطرفان صار أمرُ الكافرين في عَددهم إلى قِلَّةٍ في أعين المؤمنين، وذلك تصغيراً لشأنهم لما في قلوبهم من الثِّقة بالله ووعد الله لنبيِّه بالنَّصر، وكذا رأى الكافرون عدد المسلمين وهم قِلَّة في واقعهم إذ لم يروهم كثيراً حتى يُستدرجوا إلى القتال والحرب، فتكون مقتلتهم وهزيمتهم، وهذا هو القضاء الذي أراده الله تعالى ﴿ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾، وقد وصف الله غُرُورَ الكافرين بكثرتهم في الآيات التالية بقوله: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2].

وهذا مع ما فيه من محاداة لله تعالى ولرسوله ﷺ ومَن يفعل ذلك فهو مغلوبٌ ولا شك، إلاَّ أنه قِلَّة فقهٍ وعملٍ في الحروب وإدارتها، فإنَّ العاقل البصير بأمر الحروب وتجاربها لا يستهين بعَدده مهما كان قوياً أو كثيراً، ومهما كان عدوَّه ضعيفاً أو قليلاً، فإنَّ الكثرةَ مُقابل القِلَّة عاملٌ واحدٌ من عوامل النَّصر، وقد يُغطى هذا العامل بعوامل أُخرى مُقابلة كالشجاعة والخدعة ونوع الآلة المُستخدمة، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «**أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»[3]. تنبيهاً لأهمية هذا العامل في تحقيق القُدرة التي يقع بها الفِعل وهو النَّصر، فهؤلاء السُّفهاء أطاعوا شياطينهم وتحققت فيهم عوامل الهزيمة المذكورة في هذه الآيات، وهي:-

عدم شرعية الحرب: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، فالحروب إن لم يكن لها شرعية فإنها وإنْ قامت فلا تدوم.

الغفلة والغرور المُؤديان إلى سوء الإدارة والتخطيط والتنظيم: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ معناه قُوتهم وعَددهم.

فالحرب إنْ حصل فيها أحد هذين العُنصرين لإحدى الطائفتين فهي الهزيمة المُحققة عاجلاً أو آجلاً وقد حصل هذان لقريش في هذه الغزوة، ولكن ههنا وقفة مع الشيطان وجُنده، مما يستدعي الانتباه

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

[2] سورة الأنفال، الآيات: ٤٦-٤٨.

[3] عن عُقبةَ بنِ عامرٍ، قال: سمِعْتُ رسولَ الله ﷺ وهوَ على المنبرِ يقولُ: «﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألاَ إنَّ القوَّةَ الرَّميُ، ألاَ إنَّ القوَّةَ الرَّميُ، ألاَ إنَّ القوَّةَ الرَّميُ». مسلم في «كتاب الإمارة» باب فضل الرَّميِّ والحثِّ عليه وذمِّ من علِمَهُ ثمَّ نسيَهُ. حديث رقم: ١٩١٧.

أنَّ الشيطان خدعَ جُنده ومَكَرَ بهم خُبْثاً أوردهمُ الهَلكة، وهذا عجيبٌ، إذ أنَّ الشيطان له تاريخٌ مع البشرية، وله تجربةٌ مع النُّبوة ورِجالها وأتباعِها، ولو شاء المرء لَقال: على الشيطان أن يُدير المعركة لتحقق النَّصر لأتباعه حتى يقع له إمكانية تنفيذ خُطط في البشر، إغواءً وإضلالاً وإفساداً، فما له هنا زيَّن لهم حتَّى إذا حقَّ الأمر تخلى عنهم وفرَّ من تعهده بالجِوار والحِماية؟!

وقبل الإجابة على السؤال نقول: ليس العجب من الشيطان ولكن العجب من الإنسان ونِسيانه، وعدم اعتباره وقِلَّة تفكره، فالبشرية في خط وُجودها لم يحصل لها أي تراكمٍ معرفيٍّ في قضايا الاجتماع، ولم يتطور إدراكها قط حول مسائل صلاح الوجود وفساده الأخلاقي والديني والاجتماعي، بل كلُّ أمَّةٍ تأتي تلعنُ سابقتها، وتُلغي تجربتها وتزعمُ أنها هي التي أصابت الحقيقة، وانتهى التاريخ البشري فيها، فوجودها فقط الذي يُسمونه «حضارة» هو المعصوم من الزوال والذهاب والهلكة، فما أن ينتهي الجيل حتى يدب الوهن وتسري الشيخوخة وتتداعى أركان «حضارتهم»، ويجري الشيطان بعيداً عنهم صارخاً ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ ﴾، والنداء القرآني يَسْرِي بينهم هادياً ومُرشداً ودليلاً ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ ﴾[1]، ومع ذلك تتعاقب دورات الإنسان حِلَقاً لَوْلَبِيَّةً في نفس الأُفُقِ وترتكزُ على نفس المحور دون اعتبارٍ أو ادِّكَارٍ.

حقاً خُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً

إنَّ وعيَّ الشيطان على ضُعف الإنسان في مداركه، وقِلَّة صبره على أهوائه وشهواته، ونِسيان الماضي والآتي واستغراقه في اللحظة المشهودة هو الذي يجعل أغوار الشيطان وتزيينه ووسوسته وفِتنته تسري في نفس الطريق دون تغييرٍ في أجيال البشرية. «لقد غوى آدم فغوتْ أُمَّته».

إنَّ البشرية هي هي لم تتغيَّر، والإنسان بمجموعه هو الإنسان بمفرده، والاعتبار من التاريخ لا يقع إلاَّ للقِلَّة القليلة من البشر، والوعي على سُنن التاريخ يقع للأقل من هؤلاء القِلَّة، فانظرْ ماذا قال الذين يخافون ربَّهم حين حضر القِتال بين طالوت وجالوت: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ ﴾[2]. وهذا ما قالوه للمؤمنين الذين نجواْ من فتنة الشرب الكثير من النهر، وانظر ماذا قال أهل العلم للمؤمنين الذين نصحوا قارون في غُروره بالمال ﴿ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ ﴾[3]. فهذه الموعظة الشرعية قالها «قومه»، لكن الذين صمدوا أمام الفِتنة هم أهل العلم والعِبرة ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

[3] سورة القصص، الآية: ٧٧.

﴿ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾[1]. فهؤلاء تمنوا دُنيَّاه لحبهم لها، فردَّ عليهم أهل العلم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[2]. هو جوابٌ شرعيٌّ وتاريخيٌّ لما حصل لهم من العِبرة في صيرورة التاريخ مع طُغيان المال والفساد الاقتصادي.

إنَّ القرآن الكريم دعا البشرية جمعاء إلى النظر في أحوال الأُمم السابقة، وما كانت عليه من الشدة والقوة، وما كانت فيه من رَغَدِ العيش وطِيبِ الحياة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾[3]. وهذه في سورة «الروم» بعد قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[4].

وقد يقولُ قائلٌ: لكن اليوم النَّاس عمروا الأرض أكثر مما عمروها السابقون، فيُقال: ما أجهلَ هذا القائل حين يظن أنَّ صُنْعَ الحاسوب والصاروخ أكثر إنجازاً وإبداعاً في تاريخ البشرية من اكتشاف الحديد أو صناعة رغيف الخبز أو تدجين الحيوانات.

هذه جهالات الأبناء في عدم عدلهم وإنصافهم في إنجازات الآباء في مجال الاكتشافات والصناعات، وسيأتي من يستهزئ بيوم النَّاس هذا كما يستهزئ إنسان الحاسوب بسذاجة مُستعملي التِلغراف الأول.

إنَّ آية سورة «الروم» تحد بين غرور الإنسان فيما هو فيه وبين شريعة الأنبياء ونذارتهم، وفي سورة «فاطر» كان التحدي بين قوتهم وقُدرة الله تعالى فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾[5]. ولذلك لم يذكرِ الله سبحانه عُمرانهم للأرض وآثارهم فيه، إذ لا مجال لهذه الأمور في هذا التحدي.

وفي سورة «غافر» تَكرر هذا الأمر بالاعتبار والنظر في موطنين فقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾[6]. وقال في آخر السورة: ﴿ أَفَلَمْ

---

[1] سورة القصص، الآية: ٧٩.
[2] سورة القصص، الآية: ٨٠.
[3] سورة الروم، الآية: ٩.
[4] سورة الروم، الآية: ٧.
[5] سورة فاطر، الآية: ٤٤.
[6] سورة غافر، الآية: ٢٠.

يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

إذاً هذا هو حال الإنسان كما قال الله في آخر آية من السورة المُتقدمة: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2].

فالشيطان إذاً مُطمئنٌ إلى «ظُلم الإنسان في أعماله وجهله في علومه» فهو على سُننه جارٍ.

أما أنَّ الشيطان لم يهدِ أتباعه إلى أسباب النَّصر، بل أوردهم مهلكة الهزيمة، فهذا شأن الشيطان في حقيقته، والذين يعيشون بعض القصص الخُرافية في إدارة الشيطان للمعركة، ويتوهمون إدارته الراشدة لنصر أتباعه وجُنده فهم واهمون وأتباع حكايات الخيال والخُرافة، لأنَّ الشيطان لا يَعْنِيهِ إلاَّ أن يموت الإنسان كافراً، فهذا فوزه ومُنتهى طلبه.

إنَّ الشيطان يعلم أنَّ أتباعه سيُهزمون، وستؤول كلّ «حضاراتهم» إلى زوالٍ ودمارٍ، وفي كلِّ مرةٍ سيتخلى عنهم وسيذهبُ بعيداً دون عونٍ أو إنجادٍ، وسيتركهم في ألمهم وبُكائهم.

﴿ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾[3].

في غزوة بدر كان المنافقون على هامش القضية كما هم في هامش الواقعة، فلم يحضر المنافقون، وما حضر المعركة إلاَّ مؤمنٌ، لكنهم هناك بقوا في المدينة يعيبون خروج النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ﷺ إلى عِير قريش ومجابهة غضبها وسُلطانها، وهذه الآية تُبيِّن نوعية الحوار الذي جرى بين المؤمنين وخُصومهم في داخل الصف، إنه حوارٌ يكشف نفسيَّة الهزيمة التي تحيط بالمرضى والمُنافقين، فإنهم لم يتصوروا قط أهمية عُنصر الإيمان والثقة بالله واليقين عليه في تحقيق النَّصر، فالمؤمنون يقولون: إنَّ هذا الدين دينه، ونحن على ثقةٍ بوعده ونصره، والمرضى يقولون: ما للدين للمعارك وقضاياها؟! فالحرب لها سُنن جارية بين النَّاس يغلب النَّاس فيها لاعتبارات مادية فقط، وأنَّ ما تقولون هو الغُرور، أو يكون الخِطاب على صورة ثانية تحتملها الآية: وهو قول المرضى والمُنافقين إنَّ هذا الدين الذي دعا أتباعه للقتال إنما أوقعهم في المهلكة، أي أنَّ دينهم غرَّهُم حتى أهلكهم بسبب ما دعاهم إليه من القتال.

إنَّ نتيجة المعركة آلمت هؤلاء القوم، إذ كشفت سوءَ تقديرهم، وفساد ثقتهم بالله ودينه فبدل أن يهتدوا زاد طُغيانهم وتفجرت أمراض قلوبهم بالقيح والصديد، وهذا وجهٌ ثالثٌ تحمله الآية وهو أنَّ قولَ المنافقين والمرضى إنما كان عقب النَّصر فقالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ ﴾ أي إنَّ الصَّحابة نَسبوا النَّصر

[1] سورة غافر، الآية: ٨٢.
[2] سورة غافر، الآية: ٨٥.
[3] سورة الأنفال، الآية: ٤٩.

لله، ووقع بسبب إيمانهم بدينه فأوقعهم هذا الظن في الغرور المفضي إلى هلكتهم لما سيُقدِمون عليه من حروب قادمة.

والمُفسرون يقولون إنَّ هذا القول من منافقين بقواْ في مكة ولم يُهاجروا، وحضروا اللقاء، فلما رأوا قِلَّة المؤمنين قالوا مقالتهم تلك، والتاريخ يقول: إنه لم يكن في مكة نفاق، ولم يُذكر النِّفاق قط في الآيات المكية إلاَّ ما ذُكِر في سورة «العنكبوت» ـ وهي مكية ـ من قوله تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾[1]. ولا شكَّ أنَّ هناك مَنْ آمن في مكة ثم فُتِن عن دينه لِضُعْفِ إيمانه فلعلَّ هؤلاء مَن قصدهم الله في قوله في سورة «العنكبوت»، أما أن يخرج مُنافقون إلى بدرٍ مع المُشركين، أي أنهم يُظْهِرُونَ الإسلام ويُبْطِنُونَ الكُفر فهذا ما لا يُتصور، والله أعلم.

هذه غزوة بدر في سورة «الأنفال»، وقد ذكرت هذه الغزوة تذكيراً بها في سورة «آل عمران» كمقدمة لما سيأتي من الحديث عن غزوة أُحد، ومِنْ سُنن القرآن أن يُمهد للأُمور بما يُناسبها وهذا كثيرٌ كما مَهَدَ في سورة «البقرة» أَمْرَ تحويلِ القِبلة بذكر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبنائهما البيت، وكما مَهَدَ لأمر وِلادة مريم عيسى عليهما السلام بلا أبٍ، وبما وقع لزوجة زكريا من وِلادة يحيى عليه السلام بعد يأسها وكونها عاقراً وبلوغها الشيخوخة كما في سورة «آل عمران» و«مريم»، فلما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[2]. إذ نزلت هاتين الآيتين في شأن أُحد، قال سبحانه وتعالى عقبها: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾[3].

وهذا التذكير إنما هو للمؤمنين لأنَّ الطائفتين هما من الأنصار بنو سلمة وبنو الحارث. وقال ربُّنا عنهما: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ فهذا مدحٌ لهما، ذلك أنهما أرادتَا الرجوع بعد الخروج عندما وقع التنازع فعصم الله «الطائفتين» فخرجتا. وسبب التذكير كما هو ظاهرٌ من الآيات أنَّ التنازع كان بسبب رُؤية البعض عدم المُكافأة بين قريش وبين الصَّحابة فقال تعالى: ﴿ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾. فمن رأى ذلك حقَّ له أنْ لا يُنازع في هذا الشأن، إذِ الواجب هو البصيرة في أمر القتال الحاصل على أساس الإيمان، وهذه البصيرة هي التقوى التي أمر الله بها هنا ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ . وأما الشكر هنا فهو دوامُ النفير والجهاد في سبيل الله تعالى، أي إنَّ بصيرتكم وفِقْهَكُم في سنَّة الله في تعامله مع

---

[1] سورة العنكبوت، الآية: ١١.
[2] سورة آل عمران، الآيتان: ١٢١-١٢٢.
[3] سورة آل عمران، الآيات: ١٢٣-١٢٧.

دينه وأهله مُقابل أعدائه وأعدائكم إن حضرتِ الصفوف يُوجِب عليكم عدم الفشل (وهو التخلف والنكوص)، فالشكر ـ وهو عملٌ كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾[1] ـ يُقابل الفشل في هذه الآيات وهو بيِّنٌ.

وأما شأنُ العَدد فالله يتكفل به فهو ﴿يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾[2]. ومناسبة ذِكْرِ هذا التفصيل بِذِكْرِ هذا العَدد ثمَّ ما أعقبه بقوله: ﴿يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾[3]. أنَّ الله تعالى أنزل ملائكته يوم أُحد، وقد ذكر لهم رسول الله ﷺ رؤيته لجبريل عليه السلام وهو آخِذٌ بعَنان فرسه بين الغمام يوم أُحد. ولكن قيَّد الله نزول هذا المدد الأخر ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ بقوله: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾. وهذا لم يقع منهم ﷺ يوم أُحد بل قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾[4]. فكان هذا تعليماً وتفقيهاً لأصحاب محمد ﷺ ولأُمَّته من بعده سنَّة الله تعالى في إنزال الملائكة وبقائهم وحصول الإمداد بهم، وهو جوابٌ لمن سأل عن الفارق بين بدر وأُحد، وردٌّ عمن شكك برؤية رسول الله ﷺ للملائكة يوم أُحد، وهذا يُبيِّن ما تقدم بأنَّ الأمر لا ينزل من السماء إلاَّ إذا وُجدت مادته من الأرض واستعداد أهله له.

وأما التقوى ههنا في قوله: ﴿إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ هو يُقابل ما سيأتي بعد ذلك من قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ لله الأمر مِن قبلُ ومن بعدُ.

وههنا في سورة «آل عمران» قال سبحانه: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[5]. وقد تقدم أنَّ الله قال في سورة «الأنفال» وهي السابقة في النزول: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧﴾[6]. والفارق بينهما أنَّ بدراً باعتبارها أساساً لما بعدها من تاريخ الإسلام هي لقطع دابر الكافرين، وهي باعتبارها حدثاً واحداً فقد تحقق فيها قطع طرفٍ من أطراف الكافرين، وثمَّ إنجاء المؤمنين من الهلكة فردَّ الله كيدهم وخابت مساعيهم ومُرادهم.

وسبب هذا التفريق أنَّ ذكر بدر في سورة «آل عمران» هي مُقابلة غزوة أُحد حيث أصاب الكافرون من المسلمين مُرادهم من الثأر لبدر فلم ينقلبوا خائبين، وأصابوا بعض المؤمنين، فكان هذا الذي

---

1 سورة سبأ، الآية: ١٣.
2 سورة آل عمران، الآية: ١٢٤.
3 سورة آل عمران، الآية: ١٢٥.
4 سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
5 سورة آل عمران، الآية: ١٢٧.
6 سورة الأنفال، الآية: ٧.

تقدم، فبدر كما في «الأنفال» هي لِذكر النِّعمة مجردةً وبدر في سورة «آل عمران» هي لِذكر النِّعمة مقابل المُصيبة.

ومما يُستفاد من هذا كذلك أنَّ ذِكر بدر كمقدمة لما وقع من الألم والأذى في أُحد بعد ذكر العِبرة أنَّ في ذلك تقوية للمؤمنين وتثبيتاً لهم أنَّ أُحد مجرد انحرافٍ يسيرٍ عن الجادة ولا تعني أبداً النكوص أو التخلي عنها، ولا تدفع الجُند أبداً من عدم مُواصلة الطريق، بل بدر هي طريقكم، وهي منهجكم، وهي سبيلكم، وما يحصل من الأذى والألم والمُصيبة إنما هو أمرٌ عارِضٌ له أسبابه وسيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى.

هذه هي بدر القرآن، وهي بدر التاريخ، وبدر الإنسان، وبدر الحدث، وبدر النتائج.

إنَّ بدر ليست حدثاً سماوياً لا علاقة له بسنن الأرض، ولا فِعْلاً إلهياً بلا سببٍ مُوجِبٍ له من الإنسان المُؤمن والكافر، ولا آية قرآنية شرعية فقط دون أن تكون في وقوعها كلمة كونية لا تتخلف إنْ وُجِدَ سبيلها ومُنِعَتْ موانعها.

هذه قراءة القرآن لهذا الحدث، وهي وصفٌ لعالَمِ الغيبِ وحركته، ووصفٌ لعالَمِ الشهادةِ ومُؤثرات الفِعْلِ فيهما، لكن بقيت قِراءةٌ هي القراءةُ الأرضية البحتة لها باعتبارها حدثاً إنسانياً خاضعاً لسُنن الأرض التي يعرفها النَّاس من فن الحرب والقتال ليُدْرِكَ النَّاس مدى تطابق حركة السماء مع حركة الأرض فإنَّ ربِّي على صراطٍ مستقيمٍ، والله له الخَلقُ والأمرُ، وهما خاضعان للحِكمة والعدل لا يتخلف مَعِينٌ منهما عنهما، وما عرف النَّاس أنَّ الأمر من عند الله إلاَّ بعد أن رأوه حقًّا، وكونه حقًّا يعني أنه يتطابق مع فِطرة الخَلق التي يحُسونها بداهةً في نفوسهم، ولا يستطيعون لها رداً ولا جِدَالاً.

إنَّ بدر القرآن هي للاعتبار والادِّكار والاتعاظ والتأسيس، لا لِيَكْتُبَ عنها النَّاس فاصلين بين التقوى كفعلٍ يسبقها يحضِّر المُقاتلون أنفسهم لها كما يزعمُ أصحاب دعوى التربية الطفولية، فإنَّ بدر لا تُسْعِفُهُمْ بذلك أبداً، بل هي على الضدِّ من ذلك، فإنَّ الصَّحابة خرجوا طلباً للعِير، ولم يكونوا يرون أنفسهم أبداً على استعدادٍ لهذه الحرب بل جادلوا بها، ثم تساءلوا حول الغنيمة، لأنهم الإنسان مع تقواه، لا مع التقوى في عالَم المثل والخيال حيث يَسبح الحالمون بعيداً عن الواقع والحقيقة.

إنَّ الذين يقولون إنَّ عصر مكة هو عصر التربية، وعصر المدينة هو عصر الجهاد يرد عليهم أنَّ الأنصار في هذه الغزوة كانوا أكثر من ثُلثي الجيش، وهم الذين قالوا لرسول الله ﷺ: «**لاَ نَقُول لَكَ**

كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ»[1]، فكانت بدر الكُبرى صنيعة الله تعالى بهذه المادة التي اتقت ربَّها حين القتال.

إنَّ بدر القرآن هي بدر الملائكة الذين ينزلون حيث وُجِدَ من البشر وِعَاؤهم الذي يعملُ عمله، حيث يصبر المجاهد ويُصابِر، ويَقْتُلْ ويُقَاتِلْ، ويَثْبُتْ ولا يَفْشَلْ، وليست خيالاً وحُلْماً لِفِعْلِ ملائكة لا دورَ للمؤمن فيها إلاَّ أن ينتظرَ هبوبَ الريح على الكافرين وترميهم بالبحر.

إنَّ بدر القرآن هي خصومة في الله، استحل المؤمنون أموال الكافرين لكُفرهم وصدِّهم عن سبيل الله، فكانتِ الأنفال رزقاً كريماً ليس هناك أكرم منه مالاً.

إنَّ بدر القرآن طعنت كِبرياء الكافرين في خاصِرَتِهِم وهذه كافيةٌ لأنْ تكون منهجاً يُحتذى بأنَّ كلَّ إِيلامٍ لهم هو بدر على معنىً من المعاني لأنه يقطع منهم طرفاً ويردّ كيدهم خائبين.

إنَّ بدر القرآن لا تعني أن لا يكون بعدها «أُحداً» يتألم المسلمون فيها ويُصيبهمُ القَرح، ويبكي المسلمون أحبابهم وشُهداءهم، لأنَّ بدر القرآن هي باعث «أُحد» عند المُشركين، وهي ردٌّ على المنافقين ومَرْضَى النفوس الذين لا يريدون عِزَّة المؤمنين ولا إيذاء الكافرين مخافةَ الثأْرِ والانتقام فإنَّ هؤلاء هم القائلون: ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

إنَّ بدر القرآن تُفسر معنى نزول الملائكة، وأنَّ نزولهم لا يلغي حركة الأرض وسُننها، فحيث كان النَّصر تكون الملائكة، يُؤمن بذلك أبو بكر وعمر والمؤمنون، ويكفر بذلك من يقول: ﴿غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾.

إنَّ بدر القرآن لا تُلغي النِّفاق ولا تقطع الألسنة الحِداد الشحيحة على الخير والمؤمنين، بل مع أنها نصرٌ وتأييدٌ لكن سيبرز النِّفاق قَرْنَهُ وسيبقى على غَيِّهِ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾[2]، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[3]. فهكذا هم يجرون كلّ ما يرونه على العادة والطبيعة، وعلى قطع عالَم الغيب عن عالَم الشهادة، وأنه لا دور للإيمان في الحياة وجريانها، ولا لِغضب الله ولا لِرضاه في أحوال أُناسٍ وظروفهم من نصرٍ وهزيمةٍ وغيرهما.

حين نفهمُ هذا فهل لنا أنْ نسأل أعداء الجهاد والقتال في سبيل الله في يومنا هذا إلى خروج الدجال: بالله عليكم هل ترون بدراً هذه الأيام أم أنَّ بدراً قد مضت وحالت إلى رُقم التاريخ ومتاحفه؟!

1 البخاري في «كتاب المغازي» باب قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ...﴾. حديث رقم: ٣٩٥٢. طرفه في: ٤٦٠٩.

2 سورة الطور، الآية: ٤٤.

3 سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

هذا هو جوهر القضية مفصلُ البيان بين المنهجين.



ملحق واستثمار «بنو قَيْنُقَاع»

قال تعالى: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾** ﴾[1].

هاتان آيتان تُذكِّرَان الكافرين بما وقع للمشركين في بدر، أُنزلتا في بني قَيْنُقَاع حين ردُّوا دعوة رسول الله ﷺ قائلاً: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يُصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا يغرنكَ من نفسكَ أنك قتلتَ نفراً من قريش، كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنكَ لو قاتلتنا لعرفتَ أنا نحن النَّاس، وإنكَ لم تلقَ مثلنا فأنزل الله هاتين الآيتين**»[2].

﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾** ﴾.

هذه سنَّةٌ جاريةٌ في الكافرين، وهي سِمَةٌ تاريخيَّةٌ لا يصيرون فيها إلى غلبته على المؤمنين، بل هم سيُغلبون وقد غُلِبُوا دَوْماً، وما ارتفاعهم حيناً من الدهر إلاَّ إغراءٌ إلـهيٌّ لهم، حتى إذا تم الأخذُ كان أليماً شديداً.

---

[1] سورة آل عمران، الآيتان: ١٢-١٣.

[2] روى أبو داود في «**سننه**» والبيهقي في «**الدلائل**» من طريق ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس: «أَنَّ رسول الله ﷺ لما أَصاب من أَهل بدر ما أَصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أَصاب قريشاً**». فقالوا: يا محمد لا يغرنَّك من نفسك أَن قتلت نفراً من قريش كانوا أَغماراً لا يعرفون القتال، إنَّك والله لو قاتلتنا لعرفت أَنَّا نحن النَّاس وأَنَّك لم تلق مثلنا، فأنزل الله: ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾** ﴾. ذكره أيضاً الواحدي في «**أسباب النزول**» ص١٢٣.

وأخرج ابن إسحق وابن جرير والبيهقي في «**الدلائل**» عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ لما أصاب من بدر ورجع إلى المدينة، جمع اليهود في سوق بني قينقاع وقال: «**يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً**» فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ولا يعرفون القتال، إنك والله لوما قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا . فأنزل الله ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿**لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾**﴾». و أخرج ابن اسحق و ابن جرير وابن أبي حاتم عن عاصم بن عمر عن قتادة. مثله.

وأخرج ابن جرير و ابن المنذر عن عكرمة قال: قال فنحاص اليهودي في يوم بدر: لا يغرن محمدا أن غلب قريشاً وقتلهم، إن قريشاً لا تحسن القتال. فنزلت هذه الآية ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ** ﴾. ذكره السيوطي في «**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**» ١٥٨/٢ .

وذكر ابن الجوزي في «**زاد المسير في علم التفسير**» ٣٥٥/١-٣٥٦: أن في سبب نزول الآية ثلاثة أقوال. **أحدهما**: أنَّ يهود المدينة لما رأوا وقعة بدر، همُّوا بالإسلام، وقالوا: هذا هو النبي الذي نجده في كتابنا، لا تُرد له راية، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى تنظروا له وقعة أخرى، فلما كانت أُحد، شكُّوا، وقالوا: ما هو به، ونقضوا عهداً كان بينهم وبين النبيّ، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة، فقالوا: تكون كلمتنا واحدة، فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح، عن ابن عباس. رواه الواحدي في «**أسباب النزول**» عن الكلبي، عن أبي صالح. **والثاني**: أنها نزلت في قريش قبل وقعة بدر، فحقق الله وعده يوم بدر، رُوي عن ابن عباس، والضحاك. **والثالث**: أنَّ أبا سفيان في جماعة من قومه، جمعوا لرسول الله ﷺ، بعد وقعة بدر، فنزلت هذه الآية، قاله ابن السائب.

التاريخ الإنساني فيه ظاهرة عُلُوِّ الكُفر ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1]، والعُلو في القرآن غالباً مقرونٌ بالفساد كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾[5]، وعُلوَ الكُفر كان يُقابله محنة المؤمنين، أي ابتلائهم بهذا العُلو ومُقارعته، وفي سورة «يونس» دليلٌ على أنَّ السياق البشري يتوجه دوماً في مجموعه نحو الكُفر لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[6]، يقول ابن عباس ﷺ: «وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلّهم على الإسلام، ثمَّ وقع الاختلاف بين النَّاس وعُبدتْ الأصنام والأنداد والأوثان..»[7]، هي نزعة جماهيرية عامة تُضاد أصل الفطرة الإنسانية بوجودها الأول كما في كلام ابن عباس وبإفراد هذا الوجود لقوله ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ...**»[8]، ولذلك كان يأتي الأنبياء لأُممهم، ولا يُعلم أنَّ أُمَّةً كاملةً اتبعت نبيّاً من الأنبياء إلاَّ ما قاله الله عن قوم يونس بعد نجاته من بطن الحوت كما قال تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾

---

1 سورة الروم، الآية: ٤٢.

2 سورة القصص، الآية: ٤.

3 سورة القصص، الآية: ٨٣.

4 سورة المؤمنون، الآيتان: ٤٥-٤٦.

5 سورة الإسراء، الآية: ٤.

6 سورة يونس، الآية: ١٩.

7 أخرج الحاكم في «**المُستدرك على الصحيحين**» ٤٨٠/٢: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين، وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة». وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. انظر: «**الجامع لأحكام القرآن**» للقرطبي ١٢١/٦، ٩٣/٢٩. «**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**» ٤٩١/٣. «**فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير**» للشوكاني ٣١٧/١، ٣٠٦/٢. «**الدر المنثور في التفسير بالمأثور**» للسيوطي ٥٨٢/١. «**تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير**» لمحمد نسيب الرفاعي٣٩٨/٢.

وقال الشيخ محمد رشاد سالم في تحقيقه لكتاب «**الصَّفَديَّة**» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ربُّ البريَّة، ٣٠٧/٢ (الهامش) ما نصه: «روى الطبري بسنده (طبعة المعارف) ٢٧٥/٤ عن ابن عباس ﷺ: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلّهم على شريعةٍ من الحقِّ، فاختلفوا، فبعث الله النبيِّين مُبشرين ومُنذرين. قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله: «كان النَّاس أُمَّة واحدة فاختلفوا». وعلَّق أحمد شاكر - رحمه الله تعالى - على هذا الأثر (٤٠٤٨) بقوله: «رواه الحاكم في «**المستدرك**» ٥٤٦/٢٢-٥٤٧، وقال حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي» انتهى.

8 البخاري في «كتاب الجنائز» باب ما قيل في أولاد المُشركين. حديث رقم: ١٣٨٥، ومسلم في «كتاب القدر» باب معنى كلُّ مولود يولد على الفِطرة وحكمُ موتِ أطفالِ الكفارِ وأطفال المسلمين. بهذا اللفظ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ...**» حديث رقم: ٢٦٥٨.

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾[1]، وهذا هو تفسير قوله تعالى فيهم: **﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨﴾**[2].

ثم تتابع الأنبيَّاء على هذا النَّسق مع الأُمم عامةً، وكانت الخاتمة برسول الله ﷺ، حيث أنَّ أُمَّته هي أعظم الأُمم المُؤمنة كَثْرَةً، وأقربُ الأُمم إليها في العدد هي أُمَّة موسى عليه السلام كما في الحديث الصحيح[3]، ومع هذه الكثرة إلاَّ أنَّ نِسبتها للكافرين المُعاصرين لها منذ بعثة النَّبيِّ ﷺ إلى يوم القيامة نسبة يسيرة، بل إنَّ مجموع عددها مقابل يأجوج ومأجوج نسبة واحد بالمئة كما في الصحيح.

إذاً يجبُ التفريق عِلمياً بين الكثرة والغلبة، ثم يجبُ فهم الغلبة قرآنياً حتى يتم إدراك معنى هذه الآية: **﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٢﴾**[4]. وقوله تعالى: **﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾**[5]. وقوله تعالى: **﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧﴾**[6]. فهذه الآيات وأمثالها ليست إنهاءً لمفهوم الإيمانية، وليست إلغاءً لمفهوم عُلو الكافرين وكثرتهم، لأنه يجبُ أن تُفهم من خلال دوام التدافع في الأرض بين الإنسان والإنسان، وبين الإيمان والكفر.

التاريخ لا يحط رِحاله أبداً إلى يوم القيامة، ولا يُعطي أماناً لأحدٍ، فليس عُلو الكافرين في فترةٍ زمنيةٍ ما ومهما طالت لا عاقبة له، ولا مفهوم الغلبة الإيمانية يعني قط إلغاء هذا العُلو وإزالته، إذ ليس نصر طائفة ما هو إلغاءٌ للأُخرى.

لقد انتصرَ الجيل الأول على الروم وبقيتْ الروم تُسيطر على أصل سلطانها وقاعدة حُكمها، ثمَّ بقي فيها عامل الانطلاق والغزو والحضور، ولم يتوقف نمو قرونها وتجددها إلى يومنا هذا، ثمَّ قد ضرب الله الذلة على اليهود إلى يوم القيامة، كما قال تعالى في سورة «الأعراف»: **﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٧﴾**[7]، ومع هذا فسيكون لهم عُلُوَّان كما قال سبحانه وتعالى في سورة «الإسراء».

---

[1] سورة الصافات، الآيات: ١٤٥ـ١٤٨.

[2] سورة يونس، الآية: ٩٨.

[3] حديث طويل أخرجه الشيخان. وهذا الشاهد منه: «.. ثُمَّ صَعِدَ بِي ـ أي جبريل عليه السلام ـ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ أُرسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ. قِيلَ: مَرْحَباً بِهِ، فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ. فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَباً بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. **فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى. قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لأَنَّ غُلاَماً بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي..**». البخاري في «كتاب مناقب الأنصار» باب المعراج. حديث رقم: ٣٨٨٧. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلواتِ. حديث رقم: ١٦٢.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٢.

[5] سورة غافر، الآية: ٥١.

[6] سورة الروم، الآية: ٤٧.

[7] سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

وفي سورة «الصف» كان الحُكم القَدري أنَّ أتباع عيسى عليه السلام همُ الغالبون على أعدائهم كما قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. ولا يُعلم في تاريخ النَّصرانية قط أنَّ الموحِّدين منهم كانت لهمُ الغلبة على بني إسرائيل أو على المُشركين من النصارى، ولما جاء الإسلام دخل الموحِّدون الباقون على دين عيسى في الإسلام وحصل بهذا النَّصر والغلبة على اليهود وعلى المُشركين من النصارى وهذا ما فسره العالمون بكتاب الله، فقد قالوا إنَّ قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴾. أنهم أتباع محمد ﷺ، إذ هم أتباع عيسى كذلك، ولذلك فقد مضت خمسمائة سنة منذ مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث محمد عليه الصلاة والسلام والموحِّدون من أتباع المسيح لا سلطان لهم في الأرض، وقسطنطين الروماني الذي تنصَّر وأَدخلَ النَّصرانية في الحُكم لأنه كان قيصراً إنما تنصر مشركاً لا موحِّداً، وقمعَ وعذبَ الموحِّدين أتباع آريوس حتى اضطروا إلى الاختفاء والانزواء في الجبال وهو سبب منشأ الرهبانية، إذاً قد مضت سِنون طويلة لا ظهور للموحِّدين وأتباع الأنبياء.

ولذلك فهذه الآيات الربَّانيَّة يجب وصفها في سِياق التدافع، وهذا التدافع له صُوره المُتعددة، والتي إنْ حصلت بين المؤمنين والكافرين فإنَّ نهاية كلّ حلقة من حلقات هذا التدافع هو نُصرة المؤمنين. لكنه نصرٌ لا يلغي الكثرة للكافرين ولا يلغي إمكانية عُلُوهِم مرةً أُخرى لتدوم محنَّة المؤمنين والتدافع.

يجبُ إلغاء الأوهام والصور الخيالية، إذِ الكثير فيها مبني على تعميم الحوادث على التاريخ والجغرافيا، فحين تُروى قصة مبارزة بين مؤمنٍ شُجاعٍ قويٍ وبين كافرٍ شُجاعٍ قويٍّ فينتصر المؤمن في المُبارزة يجب أن لا نُعمم هذه الصورة على كلِّ الأرض يومذاك ولا على كلِّ تاريخ، وكذلك حين تجري حادثة إيمانية لمعركة بين فئةٍ مؤمنةٍ وأُخرى كافرةٍ فينتصر فيها المؤمنون يجب علينا كذلك أن لا نتصور أنَّ هذه المعركة هي صورة الأرض كلِّها وصفة تاريخ التدافع بين الإيمان والكفر ولا هي نهاية لتاريخ هاتين الفئتين، وبهذا الوعي على الواقع تُصبح الآيات القرآنية عِبْرَةً لكلِّ وقائع التدافع بين الإيمان والكفر، فقوله تعالى: ﴿ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾[2]. تُصبح عِبرةً في كلِّ الظروفِ، وكلِّ موقعةٍ، وكلِّ حادثةٍ حصلت فيها الخصومة بين المؤمن والكافر سواء كان هذا الظرف فيه غلبة للمؤمن أو عُلُوٌّ للكافرين، والأمر كذلك ههنا في هذه الآية: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾. فالذين يتصورون أنَّ هزيمة الكُفر تعني انتهاء سُنَّة التدافع، وأنَّ غلبته

---

[1] سورة الصف، الآية: ١٤.

[2] سورة الحج، الآيات: ١٩-٢٢.

تعني زواله وزوال لظاهرة عُلوِّه ومحنَّة المؤمنين هم واهمون حالمون، وفيهم جُهلاء كثيرون، جَهْلٌ في التاريخ وجَهْلٌ في فَهْمِ كتاب الله تعالى، ومصير هؤلاء ينتهي إلى اليأس من التغيِّير والاستسلام لمطالب الكافرين أو الانسحاب من ساحات الجهاد رجاءَ الطفرات التاريخية القادمة والتي لا وُجود لها قط.

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾.

بدر ليست حادثاً ماضياً، بل هي حاضرة في كلِّ موقعةٍ بين المؤمنين والكافرين، والذين يطلبون من المؤمنين أن ينتهوا عن توظيف تاريخ الأنبياء والقرآن في صِراعهم مع الكفر هم أعداء القرآن وخصوم سنَّة الله الماضية فيهم، لأنَّهم جهلة، والكافرون في عُلوِّهم مغلوبون، والمؤمنون في محنتهم منصورون، وفي كلِّ حلقة صِراعٍ بين هاتين الطائفتين ستكون هزيمة الكافرين وغلبتهم مهما طالت هذه الحلقة حتى لو كانت خمسمائة سنة، فالحروب الصليبية طالت أكثر من مائة سنة والمؤمنون في محنَّة كان أشدها بدايتها حين خاضت خيول النصارى في دماء المسلمين في بيت المقدس، وقامت سُوق التدافع بين طائفة الإيمان والكفر بلا خليفة يرعاها، ولا إمامٍ جامعٍ يُعلن الجهاد والنفير إنما من خلال صراع هاتين الطائفتين ومن خلال جزر وطوائف ومشيخات إيمانية، وراية تذهب تورث أختها، وقلعة تقوم ثمَّ تزول ليأخذ ورثتها آخرون، وخيانات وتحولات رِدَّة في أبناء مجاهدين ينقلبون على أعقابهم وهم يتحالفون مع النصارى الصليبيين، وممالك ضالَّة تنوس[1] بين الفريقين بحسب مصالحها الدنيويَّة، كلّ هذا وأكثر منه في داخل الصَّف الإسلامي، ويُقابله موجات كُفْرٍ تأتي فبعضها يستقر وبعضها يتلاشى، وبعضها يُصارع آخرين منهم، بمصالح تجمع ومصالح تُفرق، وبين طائفة الإيمان والكفر صِراعٌ ممتدٌ بمعارك أُخرى وصُغرى ومُناوشات جُزئية، فتسقط قِلاع صليبية ثم تُباد قُرى إسلامية ومدن إسلامية تسقط في أوج الانتصار في معركة كبرى سقطت كما شأن سقوط مدينة عكا بيد الصليبيين بعد حِطين، وهكذا تسير حياة وسُنَّة التدافع لا يُوقِفها مُراجعات ضالة ولا خيالات حالمين بوجوب التوقف حتى نُربي الأُمَّة في صوامع معزولة عن حياة الصِّراع والقِتال، ثمَّ كانتِ العاقبة للمتقين، فما كادت هذه الموجة أن تتم حتى جاء التتار ومضت الحياة في سنَّتها تتهاوى على هذا الوقع بلا تخلُّف، وتحقق في ذلك كلِّه قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾.

هذه الآية وإن كانت إعلاناً ربانيّاً ضدَّ الكافرين إلاَّ أنَّها تربية للمؤمنين، فهي سلاحهم القلبي والباطني حين يأتيهمُ الكفر مُتَبَجِّحاً مُسْتَعْلِياً بما معه وبقوته أنَّكم ستُغلبون، فإنْ تعاظم الكفر واستعلى بما معه في وجه المؤمنين، قابلهم هؤلاء بوعد الله تعالى أنَّهم سيغلبونهم، وهذا وعدٌ إلهيٌّ

[1] يقال: ناسَ الشيءُ يَنوس نَوْساً ونَوْساناً: إذا تحرك متدلِّياً. نوس: الشيء المُعلَّق في الهواء، ومنه قيل للمُتردد بين أمرين مذبذب، وهو من صفات المنافق.

لمن غالبَ وصارعَ ودافعَ لا مَن استكانَ وتخاذلَ وألقى بيده مُصَافِحاً الكفر زاعماً الذكاء والكِياسة وفن المُمكن، فهؤلاء ملعونون في تاريخ الإنسان، موصوفون بأحطِّ أنواع الصِّفات، وبقاؤهم دوماً مرهونٌ برضى الكفر عنهم، فلا أرجل لهم إلاَّ ما يقيمهم فيه، حتى إذا غيَّر الكفر دابَّته التي يمتطيها ـ وكثيراً ما يفعل ـ تساقطوا كأمس الذاهب، ولم يبقَ لهم في صفحة التاريخ إلاَّ ما يُسيئهم.

وإذا تساءل المرء كيف يُهدد القرآن الكافرين وهم لا يؤمنون به؟ وهل على المؤمن أن يعمل بهذه الآية على ظاهرها فيقول للكافرين هذا؟.

الجواب نعم، بل هو واجبٌ من واجبات الشرع، وواجبٌ من واجبات المعركة لتحصيل النَّصر، فإنَّه مما يغيظ الكافرين أن يفخر المؤمن أنَّهم عِباد الله وجُنده وأولياءه، وأنَّ خصومهم هم أعداء الله وخصومه، فمثل هذا الإعلان يأكلُ قلوبهم ويُوغِرُ صُدورهم ويُقْلِقُ عليهم سعادتهم وهناءهم، لأنَّ هذا الأمر هو صِرَاعٌ على الشرعية، فالكافرون دوماً يكذبون ويزدرون في هذا الباب، فاليهود والنصارى قالوا: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ** ﴾[1]. وهذا نِزاعٌ على الشرعية الربَّانيِّة، وادعاءاتهم في باب الشرعية لا ينتهي، ومِن صُورها الخبيثة اليوم الدعوة إلى إبطال الشرعية الربَّانيَّة إلى شرعيات أُخرى كالتاريخية أو الإنسانية وما أشبهها حتى تنتهي الفِرق المُتنازعة من دعوى القتال والتملك باسم الله تعالى، وهذه أبوابٌ شيطانيةٌ يستخدمها الكافرون ضدَّ خصومهم لكنهم في داخل صفوفهم يجيِّشون النَّاس ويستنفرونهم باسم الله تعالى كذباً وزوراً، ولذلك على المسلم أن يَصْدُقَ مع الله تعالى في كلِّ حركاته وسَكناته وأعلاها القتال والتدافع فيُعلِنَ أنَّ قِتاله وتملكه وسِلمه وولاءه وبراءه إنما هو لله تعالى كما قال سبحانه وتعالى داعياً عبده لذلك: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾** ﴾[2]، فإعلان أُمَّة الإسلام، وطوائف الجهاد أنهم يُقاتلون باسم الله، وأنَّهم يمثِّلون أمر الله تعالى يُغيظ الكافرين ويُوهِنُ قِوَاهُم ويكشفُ غيظهم.

فالمُراقب اليوم لصرخات الزنادقة هو مقتهم وغضبهم لعُصبة الإيمان والجهاد في إعلانهم أنَّهم جُند الله وأنَّ خصومهم هم أعداء الله، وأنَّ قتلى المؤمنين في الجنَّة وأنَّ قتلاهم وموتاهم في جهنَّم وبئس المصير، وأنَّ الإسلام هو دين الله وأنَّ غيره هو باطلٌ وكذبٌ وكُفرٌ، وهذا واجبٌ إيمانيٌّ في كشف حقائق الأُمور في الدُّنيا والآخرة، لأنَّ هذه هي الحقيقة التي يجبُ أن يعلمها النَّاس، وأمَّا ما يفعله بعض من يُميِّع هذه القضية تحت باب الحكمة والموعظة الحسنة فهذا كذبٌ على الله تعالى أولاً ثمَّ هو خِداعٌ للنَّاس ثانياً ذلك بأنَّ هؤلاء لا يُقبِّحون ما عليه المُعاندون للإسلام من الكفر والضلال ولا يُبصرُّونهم بعاقبتهم في الآخرة، وهي عاقبة ليست هيِّنة بل ﴿ **جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾** ﴾.

---

[1] سورة المائدة، الآية: ١٨.

[2] سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

إنَّ إعلان المؤمنين بالحقائق كما هي سَتُكَلِّفُ المؤمنين الكثير من المحن لكن الحقائق دوماً لها ثمنٌ باهظٌ، لأنها القليل أمام زيف الباطل الكثير والرخيص، ودعوى الحكمة والتقريب لا يكون على حساب هذه الحقائق التي يترتب عليها أمرُ الآخرة، ولا على حساب أصل دعوة الأنبياء وهو بيان حال فرق النَّاس اليوم ويوم القيامة، ولذلك كان من أشدِّ الأُمور على قريش هو ما حَكَمَ رسول الله ﷺ على آبائهم أنهم في النَّار.

فقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ هو إعلانٌ لهم أنَّهم كفار، وأنَّهم سيُهزمون لأنَّهم أعداء الله، وأنَّهم سيُحشرون إلى جنَّهم وبئس المصير، لأنَّ هذا مصير كلّ من لم يُؤمن بالله تعالى وبمحمد رسول الله ﷺ، فشرعيَّة القِتال تُستمد من هذا الأمر، إذ لولا كلمة الله أي حُكمه تعالى لما جاز للنَّاس أن يُقاتل بعضهم بعضاً، فلا التاريخ حُجَّة ولا الألوان، واللغات، ولا القَرابة، والأنساب، إذ كلّ هذه عوارض بشريَّة وليست أصليَّة لتصلح لشرعيَّة الحياة وأعمالها، وسُنن الخَلق تحكم بهذا فإننا لا نرى قط أُمَّة من الأُمم قامت دون أن تحطِّم هذه العوارض وتتجاوزها، فهذه اليوم أمريكا وأستراليا وقبلهما الاتحاد السوفياتي بل كلّ تجمُّع يُطلق عليه دولة أو أُمَّة ما قام إلاَّ بعد أن داس على هذه الشرعيَّات الكاذبة، ويكفي المؤمن فخراً أنَّ شرعيَّته تُستمد من كلمة الله وأنه عبدٌ له سبحانه وتعالى، وبسبب هذا نجد تميُّزاً فريداً لتاريخ هذه الأُمَّة وصيرورتها فإنَّها الأُمَّة الوحيدة التي حملت في قِتالها الدين حقيقة، وحين دخل المهزومون في الإسلام صاروا هم الأئمة والقادة وبيضة الإسلام، وأمَّا زاعمُو الحضارة فإنَّهم ما دخلوا بلداً إلاَّ أهانوا أهله وقتلوهم وحين تركوا بلادهم كانت بلقعاً يباباً.

هناك حُجَّة واحدة لأعداء هذه القضية وهي أنَّ الأديان سبب الحروب والصِّراعات في الوجود الإنساني، وهذا كذبٌ فاجرٌ على التاريخ، لأنَّ الحروب هي سِمة البشرية، لم تخلُ منها أُمَّة ولم يخلُ منها عصر، وأشدُّ الحروب قسوةً ودماراً وظُلماً وهلكةً للحرث والنسل ما كانت على غير أساس الدِّين، وإنّما مبعثها الكِبْرُ وحبُّ الاستعلاء والافتخار بالأنساب والألوان، وحين يستخدم هؤلاء شعار الدِّين في بعض حروبهم إنما يستخدمونها كحِذاءٍ صالحٍ لوصولهم لمبتغاهم لا كدافعٍ أصيلٍ لحركتهم وقِتالهم.

إنَّه من الضُّعف والخذلان أن يخجل المؤمن من هذه الخصوصيَّة، أي خصوصيَّة الحقِّ الذي يملكونه، وخصوصيَّة الصلَّة بينهم وبين ربِّهم، وخصوصيَّة أنَّ قِتالهم وسِلمهم هو استجابةٌ لأمر الله ومن أجل دين الله، وهي انهزاميةٌ أمامَ قصفِ الباطلِ وتشغيبه ودِعايته.

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣.

إذاً لم يكن انتصار المسلمين في بدر لما قاله اليهود، بل لأنَّ الله ينصرُ مَن يشاء ويُذل مَن يشاء، ولو عَقِلَ المُشركون هذه السُنَّة وهذه الآية الربَّانيَّة المُضطردة لانتهواْ عن مُعاندة الحقِّ ومحاربته، لكن أنَّى لهم ذلك، فلقد وقعت بدر، وكان المُشركون أكثر عدداً، والمؤمنون يرونهم ويعلمون هذا، فثبَّت الله قلوبهم وألقى فيها الاطمئنان، وأمرَ ملائكته بهذا، وأنزلَ عليهمُ الغيث أماناً واطمئناناً، فحصلَ لهم كلُّ مقدمات النَّصر، ولذلك فإنَّ تخويفكم للمؤمنين أنَّكم أهل قتالٍ وقوَّةٍ ودربةٍ لن ينفعكم في شيءٍ، لأنَّ الكثرة يوم بدر لم تفتَّ من عَضُدِ المؤمنين.

أقول: هذا الذي يطمئنُ القلب إلى اختياره من وجهي التفسير الذي نُقل عن أهل العلم، ذلك بأنهم اختلفوا مَن هي الطائفة التي ترى الأُخرى مِثْلَيْهَا رأي العين؛ فبعضهم قال: إنَّ الكافرين رأواْ المؤمنين ضِعفيهم ليقذف الله في قلوبهم الرُعب، وقال آخرون: بل إنَّ المؤمنين رأواْ الكافرين ضِعْفَيْهِمْ ـ على وجهٍ لغويٍّ وجَّهه إمام المفسرين ابن جرير الطبري لأنَّ عدد المُشركين يوم بدر ثلاثة أضعاف المؤمنين ـ، والذي أعتقدُ أنه أقرب لسبب النُزول هذا الذي قُلته.

وأما الجمع بين هذا وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا ﴾[1]. فلاختلاف الحالين، لأنَّ المسلمين علموا عددَ المُشركين مِن قبلُ كما قدرهم رسول الله ﷺ لما سأل عن عدد ما يأكلون من الإبل، ثم لما حضرتْ المعركة حصل هذا التقليل تقويةً للقلوب وتثبيتاً لها، والله أعلم.

في هذه الآية القرآنية تذكيرٌ ببدرٍ، وتحذيرٌ للمشركين من وُقوع مثلها معهم إنْ بقوا على مُعارضة رسول الله ﷺ، وهي كذلك وصفٌ لحقيقة القتال، وأنه قتالٌ بين طائفة تُقاتل في سبيل الله تعالى والأُخرى كافرة بالله تعالى، والذي وقع في هذه المعركة آيةٌ مميَّزةٌ في سُنَّة القِتال بين الطوائف، لأنَّ السُنن التي يعرفها النَّاس أنَّ الغلبة للعَدد والقوة، ولكن ما وقع في بدر على خلاف هذا الجاري، فدَّل على أنَّ عامل الإيمان عاملٌ جديدٌ في طبيعة هذا الصِّراع حين يكون الخلاف حول الإيمان لا غير.

وهذا استثمارٌ لبدرٍ وما حصل فيها، ولذلك ستكون بدر أصلاً لحوادث التاريخ الآتي، وعِبرة لكلِّ ناظرٍ إلى معارك المؤمنين ضدَّ خصومهم الكافرين، حين يستقوي هؤلاء بعَددهم وقُوَّتهم فيأتي إليهمُ المؤمنون بإيمانهم وثِقتهم بالله تعالى فيحصل تأييد الله للمؤمنين ويقع النَّصر الحميد الذي يحبه الله والمؤمنون.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ مَن قاتل الفئة التي تُقاتل في سبيل الله تعالى هم كفار، هذا هو الأصل إلاَّ أن يأتي صارفٌ من تأويلٍ وغيره، والله أعلم.

وفي الآية مثالٌ لما سمَّاه أهل البديع بالاحتباك، وهو بعض أنواع الحذف، وعناه أن يحذف من أحد طرفي الكلام ما أثبته في الطرف الآخر، وهذه الآية جامعة للحذفين، فقوله تعالى: ﴿ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى

[1] سورة الأنفال، الآية: ٤٤.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾، فهي في أصلها فئة مؤمنة تُقاتل في سبيل الله، وأُخرى كافرة تُقاتل في سبيل الطاغوت، فحذف في طرفها الأول «مؤمنة» لوجود ضدِّها في الطرف الآخر، وحذف في الطرف الثاني: في سبيل الطاغوت، لوجود ضدِّه في الطرف الأول.

﴿ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ** ﴿١٣﴾ ﴾.

التفسير القرآني لعوامل النَّصر والهزيمة تفسيرٌ مميَّزٌ خاصٌ، لأنه يُرْجِعُ حركة الوجود صعوداً وهبوطاً لعامل الإيمان وطاعة الله وإتِّباع الرسل، وهذا التفسير هو الحقّ الذي يجب أن يُراعيه المسلمون في دراستهم للتاريخ، فالله عزَّ وجلَّ يُهلكُ القُرى لِكُفرها ويُديمُ نعيمها لإيمانها، وعلَّقَ الفساد على كسب النَّاس للباطل وعملهم بالمعاصي كما علَّقَ النعيم والخيرات بطاعتهم لله تعالى وحُسْنِ علاقتهم به.

لكن هذه الجملة تحتاج إلى كشفٍ لأسرارها العمليَّة، أي أن يعرف المسلمون كيفيَّة عمل السُنن الإلهية في ربط الإيمان بصلاح الوجود وفساده بفساد الوجود، إذ أنَّ الله تعالى خلقَ سُنن الخَلق وهذه السُنن لا تبديل لها ولا تغيِّير، وهذا يعني أنَّ جَريان الصلاح والفساد يكون على وجهٍ سُنني، أي وجود رابطٍ مُدركٍ بين السبب والنتيجة وليس مجرد أمارة بينهما، والفرق بين كون العقل سبباً أو أَمارة فرق كبير، وقد وُجد في داخل المذاهب الإسلامية مَن نفى السببية بين العقل وأثره وهؤلاء هم الذين سيطروا على العالم الإسلامي ومشايخه وفُقهائه طويلاً، ثم تحالفَ هؤلاء مع الصُّوفية، والصُّوفية في أصلها عقيدة غنوصيَّة أي أنها رؤية هائمة تعلِّق الحقائق على معاني باطنيَّة ذاتيَّة لا رابط لها بعالَم السُنن.

القائلون بأنَّ الكفر أمارة للدَّمار يجهلون لأنهم يرفضون أن يفهموا كيفيَّة عمل الكُفر في تحقيق هذا الدَّمار بوجهٍ تُدركه العقول وتفهم صيرورته بما تعرفه من سُنن الفطرة وقانون الحياة، وأهل القرآن والسنَّة يُدركون أنَّ الكفر سببٌ للفساد على وجهٍ مفهومٍ في بداهة العقول لكن بعد التأمل العميق للتاريخ وجَريانه وللواقع ووجهة مسيرته، وهؤلاء المعنيُّون بقوله تعالى: ﴿ **لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ** ﴾، فهم جامعون لحقيقتين عِلْمِيَّتَيْنِ هما القرآن والواقع.

الكُفر بالله تعالى هو كفرٌ برسله وهو كفرٌ بشرائعه وأوامره، وأعظم أوامره هو الإيمان بالدَّار الآخرة، وفُقدان البشر لهذا وخاصَّةً الإيمان بالدَّار الآخرة ويوم العدل الإلهي بالثواب والعِقاب هو سبب الفساد في الأرض، ولو تفكَّرَ الباحث والمُؤرخ إلى أسباب صُعُودِ الأُمم وهُبوطها لَوَجَدَ أنَّ قضيَّة النُّبوَّة والأنبيَّاء هي العامل والعِلَّة في ذلك.

لكن هناك قضية مهمة يغفل عنها الباحثون حتى المسلمين منهم، وهو أنَّ الله حَكَمَ أنْ لا يُهلك قريةً حتى يبعث في أهلها رسولاً، وحتى يُبيِّن لهم ما يتقون كما قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ**

مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[2]. وآيات أُخرى تشهد لهذا، وهذه الآيات من معانيها أنَّ الفراغ ممنوعٌ في التاريخ، فحين يكون عُلُوٌّ وصعودٌ لفئةٍ كافرةٍ إنما يقع في غِياب الإيمان أو ضُعفه، وفي هذه الفترة ـ وهي تُشبه زمن الفَترة التي يُسميها العلماء بين أزمان الرسل ـ يتم صعود الكفر وبنائه لنفسه فينشأ له ما يُسمُّونه بالحضارات، ويقع له من التقدم الذي يُبهر الأبصار فيقع التساؤل: ها هي الأُمم الكافرة تتقدم وتبني وتحكم بلا إيمان ولا عامل نبوة.

وقولهم حق لأنَّ هذا ممكن الوقوع، ولكن سبب هذا غِياب المُقابل، غياباً كُلِّيًا أو فَاعِلاً، ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله لطائفةِ الإيمان واجباً قَدَرِياً لتحقيق السنن الإلهية في الخَلق، ذلك بأنَّ الإيمان يبدأ من خلال مُصادمته لهذه الحضارات الجاهلية باعتزالها في قِيِّمها وشرائعها، وتتصاعد هذه المُصادقة حتى يقع هذا الذي قاله الله في هذه الآية: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَا...﴾. إذ تكون الحضارة الجاهلية قد أعملتِ المعاصي عملها في أكلها وخرابها وإفسادها، لانتشار الظلم والربا والزنا والسرقة وغيرها من المفاسد الاجتماعية والاقتصادية والدينية، وتبقى على وجودها ما غاب الإيمان أو كان كلاًّ غير فاعلٍ، حتى إذا تحرك أهله به ـ وهُمْ قِلَّة مُستضعفة ـ حصل الصداع وقد يطول وقد يقصر بحسب عوامل القوة في الفريقين، أي القوة المادية اللازمة والمعنوية الواجبة، يتم الحِراك بينهما وكَسْب المواقع.

فالحضارات الجاهلية لا تقوم إلاَّ بغياب الإيمان أو فِعله، وكذا لا تسقطُ من غير مجاهدة المؤمنين لها، وإذا تم سقوطها في غياب فاعلية الإيمان يعني أن ترثها حضارة جاهلية أُخرى كما قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾[3]، وقال على لسان صالح عليه السلام لقومه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ...﴾ الآية. وقد علمه قبلاً أنَّ الله منع هلكة الأُمم عامة كما كان الأُمم السابقة وفرض الجهاد على أُمة موسى بعده كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾[4].

إذاً أهل البصائر هم الذين يربطون النتائج بأسبابها الحقيقية ربطاً سَنَنياً مفهوم الإدراك لدى فِطَرِ النَّاس وعقولهم، وبالتالي يربطون بين أمر الله تعالى وشرائعه وبين رُقي الأُمم وصُعودها، ثم لا يُغَيِّبُون أنفسهم عن مشهد هذا الربط بل يقذفون بأنفسهم في خِضَمِ هذا الحِراك لأنَّ وجودهم عاملٌ

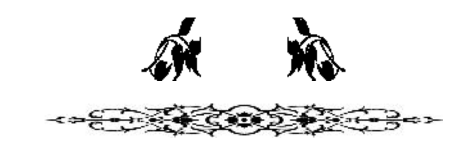
---

[1] سورة الأنعام، الآية: ١٣١.
[2] سورة القصص، الآية: ٥٩.
[3] سورة الأعراف، الآية: ٦٩.
[4] سورة القصص، الآية: ٤٣.

مهمٌ في تحقق الوِراثة على الأرض ليقع قوله تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾[1].

فأهلُ البصائر هم أهل فِكْرٍ ونَظَرٍ وأهل إرادةٍ وعزيمةٍ وفِعْلٍ، أي أهل علمٍ وجهادٍ، ووجود أحدهما غير كافٍ في تحقق الوِراثة، إذ لا يمكن تحققها بمجرد العلم أنَّ الحضارة الجاهلية فاسدة وخاوية ومُتهاوية، فيجلس هؤلاء على شاطئ الحياة ينتظرون سقوطها ليرثوها، هكذا يحلمون وهو حُلْمُ الكثير من قادة الفكر والنظر في أُمتنا.

إنَّ العِبرة من التاريخ لا تتحقق بالإدراك والعلم فقط، لكنها تتحقق بالسلوك والعمل، ويكفي أهل الجهاد فخراً أنهم دوماً الوسط الربَّاني لتحقق السُنن الإلهية في الوجود، فهم قَدَرُ الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾[2]، وهم منذ بعثة محمد ﷺ وفِعْلُهُم هو الفِعْلُ الوحيد الذي يُسقِطُ الممالك والحضارات الجاهلية، وأيامنا هذه تشهد لهذا، لكن يا لَيْتَ قومي يعلمون.



[1] سورة غافر، الآية: ٥١.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٤.

غزوة بني النضير

كانت غزوة بني النضير بعد ستة أشهر من بدر على ما قال أصحاب السِيَّر والمغازي، وهو قول الزهري، وقال ابن إسحق أنها كانت[1] بعد أُحد وبئر معونة، واختلفوا في سببها، فقال بعضهم أنه بسبب مسير كعب ابن الأشرف بأربعين رجلاً من بني النضير إلى قريش وتحالفه معهم، وقال ابن إسحق[2] أنَّ سبب الغزوة هو ما تمالئوا عليه من محاولة قتل رسول الله ﷺ عندما ذهب ليستعين بهم في دِية رجلين[3] قتلهما عمرو بن أُميَّة الضمري، فلما جلس لجدار من جُدرهم قام رجلٌ منهم وهو عمرو ابن جحاش بن كعب وأراد أن يلقي عليه حجراً من فوق الجدار ليقتله، فقام رسول الله ﷺ مُظهراً أنه يقضي حاجةً وقال لأصحابه: لا تبرحوا، ورجع مُسرعاً إلى المدينة، فاستبطأه أصحابه رضوان الله عليهم، فأُخبروا أنه رجع إلى المدينة، فلحقوا به فأمر بحربهم والمسير إليهم فتحصنوا، فأمر بقطع النخل والتحريق[4]، فحاصرهم ست ليالٍ فكان ما كان مما وقته القرآن في سورة «الحشر» «سورة النضير»، وقد روى أبو داود في سُننه في كتاب الخراج - باب في خبر بني النضير - خبراً آخراً مفاده أنَّ قريشاً هددت النضير إن لم يُقاتلوا رسول الله ﷺ وذلك بعد بدر، فلما بلغ الكتاب لهم اجتمعت بنو النضير بالغَدْرِ، فأرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ اخرجْ إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حَبْراً، حتى نلتقي بحيطان المْنصَف فيسمعوا منك، فإنْ صدقوك وآمنوا بك فقصَّ خبرهم - أي عرف غدرهم -، فلما كان الغدُ غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم، فقال لهم: «**إِنَّكُمْ وَاللهِ لاَ تَأْمَنُونَ عِنْدِي إِلاَّ بِعَهْدٍ تُعَاهِدُونِي عَلَيْهِ**»، فقاتلهم يومَهُم ذلك، ثم غدا الغد على بني قُريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يُعاهدوه، فعاهدوه: فانصرف عنهم، وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجَلاَءِ، فجلتْ بنو النضير واحتملوا ما أَقَلَّتِ الإِبلُ من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها.[5].

---

[1] في سنة أربع من الهجرة النَّبويَّة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

[2] «**السيرة النَّبويَّة**» لابن إسحاق ٣٨٢/١.

[3] من بني عامر وكان بينهم وبين بني النضير عقدٌ وحِلْفٌ، ذكره ابن إسحاق. انظر: «**السيرة النَّبويَّة**» لابن هشام، الجزء الثالث، الصفحة ١٠٧.

[4] خبر قطع الشجر وتحريقه أخرجه البخاري في «**صحيحه**» في «كتاب المُزارعة» باب فضل الزرع والغرس أُكِل منه. حديث رقم: ٢٣٢٦ أطرافه في: ٣٠٢١، ٤٠٣١، ٤٠٣٢، ٤٨٨٤. ومسلم حديث رقم: ١٧٤٦ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

[5] الحديث بطوله كما رواه أبو داود في «السنن» برقم: ٣٠٠٤: حدثنا محمد بن داود بن سفيان، ثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أُبيّ ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوْس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذٍ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنَّه أو لتخرجنَّه أو لنسيرنَّ إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبَيٍّ ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبيَّ ﷺ لَقِيَهم فقال: «**لقد بلغ وعيد قريشٍ منكم المبالغ، ما كانت تكيدهم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا**

في سورة «الحشر»، وهي سورة «النضير» كما سماها ابن عباس رضي الله عنهما كانت آيات الله الجليلة حول هذا العطاء الربَّاني لرسول الله ﷺ وأُمَّته، وسورة «الحشر» من المُسبحات ابتدأها بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ①﴾[1]. والناظر إلى المُسبحات يجد أنها تتحدث عن أهل الكتاب «التغابن» و«الأعلى» مع أنَّ سورة «الأعلى» ذُكر فيها موسى عليه السلام وما في كتابه من الموعظة الإلهية، حتى لو أدخلنا فيها سورة «الإسراء» كما يقول بذلك بعض أهل العلم بالقرآن.

لما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة عقد على يهودها صُلْحاً، وكُتِبَتْ بينهما وثيقة، والكثيرون اليوم من فئة التحريف والهزيمة يقولون فيها أقوالاً باطلة، يزعمون أنها أَسست لمفهوم المُواطنة الجاهلي الذي يريدون حمل المسلمين عليه دون تفريقٍ بين مؤمنٍ وكافرٍ، ومسلمٍ وذميٍّ، وهذه الوثيقة ككلِّ الروايات فيها ما هو ضعيفٌ مردودٌ، وفيها ما هو مقبولٌ، يعرف ذلك أهل العلم بالحديث والرواية فهم أهل هذا الفن ورجاله، وليس لأحدٍ أن يبني فِقْهاً عنها، وما صح منها وما ضعف، لكن لابدَّ من هذا التبيِّين لأهميته.

غزوة بني النضير هي الصدمة الأُولى بين المؤمنين واليهود، لأنهما ليسا أُمَّةً واحدةً من دون النَّاس كما تزعم روايات الوثيقة الضعيفة، وقد اختار اليهود منذ أول يوم عدمٍ طاعة رسول الله ﷺ ولا الدخول في أُمَّته كما ذكرت أم المؤمنين صفية بنت حُيي بن أخطب مِن ولد هارون عليه السلام بعد أن أسلمتْ رضي الله عنها، وبالرغم أنَّ الصدامات التاريخية بين المسلمين واليهود لم تكن بمقدار الصدامات الحربية مع النصارى إلاَّ أنَّ القرآن الكريم يُكثر الحديث عن اليهود أكثر من حديثه عنِ النصارى، لأنَّ أثرهم الاجتماعي والديني والاقتصادي في العالم وتاريخه أكثر من غيرهم مع قِلتهم وخضوعهم ذلةً ومسكنةً لغيرهم، وهذا مشاهد اليوم أكثر من غيره فيما سبق من التاريخ، وأنا أعتقد أنَّ اليهود اليوم يعيشون العُلو الأول الذي ذكره الله تعالى في القرآن في سورة «بني إسرائيل» «الإسراء» وأنَّ العُلو الثاني يكون عند مجيء الدجال، وأنا أعلم أنَّ هذا القول يخالف أكثر ما عليه

أبناءكم وإخوانكم» فلما سمعوا ذلك من النبيِّ ﷺ تفرَّقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلنَّ صاحبنا أو لنفعلنَّ كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء، وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ أجمعت بنو النضير بالغدر، فأرسلوا إلى النبيِّ ﷺ: اخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، وليخرج منَّا ثلاثون حبراً، حتى نلتقي بمكان المنصف فيسمعوا منك، فإن صدّقوك وآمنوا بك آمنا بك، فقصّ خبرهم، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحصرهم فقال لهم: «**إنَّكم والله لا تأمنون عندي إلاَّ بعهدٍ تعاهدوني عليه**» فأبوا أن يُعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا الغد على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير ودعاهم إلى أن يُعاهدوه فعاهدوه، فانصرف عنهم وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكان نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، أعطاه الله إياها وخصَّه بها فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ يقول: بغير قتال فأعطى النبيُّ ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة لم يُقسم لأحدٍ من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ التي في أيدي بني فاطمة رضي الله عنها.

[1] سورة الحشر، الآية: ١.

النَّاس في القديم والحديث لكن هذا القول هو الذي يشهد له التاريخ، إذ لم يكن لليهود عُلو في الأرض قط سابقاً، وكل ما قِيلَ هو مجرد أساطير وأوهام وأخبار توراتية مكذوبة، ولشرح هذا موطن آخرٌ ليس ههنا[1].

إنَّ تعامل النَّبيِّ ﷺ مع اليهود كطائفة ـ بني النضير ـ حيث أخذهم بجريرة بعضهم بعضاً يدل في بداهة الشرع والعقل أنهم ليسوا مُواطنين بمفهوم الأُمَّة الواحدة، لأنَّ مفهوم المُواطن ضِمن الأُمَّة الواحدة أن يُعاملَ كلُّ فردٍ باعتباره شخصيةً مُستقلةً في العقوبة، وقد تتوسع دائرة المُسائلة قليلاً كما في القساوة ودِية القتل الخطأ، ولم يُعرفْ قط أنَّ النَّبيَّ ﷺ استنفر اليهود لأيٍّ من حُروبه التي خاضها ضدَّ أعدائه سواء كانت الدفاعية أو الدعوية «جهاد الدفع أو الطلب»، وما وقع مع بني قُريظة أكثر دليلٍ على هذا إذا لم يكونوا معنِّيين بالحصار، ولكن كان بينهما عهدٌ يُوجِبُ تأسيس كلّ طرف جانب الطرف الآخر، وقد خانوه، فالذين يتحدثون عنِ الأُمَّة الواحدة ـ بين المؤمنين واليهود ـ إنما يضربون في تِيهِ الجهالات والرُؤَى الخاصة التي لا تُثبتها الأدلة قط بل تردها وتنفيها.

سورة «النضير» تُرسي قواعد الإصلاح للوجود الإنساني عامةً والوجود الإيماني خاصةً، وتُبيِّن خِيارين اثنين فقط لثقل المال إن أراد المؤمنون إصلاح هذا الكون وتقويم سبيله؛ **الخيار الأول**: أنْ يكون هذا بين أيدي المؤمنين، يتوارثونه بينهم، وسبب التوارث والصلة الإيمانية بينهم كما سيأتي، **والخيار الثاني**: هو تخريب هذا المال وتدميره، ومما يُلفتُ النظر في موضوع الفيء أمران: **أولاهما**: اسمه، **ثانيهما**: موضوعه.

أما الاسم فهو الفيء[2]، وهو مُشتقٌ من العودة، فليس المال انتقالاً من أصلي إلى أجنبي، بل هو العكس، هو عودة المال إلى صاحبه، وهذا إرساءٌ لقواعد الحياة على أساس الإيمان والتوحيد، فإنَّ الكافر بكُفره فاقِدٌ لأهلية التملك ابتداءً، فمن كَفَرَ بالله لا يستحق أن يملك من عطائه ونعمه، وهذا هو أصل إصلاح الوجود، لأنَّ المال وثقله في يد الكافر إضلال النَّاس عن سبيل الله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[3]، وإفسادٌ للوجود: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ

[1] قام الشيخ حفظه الله تعالى، وثبته على الحق بتفسير سورة «الإسراء» تفسيراً قيِّماً أثبت فيه أنَّ العلو الذي يعيشه يهود ليس هو العلو الثاني كما يظن الكثير، بل إنه العلو الأول، وقد دعم هذا القول بالأدلة التاريخية والواقعية... فارجع ـ أيها القارئ ـ إلى تفسيرها، وهو موجود على الشبكة العنكبوتية.

[2] جاء في كتاب «التعريفات» للجُرجاني ص٢١٧ـ٢١٨: **الفيء**: ما ردَّه الله تعالى على أهل دينه من أموال مَن خالفهم في الدِّين بلا قِتالٍ، إما بالجلاء أو بالمصالحة، على جزية أو غيرها. والغنيمة أخص منه، والنَّفل أخص منها.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨﴾[1]. وهذا من فقه النُّبوة التي علَّمها موسى عليه السلام، فالفيءُ حُكْمٌ شرعيٌّ لمنازعة الكافر في عدم شرعية تملكه.

أما موضوعه ففيه أمران: **أولاهما**: أنه أخذٌ لمال الكافر المحارب بلا قتالٍ ـ بلا إيجاف خيلٍ ولا رِكابٍ ـ، **وثانيهما**: أنه بكامله لرسول الله ﷺ يضعه في مصالح المسلمين عامة وفي خاصة نفسه[2].

أما أنه أخذٌ لمال الكافر المحارب بلا قتالٍ فهذا يُسقط دعوى الجاهلين الذين يُعلِّقون أمرَ هذا الأخذ على الحرب والقِتال كما هو في شأن الغنيمة، فالفيء[3] والغنيمة[4] كِلاهما أخذٌ من جهةٍ واحدةٍ لكن تعددتا طُرق الأخذ فتنوعتا طُرق التوزيع، فالفيء أخذٌ من الكافر بلا حربٍ ولا قتالٍ، لكن لما رفض الكافر الخضوع لأمر الله ولو في وجهٍ من الوجوه كدفع الجِزية كان ماله حلالاً للمؤمنين على أيِّ وجهٍ.

وأما أنه لرسول الله ﷺ يضعه حيث يشاء من أمر نفسه أو أمر العامة فهو يؤكد أنَّ هذا المال لا يكون حلالاً للمُقاتل المجاهد فقط بل هو للمسلمين عامةً دون تفريقٍ إلاَّ بضابط المصلحة الشرعية التي يراها الإمام أو مَن يقوم مقامه.

بهذا يقع صلاح العالَم، وإن لم يمكن ذلك فالخيار الثاني: **﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾**[5].

سورة «النضير» بتفصيلها موضوعَ الفيء تُبيِّن أهمية حلِّ مشاكل الجهاد ومسائله داخل الأُمَّة، لأنَّ حياة الأُمَّة هو الجهاد كما قال المولى تعالى: **﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾**[6] أي للجهاد، وقضية المال واتصاله بالجهاد قضيةٌ مهمةٌ، إذْ قُدم المال في كلِّ المواطن في القرآن الكريم على النفس إلاَّ في آية البيعة حين قال تعالى: **﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾**[7]. وذلك لشرف المواطن ههنا فاقتضى تقديم النفس لشرفها على المال عند الله تعالى، وأما

---

[1] سورة يونس، الآية: ٨٨.

[2] عن عمر ﷺ أنه قال: «كَانَتْ أَمْوَالُ بَنِي النَّضِيرِ مِمَّا أَفَاءَ اللهِ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، مِمَّا لَمْ يُوجِفْ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ بِخَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ، فَكَانَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِ، ثُمَّ يَجْعَلُ مَا بَقِيَ فِي السِّلاَحِ وَالْكُرَاعِ ـ اسم يُطلق على الخيل والبغال والحمير ـ، عُدَّةً فِي سَبِيلِ اللهِ». البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب المَجِنُ ومَنْ يَتَّرِسُ بِتُرْسِ صَاحِبِهِ. حديث رقم: ٢٩٤٤. ومسلم «الجهاد والسير» باب حكم الفيء. حديث رقم: ١٧٥٧.

[3] **الفيء**: ما أُخذ بغير قتال، مصروفاً لمصالح المسلمين بفعل ولي الأمر في ذلك ما يراه مصلحة، ولا يخمس الفيء عند الجمهور خلافاً للشافعية والزيدية.

[4] **الغنيمة** في اللغة: الفوز بالشيء بلا مشقة، واصطلاحاً: هي ما أُخذ من أموال أهل الحرب بطريق القهر والغلبة.

[5] سورة الحشر، الآية: ٢.

[6] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

[7] سورة التوبة، الآية: ١١١.

الإنسان فهو يبذل روحه ليفدي ماله كما قال رسول الله ﷺ: «**مَن قُتِلَ دُونَ مالِه فهو شَهيدٌ**»[1]. لما في أخْذِ المال من الإنسان على سبيل الغلبة من المهانة والذلة ما تأباه النفوس الشريفة، ولما للمال من أهمية في نفوس النَّاس وحياتهم، وجُل هذه القضية لأنَّ الجهاد وهو المصدر الأول للمجتمع المسلم مالياً، وهو المورد الأهم كجبي المال، ورسولنا ﷺ يقول: «**جُعِلَ رِزْقي تحت ظل رُمحي**»[2]، وقد وضع القرآن حَلَّ هذه القضية المالية في هذه السورة حتى السياق الإيماني لتركيبة المجتمع المسلم على أساس أفعال الإيمان: «مهاجرون وأنصار»، إذ أنَّ هذا التركيب هو الذي بيَّن خصوصية هذا المجتمع في تشكيله ومُقوماته، وضمن هذا التركيب الإيماني يأتي الحديث عن الشوائب القذرة التي تعلَّق به قدراً لازباً، وهم فئة النِّفاق الذين يستمدون وجودهم من جِوار أعداء الإسلام لهم، فهؤلاء يجب منعهم من المال فلا نصيبَ لهم في الفيء كما سيأتي.

والآن لنرى البيان الربَّاني لهذه الغزوة:

﴿ **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ (٢) وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (٤)** ﴾[3].

أهل الكتاب هؤلاء «بنو النضير» عربٌ من اليمن، ليس الأوس والخزرج بأولى منهم في الأرض التي كانوا عليها قبل إسلامهم، أخرجهم الله من ديارهم، هذه الديار التي عمروها وتعبوا في إتقانها، وحصنوها ضدَّ عوادي الزمن والخصوم، وكان العرب المُشركون من الأوس والخزرج يُعظمون أهل الكتاب لعلمهم، فكان هذا الإخراج ضرباً لهذا الشعور، ورفعاً لقيمة الإيمان الذي تحصله هؤلاء الأصحاب، وهذا من النِّعم الإلهية عليهم، فهم كانوا ﴿ **مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ** ﴾، ولكنهم خرجوا، وهذا خروجٌ أولٌ وسيكون ثانٍ، وهو ما وقع بعد خيبر كما يقول المفسرون، والحقّ أنَّ اليهود هذه سنَّة الله تعالى في تشريدهم في الأرض مرة بعد مرةٍ لإفسادهم في الأرض فحالهم حال المحارب يُنفى من الأرض حتى يستقيمَ أمره. وهو تنبيهٌ إلهيٌّ إلى دوام هذه المعركة معهم وعدم انقطاعها، وأما غيرهم ممن لم يخرجهم الله فهم الذين قال عنهم: ﴿ **وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا** ﴾. وهؤلاء بنو قُريظة، كما وقع معهم، وهذه سنَّة الله تعالى جارية أنَّ تعجيل

---

[1] أخرجه الشيخان عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما. البخاري في «كتاب المظالم» باب من قاتل دون ماله. حديث رقم: ٢٤٨٠. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حقٍّ كان القاصدُ مُهدرَ الدَّمِ في حقه وإن قُتل كان في النَّار وأن مَن قُتل دون ماله فهو شهيد. حديث رقم: ١٤١.

[2] عنِ ابنِ عمرَ عن النَّبيِّ ﷺ: «**جُعِل رزقي تحت ظِلِّ رمحي، وجُعِلَ الذِّلةُ والصَّغارُ على مَن خالفَ أمري**». البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب ما قيل في الرماح. حديث رقم: ٢٩١٤.

[3] سورة الحشر، الآيات: ٢-٤.

العقوبة خيرٌ من تأخيرها، ولذلك هذه الأُمَّة ـ أفراداً وجماعات ـ تعيش بلاء هذه الدُّنيا ومحنها ومصاعبها، وكل ذلك تكفيرٌ لها عن سيئاتها حتى تأتي يوم القيامة قليلة الحمل من الأوزار، أما الكافر فقد قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1]. وقد أخذ رسولنا ﷺ هذه الآية عندما ردَّ على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لما سأله أن يبسط الله على هذه الأُمَّة كما بسط على فارس والروم فقال رسول الله ﷺ: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**»[2]. ولذلك قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾[3]. وهذه الآية في سورة «القصص» جعلها الله مُقدمةً لما سيقصه علينا من قصة قارون في نفس السورة وخِتامها، وهكذا فإنَّ الله عجل لبني النضير خروجهم ولو أخرهم كما أخر غيرهم من يهود اليهود لما رأوا غير القتل كما وقع مع بني قُريظة.

إنَّ المؤمنين كثيراً ما يقفون أمام الوعود الإلهية في حيْرةٍ من كيفية وُقوعها، وكيف ستكون لما يرواْ من موانعها أمامهم، ولكنهم يُؤمنون بهذه الوعود أنها آتية ويُفَوِّضُون كيفية وُقوعها لله تعالى، وهم على يقينٍ أنها ستأتي ولكن لكلِّ أجلٍ كتاب، وهذا ما يجعل المُؤمن ثابتاً في مواقفه، لا ينتكسُ إنْ رأى عوارضَ الوعود كما يفعلُ المنافقون، إذ تهتزُ ثقتهم بدين الله وَوُعُوده ونُصرته عند كلِّ محنةٍ فيظنون أنها القاصمة لهذا الدين، وهذا بيِّنٌ كما سيأتي في غزوة الأحزاب في حُنين، فالصَّحابة لم يظنوا أن يخرج هؤلاء اليهود، ولكن الله أخرجهم وأما هم فقد اعتصموا بحصونهم المنيعة، وهذا شأن كلِّ مُعاندٍ يظن أنَّ هناك من الخَلق ما يعصمه من عذاب الله كما وقع لابن نوح حيث قال: ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[4]. ولكن جرت سنَّة الله تعالى عليهم حيث مكر بهم: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ﴾. وهذا الذي أتاهم هو ما هدى الله رسوله ﷺ وأصحابه من تحريق نخلهم، فشبت فيها النَّار، فلما رأواْ ذلك وقع الرُعب في قلوبهم فطلبوا الصُّلح.

وسُنن المكر الإلهي بأعدائه تقوم على قِلَّة فِقْهِهِم بمنافذ الفساد في أنظمتهم وحياتهم، ولذلك قال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[5]، وهذه السُّنَّة من أعظم ما ذكره الله في كتابه في تعامُلِه مع

---

[1] سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

[2] جزءٌ من حديث طويل عند البخاري في «كتاب المظالم» باب الغُرْفَةِ والعُلِّيَّةِ المُشْرِفَةِ في السُّطُوحِ وَغيرها. حديث رقم: ٢٤٦٨، ومسلم في «كتاب الطلاق» باب في الإيلاءِ واعتزالِ النِّساء وتخييرهنَّ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾. حديث رقم: ١٤٧٩.

[3] سورة القصص، الآية: ٦١.

[4] سورة هود، الآية: ٤٣.

[5] سورة النحل، الآية: ٢٦.

الكافرين، إذ أنَّ الكافر إنما يَبني بِناءه في أساسه على ما يُريد ويحب من المتانة والقوة ثم يرتفع البناء فتشغله الأهواء والرغبات والتحسينات والزخارف، فهو يقوم عليها يُراقب لمعانها وبَرِيقها وجدتها، ولا يدري أنَّ عوامل الفناء والخراب إنما تضرب جذور بنائه، لأنه في غفلةٍ عنها مُنْشَغِلاً بما يرى وعلا، فإذا جاءتِ الهلكة كانت قاصمةً قاضيةً لا سبيل لردها أو تجاوزها، وهكذا مال كلِّ الأنظمة الجاهلية سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية تملك عوامل فنائها ودمارها لمصادفتها سنن الخَلق وفِطرة الحياة، فهي تُصادم التاريخ والإنسان والوجود فلا بدَّ أنْ تُهزم وتَنهار، وأنَّ شأن المُؤمن فهو كخامة الزرع الخضراء تنحني مرةً وتعود أُخرى، وهو شأن هذه الأُمَّة لا تُكسر ولا تَبيد ولا تنهار وإنْ هُزمتْ في بعض حُرُوبِهَا لأنَّ النَّصر الدائم ممتنعٌ في الحياة ومخالفٌ لسنن الوجود.

هؤلاء اليهود قذفَ الله في قلوبهمُ الرُعب فاستسلموا لينجوا بأنفسهم وبعض ما يملكون بعد أنْ رأواْ النَّار قد شبت في نخيلهم.

إنَّ هذه السنَّة في تحقق النتائج خلافُ ما يتوقع المُؤمن تبيِّن خصوصية مُعاملة الربِّ لهذا الدين، ومن ذلك ما نراه اليوم من انتشار الإسلام في النَّاس مع أنه في لحظة ابتلاءٍ وامتحانٍ، ولو كان الأمر يجري على ما يرى النَّاس من الأفكار والمذاهب والأديان الجاهلية لخرج النَّاس من الدِّين ولم يأتوا إليه، ولكنها يد الله في رعاية هذا الدِّين وهو القائل: ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم** ﴿٣٨﴾ ﴾[1]. وهو تحذيرٌ لهذه الأُمَّة أنكم أنتم بحاجةٍ لهذا الدِّين، وأما الدِّين فهو لله وهو ليس بحاجةٍ لكم.

كانت نتيجة الصُّلح معهم أن يخرجوا من ديارهم بما خف معهم من المال، فصار الواحد منهم يقلع باب بيته وما فيه ليحمله معه إلى حيث رحيله، فجعلوا يخربون بيوتهم بأيديهم، وهذا من أشق ما يقع على النفس، وهو أن يهدم بنفسه ما تعنى ببنائه وتشيِّيده، وأما المؤمنون فقد جعلوا يحرقون النخيل والبيوت ليصلوا إلى ما وصلوا إليه من استسلام هؤلاء الجُبناء.

إنَّ هذا الخراب في باطنه هو صلاح الوجود، لما يترتب عليه من قطع سلطان هؤلاء المفسدين في الأرض، فإنَّ البيوت التي يطمئن فيها أصحابها وهم يمكرون ويفسدون ويحاربون الله ورسوله والمؤمنين لا تستحقُ البقاء حتى لو تسمت باسم المساجد كمساجد الضرار[2]، فإنَّ الأسماء لا تعصم الأفعال إنْ كانت على الضدِّ منها، ومما هو ظاهرٌ من الآيات أنَّ التخريب كان للبيوت وهي مأوى للسكن وليس للحصون وهذا يدل على ما يقوله الفقهاء من جواز تخريب ما يقدر عليه المجاهد ما دام العدوّ ممتنعاً.

[1] سورة محمد، الآية: ٣٨.

[2] للشيخ ـ حفظه الله تعالى، رسالة بعنوان: «**مساجد ضرار**» فارجع إليها فإنها نفيسة في بابها.

وذكر الظنين، ظن المؤمنين بعدم خروج بني النضير، وظن النضير بالمنعة في الحصون، يدل على أنَّ ظن المؤمن لا يضره إذا كان في موقف الشرع، وحتى الأماني لا يتعلَّقُ بها وجودٌ نفياً أو إثباتاً لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾[1]. فالعِبرة بالموقف والعمل لا بالظنون والأمل.

قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾. هو مُراد القرآن مِن قصِّ هذه القصص للمؤمنين حيث لا يرونها ماضياً قد تم ولا تجددَّ فيه ولا عَودة، بل هي السنَّة الجارية تُوجد حيث تُوجد أسبابها وتنتفي موانعها، فإنَّ هذا هو حال النَّاس إنْ سلط الله عليهم غضبه لمعاصيهم بأنْ يهلك ديارهم كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾[2]. وكما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[3]، فهي عِبرة للمؤمنين أن لا يقعوا مواقع هؤلاء القوم فيُصيبهم ما أصابهم، وهي عِبرة للمؤمنين أنَّ من يُغالب الله يُغلَبْ، وهي عِبرة للمؤمنين أنَّ الجاهلية فيها خُرُوقات كثيرة تجهلها هي، وأنها تحمل عوامل فسادها مهما طالت الحياة.

إنَّ هذه الغزوة فيها عِبرة مهمة لأهل الإيمان وجماعات الجهاد، إذ أنَّ هذه الغزوة لم يكن فيها قتالٌ، ولم يُضرب فيها بسلاح إنما كانت فقط تحريق النخل وتخريب البيوت، وفي ذلك إرشادٌ للمؤمنين سُبل محاربة أعداء الله لا تتوقف على وسيلةٍ من الوسائل الحربية بل كلّ ما حقق الرُّعب في قلوبهم من التحريق والتخريب للبيوت إنَّما هو من هِداية الله لهم، والسورة تُقرن تخريب المؤمنين لبيوت أعدائهم مع مسألة الفيء، وهذه يمكن لأهل الإيمان أن يُبْدِعُوا من الوسائل في هذا الباب حتى يتحقق الرُّعب الذي يحبه الله تعالى، فهو جنديٌّ من جُنوده يمدُّ به المُهتدين من المجاهدين من أهل الإسلام.

إنَّ الآية واضحةٌ جليَّةٌ في بيان شرعية التخريب لبيوت الكافرين، وحرقِ أموالهم كما سيأتي في الآية التالية، وهذا شرعيٌّ لإخراجهم من بيوتهم فكيف إذا كان من أجل إخراجهم من بيوت المسلمين وديارهم؟!

يقول الله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾[4].

---

[1] سورة النساء، الآيتان: ١٢٣-١٢٤.
[2] سورة الطلاق، الآيتان: ٨-٩.
[3] سورة النحل، الآية: ١١٢.
[4] سورة الحشر، الآية: ٥.

لقد وقع في قلوبِ الأصحاب ﷺ بعض مُلامة لأنفسهم في حرقهم وقطعهم النخيل، وكانت هذه الآية إراحة لنفوسهم أنَّ فِعلهم ممدوحٌ ومحمودٌ عند الله تعالى، وعِلَّة ذلك ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾، وهذا الحرج الذي وقع في نفوس الأصحاب هو لِطُولِ الأُلفة مع جِيرانهم اليهود، ولمحبتهم لهذه الشجرة التي لها المعاني الكثيرة في حياتهم، ولكن هذا الحرج منفيٌّ لأنَّ إخزاء الفاسقين مقصدٌ ربَّانيٌّ أعلى من غيره من المعاني الإنسانية، وهذا يُعْلمُ المؤمنين الفارقَ بين ما يحسون معاني حياتية إنسانية وبين المعاني الشرعية التي يحبها الله تعالى ويرضاها لهم، والقرآن الكريم لا يُقَوِّم الأهواء والرغبات فقط، ولكن يُقَوِّم المعاني وهذا مدخلٌ دقيقٌ، لأنَّ تقويم الأهواء والشهوات يُدركه كثيرٌ من النَّاس مُصادقة هذه الأهواء والشهوات لقيم الأخلاق الإنسانية وقواعد العدل الفِطرية، لكن المعاني الإنسانية ممدوحة في أصلها لأنها مرجع البشر في القيم والعدالة، لكن هذا المدح هو في عالم المثل «المُطلق» أما حين تتعارض الحسنات فهذا بابٌ آخرٌ لا يفقهه إلاَّ القليل، وفي يومنا هذا لِطُولِ إِيلَافِ النَّاس لقواعد إنسانية ومذاهب وضعية صارت الكثير من أحكام الشرع وخاصة أحكام الجهاد في سبيل الله تعالى غريبةٌ ومُسْتَهْجَنَةٌ في عقولهم، والمجاهدون إنْ تخلواْ عن أحكام الشرع وقواعده حُرِمُوا الكثير من أسباب النَّصر، لأنَّ الشرع رحمةً لهم، وتركهم لبابٍ من الأبواب هو سدٌّ لهذه الرحمة المُهداة من الله تعالى، ولذلك نرى الكثير من طوائف الجهاد وخاصة التي يكون جهادها لدفع الصائل تتذرع في جهادها لا لقواعد الإنسانية التي يقبلها النَّاس، فتُمارس الجهاد ضِمن هذه القواعد فتُقَيِّد نفسها بقيود تمنعها من تحقق النَّصر الذي يحبه الله والمؤمنون، هذا مع أنَّ أعدائهم لا يستنكفون أبداً من سلوك أي سبيل لتحقيق الغَلبة لهم في حروبهم ويرونها وسائل مشروعة، فيمضي المُشركون إلى مقاصدهم ويقف المسلمون يتحدثون حتى يضطرون إلى مُهادنة الجاهلية والقبول بأنصاف الحلول.

لقد حرق الصَّحابة النخيل والبيوت، واستخدموا هذا التحريق لتعيِّير أنصار اليهود من المُشركين من قريش الذين عاهدوهم على النَّصر ـ فخذلوهم ـ فقال حسان بن ثابت ﷺ في قصيدة مشهورة:ـ

وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ … حَرِيقٌ بالبُوَيْرَة مُسْتَطِيرُ[1]

والمسلمون اليوم عموماً وخاصةً المُفكرين وأصحاب النظر يخلطون بين حِكمة الدعوة في سبيل الله وبين أحكام الجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا خطأ، فالجهاد هو وصول الطرفين إلى أقصى درجات

---

[1] بيتٌ من أبياتٍ ردَّ فيها حسان بن ثابت ﷺ على سماك شاعر اليهود. وهي:ـ

تفاقد مَعْشَرٌ نصرُوا قُريشاً … وليس لهم ببلدتهم نصيرُ
هُمُوا أوتوا الكتاب فضيَّعُوه … وهم عُمْيٌ عن التوراة بُورُ
كفرتم بالقُرآن وقد أبيتم … بتصديق الذي قال النذير
وهان على سَرَاة بني لُؤَيٍّ … حَرِيقٌ بالبُوَيْرَة مستطيرُ

المُنازعة، أي أن يهلك أحدهما الآخر، فهذه هي الدائرة، نعم ما وراء هذه الدائرة هو هِداية الخَلْق ودخولهم في دين الله أفواجاً؛ لكن أنْ يصل الطرفان إلى الحرب والقِتال يعني أنَّ كلَّ واحدٍ منهما سيسعى لإهلاك الآخر وتدمير قُوته، حتى لو أدَّى هذا إلى إفنائه، ومِن أعجبِ ما تمارسه جماعات الدعوة والتبليغ اليوم أنهم يقولون إنَّ دعوتهم هي إعدادٌ من أجل الجهاد في سبيل الله، ويُلَقِنُونَ أتباعهم هذا، ومثلهم الأحزاب الإسلامية التي تمارس الأعمال الجاهلية كالديمقراطية وغيرها، فإنهم يعتبرون أنَّ أفعالهم هذه هي إعدادٌ للجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا مع أنه أحلامٌ في السُّحُبِ إلاَّ أنَّ هذا هو عين الجهل في سنن الحياة وقواعدها، لأنَّ مجرد التحضير للقتال هو عند الخصم قِتالٌ حقيقيٌّ يُوجِبُ عليه قدراً أن يقتل أو يحارب ويهلك ويُدمر خَصمه، وهذا ما يقع، ولكنهم بدل اعتبارهم يذهبون إلى القول أنَّ خصومهم قتلوهم وسجنوهم من أجل منع الكلمة وهذا خطأٌ غير صحيح، وقد أدرك بعض المُفكرين هذا فبدل تحضير الأُمَّة واقعاً، أو الأخذ بيد الطائفة المنصورة إلى الجهاد أو مدحها ذهبوا إلى مذهبٍ بِدْعِيٍ جديدٍ سمَّاه بعضهم بمذهب ابن آدم الأول[1] الذي قال: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، وجعلوا هذا هو خِيار الأُمَّة المسلمة أمام أعدائها وهو خيارٌ ضالٌ باطلٌ، وهناك غيرهم من تخلى كُلِيّاً عن الجهاد في سبيل الله وجعل دعوته قاصرةً على بعض الدِّين مما لا يتعرض للطُغاة والملأ من الجاهلية، وغيرهم مَنْ رضي أن يحقق بعض منافع للنَّاس من تحسين حياتهم ومعيشتهم لأنَّ هذا ما يعني النَّاس لا غير، والأوائل من جماعات الدعوة الذين لا يتخلون عن الجهاد مع سلوكهم غير السبيل القويم له أصح ديناً وأضل قدراً، وأما الآخرون فهو أضل ديناً وأصح قدراً، ودين الله هو الذي يتحقق فيه الدِّين الحقّ الذي يتحقق فيه الدر المحبوب عند الله تعالى.

هذا هو الشق الأول من القصَّة القرآنية: بلا خيلٍ ولا قتالٍ ولا عَسْكَرَةٍ جعل الصَّحابة يحرقون النخيل ويخربون البيوت فانهارت معنويات اليهود فاستسلموا على صُلْحٍ يجيز لهم الرحيل بما خف

---

[1] جودت سعيد السوري الأصل من مواليد ١٩٣١م يُعتبر أحد وأبرز من عمل جاهداً على إدخال مفهوم اللاعنف في العالم الإسلامي، وقد عرض أفكاره في كتاب له نُشر عام ١٩٦٤م بعنوان: «**مذهب ابن آدم الأول، مشكلة العنف في العالم الإسلامي**» وفي هذا الكتاب أراد أن يرد على كتابات الشهيد ـ كما نحسبه، ولا نُزكي على الله أحداً ـ سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ ، ويرى أنَّ جواب هابيل لأخيه قابيل الذي كان يُهدده بالقتل: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ يُعبر بوضوح عن الموقف الذي ينبغي على المسلم أن يتخذه ليُواجه الإنسان العنيف؟!. وقد وصل به الزيغ والانحراف أن قال أنَّ نوحاً عليه السلام قد فشل في دعوته، لأنه مكث ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً ولم يُؤمن معه إلاَّ قليل. فنسأل الله السلامة والعافية من هذه الضلالات ومن أصحابها. وينشر أفكاره المُنحرفة تلميذه المفتون خالص جلبي كنجو صاحب كتاب: «ظاهرة المحنة».

والشيخ أبو قتادة ـ حفظه الله تعالى ـ رد على جودت سعيد وعلى فكره الداعي إلى نبذ العنف ـ أي الجهاد والقتال ـ ووسائله وأهمها السرية. في عدة حلقات من سلسلة «**بين منهجين**» وهي: ١٤، ١٥، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٧٢. والتي جُمعت وطُبعت في كتاب باسم: «**الجهاد والاجتهاد.. تأملات في المنهج**» وأيضاً في: «**مِن أحْسَنِ الحديث**» في الحلقة التي تحت عنوان: «عندما تكفر القُرى». وكلّها متوفرة على موقع: «**منبر التوحيد والجهاد**» على الشبكة العنكبوتية.

[2] سورة المائدة، الآية: ٢٨.

معهم من مالٍ ومتاعٍ، فبقيتِ الأرض، بما بقي فيها من عِمرانٍ أو زرعٍ، فبدأت أحكام الشرع في وضع هذا المال موضعه، فقال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾** ﴾[1]. ﴿ **مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ** ﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾** ﴾[3].

هذا المال فاءَ وعادَ لمن يستحقه مَنْ هم أهله وأولى به من غيرهم، فهو حينئذٍ «**لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ**»، وقد ذكر ربُّنا سبحانه وتعالى اسمه تطيِّباً للنفوس حين أخذها له، وذلك كقوله ﷺ لجعل وأُجرة الرقية: «**اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْماً**»[4]، فالله هو الغني، لكن ذكر نفسه العلية مع المؤمنين تكريماً لهم وتزكيةً للمال، وهذا من أكرم أموال الوجود وأحسنها وأطيبها لأنه عَطِية الله تعالى لعبيده، ولأنه من أشرف الطُرق وأحبها إلى الله، ولا مِنَّةَ لأحدٍ مِن الخَلْقِ فيه على المسلمين، ولذلك أُعطي لرسول الله ﷺ الذي طهره الله تعالى من أوساخ النَّاس كالزكاة والصدقة، وبعد ذلك رسول الله ﷺ يُشعه حيث يشاء من خاصة نفسه وحاجات المؤمنين عامة وخاصة، ولم يذكر الله تعالى نفسه في توزيع أموال الصدقة فقال: ﴿ **۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾** ﴾[5]. لأنها أوساخ النَّاس، بخلاف الغنيمة والفيء، وجعل عِلَّةَ ذلك: «**كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ**». وههنا وقفة في فقه المال عموماً في أحكام الله الحكيمة:ـ

إنَّ أعظم قاعدتين للمال في الإسلام هما: المجُازفة والتفتيت، فكلّ ما يمنع من هاتين القاعدتين هو ممنوعٌ في الشريعة، أما المجُازفة فهي قائمة على قاعدة: لا ربح ما لم يضمن، وهذه أساس العقود لا يخرم منها شيء، فإنه لا يجوز لأحدٍ أن يربح من مالٍ تحت يده إلاَّ ويكون ضامناً له إنْ خسرَ أو

---

[1] سورة الحشر، الآية: ٦.

[2] سورة الحشر، الآية: ٧.

[3] سورة الحشر، الآية: ١٠.

[4] عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: «انطَلَقَ نَفرٌ من أصحابِ النبيِّ ﷺ في سَفْرةٍ سافَروها، حتّى نزَلوا على حيٍّ من أحياءِ العرب فاستَضافوهم فأبَوا أن يُضيِّفوهم، فلُدِغَ سَيِّدُ ذلكَ الحيِّ، فسَعَوا لهُ بكلِّ شيءٍ، لايَنفعُهُ شيء. فقال بعضهم: لو أتيتُم هؤُلاءِ الرَّهطَ الذينَ نزَلوا لعلَّهُ أن يكونَ عندَ بعضهم شيء. فأتوْهم فقالوا: يا أيُّها الرَّهطُ إنَّ سيِّدَنا لُدِغَ، وسَعينا لهُ بكلّ شيءٍ لا يَنفعُه، فهل عندَ أحدٍ منكم مِن شيء؟ فقال بعضُهم: نعم واللهِ، إني لأرقِي، ولكِنْ واللهِ لقدِ استَضَفْناكم فلم تُضيِّفونا، فما أنا براق لكم حتّى تَجعلوا لنا جُعلاً. فصالَحوهم على قَطيعٍ منَ الغنم. فانطلقَ يَتفِلُ عليهِ ويقرأُ: ﴿ **ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ فكأنَّما نُشِطَ من عِقال، فانطَلَقَ يَمشي وما بهِ قَلبَة. قال: فأوفوهم جُعلَهمُ الذي صالَحوهم عليه. فقال بعضُهم: اقسِموا. فقال الذي رَقَى: لا تَفْعلوا حتّى نأتيَ النبيَّ ﷺ فنذكُرَ لهُ الذي كان فننظُرَ ما يأمُرنا، فقدِموا على رسولِ الله ﷺ فذكَروا له، فقال: وما يُدريكَ أنها رُقْية، ثمَّ قال: «**قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْماً**»، فضَحِكَ النبيُّ ﷺ». البخاري في «كتاب الإجارة» باب ما يُعطى في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب. حديث رقم: ٢٢٧٦، ومسلم في «كتاب السلام» باب جوازِ أخذِ الأُجرةِ على الرُّقية بالقرآن والأذكارِ. حديث رقم: ٢٢٠١.

[5] سورة التوبة، الآية: ٦٠.

هلك، ولهذه القاعدة حرم الله الربا، وحرم بيع ما لم يملك، وأما التفتت فإنَّ الناظر إلى فقه المواريث وفقه الزكاة يجد أنها تمنع تكديس المال في يد أو أيد تتداولها دون بقية النَّاس، وههنا قال تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾. ولذلك فالإسلام حربٌ على نظام الإقطاع اجتماعياً واقتصادياً، وذلك أنَّ حياة المال وبالتالي سعادة النَّاس في أن يجازف أصحابه به: «**دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقُ اللهِ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ**»[١]، ومَن لم يفعلْ ذلك فستأكله الصدقة وإلاَّ الميراث، وهذا ضربٌ للنظام الرأسمالي من أساسه.

إنَّ تداول المال بين فئاتٍ معينةٍ فقط يقتل في النَّاس الفُرص لتحسين معيشتهم، ثم تنشأ المشكلات الاجتماعية التي فيها هلكة الإنسان وحياته، فتنشأ الحروب بين المجتمعات المُختلفة، وتنشأ السرقات والحرابة في داخل المجتمع الواحد، ولذلك يجب دفع أصحاب المال للمُجازفة حتى يتحقق نماء المال، وكذلك انتقاله وتوزعه، ثمَّ إنَّ المجازفة هي التي تحقق النماء الحقيقي في الاقتصاد، لأنَّ المال لا يُقابَل بمالٍ في الإسلام «فهذا الربا» ولكن ليتحقق الربح من المال يجب تحوله إلى بضاعةٍ أو جُهْدٍ أو منفعةٍ، فإنْ لم يكن إلاَّ المال مقابل المال فلا سبيل لذلك إلاَّ القرض الحَسَن، وهذا مع سهولة أحكامه في الشريعة الإسلامية إلاَّ أنَّ كلَّ المشكلات المالية الكُبرى إنما تنتج من تمسك الأغنياء بأنْ يتحقق لهمُ الربح فقط بلا مجازفة، وبالتالي يزداد الثري ثراءً، وأما الفقير فَفُرصه قليلة في تحسين معيشته ولا تغيِّيرها من فَقْرٍ إلى غنًى إلاَّ من خلال الطفرات المرضية والتي سُرعان ما تعود على الجميع بالإفلاس والهلاك.

إنَّ توزيع الفيء تحت هذه الحِكمة الربَّانيَّة العظيمة ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾. هو الذي دفع الفاروق عمر رضي الله عنه لنظام الخَراج، إذ لم يُوزِع الأراضي المفتوحة على الجُند، حيث قال الفاروق رضي الله عنه: «أما والذي نفسي بيده لولا أنْ أترك النَّاس ببّاناً ليس لهم شيء ما فتحتُ على قرية إلاَّ قسمتها كما قسم رسول الله خيبر، ولكني أتركها خزانة لهم يقتسمونها»[٢]. أي مُعدمين لا شيء لهم.

وقال رضي الله عنه: «استوعبت هذه الآية ـ أي الحشر ـ النَّاس إلى يوم الحشر».

وقد ذكر الفاروق أسباب أُخرى لما فَعله من الخراج تُراجع في مظانها ككتاب «الخراج»[٣] لأبي يوسف، و«الأموال»[١] لأبي عُبيد وقد شرحه السرخسي على «السِير الكبير»[٢]، وهناك من أهل العلم مَن يرى الفيء والغنيمة شيئاً واحداً، والجمهور على خلاف ذلك.

---

[1] مسلم في «كتاب البيوع» باب تحريم بيع الحاضِرِ للبادي. عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَادٍ دَعُوا النَّاسَ يَرْزُقِ اللهِ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ**» غير أن في رواية يحيى «**يُرْزَقُ**» حديث رقم: ١٥٢٢.

[2] جاء في «كتاب الأموال» لأبي عُبيد القاسم، ص١٢٦ فقرة ١٤٣: وحدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا مالك بن أنس، عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: سمعتُ عُمر يقول: «لولا آخرُ الناس ما فتحْتُ قريةً إلاَّ قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر».

[3] «كتاب الخراج» للقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري. ص٢٣ـ٢٧. «كتاب الأموال» لأبي عُبيد القاسم بن سلام، ٦٧ وما بعدها.

وأما تقسيم الفيء وهل يخمس أم لا فالجمهور على عدم تخميسه[3] وخالَف الإمام الشافعي بل أبقاها للمسلمين جميعاً عملاً بفقه الآية التي جعلت لمن يأتي بعد المهاجرين والأنصار نصيباً منه في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾. إذ لولا الآباء المُؤسسون من المجاهدين الذين أرعبوا الكفار فأخذوا أموالهم فِيئاً لما حصل للتالي هذا المال، وبهذا فكلّ مَن يسب أباه الإيماني. قال السلف: «هناك والدٌ للبدن، وهناك والدٌ للروح»، ولذلك كثيراً ما يقول التلميذ لأستاذه: والدنا تبجيلاً واحتراماً وآية الفيء تؤيدهم، ومن هذا الفقه قال مالك وأحمد: «لا نصيب للرافضة سابي الصَّحابة في الفيء»[4]. والقصد من هذا أن توارث الفيء هو لعلامة الإيمان في داخل المجتمع الإسلامي.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[5]، وهو أمرٌ للمؤمنين بالتسليم لأحكامه، ومِن فقه هذه الآية أنَّ الله تعالى قدَّم العِلَّة ثمَّ أعقبها بالحكم العامة، هذا مع أنه سبحانه وتعالى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴾[6]، لكن هذا تعليماً للعلماء بأن يُدْركوا حُكم الشرع ويُبيِّنُوها للنَّاس ما استطاعوا سبيلاً.

قوله تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾[7].

فهؤلاء لهم الفيء، وهم المُقدمون فضلاً وسبقاً، فإنه وإنْ فاتتهم ديارهم فقد أورثهم الله غيرها، فبيوتهم تركوها ظُلماً إلاَّ أن يقولوا ربُّنا الله، وهذه البيوت ورثوها إيماناً وتقوىً، ومِن هؤلاء تكوَّن القسم الأول من المجتمع الإسلامي، فهو مجتمعٌ قائمٌ على الإيمان وفضائله واختياراته، ووصفهم الأول: الفقراء، هذا الفقر الاختياري لأنهم تركوا ما يحبون وراءهم رغبةً بما عند الله تعالى، يبتغون فضلاً من الله ورِضواناً، وقد قدَّم الله في هذه الآية فطالب المهاجرين على مطلب الدِّين منهم؛ فهم ﴿ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا ﴾. فهذه مقدمة على ﴿ وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾، لأنَّ في مقصدها الأول تحقيق لإرضاء الله تعالى بهروب المرء بدينه من الفتنة، فهذا مقصدٌ وإثم في كلِّ أنواع الهجرة الدينية،

---

[1] «كتاب الأموال» ص١٥٤ وما بعدها.

[2] انظر الجزء الخامس من الصفحة ٣١٥ وما بعدها من طبعة دار الكتب العلمية/بيروت.

[3] راجع: «بداية المجتهد» ٣٢١/١، «القوانين الفقهية» ص١٤٧ـ١٥٠، «نهاية المحتاج» ١٠٦/٥، «البحر الزخار» ٤٤٢/٥.

[4] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وما أحسن ما استنبط الإمام مالك رحمه الله من هذه الآية الكريمة: أنَّ الرافضي الذي يسب الصَّحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتِّصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾. «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» اختصره محمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى. ٣٣٧/٤.

[5] سورة الحشر، الآية: ٧.

[6] سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

[7] سورة الحشر، الآية: ٨.

ولذلك قال تعالى: ﴿**أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ**﴾. فهم خرجوا مُكرهين، لكن قد يخرج المرءُ مُهاجراً نُصرةً لدين الله تعالى دون أن يكون خروجه اضطرارياً، فهؤلاء الأصحاب قد جُمِعَ لهم الفضل كلّه في الهجرة؛ إذ تحقق لهم الرضا الإلهي وتحقق لهم نُصرتهم لدين الله تعالى.

وأما القسم الآخر من المجتمع الإسلامي فهم: ﴿**وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾**﴾[1]، فهؤلاء أنصار الله، وأنصار رسوله، وأنصار المؤمنين، فهؤلاء لهم الفيء كذلك. وانظرْ إلى إكرام الله تعالى لهم بهذه التسمية «**تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ**»، فصار الإيمان لهم سَكَناً يسكنونه ويستوطنونه، وهذا هو الشرف الكبير.

وهذه الآية تُبيِّن فضيلة العطاء والكرم، فإنَّ البخل داءٌ لا يُعد له داءٌ في أمراض البشر، وكفى بقول المصطفى فيه: «**أَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ**»[2]، فهؤلاء الأنصار: يحبون مَن هاجر إليهم، ويُعطونه بلا حرجٍ ولا ضيقٍ في نفوسهم من هذا الذي يخرجونه من أموالهم، بل إنهم ليقدمون حظوظ المهاجرين على حظوظ أنفسهم مع قِلَّة ذات اليد.

قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾**﴾. قاعدةٌ إيمانيةٌ وحياتيةٌ فإنَّ البُخل ومنع العطاء هو أساسُ هلكة الحياة، وعدم مُطاوعة النفس في حبِّها لما في يدها ورغبتها في المنع هو أساسُ الفلاح في الدُّنيا والآخرة، ولذلك فإنَّ أول كلمة قالها رسولنا ﷺ عندما دخل المدينة كما ذكر ذلك عنه عبد الله بن سلام رضي الله عنه هي: «**أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلاَمَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ**»[3].[4] فقوله: «**أَفْشُوا السَّلاَمَ**» هو أساس الأمان الاجتماعي، وقوله: «**أَطْعِمُوا الطَّعَامَ**» هو قاعدة الحياة الاقتصادية، وقوله: «**صَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**». هو

---

[1] سورة الحشر، الآية: ٩.

[2] البخاري في «كتاب فرض الخُمس» باب ومن الدليل على أنَّ الخُمس لنوائب المسلمين ما سأل هَوَازِنُ النبيَّ ﷺ ـ برضاعه فيهم ـ فتحلَّلَ مِنَ المسلمين، وما كان النَّبي ﷺ يَعِدُ النَّاسَ أن يُعطِيهم من الفيء والأنفال من الخمس، وما أعطى الأنصار، وما أعطى جابر بن عبد الله من تمر خيبرَ. حديث رقم: ٣١٣٧.

والرواية تُشعر بأن ذلك من كلام ابن المُنكدر، ولكن محمد بن سلامة الشهاب القضاعي خرج له ـ أي المُنكدر ـ حديثان في «مسنده» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**أَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ**». حديث رقم: ٢٨٦-٢٨٧.

[3] الدارمي في «السنن» باب فضل قيام الليل. حديث رقم: ١٤٦٧. ورواه أيضاً في باب إفشاء السلام. حديث رقم: ٢٦٣١. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في «السنن»، «كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها» باب ما جاء في قيام الليل. حديث رقم: ١٣٣٤. وفي باب إطعام الطعام. حديث رقم: ٣٢٥١.، والحاكم في «المستدرك» وقال: صحيح على شرط الشيخان. حديث رقم: ٤٣٣١، ٧٣٥٥. وابن أبي شيبة في «المصنف» باب ما قالوا في البر وصلة الرحم. حديث رقم: ٢١١٣٢، باب ما قالو في إفشاء السلام. حديث رقم: ٢١١٣٢، باب أول مَنْ فَعَلَ ومَنْ فَعَلَهُ. حديث رقم: ٣١٦٣٧.

[4] للشيخ حفظه الله تعالى رسالةً شرح فيها هذا الحديث الجليل العظيم، وعَنونها بـ«القواعد الأُول في صناعة الإنسان والدُول، شرح حديث عبد الله ابن سلام رضي الله عنه في كلمات رسول الله ﷺ الأُولى لما قدم المدينة النَّبويَّة». فارجع إليها.

قاعدة الحياة الدينية في المجتمع المسلم، وبهذا يتحقق الرضا الإلهي الذي فيه سعادة الآخرة، وهي سبيل سعادة النَّاس في الدُّنيا.

﴿ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

فهؤلاء هم القسم الثالث، وهم الجيل التالي لكلِّ مجتمعٍ يتشكل من المهاجرين والأنصار، والمقصودون الأوائل من هذه الآية هم كلّ المسلمين التالين للمهاجرين والأنصار الأوائل، فهؤلاء كذلك لهم الفيء على شرط صِلَتهم الإيمانية مع الآباء المُؤسسين وإلاَّ فلا حقَّ لهم في الفيء لانقطاع النسب بينهم.

وفي الآية فقهٌ لأهل الإيمان وهو أنَّ الدُّعاء بالمغفرة لا يقتضي وُجُوباً وُجُودَ سببها من المعاصي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾[2]. فهذه توبةٌ من الله على أحبابه بأنْ عصمهم من الوقوع في الإثم، إذ لو وقعوا فيه لَكانوا آثمين، فلما عصمهم منه كان كالتوبة لهم، وهذه التوبة تفرُّقُ عن التوبة التي وقعت للثلاثة المُخلفين الذين قال الله فيهم: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[3]. فهذه توبةٌ مِن الله بعد الوقوع في الإثم، فتاب الله عليهم لِيحصلَ لهم سقوط الإثم عنه - **تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ** - وأما الأوائل فقد تاب الله عليهم بأنْ منعهم من الوقوع في الإثم، ولذلك كانت الفاصلة القرآنية في الآية الأولى: ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ ﴾، وأما الفاصلة في الآية الثانية فهي: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾، تتلاءم كل فاصلة مع مناسبتها من الحال، فالثلاثة تأخرت عنهم التوبة الأولى - **خُلِّفُواْ** - لوقوعهم في الإثم، وانظر إلى الفاصلة هنا في سورة «الحشر» مع الفاصلة الأولى التي في «التوبة» لتعرف أي الحالين أشبه ببعضهما البعض.

فقول التابعين: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾. هو شاملٌ للأمرين، لأنَّ كلَّ ابن آدم خطاءٌ، لكن لا يلزم وُجُوباً وُجُودَ سببه الذي يزعمه أعداء الصَّحابة ﷺ.

بهذه المشاعر والعواطف تتواصل الأجيال المُؤمنة، يعرفُ اللاحق فضلَ السابق، وتعرفُ الأجيال فضل بعضها بعضاً، فلا يلغي التالي ما قدمه الأول بل يبني عليه ويسير على نفس البناء والعطاء، وهذا يدل على أنَّ الإيمان نوعٌ واحدٌ في الأجيال، لا يتغيَّر موضوعه ولا أعماله ولا قيمه،

---

[1] سورة الحشر، الآية: ١٠.

[2] سورة التوبة، الآية: ١١٧.

[3] سورة التوبة، الآية: ١١٨.

فاللاحقون يرون الأعمال الواجبة عليهم هو الإيمان الذي كان عليه سلفهم فلا يُبدلون ولا يُغيِّرون، ولا يُوجِبون للإيمان معانٍ أُخرى مُبتدعة تحت حُجة تغيُّر العصر وتبدل الأحوال، فإنَّ القِيم الإيمانية واحدة، وما فرضه الله على الأوائل هو ما فرضه على الأواخر من هذه الأُمَّة.

هذه هي الطريقة الربَّانيَّة في صِياغة المجتمع الذي يحبه ويرضاه، مهاجرون وأنصار وأتباع على نفس الدرب والطريق، والناظر إلى تحول المجتمع العربي من نظام القبلية إلى مجتمع مدني «كان الرجل يُنسب لقبيلته فصار النَّاس يُنْسَبون إلى مُدُنِهم» يرى أنَّ طريقة هذا التحول إنما هي هجرات النَّاس من أجل الجهاد في سبيل الله، أو ما يُوطئ له الجهاد في سبيل الله من مُدن وبلدان جديدة، فما مُدن الإسلام إلاَّ لحماية المجاهدين في سبيل الله وتأمين مساكنهم وعوائلهم وظهورهم، هذا لِيعرف المسلمون اليوم تاريخ أجدادهم الحقيقي في طريقة توريثهم هذه البلاد والدِيَّار التي عمَّ في أكثرها حُكم المُرتدين والكفار.

لقد تشكل كثيرٌ من العالم الجديد عن طريق الهجرات التي أفنت السكان الأصليين وحولتهم إلى سخرة للسيد الجديد، أو أقلية لا تقوى على مجابهة سُبل الحياة، والعجب في تاريخ الإسلام أنه ما أنْ تمَّ الجيل الأول وقليلٌ من الثاني من الفاتحين المسلمين وهم عرب حتى صارت القيادة والإمارة إلى غير العرب بعد أن اهتدوا بنور الإسلام، فغلب الفرس ثم الترك والمماليك، وهذا يدل على عظمة هذا الدِّين ورحمة أهله على الخلق.

هكذا نرى أنَّ الوعظ الإيماني في مسائل المال وقضاياه، والوعظ الإيماني في مشاكل المجتمع وتركيباته وقيمه إنما تتم من خلال حركة الأُمَّة المجاهدة، فعلى وَقْعِ الجهاد تسيرُ إيقاعات الحياة في كلِّ جوانبها لِتَعْلَمَ الأُمَّة معنى هذه القِيمة، والتي هي ذروة سنَّام الإسلام، والتي ضيَّعتها الأُمَّة إلاَّ فئة قليلة منصورة لا يضرها من خذلها أو خالفها حتى يأتي وعد الله، ومع كلِّ هذا وغيره مما يتأمله الناظر للقرآن الكريم نجد مَن يطعن في هذه الشعيرة ويقذف رجالها بأشدِّ التُّهم إعمالاً للشهوات ولقواعد الجاهلية التي استمرؤُوها، فأخضعوا أحكام الشريعة لها، وأعرضوا عن نور القرآن وهديه، فهَمَّ أحدهم أن يبكي مع الباكين بأنَّ المجاهدين اليوم أساؤُوا للإسلام، وذلك حين يخضع لدعايات الكافرين والمنافقين، وما يقصفون به عقولهم من صُوَرٍ لدارٍ أُحرقتْ، أو لِينةٍ[1] قُطعتْ، أو عمارةٍ انهارتْ، فبدل أن يقول كما قال تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾. فليخزوا وليتألموا وليبكوا ما كان أمرهم هو مشاقة الله ورسوله، بل هو يذهب لعير المجاهدين ويرجمهم بكلِّ نقيصةٍ، أو يتعقب أخطاءهم وعوراتهم بلا درعٍ ولا دينٍ ولا خُلقٍ. وإني على يقينٍ أنه لو عرضت وسائل الإعلام الكافرة والمُنافقة اليوم صورة الصَّحابة وهم يخربون بيوت بني النضير ويحرقون نخيلهم ويقطعونه ثمَّ يخرجونهم مخزيين باكين مُتألمين من ديارهم لما زادوا عن قولهم الذي يقولونه اليوم في المجاهدين:

[1] اللينة: ألوان التمر سِوى العَجْوَة.

الإسلام دين العِمران والمحبة لا دين التخريب والتحريق، وهو بريءٌ من هؤلاء، ولكن يشهد الله أننا نحبهم ونقول: ربَّنا لا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربَّنا إنك رءوف رحيم.

حُكام بلاد الكفر وجيوشهم من أبناءهم يقتلون أبناءنا ويهدمون بيوتنا ويسرقون أموالنا، ويهلكون الحرث والنَّسل، وأهل الجهالة يقولون أنَّ المجاهدين يقتلون الأبرياء، وهذا رسول الله ﷺ يجلي بني النضير ويأخذ أموالهم لأنَّ قادتهم تمالئُوا على جريمةٍ لم يشترك فيها كلّ القوم، أو على الرواية الأولى أنَّ أربعين منهم ساروا وتمالئُوا مع قريش ضدَّ المسلمين، فمن نتبع إذاً؟ هؤلاء الذين رقتْ قلوبهم لقتلى الكفار ولم يُسمع منهم قول عزاء للمسلمين وضعفائهم أم رسول الله ﷺ وأصحابه؟ أما نحن فنقول: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

إنَّ قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً﴾. قوله: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾. يدل على جواز ضرب كلِّ وسائل العِمران والاقتصاد في دِيار الكافرين، بلا تفريقٍ بين مصانع أو مراكز تجارة أو اقتصاد، أو عمد إمداد للطاقة والماء أو وسائل الاتصالات، كل هذه الأمور وغيرها إن تعرض لها المجاهدون بالإهلاك أو الأخذ ممدوح محبوب عند الله تعالى، ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾، والحروب اليوم في جُملتها هي حروب استنزافٍ للقُدرات والأموال والطاقات حتى يضعف الخصم ويستسلم لمطالب الأخر، وخاصةً حين يكون هذا قتالاً بين مجموعات صغيرة وقوة كبيرة، فإنَّ أسلوبها الأفضل هو تكثير الجراح في هذه القوة حتى تُصاب بالوهن والضعف، وكذلك اليوم من سياسات الحروب الباردة بين المُتكافئين يقع استخدام قريب من هذا الأسلوب في استنزاف طاقات الخصم وخاصة الجانب الاقتصادي، لأنَّ حياة النَّاس إنما هي في هذا الجانب، وفي فن الحرب يقولون: الجيوش تمشي على بطونها.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾[1].

لا يُوجد موضعٌ قرآنيٌّ ذُكِر فيه الجهاد إلاَّ وللمنافقين حُضُورٌ، سواء كان قبل الحدث أو خلاله أو بعده، فقد قالوا مقالتهم ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾[2]. بعد بدر، وقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[3]. خلال الخندق، وقالوا الكثير بعد أُحد، وقالوا قبل تبوك كما في «التوبة». وهَهنا لهم مقالاتهم الضالة عند حِصار رسول الله ﷺ للنضير، فحضورهم مقرونٌ مع الجهاد، ومع الإنفاق، أي عند الذل والامتحان والابتلاء، فالجهاد نارٌ تكشف الزيوف من النقد، وتُظهر مكنونات النفوس وما انطوتْ

[1] سورة الحشر، الآيات: ١١ـ١٧.
[2] سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
[3] سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

عليه، ولما كان الجهاد هو حياة الأُمَّةِ فإنَّ هذا الحال يمنع غلبة هذه الطائفة أو تسلمها القيادة، لأنَّ الأُمَّة المجاهدة تعرفهم، وتكشفُ أسرارهم من خلال أقوالهم ومواقفهم.

النِّفاق والمنافقون قدرٌ لازِبٌ لهذه الأُمَّةِ، والقرآن الكريم يُعرف أقوالهم وأفعالهم المُتعددة لحاجة الأُمَّةِ في كشف هذا الصنف، إذ سيكون في الأُمَّةِ مَن يسمع لهم ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]. وإذا كان المجتمع الأول هو في طُهْرِهِ ونَقَاوته وصَلابته المعروفة في التاريخ، إلاَّ أنه عانى الكثير منهم، وأصابوا من المسلمين آلاماً وجِرَاحاً وتخذيلاً كثيراً فكيف سيكون حال مَن بعدهم، ولعلَّ أشدَّ ما لاقاه الصَّحابة ﷺ إنما كان بعد أُحد، وهذا سيأتي شرحه في غزوة أُحد القادمة إن شاء الله تعالى.

في هذه السورة كشفٌ لمواقفهم مع أهل الكتاب من النضير، فقد أرسل المُنافقون رسائلهم إلى النضير خلال الحِصار أنِ اصبروا واثبتوا، وقد قرن الله بينهم باسم «الأُخوة»، ﴿ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[2]. فَهُمْ وإِنْ كانوا يعيشون في الوسط الإسلامي لكن ضعوهم هناك مع غير المسلمين، والمرء يتساءل لماذا هذه الكراهية للإسلام؟! وكيف لهم أن يميلوا مع أهل الكتاب ضدَّ بني قومهم في الأرض الواحدة؟.

التاريخ يقول إنَّ المُنافقين كانوا قبل الإسلام لهمُ الصدارة، فجاء الإسلام وسلبهم بعض شهواتهم، إذ كان منهم من هو سيد قومه الذي يُؤَلِهُونَه، فيُحَكِّمُونَه في الصغير والكبير، فلما جاء الإسلام رأى أنَّ الله رفع بهذا الدِّين أقواماً ووضع آخرين، وكانت رِفعة المؤمنين بالإيمان فوق ما هم عليه لتخلفهم وترددهم وعدم صِدقهم، فطاش عقله، فبدل أن يستقيم ويُدرك سِرَّ هذا الدِّين وعظمته مع الصَّادقين معه راح يمكر به ويكيد له كلَّ الكيد، وعلى جانب الحدود هناك أهل الكتاب، هم الحرب مع المسلمين، فاتصل بهم ليعودوا له سُلطانه الذي ذهب، ويحققوا له شهوته التي طمستها أنوار الإسلام، هذه قصة هؤلاء، فهو الحقّ من جهةٍ، وهو الحسد من جهةٍ أُخرى، وهو مع كلِّ هذا وفوقه وتحته: حبُّ الدُّنيا وإيثارها على وعد الله تعالى.

وآخرون من المُنافقين تُسَيِّرُهم الدراهم والدنانير، أسلموا بألسنتهم دون قلوبهم، أعرابٌ أجلافٌ، غِلاظ القلوبِ والأفهامِ، فما أن يأتيهم أهل الكتاب ببعض الوعود حتى يتبيَّن تحت أرديتهم جلود الذئاب والكلاب المسعورة، وهؤلاء كانوا دوماً وَقود حروب أهل الكتاب ضدَّ أُمَّتنا:-

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٧.
[2] سورة الحشر، الآية: ١١.

في الحروب الصليبية في المشرق صار الأعراب وإخوانهم من الإسماعيليين[1] والرافضة[2] يداً واحداً على أهل الإسلام.

ومن أسباب سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية هم الأعراب من أهل الصحراء في الجزيرة العربية وبادية الشام وحدودها، صاروا جنوداً مسعورة لرجل «لوطي» اسمه لورانس[3]، فقتلوا من المسلمين الكثير، ومثلهم مَن تسمى باسم شريف مكة «الشريف حسين!»، الذي ضرب المسلمين في الظهر طمعاً في المُلك الموعود على يد الإنجليز، فأخزاه الله ورُمي مَهيناً طرِيداً، ومات كمداً في قصةٍ من قصص العِبرة الإنسانية في التاريخ، حتى أنَّ أولاده الخونة فيصل وعبد الله لم يذهبوا لوداعه وهو مجرور ذلة إلى قُبرص، ولم يُرافقه من أبنائه إلاَّ حفيده طلال ابن عبد الله، والد ملك الأردن المقبور حسين.

واليوم في العراق وأفغانستان والصومال والشيشان، كلّها تشهد أنَّ المنافقين أكثر ضرراً على أُمَّتنا من أعدائها الأصليين، بل لم يكن لهؤلاء الأعداء أن يحققوا مقاصدهم إلاَّ من خلال المنافقين:-

ففي العراق هناك الأعراب ممن تسموا باسم «الصحوة»، وهم بَدْو أوغاد جهلة، يُباعون بالدرهم والدينار في سوق النخاسة، ومثلهم هناك طوائف البدعة من الرافضة الذين حالفوا الأمريكان ضدَّ أهل السنة طمعاً في أن يردوا لهم مظلوميتهم التاريخية كما يزعمون، وكذا إخوانهم من المنافقين من

---

[1] الإسماعيلية: فرقةٌ من فرق الشيعة الإمامية، وتُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وليسوا على دينه، فلما مات في حياة والده انقسموا إلى فرقتين. الأولى: أنكرت موت إسماعيل، وهي تنتظره. والثانية: قالوا: إنما نصب جعفر ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد، وإلى هذا مالت الإسماعيلية الباطنية من الغُلاة، ولم يختلفوا عن بقية مذاهب الأخرى إلا بهذا القول حتى خلافة المُستنصر العُبيدي، فلما تولى الخلافة بعد ابنه المستعلي انشق عن خلافته فريق من الإسماعيليين بزعامة الحسن بن الصباح، وبايعوا لأخيه نزار. وبعد أن فشلت ثورتهم في الإسكندرية، انتقل الحسن بن الصبح إلى قلعة ألموت، وعندما أعلن الحسن بن محمد زعيم النزاريين عام ٥٥٨هـ إلغاء الشعائر الدينية، والإمتناع عن إقامة الفرائض، أصبح النزاريون - أو الحشاشون - مغايرين لأصحاب المذهب الإسماعيلي العُبيدي، في حينٍ ظلوا يحملون اسم الإسماعيلية حتى اليوم، وهم أتباع أغاخان. أما الآخرون فهم المعروفون اليوم باسم البُهرة أو السبعية.
ويعتقد الإسماعيليون أنَّ الله تعالى فوق متناول العقل، وأنَّ الفعل الكلي يتجسد في الأنبياء، كما أنَّ النَّفس الكلية تتجسد في الأئمة، ويُعرف النبي بالناطق، والإمام أبو النقيب بالصامت، وهم يعتقدون أنَّ الإمام معصوم، ولا عبرة بما يأتيه من أعمال ظاهرة. انظر: «الفرق بين الفرق» لعبد القاهر بن طاهر البغدادي. ص٣٤-٣٩. و«التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفِرق الهالكين» لأبي المظفر الإسفرائيني. ص٢٣. و«الملل والنحل» لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. ص٧٢.

[2] الروافض: جمع رافضة، والنسبة إليها رافضي، والرفض: الترك، والمُراد بهم الشيعة الإمامية، سمُّوا بذلك لتركهم زيد بن علي بن الحسين ورفضه عندما قالوا له: تبرأ من أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما -، فأبى، وقال: كانا وزيريْ جدي رسول الله ﷺ، فقالوا: إذن نرفضك، فرفضوه، فقال لهم: رفضتموني.فسموا رافضة. وقيل في سبب التسمية غير ذلك. انظر: «الفرق بين الفِرق» لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي. ص٢٥-٢٦، و«مقالات الإسلاميين» لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. ١/٨٨، ١٣٦.

[3] ما أجمل هذه الأبيات، من قصيدة: «باقٍ، وأعمارُ الطُّغاةِ قِصارُ» لعبد الحميد كرامي.

ألقى لنا المُستعمرونَ عِصابةً	كانتْ تضُمُّ شَتاتَم أجحار
حاضني حكمِ الدخيلِ، وناصري	سلطانِه إنْ عزَّه الأنصار
ممن بلا «لورانسُ» صِدقَ ولائهم	للتاجِ لا دَخلٌ ولا إسرار
راحُوا فما بكتِ الديارُ عليهمُ	وغَدوا فلم يَفرَحْ بهمْ ديّار

أهل السنَّة الذين جعلوا دينهم مصالحهم الشخصية ومصالح أحزابهم كالذي تسمى بـ«الحزب الإسلامي»، والإسلام بريءٌ منهم، وسيكتب عنهم التاريخ ما يكون فيهم عاراً وخِزياً إلى الأبد.

أما في أفغانستان، فالحال واحدٌ، منافقون من أهل السنَّة أخبث من الرافضة، كان بعضهم يُقاتل في سبيل الله فامتحن الله قلبه بالحقِّ المُر، إذ رفع عيره حيث تأخر، وتقدم غيره حيث جبن، فبدل أن يُدرك حِكمة الابتلاء راح يُواطئ أعداء الدِّين ويرمي المجاهدين بكلِّ نقيصة، ويُؤلب ضدَّهم أعداء الله وأعداء رسوله، والحال هناك كما كان حال حركة الشهيد أحمد عرفان[1] الذي أقام الحقّ والدِّين والتوحيد، ورفع راية الجهاد فدانت له بلاد واسعة، وخاف الكُفر منه، فلم يكن للكفر عليه نصيبٌ إلاَّ من خلال الجهلة من الأعراب!! من العجم، وهم أشدُّ كفراً ونِفاقاً، وتواطأ عليه المُبتدعة من الصوفية فقُتل شهيداً رحمه الله تعالى.

هكذا هو الحال على مر التاريخ، ومن الصور التي تتكرر في وقتنا من صور النِّفاق، أنَّ هناك من يقطع مسافة جيدة في الحقِّ، أو في بابٍ من أبواب الحقِّ والدِّين، فبعضهم في باب العِلم والفقه، وبعضهم في باب قول كلمة الحقِّ، وبعضهم في الجهاد والقتال، ومِن المعلوم أنه كلما ازدادت درجة المرءِ كلما ازدادت مسائل امتحانه، فإما أن يرقى وإما أن يخسر، هكذا هي حِكمة الله في الحياة، كما هي حكمة النَّاس فيما بينهم، فبدل أن يثبت ويرقى ينتكس ويرسب إلى دركات النِّفاق، والأسماء والجماعات والفِرق في زماننا هذه من هذا النوع كثيرة، وهذا مما يحزُّ في القلب ويُؤْلِم النفس، وضرر هؤلاء على الأُّمة كبيرٌ جداً، فهي تحمل لهم الحب القديم الذي صنعته أفعالهم السابقة، ولذلك صار لهم محبون وأتباع ومُقلدون، فتكون فِتنتهم في متبوعيهم كبيرة جداً، ويُعاني أهل الحقِّ في كشف هؤلاء كثيراً، وخاصةً بين العوام، وأتباعهم، لأنهم لا يتصورون كيف صار المجاهد والعالم والمُبتلى في سبيل الله منافقاً.

إنها القلوب التي تتغيَّر وتتبدل، وإنها الدرجات العُليا التي لا يستقر فيها إلاَّ أهل الاختصاص من الصابرين والثابتين.

أما العوام والمُقلدون فهذه محنتهم، وهذا ابتلاؤهم، فهي محنة الحب، هل هو لله أم لغيره؟ وهي ابتلاءٌ لما تعلموه من هؤلاء المتبوعين، هل تعلموا العلم أم غيره مما يحسن لوكه كلّ جاهل؟!

---

[1] أحمد بن محمد عرفان، مصلح ديني من أصل هندي. ولد يوم ٦ صفر ١٢٠١هـ/٢٨ نوفمبر ١٧٨٦م. تعلم في مدرسة شاه ولي الله في مدينة دهلي، وكانت مدرسة معروفة أسسها العالم الفذ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بشاه ولي الله، أحد رواد الإصلاح في الهند، ثم رحل إلى دلهي سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م، وتتلمذ على يد الشاه عبد القادر الدهلوي، وأخيه الشاه عبد العزيز الدهلوي، وهما من أبناء الشيخ شاه ولي الله، ثم عاد إلى حياة الجندية والجهاد مرة أخرى، وانضم إلى جيش «أمير خان» حاكم مدينة تونك إحدى مدن إقليم راجستان، وذلك في سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م، وأخذ يحثّه على الجهاد والقتال في سبيل الله، ويشجعه في حربه للإنجليز، ثم لم يلبث أن ترك الجيش بعدما عَلِم بالصُلح الذي أجراه أمير تونك مع الإنجليز. توفي رحمه تعالى يوم ٢٤ ذي القعدة ١٢٤٦هـ/٦ مايو ١٨٣١م.

إنَّ ماضي جماعةٍ من الجماعات أنها قدَّمت الشُّهداء والتضحيات لا يشفعُ للاحقين ممن خانوا وبدَّلوا وغيَّروا، وإنَّ ماضي الرجل لا يشفعُ له إنْ خان العِلْمَ الذي علِمه أو الجهاد الذي جاهده.

إنَّ هؤلاء إن ضعفوا فإنَّ وسعهم أن يسكنوا ويلزموا بيوتهم، ولا يطلبون بهذا السكوت إقامة الدِّين في الأرض، لأنَّ الإمامة لا تكون إلاَّ بالصَّبر واليقين، هذا الصَّبر الذي يُثبتهم على مواقفهم، وهذا اليقين الذي يدفعهم لمواصلة الطريق حتى يأتيهم التعيين.

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

الوجه الأصوب لهذا الحديث أنه حديث منافقين كذابين، وهذا يُبيِّنه قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ ﴾. إذاً هو من باب الخِداع لأهل الكتاب، يُقوون نفوسهم حتى يثبتوا في قتال المسلمين، ومن دلائل هذه الآية أنها كشفت خِيانة هؤلاء المُنافقين حين قدموا الخروج على القتال، وواجبُ الحال أن يقولوا لهم: «قاتلوا ونحن نُناصركم فإنْ هُزمتم وأُخرجتم سنخرج معكم»، لكن لم يكن هذا حديثهم، بل قدموا الإخراج على القتال، وهذا من باب قولهم: «يكاد المجرم أن يقول خذوني»، واللسان بيانٌ عما في القلب، فهذا من أكبر الأدلة على خِيانتهم لإخوانهم من أهل الكتاب.

هذا إذا كان وجه قولهم هذا على معنى تقوية قلوب أهل الكتاب وتثبيتهم على ما هم عليه، لكن هناك وجهٌ آخرٌ للآية، وهو أنَّ المنافقين أعلنوا تضامنهم مع إخوانهم أهل الكتاب في محنتهم لأيِّ وجهٍ يختاره هؤلاء الكفار، فبهذا القول يُشعرونهم معاني نفسية من التحالف والتضامن، فلستم وحدكم في هذا الطريق، بل هناك مَن هو على الجهة الأُخرى من هو معكم في عَداء هذا الدِّين.

كلا هذين المعنيين موجودٌ في الآية، ولكن كلّ هذا كلامٌ لا حقيقة له.

﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

حَقّاً وصِدْقاً إنَّ أفئدتهم هواء، فليس لهم إلاَّ الألسنة كما سيأتي في سورة «الأحزاب» عن موقعة الأحزاب، لا يستقوي بهم في الشدائد إلاَّ خائب، يؤذون المسلمين بألسنتهم وأفعالهم، ويقوون الكافرين بألسنتهم ويخذلونهم بأفعالهم، فلا يقوون أبداً على اتخاذ الأفعال والمواقف العملية التي يتحقق بها نُصرة مَن وقفوا معه، إنما همهم تحقيق مقاصدهم وأهوائهم على أيِّ جهةٍ كانت، فلَئِنْ أُخرجوا من ديارهم لا يخرجون معهم، بل ربما ذهبوا للمسلمين يقولون ما قصَّه الله عن نوعٍ آخرٍ من المنافقين هم أقل نِفَاقاً من هؤلاء: ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ

[1] سورة الحشر، الآية: ١٢.

﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾[1]. وقلتُ: إنَّ هؤلاء نوعٌ آخرٌ من المنافقين هم أقل ضرراً من هذا الصنف الذين راسلوا النضير، لأنَّ هؤلاء صمتوا فلم يُعْلِنُوا شيئاً، إنما جلسوا يترقبون النتائج لِيَمِيلُوا مع المُنتصر، ولما كان هؤلاء يُسرون ولا يُعلنون، ويجبنون عن التضامن والتحالف، حتى الكلامي منه، فإنَّ الله عقب بحكمه في هؤلاء في الآخرة، فقال: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. بخلافٍ هنا في سورة «الحشر»، فإنَّ الله ذكر احتمال قِتالهم للمؤمنين ولكن بيَّن أنَّ لا ثبات لهم كما سيأتي، ولذلك هذه الآية من سورة «النساء» قال الله عقبها عن هذا الصنف المُتردد من المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾[2]. فهم مرةً مع المؤمنين ومرةً مع الكافرين، وهؤلاء يُطْمَعُ في توبتهم كما في الآيات التالية من السورة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾[3]. والحقّ أنَّ آيات الجهاد، آيات المنافقين في سورة «النساء» فيها من الفوائد ما تحتاج بنفسها إلى مُؤَلَفٍ مستقلٍ، والله المستعان.

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾، وهذه الآية يمكن الاحتجاج بها على شمول عِلْمِ الله لما لا يكون كيف يكون لو كان، أي أنهم لا ينصرونهم في الحقيقة، لكن هَبْ أنهم نصروهم فإنهم سيُغلبون، كما في آية «الأنفال»: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾[4]، ولكن سِياق الآية يدل إمكانية أن يدفعهم حِقدهم إلى الدخول مع الكافرين في حُصُونِهم كما سيأتي.

إنَّ حِقدهم ونِفاقهم يمكن أن يدفعهم لنُصرة إخوانهم ولكنهم سيخذلونهم عند أشدِّ الحاجة لهم، وذلك حين حضور الصفين، والحقّ أنَّ هذا أبلغ في الخُذلان، لأنه لا إمكان لجبره بخلاف ما لو وقع قبل ذلك فيمكن جبرانه، أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾. دليلٌ على تسمية الثبات نصراً، فمن ثبت فهو المنصور، فليس الهزيمة أن لا تميل، ولكن الهزيمة أن تزول عن مكانك، ولذلك رأينا في آية «النساء» المُتقدمة أنَّ الله سمى ما يقع للكافرين من غلبة «نصيباً» قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾. فهو مجرد قِسمةٍ تقع، وأما نصرُ المسلمين فسمَّاه فتحاً، ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾. فيمكن أن يُصيب الكافر المسلم، ولكن المسلم يبقى ويثبت، وما يُصيبه إنما هو ثلمة تُجبر.

---

[1] سورة النساء، الآية: ١٤١.

[2] سورة النساء، الآيتان: ١٤٢-١٤٣.

[3] سورة النساء، الآية: ١٤٦.

[4] سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

﴿ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾. يعني أنهم يتركون أماكنهم ولا يثبتون، وتأملتَ تردد كلمة الدُّبر في هذا الموطن من الهزيمة علِمْتَ قُبْحَ الفِعلة الشنيعة.

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

هذه على التولي وعدم الثبات، فهذا الحديث ما زال عن المنافقين، وليس التفافاً إلى أهل الكتاب، إذ لا داعي لهذا الحمل بلا مسوِّغٍ يُوجب ذلك أو يقدم فائدة.

على التولي الرهبة من المؤمنين، فهم يخافون النَّاس أكثر من خوفهم لله تعالى، والقرآن فصَّل تحركهم تحت هذا الجهل في مواطن عِدَّة، ومن ذلك قوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾[2].

فهم يفعلون أُموراً في الخفاء، والله مُبصرهم، ولا يفعلونها أمام النَّاس، ذلك لجُرأتهم على الله وخوف الفضيحة من النَّاس. كما قال في سورة «التوبة»: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾[3]. وقد قال بعدها: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[4].

فهذا الخوف من النَّاس دون النظر إلى ما يحب الله ويرضاه هو عِلَّة مرضهم، وهو آفة ومصدر تصرفاتهم ومواقفهم، وههنا بيَّن الله شِدَّة رهبتهم من المؤمنين، وهو دليلٌ على أنَّ المؤمنين لهم أفعال ومواقف ما يحصل بها الرهبة في قلوب المنافقين الذين يعيشون بينهم، فهم قومٌ لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يرجون إلاَّ إرضاء الله، ويصبرون على الموت أو البلاء، ولا يتخذون أحداً وليّاً من دون الله ورسوله والمؤمنين، بل هم مع موقف الشرع، يرحمون حيث يرحم، ويقسون حيث يُعاقب ويردع، كما قال تعالى في موقف إقامة الحد على الزاني كما في سورة «النور»: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[5]، وهذه الرهبة هي التي تحقق شِقَّ النَّصر في كلِّ المواقف، والشِقَّ الثاني يتحقق بالصَّبر عند اللقاء، وهذا الشِقُّ هو ما يُسمى بالردع في مفهوم الحرب، ولو تأمل المرءُ في حياة الصَّحابة رضوان الله عليهم وأوامر الرسول ﷺ لهم لَوَجَدَ أنَّ كثيراً من الأفعال كان لتحقيق هذا الشِقِّ المُهم في الوجود والحياة، كما أَمْرُهُ ﷺ بقتل كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق سفيان بن خالد الهذلي، وقد تحقق بإخراج جيش أُسامة بن زيد ﷺ بعد وفاته ﷺ الخير الكثير من

[1] سورة الحشر، الآية: ١٣.
[2] سورة النساء، الآية: ١٠٨.
[3] سورة التوبة، الآية: ٦٢.
[4] سورة التوبة، الآية: ٩٦.
[5] سورة النور، الآية: ٢.

ردع المُرتدين في غزو المدينة، وهذه الحياة وقضية الدعوة إلى الله وهِداية الخَلق ليست قصة جميلة تتحقق بالكلمة الحسنة والتواضع على المبادئ والقِيم، بل هي أوسع من ذلك بكثير، والتاريخ وكذا الحياة المُعاصرة تُبيِّن هذه القيمة خيرَ بيانٍ، فالسُّفهاء الذين يقودون الأُمم كُثُر، والحاقدون الذين يملكون القِوى والدول كُثر، ولا يغرنَّك الشِّعارات الجميلة، فهذه تُوجد حيث لا اختبار، فإذا كانت المصالح حصل الاختبار فهي أسرع ما يسقط في الحياة.

إنَّ الحياة معركةٌ حقيقيةٌ ميدانها القِتال والصِّراع، وإنَّ مَن أراد الحياة فلابدَّ أن يعرفَ هذا، ولكن العجبَ ممن يجعل الحياة كلّها موعظة حسنة، ويختزلها بالكلمة فقط، وهؤلاء هم الأكثر في أُمَّتنا من الدُّعاة والوُعاظ والمُفكرين، ومع عدم إصابتهم لطريق الدعوة إلاَّ أنَّ خطأهم كبيرٌ في فَهْمِ الحياة والإنسان والتاريخ، وأما عدم فهمهم لحقيقة المسلم المؤمن في القرآن فهو جليٌّ وبيِّنٌ، وهذه الآية ككلِّ الآيات التي تُبَيِّن خطأ وعيِّهم التام والكامل على الحياة، فالمؤمن أشدُّ رهبةً في صدر المُنافق ومثله الكافر من الله تعالى، وحين لا يُوجد هذا الأمر ولا تتحقق هذه الصفة فيعني ذلك أنَّ هذا المسلم إما عجز أو كسل أو جهل عن تحقيق معنى من معاني الإيمان التي فرضها الله تعالى عليه، وهذا مما يُذَّم به المسلم ولا يمدح، إما ذماً شرعيّاً كمن كسل أو جهل؛ وإما ذماً قَدَرِياً كالعجز، ولكن العجب من أصحابنا اليوم حين يمدحون هذا كلّه ويَعدُّونه من كلمة الدعوة والحياة، ويرمون بالعيب كلّ من خالفهم ويذهبون مع المنافقين والكافرين في تسمية إخوانهم «بالإرهابيين».

إنَّ هؤلاء الذين يعيبون إخوانهم بما يقومون به من الحقِّ إنما يعيشون على هامش أفعال وجهاد هؤلاء، فلولا أفعال المجاهدين المُقاتلين لما كان لهؤلاء سبيل أن يقولوا كلمتهم، فإنَّ الجاهلية إنما تُدرك حِكمة الحياة حين تسمح للكلمة أن تكون ما دامت تمنع السيف، ولكنها ستمنع الكلمة التي تُضادها مهما كانت حين لا يكون البديل هو السيف، ولذلك يرى النَّاس اليوم أنَّ بعض البلاد ممن كانت تعيش في ظلِّ الإسلام قد مُنِعَ خُطباؤها ومُدرسوها من الكلام عن بعض مسائل الإسلام كالحجاب مثلاً، بل قد مُنِعَ هذا الحجاب بقانون لأنَّ البديل هو قوم من المسلمين يقولون: خِيارنا الوحيد في صدِّ هؤلاء المُعتدين على الله ورسوله وعلى أُمَّة الإسلام هو الكلمة، هذا مع إحسان الظَّنِّ وإلاَّ فإنهم يقولونها على غير هذا الوجه.

إنَّ وجود المجاهدين المُقاتلين الذين يُرهبون المُنافقين بأفعالهم ومواقفهم هو سبيلٌ قويمٌ لإصلاح هذه الحياة في داخل المجتمع المسلم وخارجه، وإنَّ وجود ضوابط شرعية للجهاد لا تعني إلغاء الجهاد، وكذا وجود ضوابط شرعية للحِسْبَة لا تعني إلغاء الحِسبة، ومثلها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس الأمر كما يفتي ويتكلم به البعض من شروط لهذه الأفعال الصالحة تؤدي إلى إلغائهما من حياة المسلمين والنَّاس، ويُقال كذلك وجود بعض الأخطاء في التقديرات لا تمنع شرعية أصل هذه الأعمال، فالنَّاس ما زالوا يموتون في البحر ومع ذلك يركبونه، ويموتون بحوادث السيارات على الطُرق بالآلاف ومع ذلك ما زالوا يركبون السيارات.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾. لأنهم لا يعرفون ربَّهم ولا يخشونه حقَّ خشيته، وهذا حالُ كلّ ما غاب عنه الخوف من الله، فإنه لا يرتدع إلاَّ بأفعال المؤمنين، وخاصة المجاهدين والآمرين بالمعروف والناهين عن المُنكر وأهل الحِسبة، فأما مَن خاف الله فهذا يُوكل إلى هذا الخوف، فهو كافيه من اقتراف الإثمِ والشرِّ، وأما غيره فلابدَّ من يجابه ما يخشاه.

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

في هذه الآية ذكر الله صفات الهزيمة المُحققة؛ أما الأولى فهي عسكرية، وهو نزوعهم دوماً إلى الحصون ليحتموا فيها من أعدائهم، فهم لجبنهم عند اللقاء، وخوفهم من أعدائهم يفرون إلى الحصون، وهذا الاحتماء الجماعي يبدو للناظر أنَّ القوم واحدٌ، فهذا حقّ لاتفاقهم جميعاً على هذه الوسيلة، واجتماعهم في مكانٍ واحدٍ فقال سبحانه: ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ ﴾. ولكن إنْ حصل خِيَّارٌ للبعض بالمُواجهة فلا يمكن أن يكونوا جميعاً في هذا الخِيار، حينها ترى الشقاق بينهم، وهي صفةٌ أُخرى؛ أنه حين المُواجهة فكلّ طائفة تدفع غيرها للموت، وهذا هو البأس الشديد من الخلاف ودفع الغير للمهلكة كما يظنون، وهذا الظاهر في الاجتماع يكشفُ الله عُمْقَه النفسي بقوله: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾، والعجب أنَّ بعض المسلمين قد وقعوا في هذه الصِّفات، لأنها السنن كما قال رسول الله ﷺ[2]، فلا عسكرية ناجحة، هذا إن كان هناك إيمانٌ بها أو إعدادٌ لها، وأحزاب تجمعها المنافع والمصالح، إذ تحولت الجماعات الدعوية إلى مؤسسات مالية يشد النَّاس إليها برباط الوظيفة والراتب، فإنْ حصل البلاء رأيتهم يلعنُ بعضهم بعضاً، ويتهم بعضهم الآخر بشتى التهم. فحسبنا الله ونِعم الوكيل. وهذه الآية تُقوي عزائم المسلمين، وتشد أزرهم حين يرون أعداءهم قد تكالبوا عليهم، فيظن الظان أنه لا يُوجد سبيلٌ إلى دَحْرِهِم أو هزيمتهم، بل عليه أن يُؤمن أنَّ بينهم من عوامل الهزيمة الداخلية ما هو كفيلٌ بتشتتهم وتفرقهم، هذا إنْ صمد المؤمنون المجاهدون وثبتوا، حينها تظهر عوامل الفُرقة والاختلاف، وتتفجرُ البأساء بينهم، وقد حصل هذا في الحروب الصليبية الأُولى فإنَّ من أقوى عوامل هزيمتهم هو تنازعهم وتشتت أمرهم، بل إنَّ بعض هذه الحملات لم تُواصل طريقها إلى بلادنا، بل ذهب بعضهم يقتل بعضاً، ويتخلى بعضهم عن بعض، فاندثرت هذه الحملات قبل وُصولها، وإنَّ بعضها مَن وصل إلى نواحي تبوك في شمال الجزيرة العربية قاصدين مسجد النَّبيِّ ﷺ وقبره حتى ينبشوه، فلم يردعهم رادعٌ في طريقهم إلاَّ أنهم

---

1 سورة الحشر، الآية: ١٤.

2 قوله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي سعيد الخدري ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَتَتَبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً شِبْراً وَذِرَاعاً ذِرَاعاً حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قالَ: **فَمَنْ؟**». البخاري في «كتاب التوحيد» باب قولِ النَّبي ﷺ: «**لَتَتَبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». حديث رقم: ٧٣٢٠. ومسلم في «كتاب العلم» باب اتِّباع سُننِ اليهودِ والنَّصارى. حديث رقم: ٢٦٦٩.

تفرقوا وتنازعوا قبل المُواصلة، وتحقق تشتتهم وخذلانهم، ودولة يهود اليوم فيها من عوامل الهزيمة الداخلية أكثر من غيرها، وخاصة التنازع والتفرق، فإنه لا يوجد دولة فيها نسبة أحزابٍ متفرقةٍ كما في هذه الدولة، وقضية وُجودها مرتبطٌ بعدم إرادتنا وعزيمتنا، لا بقوتها وشدة أركانها، هذا مع ما تجد من حبل النَّاس الممدود لها في كلِّ شِرْيَانٍ من شَرَايِّين حياتها يمدها بأسباب الحياة والبقاء، وكلّ حروب هذه الدولة إنما تمت على صورةٍ واحدةٍ وهي انهزامٌ في جيوشنا أمامها بلا قتال ولا حربٍ. ثم قُدِر ورأينا اجتماع الجيوش الكافرة على العراق وأفغانستان، ثم رأينا كيف دبَّ فيهمُ التنازع والخصومة، وصار كلّ واحدٍ يكيل التُّهم للآخر، وما زالت الطريق تلد بالأحداث المُصدقة لكتاب الله تعالى بحمد الله ربِّ العالمين.

فمِن مقاصد الآية أنْ تكشفَ غِطاء هؤلاء القوم النفسي، وهذا ليس خاصاً للمنافقين أو لأهل الكتاب، بل هي سنَّة الله في الكافرين كما في الآية التالية: ﴿ **كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ** ﴾[1].

والقتال في القُرى المحصنة ومن وراء جُدر ليس معيباً في الطلق، لكنه يكون معيباً حين يكون دافعه الجبن وليس التقدير العسكري للموقف، ولذلك قال تعالى في فاصلة الآية: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤** ﴾، وعليٌّ ﷺ قال: «**لا يُغْزَى قومٌ في عُقْر دارهم إلاّ ذلوا**»[2]، فإنَّ الإصابة فيهم محققة سواء كانت مادية أو معنوية، وهذا يُبيِّن فضيلة الغزو والنفير إلى الأعداء لما في ذلك من عزة الغازي، وذلة المحتمي.

قوله تعالى: ﴿ **كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥** ﴾.

هذه سنَّة الله تعالى الجارية في الكافرين؛ فاقدين للهُدَى، مُتنازعين على الدوام، ونفوسهم خواء، وقلوبهم هواء، ولا يغرنَّك الظاهر في شيءٍ، فإنَّ القليل من الاصطلاء على نار القتال والجهاد يكشف كيف ينهارون كالأرزة، كما وصفهم النَّبيّ ﷺ[3]، لكن المشكلة فينا نحن، إذ لم نُعِدْ أنفسنا لوراثة هؤلاء، بل فينا النِّفاق والخذلان والجبن، وصِرْنَا غُثَاءً كغثاء السيل، أي عددٌ كثيرٌ بلا فاعلية في الواقع والحياة، وفقدنا مُقومات وِراثة الأرض من غيرنا، هذا لأنَّ فينا مَن تضلع بأكاذيب الشيطان وجُنده أنَّ الجهاد في سبيل الله ليس السبيل لعِزة الأُمَّة ورِفعتها.

---

[1] سورة الحشر، الآية: ١٥.

[2] «ماغُزِيَ قوم قط في عُقْرِ دَارِهِم إلاَّ ذَلُّوا» خطبة له بعنوان: «استنهاض النَّاس». بكتاب: «نهج البلاغة» - إن صحت نسبته إليه - جمعه: أبو الحسن محمد الرضى بن الحسن الموسوي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح. طبعة: دار الأسوة للطباعة والنشر بإيران، الطبعة الثانية (١٤١٨).

[3] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلاَءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللهُ إِذَا شَاءَ**». البخاري في «كتاب التوحيد» باب في المشيئة والإرادة.. حديث رقم: ٧٤٦٦. طرفه في: ٥٦٤٤. ومسلم في «كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار» باب مثلُ المؤمنِ كالزَّرعِ ومثلُ الكافرِ كشجرِ الأَرزِ. حديث رقم: ٢٨٠٩.

هكذا هم أعداء الدين يذوقون وبال أمرهم، أي عاقبة فِعلهم، كما ذاقت قريش وكما ذاق بنو النضير، فهم على طريقةٍ ومنهجٍ واحدٍ، يذوقون العذاب في الدُّنيا ولهم عذابٌ أليمٌ يوم القيامة.

قوله تبارك تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

هذا الإغراء وشد الأزر من الُمنافقين لإخوانهم من كفرة أهل الكتاب مِثالُهُ هذا المثل، وهو مَثل السَوْء، فأَلْيَق ما يُشابهون هو الشيطان في إغوائهم وتقويتهم فإنْ جدَّ الجد حاصوا كالحُمر لا يلوون على شيءٍ، وهو تذكيرٌ لما وقع من الشيطان يوم بدر في قوله تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]. فهو يتولى عنهم في كلِّ موطنٍ، فقد تولى عنهم عند كُفرهم لما يرى من عذاب الله للكافرين، وهو تولى عنهم عند القتال، وهو سيتولى عنهم يوم القيامة وهم في النَّار كما قال الله تعالى عن خُطبته في سورة «إبراهيم»: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]. وقد صدق الله قوله بعدم وُجود سلطان له على أوليائه حين قال في سورة «سبأ»: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾[4]. وأما قوله سبحانه وتعالى في سورة «النحل»: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[5]. فهذا السلطان هو من باب الوِد والقُرْبِ الحاصل بينهم لأنهم يتولونه فأسلموا قِيادتهم له ليُوحِي لهم ما يحبون من الشرِّ، وأما سلطان القهر والغلبة فليس للشيطان من هذا في شيءٍ، وموضوع الشيطان مع الإنسان مفصل أبسط وأوفى تفصيل في ما جرى بينه وبين أبينا في السماء، كما في مواطن عدة في القرآن، وفيها الكثير من الفوائد التي تغري طلبة العلم أن ينشطوا لها ليستخرجوا كنوزها نُصحاً للأُمَّة وكشفاً لأسلوب هذا العدوِّ،

---

[1] سورة الحشر، الآيتان: ١٦ـ١٧.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

[3] سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

[4] سورة سبأ، الآيتان: ٢٠ـ٢١.

[5] سورة النحل، الآيات: ٩٨ـ١٠٠.

وهي في تنوعها أسلوباً في القرآن فهي متنوعة علماً ومتعددة الفوائد في هذا التنوع، فلينشط لها الأذكياء.

فحال المنافقين مع أهل الكتاب أنهم أوقفوهم على شفير الهلكة، ودفعوهم إلى حَتْفِهم ثم تولواْ عنهم، فهم شياطين الإنس، وما فعلوه هو ما يفعله شيطان الجنِّ مع الإنس في إغرائهم بالكُفر حتى إذا كفر قال: إني بريءٌ منك، ومِنْ مكر الشيطان أنه علل برائه من تابعه بقوله: «إني أخاف الله ربَّ العالمين». ولكن هل يخاف الله مَن زيَّن الكفر للإنسان حتى أكفره؟ هذا ما يفعله الكثير من شياطين الإنس في هذه الأرض، إذ يمهدون سُبل المعصية، ويقضون على موانعها، ويحاربون أعداءها من الدُّعاة حتى إذا عصوا قالوا: «لم نُردْ هذا ولم نقصده منهم».

هم عرب الموحِّدين، فهم أشدُّ ضراوة ضدَّ مَن يعبد الله ويكفرُ بالطاغوت، مع لِينٍ وحُبٍّ وَوِدٍّ لكلِّ فُجْرٍ وكُفْرٍ وفَسادٍ، ومع ذلك يزعمون أنهم حُماة الدِّين وأهل الإسلام.

إنها لعبة الشيطان بأتباعه، وهي لعبة شياطين الإنس بحميرهم ودوابهم، ولكن الله لهم بالمرصاد: ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾، إنها عاقبة الشيطان وتابعه الذي وافقه وأطاعه، ونارُ الدُّنيا هي عاقبةُ كلِّ كافرٍ أتى إلى بلادنا بإغراء المنافقين، إنه لن يجد الورود في استقباله كما وعدهم المنافقون من الزنادقة في العراق وغيرها، بل سيكون وُجودهم سبباً لفتح سوق الجهاد ليحصل الفضل الإلهي للمؤمنين والعذاب الدُنيوي للكافرين.

هكذا تنتهي الحِكمة الإلهية في عرض معركة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه مع اليهود من بني النضير، معركة من نوعٍ خاصٍ، حملت للمؤمنين حِكمةَ الوجود، وأسبابَ الرزق، وشرعيةَ التملك، وبناءَ المجتمع المسلم في صورةٍ من صُور البهاء الإيماني الرائع، ثم راحتْ تصف الصف المُقابل، فتكشفُ دخائله الباطنة، وعلاقته المُخادعة، ونفسيته المنهارة، وتكشفُ صِنفاً من داخل المجتمع المسلم على وجهٍ سيتجدد في كلِّ عصرٍ، من خلالِ أفعالهم ونفوسهم المريضة، وهي مُقدمات لأحكامٍ أتتْ بعد ذلك في حقِّ هؤلاء، هي الأقسى، لأنها هي المُلائمة لهم.

هذه الصِبغة الإلهية في البناء، صبغة تطوف على الإنسان في داخله، مع تنوعه، فقوم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾ ﴾[1].

[1] سورة المائدة، الآية: ٢.

﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾. وآخرون: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1]. وصنفٌ يحبون آباءهم الذين سبقوهم بالإيمان، وتطوف على آخرين في الصف المُقابل، قِسْمٌ منهم معك بأجسادهم، وصدورهم وأرواحهم هناك، وقسمٌ كلهم هناك، لكنهم أُخْرِجُوا وَأُبْعِدُوا، وسيبقى القسم الأول يُعاني منهمُ المؤمنون حتى يوم القيامة.

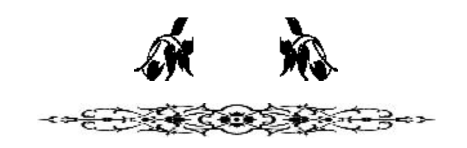
هذه الصبغة الإلهية مع واقعية الحياة وطِينتها، حين تُعالج قِوَامَ الحياة وهو المال، فتعرضُ مشروعيةً جديدةً لامتلاكه قائمة على أساس العلاقة مع الله لأنه هو ربُّه وهو صاحبه، وتمدح المؤمنين في إهلاكه إن لم يقدر المسلم على امتلاكه مادام بيد المحارب لله وللرسول وللمؤمنين بلا حرج ولا أدنى شعور بالغلط.

هذه الصبغة الإلهية حين تذكر أنَّ أمثال الكافر في أفعاله هو مثال الشيطان، لتبقى الذكرى بما حدث لتلك المعركة الأولى للإنسان مع نفسه ومع الشيطان كما جرت في السماء، ومن أجل هذا كانت خاتمة السورة بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ... ﴾[2]. إلى آخر السورة.

هذه الصبغة الإلهية في عرض الحقائق السننية بلا أوهام قصاص، ولا أحلام كاتبين، ولا أوهام شعارات جميلة لا حقيقة لها.

هذه الصبغة الإلهية مَنْ أَوْلى النَّاس بها؟ ومَن هم أقرب النَّاس إلى هديها؟! ومن هم أهلها وأهل رايتها؟

الجواب: كل امرئٍ حسيب نفسه.



[1] سورة الحشر، الآية: ٩.
[2] سورة الحشر، الآية ١٨.

غزوة أُحد

هذه الغزوة هي الحمَّى النافض التي جعلها الله للمؤمنين، تُزيح عنهم آثامهم، وتنقي بها أجسامهم، فتصح بعد النفض، فتعود أقوى وأصلب وأطيب وأطهر، فهي غزوة جاءت ضمن السياق التاريخي لحركة الإسلام، لتُبيِّن قدر الأنبياء، وأتباعهم في هذا الوجود، فهم بشرٌ، يجري عليهم ما يجري على البشر من السنن التي لا تتخلفُ ما وقعت أسبابها وانتفتْ موانعها، فهم ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[1]. وهم: «يَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا، وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرُّ»[2]، ولكن المسيرة لا تتوقف، لثقة أصحابها بوعد الله، ولرعاية الله لهم على عينه.

هذه غزوة لابدَّ منها بعد بدر، إذ كان قبل بدر الكثير من المشركين في المدينة، وبعد بدر دخل بعضهم على دَخن، فكان لابدَّ من محنةٍ تكشف هذا الدَخن وتمحصه وتُبيِّن حقائقه، فكانت غزوة أُحد، ليكون لهم موقف معيب قبل المعركة، وموقف أكثر عيباً وسوءً بعد المعركة.

جاءت هذه الغزوة لتكون محطة كمحطة بدر، تحصل في كلِّ زمنٍ، ويحصل بعض معانيها في كثير من المعارك، حتى المعارك التي يحصل بها النَّصر، حين يقع القرح في بعض المؤمنين فيكون لهم موقف الإيمان والهداية ويكون للمنافقين موقف الطعن والثلب والاستهزاء.

فهذه غزوة الحياة، كغزوة بدر، لا تفترقُ عنها بشيءٍ، وهي شقيقتها، تتوزعُ على حياة المجاهد مع غزوة بدر، مرةً هذه ومرةً الأُخرى، وفي مرةٍ يجتمعان في وقتٍ واحدٍ، لأنَّ معركة الإيمان مع الكفر ـ يوم لنا ويوم علينا ـ وفي كثيرٍ من معارك أهل الإسلام يكون اليوم نفسه علينا ولنا، كما هو للكافرين وعليهم، لكن العاقبة للمتقين.

هذه الغزوة العظيمة الجليلة كان لها آياتٌ جليلةٌ مهيبةٌ في سورة «آل عمران»، لهذه الآيات خصوصية الحديث عنا، عن الإنسان فينا، وعن طوائفنا، وطُرق تفكيرنا، ومناهج تفسيرنا لوقوع القرح فينا، وأرست لنا من قواعد الحقِّ ما يردع المُتلبسين لُبوس النُّصح الكاذب حين يقع البلاء بسبب الجهاد.

آياتٌ تُلقي ظلال الرحمة على المُخطئين من المجاهدين، وترأفُ بهم حتى لو أخطئوا، لكنها تُلقي جمر الغضب الإلهي على المُنافقين الذين يدَّعون الوعي بالعواقب، ويسيرون مخذلين حتى يقع ما يحبون فيصرخون: «لقد قُلنا لكم».

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١١١.

[2] قالها أبو سفيان يوم أُحد. انظر «المسند» للإمام أحمد رحمه الله تعالى، حديث رقم: ٤٤١٤.

آياتٌ تُسمي المقتول في حرب يخسرها المجاهدين لخطأ يرتكبونه شهيداً، وتُسمِّي الآخرين قُعوداً، فيستبشر الشهيد ويبوء القاعد بسخط الله.

إنَّ غزوة أُحد نِعْمَة إلهية على المجاهدين في كلِّ زمانٍ، نِعمة لأنها تقول لهم أنَّ طريق الجهاد حقّ حتى لو أصابكم في مواطنه القرح.

ونعمةٌ إلهية لأنها عَلَّمَتهم إنْ ماتوا في معركة لِرِيحٍ انقلبت عليهم فإنَّ الله أرادهم عنده شهداء، وعَلَّمَت مَن بقي أن لا يهن ولا يحزن، بل استجيبوا لأمر الله لمعركةٍ أُخرى قادمةٍ فلا تخشوا النَّاس بل قولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

كما أنَّ كلَّ معركةٍ هي بدر لأنَّ الملائكة تنزل، فكذلك في كلِّ معركةٍ أُحد والملائكة كذلك تنزل، وكما أنَّ كلَّ معركةٍ هي للمجاهدين بدر لأنَّ النَّوم يغشاهم أماناً، فكذلك هي أُحد كان النَّوم فيها أماناً لهم، وأما أيام الدُّنيا فهي دُوَل بين النَّاس بها يَتَبيَّن المُؤمن من غيره.

هذه الغزوة تواعد النَّاس فيها، وتشاور النَّبيّ ﷺ مع أصحابه في الطريقة الأمثل في مُواجهة جيش قريش الذي أنفقت عليه أموال العير التي سلمت مع أبي سفيان يوم بدر، فمنهم من أشار بالمكوث في المدينة والتحصن فيها، حتى إذا دخلت قريش أصابوا منهم في داخل المدينة ما استطاعوا، وقالت الروايات إنَّ هذا كان رأياً للنَّبيِّ ﷺ وللأشياخ، وأما غيرهم فقد رأوا في هذا عيباً، فقالوا: لابدَّ من الخروج ومُلاقاتهم، فاختار رسول الله ﷺ في قراره لأُمَّته أن يخرج، فلبس لأمته، وتجهز النَّاس للخروج، فلما سار رسول الله ﷺ مسافة رجع قومٌ من المنافقين إذ لم يأخذ النَّبيّ ﷺ رأيَهم وقصَّ القرآن كما سيأتي ضرهم، وتم ما تم من أخبار الغزوة المشهورة والقرآن الكريم سجل المواقف النفسية والغيبية أكثر من غيرها، ووقف على أحاديث النفوس وخاطراتها ورغباتها، وجلى للمؤمنين أنفسهم دون تعرضٍ قط إلى أخبار المُشركين، إذ لم يأتِ على ذِكرهم البتة، وكأنهم غائبون عن المشهد بالكُلية، فالحديث كلّه عن الحضور الذاتي للطائفة المُؤمنة وما هي فيه، وما هي عليه، فقوَّم كلماتهم وانفعالاتهم ومواقفهم، وعالج كلَّ المواقف وخاصة الإيمانية منها، إذ شفى النفوس من آلامها وأحزانها، شفى حزن الحبيب الذي فارقه حبيباً أنَّ حبيبه هناك في جنَّة الفردوس يدعو الله أن يلحق به المُنتظر، وشفى حُزنهم حين رأواْ رسول الله ﷺ يُصاب حتى لَيكاد يُؤخذ من بينهم، وعلمهم قدر الموت وما هو معناه، وأنَّ المتأخر ليس بِنَاجٍ منه ولكنها أيام، وعلَّمهم أنَّ الموت في سبيل الله أفضل مِن بقائهم في الدُّنيا يجمعون فيها ما يحبون منها.

لم يُؤاخذهم الله قط على اختيارهم للخروج، ولم يُعلِّق على هذا بشيءٍ، إذ ليس الخطأ في الخروج، ولو اختاروا التحصن في المدينة لما كان خطأ كذلك إلاَّ إذ خلع رسول الله لأمته أن يلبسها دون أن يُقاتل، فلقد شاورهم رسول الله ﷺ ثم توكل على الله إذ عزم على الخروج، ولكن كان العيب والمُؤاخذة حين تطبيق خُطة الغزوة بأنَّ فريقاً منهم نزعهم حبّ الدُّنيا إلى خطأ كان فيه تولي

النَّصر، وكان العيب على المُنافقين الذين أطلقوا ألسنتهم بأنَّ سبب المُصيبة والقرح إنما هو ترك رأيهم بعدم الخروج.

كان الوقوف مع المُخطئين في تطبيق خُطة المعركة يسيراً، ستره الله بأنْ عفَا عنهم، لكن كان الوقوف مع أصحاب ألسنة السُوء قَوِيّاً وهَادِّراً ومُوَبِّخاً ومُقَرِّعاً.

كان وقوفاً يخلع القلوب لو كانت تُصغي أو تفقه كلام الله لها، وكان تعليماً للأُمَّة في كلِّ حروبها أن لا تقع في هذا الوادي الخبيث من الأقوال والمواقف والتقديرات.

كانت آياتٌ عظيمةٌ فيها التوبيخ لكلِّ من رمى المجاهدين أنهم سبب البلاء، وأنَّ أفعالهم هي التي ألحقت الموت بإخوانهم أو أهلهم، أو أخربت بيوتهم، أو أذهبت عنهم بعض أموالهم، أو سجنت النَّاس، لأنَّ هذه كلّها أقدار ستقع في النَّاس سواء خرجوا للجهاد أم لم يخرجوا، فالمنافقون يرون أنَّ الموت يأتي على النَّاس بلا جهادٍ ولا قتالٍ، ويأتي دمار البيوت وخُسران الأموال بالعوارض على الجالسين دون نفير لقتال، ويرون أنَّ السجون ملأ قبل الجهاد وبعده، لكن فضل الجهاد على هذه الأفعال أنها كانت لله فهي خيرٌ مما يجمعون.

هي إرشادٌ للمجاهدين أنْ لا يُغَيِّروا الطريق ولا يستبدلوها بطُرق الهَوان، فإنَّ النَّصر أنْ تبقى مُوَاصِلاً على هذا الطريق محافظاً على إيمانكَ وثقتكَ بالله تعالى.

لنعمة الهداية والإرشاد والتوبة والكشف كانت هذه الآيات العظيمة.

والآن مع آيات سورة «آل عمران» وهي تهدينا وترشدنا وتعلمنا غزوة أُحد.

قدَّمنا أنَّ الله تعالى قدَّم خبر غزوة بدر قبل أن يأتي على خبر غزوة أُحد، وأشرنا إلى قيمة هذه التقدمة في الباب الأول في غزوة بدر.

آياتُ غزوة أُحد كانت فاتحتها عن المنافقين في قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ** ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾** ﴾[1].

بهذه الآيات يتم التقدِّمة لِيكونَ ما بعدها وصف المعركة ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾** ﴾[2].

في هذه الآيات لم يذكرِ الله تعالى اسم النِّفاق بل ذكر صفاته، لأنَّ القضية حديث عن الصَّحابة وتعاملهم مع هؤلاء، وليس الحديث عن المُنافقين، فهو خطابٌ للمؤمنين، فهمُ المقصودون، والقضية تتعلَّق بسلوك المؤمنين وأمر الله باتخاذ الموقف الصحيح منهم، والإرشاد الربَّاني فيها عام لا

[1] سورة آل عمران، الآيات: ١١٨-١٢٠.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

يختص بالموقف من المُنافقين بل بكلِّ ما كان من غير المؤمنين لقوله تعالى: ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾. أي من غيركم[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾.

بِطانة الثوب هي ما يلي البدن، وبِطانة الرجل هي مَن يُسر لها ما يخفيه عن بقية النَّاس لقُربهم منه، وقوَّة صِلته معهم، والله ينهى المؤمنين من اتخاذ مَن كانت هذه صِفته بطانة[2] لهم، يقربونهم ويدنونهم ويُشاورونهم ويُسارونهم في شؤونهم وقضاياهم، وهذه قضية جماعية تتعلَّق بالأُمَّة لا بالفرد فقط، فهي تتعلَّق بأصحاب القرار قبل غيرهم، لأنَّ خطأهم في هذا جِناية على الأُمَّة جميعها.

أما صفاتهم فهي: لا يألونكم خبالاً؛ أي لا يُدخرون وُسْعاً ولا جُهْداً في إفسادكم، والخبال يُطلق على عموم الفساد لكنه أخص ما يكون في العقل والذهن، فجُهدهم مُوجهٌ إلى عقولكم وأذهانكم ونفوسكم، فهي المقصودة بالقصف، لأنَّ إصابتها هو إصابة لعموم حياة المؤمنين، والخبال فساد يطرأ على الذهن هو أقرب ما يكون إلى السُّفه والجنون، وإذا كانت هذه الآيات ـ وهي كذلك ـ مقدمة لحدثٍ جهاديٍّ فإنَّ هذا يعني أنَّ كُلَّ ما يتعلَّقُ بموضوع الجهاد من إفسادٍ له أو تفسيرِ قضاياه على غير منهج القرآن هو سفه وجنون، وهو مقصود هذه الطائفة الخبيثة، وقصف العقول هذا هو أخطر ما يُواجهه المجاهدون وقادتهم، ولو تأملَ المرء سبب نزول الآية في سورة «البقرة» وهي قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾[3]. وسببها كما عُلِمَ أنَّ أحد أصحاب رسول الله ﷺ قتل مُشركاً في الأشهر الحُرم، فاشتعلت آلة الدعاية القرشية ضدَّ النَّبيِّ ﷺ لترفع عنه شرعية الانتماء إلى إبراهيم عليه السلام، وتعظيمه ما تُعظمه العرب من الأشهر الحُرم، مع أنَّ قريش هم أُسُّ النسيء الذي سمَّاه الله كفراً ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ﴾[4]. إذ كانوا يُؤخِرون الأشهر الحرم

---

[1] أي من غير المسلمين. قاله ابن قُتيبة. «زاد المسير في علم التفسير» لابن الجوزي ٤٤٦/١. وقال بمثله الفراء. «فتح القدير» للشوكاني ٥٦٠/١. وقال القرطبي: «من دونكم» يعني في السِير وحُسن المذهب. «الجامع في أحكام القرآن» ١١٦/٤.

[2] البطانة: مصدر، يُسمى به الواحد والجمع. وبطانةُ الرجل: خاصَّتُه الذين يستنبطون أمرَه، وأصله البَطْن الذي هو خلاف الظَّهْر. وبطن فُلان بفلانَ يَبْطُن بُطُوناً وبِطَانَةً إذا كان خاصاً به ومنه قول الشاعر:

وهـم خُلـصائي كلـهم وبطـانتي وهـم عيـبتي مـن كـلِّ قريـب

«الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي ١١٤/٤ـ١١٥، و«فتح القدير» للشوكاني ٥٥٩/١.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢١٧.

[4] سورة التوبة، الآية: ٣٧.

إلى شهور أخرى متى اشتهواْ أن يقاتلوا خصومهم فيها، لكنها الدعاية الرخيصة لتنفير النَّاس عن هذا الدِّين وأهله، ومن خلال قوة قصف الدعاية التي شنتها قريش نتج عن هذا التساؤل: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ ﴾. فجاء البيان القرآني بكشف فِعْلِ الخصمِ الكافر وإجْرامِهِ ومَصَائِبِهِ وتَعَدِّيهِ على قيم الوجود، فالقرآن لم يقفْ في هذه الآية على سؤال المُتسائلين فقط، لكن ردَّ على باعث السؤال وهو شعور الصَّحابة ﷺ بالتأثر من هذا القصف المُوجه إلى عقولهم ونفوسهم، فهو يقول لقريش: ـ إنْ كان القتال في الأشهر الحرم كبيرٌ فاعلموا أنَّ ما تفعلونه من جرائم ومصائب هي أكبر عند الله، فأنتم صددتم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وأَخرجتم أهله منه، وإنَّ محاولتكم فَتْنَ المسلمين عن دينهم هي أكبر من قتل النفوس، ثم جَعَلَ الله هذه الدعاية والتشويش وقصفَ العقول قِتالاً ـ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ـ ثم حذر المؤمنين من الاستجابة لهذه الدعاية وأُسلوبها ومُرادها: ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

هذه هي المعركة الدائمة لأنها مقصود كلِّ الحروب، ومقصود كلّ الإنفاق، وهي قبل الحرب وخلال الحرب وبعد الحرب.

وهي معركة المجاهدين اليوم حين تشتغل الآلة الإعلامية الهائلة، والتي يُنفق عليها بمقدار ما يُنفق على الجيوش من أموال، ويُرصد لها من الطاقات كما الجيوش، فتتحرك هذه الآلة لإخبال العقول، وتُديرها حتى تصبح أسيرةً مُنقادةً لخصمها، وبعضهم مَنْ هو حَسَنُ النِيَّة، لكنه في عُرف هذه المعركة يُسمَّى بالمُغفل النافع، وهو الخصم الذي يخدمني أكثر مما يخدمني جنديِّي، فهو ينشط بإخلاص زاعماً أنه يُنافح عن الحقِّ.

تبدأ هذه المدافع الإعلامية بتعظيم أخطاء المؤمنين إنْ وُجدت أخطاء، وهي لابدَّ منها في أي معركة إنسانية، وتقبيح الأفعال المجيدة وتنفير النَّاس منها، وصرف النَّاس عن إجرام الكفر وأهله، وأمورٌ أخرى كثيرة تسير في كلِّ يومٍ، وفي كلِّ خَبَرٍ، وفينا سماعون لهم، مع طمس المجاهدين ومنعهم مِن أن يكشفوا حقيقةً أو يُدافعوا عن موقفٍ، وينتهي الغُثاء إلى أن يكون بُوقاً للكافرين، عدوّاً للمجاهدين المؤمنين ـ وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنْعاً.

ما أحوج مشايخنا ومُفكرينا وأصحاب العمائم واللحى اليوم إلى آيات سورة «النور» ليعملوها مع المجاهدين بدل أن يخوضوا مع الخائضين، ويصبح الواحد منهم مجرد قشة رخيصة ضِمْنَ رُكَامٍ يَسِيرُ به تِيَّارُ الكُفر إلى مُسْتَقَرِّهِ الذي يُرِيدُهُ منه، كما يَسيرُ الماءُ بالغُثَاءِ إلى حَتْفِهِ. ونحن نقول لهم ولنا ما أحوجنا إلى آيات سورة «النُّور» في التعامل مع المؤمنين، لكن في حقيقة الأمر أين العلماء اليوم من القرآن كُلِّهِ، مع أنهم يقولون في كل حديث:ـ لا عِزَّ لنا إلاَّ بعودتنا إلى الكتاب والسنَّة، فإذا سُئِلَ أحدهم مثل ماذا؟ حينها ترى الإجابات العجيبة، والأقوال التي تُضحك الثكلى، ولولا إجلالي

لهذا المقام لَذكرتُ بعض ما سمعتُ، لكن جهالته ستُضحك العُقلاء، والموطن موطن أسى وألم على واقع هؤلاء الذين ترجو الأُمَّة قيادتهم وأفكارهم واجتهاداتهم.

﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾. يدسون لكم السُمَّ حتى تُصبحوا صَرعى أسرى بهم لأنكم فقدتم الرُّشد والهُدى، ﴿ وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ ﴾. وإنَّ رغبتهم وشهوتهم في هذه الحياة أن لا تقوموا من مصيبة تلحق بكم، فهم يتمنون لكم العنت والنَّصب والتعب حتى يكون حَتفكم، فإنهم يودون ويحبون ما يُتعبكم.

﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

فالأمر كما قال أبو العتاهية: من ذا الذي يخفى عليك إذا نظرتَ إلى حديثه؟!

والمرءُ مخبوءٌ تحت لِسانه، يَبِينُ به عما في قلبه، فهؤلاء يُظهرون بُغضهم لهذا الدين من خلال فلتات ألسنتهم، وذلك حين يتحدثون عن المسلمين والكافرين، ومن ذلك أنهم أرق النَّاس خِطاباً للكافرين والزنادقة وأعداء الدِّين، يتوددون إليهم ويرفقون بهم، ويبشون في وجوههم، ويلينون لهم الكلام والخطاب حتى كأنه الشهد، فإنْ جاء حديثهم عن المؤمنين وخاصة المجاهدين فحينها ترى الغرائب، من قوارع القول، وفَجَاجَةِ الخطاب، والتعالي بالنفس، وقذف النوايا بالسوء والشرِّ، وترديد التُّهم الباطلة، وكشف ما ستره الله تعالى من الزلل والخطأ، فهو حديث البُغض يسيل على ألسنتهم الحِداد، ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾. من وقوع الهزيمة، وذهاب النفوس، وغَلبة المشركين، وقلَّة الناصر والمجاهد، فما في قلوبهم من البُغض هو أشدُّ مما ظهر على ألسنتهم من الخطاب.

ففي هذه الآية كشفٌ ربانيٌّ أنَّ ما تقوله أفواههم ليس من باب النُّصح، وليس من باب الحبِّ، ولا على قاعدة أبي تمام ـ قسا ليزدجر ـ بل هو القليل مما تخفيه قلوبهم، فلا يقبل لهم عذر حين تكون ألسنتهم وأفواههم مشتركة في الهجوم مع مدافع وجيوش الكافرين، طعناً وتخذِيلاً وكَشْفاً للعَوْرَاتِ، ورَمْياً للتُّهم الظالمة، بل ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾[1]. والله من ورائهم محيط.

هذا تحذيرٌ ربَّانيٌّ للمؤمنين، بأن يعقلوا ويفهموا ويهتدوا لما يخاطبهم الله به، إذ أنَّ الصور الظاهرة قد تخدع، أو طول الزمان قد يُنْسِيكُم، أو أيمان الخائنين قد تحرفكم إلى صفهم، فإيَّاكم وهذا، فهذه هي آياتُ الله لكم إنْ كنتم تعقلون.

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾[2].

هذا كشفٌ ربانيٌّ لنفوسنا التي تتعامل مع الحياة وصُعوبتها وقوانينها الصارمة من خلال العاطفة، كشفٌ رقيقٌ لما يحسه المؤمن من مشاعرَ حبٍ نحو آخرين هو السم الزعاف، هذه المشاعر لأنَّ المؤمنَ

[1] سورة المنافقون، الآية: ٤.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

سليمَ القلب، صادقَ الحِس، وفيٌّ للأُخوة حتى لو كانت للحظة، ذاكر للحسنات حتى لو كانت كلمة، ولذلك هم يحبونهم، إنه التنبيه على خطأ في سِياق يخفي تحته المدح لهم، ووالله إنَّ المؤمن كذلك، كيف ينسى رُفقة السنين؟، وكيف يكسر روابط الوفاء القديمة، وكيف يغضي طرفاً عن ابنٍ لأُمٍّ مسَّدت على شَعره يوماً، أو أكرمته بهدية الطفولة حانية؟! لذلك هم يحبونهم. لكن هل كلّ هذا يصلح قانوناً لدولة؟ أو يصلح حين يكيد الآخر للحياة؟!

هذا أنتَ، فمن هو؟

﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾. هذه نفوسهم، وهذه عواطفهم نحوكم، لا يحبُّونكم لأنكم آمنتم بالله فأعزَّكم، وهم قد كفروا بالله فأذلهم، فحسدوكم.

لا يحبُّونكم لأنهم كانوا معكم في حمأة القذارة والمعصية فلما تطهرتم بالإيمان، وشدتهم أهواؤهم إلى قعر الحمأة نفح الشيطان فيهم فباض وفرخ فامتلئوا حِقداً عليهم.

لقد أحسن الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى في كتابه: «ردة ولا أبا بكر لها» حين صور نفسية المرتد وخِستها، وكيف أنه أشدّ كفراً وغيظاً وحسداً وحِقداً على المؤمن من الكافر الأصلي، وذلك لأنه كلما رأى المهتدي في عِزته وطهارته وثقته بالله كلما رأى خسة نفسه وحقارتها ودناءتها، فبدل أن يصلح هذه المفاسد، وهو يحب لكنه أسير لشهوته فلا يستطيع، حينها يمتلئ بكلِّ القذارات والأمراض النفسية نحو هذا المؤمن المُهتدي[1].

هكذا هم، وهكذا أنتم.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾. وهذه خِصلةٌ من خِصالكم يُقابلها خِصالٌ كثيرةٌ عند الآخرين، فمنهم من يكفر بالكتاب كُلِّه، ومنهم مَن يكفر ببعضٍ ويُؤْمِن ببعضٍ، ومنهم من مرضه في الإيمان إذ لم يبلغ الثبات، بل هو في رَيْبٍ، يُؤْمِنُ مَرَةً ويَكْفُرُ مَرَةً، ويَتَرَدَدُ حِيناً، فهم أشكالٌ ضدَّ هذه الحقيقة الإيمانية الموجودة عند المؤمنين، وهذا فيه دلالة أنَّ الآخر كلّ من لم يُؤْمِنُ إيماناً صحيحاً بالكتاب كُلِّهِ، فمن لم يكن كذلك فهو من دونكم، لستم منه وليس منكم، فلا تتخذوه بِطانة.

---

[1] هذا كلامه ـ رحمه الله تعالى ـ بحروفه: «وتتسم هذه الحوادث ـ أي حوادث الردة ـ كلها بسمتين، **أولاهما**: المقت الشديد من المسلمين، **والثانية**: الانفصال عن المجتمع الإسلامي، فكان كل من يرتد عن دينه يُستهدف لسخط المسلمين الشديد، وينفصل عن المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه بطبيعة الحال، وتنقطع بمجرد ارتداده بينه وبين قَرابته الأواصر والأرحام، وكانت الردة انتقالاً من مجتمعٍ إلى مجتمعٍ، ومِنْ حياةٍ إلى حياةٍ، وكانتِ الأسرة تُقاطعة وتهجره وتُقصيه، فلا مُصاهرة، ولا زواج، ولا إخاء، ولا توارث، وكانت حركة الردة تثير روح المقاومة في المسلمين والمقارنة بين الديانات، والدفاع عن الإسلام، وكل قُطرٍ من أقطار المسلمين ظهرت فيه حوادث الردة تحمس علماء المسلمين، ودُعاة الإسلام، وحملة الأقلام فيه للرد عليها وتتبع أسبابها، وعرض محاسن الإسلام ومزاياه، واجتاحت المجتمع الإسلامي موجة عنيفة من السخط والاستنكار والقلق، وكانت هذه الحوادث المقيمة المقعدة للمسلمين، وكانت الحديث العام والشغل الشاغل للعامة فضلاً عن الخاصة وأهل الغيرة الدينية، هذا ما اتسمت به حوادث الردة، على ندرتها وشذوذها وعلى عدم تأثيرها في الحياة». الصفحة ٣ـ٤. الناشران: مكتبة السداوي بالقاهرة، والمكتبة المكية بمكة. الطبعة الثانية (١٤١٣/١٩٩٢م).

وهؤلاء في كلِّ زمانٍ كُثُر، كثيرون بتعدد صِفاتهم، كثيرون بمناهجهم، كثيرون بأعدادهم، وواجبُ المؤمن الحذرَ منهم، فهناك من يريد إسلاماً مختلطاً مع غيره، يقول فيما يقول: إنَّ الإسلام واحدٌ من متعدد نأخذ منه ما يُوافق حياتنا ودُنيانا، ونأخذ من غيره ما هو أحب إلينا منه، ولا نلتزم به كلّه.

وآخرون يقولون: الإسلام بقِيمه العامة هو مرجعنا، فنحن نعلمُ أنَّ الإسلام يدعو للعدل والديمقراطية وحُرية المُعتقد، واحترام الإنسان، أما بقِيمه الفرعية داخل هذه العُمُومات فلسنا مُلزمين بها.

وغيرها وغيرها من جهالات الضالين الذين لا يُؤمنون بالكتاب كلِّه.

هؤلاء كلّهم من دونكم.

﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

هذه خِصْلة المنافقين، يقولون في وجوهكم ما تحبُّون ليخدعوكم فترضواْ عنهم، فهم يُعلنون الإيمان معكم، وقد يُصَلون صلاتكم كما كان المنافقون زمن رسول الله ﷺ، ولكن في الغيبة يظهر بُغضهم وغيظهم، والغيظ شدَّة البغض وشدَّة الغضب، فهم في غيظٍ قلبيٍّ يدفعهم إلى عضِّ أصابعهم وهم ينظرون إليكم.

خِصلةٌ خفيةٌ يكشفها القرآن للمؤمنين، لا يرونها حين تقوم وتمارس، لكنهم يؤمنون بها لأنَّ القرآن الحقّ يخبرهم بها، فالمؤمن القرآني ليس غَبِيًّا ولا جاهلاً ولا مخدوعاً ولا خِبًّا، لكن المُهتدي بالقرآن هو أبصرُ النَّاس بالنَّاس ومراتبهم.

قارنْ هذه الهداية القرآنية التي تَصَبغَ المُهتدي بها وبين عموم المسلمين اليوم، بل قارنْ هذه الهداية بقادة المسلمين ومُفكرِيهم ومُقدميهم لترى مِقدار اهتدائهم بشعارات مرفوعة ـ العودة إلى الكتاب والسنَّة.

القرآن يعلمهم أن يقرؤوا لحن القول، ويبصرهم أن يلمحوا في النَّاس خَطرات نفوسهم من فلتات ألسنتهم أو يهديهم إلى أسرار أعداءهم في غيبتهم، ومع ذلك ترى المُقدم فيهم يُعذب السنوات في سجن طاغية لا لشيء إلاَّ لأنه مسلم يُؤمن بالكتاب كلِّه، فإنْ كَشَّر الذئب عن أسنانه لحظةً، عدَّها بسمة توبة، وإنابة صريحة، فيرمي بنفسه في جوفه يلوكه حيث يشاء.

هم لا يُبصرون لحن القول، بل أمام أعينهم جرائمهم تهز الصم الجلد ألماً حتى البكاء، وخزايا ما أتاها فرعون فإنْ ختم هذا الطاغوت خِطابه بآية قرآنية أو حديث نبويٍّ قالوا: أسلم قلب الرجل فهو وليُّنا وسيدنا.

مع كلٍّ هذا هم يجلسون تحت راية: العودة إلى الكتاب والسنَّة، ويزعمون أنه بهذه الراية يتحقق النَّصر.

إنَّ هذا الدِّينَ عظيمٌ لا يقوم به الأغبياء، ولا الجهلة ولا الحمقى، كما أنَّ نور الشمس عظيمٌ لا ينتفع به الأعمى.

بلاد الطاغوت تعجُ بالمُنكرات؛ فالربا مشروع بقانونٍ وحِمايةٍ، والكفار لهم الصدارة، والأموال تُنفق في سبيل الصدِّ عن دين الله، والجيوش تحارب المجاهدين المُوحِّدين، والمُفسدون في الأرض يقربون، لكن يكفي هذا الطاغوت أن يقول: «نحن مسلمين لا مرجع لنا إلاَّ الكتاب والسنَّة كأبنائنا»! حتى يُنافح عنه الكثير أنه من أتباع السلف ووراثتهم.

ومع هذا يُنادون أنَّ لا عودة لعزَّة الأُمَّة إلاَّ بإتباعها الكتاب والسنَّة.

لكن هل هذه الآيات لغيرنا حتى يبصر دافعه فيعرف مَن يصلح له بِطانة، أما نحن فيكفينا الشعار؟

هذه هي محنة المسلمين اليوم حقاً.

إنَّ الهداية القرآنية تصنعُ الحُكماء الأُدباء الذين يَصلحون لقيادة العالم وتدبير شؤونه، وتربية النَّاس فيه، وليس هؤلاء الذين لا يحسنون سِوى لَوْكِ الشعارات وإدراكِ ظواهر الأحكام.

إنَّ هذه الأحكام الربَّانيَّة العظيمة تحتاج إلى هؤلاء المُبصرين الذين يُدركون خفايا الحياة وأسرار البشر وسنن الوجود، ومراتب النَّاس، وأما أولئك الذين يظنون أنه بمجرد معرفة الفرائض والسنن النسكية فيحصل لهم مقصود العِزَّة في الدُّنيا فهم واهمون، لا لأنَّ هذه الأمور قليلة الشأن في عين الله، أو هناك في الشرع ما هو أجل منها في الأعمال بل لأنَّ العِلْم بالشرع والقِيام بالعبادة لا يصلحان في أي بابٍ من أبواب الحياة دون معرفة سُنن الله في هذا الباب.

لقد تركَ أهل الحديث ـ وهو باب علمٍ ديني ـ أحاديث عُباد، وتركوا أحاديث قُضاة، وأحاديث فقهاء لإخلالهم بشرط القيام بهذا العلم وهو الحفظ والإتقان، فإذا كان هذا باب من أبواب الشرع احتاج إلى عقلٍ خاصٍ، فهل قيادة الإسلام ليكون هو وأهله في الذروة من عزة الأُمم يكفي لها ما يظنه هؤلاء الكتبة ورافعُو الشعارات؟!

لقد أتقن الكفر التخفي تحت الشعارات، وكذلك الزنادقة فهم لا يتورعون عن أيِّ جريمةٍ ضدَّ القرآن والسنَّة، ولكن لعلمهم لغلبة الجهل في هذه الأُمَّة، ولذهاب العقل والتمييز عند الكثير من عُبادها.

فهذه هداية القرآن في تعليم المجاهدين «هناك» حيث يستترون وهم يعضون أصابعهم غيظاً عليكم، فهناك حيث يُدَبِّرُونَ الدسائس ويحيكون المُؤامرات ضدَّ المسلمين ودينهم، «هناك» هذه هي ما يجب على العُقلاء من هذه الأُمَّة أن يفهموها.

﴿ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾.

إنهم لن يموتوا بغيظهم إلاَّ في الآخرة، أما في الدُّنيا ففي حالةٍ واحدةٍ أن يهتدي المؤمنون إلى ما كشف الله ما في صدورهم، أما إن كانت الأُمَّة غُثاءً مِن العدد، لا تعقلُ أين يُسَار بها، ولا تعرفُ مَن يقودها، ولا تُدرِكُ تِيارات الحياة والفكر والمكر التي تسري تحتها فإنَّ المسلمين هم مَن سيعُض أصابع الندم في نهاية كلِّ مرحلةٍ من مراحل الحياة، وبعد كلِّ جولةٍ من جولات الصِّراع، وهذا ما يقع في هذه الأُمَّة من أكثر من قَرْن من الزمان، والحال هو الحال، تسير هذه الأُمَّة على مِنْوَال واحدٍ من خِداع الزنادقة والكفرة، وكأنَّ الحديث الذي يقول: «**لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[1] ليس لنا، أو أننا سَمِعْنَاهُ وحَفِظْنَاهُ على معنىً آخرٍ، وذلك بإضافة كلمة «فقط» في آخره كما قال أحد العُقلاء، فيكون الحديث إذاً عن هذه الأُمَّة اليوم: «لا يلدغ المؤمن من جُحر واحدٍ مرتين **فقط**» أي لابدَّ من أن يُلدغ منه كثيراً حتى تتحقق فيه صِفة الإيمان، لأنَّ المؤمن سليم السَرية مع النَّاس في معركة الوجود بينه وبين الكفار والزنادقة كما يظنون اليوم.

هذه حياةٌ مليئةٌ بالذئاب والثعالب والحيات، وهمُ الأكثر في الوجود، والمُسلم يعيش في جزيرة في هذا العالم، هو الأقل، لكنه بهداية القرآن الخاصة يستطيع أن يكون عزيزاً مُهَاباً قائداً للعالم، أما إنْ كان غُثاءً فإنه حينئذٍ سيكون مجردَ قَصْعَةٍ مليئةٍ بالأطايب لهذه الوحوش.

إنَّ الأُمَّةَ التي تريد العِزَّة لابدَّ لها من الجهاد، وإنَّ مَن يؤمن بالجهاد يجب أن يعد له عُدته اللازمة له، وإنَّ من يريد لهذا الجهاد أن ينتصر فلابدَّ أن يكون عبقرياً لا يُفرى فريه. بغير هذا إنما هي تصورات ذاتية، وكلمات لا توقف الريح، وشعارات تضحك منها السُّنن.

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2].

هذه خِصْلَةٌ أُخرى من خِصَال هؤلاء الأخباث الذين يحذر الله المؤمنين منهم، خِصلةٌ قَلْبيةٌ خَفِيَّةٌ، هي من نوع ﴿ وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ ﴾. وعلى غرزها من المعنى في الشرِّ.

إنَّ الله تعالى يقول للمؤمنين: إنكم أبناء هذه الدُّنيا ستُصيبكم الحسنات والسيئات، وسيأتيكم ما يُفرحكم وسيأتيكم ما يُسيئكم، فبدل أن يكونوا معكم في السراء والضراء، وفي الحسنة والسيئة، يعزلوكم في مشاعرهم ومواقفهم، فحين تأتيكم الحسنة يُساءوا بها، وحين تأتيكم السيئة يفرحوا بها، فهم وإن كانوا معكم بأبدانهم لكن مشاعرهم ضِدَّكم وخِلاف ما تحبون، وهو تطبيقٌ قلبي لقضية عدم الحبِّ ﴿ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ ﴾. فمقتضى هذا البعض أن لا يحبون لكم الخير ويتمنون لكم الشرَّ.

---

[1] أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ البخاري في «كتاب الأدب» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٦١٣٣، ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٢٩٩٨.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

ومن تُصيبه هذه الآية وهو لا يشعر أُولئك الذين يخالفون المجاهدين بمناهجهم وطُرقهم من تلك الطُرق الكثيرة التي أتتهم من أفكارهم وأفكار غيرهم، فبعض هؤلاء لا يتمنون الخير للمجاهدين حتى لا يثبت خطأ مناهجهم، فإنْ وقع لأهل الجهاد المؤمنين سيئة أو مصيبة فرحوا بها، وصرخوا بها، لأنها على زعمهم تُثْبتُ ما هم عليه من الأقوال والأفكار، فمَن كان على هذه الصفة فهو كما قال تعالى: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ ولا كرامة.

والحقّ أنَّ المجاهدين في زماننا لا يسلمون من لوم هؤلاء، لا بحسناتهم ولا بسيئاتهم، ولا يسلمون منهم سواء أصابتهم سيئة أو مستهم حسنة، لأنَّ الغيظ يعمي ويصم، ومحاولة إرضاء الكافرين من قِبل هذا الصنف سُعار يدفعهم لألسنةٍ حِدادٍ ضدَّ المجاهدين.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

بهذا يجابه المجاهدون المؤمنون هذه العُصبة، بالصَّبر والتقوى، بالصَّبر الذي يكون به الثبات ولُزوم الطريق، ويكون به تحمل المشاق وعدم الاستسلام للمصائب والسيئات، والتقوى التي يستعين بها المجاهد من دُعاءٍ وحُسْنِ علاقةٍ مع الله، وكذلك من عزل هؤلاء الأخباث، وعدم الاستماع إليهم ولا اتخاذهم أولياء، وكذلك بكشف أستارهم كما كشفها الله تعالى، وبالتقوى التي يتم بها إحسان العمل حتى لا تقع سيئة على المؤمنين فيفرحون بها، فإنَّ دوام الحسنة التي تُفرحكم تُميتهم غيظاً، وتقتلهم هماً وغماً، وتكشفُ للنَّاس عَوارهم وخِسَتهم.

بالصَّبر يتم تحمل المشاق وبالتقوى يتم إحسان العمل وبهذا لا يضركم كيدهم شيئاً، وهذه وَصْفَةٌ قرآنية لكلِّ الحياة، فإنَّ كلَّ أعمال الحياة، وكلَّ الأعمال الإيمانية تحتاج لهذه الوصفة القرآنية ـ الصَّبر والتقوى ـ والصَّبر المحمود هو الصَّبر الواعي على حركة الحياة، وليس صبر البهائم على ما هي فيه من العذاب كما يريد البعض أن يُفسره، فإنَّ صبر البهائم هو صبر الجاهل الذي يتلقى العذاب دون وعيٍ أو إدراكٍ لسنن الحياة، ولذلك لابدَّ من التقوى، والتقوى هي الابتعاد عن الزلل، ولكلِّ عملٍ زلل وخطأ، والتقوى في هذا العمل هو إصلاحه وحفظه من الفساد والهلكة، سواء كان الفساد أُخروي أو دُنْيَوي، ولذلك فصبر البهائم فاقدٌ للتقوى إذ لا نِيَّة فيه صالحة ولا إحسان فيه لتغييره وتقويمه.

فالمؤمنون مُطالبون بالصَّبر على الأذى من هؤلاء، ومأمورون بتقوى الله في التعامل معهم التعامل السَنني الكافي لردع فسادهم، حينها يحصل الطب الصحيح فـ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾. وذلك كحال الذي دفع المرض بالصَّبر عليه وعدم الجزع منه، وبمعالجته بما يذهبه من سنن الله في الوجود، سواء كانت سنن شرعية أو خَلقية، إذ هي كلّها من عند الله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[1].

[1] سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

إنَّ الكافر مهما ارتفعتْ واتسعتْ وعظمتْ قُوته فإنه خاضعٌ لأمر الله قدراً، وما قوته التي يحصلها إلاَّ بإذن الله تعالى، والكافر ينسى هذا كلَّه ويصرخُ دائماً كالذين مضواْ من قبله ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[1] ولا يعلمون أنَّ الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوَّةً، فالله محيطٌ بما يعملُ الكافر عِلْماً، ومحيطٌ به إرادةً، ومحيطٌ به قُدْرَةً، لا يخرج عن عِلْمِ الله وإرادته وقُدرته شيءٌ من هذه الأرض أو السماوات، وكلّ ما في السماوات والأرض قد خضعتْ طوعاً لله تعالى بعد خُضوعها قدراً إلاَّ الإنسان الجاحد، فإنه يكفرُ بالله ويستكبرُ ويتعالى كإمامه إبليس، ونهايته أنه مجرد تُراب يرجعُ إلى الأرض التي خُلِقَ منها، وعِلْم المؤمن بأنَّ قُدرة الكافر وقُوته ليست قائمة بذاتها بل هي بإذن الله وتحت سلطانه، ثم أمر الله تعالى بقتالهم مع عِلْمِ الله تعالى بما هم فيه من يحيي النفوس ويُقويها أنْ لا تيأس ولا تقنط مِن تبدل الحياة وتغيُّر موازين القِوى، فهذا شأن الحياة.

لقد صرخ فرعون من قبلُ: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[2]، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾. ولكن كيد الله تعالى بالمِرصاد فصارتِ الأنهار تجري من فوقه.

وتبجح أهل مدين وتكبروا على نبيِّهم شعيب عليه السلام وقالوا له: ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾[3]. ولكن بصيحةٍ واحدةٍ ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾[4].

وهكذا تساقطتِ الدول وذهبت قِواها كأمس الذاهب، كأنْ لم تكنْ، لأنَّ الله بما يعملون محيط، فلا ينفذون مِن علمه ولا من إرادته ولا من قُدرته.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾[5].

هكذا تبدأ سيرة هذه الغزوة بعد الإرشاد المُتقدم، تبدأ بذكر الحبيب المصطفى ﷺ، بذكر القائد وهو يسير أمام الجموع غادِياً، فلا يتخلف عنهم ولا يرغب بنفسه عن نفوسهم، يبدأ بذكره بخطابٍ مباشرٍ له لِعِظَم العلاقة بين الربِّ وبين عبده محمد ﷺ، ولمدح الفِعل الذي يقوم به هذا النَّبيّ ﷺ.

---

[1] سورة فصلت، الآية: ١٥.
[2] سورة الزخرف، الآية: ٥١.
[3] سورة هود، الآية: ٩١.
[4] سورة هود، الآية: ٩٤.
[5] سورة آل عمران، الآية: ١٢١.

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ إذ خرجتَ من عندهم باكراً لتُعد المؤمنين إلى أماكنهم للقتال، والله عزَّ وجلَّ ههنا يمدح نبيَّه ويمدح فِعله، ومدح جُنده إذ سمَّاهم المؤمنين، ولم يعرض قط إلى ما تم قبل ذلك من تنوعِ الاختيارات التي كانت قبل أُحد، وكأنها لم تكن في هذا الجانب، إذ أنها جرت على طريقٍ مَرْضِيٍ لله تعالى، فشاور رسول الله ﷺ أصحابه رضوان الله عليهم، ثمَّ نزع إلى الخروج، وتوكل على الله وغدا من أهله يُبوئُ المؤمنين ويُعِد لهم أماكن للقتال.

في سورة «النساء» جاء ذِكْرٌ ربَّانِيٌّ على اختلاف النَّاس في الراجعين من المنافقين، إذ قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾[1]. إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ ﴾[2].

ذلك أنه لما رجعتْ فِرقةٌ من النَّاس وهم المُنافقون بعد المسير إلى أُحد، اختلف المسلمون فيهم هل يُقاتلونهم بسبب رجوعهم أم لا، فصار المسلمون إلى فِئتين في الرأي، فكان الجواب الإلهي في تفصيل من يُقاتلوا ومن لا يُقاتلوا.

وخُلاصة الحُكم قاله رسول الله ﷺ بعد نزول الآية: إنها طيبة ـ أي المدينة ـ تنفي الخبث كما تنفي النَّار خُبث الفِضة، وهذا يعني أنَّ المنافقين لن يطيقوا صبر البقاء في المدينة لما يعيش المؤمنون فيها من نار الجهاد، ولما يحيون فيها محنَّة الإسلام مع خصومه، فهؤلاء أهل دِعَةٍ وَخُمُولٍ وكَسَلٍ وبطَالَةٍ، وأصحاب شهوات وأهواء فستنفيهم المدينة خارجها كما تنفي النَّار خُبث الفِضة، ولذلك جعل الله الفارق بين من يُقاتل ومن لا يُقاتل هي الهجرة والثبات في المدينة كما قال سبحانه: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ ﴾[3].

ثمَّ فصَّل الله سبحانه وتعالى قِسْمَيْهِمْ بما هو مُبيَّنٌ في الآيتين التاليتين.

وهذا السكوت الربَّاني الدال على القبول يعلم المسلمين عادة والمجاهدين خاصة حِكمة المُراجعة للأمور، إذ أنَّ قيام المسلمين على الأمور بوجهٍ صحيحٍ قبل مُباشرتها، أي بتشاور الأمير مع جُنده، وببحث السبل الكفيلة لتحقيق الأحسن والأفضل، فإنْ استقرَ الرأي على قولٍ فلا فتح بعد ذلك لأيِّ مقالة لَوْمٍ أو «لو»، لأنها تفتح باب الشيطان[4]، وما جرى من المنافقين بعد ذلك من لَوْمٍ وتقريعٍ للمؤمنين بعد الهزيمة بسبب الخروج هو منهج نِفَاقي سيأتي بيانه.

---

[1] سورة النساء، الآية: ٨٨.

[2] سورة النساء، الآية: ٩١.

[3] سورة النساء، الآية: ٨٩.

[4] للشيخ حفظه الله تعالى رسالة مستقلة معنونة بـ«أقدم حيزوم.. هداية أهل الإيمان في أنَّ «لو» تفتح عمل الشيطان» شرح فيها حديث رسول الله ﷺ المروي عن أبي هريرة ﷺ: «..فإن لو تفتح عمل الشيطان».

قوله تعالى: ﴿ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾.

هو فِعْلُ النَّبيِّ الرحيم، حيث يضع أصحابه في مواطن الرَّشاد الإلهي، والسعادة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، فمواطن الرضا الإلهي التي يضعها النَّبيّ لأُمَّته ـ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ـ، وهي أماكن يبوؤون فيها، كأنها مكان استقرارهم وحياتهم.

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1].

كشفٌ إلهيٌّ لخبايا القلوب والنُّفوس، لكنه كشفٌ رقيقٌ رءوفٌ فيه ظلال المحبة والرضا والتولي، إذ يذكر الله تعالى أنَّ بني حارثة وبني سلمة وهما من الأنصار، ومِن خيار الأنصار هَمَتَا بالرجوع مع الراجعين. لكن ثبت الله القلوب فمكثتا.

لقد مدحهما الله في هذه الآية بعدة وجوهٍ فهم: «مِنكُمْ» أي من المؤمنين الذي قال الله عنهم في الآية السابقة: «تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ». وقال الله عنهما: «وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا» وكفى بهذه منقبة إذ تكونا أولياء لله تعالى ويكون الله وليهما، ثم أرشدهم بخطابه للمؤمنين بقوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

وهذا الكشف الإلهي يُبَيِّن حالَ المؤمنين وما يُصيبهم عند النوازل، لأنهم أبناء هذه الدُّنيا، وأبناء هذه الأرض، حيث تمرُّ عليهم خطرات الوجود الإنساني، وتمرُّ في أنفسهم الأحاديث، منها ما هو مرضي وما هو غير مرضي، وهم مع ذلك أولياء لله، إن تابعوا أمر الله وصبروا وتوكلوا على الله في ثباتهم وجهادهم.

وفي هذا الكشف كذلك مِنَّةٌ إلهيةٌ أنَّ الله هو راعي المؤمنين، وهو هادِيهِم حيث استحقوا هذه الرعاية وهذا التثبيت، أما أولئك الذين تخطر لهم خواطر الشرِّ فيطيرون إليها، مع أنَّ في نفوسهم كذلك وازِع الخير يذكرهم بالثبات والتوكل لكنَّهم لا يلتفتون لهذا الوازِع بل يُتابعون خواطر الشرِّ ودواعيه وأزِّه، فهؤلاء ليسوا لله بأولياء بل همُ المنافقون.

هذا هو الرعيل الأول من المؤمنون يُبيِّنُ الله لنا بشريتهم ومُواراتِهم الداخلية، فيكشف لنا الضعف الإنساني في لحظة الابتلاء ويُبيِّنُ لنا كيف نُعالجه بالتوكل عليه سبحانه وتعالى، وأنْ نعرض عن داعي الشيطان.

ولن أخوضَ في موضوع الهمِّ وأقوال العلماء فيه، وما هي درجته التي يُؤاخذ بها الإنسان، وما هي التي لا يُؤاخذ بها، ولكن حسبنا هذه الآية في هذا الموطن لِتُبَيِّنَ أنَّ الهمَّ كان جماعياً، لا همَّ فرد، مما يدل على أنهم تحدثوا به وخاطبوا أنفسهم بهذا الهمِّ لكن قَوَّى بعضهم بعضاً، وقَوَّى الثابتون مَن كاد أن يضعف فحصل الثبات الذي يستوجبُ ولاية الله تعالى، وهكذا هي الحياة، وهكذا هو الإنسان، ولا تغيِّير لخلق الله تعالى.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.

بعد ذلك ذكر الله أمر نِعمه في غزوة بدر بما ذكرتُه في موضعه هناك، ومما يُزاد هنا أنَّ ذِكر غزوة بدر كان جواباً على ما وقع في نفوس الصَّحابة من القِلَّة التي جعلتهم يهمون هذا الهم من الفشل والتراجع، فكان تذكيراً لهم بأنَّ الله نصركم ببدر وأنتم أذِلَّة، والذِلَّة هي القِلَّة، وهذا شأن القِلَّة في هذه الدُّنيا، فإنَّ القليل مستضعفٌ مُهانٌ في عيون النَّاس، ولذلك فإنَّ ترْكَ المسلمين لإخوانهم المجاهدين قِلَّة لا ينصرونهم ولا يفزعون معهم ولا يشدون أزرهم هو عين التخذيل لهم، وفِعلهم هذا إذلالٌ للمؤمنين ونُصرةٌ للكافرين لو كانوا يعلمون.

ثمَّ مضتِ الآيات تهدي المؤمنين، وفيها من الهَدي الربَّاني والتقويم والوعظ والإرشاد، وكذلك الأحكام، تتخلل خطاب الله تعالى لهذه الغزوة، فبعد ذِكر بدر كان ذِكر أمر الرسول ﷺ وهو يدعو على أعيانٍ من قريش بما قتلوا من المسلمين في أُحد بأنَّ الأمر ليس له ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾** ﴾[1]. وقد كان أنْ تاب الله على بعضهم كأبي سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وصفوان بن أُمية، وغيرهم، وفي هذا أدبٌ للأُمَّة في أمرين: **الأول**: أن لا يتعجل المرء باللعنة على أحد حتى يرى خاتمته، وهذا في العموم ولكن لكلٍّ عمومٍ خصوص، والأحاديث تُبَيِّنُ جواز اللعن على أعيانٍ وعلى عاملين بأعمالٍ تستحقُ اللعن، **الثاني**: أنّ الدَّاعي لربِّه قد يتخلف دُعاؤه لمقاصد ربَّانيَّة أجلَ من دُعائه، فهذا رسولُ الله ﷺ وهو مَن هو مع الله سبحانه وتعالى إلاَّ أنَّ لعنه لم يُقبل في هذا الموطن، وذلك لما ادَّخر الله تعالى لهؤلاء الذين لعنهم أن يتوبوا ويصلح حالهم، ومنهم من مات شهيداً كما هو معروف في كتب التاريخ، وهذا مانعٌ قدريٌّ من إجابة الدُّعاء، وهو الكتابة الأزلية كما قدَّر الله في الغيب، وهناك موانع شرعية تمنع إجابة الدُّعاء معروفة في كُتب أهل العلم.

ثم ذكر الله أمر الربا ونهى المؤمنين عن أكله، ثم وعظ المؤمنين بمواعظ ربَّانيَّة جليلة، وذكر استحقاق الصالحين للوعد الإلهي بالمغفرة والجِنان التي عرضُها السموات والأرض لما فيهم من أعمالٍ محبوبة عند الله تعالى، وكان مما ذُكر مما يناسب الغزوة أنه عَلَّمَ المؤمنين بقوله: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾** ﴾[2]. فهذه صفةٌ من صفات المُتقين، وهي الاستغفار لما يقعُ منهم من الفواحش والظُّلم لأنفسهم من عموم المعاصي، فهم يستغفرون ربَّهم ولا يُصِرُّون على هذه المعاصي، وسيأتي بعدُ ما حصل من مغفرة الله تعالى للمؤمنين الذين فرُّوا من المعركة لرحمة الله تعالى بهم وحِلْمِهِ عليهم.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

إنَّ مغفرة الذنوب في هذا الدِّين مهما بلغت هي خاصية في الإسلام، دين جميع الأنبيَّاء، وكلّ الأديان الباطلة تُرْهِقُ أتباعها بتصورات الخطيئة الثابتة للإنسان والإنسانيَّة، حتى إنهم لَيجعلون الذنوب تتوارث من الآباء والأجداد للأبناء، والنَّصرانيَّة المُحرفة إنما تقوم على هذه العقيدة الظالمة والكاذبة على الله تعالى، فالإنسان في الإسلام هو الإنسان الذي خلقه الله تعالى، ينسى ويغفل ويعصي ولكنه لا ييأس بل ينشط للطاعة ولا تُرهقه المعصية حتى ينقلب على أحد أمرين إما اليأس والقنوط السوداوين فيُؤدي إلى القفار والمفاوز لما يحس من ثقل الذنب الذي يركبه، وإما إلى يأس وقنوط يأخذانه إلى استمراء المعصية والذهاب معها بعيداً هي وغيرها من المعاصي.

إنَّ الرافضة قد حصل لهم شُبه بالنصارى في هذا الباب إذ ورَّثوا أنفسهم ذنب من تخلى عن الحسين عليه السلام يوم مقتله في كربلاء، فانظر ماذا يفعلون بأنفسهم من التعذيب، يتناقلونه من الآباء والأجداد إلى الأبناء، وكذلك حملوا كلَّ مخالفٍ لما هم عليه من الباطل إثم مقتل الحسين عليه السلام وأهل بيته فانظر كيف يُكفرون مخالفيهم.

إنَّ هذه المذاهب الكُلية الباطلة في مفهوم الذنب والمعصية، وفي عدم فَهْمِ التوبة ومغفرة الله للذنوب هي ما تغرز الكثير من الأديان والمذاهب، وهناك صِلَّة بين هذا الأمر وأمر مذاهب النسك الغنوصي كالبوذية والهندوسية، فإنَّ تصورهما رجس الإنسان وخُبثه يُوجبان على أتباعهما من الأعمال ما تخرج الإنسان عن فِطرته التي خلقه الله عليها.

ثم إنَّ هذه الآية من صفات المتقين تلغي مفهوم الوِلاية كطبقة من طبقات الإنسانية في الإسلام، فإنَّ من تأثر بالمذاهب الغنوصية الشِركية من المسلمين تصور أنَّ الولاية هي طبقة يحوزها المرء فيثبت عليها ولا يُفارقها، كطبقة الأُمراء والقُضاة والمُغنين، وهذا خطأ في الشرع، لأنَّ الأولياء بشرٌ يَعْتَرِيهِم ما يَعْتَرِي البشر، يُصِيبُونَ ويخطئون، ويذنبون كما هم عُباد الليل وصائِمُو النهار، ويجاهدون ويختصمون على الغنيمة، لكن لهم آخية تردعهم وتردهم إلى موطنهم من طاعة الله تعالى.

وهذه الآية تلغي مفهوم التربية البدعي الحادث الذي يريده مشايخ وبعض مُفكري اليوم، وهو مرضٌ حادثٌ سَرى في كثير من الجماعات والطوائف، وبه عطلوا الكثير من الشرع بانتظار أخذ إجازة التخرج من حضانة التربية المزعومة، ولذلك فإنَّ من صفات المتقين أن يقع منهم ما يقع من الزلل والظُّلم والفاحشة لكنهم يستغفرون الله تعالى ولا يُصِرُّون على معصيتهم، لأنَّ هذه هي صفات الفاسقين.

لقد تقدم أنَّ ذِكر المغفرة الربَّانيَّة لعباده لا يستلزمُ مُقتضاها وُجُوباً، دلائل ذلك في القرآن كثيرة، ومنها ما ذكره الله تعالى في هذه الآيات فقال: ﴿ **۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣** ﴾[1]. فهي بينِّةُ المغفرة في كلِّ الطاعات التي تستلزمُ ترك المعاصي إنْ

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

فُعلت هذه الطاعات، لأنَّ من المعاصي أن تترك الطاعات الواجبة، ولذلك من المغفرة أن يُطيع العباد ربَّهم فيما افترضَ عليهم.

وكذلك قوله في الآية التي بعدها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾[1]. فهي على غرزها من اشتمال المغفرة على الأمرين؛ بترك الذنب أو بالاستغفار منه بعد الوقوع فيه. والله الهادي.

وبعد هذه الآيات يعود الحديث بعطفٍ جديدٍ على أمر الغزوة المباركة: ﴿ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧ ﴾[2].

شأن التاريخ شأن سنَّة الله في الوجود، والنَّاس يقولون إنَّ آيات الله شرعية وكونية، وأنا أقول: وإنَّ التاريخ من أعظم آيات الله في الوجود لمن فَقِهَ حِكمته ووراءاه بالتدبر والنظر، وعامة غفلة النَّاس في هذا الوجود إنما لغفلتهم عن الزمان والدَّهر، وإنَّ العظماء في الحياة من الحواريين التابعين للأنبياء ومِنْ أتباعهم بَعْدُ إنما تجمعهم خِصلةٌ واحدةٌ، هي البصر في تعاقب الأيام والسنين، وما يجري فيهما من الأحداث والأمور، هؤلاء الكبار في هذه الحياة، كبار في الآخرة وكبار في الدُّنيا، وفُقدان النظر إلى الزمن وأحداثه يلغي شرط الوراثة في الأرض، مع إمكانية أن يكون الرجل صالحاً في نفسه، ففَهْمُ التاريخ يعني أنَّ المرء يفهم على الله تعامله مع هذا الوجود، وهو يفقه صِلَّة الحياة بما فيها مع شرع الله وأحكامه، وفَهْمِ المرءِ على الله في تعامله مع خلقه في هذا الوجود يعني أنه يعرف ربَّه فهو عالِمٌ به، وهذا منتهى الفقه على الله تعالى.

إنه ليس من نافلة الحديث أن يكون هناك تاريخ جرى في السماء بين أبينا آدم والشيطان، فيحدثنا القرآن به في مواطن عدة، لنحمل هذا التاريخ علماً وفقهاً نستنير به في حياتنا.

وإنه ليس من أجل مُتعة القصِّ يكون الحديث الطويل الرائع في القرآن عن الأُمم السابقة مع أنبيائهم وما جرى معهم.

إنَّ القرآن هو كتاب التاريخ لحوادث الإيمان في هذه الأرض، وهو كتاب الإنسان في تعامله مع هذا الإيمان، وإنَّ الرابط بين القدر والشرع لا يكون إلاَّ من خلال الزمن، فهو النقطة الجامعة في تفاعل شرع الله تعالى مع قدره، فإما أن تكون لحظة اللقاء سعادة للإنسان، وإما أن تكون فيها شقاوته.

في هذا التاريخ سعادة الإنسان، مادتها هو الإنسان، إيمانه وعمله وإرادته، هذه هي أسباب الأحداث في هذا الوجود. فحيث كانت صالحة كان الصَّلاح في الوجود، وحيث كانت فاسدة كان الفساد في الوجود.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٦.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

هذه السنن مُضطردة لا تتخلفُ إلاَّ بوجود موانعها، ولكن هذه السنن الزمنية تفترقُ عن سنن التكوين الأُخرى في المادة أنَّ عنصر هذه السنن هو الإنسان، وهذا الإنسان ليس شيئاً ثابتاً، فإنَّ فيه من المُكونات ما لا تُوجد في أيِّ مخلوقٍ آخرٍ، إذ أنَّ المادة يمكن حصر معرفتنا بتأثرها باتجاهٍ وحيدٍ لا تخطئه، لأنها لا إرادة لها، بخلاف هذا الإنسان الذي له الإرادة، إذ يمكن أن تنقلب كلّ التوقعات في لحظةِ التفاعل فتتغيَّر النتيجة بما لا يتوقعه أحد، كما وقع أنْ آمن السحرة العُتاة في لحظة نورٍ إيمانيٍّ فريدٍ قلبت كلَّ ميزان التوقعات، ولكن يبقى الإيمان هو أكبرُ عنصرٍ مؤثرٍ في وقائع الزمن والتاريخ وأحداثها، لا أعني الإيمان بمفهومه البدعي كشيءٍ معرفيٍّ، ولكن الإيمان بمفهومه الشرعي الواسع الذي يستوعب الإنسان كلّه من معارف وتصديقات ومشاعر وأعمال وإرادات وعبادات خفيَّة وعلنيَّة.

عِلْمُ التاريخ كأي عِلْمٍ آخرٍ، فيه كلامٌ كثيرٌ، ولكن تبقى عُقدة الوعي التام فيه هو إدراك الإنسان لمعنى وجوده في الأرض، وغير ذلك هو هامش لهذه القضية التاريخية الكُبرى، فإنْ لم يُدْرِكِ الإنسان فيها إنسانيته التي تعني ضعفه وفقره الذاتيان أمام غنى وربوبيَّة الله الذاتيتان فإنَّ وعيَّه على الظواهر الأخرى وعيٌّ أعمى لا أهمية فيه سوى الوقوف على الأطراف، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾[1].

ثم وعيٌّ آخرٌ بعد وعيِّ الإنسان لعبوديته أمام ربِّه، وهو وعيُّ الإنسان لأثر رسالة الأنبيَّاء في الوجود فإنَّ النُّبوَّة هي أكبر ظاهرةٍ تاريخيةٍ، فهي تعيشُ في صُلْبِ الوجود ونُقطته المحركة لكلِّ أحداث الكون، فحركةُ الوجود مركزة بكلِّها على رسالة الأنبياء ومواعظهم وتعليماتهم وإرشاداتهم، وكلّ صراعات الإنسان التي تستحقُ الوعي والدراسة بما هو ظاهرٌ وما هو خفيٌّ إنما هي صراع بين فريقين حول بابٍ من أبواب هذه التعليمات والإرشادات، فالإنسان ليس دابة الأرض التي فقدتْ إرادة الاختيار، بل هو الإرادة والتي تتكون فيما تتكون فيه عُنصر العِلْمِ، وانقلاب الإنسان إلى وحشٍ تحركه شهوته مِن مطعمٍ ومشربٍ وفسادٍ تجعل حركته خارج إطار الإنسان الذي يستحق الوعي والدراسة.

فالوعي على التاريخ يعني الوعي على علاقة الإنسان بربِّه وعلاقته بتعليمات رُسله، وغير ذلك إنما هي دراسات أشبه بدراسة تاريخ النَّمل الأبيض وصِراعه ضدَّ النمل الأسود.

من أجل هذا يقول لنا ربُّنا: ﴿ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾[2]. فالأرض هي مكان الحدث، بزمانه ووقائعه ونتائجه وآثاره، لنقرأ سيرة التاريخ وعِبرته، ونرى يد الله كيف تعملُ في العِمران والبلاد والنَّاس، فهذه هي سنَّة الله في المُكذبين، شاهدة عليهم آثارهم، كيف أخذهم الله فتلك بيوتهم لم تُسكنْ من

[1] سورة الروم، الآية: ٧.

[2] سورة الأنعام، الآية: ١١. سورة النمل، الآية: ٦٩. سورة العنكبوت، الآية: ٢٠.

بعدهم إلاَّ قليلاً، وكان الله لها وارثاً، وها نحن اليوم نرى كيف يتحول العِمران إلى خراب في أماكن تشهد أنَّ السنَّة ما زالت جارية وتعمل عملها، وأنَّ إرادة الله تعالى في حركة الإنسان وعِمارته ووُجوده ليست خافية على المُبصرين.

إنَّ هؤلاء الذين يعيشون في غفلةٍ في ما يبنون من شواهق، وما أفاض الله عليهم من نِعَمٍ من نَفْطٍ أو غيره لم يُدركوا سنَّة الله في التبديل والتغيِّير، فقد سبقهم في هذا أقوامٌ كانت أماكنهم جارية على شطر الأرض فغاب سلطانهم وذهبت قوتهم.

لقد كان هناك الكثير من أمثال سبأ في بُلدان حول هؤلاء الغافلين فها هي عادت بلا قصر لا يوجد إلاَّ اليباب.

لكن هذا هو الإنسان يسيرُ في نفس درب السابقين لا يعتبرُ كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾** ﴾[1].

إننا نستطيع أن نقول الكثير في مناسبة هذه الآية ﴿ **قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾** ﴾[2]. مع موضوع أُحد، ولكن عموم هذه الآية في قضية الحياة أهم وأشمل، ولكن سيأتي من حديث القرآن عن سنن الله مع البشر، مؤمِنِهِمْ وكافِرِهِم، وسنقفُ عندها إن شاء الله فيما يختص في قضية الجهاد.

﴿ **هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾** ﴾[3].

أما أنه بيانٌ لكلِّ النَّاس فلأنه يكشفُ لهم مُرَادَ الله فيهم، وحُكْمَ الله فيهم، وعاقبةَ كلِّ فريقٍ، وسنن الله في الحياة الدُّنيا والآخرة، وحِكْمَةَ وُجُودهم، ولكن لا يهتدي ولا يتعظ به إلاَّ المتقين.

إنَّ هذا النُّور العظيم لا تحصل به المنفعة إلاَّ مع مَن يستجيبُ لله تعالى، أما المُعرضون: ففي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى، وفي سورة «فُصلت» بيانٌ تفصيليٌّ لموقف المُعرضين عن القرآن، وفيها تِعدادُ مراتبهم، وكيف يتعامل هؤلاء المُعرضون مع القرآن، والسورة بأكملها لبيان هذا الأمر وخُطورته فَلْتُرَاجَع.

والآيات الدالة على اختصاص المُتقين بالـهُدَى وانتفاعهم بالموعظة عديدةٌ في القرآن منها قوله تعالى في سورة «الجاثية»: ﴿ **هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾** ﴾[4]. وقوله تعالى في سورة

---

[1] سورة غافر، الآيات: ٨٣ـ٨٥.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٣٨

[4] سورة الجاثية، الآية: ٢٠.

«النحل»: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1]. وقوله في «حم» «فُصلت»: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[2]. وقوله تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[3]. وغير ذلك من الآيات والله المُوفق.

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[4].

هذه عُمدة القضية في كلِّ معركةٍ يخوضها المُؤمن ضدَّ أعداء الله تعالى، وعليها يدور كلّ الصِّراع، ومن أجلها تُخاض الحروب بين المؤمنين والكافرين، وهي وقود المؤمن في مُواصلته للطريق مهما أصابته المحن أو ضرسته الحروب، لأنَّ الهزيمة الكبرى هي هزيمة الإيمان في النُّفوس، فإذا بقي الإيمان فقد هانَ كلُّ شيءٍ قد ذهب، لأنه بالإيمان وبعدم الهوان سيعود وستتجدد المعركة وتبقى القضية حيَّة، أما إنْ ذهبَ الإيمان فسيذهبُ كلُّ شيءٍ حتى لو بقي لوقتٍ طويلٍ، فالمصائب حالة إنسانية، والكوارث قَدَرٌ إلهيٌّ لا ينفكُ عنه أحد، فلتبقَ الطريق موصولة بالعطاء والمُثابرة والثبات.

كيف يَهِنُ المرءُ المُؤمن وكيف يحزن وقد نجى الله له دينه وإيمانه؟! إنَّ المُصيبة كلَّ المُصيبة أن يُصاب المرءُ بدينه فحينها هي الداهية التي لا داهية فوقها.

هذا إرشادُ القرآن، وهذا تعليمه، وهذا واجبٌ من واجبات الإسلام العظيم في تربية المسلم الصَّحابي القرآني، حيث يتوجه الخطاب إلى نفسيته، ليرتقي بها حين حلول الحوادث والكوارث، فهذه الموعظة هي ما تحتاجه الأُمَّة للعودة إلى عِزتها وقيادتها للعالم، لأنها بدون هذه القاعدة الحياتية العظيمة سترتكسُ بمجردِ أول مصيبةٍ تحل بها، وتظن أنَّ الأمر قد انتهى.

إنَّ وجود هذه القواعد الإيمانية الواجبة لحياة المؤمنين بصفتهم جماعة ربانيَّة عزيزة، وبكونهم بُعِثُوا من أجل هداية الخَلق وقيادة البشرية يُوجب على العلماء والدُّعاة أن يكتبوا في هذا العِلْمِ، ويعظوا في هذا الباب العظيم، وهو باب الإعداد النفسي، وتعميق القواعد الربَّانيَّة في العقول والقلوب، وهذا من مُهمات الدِّين، بل هو من أعظم مُهماته لهذه الحياة، فإنَّ الإيمان ليس شعوراً باطنياً غيبياً يتعلَّقُ بالأُجور الأُخروية فقط، بل هو تربية لمهمةٍ دنيويةٍ جليلةٍ تستغرقُ الحياة وما بعد الحياة، فالتأهيل النفسي يجب أن يتوافقَ مع القواعد الحياتيَّة، وهذا ما تصنعه الآيات الربَّانيَّة كهذه الآية وغيرها، وهو الجانب الأول بل وإلى العاشر الذي جعل الإنسان العربي الكامن في الصحراء بلا أُفقٍ ولا عِلْمٍ ولا مهمةٍ حياتيَّة ينطلقُ إلى الوجود، وإلى البشرية جميعها ليُعلمها الحياة وقيمتها، ويدعوها إلى

[1] سورة النحل، الآية: ١٠٤.
[2] سورة فصلت، الآية: ٤٤.
[3] سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

الإسلام العظيم، وحين تتخلى الأُمَّة عن هذه التربية، وتُسْقِطُ من قيمها التربوية هذا الإعداد حينها تعود إلى مجرد رقمٍ عادٍ بل وهزيلٍ في الحياة، وهذا الواجب الربَّاني أعظم بكثير من السنن والواجبات التي ينشطُ لها العلماء والدُّعاة والخطباء، بل هي ركنُ مهمة المسلم في الحياة، وهي أثرٌ من آثار الإيمان الصحيح الذي دعا له رسول الله ﷺ، فإنْ لم يحصل هذا الأثر دل على إيمانٍ ضعيفٍ، أو إيمانٍ فيه جهلٌ كبيرٌ.

لقد ظن الكثير من دعاة التجديد وإحياء الدِّين أنَّ الاستغراقَ في بيان أحكام الشريعة الفقهيَّة هو الذي يحقق للأُمَّة عِزتها ويخرجها من ذُلها وهوانها وكَبوتها، فنشطوا لهذه المُهمة، فكتبوا ووعظوا وناظروا، وقد تحقق الكثير مما يريدون حيث انتشرتِ المعارف الفقهيَّة، وخبت الكثير من البدع ولكن لم يتغيَّر شيء في عالم الواقع بالنسبة للمسلمين، فالحال هو الحال، بل إنَّ الإحصاء الصحيح يدل على أنَّ الخط البياني للجاهلية هو الأكثر في مجتمعات المسلمين، وهذا مما جعل الكثير من أتباع هذا الخط الإحيائي والتجديدي يُعِيدُونَ النظر في هذه المُهمة، إذ لم تحقق نتائجها التي يريدونها، فشرقوا وغربوا، ونسي هؤلاء كلّهم إلاَّ من رحم الله وهُمْ قِلَّة، ولو شئتُ لذكرتُ فيما أعلمُ أسماء ربما لا تزيد عن أصابع اليدين الاثنتين من هؤلاء المرحومين بالهداية، أقولُ نسي هؤلاء كلّهم أنَّ ركن التغيِّير هو الجانب النفسي المُرافق لسنن المعرفة القرآنية لهذا الوجود الإنساني.

لا يمكن أبداً، ولن يتحققَ أي تَغَيُّرٍ في واقع المسلمين بإتقان العبادات على وجهٍ سنني، ولا بترك البدع النُّسكيَّة بين المسلمين، ولا بكثرة العبادة الفردية للإنسان المسلم ما لم تنتفض إرادته وتستقيم نفسيته ويهتدي عقله إلى أهميته في الحياة ودوره فيها وتبصره بسننها.

هذه هدايةُ القرآن وغير ذلك آراءُ رجالٍ، وإفرازاتُ أفكارٍ ذاتيةٍ، ورُؤَى حالمة جميلة، قد يحصل بها أتباع لكنهم يحفرون في أماكنهم، ومهما فعلوا فلن يموتوا إلاَّ في النقطة التي بدؤوا منها، والواقع هو الدليل، فها هي الجماعات والمشيخات منذ قرن من الزمان وهي في نقطة العدم مع قوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾[1]، ولكن مع قِلَّةٍ مجاهدةٍ هنا وهناك يحصل الحِراك ويبصر النَّاس التأثير، وبمقدار وعيِّ الأتباع المجاهدين على هاتين القضيتين تحصلُ الآثار وتزدهرُ الأسواق التي يحبها الله والمؤمنون.

﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾** ﴾.

تأملْ هذه الآية، وتأملْ واقعكَ، حينها ستُدرك لماذا غيَّر النَّاس من جماعات ومشيخات الطريق الربَّاني بترك الجهاد إلى طُرقٍ أُخرى، إنه الهوان الذي ضرب في القلوب وامتد إلى شرايين الحياة، وإنه الحزن الذي شلَّ حركتهم وأقعدهم عن معالجة أزماتهم بما يحب الله تعالى من وسائل، وسبب

[1] سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

ذلك أنهم لم يفهموا عُلو الإيمان الذي منَّ الله تعالى عليهم به، ولم يُدْرِكُوا معالمه التي فيها ـ وفيها فقط ـ ما يُصلح كلَّ الأزمات والمصائب التي يُلاقونها.

إنَّ واقعهم وهو واقعنا دل على أننا ذهبنا نُعالج قضايانا من خارج دائرة الإيمان العزيز، فصرنا أُذن شرٍّ نتلقى فيها كلّ زبالات النَّاس وقذاراتهم، لقد صِرْنا تبعاً لهم، ففقدنا عزَّة الإيمان، وحقَّ علينا ما فرضه الله في سنَّة الحياة ﴿ **وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾** ﴾[1].

من دون البناء النفسي للإيمان، ومن دون إدراك قِيم الإيمان المعرفية للحياة فلا تغيِّير ولا تبديل، ولذلك قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾** ﴾[2]، ﴿ **وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾** ﴾[3].

هذه موعظةٌ ربَّانيَّةٌ وهي أمرٌ واجبٌ وركنٌ من أركان مِهنة المسلم في الحياة يقولها الله لأصحاب رسول الله ﷺ بعد أُحد، فهي تمسح الجِراح وتُعزيهم بالمصاب، فهو يقول لهم: لقد سَلم لكم الأمر العظيم، فهو ما زال معكم، فلا تهنوا في مُواصلة الطريق، ولا تحزنوا على ما فاتكم من النَّصر ووقوع الشهداء، إذ بقي لكم إيمانكم، وبهذا الإيمان أنتمُ الأعلون، فأنتمُ المُنتصرون، وهكذا يقلب الله لهم نتيجة المعركة من خلال تعديل ميزان الحُكم على وقائع الحياة، وبهذا التعديل يعرف المسلمون معنى الربح والخسارة في معارك الإيمان ضدَّ أعداء المهمة الرساليَّة لأنَّ الله يقول لهم: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا۟** ﴾ وهذه مُفسرةٌ في آية أخرى في سورة «النساء» في قوله: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾** ﴾[4]. وهي آيةٌ بيِّنَةٌ في دلالتها على أمر الغزو لقوله: ﴿ **ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ** ﴾. تقول لهم هذا الأمر وهم يتألمون من مصابهم الذي هم فيه، فهل هناك أعظم من هذا الدِّين في تأهيل أتباعه لهذه المرحلة من الرُقي الإنساني، والعِزَّة، وعدم الاستسلام للآلام والجِراح وكبوات الطريق؟!

هذا هو البناء القرآني للإنسان المسلم، تأمَلْهُ وقَلِبْ نَظَرَكَ فيه، واهْتَدِ بِهُدَاه، ثم ارْمِ بِنَظَرِكَ إلى واقعكَ، فتأمل جماعات المسلمين وخُطبهم ودروسهم ومُؤلفاتهم، واختبرْ هِدايتهم لهذا الهَدي، حينها تعرف لماذا صنع القرآن بصبغته الإلهية المسلم الصَّحابي، ولماذا عجزت هذه المشيخات والجماعات أن تضع قدمها على الطريق الصحيح في التغيِّير مع أنها كلّها ترفع شعار التجديد وإحياء الكتاب والسنَّة.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٤٥.

[2] سورة الرعد، الآية: ١١.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

[4] سورة النساء، الآية: ١٠٤.

إنَّ الذين يظنون أنه بمجرد إحياء كُتب السلف في مُعالجة المسائل العقدية والفقهية وتصحيحها يحصل لهم التغيِّير هم كذلك واهمون، لأنَّ هذه هي مجرد أدوات لا يحارب بها إلاَّ إنسانٌ قد ارتقى في مشاعره النفسية بأنه الأعز والأعلى والأقدر على قيادة البشريَّة، وبما يملكه مِنْ قِيمٍ حياتيةٍ سَننية هي الوحيدة والكافية لهذه القيادة.

من أجل هذا نقول ما نقول عن الجهاد، ليس لأنه حالة انفعال لمرحلة يعيشها شابٌ يتحمس كما يقول البعض، ولا لأنه يُعبر عن غضبٍ لشخصية انفعالية، ولا لأنَّ الجهاد وفيه استخدام للسلاح الذي يُطْرِبُ الإنسانَ الشجاع، ولا لأنه تنفيسٌ لثأر من مجرمين عُتاة ولغوا في الدماء والأمراض والأهوال، فليس لهذه الأسباب دعوتنا للجهاد، بل لأنَّ الجهاد هو أرقى وعيٍّ إنسانيٍّ على الحياة أولاً، ولأنه الوحيد الذي يُعبر عن قيم الإيمان بالله تعالى، ولذلك هو ذروة سنام الإسلام، والإسلام بلا جهاد يعني إنساناً كَلاً على مولاه أينما يُوجهه لا يأتي بخير لعدم وعيِّه على سنن الحياة وقيمها، كما هو حال جماعات ومشيخات اليوم، والإسلام بلا جهاد يعني إنساناً ذليلاً، مهاناً، دائم الشكوى والحزن من واقعه وإن كان فيه صبرٌ فهو صبرُ البهائم في ذلتها وهوانها.

الجهاد الذي ندعو إليه وتؤمن الجماعات المهدية به هو الطريق الحضاري الوحيد، وهو الطريق الإنساني الوحيد لتحقيق مقاصد المسلم في الوجود، وهو الطريق الوحيد لبناء الأُمم واتساع مبادئها وثبات هذه الأمم وهذه المبادئ أمام محن الحياة ومصاعبها، ولذلك قال تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾[1] - أي الجهاد، وإنَّ أكثر ما يحزنني في واقع المسلمين هم أولئك المُخلصون الذين يظنون أنَّ الواقع الذي نعيش يحتاج إلى أكثر من مجرد قتال ضدَّ أعداء الله، إذ يرون أنَّ المشكلة في الآية هي مشكلة معرفية تتعلق بقيم الشهادة على الخَلق، فيبعدون النجعة في نبطهم وتعبهم لتحقيق معنى الشهادة على الخَلق من خلال تربية الوعي في المسلمين، فبعضهم يقول لا صلاح لأُمتنا إلاَّ بانتشار السنن وترك البدع، وآخرون يقولون لا صلاح لها إلاَّ من خلال الصَّلاح والتقوى بمفهومها النسكي، وأفكار هنا وهناك، وينسون ميدان تحقيق الصَّلاح والتقوى والشهادة على الخَلق، وينسون التربية العملية التي تحقق وعيَّ المسلم على الحياة، وهذان لا سبيل لهما إلاَّ بالجهاد في سبيل الله، فالجهاد ليس قُنبلة تُلقى، ولا عملية اغتيال، لكن الجهاد أي القتال هو حياة الأُمَّة المسلمة، فيه ما ذُكر، إذ قد يبدأ بواحدة من هذه الأمور، لكن لا يقفُ بل يسيرُ كما يسيرُ أي اختيار لوسائل الحياة، فيقوى ويُبْتَلى، فينجح حيناً، ويخفِقُ أُخرى، وقد يُبَادُ أهله في مكانٍ وتنتهي دورة الحياة معهم إلى الأخدود، لكن سيأتي الوارثون في نفس المكان أو مكان آخر، ويدوم الاختيار لهذه الذروة الإيمانية حتى تتحقق الشهادة على الخَلق في كلِّ ذروةٍ بما يناسب الظرف السنني المُلائم لها، فليس مطلوباً في كلِّ جهادٍ أن تتحقق كلّ مطالبه، إذ قد تُوجد موانع هذه المقاصد وخاصة ما

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

يُسمى بعدم الظرف السنني، لكن تخلف هذه المطالب لا يعني التوقف ولا خطأ الاختيار، ولا يجيز أبداً للتالين أن يستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، بل يجب عليهم مُواصلة الطريق حتى يأتي وعد الله، فالجهاد هو الحياة، وهو الوِعاء الوحيد لمفهوم الشهادة على الخَلق ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

هي شهادةٌ ربَّانيَّةٌ أنه يمكن للفئة المؤمنة أن تخفق في مرحلة من مراحل الحياة، بل لابدَّ أن يقع هذا ولا يمكن تجاوزه، ويمكن أن تُصاب بالقرح في موقعة من المواقع، ولكن هذا لا يلغي شعورها النفسي بالعُلو، وشعور الاعتزاز لديها بإيمانها الفريد، وحين تُصاب الأُمَّة في هذين الأمرين حينها تكون الأُمَّة قد هُزِمَتْ حقيقةً، لأنَّ الهزيمة الحقيقية هي هزيمتها في الشعور الذي يتبعه إخفاق في الإرادة وفي العلم والعمل.

وهي شهادةٌ ربَّانيَّةٌ أنَّ الفئة المؤمنة هي الأعلى في هذه الحياة، وهذا يُوجِب عليها أن لا تلتفت للدون من حياة الآخرين فتُصْبِحَ مُتَلَقِيَةً لا هاديةً كما هو شعور المهزوم دائماً أمام المُنتصر.

وهي شهادةٌ ربانيةٌ أنَّ علاج أحزاننا من الغمرات التي تقع بنا، وعلاج هَواننا على النَّاس إنما هو بالجهاد في سبيل الله تعالى فهو الذي يشفي كلَّ أمراضنا، وحين تتخلى الأُمَّة عن الجهاد يعني أنَّ هَوانها سيطول وحُزنها سيمتد وذلتها هي شعارها الذي اختارته.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[2].

بعد أنْ هدَى ربُّنا وعلمَ وشفَى في الآية السابقة التي كانت مدخلاً نُورانياً لوقعة أُحد جاءت هذه الآية العظيمة، فيها حِكمة الحياة وسننها، وفيها قدر الإنسان والتجمعات عموماً، وخصوصية ما يُصيب المؤمنين من مصائب وقروح وآلام.

هكذا تنساب هذه الآية لتبيِّن حلَّ معضلة الألم الإنساني، وتتغلل في التاريخ لتكشف سننه الأهم والأوضح، ثمَّ في خطفةٍ تذهبُ بك هناك إلى خصوصية الإيمان في نفس الربِّ وعالِم الغيب حين تكون الدولة عليهم.

آيةٌ تخضع المؤمنين لبشريتهم، وقوانين هذه البشرية، ثم تُلقي عليهم ثوبَ الخصوصية في ما يقع عليهم ولهم، لأنهمُ المؤمنون، فأنتم بشرٌ من البشر، وناسٌ من النَّاس، وقانون التداول يشملكم،

[1] سورة البقرة، الآية: ١٤٣.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

وإيمانكم لا يُعْفِيكُم من هذه السنن، لكن إيمانكم يُصبغ على ما يقع عليكم من معاني لا تقع إلاَّ من خلال هذا التداول والمحن.

لنبدأ مع رحلة الألم الإنساني، هذه المرحلة التي أقلقتِ البشرية، وعجز الإنسان من خلال مُفكريه وفلاسفته أن يُدركوا حِكمة هذا الألم المُرافق للإنسان، ودفعهم عجزهم هذا إلى عدم إدراك حِكمة الألم العظيم، فكانت سبباً في شِركهم وكُفرهم.

قضية الألم كقضية الشرِّ لا يمكن حلَّ مُعضلتيهما إلاَّ من خلال القرآن الكريم، وإذا كانت قضية الألم في الإنسان عموماً مُقلقة خفية المفاهيم، فكيف إذا كانت هذه القضية مع المؤمنين من أحباب الله وأوليائه؟! إنها بلا شك ستكون أصعب وأعقد.

لقد كشفتِ الآيات أنَّ الألم قدر إنساني منذ مولده إلى يوم وفاته لقوله تعالى في سورة «البلد»: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ** ﴿٤﴾ ﴾[1]. وسورة «البلد» هي خُلاصة سيرة الإنسان من مولده إلى مماته، وفيها حلٌّ لكثيرٍ من أسئلته وما يحيره، فالله يقول فيها للإنسان أنَّ المشقة هي قدره الذي لا ينفك عنه، والإيمان والتوحيد ومُتابعة الأوامر النَّبويَّة لا يرفع الألم والمشقة كما قال تعالى على لسان بني إسرائيل: ﴿ **أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا** ﴾[2]. وكما قال تعالى لأصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ **إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ** ﴾[3]. فلا خروج للإنسان «نوع الإنسان» من قدره الذي قدره الله له، وهذه المعرفة القرآنية الهادية تُريح المتعبين والمُعذبين في الأرض من المؤمنين، لأنَّ هذه المعرفة تحرق ظنون الشيطان في النفس المُؤمنة أنَّ الإيمان له خُصوصية الألم والمشقة، والنفس تكره الألم، مما يرتد هذا على معاني غير محبوبة نحو هذا الإيمان، فالقرآن يقول: لا أَحَدٌ خالٍ من الألم، ولا أَحَدٌ خالٍ من المشقة فهناك ألمٌ إنساني عام وألمٌ إنسانيٌّ خاصٌ، أما الألم العام فهو ألم الضعف الإنساني، وذلك لما يُصيبه من الأمراض والهم والقبض، وهناك ألمٌ إنسانيٌّ خاصٌ وهو ما يتعلَّق بقدر الاختلاف البشري فيما بينهم بين مُسَخّر ومُسَخَّر كما قال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ** ﴿١٦٥﴾ ﴾[4]. وكما قال تعالى في سورة «الزخرف»: ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾[5]. هذان الموضعان في القرآن من سورة «الأنعام» وسورة «الزخرف» وقضية الألم في الآيات التي ذكرت تحتاج إلى مُؤلفٍ خاصٍ، تبصيراً للمسلمين عموماً وللمجاهدين خصوصاً لما فيها

---

[1] سورة البلد، الآية: ٤.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.

[3] سورة النساء، الآية: ١٠٤.

[4] سورة الأنعام، الآية: ١٦٥.

[5] سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

من معانٍ تربويةٍ وعقليَّةٍ ونفسيَّةٍ عظيمةٍ وما تكلمته هنا عن قضية الألم هو مجرد التفاتٍ سريعٍ لما يُناسب موضوع الجهاد وحصول البلاء فيه، ومن هذا النوع هو الصِّراع الحادث بين المؤمنين والكافرين لما يقع فيه من قدر التداول بينهم، وهو ما تقوله هذه الآية وآية «النساء»: ﴿ **إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ** ﴾. فحين يعتقدُ المرء هذا ويُبصره بصر اليقين والاطمئنان لهدأ نفسه، لأنَّ مما يُتعب النفوس في آلامها أن ترى إنفرادها بهذا الألم، ولذلك شرع الله التعزية بين المؤمنين، فإنَّ المرء حين يرى الاشتراك في الألم تهونُ عليه بعض آلامه، هذا في الدُّنيا بخلاف الآخرة لأنَّ الله يقول عن ألم الآخرة وعذاب النَّار: ﴿ **وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ** ﴿٣٩﴾ ﴾[1]. ولكن في الدُّنيا الأمر على خلاف ذلك، فهذه الهداية القرآنية التي تكشف عموم الألم واستغراق المشقة لجميع البشرية تخفف عن المسلم آلامه، فإنْ قُتِلَ له حبيبٌ أو سُجِنَ أو فَقَدَ ما يحب من جسمه أو ماله فلا يقع في نفسه اختصاصه بالألم بل لكلِّ أحدٍ من البشر آلامه التي تشغله وتملأ وقته.

حين تحصل هذه الهداية المعرفية اليقينية في نفس الإنسان المسلم يكون عُقبها تعليمه واجتباؤه إلى مرتبةٍ خاصةٍ دون الخَلق هي آثار ونتائج هذا الألم والمشقة في حياته الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، فبعد التشخيص يتم المعالجة.

لقد كشف الله المؤمنين بأنهم ﴿ **وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ** ﴾[2]، وشفاهم بقول موسى عليه السلام لهم: ﴿ **قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴿١٢٩﴾ ﴾[3]، وشفاهم في هذه الآيات من سورة «آل عمران» بما سيأتي من الفضل والإكرام والأجر.

وعرَّض بذِكر الرحمة في سورة «الزخرف»، وبالمغفرة في سورة «الأنعام» كلُّ ذلك ليعرف المُهتدي بالقرآن أنَّ علاج المؤمن الوحيد إنما يكون بحُسن علاقته مع الله وبرجاء الدار الآخرة.

هكذا تقول الآية: ﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ** ﴾[4]. ومع ذلك لم ييأسوا ولم يُغيِّروا مقاصدهم في إبادتكم وإزالتكم، بل نشطوا مرةً أخرى وها هم قد أتواْ لحربكم، فهل عجزتم أن تكونوا مثلهم حين أصابكم القرح أن تُعيدوا الكَرة مرةً أخرى لقتالهم.

هذا مُرادٌ أولٌ، وهو مِن خير ما يُبصره المسلم في عدوِّه الشيطان وجُنده أنهم لن يَأْلُوا جُهْداً في حربكم وتغيِّير دينكم، فأنتم أولى بالثبات والكَرة بعد الكَرة.

---

[1] سورة الزخرف، الآية: ٣٩.
[2] سورة النساء، الآية: ١٠٤.
[3] سورة الأعراف، الآية: ١٢٩.
[4] سورة الأعراف، الآية: ١٤٠.

وأما الآخر: فهو تسليةُ الله لهم، ذلك أنَّ ما أصابكم من الجِراح والقتل قد أصاب القوم من قبلُ في بدر، فليس لهم فضل النَّصر الدائم الذي يحزنكم، وإنَّ عين ما أصابكم قد أصابهم مثله ولا زيادة، ولو تأملتَ لرأيتَ عجباً كيف سمى الله موقعة بدر في ثلاثة مواطن ثلاث تسميات، ووصفها بثلاث صفات، ففي «الأنفال» قال عنها: ﴿ **وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴿٧﴾ ﴾[1]، وفي «آل عمران» فيما تقدم من الآيات قال: ﴿ **لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟** ﴾[2]. وهنا في «آل عمران» قال: ﴿ **مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ** ﴾[3].

فهي حادثةٌ واحدةٌ، ولكن كان شأنها مع الكافرين على ثلاث مراتب، فهي بالنسبة لتاريخ الإسلام والإيمان قاعدة لما بعدها في قطع دابر الكافرين، وهي في وصفها الخاص بها قطعت طرفاً من الكافرين، وهي في مُقارنتها مع ما يقع من حوادث الزمان ـ **مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ** ـ، وهكذا يتنوع الخطاب كتنوع الدواء الواحد قوةً وعدداً ليُلاءِم الحال المُناسب له، وذلك كتنوع القصة في القرآن في مواطن عدة تُناسب الحال الذي يُراد منها.

﴿ **إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴿١٤٠﴾ ﴾.

فالأيامُ كعُملة الدرهم والدينار، يتداولونها بينهم، فيوم يكون لقومٍ ويوم يكون لآخرين، ولم يذكر ربُّنا لمن تكون العاقبة والخاتمة هنا، لأنَّ المُراد ذِكر السنَّة البشرية العامة التي تقع للعموم من النَّاس، وهذا فيه تثبيتٌ للمؤمنين أن يَبْقَوْا في سوق التداول وإلاَّ خرجوا من صفقات التداول لهذه الأيام، وكما ذكرنا سابقاً فإنما هي جِراحٌ وليس قطعاً كاملاً إلاَّ باعتبار العاقبة، ولكن هذه الجِراح في الوقعة قد تكون القاضية إنْ فَقَدَ المؤمنون إيمانهم أو مشاعر عِزة الإيمان أو خرجوا من المعركة هروباً من سوق الجهاد.

ههنا تأتي قضية ضعف اللحظة الراهنة، وعدم استقرارها، فهي أضعف اللحظات، وهي فلقة لأنها ممتحنة بالتحدي الآتي إليها مع اليوم التالي واللحظة القادمة، فليس المُنتصر بمأمون من ألم المحافظة على نصره، كما أنَّ المُصاب ممتحنٌ بتغيِّير واقعه وتحويله، ولذلك قالوا: إن النَّصر مع الصَّبر، والله يقول: ﴿ **وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾، وكما أنَّ الهزيمة لها ضريبتها، فكذلك للنَّصر ضريبته، وهذا ما يجعل سنَّة التداول واجبة الحدوث لكلِّ التجمعات مهما بلغت قوتها.

هذه السنَّة العظيمة لا تعطي أبداً مفهوم الانتظار، بمعنى أن يقف الخصم مُنتظراً ضُعف خصمه، لأنَّ المجتمعات والأُمم التي تُمارس الانتظار هي أُمَّةٌ خارج مفهوم الأيام التي تستحقُ وِراثة الآخرين،

[1] سورة الأنفال، الآية: ٧.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٢٧.
[3] سورة الأعراف، الآية: ١٤٠.

إذِ الوراثة للأيام هي صِراعٌ وقتالٌ ومُغالبةٌ، ومن دلائل هذا هذه الآية فإنها ذُكرت في سِياق الحرب بين المسلمين وأعدائهم، في سورة «النساء» جعل الله هذا الصنف من المُتفرجين منافقين ولا يحق لهم النَّصر ولا التأييد، اقرأ واقع هذا الصنف من النَّاس في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾[1]. تعلم حُكْمَ الله في هؤلاء الذين يجلسون ليُشاهدوا وينتظروا.

إنَّ إدراك المؤمن لهذه السُنَّة الربَّانيَّة تقِيهِ من اليأس والقنوط، وتمنعه من التغيِّير والتبديل، إذ مهما بلغتِ الأُمم في قوتها فإنَّ غدها ليس لها، فلا يأس لخصمها ولا غرر لها، ورضي الله عن عمر الفاروق حين بكى وهو يرى غنائم الفتوح تُصب بين يديه في المسجد، فإنَّ الفاروق لم يكن يقول لشيءٍ أظنه كذا إلاَّ كان كما قال.

هذه الحكمة التاريخية التي تتجاوز الأيام بل والسنين هي التي تصنع المسلم الذي يتماهى مع التاريخ، وليس المسلم الذري الذي تبتلعه أيامه القصيرة، تحيط به حين يضع خُططه ويُلقي كلماته ويمارس أفعاله، فمثل هؤلاء ذرات لا يكتبون التاريخ، ولا التاريخ يقف معهم، ولا يعتني بهم، وهي تدل على عدم وجود فراغٍ في الوجود، إذ أنَّ الأُمم لا تسقطُ إلاَّ وقد وُجد بدائل لها ترث مكانها الذي أفرغته، فلا سقوطَ من غير وارثٍ، ولذلك كان الجهاد، لأنه هو، وهو فقط، الذي يُؤهل الأُمَّة في زمن ضعفها أن تتأهل لوراثة الأمم التي تآكلت من الداخل ومن الخارج، فالجهاد ليس ضرورة تاريخية زمن القوة فقط، بل هو أشد ضرورة في زمن الضعف، لأنه من خلاله وفي ميدانه تبني الأُمَّة في داخلها مقومات الوراثة.

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

هذه محنةُ الإيمان، وهي تحقيقٌ لمقصد الوجود كلِّه، لأنَّ الله خلقه من أجل عبادته ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[2]. فما يقع للمؤمن من نصرٍ أو هزيمةٍ، أو محنةٍ في نعمةٍ أو محنةٍ في بلاءٍ إنما يقع ما يقع ليعلم الله المؤمنين من غيرهم، فعِماد قَوام هذا الدِّين هو عبودية المرءِ لربِّه وذِكراه الدار الآخرة، وبدون هذا العِماد فإنَّ الدِّين مجردَ هيكلٍ من الصخر لا روحَ له ولا حياة، وهذه القضية تعطي الخصوصية والتفرد للمرء المسلم في أهدافه ومَراميه، وتجعل لصِبغته دلالة خاصة هي دلالة

[1] سورة النساء، الآيات: ١٤١ـ١٤٥.

[2] سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

الربَّانيَّة، فهذا الدِّين ليس سُوقاً للشهوات يأتي إليه الآتون وقتَ ازدهاره وكثرة البضاعة فيه، فإذا قَلَّتْ أو ذهبتْ راحوا لغيره، بل هو الدِّين الحقّ الذي يملأ المؤمن به في كلِّ لحظات الحياة على اختلاف ظروفها وأحوالها.

إنَّ الإيمان والابتلاء قرينان، وبينهما تلازمٌ واضطرادٌ، فبمقدار الإيمان يزدادُ البلاء، وهو بلاءٌ خاصٌ غير ما يعيشه الإنسان من آلام تُلازم إنسانيته لضعفه وفقره الذاتيين.

فهذه الأيام يُدَيِّلُهَا ربُّنا بين خلقه من أجل أن تظهر حقائق الصدور، وتمتحن خفاياها، فيظهر المُؤمن من غيره، ولذلك كانتِ المحن فرصةً قدريةً وهديةً ربَّانيَّةً للمؤمن حتى يُثبت صِدق إيمانه، وحُسْنَ يقينه بالله تعالى، فالذين يبحثون عن وسائل يزعمون شرعيتها ـ تلغي هذا التلازم بين إيمانهم والابتلاء هم مخطئون لأنَّ هذا لا وجود له في سنَّة الله تعالى، فهم إما أن يتخلوا عن الإيمان أو بعضه، وإما أن يسحبوا أنفسهم من الحياة ولججها.

هكذا يُدَيِّلُ الله الأيام بين النَّاس حتى يعلمَ الله المؤمنين الصادقين من غيرهم، فلو أنَّ هذا الدِّين لا يعتريه ما يقع للبشرية من نصرٍ وهزيمةٍ لامتلأ من أصحاب الشهوات الذين يفدونه ويبدلونه ولا يأبهون، لكن حين يدخل النَّاس في دين الله تعالى ويكنز أهله، فحين تأتيهم المحن والابتلاء وتكون دائرة من دوائر الزمان عليهم حينها يُعلم الصادق من الكاذب.

إنَّ تغيُّر الريح على المؤمنين لا يعني أنهم قد أخطئوا الطريق كما يزعمُ البعض، بل هذه الآية ترفع هذا التوهم الذي يُتاجر به الكثير حين يكون للكافرين نصيبٌ على المؤمنين؛ إذ يبدأ جَلْدَ المجاهدين، وتعييرهم، وقذفهم بالتُّهم الباطلة كما فعلَ المُنافقون في هذه الغزوة كما سيأتي تفصيله، فالله تعالى يقول لهم: هذه سنتي وهي حاكمة عليكم، لأنَّ كلَّ ابن آدم خطاء.

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾.

يا للهِ كم يجرد هذا الدِّين أتباعه من شهواتهم الدنيوية، ويا للهِ ما أعظم مقاصده الأُخروية، وعلى الذين يكتبون عن المقاصد الشرعية أن يتقوا الله فيما يكتبون، ذلك لأنهم يجردون هذا الدين من ربَّانيته، ويجردون أهله من ذكرى الدار الآخرة.

لقد مدح الله المصطفين من عباده بقوله: ﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1]. فهذا هو المقصد الأعظم والأجل، ولهذا المقصد يبذل أهله أرواحهم ودماءهم وجهودهم.

أين هؤلاء الذين يكتبون عن المقاصد وهم لا يُعِيرُونَ إرضاء الله أيَّ الْتِفَاتَةٍ في أبحاثهم وأُصولهم الباطلة؟!

---

[1] سورة ص، الآية: ٤٦.

هكذا جعل الله من مقاصده في تداول الأيام أن يتخذ الشهداء عنده، وفقه السلف لمثل هذه الآيات جعلهم يلقون أنفسهم في مواطن الشهادة، ويطلبونها جُهدهم، ولا يعدون هذا من إهلاك النفس، ولا من التغرير بها، بل يرون هذا من أعظم القُربات عند الله، ولسنا بحاجة أن نذكر طلبة العلم المسألة الأصولية في دلالة أفعال الله تعالى على الأحكام الشرعية، فلتُراجع في مظانها، وفقه الأوائل لهذا الأمر جعلهم يريدون من أنفسهم ما يريده الله منها.

لقد وقع القتل في أصحاب رسول الله ﷺ لسببٍ منهم، لكن الله يجري هذه الأسباب لما يريده من معانٍ، منها ما هو للمؤمنين، ومنها ما هو للكافرين، ولما كان الموضع موضع تسلية للمصاب كان الحديث عن مقاصد الربِّ في ما يُصيب المؤمنين.

﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ** ﴾.

أيُّ ثناءٍ ومدحٍ أجَل من هذا الثناء والمدح؟! فالله يتخذ ﴿ **مِنكُمْ** ﴾، لأنَّكم العُدول الثِقات الذين تَصلحون لهذه المرتبة العظيمة، فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم بذلتم أرواحكم لدينه، وأنتم تشهدون أنَّ الله قد أعذر للكافرين عُذراً بلغ مداه ودفتاه.

﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ** ﴾.

هي شهادةٌ من الله تعالى أنَّ النَّصر ليس بأولى عند الله من القرح، فإذا كان في النَّصر تحقيق لما تحبون كما قال تعالى في سورة «الصف»: ﴿ **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** ﴾[1]، فإنَّ القرح فيه الكثير مما يحقق ما يحبه الله ويرضاه.

﴿ **وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ** ﴾ حتى لو كانتِ المُصيبة من فِعْلِ أيديكم ولسبب خطأٍ من بعضكم، فإنَّ هذا لا يلغي مرتبة الشهادة التي يريدها الله لكم.

شهادةٌ ربَّانيَّةٌ تقرع أولئك الذين يرون المجاهدين أنهم ألقوا بأيديهم إلى التهلكة، أو أنهم لم يحسنوا قراءة الأحداث، أو الذين يُفسرون موتَ الأحبة فَجيعة تُوجِب إيقاف الجهاد وعملياته، فهي شهادةٌ من الله لعلَّها تردعهم وتُوقِظهم من حِساباتهم التي لا تعرف نفس الله تعالى، ولا مقاصده في عباده في الأرض، إنَّ هؤلاء الشُّهداء هم المرضِيُّون عند الله تعالى ليقفوا يوم القيامة بين يديه، فيقيموا ما رأوا وما أبصروا من عِناد هؤلاء المُشركين وظُلمهم وجُحودهم.

إنَّ المجاهدين، والمجاهدين فقط، هم الذين يُدركون حِكمة الله تعالى وعدله في خلقه، وخاصةً في الكافرين، فقد رأينا كيف يعذر بعض أصحاب اللحى والعمائم وأدعياء الفكر الكافرين في كُفرهم، وكيف يُبررون لهم بعض إجرامهم أو إعراضهم عن دين الله تعالى، حيث يزعمون أنَّ أهل الإسلام يُسيئون تقديم صورة الإسلام لهم مما ينفرهم عن دين الله تعالى، ولستُ هنا واقفاً للردِّ على هذه

[1] سورة الصف، الآية: ١٣.

الجُملة القبيحة الجاهلة التي لا عِماد لها من عقلٍ أو تاريخٍ أو دليلٍ مُعتبرٍ، لكن كيف يستحقُّ هؤلاء مقام الشَّهادة عند الله تعالى على الكافرين يوم القيامة ليكون مُستقرهم في جهنَّم؟ بل ربما رأينا من بعضهم مَن يستنكر هذا المُستقر لهم يوم القيامة، اتهاماً لكلمة الحقِّ التي نطق بها كتابه الكريم، لكن المجاهدين والذين يسيرون في رِكابهم هم فقط مَن يُدرك حِكمة الله تعالى وعَدله في هؤلاء، لما يرون من قساوة قلوب الكافرين، ولما يُشاهدون من عداوتهم التي لا يحدها حد، ولما يلمسون من إجرامهم ووُلُوغِهم في عِرض المسلمين ودمائهم، فهم يرون ويلمسون ويتحققون من كلِّ هذا، فيعلمون اليقين صدق قول الله تعالى فيهم: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1]. ويعلمون صدق قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. فالله حكيمٌ في هؤلاء، وهم يوقنون أشدَّ اليقين أنَّ عدل الله فيهم هو الحقّ الذي لا حقَّ سواه حين يعلمون أنَّ هذا الجنس من الخَلق لا يصلح لهم إلاَّ مُستقراً وحيداً هو جهنَّم، فهي أولى بهم من أي مستقرٍ أو مصيرٍ، لأنهم لا خير فيهم البتة.

إنَّ الذين لم يُعانوا الجهاد ولا بلاءه لا يعرفون الكافرين على حقيقتهم، لأنهم يجتمعون معهم في مُنتصف الطريق، فَيُرْضُونَهُم ببعض ما يحبون من الشهوات، فيبتسم كلّ فريقٍ للآخر، ويقومون وقد رضي كلّ فريقٍ بما عند الآخر، ولكن المجاهدين الذين يؤمنون بالكتاب كلِّه، ولا يُسَاوِمُونَ على حقوق الله ولا على حقوق الأُمَّة المسروقة المهانة المضاعة هؤلاء يعرفون حقيقة الكافرين لأنهم يعيشونها ويحسونها فيحمدون الله على نِعمة الجهاد والبلاء في سبيل الله.

من أجل هذا كان هؤلاء المجاهدون هم الذين يستحقون مقام الشهادة يوم القيامة بين يدي الله تعالى على هذا الصنف العجيب من البشر والذي لا يعلم حقيقته إلاَّ الله، وهم الذين تقدمَ ببعض وصفهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾[3]. فإنَّ كلَّ ما يُظهرونه من قتلٍ فينا، ومن وُلُوغٍ في أعراضنا، ومن تعذيب أبشارنا، ومن سبٍّ تُفرزه ألسنتهم، إلاَّ أنَّ الله الحقَّ المُبين يقول: ﴿ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾.

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾.

إنَّ الوصول لهذه المرتبة الربَّانيَّة الجليلة لا يكون بالتخاذل، ولا بالهروب من مُواجهة المعارك بكلِّ أشكالها الإنسانية، بل لا تحصل هذه المرتبة إلاَّ بخوض الغمرات التي يحبها الله تعالى لعباده، وذلك حين تهونُ نفس المرء عليه حتى لهي أهون عليه من كأس ماءٍ بين يديه، حينها يستحقُّ المرء أن يكون شاهداً عند قاضي السماء في يوم القيامة.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

[2] سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾.

هو نداءُ الله لعباده، إذ يحفزهم أن لا يهربوا من أيِّ نتيجةٍ في معاركهم ضدَّ أعداء الله تعالى وضدَّ أعدائهم، فإنْ كان النَّصر فهو ما تحبون، وإن كانتِ الأُخرى فهي اصطفاءٌ لكم لما يحبُّ الله تعالى، فهلُموا إلى الجهاد ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾. هذه الفاصلة القرآنية في هذه الآية كانت تُشغلني وإلى الآن، فهي فاصلة تجبه عقلكَ وأنت سائرٌ مع الخطاب الرحيم الرقيق المُوجه للمؤمنين، وذلك بتسليتهم وتعليمهم وتثبيت أنفسهم، ثم تأتي هذه الفاصلة لتُبَيِّن نفسية الربِّ وحُكْمَهُ في الظالمين.

فلماذا؟.

إذ هي تحذيرٌ ربَّاني مِن الظُّلم، وهو الكَيْلُ بغير ميزان الحقِّ السماوي، من أن يقع فيه المسلمون حين يقرؤون وقائع الزمان وقضايا الجهاد بعيونٍ أُخرى وموازين جاهلية؟.

هل هي مقدمة لقرع الذين سيفصل الله لنا حديثهم بعد ذلك، حين قالوا عن أُحد ونعمتها ما قالوا من الشرِّ؟.

هل هي تتلاءم مع السِياق القرآني بأنَّ ما وقع لكم إنما هو من حبِّ الله لكم، وليس هذا للظالمين الذين حرمهم الله من الشَّهادة والإيمان؟.

كل هذا وغيره مما يمكن أن يقوله المُتأمل، ولكن: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[1].

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾[2].

هذه نِعمةٌ أُخرى من نِعَمِ أُحد العظيمة على المؤمنين، وهي نِعْمَةٌ يحتاجها المسلم في مسيرته، ويحتاجها المؤمنون أنفسهم، إذ أنَّ المحن للمؤمن تَقْوِيَةً له، فهي تُقَوِيهِ وتزيده ثقةً بدينه وبربِّه، وتُعلمه الكثير من حِكَمِ الربِّ في الوجود، وتهديه سُبُلاً لا يهتدي إليها إلاَّ من خلال هذه القروح التي تُصيبه، فمن استُشهد مضى إلى الجِنان وجِوار الرحمن، ومن بقيَ عاش حكيماً خِرِّيتاً[3] مجرباً، ثابت المعاني، راسخ القدم، حاملاً لحكمة السنين، بريئاً من أمراض الطفولة الإنسانية التي تغشى الأغرار وعديمي التجربة، فيعيش بحكمته ملقياً للأجيال ما يحتاجونه من بصائر وهدى الوقائع التي عجمته، فزادته صلابةً وقوةً وعلماً وثباتاً، فهو يقفُ لهم كالصُّوَى[4] الهاديات في لجة الحياة وتلاطمها

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٧٦.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٤١.

[3] الخِرِّيت: الدليل الحاذق، واشتقاقه من خُرت الإبرة، أي إنَّه من حَذَاقته يدخُل في خُرْت الإبرة، أي يدخُل في ثَقْبها. «الاشتقاق» لابن دريد.

[4] الصُّوَى: الأَعْلام المَنْصُوبة من الحِجَارة في المَفَازَة المَجْهُولة والفَيافي، يُسْتَدلُّ بها على الطَّرِيق، وعلى طَرَفَيها، واحِدَتُها: صُوَّةٌ كقُوَّة. وعن أبي هُرَيرة ﷺ أنّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لِلإِسْلَامِ صُوَىً وَمَنَاراً كَمَنَارِ الطَّرِيقِ**».

وأعاصيرها، فهذا هو التمحيص الذي يريده الله تعالى للباقين من عباده، وهي ما تحتاجه جماعات الجهاد في كلِّ أزمنتها، فهؤلاء الرجال الباقون حين يرون اللجج قد أتت، أو أنَّ الدول قد تساقطت، أو أنَّ الزحوف قد رمت بأكبادها للمسلمين، هؤلاء الجبال يرمون لها بسمة البصير الذي قد رأى كلَّ هذا من قبل، ومرت على عينيه أمثالها، فيقول للحائرين: لقد مرَّ على هذه الطريق الكثير من هذا، فماذا كان؟ لقد عاد الكفر يباباً، وما هذه اللجج إلاَّ زبد بحرٍ سيذهب، وما هذه الزحوف إلاَّ أعداد هواء سيؤول كلّها إلى فناء، وسترون يا أبنائي أنَّ العاقبة للمتقين، وأنَّ هذه الدولة الذاهبة سيأتي غيرها، فلا تجزعوا ولا تضطربوا، فإنَّ مع العُسر يُسراً، وإنَّ النَّصر مع الصَّبر، وتبدأ حكايات العِبر تتوالى على لسانه لأبنائه حتى تشتد نفوسهم فيُواصِلون الطريق وتتعاقب الأجيال وهي تُردد كلمات الله: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[1]، ويُردد الحكماء منهم: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[2]، وأمثالها من حِكَمِ القرآن الحكيم، السارية في نفوس هذه الأُمَّة وخاصة في قلوب أبنائها المجاهدين إلى يوم الدين.

إنَّ المحن والمصائب والقُروح لا تخرج مرضى هيابين إلاَّ بسبب التربية خارج المناهج القرآنية، حين يزعم الحكماء ـ زعموا ـ أنَّ الجهاد هو طريق الشباب المُتحمسين، ولكن حين تذهب فَوْرَتُهُ يكون العقل داعياً إلى الدِعة والسلامة.

إنَّ هؤلاء لا يهتدون بالقرآن، ولا يعيشون معانيه حقَّ العيش، ولم يرتقوا إلى هديه الذي يرشد إليه، بل هم ينساقون وراء مشاعر خاصة تتعلق برؤى إنسانية تتبدل بتبدل الزمان والأشخاص والأعمار، ودين الله ليس كذلك، وصلى الله على الحبيب المصطفى، وهو على فِراش موته ويقول: « **أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ**»[3].

هكذا التمحيص يسقط الضعيف إنْ تهاونَ، ويُقويه إنْ ثبت، ويُرقي القوي في قِواه، وتُصبح حِكمة الزمان ليست دائرة موضعية لا ينتفع بها اللاحقون، بل تصبح كلّ تجربة هي إرثاً للصغير يراها في همسات آبائه الذين غذوه بالعلم والتجربة والحكمة، وتتواصل حكايا الليل وهي تحمل قولاً واحداً: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾[4].

﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

1 سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.
2 سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.
3 الطبراني في «المعجم الكبير» عن مُحَمَّد بن علي بن الْحُسين، عن أبيه، عن جدِّه. حديث رقم: ٢٨٩١.
4 سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

هذا قولُ الله في المحن، هذه المحن التي تُصِيبُ المؤمنين بالقُروح والألم والأذى، فتُمَحِصَهُم فهي كذلك تمحق الكافرين.

ويبرز السؤال: هذا يومهم الذي لهم، وهذا نصيبهم فينا، فكيف يكون في حقيقته ودلالته ونتائجه، محقاً للكافرين؟.

هذا قولُ الله وليس بالهَزل، بل هو الفصل في ما يختلف النَّاس فيه، وهو الهَدي والنُّور الذي يجعل العقول في موازينها حين تقيم الأحداث والأشياء، ويبني النفوس لترتقي إلى ما يحب الله لها من الدرجات لقيادة التاريخ والعالم.

إنَّ المصائب والقُروح لا تمحق المؤمنين، بل تمحصهم، ولكنها تمحق الكافرين، فحين تكون الوقعة بكلِّ صورتها قد انتقلت من جانب إلى جانب، فمثل الذي وقع بالكافرين قد وقع بالمؤمنين مثله ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾، ولكن هي للمؤمنين تمحيصٌ وللكافرين محقٌ وعذابٌ، هكذا يصنع القرآن أهله، وهكذا يُربي الله أحبابه وعباده المجاهدين، وهكذا هو الزمان يشهد لهذا القول ويُؤيده ويُقسمُ أغلظ الأيمان إنه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهزل، فماذا بقي للقاعدين من أعذارٍ وحُجَجٍ حتى يستبدلوا الدُّنيا وحبَّها بالجهاد في سبيل الله. الباء في فصيح اللسان تدخل على المستغنى عنه كما قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾[1].

لكن كيف يكون انتصار الكافرين في موقعة هي محقٌ من الله لهم؟.

تعالوا معي إلى التاريخ، وراجعوا صفحاته الكبرى، وتبصروا إلى وقائع عدة حصل فيها أنْ انهارت بَيْضَةُ الإسلام الكُبرى، وضُرب الإسلام ضربات كبرى لا قلمات صغيرة، وإنْ كانت القلمات الصُغرى كذلك فيها هذه الدلالة الربَّانيَّة الجميلة العظيمة، لكن تأملوا الحروب الصليبية، ثم تأملوا معها غزو التتار، وانظروا إلى رُقعة الإسلام بعد هذه الوقائع التاريخية الكبرى، هل زادت أم نقصت؟ هل تقدم المسلمون إلى أراضٍ أم تراجعوا؟.

لقد خطا الإسلام بغزو الصليبيين داخلياً خُطوات محمودة رائعة منها القضاء على الدولة العُبيدية في مصر، ثم لما انتهى أمر الصليبيين كُلِياً صارت بلاد الشام كلّها بلاد إسلام بشعوبها إلاَّ بقايا من بُقَعٍ قليلةٍ لا أهمية لها، ثمَّ بعد تحولات قليلة رمى الإسلام بنظره إلى مواقع جديدة في شمال بلاد الشام وتجاوز ذلك حتى تحولت بلاد البوسنة والهرسك إلى الإسلام، وهكذا كانت العاقبة للمسلمين.

وأما التتار فقد دخلوا في دين الله تعالى، وهضمتهم الأُمَّة لأنها بقيت تستشعرُ عُلُوَ الإيمان حتى وقت هزيمتها، ولمن أراد تفصيل هذه القضايا العامة فالتاريخ أمامه يمكن له أن يطلع فيه على دقائق هذه القضية الرائعة في خصوصية الإسلام في التقدم وقت المحن.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٦١.

إنَّ الأُمم بحاجة للمحن، وبحاجة للصدمات، وإنَّ الله تعالى لَيَمُنُّ على الأحباب من عباده بوجود الأعداء كما قال تعالى في سورة «الفرقان»: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[1]. فانظر هذه الفاصلة الرحيمة التي أعقبت هذا القدر اللازم للنُّبوَّةِ والأنبياء، وهي تعني أنَّ وجود هؤلاء الأعداء يحقق الهداية والنَّصر الربَّانيِّين لهؤلاء الأنبيَّاء، كذلك وُجود القُروح والآلام والأذى للمؤمنين هو تحقيقٌ بأنَّ الله سيمحق الكافرين بأيدي الصابرين المُثابرين على طريق الجهاد رغم الصِعاب والمحن.

إنَّ هذه القضية الربَّانيَّة لأهميتها قد شرحتها في كتاب سابق، لم يقدر الله تعالى له الخروج، وقد يكون قد ذهب ضحية لإجرام قومٍ لا يحبون اسم الجهاد ولا أهله ولا محبيه، فإنْ كان في قدر الله أن يخرج فهذا ما أحب، وإن كان قد ذهب ولا عودة، فليكن هذا الموطن فيه كفاية لبيان هذه القضية، مع أني لا أستطيع أن أكتبَ مسألةً واحدةً مرتين، ولكن سأحاول وباختصار عما كتبته هناك والله المُوفق.

هذه الأُمَّة تملك عاملين قدريين اثنين، بهما يحصل الغزو المُتعاقب من الكافرين ضدَّها، ومهما حاول بعض أهل الفكر والنظر من منع هذه الظاهرة القَدرية المُتعاقبة فلن يستطيعوا ولن ينجحوا، لأنَّ محاولاتهم أشبه بتحجير البُخار الغازي وهو ضربٌ من ضُروب كيمياء الفكر الساذج عند القُدماء في تحويل المعادن إلى ذهب، هذان العاملان **أحدهما:** مبعثه الإغراء الذي يعتري الأُمَّة عند توقفها عن مسيرة الجهاد نحو الآخر، فتنشأ عوامل ظاهرية عِدَّة كلّها تدعو إلى تزيِّين هذه الأُمَّة في نفوس خصومها ليقبلوا إليها بالغزو والاستباحة والعُدوان، **وثانيهما:** مبعثه استعلاء الضعيف أمام القوي، وهي حالة حاولتُ أن أجدَ لها اسماً، أو أستعيرَ لهذا الاسم فلم أقدر، ووصفها أنَّ هذه الأُمَّة ممضخة بالقرآن والتاريخ، وكِلاهما يبعثان فيها شعور الأفضلية والعِزَّة، وهو شعورٌ لا يقبله الخصم منك دوماً، لكن يكون عامل سُعار كلبي عنده حين تكون أنتَ الأضعف والأقل شأناً، مما يجعله يأتي إليك وهو ناقمٌ حاقدٌ أشدَّ النقمة والحقد.

عامل الإغراء؛ مبعثه ما تقع فيه هذه الأُمَّة من ضُعفٍ وتفتتٍ، وقد يزيد هذا الإغراء هو وجودك وأنتَ الضعيف فوق منابع خيرٍ ومالٍ ودنيا بالنسبة إليه، فحينها يأتي بسلاحه وجنوده وقوته، مدفوعاً برؤية جليةٍ واضحةٍ أنَّ المعركةَ محسومة له بلا شك، فيشق بجنوده وسلوكه واقع هذه الأُمَّة كما تشق السكين قِطعة الجبن الرخوة، فيحصل له الزهر أنَّ المعركة قد انتهت وحصل مقصوده في إفناء هذه الأُمَّة وهذا الخصم التاريخي العنيد.

هذا العامل إنْ انفرد يجعل الغرب أشبه برحلة تاجر يحقق ربحاً لا يعنيه الدم والثأر والانتقام، ولكن العامل الثاني وهو عِلْمُ هذا الخصم القوي والمُتبجح أنَّ هذا الضعيف الحقير المُهان يَسْتَبْطِنُ في داخله

[1] سورة الفرقان، الآية: ٣١.

مشاعر عِزَّةٍ خاصةٍ تملؤه، هذه المشاعر تجعله على إحساسٍ دائمٍ أنه خيرَ النَّاس، وأعلمَ النَّاس، وأنه إنْ فقدَ دُنْيَاهُ فإنَّ الآخرة له، وأنَّ ما عنده من كتب خاصة فيها الكفاية لتجعله أسعد النَّاس وأفضلهم في الوجود، وهو يحمل إرثاً تاريخياً أنَّ آباءه خير الآباء، وأنَّ أجداده خير الأجداد، وأنَّ تاريخه هو تاريخ البشرية الوحيد، ومع هذا التاريخ هو يحمل رؤيةً أنَّ المستقبل له كذلك، وأنَّ الواقع هو لحظةٌ عابرةٌ كسحابة صيفٍ سيتجاوزها وتتجاوزه.

عَلِمَ هذا الخصم بوجود هذه النفسية في هذه الأُمَّة مع ما يحمل من احتقارٍ لها يجعل رحلته إليها رحلة دمٍ وقتلٍ وتخريبٍ وثأرٍ.

فيأتي وبالفعل تشق سكينه في اللحظات الأولى هذه الأُمَّة قطعة الزبدة الرخوة، ولكن بمجرد أن يظن أنَّ الرحلة قد انتهت يبدأ الكابوس الحقيقي في تحقيق قوله تعالى: ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾.

إنَّ تجارب كلَّ الغُزاة مع هذه الأُمَّة كانت على هذه الصورة بلا استثناء، في القديم والحدث وفي المستقبل، إذ كانت هزائم هذه الأُمَّة أمام أعدائها سبباً لتحقيق قوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾. فَمِنْ عُمْقِ القَرْحِ والأذى والألم يَنْتَفِضُ المهديُّون المجاهدون المُؤمنون من هذه الأُمَّة لِيُحَقِقُوا من هذا الضُعف قَدَرَ الله تعالى، وحِكْمَةَ الله تعالى، ومَكْرَ الله تعالى بأعدائه، حيث تسري هذه الأيدي المهدية تقطيعاً لهذا العملاق المغرور القادم على هذه الأُمَّةِ، فتُفَتِتَ أَوْصَالَهُ وجوانبَهُ، ويبدأ الاستنزاف لدمائه وقُوَاه ومَوَاهِبِه، وهو لا يقدر على الهروب لعامل الإغراء لغلبة السعار عليه، وتسير المعركة إلى مُستقرها إلى الحِكمة الأولى بأن يُردد المؤمنون حُكْمَ القرآن: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾. ويحملها الحكماء لكلِّ موجةٍ قادمةٍ ولكلِّ دِفْقٍ حَاقِدٍ جَدِيدٍ: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ٢٢﴾[1]. ويبصر الكون كلّه قاعدة الوجود وحِكمة الزمان ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2].

هذه هي قضية هذه الأُمَّة، وهذا قَدَرُها، أن تبقى هي في أُتُونِ المشقة والكبد، ويبقى أعداؤها في نار المحق المُتكرر، لتجدد دورات الزمان في كلِّ قرنٍ: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ﴾. وكما قال الرسول ﷺ: «**فِي كلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ**»[3]. وتسري على الكافرين حِكمة القرآن: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

[2] سورة الرعد، الآية: ١٧.

[3] «**فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ**» قال الحكيم: «هم البدلاء الصِّديقون الذين بهم يدفع البلاء عن وجه الأرض ويرزقون، وذلك لأنَّ النُّبوَّةَ خُتمت بالمصطفى ﷺ ولم يبقَ إلاَّ الولاية فكان من الصحب من المُقربين قليل ومن بعدهم في كلِّ قرن قليل». انتهى. وفي شرح الحِكم أنَّ المراد بالسابق الداعي إلى الله المبعوث على رأس كل قرن للتجديد. الترمذي عن أنس ﷺ، ورواه أبو نعيم في «الحلية» والديلمي عن ابن عباس ﷺ. «فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير» لمحمد عبد الرؤوف المناوي. ضبطه وصححه أحمد عبد السلام. الجزء الرابع حديث رقم: ٥٩٦٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٤١٥/١٩٩٤م).

فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾[1]. وتَذكرْ أنَّ هاتين الآيتين هما معنا في سورة «آل عمران» في خاتمة ذِكر هذه الغزوة المُباركة، غزوة أُحد.

قَدَرُ هذه الأُمَّة ليس اختياراً ذاتياً تستطيع أنْ تَنْفَكَ منه، ولو أراد بعضهم ذلك فسيكون هناك الآخر الذي لا يُرْضِيهِ منك إلاَّ هذا الاختيار، وعلى الطاعنين في أولئك المصبوغين بالصِبغة الربَّانيَّة أنهم هم هذه الأُمَّة، بلونها وفِعالها وقلوبها ومقاصدها أن يرعوا، لأنهم همُ الغُرباء عنها لا هؤلاء، وعليهم أن يعلموا أنَّ هذه الأُمَّة قَدَرُهَا أن تجاهد في ضُعفها لتخرج من هذا الضُعف، وعليها أن تجاهد في قُوتها لتنشر دين الله تعالى وقِيمه في الآخرين، وعليها أن تجاهد في كلِّ حالٍ لأنَّ هذا قَدَرُهَا الذي لا تستطيع أنْ تَنْفَكَ عنه، لأنها أُمَّة ربَّانيَّة أراد الله لِعُصْبَةٍ منها أن يكونوا أولياءه وأحبابه.

بهذا الظرف من الهزيمة الوقتية التي تُصاب فيها أُمتنا بالقُرُوحِ والآلام والأذى يكون قَدَرُهَا أن يمحق الله بها الكافرين، وهذا عَجَبٌ مِنَ العَجَبِ رأيناه في التاريخ ونراه في عصرنا وستراه الأجيال القادمة رَأْيَ العين وحقَّ اليقين.

إنَّ الكثيرَ مِنَ الأُمَّةِ قد يَنْهَارُ فيُصبح حاله حال القِدْر القاعدة التي لا تستطيع دفع أيدي الآكلين، لكن الجيوب المجاهدة، وهمُ العُصْبَةُ المؤمنة هم الذين يتحقق بهم هذا القَدَر الإيماني التاريخي في كلِّ مراحل الزمن لِيمحق الله بهم الكافرين، ولذلك فَدُعَاةُ الاسْتِسْلاَمِ وإِلْقَاءِ السِّلاَحِ وَتَرْكِ الجِهَادِ عند اشتدادِ المحن وكثرة الجِراح والآلام والأذى همُ الجاهلون، وهؤلاء لا يحق لهم الدخول في المرتبة القرآنية ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾، لأنهم جهلةٌ بالتاريخ والقرآن، وأفئدتهم هَوَاء، لا تصلحُ قاماتهم الصغيرة لدخول بوابات الحدث القرآني العظيم.

إنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قامة الإيمان المُثلى في هذا الباب، حيث تعلمَ هذا من حبيبه المصطفى ﷺ، وإنَّ سيرته مع حرب الردة وبعث أُسامة رضي الله عنه لَتُنَبِئُ عن حالة الفِقْهِ الخاص الذي يحمله رجل التاريخ والإيمان، ومن هذه القامة المُثلى أخذ النَّاس بعده يتعادون في ظلها عند كلِّ محنة تجرب نفسها في هذه الأمة، مثل قُطُزْ، ونور الدين زِنْكِي، وصلاح الدين، وعز الدين القسام، وأحمد عرفان الشهيد، وعبد الله عزام، وأسماء أخرى نطوي عليها مخافة الرقباء، ورجاء صلاح قلوب أصحابها رضي الله عنهم بعدم قطعها بالمدح الذي نظنه فيهم.

هذا على وجهٍ من التفسير هو الأولى بالنظر، وأما من قال عن قوله تعالى: ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾. أي بما يُظْهِر المُنافقون من كُفْرِ قلوبهم عند هزيمة المؤمنين فيكون سبباً لعذابهم، فهو وجهٌ آخرٌ، لكن الأول أقرب منه والله أعلم، لأننا نرى أنَّ التاريخ يشهدُ للأول شهادة صِدقٍ لا محيدَ عنها وهو أنَّ كلَّ نصيبٍ للكافرين ضدَّ هذه الأُمَّة أعقبه محقٌ وقَطْعٌ لهم، لا يرد هذا إلاَّ كلّ جاهلٍ لا

[1] سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦ـ١٩٧.

بَصَرَ له ولا عِلْمَ عنده، وهذا فيه عِبرةٌ للمؤمنين حين حصول بعض النصيب للكافرين أن يعلموا أنَّ هذا من مكر الله بهم، ومن تمحيص الله لهم، فهو باب خير من جانبين، جانب الصَّبر وجانب اليقين، أما جانب الصَّبر فهو الذي يُقوي فيهم دافع الثبات والمُثابرة، ودافع اليقين أنَّ الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ، وبالتالي فإنَّ نَصْرَ الله آتٍ بعودة الميزان الحقِّ إلى نِصَابِهِ في عِزَّة المؤمنين وهزيمة الكافرين، ومن عجائب فقه السلف أنهم كلما كانوا يرون شدة البلاء قد كثر كلما رَجَوْا النَّصر، وعلموا أنه قد اقترب، وهذا كلّه من فقه القرآن الكريم، يُؤخذ نصاً من قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾[1]. فجعل ربُّنا شِدَّةَ البلاء، وإغلاقَ منافذ الأمل من أجواء العالمين علامة على مجيء النَّصر ونجاتهم من البلاء وإهلاك الكافرين، وأخذه ابن القيم رحمه الله من قوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[2]. قال: «إنَّ أمر الله تعالى لهؤلاء الثلاثة الأطهار بمفارقة زوجاتهم لهم دليلٌ أنَّ الفرج قد اقترب. وهكذا يعلم العاملين في هذا الباب أنَّ اليُسْرَ مَوْكُولٌ لُزُوماً بَعْدَ العُسْرِ، وكلما اشتد العُسر كان دليلاً أنَّ اليُسر آتٍ برحمة الله تعالى وفضله، وهكذا الحال ههنا، فإنَّ وقوع بعض النصيب للكافرين هو دليلٌ أنَّ نقمةَ الله عليهم آتيةٌ وهم أهلها والأحق بها، وفي هذا عِلْمٌ لأهل القرآن أنَّ الكافرين لِفُقْدَانِهِم هُدَى القرآن يجعلهم في غرور يدمر عليهم ما يبنون، ويخرب عليهم كل نتائج حصادهم مهما كان كبيراً».

لكن إنْ سَأَلَ سَائِلٌ، لماذا لا نرى هذا اليوم في الكافرين حيث عُلُوهم يزداد، وقَرْحُ المسلمين يتسع ويتعدد؟ فالجواب من وجوهٍ:-

أولهما: أنَّ التاريخ كالفضاء يرفض الخلاء، ولذلك فإنَّ ترك أهل الإسلام الإعداد أَفقدهم عُنْصُرَ الوِرَاثَةِ، وبالتالي فالموجود هو هو لعدم وجود الوراثة له.

وثانيهما: إنَّ هذا الوجود فيه من عوامل الضعف والهلكة الشيء الكثير، وما نراه اليوم من انهيارات داخلية لمصادمة حياتهم سنن الله في الخَلق والاجتماع والاقتصاد شيءٌ لا تخطئه عينٌ مُبْصِرَةٌ، وبمجرد وُجود طوائف جهاد قليلة تستثمر هذا الواقع نرى نتائج إيمانية هي أشبه بمحطات التاريخ الكُبرى التي تقفُ عندها الأجيال للاعتبار والنظر، فكيف لو كانت الأُمَّة بأغلبها من يمارس الجهاد ويحياه ويدفع نفسه في مَعَامِعِهِ؟! حينها بلا شك سنرى التحولات التاريخية الكُبرى، لكن إلى الله المُشتكى من أصحاب اللحى والعمائم وأدعياء الفكر ﴿ وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ

[1] سورة يوسف، الآية: ١١٠.
[2] سورة التوبة، الآية: ١١٨.

ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ ﴾[1]. قَوْلُ صِدْقٍ وفَصْلٍ، ودورة الحياة مع هذه القُرى المُعاصرة إنما تسير إلى نهايتها بفضل الله تعالى، ويُسرِّع هذه النهاية طائفة الجهاد والقتال التي وقفت اليوم وحدها في معركة الإيمان ضدَّ هذه القِوى الكافرة.

إنَّ المجاهدين هم فقط مَن يؤمن بهذه الآيات ويقفُ معها ويعِي صِدْقَ دلائلها، أما أُولئك الذين ابتلعتهم القُرى الظالمة، وصاروا إلى جوفها فإنَّ حالهم حالَ الجنين الذي لا يُبْصِرُ إلاَّ حبلَ السُّرَّةِ الذي يُغذي بطنه بالطعام وعقله بروائح الشرِّ وتعاليم الشيطان.

ليخرج السكارى من جوف هذه القُرى إلى خارجها ليبصروا بأعينهم خط سير هذه القُرى وحينها سيُرددون قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[3].

هنا مُراد الله تعالى من القُروح، وهي المقصد لهذه الحياة الدُّنيا كلّها، وهي أن يعلم النَّاس مُستقرهم بعد الموت من خلال اختبار أنفسهم في هذه الحياة.

هي تنبيهٌ فيه رِفْقٌ وَحُبٌ، وكأَنَّ السِّيَّاقَ يُوحِي أنَّ الجنَّة لكم لكن لابدَّ من الجهاد، ولابدَّ من الصَّبر على ناره ولأوائه ومُعاناته، فالمؤمنون يطلبون الجنَّة ويسيرون في طريقها ولكن قد ينسون أو يجهلون في لحظةٍ ما طبيعة وقدر هذا الطريق، فتأتي آيات الله تعالى تُذكرهم بما يجب علمه من العلم، فالجنَّة ليست بضاعة كاسدة ولا رخيصة، حتى تُؤخذ وتُنال بالراحة والدِّعة، كذلك تُبيِّن هذه الآية مُلائمة الجنَّة لقومٍ منهجهم الجهاد والصَّبر، فلا جنَّة بلا جهاد، ولا جنَّة بلا صبر، وحين يُوقِنُ المرءُ بهذا ثم يتأمل حياة النَّبيّ ﷺ إنَّ أمر الله تعالى لهؤلاء الثلاثة الأطهار بمفارقة زوجاتهم لهم دليلٌ أنَّ الفرج قد اقترب وأصحابه ﷺ يُدركون أنَّ الجنَّة التي أرادها ليس من نوع الجنَّة التي يريدها المُتأخرون، هذا إنْ كان في قلوبهم ذِكْرَى الدار الآخرة وهم يرسمون المناهج ويبدعون في الفكر والبناء، فإنَّ الأوائل لا يعرف لهم راحة إلاَّ من بعد جهاد، ولتكون هذه الراحة أخرى مع جهادٍ آخرٍ.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ هذا السؤال التعليمي، فيه التقرير للحقيقة، وفي الاستنكار لأيِّ مفهوم ضدّها أنَّ أقرب الطرق لجنَّة الله هي الجهاد والصَّبر إن وقع بسبب القروح، والمؤمنون لا يفرون من أقدارهم، بل هم يُواجهونها لأنها طريقهم إلى الجنَّة التي يسعون إليها، والذين يستهزؤون من المجاهدين في طلبهم الجنَّة إنما يستهزؤون بأهم رُكْنٍ من أركان الشخصية المُسلمة بعد رُكْنِ العبودية لله تعالى ألاَّ وهو رُكْن ذِكْرَى الدَّار الآخرة، فإنَّ هذا الدِّين ولا طريقته ولا قدره يستقيم مع الشهوات وحبِّ

---

[1] سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

[2] سورة الأعراف، الآيات: ٩٧-٩٩.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

الدُّنيا، ولا مع الخوف والجبن والبخل، ولا مع الكسل والعجز، ولكن هذا الدِّين يستقيم أمره مع القوم الذين يحبون الموت كما يحبُّ أعداء الله الحياة.

إنَّ الآيات الدَّالة على هذا المعنى القرآني العظيم كثيرة، وكلّها بلا استثناء كانت في مواطن الجهاد والصَّبر عليه، فتأمل قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1]. هذه آيةٌ من «آل عمران» وستأتي وقد قِيلَتْ بعد آيات موقعة حمراء الأسد.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[2]. هي في سورة «البقرة»، وجُعِلَتْ مقدمة لآية الإنفاق والتي تليها من قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾[3]. وإنَّ وضع آيات الجهاد خلال آيات الحج في سورة «البقرة»، أو وضع آيات الحج خلال آيات الجهاد ليعلم المسلمين معنى الحياة التي يجب عليهم أن يعيشوها، وإنَّ من قرائن القرآن أن يتفكر الناظر في سورة «الحج» كيف جعل الله آية الإذن بالجهاد في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾[4]. ثم عقب هذا بالوعد الإلهي بعد الإذن بالقتال وما سبقه بالهجرة بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾[5]. إذ جُعِلَتْ هذه الآيات بعد ذِكْرِ مناسك الحج صِدْقَ ما قُلْنَاهُ مِنْ أَنَّ حياة الأُمَّة إنما هو الجهاد في سبيل الله، ولا سبيل لأمانهم في الأرض، في عباداتهم ونُسكهم إلاَّ بالجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[6]. هذه آيةٌ قِيلَتْ في سورة «التوبة» بعد أنْ أمر الله نبيَّه والمؤمنين بقطع كلِّ علاقتهم مع محيطهم، ووُجوب مجاهدتهم جميعاً حتى يُقِيمُوا الصَّلاة ويُؤْتُوا الزَّكاة.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.
[2] سورة البقرة، الآية: ٢١٤.
[3] سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
[4] سورة الحج، الآيات: ٣٨-٤٠.
[5] سورة الحج، الآية: ٤١.
[6] سورة التوبة، الآية: ١٦.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾[1]. هذه آيةٌ في سورة «القتال» ـ محمد ـ وسورة «محمد» كل أجوائها وقضاياها تتعلَّقُ بالجهاد وحال المؤمنين معه وكذا حال المنافقين.

ولا أُريد الاستقصاء ولكن في هذه عِبرة لمتَعَبِدٍ يتقي ربَّه ويريد أن يُعِيدَ للقرآن الكريم جدته، ويُريد للأُمَّة أن تهتدي بهدي القرآن ليحصل لها ما حصل للجيل الصَّحابي القرآني الأول.

لكن هذه الآية الجليلة التي بين أيدينا قِيلَتْ بمناسبة القرح الذي أصاب الصَّحابة ﷺ في أُحد، فهي مُوَجَهَةٌ لأصحاب القُروح، أنِ امضُوا في جهادكم واصبروا عليه لأنَّ الجنَّة أمامكم، والساقط عن هذا الطريق بسبب الألم أو القُروح همُ الظالمون، ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[2]. لأنه ببقائكم على هذا الدرب يحصل محق الكافرين في الدُّنيا والآخرة، ويحصل لكم سبب دخول الجِنان.

هذه الآيات التي تقدمت من سورة «آل عمران» من قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾[4]. هي الجُرعة الأُولى من الشِّفاء بعد موقعة أُحد، جُرعة أخذت من التاريخ، ومن عرض حقيقته موقف الكافرين وآلامهم، ورحلت بهم إلى مُستقر الراحلين إلى جِنان الخُلد، وألقت بحكمة الوجود، وعِلَلِ الآلام، فأمرت ونهت وعبَّأت النفوس وقود عُدتها لمواصلة الطريق، فشحذت الهمم كأنَّ ما بهم ليس إلاَّ قضية سننية جارية، وليس أنتم إلاَّ حلقة من حلقاتها، فكانت رحلة عميقة الغَور، مُتشعبة الدلالات، تهدي الفِعل بما يحتاجه من موازين، وتشحذ النُّفوس بما تحتاجها من منشطات، وتنهى العقل والقلب والنفس واللسان من اقتراف التخذيل والوقوف والتباطؤ، فحين يلقي المؤمنون لهذه الرحلة أسماعهم، حينها يحصل الشِفاء، وتستقيم النفوس على سُوقها بلا مَيْلٍ ولا جَوْفٍ ولا ضُعْفٍ ولا تخاذُل، ولذلك لم يكن في هذه الآيات آية تقريع، ولا تنبيه على خطأ، ولا كشف لخلل، بل كانت بَلْسَمَ جِراحٍ، وغذاء روحٍ، حتَّى إذا تم كلّ هذا مال القرآن بعدها ليُزيل أخطاء النُّفوس والقلوب، ويكشف مواطن الزلل والخطأ، وذلك لأنَّ القرآن هو كلام الله لجنده، مُراده منهم أن يعودوا لنفس الطريق، فإذا وقفوا على جادتها نبههم إلى خطأ وقع سابقاً فلا يقربوه، وأرشدهم إلى زلل اقترفوه فلا يعودوا إليه، هذا هو منهجِ القرآن لا منهج القاعدين الذين سيأتي خبرهم بعد ذلك من الآيات، ولكن أجدُ نفسي مُستعجلاً بالقول: ما حال الكثير اليوم من أصحاب الألسنة الطويلة لو وقعت أُحد في يومهم؟ كيف سيتكلمون؟ وماذا سيقولون؟ وهل سيكون همهم أن يُعيدوا المجاهدين إلى جهادهم؟ أم أن جُلَّ أمرهم أن يهجر النَّاس هذا الطريق إلى طريق الدِعة والكسل والجُبن والخُنُوع؟. ومع ذلك فالكلُّ يقول: لا عِزَّةَ لنا إلاَّ بالعودة إلى الكتاب والسنَّة.

---

[1] سورة محمد، الآية: ٣١.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٤٢.

يا لجمال الشعارات وإغراءات كلماته الرائعة، ولكن يا لغربة القرآن اليوم بين أهله وأتباعه.

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[1].

إنَّ هذه الآية وما بعدها، وآياتٌ أخرى من القرآن تُعالج مُعضلة الإنسان الكبرى مع مشكلته الأزلية، مع موته.

الموت شكل حيرة إنسانية كبرى، يقف النَّاس جميعاً أمامه بلا فوارق علمية أو قُدرات، يصدمهم حيث لا خطوط ذهنية معه، ولا قياسات سابقة يمكنه أن يهتدي بها الباحث، وفيه مع هذا كلِّه معنى القهر لكلِّ إنجازاتهم التي تعطيهم معنى التفوق أو الغرور، فهو المظهر الثاني بعد الضعف الأول حين الولادة، حيث يكون الضعف مع شيءٍ من الإدراك ولذلك كان التعقل به مُؤلماً.

جاءت النُّبوَّة لحلِّ هذه المُعضلة، وهي من مشكلات الوجود الكبرى التي لا يمكن أن تحُل إلاَّ بخبرٍ غيبيٍّ مثل مشكلة القدر والإرادة الإنسانية، وكان الحل ممزوجاً مع حقيقة الإنسان وخضوعه لأمر الله الشرعي، فإحساس المرء بالفقر الذاتي أمام الموت داعٍ أكبر لإدراكه بوجوب خضوعه الشرعي لصاحب الغنى الذاتي وهو الله سبحانه وتعالى.

في آياتٍ مُتعددة تَنْبيهٌ أنَّ المتأخر عن السابق في الموت لا يعني خروجه عن القدر اللازم له بالموت، ففي سورة «الشعراء» يقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾[2]. وهي آية تنغص على المُترفين الغافلين حياتهم مهما كانت المُتع في حياتهم.

وفي سورة «الأحزاب» يقول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾[3]، وهي آيةٌ سنأتي إليها في سياق غزوة الأحزاب إن شاء الله تعالى.

وفي سورة «الأنبياء» يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ ﴾[4]؛ وفي سورة «البقرة»: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[5]. وهذه الآية هي أول آيةٍ في القرآن تتحدث عن الموت، وجعلت الرغبة في الموت محطة فارقة بين الصالحين وغيرهم من المشركين وبني إسرائيل.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٣.

[2] سورة الشعراء، الآيات: ٢٠٥-٢٠٧.

[3] سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

[4] سورة الأنبياء، الآيات: ١٠٨-١١١.

[5] سورة البقرة، الآية: ٩٦.

فالزمن في النَّعيم الدُّنيوي حالة ترقب لما بعده من السلب، وهذا فيه الكفاية لحصول الخوف وعدم الاطمئنان، وفُقدان اللذة وعدم الاستمتاع بها، ولذلك كان النَّبيّ ﷺ يقول: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً**»[1].

القرآن الكريم يُعالج قضية الموت ها هنا ضمن قضية الشهادة والجهاد في سبيل الله تعالى لارتباطها الوثيق، فالخوف من الموت عائقٌ من عوائقِ الجهاد، والأفكار الجاهلية عن الموت وقَدره مانعٌ من موانع محبة الشهادة وأسبابها والإقدام عليها، ولذلك يأتي الحل القرآني لهذه المُعضلة.

في هذه السورة «آل عمران»، وفي مواطن الحديث عن غزوة أُحد يتم البيان والرد على الأفكار الجاهلية، وعلى تصورات المُنافقين حول هؤلاء الذين لم يحصل لهمُ القتل بسبب الجهاد في سبيل الله تعالى، لأنَّ من صور أساليب المُنافقين في صَدِّ المؤمنين عن الجهاد هو تخويفهم بالموت، فإنْ وقع ذهب هؤلاء المُنافقون بتقريع المؤمنين أنَّ الجهاد هو سبب مقتلتهم وموتهم.

في هذه الآية يقول المُفسرون إنَّ كلمة الموت تعني هنا القتال في سبيل الله تعالى، لأنَّ الصَّحابة ﷺ الذين حضروا بدر تمنوا أن يحصل لهم قتال حتى يُعوضوا ما فاتهم من أجر الجهاد في بدر، وهذا أسلوبٌ من أسلوب العرب في تسمية الشيء باسم سببه، فلما كان القتال سبباً للموت سُمي باسمه، وهذا حق، ولكن لابدَّ من معنى ربَّاني في تسمية ما تمنوه موتاً، أي معنىً زائداً عن مجرد القتال، والذي أظنه أنَّ في هذه الآية تظاديب للصَّحابة وتعليم أنَّ الموت ليست أُمنية هنية، وأنَّ رحلة المؤمنين معه بالجهاد في سبيل الله قضية بلاء ومُعاناة وصبر، فإنَّ الكثير من النَّاس ومنهم المؤمنون يتمنون أموراً في وقت السعة والراحة، ولا يتصورون حقيقة ضدِّها حتى يعيشونها ويلمسونها عن قُربٍ، فإذا ذاقوها حقاً عرفوا وجهها الصحيح، والآية تتحدث عن رؤية الموت، إذاً قد يحصل الموت مرات مُتعددة وفي مواطن كثيرة حيث يلمسه المرء ويقتربُ منه فيحس به إحساس الواقع به، وهذا بلاءٌ متكررٌ سيعيشه المجاهد كثيراً في كلِّ موطنٍ من مواطن الجهاد وهي حواضر الموت مظانه، وخاصة حين تكون الريح على المؤمنين حينها يصبح اقتراب الموت كثيراً من النفوس.

الآية تحمل خبراً ليس فيه دلالةٌ واضحةٌ على مفهومٍ معينٍ، فهي لا تحمل دلالة ردٍّ ولا نهيٍ ولا أمرٍ ولا تشجيعٍ، لكن يكفي أنها تحمل دلالة شدَّة الموت وأسبابه وقسوته، وكذلك تحمل دلالة أنَّ الأماني شيءٌ في النفوس، وواقعها على هذه النفوس عند وقوعها شيءٌ آخر، وهذا فيه الكفاية لتعليم السابقين حكمة من حِكَمِ الحياة التي يجب أن لا ينقادوا بها للتالين الذين يعيشون قسوة الحياة من خلال الكلمة أو من خلال الأماني الجميلة أو الأحلام الوردية، فإنَّ هذه الآية عند أهل التفسير عِبرة للذين طلبوا الخروج من المدينة لملاقاة المشركين، يدفعهم لذلك الحماس، غير آبهين للموت

---

[1] البخاري في «كتاب الأيمان والنذور» باب كيف كانت يمين النبي ﷺ؟. حديث رقم: ٦٦٣٧. ومسلم ـ بلفظ قريب منه ـ «في كتاب الصلاة» باب النهي عن سبق الإمام بركوع أو سجود أو نحوهما. حديث رقم: ٤٢٦.

ولا شقائه، وإن كان هذا ليس من الغلط في شيءٍ، فالآية لا تنهاهم ولا تردعهم عن ذلك، لكن تُبيِّن لهم المُفارقة بين تمني الشيء وبين رؤيته، وهنا تبرز ضرورة الحُكماء وأهل الخبرة والتجربة، وهو معنى من معاني قوله تعالى: ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾. فإنَّ التمحيص هو عِلْمٌ وخِبْرَةٌ وحِكْمَةٌ للذين يبقون ويثبتون ويُتابعون مهمات الجهاد في سبيل الله تعالى.

سيُعاني أهل الخبرة دوماً من التالين، وربما سيُعَيَّرُوا في مواقف مُعينة بالخوف من الموت أو القتل، وربما يضطر السابقون في موقف من المواقف أن يرضخوا لرأي التالين كما رضخ رسول الله ﷺ لرأيهم بالخروج إلى أُحد، وستبقى هذه كالعلاقة الجدلية بين أمرين مُتعارضين، ولكن هذا لا يجعل أَحد الرأيين أولى من الآخر، فإنَّ الحماس والأماني هي وقود الحياة لكثير من المقامات والدرجات، وإنَّ الحكمة والخبرة ضرورتان من ضرورات النَّجاح، وليس أحدهما بأولى من الآخر، والحكيم يُوفق بينهما لتكون النتائج أقرب إلى النَّجاح والنَّصر، لكن إنْ وقع بعض القُروح فالتقريعُ لا يكون لأحدهما وإنما يكون للمعصية وحبِّ الدُّنيا كما سيأتي من الآيات.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾[1].

هذه أول قضيةٍ من قضايا محنَّة الموتِ في هذا الموطن، وهي محنَّة فُقدان الأحبة، وهي محنَّةٌ تهزُّ الوِجدان والقلب ثمَّ الفكر والعقل، ومصيبة الموت وصدمته تحتاج إلى عقلٍ ومُهْتَدٍ، ووِجْدانٍ صلبٍ في تلقي هذا الحدث الشديد، ومع هذا التقويم لمحنة الموت مع الأحبة يتم تقويم ارتباط الاعتقاد والتصور مع الإنسان، فالحقّ دائمٌ مُطلقٌ لا يرتبط بزمانٍ أو مكانٍ، بل هو اعتقادٌ حيٌّ يسيرُ فوقَ الزمان والمكان، وإلاَّ مهما علا شأنه هو شأنٌ عابرٌ محدودٌ بزمانه، ولذلك من التقويم والإرشاد أن يعلم المسلم أنَّ الحقَّ الذي يُؤمن به ليس خاضعاً للحوادث والأزمنة ولا بشخوص مرحلة من المراحل، ولذلك كان النموذج لهذه الأُمثولة هو رسولنا ﷺ.

هذا الرسول الذي اقترن الحقّ في أذهان الصَّحابة ﷺ بشخصه الكريم، إذ لم يعرفوا الحقَّ والهُدى والنُّور إلاَّ من خلاله، وكذلك تجسدت الأوامر والنهي في حياته وأفعاله، فكان ارتباط الحقِّ بشخصه عظيماً في الذهن والقلب، ومع ذلك يقول لهم الله تعالى أنَّ الحقَّ مطلقٌ فوق الزمان والمكان والأشخاص، وهذا الرسول زائلٌ لخضوعه لقوانين البشر وأحوالهم ونهايتهم، وذكرهم بأمثاله من إخوانه الأنبياء السابقين الذين رحلوا عن هذه الدُّنيا.

لقد جاء الخطاب بوصف محمد ﷺ «بالرسول» فهي مهمته وهي أشرف المُهمات وأعظمها، فهو يحمل لكم رسالة الله حتى إذا أنهى مهمته رحل عنكم كما رحل الرسل السابقون بعد أداء مهمتهم،

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

فهل امتثالكم لأمر الرسالة مربوطٌ بشخصه أم بحمل هذه الرسالة وأداء مهمتها وأوامرها كما أمركم الله تعالى؟.

يأتي الموت هنا قدراً لازِماً للبشر، غير خاضعٍ لمفهوم الحبِّ والكُرْهِ الإلهيان، فلا خروج لنوعِ الإنسان عنه مهما بلغ حب الله له، ولا استباق وتعجيل له مهما بلغ بُغض الله له، فهو قدرٌ لازمٌ ومحتومٌ في وقتٍ محددٍ معلومٍ، وموت إنسانٍ ما لا يعني بُطلان دعوته، وبقاء إنسانٍ ما في الحياة وإطالة عُمره لا يعني قبول الله له، فالموت ليس ميزاناً لشيءٍ من هذا، بل هو قَدَرٌ إنسانيٌّ يُصِيبُ أعظمَ البشر وأكفرَ البشر، ولا يُؤثر أبداً في ترجيح أحدِ الأمرين أو الشخصين، ووضع النَّبيّ ﷺ ضمن سِياق قدر الله في النُّبوة والأنبياء تذكيرٌ بسنن التاريخ وجريانها على الحياة وعدم تخلفها، وهو ارتقاءٌ بالصَّحابة ﷺ إلى وعيِّهم على التاريخ وعلى أنفسهم أنَّهم حلقة من حلقات التاريخ، وأنَّهم ضِمْنَ سياق حركة النُّبُوَّة على هذه الأرض، وهذا ما يريده القرآن من المسلمين وفي كثيرٍ من المواطن فيه.

الرسل قد يُقتلون ويموتون، هذا ظاهرٌ من هذه الآية، وربط الدعوة أو حلقة من حلقاتها ببقاء الدَّاعي الأول حتى تتحقق الدورة كاملها إلى النَّصر النهائي فَهْمٌ باطلٌ تبنتهُ بعض المذاهب والحركات والدعوات، فكان القدر أغلب منهم فمات الدَّاعي ولم يتحقق لهم ذلك، ولذلك كان الفاروق عمر ﷺ يظن أنَّ الرسول لن يموت حتى يقضي الله به على الكُفر في الأرض، فلما ماتَ شك في موته ووقع منه ما وقع، وهذا الذي حدث لعمر يقع منه لبعض الدُّعاة إذ يُربط شخص الدَّاعي بحلقة من حلقات النَّصر، ويجعل هذا الربط دليلاً على المنهج الذي يدعو إليه، وتتماهى شخصية هذا الدَّاعي حتى تكبر أكثر من الدعوة نفسها في نفوس الأتباع، وحين يقع القدر، وهو الأغلب لا الأفكار، يكتشف النَّاس خطأ الفهم والمنهج، وانحراف هذا الربط بين الأمرين، وهذا يعني أنَّ وقود الحماس الذي يجب أن يحمله الأتباع لا ينبغي أن يتأثر بفُقدان القادة والأئمة، بل يجب الإقدام كما كان زمن وجوده بلا تأثر ولا انقلاب.

نعم لقد جاء ضمانٌ إلهيٌّ بحماية النَّبيِّ ﷺ من القتل بقوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ** ﴾[1]. كما في سورة «المائدة» ولكن هذه الخصوصية لمعنى خاص من عدم القتل، وهي ليست لغيره، ولا تحميه من الموت، ومن حكم هذه الآية أنها حذرتهم من الانقلاب على الأعقاب، والذي وقع من الصَّحابة ﷺ في موقعة أُحد أنهم أُصيبوا بالذهول حين سمعوا بمقتل النَّبيِّ ﷺ، وبعضهم رمى سلاحه، فكان هذا هو الانقلاب على الأعقاب لا الردة عن الإسلام وتغيِّير الدِّين، وهو يعني أنَّ ترك الجهاد في الحزن المرضي والوهن النفسي انقلابٌ على المنهج وتغيِّيرٌ في السبيل والطريق.

[1] سورة المائدة، الآية: ٦٧.

ومَن تأملَ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ عَلِمَ صدقَ ما تقدم من القول، وهو أنَّ ترك الجهاد لا يضر هذا الدِّين بل يضر أصحابه الذين تخلوا عن نُصرته ومُتابعة الأعداء بالقَتل والقِتال والجهاد في سبيل الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ دلت على أنَّ الثبات على الطريق إنْ مات القائد أو المُعلم أو الدَّاعي هو شكرٌ عمليٌّ لله تعالى على هدايته لهذا الطريق، هذا وقد عُلِمَ أنَّ الشكر عملٌ بالجوارح كما هو عملٌ بالقلب واللسان، وفيها بشارةٌ أنَّ العاملين سيصلون إلى مُبتغاهم ما داموا ثابتين على ما هم عليه.

هذه الآية هي شعارُ كلِّ فئةٍ مجاهدةٍ يُصاب فيها قائدها أو بعض قادتها بالموت أو القتل، وهي لهذه الفئة مُبشرةٌ أنَّ الجزاء قادم ما داموا ثابتين، وأما إنْ حصل الوهن والضعف والانقلاب على الأعقاب فإنَّ دورة الجهاد ستذهب لغيرهم، وسيكون هؤلاء هم وُراثها وحملتها الجُدد، ولو رَبَطَ الناظر بين هذه الآية وبين الآيات الخاتمة في سورة «محمد» «القتال» رأى معاني جامعة بينهما يُصدق بعضها بعضاً، فالحمد لله ربِّ العالمين.

هذه أول قضيةٍ نفسيةٍ وعقليةٍ تُعالجها هذه الآية مع الموت، ونحن نُلاحظ أمراً جديراً بالاهتمام في طريقة القرآن في عرض القضايا اليقينية العقلية، فهو لا يعرضها في إطارها العقلي المجرد عن الإنسان بمجموعه، لأنَّ الإنسان ليس عقلاً فقط، ولا يعرضها كمسألة وِجدانية في إطار شِعريٍّ حالمٍ، لأنَّ الإنسان بمجموعه ليس كذلك، بل يعرضها في إطارٍ جامعٍ لما عليه الإنسان بكُليته، فهو عقلٌ وعاطفةٌ وإدراكٌ وشعورٌ، ومع هذا فهو يجمعها مع قضية الإنسان المسلم في هذه الحياة ومهمته الكبرى وهي مهمة الرسالة والشَّهادة على الخَلق، ويحيطها بإحاطةٍ تامةٍ لخاتمةٍ مهمةٍ وهي الأجر الأُخروي لأنَّ الأجر الأُخروي هو الركن الثالث من أركان الشخصية المُسلمة المُهتدية، ذلك بعد العبودية والمُتابعة، وهذا ما يجعل القرآن كتاب الإنسان، وكتاب الإيمان، وكتاب العبودية لله تعالى، ولكن أهم قضيةٍ في الإنسان هي نفسيته، إذ يُعلِّقُ القرآن هدايةَ المُهتدي على الرغبة والرهبة، ويُعلِّقُ ضلال الضال على الشهوة والهُدى، وأما الجانب العقلي فهو تَبَعٌ لذلك، لأنَّ القضايا القرآنية هي قضايا يقينية فِطرية، واجبةٌ في العقل، والمُعترض عليها معترضٌ بالهوى أو الغفلة أو الكِبر، وهي أُسس الضلال والكُفر، ومع أنَّ الموت قضية يومية ويقينية للإنسان إلاَّ أنَّ الإنسان يطغى وينسى، وطُغيانه ونِسيانه يمنعانه من الاعتبار والتحضير له، والمُهتدي هو مَن يعلمُ الموت على حقيقته ويعملُ لما بعده من خلال هذا الوجود الدُّنيوي القصير.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾[1].

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.

كانت الآية السابقة عرضاً للموت من خلال شخصية الحبيب المصطفى ﷺ، إذ كان الموت محنة من خلال تصور فُقدان النَّبيِّ ﷺ، ثم كانت هذه الآية التي تُقرر حقيقةً كليةً للموت، مع ارتباط الموت مع قضية الثواب والعقاب.

إنَّ الغمرات والمحن، وإنَّ القتال والجهاد، وإنَّ الشجاعة والإقدام، وإنَّ وقوف المرء أمام تِيار الصعَابِ والسيوف والرِماح لا يُغَيِّر حقيقةً أنَّ الموت كتاباً مقدراً لا يتقدم ولا يتأخر، فالموت ككلِّ مسائل القدر الإنساني قد تم الفراغ منها، وقد تمت كتابتها في لوحٍ سابقٍ على الخَلق ووجودهم، وهذه قضية لا يمكن لأحدٍ أن يجادل فيها ككلِّ مسائل القدر كالجبر والاختيار، والوجود والعدم، وما على المرء سِوى التسليم لخبر الغيْب، لأنَّ المرء لا يملك أيَّ بُرهانٍ يدفعها أو يقبلها، وهي إحدى محن الإنسان مع أخبار الرسل والأنبياء.

الموت حقيقةٌ مرئيةٌ، وهو حقيقةٌ قاهرةٌ لما يرغبه الإنسان وهما الخُلد والمُلك الدائم، وهما مدخل الشيطان مع أبينا آدم عليه السلام ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ** ﴿١٢٠﴾﴾[1]، ولكن هناك قضايا تتعلَّقُ بالموت لا يستطيع المرء أن يفسرها بنفسه، تماماً كقضية وجوده وخروجه لهذه الحياة، ومن هذه القضايا حقيقة الموت، وما هو؟ ومتى هو؟ وما بعده؟. أسئلة كثيرة يقف المرء العاقل المُهتدي مسلماً لخبر الغيْب الرحيم.

هذه الآية جعلتِ الموت فِعْلاً قَدَرياً، فهو مخلوقٌ من مخلوقات الله، ولا يقعُ إلاَّ بإذن الله، وقد فرغ الأمر منه في كتابٍ سابقٍ، وهذه مراتب الوجود القدري: أولاً العلم به، ثم كتابته، ثم الأخذ به، ثم خلقه، وحين نُعيد للأذهان سِياق هذه الآية مع الجهاد ومع موقعة أُحد، حينها نعلم جاهلية الذين يجعلون الجهاد سبباً للموت أو الهلكة أو فُقدان الأحبة، وهذه القاعدة القرآنية ستتوزع في آيات قادمة فيها التقريع للذين يعيبون على المجاهدين جهادهم لأنه أودى بهم إلى الموت والهلكة.

الآيات التي تتحدث عن الموت في القرآن كثيرةٌ، وليس هذا مجال استقصاؤها والحديث التفصيلي عنها، لكن ارتباط المفاهيم الجاهلية حول الموت مع ترك الجهاد في سبيل الله تعالى ارتباطٌ أساسيٌّ في حياة الشعوب المسلمة، وقد رأينا اليوم من أصحاب اللحى والعمائم وأهل الفكر والنظر من يُردده ويقوله، دون وعيٍ أنَّ الموتَ قَدَرٌ آتٍ لا يستطيعُ القاعد عنه الهروب، كما أنَّ المجاهد لا يستطيعُ أن يقدمه ولو للحظة واحدة.

حين يعي المسلم هذه القضية مع الموت، ومع ما هو أدنى منه كالسجن والبلاء، والجوع، والفقر، يُدرك أنَّ الجهاد منفذ للطاعة والعِزَّة، وأن ما يأتي من أقدارٍ على خِلاَفِ مَقْصَدِ المجاهد هي مكتوبة ستقع عليه شاء أم أبى، حينها يُقْبِلُ على تنفيذ أمر الله غير هيابٍ ولا مُتَوَجِسٍ من سُوءِ العاقبة في الدُّنيا.

---

[1] سورة طه، الآية: ١٢٠.

لكن ما هي العلاقة بين مفهوم الموت ـ في سياق الجهاد في سبيل الله، وقُروح أُحد ـ مع قضية الثواب والعقاب في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾** ﴾؟.

إنَّ من أساليب القرآن التربوية الرائعة أنها تجمع في الآية الواحدة الحقيقة والرد على ما يطرأ عليها من معانٍ أُخرى تشط عن هذه الحقيقة خلاف مقصدها، ولأَضْرِبَ على ذلك أمثلة:ـ

يقول الله تعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾** ﴾[1]. وهي آيةٌ يكثر استشهاد العلماء بها في تقرير حقيقة نفي المثلية عن الله في ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا قد وقع من بعضهم، فكان قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾** ﴾. ردٌّ على هذا الشطط الذاهب مع هذه الحقيقة خلاف مُرادها.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾** ﴾[2]. هذه الآية من سورة «الطلاق» تُقرر أثر التوكل في قلب المؤمن على قَدر المؤمن الدُّنيوي، وإنَّ توكله سببٌ لقضاء حوائجه، وصرفِ المكروهات عنه، ولكن هذه الحقيقة قد يخطئ النَّاس في فهمها على وجهها الصحيح، حين يظن أنَّ ارتباط التوكل كسببٍ لكفاية الله لعبده يُلغي مفهوم الصَّبر، فتوكل المرءِ لا يستلزم الحصول الفوري للنَّصر والفرج واليُسر، بل لابدَّ من أن يتعلم المؤمن أنَّ النتائج تخضعُ للقدر، وأنَّ حصول النَّصر والفرج واليُسر لابدَّ من تَأَهُلِ القدر اللازم لوقوعها، ولذلك قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾** ﴾، فالفرج والنَّصر واليسر لابدَّ من وقوعها للمتوكل لكن بحصول أسبابها القَدَرية التي يجريها الله في الخَلق، فلابدَّ للمؤمن مع التوكل من الصَّبر حتى تقع كفاية الله له.

يقول الله تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾** ﴾[3]. ففي هذه الآية جعل الله لولي المقتول سلطاناً على القاتل بالقود والقِصاص، ولكن إن شط في قصاصه فإنَّ الآية تردعه بقوله تعالى: ﴿ **فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ** ﴾.

والأمثلة على ذلك كثيرةٌ في القرآن، ومنها الأمر بالإحسان بعد الأمر بالعدل لأنه الأكمل والأحسن، وهو الأحب عند الله تعالى.

في هذه الآية التي بين أيدينا، عَلَّمَ الله عباده حقيقةَ الموت وقدره، لكن هل يُلغي هذا مفهوم الأسباب؟ سواءٌ كانت في الحياة الدُّنيا أو الحياة الآخرة؟.

---
[1] سورة الشورى، الآية: ١١.
[2] سورة الطلاق، الآية: ٣.
[3] سورة الإسراء، الآية: ٣٣.

إنَّ الدُّنيا كما الآخرة تخضعان للأسباب، ولا يُوجد شيءٌ بلا سببٍ، وخاصة الثواب والعقاب، وإنَّ الإنسان بفعله هو الذي يصنع مستقبله الدُّنيوي والأُخروي، فقدر الموت لا يعني غياب إرادة الإنسان وتأثيرها على حياته، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾، ومعنى هذه الآية جاء في آياتٍ مُتعددةٍ منها قوله تعالى في سورة «هود»: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

وقال تعالى في سورة «الإسراء»: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

وقال تعالى في سورة «الشورى»: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾[3].

فهذه الآيات هي قواعد العدل الإلهي في الدُّنيا والآخرة، وهي قواعد يخضع لها الإنسان، كلّ الإنسان، وهي قواعد سننية لا تُحابي المسلم في كسله وعجزه، ولا تظلم الكافر في جِده لمبتغاه ومطلبه، فهي تخضع النتائجَ الدنيوية والأُخروية لمراد الإنسان ضمن دائرة الإذن والمُراد الإلهي، وهذا مع ما فيه من قهرٍ إلهيٍ للبشر، إلاَّ أنَّ فيه تمام العدل الإلهي، وهذا ما أوجبه الله على نفسه بقوله في سورة «هود»: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ ﴾[4].

إنَّ سعي الكافرين نحو أهدافهم يُوصِلُهُمْ لِمُبْتَغَاهُمْ، وإنَّ جُبْنَ وَخَوَرَ وَكَسَلَ وَعَجْزَ المسلمين مِنْ أنْ يبذلوا وُسْعَهُمْ لتحقيقِ أهدافهم لا يَعْصِمْهُمْ من طَحْنِ سُنن الحياة لهم، وواقع المسلمين والكافرين يشهد لمقولة الحقِّ هذه بجلاءٍ ووضوحٍ، وهذا من أوجبِ الواجب أن يتعلمه المسلمون، لأنَّ الناظر اليوم يرى الجهالة متفشية في إدراك عموم القدر وسننه للخَلق أجمعين، لا فرقَ بين مسلمٍ وكافرٍ فيه، ولذلك لن نفتأ نسمع من دُعاة الحكمة والنظر في أُمَّتنا ـ زعموا ـ أنَّ طريق المسلمين في بناء قُوَّتهم ودولتهم، وإعادةِ عِزَّتِهِمْ تفترقُ عن طريق الأغيار، مع أنَّ القوة والدول حالة قَدَرية في مُسمَّاها، وإنما الاختلاف في القِيم فقط، والاختلاف في القِيم هو الذي يجعل هذه دولة مسلمة وهذه دولة كافرة، وهذا الأمر مع سهولته وبداهته في العقول لكن الجهالة به مُتَفَشِية.

---

[1] سورة هود، الآيتان: ١٥ـ١٦.
[2] سورة ألإسراء، الآيات: ١٨ـ٢٠.
[3] سورة الشورى، الآية: ٢٠.
[4] سورة هود، الآية: ٥٦.

قضيةٌ أُخرى تطرحها الآية من خلال ربطِ الموت في مفهوم الثواب والعقاب، وهو أنَّ اختيار المؤمن لأسبابِ الموت من خلال الجُهد والشَّهادة اختيارٌ يُناسبُ مهمته في هذه الحياة، فالقتال عند الأُمم الأُخرى ليس سبيلاً للآخرة، بل هو للدُّنيا، ولذلك هو اختيارٌ آنٍ يرتبط بحصول المنفعة الدُّنيوية، وأما الموت في سبيل الله فإنه لا يكون كذلك دون خُلوص صاحبه من إرادة الدُّنيا، ولذلك فإنَّ تذكير المؤمن وهو مُقْبِلٌ على الموت بأنَّ ما بعد الموت هو مُبتغاه هو تذكيرٌ يتناسب مع مهمته وهو أنَّ جهاده يجب أن يكون من أجل الدَّار الآخرة، وكذلك فراغ الإنسان من مفهوم الثواب والعقاب مع عدم خوفه من الموت يصنع منه آلةَ تدميرٍ لا إصلاحٍ، وهذا ليس مقصد الجهاد في سبيل الله تعالى، لأنَّ مهمةَ الجهاد هو إصلاح العالَم، لكن قانون الإصلاح الحقيقي هو قانون واقعي يستلزم الجهاد في سبيل الله تعالى بكلِّ آلامه وصعوباته، ولذلك كانت الفاصلة القرآنية في هذه الآية ـ وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ـ.

إذاً هذه قضيةٌ ثانيةٌ مع الموت وهي قضية ثبات موعد الموت في كتابٍ سابقٍ لا يتقدمه الإنسان ولا يتأخر عنه، وهي سلاحُ المؤمن في شجاعته وإقدامه وثباته على طريق الجهاد، وليتعلم أهل الإسلام أنَّ أعظم القضايا التربويَّة والعِلميَّة والنفسيَّة في القرآن الكريم إنما تُعرض من خلال مبحث الجهاد في سبيل الله تعالى، وآثاره ووقائعه مع أُمَّةِ محمد ﷺ، فقد رأينا سابقاً نماذج في غزوة بني النضير، وفي غزوة بدر وها هنا نرى أعظم القضايا تُطرح خلال حياة الأُمَّة مع الجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا يُعَلِّم مَن يطلب هداية القرآن أن يُدرك أنَّ البيئَةَ التربوية والعِلمية والعقدية لقضايا القرآن إنما هي بيئةُ الجهاد في سبيل الله تعالى لا غير، والتربويون يعلمون أنَّ علاقة الفكرة مع البيئة مهمة جداً، فالقرآن يُعَلِّمُ ويُفَسِّرُ ويَهْدِي في بيئةٍ تُلائِمُ هديه وعلومه وقضاياه، وهذه البيئة هي حياة الجهاد كما نرى.

قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[1].

هكذا يُستحضر التاريخ هنا، تاريخ الأنبياء وأتباعهم وسيرتهم من أجل تعليم وإرشاد هذه الأُمَّة المهدية بهداية القرآن الكريم، فما أصابكم يوم أُحد من القرح هو عين ما أصاب الأنبياء وأتباعهم من قبل، وهم مع ذلك أنبياء وأتباعهم ربَّانيُّون أحباب الله تعالى.

هذا الاستحضار مهمٌ في قضية التقويم والتربية، لأنَّ النموذج حين يُرفع للسالكين يكون حافِزاً لهم من أجل المُتابعة والمُثابرة، وخاصة حين يكون النموذج إنسانياً، فيه ما في الإنسان من شوقٍ، وفيه ما في الإنسان من ضعفٍ، وههنا يأتي النموذج متعدداً وكثيراً ولذلك لقوله: ﴿ وَكَأَيِّن ... ﴾

[1] سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦ـ١٤٨.

ولقوله تعالى: ﴿ رِبِّيُّونَ ﴾ على قولِ مَن قال من أهل التفسير فيها أنَّ معناها الجموع الكثيرة، والقرآن الكريم ليس معجزة بيانية فقط، ولا معجزة تشريعية وعلمية فقط، لكنه معجزٌ عزيزٌ في تربيةٍ أتباعه، لأنْ يُوقِفهم مواقف الارتفاع والعزة في لحظات القرح والألم والأذى، لا بشعورٍ مرضيٍ داخلي، بل بشعور علميٍ واعيٍ، ولذلك تكون نتائج هذه التربية مُذهلة في التاريخ وفي الحاضر وفي الإنسان والحياة، وهذه الآية هي آية شحنٍ نفسيٍ من خلال النموذج الإنساني الإيماني وذلك لحظة ألمه، وما يقول وماذا يشعر وماذا يعمل.

إنَّ دعاة ترك الجهاد كثيرون حين الهزيمة، وإنَّ حُجَجَهُمُ القائمة على الوهن والضعف والاستكانة كثيرةٌ على ألسنتهم، وإنَّ الأرضية التي تتلقى خطابهم مُهيأة للسَّماعِ والقبول، ولكن القرآن الكريم، وهو كلمة الله لأوليائه، تُعطي العلاج الإيماني الناجع في هذه اللحظة العصيبة الشاقة، وهو عِلاجٌ يَسْتَفِزُ الإرادة، ويُدَاوِي الجِراح، ويُعَبِئُ النُّفُوسَ وَقُوداً ونُوراً نحو أهدافها.

هذا العلاج حين يكون من التاريخ وعِبرته فإنَّ أول مقاصده أنْ يربطَ السامع له والمهتدي له مع سلسلة السند الإيماني، وهذه قضية مهمة تستحق الالتفات.

إنَّ أشدَّ ما يُعانيه المُبتلى لحظة ابتلاءه هو شعوره بالفراغ الذي يحيط به، فهو بعد المعركة متألمٌ من جراحه، ووحيدٌ في عراء هذا الألم مع إحباط الهزيمة، وهو شعورٌ مدوٍ بعُمْقِه في داخل الإنسان، بخلاف النَّصر، فإنَّ النَّصر شعورٌ بالابتلاء والامتلاك، وذلك كالعائد من سوقه ومتجره وقد امتلأ بالربح الوفير، أما المهزوم فهو فارغ اليد، فارغ النفس، لا يشعر أنَّ أحداً يحس به أو يَأْبَهُ لوجوده، وكأنه لا شيء، وهذا يحس به كذلك المُبتلى في سبيل الله تعالى بأنواع الابتلاءات كالسجن مثلاً، فإنه يشعر لحظة رميه في زنزانته بالانقطاع والوحدة والفراغ، وهذا من أشدِّ أنواع الألم الذي يُلاقيه الإنسان، فحين يعلمِ المرءُ المجاهدُ والمُبتلى بسبب جهاده أنه موصول النسب مع التاريخ، وموصول الحبال مع سند الرجال والذي هو حلقة من حلقاته فإنَّ هذا يملأ فراغ الوحدة التي تصنعها الآلام والجِراحات التي يعيشها، ولذلك فتذكير المسلمين بعد أُحد بسندهم التاريخي وانتمائهم لسلف ماضين يمنع عنهم مشاعر الانقطاع، ويرد في نفوسهم الفراغ المُؤْلِم، فيقع الإنقاذ من خلال ربطهم بحلقة التاريخ الربَّاني المُهتدي.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ وفي القراءة الأُخرى المشهورة[1]: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قُتِـلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾، فهذه سيرة النُّبُوَّةِ أولاً، سيرة النَّبِيِّ المُقاتل، وهي سيرة النَّبيِّ الذي يقذف أتباعه كذلك للقتل، فهي النُّبُوَّة، وهي سنتها، وسنَّة أهلها وأتباعها، وسِمَةٌ من سِمَاتِهِم، يُقْتَدَى بها ويَسِيرُ التابعون على هديها، وهي سيرة محمد ﷺ، وهي هَدْيُهُ وطَرِيقتُه وحياته، لكن هل كان هناك

---

[1] وهي قراءة نافعٍ وابن جُبير وأبي عمرو ويعقوب. وهي قراءة ابن عباس واختارها أبو حاتم. «الجامع لأحكام القرآن» للإمام القرطبي، الجزء الرابع، ص ١٤٧ـ١٤٨ طبعة دار الكتب العلمية.

مَن طلب تغيِّير هذه السنَّة واستبدالها؟ نعم لقد كان وقالوا: ﴿ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[1]. واليوم حيث لا نُبُوَّة يقولها أصحاب عمائم ولحى ودُعاة فكر للمجاهدين، بل يقولون لهم أسوأ منها: اقعدوا وارضواْ بالخِزي والعار والذل والهوان.

هذه الآية تكشفُ سِمَة من سِمَاتِ النّبُوَّة الحقيقية، وهي سِمَة رَحِيمَة على أتباعها، رءوفة بأحبابها، كما وقع للنَّبِيِّ ﷺ حين أرسل حبيبه جعفر بن أبي طالب وقد قدم إليه بعد فِراقٍ طويلٍ من الحبشة، فأرسله إلى مُؤْتَة ليُقْتَلَ في سبيل الله هناك، أي إنه أرسله لينال أعظم هدية يمنحها هذا النَّبي لواحدٍ من أحبابه في أُمَّتِهِ، وهي الشهادة في سبيل الله، وهكذا يكون الجهاد في الفقه القرآني، وفي فقه النُّبُوَّة رحمة للأُمَّة حتى في وقوع القتل فيها، لأنَّ هذا القتل شهادة محبوبة عند الله تعالى، وليس كما يُصوره المُخنثون النوكى أنَّ القتل في سبيل الله خسارة للأُمَّة، فهؤلاء لا يعلمون أنَّ الأُمَّةَ المُسلمة إن لم يمتْ شبابها في سبيل الله تعالى ماتوا في سبيل الشيطان كما يشهد لذلك واقعنا.

شخصية النَّبيِّ ﷺ في القرآن بحاجةٍ لفقهٍ جديدٍ، وتجديدٍ جديدٍ، لأنَّ خطباءَ الجُبْنِ والخُورِ قد حرقوا الكثير من بخورهم الفاسد، فعميت بسببه الأبصار والعقول؛ وعلى الأُمَّة المُهتديَّة أنْ تَرْجُمَ هؤلاء وتلعنهم لأنهم يحرمونهم ميراث الأنبياء، وسلوك سيرتهم وطريقتهم، وإنَّ أيَّ فقهٍ مزعومٍ يلقي بكلمات الصدِّ ضدَّ الجهاد، إنما هو فقهٌ ضالٌ منحرفٌ خبيثٌ، ولا يقوله إلاَّ جبانٌ أو جاهلٌ أو مأجورٌ.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ لقد قُوتلت جماعات كثيرة من أتباع الأنبياء، قُوتلوا في سبيل الله وفي حروب الأنبياء ضدَّ أعدائهم ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ ﴾.

سأذكر عند كلِّ زاوية وعند كلِّ بيانٍ أنَّ هذا هو فقه القرآن، لأنَّ البناء النفسي في القرآن الكريم هو أهم قضايا البناء، وهو فقه القرآن الحقيقي، وهو الفقه الذي يحقق الشعار واقعاً أننا أُمَّةً أعزنا الله بالقرآن ولا عزَّة لنا مرة أُخرى إلاَّ بالقرآن، ومن غير البناء النفسي هذا فإنَّ مجرد تغيِّير الأفكار كما يظن بعض الدُّعاة اليوم إنما يصنع رؤوساً أكبر من قِباب المساجد بأرجلٍ أشبه بأعواد الثقاب، وإنَّ هذا البناء النفسي ليس له مجالٌ ولا بيئةٌ ولا تطبيقٌ إلاَّ بالجهاد في سبيل الله، وأنْ تحيا الأُمَّة على وقع القتل والقتال، مع كلِّ الظروف، مع القوة والضعف، وحين تكون بدر وحين تكون أُحد، فالجهاد حياة هذه الأُمَّة، وهو أنفاسها، وهو وقودها، وهو دثارها، فلا تحيا إلاَّ به، ولا يموت أهلها إلاَّ به، وبهذا تتحقق في هذه الأُمَّة صفتة الربَّانيَّة، وبهذا يحصل لها الشَّهادة على الخَلق.

﴿ قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾:-

فما وهنوا في مُواصلة ومُلاحقة أعداء الله أينما كانوا.

[1] سورة المائدة، الآية: ٢٤.

وما ضعفوا في إرادتهم وعزائمهم في بلوغ أهدافهم ومطالبهم.

وما استكانوا في عِزتهم وشعورهم الاستعلاء على عدوِّهم حتى في لحظة جِراحاتهم وقُروحهم.

أيُّ دينٍ عظيمٍ هذا يصنعُ هذه النُّفوس في أتباعه؟!.

هل هناك كتابٌ لأُمَّةٍ مِن الأُمم يقول لها هذا الوعظ وهذه الحِكَمِ الجليلة العظيمة؟.

إنه وعظٌ يبعث الروح والعزيمة في الرميم البالية، وفي الأبدان الكسيحة الراقدة، ويُوقِد شعلة الإرادة في الهمم الكسولة الخاملة، ومع ذلك فوُعاظنا وفُقهاؤنا يُقيِّدون أرجل الإيمان المُنطلقة إلى أهدافها، ويحطمون الإرادات التي شاقت إلى الشَّهادة ولقاء الله. فمَن هو أهدى سبيلاً وأقوم ديناً يا أُمَّةَ الإسلام؟!.

هذه صفة الأنبياء، مُقاتلون في سبيل الله، يحملون الكلمة البليغة، والحِكمة الإنسانية الرقيقة، وهم كذلك يحملون أسلحتهم، ويلبسون لأمتهم، ويُعبئون صفوف الأجناد، ويُقوون الصفوف لمواطن الجهاد، ويصرخون صرخات الحرب والقتال، ويضربون هامات الطواغيت بالسيوف والحِراب، وهذه صفات أتباعهم، يُقاتلون، ويَقتلون، ويجرحون، ويُفارقون ساحات الوغى وقد فقدوا أحبتهم، وفقدوا بعض أجسادهم، فإذا انقلبوا إلى أهلهم، عادوا لعُدَّةٍ جديدةٍ ولحربٍ جديدةٍ، فلا وهن، لأنهم في طريق الحقِّ، وفي سبيل الله، ولا يعدون أنَّ فُقدان بعضهم وجِراحات بعضهم ضعفاً، بل هي ضرورات الطريق الذي سلكوه، ولا يتخاذلون، بل عزائمهم ما زالت في جدتها وقُوتها، لأنهمُ المؤمنون، وما أصابهم من القتل والجراح لا يُغَيِّر حقيقة أنهم أهل حقٍّ، وأنَّ طريق الجهاد في سبيل الله هي الحقّ، وأنَّ ما يسمعوه من المُخذلين والجاهلين هو كلام منافقين، ومرضى، وطريق الإيمان لا يصلح لهؤلاء المُنافقين والمرضى.

هؤلاء الذين لا يهنون في ابتغاء الأعداء بعد القُروح والجِراح، ولا يشفعون في عزائمهم وإراداتهم للجهاد في سبيل الله تعالى، ولا يفقدون مشاعر العزَّة الإيمانية التي يعتقدونها همُ الصابرون الصَّبر المحبوب عند الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾. وغير ذلك إنما هو صبر البهائم، وهو صبر المُسْتَنْكِنِين الضُّعفاء المخذولين في إرادتهم، وهو الصَّبر الذي يدعو إليه اليوم البعض والاكتفاء بالدُّعاء وانتظارِ الفَرج الغيبي الذي لا يأتي على غير أهله، فالله حين قال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]. قال بعدها، وهو من تقويم الشطط لمن يفهم مُدافعة الله عن المؤمنين على غير وجهها السنني الحكيم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾[2]. ذلك لأنَّ الله لا يُدافع عن الذين يعصونه بترك الجهاد في سبيل الله،

---

[1] سورة الحج، الآية: ٣٨.

[2] سورة الحج، الآية: ٣٩.

ويتركون الأخذ على يد الظالم، فإنَّ مَن اعتقد هذا فإنما يطلب أنْ يُغَيِّر الله سنته والله يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾[1].

إنَّ هذه الآية ردٌّ على الجَبرية التي صارت منهجاً لجموع المسلمين، وَرَفَعَ الدعوة إليها مشايخ يدعون إلى العودة إلى كتاب الله والسنَّة ـ زعموا ـ، فإنَّ الصَّبر الذي يدعو إليه القرآن أُمَّة الإسلام هو الصَّبر على أداء الأوامر الشرعية والثَّبات عليها وتحمل ما يُلاقونه في سبيل ذلك، وليس الصَّبر على ظُلم الظالمين، وإفساد المُفسدين، فإنَّ هذا صبرٌ لا يُعرف في الكتاب والسنَّة، بل هو صبرُ البهائم لا صبرَ المؤمنين.

هذه الآية ردٌّ على من يُخَوِّفُ المجاهدين بالقتل والموت، والآيات التالية شارحةٌ لهذا المعنى، لكن ليكن ردُّ المجاهدين على القول إنَّ الهزائم لا تقعُ للمؤمنين، ولا الصَّادقين، ولا لأتباع الأنبياء بهذه الآية: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ ﴾، فوُقُوعَ الهزيمة في الأنبياء وأتباعِهِم لا يعني ما يُريده المُنافقون والمرضى ودُعاة الطهارة الوهمية.

لقد شرحتِ الآية موقفَ قلوبهم ونفوسهم وعقولهم، فجاءت الآية التالية شارحةً لمقالات الإيمان التي صدرت عنهم.

﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

فهذا هو قولهم، وهو موقف الذي يثبت على الطريق، ويلزمها دون غيرها، ولكن يُراجع أداءه فيها، ويُقَيِّم سلوكه في مواقفها وأحداثها، لا ليُغَيِّر الطريق والمنهج، ولكن ليُحَسِّنَ أداءَهُ ويَتَجَنَبَ أخطاءه.

لقد عَلِمَ المُعانون لرحلة الجهاد والبلاء في سبيل الله تعالى أنَّ ضبط الأقوال إيمانياً عند الشدائد أمرٌ ليس هَيِّناً، فإنَّ الشيطان يزع النُّفوس لكلمات غير مهدية، ولكن ثبات الجِنان وثقتها بالله تعالى، وتحديها لهذه الوساوس تُخرج الكلمات الإيمانية التي تُعبر عن هذا الثَّبات والثِّقة، وهي كلمات تُعلن أنَّ النَّصر كان حليفَ الإيمانِ ضدَّ الشيطان ونوازعه، وهذا الصِّراع يراه الإنسان المؤمن في كلِّ طَوْرٍ مِن أَطْوَارِ الحياة وأحداثها الكبار، ولذلك كانت مقالات الإنسان وخروجها على لسانه عند المحن والابتلاءات ليس مجرد ألفاظٍ وحركاتٍ، بل هي تعبيرٌ عن صِرَاعٍ شديدٍ وحادٍ في النفس، وكلّ كلمة تخرج تعني أنَّ هذه الكلمة هي التي انتصرت على ضدِّها، وهي الأقوى في نفس صاحبها، وهذا جانبٌ من جوانب الجهاد الذي يحيَّاه النَّاس في حياتهم، فقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ... ﴾ هو شهادةٌ لهم أنَّ هؤلاء المُهتدين ـ الربَّانيِّين ـ لم ينسبوا حصول القرح إلاَّ لأدائهم وأعمالهم، فلم

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٦٢.

يتهموا الله تعالى في وعده، ولم يتهموا دين الله تعالى، ولم يتهموا الجهاد وكونه الطريق الذي سلكوه أنه خطأ في الاختيار، بل راجعوا حُسْنَ علاقتهم بالله تعالى - رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا -، «ومغفرة الذنب» هي المقصد الأول الذي يفقهه المُهتدي وبالتالي يسعى لحصوله حين يعرف نِعمة الإيمان، فهؤلاء السحرة الذين استجابوا لدعوة موسى عليه السلام في موقفٍ إيمانيٍّ فريدٍ في التاريخ كان مطلبهم الأول حين حصلت لهم الهداية أنهم طلبوا أن يغفر الله لهم ذنوبهم كما قال تعالى في سورة «الشعراء» على لسانهم بعد سماعهم تهديد ووعيد فرعون: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾[1]، وهذا ما فقهته طائفة الجن الذين استمعوا لرسول الله ﷺ بعد أن تلاَ عليهم القرآن كما قال تعالى في سورة «الأحقاف» على لسانهم وهم يدعون قومهم لإجابة محمد ﷺ: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[2]، فمغفرةٌ لذنوبٍ هي أعظم النعم يوم القيامة، وقد ذُكِرت هذه النعمة في مواطن عِدة في القرآن الكريم كما في سورة «محمد»، وذلك بعد أنْ ذكر الله تعالى صفة الجنَّة ونعيمها وما فيها من الأنهار فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾[3]. وفي سورة «التغابن» كذلك جعلها الله نتيجةً للإيمانِ وعَمَلِ الصالحات فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾[4]، وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم، يُدْرِكُ به المُهتدي قيمة هذه النعمة العظيمة، ولذلك كان من مِنَّة الله تعالى على رسوله ﷺ في سورة «الانشراح» أنْ قال له سبحانه وتعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾[5]. فإنَّ الذنوب مُرهقة للنفوس في كلِّ جوانبها العِلميَّة والعقليَّة والنفسيَّة، لا يعرفُ هذا إلاَّ المُهتدون، ولذلك كان من نتيجة المعصية التي اقترفها ابن آدم الأول بقتل أخيه أنْ سلب الله تعالى منه هداية عقله حتى صار الغُراب أهدى منه في هذا الباب فقال سبحانه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾[6]. أي ندم على ذهاب عقله بسبب المعصية، وفي الآية التي قبلها حين ذكر قتله لأخيه أنْ قال سبحانه: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[7] أي خسر أخاه، ولذلك فالذنوب نقصٌ في العقل وإرهاقٌ للنُّفوس والأبدان.

---

1 سورة الشعراء، الآية: ٥١.
2 سورة الأحقاف، الآية: ٣١.
3 سورة محمد، الآية: ١٥.
4 سورة التغابن، الآية: ٩.
5 سورة الشرح، الآية: ٢.
6 سورة المائدة، الآية: ٣١.
7 سورة المائدة، الآية: ٣٠.

فهؤلاء ـ الربِّيُّونَ ـ علموا هذا، فسألوا الله أن يُكَفِّرَ عنهم سيئاتهم ويغفرَ لهم ذنوبهم، وقد تقدم في كلامٍ سابقٍ أنَّ هذا لا يستلزمُ وُجُوباً وُقُوعَ الذنب، لكن المسلم المُهتدي يعلم أنَّ الجهلَ ذنبٌ وأنَّ الضُعْفَ ذنبٌ كما أنَّ المعصيةَ ذنبٌ، فهو يطلبُ مغفرةَ ذلك من الله تعالى.

﴿ وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾.

والإسراف هو التفريط في الشيء، وهو ضدُّ الإحكام والإتقان، فهؤلاء المهديُّون يطلبون من الله أن يغفرَ لهم إسرافهم وتفريطهم في أمرهم، وهو دليلٌ أنَّ الذنوب الدينية من المعاصي شأنها عند المسلم مثل الذنوب الدُّنيويَّة من عدم الإتقانِ والإحْكَامِ، وكِلاَهُمَا يستوجبُ المغفرة والتكفير، لأنَّ كِلَيْهِمَا ضدّ أمر الله تعالى، وكِلاَهُمَا يُوقِع في الخذلان والقَرح والهزيمة، وهناك من أهل العلم من جعل الذنوب الأولى هي الصغائر وجعل الإسراف هنا في اقتراف الكبائر، والأمر أوسع من ذلك، فإنَّ نسبةَ الأمر إليهم يجعل هذا الإسراف والتفريط في أمر النَّاس وحياتهم وشؤونهم، وهذا من فقه القرآن وهو أنَّ الهزائم تُصِيبُ الأُمَّة بذنوبها الدينية وتخليها عن شريعة ربِّها، وكذلك لعدم إتقانها لشؤون حياتها وأُمور تدبيرها، وهذا الذي يشهد له التاريخ والواقع.

وهذا فيه دليلٌ على نقد المهديِّين المجاهدين لأنفسهم، ومُراجعتهم لما هُم عليه دوماً، فإنَّ القرآن يُعَلِّقُ كلّ ما يُصِيبُ الإنسانَ لما يعمل به هو، ولما تقترفه يداه، وأمرُ النقد الذاتي شديدٌ على النفس، شديدٌ على الفئات والجماعات، لكنه هو الطريق القويم لعدم تِكْرَارِ الأخطاء، ولتصويبِ الطريقِ، ولتحقيقِ الأهدافِ، فالتوبة عن الذنوب يعني الإقرار بها، والخروج عنها، والتعهد بعدم تِكرارها، وعندما تكون الذنوب تتعلَّقُ بالأُمَّة فإنَّ التوبة عنها لا يكون بالسرِّ، بل بالإصلاح العلني والتقويم العملي.

لكن ها هنا تنبيهٌ لابدَّ من بيانه لأهميته، وهو أنَّ الذين يخوضون في أُمور الأُمَّةِ إنما هم أهل الكفاية فيها، وليس كلّ أحد، كما قال تعالى في سورة «النساء» واصفاً المنافقين: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾[1]. فأمرهم الله في أمور الأمن العام والقضايا الكبيرة أن يردوها إلى قادتِهم وأُمرائِهم وأُوْلِي الشأن منهم، ولا يجعلون الخوض فيه سبباً لدخول الشيطان والفُرقة وحصول التخذيل كما يفعل المُنافقون هذا تحت باب النقد الذاتي ـ زعموا ـ.

﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

فهل يقول هذا مَن وَلَّى الدُّبر؟ وهل يقوله من تبدَّلَ وتغيَّر، واستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟.

[1] سورة النساء، الآية: ٨٣.

إنَّ هذا الدُّعاء لا يدعو به إلاَّ من رَبَطَ قَوَائِمَهُ في مَصَافِ المجاهدين، ولا يدعو به إلاَّ مَن أقام إقامة الصابرين في أماكنهم، لا يُبدلون ولا يُغيِّرون، ولا ييأسون من طُول الطريق، ولا يتعبون من دعوتها.

إنهم ثبتوا، ثم دَعَواْ الله أن يُثبتهم، وصبروا وَدَعَواْ الله أن يُصبرهم، ووقفوا مواقف النَّصر وَدَعَواْ الله أن ينصرهم، فهذا منهج المهديِّين الصالحين، وهو منهجُ المجاهدين المحمودين في دين الله تعالى، أما أُولئك الذي يدعون إلى إصلاح الأمر ونقد الذات وتقويم المسيرة، وقد خرجوا من مواطن الجهاد، وذهبوا إلى مواطن السبِّ والقَدح في المجاهدين فأُولئك لا يحق لهم القول، فهم مُنافقون لا يُريدون الخير للأُمَّة، ولا يريدون الإصلاح والإعمار، بل هم مُثبطون، وسيستخدمهم الكُفر كما يستخدم ورق الأوساخ حتى إذا انتهى منهم ألقاهم حيث مُستقرهم الحقيقي، أي في زبالة الحياة والتاريخ، وهؤلاء وإنْ رفعوا شِعار الإصلاح فهُم في الحقيقة جُبناء مخذولون، لأنَّ كلماتهم ومواعظهم لا تمدُّ طريق الجهاد، ولا تُصلح طريقه، ولا تُرَمِمُ نَقَائِصَهُ، بل هي تمدُّ الكُفر بقوةٍ، وتخذل المؤمنين المجاهدين، وتكشفُ العورات، وتُعَمِقُ الجِراحَ في النَّفس والبدن، وقد كثر هؤلاء اليوم، يدفع بعضهم الجبن حتى يأمن بطشَ الكُفر به، وبعضهم الحسد أنْ رفع الله المجاهدين وقد توارى هو بعيداً في منطقة الظلِّ لتخليهم عن ذروة سنام الإسلام، وهم يخرجون على النَّاس في وسائل إعلامهم، حيث ترتفعُ فوقَ كلماتهم شعارات الكُفر وعناوين أهل النِّفاق ضدَّ الجهاد والمجاهدين، فيجلسُ أحدهم جلسة المنافقين ليَفْجُرَ فُجور الفاسقين في كشفِ العورات، وثَلْبِ المناقب، وطعن النيَّات الصالحة، ويزيِّنُ له الشيطان أنه يريد الإصلاح، مع أنه يعلم من نفسه أنه جبان أو حسود أو حقود، أو قد اجتمع له ذلك كلَّه، حيث أصابه سعار الكلاب فذهبَ ينبح في كلِّ وادٍ.

إنَّ التوبة من الهزيمة إنْ وقعت، هو البقاء على غرز المؤمنين، والثبات في مواطن الجهاد، وتقويم الأخطاء وهو على نفس المسيرة والدرب، والصَّبر على المكاره، وعلى لأواء[1] الطريق وصُعوبتها، فهذا صبرٌ يحبه الله تعالى، ويرضى عن أهله، وهم وُرَّاثُ الأرض حقاً، وهم وُرَّاثُ الأنبياء وأصحابهم.

إنَّ المُنقلب على عقبيه لا يحق له أن يقول لربِّه في لحظة خلوته ﴿ **وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ** ﴾. وإنَّ الذي يُولِّي الدُّبر ويخلعُ عنه الأعذار بينه وبين الله لا يقول هذا الدُّعاء ولا يقدر أن يقوله بينه وبين عَلاَمِ الغيوب، وكذا الأُمَّة التي ذهبت في وِدْيَانِ الأهواء والشهوات لا يحق لها أن تدعوا بهذا

[1] اللأْواء: الشِّدة، وفي الحديث: «من كان له ثلاثُ بناتٍ فصَبَرَ على لأْوائهنَّ كُنَّ له حجابًا من النَّار»؛ ويقولون: فَعَل ذلك بعد لأْيٍ، أي شِدَّة.

الدُّعاء، لأنه دعاء الذين دعوا قبله بقولهم: ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ فأين أقدام هؤلاء حتى يقولوا هذا القول؟!.

هذه رحلة هذه الأُمَّة، وهذا قدرها، وهذه حياتها، حتى إذا فرغتْ من جهادٍ نصبتْ نفسها لجهادٍ آخرٍ، وحتى إذا انتهتْ من قضيةٍ رمتْ بأبصارها إلى قضيةٍ أُخرى، ولكن إنْ هي جلستْ وأخلدتْ للشهوات فإنَّ أعداءها لن يتركوها بل هم سيأتون إليها حتى يتحقق الوعد الإلهي بأنَّ الدفع هو سنَّة الله تعالى في هذه الحياة، لا تخلو الحياة منها، والهارب منها كالهارب من قدره إذ سيجده أمامه في كلِّ منعطفٍ وعند كلِّ بابٍ.

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾[1].

هذه هي النتيجة المحققة للقضايا المتقدمة:-

- إصلاحٌ بينهم وبين الله بالتوبة.
- إصلاحٌ لأُمور حياتهم وجهادهم وأحكامها على وجهها السنني الصحيح.
- ثباتٌ على طريق الجهاد والمُدافعة، وقِيام في مواطنه دون مفارقة.
- استمداد القوة من مصدرها وهو الله تعالى بعد استعداد الوِعاء لها.

بعد هذا تكون النتيجة السننية الرحيمة لأهل الإيمان، حيث يأتيهم مطلبهم الذي يحبه لهم ويحبونه لأنفسهم: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا ﴾ بالنَّصر والتمكين، وهزيمةِ أعدائهم، وانقلابِ الحال من قُروحٍ فيهم إلى قُروحٍ في أعدائهم، ومن أَلَمٍ فيهم إلى أَلَمٍ في أعدائهم.

إنه ثواب، أي أجراً، والأجر لا يكون بلا سبب مُوجِبٍ له، ولا يقعُ بلا عملٍ يُؤَدِيهِ صاحبه حتى يستحقه، فبعد أداءِ العمل يكون الثواب المُلائم له، وهو النَّصر في الدُّنيا، وهو نصرٌ يُلاءِم الحال، ويُلاءِم سننه، لا ما يتصوره الحالمون من نصرٍ يتم فيه هلاك الأعداء وقطعهم بالكُلية ليفرغوا بعد ذلك إلى شهواتهم وراحتهم، بل هو نصرٌ يكون عُدَّة لمعركةٍ أُخرى ونصر قادم، وحياة أُخرى قادمة مع الجهاد.

وهناك قاعدةٌ سننية لا تتبدل ولا تتغيَّر، وهو أنَّ عَمَلَ السماء إنما هو ظل لما يقع من الإنسان وعمله في الأرض كقوله ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «**لاَ تُوكِي، فَيُوكَى عَلَيْكِ**»[2]، وقوله ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ..**»[3]. وهذا من تمام عدل الله تعالى وحِكمته في الخَلق، وبهذا

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

[2] البخاري في «كتاب الزكاة» باب التحريضِ على الصَّدقةِ والشفاعةِ فيها. حديث رقم: ١٤٣٣. أطرافه في: ١٤٣٤، ٢٥٩٠، ٢٥٩١. ومسلم في «كتاب الزكاة» باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء» حديث رقم: ١٠٢٩.

[3] البخاري في «كتاب التفسير» باب وكان عرشه على الماء. حديث رقم: ٤٦٨٤. ومسلم في «كتاب الزكاة» باب الحث على النفقةِ وتبشيرِ المُنفق بالخلفِ. حديث رقم: ٩٩٣.

قامت السماوات والأرض. فلما كان هؤلاء الربَّانيُّون في موطن النَّصر فآتاهم الله إيَّاه، لأنَّهم أهله والمُستحقون له، وحين تفرغ حياتهم من هذا الاستعداد فإنَّ الله يمنعهم إيَّاه ليعودوا إلى أنفسهم فيُصْلِحُونها.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ هو إعمال للقاعدة: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧﴾[1]، والحال الأكمل ـ وهو حال نبيِّنا محمد ﷺ وأصحابه ـ هو أن ينالَ المرء ثواب الدُّنيا بالنَّصر والعزَّة والتمكين، وثواب الآخرة، بدخول الجِنان، وهذا لمن جمع بين طاعة الله الدينية من الصَّبر والتقوى والاحتساب، وبين القوة والإرادة اللازمين لتحقق النَّصر في الدُّنيا، ولكن هذا الحال لا يكون كلَّ وقتٍ، إذ قد يعجزُ المسلم عن تحصيل القوة اللازمة للفِعل، أو لعدم وُجود الكِفاية في القوة لدفع المانع لحصول النَّصر التام، حينئذٍ يكون انحياز المؤمن للتقوى والصَّبر والاحتساب، لأنَّ الآخرة هي مُنْتَهَى طلب المؤمن في كلِّ أفعاله، أما الدُّنيا فقد تأتي وقد تذهب، وهذا لا يُغَيِّرُ شيئاً من اختيار المؤمن، فإنَّ هذا الدِّين حقٌّ على كلِّ حالٍ، وقد قُتِلَ كثيرٌ من الأنبياء، وقُتِلَ كثيرٌ من الصالحين وأتباعهم في أوقات الاستضعاف، وهم في مواقفهم الإيمانية من نبذ الجاهلية والاستعلاء عليها ورفضِ قِيمِها لحظة الاستضعاف هي نفس مواقفهم في لحظات القوة، لأنَّ قِيمَ الإيمان قِيمٌ مُطلقةٌ فوق الزمان والمكان، لكن أدوات الصِّراع قد تتغيَّر لعدم وُجود أدواتها الكاملة في كلِّ وقتٍ، ولكن هذا ممتنعٌ قدراً في أُمَّةِ محمد ﷺ، لِوَعْدِ الله ببقاء الطائفة المنصورة المُقاتلة، ولكن قد يُوجد في بعضِ الأماكن دون بعضها الآخر، وهذا بابٌ قَدَرِيٌّ لا مدخلَ للشرع فيه، فلا يجوز لأحدٍ أن يمنع أحداً من المسلمين على جهة الشرع بعدم القتال والجهاد في سبيل الله تعالى مَن اختار هذا السبيل حتى في أوقات الاستضعاف، فإنَّ وقتَ الاستضعاف يعطي الجواز بكف الأيدي مع بقاء مواقف الإيمان كما هو حال رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة، لكن وقت الاستضعاف لا يجعل الأمر واجباً بالكف كما يُريد بعض الجهلة أن يقول هذا اليوم، مع التذكير أنَّ هذا ليس عاماً في كلِّ أُمَّةِ محمدٍ ﷺ، بل هو في بعض الأماكن دون بعض، والنَّبي ﷺ منع خُلُوَ هذه الأُمَّةِ من الطائفة المنصورة المُقاتِلة، وأما الاحتجاج بفعل عيسى عليه السلام آخر الزمان فالردُّ عليه بأمور:ـ

أولاً: هذا مما أذن لعيسى عليه السلام به من جهة النَّبيِّ ﷺ وذلك كالأمر بوضع الجِزية عن المُشركين وعدم قبولها منهم، إذ لا يكون لهم خيار إلاَّ الإسلام أو السيف، فلا يجوز تعميمه إن كان أمراً عاماً لجميع الأُمَّة، وأما إن كان أمراً فقط للمسلمين الذين هم تحت إِمْرَةِ عيسى عليه السلام دون غيرهم فهذا لا يُحتج به لأنَّ الأمر كما تقدم أنَّ الاستضعاف يكون في مكانٍ دون مكانٍ.

ثانياً: لقد بيَّن النَّبيّ ﷺ حال عيسى عليه السلام بعد أن يأمر أتباعه يومئذٍ بكفِّ الأيدي عند خروج يأجوج ومأجوج، وذلك بأنْ يأمرهم بالهروب والاعتصام بجبل الطور، وهو أمرٌ باعتزال

[1] سورة الزلزلة، الآية: ٧.

الجاهلية والباطل وعدم الدخول فيهما، فهذا هو اختيار المؤمن إما الجهاد في سبيل الله تعالى، فإنْ لم يستطع فيجبُ اعتزال الباطل، ودُعاة البدعة اليوم يحرمون الجهاد ويمنعونه، ثم يذهبون إلى العمل والرضوخ للباطل والدخول فيه تحت أبواب المصلحة الدُّنيويَّة والتي تُعارض مصالح الدِّين والإيمان من كلِّ وجهٍ، ومع ذلك هم يزعمون إتباع أمر عيسى عليه السلام وأمر النَّبيِّ ﷺ وقد كذبوا.

ثالثاً: إنَّ يأجوج ومأجوج قد أخبر النَّبيّ ﷺ بهلاكهم على جِهة العذاب الكوني التام كما هي سُنته مع أُممٍ سابقة خلتْ، كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وأصحاب مدين، وهذه السنَّة قد توقفت كما قررَ كثيرٌ من أهل العلم بعد أنْ أمر الله موسى عليه السلام بالقتال، وذلك بقوله تعالى في سورة «القصص»: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴿٤٣﴾ ﴾[1]. فسُنَّةُ إهلاك الأُمم بالعذاب التام قد جاء بدلاً منها وهو جهاد هؤلاء الأعداء حتى يفصل الله بين الطائفتين، ففي يأجوج ومأجوج وهم من بني آدم يكون الإهلاك التام عن طريق النغف[2] الذي يسلطه الله عليهم فيموتوا كنفسٍ واحدةٍ، فعلم عيسى عليه السلام بما سيكون ـ وهو نبيٌّ يُوحى إليه، وبما أخبر به النَّبيّ أُمَّته في مصائر هاتين القبيلتين ـ يأجوج ومأجوج وهي قبائل صينية ـ يكون أمره لأتباعه يومئذٍ أنْ لا تُقاتلوهم، واعتصموا منهم بجبل الطور حتى يقع حُكْمَ الله تعالى فيهم، فإسقاط عيسى عليه السلام لوجوب جهادهم هو لِعلمه بقدر هؤلاء بعد ذلك، وهذا الأمر يجعل القضية حادثة عينٍ لا يُقاسُ عليها ـ وما كان على خلاف القياس فغيره عليه لا يُقاس ـ، فمن يستطيع الإدعاء اليوم أنَّ طائفةً من الكفر لابدَّ لنا بقتالها، وأنَّ مصيرها هو الإهلاك القَدَري التام، فنتركها بلا جهادٍ حتى يأتي يومها القَدَري بالهلاك؟. هذا لا يدِّعيه أحدٌ يملك عقلاً وديناً، لكن ـ ولله الأمر مِن قبلُ ومِن بعدُ ـ قد وُجِدَ مَن زعم في وقتٍ ما، وفي وقتنا أنَّ طائفةً من طوائف الكفر لا تقدر الأُمَّة على دفعها ولا مُقاومتها ولا جهادها، فأوجبوا على الأُمَّة الاستسلام لها، والدخول في طاعتها، فضلُّوا وأضلُّوا، وهم يحسَبُونَ أَنَّهُمْ يحسِنُونَ صُنْعاً.

والمسألة في حقيقتها على خلاف ذلك من وجوهٍ: **منها**: أنَّ الأُمَّةَ في عمومها إلاَّ طائفة منصورة قد تركتِ الجهاد، وصار حال الأُمَّة كغُثاء السيل، فامتنع النَّصر لعموم الأُمَّة، مع وُجود النَّصر لهذه الطائفة، فهي منصورةٌ بما تحقق لها من إيذاء الكافرين وتعذيبهم، وشِفَاء صدور المؤمنين، وهذا نصرٌ يُعادل بل هو أكبر من مجموع ما تُقَدِّم هذه الطائفة، لكن ليس نصراً لمجموع الأُمَّة ولا لعمومها، لأنَّ هذا النَّصر لا يتحقق بسبب قِلَّةٍ قليلةٍ، وإنما بما تقوم الأُمَّة بمجموعها به، من مباشر للجهاد ومن ردء له، ويكون النِّفاق محصوراً ضعيفاً مُهَاناً، لكنَّ حال الأُمَّة اليوم هو على الضدِّ من ذلك، إذ أنَّ أغلبها محكومة بالشهوات والأهواء، ومُعْرِضَةٌ عن الجهاد وسبيله، حتى إنَّ علماءها يُعادون الجهاد

[1] سورة القصص، الآية: ٤٣.

[2] قال الليث: النَّغَفُ: دودٌ غُضْفٌ ينسلخُ عن الخنافس ونحوها، ويقال: النَّغَفُ: دودٌ بيضٌ يكون فيها ماءٌ. وفي حديث يأجوجَ ومأجوجَ: «إنّ الله يُرسل النَّغَف عليهمْ فيُصبحون فَرْسى»، أي: قَتْلَى.

ويُفْتُون بحُرمته ويُنفرون النَّاس عنه، فسبب الضعف هو الخذلان والمعصية، فواجبُ العلماء والدُّعاة أن يُرشدوا الأُمَّة ويعظوها حتى تُقْبِلَ على طاعة الله بالجهاد والإعداد له، لا أن يطلبوا من الطائفة المنصورة ترك الجهاد واللحوق بالمخذولين والجُبناء وأصحاب الأهواء والشهوات، لكنهم يفعلون هذا لجهلهم وضلالهم وخذلان الله لهم وإعراضهم عن سبيل العلماء الراسخين، **ومنها**: أنَّ هؤلاء المخذولين من المشايخ وأصحاب العمائم واللحى لا يشفقون على المجاهدين ولا ما يُلاقونه من تعبٍ في جهادهم، لأنه بحمد الله تعالى لا يشكون لهم ما يُلاقونه، ولا يُرسل لهم المسجونون رسائل استعطافٍ واسترحامٍ، بل إنَّ هؤلاء المخذولين إنما شفقتهم ورحمتهم على أهل الشهوات والأهواء المُعرضين عن الجهاد، فهؤلاء يُصيبُ الجهاد شهواتهم ببعض التأثر فيصرخون متألمين أنَّ الجهاد والمجاهدين قد أضرُّوا بهم، فيُسارع هؤلاء المُتهوكون لنصرة هؤلاء ضدَّ المجاهدين، فيزعمون أنَّ الجهاد يأتي بالضدِّ من مصالح المسلمين، وتحت هذه الدعوى الخبيثة يحرم المفتون من أهل الجهالة والضلالة الجهاد في سبيل الله.

بل إنَّ واقعنا أبعد من هذا، إذ نجد أنَّ طوائف الكفر الأصلي، وكذا مثلهم طوائف المرتدين يستنجدون بهؤلاء المُفتين لينصرونهم ضدَّ المجاهدين، فتجد المؤتمرات التي يُدعى إليها هؤلاء إليها ليسبوا المجاهدين ويقولوا فيهم أشدَّ الأقوال وأكذبها في دين الله تعالى.

لقد جاء على هذه الأُمَّة الكثير من أمواج الشرِّ، واجتاحتها الكثير من جحافل الكفر ولكنهم اقتدوا بالأنبياء وأتباع الأنبياء ﴿ **فَمَا وَهَنُوا لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴿١٤٦﴾ ﴾. ثم كانت العاقبة لهم ـ **وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ـ، أما هؤلاء المُفتون والمشايخ وأزلام السلطان الجُدد فقد ضرب الجبن قلوبهم، والخوف والفساد عقولهم فأتوا بمنكرٍ مِنَ القَوْلِ وَزُوراً، فهم يُعلنون دوماً أنَّ الأُمَّة قد ماتت، وأنَّ طوائف الجهاد تُفْسِدُ على الموتى سُبَاتَهُم، فهذا هو شعارهم وهذه دعوتهم.

قد يقول قائلٌ: ها أنتَ تقولُ إنَّ طوائف الجهاد المنصورة بحالها هذا لن تصنع نصراً كاملاً للأُمَّة، ولن تغيِّر اتجاه الريح، لأنها طوائف قليلة، والنَّصر العزيز التام لا يكون إلاَّ بالأُمَّة المجاهدة، إذاً ما هي مُبررات هذه الطائفة إذاً؟ والجواب على هذا:ـ

إنَّ الإعذار إلى الله مَقْصَدٌ من مقاصدِ المُؤمنين، وإقامةُ الشَّهادة على الخَلق يحبه الله، ومن أجله بعثَّ الله الرسل، فإنَّ الكثيرَ من الأنبياء لم يكن لهم إلاَّ تابعٌ واحدٌ أو تابِعَيْنِ، فإنْ كان الأمرُ كذلك فَلِمَ أرسلهم الله تعالى إذاً؟.

إنَّ الله أرسلهم لأنه يريد الإعذار إلى الخَلق، والمؤمنون الذين يقولون كلمة الحقِّ فيُقتلون ويُسْجَنُونَ قد لا يُغَيِّرُوا من الأمر شيئاً، لكنهم يُعذرون إلى الله تعالى، وبهم تحصل الشَّهادة التي يحبها الله تعالى، وهذا هو معنى جواب الله تعالى للملائكة كما قالوا: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا**

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[1]. فقال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴿٣٠﴾﴾[2] أي من القِلَّة المؤمنة، وهي القِلَّة التي لا تكون كذلك، بل هي مثلكم يُسبحون بحمدي ويُقدسونني ولأجلهم خلقتُ هؤلاء الخَلق، وهذا فيه تنبيهٌ آخرٌ على مسألةٍ تقدمتْ وهي مسألة المقاصد الشرعية، فإنَّ الناظرَ المُتأملَ للقرآن الكريم يرى أنَّ أعظم مقاصد المؤمن هو الآخرة، وكلَّ عَمَلٍ يعترض تحقيق دخول الجنَّة هو عملٌ مردودٌ وباطلٌ شرعاً، وإفراغ الدِّين من هذا المقصد يحَوِّلُ الدِّين إلى مجرد هياكل عملية لا رُوحَ لها، ويسلب خصوصية هذا الدِّين، وهذا ما نراه في الفقهاء الجُدد، إذ صار الدِّين عندهم لا يفترقُ في شيءٍ عن دعوات الإصلاح التي تدعو إليها بعض الجماعات التي لا يكون الإسلام دينها ولا مرجعها في الإصلاح، فيلتقون مع هؤلاء في منتصف الطريق، فيخدعونهم أنَّهم على شيءٍ، وهذا كَذِبٌ على دين الله تعالى، وكَذِبٌ على هؤلاء المساكين الذين لا يؤمنون بالإسلام، لأنَّ الواجب على الدُّعاة إلى الله أن يُعَرِّفُوا النَّاس مَآلاَتِهم في الآخرة، هذا هو رأسُ القضية وهو رُكنها الأعظم، ومن أجل هذا بعثَّ الله الأنبياء وأنزلَ الكُتب، وتحويل الدِّين إلى شرائع عملية لإصلاح حياة النَّاس ـ وهو كذلك ـ دون التفاتٍ إلى الآخرة ومصائر النَّاس فيها إما إلى جنَّةٍ أو نارٍ هو تحويلٌ باطلٌ وإفسادٌ لدين الله تعالى وتغيِّيرٌ لمقاصد الرسالة التي دعا إليها جميع الأنبياء، فالمجاهدون منصورون بنوعٍ من النَّصر المُلائم لهم ـ وهو كثيرٌ ومُباركٌ ـ ولكن إنْ كانتِ الأُخرى وهي الهلكة العامة لهم في موطنٍ من المواطن فهذا إعذارٌ إلى الله، والله يحبُّ هذا ويرضاه، مع التنبيه أنَّ الهلكة الكُلية لا تكون لتَكَفُلِ الله بحفظ الطائفة المنصورة المجاهدة حتى تخرج الريح الطيبة فتقبض أرواحهم.

إنَّ هذه الطائفة تمنع تحقيق مقاصد الكفار في هذه الأُمَّة، فإنَّ مقاصدهم الأولى تحويل النَّاس عن دينهم، فوجود هذه الطائفة تشغل الكافرين بأنفسهم لما يلحقهم من الأذى من هؤلاء المجاهدين عن تحقيق مقاصدهم، لأنَّ هَمَّ الكافرين حينئذٍ هو القضاء على طائفة الجهاد المنصورة، فمن أجلها يجيِّشُونَ الجيوش، ويُنْفِقُونَ الأموالَ، ويَبْذُلُونَ الوُسْعَ والجُهْدَ، وهم يتألمون من نِكاية هذه الطائفة بهم، فحينئذٍ يتركون للمسلمين هوامش من أعمال الدِّين التي تسعهم كأعمال النسك وغيرها، وكلما زاد إِيلاَمُ المجاهدين لهم اتسعَ الهامش، ولكن حين لا تكون هذه الطائفة في مكانٍ من الأمكنة فإنَّ الكفر يتطاول على أصل الإسلام في نفوس النَّاس، وهذا ما يُريدونه، فوجود طائفة الجهاد هو سِياج الدِّين الأول في حياة المسلمين، كلِّ المسلمين في الأرض، ولو عَلِمَ المسلمون هذا لمدحوا جهاد المجاهدين، ولحمدوا لهم صَنِيعَهُم لأنَّ المجاهدين هم مَن يدفع ثمن كلّ أعمال الدِّين التي تسمح الجاهلية به لهم، ولكن الكثير من أهل الأهواء والشهوات إنما يذمون المجاهدين لأنَّ المجاهدين يُذْهِبُونَ عنهم بعض دُنْيَاهُم وشهواتهم لا دينهم، والتاريخ والواقع يشهد لهذا.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٠.

[2] سورة البقرة، الآية: ٣٠.

إنَّ وجود هذه الطائفة هو قَدَرٌ إلَهِيٌّ رحيمٌ لهذه الأُمَّة، لأنها هي التي تُعِدُّ الأُمَّةَ حين تعمل العوامل القَدَرِيَة عَمَلَهَا في إهلاك أُمَّةٍ من الأُمم، ولذلك فإنَّ الاستعداد للوراثة هو شأنُ العقلاء، وهو دين المسلمين، فمن يمنع من تغيُّر الأوضاع حيث يُبارك الله في القليل فيصيرُ كثيراً، وفي الضعيف فيكون قوياً؟! فإنَّ هذا شأن السنن في الأُمم بصفتها أُمَّة وراثة وعِزة وشهادة، والدَّاعون إلى ترك الجهاد إنما يحكمون على هذه الأُمَّة بالهَوان والذلة حتى تقوم الساعة، وأما قولهم: إننا نصبر حتى يتغيَّر الحال، فهو مجرد مقال لا حقيقة له، لأنَّ الإعداد للوراثة هو دليل الصدق على تهيؤ المرء لهذه الوراثة - **وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً** -.

إنَّ القِلَّةَ قد تصنعُ النَّصر الكامل في مواطن، ويتحقق لها النَّصر والوراثة والغلبة وذلك ضمن ظروف سننية، وهذه الظروف فيها من الشروط القدرية الكثيرة، فقد تُوجد هذه الظروف ويتحقق الوعد الإلهي بالوراثة في مكانٍ من الأمكنة، وهذا ما نراه في واقعنا، فمع سلطان الكفر الغالب، ومع ضعف المسلمين، ومع قِلَّة الطائفة المنصورة إلاَّ أنه بفضل الله يحصل تمكينٌ ربانيٌّ في بعض أراضي المسلمين، وبهذا يتحقق الوعد الإلهي، ولكن جهالة الفقهاء الجُدد وعُمْيَان البصيرة لا يرون هذه الانتصارات لأنهم يحصرون أمر الإسلامِ في مكانٍ من الأمكنة، فإنْ حصل النَّصر فيها رأوه وإنْ لم يحصل فيها وحصل غيرها لم يعدُّوه شيئاً، وميزانهم في هذا هو ميزان أهل الأهواء والشهوات، فإنَّ بلاد المسلمين الفقيرة لا يعدُّونها شيئاً إنْ حصل نصرٌ للمسلمين فيها، بل هم يتعاملون مع التمكين على قواعد الجاهلية، حيث لا يرون التمكين إلاَّ بالغلبة على العاصمة مثلاً في بلدٍ من البلاد، ولا يعدُّونه نصراً إلاَّ إذا أقرتْ به الجاهلية واعترفتْ بكيانهم هذا، وهذه قواعد الجاهلية في الحُكْمِ والأسماء، وهو دخول المسلمين في سبيل المجرمين، ولذلك من عجائب دولة الإسلام الأولى أنَّ هِرقل - وهو حاكمٌ على تخوم الجزيرة العربية - لم يسمع بأمر النَّبيِّ ﷺ ولا بأمر دولته وحكومته إلاَّ بعد صُلحِ الحُديبية، وذلك بعد أنْ أرسل رسول الله ﷺ رسالته التي يدعوه فيها إلى الإسلام، فأرسل باحثاً في إيلياء «بيت المقدس» من يُعَرِّفُه خبرَ هذا النَّبيِّ كما هو مشهورٌ من حديث أبي سفيان رضي الله عنه[1].

فهذه دولة النَّبيِّ ﷺ كانت تعيشُ في عُزلةٍ في عالم الحجاز - عن أي وضعٍ خارج الجزيرة العربية -، والمسلمون الجاهلون اليوم مِنْ قادة الفكر والرأي - زعموا - لا يرون قيمةً لأي سلطانٍ للمسلمين حتى يكون لهذا السلطان قبول من تشريعات الكافرين، وجهلُ هؤلاء بدين الله وسُنن التاريخ ووقائع الحياة وفقه القرآن هو ما يجعلهم في حالة تنازلٍ دائمٍ للجاهلية حتى ترضى عنهم وتقبل بهم في داخل أحشائها وقوانينها، وهذا سبب رئيس من أسباب الخذلان وفوات النَّصر وضياع الفُرص، فإنَّ عدم

[1] وهو حديث طويل أخرجه البخاري في «كتاب بدءِ الوحي». حديث رقم: ٧. وأطرافه في: ٥١، ٢٦٨١، ٢٨٠٤، ٢٩٤١، ٢٩٧٨، ٣١٧٤، ٤٥٥٣، ٥٩٨٠، ٦٢٦٠، ٧١٩٦، ٧٥٤١.

شكر الله مبعثه أنَّ المرء لا يدري نِعَمَ الله عليه، وهؤلاء يُعطيهم الله النَّصر في أماكن ومواطن فلا يرونها لعدم إقرار الجاهلية بها، فلا يشكرون الله عليها ولا يقومون بما يجب من حقِّ الله عليهم وحقِّ الأُمَّة كذلك، فتفوت عليهم الفُرص، والحقّ أنَّ المسلمين قد حصل لهم الكثير من النَّصر والتمكين، بل قد جاءهم في مواطن عِدة لكنهم أنكروا نعمة الله لاحتقارها، فلم يشكروها ولم يحافظوا عليها فذهبت لغيرهم، وهذه سنَّة الله تعالى في الجاهلين والغافلين، وعُمْدَة جهلهم أنهم يطلبون من أعدائهم الإقرار بهم والقبول لهم.

إنَّ جهاد أُمَّةِ الإسلام اليوم في عمومه جهادُ دَفْعٍ، لا عن بيضة موجودة، بل دفع عدوٍّ يُقِيمُ بين أظهرها، ويستبيح أرضها وثرواتها ودينها وقِيمها، ودفع هؤلاء الكفرة وجحافلهم لا يكون بالجيوش الجرارة الكثيرة، ولا بأعدادها الواضحة البيِّنة، إنما يكون بالنِكَاية فيها، وذلك من خلال إرهاقها واستنزافها بالضرب المُتكرر المُتتالي، وهذا يتحقق من خلال هذه الطائفة، فإنَّ تكاليف البقاء في بلاد المسلمين حين يُقاتلها المجاهدون، ويضربون جسدها الكبير في كلِّ مكانٍ يصبح بقاؤهم مكلف لشعوبهم ولملأهم المُترف، وهذا ما يحقق الوعد بالنَّصر وهزيمة الكافرين والمرتدين، وهذا النوع من الجهاد يحتاج إلى صبرٍ وثباتٍ وتكاليفَ شديدةٍ، أغلب من يدفعها همُ المُترفون والقاعدون والمُتخاذلون، وهو نوع الجهاد الذي يحتاجه المسلمون في وقتهم هذا، إذ يبدأ أولاً باعتزال هؤلاء الكافرين، وهذا ما يُسمى بالعِصْيَان المدني في بعض صُوره، ثم ما يتبعه من النِكَاية التي تُدْمِي جسد هذا الفيل أو الدُّب الكبير، وبمجموع هذه النِكايات يتحقق النَّصر الكبير، وهذا من فقه الحياة الذي لا يقدره أولئك الذين لا يفقهون إلاَّ الأعمال النُّسُكيَّة به والتعبديَّة، فالجهاد في سبيل الله تعالى يحتاج إلى ثلاثة أركان لا يقوم إلاَّ بها: **أولها**: هو الفقه الشرعي به، ومصدره الأول هو هذا القرآن الكريم، وهذا ما أُحاول الإشارة إليه، **وثانيهما**: البناء النَّفسي، وهو جانبٌ مختلطٌ مع فقه الجهاد في القرآن لا ينفكُ عنه، **وثالثهما**: هو فقه الحياة وسُننها، ومنه فن الحرب والقتال، وإنَّ القتال والحرب يمكن للمرء أدائهما في كلِّ حالٍ وفي كلِّ وقتٍ، إذ لكلِّ حالٍ ووضعٍ طريقة للقتال والحرب والجهاد تُلائمه لتحقيق هزيمة الخصم وإنه لا يقوم بهذه الأركان إلاَّ أهل البصائر والنُّهَى، وهذا لا يعرفه اليوم في أُمَّتنا إلاَّ المجاهدون، وأما غيرهم فقد يعرفون مسائل أحكام الجهاد، لكن ليس هؤلاء بفقهاء الجهاد الذين هم أهله، ولا هُمْ أهل المدح في القرآن بأنهم المجاهدون والتائبون والصابرون، لأنهم لا يعرفون الجهاد كما هو في القرآن ولا كما هو في سنن الحياة والقدر، ولذلك فأغلبهم لا يدعون له، وإن دعا له البعض فإنهم لا يتصورون كيفية وقوعه.

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

فهذا هو كمالُ العطاءِ الإلهي لمن ثبت وصبر حتى بعد أنْ أصابته القُروح والجِراح، أو أخفق في موطنٍ من المواطن من تحقيقِ النَّصر، ولكن إن فاته ثواب الدُّنيا فله حُسْنَ ثواب الآخرة.

وثواب الآخرة جاء مُفَصَّلاً في آياتٍ أُخرى، إذ سيأتي ما أعد الله للشُّهداء، وأما الصَّابرون فهؤلاء يُوَفَّوْنَ أُجُورَهُم بغير حسابٍ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾[1]. وأجور المجاهدين لا يَعْدِلُهَا أجرٌ كما بيَّن النَّبيّ ﷺ[2]، ولو لم يكنِ للجهاد إلاَّ هذا الأجر الأُخروي لَكان حَرِياً بالمؤمنين أن لا يتركوه حياتهم، ولا ينكصوا عن طريقه، ولا يستبدلوا به طُرُقَ الهَوَانِ والخذلان والجهالة، والاحتساب هو ركنُ الأعمالِ الإيمانية، ولا يَصِحُّ العملُ الصالحُ إلاَّ به، بل وفي حقيقة الأمر لا يثبتُ على هذا الطريق إلاَّ مَن كان الاحتساب هو شأنه في كلِّ أعماله، وأما المُرَاءُونَ وَطَالِبُو الحياة الدُّنيا فإنَّ ثباتهم إلى حينٍ ثم تراهم ينكصون ويتراجعون ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

فهذا هو ميزان الله تعالى في العطاء، فكلما قدَّمَ المرءُ لدين الله تعالى، وكلما أحسنَ كانت زيادة الله تعالى له كما قال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾[4]. وقال سبحانه: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾[5].

هكذا نرى ربط قلوب المجاهدين الصَّابرين بربِّهم، حيث يرجون رحمته، ويطلبون مغفرته، وهو يعدهم بحبه لهم، وبإدخالهم الجِنان يوم القيامة، وهذا مما يميِّزُ الشخصية المسلمة عن غيرها، فهي شخصيَّةٌ ربَّانيَّةٌ، قِوامُ كلِّ حركاتها وسكناتها من أجل الله، ومن أجل مرضاته، ومن أجل تحصيل حبِّه، وهم في استحضارٍ دائمٍ للجنَّة التي وعدها الله للمؤمنين، فهم يعيشون على هذه الدُّنيا، ويعملون بسننها، ويخوضون غمراتها، ولكن عيونهم وقلوبهم في شوقٍ للقاء الله تعالى.

إنَّ الربَّانيَّة هي عُمدة شخصية المسلم، ولذلك هو دائمُ الذكرِ لربِّه، لا يفتر لسانه عن ذِكر الله تعالى، وله علاقةٌ وشيجةٌ مع القرآن، فهو مصدر مدده، ومنبعُ حِكمته، ومرجعُ كلَّ قضاياه ومسائله، لا يترك قيام الليل، فإنَّ قيام الليل شِعَارُ الصالحين، وهو وصية الله لنبيِّه في أوائل الآيات التي نزلت على قلب رسول الله ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ ﴾[6]. وهو الأمر الثالث الذي تلقاه من الله تعالى، فإنَّ **الأمر الأول** هو «ٱقْرَأْ» وقد علَّقَ الله إكرامه له بهذا الأمر بقوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ

---

[1] سورة الزمر، الآية: ١٠.

[2] إشارة إلى حديث أبي هريرة ﷺ قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ. قال: «**لاَ أَجِدُهُ**». قال: «**هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلاَ تَفْتُرْ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرْ؟**» قَالَ: وَمَنْ يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ؟ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنَّ فَرَسَ الْمُجَاهِدِ لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ، فَيُكْتَبُ لَهُ حَسَنَاتٍ. هذه رواية البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب فضل الجهاد والسير. حديث رقم: ٢٧٨٥. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى. حديث رقم: ١٨٧٨.

[3] سورة يونس، الآية: ٢٦.

[4] سورة محمد، الآية: ١٧.

[5] سورة مريم، الآية: ٧٦.

[6] سورة المزمل، الآيتان: ١-٢.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[1]. وكان **الأمر الثاني**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾[2]. مع أمور مع الإنذار تعينه وتشرحه، ثم كان **الأمر الثالث** وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤﴾[3]. وقد جعل هذا الأمر الجليل معيناً على ما يجده في الدُّنيا من العناء والتعب في الدعوة ومُلاقاة النَّاس فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧﴾[4]. ولذلك كان المجددون في التاريخ الإسلامي تجمعهم هذه الخِصال الثلاث، خصلة العِلْمِ وسِعَته، فهم أوسع أهل زمانهم في القراءة الواعية الجدلية التي تحقق علماً خاصاً، وخاصة علمهم في القرآن الكريم، وهم أكثر أهل زمانهم نذارةً لقومهم وتعليمهم ما سيُصْلِحُهُم في دينهم وتوحيدهم وكذا دُنياهم، ويتميَّزون بالطاعات الربَّانيَّة الخاصة بينهم وبين ربِّهم، من ذكرٍ وقراءةَ قرآنٍ وقيامَ ليلٍ وكثرةَ خشوعٍ وتَأَوُهٍ وإخباتٍ، ويقتربُ المرء من صفة المجدد وكذا دخوله في الطائفة المنصورة كلما كان جامعاً لهذه الخصال، ولا يغرنَّك كثرة الكلام والتشقيقات، ولا الصُّراخ وعُلُوَّ الصَّوت، ولا الأسماء والألقاب، فإنَّ الزبَدَ يذهبُ جُفَاءً، وأما ما ينفع النَّاس فيمكثُ في الأرض.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٤٨﴾.

إنَّ الربَّانيَّة، وهو أن يكون للمرء المسلم علاقة خفية بينه وبين الله، وكما فسرها الحبيب المصطفى ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[5]. هي مصدر قُوة المسلم، وهي التي تحقق التأثير والتغيِّير في التاريخ والأُمم، وقد أحسنَ الشيخ أبو الحسن الندوي ـ وهو بحقٍّ من أعمقِ الكُتَّاب المسلمين في عصرنا ـ رحمه الله تعالى حين قال في بعض كتبه: «إنَّ الصفة الجامعة لكلِّ المجددين على مدار التاريخ الإسلامي هي قيام الليل»، وقد صدق فهذا الإمام أحمد رحمه الله تعالى يستنكر على محدِّثٍ زاره يوماً وباتَ عنده فلم يره قد توضأ من وضوئه الذي أعدَّه له لقيام الليل، فأنكر عليه وقال له: «محدِّثٌ وَلاَ يَقُومُ اللَّيْلَ؟!». فقال له الرجل: «أَنَا مُسَافِرٌ»، فقال له أحمد: «وَلَوْ كُنْتَ مُسَافِراً!»[6]. فإذا كان السابقون يستنكرون على المحدِّث أن لا يقوم الليل، فماذا يُقال للذين يريدون أن يحيوا الأُمَّة ويجددوا لها أمرَ دينها إذاً؟!.

---

[1] سورة العلق، الآية: ١.

[2] سورة المدثر، الآيتان: ١ـ٢.

[3] سورة المزمل، الآيات: ١ـ٤.

[4] سورة المزمل، الآيات: ٥ـ٧.

[5] جزءٌ من حديث جبريل المشهور، الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرجه مسلم في «كتاب الإيمان» باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبرِّي ممن لا يؤمن بالقدر والإغلاظ القولِ في حقِّه. حديث رقم: ١

[6] عن إبراهيم بن محمد بن سفيان: سمعتُ عاصم بن عصام البيهقي، يقول: بتُ ليلةً عند أحمد بن حنبل، فجاء بماءٍ فوضعه، فلما أصبحَ نظرَ إلى الماءِ بحالِهِ، فقال: سبحان الله! رجلٌ يطلبُ العِلْمَ لا يكونُ له وِرْدٌ باللَّيْلِ. «سير أعلام النبلاء» للذهبي. الجزء الحادي عشر، الصفحة ٢٩٨.

ثمَّ كيف لهؤلاء أن يزعموا التجديد وهم أشدُّ النَّاس بُعداً عن القرآن وقراءته والعمل به، وهم الذين يرفعون شعار العودة للكتاب والسنَّة، مع أنَّ القرآن يشكُو لله من هُجران المسلمين له؟!.

إنَّ التجديد يبدأ من القرآن الكريم قبل كلِّ شيءٍ، فإنَّ الأُمَّةَ إنْ فَقِهَتِ القرآن على أنه كتاب الحياة الذي يجِيبُ على أسئلتهم، ويحلُّ لهم قضاياهم حينها تضع قدمها على الطريق الصحيح، أما الوقوف على تراث السلف والانشغال به فإنه لا يحقق التجديد، نعم قد تكون خطوة تعين المرء في فهمه للكتاب، لكنها يجب أن لا تكون بديلاً عن العودة للكتاب مُباشرة، هذا إن كان إحياء تراث السلف بريئاً من التجارة وخالصاً لوجه الله وتحقيق التجديد مع إدراك أنَّ إحياء تراث السلف لا يعني استدعاء مُشكلاتهم وقضاياهم لنُعيد حروبهم التي حاربوها في وقتهم، حتى مع وجود هذه القضايا في بُؤَرٍ صغيرةٍ مُتفرقةٍ في العالم الإسلامي، وخاصة حين تُبتلى الأُمَّة بقضايا أعظم وأشدّ وأخطر، حينها يكون الاستدعاء هروباً من واجب الوقت ومعركة المسلمين، مع ما في ذلك من ضُعْفٍ في الإدراك والنَّظر والفقه، وقِلَّةِ عقلٍ وتحقيقٍ.

وقاصمةٌ أُخرى في يومنا هذا، إذ هناك من يريد أن يعيش معارك السابقين دون وجود مُوجِبها اليوم، وإنْ وُجدت فهي مقموعة قليلة ضعيفة، وهناك من يعيش قضايا زمانه دون قواعد وعلوم وفقه السلف، بل هو يزعم التجديد على وجه يعني تغيِّير الدِّين وتبديله، وكِلا الفريقين على غير هُدى، إذِ الواجب أن يعيش المُهتدي عصره، ويكون فقيهاً به، محيطاً بقضاياه، وهو مع ذلك يلزم أصول الصَّحابة ﷺ ومَن اهتدى بهديهم في فهمه لكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ.

﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

إنه لن يتحققَ الوعدُ الإلهي بالنَّصر والتمكين لأحدٍ دون أن يتحقق له حب الله تعالى، وحب الله تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، فهم عِبَادُ لله تعالى، يُدِيمُونَ ذِكره، ويُقِيمُون شرائعه في أنفسهم وفي بيوتهم وفي حياتهم، ويأخذون بعزائم الأُمور، لأَنَّهُمُ الكبار، والكبار لا تصلح لهم الصغائر ولا الأخذ بالزلات والشُّبهات وهم أهل عملٍ وعلمٍ، وأهل قراءةٍ طويلةٍ لما يُكْتَبُ وَيُقَالُ، ولما يقع في الحياة من أحداث وقضاياه، حينها يحصل إكرام الله لهم. ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ﴾[1].

إلى هنا تمت الوصفة الإيمانية الرائعة في علاج القَرح الذي أصاب الصَّحابة ﷺ في أُحد، وهذه هي المُعالجة الثانية بعد المُعالجة الأولى التي تقدمتْ من قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن**

[1] سورة العلق، الآية: ٣.

دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا... ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ... ﴾[2]. وبدأت هذه المعالجة بقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ... ﴾[3] إلى قوله تعالى: ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا... ﴾[4].

وقد رأينا في هذه الوصفة معالجة القضايا اللاحقة بالقَرح، حيث أعادتِ الآيات شعور العِزَّة الإيماني، وذلك بعد أن افتتحتْ ذِكر تاريخ الإيمان وصِراعه مع الجاهلية ثمَّ ذكرتِ العاقبة، لأنها الأهم، ثم أتتْ على ذِكر ما يقع في الطريق المُوصِل لهذه العاقبة من آلامٍ وجِراحٍ وأذىً للمؤمنين وأنَّ هذا من سنن الطريق، وليس غريباً عنه، فليس للإيمان سنن خاصة به إلاَّ بكون العاقبة له، وقد أتتِ الوصفة الربَّانيَّة على عِلَلِ وَحِكَمِ وُقُوعِ البلاء والألم في المؤمنين، وأنَّ هذه العِلَلَ والحِكَمَ مقاصدٌ ربَّانية تتلاءَمُ مع الإيمان وعاقبته في الدُّنيا والآخرة، وذلك أنَّ الجنَّة ليست سِلْعَةً رَخِيصَةً حتى تُنَال بالكَسَلِ والخُنُوعِ والرَغَدِ ذلك بأنَّ الإيمان مُبتلى حتى يثبت صِدقه.

ومن خصوصية هذه الوصفة أنها أتتْ على مفهوم الموت، وشدَّة وَقْعِهِ على النُّفوس، وأهمية خِبرة المؤمنين به، مع ارتباط الموتِ مع فُقدان الأحبة، وتقويم هذه المسألة لربط الإيمان بمفهومه القيمي المُطلق فوق الأشخاص حتى لو كان هؤلاء الأحبة هم الأنبياء أنفسهم، وأتتِ الوصفة على قَدَرية الموت مع ربط هذه القَدَرية الحتمية مع مفهوم الثَّوابِ والعقابِ، وأنَّ الموتَ وإنْ كان قَدَراً سابقاً فإنَّ الثَّواب هو اختيارٌ إنسانيٌّ نابعٌ من إرادته هو، وذلك في تنبيهٍ خفيٍّ إلى أنَّ الأهم هو ثواب الآخرة، أي ما بعد الموت.

ضمَّتِ الوصفة الإيمانية بذكر تاريخ الأنبياء مع قضية الآلام والقُروح والأذى الواقع عليهم وعلى أتباعهم، والإشادة بالموقف الواجب الذي يجب على التالين أن يسلكوه اقتداءً بالسابقين المهديِّين من أئمتهم، وما هي أقوالهم وأفعالهم ومواقفهم مع هذه الآلام والقُروح والقتل الواقع عليهم.

إنَّ أهم معالم هذه الوصفات الإيمانية هي امتلاؤها بالمفاهيم الأُخروية، وإرشادها إلى العلاقة الخاصة بين حَمَلَةِ هذا الدِّين وخالِقهم الذين يعملون من أجل مرضاته، فهم بشرٌ وهم أبناء هذه الأرض وأبناء هذه الدُّنيا لكنهم مع ذلك يعيشون من أجل الآخرة، وهم يبتغون رضا الله قبل تحقيق الثواب الدُّنيوي المحبوب لكلِّ النَّاس. هذا المعْلَمُ يُشارِكُهُ مَعْلَمٌ آخَرٌ مُهِمٌ ووَاضِحٌ وهو بيان الحقائق العِلمية الحقيقية مع تأثيرٍ مُشَارِكٍ لهذه المفاهيم على حياة المؤمن والجماعة المؤمنة، فهو لا يضعها كأرقامٍ جامِدَةٍ تُعالج أفكاراً إنسانية فحسب، لكن يضعها مفاهيم إيمانية لها تأثير على عِلْمِ الإنسان وعقله ووِجْدَانه وإِحْسَاسِهِ، فهي مفاهيم تتغلغلُ في حياة الإنسان، وداخلَ كلِّ عُروقه ومفاصل وُجوده وتحركاته، فينفعلَ بها سُلُوكاً وَوِجْدَاناً، وعَقْلاً وَقَلْباً، من غير ثُنَائِيَةٍ مُتَضَادَّةٍ، بل باعتبار

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٢٨.
[3] سورة آل عمران، الآية: ١٣٧.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.

الإنسان كُلاً واحداً، حيث تتوجه هذه المعارف القرآنية إلى عقله وفِكره فتُقَوِّمَهَا، وإلى إرادته فتبعثها للعمل، وإلى رغبته ورهبته فتجعله إنساناً أُخروياً يعيشُ للجنَّة والخوف من النَّار، وتقوِّمَ مقاصده فتصنعه ربَّانياً، له ذوقٌ للمعاني والمشاعر الحقيقية لا الشِعرية الوهمية.

هذه صبغة الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[1].

وههنا وقفةٌ يسيرةٌ مع أسلوب القرآن الكريم، حيث يفتتح القرآن القضية التي يريد بيانها، وذلك من خلال مُقدمات مُلائمة لها، كما رأينا أنَّ قضية أُحد افتتحت بالنِّفاق وذِكر غزوة بدر وما وقع فيها، ثم يأتي ذِكر المسألة، ومن خلال طرحها يتم شبكها مع قضايا الإيمان والحياة الأُخرى، فيتم شرح هذه القضايا المُرافقة، فإنْ تم المُراد عاد القرآن إلى القضية الأولى، وهذا الأسلوب الربَّاني قد يبدو لمن لا ينعم النظر انقطاعاً عن القضية، وليس كذلك، بل هذا من أعظم طُرق التربية والتعليم، ذلك لأنَّ هذا التفريع وهذا الربط يُؤكد وحدة العلوم، فالأوامر الشرعية لها صِلة مع قضايا العقائد كما يسمُّوها، وقضايا النسك ترتبط مع مسائل الاجتماع، وكذلك مسائل المال والنفس والحُكم والقضاء، وأهم خيطٍ جامعٍ لكلِّ قضايا القرآن هو ربطها بالعبودية والدَّار الآخرة وآثارها النفسيَّة على المُهتدي، وتعليقٌ على المُنكرين والجاحدين على مرضِ نفوسهم وقلوبهم.

هذه الطريقة القرآنية في فتح الأقواس «كما أُسميها» أي الوقوف مع القضايا المُلحقة بالقضية الرئيسية، وبيانها وتفصيلها تصنع تحديّاً للقارئ، وهذا هو أحد الأوامر التي ابتلى الله بها عباده، أي الاجتهاد والبحث والنظر والاستنباط، فالقرآن كما أنه يهدي صاحبه، كذلك هو يتحدى قارئه لِيُعْمِلَ عقله وفكره ونظره، وفَهْمِ القضية على وجهها الصحيح تصنعُ مع العلم مُتعة الاكتشاف والاستنباط.

إنَّ القرآن لا يضع عناوين كُلية للموضوعات، ولا عناوين فرعية كذلك، وتقسيم القرآن على هذا الوجه هو إلقاء لإحدى مهمات القرآن، وهي مهمة التحدي، ولكنه التحدي غير المُعجز، أي إنه تحدٍ يعطي صاحبه مُراده إنْ بذل جُهْدَهُ ووُسْعَهُ للحصول عليه، فهو تحدٍ لِفَهْمِ مَداركه وعُلومه، فهذا كتاب يمتحن قارئه ـ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ـ[2]، ولذلك جعل الله فيه آياتٍ مُتشابهاتٍ، يشتبه فهمها على فَهْمِ البعض وعقولهم، فهذا القرآن تُشكلُ كلَّ آيةٍ فيه عِلْماً مُسْتَقِلاً، وهي مع غيرها عِلْماً كذلك، ووُجودها في سورة هي إجابة عن قضية أخرى، وهكذا تكون الآية عِلاجاً لقضايا مُتعددة بحسب إنفرادها أو اقترانها بغيرها.

إنَّ هذه المسألة في أسلوب القرآن تحتاج إلى مُؤَلفٍ مستقلٍ لأهميتها وشرح تفاصيلها والتدليل عليها والتمثيل عليها، والمقام لا يتسع لهذا، إنما تكفي الإشارة والتنبيه، والله الموفق.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٣٨.
[2] سورة محمد، الآية: ٢٤.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[1].

هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾. تقدم شبيهاً لها وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[2].

والفارقُ بين الآيتين: **أولاً**: أنَّ الآية التي بين أيدينا إنما تتعلق بطاعة العمل، والآية الأُخرى وهي السابقة في نفس السورة - سورة «آل عمران» - إنما تتعلق بطاعة العلم، ولذلك عاقبة الطاعة في الآية الأولى قوله: ﴿ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾. وعاقبة الطاعة في الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

ثانياً: إنَّ الآية الأولى كانت في سِياق علاقة المسلمين بأهل الكتاب خاصة، وخاصةً العلاقة العِلْمية، لأنَّ الآيات التي سبقتها تتحدث عن هذه العلاقة وخاصةً بعد قولهم: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3]. وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾[4]. وغيرها التي تبيِّن استقلالَ المسلم في مصادره بعيداً عن أهواء أهل الكتاب وبدعهم وضلالاتهم، وأما هذه الآية فإنها ضِمْنَ سِياق الردِّ على ضلالات المنافقين في فهمهم لواقعة أُحد وما وقع فيها من القُروح، وقد سمَّى الله المنافقين هنا كفاراً، كما سمَّاهم في الآية التي ستأتي وهي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ ... إلى قوله تعالى: وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾[5]. وسواء كانوا هؤلاء كفاراً من أهل المدينة أو منافقين فإنَّ المقصود واحدٌ في الأمرين، وهم أصحاب الضلالة في فَهْمِ أُحد وما وقع فيها، فإنَّ دعوتهم هو ترك الجهاد لما يلحقهم فيه من القتل والموت.

ثالثاً: يشهد لهذين الأمرين، وهو أنَّ الطاعة في الآية الأولى طاعة عِلْمية وأنَّ الطاعة في الآية الثانية طاعة عملية أنَّ الآية الأولى جعل الله الحجة في ترك طاعة المؤمن للكافر في عِلْمٍ من عُلُومِ القرآن والسنَّة قوله: ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ

[1] سورة آل عمران، الآيتان: ١٤٩-١٥٠.
[2] سورة آل عمران، الآيتان: ١٠٠-١٠١.
[3] سورة آل عمران، الآية: ٧٢.
[4] سورة آل عمران، الآية: ٧٨.
[5] سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾. وأما الحجة في ترك طاعة المؤمن للكافر في موقفٍ من مواقفِ الحياة وصراعاتها هو قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾[1]، فجعل ترك أتباعهم في الأول نتيجته الهداية، وأما في الثانية فهو النَّصر.

رابعاً: كانت نتيجة الطاعة العلمية هو الكفر لقوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠﴾ وأما طاعتهم في مواقف الحياة وصِراعاتها هو الخسارة لقوله: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾. لقد جاءت هذه الآية التي بين أيدينا إرشاداً عاماً في بيان حقيقة الآخر والنهي عن طاعته والالتفات إلى مواقفه، وهي تنبيهٌ إلى موانع حصول النَّصر واكتساب المعارك، وبالتالي هو تحصين داخلي من حصول الاختراق، فهي تُبيِّن العواقب التي تنتج عن طاعة الكافرين في ما يخص الفئة المؤمنة من مواقف وأعمال.

إنَّ الآيات السابقة هي من أجل البناء العِلْمِي والنَّفسي، العقلي والوِجداني، وأما هذه الآية فمن أجل تحقيق المواقف، فلا استماع ولا طاعة لما يقوله الكافرون لكم، فإنَّهم وإنْ بَدَواْ في موقف النُّصح فإنَّ حقيقتهم هي التخذيل والتدمير الداخلي.

لقد عَلَّقَ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وِلايته للمؤمنين ونَصْرَه لهم بعدم طاعة الكافرين، لأنَّ من صُور خِداع هؤلاء الكفرة للمؤمنين هو التزيِّين لهم أنَّهم إنْ أطاعوهم نصروهم أو منعوا عنهم الشرَّ والهزيمة، والقرآن يُبطِلُ هذا الزعم والخِداع، وذلك بأنَّ الله لا ينصر مَن يستنصر بغيره، أو يُطيع أعداءه، وفي هذا كشفٌ خفيٌّ لحقيقة نُصح الكافرين وأنه خِداعٌ لحصول الخسارة والهزيمة، وربط نصرة الله تعالى وتأييده بهجران الكافرين وعدم طاعتهم.

ومن الواقع المشهود أنَّ فِرَقاً من الكافرين يأتون إلى المسلمين على وجه النُّصح لهم، وعِمَاد هذا النُّصح هو الابتعاد عن التشدد ـ زعموا ـ وترك الجهاد لأنه يُسيئ لقضاياهم ـ زعموا وكذبوا ـ، وهم بذلك يحملون أهل الضعف في أُمَّتِنَا على طاعتهم، اغتراراً بقولهم ونُصحهم!، والقرآن يُقرر أنَّ هذا هو حقيقة الخسارة والهزيمة.

إنَّ في القرآن الكفاية والهدي التام لما يحتاجه المسلم في حياته، ونحن هنا في سياق غزوة أُحد، وما وقع فيها من القَرح والألم والأذى، ولذلك فإنَّ ما ينصح به الكافرون له تعلق بالجهاد وإيمان المؤمنين به وسلوك سبيله، ونصح الكافرين في هذا الباب نَشهد اليوم صوره، كما نَشهد واقع الذين جعلوا آذانهم تلقي إلى مقالاتهم وأكاذيبهم وخِداعهم، فإنَّ عامةَ من يكون شأنه كذلك أن يكون كارهاً للجهاد، ثالباً أهله بكلِّ صفات النَّقص، ومن هؤلاء مَن يعيش بين أظهر الكافرين وتضلعَ قلبه أقوالهم وأحكامهم ونصائحهم، إذ قلما تجد فيهم من يؤمن بالجهاد أو يحبه أو يُدافع عنه، وإنْ

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٠.

فعلَ فإنما هي مواطن الجهاد الذي تتقاطع فيه مصالح المسلمين مع مصالح الكافرين في البلد الذي يجلس فيه ويسمع لقصف العقول فيه من إعلام ومراكز بحث وغيرها.

لقد وقع الكثير ممن يزعم الفكر والنظر، ويزعم السياسة والحكمة في طاعة الكافرين، وانتهج سُبُلهم في الحياة، وآمن بقواعدهم وسلوكهم في تفسير الحياة، وخاصة مشاكل المسلمين، وهم قلما ينظرون في كتاب الله أو يهتدون بهديه، وإذا حُوجِجُوا به لا يخرج منه إلاَّ قواعد عامة يستخدمها البشر جميعاً، بل ربما يستخدمها أئمة الكفر في تنفير النَّاس من الجهاد وأهله، ولا تجد في توصيفه لقضايا الأُمَّة إلاَّ كما يخرج من أفواه الجاهليين من الكافرين، وهو مع ذلك يفخرُ أنَّ أساتذته ورُفَقَاءِهِ ومُشَارِكِيهِ في مؤسسات البحث هم من الذين ضرب الله عقولهم وقلوبهم، فلم يهتدوا للإسلام ولا نوره ولا حقائقه، ومن هؤلاء مَن هم أهل مكانة في أحزابهم الإسلامية، يجمعهم جامعٌ واحدٌ وهو بُغْضُ المجاهدين الصَّابرين، وحب مناهج الكُفر من ديمقراطية وحقوق إنسان على طرائق أهل الكُفر، ولذلك هم مخذولون في إرادتهم، لهم ألسنٌ وكلماتٌ وخطبٌ ومقالاتٌ طِوال، وأما في التضحية والفِعل فهم أضعف من ذُباب، هذا مع غرورٍ يملأ قلوبهم أنهم هم أهل الفكر والبحث والنظر.

إنَّ القرآن الكريم يحرم على الُمهتدين به أن يُطيعوا الكافرين في قواعد نظرهم وبحثهم فيما يخص الحياة والاجتماع والاقتصاد ومسالك السياسة وأهم من ذلك كلِّه قضايا الجهاد، وعَلَّق القرآن الخذلان والخسارة إن حصلت هذه الطاعة، ومع ذمها البَيِّن الواضح في كتاب ربِّنا إلاَّ أنَّ من قادة المسلمين مَن يفتخر أنه لم يكن يفهم الحياة، ولا العلوم، ولا مناهج البحث حتى جلس تلميذاً على مقاعد الجاهليين من الكافرين، وسبب ذلك أنَّ هؤلاء لا يعرفون القرآن، ولا يعرفون نوره ولا هديه، وواقعهم مع الكتاب هو واقع مَن لا يعرف مِن الكتاب إلاَّ الأماني كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾[1].

فهم أُمِّيُّونَ جهلة، وحق لمن لا يعلم كتاب الله وما فيه من هدي وإجابة على مسائل الحياة ومشاكلها أن يكون أضل من حمار أهله، حتى وإن تلقب بالألقاب الكبيرة، وأسبغ عليه الأتباع كلّ هالات المدح والثناء.

إنَّ هذا الموقف وهو طاعة الكافرين إنما يخاف منه وقت القُروح والضعف وانقلاب الريح على المسلمين فإنَّ المسلم وقتَ العِزَّة والنَّصر هو أبعد ما يكون عن هذا الموقف وهو طاعة الكافرين، ومع هذا فإنَّ الآية تحذر المؤمنين من طاعة الكافرين في هذا الحال، لأنه كما قالوا قديماً: «إنَّ المهزوم مُولَعٌ بتقليد الغالب» ولذلك يقول الله تعالى لهم: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾، فلا تنسوا خصائصكم ومبعث نصركم.

[1] سورة البقرة، الآية: ٧٨.

إنَّ الخسارة لا تكون بالهزيمة في أرض المعركة، ولا بالقُروح التي تُصيبيكم، بل الخسارة والهزيمة حين يزل إيمانكم في قلوبكم، وحين تتخلوا عن مشاعر العِزَّة، فتسيروا وراء أعدائكم يُضِلُّونَكُم حتى يُورِدُّونَكُمُ الهزائم، ولذلك فالجمع بين قوله تعالى الذي تقدم: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[1]. وبين هذه الآية: ﴿ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾[2]. يتبيَّن معنى الهزيمة الحقيقية، وهذا مفهومٌ قرآنيٌّ خاصٌ يهدي القرآن إليه، وهو مما يحتاجه المسلم في كلِّ أطوار حياته.

هذه هي القاعدة: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

﴿ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

فالنَّصر بثبات الإيمان، والخسارةُ في طاعة الكافرين والدخول في دينهم، والدِّين ههنا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾[3]. وليس بمفهومه الاصطلاحي الخاص.

سيأتي هؤلاء الداخلون في طاعة الكافرين بحُججٍ كثيرةٍ، كلّها ذكرها القرآن باعتبارها صفات للمنافقين، ولو تتبع هذه الحُجج متأملٌ للقرآن الكريم لَوجدها حذو القُذَّة بالقُذَّة عما تقوله اليوم طوائف وشخصيات وأصحاب لحى كلّهم يرفعون شعار الإسلام ويزعمون أنهم يعملون له ومن أجل عِزَّته، وفي الواقع هم يُسارعون في الذين كفروا: ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾[4]، ولكن تمضي الحياة، ويعمل التاريخ عمله ثم تكون العاقبة للمتَّقين الصَّابرين المجاهدين، ويذهب هؤلاء دون تحقيقٍ لأيٍ من مقاصدهم بل يستخدمهم الكُفر كمطايا من أجل تنفيذ مآربه.

إنَّ هُجْرَانَ طاعة الكافرين في عُلُومِهِم ونَصَائِحِهم وقيمهم ليس موقفاً من أجل الآخرة فقط كما يظن الجاهلون، بل هو أحد أركان تحقيق النَّصر في هذه الدُّنيا، وليس الربط بين الهزيمة والخسارة وبين طاعة الكافرين ربطاً غيبياً لا يُدركه الناظر والباحث، بل هو ربطٌ سَنني تُدركه بداهة العقول المُهتدية، ويرون وقائعه في الحياة والأحداث، ولذلك من أهم قواعد الصِّراع هو عدم الجلوس أمام آلة دعاية أعدائك لأنك حين تفعلُ ذلك إنما يتم تدمير داخلك؛ عقلاً ونفساً، وهذا منطلقُ الهزائم، ولذلك أمر القرآن الكريم بعدم الجلوس مع الكافرين حتى وهم يتكلمون خوضاً في الأكاذيب أو الاستهزاء بالدِّين وعدَّ هذا من الدخول في دينهم وحُكْمِهِم، قال تعالى في سورة «النساء»: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٤٩.
[3] سورة يوسف، الآية: ٧٦.
[4] سورة المائدة، الآية: ٥٢.

﴿إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾[1]. وقال في سورة «الأنعام»: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾[2].

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[3].

حين يقع البناء المُتكامل في الصف المؤمن المجاهد، وحين تعزل عن عوامل الفساد والتدمير، وبعد أن يبقى المؤمنون في مواقفهم اليقينية الثابتة حينها يكون العمل الإلهي فاعلاً في داخل الآخر، ذلك بأنَّ هذا الإلقاء في قلوب الكافرين هو إلقاءٌ سَنني، بما يرون من جَلد هؤلاء النَّاس، وثباتهم، وقوة يقينهم، ودوام هجومهم وغزواتهم، فهم قومٌ لا يَهِنُونَ، ولا ينكصون، ولا ينقلبون على أعقابهم، فالجِراح والقُروح والآلام لا يزيدهم إلاَّ يقيناً وثباتاً وإصراراً، فإنْ فرغوا من مهمةٍ نصبوا أقدامهم الأُخرى، وإنْ رأواْ أمواجَ الشرِّ ألقوا إليها بصدورهم، فقومٌ وفِئَةٌ هذا شأنهم في الحياة، وهكذا يراهم أعداؤهم فماذا سيكون موقفهم منهم بعد ذلك؟. إنه الموقف الذي يقوله الله تعالى هنا: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ...﴾. أما إن أحبت هذه الأُمَّة الدُّنيا، وخافت من الموت، وارتجفت أوصالها كلما قرع لها في الشنان، وزهدت في الآخرة، وأعلت البنيان وخافت ذهابه، وقادها المُترفون ـ الملأ ـ، وصار همها الدُّنيا وشهواتها، فإنْ كان هذا شأن هذه الأُمَّة فإنَّ أعداءها سيتكالبون عليها تكالب الأكلة على قصعتها، وتُصبح مهانة لأخس أهل الدُّنيا، وتُستباح لكلِّ كَلْبٍ يريد منها شهوته، ذلك بأنها أُمَّة تخلت عن دينها، وتركتِ الجهاد في سبيل الله، فحقَّ عليها سنَّة الله بالخذلان والهزيمة.

إنَّ الأُمَّة المُسلمة حين تطلبُ من الله أن يضربَ قلوب أعدائها بالرُّعب، وهي لا تجاهد ولا تُعِدُّ للجهاد وهي أُمَّة تعتدي على سنَّة الله، وتقول الجهالة عليه سبحانه وتعالى، وهذا ما يفتح الباب للزنادقة للطعن في القرآن الكريم وحقائقه، ويغري هؤلاء الزنادقة أن يستهزئوا بدين الله والمسلمين، وإنه مما يشهد لصحة منهج المجاهدين اليوم وفي كلِّ آنٍ أنَّ الأعداء مهما كانت قُوَّتهم، ومهما ملكوا من أسلحةٍ وعَتَادٍ ومالٍ ورجالٍ فإنَّ الرُّعب الذي يُصيبهم من الفِئة المؤمنة مع ضعفها وقِلَّتها يُؤَكِدُ أنَّ هذه الفئة المجاهدة هي التي تحيى آيات القرآن واقعاً عَمَلِياً، فهم أهل القرآن والأحق به.

مقدمات هذه النُّصرة الإلهيَّة قد تقدمت في وصف الأنبياء وأتباعهم ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ ...﴾. وحذرت من موانع النُّصرة الإلهي والولاية الربَّانيَّة ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ

[1] سورة النساء، الآية: ١٤٠.
[2] سورة الأنعام، الآية: ٦٨.
[3] سورة آل عمران، الآية: ١٥١.

﴿أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾. فإنْ حصل هذا فحينها تعمل سنن الله عملها، وتبدأ رحمة الله تعالى تتنزل على أهلها، ويشرع غضب الله باللحوق بالكافرين المُعاندين.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾. والرُّعب هو جنديٌّ من جنود الله، يضربُ النُّفوس والقلوب، فيشل الأبدان والعقول، وتحقيق هذا الجندي في قلوب المُشركين يُوجِبُ على المؤمنين مواقف وأعمالاً وأقوالاً، ذلك للقاعدة القرآنية النَّبويَّة أنَّ أعمال الغيب لا تكون إلاَّ بوجود أسبابها المُوجبة من أعمال البشر.

الرُّعب هو مادة الغلبة، ومن يقع فيه يرضى بالعبودية للغالب، والمؤمن يحقق الرُّعب في نفوس الملأ ليحقق الانتصار عليهم حتى ينعتقَ الأتباع في اختيارهم لعبودية الله تعالى، أما «الآخر» وهو الملأ الكافر فإنه يسعى لتحقيق الرُّعب في نفوس المؤمنين ليرضخوا لعبوديته وطاعته، والذين يفسرون صِراع التاريخ على هذا المِنوال أي قبول المغلوب بالعبودية مقابل الإبقاء على حياته وعدم موته، وذلك من خلال الرُّعب الذي تُحدثه صدماتهم لخصومهم، حيث يتم النحر والذبح الجماعي والصدمات الهائلة من المجازر الأولى، والتي تحقق هذا الرُّعب المطلوب في المسلمين ليتم الاستسلام والخضوع يمكن القبول بتفسيرهم هذا، ولكن لا يُوجد في القرآن ما يُعالجه.

هذا المنهج الطَّاغوتي يجابه في القرآن بتصحيح مفهوم الموت كما تقدم، كما يجابه باستخدام سلاح الرُّعب نفسه لتحقيق هزيمة هؤلاء الملأ الطَّواغيت، وإنَّ أول وسائل تحقيق هذا الرُّعب هو قلب السهم لوجود المانع في الصف الداخلي من اختراق الرُّعب فيه، وبالتالي سينقلبُ على مُرسله، فهذه الشَّجاعة المُتناهية، والإقدام العجيب على الموت، وعدم الالتفات إلى قصف العقول من قِبَلِ الكافرين ثم عدم طاعتهم والاستماع لهم لَهُوَ الجِدار الذي يحقق ردة السهم نحو مُرسله.

هذا الجندي ـ الرُّعب ـ هو أقوى الأسلحة، ويمكن أن يحقق النتائج مع أقلِّ الخسائر، وقد رأينا في سورة «الحشر» عند الحديث عن بني النضير كيف كان إلقاء الرُّعب في قلوب الأعداء سبباً في استسلامهم وتسليم ديارهم للمؤمنين، وقذف في قلوبهم الرُّعب ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾[1]، وقد رأينا هناك كيف كان إحراق النخيل وقطعه سبباً في الوصول السريع نحو أهداف الغزوة النَّبويَّة المُباركة، وفي سورة «المائدة» قدَّم الرجلان الصالحان ـ وهما عندي موسى وهارون عليهما السلام ـ حلاً ليتحقق النَّصر هو اندفاع المؤمنين من بني إسرائيل زَرَافَاتٍ ووِحْدَاناً، وبشجاعةٍ نحو أبواب المدينة ليتحقق النَّصر ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَـٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2]، ولكن الرُّعب كان قد أصاب بني إسرائيل وحطم إرادتهم وأصابهم بالعجز والخوف والجبن فكان ما كان مما قصَّهُ

[1] سورة الحشر، الآية: ٢.

[2] سورة المائدة، الآية: ٢٣.

الله علينا هناك، ووصفه الرجلين الصالحين نافعة في كثير من المواقف حين يكون مجرد الثَّبات والوقوف هو سببٌ لهزيمة الخصم وانتصاره كما يعرف التاريخ العسكري، لأنَّ الخصم نفسه يكون في حالة مُعاناةٍ وضُعْفٍ يُوشِكُ على الانهيار، ولكن ليست هذه الوصفة صالحة لكلِّ المواقف كما يعلم أهل فن الحرب والقتال، ومن ذلك رجوع سيف الله خالد بن الوليد بالمسلمين بعد ما أصابهم ما أصابهم في غزوة مُؤْتة، وسمَّاهم رسول الله ﷺ بالكُرار.

في موطن ما يكون المُقابل لك صاحبَ وعيٍ خاصٍ، وإدراكٍ نَبِيهٍ فيمكن إحداث الرُّعب من خلال كلمات الحقيقة التي تُجابهه بها، ومن ذلك ما وقع لموسى عليه السلام مع السَّحرة كما في سورة «طه» كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ ﴾[1]، فوعيُّ السَّحرة وذكائِهم جعل كلمات موسى عليه السلام تُحدث لهم تنازعاً، وحِواراً حول حقيقة ما يقول، وفي هذه الآيات دليلٌ على أنَّ السَّحرة حصل لهم تأثرٌ أولي، وتحققت فيهم الصَّدمة والالتفات نحو الحقيقة قبل أن تأكلَ عصا موسى عليه السلام سحرهم بحبالهم، ولكنَّ هذه الصَّدمة لم تكن كافيةً لتحقيق الإيمان حتى تحقق الأمر الثاني فكان إيمانهم، والقصد أنَّ حصول التنازع إنما وقع لكلمات موسى عليه السلام لاستعدادهم الفِطْري والمُكتسب في الوعيِّ على الحقائق التي تُقَالُ لهم.

ومما جعله الله تعالى سبباً لرعب الأعداء هو الإعداد الذي يحقق النِّكاية فيهم كما قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[2]. والآخرون هؤلاء همُ الأعداء غير المرئيين من المنافقين وغيرهم، وإنَّ من حكمة الله تعالى أنْ جعل فاصلة الآية هي قوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾. إذ جعل كل ما يفعله المؤمن وهو يُعِدُّ للجهاد ـ حتى لو لم يستخدمه ـ هو إنفاقاً في سبيل الله تعالى، ويمكن جمع هذه الآية مع الآيتين في سورة «التوبة» ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم... إلى قوله تعالى: لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾[3]. لنرى سِعة مفهوم الإنفاق في سبيل الله تعالى حتى دخل فيه ـ ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ ـ وهو بابٌ يحتاج إلى علماء في نفوس النَّاس عامةً ونفوس الكافرين المُعاصرين لهم خاصةً ليُبدعوا من الأقوال والأعمال ما يحقق هذه الآية ليتحقق الأجر.

إنَّ علاقة هذه الآية: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ وبين الآيتين المُتقدمتين علاقة وثيقة، ذلك أنَّ الرُّعب يقع في نفوس المسلمين حين ينهجون في الحياة مناهج الكافرين، وهذا ما نراه مُشاهَداً

[1] سورة طه، الآيات: ٦٠ـ٦٢.
[2] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.
[3] سورة التوبة، الآيتان: ١٢٠ـ١٢١.

في واقعنا إذ نرى أنَّ الأحزاب والتنظيمات الإسلامية التي تتقاطع في أهدافها مع أهداف الكافرين، وتريد أن تحقق عِزَّة الإسلام من خلال رِضاهم هُمْ أشدُّ النَّاس رُعْباً من الكافرين، فهم يلتفتون إلى رِضاهم مع كلِّ حركةٍ، وعند كلِّ قرارٍ، ويحاولون أن يرسموا خُطُوَاتِهِمْ ضمن خُطُوطِهِمْ، والعجبَ ممن يظنُّ أنَّ أحداً يرسمُ خطوطاً تسمحُ للسائر عليها بتدميره وإهلاكه، ولذلك مما هدى الله إليه المجاهدين دَوْماً، وفي زماننا كذلك، أن خرجوا عن هذه المسارات الجاهلية مُنْحَازِينَ إلى هُدَى القرآن وأَوَامِرِهِ، حتى لو لم يُدْرِكُوا حِكْمُته، ولذلك هم الذين يحققون الرُّعب في صفوف الكافرين مع قِلَّتهم وضعفهم.

إنَّ هذه الفئة المؤمنة المجاهدة هي التي حققت الرُّعب في نفوس الأعداء لأنَّهم باختصارٍ لم يَتَعَاطَوْا مع الآخر ضِمْنَ خُطوطه الطُولِيَة أو الأُفُقِيَة في جِهَادِهِمْ وَصِرَاعِهِمْ، وكان أشدّ ما قاله قادة الأمن والاستخبارات فيهم هو أن ينشأ في الأُمَّة المسلمة جيلٌ جهاديّ لا يُقاتل بمفاهيم دوائر الصِّراع التي وضعها هو بنفسه، لأنَّ كلَّ صراعٍ داخل هذه الخطوط هو صراعٌ مضبوطٌ يحقق أهدافاً للكفار أكثر مما يحقق للمخالفين، وأما هذا الجيل المُرعب فإنه ينقل الصِّراع ضمن خطوطه ودوائره هو، وهذا ما يمنع تحقيق أي منافع لهم بل إنَّ أعظم المنافع ستكون لهذه الفئات حتى لو كانت قليلة.

لقد رأينا كيف كانت نتائج حروب الاستقلال، إذ كانت ضمن قواعد اللعبة ـ كما يُسمُّونها ـ، فآلت بمجموعها منافع للآخر، وهذا ما يحاول البعض ممن يزعم الواقعية والفهم والذكاء أن يجر المجاهدين إليه، وأشدّ ما يعيبه عليهم هو تميُّزهم الخاص هذا، وهو تميُّزٌ يحقق موقف قوةٍ لهم ورعبٍ لخصمهم لأنَّ المجاهدين خارج السيطرة، ويقودون المعركة كما يريدون ـ مع صِغرها حيناً ـ لا كما يريد أعداؤهم، وبهذا التميُّز تتحقق النتائج.

إنَّ خروج المجاهدين على قواعد ودوائر وخطوط الأعداء قد يُتعبهم ويُضيِّقُ عليهم الحال، فهم فوق الثُنائية التي تفرض نفسها من خلال قاعدة التدافع بين القِوى والبشر، حيث تسعى بعض الجماعات إلى لصق جهادها بمفهوم الوطن، وهو مفهومٌ فرضته الجاهلية كدائرة مأذون لها بالصِّراع، أو انحازت إلى جهة من جهات التدافع لِتَقاطُعِ مصالحها معها، وذلك لِضعفها عن تحمل تكاليف الإنفراد والتميُّز، وهذا سيفقدها عوامل عدَّة من عوامل النَّصر، وستجعلُ من نفسها رقماً ضمن مصلحة المُهيمن عليها، وهذا قد يقوِّيها حيناً لكنه أشبه بالمُخدرات التي ينشطُ لها الجسم لفترةٍ ثم تنقلبُ عليه دماراً وضعفاً، وأما المجاهدون الذين خرجوا على هذه القواعد فسيتعبون بلا شك، لأنَّهم خارجَ نظامِ الحِماية التي تفرضها قواعد الجاهلية لأفرادها مع تضادهم، لكنهم هم الأقدر على البقاء، وهم أولى النَّاس بمفهوم التوحيد والبراءة من الجاهلية، وهم أولى النَّاس بتحقيق النَّصر ضمن شروطه الأُخرى والكثيرة.

إنَّ مما يمِّيز المنهج الإسلامي في التدافع وقِيمِهِ هو الخصوصية التي يهدي أتباعه إليها، وهذا ما يؤكده القرآن، وهو حين يدعو أتباعه والمُهتدين به على إعمال أوامره فإنه يدعوهم ليقوموا بها

بصفتها أعمالاً نسكيَّة يتعبدون الله بها، وهذا كان سبباً كافياً لتحقيق النَّصر لدى المسلمين الأوائل، مع وجود العلماء والحُكماء الذين يُدركون حِكَم هذه الأوامر وأثرها على الحياة، ومُوافقتها للفِطَرِ والقَدَرِ، وفي يومنا هذا تكثر الجهالات التي يبتدعها قادة الفكر والجماعات في الأُمَّة، وعُمدة جهالاتهم هو فصلهم القرآن الكريم عن الحياة وعن سياساتهم ومناهجهم وعامتهم مَن يرى أنَّ الأوامر النُّسُكِيَّة قاصرة على الأعمال التي يقوم بها المسلم لله تعالى، وأما شؤون الحياة واختيار المواقف فهي محكومة للرؤى الذاتية والتقيِّيم الذاتي لهؤلاء القادة، ومما يشجعهم هؤلاء الفقهاء الذين درسوا الفقه من كُتُبِ الفقه الاصطلاحية، وما يعرفونه من القرآن الكريم هو قواعد عامة يعرفها العوام مثلهم، وإنما يتميَّزون عنهم بهذا الفقه الذي تقدم، وتكون مراتبهم بمقدار ما يحوي الواحد منهم من آيات تخدم هذا الفقه بأبوابه المعروفة، وبكثرة معرفة مسائل الخلاف وأدلتها، وهذا ولا شك دينٌ وفقهٌ، لكن ليس بهذا الفقه وحده تحيا الأُمَّة ويصلحُ حالها، بل إنما تبدأ الأُمَّة بالشروع نحو أهدافها إنْ ذهبت إلى كتاب ربِّها ليُجيبها على كلِّ قضايا الحياة، حينها يُصبح القرآن الكريم صانعاً لجيلٍ صحابيٍّ جديدٍ، لأنه يصنع عقولاً ونفوساً وإرادات مُتميِّزة، وبهم يتحقق الوعد الإلهي كما تحقق مع تاريخ الإسلام كلِّه.

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾[1].

إنَّ هذا الربط بين الرُّعْبِ وبين الشِركِ لَيدل على خطرِ هذا المرض الخبيث، وهو أخطرُ الأمراض وأخبثها، وهو عِلَّة فساد الإنسان والبشرية، وكل الانحرافات التي تُصيب البشرية إنما مبعثها هذا المرض الأكبر في الوجود، وآثاره على الإنسان في هذه الحياة وفي الآخرة لا تحويها المجلدات، ومن أجل خطورة هذا المرض بعث الله لعلاجه الأنبياء وأنزلَ الكُتب، وعُقِدت له سوق الجنَّة وسوق النَّار، وهو الظُّلم الأكبر، والعمى الحقيقي، وسقوط المرء فيه يعني فساد كلِّ قِيمه واختلال كلِّ موازينه، وخروجه الحقيقي عن دائرة الإنسانيَّة لقوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾**﴾[2]. فجعلهم الله تعالى أضل من البَهم، وهم كذلك، وميزان المسلم المُوحِّد في الحُكمِ على البشر وقِيمِهِمْ وأعمالهم إنما هو من خلال التوحيد وما يُضادُّه من الشرك والكفر.

معركة المسلم الكُبرى هي تحت راية الإيمان بالله وتوحيده، وحين تكون كذلك يكون الله تعالى مع المؤمنين في جهادهم، وتخلي المسلمين عن هذه القضية يعني تخليهم عن نُصرة الله لهم، ورَفْع تأييده عنهم، وهذا ما يقع فيه المسلمون اليوم في كثيرٍ من معاركهم حين لا يَرْبِطُونَ قضاياهم مع التوحيد،

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥١.
[2] سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

أو يخجلون عن إظهار تَمَيُّزِ حروبهم عن حروب غيرهم تحت ضغط الجاهلية وقِيَمِهَا ومَفَاهِيمِهَا، وهذا ما يُؤَخِرُ النَّصر ويحجبه.

إنَّ مُهمات الجاهلية أنْ تَبْلَعَكَ وتُدْخِلَكَ في أَحْشَائِهَا حتى وأنتَ تخاصِمها، وبذلك تسعى أنْ تربطكَ بِقِيَمِ الأرضِ وتُبْعِدَكَ عن عُبَودِيتَكَ لله وقِيَمِ السماء والآخرة، فيُصْبِحُ حقُّ الله تعالى قضيةً خاصةً لا يجوز لأحدٍ أن يمثلها أو يُقَاتِلْ من أَجْلِهَا، لأنَّ الجاهليةَ ومن خلال قِيادة الشيطان لها، وهي قيادة حقيقية وليست رمزية تعرف أنَّ هذا مصدرَ قُوةٍ وعُنْصُرَ نَصْرٍ في هذا الصِّراع، والمُتابع لِصُرَاخِ الجاهليين اليوم «العلمانيين» يرى أنَّ أشدَّ ما يقْهَرُ قلوبَهم ويغيظ نفوسَهم هو إدعاء المسلمين في جهادهم أَنَّهم يحاربون باسم الله، وأنَّهم جُنده، في مُقابل أَنَّهم هم أعداء الله وجنود الشيطان، وحين يخجلُ المسلم من هذا الإدعاء ويرضخ لقصفهم الإعلامي واستهزائهم المُتكرر يعني أنه فَقَدَّ خُصوصيته ومصدر قُوِّته، وبالتالي يُصْبِحُ واحداً من أعدادٍ كثيرةٍ تتخاصم على المنافع والأرض والأموال وأمثالها لا غير، وبهذه الصفة تفقد المعركة مُوجِبها الدائم والمُتواصل، ولا مانع بعد ذلك من الوقوف مع الجاهلية في منتصف الطريق لأنَّ الكلَّ يقفُ على أرضيةٍ واحدةٍ ويُعبر عن قيم واحدةٍ؛ فالجاهلية تعملُ على جبهتين اثنتين في معركتها ضدَّ المسلمين، **أولاهما**: أنْ تفرض قيمها في هذه المعركة، وتجمع كلّ الطوائف المُتخاصمة تحت لوائها وقوانينها، **وثانيهما**: أن تسرق الشعارات والمُصطلحات الإيمانية لتملأها بمُسميات قيمها الجاهلية، ومن ذلك اسم الجهاد والشَّهادة في سبيل الله تعالى وأمثالها، وهذه المعركة ليست معركة مصطلح وشعار لكنها معركة قيم ومفاهيمٍ، وتدور حول حقائق دُنيوية وأُخروية، وإنْ تحقق للجاهلية مُرادها - وقد تحقق على صُعُدٍ كثيرةٍ وتم الاختراق في أحزابٍ ومفكرين إسلاميِّين كُثُر - فإنَّ القرآن الكريم يُصبح مجردَ كلماتٍ وأوراقٍ تمزق من أجل اتخاذها لوحات جمالية لا محتوى حقيقي لها، ويتخذها كل الفُرقاء شعارات للتداول السِلعي المادي القذر في عالم من البيع الحرام والربا والسُّحت.

يجب على المجاهدين اليوم أن يحاربوا هذه الاختراقات الكافرة في الصف المسلم، لأنها جزءٌ كبيرٌ من معركتهم، وهي قضايا إيمانية وقرآنية، فالفصل بين التوحيد والشرك، وبين المسلم والمُشرك، وبين الإسلام والكفر، وبين المسلم والكافر هو أول ما دعا إليه رسول الله ﷺ، ولذلك كان مما نقمت قريش على رسول الله ﷺ أنه حَكَمَ أنَّ آباءَهُم كفارٌ وأنَّ مأواهم بعد الموت جهنَّم، وهذا شديدٌ شاقٌ على النُّفوس، وفي أيامنا هذه نرى شِدَّته وقَسْوَتَهُ على الكافرين أشدّ من غيره، هذا مع أنَّ أغلبهم لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ومع ذلك هم يَأْنَفُونَ ويغضبون أن يُسمِّيهم المسلمون كُفَاراً وأنَّ جهنَّم مأواهم ومأوى آبائهم الكفرة، وتُصبح هذه القضية أعظم وأشدّ وأقسى على المسلمين والمجاهدين حين تكون مع بني جِلْدَتِهِمْ ويَتَسَمَّوْنَ بالمسلمين، وهم مع ذلك يحاربون الإسلام ولا يؤمنون بأحكامه بل ويُقاتلون الدَّاعين إليه، ويزيد أُوَار هذه المعركة حين يحكم على العاملين في

نفس قضيتك الإيمانية بالكفر والخلود في النَّار، ولكنهم لا يعملون بها من مُنطلق التوحيد والإسلام بل من رُؤى ومفاهيم جاهلية كثيرة.

يُقرر القرآن رُكْناً للتوحيد ولا يصح إلاَّ به، وهو أنه لا يكفي أن تُعلِّق إسلامكَ والتزامكَ بقيِّمِهِ، بل يجب عليك أن تبرأ من الشرك وأهله، ويحُكَمُ عليهم بحُكْمِ الإسلام فيهم، وتعتقد بمآلاتهم في الآخرة وأنَّهم أصحاب النَّار.

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾.

هكذا يتم النَّصر الإلهي حين تتمايَّز الصفوف على أساس الإيمان بالله، ويدخل المؤمنون المعركة ضدَّ خصومهم لأنَّهم حاربوا الله ورسوله، ولأنهم أشركوا بالله ما لم يُنزل به سلطاناً، وهذا مما يُغضب الله تعالى منهم فتكون سبباً لنُصرة المؤمنين به والغضب على السابين عليه والمُشركين به، وحين يخجل المجاهدون من هذه الدعوى يفقدون نصر الله تعالى لهم وتأييده، وهذا ما يقع حين يتولى المسلمون غيرهم، فيطلبون رِضاهم طمعاً في نُصرتهم وتأييدهم وهم في الحقيقة يفقدون وليِّهم وناصِرَهُم ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[1]، فالتِفَاتُ المؤمن دوماً إلى نفس الله تعالى وما يحب وما يُرْضِيهِ لا ما يحب النَّاس ويُرْضِيهِمْ هو الذي يحقق دوام تقدمه نحو أهدافه، وهذه من صفات تميُّز المؤمن وفَرادته في حروبه وسِلْمِهِ وحُبِّهِ وبُغْضِهِ، لأنه غيبيٌّ المقاصد وإنْ كان سَنني الحرمة والسلوك، وهذا ما يحقق فيه صفة الربَّانيَّة التي هي ركنُ انتصاراته في الدُّنيا والآخرة.

إنَّ المؤمن الصادق لا يتخلى عن وِلاية الله تعالى من أجل وِلاية غيره مهما كانت آثار ولاية غيره ظاهرة مُوهمة ومهما كانت سريعة آنية، لأنَّ العِبرة بالغايات والمقاصد، وإنْ كان ثمَّ خيار بين الدُّنيا وما فيها، ومن ذلك النَّصر المُؤقت وبين الآخرة فإنَّ المؤمن لا يتردد في اختيار الآخرة، إذ يمكن أن يكون في وقتٍ من الأوقات تَضَادٌ بين النَّصر في الدُّنيا وبين إرضاء الله تعالى، فإنْ حصل هذا التَضَاد، وهو قليلُ الحدث، فإنَّ المجاهد المؤمن الذي يُقاتل من أجل إرضاء الله تعالى ودخول الجِنَّان يمضي نحو مقاصده التي خرج من أجلها، ذلك أنَّ ما عند الله تعالى لا يُنال بمعصيته.

﴿ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾[2].

هذه القضية اليقينية، يتعامل القرآن معها تعاملاً وثيقاً في كلِّ القضايا والمواقف، ويُنَبِهُ لها المؤمنين لأنَّ كلَّ القضايا الأُخرى لا تُدَانِيهَا أهمية، فالشَّقَاء كلَّ الشَّقَاءِ والخسارةَ كلَّ الخسارةِ حين يكون المُستقر في النَّار، فهي الشرُّ المُطلق، والعذاب الأبدي المُقيم، والقرآن وهو يُهدد الكافرين بها مع عدم إيمانهم بها، أو بعدم إيمانهم بمُوجِبَاتِهَا مما يفعلون من الشرك والكفر والضلال، فإنه يخوف المؤمنين بها حتى لا يسلكوا طريقها، ولذلك يستهزئ بها الذين لا يؤمنون بها، والمؤمنون مُشْفِقُون منها،

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٠.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٥١.

ومع عِظَمِ عذابها فإنَّ الله سبحانه وتعالى يعجبُ لجهالة الكافرين واستهزائهم بها كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾[1]. وعلى المؤمن أن يَستَحْضِرَ الخوفَ منها في كلِّ عَمَلٍ وحَالٍ لأَنَّ اليقين عليها من أقوى الدوافع للطاعات وتركِ المعاصي، وخوف المؤمن منها يُشْغِلْهُ عن كلِّ خوفٍ، ويَقِينُهُ أنها مُسْتَقَرُ الكافر يُوقِفُ أيَّ حُسْنٍ له إنْ كان في شيءٍ من النِّعَم، فأيُّ نَعِيمٍ هذا الذي يعيشه إنْ كان نهاية هذا النَّعيم هو الخلود في جهنَّم، وأهون أهلها فيها رجلٌ يُوضَعُ تحت أخمص قدميه جمرتين يغلي منهما دماغه[2] ـ نسأل الله العفو والعافية ـ ولذلك هي بئسَ مثوى الظالمين. اللَّهُمَّ إنا نسألكَ الجنَّة ونعوذُ بك من النَّار.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾[3].

بهذه الآية يبدأ عِلاَجُ الداخل، عِلاَجاً يلمس الأخطاء والسِلبيَّات، ويضعُ المؤمنين المجاهدين أمام أنفسهم، لأنَّ بهذا الكشفِ تُقَوَّمُ الأخطاءُ وتُعالج وتمضي القافلة.

لقد رأينا منهج القرآن جَليّاً قبل هذا الكشف وعرض الأخطاء والسلبيَّات، إذ رأينا القرآن يدفعُ النُّفوسَ، ويُعيد لها ثقتها، ويدفعُ عن القلوب الريب والشك إن حصلاَ بعد القَرح بتصويب الطريق التي سلكوها، ودفعهم إلى الثَّبات عليها وعدم تغيِّيرها، ثم حَصَّن علومهم ومواقفهم من مُقارفة طاعة الكافرين، وأمورٌ أُخرى تقدمت، ثم بعد هذا جاء لإصلاح الخلل والخطأ، فلم يسلكِ القرآن طريق الطعن وكما لم يسلك سبيل كشف الأخطاء ابتداءً، لأنَّ المقصود هو البناء لا الهدم، والثَّبات لا النكوص، وتحضير الجُند للمراحل القادمة من القتال والجهاد لا صرفهم عنه.

لقد أعاد لهم الثِّقة ابتداءً بعُلُوِّهِمُ الإيماني، وحَكَمَ بأنهم ما زالوا جنوده وعَبيدَهُ وهو وليُّهم، إذ لم يتغيَّر من هذا شيءٌ، وربطهم بسلسلة الهُدى النَّبويَّة المُقاتلة على مدار التاريخ، وعرَّفهم بأنَّ الهزيمة ليست حدثاً طارئاً على الجماعة المُؤمنة، كل ذلك ليتماسك البناء ويثبت ويتعافى، ثم بعد ذلك جاء هذا المرور على عِلَّة القَرح والهزيمة، وهو مرور الرحيم بهم والذي خُتم بقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢**﴾. إذ أعلن مع أول خُطوات هذا الكشف أنه عفا عنهم ـ **وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ** ـ فرفع عنهمُ الوِزْرَ الذي ينقض الظهر ويشقي النَّفس ويُرْهِقُ العقول.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٧٥.

[2] إشارةً إلى حديث النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَرَجُلٌ تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ**». البخاري في «كتاب الرقاق» باب صفة الجنَّة والنَّار. حديث رقم: ٦٥٦١. طرفه في: ٦٥٦٢. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب أهون أهل النَّار عذاباً. حديث رقم: ٢٣١.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

هذا الكشف الربَّاني المُعلن ليس دليلاً للمثبطين، ولا للقاعدين، ولا لذوي المناهج التي تقدح وتذم الجهاد، لأنَّ الحالين مختلفٌ، والأسلوب مختلفٌ، والمقاصد مختلفةٌ كذلك.

إنَّ هذا ليس كشفاً للعورات، لأنه كشفٌ داخليٌّ، يُنَاجي به المولى عَبِيدَهُ، ويُعْلِنُ أنهم منه وأنه مولاهم وناصرهم، وأما كاشفُو العورات فيبتدئون حديثهم بالتميُّز عن المجاهدين والابتعاد عنهم حتى لا تُصيبهم شظايا الكفار وقصفهم.

إنَّ النَّاصح الشفيق، والناقد الرفيق هو الذي يقفُ معك حيث تقف، فيظلكما سقف المنهج الواحد، ويلقي معك ما تلقى، وهو مع ذلك يُبَصِرُكَ بالأخطاءِ والنقائِصِ مع المسيرة المُتواصلة الثابتة، من غير دعوةٍ للنُّكُوصِ أو الهُرُوبِ والفِرَارِ، وهو مع هذا يدفعُ عنك ظُلْمَ الظالمين، وكذبهم وافتراءاتهم التي يُلَصِقُونَهَا بك، دَفْعاً في السرِّ والعَلَنِ، فلا يُسَمِيكَ بالآخر حين يتكلم، بل هو يتكلم عن إخوانه «بالأنا»، فلا يقول: أخطئوا، وتسرعوا، وجهلوا، بل يقول: أخطأنا وجهلنا، لأنَّ الكُلَّ في الميدان، والكلّ معني بتحقيق أهداف القرآن والسنَّة، والكلّ يدفع التضحيات هذا عتابٌ ربَّاني على التقصير، وإرشادٌ لهم ليُرَاجِعوا عِلَلَ القُرُوحِ والألم، وقد جمعها بقوله: **فَشِلْتُمْ... وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ... وَعَصَيْتُم**، وسبب هذه العِلل يعود إلى النُّفوس لا الأفكار، وإلى نوازع الإرادات وتوجهاتها ـ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ** ـ.

لقد بدأ هذا الخطاب الرحيم بقوله: « **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ** » ذلك مطلع تحديد التُّهمة، لأنَّ الله سبحانه وتعالى العدل، وصادقُ الوعد، فالله سبحانه وتعالى أَوْفَى لعباده ما وَعَدَهُمْ، وَأَوْقَعَ لهم ما يحبون، وأنجزَ لهم مَطَالِبَهُمْ، ولذلك بدأتِ المعركة بتحقيق الوعد، حيث بدأ الصَّحابة يقتلون الكافرين ـ **إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ** ـ.

إذن هذا المطلع هو الجواب الربَّاني لكلِّ مَن يسأل عن النَّصر وتخلفه، وينظر إلى السماء وهو ينتظره ظاناً أنه قد تأخر لسببٍ يتعلَّقُ بمرسله وهو الله سبحانه وتعالى، ولا ينظرُ إلى الأرض والإنسان، ولا ينشغلُ بالبحث عن موانع حصول النَّصر وتحقيقه، فالآية تُرجعه إلى نفسه، وإلى محيطه، وإلى جماعته، لأنَّ العِلَلَ هنا لا في السماء، والقضية تكمنُ بما في نفوسهم لا بما في نفس الربِّ سبحانه وتعالى، وهذا التوصيف هو الذي يحقق العلاج ويصلح الحال، فالله جلَّ جلاله لا يُتهم، ووعده لا يتخلف إنْ وُجِدَ مُوجِبُهُ، ورحمته أوسع من عدله، وسواء كان هذا الخطاب الربَّاني ـ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ** ـ إخبارٌ عن وَعْدٍ خَاصٍ حصلَ قبل موقعة أُحد بأن ينصرهم الله في هذه المعركة أو هو إخبارٌ عن الوعد العام الذي وعد الله عباده أن ينصرهم، فإنَّ هذا يدل أنَّ المسلمين هم من يمنعون تحقق النَّصر بما يعملون، وأنَّ وعد الله يأتي ولكن المعاصي هي من تدفعه وترده.

هكذا جعلت هذه الآية قَتْلَ المشركين وعداً إلهيّاً، لأنَّ الله أَمَرَ به وهو يحبه ويرضاه، فَقَتْلُ المُشركين مقصدٌ إلهيّ ـ **وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم** ـ فما يحقق القتل فيهم، وما كان في معنى القتل هو نصرٌ

للمؤمنين، بل في واقع الأمر لا يتحقق النَّصر للمؤمنين إلاَّ على جُثَثِ وأشلاءِ ودماءِ المشركين، وهذه قاعدتهم كذلك، وإذا تخلى المسلمون عنها فلن يتخلى عنها المُشركون، ولكن بتخليهم عنها إنما يرون نصر الله تعالى وتأييده.

ـ **إِذۡ تَحُسُّونَهُم** ـ أي تقتلونهم، لأنَّ بقاءَ أئمةِ الكُفْرِ وجُنوده هو صدٌّ عن سبيل الله تعالى، وهو تعطيلٌ للطريق المُوصِلِ لصلاح الوجود، وحين تفرغ أرضٌ من الأراضي من هؤلاء المُستكبرين العُتاة فإنَّ الطريق تُصْبِحُ مفتوحة للدعاة والمرشدين وحملة كلمة الحق لإيصالها للنَّاس، وهؤلاء النَّاس بعد ذلك لا يجدون من يصدهم عن دين الله تعالى وعن الحق، وأما قوله سبحانه وتعالى: «**بِإِذۡنِهِۦ**» فهو دليلٌ لأهل السنة على أنه لا يكون شيءٌ في الوجود إلاَّ بإذنه القَدَري سبحانه وتعالى، وموطن هذا البحث والرد على المُخالفين في كُتُبِ التوحيد.

﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡ** ﴾ .

هذه أسباب الهزيمة في موقعة أُحد، وللهزائم في المعارك أسبابٌ كثيرةٌ، والقرآن ههنا يَفْصِّلُ المَوْقِفَ الذي وقع بسببه غياب النَّصر بعد أنْ رآه الصَّحابة، وكادوا أن يقتطفوا وعد الله تعالى لهم به، وهكذا يُؤيِّد في هذه الآية أنَّ النَّصر هو ما يحبه المُؤمنون، وهو الذي قاله سبحانه وتعالى في سورة «الصف»: ﴿ **وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ** ﴾[1]، فكان تخلُّفَ ما تحبون بسبب أعمالكم، وانظر إلى هذه المُقابلة بين لفظ الحبِّ ولفظ الإرادة، ثمَّ وقوع ما تريده الإرادة إنْ كانت في طريقٍ غير الطريق التي تحبه النُّفوس، هذا مع أنَّ الحبَّ هو إحدى مُكوِّنَاتِ الإرادة، لأنَّ الإرادةَ لا تنبعثُ إلاَّ لما يحبُّ الإنسان ويرغبُ به، ولكن قد تتدافع المحبوبات فينتصر الأقوى، وقد يخُطئ المرء طريق تحقيق ما يحب فيفُوته، وقد تذهل النُّفوس عن محبوبٍ غائبٍ أمامَ محبوبٍ حاضرٍ، فتنبعث الإرادة إلى الحاضر لِغِيَاب غيره عن قلبه أو عينه مع عظمته وأهميته، وكل هذا مُتَصور في الحال الذي بين أيدينا، وهو ضعفٌ قد يحصل في الوعيِّ وقد يحصل في النَّفس، وإنْ كان حضور هذا الضعف في النَّفس أقوى، وسيأتي في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ** ﴾[2]. بيانٌ أنَّ هذا الضعف منشؤُهُ المعصية.

﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ** ﴾ أما الفشل فهو الضُّعف والتخاذل، وهذا الذي أصابهم ﷺ، وذلك أنهم ضربوا الضربة الأولى وتحصَّلَ لهمُ الهدفُ الأول مِنْ قَتْلِ المُشركين، فقطعوا بعض الطريق أو أكثره إلى أهدافهم، فبدل أنْ يُواصِلوا الأعمال القِتالية حتى يُقْطَعَ دَابِر الكافرين في المعركة، ويتحقق النَّصر الكامل فيها، أخذوا ينظرون إلى اغتنام ما وقع من الغنائم استعجالاً في الاستحواذ عليها،

---

[1] سورة الصف، الآية: ١٣.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

وهذا ما جعل طائفة الشرك التي تتربص هذه الغفلة أن يضربوا ضربتهم ويُقَلِّبُوا اتجاه المعركة إلى صالحهم، فالفشل هو النتيجة الحاصلة للتخاذل عن مُوَاصَلَةِ الطريق والانشغال عنها بسقطاتٍ قليلةٍ، وهذا درسٌ لكلِّ المؤمنين من الوقوع في هذا المزلق، لأنَّ الأمور ببداياتها القوية وبإثنائها من استغلال النَّصر الأول ثم نهايتها التي تعني أن يتحقق الهدف كلّه، لأنَّ تحصيل بعض الأهداف مع وجود المخاطر، والانشغال بهذا البعض دون الالتفات للجيوب المُتربصة الكامنة في الرماد عيٌّ وخطأٌ كبيرٌ وفسادٌ يمنع تحقيق النَّصر بل يُؤْتِي أُكْلَهُ شرّاً وهزيمةً.

إنَّ التخاذل قد يكون بعدم تحصيل الهدف الكامل في معركة، ولكن التخاذل الأعظم هو ترك الجهاد اكتفاءً بما يحصل من أهداف تحققها معارك عِدة، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: «**مَا غُزِيَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلاَّ ذَلُّوا**»[1]، وهذا مؤذن أنَّ الذِّلّة مقرونةٌ بترك الجهاد حتى لو كنَّا في مَأْمَنٍ واطْمِئْنَانٍ، فكيف لو كان الأمر على خلاف ذلك، من ضياع بلاد الإسلام وغلبة الردة عليها، واستباحةِ المُشركين لها، ونهبِ ثرواتها، وإهلاكِ الأنفسِ وتخريبِ الدِّين وإفساده؟! إنَّ الجهاد يكون حينئذٍ مِنْ أَوْجَبِ الواجبات لتحصيل رَأْسِ المال ودَفْعِ هذا الفساد.

﴿**وَتَنَـٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ**﴾ أي خلافكم وتفرقكم في تنفيذ أمر قائدكم ﷺ، إذْ أنَّ البعض أصرَّ على النزول واغتنام الفُرصة لجمع الغنائم، وأما الآخرون فقد ثبتوا في مواقعهم تنفيذاً للأمر العسكري، والواجب هو تنفيذ الأمر من جميع الجنود بلا استثناء، لأنَّ هذا الذي يحقق النَّصر، ذلك لأنَّ هَدْيَ القرآن يأذن بالخلاف في الرأي، لأنَّ هذا من التنوع الذي لا يمكن دفعه أبداً مع وُجود مُوجِبَاتِهِ، ولكن لا يأذن أبداً في الخلاف في الأعمال وخاصةً ما كان مُتَعَلِّقاً بقضايا الأُمَّة.

لقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم يختلفون في الرأي، حتى في المسائل العِلمية الشرعية، لكن حين يصلُ الأمرُ إلى المواقف العَملية تجدهم في صعيدٍ واحدٍ وعملٍ واحدٍ، ومن أمثلة ذلك ما حدث من الصَّحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في إتمام الخليفة الراشد عثمان بن عفان الصلاة في مِنًى أيام التشريق، فإنه خالفَ الخليفة وخطَّأه، ويحقُّ له ذلك، بل هذا من دين الله تعالى، لكن لما صلى بعد ذلك أتم، فَسُئِلَ عن ذلك وقال: الخلاف شَرٌّ، والخلاف الذي سمَّاه شَرّاً ليس الخلاف في الرأي ولكنه الخلاف في الموقف والعمل، فهذا مثالٌ في المسائل العِلمية فكيف لو كان الأمر في مسائل الإمامة والخلافة؟!.

لقد خالف الصَّحابة رضي الله عنهم عمر بن الخطاب بأرض سواد العراق، إذ فرض عليها الخراج، وقال بعضهم كبلال، بوجوب توزيعها كما وزَّعَ رسول الله ﷺ أرض خيبر، ولكن لابدَّ من موقفٍ محليٍّ واحدٍ، وصاحب هذا الحقِّ هو الخليفة لا غير وهذا تطبيقٌ للآية: ﴿**وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ**

[1] من خطبة له بعنوان: «استنهاض النَّاس». بكتاب: «نهج البلاغة» ـ إن صحت نسبته إليه ـ جمعه: أبو الحسن محمد الرضى بن الحسن الموسوي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح. طبعة: دار الأسوة للطباعة والنشر بإيران، الطبعة الثانية (١٤١٨).

عَلَى ٱللَّهِ ﴾[1]، وهذا أمرٌ يجب على المسلمين أن يعلموه، وخاصةً المجاهدين في سبيل الله تعالى، وذلك على كلِّ واحدٍ أن يجتهد وُسْعَهُ في إعمال عَقْلِهِ وعِلْمِهِ لإِبْدَاءِ أَصْوَبِ الآراءِ وأقربها للحقِّ، ويُدَلِّلُ على ذلك ما استطاع، وهذا واجبٌ على الجميع بلا استثناءٍ، فالتنازع في الرأي قبل العمل خيرٌ وممدوحٌ إنْ كان بشروطه، وأما بعد العزم فإنَّ التنازع مذمومٌ مرذولٌ مؤذنٌ بالخُسران والهزيمة، وسيأتي بعد ذلك الآيات التي تلعن أولئك الذين يجلسون بعد الحدث ليرجموا خصومهم الذين لم يأخذوا برأيهم، ويعلِّقون سبب الهزيمة على اختيارهم.

إنَّ القرآن الكريم ههنا لم يُعَلِّقِ الهزيمة على الاختيار بالخروج إلى أُحد، مع أنه كان هو رأي النَّبيِّ ﷺ، وقد رأى قبل ذلك بقرةً تُذْبَحُ فأولها أصحابه ﷺ، لكنه علَّقَ الهزيمة على الضُّعف والتنازع والمعصية في عدم تنفيذ الأمر على وجهه الذي أمر به القائد ﷺ، بل إنَّ القرآن الكريم ذم وقدحَ وحَكَمَ بالنِّفاق على الذين تركوا الخروج مع أصحابهم بسبب ترك النَّبيِّ ﷺ لرأيِّهم.

إنَّ الله يمتحن المؤمنين بالاجتهاد وإعمالِ العقل وبذل الوسع لإصابة الحقِّ، فهذا امتحانٌ لعلومهم، ثم يمتحنهم بإرادتهم فيأمرهم بإعلان ما يعتقدون صوابه، إذ يجب عليهم أن يقولوا كلمة الحقِّ التي يظنون صوابها، ويُوصِلُونَهَا لأصحابها لقول الصديق: «لا خيرَ فيكم إنْ لم تقولوها»، وهناك امتحانٌ آخرٌ بعد ذلك هو امتحانُ دين المرءِ حين يختار النَّاس أو الأمير قولاً غير قوله، ويميلون إلى غير رأيه كيف يفعل، وما هو موقفه؟!.

فالمؤمن المُهتدي، هو مَن يقفُ مع صف المؤمنين مع مخالفتهم له، وهذا الموقف ليس هيِّناً على النُّفوس والعقول، بل هو شديدٌ عليهما لا يقوى عليه إلاَّ العُقلاء العلماء وأصحاب الإرادات الإيمانية العالية، لأنَّ الكثير من المسلمين المُعانين للدعوة والجهاد وعندهم ورعٌ، ولكن قد يقعُ البعض فيهم بالورع البارد، أو الورع الذي يغلب على العُبَّاد الجهلة، وهذا ورعٌ مفسدٌ، وهو أشبه بالبدعة، إذِ المرء يعملها تعبداً وهي معصية لله تعالى، ولذلك قال أهل العلم: «لا يُرْجَى لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ توبة»[2] أي من جهة المآل، إذ كيف يتوب مَن يظن أنه يقتربُ إلى الله ويسعى لإرضائه؟!.

إنه ليس من السهل على النُّفوس الشَّجاعة أن تقول الحقَّ وتُعلنه ثمَّ إذا جاءت للصف وقفت مع مخالفيها، لأنَّ هذا في ظاهره اتهامٌ لدينهم وشجاعتهم، وكذا اتهامٌ لعلمهم، ولكنَّ الحقَّ أنَّ هذا هو عين الدِّين والورع والشَّجاعة، لأنَّ الدِّين هو أن يعمل المرء ما يحقق مقاصد الدِّين وأهله، والورع أن يسلك الطريق المُؤدي لإرضاء الله تعالى، والشَّجاعة الأكبر أن يُمتحن المرءُ مع أحبابه ومُوافِقِيهِ

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

[2] عن أبي عمرو الشيباني قال: كان يُقال: «**يأبى اللهُ لصاحبِ بدعةٍ بتوبةٍ، وما انتقل صاحب بدعة إلاّ إلى شرٍّ منها**» كتاب: «البدع» لمحمد ابن وضاح القرطبي.

فيُخالفهم أكثر من امتحانه مع مخالفيه، ولذلك فالوقوف مع المُخالف امتثالاً لأمر الله أشدّ من الوقوف مع المُوافق وإنْ كان في طاعة الله تعالى، فهذه مرتبة أعظم وأشدّ وأعلى.

إنَّ أكثر اختلاف العُقلاء والحُكماء ليس بين الصواب والخطأ، لكنه بين أصوب القولين، وأهدى الرأيين، لكن الصِّغار وضِعاف العقول والمُبتدئين يتصورون كلَّ خلافٍ هو بين الصواب والخطأ، ولذلك قال القدماء: «مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ كَثُرَ اعْتِرَاضُهُ»، فتراهم يصرخون ويخالفون إخوانهم بطريقة غير مرضية لعدم اتساع تصوراتهم وعقولهم، ولذلك كان الواجب اتخاذ العقلاء وأهل الخبرة والتجربة في الشورى والنصيحة، وإذا كان الأمر كذلك، وهو أنَّ الاختلاف بين الصواب والأصوب، والحسن والأحسن، فإنَّ انتهاء الشورى إلى أحد القولين يُوجِبُ على الجميع الوقوف صفاً واحداً في العمل، وعلى الجميع السعي الحثيث لتحقيق الأهداف من خلال هذا الرأي الذي استقر الأمر عليه، هذا شأن المُخلصين الذين يعملون لدين الله تعالى، فهم لا يريدون الظهور على حساب أهداف الأُمَّة، ولا يريدون الارتفاع والعُلو على أنقاضها، ولذلك تراهم أشدَّ النَّاس إعمالاً للرأي الذي صار هو أمر المسلمين وأشدَّ النَّاس إخلاصاً في تنفيذه وإنجاحه.

لقد مضى على الأمَّةِ زمنٌ طويلٌ وهي مُفككة غير مُتراصة، فضاع الكثير من فقه الجماعة وأحكام العامة، ولذلك ما أن تجد تجمعاً حتى ترى الأمراض والمشاكل والخُصومات، بعضها قائمٌ بسبب ضعف النصيحة وقِلَّة التقويم والنقد والمُراجعة، وأُخرى بسبب ضعف النُّفوس عن قبول النصيحة والتقديم، وبعضها بسبب غلبة الفقه الفردي دون اعتبارٍ للجموعِ والأُمَّةِ والجماعةِ، وهكذا تتنوع جوانب الضعف في بناء العمل الجماعي، وقد عَلِمَ العقلاء أنَّ الأُمَّةَ لا يمكن أن تَسِيرَ نحو أهدافها إلاَّ بجهدٍ جماعيٍّ سَوِيٍّ، وإنْ أردتَ أنْ تَرَى ضُعْفَ هذا الفقه فتأملْ مساجد المسلمين وما فيها من خصومات حول فقه صلاة الجماعة تُدرك حينها حال بقية أُمور المسلمين وتجمعاتهم.

إنَّ مِن الفقه الذي أرد إليه القرآن هو صنيع هارون عليه السلام خليفة موسى عليه السلام في بني إسرائيل عندما ذهب لميقات ربِّه، فإنَّ بني إسرائيل اتخذوا العِجْلَ من بعده، فلما رجع موسى عليه السلام عاتب أخاه هارون كما قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ ﴾[1]. فكان من فقه هارون الذي سكت عنه موسى عليه السلام لرضاه عنه وسكوت القرآن عنه لرضاه كذلك أن قال: ﴿ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾[2]، وذلك لأنَّ موسى عجل إلى ربِّه للميقات، كما قال سبحانه قبل ذلك: ﴿ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾[3]. فكان عتاب موسى لهارون عليهما السلام عن

[1] سورة طه، الآيتان: ٩٢-٩٣.
[2] سورة طه، الآية: ٩٤.
[3] سورة طه، الآيتان: ٨٣-٨٤.

تأخره وعدم قُدومه إليه مع بني إسرائيل، إذ كان من بني إسرائيل ما كان من اتخاذ العِجْلِ، فلم يأخذهم هارون بالمسير إلى موسى مخافة افتراقهم على هذا الأمر لِما رأى منهم اتخاذ العِجْل وعدم طاعتهم له في تركه، فَوَازَنَ هارون عليه السلام بين الأمرين: المسير إلى موسى إلى المِيقات مع من يُطِيعه وقد بان له تفرقهم، أو ترك المسير حتى يرجع موسى عليه السلام ومنع تفرقهم على أمره، فاختار ترك الأمر بالمسير مع توحُّدهم.

وقبل أنْ أُفَارِقَ هذا الأمر البَيِّن في فقه هذه الواقعة من سورة «طه» أُرِيدُ أن أُنَبِّهَ إلى جهالة من قال إنَّ هارون اختارَ الاجتماع مُقَابِلَ التوحيد، أي إنَّ اجتماعهم مع عِبَادَةِ العِجْلِ خيرٌ من تفرقهم على التوحيد، وزَعَمَ أنَّ هذا هو فقه هارون عليه السلام، مع إقرار موسى عليه السلام له، وهذا جهلٌ وقَوْلٌ على الله بغير عِلْمٍ، ذلك لأنَّ هارون عليه السلام نهاهم عن اتخاذ العجل كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ ﴾[1]. فلم يطيعوه في تركه بل ﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾[2]، فالتوحيد ليس عُرْضَةً للمُسَاوَمَةِ بينه وبين غيره، وقائلُ هذا القول لا يعرف شيئاً عن دين الله ولا عن دين الرسل ولا دعوتهم، ثمَّ إنَّ في القِصَّة في هذا الموطن من سورة «طه» فقهٌ آخرٌ يتعلَّق بما نحن فيه وهو أنَّ بني إسرائيل عَلَّقُوا تركهمُ العِجْلَ على رجوع موسى عليه السلام، فكان الأمر على هذا الوجه، وهو إما أنْ يتوجه هارون مع من يُطيعه إلى المِيقات لملاقاة موسى عليه السلام، وتركِ المُخالفين، أو انتظار موسى حتى يجتمع النَّاس عليه مادام أنَّ المُخالفين علَّقُوا أمر الاجتماع وترك العجل على رجوع موسى عليه السلام، فاختار هارون الأمر الثاني لما فيه من رجاء هداية المُخالفين الذين اتخذوا العِجْلَ، وهذا لا يخالف فيه أحدٌ، فإنَّ النَّاس لو اختلفوا على أمرٍ ثمَّ عَلَّقُوا اجتماعهم على قولِ واحدٍ غائبٍ يمكن حضوره، فَرَضِي الجميع به مع عِلْمِهِمْ بدينه وتقواه وصواب اختياره لَكانَ المُستحبُ بل الواجبُ هو قبول الجميع بهذا لتحصيله كلّ الخير، وهو إلحاق العُصاة بالموحَّدين والطائعين، واجتماع النَّاس على هذا الحقِّ وعدم تفرقهم فيه، وأما الذهاب إلى المِيقات فلم يفت في حقيقة الأمر، ذلك لأنَّ القرآن أخبرنا في سورة «الأعراف» أنَّ موسى عليه السلام اختار سبعين رجلاً للمِيقات وسار بهم إلى هناك كما قال تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[3]، وفي سورة «الأعراف» بيَّن هارون عليه السلام أنه أمرهم ونهاهم حتى كادوا يقتلونه ﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ﴾[4].

---

[1] سورة طه، الآية: ٩٠.
[2] سورة طه، الآية: ٩١.
[3] سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.
[4] سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

فرجلٌ هذا حاله كيف يمكن أن يسير إلى موسى للمِيقات، إذِ الحال يدل أنَّ الذين اتبعوه كانوا قِلَّةً مُقابل الذين مالوا مع السامِرِيِّ صانِعِ العِجْلِ.

والقصد أنَّ الأمر لم يكن خيارٌ بين التوحيد والاجتماع البتة، وقائلُ هذا إنما يقول على الله بغير عِلْمٍ ولاَ هُدى ولا كتابٍ منيرٍ.

﴿ وَعَصَيْتُم ﴾.

فهذا الذي وقع من مخالفة بعضِ الرُّماة أمر النَّبيِّ ﷺ، حيث تركوا مواقعهم ظانين جلاء المعركة، فاستعجلوا النزول والغنائم، وهكذا رتبتِ الآية الحدث كما وقع، ذلك أنَّ الضعف قد حصل أولاً من تحقيق النتائج إلى نهايتها، وهو ضعفٌ في النُّفوس والإرادات، فكان أنْ تجادلوا وتنازعوا في أمرٍ قد فرغ منه حيث كان واضحاً جليّاً من قائدهم أن لا يخالفوه، ولا يختلفوا حوله، وبدل اتفاقهم ولُزومهم في تطبيق الأمر حصل أنْ عصى البعض وتركوا أماكنهم فكان ما كان، والواو في اللغة وإنْ لم تكن للترتيب لكن واقع الأمر والحدث يشهد لهذا الترتيب القرآني في وصف الحدث، وهكذا جعل القرآن الكريم باب المعصية والوقوع فيها هو الفشل والتهاون والضعف في الإرادة والنُّفوس، لأنَّ هذا هو أساس المعاصي وهو بابها وباعثها، وهذا قد يخفى على النَّاس بل قد يخفى على صاحبه، إذْ يظنُّ أنَّ عمله باعثه إرادة الخير، أو الفكر والنظر، لأنَّ الكثير من الشهوات والإرادات إنما تتخفى بهذا اللباس، وتتزيا بصورة الفِعْلِ والوعيِّ وإرادة الخير، وباطن الأمر أنها الدُّنيا، وحبها والشهوة في إصابتها وتكثيرها، وكشف القرآن لهذه الحقيقة وهو أنَّ البداية كانت في الضعف والتهاون في تحقيق الأهداف حتى نهايتها الواضحة الجليَّة يُلغي أيَّ دعوى يتخفى تحتها أصحابها ليُبَرِرُوا تقصيرهم وتهاونهم.

وقد سمَّاها الله «معصية» بإطلاقٍ، فهي مخالفة قد ارتكبت ترتب عليها الوِزْرُ في الآخرة ـ قد عفا عنهم ـ وترتب عليها الهزيمة في الدُّنيا، وهذا يدل أنَّ سُنن الدُّنيا لا تتخلف إنْ وُجِدَتْ أسبابها وانتفتْ موانعها حتى لو لم يكن الإثم، إذ شرط الإثمِ القصد، فقد عفا الله عن الخطأ والنِّسيان والإكراه، ولكن آثار الفعل في الدُّنيا لا ترتبط بالإثمِ، وذلك كمَن شرِبَ خمراً ظنه عصيراً حلالاً فإنه وإنْ لم يأثم سيسكر ولا شك، ولذلك فإنَّ سنن الله تعالى القَدَرية لا تتخلف حتى وإنْ تخلف الإثم والعقوبة الأُخروية وهذا واضحٌ في قوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾[1]، فالسُنن لا تتخلف حتى لرسول الله ﷺ إلاَّ ما يقع من المُعجزة، ولا للصالحين إلاَّ بالكرامة، وهذا استثناءٌ على خلاف القاعدة، وهذه السُنَّة التكوينية تُعْلَمُ بالنَّصِّ والنَّظر، والنَّاس لا يُدْرِكُونَ أهدافهم إلاَّ بالتعامل مع هذه السنَّة واحترامها وسلوك المقاصد من خلالها، ومَن يقف أمامها تطحنه وتهزمه حتى مع النِّيَّات الصالحة.

[1] سورة فاطر، الآية: ٤٣.

إنَّ حياة النَّاس اليوم قد كثرت فيها التعقيدات، وتشابكت فيها القضايا مما يجعل كلّ باب من أبوابها يحتاج إلى إدراكٍ أعمق لسننه وقوانينه، فالاقتصاد اليوم مثلاً ليس بالسهولة واليُسر الذي كان النَّاس عليه قديماً، ومثله الحرب والقتال وهذا يُوجِبُ على أهل الإسلام اليوم فرائض من العلوم أكثر مما كان على سلفهم وسابقيهم، إذ من غير إدراك هذه السنن وعلومها لا يمكن للمسلمين أن يحصلوا أهدافهم ومقاصدهم، وعدم سلوك هذه السنن الكونية معصية مثلها مثل عدم العمل بالسنن الشرعية، وهذه الآية تشهد لهذا إذ سمت ترك أمر قائدهم لهم بالمعصية، وخطورة ترك هذه السنن في الدُّنيا أعظم من ترك السنن الشرعية لأنَّ أثرها على مجموع الأُمَّة، وحادثة أُحد تشهدُ لذلك، إذْ أنَّ ترك قِسْمٍ من الرُماة أماكنهم جعل المعركة تتقلب ضدَّ المؤمنين جميعاً، وكان المُصاب عاماً، فالمعصية في الحروب هي أخطر المعاصي وأشدّها أثراً إذ قد تُؤدي إلى هلكةٍ عامةٍ، أو تحرف مسيرة التاريخ انحرافاً سريعاً لزمنٍ طويلٍ لا يتم صلاحه بسهولة ويُسر، ولذلك جعل الله الفِرَارَ من الزحف كبيرة من الكبائر، ويدخل في هذا المعنى كلّ فِعْلٍ يؤدي نتائجه كالتخذيل والقعود، وقد حَكَمَ الله على بني إسرائيل بسبب تخلفهم عن موقعةٍ واحدةٍ التيه في الأرض أربعين سنة كما قال تعالى في سورة «المائدة»: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1]، ولذلك فإنَّ المجاهد مع عُلُوِّ مَقَامِهِ وعَظِيمِ أَجْرِهِ هو على خطرٍ عظيمٍ إنْ عصى الله في الجهاد أو ارتكبَ خطأً فيه.

وههنا تنبيهٌ مهمٌ وهو أنَّ المعصية التي وقعت في أُحد لا تعَلُّقَ لها بأنها مخالفة لرسول الله ﷺ من حيث كونه نبيّاً يُوحَى إليه، بل هي في أصلها مخالفة لقائدهم في المعركة، ويزداد إثمها أنها صدرت من أصحاب رسول الله ﷺ، فكلّ مقاتلٍ يخالف أمر قائده هو عاصٍ لله تعالى وعاصٍ لشرعِ الله تعالى، والقُروح التي وقعت لأصحاب رسول الله ﷺ إنما تمت بسبب مخالفة الرُماة لأمرٍ عسكريٍ بحتٍ.

﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾.

هذه هي الدَّنيا وحبها منشأ كلّ الآثام والمعاصي والهزائم، لأنَّ الصِّراع بين الإيمان بالغيب الذي يمثل أرقى حالةٍ إنسانيةٍ واعيةٍ، وبين حبِّ الدُّنيا الذي يمثل البهيمية في أحط صُورها، فالإيمان بالغيب هو انتصارٌ للعقل والوعيِّ، وهو ارتفاعٌ إلى عالم القيم مُقابل عالم الشهوة والهوى، فالقيم في حدودها الدُّنيا من العدل وفي حدودها العُليا من الإحسان لا يمكن أنْ تحقق في الإنسان إلاَّ مِنْ مَبْعَثٍ وَدَافِعٍ وَحِيدٍ وهو الإيمان بالغيب، والإيمانُ بالغيب وإنْ كان مَنْشَؤُهُ هو العقل ومَداركه ولكن لا يمكن لهذا الإيمان أن يعمل آثاره ويحققها إلاَّ إذا صار هذا الإيمان حُبّاً يتعلَّقُ القلب به، وبهذا الحبِّ تنشأ الإرادات التي تعملُ عملها في أعمال الطاعات وتركِ المعاصي، هذا هو حال الحبِّ الحقيقي لا عوارض النَّفس التي يسرع إليها الفساد والتغيُّر والانقلاب.

---

[1] سورة المائدة، الآية: ٢٦.

يحاول النَّاس دَوْماً إِلْبَاسَ مَعَاصِيهِم العِلْمِية والعَمَلية لِبَاسَ العَقْلِ وَالفِكْرِ، والقرآن يُعَرِّي ذلك كلَّه، لأنَّ الواقع أنَّ هذا من الخِداع والتعزير، فإنَّ كلَّ المعاصي سببها حبُّ الدُّنيا، وإنَّ أعظم ما ترتكبه الأُمَّة في حياتها بعد ترك تحكيم الشريعة هو ترك الجهاد في سبيل الله تعالى، ونار الجهاد فتنته شديدة على النُّفوس التي رضيت بالحياة الدُّنيا واطمأنت بها، ولذلك إنَّ السبب الحقيقي لترك الجهاد إنما هو حبُّ الدُّنيا، لأنَّ الجهاد بكلِّ ما فيه يمثل خِيار الآخرة والرغبة وفيها، ولا يكون الجهاد إلاَّ للزاهدين في الدُّنيا، حيث هي عندهم ملعونة ملعون ما فيها إلاَّ ذِكر الله وما والاه وعالماً أو مُتعلماً[1]، فأُولئك هم الذين يحبون الجهاد ويعملون له ويسلكون سبيله، ولقد قرأتُ في حُجَجِ المُثبطين عن الجهاد، والملقين ألبسة الفكر والمصلحة والنظر، فما رأيتُ إلاَّ حُجَةً واحدةً، هي حبُّ الدُّنيا والخوف من الشهادة والموت في سبيله، والشفقة على الملأ والمُترفين، والرُّعب من السجون والبلاء في سبيل الله تعالى، فهذه هي حقيقة حُججهم حين المحيص والبحث والتنقيب، لكنهم يلبسونها دوماً ألبسة الفقه، فيأخذون قاعدة من هنا وقاعدة من هناك، ويحتجون بآيات خارج معانيها، وأحاديث على غير مُرَادِ رسول الله ﷺ، ثم يخرجون بعد ذلك بخلطة مشينة لا تمت إلى الفقه بصلة، ولا إلى دين الله تعالى بشيء ليقولوا بعد ذلك إنَّ الجهاد مفسدة، والرضوخ إلى الطواغيت والكُفر هو عين العقل والفقه والمصلحة، ومُداراة الجاهلية طمعاً في بعض المنافع هو دين الله تعالى، ومن أكاذيبهم أنَّ هذا يحقق مصلحة الأُمَّة، ويحقق مصلحة دين الله تعالى، وهو عين الافتراء، لأنَّ الواقع إنما هو تحقيق مصالحهم، واجتناءِ الشهوات لهم ولإخوانهم وعائلاتهم، ومفسدة لدين الأُمَّة ومصالحها.

إنَّ القرآن في هذا الموطن وفي مواطن كثيرة يُعَرِي دُعاة الرذيلة والتخاذل، فيكشف سوءاتهم حين يتخفون وراء العقل المُتميِّز والفكر الثاقب والنظر السديد، فيرفع الستارة عن بواطنهم فتبدوا بهيمة الرغبة، حيوانية الإرادة، فلا عقل ولا فكر ولا نظر، إنما هي الشهوات التي تحركهم، إذ هم كالأنعام بل أضل سبيلاً، فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾** ﴾[2]، وهذه سُنَّة مضطردة في أهل المعاصي من الاستهزاء بالمؤمنين، لأنهم يزعمون أنهم أهل العقل والنظر كما قال الله عنهم: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾** ﴾[3]، وأشباه هؤلاء اليوم حين يستهزؤون بالمجاهدين وهم يتدافعون للموت في سبيل الله تعالى، ويزعمون أنهم أهل السياسة

[1] إشارة إلى حديث أبي هريرة عن ابن مسعود رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِماً أَوْ مُتَعَلِّماً**» رواه الترمذي في أبواب الزهد «باب ما جاء في هوان الدُّنيا على الله» برقم: ٢٣٢٣ وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه في «السنن» حديث رقم: ٤١١٢.

[2] سورة البقرة، الآية: ١٣.

[3] سورة الأحقاف، الآية: ١١.

والكِيَّاسَة والنظر، والحقيقة أنَّ الوهن قد ضرب قلوبهم، فلا فكرَ ولا عقلَ ولا نظرَ، إنما هي الدُّنيا وحبها من غير نظرٍ إلى الآخرة ولقاءِ الله وبلوغ الجِنان.

إنَّ كلَّ دعاة التخذيل والاستسلام والرضوخ للطَّواغيت ولما يفرضه من الأمر الواقع إنما مبعثهم أنهم لا يؤمنون بالآخرة، وإنْ آمنوا بها فهي بعيدة عن الحبِّ والتعلُّق، وبعضهم من المجرمين من يُعلن أنَّ المجاهدين يعيشون ثقافة الموت وهم أصحاب ثقافة الحياة الدُّنيا، وقد صدقوا، لكنها الحياة الدُّنيا التي يرتضيها الذليل والخسيس، لأنْ يرضى بالدُّنيا وببعض متاعها وقد انتهك دينه وعِرضه وشَرفه وكَرامته، وأما المجاهدون فإنَّهم يحبون الموت حين يكون الموت طريقاً لأفراح المؤمنين وبُلوغ الشهادة، ويكون شقاءً وعذاباً للطَّواغيت وأعوانهم، فالموت حينها هو ثقافة الحياة لأُمَّة الإسلام التي تعيش مع دينها وكرامتها وحفاظة عرضها.

ومما يتخفون وراءه حتى لا تنكشف عيوبهم من حبِّ الدُّنيا وكراهية الموت وعدم حبِّ لقاء الله تعالى والدَّار الآخرة حين يجهدون في وضع وسائل جاهلية مُقابل الجهاد في سبيل الله تعالى أنَّ الأُمَّة غير مُسْتَعِدَةٍ للجهاد والشهادة وقد كذبوا، فإنَّ الواقع أنهم هُم مَن جبنَ وتخاذلَ عن قيادة الأُمَّة للجهاد في سبيل الله، لأننا نرى أنَّ مَن هدى الله قلبه ووضعَ نفسه داعياً للجهاد، وأخذ بيد الأُمَّة إليه، وسار أمامهم أنْ رفع الله شأنه، واستجابَ له النَّاس، وحصلَ من جهاده الخير العظيم، وإنَّ أعظم الشرور الحاصلة في وقتنا إنما هي بسبب هؤلاء المُخذلين الذين يطعنون في الجهاد وأهله ويرمونهم بقِلَّةِ العقل والنظر، ويتهمونهم أنهم يعملون ضدَّ مصالح الأُمَّة.

إنَّ أصحاب الشهوات والشُّبهات عُراة في كتاب الله، لأنَّ حقائقهم مكشوفة، ودوافعهم مفضوحة، فهم سفهاء، جهلة، مفسدون، يحبون الدُّنيا ولا يحبون لقاء الله تعالى.

في هذه الآية عممَّ الله الأعمال ـ **فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم** ـ وخصص الباعث: ـ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ** ـ لأنَّ الأعمال وإنْ كانت خاصة بالبعض دون الآخرين إلاَّ أنَّ آثارها عامة على المجموع، فإنَّ فشل البعض وتنازعهم ومعصيتهم قد جرتِ البلاء على الجميع، حتى أصابت قائدهم المصطفى ﷺ، ولكن الباعث إنما عيبه على أصحابه دون غيرهم، ثمَّ إنَّ في ذلك التعميم تأديبٌ قرآنيٌّ للمؤمنين أن لا يثربوا على مَن ترك الأمر وسارعَ لجمع الغنيمة، ولذلك نسب الفعل لهم كلّهم، فلا يقول أحدٌ لأحدٍ أنتَ المُراد وأنتَ سبب الفشل والهزيمة، ولكن قضايا الثبات أمرٌ غيبيٌّ لا يَقْوَى أحدٌ على اتهام غيره به إلاَّ على وجهِ التخمين، وهو ظلمٌ ولا شكَّ، مع أنه يمكن لأهل الأُصول أن يقولوا إنَّ هذا من أساليب القرآن في لفظ العموم، حيث يقصد به البعض كقوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ**﴾[1]. والنَّاسُ ههنا هو رجلٌ

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

واحدٌ، وقد شرح هذا الإمام الشافعي في «الرسالة»[1] وأخذه النَّاس عنه في كُتب الأُصول، وسمَّوْهُ العام المُراد به الخصوص، وهو غير العام المخصوص، لكن هذه المُغايرة هنا بين التعميم في الفِعْلِ والتخصيص في الباعث لابدَّ أنَّ لها وجهاً بيانياً وفائدةً.

ثم كان الفعل بصيغة الماضي ـ **فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم** ـ وأما الباعث فجاء بصيغة المُضارع: ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ** ﴾. وذلك أنَّ المضارع يُفيد التِكرار فيقع مرةً بعد مرةٍ، وأما الماضي فيُفِيدُ الحصول والانتهاء، وهذا تنبيهٌ أنَّ الباعث ما زال موجوداً، وهو إرشادٌ لهم بتقويمه وإصلاحه والإعراض عنه إنْ كان إرادة الدُّنيا، وأما إنْ كان إرادة الآخرة فالثبات عليه ولُزومه.

وفي الآية كنَّى الله عن النَّصر بقوله: ﴿ **مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ** ﴾. ولم يَقُلِ النَّصر، لأنَّ الكِناية تُسْتَخْدَمُ لِنُكَتٍ علميةٍ منها بيان حال الموصوف أو مِقدار حاله، ذلك لأنَّهم رأواْ مقدمات النَّصر من قَتْلِ المُشركين وفِرارهم من أرض المعركة، ولم يقعِ النَّصر التام، فلو ذكر النَّصر لَكان النَّصر واقعاً وليس كذلك، إنما رأواْ مقدماته وبشائره ولم يروه كلَّه، فلذلك كنَّى الله عنه بما قال سبحانه وتعالى، ولما ذلك من فائدة أُخرى تقدم ذكرها.

﴿ **ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾.

هذا الخطاب من رأفة الله ورحمته بجنوده، إذ نسب صرف القتل عن المُشركين له سبحانه وتعالى، فكان أنْ توقف القتل في المُشركين وصار القتل في المسلمين وذلك ﴿ **لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾، وهذا دليلٌ أنَّ الربَّ سبحانه وتعالى لا يفعلُ فِعْلاً إلاَّ بسببٍ من الخَلق، مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، وهذا الابتلاء في هذا الموطن قصده أن يحصل التميُّز بين المؤمنين والمنافقين، وهكذا في أوقات المحن والشدائد تُظهر النَّاس على حقائقهم، وتُبَيِّنُ عن مَكْنُونَاتِ نُفُوسِهِمْ، بخلاف النَّصر فإنَّ الكُلَّ يَدَّعِيهِ، والمُنتصر يُقْبِلُ الجميع إليه، ولذلك مِن حِكَمِ الله تعالى في حصول البلاء والقُروح في المؤمنين، وهو وقتٌ ثَمِينٌ عند أهل الصِّدق، إذ هو فُرصتهم لإظهار صِدقهم وإيمانهم وثباتهم على دينهم، وهو وقتٌ تَعْظُمُ فيه الأُجور وتتضاعف كما قال تعالى: ﴿ **لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟** ﴾[2]. ولقول النَّبيّ ﷺ: «**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ، كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»[3].

هكذا يجعل الله القتل في المؤمنين أمراً قَدَرِياً منه سبحانه وتعالى، إذ فيه مُراده ـ مع عدم حبِّ المؤمنين له ـ ومُراده في هذا أن يرى صِدْقَ المؤمنين وثباتهم ولجوئهم إليه، ويكشف المنافقين فتسقط حُججهم وأكاذيبهم وتبِينُ عورات قلوبهم، وهو أمرٌ له تعلُّقٌ خالصٌ بالغيب ودخول الجنَّة ودخول

---

[1] انظره في باب «بيان ما نزل من الكتاب عامَّ الظاهرِ يُرادُ به كلِّه الخاصُّ». ص٥٨ وما بعدها.

[2] سورة الحديد، الآية: ١٠.

[3] مسلم عن مَعْقِلِ بن يَسَارٍ في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب فضلِ العبادة في الهرج. حديث رقم: ٢٩٤٨.

النَّار، فإن تم هذا كان له تعلُّقٌ بالمآل في تصفية الصف المُؤمن وحصول البركة لهم بأخذ الشهداء منهم وغرور الكافرين لِيقع التدافع على ما قدره الله تعالى في الخَلق.

وتأملْ كيف وصف البلاء الواقع على المؤمنين بقوله: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾، ولم يَقُلْ غيرها مِنْ صِيَغِ فِعْلِ الكافرين بالمؤمنين من القتل والجراح إذ في ذلك تنبيهٌ أنَّ مجرد صرف المؤمن عن الكافر بالقتل والإفناء هو قتلٌ وذبحٌ للمؤمنين، فهذه هي القاعدة أنه بمجرد أنْ يتوقف سيف المسلمين عن العمل يعني قَدَراً أنْ يبدأ سيف الكافرين عَمَله في المؤمنين، وهذا يُؤكد أمره سبحانه وتعالى بعدم التهاون والفشل والتخاذل من مُلاحقة الكافرين في كلِّ وقتٍ وحينٍ، وهو ردٌّ على دُعاة الحكمة المزعومة الظانين أنه يمكن أن ينشأ سلامٌ مطلقٌ بين المؤمنين والكافرين، فهذه أوهامٌ لا وجود لها إلاَّ في عقول الجهلة أو الجبناء كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾[1].

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[2].

هذا هو تعامل الربِّ مع جنوده، وتعامل الرحيم مع أوليائه إنْ أخطئوا، وهو يأمر نبيَّه وأتباع نبيِّه بهذا حين يقول في سورة «الأنعام»: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾[3].

لقد رفع عنهمُ الوِزْرَ الذي ينقض نفوسهم وظهورهم، فالموتى شهداءٌ عند ربِّهم، والأحياء مغفورٌ لهم، وأما المنافقون فلهم موعدٌ من الخطاب والعذاب، وتجري الحياة بأنْ يدفعهم الله إلى الوقوف مرةً أُخرى بلا ذنبٍ ولا معصيةٍ بل أطهارٌ بُرءاء، قد غُسِلَت نفوسهم، وحصلت العِبرة، وترسختِ التجربة، فإلى موقعٍ جديدٍ ومتقدمٍ لأنَّكُمُ الأكثرَ إيماناً والأَصْلَبَ تجربةً والأكثرَ انْدِفَاعاً.

لا تثريب عليكم لأنكم جُنْدِي وأحبابي، أُعاقبكم في الدُّنيا بالألم والجُروح وأخذِ الأحباب، لكنها مُعاقبة المريض لِيشفى لا مُعاقبة العدوِّ لِيُسْتَأْصَل ويغنى، وهكذا يكون خطاب الشفيق على المؤمنين، والذي يحبُّ لهمُ الخير والثَّبات على الطريق ومُعاودة الفِعْلِ مرة بعد مرةٍ على وجهٍ أكثر صواباً وأقل أخطاءً.

لقد كانت هذه الآية صلةٌ طويلةٌ وعجيبةٌ، حيث ابتدأت بالوعد، «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ»، فسار الأمر حسب الوعد وقتاً رأى النَّاس فيه ما يحبون من بشائر النَّصر والظهور على الأعداء ثم كان ما كان من التخاذل والتهاون والتنازع والخصومة والمعصية بترك أمر القائد، فانقلبتِ

[1] سورة النساء، الآية: ١٠٢.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
[3] سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

المعركة إلى وِجْهَةٍ أُخرى بعد أنْ صُرِفَتْ سيوفكم عن رِقابهم ووقع فيكم البلاء والامتحان، فاهتزتِ النُّفوس وأظهرت ما فيها من إيمانٍ في قومٍ ونفاقٍ في آخرين، وكان خاتمة المشهد لهذا كلِّه العفو الإلهي عن المؤمنين.

لقد ابتدأتِ الرحلة بالوعد الصادق وخُتِمَتْ بالعفو وإسباغ صفة الإيمان عليهم.

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥٢﴾. إنه فضل منكر لأنه فضل واسعٌ عميمٌ لا يمكن إحصاؤه منا، فهو ذو فضلٍ عليهم حين أمرهم بالجهاد، وهو ذو فضلٍ عليهم إن انتصروا، وهو ذو فضلٍ عليهم حين القُروح والهزيمة، وهو ذو فضلٍ عليهم في كلِّ آنٍ ووقتٍ، لأنهم أهله والمُستحقون له.

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٥٣﴾[1].

بعد أن تم العفو جاء وصف الفِعل الذي أصابهم لما عصواْ رسول الله ﷺ، وهو وصفٌ يُصَوِّرُ حالَ المسلمين حين يذهب عنهم سِتْر الله ونصره، فيكونون في عَرَاءِ الهزيمة، فلا تملك النُّفوس أمرها، فتطيش عنها نداءات الهُدى والخير، لأنَّ النُّفوس مشغولة بنفسها لما وقع عليها من هولِ المقام والمُصاب، فها هم يذهبون في الوِدْيَانِ دون التفاتٍ خَلْفَهُم، ودون اهتمامٍ بغير مُصَابِهِم، ودون استماعٍ لنداءِ قائدهم، وهي حالةٌ أصابتِ الشُّجعان والمؤمنين، لا أُناسَ من عرض الطريق وبُنَيَّاتِهِ، ذلك لِيَعْلَمَ أهلُ القرآن أنَّ الإيمان يقع في مضايق الحقِّ، ويجري على أصحابه ما يجري على النَّاس من الذهول عند المصائب، ولكن العاقبة هي الرجوع والإنابة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ٢٠١﴾[2]. والنَّاس في هذا الباب لا يعيبُ عليهم إلاَّ جاهلٌ ولا يثربُ عليهم إلاَّ مُفْرِطٌ، لأنهم آبواْ بعد غفلةٍ، وكروا بعد فِرَارٍ، ورجعوا بعد نُكُوصٍ، ولذلك تاب الله عليهم، وأما أُولئك الذين يحبون تأليبَ ذنوب المؤمنين وأخطائهم ليشهروها في وجوههم عند كلِّ فعلٍ وحادثةٍ وموقفٍ فإمامهم هو فرعون لا غير حيث هو من فتح أرشيف موسى وقد جاء يدعوه إلى الحقِّ، لِيجعل هذا الأرشيف سبباً لرد الحقِّ الذي جاء به موسى عليه السلام بعد نُبوته فقال له: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، يُذَكِّرُهُ بما وقع منه من قَتْلِ القِبْطِي قبل فِراره إلى مَدين عند الرجل الصالح، فالأرشيف عملٌ لابدَّ منه في أبوابٍ كثيرةٍ تنفع الحياة والنَّاس والمؤمنين، لكنَّه سبيل المجرمين حيث يتخذونه صداً عن سبيل الله تعالى، وفضحاً للمؤمنين وكشفاً لعوراتهم.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.
[2] سورة الأعراف، الاية: ٢٠١.
[3] سورة الشعراء، الآية: ١٩.

«جاء رجلٌ من أهل مصرَ حَجَّ البيتَ، فرأى قوماً جُلوساً فقال: مَن هؤلاءِ القومُ؟ فقالوا: هؤلاء قُرَيشٌ. قال: فمنِ الشيخُ فيهم؟ قالوا: عبدُ اللهِ بن عمرَ. قال: يا ابنَ عمرَ إني سائلُكَ عن شيءٍ فحدِّثْني عنه: هل تَعلم أنَّ عثمانَ فرَّ يومَ أُحُد؟ قال: نعم. فقال: تَعلم أنهُ تغيَّبَ عن بَدرٍ ولم يَشهَدْ؟ قال: نعم. قال الرجل: هل تعلم أنه تغيَّبَ عن بيعةِ الرِّضوان فلم يَشهَدْها؟ قال: نعم. قال: اللهُ أكبر. قال ابنُ عمرَ: تعالَ أُبيِّنْ لك. أمّا فِرارُهُ يومَ أُحُد فأشهَدُ أنَّ اللهَ عَفا عنهُ وَغفَرَ له. وأما تغيبُّه عن بَدرٍ فإنه كانت تحتَهُ بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنَّ لكَ أجرَ رجُلٍ ممَّن شهِدَ بدراً وسَهْمَه**». وأما تغيبُّه عن بَيعةِ الرَّضوان فلو كان أحدٌ أعزَّ ببطنِ مكةَ من عثمانَ لبَعثَه مكانَه، فبَعثَ رسولُ اللهِ ﷺ عثمانَ، وكانت بيعةُ الرَّضوانِ بعدَ ما ذهبَ عثمان إلى مكةَ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ بيدِهِ اليمنى: «**هذه يدُ عثمانَ**». فضربَ بها على يدِه فقال: «**هذه لعثمان**». فقال له ابن عمر: اذهَبْ بها الآن معك»[1]. وهذا ما رد به ابن عمر رضي الله عنهما على ما سأله السائل، وهكذا فإنَّ البعض يكذب حين يختزل تاريخ النَّاس في حادثةٍ واحدةٍ، فيأخذها ليبلع تاريخ الرجل كلِّه في هذه الحادثة، ويقدمها كاذباً مخادعاً على صورة التأريخ والنُّصح، وهو في واقع الأمر مخذلٌ كاذبٌ يريد ردَّ الحقِّ في هذا الشخص من خلال خطأٍ وقع فيه، أو من خلال أحداثٍ هي على وجه الحقِّ ولكن يُؤولها على وجهٍ من وجوهِ الباطل.

إنَّ القرآن لم يُسَمِّ الهاربين من أرض المعركة بل أطلقَ وعمم الفِعْلَ كما تقدم في الآية السابقة وكذلك ههنا ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾، وهذا أدبٌ قرآنيٌّ لأنَّ مُراده الإصلاح والرحمة والرِفق، لا التشهير والتعيِّير والتخذيل كما يفعل المُنافقون وأصحاب الأهواء ومقاصد الشرِّ في المجاهدين.

الأرشيف والتأريخ سلاحٌ خطيرٌ، وهو من أشدِّ أسلحة المنافقين والأعداء، لأنه ما مِنْ امرئٍ إلاَّ وله تاريخ، وكلُّ ابن آدم خطاءٌ، وعُمدة قوة المجاهدين هو طُهرهم ونَقاوتهم لكنهم ليسوا ملائكة، وهم كذلك محط أنظار النَّاس، محبيهم وخصومهم، فيجب الحذر لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾[2]. وهو واجبٌ على القادة وواجبٌ على الأتباع، وتفويت مقاصد المنافقين والكفار في استخدام الأرشيف هو الرد بالحقِّ ما أمكن إلاَّ بأن يكون في ذلك ضررٌ، فإنَّ موسى عليه السلام قال لفرعون: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾[3]. ولم يُنْكِرْهَا لأنَّها حقٌّ وواقِعٌ، ولم يُدافع عنها، وأما الأتباع فإنَّ الله عاب على السمَّاعين للمنافقين والكافرين بقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[4]، وفي سورة «النُّور» الهُدى والحقّ في تعامل المؤمنين مع إشاعات الباطل والكذب.

---

[1] البخاري في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب مناقب عثمان بن عفان أبي عمرو القرشي ﷺ. حديث رقم: ٣٦٩٩.

[2] سورة النساء، الآية: ٧١.

[3] سورة الشعراء، الآية: ٢٠.

[4] سورة التوبة، الآية: ٤٧.

ههنا القرآن يُوثق الحدث مع ألمه على المؤمنين، ولذلك لم يرَ الصَّحابة في هذا الكشف عاراً عليهم لأنَّ القرآن ذَكر الحدث وذَكر حبَّه لأصحابه وغُفرانه لهم ووصفهم بالإيمان، ولذلك لما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[1]. قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: فِينَا نَزَلَتْ ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. قَالَ: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ: بَنُو حَارِثَةَ وَبَنُو سَلِمَةَ. وَمَا نُحِبُّ ـ وَقَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً: وَمَا يَسُرُّنِي ـ أَنَّهَا لَمْ تَنْزِلْ فِينَا، لِقَوْلِ اللهِ: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[2]. فالخطاب القرآني مع توثيقه لما اقترفه المؤمنون من الغَلط، وهو لا يحبه النَّاس لما في ذلك من كشف أخطائهم إلاَّ أنه ألقى على هذا التوثيق صفةَ المدح للفاعلين أنهم أحبابه وجُنْده وعَبِيده، فصار أهل الفِعْلِ يَرْوُونَهُ بحبٍّ ورضا وفرحٍ، فأين هذا مِنْ فِعْلِ المنافقين وكاشفِي العورات والطاعنين في المجاهدين وتاريخهم ورجالهم؟!.

هذا التوثيق القرآني يدل على أهمية هذا الفِعْلِ، وضرورته للبشرية، وخاصةً المؤمنين، فإنَّ الحوادث هي مِلْكٌ للمسلمين، فالآباء يَرْوُونَ للأحفاد والأبناء السِيَّر للعِبْرَةِ وتَسْجِيلِ المواقفِ، ومَنْ تَأَمَلَ سورة «التوبة» رأى فيها التوثيق للأفعال والأقوال بصورة تفصيلية حتى لا يبقى للنَّاس ريبة في المواقف والمراتب، فعرف النَّاس المؤمنين والمنافقين على صورة الوضوح لا تخفى على أحد، هذا ما يجب على المسلمين سلوكه وتسجيله ليكون على أساسه تحديد مراتب النَّاس وحقيقة مواقفهم وأغراضهم.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾.

لقد ذهب الكثير في الوِدْيَانِ والشُّعَبِ حتى وصل بعضهم للمدينة، وثبتتِ القِلَّة مع رسول الله ﷺ، وصارت ههنا مواقف إيمانية رائعة سجلها القرآن في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾[3]، ولكن ههنا كان وصف الذاهبين، وقد كان موقف النَّبيِّ ﷺ هو موقف الصَّادق الذي جاء بالحقِّ وصدَّق به، إذ هو في أخراهم، أي هو ثابت في الصف، لم يمضِ مع الماضين، بل يدعوهم إلى العودة والثبات إلى مواقعهم وعدم الذهاب، وهو موقف القائد الذي لا يترك أرض المعركة حتى يتحقق المُراد، وهو موقف رسول الله ﷺ دوماً بأبي هو وأُمي، إذ أنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا يجتمعون به إذا اشتد البأسُ وحَمِيَ الوَطِيس، وقد رأى النَّاس ثبات قلبه وشجاعته في حُنَيْن، حيث وقف موقفاً لا يقدر عليه أحدٌ من النَّاس قط، وهو قدوة لأُمَّته في ذلك، وهذه من سُننه المهجورة اليوم، ولنتذكر أنَّ أجلى

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٢٢.

[2] البخاري في «كتاب المغازي» باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. حديث رقم: ٤٠٥١. طرفه في: ٤٥٥٨. ومسلم في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب من فضائل الأنصارِ رضي الله تعالى عنهم. حديث رقم: ٢٥٠٥.

[3] سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

آيتين يحتج بهما النَّاس في وجوب اتباع سُنَّته ﷺ إنما كانتا في مواطن الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى **أولاهما** تقدمت في سورة «الحشر»: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[1]. **والأخرى** في سورة «الأحزاب» في قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[2]. هذا لِيَعْلَمَ دُعاة السنَّة وحملة الشريعة ومحِبُو رسول الله ﷺ أين هي مواطن الإقتداء الحقيقية، وما هي حياة النَّبيِّ ﷺ التي عاش عُمْرَهُ فيها، ولا أُرِيدُ أنْ أُقَلِلَ من سُنَّته في أُمورِ الحياةِ الأُخرى ولكن ههنا الأصلُ وغيره الفرع، وهذه هي الحياة وغيرها إنما هو تَبَعٌ لها.

لقد اختارَ النَّاس من السنَّة ما يحبون، وما يحقق لهم المنافع، ورفعوا شعارات عظيمة في إحياء السُنن لكنهم لم يُدرِكُوا حياته الحقيقية، ولم يقرؤوا سيرته في كتاب الله تعالى، فإنَّ سورة «محمد» هي سورة «القِتال»، لأنَّ حياة محمد ﷺ هي القِتال والجهاد في سبيل الله، وههنا موقفٌ وسنَّة للحبيب، فهو رسول الله ﷺ يدعو كلَّ من ترك الجهاد أن يعود إليه، لأنَّ الذاهبين عنه مخالفون لسُنَّته، ودعوته هذه دائمةٌ مُتصلةٌ مُتجددةٌ إلى قِيام الساعة.

﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾.

أي غمًّا على غمٍّ، فأما **الغمُّ الثاني** فهو المُصاب الذي وقع بكم من تسليط عدوِّكم عليكم، وأما **الغمُّ الأول** فهو ما تحدث به البعض من قتل النَّبيِّ ﷺ، وقد سمَّى الله ما وقع بهم ثواباً لأنه وقع بسبب فِعْلِهِمْ، فالثواب هو العوض، ولكن تسميته ثواباً هو من قبيلِ الفضل الإلهي عليهم لأنَّ ما يُصيب المؤمن الغم والهم والحزن إنما يُكفِّر الله به عنه سيئاته ويُثيبه عليه ويرفع به درجته في الآخرة، فلذلك كان الغم ثواباً من الله تعالى، وقِيلَ إنَّ **الغمَّ الأول** هو ما فاتهم من الغنيمة **والغمّ الثاني** هو إشراف قريش عليهم من فوقهم، وكلُّ ذلك محتملٌ لإطلاق لفظ الغمِّ وعدم تقيِّيده.

﴿ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ﴾.

وهكذا يكون الثواب الذي وقع في نفوسهم ليدفع الله تعالى عنهم الحزن على فوات الغنيمة ووقوع المُصاب بهم من القتل والجروح.

والآية تُفيدُ أنَّ الغمَّ علاجٌ للحزنِ، إذ دفع الله عنهم الحزن الذي وقع بوجود أسبابه بالغمِّ وهو الانشغال بالنفس وهمومها عن فوات المحبوب، فإنَّ المُصاب أو بالظن أنَّ هناك مُصَاباً كبيراً كالحديث أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتِلَ قد شغلهم عن فوات الغنائم وحصول الهزيمة، وهذا من رحمة الله تعالى، وهذه على القاعدة إذا كَثُرَتِ الهموم تساقطت.

﴿ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

---

[1] سورة الحشر، الآية: ٧.

[2] سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

وهذا من تمامِ ربوبيته على خَلقه سبحانه وتعالى، حيث لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم، فهو خبيرٌ بهم وبأعمالهم، وهذا يُوجِبُ عِلْمَهُ سبحانه وتعالى، فما يُوقِع الله سبحانه وتعالى في المسلمين من أحداثٍ وأمورٍ إنما مبعثه خبرة الله تعالى وعِلمه وحِكمته بهم، إذ أنه يمحصهم ويختبرهم ويبتليهم لِيُظهر تمام حِكمته جلَّ في عُلاه.

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾[1].

هكذا جازاهم بالغمِّ ثمَّ عالج غمَّهُم هذا بالنُّعاسِ ليقع الأمان في قلوبهم، ويمضي القرآن وهو يُفَصِّلِ فِعْلَ الله في نفوس جنوده، فيُعْطِيهِم من الأدوات الباطنية ما يحقق أعدادهم.

وههنا مرةً أُخرى يظهر جُنْدِيّ النُّعَاسِ، هذا الجندي الإلهي يأتي على قَدَره، جاء في غزوة بدر بما فصَّلنا هناك في سورة «الأنفال»، حيث جاء قبل المعركة ليلقي الاطمئنان في قلوب الصَّحابة ﷺ، لقد جاءهم هناك بعد أن استغاثوا استغاثةَ الغريق، قال: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾[2]، وههنا جاء النُّعاس بعد المُصاب حيث وقع بهم غمٌّ على غمٍّ، فأنزل الله النُّعاس أمنةً على طائفةٍ منهم، وهمُ الطائفة الذين يظنون بالله ظنَّ الحقِّ، فهمِ صدقوا وَعْدَهُ بالنَّصر، ورأوا ما يحبون ثم عَلِمُوا أنَّ هذا الذي رأوه قد انفلتَ من بين أيديهم بعيداً عن عيونهم بسبب المعصية التي وقعت، فنسبوا لأنفسهم التقصير وظنوا بها الغلط والإثم، ونسبوا لله صدق الوعد والحقِّ، فجاء الجزاء بهذا النُّعاس لِيُلْقِي عليهم ظِلاً من الأمن، وهذا من إكرام الله لهم، إذ كيف يقع النُّعاس على قومٍ قد رأوا الموتَ بأم أعينهم، وذهبوا في أصعادٍ حتى لا تُصيبهم سيوف قريش الكافرة، وهم يرون أحبتهم قد صُرِعوا في الوادي أمامهم، وقد اثقلت أجسامهم بالجراح، والشرُّ ما زال ماثلاً أمامهم يريد أن يأخذ رسول الله ﷺ من بين أيدهم، وأمام كلِّ هذا يأتيهمُ النُّعاس حتى وصفه أحدهم ﷺ بأنَّ السيف كان يسقطُ من يده لغَلَبَةِ النُّعاس عليه.

في إنزال هذا الجندي اللطيف على جنود الله في مَوْطِنَيْنِ، موطن الإعداد للنَّصر في بدر، وموطن ما بعد القَرْحِ في أُحد، يدل على أنَّ هذا الموطن الثاني هو إعدادٌ لمعركةٍ قادمةٍ ونصرٍ آتٍ، وأنَّ الجندي ما زال في المعركة لم يُغادرها، ويدل على أنَّ العطاء الإلهي لا يكون في موطن النَّصر وحده، ولكن يكون في موطن القَرح كذلك، لأنَّ العِبرة إنما هي في تحصيل الجنود لحبِّ الله تعالى ورِضاه وامتثالِ أوامرِهِ، ولذلك نزل هذا الجندي اللطيف بعد غزوة أُحد على بعض الجُند لا كلِّهم، لأنَّ الآخرين ظنُّوا في الله غير الحقِّ من سؤالهم: أين وعد الله؟ ولماذا حصل هذا، وقالوا ما قالوا مما قاله القرآن.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

[2] سورة الأنفال، الآية: ١١.

لقد سكتَ القرآن في هذه الآية عن وصفِ الذين غَشِيَّهُمُ النُّعاس وفصَّل في حال الذين أخطأهم النُّعاسِ ولم يقع عليهم، لأنَّ هؤلاء همُ الذين يريد الله سبحانه وتعالى أنْ يُعَرِّفَنَا بأوصافهم تَنْبِيهاً وَتَرْهِيباً من الوقوع فيما وقعوا فيه، ولأنَّ هؤلاء هم سبب هذه النتيجة في المعركة، والسياق في هذا من قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ...﴾ إنما هو لبيانِ سبب الهزيمة كما تقدم، ولكشفِ الأسباب العملية الظاهرة والأسباب النفسية الباطنة لوقوع المُصيبة والهزيمة.

هذا النُّعاس الذي يطمئن أصحابه أنهم في أمانٍ فلا يجزعون ولا يقلقون هو مقابل الهَمّ حول المصير الآتي، فقوله: «أَمَنَةً نُّعَاسًا» هي ضدّ «أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ»، فالذين ينشغلون بما يقع لهم من فوات الدُّنيا أو جُروح البدن هؤلاء أبعد عن الأمان، والذين يظنون بالله الحقَّ وينشغلون بذنوب أنفسهم ويغض مضاجعهم همُّ الدِّين والرسول ﷺ هم الذين يستحقون النُّعاس الآمن.

وقد يسألُ سائلٌ ما الحكمة في تقديم النُّعاس على الأمن في سورة «الأنفال» في موقعة بدر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾. وأما في «آل عمران» في أُحد فقدم الأمنة على النُّعاس فقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾.؟ هذا مع قول أهل التفسير إنَّ النُّعاس هو الأمان، فالسبب في هذا والله أعلم أنَّ حاجةَ المُصاب المقروحِ إلى الأمان أشدّ من حالة مَن وقف في الصف يخاف نتيجة ما هو آتٍ في المعركة، فذكر الأمان مُقدماً في أُحد لشدَّة حاجة الصَّحابة إليه من حاجتهم إليه في صفهم مُقابل قريش في بدر قبل المعركة، فكان التقديم به لذلك، والأمان في أُحد هو لعلاج الغمِّ والغمّ الآخر، وأما الأمان في بدر فهو إعدادٌ لما هو آتٍ من المعركة.

قال سِيبويه في كتابه: « كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم وهم ببيانه أعنى»[1].

﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾[2].

هذا أول المقال من أهل الضعف، وهذا أول قولهم بعد المعركة وقبل أن يُفارقوا أرضها، ولقد حُرِمُوا النُّعاس الآمِن بسبب الظنون، وهو مرضٌ نفسي، دفعهم لأقوالٍ جاهليةٍ، إنما الباعث الأول ﴿ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾، إذ هو مِعيارهم في تقيِّيم كلِّ الوقائع والحوادث، إذ أنَّ ﴿ أَنفُسُهُمْ ﴾ هي كلّ ما يُعنيهم، فلا خير في الوجود إلاَّ يأتي إليهم، والشرَّ كلَّ الشرِّ هو ما يُصيبُ أموالَهُمْ وأبدانَهُمْ وأهْلِهِمْ، فشهادةُ الشُّهداءِ لا تعنيهم، وابتلاءُ الله للمؤمنين لِيَعْلَمَ صِدقهم وإيمانهم ويرفع درجاتهم

[1] «الاتقان في علوم القرآن» لعبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. النوع الرابع والأربعون في مقدمه ومؤخره. الجزء الثاني، الصفحة ١٣. طبعة دار الفكر ببيروت.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

هذه لا تُشغلهم، ومصالح الدِّين وقيمه وإقامة الحجة على الخَلق قد تعتبر لكن بما لا يضرُّ دُنياهم، وهؤلاء يكون شرُّهم أشدّ ومقالتهم تجد سامعين ومُصْغِينَ حين يأتون بهذه المعايير تحت اسم الدِّين، ويحاجِجُونَ بها المجاهدين تحت باب المصلحة الشرعية، فالمجاهدون يتحدثون عن إقامة الحُجة على الخَلق، ويفتحون للنَّاس باب الشهادة في سبيل الله تعالى، ويحاجون المُخالفين في المآلات الأُخروية، والمقاصد الدينية، وهؤلاء ينعون على المجاهدين أنهم يُفسدون دُنياهم، ويُعَطِلُونَ مصالحهم وأهواءهم، ويرمون المجاهدين بتُهمة قتلِ المسلمين لأنَّهم يُورِدُونَهُمْ مَوَارِدَ الشَّهادة، ويقذفونهم أنهم سبب سجن الشباب وابتلاء الأحبة، ومحبو الدُّنيا يصغون لهم ويُرَدِدُونَ تهمتهم، وتجد لديهم القلوب والآذان، وهذا الحال قد وصفه الله تعالى في سورة «النساء» بقولهم: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ** ﴾[1]. أي أنَّ جهادك للكافرين هو سبب ما يأتينا من البلاء والمحن، فهي عندهم سيئات على دُنياهم، والجهاد في سبيل الله تعالى له ضريبةٌ ولا شك من الشُّهداء والسجناء وذهاب الدُّنيا، ولذلك قد ضُربت بساتين وحدائق الأصحاب في المدينة، وقد حدثوا أنفسهم بترك الجهاد لأنَّ الله نصر دينه وهو ناصر، فَلْيَعُودُوا إلى أموالهم ليُصْلِحُوها، فحذرهم ربُّ العِزَّة من ذلك وقال لهم: ﴿ **وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥** ﴾[2]. فليست التهكلة هي فساد ما يرون من دنياهم إنما التهلكة بترك الجهاد، وقد هلكت أموالهم في الابتداء ثم آل أمرهم أنْ ملكوا الدُّنيا وخضعت لهم الأرض ودانَ لهم ملوكها، وحين يترك المسلمون الجهاد ويفرغوا لدنياهم فإنَّ دنياهم ستؤول إلى الكافرين كما وقع في التاريخ وكما يقع الآن.

﴿ **قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ** ﴾ هذا عيبٌ في إيمان الرجل، وضُعْفٌ في يقينه حين ينشغلُ لهموم نفسه وحاله ودُنياه، وكلما زاد إيمانُ المرءِ ويقينه غابتْ نفسه عنه، فهذا أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه يُوجِب على المسلمين أن يبعثوا جيش أسامة رضي الله عنه حتى لو أخذتِ الكلاب بأرجلِ نساء النَّبيِّ ﷺ، ونساء النَّبيِّ منهنَّ ابنته عائشة رضي الله عنها، وهو ينسى هذا ولا يُقِيمُ لنفسه شأناً إنما همُّه دين الله تعالى وسنَّة رسول الله ﷺ.

﴿ **يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ** ﴾.

وهكذا يشكون في جَدْوَى الجهاد ومُصادمة الكفار، فهم لا يرون وَعْدَهُ بالنَّصر لأنه تخلف بسبب أعمالهم، ولا يرون حِكْمَةَ شرعه لأنَّهم يجهلون مآلات هذا الشرع، والله سبحانه وتعالى عند حُسْنِ

[1] سورة النساء، الآية: ٧٨.
[2] سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

ظنِّ العبد به، وقال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»[1]، وهذا شأن الجاهليين في كلِّ وقتٍ، إنْ وَقَعَ بهم بلاءٌ نظروا إلى السماء مُتسائلين: لِمَ هذا؟ ولا ينظرون إلى أنفسهم وإلى الأُمَّة، والكثير منهم يستصغر المعاصي الكبار ولا يراها شيئاً، وقد رأينا في هذه الغزوة أنَّ مخالفة الصَّحابة ﷺ لأمرٍ واحدٍ من قائدهم كان عاقبته ما كان من فواتِ النَّصر ووقوع المُصيبة وقتلِ سبعين صحابياً منهم عمّ النَّبيِّ ﷺ أسد الله وأسد رسوله ﷺ حمزة بن عبد المطلب ﷺ.

هذه أمراضُ النُّفوس المُوجبة للهزيمة: حبُّ الدُّنيا، والجهل في حِكْمَةِ الأقدار، وهما مُترابِطَانِ فإنَّ الغفلةَ عن الآخرة وأُجُورِها ومِيزانِها تمنعُ المرءَ من تفسير القَدَر، فالنَّاس منذ القديم يتساءلون لِمَ يتألم النَّاس؟! ولِمَ الأمراض؟! ولِمَ الشرّ؟! ولِمَ الجوع؟! وكل أجوبتهم باطلة إنْ غفلتْ عن الدَّار الآخرة، هذا إنْ أجابوا، وإلاَّ فأغلب الفلاسفة يكفرون بحكمة الله تعالى وعِزته، ولرحمة الله بالمؤمنين جعل لهم شيئاً يسيراً من الدُّنيا حتى لا يكفر النَّاس كما قال تعالى في سورة «الزخرف»:

﴿ **وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾** ﴾[2]، وسورة «الزخرف» في مُجملها حديثٌ عن هذا القانون، وهو أثرُ الترف على القلوب، والسنَّة الجارية في المُترفين مع الحقِّ، وحال من ينشأ في الحِلْيَّة، وفساد أهل المُتع الدنيوية وقانونهم الباطل في معرفة الحقِّ، وكل هذا وغيره دليلٌ أنَّ غياب الدَّار الآخرة عن قلب الإنسان وعقله تُعطل لديه إِدْرَاكَ الحِكَمِ الإلهية في الأقدار والتكوين، ولذلك فإنَّ المؤمنون بالدَّار الآخرة هم الحامدون الشاكرون، إذ أنَّ فَهْمَهُمْ لحِكْمَةِ الله في الوقائع والأحداث تُوجِبُ عليهم حمد الله سبحانه وتعالى، وهو الثناء عليه بما هو أهله، إذ ينسبون كلَّ خيرٍ إليه، والشرّ ليس إليه، سبحانه وتعالى عما يقوله الظالمون.

إنَّ الذين لا يرون في الجهاد إلاَّ موت الأحبة وفِراقهم، ولا يرون فيه إلاَّ خراب الدِّيار والأموال، فهؤلاء يظنون بالله غيرَ الحقِّ، ولذلك هم يستهزؤون بالمجاهدين ويتهمونهم بالطفولة الفِكرية، ويقذفونهم بالجهل في السياسة الدولية، وكلّ همهم هو البحث عن الوسائل المهينة في رضا الجاهلية عنهم، ويسمُّونها بالوسائل الحضارية ـ زعموا ـ وهم لا يَعْنِيهِمْ أبداً قيم الإسلام العُظمى، فالعِزَّة لله ولرسوله وللمؤمنين لا يعرفونها إلاَّ على إخوانهم، والحِكمة والرقة مع الكافرين دون إخوانهم، وهم يلهثون العُمْرَ كُلَّهُ لتحقيق خُطْوَةٍ واحدةٍ نحو أهدافهم فلا يحققونها، إذ ما مِنْ خُطْوَةٍ تُعْطَى لهم

[1] البخاري في «كتاب التوحيد» باب قول الله تعالى: ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ** ﴾ وقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ** ﴾ حديث رقم: ٧٤٠٥. طرفاه في: ٧٥٠٥، ٧٥٣٧. ومسلم في «كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى. حديث رقم: ٢٦٧٥.

[2] سورة الزخرف، الآيات: ٣٣ـ٣٥.

تَكَرُماً من الجاهلية إلا وتُسْلَّبُ منهم بعد ذلك مع الذِّلّة والمَهانة ودفع الضريبة الأشد، ضريبة لا تعدل ضريبة الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾.

فهم لا يؤمنون بنصر الله، فقد ملأتِ الجاهلية قلوبهم بالخوف منها، يرون قوتها لا تُقهر، وسُلطانها محيطاً بكلِّ شيءٍ، فإنْ خاطبهم المجاهدون بوعد الله ونصره استهزؤوا منهم، لأنهم لا يتخيَّلُونَ أنَّ مآل قوات وسلطان الجاهلية إلى بَوار وذهاب، ولا يؤمنون أنَّ قوة الله فوقَ قوتهم، وأنَّ كلَّ ما يرون هو كَبَيْتِ العنكبوت كما قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

إنَّ عُمدة الجهاد الأولى ولا يقوم إلاَّ بها عند غلبة الجاهلية وتعاظم قوتها هو اليقين على نصر الله تعالى، وأنّ قوة الله تعالى فوق قوتهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[2]، وأنَّ كلَّ ما يراه النَّاس من قوةٍ في يد أعدائهم يرتدُّ على المجاهدين بالسوء والشرِّ، وبهذا الضُعف تنشأ قيم التصالح مع الجاهلية ومُهادنَتِهَا ومحاولة إرضائها، وهم ينسون أنَّ الجاهلية عدوٌّ لنفسها، منقضة لسنن الفِطرة، فهي تحمل جرثومة هلاكها ودمارها، وهي عدوٌّ لله تعالى، يحاربها سبحانه وتعالى ومن يُغَالِبُ الله تعالى يُغْلَبْ، فالمُؤمن المجاهد يملك عوامل النَّصر الذاتي، ومعه عوامل الهزيمة في داخل صف أعدائه، فما عليه سوى اليقين على وعد الله تعالى والصَّبر على ما يُلاقي في جهاده وبلائه، والاستعجال مرضٌ يهلك ويفسد النتائج، فلكلِّ أجلٍ كتاب، ومِنْ حِكَمِ القدماء: من استعجل الشيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه، فالفجرُ آتٍ في ميعاده مهما طال الليل واشتدتْ ظُلمته، ولكن الفجر لا ينفع العُمْيَان، إنما هو للمُبصرين دون غيرهم، وهذا تاريخ البشرية يشهد أنَّ الباقين في أرض المعركة هم الوارثون، وأما تارِكُو الصِّراع فهم على هامش التاريخ دوماً، والظُنون الباطلة هي جهالات في الوعيِّ، وجهالات في السنن، وجهالات في الشرع، وكذلك هي انحرافات نفوسٍ مريضةٍ من حُبِّ الدُّنيا وقِلَّة اليقين وعدم الصَّبر، ولذلك فإنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى هو خِيَارُ العقول الواعية والنُّفوس العالية، ولا يقدر عليه والثبات في مواطنه إلاَّ مَن تحققت فيه هذه القيم وخاصة في زمن الضعف والمصائب والقُروح، ولهذا يكون الجهاد يومها هو جهاد القِلَّةَ القليلة، حيث يتصدون للأعداء قِتالاً وللأحباب بَيَاناً، فَهُمْ بين عدوٍّ يريد استئصالهم وحبيبٍ يشفق عليهم ومخالفٍ مُنْصِفٍ ومخالفٍ ظالمٍ يتهمُ ويقذفُ، ولا ينفعهم في هذه المعركة إلاَّ علمٌ خاصٌ ونفوسٌ عالية.

﴿ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾.

---

[1] سورة العنكبوت، الآية: ٤١.
[2] سورة فصلت، الآية: ١٥.

هكذا هي الجاهلية في هذه الآية، جاهلية نفوسٍ وقيم، جاهلية في تفسير التاريخ وأحداثه ووقائعه، والعرب قبل الإسلام لم يكونوا في مظاهر الحياة الدُّنيا وعلومها بأقل شأناً مما هو في الأُمم الأُخرى، فالجاهلية ليست في وسائل الإرادة الإنسانية من مادةٍ وقِوىً، ولكنها في القيم والمفاهيم والمشاعر، فهذا هو الجهل الذي ينحدر به مستوى الإنسان فيكون جاهلياً، والجاهلية هي مُقابل الإسلام، فكلّ دين غير الإسلام هو جاهلي، وكلّ قيم الوجود الإنساني غير قيم الإسلام هي جاهلية، وكلّ ميزان وقانون لتفسير التاريخ والحياة غير ميزان الأنبياء هو جاهلي، أي أنَّ عُمدته الجهل، هكذا هي عاريةً عن كلِّ ما يُسبغها عليها أصحابها من كلمات، أو يُزيِّنونها بِرُتُوشٍ باطلةٍ، ولذلك جعلها الله في هذه الآية مُقابل الحقِّ، فهناك ظنُّ الحقِّ وهناك غير الحقِّ وهو ظنُّ الجاهلية.

حين يُسمي الله غير الإسلام جاهلية إنما يلْغِي الآخر، يلغي نِسبته للعلم، ويلغي نسبته للحقِّ، ويُلحقه بأحط ما يُنسب إليه فَهْمٌ أو خُلُقٌ أو سُلُوكٌ، وهو الجهل، كما يُسمِّيه في آياتٍ أُخرى بالظُّلمات، وحين يُسَمَّى بهذا الاسم يعني أنه هواءٌ لا قوامَ له، ولا دليلَ يدعمه، فالعقول إن لم تهتدِ بالشرع فهي جاهلية، والنُّفوس إنْ لم تربى بالإسلام فهي جاهلية، والعلوم إن لم تُعَبِّد الإنسان لربِّه فهي جاهلية، فالجاهلية ليست مكاناً ولا زماناً بل هي قيم وقوانينٌ ونفوسٌ وإراداتٌ وأفعالٌ وأقوالٌ، ولكن حين يحُكم الزمان والمكان بِقَيِّمِ الجاهلية حينها يكون الزمان والمكان جاهلياً، لأنَّ الإنسان فيهما يكون جاهلياً، والذين يريدون أنْ يعطلوا إعمال هذا الوصف على الأزمنة والأمكنة إنما يريدون حماية الجاهلية وخلط مفاهيمها بمفاهيم الإسلام، وإزالة الحواجز النفسية بينها وبين قيم الحقِّ، وهذا دفاعٌ عن الباطل الذي يُشاركون في قيادته وتسيِّيره والانتساب إليه، وهم يسمعون قول الله هنا: ﴿ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ ومع ذلك يرفضون تسمية أنظمتهم بالجاهلية مع أنها تحَكم بغير أحكام الإسلام وشريعته، لأنهم يعلمون أنَّ هذا الوصف القرآني يُعَرِّي كلَّ نسبهم الباطلة، ويكشفُ زيفهم وبُهتانهم.

الذين يمنعون هذا الاسم القرآني أن يعمل عمله لا يمنعون مصطلحاً فقط فيكون الخلاف لفظياً إنما الخلاف في حقيقته حول منهجين، منهجٌ يحيي القرآن ليجعله سلاحاً في مقاومة الباطل، ومنهجٌ يتصالح مع الباطل ويُسبغ عليه شرعية القبول، ويُزيل الحواجز العلمية والنفسية بين المسلم وبين واقعه، لأنَّ المصطلحات ليست ألفاظاً لِنَقْلِ المعاني فقط لكنها أكثر من ذلك فهي رسالة نفسية، ولذلك إنَّ أول سُبل الشيطان في تمرير باطله على أبينا آدم هو في تغيِّيره الأسماء، إذ سمى له شجرة المعصية شجرة الخُلد والمُلك الذي لا يُبْلَى كما قال تعالى على لسانه: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[1]. وبهذا سَهُلَ له إتيان الباطل لما كَسَرَ الحاجز النفسي بينه وبين المعصية، وقد

[1] سورة طه، الآية: ١٢٠.

أخبرنا رسول الله ﷺ: «**لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**»[1]، وهذا ما وقع، كما يُغَيِّرُون اليوم اسمَ الزِّنا والرِّبا والزَّندقة، كل هذا ليقطعوا الصِلة بين الأُمَّةِ وبين القرآن، لما يعلمون أثرَ هذا القرآن من خلال مُصطلحاته على النُّفوس.

﴿ **يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤** ﴾.

هذا الظنُّ السيئ بربِّنا هو الدافع لما قالوا ههنا، فهم يُنازعون في الأمر ليكون لهم فيه شأنٌ، والله يسلبهم هذا، ويقول إنَّ هذا الأمر كلَّه لله، وهذا الأمر الذي يُنازعوا فيه هو خروجهم للقتال، لأنَّ عامة المنافقين كان رأيهم بعدم الخروج، ولكن كان الأمر قد استقر على الخروج، وقد جعل الله أمر الخروج بقدره لقوله: ﴿ **إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ** ﴾، وهذه صفة للمنافقين دوماً أنهم يعيبون عند المصائب أنَّ النَّاس لم يأخذوا رأيَّهم ولا استمعوا لنصيحتهم، ليس لإصلاح الأمر وتقريب الحال لكن للتبكيت والقدح والثلب والتعيير وتخذيل النُّفوس، فهذا قولهم دوماً: «لم تستمعوا لنصيحتنا فَقُتِلْتُمْ، ولم تأخذوا برأينا فَهُزِمْتُمْ»، مع أنَّ سبب الهزيمة ليس هذا، بل هو المعصية في عدم تنفيذ الأمر كما تقدم، والحقّ أنَّ الأمر لو كان للمنافقين لَباعوا دين الله تعالى من أجل حياتهم وشهواتهم وأهوائهم، ولَفرطوا في قيم الإسلام وعِزَّته، ولَرضوا بالحياة الدُّنيا وتركوا الجهاد بالكُلية، فالجهاد بأصله لا يحبونه، والإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ يريدون تغيِّيره لِيرضى عنهم أعداء الله تعالى، فقولهم باطل لا حقَّ فيه لكنَّهم يستغلون هذه الظروف الصعبة للطعن في المجاهدين وسبِّ الجهاد في سبيل الله تعالى، وأما إنْ كانتِ الأُخرى من النَّصر فسيزعمون أنهم هم مَن أعَدَّ النَّاس، وهم مَن مَهَدُوا سبيله وأَرْسَوْا وسائله، هكذا ديدنهم في كلِّ زمانٍ ووقتٍ، فما أشقى أُمَّة الإسلام بهم مِن كَذبةٍ فجرةٍ، فلهم ألسنةٌ حِدَادٌ طويلةٌ يُتقنون فنَّ الهرب والزيغ والتلعب.

﴿ **قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ** ﴾ هذا هو ردُّ المؤمنين على هؤلاء، «وقدر الله وما شاء فعلَ»، فهو الذي أخرجنا، وهو الذي رضي لنا في هذه الطريق، وهو الذي شرع لنا الجهاد، وما حصل إنما هو بتقصيرنا ولكن الأيام دُوَلٌ والعاقبة للمتقين.

إنَّ الأمر القَدَرِي كلّه لله تعالى، فلا وجودَ لشيءٍ إلاَّ ما خلقه سبحانه وتعالى، ولا مشيئة لمخلوقٍ إلاَّ من بعد مشيئته، وإنَّ الأمر الشرعي كلّه لله تعالى، فلا خِيار للعبد مع أمر سيده، وكل مُنازعةٍ لأمرٍ من أوامره هي مُنازعة لربوبية الله وألوهيته، والمنافقون يطعنون في الأمر الشرعي، وهو هاهنا

[1] أحمد في «المسند» من رواية أبو مالك الأشعري. حديث رقم: ٢٢٧٩٨، أما رواية عُبادة بن الصامت فهي: «**ليستحلنَّ طائفةٌ من أُمَّتِي الخَمْرَ باسمٍ يُسمُونها إيَّاه**» حديث رقم: ٢٢٦٠٨. وهو عند ابن ماجه بهذا اللفظ: «**يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الخَمْرَ، بِاسْمٍ يُسَمُّونَهَا إِيَّاهُ**» حديث رقم: ٣٣٨٥.

الجهاد في سبيل الله تعالى، لما يجره عليهم من الأقدار، وهي الابتلاءات والمحن، وقد وصف الله الجهاد بأنه كُرْهٌ لهم مع أنه خيرٌ لهم، والحقّ أنَّ كلَّ خيرٍ للإنسان في هذه الدُّنيا لا يقعُ إلاَّ مع الصِّعاب والمشقات، فها هي مريم عليها السلام تأتيها الملائكة فتبشرها بعيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1]. ومع هذه البُشرى العزيمة والآية الربَّانيَّة الجليلة التي جعلها الله تعالى فارِقاً من فوارق الإيمان والكُفر في البشرية جميعاً بعد مولده عليه السلام، إلاَّ أنَّ مريم عليها السلام، وهي الصِّدِّيقة تتمنى أن تموت قبل أن تحمل به وتلده فيقول الله على لسانها: ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ ﴾[2]. فَلِلْبُشْرى آلامها وضريبتها ومشقتها، وها هو يوسف الصِّدِّيق عليه السلام لا يحصل له البُشرى والكرامة في تأويل الرؤى وحصول رؤيته العظيمة إلاَّ بعد رحلةٍ طويلةٍ من البلاء والسجون وفِراقِ الأبِّ والأُمِّ والدِّيار، وهذه سنةٌ مُضْطَرِدَةٌ لا تتخلفُ أبداً، وصدق الإمام الحبيب العظيم محمد بن إدريس الشافعي ؓ حين يقول: «لا يمكَّنُ المرءُ حتَّى يُبْتَلَى»[3]، بل والله لا يتعلم حتى يُبْتَلَى، فالابتلاء طريقُ الفضائلِ كُلِّها، وطريق الكرامات كُلِّها، ولكن المنافقين لا يرون هذا، إنهم يريدون الجنَّة لكن إن جاءت فتنة النَّاس نسوها وطعنوا في دين الله وفي شرعه.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ٤٥.

[2] سورة مريم، الآية: ٢٣.

[3] سُئِلَ الشافعي رحمه الله أيما أفضل للرجل، أن يمكَّن أو يُبتلى؟ فقال: «لا يمكَّن حتى يُبتلى. والله تعالى ابتلى أُوْلِي العَزْمِ من الرسل فلما صبروا مكَّنهم، فلا يظن أحدٌ أنه يخلص من الألم البتة»، وإنما يتفاوت أهل الآلام في العقول. فأعقلهم من باع ألماً مُستمراً عظيماً، بألمٍ منقطعٍ يسيرٍ، وأشقاهم من باع الألم المُنقطع اليسير، بالألم العظيم المستمر.
فإن قيل: كيف يختار العاقل هذا؟ قيل: الحامل له على هذا النقد، والنسيئة.
والنفس موكلةٌ بحبِّ العاجل ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾. ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾. وهذا يحصل لكلِّ أحدٍ، فإنَّ الإنسان مدني بالطبع، لا بد له أن يعيش مع النَّاس، والنَّاس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يُوافقهم عليها، فإنْ لم يُوافقهم، أذوّه وعذبوه، وإن وافقهم، حصل له الأذى والعذاب، تارةً منهم، وتارةً من غيرهم، كمن عنده دينٌ وتُقى حل بين قومٍ فجارٍ ظلمةٍ، ولا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم، فإن وافقهم، أو سكت عنهم، سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعافَ ما كان يخافه ابتداءً، لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم، فلا بد أن يُهان ويُعاقب على يد غيرهم، فالحزم كلَّ الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «من أرضى الله بسخط النَّاس، كفاه الله مؤنة النَّاس، ومن أرضى النَّاس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً».
ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيراً فيمن يُعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يُعين أهل البدعة على بِدعهم هرباً من عقوبتهم. فمن هداه الله، وألهمه رُشده، ووقاه شرَّ نفسه، امتنع مِنَ المُوافقة على فِعْلِ المُحرم، وصبر على عُدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدُّنيا والآخرة. كما كانت للرُّسل وأتباعهم، كالمهاجرين، والأنصار، ومن ابتلي من العلماء، والعُبَّاد، وصالحي الولاة، والتُّجار، وغيرهم.
ولما كان الألم لا محيصَ منه البتة، عزى الله سبحانه من اختار الألم اليسير المُنقطع على الألم العظيم المُستمر بقوله: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾. فضرب لمدة هذا الألم أجلاً، لا بد أن يأتي. وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمُّل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به.
«زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم. فصل فيمن تجسدت فيه مراتب الجهاد كلها. طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت (١٩٩٦م).

إنَّ الجنَّة لا تكون لأحدٍ إلاَّ بامتثال أمرِ الله تعالى، وإنَّ الجنَّة محفوفة بالمكاره، دلَّ هذا أنَّ أوامر الله تعالى هي مكاره على النُّفوس لا تحبها، والزنادقة اليوم ومعهم المنافقون إنما يطعنون في شرع الله والجهاد في سبيل الله تعالى لِما يُصيبهم منه، ولِما يقع بسببه من فوات شهواتهم وملذاتهم، وهمُ المُترفون الذين يعيشون في رَغَدِ الحياة وملذاتها، والجهاد في سبيل الله تعالى ليس اختياراً لأحدٍ يفعله ويدينُ به إن انتصر فقط، أو كان أقوى من خصمه وأكثر دِعةً وعتاداً، بل الجهاد أمر الله تعالى يفعله المؤمن ويمارسه ويدين به في كلِّ الظروف، في ضُعفه وقوته، ووقت النَّصر والمصائب، لأنَّ الأمر كلّه لله تعالى.

﴿ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ﴾.

هذه علامةٌ فارقةٌ بين اختياركَ واختيارهم حتى وإنْ اتفقتِ الآراء، فكلاكما قد اتفق على عدم الخروج إلى أُحد، أنتَ وهُمْ، لكن داعي القولين مختلفٌ، فهم يُسِّرُونَ الباطل، وباطنهم ليس معك، ونياتهم على غير صَفْوِكَ، فإنَّهم وإنْ أبدوا لك ما تحب إلاَّ أنَّهم يبطنون لك ما تكره.

في قوله تعالى هذا دليلٌ على وجوب النُّصح التام للقائد في كلِّ المواطن، وخاصة مواطن الجهاد في سبيل الله، وأي إسرارٍ لِما يعلم المرء من خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، إذْ أنَّ كلَّ ما يعلم يجب أن يتداوله أهل الشأن ليكونوا على بصيرة من أمرهم، وليصدر قول قائدهم وقد أتى على كلِّ ما يعلم، إذِ الإخفاء سبب للجهل وهو طريق الهزيمة، هذا إن كان الأمر مجرد إخفاء فكيف يكون الحال ما لو خان وأظهر غير ما يُبطن؟!

﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾. هكذا مرةً أُخرى تبدو عقبة الخوف من الموت، والجهل في قدر الله تعالى تعترض النُّفوس المريضة والعقول الجاهلية في تفسير الحدث والواقعة.

الإيمان بالقدر ليس فكرة عقلية فقط يعلمها المرء كما يعلم مُفْرَدَةً ما في هذه الحياة، بل الإيمان بالقدر شعورٌ وإحساسٌ يفجر كلَّ حادثةٍ وكلَّ موقفٍ وكلَّ أزمةٍ ليطغى على كِيان الإنسان كلِّه، فيُسْبِغُ عليه الرضا والاطمئنان والراحة، فهو دواءٌ حاضرٌ يصدم ويُعالج كلَّ الأحزان والهموم والعقبات، وهو داءٌ أقوى من كلِّ أمراض الوجود الإنسانية، دواءٌ كامِنٌ في القلب والشعور كما في العقل والفكر، ومن عجيبِ الأمر أنْ نرى قوماً يلوكون كلمات العقائد، ويُدرسونها، ويردون على أصحاب البدع وأقوالهم البطالة في القضاء والقدر، وهم مع ذلك يقولون أقوال الجاهلية في المحن، بل إنَّ بعضهم أرسل الرسائل لقادة المجاهدين يقول لهم ما قال المنافقون هنا: ﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾. وقالوا الأقوالَ البطالة الأُخرى التي قالها المنافقون فيما سيأتي وصفها من كتاب الله في هذا الموطن، فما مفهوم الإيمان بالقضاء والقدر عند هؤلاء؟! وأي جزءٌ من أجزاء إنسانيتهم

يطوي على هذه المعرفة العلمية؟! ثم مَن أهدى سبيلاً أهؤلاء المُتكلمون والقوالون أم الإنسان الفِطْرِي حين تأتيه المصائب فلا يزيد أن يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؟!.

الإيمان بناءٌ نفسيٌّ تنطوي عليه المشاعر فتنفعلُ به، وليس كلمات تُعبر عن قضيةٍ من قضايا الوجود لا تعلُّقَ للعارف بها إلاَّ بكونها حقيقة من الحقائق يعلمها العقل وتستقر فيه دون أن تتجاوزه، وهذا البناء النفسي هو الذي يمتحن ويُبتلى في الملمات والمصائب، وبمقدار رسوخه وثباته يقوى على تجاوزها وتخطيها، وكل ضُعُفٍ فيه يرتدُّ على صاحبه ضُعْفاً في هذه المواقف، والضعف في عمومه لا يكون حلاً أو لِبَاساً بل يكون جاهاً وسُلطاناً أو غيرهما، والذين يحاولون ردَّ تركهم للجهاد في سبيل الله أنَّ ذلك يعود لأسبابٍ علميةٍ هم وَاهِمُون وإنْ صدقناهم، ذلك لأنَّ الشيطان والنَّفس يتقنعان بقناع العلمية والعقلانية، والإنسان نفسه قد تخدعه نفسه وهو لا يدري، إذ تأتيه باسم العلم والدِّين، والأمر في حقيقته شهوة وهدى، ولذلك قرن الله تعالى الظَّنَّ بالهوى فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[1].وجعل مقابلها «الهدى» فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾. وهذا في سورة «النجم»، وهي سورة مكية أَرْسَتْ قواعد العلوم وطُرق الاستدلال، وردت على الطُرق الباطلة فيهما، وطرح قواعدِ العلوم الإنسانية وطُرق الاستدلال في هذا الوقت المُبكر من الرسالة يدل على أهمية هذا الأمر، لأنَّ تثقيف العقل المسلم «الثقافة بمعناها العلمي والتربوي لا بما تستخدم اليوم من معاني باطلة تؤولها عن معناها الحقيقي». أقول لأنَّ تثقيف العقل المسلم من أهم الأمور وأولاها.

لقد قَرَنَتِ الآية بين الظنِّ، وهو ما يُقابل الوحي، وبين الهُدى، لأنَّه ما مِنْ قَوْلٍ يقوله صاحبه خِلاَفَ الأمر الشرعي إلاَّ وَدَاعِيهِ الهوى، وقد فصَّل الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في «الاعتصام» هذه القضية كاشفاً العلاقة بين البدعة وبين الهوى[2]، مع أنَّ صاحب البدعة يتقنع بقناع حبِّ الله تعالى وحبِّ الرسول ﷺ، وداعيه إنما هو زيادة التعبد لا تركه، ولكن كلّ هذا غطاءٌ كاذبٌ للهوى يتبعه صاحبه، سواء عرف أم لم يعرف.

﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾. هذا قولهم، إذ يزعمون أنَّ اختيار الخروج لأُحد هو سبب لحوق الموت بالنَّاس، وينسون أنَّ الموتَ كتابٌ مُّؤَجَلٌ، قد قُضي الأمر فيه وانتهى، وهم ههنا سمَّوه القتل، لا الموت، والقرآن يردُّ عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. فإنَّ قدر الله لأُحد أنْ يموت قتلاً فسيموت هذه الميتة دون غيرها، ولو لم يخرجوا للجهاد فيموتوا شهداء لجاءهم الموت وهم في بيوتهم وعلى سُرُرِهِم التي ينامون عليها، ولكن

---

[1] سورة النجم، الآية: ٢٣.

[2] انظره في الصفحة ٦٥ وما بعدها بالجزء الأول، طبعة مكتبة التوحيد. تحت الباب الثاني: «في ذم البدع وسوء منقلب أصحابها»، متابعة المُبتدع هواه، وبيان متبع الهوى.

هؤلاء أكرمهم الله بالموت في ساحة الجهاد وغيرهم ممن جبن دخل الأعداء عليه بيته ومضجعه وذبح ذبح الشِّياه في ذلةٍ ومهانةٍ، فهذا ردُّ القرآن عليهم، وهو ردٌّ على كلِّ الطاعنين في الجهاد أنهم يسببون الموت والقتل للمسلمين، وهي فضيلة لا تُنكر لهم لأنَّهم هم الذين حرضوا الشباب على الجهاد فأخذوهم إلى ساحته فماتوا هناك شهداء سُعداء فرحين بلقاء الله، ولو لم يكن لذلك ولم ييسر لهم أهل الجهاد لماتوا قتلاً في مواخير الخمر وهم يتصارعون سكارى، أو لماتوا على مدرجات الملاعب ينبحون كالكلاب ويتصارعون على الوهم والخِداع وقصف العقول، ولَقتلوا في صراعات الجيوش الجاهلية وهم جنود لطواغيتها حِفاظاً لمصالحهم وكراسيهم، نعم سيُقتلون لا مفر، فلا تزعموا حرصكم على الأرواح المسلمة ونفوس الشباب لأنكم جهلة لا تعلمون كتاب الله ولا سنَّة رسوله ﷺ حتى لو جلستم في حِلَقِ الدروس تُعَلِّمُونَ النَّاس عقيدة السلف وتوحيدهم وتلوكون كلمات الأوائل في الردِّ على المُخالفين.

في مواطن الجهاد والشَّهادة أنتَ تبرزُ للموت، فلا تخافه ولا تخشاه بل تحبُّ لقاء الله تعالى، وفي مواطن الجبن حين تختفي وراء الأسوار وتجلس مجالس النساء يبرز إليكَ الموت وأنتَ ترتجفُ هَلَعاً وخوفاً فتموت مئات المرات، ﴿ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ ﴾. وهي صورة لا يرضاها الرجال بل المؤمنون، لأنَّ القتل حين يبرز للرجل وهو مضطجعٌ فإنه موقفٌ لا يليقُ بهم ولا يحسن بعباد الله الصالحين.

إنَّ القرآن يُعلِّمنا هنا أن لا يغيب الجهاد والمجاهدين بما يقع للمسلمين ولهم بسبب الجهاد من موتٍ وقتلٍ وسجنٍ ومحنٍ، ولكن يعلِّمنا أنْ نعيبَ المعصية والتنازع والتخاذل، فالواجب على الناصحين الحكماء، وعلى العلماء الربَّانيين أن يعيبوا على المجاهدين إنْ وقعت أحدٌ يوماً أنْ يقولوا لهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم ﴾، ثم عليهم أن يحرضوهم إلى معركةٍ أُخرى مع الجِراح كما وقع لأصحاب رسول الله ﷺ في حمراء الأسد كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ ... ﴾[1].

هذا هو دينُ الله، وهو أمرهُ وهو طريقُ الربَّانيِّين الذين يعلمون دينَ اللهِ حقَّ العِلْمِ، ويقرؤون كتاب الله حقَّ القراءة، ولا يرتجفون لرؤية الموت والجُروح والحُروق وفتح السجون، بل هم يحمدون الله أنْ يسَّر للأُمَّة مجاهدين حتى تقع هذه الأقدار في طاعته وفي طريق الجهاد في سبيل الله تعالى لا في المعاصي وضلالات الطريق.

إنَّ القارئ لتاريخ الأُمَّة المسلمة لَيَعْلَمُ صِدْقَ هذه السنَّة الربَّانيَّة، وزماننا يشهد لهذه الآية القرآنية، فقد دفعتِ الأُمَّة الكثير من القتلى جُبْناً، ومات الكثير في سُبل المعاصي، ولو قارنا عدد هؤلاء القتلى في مضاجعهم وفي مخابئهم وفي طُرق الذِّلة والمعصية وبين عدد مَن مات في سبيل الله تعالى لَرأينا

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٧٢.

الفارقَ كبيراً جداً، ولكن أهل الزيغ والضلال والجهالة ومعهم أهل النِّفاق والزندقة لا يحصون إلاَّ على المجاهدين، وأما عيونهم على أهل المعاصي فهي في عماء، لقد عيَّروا على المجاهدين أنهم كانوا سبباً لقتل المئات من الشباب، وسجن مثلهم أو عشرات المئات، وهم لا يحصون عدد المسجونين بسبب المعاصي والانحرافات، ولا يعدون القتلى في سُبل المعاصي، ومن عجائب عصرنا أنَّ النِّفاق في الفقهاء أكثر من وجوده في العوام، ولو أطاعهم شباب الجهاد مع قِلَّتِهِم لأُغْلِّقَ باب الشَّهادة في هذه الأُمَّة، ولكن بحمد الله ما زال الجهاد حبيباً للنُّفوس التي بقيتْ على فِطْرَتِهَا ولم يفسدها نفاق الفقهاء المُعاصرين الذين يكرهون الجهاد والمجاهدين لِما سببَ لهم من فساد دُنياهم ودُنيا أسيادهم من الطُغاة، وأقولُ بما أعلمُ من كتاب الله تعالى: «إنَّ من يمنع الجهاد في سبيل الله اليوم بحجة المصلحة والمفسدة إنما هو منافقٌ لو تخفى بلباس العِلْمِ والفقه، لأنَّ الذي يُؤذيه ذهاب دين النَّاس ولا يتمعر وجهه لهذا الفساد في الأرض من تركِ الحُكْمِ بما أنزل الله تعالى، ولا يُؤذيه ضَيَّاع دين النَّاس وغلبة أهل الشرك والكفر على أهل الإسلام لا يكون مؤمناً بل هو أقرب للكفار من قُرْبِهِم للإسلام كما يقول الله تعالى عنهم كما سيأتي».

إنهم يرون بلاد المسلمين مُستباحة، ودينهم يُهَان ويُعَادَى، ودُنياهم وخَيراتهم تُنْتَهَبُ وتُسْرَقُ ومع ذلك يسمون المجاهدين ضدَّ أهل الردَّة والشرك والكفر مفسدين في الأرض فهل هؤلاء أهل القرآن؟! وهل هؤلاء يعلمون من دين الله شيئاً؟! وإنْ حُوجِجُوا قالوا: انظر مَن لحَق بهؤلاء المجاهدين أين هم؟!، إنَّ عامتهم إما مقتولٌ أو مسجونٌ أو مهاجرٌ «يقولون مشرد»، وينسى هؤلاء أنَّ هؤلاء هم الممدوحون في كتاب ربِّنا وسنَّة رسوله ﷺ، وينسون أنَّ غيرهم مقتول كمسجونٍ مشردٍ من أجل الدُّنيا وشهواتها.

﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ ﴾.

وهكذا يكون الموت في سبيل الله سبباً للابتلاء والامتحان، فهل حقّاً دين الله في قلوبهم عظيم الشأْنِ جليل القدر لِيموت النَّاس من أجله؟! إنهم لا يعيبون موتَ النَّاس وهم يموتون من الدُّنيا، بل ولا يعيبونهم وهم يموتون جنوداً للطواغيت، ويُقْتَلُونَ على بلاط شهواتهم وأهوائهم، ولكن إنْ كان الموت والقتل من أجل دين الله تعالى صرخوا وأخرجوا ما في قلوبهم، لأنَّ دين الله عندهم لا يستحق الموت من أجله، ولا الهجرة في سبيله، فإنَّ هؤلاء المنافقين من الأوس والخزرج قُتِلَ منهمُ الكثير في حروب الجاهلية فلم يرون هذا عيباً أو نقصاً، لكن أنْ يموت هؤلاء في معركة الإيمان فحينها تصرخ الحناجر وتنتفخ الأوداج، وهذا يكشفُ قيم الإيمان والإسلام في قلوبهم، فهكذا كان الموت في سبيل الله، والموت الكثير سبباً للابتلاء وتمحيصِ المواقف.

وأما قوله: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ ﴾. فدل هذا على أنَّ كشف الله للمنافقين في مواطن المصائب والقُروح إنما هو نعمة للمؤمنين ليعلموا مراتب النَّاس فيهم، فهم محتاجون لذلك، وأما الله

سبحانه وتعالى فهو يعلمُ ذلك قبل الابتلاء والتمحيص، ولذلك فإنَّ المجتمع المسلم بحاجةٍ لهذه الأمراض ليكشف معادن النَّاس ومقدار صَلابتهم، وهذا دليلٌ أنَّ المجتمع الذي لا ينشأ عن طريق الجهاد هو مجتمعٌ مغشوشٌ لا يُعْلَمُ فيه الصحيح من الفاسد، ولا المؤمنَ من المنافق، لأنه مجتمعٌ لا ينشأ على المحن التي تصهر الرجال، ولذلك قال النَّبيّ ﷺ عن المدينة: «**إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ**»[1]، وهذا ليس لأمرٍ غيبيٍّ غير مفهوم المعنى، بل بسبب حالة المدينة النَّبويَّة في زمنه ﷺ، إذ أنها دار المحن والابتلاءات، فهي دار الجهاد والمهاجرين والأنصار، فهي لا تخرج من محنة إلاَّ وتدخل في أُخرى، ولذلك لا يستقر فيها المُنافق فتنفيه، وإما إنْ كنت المدينة النَّبويَّة كغيرها أرض شهوة ودنيا فإنَّ المنافقين يرتعون فيها كما يرتعون في مَثِيلاَتِهَا من المُدن، ولذلك لا عجبَ أنْ صارتِ المدينة في وقتٍ مُبَكِرٍ مَأْوَى لأهل العِشْقِ والمجُونِ والغِنَاءِ كما ذكر أهل التواريخ بالنَّاس، فالنِّفاق لا يستقيمُ مع الجهاد، فنار الجهاد سُرعان ما تكشفه وتُبيِّنُه وتُظْهِرُهُ على حقيقته، وبغياب الجهاد يستنسر البُغاة، ويتقدم أهل الشهوات والأمراض القلبية، بل يصيرون هم أهل الحلِّ والعقد، وبمثل هؤلاء يُصبح المجتمع المسلم مجتمع تجار دُنيويين، يتعاملون مع دولة الإسلام من منطلق المنفعة الدنيوية لا من دوافع الإسلام وأهدافه وقيمهِ.

إنَّ البعضَ يحبُّ الجهاد ما دام يحقق الانتصارات لكن إنْ كان فيه الآلام والقُروح والشهداء والسجون فهو مردودٌ لأنه لا يحقق المصلحة كما يزعمون، والمصالح عندهم مِعيارها هي الدُّنيا لا غير، وأما مصالح الدين والعِباد والشُّهداء والمُنْفِقِينَ في سبيل الله تعالى فهذه ليست من المصالح في شيءٍ عندهم، ولو تصور هؤلاء حال الأُمَّة ما لو غاب الجهاد واندثرت ساحاته وأعرض عنه أصحابه لَعلموا أي ضلال وفساد سيكون في الأرض، فحين تُحرم الأُمَّة مِنْ مصرف أموالهم في الجهاد والقتال، وحين يُغلق على الأُمَّة باب الهجرة في سبيل الله تعالى، وحين يُعطل باب الجهاد، فَكَمْ مِنْ آيةٍ من كتاب الله تُعطل؟! وكم من حديث لرسول الله ﷺ لا يُعمل به؟! وأي باب من أبواب الفقه يُصْبِحُ مجردَ كلماتٍ لا مفهومَ لها إلاَّ في الأذهان فقط؟!.

لو تذكر هؤلاء وتصوروا هذا الحال لَعلموا أي شرٍّ يدعون إليه وهم لا يعلمون، أما فضل الجهاد في تشكل التجمعات والمُدن الإسلامية فهذا أمرٌ يحتاج لوحده إلى مجلدٍ مستقلٍ للكلام فيه.

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾** ﴾[2].

---

[1] الحديث بطوله: حدَّثنا أبو الوَليدِ حدَّثنا شُعبةُ عن عدِيٍّ بن ثابتٍ قال: سمعتُ عبدَ الله بن يزيدَ يُحدِّثُ عن زيدِ بن ثابت ﷺ قَالَ: «لما خَرَجَ النَّبيُّ ﷺ إلى أُحُد، رَجَعَ ناسٌ مِمَّنْ خرجَ مَعَهُ. وكَانَ أصْحابُ النبيِّ ﷺ فِرقَتَين: فِرْقَةٌ تَقُولُ نُقَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لاَ نُقَاتِلُهُمْ. فَنَزَلَتْ ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ** ﴾ [النساء: ٨٨] وَقَالَ: «**إِنَّهَا طَيْبَةُ تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّةِ**». البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة أُحد. حديث رقم: ٤٠٥٠.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

إنَّ المعاصي الكبرى التي تتعلَّقُ بالأُمَّة ومصيرها، إنما تنشأ من المعاصي الصُغرى التي يقترفها الأفراد في اختلائهم وفي فضاء خُصوصياتهم، وبهذا يُظهر أثر المعاصي الخاصة الخفية على الواقع والجماعة عند محنها الكبرى والعامة، ذلك لأنَّ الذنوبَ لها أثرٌ على النُّفوس، فهي تُؤثر على أصل كلِّ أخلاق وصفات المسلم وهو الإيمان، فالإيمان هو مصدر الشجاعة والثبات والكرم والعطاء والفداء، وحين تأتيه المعاصي فإنها تُضعفه فتضعف أثره وقيمه التابعة له، وحين يأتي البلاء والامتحان تتكشفُ جوانب الضعف هذه فتبدو بوضوحٍ وجَلاءٍ.

فهؤلاء الذين تولوا يوم أُحد إنما وقع منهم ذلك بسبب حبِّ الدُّنيا كما قال تعالى مِن قبل، وهذا المرض في النُّفوس عِلَّته ههنا هو ما كسب الإنسان من الأعمال فكانت هذه الأعمال وسيلة لقيادة الشيطان والانسياق خَلْفَهُ، فالشيطان قد أزالهم من مواطن الثبات وأخذهم إلى المعصية بسبب ما كسبوا من الذنوب سابقاً، وكلما كثرت هذه المعاصي كان للشيطان طريقاً أقوى على صاحبها.

النَّاس عادةً لا يربطون بين الأفكار والأعمال، والكثير منهم اليوم يحاول أنْ يُفرِّقَ بين فكر المرءِ وعَقله وبين سلوكه، وهذا مخالفٌ لميزان القرآن كما تقدم من جمع القرآن بين الظَّنِّ والهوى ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ** ﴾[1]. والكثير منهم لا يربط بين المعاصي الخاصة والمواقف العامة وهذه الآية تردُّ عليهم وتكشفُ خطأهم هذا، فإنَّ حُسْنَ العلاقة مع الله في السرِّ وفي خصوصية المرء تهديه إلى حُسْنِ المواقف العامة التي لها تعلقٌ بحياة المسلمين من إدارةٍ وقيادةٍ وسلوكٍ، ولذلك كان السلف لا يُولون إلاَّ الصالحين ما اجتمع فيهم القوة على الأمر الذي يتولونه ولذلك قالت ابنة الرجل الصالح في مدين لأبيها وهي تحضه على استئجار موسى عليه السلام: ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾** ﴾[2]، وكان قول أبيها بعد العَقْدِ مُطَمِّئِناً موسى عليه السلام ﴿ **سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾** ﴾[3].

هكذا يعلمِ المسلمون أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى لا تتحقق لهم نتائجه، ولا يأتيهمُ النَّصر إلاَّ بالربَّانيَّة وحُسْنِ العبودية لله تعالى، فهم أولى النَّاس بالخوف من المعاصي والذنوب لِما يعلمون أنَّ الذنب الذي يقترفونه في خلوتهم سيكون مردوده على الأُمَّة جميعاً حين تحضر الصفوف ويتم النِزال.

لكن قد يسأل سائلٌ لِمَ نَرَ الخُور والجبن في بعض العُباد والصالحين، ونرى الشَّجاعة والكرم والإقدام في بعض العُصاة والمُذنبين؟! وللجواب على هذا السؤال أقول:-

إنَّ من الواجب الذي لا يجوز الجهل به لفهمِ القرآن والحياة أنْ يُعلم أنه لا يُوجد فِعْلٌ من الأفعال يقع بسبب عِلَّةٍ واحدةٍ إنْ وُجِدَتْ منفردةً حصلَ الفِعْل، والجهل في هذا الأمر هو ما يمنع فَهْمَ الكثير

---

[1] سورة النجم، الآية: ٢٣.
[2] سورة القصص، الآية: ٢٦.
[3] سورة القصص، الآية: ٢٧.

من الآيات القرآنية على وجهها الصحيح كما يمنع تفسير وقائع الوجود، والتاريخ كذلك، وللتفصيل أقول:-

لقد عَلَّقَ القرآن الكريم النَّصر والعزَّة بالإيمان، والإيمان كما هو معلومٌ ليس شيئاً واحداً، بل هو كلّ أثرٍ أمرَ الشارع به، ومن الأوامر المحبوبة لله سبحانه وتعالى القوَّة، لقوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ**﴾[1]. ولقوله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...**»[2]، والكثير يظنُّ أنَّ القوَّة ليست من شُعَبِ الإيمان، كما يظنون أنَّ الإيمان شيءٌ واحدٌ له تعلُّقٌ بالقلب فقط، وهذا انحرافٌ عن الجادة وعن الحقِّ والقرآن.

إنَّ الحياة فِعْلٌ ولكنها لا تقع بعلَّة واحدةٍ تقوم بها فقط، فالإنسان لا يكون حيّاً إلاَّ بطعامٍ وشرابٍ وهواءٍ وغيرها، فوجود الحياة يتطلب ضروريات وحاجيات وتحسِينات كما يُقسمها العلماء، فَلِتَمَامِ الحياة لابدَّ من هذه، وتنقص الحياة بمقدار نقص هذه الأمور، ففوات بعضها يُؤدي فوات أصل الحياة، وبعضها إنْ فات لا تفوت كلّ الحياة، ولكن يفوت بعضها بحسبه.

حين يقرأ المرء قوله تعالى عن العسل: ﴿**فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ**﴾[3]. يُظَنُّ أنَّ العسل وحده هو الذي يحقق كلَّ الشِّفاء من كلِّ الأمراض، فإنَّه ولا شك يكون جاهلاً لعلم الأبدان والأمراض والأدوية، وهو ولا شك جاهلٌ في تفسير الآية القرآنية، لأنَّ هناك من الأمراضِ ما لا يصلح لها العسل، وهناك من الأمراض ما لا يستقل العسل لوحده بشفائها، وجهل هذا في فَهْمِ الآية كجهل مَن يقول إنَّ المرء إنْ وقفَ بعرفة حصل له الحج من دون أن يأتي بغيره من أعمال النسك لقوله ﷺ: «**الحج عرفة**»[4]، وهذا الجهل منتشرٌ في تفسير الآيات والأحاديث قديماً وحديثاً كقول القائل أنَّ تارك الصَّلاة يدخل الجنَّة لقوله ﷺ: «**مَن شهِدَ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ، وأنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسوله وكلمتهُ ألقاها إلى مريمَ ورُوحٌ منه، والجنَّةُ حَقٌّ والنَّارُ حقٌّ، أدخَلَهُ اللهُ الجنَّةَ على ما كانَ منَ العَمل**»[5]، والأمثلة كثيرة.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

[2] مسلم في «كتاب القدر» باب في الأمر بالقوة وترك العجزِ والاستعانةِ بالله وتفويضِ المقادير لله.، حديث رقم: ٢٦٦٤.

[3] سورة النحل، الآية: ٦٩.

[4] أحمد في «المسند» من حديث عبد الرحمن بن يعمر ﷺ، رقم الحديث: ١٨٦٧٧، ١٨٦٧٨، ١٨٦٧٩، ١٨٨٥٦. ورواه الترمذي في «السنن» ٢١٤/٥ رقم: ٢٩٧٥ في تفسير سورة البقرة، وقال: حسن صحيح، والنسائي في «السنن» ٢٩٢/٥، ٢٨٣ رقم: ٣٠١٦، ٣٠٤٤ التحفة «كتاب المناسك» باب: فرض الوقوف بعرفة، وباب: فيمن لم يُدرك صلاة الصبح مع الإمام بمزدلفة. والحُميدي ٣٩٩/٢ رقم: ٨٩٩، والطحاوي في «المعاني» ٢٠٩/٢، وفي «المشكل» ٣٢٣/٤.

[5] البخاري في «كتاب أحاديث الأنبياء» باب قوله: ﴿**يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١**﴾[النساء: ١٧١]. قال الوَليدُ: وحدَّثني ابن جابرٍ عن عميرٍ عن جُنادةَ وزاد «من أبوابِ الجنةِ الثمانيةِ أَيَّها شاء». حديث رقم: ٣٤٣٥. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الدَّليلِ على أنَّ من ماتَّ على التَّوحيد دخل الجنَّةَ قطعاً. حديث رقم: ٢٨. روياه عن عُبادة بن الصَّامتِ ﷺ.

فالكرم والشَّجاعة فِعْلاَنِ يَقُومَانِ عن إرادة، وهذه الإرادة لها دوافعٌ كثيرةٌ تُكوِّنها، ومِنَ الصعوبة تحديد قوة هذه الدوافع وكيف تكون في البشر، لكن الإيمان بلا شك هو أقواها وأكثرها فاعلية لكن يمكن للإيمان أن يضعف في لحظات إنسانية فيأتي الفعل الإنساني على ضدِّه لِتَغَلُبِ غيرهِ عليه في لحظة صِرَاعٍ بينهما، فحين نقول إنَّ الإيمان هو العامل المُكَوِّن للشَّجاعة والكرم لا يعني إشارة إلى دافعٍ واحدٍ، لأنَّ السائل يظنُّ أننا نقصد بالإيمان الصلاة أو الحج أو ذِكر الله تعالى، وهي عوامل مقوية ولا شك، لكنها ليست هي مستقلة فتُنشئ الشَّجاعة والكرم، فهذا العابد «أي المُصلِّي والذاكر» قد أتى بإحدى مقويات الفِعل أي الشَّجاعة والكرم لكن لم يأتِ بالعِلَلِ الأُخرى الدافعة لها، وبذلك تتخلف الحياة بتخلف الهواء حتى لو وُجِدَ الطعام والشراب أو المسكن واللباس.

الشَّجاعة والكرم مَلَكَتَانِ نَفْسِيَّتَان تتكوَّنان كما تتكوَّنُ كلّ المَلكات الإنسانيَّة بالعلم وتقوية دوافعهما لتنشط الإرادة لهما، ثم هناك عقبة أُخرى وذلك بإزالة أو إضعاف موانعها.

لقد قال العلماء الحُكماء قديماً: «إنَّ السبب المُعيَّن لا يستقلُ بالمطلوب بل لابدَّ معه من أسبابٍ أُخرى»، ومع هذا فلها موانع فإنْ لم يُكْمِلِ الله الأسباب ويدفع الموانع لم يحصل المقصود، فهذه قاعدة العمل شرعاً وقدراً.

ثمَّ إنَّ كثيراً من المَلكات النَّفسيَّة هي جِبِليَّة فِطْريَّة يمنُّ الله بها على بعض خَلقه لحكمةٍ يعلمها فيهم دون غيرهم، فهذا بابٌ آخرٌ من أبواب حدوث هذه الأمور لا نعرف حقيقته لأنه من أمور القدر الخفية التي تستعصي على العقول وقد أُمرنا بالإمساك عن الخوض فيها لقوله ﷺ: «**إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**»[1].

فالمَلكات النَّفسيَّة تكون بإيجاد أسبابها المُتعددة، فمنهم من يأتي بهذه الأسباب على وجه الإخلاص ومنهم من يأتي بها على وجه طلب الدُّنيا كالشُّهرة، ومنهم من تأتيه على وجه التربية التي نشأ فيها، وهكذا تتعدد الدوافع لحصول هذه الأسباب المُكوِّنة لهذه المَلكات، ولكن أعظم مكوِّناتها هي التربية الإيمانيَّة بمفهومها الشامل العلمي والعملي، فإنْ حصلت بغير هذه فإما أن تحصل على وجه الفِطرة والجبليَّة في النَّفس وإما أن تحصلَ بوجود أسبابها النَّفسيَّة القَدريَّة لكنها لا تكون إيماناً إلاَّ بكونها عبادة لله ورجاء الدار الآخرة.

إنَّ الإيمان بالدَّار الآخرة هو الذي يُقَوِّمُ النَّفسَ الجَبانة والشحيحة، ثمَّ إنَّ في وضع صاحب هذه النَّفس في غمرات الشَّجاعة أي في ساحات الجهاد يُصْلِحُ هذه النَّفْس ويُقَوِّمها، وأما بقية الأعمال الإيمانيَّة فهي مُقويَّة لتحصيلهما، والشيء لا يُقوى إلاَّ بوجود أصله، لكن النَّاس ينصرفون إلى إلغاء الأصل وعدم النظر إليه ويلتفتون إلى المُقويات والمُشحنات، وهذا شأنُ كثيرٍ من الوُعاظ والخُطباء كظنهم أنَّ التوكل يَصلح مُستقلاً لتحصيل المطلوب، أو الدُّعاء أو غيرها، هذا إنْ علموا معاني هذه

---

[1] الطبراني في «المعجم الكبير» عن عبد الله بن مسعود، وعن ثوبان ﷺ بإسناد حسن. حديث رقم: ١٤٢٧، ١٠٤٤٨.

الألفاظ على وجهٍ صحيحٍ فإنَّ بعضهم ينسب لهذه الألفاظ معاني باطلة كما ينسبون للصَّبر والصَّلاح والتقوى معاني مُبتدعة كمن يظنُّ أنَّ الصالح هو الفقير لُزُوماً أو هو صاحبِ سَمْتٍ خاصٍ يتخيَّله في نفسه، فعلى هذا فإنَّ الطاعات تُقوي النَّفس لِفعل الطاعات كالشَّجاعة والكرم، والمعاصي تُضعفها على هذا المعنى الذي ذكرناه، والله الموفق.

أما قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴿١٥٥﴾ ﴾ فَلأنَّ الموطن لهما، فهو موطن الغُفران للذنب الذي اقترفوه بالتولي، وأما الحِلم فلأنَّه ضدَّ تعجيل الغضب والعذاب، فإنَّ التولي يستوجبهما ولكن لأنَّ هؤلاء هُمْ جُنْدُهُ وعَبِيدُهُ وهم الذين يُعِدُّهُم ويُرَبِّيهِم فأخطاؤهم مغفورة، وميدان التربية يستوجبُ الحِلم والصَّبر والرأفة فسبحانه جلَّ في عُلاه، وإنَّ من رحمة الله تعالى أن يُعجل الله للمؤمن العقوبة في الدُّنيا، وهذا ما كان هنا حيث قُتِلَ منهم مَنْ قُتِلَ وَجُرِحَ مَنْ جُرِحَ ووقعوا جميعهم في الألم والهَمِّ والحزن، وهذه مكفرات الذُّنوب، وأما الكفار فيُؤخر الله عقوبته في الآخرة لتكون أشدَّ وأقسى، وهذا على خلاف النعيم والحسنات، فإنَّ الكافر تُعجل حسناته في الدُّنيا وتُؤخر للمؤمن إلى الآخرة، وهذا من رحمة الله تعالى بالمؤمنين ومكرهُ بالكافرين.

والأمر ههنا فيه أمور منها:-

إنَّ الله سبحانه ذكر هذا الفضل والرحمة بمغفرته لعبيده الذين تولوا بعد ختمه الآية السابقة بابتلاء ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب ليُشير إلى مدح هؤلاء وفضلهم، فإنهم ولا شك سَلِيمُو الصدور مؤمنون صادقون، وذلك لأنَّ المغفرة لا تقع إلاَّ على تائب، فقد وقعت منهم التوبة فَعَلِمَ الله صدق قلوبهم وإيمانهم فغفر لهم وعفا عنهم، فالمؤمن يخطئ كما أخطأ أبوه آدم ولكن لا يستكبر ولا يُصِرُّ على ذنبه بل يُراجع نفسه ويستغفر فيعود أفضل مما كان عليه قبل ذنبه.

ومنها أنَّ الله ذكر أمرَ غُفرانه للمتولين بعد ذِكره أمْرَ المنافقين الذين قالوا مقالاتهم تلك التي تقدمت لِيُبَيِّنَ الفرقَ بين حال مَن فعل وهو يعلم خطأ نفسه فيستغفر وبين من يبغض قدر الله تعالى ويعترض على شرعه بما يقع له من هذه الأقدار مثل هؤلاء يعيرون بالذنوب وبالأقوال الضالة التي قالوها، ورجاء التوبة لهم قليلٌ لأنَّ الفساد في قلوبهم، فالفرق كبيرٌ بين ذنبٍ يفعله صاحبه وهو يعلم خطأه فيستغفر، وبين آخر إنما ذنبه من جهة جهله بشرع الله وحِكمته في أقداره فيعترض ويُنكر ويُبغض فهذا بعيدٌ عن التوبة إلاَّ أن يَصْفُوَ قلبه ويطهُر.

ومنها أنه لا يجوز لأحدٍ أنْ يُعَيِّرَ أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ بهذا الفِعل كما يفعلُ الضالون من أهل البدع إذ أنَّ الله ربَّهم قد غفر لهم مغفرةً قد أكدها بلام التأكيد وقد التحقيق.

لقد تمَّ ختم مشهد المعركة كما بدأ، إذ بدأه الله تعالى بذكر العفو - **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** - وختم بهذه الآية، وهذا يدل على حبِّ الله تعالى لهؤلاء الجُند وبُغضِه لأعدائهم من المنافقين، وأنَّ المجاهدين لا تثريب عليهم إذ أنَّ أمر الجهاد ليس أمراً هيِّناً وله خطوبٌ ومحنٌ لا

يعرفها القاعدون الذين يُتقنون لَوْكَ الكلمات وصناعة الحروف، فالبطولة عندهم أمرٌ ذِهْنِيٌّ يتخيَّلونه دون أن يعرفوها، والشَّجاعة وهم يُسبغونها على أنفسهم دون امتحان لها، ولذلك قال النَّبي ﷺ عن الشهيد: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**»[1]، فإخفاق البعض في مواطن النِزال والحروب والمَعَامِع مع سلامة الصدر أمرٌ محتملٌ لكنه الكر بعد الفر، والإقبال بعد الإدبار، والاستغفار بعد الفِرار حتى تستقيم النَّفس على حالٍ من الشَّجاعة والإقدام أو تنال الشَّهادة في سبيل الله تعالى.

إنها دعوة ربَّانيَّة أنْ أَقْبِلُوا فأنا رحيمٌ بكم، صاحب الفضل عليكم في أُوْلاَكُمْ وغافر الذنوب لكم في أُخْرَاكُمْ، ولا يقل المؤمن كما يقول المنافقون: ﴿**ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ**﴾[2]. بل هو يُقبل ويدفع نفسه ما استطاع فإنْ أخْفَقَ في أولى فله ثانية وثالثة حتى ينال ما يحب من رضا الله تعالى.

فالمسلم لا يترك العمل مخافة الخطأ والذنب، ولا مخافة الرياء، فإنَّ هذا الفعل هو طريق الضالين من الجهلة أو المنافقين، بل المؤمن يلقي نفسه إلى الطاعات وأعلاها في هذا الباب الجهاد في سبيل الله تعالى فإنْ أخطأ فخطؤه مغفورٌ حتى لو فَرَّ من الزحف إن تاب وأناب وعاد إلى موطنه وغَرزِهِ، وأما الطاعنون والقاعدون بحجة الطُهر التام فهم جهلة ضالون لا يعرفون الحياة ولا ربَّهم ولا يعلمون سنَّة الله تعالى في المجاهدين من مغفرة الذنوب وجبر الأخطاء.

يقول البعض: جاهدنا كثيراً فماذا جنينا من الجهاد سوى الأخطاء والإخفاقات؟!.

فنقول: كبُرتْ كلمةً تخرجُ من أفواههم إن يقولون إلاَّ كذباً. بل والله ما كان الجهاد يوماً إلاَّ عِزَّةً لأهله في الدُّنيا وكرامةً وشهادةً لهم في الآخرة، وما مِن خيرٍ تعيشه أُمَّة الإسلام إلاَّ بسبب الجهاد في سبيل الله، فهم الذين يُتاجرون بدماء الشُّهداء وبالإنجازات التي يحققها المجاهدون، فيأتون إلى الجاهلية ليأكلوا بها مناصب وعلقماً لأهوائهم وشهواتهم، فيظنُّ الظَّان أنَّ هذا بسبب الجهاد ولا يعلم الأمر على حقيقته، فالدَّاء ليس في الجهاد والمجاهدين إنما هو في المنافقين والقاعدين.

لقد ابتلى الله الأُمَّة المسلمة بهؤلاء القوم وهم أشبه بالذُّباب يطيرون إلى كلِّ موطنٍ وساحةِ خيرٍ لاقتناص المنافع التي يحققها المجاهدون، وبسبب عُلُو صوتهم وحِدَّة ألسنتهم وعُلُوها دون قلوبهم يقفون فوق هذه المنافع ليُعلِّنُوا أنهم أصحابها ورجالها وصُناعها، ولا يكتفون بهذا بل لتسلم لهم هذه المنافع دون غيرهم يبدؤون بطعن المجاهدين وتخذيلهم وإبانة عوراتهم وأخطائهم، فيسير الكثير من النَّاس إليهم ويَصْفُوا المجاهدون قِلَّة قليلة تعيش محنها وابتلاءاتها، فما أن ينفض سوق الجهاد في هذا الموطن حتى يستقر غُبار المعارك على هذا الوضع، الذُّباب يجلسون على مكاسب المجاهدين، ولا يبقى في ذاكرة النَّاس إلاَّ أخطاء المجاهدين وأغلاطهم، وهذا المشهد يتكرر في زماننا هذا كثيراً، وسبب تِكراره قائل من قال هذه المقالة المُنكرة.

[1] النسائي في «السنن» وانفرد به. في «كتاب الجنائز» باب الشهيد. حديث رقم: ٢٠٥٢.
[2] سورة التوبة، الآية: ٤٩.

إنَّ أشدَّ النَّاس استفادةً من آثار الجهاد والمجاهدين هم مَن يطعنونه ويشتمونه ويكشفون عورات المسلمين، ذلك لتصفوَ لهم مكاسبهم، فتنسب إليهم لا لغيرهم من أصحابها الشرعيِّين، ومن هؤلاء مَن يرفع راية الإسلام ومنهم من يرفع راية الجاهلية لكن اللعبة المجُرمة واحدة، وهذه الجريمة والحقُّ يُقال مِن الصعب أنْ تُعالج إلاَّ بالصَّبر لأنَّ حال المجاهدين اليوم هو حال الأنصار، يكثرون عند الفزع ويقلُّون عند الطعن ويكفيهم أن يصبروا حتى يُلاقوا رسول الله ﷺ عند الحوض، ومَنْ رَجَا الدَّار الآخرة وإرضاءَ الله فلا يهمه أن تذهب الدُّنيا كلّها فإنها لا تعدل عند الله جناح بعوضة، ولذلك فليحذرِ المجاهدون من مُنافسة هؤلاء أو إقامة حروب بينهم وبين المنافقين من هذا النوع لأنَّ النَّاس جهلة في التفريق بين المجاهد وبين المُنافق من هؤلاء وسيقول النَّاس: «إنَّ محمداً يقتل أصحابه»[1]، فالصَّبر هو الطريق الوحيد لا غير، وإدامة الجهاد مع الكافرين والمرتدين دون غيرهم في زمن الجاهلية اليوم لأنَّ حمل هؤلاء ثقيل ولا قُدرة للمجاهدين على تحمل شرٍّ أكبر، فإنَّ قتال المنافقين في مثل هذا الزمن لا يفعله عاقلٌ بصيرٌ بأحوال النَّاس، فهذا رسول الله ﷺ ترك قِتالهم وهو المُمَكَّن في الأرض، مع ما في قلوب الصَّحابة ﷺ من حبِّه أكثر من أنفسهم، ومع ذلك كان يخاف مقالة النَّاس التي تُفسد القلوب وتغيِّرها.

سيُخطئ المجاهدون وستبرز آلة الجاهلية والنِّفاق هذه الأخطاء ولا علاج لذلك إلاَّ الصَّبر ورجاء الدَّار الآخرة فهُمَا بَلْسَمُ الجِراح ودواء كلِّ داءٍ.

لِيَسْتَغْفِرَ المجاهدون ربَّهم من ذنوبهم ومعاصيهم، ولا يلقوا بالاً ولا آذاناً للمنافقين والزنادقة والطاعنين، ولا يُنافسوا قط أهل الدُّنيا في شيءٍ من أشباه الدُّنيا حتى لو كانوا هم أصحابها، ولكن ليثبتوا على طريق الجهاد ودرب الشَّهادة، ولا يلقوا بالاً بأنْ يرواْ دماءهم وجهادهم يُتاجر به غيرهم أو يجنيه غير أصحابها، لأنَّ كلَّ انشغالٍ بغير الجهاد لأُصول الكُفر والرِّدَّة هو إضاعة لمسيرة الجهاد، وبذلك تُصْرَفُ الكثير من الجهود والطاقات في غير وجهها، وهذا مما يعجبُ ويُرضي ويُفرحُ الجاهلية، حيث ينشغل النَّاس عنهم، فتكثر الخصومات والأخطاء، وتفرغ هي لمهماتها الضالة، ولِيَعْلَمَ المجاهدون أنَّ هذا الباب من الصَّبر هو أعظم أنواع الجهاد وأشقه على النَّفس وأقساه، وفي هذا يُعْمِلُوَن قولَ النَّبي ﷺ: «**فَكُنْ عَبْدَ اللهِ الْمَقْتُولَ**» قَالَ أَيُّوب: وَلاَ أَعْلَمُهُ إِلاَّ قَالَ: «**وَلاَ تَكُنْ عَبْد**

---

[1] إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الشيخان في صحيحيهما: البخاري في «كتاب التفسير» باب ﴿ **سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾ حديث رقم: ٤٩٠٥: حَدَّثَنَا عَلِيٌّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ قَالَ عَمْرٌو سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ ـ رضي الله عنهما ـ قَالَ كُنَّا فِي غَزَاةٍ ـ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي جَيْشٍ ـ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ يَا لَلأَنْصَارِ. وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ. فَسَمِعَ ذَاكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ. فَقَالَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ». فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَىٍّ فَقَالَ فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**...» اللفظ للبخاري. ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب نَصْرِ الأخِ ظالماً أو مظلوماً. حديث رقم: ٢٥٨٤:

اللهِ الْقَاتِلَ»[1]. وهذا تفسيرٌ لقول أحد ابني آدم في قوله تعالى: ﴿ **لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، وهذه مرتبة كبار الأولياء والأتقياء وهي وصية رسول الله ﷺ للأنصار: «**أَتَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاةِ والبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ الله ﷺ إلى رِحَالِكُمْ؟**»[3].

ثمَّ يُقال أين الجهاد الذي فعلوه وبسببه حدثتِ الإخفاقات والأخطاء والمصائب؟! فإنْ تحدثوا عن جهاد الطوائف المؤمنة المنصورة فهو جهادٌ قامت به هذه النُخبة وكسلت عامة الأُمَّة بل العلماء عنه، بل والكثير منهم صار في صف الجاهلية وتحالفَ معها ضدَّ المجاهدين، وعامة الأُمَّة وقفت تنظرُ وترقبُ، وأما إن تحدثوا عن قتال الطوائف الأُخرى فهذا لا شأن لنا فيه، ولكن يُقال ـ وخاصة قضية فلسطين ـ إنَّ عامة الحركات والتنظيمات الإسلامية تخلت عن الجهاد في فلسطين في وقتٍ من الأوقات، والذين رفعوا رايات القتال هناك هم طوائف زندقة وكُفر من العلمانيين وغيرهم، والتحق بهم شباب الأُمَّة مدفوعون إلى الجهاد، وهؤلاء لا يأتي منهم خيرٌ، فإنَّ خصوم الأُمَّة من الغرباء خيرٌ منهم، وإنْ كانوا من بني جِلْدَتِنَا، والتهمة ليست ضدَّ شباب الأُمَّة الأغرار الجهلة لكنها ضدَّ العلماء وزاعمي الفكر الذين تخلواْ عن هذه القضية العظيمة، ولكن لما حملها المسلمون تغيَّر الحال، وهكذا كلما كان المرء والجماعة أقرب إلى الحقِّ كانت النتائج أفضل وأحسن، والجهاد في سبيل الله تعالى لا يأتي إلاَّ بخير كما قال تعالى للمنافقين: ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا** ﴾[4].

وكذلك يجاهد البعض لمقاصد دُنيوية وإن تغلغلت جماعاتهم باسم الإسلام، كمن يجاهد«!!» مطالباً بالديمقراطية، أو بالمُشاركة السياسية فهؤلاء يُفسدون ولا يُصلحون، وضرر جهادهم أكثر من ضرر خذلانهم، ومثل هؤلاء هم من يُتاجر بدماء الشُّهداء والشباب ليصل القادة إلى مقاصدهم التي خلت عن الإخلاص وحبِّ الدَّار الآخرة.

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴿١٥٦﴾ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴿١٥٧﴾ **وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴿١٥٨﴾ ﴾[5].

---

[1] أحمد في «المسند» من حديث خباب بن الأرث عن النَّبيِّ ﷺ. حديث رقم: ٢٠٩٦٢.
[2] سورة المائدة، الآية: ٢٨.
[3] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة الطائف في شوال سنةَ ثمانٍ قاله موسى بنُ عُقبة. حديث رقم: ٤٣٣٠، ٤٣٣١، ٤٣٣٢، ٤٣٣٣، ٤٣٣٤، ٤٣٣٧. ومسلم في «كتاب الزكاة» باب إعطاءِ المُؤَلَّفَةِ قلوبهمً على الإسلام وتصبُّرِ مَنْ قَوِيَ إيمانُهُ. حديث رقم: ١٠٥٩.
[4] سورة التوبة، الآية: ٥٢.
[5] سورة آل عمران، الآيات: ١٥٦ـ١٥٨.

هذا تحذيرٌ من الوقوع في سبيل الكافرين، وجهلهم بأقدار الله تعالى وعِلَلها، وكذا جهلهم في حقيقة الموت، وقد تقدم قول خالق الموت فيه وأنه كتابٌ مُؤجلٌ، وهذا التحذير لمن يعطل الحياة، ويخاف المُجازفة لأنها طريق الموت، ولأنَّ أمثال هؤلاء يخافون الموت، وهم أحرص النَّاس على الحياة، فهم يهربون من المخاطر، ويحذرون إخوانهم منها، ومَن تأمل هذه الآية وما تحمل من الدفق الإيماني في قلوب المؤمنين لأَدْرَكَ أي كتابٍ هذا الذي أنزله الله إلينا، فهو الهُدى والنُّور والحياة، بل هو روح هذه الأُمَّة ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾[1]، فإنَّ الجاهلية والتربية التي تُصَوِّغها لأفرادها تُعطل روح الاقتحام والمُغامرة والاندفاع للمعالي مخافة العطب والضرر والموت، والقرآن يحطم هذه الأغلال العقلية الباطلة، ويحرر النُّفوس الجبانة المُتخاذلة، فيطلق المهتدين به في شجاعة نادرة، ولا تقبل منهم الدون والصغائر في أمرٍ من أُمورهم، فإنْ سألوا الله الجنَّة فعليهم أن يسألوه الفردوس الأعلى، فلا عوائق ولا قيود ولا أغلال ولا صغائر ودنايا بل هي الإرادة المُتحررة إلاَّ من عبوديتها لله تعالى وإتباعها لرسول الله ﷺ ورجاء الدَّار الآخرة، فلا يُوجد ما هو كبيرٌ لا يُنازع لأنَّ الله لم يرفع شيئاً إلاَّ وضعه، ولا يُوجد ما يخاف منه لأنَّ كلَّ مكتوبٍ ستراه حتى لو هربتَ إلى جُحْرٍ تحت الأرض.

الغزو في سبيل الله هو امتحان الإرادة أمام نفسها، وأمام أعدائها مهما بلغوا من القوة، وعوائق الغزو كلّها أوهام، وهي تنشأ من الخوف والجهل، الخوف من الضرر والجهل بالعواقب، والقرآن يحطم في هذه الآية هذه العوائق، فالضرر إنْ كُتِبَ لن يُتمكن من الهروب منه، والعواقب مُقدرة لا مفر منها، فقد جف القلم ورُفِعَتِ الصُّحُف.

كتابٌ ودينٌ يهدي أتباعه لهذه القيم، ويرفعُ نفوسهم لهذه المعالي، ويطلقُ إراداتهم إلى أقصى الحدود والغايات الإنسانيَّة ثمَّ يأتي سَدَّنة الفكر، وحُراس العقول، وتُجار القضايا ليحطموا كلَّ هذه القيم ويُعِيدوا المسلم إلى قيود الجهل والصَّبر البهيمي والرُّعب من المستقبل والمجهول، وبدل أنْ يتحول الموت إلى قيمةٍ إيمانيةٍ تخرجه من السجن الدُّنيوي إلى جِنان الآخرة يُصبح الموت رُعْباً يُخَوَّفُ به، ويُرْفَعُ كَعَصَا التأديبِ لإيقاف المؤمنين من اللُّحوق إلى ساحات الجهاد ورفضِ الدنية والذِّلَّة، ومما يُشاهد اليوم هذا الجبن الذي يُطلقه الآباء والوعاظ والتربويون في مجتمعاتنا تحت دعوى السلامة وتحقيق المستقبل الدنيوي، وتركِ المُصادمة واقتحام العقبات حتى أخذ غيرنا من الكفار هذه القيم وغرسوها في أبنائهم، ومن العجب أنَّ الإنسان الفِطْرِي في أُمَّتنا هو الأسلم قلباً، والأكثر شجاعة من غيره ممن أقبل على التعلم، لأنَّ هؤلاء أرادوا العلم للدُّنيا وتحصيل مراتبها لا لِيُصْلِحَ عقولهم وقلوبهم وقيمهم، ولذلك تراهم أقلَّ النَّاس إقبالاً على غمرات الحياة وخُطوبها.

---

[1] سورة الشورى، الآية: ٥٢.

المؤمنون في هذه الآية يخرجون ضرباً في الأرض من أجل مصالح الوجود، وغُزىً ليُصلحوا هذه المصالح على أمر الله ودينه، والضرب في الأرض من أعلى ما يسلك الإنسان في حياته، لما يحققه فيه من مصالح ومنافع حياتيَّة وعقليَّة ونفسيَّة، فالرحلة كانت سِمَةَ المجتمع المسلم في كلِّ مراتبه العِلمية والحياتيَّة، وهي سِمَة المجتمع الحي الذي يُؤثر ويتأثر، فكلُّ العلوم الشرعيَّة بُنِيَّتْ على هذا الطريق والمسلك، وكلُّ المجتمعات الإسلامية بُنِيَّتْ عليه كذلك، والكلام على هذا الأمر وأثره في الشعوب والمجتمعات طويلٌ وبسيطٌ، والقرآن يُبْطِلُ عوائق هذه السِمَة الإنسانيَّة الرفيعة ويحكم موانعها، وقد وُضِعَتْ هذه السِمَة ضِمْنَ سياق الجهاد في سبيل الله تعالى لأنه سياحة هذه الأُمَّة، وقد رأيناه كذلك في سياق واحدٍ في سورة «النساء» حيث ذُكر الضربُ في سبيل الله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ** ...إلى قوله تعالى: **وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾** ﴾[1]. فقال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿ **وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾** ﴾[2]. وكذلك قرن في سورة «المزمل» عند قوله تعالى: ﴿ **فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾[3]. ذلك لأنَّ الجهاد في سبيل الله مع ما يحمل من فِعْلٍ إيمانيٍّ وهدفٍ ربَّانيٍّ إلاَّ أنه يحقق لأصحابه ما يحققه الآخرون من سِياقهم وأهداف الضرب في الأرض مُطْلَقاً.

الخوف من الأوهام والمجهول ممنوعٌ في القرآن الكريم، ولذلك من أخطاء التربية أن تقول للطفل «إيَّاك أن تفعل» تخويفاً من الموت أو العطب أو الضرر، وصُراخ الأبِّ والأُمِّ على ابْنَيْهِمَا حين يُمارس فِطرته للاكتشاف أو التشوف والتطلع هو مما يدمر الشَّجاعة والتي هي عماد مهمات الشريعة ومثلها الكرم، فينشأ الطفل مرعوباً خائفاً يهتز لأدنى سانحةِ وَهْمٍ، ويرتجفُ إن قعقعَ له في الشنان، وينزجرُ برمي الحجر كالكلب، وهذا ما تصنعه كذلك الأمثال الجاهلية ومعانيها التي يُرددها الآباء لأبنائهم والمُدرسون لطلابهم، وحين يكبر أمثال هؤلاء ويذهبون لدراسة الشريعة بسبب ضعف عقولهم ومحصلاتهم الدراسية فينتهون إلى خطباء مساجد وقُضاة محاكم ومُدرسو جامعات ومعاهد فماذا سيخرج منهم بعد ذلك؟!، فالفتوى حالة نفسيَّة قبل أن تكون إدراك عقلي، والخطبة انفعالٌ مع الحدث لا مُعادلة رياضية، فهم يخافون كلمة الحقِّ، ويرتجفون من ثمنها المعروف لها، فكيف لهؤلاء أن يقودوا جهاداً يريدُ أن يحارب فراعنة الدُّنيا، ودجاجلة الكون، وجيوش الطُغاة؟!.

---

[1] سورة النساء، الآيات: ٩٤-١٠٠.
[2] سورة النساء، الآية: ١٠١.
[3] سورة الصف، الآية: ٢٠.

إنَّ مشكلة الطاعنين في الجهاد مشكلة نفسيَّة تربويَّة، ولو قرأ المرء كلَّ كلامهم لما وجد إلاَّ هذه الأعراض والأمراض، لكنها تتغلف بغلاف الشريعة، وتتقنع بقناع الدليل، فيُلَفِقُون الأدلة، ولن يعدموا قولاً لعالم قال كلمة في ظرف من الظروف ليتخذها حجة لهذا الجبن والخور، وهم أحب النَّاس للدُّنيا، وأبغضُ النَّاس للموت ولقاء الله، ومعيشتهم تكشفهم ولو قال قائلٌ فيهم قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[1]. لَمَا أَبْعَدَ بل لأَصَابَ الحقَّ والواقعَ.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾.

هذا حُكْمُ الله في الذين يكفرون بالقدر، ويمنعون إخوانهم من الضرب في الأرض والجهاد في سبيل الله مخافةَ الموت أو القتل، ويدخل في الموت أو القتل ما كان في معناهما من الابتلاءات كالعطب والسجن والضرر، يحذر المؤمنين من فِعْلِهِم، وكأنَّ إخوانهم ببقائهم عندهم سيحمونهم من الموت أو القتل، وكأنَّ الموت في مكانٍ دون مكانٍ وفي فعلٍ دون فعلٍ، ويعجبني أنْ أسوق هذه الطرفة العربية العظيمة ضد اعتقاد الكافرين والجاهلين، فقد سأل أحدهم رجلاً: أين تعمل؟ قال في البحر، فقال له: أين مات أبوك؟ فردَّ الرجل: في البحر، فقال السائل: وما زلتَ تعمل في البحر، فردَّ الرجل: أين تنام؟ قال: على فِراشي. فقال له: وما زلتَ تنام على فِراشك. وقد صدق والله قائل هذه الحكمة، فمن هو الخالد والله يقول: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾[3]. وهذه الآيات في سورة «الأنبياء»، وهي سورة عُمدة قضيتها بشرية الأنبياء وأخص صِفاتهم وهي عبودية الدُّعاء وعِناية الله تعالى بهم في استجابته لهم سبحانه وتعالى.

لقد عَلَّم آباؤنا أبناءهم اقتحام الصِّعاب وخوض المفاوز والغِمار، فكانت شجاعتهم يُضرب بها الأمثال، ويقفُ الواحد منهم للجيوش ولا يفر، ولقد ذكر الأمير أسامة بن منقذ[4] ـ وهو من عائلة

[1] سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

[2] سورة الأنبياء، الآية: ٣٤.

[3] سورة الأنبياء، الآيتان: ٨-٧.

[4] أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكِناني الكلبي الشيزري، أبو المظفر، مؤيد الدولة: أمير، من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر (بقرب حَماة، ويُسميها الصليبيون Sizarar) ومن العلماء الشُجعان. له تصانيف في الأدب والتاريخ، منها: «لُباب الآداب» طُبع و«البديع في نقد الشعر» طُبع و«المنازل والديار» طُبع و«النوم والأحلام» مخطوط و«القلاع والحصون» و«أخبار النساء» و«العصا» طُبع منتخبات منه. وُلد في شيزر سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)، وسكن دمشق، وانتقل إلى مصر سنة ٥٤٠هـ وقاد عدة حملات على الصليبيين في فلسطين، وعاد إلى دمشق. ثم برحها إلى حصن كيفى فأقام إلى أن ملك السلطان صلاح الدين دمشق، فدعاه السلطان إليه، فأجابه وقد تجاوز الثمانين، فمات في دمشق سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م). وكان مُقرباً من الملوك والسلاطين. وله «ديوان شعر» طُبع، وكتب سيرته في جزء سماه «الاعتبار» طبع. تُرجم إلى الفرنسية والألمانية. «الأعلام» لخير الدين الزِرِكْلِي. الجزء الأول، الصفحة ٢٩١، طبعة دار العلم للملايين بيروت لبنان.

منقذ التي حكمت قلعة شِيرَز[1]، وكان لها جهادٌ مشكورٌ ضدَّ الحروب الصليبية، وكان هذا الأمير - وهو مُقاتلٌ فريدٌ وشاعرٌ مجيدٌ وأديبٌ فَذٌ له كُتُبٌ معروفة طُبِعَ بعضها أهمهما «كتاب الإعتبار»، والثاني: «لُبَاب الآداب». أقول كان هذا الأمير مُستشاراً في آخر عمره للملك الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى وأجزل مثوبته ورفع درجته، ذكر هذا الأمير كيف كانت تربية أبيه له، حيث قال: إنه لم ينهني عن فِعْلٍ قط فيه مخاطرة، وذكر أنه صعد يوماً إلى سطح بيته ليُواجه أفعى عظيمة فلم يصرخ فيه أبوه بل كان ينظر إليه وهو مُتوجهٌ إليها بوجهه، وكان هذا الأمير يُواجه الأسود وذكر أنه قتَلَ عدداً من الأسود، ومن طرائف ما ذكر أنَّ أبَّاه لم ينهه إلاَّ مرةً واحدةً حيث أتى لأسدٍ عظيمٍ من جهة وجهه فصرخ فيه: «لا تأته من وجهه»، يُعلِّمه طريقة صيده، فانظر نوع هؤلاء الرجال الذين حاربوا الصليبيين، ثم انظر إلى غيرهم تُدْرِكِ الفَرْقَ بينهما، أُولئك تذوقوا كتاب الله فانفعلوا به عِلْماً وَوِجْدَاناً وَحُباً، فَٱرْتَقَواْ به إلى المَعالي، وأما غيرهم فقد حجبتهم الشَّهوات والشُّبهات فأقعدتهم إلى الحضيض.

﴿ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً ﴾.

هم يصنعون أوهاماً وأوثاناً وعقائدَ وأقوالاً فلا تضرُّ أحداً غيرهم، ولا ترتدُّ إلاَّ عليهم، فهم قالوا مقالتهم الكافرة تلك، مقالةَ وهْمٍ وضلالٍ وباطلٍ «أي لا شيء»، فلم تكن إلاَّ حسرةً وألماً في قلوبهم فقط دون غيرهم، إذ أنَّ كلَّ كلمات الباطل والوهم لا تصنعُ حقيقة وُجُودية واحدة، وكلّ صرخات الوهميين لا تُوقِفُ الإعصار ولا الريَّاح، فالعقائد الباطلة هواء ووهم، وإنْ كان لها من أثرٍ فهي على نفوس أصحابها فقط، وهو أثر الحسرة والألم، وذلك ككلِّ المعاصي التي يرتكبها أصحابها، يسعون من خلالها إلى السعادة والراحة والاطمئنان، فلا تعود عليهم إلاَّ بالآلام والأمراض، تخدرهم حيناً وتهرشُ الأجساد التي أنهكها الجرب إلاَّ أنَّ العاقبة بعدها هي الحسرات، وهي آلام النُّفوس واضطرابها، وهذه لا علاج لها إلا الحقائق كما قال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]، كما قال تعالى في سورة «الحج»: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ

وانظر ترجمته: ابن عساكر ٢: ٤٠٠ والبداية والنهاية ١٢: ٣٣١ وابن خلكان ١: ٦٣ وفليب حتي، في مجلة الكشاف٤: ٤٧٣-٥٠٢ وآداب اللغة ٣: ٦١ والنُعيمي ١: ٣٨٤ ومعجم الأدباء، طبعة دار المأمون ٥: ١٨٨-٢٤٥ والفهرس التمهيدي ٢٦٠ و ٣٠٢ وفي دائرة المعارف الإسلامية ٢: ٧٩ أنه في أثناء عودته من مصر إلى دمشق فقد مكتبته وكانت تُربى على أربعة آلاف مخطوط. وفي مجلة الكتاب ٣: ٥٠٦ كلمة عن ديوانه. وجريدة لقصر، شعر الشام ١: ٣٩٨.

[1] اسم قرية بسرخس في خُراسان.

[2] سورة الرعد، الآية: ٢٨.

صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]. فالإيمان بالله وحده هو ما تخبتُ له القلوب وتطمئنُ به، وأما غيره فهو مرضٌ يصير بصاحبه إلى الحيرة والاضطراب أو إلى الهلكة الحطمة.

في هذه الآية قال الكافرون إنَّ سفر وغزو إخوانهم أماتهم وقتلهم، ولو بقوا تحت عطفنا ورعايتنا وأطاعوا نصائحنا لما وقع الموت أو القتل، فخالفهم إخوانهم فقُتلوا وماتوا، فتحسرت وتألمت قلوبهم على إخوانهم بأنهم ألقوا بأنفسهم في مواطن الهكلة والموت، فهذا وهمهم الذي صنع لهم هذه الحسرة، وهذا من عذاب الله تعالى يجعله لمن لا يهتدي بهدي القرآني الذي يُنيرُ الحقائقَ ويُعرِّفُ العِباد بها وينهاهم عن الأوهام والأباطيل.

﴿ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾.

إنَّ الله هو خالق الحياة والموت، وهو مقدرهما على الخَلق مكاناً وزماناً وسبباً، فلا يُعابُ المرءُ في سعيِّه للواجبات الشرعيَّة والمطالب الحياتيَّة أن يقعَ عليه قدر الموت، لأنَّ الموت لا يقع بفعل الإنسان إنما بقدر الله تعالى، والمرء حين يَقْتُلُ نفسه إنما يعصي الله بفعله ولكن حصول الموت لا يقع إلاَّ بإذن الله تعالى، فكم مِنْ مُرِيدٍ لِقَتْلِ غيره لم يَقْتُلْهُ وكم مِنْ مُلْقٍ لنفسه في التهكلة خرج منها سليماً، وكم خائفٍ من الموت فجاءه الموت، لأنَّ كلَّ شيءٍ بقدر، والله خالق كلِّ شيءٍ، وما يفعله الإنسان إنما يفعله حقيقةً ويُنْسَبُ إليه لأنَّه عامله، وبإرادته قد وقع لم يجبر عليه ولم يُكره على فِعْلِهِ، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[2]، فأعمالكم منكم ومن إرادتكم ولكن كلّ شيء بقدر.

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

هذه حقيقةٌ ربَّانيَّةٌ تُعِيدُ طَرْحَ مُعَادَلَةٍ لا يَفْقَهُهَا إلاَّ المؤمنون، فالحياة الدُّنيا بما يجمع الإنسان فيها ليست بشيءٍ أمام ما يحققه المقتول في سبيل الله تعالى أو من مات في هذا السبيل، وهذه المُعادلة هي شعار المؤمن في اندفاعه نحو أهدافه حين يترك القاعدين هناك يتقممون ما في الدُّنيا من نفايات وشهوات، والقرآن يقول: هَبْ أنَّ غَزْوَكَ وَسَفَرَكَ أَمَاتَكَ أَوْ قَتَلَكَ، وهَبْ أنَّ جُلُوسَ مَنْ جَلَسَ عنِ المَعَالِي أَطَالَ عُمْرَهُ وَأَكْثَرَ مَالَهُ، فَاعْلَمْ أنَّ مَا سَتُلاَقِيهِ بعد مَوْتِكَ مِنْ مَغْفَرَةٍ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مما سَيَجْمَعُ هَؤْلاَءِ القَاعِدُونَ.

حين يكون الخيار بين ما يجمعون من دنيا وبين ما تُلاقي من مغفرةٍ ورحمةٍ فلا تتردد في اختيار مغفرة الله ورحمته، لأنهما خيرٌ مما يجمعون.

---

[1] سورة الحج، الآيات: ٥٢-٥٥.
[2] سورة البقرة، الآية: ١١٠.

وفي سورة «يونس» جاء شبيهٌ بهذه الآية يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]. وهي مقارنة هناك في سورة «يونس» بين أمرين في الدُّنيا، بين ما آتاه الله للمؤمنين من آيات قرآنية فيها الوعظ وشفاء الصدور والهدى والرحمة وبين ما يجمع أهل الدُّنيا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2]، فالمؤمن خياره أفضل وخيرٌ من خِيار غيره، سواء بما يحصل له من فضل في اختياره في الدُّنيا أو ما يحصل له من مغفرةٍ بعد الموت، إذ أنَّ أمرَ المؤمن له كلّه خير.

إنَّ الكافرين يتحسرون على إخوانهم الذين ماتوا وقُتِلُوا في سفرهم وغزوهم والمؤمنون يُلاقون مغفرة الله ورحمته أمامهم بعد موتهم وقتلهم، وهذا دافعٌ ربانيٌّ وتحرضٌ إلهيٌّ قرآنيٌّ للمؤمنين أنْ يختاروا ما هو خير لأنفسهم وحياتهم، فعليكم بهذا الطريق ولا تتحسروا على إخوانكم الذين يُقْتَلُوا ويموتوا في سبيل الله تعالى، بل لِيَكُنِ الخوف على الآخرين.

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

هذا مصيرُ الجميع، وهو مصيرُ الموتى على فُرُشِهِمْ والقتلى في سبيل الله تعالى، والذين يموتون في سبيل الله تعالى ويُقْتَلُونَ فيه إنما محشرهم إلى الله الذي يحبهم ويحبونه، وآثروا رضاه على شهواتهم، وأقبلوا عليه وهم يحبون لقاءه، وإنَّ عِلمكم بهذا ـ أي أنَّ محشركم إلى الله تعالى ـ يُوجِبُ عليكم طاعته وامتثال أمره وترك معاصيه.

في هاتين الآيتين كان الحديث عن أثر العقائد على أصحابها، فالعقائد الفاسدة أثرها الحسرة والألم دون أن يتغيَّر من الواقع شيئاً، ودون أن تُحدث في الأقدار الكونية أيَّ تغيِّيرٍ، وأما العقائد الصحيحة فإنَّ لها مُقوِّمات مِن الحقِّ، وقد عرضها القرآن ههنا من خلال دوافعها ومُقوِّياتها، فها هو يُرسل المؤمنين بها إلى الأعمال التي تُحقق النتائج، هذه النتائج قد لا تكون ديناً كما يريدها أصحاب العقائد الفاسدة، ولكن بفرض قيمة إيمانية عظيمة هي خير من الدُّنيا وما فيها إنها قيمة المغفرة في سبيل الله تعالى.

هذه القيمة لا يعرفها الزنادقة والمنافقون، بل يستهزؤون منها، فما معنى مغفرة الله ورحمته عندهم؟! وما هي قيمتها في قلوبهم، وهل حقاً أن يغفر الله للعبد خيرٌ من الدُّنيا وما فيها؟!.

هذه عظمة الإسلام والقرآن في ربط المؤمن بالقيم المعنوية والفضائل مُقابل المادة وزَهرتها وزِينتها، وهذا هو الأثر الأعظم للإيمان باليوم الآخر، لأنَّ الإيمان هو تحدٍّ بين إنسانيَّة المرءِ وبهيمته، وبين قيمه

---

[1] سورة يونس، الآية: ٨٥.

[2] سورة يونس، الآية: ٥٧.

المعنوية وأرقام أملاكه وثروته، فها هو رسول الله ﷺ يقول: «**لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[1].

وهذا تطبيقٌ لقول أهل العلم في سورة «القصص» حين قالوا لمحبي الدُّنيا: ﴿ **وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾** ﴾[2].

ووصف أُوْلِي العِلم إنما جاء في أغلب آيات القرآن مع هذه الحقيقة وهي الإيمان باليوم الآخر.

ففي سورة «النحل» يقول تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾** ﴾[3].

وفي سورة «الروم» يقول الله تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾** ﴾[4].

وفي سورة «سبأ» يقول الله تعالى: ﴿ **وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾** ﴾[5]. وهي آيةٌ سِياقاً وسِباقاً في أمر الساعة والدَّار الآخرة.

فهذا الإنسان إنما صِراعه في هذه الحياة الدُّنيا بين القيم والفضائل والمعاني وبين شهوات الدُّنيا ومادياتها، فالإيمان بقيمة حبِّ الله تعالى وحبِّ الرسول ﷺ ورجاء الدَّار الآخرة هي التي تصنع الإنسان السوي، وأما غيرهم فهم الأنعام كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾** ﴾[6]. فهو صِراعٌ واختبارٌ وهو ابتلاءٌ يحتاج إلى صبرٍ في رَدْعِ ما رُكِّبَ عليه الإنسان من حبِّ العاجِلَة ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾** ﴾[7].

بهذا المفهوم تُرسَى قواعد الحُكم على الإنسان والحضارات والدول، فحين يُتهم المسلمون بأنَّهم لا ينتجون معرفة إنسانية، ولا يحملون حضارةً ولا تقدماً للأُمم والشعوب، وتسعى هذه على غيرها من إنتاجات الشعوب والأُمم الأخرى، فيُقال لهم: إنَّ ميزان الحُكم ليس ما تقولون، بل إنَّ ميزان التقدم الإنساني ورُقِيِّهِ إنما يكمنُ في القيم الإيمانية والفضائل البشريَّة وتحقيق الدَّار الآخرة، والذين

---

[1] مسلم عن أبي هريرة ﷺ في «كتاب الذكر و الدعاء والتوبة والاستغفار» باب فضل التهليل والتسبيح. حديث رقم: ٢٦٩٤.
[2] سورة القصص، الآية: ٨٠.
[3] سورة النحل، الآية: ٢٧.
[4] سورة الروم، الآيتان: ٥٥ـ٥٦.
[5] سورة سبأ، الآية: ٦.
[6] سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
[7] سورة القيامة، الآيتان: ٢٠ـ٢١.

يملكون هذا همُ المسلمون لا غير، والقرآن وحده هو مادة هذه الحضارة والهداية والرحمة على البشرية، فإنكم وإنْ ارتقيتم بوسائل تنفيذ الإرادة الإنسانية من قِوَى وقُدُرَاتٍ وأدواتٍ إلاَّ أنَّ هذه الإرادة نفسها قد انحطتْ وتدهورتْ وفسدتْ، وبانحطاطها هذا صارت هذه القوى والأدوات وَبَالاً على البشرية ودَمَاراً لا رحمةً وهدايةً، وإنَّ كلَّ زَعْمٍ يُقال إنَّ البشرية قد ترقتْ هو زعمٌ كاذبٌ يحرف الحقيقة، فكلّ جوانب الحياة الإنسانية قد خلت من قيمها ومعانيها، وتحول الإنسان والدول إلى وُحُوشٍ مَسْعُورَةٍ كَلْبَةٍ لا تتورعُ عن الوُلُوغَ في دماءِ الآخرين دون هدفٍ معنويٍّ قط.

للبشرية أنْ تفرحَ وتحتفلَ ولها أنْ تفخرَ إنْ حققت مقصد وُجودها وهو عبوديتها لله، وارتقتْ في علومها بإدراكٍ أنَّ الأعمال لها أهميتها إنْ كان مقصدها الدَّار الآخرة، فهذه الدُّنيا إلى زوالٍ طالَ الأمر في أعين النَّاس أم قَصُر فهو قريبٌ عند الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾[1]. وهذا ليس تخديراً كما يقول خصوم الإسلام - دين كلِّ الرسل - بل هو حقيقة وأعظم حقائق الوجود، إنما التخدير هو أنْ يظنَّ الإنسان أنه خالدٌ وأنَّ البشريَّة والحياة الدُّنيا لا نهاية لها وأنه لا وجود ليومٍ آخرٍ يجتمع النَّاس فيه، فهذا هو غياب العقل والقلب والإنسان.

هذه آخيةُ هذا الدِّين وهي رُكْنه الركين، وهي الفارق فيه بين أُوْلِي العلم والمجاهدين، فإنْ كانت فهي حضارةٌ ربَّانيةٌ وإنْ فاتتْ فهي هواءٌ وهباءٌ وتوحشٌ وبهيميةٌ.

ثم هذه خصيصة هذا الدِّين، إذ تُبني العقلية القائمة على الحقائق لا الأوهام، وتمد النَّفس بوقودها حتى تنفعلَ الإرادة فلا تعجز ولا تكسل، ثم تقومه بالفضائل والقيم التي تجرده من رغبة العُلُوَّ والفساد، فيغدو إنساناً فاعلاً كما قال تعالى: ﴿۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٦﴾[2]. فالمُنحرف إما أنه لا يقدر على شيءٍ، وإما أنه يعملُ ولا يأتِ بخير أينما تُوَجِّهُ، وأما المُهتدي فهو عاملٌ بما آتاه الله «يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا» آمرٌ بالشرع «يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ» وهو عالمٌ بالسنن الكونية ليصل لأهدافه من خلالها «وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ»، فالصراط المستقيم ههنا هو كقوله تعالى في سورة «هود»: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾[3].

والله أعلم.

---

[1] سورة المعارج، الآيتان: ٦-٧.

[2] سورة النحل، الآيتان: ٧٥-٧٦.

[3] سورة هود، الآية: ٥٦.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[1].

لقد رأينا رحمةَ الله تعالى بجُنده، ورأينا كيف تعامل معهم في محنتهم، إذ واسى جِراحهم وغفر ذنوبهم، وقوَّم نفوسهم، وأرشدهم لخير أُمورهم.

لقد رأينا ذلك من خلال رحلةٍ ربَّانيةٍ ومع ظِلاَلِ حَدثٍ هزَّ النُّفوس حين فُقدتِ الأحبة وأُصِيبَ رسول الله ﷺ، وبرز النِّفاق بقرنيه، ولكن أسبغ الربُّ الرحيم على ذلك كلِّه العلاج الناجع.

هذه هي حكمة الله وفِعْلِهِ، ثمَّ في هذه الآية يُوَجِّهُ الله سبحانه رسوله ﷺ إلى هذه المعالم العظيمة، والقيم القيادية الباذخة الرفيعة، وهذا التوجيه العظيم يأتي في سياق إثباتها لرسول الله ﷺ، فهي فيه، ويعمل بها، وهداه الله إليها.

إنَّ النُّفوس تتعلَّقُ بأحبتها لقيم ومعانٍ مشتركة في هذه النُّفوس، فالأرواح جنودٌ مجنَّدة[2]، ولا يقع الحبُّ إلاَّ للمُشاكلةِ بين الأحبة، والحبُّ الحقيقي يمتحن في مواطن الصِّراع والابتلاء والشدَّة، وقد وقع هذا الامتحان في أُحد بين النَّبيِّ ﷺ وأصحابه الكِرام، وثبتت قوة هذا الحب في صورة قلَّمَا تقع في التاريخ الإنساني، فهو ليس حُبّاً فِطْرياً يقع بين المخلوقات كحبِّ الآباء والأُمَّهات لأبنائهم، بل هو حبُّ المعاني التي يكتسبها النَّاس بعلومهم وعقولهم وأعمالهم وخِصالهم، ولهذا يستطيع المرء أن يقول إنَّ ما حدث لأصحاب النَّبيِّ ﷺ من أفعالٍ يوم أُحد مع نبي الله لم يقع مثله قط في التاريخ، ومَن قرأ الخبر عَلِمَ الأمر على حقيقته وكُتُبِ السيرة هي مظانه ومصدره.

وإذا تساءل المرء لِمَ وقع هذا كلُّه فإنَّ الجواب في هذه الآية العظيمة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ... ﴾، إنها القيادة التي تُسيطر على القلوب فتأسرها، فيأتمرون بأمرها في أشدِّ الظروف والمُهمات، ويتابعونها وهم يرون السيوف تقطرُ من دمائهم، فهذه قيادة القلوب لا الأجسام، وهذه سُلطة الأرواح لا الهياكل، وهذا هو معنى الحُكْمَ الذي آتاه الله ليحيى وهو صبي في قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾[3]، وهناك في سورة «مريم» مدح الله يحيى بقوله: ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾[4]. وهنا يقول الله للحبيب محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾، فأساس هذا الحبِّ إنما هو اللين على الصاحب والمُرافق، لين مبعثه الشفقة عليه والحب ورضاء الخير له، واحتمال المكروه عنه ومنه، وذلك بالصَّبر والتغابي، فهو يرى ويعلم ولكن يُوهِم صاحبه أنه لا

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ. فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ. وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**». مسلم في «كتاب البر والصلة» باب الأرواح جنودٌ مجنَّدة. حديث رقم: ٢٦٣٨. والبخاري في «كتاب أحاديث الأنبياء. باب الأرواح جنودٌ مجنَّدة. حديث رقم: ٣٣٣٦. من طريق عائشة رضي الله عنها.

[3] سورة مريم، الآية: ١٢.

[4] سورة مريم، الآية: ١٤.

يرى ولا يعلم لئلا يُتعبه ويُكسر قلبه، بل كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه أن لا يحدثوه ما يقع بينهم حتى يخرج إليهم وهو سليم الصدر، فهو لا يُنقب على أُمورهم وأقوالهم ولا يُسجل عليهم أخطاءهم ومواقفهم، ومَن فَعلَ هذا من الأُمراء والقادة فسيُفسدهم كما قال الصِّدِّيق أبو بكر ﷺ لأُمراء جُنده.

إنَّ وجود هذه الآية في سياق غزوة أُحد يدل على نعمةٍ أُخرى من نِعَمِ الابتلاء والامتحان، إذ تمتحن العلاقة بين القائد وجُنده، فإنْ كانتِ العلاقة قائمة على القهر والظلم والقوة تفلتَ الجُند، ورَأَواْ هذه فرصة سانحة لهم للإعتاق والتحرر، ولكنها كانت في جمع المؤمنين في أُحد على غير هذا، ولذلك جاء هذا الأمر في هذا السياق.

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾.

لم ينفضِ الأصحاب عن حبيبهم يوم أُحد بل أحاطوه بأبدانهم وأرواحهم وقلوبهم، فلأنه الرحيم الرءوف بهم، وثبت أنَّ هذا المجتمع وهذا الجيش إنما يقوم على الحبِّ والود والتآلف، وهو أساس بناء المجتمعات الربَّانيَّة التي تتحقق بها وُعود الله تعالى بالنَّصر ونشر هذا الدِّين، فالمدينة النَّبويَّة مدينة الحبِّ، لأنَّ الحبَّ هو وَقود حركة الإنسان، ويفعلُ فيه ما لا يفعله القهر والغلبة، وأساس هذا الحبِّ هو الرحمة في القلوب والذي يُتَرْجَمُ لِيناً في الأفعال والأقوال، فلا شدَّة ولا قسوة ولا غلظة، بل يرحمُ على صغيرهم ويُوقر كبيرهم ويُواسي ضعيفهم، ولا يطلب منهم ما يشقُّ عليهم طلبه فيعنتهم، وإنْ أخطئوا يعفو عن مُسيئِهم ما وسعه ذلك، ويستقبل الراجعين من مُؤْتَة بصدر رحيم رحبٍ وهو يقول: «**ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله**»[1]، فيأكل مما يأكلون، ويعود مرضاهم، ويشهد جنازتهم ولذلك قال الله عنه «**مِّنْ أَنفُسِهِمْ**» فهو منهم ﷺ.

ثمَّ إنَّ هذا تحذيرٌ ربَّانيٌّ لكلِّ إمامٍ وقائدٍ وأميرٍ بوُجوبِ الرحمة واللين والرأفة، ذلك لأنَّ للإمارة زَهْوَ الانتصار والغلبة، وفيها غرور السلطان والإمرة، فالواجب أن يُعلمَ أنَّ الأبدان وإن انقادت بالقوة فإنَّ القلوب لا تنقاد إلاَّ بالرحمة واللين، فإنَّ هذا هو رسول الله ﷺ وليس هو كآحاد النَّاس ومع ذلك يقول الله له: ﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ** ﴾. فكيف بغيره فإنَّ المتوقع أنْ لا ينفضوا عنه فقط بل يُقاتلونه ويسبونه ويُعادونه ومثل هذا لو وقع فإنه سبب الحروب بين النَّاس والخصومات، وهو إفسادٌ في الأرض والله لا يحبُّ الفساد.

هذه فروض الجهاد والمجاهدين، وهي أركان قواعدهم الداخلية ليكون البناء قوياً مَتِيناً عَصِياً على عوامل الانهيار الداخلي، فإنَّ في غزوة أُحد قد انهار الخط العسكري وتشتتْ قِوَاهُ بين مُتولٍ وجريحٍ وشهيدٍ وصاعدٍ إلى الجبل للاحتماء؛ ولكن الذي حمى المجتمع من الانهيار ومَنَعَ حصول الهلكة

[1] البيهقي في «دلائل النُّبوة» باب ما جاء في غزوة مؤتة وما ظهر في تأمير النَّبي ﷺ أمراءها ثم في إخباره عن الوقعة قبل مجيء خبرها من آثار النُّبوة.

الكلية هي الرابطة العميقة بين القائد وجُنوده وأُمَّتِهِ، وهي التي عصت وحافظت وامتنعت، وهذا بخلاف مواقف الجاهليِّين وجنودهم فإنَّ كثيراً من الانهيارات العسكرية تقعُ بسبب سُوءِ العلاقة بين القائد والأُمَّة، فتتسارع الانهيارات حتى تصل إلى أقصى المدى وتتحطم الأُمَّة وتذهبُ مُقوماتها، ولذلك منَّ الله على المؤمنين بهذه الرابطة العظيمة التي حصلت بسبب لِينِ قلبِ قائد الأُمَّة والجنود عليهم فكان التفافهم حوله هو الخط الذي صدَّ مقاصد الأعداء فيه وفي الأُمَّةِ كُلِّهَا.

﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾.

وهكذا كان خُلقه ﷺ فقد وصفه أصحابه بأنه كان يأخذُ العفوَ من أخلاق النَّاس، فقد كان يفعُو عن أخطائهم وسيئاتهم ما لم يُصيبوا حداً من حدود الله تعالى، ويستغفرُ الله لهم من هذه الذُّنوب، وفي هذا جَمْعٌ بين الفضيلة الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، فإنَّ العفوَ عدم المُساءلة في الدُّنيا وبالاستغفار تسقط المُساءلة يوم القيامة، وهذا من تمام الفضل، وهو ما اختص به الأنبياء في ما يُوحى إليهم، إذ أنَّ الحُكماء وإنْ قالوا بالحكمة في الدُّنيا وأصابوها فإنهم يعجزون عن إصابتها في الآخرة، وهذا يُبيِّنُ حاجة البشر والعالم لحكمة الأنبياء ووحيِّ الله تعالى لهم وما جاؤوا به من تشريعٍ، ثمَّ هذا من تمام الصلاح ظاهراً وباطناً، فإنَّ المرءَ قد يعفُو مع بقاء ما في قلبه على المخطئ، ولكن باستغفار الله تعالى يذهبُ أثر هذا عن قلبه ويسلم من المُعاتبة الباطنة.

ثمَّ أمره سبحانه وتعالى بأنْ يُشاوِرَهُم في ما يقع لهم من قضايا ووقائع وأحداث، وهذا أمرٌ ربانيٌّ وهو على الوُجوب لا على الندب كما قال البعض، فإنَّ الأمر يُفِيدُ الوُجوبَ ما لم يأتِ صارفٌ له، وليس هناك ثمةَ صارفٍ لهذا الوُجوب، وما قاله البعض ـ وهم من غير الصَّحابة ﷺ ـ أنَّ هذا من باب تطييِّب قلوبهم لا أظنه صحيحاً، بل هو من باب استخراج دقائق عقولهم وتجاربهم في شؤون الدُّنيا وأُمورها، لا في أُمور الدِّين والتشريع، والنَّبيّ ﷺ كغيره من آحاد النَّاس محتاجٌ إلى هذه الأمور الدُّنيويَّة الحياتيَّة مثل حاجته إلى علاج طبيبٍ يعرف الأمراض وأدويتها، وقد كان النَّبيّ ﷺ يستعينُ بهم في ذلك وقد ذكرتْ أُمُّنا الصِّدِّيقة عائشة رضي الله عنها هذا الأمر، كما استعانَ رسول الله ﷺ بخرِّيتٍ «خبير الطُرق» في هجرته إلى المدينة، وكما قال ﷺ في أبير النَّخل: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**»[1]، لكن إنْ قال شيئاً على وجه الجزم فهو وحيٌّ يُوحى لا يجوز لأحدٍ الاستدراك عليه ولا رده، وأقول على وجه الجزم لأنه قال يوم حادثة تأبير النَّخل «**لَوْ**» فنسبها إلى ظنِّه وقوله ﷺ ، وما قاله البعض أنَّ أمور الطب التي قالها ﷺ إنما قاله على وجه الخِبرة لا الوحي فهو خطأٌ محضٌ لا يُلْتَفَتُ إليه البتة، وغفرَ الله لقائله. ومِنْ أدلة أنَّ ما قاله مِنْ أُمورٍ طبية هي وحيٌّ من الله قوله لمن استطلق بطن أخيه:

[1] عن عائشة، وثابت، عن أنس، أَنَّ النَّبِيَّ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ. فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**» قَالَ: فَخَرَجَ شِيصاً. فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «**مَا لِنَخْلِكُمْ؟**» قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**». مسلم في «كتاب الفضائل» باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكرَهُ ﷺ من معايشِ الدُّنيا على سبيل الرَّأْيِ. حديث رقم: ٢٣٦٣.

«**صَدَقَ اللهُ، وكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ، اسْقِهِ عَسَلاً**»[١]. ومن أمثلة قوله على سبيل الظنِّ لا الوحي قوله من حديث أبي هريرة ﷺ في الصحيحين: «**فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ يُدْرَى مَا فَعَلَتْ، وَإِنِّي لاَ أَرَاهَا إِلاَّ الْفَأْرَ: إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْ، وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبَتْ**»[٢].

فهو يقول فيه ﷺ: «**لا أراها**» أي لا أظنُّها، ولعلَّ هذا ما قاله ﷺ قبل أنْ يُوحى إليه أنَّ المسوخ لا نسل له لحديث ابن مسعود عند مسلم[٣]: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُهْلِكْ قَوْماً أَوْ يُعَذِّبْ قَوْماً فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلاً وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ**».

وقريبٌ منه قوله ﷺ كما في حديث أنس في الصحيحين: «..**وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ الصَّالِحُ، الكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ**»[٤]. وعند مسلم[٥]: «..**وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ، الكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ، الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ**». فقوله: يُعجبني يدل على أثره النَّفسي لا أنه سببٌ للفِعل.

فأمرُ الله تعالى لنبيِّه بالشورى هو أمرٌ واجبٌ، وعلى وجه الحقيقة لا لتطييب القلوب فقط، مع أنَّ في الشورى تطييبٌ للقلوب وهو الأمر المُراد هنا في هذا السياق، ولكن فوائد الشورى أعظم من هذا المقصد فقط، ولذلك فالشورى واجبةٌ على الأمير، يأثم إنْ تركها، بل قد يصح القول إنَّ الأمير الذي لا يُشاوِرُ أصحاب الشأن في أمر الأُمَّة يجوز عزله إنْ لم يجب، لأنَّ هذا ضرره وفساده على الأُمَّة أعظم من ضرر أعدائها عليها، ولا يتلفت قط إلى وقائع التاريخ في هذا الأمر بل كتاب الله أحقُّ بالإتباع، هذا إنْ تصورنا أنَّ خلفاء المسلمين وسَلاطينهم وقُوَادِهم كانوا على خلاف هذا الأمر مع أني لم أره قط على وجهٍ جليٍّ صريحٍ.

ثمَّ هنا مسألة، وهي إلزامية الشورى، والحقُّ الذي يجب المصير إليه شرعاً وقَدَراً، فإنَّ كلَّ الأدلة الشرعية تُثْبِتُ أنَّ الشورى مُلزمة لا معلمة، بل لا يتصور للشورى معنىً إنْ لم تكن مُلزمة للأمير، أما أنْ يقول القائل إنَّ للأمير أنْ يُشاور أهل الشأن في مسألة من المسائل ثم يذهب إلى خلاف قولهم فهذا أشبه بالعبث واللهو منه إلى العقل والحِكمة.

لسنا هنا في معرض بحث الأدلة ومُناقشة المُخالفين لكن يكفي أنْ يُقال إنَّ حادثة غزوة أُحد دليلٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخذ برأي أصحابه خلاف ما يحب، وعلى الضدِّ من رأيه ﷺ، وهذا ما يفسر قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾[٦]. ذلك لأنَّ الصَّحابة وجدوا في أنفسهم أنَّ رسول الله أخذَ برأيهم

---

[1] البخاري في «كتاب الطب» باب الدواءِ بالعسلِ وقولِ الله تعالى: ﴿ **فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ** ﴾. حديث رقم: ٥٦٨٤. طرفه في: ٥٧١٦. ومسلم في «كتاب السلام» باب التَّداوي بسَقْيِ العسل. حديث رقم: ٢٢١٧.

[2] البخاري في «كتاب بدء الخلق» باب خيرُ مالِ المسلم غنمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجبالِ. حديث رقم: ٣٣٠٥. ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب في الفأرِ وأنه مَسْخٌ. حديث رقم: ٢٩٩٧.

[3] مسلم في «كتاب القدر» باب أن الآجال والأرزاق وغيرَها لا تزيدُ ولا تنقصُ عما سبقَ به القدَرُ. حديث رقم: ٢٦٦٣.

[4] البخاري في «كتاب الطب» باب الفأل. حديث رقم: ٥٧٥٦. طرفه في: ٥٧٧٦.

[5] مسلم في «كتاب السلام» باب الطِّيَرَةِ والفأْلِ وما يكونُ فيه الشُّؤْمُ. حديث رقم: ٢٢٢٤.

[6] سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

وتركَ رأيه فراجعوه في ذلك، فمضى إلى ما قرره من الذهاب لرأيهم، فهذا معنى قول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾. ذلك لأنه عزمَ أمراً على خلاف رأيه وهو رأي أصحابه ﷺ، فأرشده الله إلى وُجوب المُضي فيه والتوكل على الله في أدائه وفِعْلِهِ وعدم التردد.

أما من قال إنَّ قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾. هو لبيان حقِّ النَّبيِّ ﷺ أن يذهب إلى قوله هو دون قول أصحابه فهو خطأ في التفسير مع أنَّ هذا هو اختيار إمام المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى، ذلك لأنه هو وغيره من التابعين قالوا إنه يجب أن يعمل بأمر الله تعالى سواء وافقه أصحابه أم لا، فيُقال لهم:-

رحمكم الله تعالى، فإنَّ أمر الله إذا قضاه إلى رسوله فلا يُشاور فيه، بل هو واجبُ التبليغ لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾[1]. ولذلك لما كان أمرُ صُلْحِ الحُديبية أمراً مِنَ الله فإنه سار إليه وفَعَلَهُ دون أن يُشاورهم، ولم يثبت عنه قط في هذه الواقعة أنه سألهم واستشارهم كما كان يفعل في أمورٍ أُخرى، ولذلك قال فيها: «..**إِنِّي رُسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَداً**»[2]، وأما الشورى فتكون فيما ليس فيه أمرٌ قد قضاه الله تعالى من قبل، فأمر الشورى في غير ما قضى الله تعالى فيه أمره، ولذلك كان رسول الله يذهبُ إلى ما يذهب إليه أصحابه حتى لو كان على خلاف رأيه، وهذا واجبٌ على الأُمراء والقادة، وهو القول الذي يجب أن لا يُقال بغيره قط مهما زعم له أصحابه من أدلة ليست من كتاب الله تعالى ولا من سنَّة رسول الله ﷺ.

أما قول البعض إنَّ هذا أشبه ببعض الأنظمة الجاهلية، فيُقال لهم: وهل في هذه شبهة وتهمة؟! إنَّ مَن يرد الحقَّ بمثل هذه الأدلة جاهلٌ بدين الله تعالى، إذ لو ردَّ كلَّ أمرٍ في دين الله لُمشابهة بعض ما يفعل الضالون لَرَدَّ الكثير من دين الله تعالى، ثم لا يوجد في أصول الفقه قط أنَّ الحقَّ يُعرف من خلال مخالفته لأقوال الآخرين كما تقول أصول بعض الفِرق الضالة[3].

لقد طبق عبد الرحمن بن عوف ﷺ هذا الأمر خير تطبيقٍ في اختياره وانتخابه لذي النُّورين عثمان بن عفان أميراً للمؤمنين، وقال لعليٍّ ﷺ: «إِنِّى قَدْ نَظَرْتُ فِى أَمْرِ النَّاسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ»[4]، فهذا هو الإسلام، وهو دين الله تعالى سواءٌ قال به الآخرون أو رفضوه.

فالشورى في الإسلام واجبةٌ، وأقول إنَّ من حقِّ الأُمَّة أن تشترط لدوام صحة البيعة شرط الشورى، فإنْ أَخَلَّ الأمير بها سقطت ولايته وإمارته، لأنَّ الأمير في دين الله تعالى هو دليلُ الأُمَّة في

---

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٣٩.

[2] البخاري في «كتاب الجزية والموادعة» حديث رقم: ٣١٨٢. وعنده أيضاً في «كتاب التفسير» باب ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾. حديث رقم: ٤٨٤٤. ومسلم حديث رقم: ١٧٨٥.

[3] كما هو في دين الروافض ـ أخزاهم الله في الدُّنيا والآخرة.

[4] البخاري وتفرد به، في «كتاب الأحكام» باب كَيْفَ يُبَايِعُ الإِمَامُ النَّاسَ. حديث رقم: ٧٢٠٧.

إقامة دينها وإصلاح دُنياها، وهو نائبها لا غير، ومَنْ فَهِمَ أنَّ الإمارةَ في الإسلام على خلاف هذا المعنى فهو وَاهِمٌ بَاطِلٌ.

ثمَّ إنَّ الشورى مُلْزِمَةٌ للأمير، إذ لا معنى لوجوبها دون أن تكون مُلزمة، وأما تطبيق هذين المبدئين فهذا من اجتهادات البشر وما تفرضه وقائعهم وحياتهم.

وأعجب من ردِّ المُحكم بالمُتشابه، فإنَّ المُحكم قوله تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾، وهو أمرٌ واجبٌ كما هو بَيِّنٌ فهو نص كما يُعرف بالأصول، ثم يرد هذا الجليّ بقوله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**﴾. ودلالته على مُرادهم في عدم إلزامية الشورى دلالة لا ترقى للظاهر، فكيف يُرَدُّ النص بما هو دونه، مع أنَّ هذه المسائل تحتاج إلى تفصيل أكثر من هذا الموطن.

في هذه الآية فضلُ ومناقبِ أصحاب رسول الله ﷺ، لأنَّ الله أمر رسوله ﷺ أن يُشاورهم، وهذا يدل على تعديل الله لهم، فإنَّ المرءَ لا يُشاور إلاَّ الثقات المأمونين، وكذلك لا يُشاور إلاَّ أهل البصيرة والعلم، وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ ثقات مأمونون وعقلاء علماء وأهل بصيرة، وهذا مدحٌ جليٌّ واضحٌ لمن تأمله وأنعم النظر فيه.

وأما قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)**﴾. فهذا إرشادٌ وتعليمٌ بعدم التردد، لأنَّه من موانع النَّصر، وعامة أسباب الخذلان والوصول إلى الأهداف هو عدم العزيمة الصادقة، والتردد في استقبال الأمور التي استقر الأمر عليها، وهذا التردد قد يكون منشؤه الجبن أو عدم الخبرة أو ضعف نفسي من مباشرة المُهمات الكبيرة، وعلاج ذلك إنما هو التوكل على الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾[1]. فالاستعانة به وطلب الإمداد منه وحده يُقوِّم هذا كلّه ويُصلحه ويُداويه، والتوكل سببٌ من أسباب تحصيل المُراد، وليس أمرٌ أُخروي له تعلُّقٌ بالأجر فقط، بل هو من الأسباب التي هدى الله المؤمنين لها لِتُعِينهم على مُرادهم كما هو شأن الدُّعاء كذلك، فكلّها أسبابٌ كونيةٌ شرعيةٌ في هذه الحياة، وهو واجبٌ من واجبات القلوب باتفاق العلماء لا يخالف في ذلك إلاَّ الجهلة من العُبَّاد والزُّهاد.

﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠)**﴾[2].

إنَّ الثقة بالله تعالى والتوكل عليه سببٌ لحصول النَّصر، لأنَّ النَّصر في خزائن الله وحده لا يملكه أحدٌ سواه، فهو يُعطيه لمن يستحقه، ويمنعه عمن لا يستحقه، وكلّ هذا بسببٍ وقدرٍ وحكمةٍ، فمن أراد النَّصر فليتوكل على الله، وهو عملٌ قلبيٌّ، والنَّصر فعلٌ إنسانيٌّ يمنٌّ الله به على مَن قدر عليه،

[1] سورة التوبة، الآية: ٥١.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.

ولا يقع إلاَّ بقُدرةٍ تامةٍ وإرادةٍ جازمةٍ، وهو كالرزق كذلك فعلٌ إنسانيٌّ يقع بقدرٍ وحِكمةٍ وسببٍ، وحكمة النَّصر ترددت في القرآن وهي من المصطلحات التي تحتاج إلى شرح لخطأ كثيرٍ من النَّاس فيها كما يخطئون في تفسير كلمة الإيمان والتوكل وغيرها من المصطلحات، والواجب أن تُفسر هذه المصطلحات من خلال القرآن نفسه لا من خارجه، وذلك بمعرفة الواقعة على وجهها الصحيح ومُلائمة المصطلح الذي أطلقه القرآن عليها، وبذلك تبين معنى المصطلح، وقد أطلق القرآن حِكْمَةَ النَّصر على وقائع مُتعددة، وتصور هذه الوقائع كما هي في نفسها يكشفُ معنى هذه الكلمة في القرآن الكريم، ولعلَّ هذا قد تقدم الإشارة إليه في غزوة بدر.

جعل الله النَّصر مقابل الخذلان، والخذلان فعلٌ إنسانيٌّ، لأنَّ الترك فِعْلٌ على الصحيح في أقوال أهل العلم وكُلِّفَ الإنسان به، ويحتاج إلى إرادةٍ وقُدرةٍ، والخذلان مذموم صاحبه، ناقص الإيمان، ويفعله الإنسان لعجزٍ أو كسلٍ، لعجز الإرادة أو جهلها، وذلك دليلٌ على أنَّ النَّصر فعلٌ إيمانيٌّ يُمدح صاحبه، وإن فهم هذا على وجهه يعلم معنى النَّصر، فمن قام إلى ظالمٍ فنهاه ووعظه فقتله كان شهيداً، فهذا فعلٌ إيماني فهو في ميزان الشرع نصرٌ حتى لو قُتِلَ صاحبه، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١٣٩﴾ ﴾[1]. فقد حكم الله بنصرهم بثبوت الإيمان في قلوبهم، فهذا يدل على أنَّ النَّصر ليس فِعْلاً مَادِياً فقط لكنه أشمل من ذلك وأعظم.

ثمَّ جعل الله النَّصر مقابل غلبة الخصوم، ومقاصد الخصوم كثيرة أهمها ﴿ **حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا** ﴾[1]. وفي كلِّ موطنٍ مقاصد تتعدد، فحيث لا يُصيبوا مقاصدهم في المسلمين والدُّعاة والمجاهدين فغدت ثمَّ النَّصر.

فالنَّصر في القرآن أوسع من تحقق مقاصد المؤمنين في أعدائهم، بل يشمل عدم تحقق مقاصد الكافرين في المؤمنين كذلك، وهذا النوع كثيرٌ في القرآن الكريم فهنا قوله تعالى: ﴿ **وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴿٢٠﴾ ﴾[2]. وهذه في صُلْح الحُديبية، إذ سمَّاه الله تعالى فَتْحاً مُبيناً، وهو كذلك، وصدق الله العظيم، وقوله تعالى: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ** ﴾[3]. وهذه في الهجرة النَّبويَّة.

ومن فضل هذه الكلمة وجلالها أنها لم تُذكر في القرآن ـ والله أعلم ـ إلاَّ مقرونة بالله سبحانه وتعالى كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى في سورة «الصفّ»: ﴿ **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** ﴾[4]،

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

[2] سورة الفتح، الآية: ٢٠.

[3] سورة التوبة، الآية: ٤٠.

[4] سورة الصف، الآية: ١٣.

وفي سورة «الأنبياء» في ذكر نوح: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾[1]. وفي سورة «النَّصر»: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾[2]، ذلك لأنها من الخير، والخير كلّه منه سبحانه وتعالى جلَّ في عُلاه.

إنَّ مجيء هذه الآية في سياق غزوة أُحد وبعد القَرح قطع للنُّفوس أن تذهب إلى مواطن أُخرى باحثة عن النَّصر، إلى طُرُقٍ وَسُبُلٍ غير سبيل الله وهديه وعطائه، لأنَّ أول الأسئلة التي تُطرح بعد القَرح والمُصيبة لِمَ هذا؟ فإن تشوفت النُّفوس إلى خطأ وانحراف صدتهم هذه الآية إلى الهدى والصواب، وهذا مكرٌ وقعت فيه الأُمَّة في أزمنتها المتأخرة حين هزمت واجتاحتها جيوش الكفر فكان السؤال لِمَ هذا؟ وقد كان أكبر المسائل التي رُفِعَتْ وإلى الآن: لِمَ تقدم الكفر وازدهرَ، وانحطَ المسلمون وتأخروا؟، وعامة المُؤَلفات والكُتب في الوسط الإسلامي تدور حول هذا المعنى ومعالجة أسبابه، ذلك لأنَّ النَّصر هو شوق الأُمم والشعوب الحية، وهذه أُمَّة الرسالة والخيرية، وفيها مشاعر العِزَّة التي لن تموت ما دام القرآن بين أظهرها، والأُمم الحية التي تستمرُ ولا تموت هي الأُمم التي فيها عوامل الاستجابة والتحدي، وتملك أسباب ومقومات هذا التحدي بل والغلبة كذلك.

هذه الآية تقول لهم إنَّ النَّصر له طريقٌ واحدٌ هو طريق الله، وله سبيلٌ واحدٌ وهو إرضاء الله، ذلك كلّه ضمن قدر الله وسُننه في الخَلق لا بما يفهم أهل الجهالة والانحراف من نفي الأسباب الكونية، فمثل هذه الضلالات لا تصنعُ نصراً ولا عِزَّةً، فالذين يريدون النَّصر في الدُّنيا بلا أسبابٍ زاعمين التوكل هم مثل مُرِيدِي الجَنَّة بلا أعمالٍ زاعمين حبَّ الله ورسوله ﷺ والله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ㉛﴾[3].

القرآن الكريم يُقيم ثُنائية مُتكاملة بين العمل القلبي والفِعل الكوني، يجمع هذا قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وأغلبُ الانحرافات الفكرية والفلسفية إنما سببها إقامة تعارض بين الثنائيات إما بالإلغاء وإما بالصِّراع، ولذلك إنْ كان ثمَةَ جَدلية في الإسلام فهي جَدلية التعاضد والتكامل، لأنَّ الكون مع تنوعه تنوعٌ في واحدٍ، فالكائنات الحيَّة كلّها تتكون من الخلية، لكن هذا الواحد يتنوع ويتعدد، وهذا دليلٌ على وحدانية الخالِق وقُدرته وحِكْمَتِهِ، وكذلك شرعه وكونه، فَحَوَارِيُّو الأنبياء لم يعلموا صِدْقَ نُبوة الأنبياء إلاَّ لموافقتها لفِطرهم، وهي أصل التكوين، فدل ذلك على توحدها، والمؤمن القوي هو الذي يحقق المشيئة الشرعية والمشيئة الكونية في آنٍ واحدٍ، وهذا هو منتهى العبودية وبذلك تتحقق الربَّانيَّة في الإنسان، وتخلف أحد المشيئتين تخلفٌ في العبودية، ولذلك فعدم النَّصر ـ وهو فعلٌ كونيٌّ ـ هو ضعفٌ غير محمودٍ في نفس الربِّ سبحانه وتعالى، وكذا من حقق الغَلبة دون إيمانٍ فهو غير محبوبٍ لله سبحانه جلَّ في عُلاه، والكمال هو الفعل الكوني والعمل

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٧٧.
[2] سورة النَّصر، الآية: ١.
[3] سورة آل عمران، الآية: ٣١.

القلبي، وكذلك الربَّاني يملك القُدرة على الفعل ويحقق الإيمان بتوكله على الله تعالى، وباجتماع هذين يتحقق مقاصده في الدُّنيا وأجره في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، فقد أمر الله المؤمنين بالإيمان وأمرهم بالقوة والإعداد إذ لا يتم الجهاد إلاَّ بهما، ووعدهم إنْ تحقق هذان الشرطان بالأجر الدُّنيوي والأجر الأُخروي كذلك، وحين يتخلفُ أحدهما يعني أنَّ إحدى المُقدمتين قد تخلفَ أو أنَّ كِلاهما قد تخلفَ، فالتوكل فعلٌ قلبيٌّ يكون بعد القُدرة اللازمة للفِعل كما قال تعالى على لسان الأنبياء: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[2]. فجعلوا التوكل بعد الهداية وهي العلم والبصيرة، فالمرء لا يسلكُ الطريق الخطأ مُتوكلاً، والعازب لا يطلبُ الولد مُتوكلاً، والكسولُ لا يطلبُ الرزق مُتوكلاً وكذا مثله العاجز، فإنْ فعلَ ذلك فاعلٌ فهو ضالٌ سيصلُ إلى ضدِّ مُبتغاه، ولذلك فقوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾. يُعْلم بأنَّ النَّصر لا يكون إلاَّ بسببٍ، وسببه فعلٌ كونيٌّ وأمرٌ قلبيٌّ، أما الفعل الكوني فهو ما يعرفه النَّاس من سنن النَّصر في المعارك، وأما القلبي فهو التوكل ومثله أمورٌ قلبية أُخرى، وكلما قويت أسباب النَّصر كلما تحقق أعم وأشمل وأوضح، وقد تضعفُ الأفعال الكونية كالقُدرة فتسد مسد ضعفها أعمال القلوب كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[3]. ذلك لأنَّ سلاح القلوب له أثر على نقص العدد يعلمه أهل الحروب والقتال، وهذا جليٌّ في التاريخ لقوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾[4]، وهذا السلاح أقوى ما يصنعه الإيمان الذي يُعلم الصَّبر والتوكل واليقين، ويدفعُ صاحبه للموت وحبِّ الشَّهادة، فيقعُ في قلوب الأعداء الرُّعب والخوف والهزيمة.

هذه الحياة الدُّنيا دار سُننٍ لا تتخلف أبداً، ولكن المؤمن يملك أدوات وأسباب خاصة لا يملكها غيره، حتى لو علمها فإنَّ تملكها له طريقٌ واحدٌ وصائبٌ هو طريقُ الإيمان بالله ورسوله والدَّار الآخرة.

---

[1] سورة الصف، الآيات: ١٠-١٣.
[2] سورة إبراهيم، الآية: ١٢.
[3] سورة الأنفال، الآية: ٦٦.
[4] سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

ثمَّ إنَّ حاجة المؤمنين لهذه الأدوات الخاصة في حياتهم أكثر من حاجة غيرهم، لأنَّ المؤمن مُبتلى، و«**أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ**»[1]، والمؤمنون في العالم قِلَّة أمام غيرهم على مدار التاريخ وإلى يوم القيامة، فهم بحاجة للعامل القلبي ليَسُدَّ النَّقْصَ في السبب الكوني، وحين يتخلى المؤمنون عن هذه العوامل القلبية تتحقق هزيمتهم يقيناً بلا ترددٍ، والأُمم والشعوب والأفراد لا تستقيمُ حياتهم على حالٍ واحدٍ، فالذين يملكون الأسباب حيناً سيأتي عليهم حالٌ أُخرى حين تعمل الحياة عملها في استهلاك هذه الأسباب وإضعافها فتتعرى الأُمم منها فمن ينصرهم في هذه المواقف؟! يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)** ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ (١٠٠) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢)** ﴾[3].

بهذا يُعْلم أنَّ الأسباب هي خَلْق الله والإيمان أمر الله ولا تقع العبودية التامة إلاَّ بتحصيلهما، وإنْ وقع التنازع بينهما ـ وهو قليلٌ ـ فالآخرة خيرٌ وأبقى، قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)** ﴾[4].

﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ** ﴾. لأنَّ غيره أضعف منه، فهو مخلوقٌ له، ولا يملك قوة إلاَّ ما آتاه الله.

﴿ **وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ** ﴾. وهذا يُفَسره الله في قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا**

---

[1] رواه البخاري معلقاً قبل رقم ٥٦٤٨. «الفتح» في «كتاب المرضى» باب أشد النَّاس بلاءً الأنبياء، ثمَّ الأمثل فالأمثل. الجزء الحادي عشر، الصفحة ٢٤٩. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٣م). والترمذي في الزهد من «جامعه» من حديث عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله؟ أي النَّاس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**» وقال: حسن صحيح. حديث رقم: ٢٣٩٨، وكذا هو عند النسائي في «السنن الكبرى»، وعند ابن ماجه في كتاب الفتن من «سننه» حديث رقم: ٤٠٢٣، ٤٠٢٤، والدارمي في الرقاق من «سننه»، وأخرجه أحمد بن حنبل في «المسند» ٢٦٩٥٨. وابن منيع وأبو يعلي وابن أبي عمر في مسانيدهم كلهم من حديث عاصم، وهو عند مالك في الموطأ وآخرين، وصححه ابن حبان، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» في «كتاب أشد النَّاس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم» وصححه ووافقه الذهبي. حديث رقم: ٨٢٨٣. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٠م). وأخرجه أيضاً من حديث العلاء ابن المُسيب عن مصعب، والطيالسي. حديث رقم: ٢٠٩١. وللطبراني من حديث فاطمة رفعه: «**أشد النَّاس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون**» الحديث، وأورده الغزالي بلفظ: «**البلاء موكل بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل**».

[2] سورة الأحقاف، الآيتان، ٢٧ـ٢٨.

[3] سورة هود، الآيات: ١٠٠ـ١٠٢.

[4] سورة القصص، الآية: ٨٣.

يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾[2].

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾[3].

لأهل التفسير مقالات عدَّة في هذه الآية تُراجع في مظانها، ولكن سياق هذه الآية في باب وصفِ رسول الله ﷺ ولِينِه عليهم في القول والفعل وعدم غلظة قلبه عليهم، وهذا السياق يُقوِّي قولاً من هذه الأقوال وهو وصفٌ لرسول الله ﷺ في أداء الأمانة وعدم خِيانتها، فالنَّبيّ ﷺ لا يخونُ ولا يأخذُ حقَّ غيره ولا يكتمُ ما آتاه الله، وهي أمرٌ للأتباع بالإقتداء به وتحذيرهم من المعاصي التي نهى عنها ولا يأتيها، هذا ما يُرجحُ هذه الآية، والله أعلم.

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾[4].

يقول الله: هناك بَوْنٌ بين طاعة الله وبين معصيته، فالعمل بطاعته يأتي برضوانه، والمعصية تؤدي إلى سخطه والنَّار، وهي كقوله تعالى في «نون»: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[5].

﴿ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾[6]، ذلك كقوله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾[7]، وكقوله تعالى في «الأحقاف»: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[8]. فالطائعون درجات ذكرهم الله في مواطن أخرى في كتابه، ففي سورة «الواقعة» جعلهم الله درجتين: المُقربين وأصحاب اليمين قال تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾[9]. وفي سورة «فاطر» جعلهم الله ثلاث مراتب، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ

---

[1] سورة العنكبوت، الآية: ٤١.
[2] سورة الحج، الآيتان: ٧٣-٧٤.
[3] سورة آل عمران، الآية: ١٦١.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٦٢.
[5] سورة القلم، الآيتان، ٣٥-٣٦.
[6] سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.
[7] سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.
[8] سورة الأحقاف، الآية: ١٩.
[9] سورة الواقعة، الآيات: ٨٨-٩١.

ﵟٱلۡكَبِيرُ ٣٢ﵞ[1]. والصحيح في هذه الآية قول من قال إنَّ الظالم لنفسه من المسلمين لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ... ﴾. وهو تفسير أُمِّنا عائشة الصِّدِّيقة رضي الله عنها وأرضاها.

ومن المعلوم أنَّ الجنَّة درجات، وأنَّ النَّار دركات، عُلِمَ هذا من الكتاب وسنَّة رسول الله ﷺ.

﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤ ﴾[2].

يقول الله للمؤمنين هذا في معرض فضل النَّبيِّ ﷺ على أُمَّته، ورحمة الله تعالى باصطفائه وإرساله لهم، وهذا كلّه من قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ... ﴾. وهذه الآية وأشباهها في القرآن الكريم من الآيات الجامعة لمقصد البعثة النَّبويَّة، وهذه الآيات تحتاجُ إلى مُصنفٍ خاصٍ بها ليشرح المقاصد الربَّانيَّة الجليلة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ ﴾. فهذه ميراثه ﷺ، والنَّاس يرثون هذا الفضل، ويتفاوتون في الأخذ، وأعلاهم مرتبةً مَنْ جَمَعَ هذه المقاصد، والبعض قد يقتصرُ على بعضها دون بعضها، فالوارثون إما أهل رِواية، وإما أهل دِراية، وإما أهل تزكية، ودين الله هو جمعُ هذا كلِّه.

وسأقتصرُ على هذا هنا حتى لا نخرج عما نحن فيه من غزوات النَّبيِّ ﷺ في القرآن الكريم.

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ ﴾[3].

من هنا تبدأ الخاتمة، لتُلقي على المؤمنين خُلاصة القضية، وتُجمل الأَجوبة والأحوال والمواقف والمقاصد، إذ أنَّ ما تقدم قد تم فيه التفصيل والعلاج والبناء، هذه الخاتمة التي تحمل ربوبية المجيب وقَهره وقُدرته، وهي تطوي حيرة الإنسان وضُعفه في إدراك حِكمة الأحداث والوقائع، وتكشف أخص خصائص الإنسان الضعيف وهو النِّسيان، وعجزه حين يستغرقَ في الواقع دون أن يلتفتَ إلى أَمْسِهِ ولا إلى نفسه، فها هم الصَّحابة ﷺ يتساءلون: أَنَّى هذا؟ أي من أي وجهٍ وسببٍ جاء هذا الأمر، ولماذا وقع بنا.

لقد سألوا هذا السؤال وقد وقعت بهم المصيبة بقتل سبعين صحابياً، وذلك بعد أن أوقعوا بالمُشركين مِثْلَيْهَا، أي قتلوا منهم سبعين وأسروا سبعين، فكان الجواب: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ﴾.

---

[1] سورة فاطر، الآية: ٣٢.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٦٥.

لقد تقدم قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾. فالقرح وهو الجُرح واحدٌ، فهذا مثل ما سبق، إذ قُتِلَ من الفريقين عددٌ مماثل، ولكن المُصيبة في المشركين كانت مُضاعفة وذلك بالأسر الزائد فيهم، إذ لم يُؤْسَر من المسلمين يوم أُحد.

وجوابُ الله تعالى بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾. دون زيادة عما هو الذي في أنفسهم إنما هو من قبيل الرحمة بهم والشفقة عليهم والحبّ لهم، ذلك بأنَّ سؤالهم مُتوجهٌ، وإذا كان السؤال كذلك كان الجواب مُطابقاً للسؤال دون أن يعدل عنه أو يزيد عليه.

وقد اختلفَ أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾. ما هو؟ وأعجبُ ما رُوِيَ قول عمر الفاروق ﷺ أنه بسبب أخذهم الفداء يوم بدر وتركهم القتال، وهذا رواه الإمام أحمد[1] كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى[2]، وهو اختيار جماعة من أهل العلم، هذا مع أنَّ أخذ الفداء يوم بدر قد وقع المغفرة فيه ومسامحة الربِّ لهم، وذلك في قوله تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾[3]. فقوله تعالى: «فَكُلُوا» هي على وجه الإباحة، لأنَّ الأمر بعد النهي إعادةٌ للحُكم إلى ما كان من قبل النهي على الصحيح من أقوال أهل الأصول، فالأكل مباح قبل النهي، فكان الأمر به إعادة لحكم الإباحة.

وتأويل الفاروق لهذه الآية على هذا الوجه يدل على أمرٍ مهمٍ وهو أنَّ الآثار القَدرية للفعل لا تتبدل حتى لو سقط الإثم، ذلك بأنَّ إثم أخذ الفِداء يوم بدرٍ قد غُفِرَ، لكن أثره القَدري لم يسقط ولم يتغيَّر فكان هذا يوم أُحد، وتأويل الفاروق هنا هو من جنس تأويله لسورة «النَّصر» كما في سؤاله لتُرجمان القرآن ابن عباس ﷺ بأنها نَعْي رسول الله ﷺ واقتراب أجله، وقد فَهِمَ النَّاس وجه التفسير هناك في سورة «النَّصر»، ولكن لا أعلمُ أحداً تكلم في توجيه هذه الآية هنا على المعنى الذي قاله الفاروق ورواه عن ابن عباس ﷺ، وقد تفكرتُ وأعملتُ كلَّ جُهدي إلى إدراك وجهٍ أرتضيه فلم أُوَفَقْ، إذ هذا من غوامض التفسير، ومن العلم الخاص، وعسى أن يهدي الله له صاحبَ دينٍ وعِلْمٍ لتفسيره أو أنْ يجد أحداً قال به من السابقين.

---

[1] في «المسند» حديث رقم: ٢٠٨، ٢٢١. وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح..

[2] في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٩]. وقال رحمه الله تعالى: ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه علي بن المديني والترمذي وقالا لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني وهكذا روى علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس. «تيسير العلي القدير لاختصار ابن كثير» اختصره محمد نسيب الرفاعي. الجزء الثاني، الصفحة٢٧٤. طبعة مكتبة المعارف بالرياض (١٤١٠/١٩٨٩م). «تفسير القرآن العظيم» الجزء الرابع، ص ١٥. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (١٩٨٥م).

[3] سورة الأنفال، الآيات: ٦٧-٦٩.

أما ما ورد بأنَّ الصَّحابة قد خُيِّروا يوم بدر بين ترك الفِداء وبين وقوع هذا الأمر فيهم ـ أي مصيبة القتل ـ فكلّها أقوال تابعين لا تقوم بها الحُجة، فلعلَّهم قالوها على وجه الرواية تفسيراً لتأويل الفاروق، إذ بعضها قِيل على وجه الإرسال وبعضها مُنقطع، وما رُوي مرفوعاً مُتصلاً عن علي ﷺ فهو ضعيفٌ، ثم لو صحتْ هذه الرواية وهي تخيِّير الله لهم يوم بدر، فهي تحتاج إلى إدراك هذا المعنى من التخيِّير لأنه وجهٌ عجيبٌ والله أعلم، ولعلَّ الناظر في كتابي هذا يعذرني إذ ليس بين يدي في كتابة ما كتبتُ وإلى الآن ما يلزم المراجع والكُتب وكُتبي بعيدة عني لا أملكُ منها شيئاً، فلا يبعد عن من كان هذا حاله أن يقصِّر أو يخطئ، والله يغفر لي.

إنَّ تفسير الفاروق على الوجه الذي تقدم لا يلغي ظاهر الآية، وهي أنَّ العباد إنما تُصيبهم المصائب بما تقترفه أيديهم وبأعمالهم كما قال تعالى في سورة «النساء»: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[1]، وقوله تعالى في سورة «هود»: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[2]، وقصص القرآن مع الأُمم السابقة إنما تحكم بهذه القاعدة الربَّانيَّة العادلة كما قال تعالى في سورة «سبأ»: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾[3]، ولذلك علَّق الله سبحانه أي تغيِّيرٍ يقع في النَّاس على ما في أنفسهم كما قال تعالى في سورة «الرعد»: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[4]. وهذه الآية جامعة لأمر القدر وسنَّة التغيِّير، فإنَّ الله حَكَمَ فيه بإنفاذ مشيئته ولا مبطل لها ولا راد، وحَكَمَ أنَّ هذه المشيئة إنما تقع على وجهٍ حكيمٍ، حيث يستحق كلّ أحدٍ هذه المشيئة عاجلاً أو آجلاً، وبيَّن فيها حالَ الإنسان حيث يقفُ أمام أقدارٍ تتنازعه، فمنها ما وقع باختياره ومنها ما يأتيه بغير اختياره، والعاقبة فيهما إنما تكون بحسب ما يتعامل معها، وختمها بأنَّ القدر الذي يكرهه الإنسان من سوء إنما يرد بولاية الله والقُرب منه وحُسن الصلة به، والذين يكتبون في السنَّة القَدرية اليوم يأخذهم الحديث بعيداً عن مفهوم القَدر الربَّاني، حيث يغفلون عن يد الله في الأمر، ويتوجه حديثهم وكأنَّ السنن تجري على جهة العادة من غير إرادةٍ ربَّانيَّةٍ لحوادثها، وهذا ضلالٌ، لأنَّ الله تعالى وإنْ خَلَقَ سنن الخَلق إلاَّ أنَّ هذه السنن لا تجري أفرادها وآحادها إلاَّ بإرادةٍ إلهيةٍ لكلِّ حادثةٍ، ومن أمثلة ذلك الأمراض، فإنَّ الله خَلَقَ لها سُنناً وأسباباً لكن هذه الأسباب لا تحدث نتيجتها إلاَّ بإرادة تتوجه إلى آحادها لقوله ﷺ: «**فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ**»[5]. فكما أنَّ

---

[1] سورة النساء، الآية: ٧٩.

[2] سورة هود، الآية: ١٠٢.

[3] سورة سبأ، الآية: ١٧.

[4] سورة الرعد، الآية: ١١.

[5] البخاري في «كتاب الطب» باب لا صَفَرَ وهو داءٌ يأخذُ البطنَ. حديث رقم: ٥٧١٧، ومسلم في «كتاب السلام» باب لا عدوى ولا طِيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوءَ ولا غُولَ ولا يُوردُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ. حديث رقم: ٢٢٢٠.

خَلق السبب الأول احتاج إلى إرادة الخَلق، فكذلك ثانية وثالثة إلى ما شاء الله تعالى يحتاج كلّ فردٍ منها إلى إرادةٍ تتوجه إليه ليكون.

المقصود هو أمر الباطن، وهذا خطأٌ وجهلٌ إذا قصروا الأمر عليه كما يُوهِمُ كلامهم، فهم يفسرون النَّفس على معنىً يُقابل البدن، وهذا غير مقصود الآية، فالنَّفس هنا أشمل من ذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾[1].وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[2]. فمقصود الآية أنْ يُغيِّر الإنسان عِلمه وعَمله كذلك لا باطنه فقط، وهذا بيِّنٌ في قوله تعالى في سورة «الأنفال»: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾[3]. إذ جاءت هذه الآية بياناً لما وقع بفرعون وآله بعد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾[4]. فكان ما أصابهم بسبب ما فعلته أيديهم، لا بما يجري في بواطنهم من معاني وأماني.

وأما أعظم النَّاس ضلالاً في دراسة السنن وقواعد الاجتماع، فهم الذين يلغون الإنسان وإرادته وانعطافاته، ويجعلون الظرف السَنني أو كما يُسمُّونه الظرف الموضوعي هو الذي يحكم النتائج، والآية واضحة في تعليق النتائج على الإنسان، ولا شك أنَّ من الإنسان قُدرته وأدواته، وكذلك إرادته، فابتداء التغيِّير إنما هو الإنسان لا المادة، وهذا التفسير وإنْ كان أساسه واضحاً في الضلال إلاَّ أنَّ بعض أفراده تتغلغل خفية في بعض الدراسات التي تُسمى إسلامية، وكذا في بعض الخطب والدروس، وأجلى صور التغلغل دعوى الانتظار للعمل، فيتركون المثير من الحقِّ لعدم وجود الظرف المُلائم له، بل يذهبون إلى التماهي مع الباطل حتى تأتي الصدفة!! ليقتنصوها ـ زعموا ـ، وهؤلاء من أجهل خَلق الله في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ وسنَّة التغيِّير.

الظرف الموضوعي «السَنني» هو صناعة إنسانيَّة ضِمن قَدر الله تعالى وحِكمته، والصدفة إنْ وقعت فإنَّ من يغتنمها أصحاب الإرادات، ومَن أعدوا للأمر عُدَّته بعملٍ دَؤُوبٍ وصَبْرٍ أَيُوبِيٍّ طويلٍ، هذا مع أنَّ الصدفة لا وجود لها، إنما هو القَدر الذي يخلقه الله تعالى، وتتقدم أسبابه، وإلغاء الإنسان ليكون مُنْفَعِلاً كُلِيّاً لا فَاعِلاً، ومُتأثراً لا مُؤثراً ضلالٌ في التصور، ونرى من أهل البأس مَن يُردد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾[5]. يجتمعون فيها على استحالة التغيِّير، وهذا ضلاٌل وتأويلٌ باطلٌ للآية، يُعْلَمُ هذا من كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، وكفى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. ردٌّ عليهم.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٨٤.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
[3] سورة الأنفال، الآية: ٥٣.
[4] سورة الأنفال، الآية: ٥١.
[5] سورة النجم، الآية: ٥٨.

ولِوُقُوعِ المصائب على المؤمنين حِكَمٌ أُخرى غير الجزاء منها الابتلاء والتمحيص، ومنها رفع الدرجات وبلوغ مقامات في الجِنان لا يبلغها العبد إلاَّ بالمصائب، ومنها كشف المنافقين وغير ذلك من المقاصد التي لها أدلتها من الكتاب والسنَّة، ومن هذه الأدلة الآية التالية وهي قوله تعالى:-

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾[1].

يتجدد هنا الرد على المنافقين وضلالاتهم، وذلك من خلال كشف فوائد المصائب والامتحانات الربَّانيَّة للمؤمنين وفِئتهم.

هي صفةٌ عظيمةٌ لموقف ﴿ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ ﴾. فهي ميزةٌ خاصة له، وصفةٌ ينفرد بها من دون بقيةِ المواقف، فالتقاء الجمعان ضرورةٌ للبناء، وضرورةٌ للتمحيص، وضرورةٌ للكشف، وضرورةٌ للتعليم، وضرورةٌ للشهادة، ولذلك أمر الله به، وأمر بالإعداد له، والثبات يوم حصوله.

كان المُصاب يوم أُحد، يوم التقى الجمعان بإذن الله تعالى، وقوله: ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾. يحتاج إلى وقفة:-

من المعلوم أنَّ كلَّ شيءٍ يقع في الخَلق بإذن الله الكوني والقَدري، فلا يكون إلاَّ ما يريد، سواء كان هذا مما يحبه الله أو يكرهه، فالله لا يأمر شرعاً إلاَّ ما يحب، ويأذن قَدراً لما يحب ولِما يكره سبحانه وتعالى، وقد يقع التنازع في نفس الربِّ بين مُرادين له جلَّ في عُلاه، ودليل ذلك في الحديث النَّبوي الذي يرويه عن الله: «..**وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[2]. والتردد هذا واقعٌ بين ما قدره الله في اللوح المحفوظ وبين ما يحب، ولكن لا يقع إلاَّ ما قدر، وهذا موجودٌ في كتاب الله في مواطن منها قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ﴿١٢٩﴾ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾[5]، ويدل هذا مع أنه لا يقع

---

[1] سورة آل عمران، الآيات: ١٦٦-١٦٨.

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». البخاري، وتفرد به، في «كتاب الرقاق» باب التَّواضع. حديث رقم: ٦٥٠٢.

[3] سورة طه، الآية: ١٢٩.

[4] سورة العنكبوت، الآية: ٥٣.

[5] سورة النحل، الآية: ٦١.

إلاَّ ما قدره في الأزل، ولا يقع إلاَّ بحكمةٍ وتقديرٍ وسننٍ، ولذلك قد يقعُ في المؤمن البلاء، والله لا يحبُّ إساءته كما في الحديث، لكن يقع به لما يحبه الله له من الخير، فإرادة الله مُقدمة، والمقصود من الإرادة هنا هي حِكْمَتُه، فحُكْم الربِّ تقدم على مُراد الإنسان، فمعنى قوله تعالى هنا ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. إنما المقصود حِكْمَته وهي التي تحيط أقداره سبحانه وتعالى، وهذه الحِكمة يترتب عليها المآلات وهي مقاصد الربِّ من الأقدار، ولذلك فقوله تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هي لإفراح المؤمنين فيما وقع لهم في أُحد، فإنها وإنْ ساءتهم إلاَّ أنَّ حِكَمَ الربِّ فيها مُقدمة على حبِّهم ورغبتهم ورِضاهم، كالمرض الذي يُصيبهم، فإنَّه وإنْ يُتْعِبْهُم إلاَّ أنَّ مآلاته خيرٌ لهم، فكانت أُحد بمآلاتها خيراً لهم، ولو لم تكن إلاَّ هذه الآيات التي نزلت عاقبتها لَكانت كافية في الخير والفضل.

لقد كان قوله تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بعد المغفرة ليؤكد هذا المعنى، وهو ليس لبيان الإذن القَدري فقط في حدوثه، ولكن لبيان حِكْمَةِ هذا القدر في مآلاته لهم من الخير والصحة والتعليم والهداية، وقبل كلِّ ذلك الشَّهادة التي حصلت لأوليائه وغيرها من الرحمات التي تنزلت عليهم، فقوله: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ هي نصيبُ المؤمنين من هذه المعركة لِما عَلِمَ الله من إيمانهم وما في قلوبهم من الخير، فقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لِيُظهروا إيمانهم الذي علمه الله تعالى فيهم قبل الموقعة، فإنَّ عِلْمَ الله تعالى أزلي، وكان بعدها نصيب المنافقين في الآية التي تلتها.

إنَّ قوله تعالى: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾. هنا هي كقوله سبحانه وتعالى في سورة «النُّور» في حادثة الإفك ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[1]. لأنَّ مآلات الأمرين لكم، ولخيركم، وهذا لأنكم أهلٌ لذلك كلِّه، فأنتم وِعاؤه ورجاله، فإيَّاكم وقول «لو» لأنها قول غيركم من المنافقين كما تقدم وكما سيأتي، فلا يَعْتَبَنَّ أحدٌ على أحدٍ، ولا يَثْرَبَنَّ قائلٌ بقول آخذ به في اختيار أحدِ الأمرين كالخروج على غيره، ولكن قولوا: قَدرُ الله، وما شاء فعل[2].

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ...﴾.

هذا حظهم من هذه الموقعة أن يعلم الله أمرهم أي يُظْهره ويكشفه، فهؤلاء لم يخرجوا مع المؤمنين إلى أُحد، وتذرعوا أنَّ عدم خروجهم سببه عدم عِلمهم بالقتال، مع أنَّ الدعوة كانت للقتال لا لغيره، لكنه التبرير والتقصير، وهذا لا مجال لإقفاله، إذ أنَّ مرضى النُّفوس لا يعجزون عن أي مقالة

---

[1] سورة النور، الآية: ١١.

[2] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا لم يُصبني كذا. وَلكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**». مسلم في «كتاب القدر» باب في الأمر بالقُوَّةِ وتركِ العجزِ والاستعانةِ باللهِ وتفويضِ المقاديرِ لله. حديث رقم: ٢٦٦٤.

الشيخ حفظه الله تعالى شرح هذا الحديث العظيم الجليل في رسالة مستقلة بعنوان: «هداية أهل الإيمان في أن «لو» تفتح عمل الشيطان». فاحرص أخا الإسلام على قراءتها.

تُبرر أفعالهم وضلالاتهم، مع أنَّ السامعين يعرفون كذبهم، وهم يعلمون أنَّ السامعين يعلمون كذبهم، لكنها صفاقة الوجوه، وضلالات القلوب، وعدم الحياء، وقلَّة الخوف من الله تعالى.

لقد قال لهم المؤمنون لما ساروا إلى أُحد: تعالوا قاتلوا أو احضروا لتكثروا سوادنا فيقع بهذا التكثير دفع شرِّ المشركين عنَّا، فلم يخرجوا، وقالوا: لا يكون قتال، ولو نعلم أنه سيكون قتال لخرجنا معكم.

هذا ظاهر الأمر، وأما باطنه فهم يريدون الشرَّ برسول الله ﷺ وبالمؤمنين، ولا يحبون القتال في سبيل الله تعالى، ولا تكثير سواد المؤمنين، ولذلك قالوا مقالتهم الكافرة بعد المعركة كما في الآية التالية: ﴿ **ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ** ﴾، فهم حرضوا النَّاس على عدم الخروج لا نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن جُبْناً من اللقاء وإعراضاً عن سبيل الله تعالى.

خذل هؤلاء المنافقون المؤمنين في موطن الشِدَّة، حيث الخطأ الصغير يعقبُ قتلاً وهزيمةً ودماراً، وهم يتعاملون معه تعاملَ الاحتمالات الباطلة، ويتلاعبون في الدِّماء على وجه الجبن والكلمات التي لا تستر الحقيقة، فالنَّاس من الجهتين خرجوا للقتال، وكلٌّ قد أعدَّ عُدَّته وقَدِمَ إلى ساحة الموت، وهؤلاء يقولون: ﴿ **لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ** ﴾. فأيُّ كذبٍ هذا؟! وأيُّ تلعبٍ أَوْبَقَهُمْ في الضَّلال؟!

لقد تَعَرَّتْ حقائقهم وحَكَمَ الله تعالى عليهم بحُكْمِهِ: ﴿ **هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ** ﴾، وهو حُكْمُ العليم العادل، فقد وصفَ قلوبهم بعد أن وصف ظاهرهم، وقد رأى المسلمون ظواهرهم وسمعوا كلماتهم، ولكن هذا الوصف للقلوب هو من لَدُن ربِّ القلوب الذي يعلم السرَّ وأخفى.

هذا وصفٌ وحُكْمٌ ربَّانيٌّ لحالةٍ إنسانيَّةٍ، هذه الحالة التي لا تستقر على حالٍ بل هي تنوس[1] بين مواقف مُتعددة، تقتربُ من النُّور حيناً وتبتعد إلى الظُلمة حيناً آخر، لا يستقرُّ عليها الحُكْم ظاهراً لعدم استقرار حالتها باطناً، وهي مشكلة وُجوديَّة للمؤمنين كما هي مشكلة في الحُكم عليها، والله أعلم بما تموت عليه، فقد تأتيها رحمة ربَّانيَّة تسوقها إلى النُّور والتوبة والإنابة، وقد تُمْتَحَن فَتَنْتَكِسْ فَتَبُوءُ بالخُسران إلى الممات، وأشدُّ المحن عليها هو القتال في سبيل الله تعالى كما قال تعالى في سورة «الفتح»: ﴿ **قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾** ﴾[2]، وكذلك الصَّدقة والإنفاق كما قال تعالى: ﴿ ۞ **وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم**

[1] النَّوْسُ: اضطرابُ الشيءِ المُعلَّقِ، والفِعْلُ منه: ناسَ يَنُوسُ فهو نائِسٌ ونَوَّاسٌ. «ذكر الفرق بين الحروف الخمسة» لابن سيد البطلوسي، ص١٢٩. طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

[2] سورة الفتح، الآية: ١٦.

﴿مِّنْ فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾[1].

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

لم يحكمِ الله تعالى عليهم بالكُفر التام، وذلك أنَّ فيهم بعض إيمان، فلهم صلة به لم تنقطع، فلم يدخلوا الكفر دخولاً كُلياً فيحكم عليهم له، وهو حكم عليهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بالإسلام، ولكن هذا حُكْمٌ لا يدوم لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ فقد يتغيَّر بعد ذلك إلى أحد الطرفين، فيحكم عليهم به.

ثمَّ هذا دليلٌ على أنَّ الكُفر عملٌ كما أنَّ الإيمان عملٌ، فَبِفِعْلِهِمْ هذا، وقَولِهِم الذي حكاه القرآن عنهم صاروا أقرب إلى الكفر، وابتعدوا عن الإيمان، ولو فعلوا ما فعل المؤمنون لكانوا منهم.

ثمَّ فيه أنَّ المعاصي بَرِيدُ الكُفر، حتى لو لم تكن هي كُفْرٌ أكبرٌ بنفسها، إذ لو كان فِعلهم هذا كفراً أكبرَ لَحَكَمَ عليهم، لكن لما كان معصيةً فقد حملهم إلى قُرْبِ الكُفْرِ لا الكُفْرَ.

وبها يثبت نوع من أنواع النِّفاق، وهو نفاق الريب والضعف والمرض، وهذا حكمه مشكل لأنه لا يثبت على حال فيقوى ويضعف، وأما الآخر فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾. فهذا مستقر، ويجمعها قوله تعالى في سورة البقرة في وصف المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾[2]. فهذا النوع الأول وهو النِّفاق المستقر على كُفر قلوب أصحابه ولكنهم يسترونه، وأما الثاني فهو قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾[3].

فهذا نفاقٌ مترددٌ ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ بخلاف الأول ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧﴾.

وقد أثبت الله أنَّ الكفر كذلك كما في سورة «الحج» في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾[4]. **فالأول**: صاحبه تخطفه الطير، أي تأخذه الشُّبهات والشَّهوات فتلعبُ به، فتنوس به أفكاره وأهواؤه في الكفر لا يستقرُ على حالٍ من الكفر، فحيث عرض له عارض من الكفر أعجبه، فهو في حِيرة كما قال تعالى عنه في سورة «الأنعام»:

---

[1] سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٧.

[2] سورة البقرة، الآيتان: ١٧-١٨.

[3] سورة البقرة، الآيتان: ١٩-٢٠.

[4] سورة الحج، الآية: ٣١.

﴿ كَالَّذِى اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِى الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ﴾[1]. والثاني: تهوي به الريح في مكانٍ سحيقٍ، أي مستقرٍ على نوعٍ من أنواع الكفر، رضي به واستقر في نفسه، وزُيِّن له كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[2]، فتجده صلباً جَلداً فيما هو فيه من الكفر، لا يَرُومُ عنه ولا يزُولُ.

ولذلك أبقى الله لهذا النوع من النِّفاق باب التوبة وإنابة ورجوع كما في سورة «النساء»: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ ﴾[3].

وهؤلاء بخلاف مَن قال عنهم: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾.

والناظر في كتاب الله يحتاج إلى معرفة الأحوال لمعرفة وجه الاختلاف في الآيات، وقد شرح هذا تُرجمان القرآن ابن عباس ﷺ لنافع بن الأزرق الخارجي ولغيره حين سُئِلَ عن بعض الآيات المشكَلة على القارئ فبيَّن طريقة الجمع بينها[4]، وهي معرفة أحوالها، ومن أمثلة ما سُئِلَ عنه مِن المشكَل الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[5]. وقوله سبحانه على لِسَانِهم: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[6]. بيَّن أنَّ قولهم هذا في أول الجمع يوم القيامة، فإذا قالوه ختم على أفواههم واستنطقت جوارحهم فذلك قوله: ﴿ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

والنِّفاق في غزوة أُحد كان في أوله، وفي بداية العهد ثم اشتدَّ وعظُمَ حتى كان أعظمَ ما كان في غزوة الأحزاب ثم تبوك، وهذا يدُّل على أنه تدنى في دركاته وكثرت شُعبه، فكانت سورة «الفاضحة»، «التوبة» كاشفة لهذه الشعب ومُشققة عنها.

قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ﴾ دليلٌ على أنَّ ظرف غزوة أُحد لم يكن يحتمل الخيار بالتخلف والقعود، فهو خروجٌ واجبٌ قد ندبهم رسول الله ﷺ إليه، لأنَّ المشركين قد قصدوا المدينة والقتال، فإما أن يخرج المرء لمباشرة القتال وإما أن يكون ردءاً بالتكثير أو الدُّعاء كما قال بعضهم أو المُرابطة، فحين يصبح النَّاس إلى صفين مختلفين فلا خِيار ولا سِعة للمرء بالجلوس والقعود، فإما مُقَاتِلٍ أو مُعَاونٍ أو مُدَافِعٍ أو مُنَاصرٍ وهذا بيِّنٌ في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ

[1] سورة الأنعام، الآية: ٧١.
[2] سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.
[3] سورة النساء، الآيتان: ١٤٥-١٤٦.
[4] انظره في: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لابن جرير الطبري. ٥/٩٤- ٩٥. طبعة دار الفكر ببيروت. ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
[5] سورة النساء، الآية: ٤٢.
[6] سورة الأنعام، الآية: ٢٣.

رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ [1]. فهؤلاء الذين أعذرهم الله لم يُسقِط عنهم واجبَ النُّصحِ والإحسانِ، والنُّصح هنا هو إخلاص المودة والولاء، وصِدق النُّصرة القلبيَّة واللسانيَّة، وهذا شرطُ الإعذار، أما اللاهون وأبعد منهم المُخالفون والمُخذلين فهؤلاء ليس لهم إلاَّ المقت الإلهي.

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. ذلك لأنهم يعلمون أنَّ الأمر من الجهتين إنما كان خروجاً للقتال لا غير، لكنهم قد يحتجوا بأنَّ هناك مِنْ قبلُ خروجاً لم يقع فيه قتال، فقالوا: وهذا سيكون مثله لا قتال فيه، وهؤلاء الذين يدَّعون الفَهم والنظر، ويسترون نِفاقهم وجُبنهم بهذه الأكسية الكاذبة قد كثروا في زماننا، حيث يدَّعون أنهم أهل مُراقبةٍ وتبصرٍ، فما يقع اليوم وقع مثله أمس، والنتيجة واحدة، والحقّ أنَّ هؤلاء قد نجحت فيهم لُعبة الجاهلية وخُططها حيث أركستهم إلى الخذلان وأنه لا خروجَ من الذلة أبداً، إذ لا يمكن أن يتغيَّر شيءٌ، وكلّ ما هو واقعٌ مخططٌ له من قِبَلِ الجاهلية وتريدُ تَوْرِيطَ المسلمين فيه، فحيث رأوا جماعة جهاد اتهموها بالغباء أو كما يُسمى بالمُغفل النافع، حيث يُغَيِّرون بجهادهم هذا الجاهلية، ويُعطونها المُبرر لتسويق برامجها وخُططها على المسلمين، وهذا التحليل الشيطاني هو سِتار الجبن والخذلان، وعُمدته هو الخيالات والأوهام وإدعاء الفكر والتبصر، والحقّ أنها ضلالات، وقد تقدم فضل المجاهدين في كلِّ المواطن، حيث تحققتِ الكثير من مقاصده، ووقع الكثير من النَّصر الذي لا يتحقق النَّصر الكُلِّي إلاَّ من خلال هذه الانتصارات الجُزئية.

هؤلاء يظنون أنَّ الجهاد في سبيل الله لُعبة الجاهلية وخِياراتها في تسويق برامجها ومخططاتها، والحقّ أن هذا لم يكن قط في التاريخ الإسلامي، وإنما يكون كذلك إذا كان مجرد قتال لا جهاداً في سبيل الله، هذا مع أنَّ المسلم في الأرض لا يعيش في فراغٍ هو الفاعل فيه دون وحده، فالتدافع هو قانون الحياة، إذ أنَّ الكفر ليس شيئاً واحداً على مدار التاريخ في وجوده السياسي والعسكري، بل إنَّ صراع الكفر بين أطرافه المُتعددة سِمَة التاريخ في أغلبه، فإنْ جاهد المسلم طرفاً فهذا لا يعني أبداً استخداماً من الآخر، ولو كان هذا لما وقع جهاد في الدُّنيا قط، وهذا ما يقوله اليوم ـ باطناً ـ أصحاب هذه الخيالات والجهالات، إذ أنَّ أبغض كلمة على قلوبهم هي كلمة الجهاد في سبيل الله تعالى، ويرون أنَّ أعظم الجهاد أن يصفوا الواقع على هيئة لا تخدم قضية شرعية، لأنَّ الأحكام الشرعية مُرتبة على عِلَلٍ واضحةٍ جليَّةٍ، لا على ظنونٍ وأوهامٍ، فحيث وُجِدَ الكفر وُجِدَتْ له أحكام، سواءٌ علمنا سياسته أم لا، والكثير من هؤلاء يجبنون عن إطلاق الأحكام الشرعيَّة القرآنيَّة، إنما يستخدمون لغة موهومة يُسمُّونها سياسة، وهذه اللغة تُوهِمُ القارئ والسامع علمية المُتكلم، وهي في الحقيقة خواء كشأن كلام المتكلمين، يلوكونه بين أنفسهم وأُمَّة الإسلام في معزلٍ عنها.

[1] سورة التوبة، الآية: ٩١.

لقد ثبت أنَّ تسوية الصف الإسلامي لا يكون إلاَّ بالجهاد، وكذلك تربيته وتثقيفه وتعليمه، وكذلك لا يمكن معالجة واقع المسلمين إلاَّ بالجهاد في سبيل الله، فهو حياة المؤمنين وهو ذروة سنام الإسلام لا سبيل للعزة وتغيِّير الواقع إلاَّ به، وكلّ طريق خلافه هي خلاف القرآن والسنَّة والتاريخ.

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

هذه لازمةٌ قرآنيةٌ لشأن المنافقين، وهي حقيقة يكشفها القرآن للمؤمنين حتى لا ينشغلوا بردود ومقالات هؤلاء، إذ أنهم وإن كسواْ عباراتهم ثوب العلميَّة والواقعيَّة والإقناع إلاَّ أنَّ القرآن يكشفُ أنَّ هذا مجرد غِطَاءٍ كاذبٍ رقيقٍ يحوي فراغاً وقذراً، والانشغال بالردود عليهم لا طائل تحته إنما هو ضيَّاع للوقت والجُهد، ثم هو يُعطيهم ثوب العلميَّة والاهتمام، والواجب صرف النظر عنهم، وقد أمرنا بعدم الجلوس معهم، ولا اتخاذهم أولياء، فلا قُرب لهم، والعاقل لا يستنزف بهذه الخداعات والأكاذيب، ولا يعطي لخصمه اللدود الكاذب المُخادع أكسية العلم والنظر، بل الواجب كشفه ونثر حقيقته، وأنَّ جوهر نفسه وباعث مقالته هو الجُبن أي حالته النفسيَّة، وليس مدارك عقله ونظره.

لكن قد يقول قائلٌ: كيف نُفَرِّقُ بين باعث المقالات، فنفرِّق بين ما هو علمي وبين ما هو نفسي؟ فالجواب يسيرٌ، وهو عرضُ هذه المقالات على كتاب الله تعالى، ورؤية مُعالجة القرآن الكريم لأصحابها، وكيف حَكَمَ عليهم، والحيرة تنشأ لعدم فهمنا للكتاب أولاً ثم لعدم بصرنا لحقيقة مقالات النَّاس، ويحيط ذلك انتشار مفهوم نسبيَّة الحقِّ، وأنَّ كلَّ مقال في الوجود يجبُ أن يحترم قائله، وأنَّ كلَّ مجتهدٍ مُصِيبٍ، ولكن مما يجب أن يُعْلَمَ أنَّ القرآن واضحٌ في كشف نفسيَّة كارهي الجهاد ومانعيه، فلا مجال للتردد في إبصارهم ومعرفة دوافعهم ومآلات مقالاتهم.

الجهاد عند البعض حالة ذهنيَّة فقط، فهم يُعارضون كلَّ صوره، ولا يرضون عن كلِّ ما يرون وقائعه، ومع ذلك يقولون نحن لا ننفي الجهاد ولا نُعارضه، فإذا قيل لهم: أي جهاد تريدون؟ ذهبوا يشترطون شروطاً ليست من كتاب الله ولا من سنَّة رسول الله ﷺ، فبعضهم يريد جهاداً يرضى عنه العالم أجمع، ويمدحه الكافرون قبل المؤمنين، وآخرون يريدون جهاداً لا غلط فيه، وقاعدون يريدون جهاداً لمعركة واحدة تفضي إلى الخلافة الراشدة، وأما الذين يشترطون الإمام الأعظم للجهاد فأعدم الله الأرض منهم.

سيرد على هذا الكلام بأنه دعوةٌ إلى جهادٍ لا ضابط له، يتحول أهله إلى مجرد مقاتلين يُفسدون ولا يُصلحون، وهذا غلطٌ في الفهم، إنما الحقّ الذي لا شبهة فيه أنه لابدَّ من الجهاد بلا شروط تُبْطِلُهُ وتُعَطِلُهُ وتجعله إلى الحرام والكراهة كما يقول أهل الريب والخور، فهي دعوة إلى أنْ يكون الجهاد وكما كان دوماً هو حياة الأُمَّة، تحيا به وتُمارسه، ولا يتوقف بحالٍ من الأحوال، فإنْ أخطأ أهله يُسددون في أماكنهم، وإن تقاعسوا تُستنهض هِمَمُهُم، فلا يُقَالُ لهمٍ توقفوا قط، ولا يخذلون بنشر ذنوبهم وأخطائهم، فلا يوجد في دين الله تعالى قط حالة واحدة تمنع حياة الجهاد ووجود المجاهدين في

أُمَّة الإسلام، فإنْ عجزَ عنه قومٌ في مكانٍ من ديار الإسلام فلن يُعدم وجود أماكن أُخرى يسهلُ فيه وينهض أهلها له، فالجهاد حالة تُرافق المسلمين وهو سِمَة الطائفة المنصورة دوماً كما في أحاديث رسول الله ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾.

ليتذكر الذين تقرعهم آيات الله ذلك دوماً، فإنَّ أمرهم وإنْ خَفِيَ يوماً على المؤمنين فلن يخفى على الله، وإنْ قدروا على تمرير مقالاتهم في الدُّنيا فلن تكون عليهم يوم القيامة إلاَّ حسرةً وندامةً، وهذا التحذير الربَّاني مُتوجهٌ إلى أنْ يكشفَ الإنسان نفسه قبل أن يكشفه للآخرين، فإنَّ الإنسان قد تخفى عليه نفسه، وقد تختلط عليه دوافعه، فلا يدري سبب اختياره لقولٍ دون قولٍ، ولموقفٍ دون موقفٍ، فالقرآن يكشف له هذه الدوافع حتى يبصر غوائل ما يخفى عليه مما هو بين جوانحه، وهذا يقول فيه القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾. فما مِنْ أَمْرٍ يحبه الإنسان إلاَّ ويجد في نفسه زينةً ورغبةً ودليلاً لهذا المحبوب، وهذا من مكر الله تعالى بأعدائه، ومن امتحان الله تعالى للإنسان، فينظر أيتبعُ ما زينته نفسه له من الأقوال والمواقف والأعمال أم يتبعُ أمر الله تعالى وأمر الرسول ﷺ.

النفس تُزيِّن له أقوالاً وأفعالاً كما يزيِّن له الآخرون، وتزيِّينها أشدّ وأقوى لأنها تخلط له دوافع الشهوة مع الإعذار ودعوى الفكر والنظر، فيقف المرء موقف الامتحان بين دين الله وبين نظره وعقله وما اختلط فيهما من شهوة وزينة، فالتقيُّ هو من يرد فِكره المضمخ[1] بالشَّهوة كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾[2]. ويتبعُ ما حكم الله تعالى، ولا يلتفتُ إلى عوائق الإتباع التي تكثر بكثرة معرفة مذاهب الباطل وعرض الشَّهوات.

إنَّ معرفة مذاهب الباطل معوقٌ عند قومٍ ودافعٌ للحقِّ عند آخرين، ولذلك ينهى غير الراسخين في العِلْمِ من النظر في كُتب الضلال والبدعة والكفر، وخاصةً ما كان من الدقائق الخفية، لأنها تشتبه عليهم ولا يعلمون ميزان الحقِّ فيها، وأما الراسخون في العلم فإنَّ معرفتهم بها يزيدهم بصراً بالحقِّ الذي أوحى الله تعالى به إلى رسوله لما يعلمون من غلطها وفسادها من جهة العقل الفِطري قبل معرفتهم بمخالفتها لدين الله تعالى وشرعه، والبعض يظنُّ أنَّ مجرد أنْ يكون المرءُ فقيهاً بالمعنى الاصطلاحي، أي حافظاً لمتُون الفقه ومذاهب العلماء فيه وأدلتهم كافٍ لبصره وفي معرفة الباطل ومذاهبه، وهذا غلطٌ جليٌّ، لأنَّ الباطل في كثيرٍ من أقواله وفي زماننا لا يُصارع الحقَّ في مسائل الفقه، ولا في مسائل الغيب والتصور إنما صِراعه في قضايا الحياة والواقع وتصوراته حولهما، أي بين أنْ يكون ربَّانياً عبداً مُتبعاً أم أنْ يكون حراً من هذه العبودية مُتبِعاً لهواه.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾.

---

[1] سورة النجم، الآية: ٢٣.

[2] أَيْ مُلَطَّخٌ.

هذه هي سِمَة حُجَجِ القرآن، فهي حجة الحقيقة الواضحة الجليَّة القاطعة، ولا تبعد الناظر إلى مهاوي الفكر التي تخفى عليه، لأنَّ مثل هذه الحُجج وإنْ أوهمت العلميَّة إلاَّ أنه لا تقطع، ولا تنشئ اليقين، ولما كانت قضايا القرآن يقينيَّة فأدلتها قاطعة للمُخالف فكراً ونفساً.

هؤلاء قالوا وفعلوا، قالوا مقالة الكفر كما سمَّاها القرآن قبلاً، وفعلوا بأنْ قعدوا، وقولهم: ﴿**لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ**﴾ أي ما هُزموا لأَّن هذه مقالتهم، إذ أنهم أشاروا بعدم الخروج إلى أُحد، فكانت حُجة عدم الخروج ليس اختياراً للسبيل في القتال، هذا السبيل الذي يحقق الأفضل والأنجع في المعركة، بل سبب اختيارهم للقعود وعدم الخروج إلى أُحد هو مخافة القتل والموت.

كلّ الحوار في ظاهره قبل المعركة وبعدها حوارٌ علمي، والقرآن يكشف باطنه، ويُعرِّي خوف أصحابه من الموت، مع أنَّ اختيارهم لطريقة المعركة هو نفس اختيار النَّبيِّ ﷺ وبعض أصحابه، ومع أنَّ بعض الأصحاب بعد المعركة تساءلوا: أنَّى هذا؟. إلاَّ أنَّ البواطن تختلف فاخْتُلِفَ الحُكم، والضابط بين الفريقين هو الفِعل، فإنَّ الذين خالفوا في الرأي بعدم الخروج خرجوا مع المؤمنين لما استقر الأمر على النفير وقتال قريش خارج المدينة، ولم يقعدوا كالمنافقين، ثمَّ لما حدث ما حدث كان سؤال المؤمنين: لِمَ أُصِبْنَا؟ وكان موقف المنافقين: لقد أُصِبْتُمْ بسبب خروجكم وعدم قعودكم في المدينة، فسؤال المؤمنين عن الأداء والفعل كيف هو، وسؤال المنافقين تعيِّيراً وتخذيلاً وإرجافاً.

لقد كان موقف المنافقين مُنْصَباً على الخوف من الموت، والجهاد في سبيل الله تعالى بسببه، فهو إرجافٌ ضدَّ الجهاد، وموقف المؤمنين والخلاف بينهم يدور داخل الجهاد كيف نُؤَدِيهِ؟ وكيف نُمَارِسُهُ؟ ما هي الطُرق السديدة لإصابة هدفه من النَّصر؟.

الذين يريدون إيقاف الجهاد تحت أيَّ حُجةٍ من الحُجج تحت دعوى المصلحة حيناً، وبإبراز بدائل وهميَّة حيناً أُخرى هم في صف النِّفاق، علموا ذلك أم لم يعلموا، وكشفوا ذلك من أنفسهم أم لم يكشفوا، فإنَّ النِّفاق يتخللِ في القلوب خفاءً دون أن يعلمَ أصحابه عنه في صورٍ كثيرةٍ، وفي صورٍ أُخرى يكون موقفهم إتباعاً للمنافقين وألاعيبهم دون أن يعلموا سوء مقاصد مَن زيَّنَ لهم هذه الأهواء والأفكار، والعاصم من ذلك هو إتباع الكتاب والسنَّة، وسيرة الصالحين على وجهٍ واضحٍ، وبفطرةٍ سليمةٍ من التعمق المزعوم الذي يُردده زاعمُو الوعي والسياسة والفكر، فالواقع في كلِّ زمانٍ هو نفس الزمان، وأقسام النَّاس فيه هي طريقة الصَّحابة والتابعين، وليس طُرق الأغيار ومذاهب الباطل التي انتشرت كالفطر في زماننا هذا، ولذلك فالجهاد في سبيل الله ليس اختيار العوام وقليلي الفكر والنظر، بل الجهاد في سبيل الله تعالى هو أمر الله، والعاملون به هم عباد الله وأولياؤه، وهم الذين يحققون الأثر في الواقع والتاريخ، وأما غيرهم فهم يَلُوكُونَ الكلام الكثير والكبير لكنه الفارغ، وسيبقون دوماً على هامش الحياة يبكون ضيَّاع حقوقهم التي يستحقونها أنهم الأئمة، وسيعيشون أحلام الفلاسفة أنَّ العوام لا تصلحهم إلاَّ الأفكار السهلة الساذجة، وأما هم فهم لطينة أخرى

ومدن «فاضلة» ليست الأرض موطنها، وستجري الحياة والتاريخ لمن آمن بالقرآن وعمِلَ به سواء أدرك حِكمته «وهي مرتبة الصَّحابة» أو لم يُدركها إلاَّ بكونه عبداً لله تعالى يعملُ بما يحققه له إرضاء الله ودخول الجنَّة.

لذلك نرى المجاهدين في زماننا هم أهل الفِطر السليمة، وأهل الغِيرة على الدِّين والعِرض والأرض، وأهل الكرم والشَّجاعة، وهم ألْيَنُ النَّاس على المسلمين، وأغلظُ النَّاس على أعداء الله تعالى وأعداء الدِّين، وأما غيرهم فإننا نراهم من أقسى النَّاس قلوباً لمصائب المسلمين، إذ تعرض عليهم الويلات التي تقع على الأُمَّة، فلا تحرك فيهم ساكناً لكلمة يقولونها، ولا تدفع أقوالهم لموقف يقفونه، فشتان بين الحالتين، فالله يحكم بينهما يوم القيامة.

لِيُراجع الشانئون والمُخذلون أنفسهم، ولِيُعِيدوا قراءتهم لكتاب الله تعالى، ولِيُكثروا النظر فيه، والتنعم بآياته فقد ذكر الله أمرَ المعرضين عن تدبره في موضعين؛ كلاهما حديثٌ عن المنافقين، وفي الموطنين في معرض الجهاد في سبيل الله تعالى؛ **أولهما** في سورة «النساء» يقول الله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾** ﴾[1].

قالها الله تعالى في سياق قضية الجهاد والمنافقين بدءاً بقوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾** ﴾[2]، إلى قوله تعالى: ﴿ **فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾** ﴾[3]، وإنه سياق قرآني يُعالج قضية المنافقين مع الجهاد في سبيل الله تعالى.

وثانيهما في سورة «محمد»، يقول الله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾[4]، وسورة «محمد» هي سورة «القتال»، لأنَّ الجهاد هو موضوعها الرئيسي، وسياق الآية قوله تعالى: ﴿ **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾** ﴾[5]، إلى قوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾** ﴾[6]. وهو غير السياق، يعالج قضية النِّفاق مع الجهاد في سبيل الله.

---

[1] سورة النساء، الآية: ٨٢.
[2] سورة النساء، الآية: ٧١.
[3] سورة النساء، الآية: ٨٤.
[4] سورة محمد، الآية: ٢٤.
[5] سورة محمد، الآية: ٢٠.
[6] سورة محمد، الآية: ٣١.

فاختيار الجهاد هو امتحان الإيمان، والإيمان به هو وعيٌ ناشئٌ عن التدبر في كتاب الله تعالى بفعلٍ مهتدٍ ونفسٍ تحررت من أهوائها، وترك الجهاد والإعراض عنه وتزيِّين طُرق الباطل دونه ومنشؤه النِّفاق إما إحالةً وإما إتباعاً وجهلٌ بكتاب الله تعالى وعدم التدبر فيه.

﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

هذه القاعدة القرآنية هي عينُ ما قاله الحُكماء: أنَّ الموت وإن تعددت أسبابه فإنه واحدٌ، وهروب المرء من أحد أسبابه لا يعني أنه لا يأتيه، ولا يسع المرء أن يدفعه إن جاء وقته، إذِ الموت قدرٌ لا مهربَ منه، فهو «كتاب» كما تقدم من قوله تعالى، أي لا مفر منه، قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾[2]، فالمرء قد يسعى للموت ولكن لا يمكن له أن يدفعه.

نرى المُنافقين في موقعة أُحد يدينون الجهاد والخروج إليه أنه سبب الموت، ونراهم في سورة «النساء» يُدِينُونَهُ لأنه سبب المصائب كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾[3]. فالمُنافقون ربطوا ما يحل بهم مِنَ البلاء، وهو بلاءٌ متعددٌ بسبب الجهاد في سبيل الله، فمنه قتل الأحباب، ومنه ذهاب الأموال وخراب التجارة والزراعة، ومنه تخطف المشركين لهم في غدرهم ورواحهم في الأرض، وغير ذلك، أقول قد ربط المنافقون هذا كلّه بسبب رسول الله ﷺ وجهاده للمشركين، وهذا صنيع المنافقين في كلِّ زمانٍ، وهمُ اليومَ كُثُر، وما يقولونه هو عينُ ما قاله المُنافقون لرسول الله ﷺ، يقولونه للمجاهدين في سبيل الله تعالى، والله يرد عليهم بقوله: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾، لأنَّ الخير نعمةٌ والبلاء محنةٌ وكلاهما ابتلاءُ الله تعالى لعبيده.

وقد ذكرتُ سابقاً ضرورة بيان ما فصلت سورة «النساء» عن الجهاد والمنافقين، إذ فيها أجوبة كثيرة على واقع المسلمين اليوم، وكشفٌ لمواقفهم من الجهاد والمجاهدين.

إنَّ هذا الجواب القرآني لحَجة المُنافقين الواهية قد تقدم أنه إيصالٌ للحقيقة من أقرب طُرقها، وهو جوابٌ يلجم الخصم ويقطع مقالته لأنه يحيل إلى الواقع لا للتجريد الذهني فقط، ذلك لأنَّ فضاءات القول لا تحدها ضوابط، وكل المحاولات لوضع منطقٍ عقليٍّ جامعٍ للبشر باءت بالفشل، وما قيل عن منطق أرسطو تبيَّن أنَّ الكثير من كُلياته غير يقينيَّة، ولا تصلح مِقْيَاساً لما يقوله النَّاس ويَدَّعُونَهُ، هذا مع أنَّ الكثير منه كذلك لا طائل تحته، أي أنه يُعالج اليقينيات الفِطرية بأدلةٍ مُوهَمَةٍ تُضعفُ النتائج بدل إثباتها، والحقّ في هذا طريقة القرآن وهي أقرب الطريق للحقِّ، وفِطرية المقدمات، ومع

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٣٤.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٨٥/ سورة الأنبياء، الآية: ٣٥/ سورة العنكبوت، الآية: ٥٧.

[3] سورة النساء، الآية: ٧٨.

سِمَة التحدي لأنها ترجع للواقع أكثر من التصورات الذهنيَّة، ومنكر الحقائق الفِطرية وسُنن الواقع لا يستحق النِّقاش بل يُوجب الحُكْمَ الشرعي، وهذا مُراد القرآن في خُلاصته، إذ يُطلق الحُكم على المُخالف، ولا يُعْطِيهِ حقَّ الخلاف، ولا يعذره كما يفعلُ اليوم بعض من يتسمى بالمفكر الإسلامي وهو يعذر الكافر ويزعم أنَّ له وجهة نظر تستحقُ البحث والمُراجعة، وأنَّ شبهاته في إعراضه عن الإسلام عذرٌ له عن الإيمان والإسلام.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾[1].

لقد انماثت الصِّعاب، وانجلتِ الغَمرات، وزالتِ الآلام وعاد المؤمنون إلى ديَّارهم الأُولى، ومنازل أبيهم آدم عليه السلام التي أُخرج منها، وآب المُتعبون إلى دار النَّعيم، وحطوا رِحالهم في دار القَرار فلا زوال.

خاتمة غزوة أُحد هي خاتمة الحياة بالنسبة للمؤمنين، إذ تُلقي خاتمة القصة لتلك الإرادة الإلهيَّة في الغزوة مع خاتمة الصادقين الذين بلغوا أعلى مراتب الرضوان والقبول، فآواهم الكنف السابغ والنِّعمة التي غرسها الرحمن بيده وجعل فيها: **مَا لاَ عَينٌ رأتْ، وَلاَ أذنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**[2].

هذه الخاتمة التي هرب منها الجاهلون ومرضى القلوب والمنافقون، وخوَّفوا المؤمنين منها، وأرجفوا عليهم بأنها عاقبة جهادهم ونفيرهم، فيا لها من خاتمة مسحت فيها الرحمات، وكرز المؤمنون فيها إلى ديَّارهم وهم يقولون: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾[3].

لقد كانت وما زالت قضية المنافقين والمرضى والمُرجفين مع الجهاد وهي قضية التكاليف، وأعلى هذه التكاليف هي قضية الموت فجاءت هذه الآيات لتختم على هذه القضية في عالم الغيب، ولِتُعِيد الفارقَ بين ما يعيشه الباقون في الدُّنيا وبين الذاهبين منها إلى الآخرة، فجاء النهي الربَّاني بقطع الظنون أنَّ القتلى في سبيل الله تعالى أمواتٌ، بل هم أحياءٌ، وحياتهم حقيقية إذ تجري عليهم أرزاقهم التي يتنعمون فيها، وبالتالي هم فرحون، لا تنغيصَ عليهم هناك، فلا ألم ولا تعب ولا خوف، فرحٌ مُطْلَقٌ دائمٌ لِما يرون من فضل الله الذي أسبغه عليهم.

---

[1] سورة آل عمران، الآيات: ١٦٩-١٧١.

[2] البخاري في «كتاب بدء الخلق» باب ما جاء في صفة الجنَّة وأنها مخلوقة. حديث رقم: ٣٢٤٤. أطرافه في: ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨. ومسلم في «كتاب صفة الجنَّة ونعيمها» حديث رقم: ٢٨٢٤.

[3] سورة فاطر، الآية: ٣٤.

هذه الحياة الأُخروية عند ربِّهم، وهي عندية القُرب، وعندية الاحتفاء، وعندية الرضا، وعندية الحبِّ والقبول، لأنهم رحلوا من عندكم إلى عنده سبحانه وتعالى، وقاعدة أهل الذوق تقول: «الجار قبل الدار» وهي في قوله تعالى على لسان امرأة فرعون: ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾[1]. فطلبت جِواره قبل الدَّار، سبحانه وتعالى، فهذه قلوب المحبين، والمُخبتين وأهل المعاني لا أهل الرسوم والأجسام.

لقد تحدث المنافقون عن الموت، والآية جعلتِ الموت قنطرة حائلة، وعقبة مانعة للوصول إلى الجوار الربَّاني، فلابدَّ من تجاوزها، هذا التجاوز ليس بمجرد الموت بل بتجاوزٍ له سِمَةٌ خاصةٌ ونوعٌ فريدٌ هو القتل في سبيل الله تعالى، وحين تستقر القلوب مطمئنة وهي عالمة بهذا المصير وهذه العاقبة فلابدَّ إذاً من اقتحامها، وهي مع هولها لقوله ﷺ: «**كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً**»[2]. إلاَّ أنَّ الشهيد لا يجد من الألم إلاَّ كما يجد الإنسان من قرصة الذُّباب، ثم في لحظة تستقر روحه «**فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ. لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ. ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ**»[3]. ولها رزقها في جِوار الرحمن سبحانه وتعالى.

إنَّ قوله: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾. جاءت بعد كلِّ هذا الحديث عن الموت وحقيقته، وقدره، وأنه كتابٌ ولا دافعَ منه، وغير ذلك حتى إذا انقطعت حُجج المُخالفين جاءت هذه الآية لتقول لهم: ومع ذلك فما أخبرتكم به من حقائق لا دخل لها في ما وقع لكم من شهداء في غزوة أُحد، لأنَّ هؤلاء ليسوا كذلك بل هم أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون.

هي آية تصنع حاجزاً رقيقاً بين عالمين، عالم الحياة وعالم الحياة كذلك، ولكن هنا بعد الموت حياة عند الله، وأنتم في حياة أُخرى عند أنفسكم.

هنا بعد الموت حياةٌ فيها رزقٌ بيَّنَتْهُ آية أُخرى في قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[4]، فكلُّ ما في الدُّنيا موجودٌ في الآخرة، الأسماء هي الأسماء ولكن الحقائق مختلفة، وههنا رزقٌ مقطوعٌ وفي الآخرة ـ **دَآئِمٞ** ـ كما قال تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾. هي أشدُّ من قوله تعالى في سورة «البقرة»: ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾[5]،

---

[1] سورة التحريم: الآية: ١١.

[2] النسائي في «السنن»، «كتاب الجنائز» باب الشهيد. حديث رقم: ٢٠٥٢.

[3] مسلم في «كتاب الإمارة» باب في بيان أنَّ أرواحَ الشُّهداء في الجنَّة وأنهم أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون. حديث رقم: ١٨٨٧.

[4] سورة البقرة، الآية: ٢٥.

[5] سورة البقرة، الآية: ١٥٤.

فإنَّ هذه الآية في «آل عمران» نهيٌّ عن ظنِّ الموت والثانية نهيٌّ عن القولِ، والنهي عن الظنِّ أشدُّ ولا شكَّ، والله أعلم ما نزل أولاً، إذ يحتمل أنَّ آية «البقرة» نزلت بعد آية «آل عمران» ويحتمل الآخر فلكلٍّ وجه، وإنْ كان الأكثرون على أنَّ «البقرة» أول ما أُنزلت في المدينة ثم «آل عمران» فإنْ صح هذا فالتوجيه بيِّنٌ أنَّ النهي ترقى من الأدنى فالأشد.

أما قوله: ﴿ **وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾. ذلك بأنَّهم لما حطوا رِحالهم في الجنَّة وتنعموا فيها، فأصابهم الفرح الشديد والغبطة العميمة «**قَالُوا: يَا لَيْتَ إِخْوانَنَا يَعْلَمُونَ بِمَا صَنَعَ اللهُ لَنا، لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ وَلاَ يَنْكُلُوا**[1] **عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ»**»[2].

فيا عجباً أهل الأرض يبكون موتاهم وأهل السماء يتمنون أنَّ إخوانهم يلحقون بهم، ويُسْرِعُونَ في اللحوق، ذلك بأنَّ ما وجدوه من النَّعيم هو خيرٌ مما كانوا فيه، وأهل الأرض يرون أنَّ إخوانهم قد ماتوا، وتلك مُفارقةٌ تدل على ضُعْفِ هذا الإنسان في هذه الدُّنيا، وقِلَّة معرفته بحقائق الغيب، وبصر عالم الغيب، وأهله من المؤمنين.

إنها دعوة ربَّانيَّة أنْ أقبلوا على الموت، وادفعوا أنفسكم للشهادة في سبيل الله تعالى حتى تبلغوا هذا المقام الغيبي الحقيقي، وهي آياتٌ قاطعةٌ لكلام الُمرجفين والمرضى أنَّ المجاهدين يلقون بالشباب إلى الموت، ويذهبون بهم إلى المجهول، ويُفسدون عليهم مستقبلهم، فها هو الموت حياة، وها هو المجهول نوراً وضياءً وبصيرةً، وها هو المستقبل في جِوار الرحمن وفي أحضان الجنان، فلا نامت أعين الجُبناء.

هذه الآيات علامة وصول وصريخ حقٍّ حين ترفع شواهق بناء الدُّنيا، وتتزيَّن عرصاتها بالشهوات الزائلة، ويقف الُمرجفون قُطاع طريق يسلبون إرادة الموت والشهادة، فتصرخ فيهم: **هناك إخوانكم يُنادونكم أنْ تعالوا هنا حيث لا خوفَ ولا حزنَ، فلا خوفَ مِنْ قادمٍ ولا حزنَ على فائتٍ، فإنْ خِفْتُمْ زوال النِّعم فلا زوال، وإنْ خِفْتُمْ تقلبَ اليُسْرِ إلى العُسْرِ فلا تقلب، وإنْ خِفتم استبدال السعادة فلا استبدال، وإنْ خفتم نقصَ الرزق فلا نقصَ، فكلّ ما أنتم فيه دائمٌ مُقِيمٌ، ثم لا حزنَ أن فاتكم الأولاد والأزواج، ولا حزنَ أن فاتتكم الشَّهوات لأنَّ ما هم فيه أعظم وأحلى وأسبغ من كلِّ ما فاتكم في الدُّنيا، فلا خوفَ ولا حزنَ إذاً.**

هي صريخٌ غَيْبيٌّ للإرادات حين تكسل، وللنُّفوس حين تضعف وتخمل، هيا أقبلوا فلمْ يبقَ إلاَّ القليل، إنما هي ضَرْبَةٌ بالسيف ويحط بكم المقيل في جِوار الله سبحانه وتعالى حيث الأهل والنَّعيم.

---

[1] «يَنكلوا» مثلثة الكاف، أي يجبنوا، ويتأخروا عن الجهاد.

[2] أبو داود في «كتاب الجهاد» باب في فضل الشهادة. حديث رقم: ٢٥٢٠. والطبري، حديث رقم: ٨٢٠٥. والبيهقي في «السنن الكبرى» جماع أبواب السير، باب فضل الشهادة في سبيل الله عز وجل. حديث رقم: ١٨٨٩٤. والحاكم في «المستدرك» حديث رقم: ٣٢١٥. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأحمد في «المسند»، حديث رقم: ٢٣٨٨ و٢٣٨٩. وإسناده صحيح.

لقد جاءت هذه الآيات جواباً لسؤال الشُّهداء وهم في الجنَّة لربِّهم أن يعودوا للدُّنيا حتى يُقاتِلوا مرةً أخرى فَيُقْتَلُوا في سبيل الله مرات[1]، لِما رأوا من أجرِ الشَّهادة ومُتْعَتِهَا، ولكن مضى قَدر الله أنْ لا يعودَ مَن يذهب، ولا أقول مَن يموت، لأننا نُهِينَا أن نقول عن القتلى في سبيل الله تعالى أمواتاً.

هذا القتل في سبيل الله تعالى الذي يهربُ منه النَّاس هو أُمنية الشُّهداء وهم في الجِنان، وهو سؤالهم لربِّهم، فعجباً لهذا الأمر الغريب، حيث تتقابل الأوهام أمام الحقائق، وتنهار التصورات الجاهلة حين تشرق عليها آيات القرآن الكريم.

هذه الآيات تصفع المُستهزئين بالمجاهدين أنَّهم يحملون ثقافة الموت والقتل، والحقُّ أنهم هم يحملون الجهل والخور وحبَّ النخامة، وأما المجاهدون فهم أهل القرآن، وهم يحملون حبَّ جِوَارِ الرحمن واللُّحوق بالصَّحابة الأخيار، ويركضون إلى منزل أبيهم الأول آدم عليه السلام، فخُذُوا أنتم مِنْ جَنَاحِ البَعُوضَةِ ما تَشْتَهُونَ، وتَنَافَسُوها كما تحبون، فوالله لن نحسدكم على شيءٍ منها، لا على ذهبها ولا على سُلطانها وقُصُورِها، وإنَّ ما نسعى إليه فقط أنْ نموتَ شهداء، وحينها ستكون البُشْرَى بِنِعَمِ الله تعالى وفضله.

إنَّ هؤلاء الشُّهداء لهم بشارتان دوماً؛ **بشارتهم الأولى**: حين يعلمون بأنَّ أخاً لهم قادمٌ على الطريق التي سلكوها من قبل، فيعرفون، ذلك لأنَّهم طلبوا من الله تعالى أن يُبَلِّغَ إخوانهم مِنْ بعدهم بما أصابوا من النَّعيم والفضل ودخول الجِنان، فأنزل الله هذه الآيات استجابةً لطلبهم، فيتم الإعلام بذلك، فإنْ جاء الخبر أنَّ أحدهم آتٍ فرحوا بذلك فاستبشروا بأنَّ أخاهم في مقامِ عَدَمِ الحُزن ولا الخوف.

وأما البشارة الثانية: فهي نِعَمُ الله تعالى عليهم، وفضله العميم الذي يُصِيبُهُمْ غَدْوَةً وعَشياً، وما هذا الذي يرونه إلاَّ بسبب أعمالهم، فهي أُجورهم التي يُوفيها الله لهم ويزيدهم من فضله، وهذا لكلِّ مؤمنٍ سواءٌ مات شهيداً أو محباً للشَّهادة أو مات على فِراشه ذلك بأنَّ الله لا يُضيع أجر المؤمنين.

وهكذا تفترقُ الحالتين عند وقوع الشُّهداء؛ أهلهم في الدُّنيا يبكون، وإخوانهم في الجنان يفرحون، فبكاء أهلهم للفِراق، وبكاء إخوانهم في الجِنان للقاء، وبكاء إخوانهم حزناً عليهم، واستبشار

[1] حدّثنا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ الْحِزَامِيُّ و يَحْيَى بْنُ حَبِيبِ بْنِ عَرَبِيَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا مُوسى بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ كَثِيرِ الأَنْصَارِيُّ الْحِزَامِيُّ. قَالَ: سَمِعْتَ طَلْحَةَ بْنَ خِرَاشٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، يَقُولُ: لَمَّا قُتِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ، يَوْمَ أُحُدٍ، لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ: **«يَا جَابِرُ أَلاَ أُخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ لأَبِيكَ؟»** وَقَالَ يَحْيَى فِي حَدِيثِهِ، فَقَالَ: **«يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟»** قَالَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ عِيَالاً وَدَيْناً. قَالَ: **«أَفَلاَ أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟»** قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: **«مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَداً قَطُّ إِلاَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ. وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحاً.** فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً. فَقَالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لاَ يَرْجِعُونَ. قَالَ: يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾** ﴾».
ابن ماجه في «سننه»، حديث رقم: ١٩٠ في «المقدمة» باب فيما أنكرت الجهمية. قال السندي: «ليس هذا الحديث من إفراد ابن ماجه، لا متناً ولا سنداً، أخرجه الترمذي في «التفسير» ثم قال: هذا حديث حسن غريب. لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم. رواه عنه كبار أهل الحديث».

إخوانهم فرحاً بهم، وأما هم فسيكونون سلفاً لمن يأتي بعدهم كما كان إخوانهم سلفاً لهم لتتصل حلقة الشهادة فلا تنقطع، ولِتَدُومَ رحلة الشُّهداء إلى الآخرة، وأما غيرهم فيموتون وهم كارهون للموت، خائفون من عذاب الله تعالى كما قال تعالى عنهم في سورة «الشورى»: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

بهذه الآيات التي وصف الله موازين جديدة للقتل في سبيل الله تعالى، وأخبرت عن عالمٍ عُلْوِيٍّ غَيْبِيٍّ لا نراه ولا نشعرُ به ولا نعلمه.

بهذه الآيات التي كشفت عن عُرْسٍ سَمَاوِيٍّ بسبب القتل في سبيل الله، حيث تُقَامُ فيه أهازِيجُ الاستبشار والفرح وتوزيع النَّعيم والفضل الربَّاني الواسع.

بهذه الآيات التي تُفْرِحُ القلوب الحزينة لِفِرَاقِ الأحبة والإخوان، وتُبْكِتُ وَتُؤْلِمُ الْمُخذلين والْمُعيرين بكثرة قتل المسلمين في غزوة أُحد.

بهذه الآيات التي جعلتِ القتل في سبيل الله حياةً حقيقيةً، وفي جِوار الرحمن، ويُطافُ عليهمُ الرزقُ فلا ينقطع.

بهذه الآيات كانت خاتمة رحلة غزوة أُحد، حيث كانت الصِبغة الإلهية بعُلُومِهَا وحقائقها وموازينها، وتقريراتها وأحكامها.

هذه الصِبغة الإلهية الخاصة حيث سرت في النُّفوس والقلوب والعقول والمشاعر، فلم ترو الخبر الأرضي فقط، بل خبر السماء كذلك، ولم تكشف بدن المعركة وظاهرها فحسب بل بواطن النَّاس ومراتبهم ومواقفهم حيث يكتمون ويخفون.

لقد اكتملتِ الرحلة مع صِبغة الله تعالى وهي تُدَافِعُ عن الجهاد وأهله، وترفعُ شأنهم، وتَغْفِرُ لِمُخْطِئِهِمْ، وَتُكافِئُ شَهِيدَهُمْ، وَتُقَوِّي ضَعِيفَهُمْ، وَتُرَمِمُ ثَلَمات السيوف بعد ضراب المعارك.

هي صِبْغة الله تُعري الْمُخذلين وزاعمي الفكر حيث يقيسون النتائج بالماديات الدُّنيويَّة لا بالأبنيَّة الأُخرويَّة، وحين يقيسون الهزيمة بعدد الشهداء، فتجعل هذه الصِبغة الإلهية الهزيمة العُظمى أنْ يرتدَّ المسلم عن إيمانه ودينه وصِلته بالله تعالى.

هذه الصِبْغة التي لا يمكن شرحها إلاَّ بأن تُتْلى هي، لأنَّ تلاوتها تفسيرها، فإنها هي فقط حين تُتلى تَدْمَعُ لها العُيون وتَقْشَعِرُّ لها الجُلود، لأنَّها كلمة الله تعالى، ولأنَّها غزوة أُحد بصِبْغَتِهَا الإلهية.

لقد كانت غزوة أُحد منارةً يُسْرِي نُورها في كلِّ زمانٍ منذ أنْ كان الأنبياء يُقاتلون هم وأتباعهم فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ.

---

[1] سورة الشورى، الآية: ٢٢.

غزوة تتخلل الحياة والجماعات المُؤمنة فيقتبس من هديها، ويجتني من جناها المؤمنون في كلِّ موقعةٍ وكلِّ حادثةٍ، إذ ستتخذ آياتها رداً على المُشككين في منهج الحياة الذي يرتضيه المجاهدون، فيعملون به ويحيون به حياة الأنبياء المُقاتلين المجاهدين.

آياتٌ تُعالجُ الداخل الإسلامي حين تُصَابُ الجماعة المُؤمنة بمصيبةٍ وهَزَّةٍ، فيتخذها المُخذلون حجةً لهم لضربِ الجهاد والمجاهدين، وكَشْفِ عَوْرَاتِهِم، ومَدْحِ مَنَاهِجِهِم البَاطلة، فتأتي هذه الآيات لتكشفَ سَوْءَات نُفُوسِهِمْ هُمْ، وتمدحَ المجاهدين، فتتحول كلّ خِصَالِهِمْ إلى نورٍ وفضيلةٍ يتسابقُ إليها المُؤمنون بالله واليوم الآخر.

إنَّ الجماعة المُؤمنة، وفئةَ الجهاد وأهله حاجتهم لهذه الغزوة كحاجتهم للنَّصر الذي لاقوه في بدر، فللنَّصر فضيلة، ولغزوة أُحد فضائل لا تقل عنها، بل قد رأينا أنَّ رحلة القرآن مع غزوة أُحد أطول وأكثر عِبرة وتربية.

لقد علمتنا غزوة أُحد بصِبْغَتها الإلهية أنَّ الجهاد في سبيل الله ليس اختياراً لأنَّه يحقق النَّصر على الأعداء، ولأنَّه تشفى به صدور المؤمنين، بل الجهاد خيارُ المؤمنين تنفيذاً لأمر ربِّهم إذ حاجتهم إليه في كلِّ حالٍ وعلى كلِّ منقلبٍ سواء تحقق به النَّصر أو الشَّهادة في سبيل الله، فإنهما حُسْنَيَانِ لا سبيلَ لهما إلاَّ بالجهاد في سبيل الله تعالى.

الذين يتركون الجهاد لأنَّه طريقُ الموت، فالموت فيه شهادة في سبيل الله تعالى، أو لأنَّه درب الآلام فإنَّ الآلام والمحن تكشفُ المُؤمن من المُنافق، أو مخافة حصول الذُّنوب كالفِرَارِ مِنَ الزحف فإنَّ الذُّنوب فيه للمؤمنين مغفورة إنْ عادوا إلى جادته وهديه وسبيله.

لقد كشفت صِبْغة الله لغزوة أُحد كلَّ بواطن الكلمات الجميلة الخادعة التي يُطلقها خصوم الجهاد والمجاهدين إذْ عَرَتْهُم من عقلانيتهم المزعومة، ومصالحهم الموهومة، وجعلتهم أمام حقائق نفوسهم أنَّهم يحبون الدُّنيا ويخافون ويكرهون الموت في سبيل الله.

لقد آب النَّاس إلى منازلهم، وجليت الحقائق من لدن حكيمٍ خبيرٍ، وانسابت بعد أنْ فصلت كلمات الله تعالى لغزوة حمراء الأسد الآتية حكمة الله في خُلاصة غزوة أُحد بقوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1].

إذاً ستبقى قِسمة أُحد للمؤمنين ما كان الزمان، كما ستبقى قِسمة بدر لهم كذلك، يتقلبون بينهما ليحيى من حيَّ عن بيِّنةٍ ويهلك من هلكَ عن بيِّنةٍ، إذ لولا الجهاد والهجرة لما عرف النَّاس الفرقَ بين المُؤمن والمُنافق، فالبواطن لا يطلع عليها البشر إلاَّ بعد ظهور أعمال الإنسان، والإدعاءات كثيرة،

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٧٩.

والألسنة تُتْقِنُ الليَّ والكذبَ، فهنيئاً لأهلِ الجهاد في كلِّ زمانٍ لأنهم يُثْبِتون دوماً أنهم يحبون الله ورسوله، ولذلك فلهم أجرٌ عظيمٌ.



غزوة حمراء الأسد

عندما تكون الأُمَّة حيَّةً بقيمها ونفسيَّتِها، واثقةً بربَّها، ثابتةً دائبةً لتحصيل مقاصدها فإنَّ العوارضَ لا تقضي عليها، بل تُصبح هذه العوارض القوامس مصدر تحدي، وباعث استجابة للنهوض والحياة، وهكذا كانت أُمَّة الإسلام بقيادة النَّبيِّ ﷺ، فحصل لها النَّصر والفتح ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً، فلما حصل ما حصل من غزوة أُحد، وانصرفَ كلٌّ فريقٍ إلى موطنه، وبدأ تقيِّيم النتائج، اهتزت ثقة المشركين بهذا النَّصر، إذ لم يروا فيه تحقيق أهدافهم فقالوا: «**لاَ مُحَمَّدًا قَتَلْتُمْ وَلاَ الْكَوَاعِبَ أَرْدَفْتُمْ شَرٌّ مَا صَنَعْتُمْ**»[1] فأرادوا الرجوع إلى المدينة ليُجهزوا على الإسلام كلِّه، فلما سمع رسول الله ﷺ خبرهم، انتدب المسلمين للخروج، وأذن مؤذن أنْ لا يخرجنَّ أحدٌ إلاَّ من حضر موقعة أُحد[2]، فخرج رسول الله ﷺ بمن معه، وأغلبهم في جِراحاتهم حتى حمراء الأسد، فلما سمع أبو سفيان بخروج رسول الله ﷺ وأصحابه أصابه الوهن، وصرف النَّاس معه للخروج، وتوجهوا إلى مكة فكانت غزوة، ويحق لها ذلك، فهي غزوة الردع والحرب النفسيَّة، إذ استخدم كلّ طرف منهم قوة الإشاعة ضدَّ الآخر، فاعتصم المسلمون بربِّهم ضدَّ إرجاف إشاعات الكافرين، وأعملتِ الخدعة في المشركين عملها حتى تم النَّصر فيها، والنَّصر الحاصل هو أنْ صُرِفت وجوه الكافرين عن التوجه إلى المدينة.

غزوة حمراء الأسد هي صِراعُ إرادات، واختبارُ نفوسٍ بين فريقين خرج أحدهما منتصراً انتصاراً جُزئياً وآخر يعيش أزمة ترميم الذات وإعادة ترتيب الصف، فالأول واقع بين ضغطين، بين الحفاظ على الإنجاز وبين استثماره في خطوة قد تُذهب زهوة النَّصر ومكاسبه فآثر بسبب ضعفه النفسي وخور إرادته وتشتت أهدافه اختيار السلامة والهروب بما تحقق من كسب، وأما الآخر فهو أمام امتحان الإرادة والإيمان، ومنع الخصم من استثمار انتصاره، فأصرَّ بثقةٍ أشبه بالخيال أنْ يخرج بنفس الفئة التي أصابتها الجراح، حيث رفض دخول أي عامل مُساندٍ آخرٍ ليُبرهن أنَّ المعركة هي معركة نفوس لا أبدان، ومعركة إرادة لا أعداد، ذلك لأنَّ المصيبة التي وقعت في أُحد لم تكن بسبب قِلَّة العَدَد ولا العُدَد ولكن بسبب خطأ فئةٍ في تقدير موقفها، فالقيادة تريد أنْ تُثبت للجُنْدِ أولاً أنهم قادرون على تحقيق النَّصر إنْ ملكوا سلاح الإرادة والهمة والعزيمة، ليحصل لهم الثِّقة قبل غيرهم، فهم جنود المعارك الآتية دون سواهم.

---

[1] النسائي في «السنن الكبرى»، حديث رقم: ١٠٩٧٩. والطبراني في «المعجم الكبير» **بإسناد صحيح** عن ابن عباس رضي الله عنهما، حديث رقم: ١١٦٣٢. والهيثمي في «مجمع الزوائد»، حديث رقم: ١٠١١٣.

[2] تخلف عن هذه الغزوة جابر رضي الله عنه بعد أن أذن له رسول الله ﷺ بالبقاء بالمدينة.

ولذلك كانت غزوة حمراء الأسد غزوة فريدة من نوعها، فهي غزوة إعلام وإشاعة، ومعركة أسلحتها الإرادات والنُّفوس، فلم تتواجه فيه الأبدان، ولم يُضرب فيها بسيف، ولا حصلت بين الطائفتين أيّ مُواجهة مادية، وإنما انتصر فيها رسول الله ﷺ وأصحابه بسلاح الثقة بالله وقوة الإرادة واستعلائها على الجروح والآلام، والإقامة في ساحة الصِّراع، وقبول التحدي، فتجدد بهذه الغزوة مفهوم آخر للتولي الممقوت، إذ هو أوسع من مجرد ترك الساحة عند التقاء الجمعين والصفين، بل إنَّ التولي يكون كذلك حين تجيش سهام التخذيل والإشاعة داعية إلى عدم اللقاء، والخشية من الأعداء.

هي غزوة تابعة لأُحد من جهةٍ لأنها مُتصلة بآثارها، حيث تستعلي جماعة المؤمنين على الجراح وتقبل المُنازلة في وقت الألم والتعب، ولكنها كذلك غزوة مُستقلة لأنَّ لها أول مستقل ونهاية حاسمة خاصة بها إذ تحقق فيها النَّصر النفسي لجماعة المؤمنين، وهو نصر أكده القرآن أكثر من غيره في غزوة أُحد بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

الصِبْغة الإلهية لرُؤية غزوة حمراء الأسد ليس فيها إلاَّ المدح المُطلق للغُزاة المجاهدين من رجال أُحد، وكأنَّ في ذلك رد اعتبار لهم، إذ أعطتهم هذه الغزوة فرصة إثبات الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم في أي وقتٍ وعلى أي صفةٍ، وفيها معنى العودة عن هذه الخطيئة التي اقترفوها من المعصية في غزوة أُحد، سواء كان بترك الرُماة لأماكنهم أو بعدم استجابتهم لنداء رسول الله ﷺ وهم يُصعدون ولا يلوون، فهي موقفٌ يُعبر عن الفائدة العظيمة التي جنوها من ذلك الدرس الذي كلفهم الكثير، فحصلت لهمُ العِبرة والعظة وتمت الاستجابة للوعظ الإلهي العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[2].

كانت رحلة غزوة أُحد رحلة ألم، ومراجعة وتعليم، وفجأةً بعد هذا كلِّه تأتي هذه الآيات العظيمة في ثنائها، السابغة لمدائح إلهيَّة جليلة على نفوس العِباد والسائرين، فقد بدأت بوصفهم صُناعاً لحدث «الاستجابة» ولم تكن استجابة عادية في وضعٍ مريحٍ، ينطلقُ فيه صاحبه مفعماً بالقوة والإعداد، لكنها استجابة فريدة في تاريخ البشرية، وهكذا الإيمان، فإنه يصنع دوماً طفرات هائلة لا يعد لها الكفر وجنوده عُدتهم، إذ في لحظة غير مراقبة من فرعون يسري الصندوق في اليم يحمل موسى عليه السلام إلى مخدعه، ليستقر في مقره غافلاً أنَّ نهايته على يديه، وفي انعطافة حادة يُؤمن

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
[2] سورة آل عمران، الآيات: ١٧٢ـ١٧٥.

السحرة وتتغيَّر صنائعهم من خِداع البشر إلى هدايتهم، ومن رجاء العطاء المادي من يد فرعون إلى تحديه والاستهزاء بتهديداته وقضائه، فهذه حوادث الإيمان العجيبة حيث تقتحم استعدادات الكافرين، وتكسر حصونهم وترتيباتهم، وهكذا هنا حيث كانت آية الاستجابة لله وللرسول، فلا الأبدان ولا قُدرات أصحابها ولا المُقدمات كلها تؤذن بهذا القادم إعصاراً إلى حصون الكافرين واستعداداتهم، فهذه قاعدة لا كالقواعد، وسُنَّة لا كالسنن، حيث في لحظة واحدة تنبت الجَنَّة برعماً ويصبح البرعم شجرة باسقة ثابتة كثبات الجبال الشوامخ، فيعجب المراقبون ويتساءلون: متى تم كلّ هذا؟ والجواب: إنها صناعة الله تعالى.

لقد بدأت الآيات بهم، وبأجل خصالهم، عبيداً لله، ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ** ﴾، فقد تحركوا بوعيٍ وبإرادة وبعلمٍ، فهذه صفة الاستجابة مع القرح والألم، فاستعلوا على جِراحاتهم المُرهقة، وتحاملوا وهم يردفون بعضهم البعض خروجاً إلى لقاء عدوِّهم.

لقد وقع هؤلاء الرجال بين دعوتين: دعوة الله لهم والأُخرى إرجاف المُنافقين؛ وكانت دعوة الله لهم لبلوغ درجة الإحسان وتحقيق الأجر العظيم، فلا وعد إلاَّ إيَّاهما، وكان إرجاف المُنافقين أنَّ النَّاس قد أَتَوْكُمْ جَمْعاً لا يُرَدُّ، وجَيْشاً لاَ يُهْزَمُ، فأمامكم سيوف الموت وحِراب المنايا، فأَدْرِكُوا أنفسكم إدْرَاكَ من يخشى خشية الرُّعب والجبن والخور، لا خشية الإعداد والإتقان.

كانت موازين القِوى واضحة، ولا يمكن لمراقبٍ عسكريٍّ أنْ يؤمل مجرد نجاة هؤلاء المقروحين، فماذا يفعلون؟.

أيُهادِنُون القوم؟ أم يضربون في الأرض التيهاء فلا يُوصَلُ إليهم؟.

في هذه اللحظة سيقول الكثير: هذه عاقبة الاغترار، وتلك نهاية المُغامرين بأنفسهم وأهليهم ودولتهم الفتية حين يقذفونها في حسابات غير مدروسة، ويمارسون المقامرات على نفوسهم وأهليهم ودولتهم، فهم أهل النظر والفهم والدراسة حين يلعبون في داخل مربع المُشركين لُعبتهم، وبقواعد المُشركين، ظانين أنهم أهل فِطنةٍ وذكاءٍ، والحقّ أنهم فِئْرَان تجارب، ترسم لهم الأدوار من خلال اللوائح التي تمدد سيرتهم فلا يتخطونها، ويتعملقون وهم مجرد غُثاء، ويصرخون على صهوات خيولهم، لكنها خيول خشبية، ويدورون ويدورون ظانين أنهم قد قطعوا الأشواط الطويلة نحو أهدافهم لكنها دورات دابة الرحى تسير مكانها، لأنَّهم يتحركون ضمن خطة الخصم، ومن خلال قواعده، وعلى نفس مِنوال خطوط الطُول الذي فرضتها الجاهلية، وفي كلِّ مرةٍ يُوهِمُون أتباعهم ها قد وصلنا! لكنه السَّراب لا غير.

القتال في سبيل الله هو درب الإسلام، وهو درب الحقيقة، لا لأنَّ الدم محبوب، ولا لأنَّ الموت والقتل مقصود بل لأنَّ الحياة شعارها الألم، ونفوس الكافرين لا تستقيم إلاَّ بهذا، ولا يردعها إلاَّ الإرهاب كما قال تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ**

وَعَدُوَّكُمْ ﴾[1]، ولا يمكن لخصمٍ أن يضع وسيلة تخدم خصمه للقضاء عليه، فإنْ فعلَ فإنما هي إدخال للخصم في أحشائه ليتقوى به ويصبح له لا عليه، وهذه طبيعة كلّ الضلالات التي تستخدمها الجاهلية في صرف المسلمين عن منهجهم ودينهم، ولذلك فلا يصل هؤلاء إلى نهاية السباق إلاَّ وقد تعروا من كلِّ خصائص الإسلام وعوامل قوته.

لقد وصف الله في هاتين الآيتين أمرَ المؤمنين، القرح السابق وإرجاف المنافقين، فأما القرح فقد مرَّ عليه مروراً سريعاً، وأما الإرجاف فقد بسطه وفصَّله فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ ﴾. وقد ورد أنَّ القائل واحدٌ مِنَ النَّاس، وقد أفاد أهل الأصول من هذا أمراً جليلاً وهو أن يكون اللفظ عاماً والمُراد به الخصوص، فالقائل هنا واحد، قال السيوطي في «الإتقان»: قال الفارسي: «ومما يُقوِّي أنَّ المُراد به واحدٌ قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾، فوقعت الإشارة بقوله: «ذَٰلِكُمُ» إلى واحدٍ بعينه، ولو كان المعنى جمعًا لَقال: إنما أُولئكم الشيطان. فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ»[2] انتهى. لكن إطلاق كلمة «ٱلنَّاسُ» العامة على الواحد منهم في هذا الموطن له فائدة أُخرى وهي بيان أثر الكلمة في النُّفوس، لأنَّ الكلمة التي يُطلقها فَمٌ واحدٌ تسري في النُّفوس الكثيرة التي تسمعها ثم تتناقلها، وبذلك تُصبح هذه الكلمة هي كلمة النَّاس جميعاً، وهذا يُبيِّن أثر الكلمة وقُوتها وفاعليتها، وهي خصوصية لها لا يُشاركها في ذلك ثوبٌ ولا سيفٌ ولا مسكنٌ ولا مالٌ، فلو أطلقَ رجلٌ رمحه ضدَّ آخرٍ لَكان المُلقي واحدٌ والمُتلقي واحدٌ، لكن أنْ يُطلق الرجل كلمة فيسمعها الكثير ويتأثرون بها ثم يحملونها لغيرهم حينها يُقال بحقٍّ: قال النَّاس.

﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾، والعار والعيب في هذه الكلمة هو التخذيل والإرجاف إذ خوفوهم بكثرة الجمع ولم يَكْفِهِمْ هذا بل صرخوا فيهم: «فَٱخْشَوْهُمْ»، والله عزَّ وجلَّ أمر في آياتٍ قرآنيةٍ جليلةٍ بعدم خشية النَّاس فقال تعالى في سورة «البقرة» محذراً من إتباع الأغيار في التوجه لغير الكعبة: ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾[3]. وقال تعالى في سورة «المائدة» آمراً بني إسرائيل أن يحفظوا كتاب الله ويعملوا به: ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[4]، ذلك أنَّ من أسباب ترك العمل بالحقِّ هو الخشية من النَّاس لما يُهددون المسلمين به، وهي حجة اليوم عند التاركين للعمل بكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ ويصرخون كأسلافهم من الكافرين: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ

[1] سورة الأنفال: الآية: ٦٠.
[2] ذكره محمد أمين الشنقيطي في «أضواء البيان لإيضاح القرآن بالقرآن» الجزء الأول الصفحة ١٨٦.
[3] سورة البقرة، الآية: ١٥٠.
[4] سورة المائدة، الآية: ٤٤.

نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾[1]. فردَّ الله عليهم افتراءهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2].

وهذه اليوم ليست حُجة الكافرين فقط لكن صار يتلفَّع بها العاملون للإسلام، بل هناك من أكرمه الله تعالى بالتمكين منهم وترك العمل بكتاب الله والسنَّة خوفاً من الكافرين وطلباً لرضاهم وبقوله في مجامعهم وأديانهم الكُفرية الباطلة، ومثل هؤلاء لا ينصرون ولا يُعانون على عدوِّهم من الله تعالى، فقد قال سبحانه وتعالى في أمثالهم: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾[3].

فالخشيةُ من الكافرين تُضاد الإيمان، وهي سبب الخذلان والتحول من الحقِّ للباطل، وهي عند أهل اللغة خوفٌ يُصاحبه التعظيم لا خوف مجرد، ولذلك كان معناها عند ابن جرير الطبري: «فاحذروهم، واتقوا لقاءهم، فإنه لا طاقة لكم بهم»[4]، فهي دعوة منهم للهروب والتولي عن اللقاء لضعف المسلمين أمام أبي سفيان وجُنده.

وفي خروج النَّبيِّ ﷺ وأصحابه هنا معنى يكاد يتكرر في بعض غزواته وهو ما يفعله النَّبيّ من أعمالٍ قِتاليةٍ تحقق الرُّعب عن طريق عرض القوة وإظهارها، لكنها أعمال حقيقية مليئة لا مجرد استعراضٍ فارغٍ كرمي الخَذْفِ الذي نهى عنه ﷺ[5]، والفرقُ بينهما أنَّ الاستعراض الجاهل يُقصد منه الصوت والصريخ لا غير دون أنْ يكون عند أصحابه القُدرة على الردع ما لو استجاب الخصم للتحدي، وهذه مهلكة للصِّغار، بل قد يدفع الخصم خصمه لممارستها ويُساعده في تضخيم نفسه تضخماً ورمياً مرضياً يؤدي للقضاء عليه.

في الحروب لا يجوز المُغامرة الجاهلة، أي أنْ يتحرك أحد الطرفين إلى موقع ضدَّ الآخر وهو لا يقصد منه سِوى أن يُظهر نفسه وأنْ يُفاخر بوجوده، فهذه مهلكة يمارسها الصِّغار والنوكى[6]، خاصةً حين يكون الخصم قادراً على الاستجابة لهذا التحدي الصوري بأعمال حقيقية.

---

[1] سورة القصص، الآية: ٥٧.

[2] سورة القصص، الآية: ٥٧.

[3] سورة النساء، الآيتان: ١٣٨-١٣٩.

[4] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري الجزء الثالث الصفحة ١٧٨. طبعة دار الفكر. (١٤٠٥/ ١٩٨٤م) بيروت لبنان

[5] حديث «**النهي عن الخَذْفِ**» أخرجه الشيخان، وهو: حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ سَمِعْتُ عُقْبَةَ بْنَ صُهْبَانَ الأَزْدِيَّ يُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْخَذْفِ وَقَالَ «**إِنَّهُ لاَ يَقْتُلُ الصَّيْدَ، وَلاَ يَنْكَأُ الْعَدُوَّ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ الْعَيْنَ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ**». واللفظ للبخاري، في «كتاب الأدب» باب النهي عن الخذف. حديث رقم: ٦٢٢٠. ومسلم في «كتاب الصيد والذبائح» باب ما يُستعان به على الاصطياد والعَدُوِّ وكراهيةُ الخذف. حديث رقم: ١٩٥٤.

[6] قال الليث: النُّوكُ: الحُمْق، والأَنْوَكُ: الأحمَقُ، وجمعه: النَّوْكَى. «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. دار إحياء التراث العربي. (٢٠٠١م) بيروت لبنان.

إعلانُ الحرب في صورةٍ من الصور يجب أنْ يعنيه صاحبه، وأنْ يتوقع الخصم له استجابة هي الأقصى والأشد، والعجب من بعضهم وهو يدخل في صِراعٍ وُجُودي ضِدَّ خُصُومِهِ، فيخرج الآلاف من أتباعه يصرخون ويُهددون بأعلى درجات التحدي فإنْ تقدم خصمهم إليهم مُستجيباً له تفرقوا ينشدون السلامة، ثم يبدأ التباكي الكَرْبَلاَئِي لاستجلاب العطف والحزن، وهي صورة تُكررها بعض الجماعات في كلِّ حلقةٍ من حلقاتها المكانية والزمانيَّة، بل إنَّ بعضهم قد وُفِّق قدراً بأنْ وقع الرُّعب في خصمه وكاد ينهار لو وجَّه له نفخةً واحدةً إلاَّ أنَّ جهله بسنن الشرع والتاريخ توقف عن تحقيق أهداف الإسلام، فاسترد خصمه أنفاسه وحصل ما هو سنني في كلِّ التدافعات فشرَّد به وقتل ومزَّق.

الاستعراض إعلانُ حربٍ حقيقيةٍ يجب على فاعله أنْ لا يستخدمه لعبةً يُوجِبُ فيه على خصمه أنْ لا يخرج عن نِطاقه، أي أنْ يُواجهه صُرَاخاً بصُرَاخٍ، واستعراضاً باستعراضٍ، هذه حقيقةٌ يفهمها كلّ العقلاء ولكن يوجد في تاريخنا المُعاصر من يمارسها مرةً بعد مرةٍ ولا يَرْعَوِي، غير متبعٍ لقوله ﷺ: «**لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[1].

هذه الخطيئة مارسها أبو سفيان هنا في هذه الغزوة حيث ظنَّ أنَّ مجرد الإشاعة ستُوهِنُ المؤمنين، وتهزُّ إراداتهم، وسيستسلمون لسيوف جُنده وحِرابهم، وقد حصل العكس، فانـدحر هو وتراجع فكانت هزيمة، وقد خرج المسلمون ﷺ إلى مُؤْتة وكانت موقعة استجاب الروم فيها لهذا القادم عليهم وكان ما كان من انحياز المؤمنين بقيادة سيف الله خالد بن الوليد ﷺ بالجيش إلى المدينة، وكذلك سار رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن، والتجأ أهل الطائف إلى حصونهم مُستعصمين بها، وحاصرهم رسول الله ﷺ ولم يُفلح الحصار في أهدافه، فتركها رسول الله ﷺ ورجع حتى جاءوه مسلمين بإرادتهم، فهذه قضية لا تسير على اضطرادٍ مع المسلمين في كلِّ حروبهم أن يحصل الرُّعب في قلوب الكافرين بمجرد خروج المؤمنين إليهم على كلِّ حال كما يتصور صوفية المسلمين اليوم، وهي صوفية فكرية يقع في غَيِّها أقوى أعداء الصوفيَّة النُّسُكِيَّة حين يتصورون أنَّ عامل الإيمان في أنفسهم دافع لانهيار الكفار أمامهم دون امتحانٍ متبادلٍ بين الفريقين.

﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

من المعلوم أنَّ الإيمان يتنوع ويتعدد فما هو نوعُ الإيمان الذي زاد في قلوب هذه الفئة المُمتحنة والتي استجابت لله وللرسول حين دُعوا إلى الخروج حال القَرح إلى أعدائهم؟.

إنَّ مجرد الاستجابة لله وللرسول هي إيمانٌ، وهذا إيمانٌ ممتحنٍ كما تقدم من جهتين ؛ فهي استجابة في حال ضُعْفٍ وألمٍ وجروحٍ وهناك تحدي آخر وهو عدم رجاء النَّجاة لهذه المُقدمات، فهذان

[1] البخاري في «كتاب الأدب» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٦١٣٣، ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٢٩٩٨. روياه عن أبي هريرة ﷺ.

امتحانان يمنعان الاستجابة، ومع ذلك فقد تمت فحصل الإيمان، وهي زيادة عما كان في قلوبهم، وهذا شأن الإيمان يستجيبُ لوجوده ويحصل لهذه الاستجابة زيادة له.

ثم قد تحصل الزيادة قبل الاستجابة فتكون الاستجابة نتيجة لهذه الزيادة التي وقعت في محنَّة بين طرفين، فتدور في نفس المُمتحن المعاني وتتصارع أطرافها المؤمنة والجاهلية، وخلال هذا التصارع تغلب المعاني الإيمانية على أُخراها فيقوى الإيمان بهذه المعاني فتكون بعدها الاستجابة.

فالاستجابة لله وللرسول في الحالة الأولى هي سبب زيادة الإيمان وفي الثانية هي نتيجة لزيادة الإيمان، ولا شك أنَّ الصَّحابة أهل عِلْمٍ ونَظَرٍ، فهم يُدركون معنى الأمر، فيستجيبون له مع إدراكِ معانيه وحِكمته وعاقبته، ولكن إنْ حصل تخلف هذا الإدراك فإنَّ عبوديتهم لله وانقيادهم لأمره وطاعتهم لرسول الله ﷺ تُؤديان للطاعة والاستجابة.

هاتان الحالتان هما فِعلُ المؤمنين بكلِّ مراتبهم وفِرَقِهم، ويُقابلهم في الصف المُنافق مَن يُعَطِّلُ الأمر الإلهي بدعوى المصلحة وفساد العواقب، بل يذهب إلى مذاهب باطلة فيدين بها ويلتزمها زاعماً أنَّها هي من تحقق مقاصد الإسلام وأهدافه، وليتذكر الجميع وقوفه بين يدي الله تعالى حين يُسأل عن عمله من أتى به، ومن شرعه له، وما هو مصدر دليله، فأما المؤمن فإنَّ حُجته بيِّنة واضحة؛ لقد أمرتني ففعلتُ، فهذا كتابك وهذه سنَّة رسولك ﷺ، ولكن ماذا سيقول غيرهم؟. فليعدُّوا جواباً يَلِيقُ بِهَوْلِ الموقفِ يومئذٍ.

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

فهذه كلمتهم في مُواجهة التحدي وقتَ الضعف كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿ **إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ** ﴾»[1]، وهي كلمةٌ من كلمات توحيد المؤمنين لربِّهم وإخلاصهم في عُبوديتهم له، فلا حسب لهم سِواه، والحسب هو الكافي، وهو نِعْمَ الوكيل، يرعاهم في شؤونهم ويُدبر لهم أُمورهم، ويجُريها لهم على مُراده الحسن فيهم في الدُّنيا والآخرة، وقد نبه أهل العلم أنَّ هذه كلمة استعانة لا كلمة ترجع، فإنَّ الكثير من النَّاس يقولونها على وجهٍ آخرٍ غير الاستعانة والدُّعاء وهذا خطأ. وقد يقول قائل أين الدُّعاء فيها فيُجاب بأنَّ مدح العظيم دعاء كما قال أُمِيَّة ابْنُ أَبِي الصَّلْتِ لابن جُدْعَانَ:-

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي	حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَكَ الحَيَاءُ
إِذَا أَثْنَى عَلَيْكَ المَرْءُ يَوْمَاً	كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الثَّنَاءُ

[1] البخاري في «كتاب التفسير» باب قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾ الآية. حديث رقم: ٤٥٦٣. طرفه في: ٤٥٦٤. وهذا من الأحاديث التي تفرد بها البخاري رحمه الله تعالى.

ولذلك كان من دعاء الكرب قوله ﷺ: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ العَـرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ**»[1]. وهذا كما ترى لا سؤال فيه إنما هو الثناء والمدح، لكنه دعاء.

وفي هاتين الآيتين وصفَ الله قلوب الصَّحابة وأعمالهم وأقوالهم، فأما القلوب فوصفها بقوله: ﴿**فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا**﴾، وأما الأبدان فوصفها بقوله: ﴿**ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ**﴾ وأما أقوالهم فوصف قولها بقوله: ﴿**وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ**﴾، فتم الفضلُ لهم من كلِّ جوانبه، فَرَضِيَّ الله عنهم.

وأما قوله: ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾**﴾. فإنَّ «مِنْ» هنا بيانيَّة وليست تبعيضيَّة، إذِ المدح شاملٌ لكلِّ مَن استجابَ، لأنَّ في استجابتهم إحسانٌ وتقوى، وهم في ذلك لهم أجرٌ عظيمٌ.

وقوله: ﴿**أَجْرٌ عَظِيمٌ**﴾ فهذا هو ما يَعِدُ الله به عباده جزاءَ طاعتهم، إذْ لا يدعوهم إليه مِنْ أجل مُلْكٍ ولا سُلْطَانٍ، ولا مِنْ أجل دُنيا فانية، إنّما لهمُ الجنَّة، وهؤلاء الذين يستجيبون لهذه الدعوة هم أهل الصِّدق واليقين والعَطاء والصَّبر، أما الذين يأتون لمقاصد دُنيوية فهؤلاء سُرعان ما ينتكسون ويذهبون إلى طُرق الباطل، وهذا عندما تُعرض لهم بارقة متاعٍ دُنْيويٍّ هناك.

المسلمون في دعوتهم لا يعدون النَّاس إلاَّ بالجنَّة كما كان يفعلُ رسول الله ﷺ وهو يطوفُ على القبائل يدعوهم إلى الإسلام فيسألون ما لنا؟ فيقول: «**لَكُمُ الجَنَّةَ**»[2]، وعلى هذا الوعد دخل الأنصار في دين الله، وعقدوا الصفقة بينهم وبينه ﷺ.

وأما التفريق بين الإحسان والتقوى بالجمع بينهما «إذ الصحيح عدم الترادف في القرآن الكريم»، ذلك لأنَّ الإحسان يكون باختيار خير السبيلين، والتقوى بإقامة ما اختاره على وجه الحقِّ والصواب، وكذلك الإحسان يكون بالإتقان على وجه الفِعل، والتقوى تكون بتجنيب الفِعل ما هو شرٌّ على وجه الترك، ولذلك جمع الصَّحابة بين الأمرين ههنا.

وفي الآيتين تقديمُ ما تأخرَ وتأخيرُ ما تقدمَ فِعْلاً، فإنَّ الصريخ والإرجاف والإشاعة قد تقدمت على نداء رسول الله لهم بالنفير إلى جمع قريش، ذلك لأنَّ المقصود هو بيان فضل القوم وإيمانهم

---

[1] البخاري في «كتاب الدعوات» باب الدعاء عند الكرب. حديث رقم: ٦٣٤٦. ومسلم في «كتاب الذكر والدُّعاء والتوبة والاستغفار» باب الدُّعاء عند الكرب. حديث رقم: ٢٧٣٠.

[2] إشارةً إلى الحديث الذي أخرجه أحمد في «المسند»: حدثنا عبد الله حدَّثني أبي حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة حدَّثني أبي عن عامر قال: «انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ عَمُّهُ إِلَى السَّبْعِينَ مِنَ الأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ: لِيَتَكَلَّمْ مُتَكَلِّمُكُمْ وَلاَ يُطِيلُ الْخُطْبَةَ، فَإِنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عَيْنًا، وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ، فَقَالَ قَائِلُهُمْ، وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ: سَلْ يَا مُحَمَّدُ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ، ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ، ثُمَّ أَخْبِرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللهِ، عَزَّ وَجَلَّ، وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: فَقَالَ: **أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي، عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي وَلأَصْحَابِي أَنْ تُؤْوُنَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ**، قَالُوا: فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ؟ قَالَ: **لَكُمُ الْجَنَّةُ**، قَالُوا: فَلَكَ ذَلِكَ». حديث رقم: ١٧٠١٥. مرسلٌ، ليس فيه: «أبو مسعود». وعامر هو ابن شراحيل الشعبي بينه وبين النبي ﷺ، لكن إسناده صحيح. والحديث الذي بعده برقم: ١٧٠١٦. موصولاً حسناً.

وفِعْلِهِم، ولذلك قدم فِعلهم لشرفه، وبيَّنَ حالهم «القرح» وأبدانهم وما لهم من الأُجور، وأعطفَ بعد ذلك السبب ومقالة الآخرين.

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

هكذا كانت عاقبة الإيمان في صدِّ الإشاعة والإرجاف، وهكذا استعلت الإرادة الإيمانية على إرادة الكفر، وهكذا كانت العاقبة، إذْ سكتَ القرآن على المسير وما جرى فيه وأوقف القارئ على المُنقلبِ والإيَّابِ، والسكوت في القصة القرآنية عن أمرٍ يكون لأمورٍ منها أنْ يجري القارئ في هذا المسكوت عنه معرفته وتصوراته فيلتقي الخطاب مع هذه التصورات والمعرفة على وجهٍ يحقق التواصل والانفعال ومثل ما قصَّه الله علينا في سورة «يس»، حيث جاء الرجل من أقصى المدينة يسعى، داعياً قومه لإجابة الرُّسل، ووقع ما وقع من خطابه لهم إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾[1]. ثمَّ انتقل المشهد كُلياً إلى الآخرة حيث سكتَ القرآن في هذه القصة عما جرى له من قومه فقال سبحانه: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]، وهذا الفاصل المسكوت عنه متروكٌ لذهن القارئ ليملأه من عنده، وهذا الإملاء يجب أن يكون من خلال وعيِّه على سنن أمثال هذه القصة أو على إشارة من القرآن الكريم، فهذا الرجل ولا شك قد رُجم وعُذِّب حتى نال الشَّهادة، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى على لسان قومه من قبل في خطابهم للمرسلين: ﴿ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾[3]، وأما أنَّ هذا المسكوت عنه قد فُصِّل في مكانٍ آخرٍ من القرآن الكريم ومثل هذا قوله تعالى عن آدم في توبته: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِ ﴾[4]. والمرء إنْ سأل ما هي هذه الكلمات وجدها في قوله تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[5]. وإما أنْ يكون المسكوت عنه لِهَوَانِه ومثل هذا قوله تعالى في قصة القرية اليهودية العاصية يوم السبت وجزاء أهلها: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾[6]. فهذا قسمان: المُنكر والظالم فأين الساكت، فلو قُلنا إنَّ القرآن سكت عنهم لهوانهم عند ربِّهم بذكرهم لَصح هذا، مع أنَّ بعض المفسرين جعلهم من الظالمين الهالكين، وإنْ كان الأول أقوى لتسمية

[1] سورة يس، الآيات: ٢٢ـ٢٥.
[2] سورة يس، الآيتان: ٢٦ـ٢٧.
[3] سورة يس، الآية: ١٨.
[4] سورة البقرة، الآية: ٣٧.
[5] سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
[6] سورة الأعراف، الآيتان: ١٦٥ـ١٦٦.

الفاعلين فسقة في أول آية وهو قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1]. وقال عن الهالكين: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾، ثمّ إنَّ عدم ذِكْرِهِم في الناجين لأنَّ نجاتهم من العذاب مع الهالكين لا يمنع وقوع الإثم واللعن وهذا في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[2]. والله أعلم بالصواب.

لقد خرج المؤمنون قراحاً إلى عدوِّهم وساروا مسيرهم إلى حمراء الأسد، ووقع الخور في نفس أبي سفيان وجُنده فلم يروا إلاَّ الرجوع إلى مكة، وأما الصَّحابة ﷺ فآبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء، فأما النِّعمة فهي السلامة من الأذى، حيث لم يُصبهم فيها شيء بهروب عدوِّهم من أمامهم، فتحقق لهمُ النَّصر بلا جراحٍ ولا تعبٍ ولا مشقةٍ، وهذه السلامة في الأبدان والأنفس هي نعمة من الله تعالى، لكنها نعمة لم تأتِهم نِيَاماً، ولم تحصل لهم وهم قارون في أماكنهم بل سعوا إليها وحملوها ثم انقلبوا بها، فهذا شأن نِعَمِ الله تعالى يقوم لها الرجال في حال الابتلاء والامتحان، يُردف الجريح جريحاً، ويذهب إلى عدوِّه وهو لا يرجو السلامة والإياب فَيَمُنُّ الله تعالى عليهم بنعمه فيرجعون بها إلى أهليهم ومساكنهم.

لقد كان انقلابهم إلى أهليهم نعمة حيث لم يُقتلوا ولم يجرحوا، وقد كان مع انقلابهم حمل نعمة السلامة، ولذلك لا يجتمع بهذه الآية الهاربون من اللقاء، الخائفون من عدوِّهم خوف الجبان المقعد، اللائِذُونَ بديارهم لوذَ المُترفات، فإنَّ هؤلاء لا يحصل لهم الأمن بهذا، ولا تكون لهم السلامة والنِّعم في سلوك هذه المهاوي المُضلة.

هؤلاء الصحب الكرام نفروا وتوكلوا على الله ولهجت ألسنتهم بذكر الله وحطوا رِحالهم في ساحة المعركة، كل هذا وهم يدفعون الكلمات التي تُلقى عليهم تخذيلاً وتوهيناً لإرادتهم، فمنَّ الله عليهم بأنْ صرف عدوَّهم عنهم فانقلبوا بنعمة السلامة من الله تعالى.

وأما الفضل فقد ذكر أهل التفسير أنَّ النَّبيَّ ﷺ أصاب تجارةً في الطريق فاشتراها فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه[3]، وهناك ما هو أجل من هذا وهو منعُ المشركين من تحقيق أهدافهم التي أرادوها استثماراً لأُحد، حيث خذلوا فكانت هزيمة لهم.

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

[2] سورة المائدة، الآيتان: ٧٨-٧٩.

[3] قال به النسفي في تفسيره المُسمى «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» الجزء الأول، صفحة ٢٧١. طبعة دار القلم ببيروت (١٤٠٨/١٩٨٩م). والشوكاني في تفسيره «فتح القدير الجامع بين فنيِّ الرواية والدراية من علم التفسير» الجزء الأول، صفحة ٥٤٧. طبعة دار الحديث بالقاهرة (١٤١٣/١٩٩٣م).

وننقل إليك أخي القارئ قول إمام المفسرين ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: «حدثنا محمد، قال: حدثنا أحمد، حدثنا أسبط، عن السدِّي قال: أعطى رسول الله ﷺ، يعني: حين خرج إلى غزوة بدر الصغرى دراهم ابتاعوا بها من موسم بدر، فأصابوا تجارة فذلك قول

﴿ لَمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ ﴾.

هذه مِنَّةٌ إلهيَّةٌ، وهي ردٌّ على دعوة الخشية من قريش وزعيمهم أبي سفيان، ونحن لا نرى القرآن يُعالج الأقدار الإلهيَّة بما يُلاءم المؤمنين على وجهٍ حسنٍ في كلِّ وجهٍ، فإنْ أصابهم البلاء فهو خيرٌ لهم، وإنْ صرفَ عنهم البلاء فهو نعمةٌ لهم، **«عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ»**[1]. كما قال المصطفى ﷺ، ذلك لأنَّ الآخرة وما بعد الدُّنيا هو المقصود، والخاسر هو الذي يجعل هَمَّه هذه الدُّنيا، إنْ جاءته خافَ من ذهابها، وإنْ ذهبتْ تحسرَ على فُقدانها، فهو بين خوفٍ وتحسرٍ، والمؤمن بين صبرٍ وشُكْرٍ والآخرة خيرٌ وأبقى.

﴿ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ ﴾.

وهذه أُخرى تجري مجرى الفضل الإلهي لهم، إذ وقعوا لطاعة الله فحصل لهم الطريق المُوصل لرضى الله تعالى عليهم.

وهكذا جعل الله مسيرهم وخروجهم طريقاً يسلكونه كأنهم يسيرون وحادِيهِمْ في هذا السير رضوان الله تعالى، فهم يتبعون ويقتفون أثره ويسعون لتحصيله.

وهذا الرضوان هو أكبر من كلِّ نعيمٍ، وخيرٌ من كلِّ جزاءٍ كما قال سبحانه وتعالى كما هو أفضل من الجنان: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ﴾[2]. كما قال سبحانه في سورة «براءة»: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ ﴾[3]. وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ:**

الله: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ أما النعمة: فهي العافية، **وأما الفضل: فالتجارة**، والسوء: القتل». «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الجزء الثالث، الصفحة ١٨٣.

وزيادة في الفائدة نُورد لك ما قاله ابن الجوزي ـ رحمه الله تعالى ـ في «زاد المسير في عِلم التفسير» الجزء الأول، الصفحة ٥٠٦. طبعة المكتب الإسلامي (١٤٠٤/١٩٨٤م): «**أحدها** ـ أي الأقوال الواردة في تفسير الآية ـ: ربح التجارة، قاله مجاهد، والسدي، وهذا قول من يرى أنهم خرجوا لموعد أبي سفيان. قال الزهري: لما استنفر النَّبي ﷺ المسلمين لموعد أبي سفيان ببدر، خرجوا ببضائع لهم، وقالوا: إنْ لقينا أبا سفيان، فهو الذي خرجنا إليه، وإنْ لم نلقه ابتعنا ببضائعنا، وكانت بدر متجراً يُوافى في كلِّ عامٍ، فانطلقوا فقضوا حوائجهم، وأخلف أبو سفيان الموعد.

والثاني: أنهم أصابوا سريةً بالصفراء، فرُزقوا منها، قاله مُقاتِل».

[1] مسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب المؤمنُ أمرُهُ كلُّه خيرٌ. حديث رقم: ٢٩٩٩.

[2] سورة المائدة، الآية: ٩٢.

[3] سورة المائدة، الآية: ٩٢.

أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ؟ قَالُوا: وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً»[1]، وهو في الصحيحين. اللَّهُمَّ اجعلنا منهم. آمين.

ثم هذا يكشف عنوانَ خروجهم، وباطنَ قلوبهم، فهم مخلصون لربِّهم، لا يسعون لِعُلُوٍّ في الأرض ولا إلى فسادٍ فيها بل هَمهم إرضاء الله تعالى، فإنْ حصل لهمُ الرضوان فحينها ما سيُعطيهم ربُّهم إيَّاهُ سيكون عظيماً لأنَّ الله سبحانه ذو فضلٍ عظيمٍ.

﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾** ﴾.

أي أنَّ ما صرخ بينكم قائلاً: «**إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ**» إنما هو الشيطان، والإنس في القرآن يُسمى شيطاناً كما الجن؛ قال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾[2]، والآية لها معنى آخر وهو ما قاله أهل التفسير من أن ما يقع في نفوس المنافقين من خوفٍ من المشركين إنما هو من تخويف الشيطان لهم، وكلاهما معنى صحيح تحتمله الآية الكريمة.

وهكذا يتبيَّن أنَّ الجانب النفسي هو سبب الهزائم، فهذا الخوف الذي يُقْذَفُ في القلوب من قِبَلِ الشيطان، شياطين الإنس بكلماتهم وشياطين الجن بإغوائهم، فتنقاد النُّفوس الضعيفة لهؤلاء ويحصل الخذلان والهزيمة.

هذه الكلمات والغِواية تتلبس بأردية العقلانيَّة في أكثرها، وهذه العقلانيَّة تجد ألفاظاً عامة في الفقه تسندها بدليل مُوهمٍ فتنتجَ في الصف الإسلامي على صورة فتوى أو نصيحة، ظاهرها الدِّين وباطنها الشيطان، وهذا أشدّ ما يُلاقيه النَّاس في المحنة.

هذه الآية تضعُ شرطاً للفقيه وهو احترازه من تخويف الشيطان وغِوَايته، ووجود القُدرة اللازمة بين زيف الكلمات وحقائق الوجود، وبين الدعاوى النفسيَّة والأدلة الشرعيَّة، ومخالفة ذلك هي سبب الركون للكافرين ومُهادنتهم ومَرَدُّ ذلك هو التخويف الشيطاني.

الأمان لا يتحقق في المجتمعات ببذل الهوان للأعداء، لأنَّ مطلب الأعداء لا ينتهي حتى يردوا المسلمين عن دينهم، وإنما الأمان يتحقق في النُّفوس والمجتمعات بالصدور إلى الأعداء، ومُواجهة أسباب الخوف وجُنده وشياطينه، وبهذه المُواجهة يتم إظهار خوائهم وضُعفهم وبُطلان قوتهم، لأنَّ الخوف الذي يدفع صاحبه للهروب أو المهانة هو خوفٌ مرضيٌّ ينشأ أغلبه من الوهم ولا حقيقة له، وكشف ذلك يتم بالمُواجهة والاصطدام، وأما صناعة الأوهام فهي ابنة الشرك والكفر، لأنَّ أساسها واحدٌ في النَّفس البشرية، فالذين يضعون الأصنام والأوثان ثم يعبدونها رغباً ورهباً مرضى بالوهم،

---

[1] البخاري في «كتاب الرقاق» باب صفةِ الجنَّةِ والنَّار. حديث رقم: ٦٥٤٩. طرفه في: ٧٥١٨. ومسلم في «كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار» باب إحلال الرِّضوانِ على أهلِ الجنَّةِ فلا يسخَطُ عليهم أبداً. حديث رقم: ٢٨٢٩.

[2] سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

وكذا الذين يخافون غير الله إنما هم مرضى بالوهم، ولذلك سمَّى الله أتباع هذا التخويف والعلاقة بينهما بالولاية ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾، فهي علاقة تعبد في حقيقتها.

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ أي أولياء الشيطان، فهذا أمرٌ ربَّانيٌّ بعدم الخوف، وهذه خاصية القرآن دون غيره من الكُتب الشرعيَّة التي أنتجتها علوم الإسلام، لأنَّ القرآن كتاب النَّفس الإنسانيَّة، فهي مقصوده، وعليها يُعلّق حركة الإنسان، لأنَّ عامة المعاصي إنما تنشأ من مرضى النُّفوس وقسوة القلوب، والأمر بعدم الخوف يدل على أنَّ الإنسان له إرادة على حركة قلبه، وذلك بأمور: إما بتدريبها على هذه الأمور أو أضدادها، وذلك بإتباع سُبل وطُرق ذلك، فالشَّجاعة عملٌ مُكْتَسَبٌ كما كلّ الملكات البشرية[1]، قال رسول الله ﷺ: «**إنما العِلم بالتعلم**»[2]. هذا مع أنَّ بعض الملكات منحة ربَّانيَّة كما في الحديث قال النَّبيّ ﷺ لأَشَجِّ أشَجَّ عَبْدِ القَيْسِ: «**إِنَّ فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله ورسولُهُ: الحِلْمُ والأَنَاةُ**»[3]، ولذلك يجب على الآباء والعلماء تعليم هذا للأُمَّة قولاً وعَمَلاً، وإما بمقاومة ما يطرأ على النَّفس من وارداتٍ منهيٍّ عنها كالخوف هنا، وإتباع سبيل الطاعة، ويكون في الإتباع مجاهدة لهذه النَّفس فيحصل الغلبة لضدِّ الخوف من محبة طاعة الله ورسوله.

لقد تبيَّن في كثيرٍ من الحِكَمِ والأقوالِ وكذا الدراسات أنَّ المشاعر الإنسانيَّة لا تزول، فالشُّجاع يجد في قلبه ما يجد الجبان من المعاني، والحليم يجد ما يجد الجهول، بل وجدوا أنَّ إحساس الأجساد البدنيَّة تتساوى في ألمها، ولكن الفَرْقَ في معالجة هذه المعاني الباطنيَّة والأحاسيس البدنيَّة، فالممدوح هو مَن يعالجها ولا يستسلم لها والمذموم هو مَن ينقاد ويستجيب لها، فالفارق إذاً ناتجٌ عنِ العِلْمِ وقوةِ الإدراكِ والتفكرِ في العاقبةِ والمِران والدربة، وبهذا يأمر الشارع عبيده بعدم الخوف ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ وهو أمرٌ جليٌّ في وُجوب مُواجهتهم، أي اقتحام هذا الخوف ومُقاتلته وتحطيمه كما حطم إبراهيم عليه السلام أوثان قومه ليُثْبِتَ لهم أنهم يعبدون ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

في هذه المُواجهة سيُظهر الشيطان وجُنده كلَّ أسلحته، وهي تتجدد وتتلون، والمؤمن يصمد بأنْ يملأ قلبه بالخوف من الله وحده ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، لأنَّ الإيمان لا يقوم إلاَّ بِرُكْنِ الخوفِ من الله

[1] الطبراني في «المعجم الكبير»، وأبو نعيم في« الحلية» والعسكري كلهم من طريق محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهمداني، حدثنا الثوري عن عبد الملك بن عمير عن رجاء بن حيوة عن أبي الدرداء رفعه: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه، لم يسكن الدرجات العُلى ولا أقول لكم من الجنة من استقسم أو تطير طيراً يرده من السفر» وابن الحسن كذاب، ولكن قد رواه البيهقي في «المدخل» من جهة هلال بن العلاء عن أبيه عن عبيد الله بن عمرو وعن عبد الملك بن عمير به موقوفاً على أبي الدرداء. «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة» للإمام شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي. حديث رقم: ٢١٠. طبعة دار الهجرة ببيروت لبنان (١٤٠٦/١٩٨٦م).

[2] قال الخطابي في «أعلام الحديث» الجزء الأول، الصفحة ٢١٨: «والبشر لا ينتقل عن طِباعه، ولا يترك ما ألفه من عاداته إلا بالرياضة البليغة، والمُعالجة الشديدة».

[3] مسلم في «كتاب الإيمان» باب الأمرِ بالإيمانِ بالله ورسوله وشرائعِ الدينِ والدعاءِ إليه والسؤالِ عنه وحفظه وتبليغه مَن لم يبْلُغْهُ. حديث رقم: ١٧-١٨.

وبركنٍ آخرٍ وهو الحبُّ له، وهذان أساسان للرغبة والرهبة، وهما ركُنا التعبد لله تعالى؛ والحقّ أنَّ المعاركَ العسكريَّة لها أمد محدودٍ وأزمنةٍ هي الأقل في حياة البشريَّة، لكن هذه الحرب، وهي الحرب النفسيَّة هي التي تشمل الحياة، إذْ لا يطول استسلام أُمَّةٍ لأُمَّةٍ إلاَّ بسبب الخوف من هذه الأُمَّة الغالبة، وهذا ما قاله الله تعالى عن بني إسرائيل لما دعاهم موسى في آخر عُمْرِهِ لدخول الأرض المقدسة: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1]، فهكذا وقع في قلوبهم الخوف بسبب استعراض خصومهم، فلما وُعِظوا فلم يتعظوا كان الحُكم عليهم بِالتِيهِ والإذلال أربعين سنة، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، والأُمم، كلّ الأمم، لابدَّ أنْ تُهزم في بعض المعارك، ولكن الفَرق بين الأُمَّة الحيَّة والأُخرى أنَّ الأُمَّة الحيَّة تستجيبُ للتحدي، فلا ترتجفُ أوصالها أمام أعدائها، ولا تستسلمُ لما حلَّ فيها خوفاً من خصومهم، بل ينشطون لقلب الموازين وتغيِّير المُعادلة، ذلك لفقههم لسُنن التدافع وعدم انهيارهم النَّفسي أمام عدوِّهم.

الخوف مرضُ البشرية لأنه يُعطل الإرادة، ويشلُّ الحركة، ويلهث النَّفس أمام الخواء، ولذلك من أعظم خصائص الإسلام أنه حرر الإنسان من الخوف إلاَّ من واحدٍ، وجعلَ هذا شرطَ الإيمان بالله كما في هذه الآية: «وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ »، وكذلك في قوله تعالى في سورة «التوبة»: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[3]. هذا مع ما تقدم من الآية السابقة أنْ جعلَ الله الإيمان وزيادته سبباً لصرف الخشية من الكافرين بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا ﴾، فالإيمان بالله يُضادُّ الخوف والخشيَّة من الكافرين.

وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ الجهاد هو امتحان هذه الخصلة الإيمانية، وهو أعظم ميادينها، ولذلك كان الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، ثم قد دلت آية «التوبة» المُتقدمة أنَّ الذين يتركون الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد عادى الكفار دين الله إنما يتركونهم بسبب الخشية منهم لا لسببٍ آخرٍ، هذا مع دعوى الكثير منهم أنَّ هناك من وسائلٍ أُخرى لِمُعالجة هذا العداء، يُسمُّونها كذباً وزوراً بالحِكمة الفاعلة، وهي في الحقيقة الجبانة الخائبة.

إن قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ لا يعني أنْ لا يخافهم المؤمنون عند تجردهم من أسباب القوة والعَتاد، ولا عند قِلَّتهم وضُعفهم لأنَّ الأمر حينئذٍ لا يكون له معنى، لأنه ليس من طبيعة القوي أنْ

---

[1] سورة المائدة، الآيتان: ٢١-٢٢.

[2] سورة المائدة، الآية: ٢٦.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٣.

يخافَ من الضعيف، ولا من الكثير أنْ يخاف من القليل ، إنما هذا الأمر حين تكون مُوجبات الخوف قد حضرت من الكثرة والعَتاد، وهو حالٌ لو تفكرَ المرء فيه لَوجد في الأمر الإلهي أن لا يبرح المؤمنون الجهاد على كلِّ حالٍ من أحوال عدوِّهم.

بهذا تم في هذه الآيات الثلاث وصف حال المؤمنين، ووصف المنافقين، فمدح سبحانه وتعالى وكشف وحذر، فكانت هذه الغزوة الفريدة في سلاحها ووضعها وعاقبتها لها فضل وكرامة هذه الصِبْغَة الإلهية الجليلة.

هذه الصِبْغَة التي تذهب للنُّفوس فتمدحها وترقيها في قيِّمها، وتكشف ما يُقابل ذلك من صفات النِّفاق.

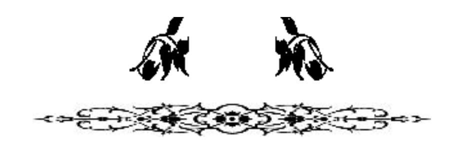
صبغة بدأت باسم الإشارة ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ وهي في سياقٍ مع آيات الشَّهادة لتجمع بين عالم الذاهبين هناك إلى رحمة الله ورضوانه مُستبشرين بالنِّعم الإلهيَّة، وبين اللاحقين بهم وهم على دربهم وأعمالهم وثباتهم.

إنَّ الذين ذهبوا هم سواء مع الباقين، والباقون سواء مع الذاهبين، لأنَّ الذاهبين أحياء هناك، والباقون شهداء ينتظرون هنا.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم﴾ وهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فهذا حال أهل الإيمان بين شهيدٍ، وبين مُقيمٍ على درب الشَّهادة.

درب الشَّهادة هي درب الجهاد، لأنه درب الاستجابة لله وللرسول كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1] أي الجهاد في سبيل الله تعالى.

فهنيئاً للمُقيمين في هذه الدروب لأنَّهم لاحقون بالمُتنعمين في جنَّات النَّعيم.



[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

غزوتي الأحزاب وبني قريظة

هذه الغزوة هي القذيفة الكُبرى والأخيرة التي بقيت في جُعبة قريش بقيادة أبي سفيان، وهذه سِمات الحروب حيث يترك بعضهم مفاجأته الكبرى لآخر الجولات، ولكن قريش كانت تستنزف في معاركها السابقة ضدَّ رسول الله ﷺ، فكان إخراج هذه القذيفة أمراً اضطرارياً لتحقيق الهدف النهائي في هذا السِّجال المُتواصل، وذلك بتجميع كلّ القوى لتحقيق الضربة النهائيَّة لهذه المُنازلات، ولما انتهت إلى ما انتهت إليه قال رسول الله ﷺ كلمته الحاسمة: «**الآنَ نَغْزُوهُمْ ولاَ يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ**»[1]، لأنَّ قريشاً قد انتهت كلّ أدواتها وقِواها الباعثة للمُواجهة خارج مكة.

هذه الكلمة النَّبويَّة الشريفة وصفت السِّجالات والمُنازلات الأولى بأنَّها وإنْ كان بعضها استفزازاً من الصف المُؤمن كبدرٍ الأُولى والكُبرى وغيرهما إلاَّ أنَّ قريشاً كانت هي التي تنفرُ للمُواجهة، ثقةً بقوتها وقُدرتها على إزالة هذا التحدي الجديد، فكانت الحروب في ذلك كأنها إرادة قريش لا إرادة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وهذا لو تأمله المرء لَعَلِمَ أنَّ المعارك النهائيَّة لا تكون إلاَّ من خلال سلسلة معارك تسبقها، وليست كما يتخيَّلُهُ البعض من أنَّ المعركة الحاسمة الكُبرى يتحقق الإعداد لها في فضاءٍ بعيدٍ عن المُواجهات والامتحانات الحقيقية.

لقد ألقت قريش وحلفاؤها كلَّ الثقل المُمكن في هذه الغزوة، ولم يكن بالإمكان أبداً أنْ يطرح أحدُ المسلمين رأياً بالصدور إلى مُواجهة قريش رأساً لرأس لإجماعهم على خطأ هذا الرأي، فهو يحقق لقريش ما تريد من استئصال هذا المجتمع الجديد، ولذلك كان لابدَّ مِنَ الاعتصام بالمدينة وجَعْلِهَا دِرْعَ مُواجهةٍ أمام زحفِ المُشركين وقُوتهم.

إنَّ طرح بعض المسلمين في أُحد وكذا إجماعهم في الأحزاب على عدم الخروج للمُواجهة رأساً لرأس لَيدل على أنَّ قوة المسلمين لا تُعادل قوة قريش في تقديرهم لهذه الغزوات والمُنازلات، ومع ذلك كان الجهاد واجباً شرعياً على المسلمين يمارسونه ضدَّ قريش وغيرها ولم يَقُلْ أَحَدٌ منهم بإسقاط الجهاد لعدم وُجود التكافؤ، أو قالوا لِنُؤَجِلِ الجهاد حتى يتم التوازن في القِوى كما يقول بذلك بعض مُنْتَسِبِي الفكر الإسلامي وقادة بعض التنظيمات العاملة للإسلام، لأنه لو قال أحدٌ بهذا لَكان معناه أنْ لا يجاهد المسلم قط، بل لا يمكن لأُمَّةٍ أنْ تحيا وتنبعث نحو مقاصدها المسلوبة من أعدائها إنْ اعتقدت هذا الاعتقاد الفاسد.

كلّ الغزوات السابقة حتى غزوة الأحزاب كانت غزوات قلقة، أي غير محسومة العواقب، بل بعضها فُرِضَ فرضاً دون تقديرٍ من المسلمين كبدر الكبرى، وأغلبها كانت محن حقيقيَّة للمسلمين،

[1] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوةِ الخندقِ وهي الأحزابُ. قال موسى بن عُقبة: كانت في شوَّال سنةَ أربعٍ. حديث رقم: ٤١١٠.

كان فيها الخوف والترقب والشدُّ النَّفسي في أعلى حالاته، وبعض هذه الغزوات كان يمثل النهاية للمسلمين لو وقعت الهزيمة لهم كما في بدر التي قال فيها رسول الله ﷺ: «..**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[1]. وكما في غزوة الأحزاب هذه، وهذا بخلاف معارك المسلمين اليوم فهي لا تُشكل أبداً مخاطرةً نهائيةً بين الإسلام والكفر، وهذا يجعل معارك الإسلام الأولى التي قادها رسول الله ﷺ أكثر خطورةً وشجاعةً من أي معركة بعده ﷺ، ويدل على أنَّ انبثاق الجهاد وعقيدته إنما يكون مِن رَحِمِ الابتلاء والصعوبات والظروف القاهرة العاتيَّة، لا كما يظنُّ البعض أنَّ الجهاد ينشأ من داخلٍ مُسْتَقِرٍ وخارجٍ مُلاَئِمٍ مستقلٍ، فالمدينة كان يحيط بها اليهود ويتخللونها كذلك، وفيها صف النِّفاق، والعجز الاقتصادي من تأثير المهاجرين وكثرة الأعداء حولهم، وكون العدوِّ الذي يتصدى لهم هو قريش، وهي أكبر قوة في الجزيرة العربية، كلّ هذا وغيره يجب استحضاره حين ندرس الجهاد النَّبوي منذ أن شُرِعَ إلى أن مُورِسَ.

الجهاد في سبيل الله هو دين الله في كلِّ الظروف، وأصلح الظروف له تلك الحالة التي يصدم هذا الناشئ الجديد أقوى القِوى، ويُنازلها منازلات تحقق الإرهاق في جسد الثور الهائج، كما يفعلُ المقاتلون له بغرس سِهامهم الصغيرة والمُتكررة في أعصابه وعضلاته، فينطلقُ الثور ذات اليمين وذات الشمال، وفي كلِّ حركةٍ له يتم استنزافُ دمه وقُدراته وتُقطعُ عضلاته وأعصابه حتى يأتي الفتح العظيم.

الجهاد في سبيل الله ليس عاقبة للبناء حتى يتكامل، بل هو البناء نفسه، لأنه لا يمكن لأُمَّة حيَّةٍ أنْ تُحقق البناء الذاتي لها إلاَّ بجهادها لأعدائها، وأول خصائص الأُمَّة الحيَّة أنها أُمَّةَ دعوةٍ وبَعْثٍ وشهادَةٍ، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «..**وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ**»[2].

جاءت هذه الغزوة «غزوة الأحزاب» بعد أنْ ملَّت قريش من هذه اللقاءات الفرعيَّة، لأنها رأت أنَّ هذه اللقاءات تُحقق المَنعة والقوة والتقدم لهؤلاء الخصوم، فكان لابدَّ من قذيفةٍ نهائيةٍ، ولما اختارت قريش هذا التوقيت كان ولا شك اختياراً مُلائِماً لها وغير مُلائمٍ لخصومها من المسلمين، ولذلك التجأ المسلمون لحصنهم «أي بيوتهم» مع بناء خندقٍ حولهم، وهذا ليس اختياراً دينياً كما ظنَّ بعض المسلمين بعد ذلك، بل هو اختيارٌ عسكريٌّ بحتٌ، فعبد الله بن حنظلة الغسيل لما سمع بقدوم جيش الشام لغزو المدينة حين أرسلهم الفاسق يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بزعامة مسلم بن عُقبة وقد سمَّاه السلف مُسرف بن عقبة لإجرامه وفِسقه، عامله الله بما يستحق لردِّ عِصيانهم، عمد عبد الله بن حنظلة إلى نفس تكتيك غزوة الأحزاب ظاناً أنَّ الحال هو الحال فلم يقع له ما تأمل بل اجتاحت جيوش الشام المدينة في موقعة الحرة التي تُعد لطخة سوداء في تاريخ ملوك الإسلام، لأنه في الحقيقة

---

[1] مسلم في «كتاب الجهاد والسِيِّر» باب الإمدادِ بالملائكةِ في غزوةِ بدرٍ وإباحةِ الغنائم. حديث رقم: ١٧٦٣.

[2] حديث: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمْ الْجِهَادَ، سَلَّطَ الله عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُم**» رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما. وقَالَ: الإِخْبَارُ لِجَعْفَرٍ وَهَذَا لَفْظُهُ. حديث رقم: ٣٤٦٣.

لا تُوجد معركة في التاريخ تُشبه أُخرى مِن كلِّ جانبٍ، والمعارك يُقال فيها ما يُقال في المثل: «لا يمكن لك أن تسير في مكانٍ واحدٍ في النَّهر مرتين» ذلك لأنَّ الماء دائم الجريان في الأنهار.

غزوة الأحزاب فيها الكثير من الخُصوصيات لكن أبرز خصائصها في السير النَّبويَّة خصيصتان:ـ

أولاهما: أنَّ المسلمين التجئوا فيها للمدينة، وهذا الحال يحققه معنى غزو المُشركين للمسلمين في عُقْرِ دارهم، مع أنَّ الصِّبْغَةَ العامة للهديِّ النَّبويِّ قول عليٍّ ﷺ: «**مَا غُزِيَ قومٌ في عُقْرِ دَارِهِم إلاَّ ذُلُّوا**»[١]، فهذه الغزوة خصت هذا الأمر، وبذلك يكون معنى الحديث: أن من استكان دون جهادٍ وغزوٍ فسيكون عاقبته الإذلال، وله معنى آخر: مَن قدر على مُلاقاة عدوِّه خارج أرضه ثم تركه ليأتيه لداره فقد ذل، مع وجود معاني كونيَّة أُخرى للحديث، ثم ولا شكَّ أنَّ حال غزوة الأحزاب فيها شيءٌ من القهر للصَّحابة، مع وُجود نوع استغلالٍ لقريش وأحزابها، ومع ذلك اختار الصَّحابة هذه الوسيلة لأنها الأقرب إلى منع تحقيق الأحزاب لأهدافهم.

ثانيهما: في هذه الغزوة فقط قال رسول الله ﷺ: «**لاَ تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُ فَاصْبِرُوا**»[٢]. وهذا على خلاف الحال النَّبوي الشريف، لأنه هو ﷺ كان يُبادر للقاء المُشركين، وقد قال أهل العلم في ذلك أقوالاً، إلاَّ أنَّ القول الصحيح أنَّ هذا القول كان خاصاً لهذه الغزوة الفريدة! والشديدة في وقعها على المدينة النَّبويَّة، ولذلك كان لابدَّ من اجتناب المُواجهة القِتالية المُباشرة، وهذا حجة للفر كما يكون معه الكر، وكل ذلك بحسب الحال، ويشهد لهذا إقرار النَّبيِّ ﷺ للعائدين من مُؤتة أنهم الكرار لا الفرار[٣].

لقد كان العامل الغيبي بإرسال الريح والملائكة هو الحاسم في هذا الحصار، لكن الصَّبر والثبات الذي امتد شهراً هو سبب هذا التأييد الإلهي، إذ صرف الله قريشاً وحلفاءها عن المدينة، وكان هذا الانصراف سبباً في كشف اليهود والمُنافقين، فتفرغ رسول الله لبني قُريظة ووقع ما وقع مما سيأتي ذكره في آيات القرآن الكريم من سورة «الأحزاب».

غزوة الأحزاب كشفت أنَّ هذا الكائن المُتميِّز في المدينة النَّبويَّة لم يُبْنَ من خلال شرعيَّة المحيط به، فهو لم يأخذ حقَّ الوجود والثبات والمُدافعة من خلال الرضا «العالمي» عنه، ولا من خلال قبول البعض به دون الآخرين ليكون جزءاً صغيراً لقضايا الآخرين الكبرى والأصلية، لأنَّ هذا البناء النَّبوي لو كان كذلك لما أمكن له الوراثة الكُلية للجزيرة العربية في وقتٍ قصيرٍ، ولَبقي صعوده

---

[1] «ماغُزِيَ قوم قط في عُقْرِ دَارِهِم إلاَّ ذَلُّوا» خطبة له بعنوان: «استنهاض النَّاس». بكتاب: «نهج البلاغة» ـ إن صحت نسبته إليه ـ جمعه: أبو الحسن محمد الرضى بن الحسن الموسوي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح. طبعة: دار الأسوة للطباعة والنشر بإيران، الطبعة الثانية (١٤١٨).

[2] أحمد في «المسند» عن أبي هريرة ﷺ. وقال: **إسناده صحيح**. حديث رقم: ١٠٧٢٠.

[3] عن عُروة ﷺ، قال: لما أقبل أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه فجعلوا يحثون عليهم التراب ويقولون: يا فرار، فررتم في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله**». أخرجه البيهقي في «دلائل النُّبوَّة»: ٣٧٤/٤.

وهبوطه مرهوناً بإرادة الآخرين، يتحركُ من خلال فضائهم وصدقاتهم، بل إنَّ من عجائب هذا البناء النَّبوي أنه صارع القِوى في أوجهها، ولم يكن التهيؤ إلاَّ في داخل المدينة النَّبويَّة نفسها حيث قُتل زعماء الأوس والخزرج في معركة بُعاث التي كانت آخر معاركهم الداخلية، فلم يبقَ من كِبارهم إلاَّ المُنافق عبد الله بن أُبي بن سلول، فكان هذا هو التهيؤ القَدري فقط، وأما قريش واليهود وباقي القُرى الأُخرى فهي على وُجودها وثباتها، سواء كان في الاعتقاد أو التمكن الداخلي، فغزوة الأحزاب كشفت هذا الواقع حيث أبانت عن صلابة هذا المحيط في تصديه لهذا البناء الجديد، ولم يقف معها أحد، ولم يُمانع عنها فرقة أُخرى، بل جاءتها الأحزاب من الخارج، وساعدهم بقايا اليهود وفُلولهم من الداخل، وهذا يُعطي خاصية فريدة لهذا البناء يكفي للعِبرة والاتعاظ والتعلم، وهو حجةٌ للعاملين جهاداً في سبيل الله تعالى في أشدِّ الظروف، وردٌّ على الذين يطلبون شرعيَّة البناء الإسلامي من قِوى جاهلية أُخرى يدفعون لها ثمن هذا الرضى تنازلاً عن قيم الإسلام وأوامر الله تعالى.

حين تأخذ شرعية وُجودك من الآخرين اضطراراً ـ كما تزعم ـ في البدايات فإنك ستدفع ثمن هذا في كلِّ مرحلةٍ تحصلها بعد ذلك، وهذا يجعلكَ صغيراً دوماً لا ترقى للوراثة الكاملة التي يُوجِبها الله عليك، وتُوجِبها أوامر الله تعالى.

يندفعُ البعض لسلوك هذا الطريق استعجالاً لبعض المكاسب، ووصولاً لبعض التمكين الصُوري، فيحرِّفون المراحل ـ كما يقولون ـ لكنهم في الحقيقة يعيشون مع هذه المواقع المُكتسبة في حالة دائمةٍ مرهقةٍ من الاضطراب تمنعهم من خطوات أُخرى صحيحة نحو أهداف الإسلام الكُلية.

طريق الإسلام طريق مشقةٍ حقيقيةٍ، يحكمها أنَّ العاملين فيها يريدون إرضاء الله تعالى وتحقيق عبوديته في الأرض، ويكسبون المواقع من خلال هداية الخَلق والتحاقهم مؤمنين بهذه القافلة وبما يأخذونه قهراً وغلبةً من أفواه أعدائهم لأنهم حينئذٍ يملكونها حقيقةً لهم فيُقِيمُون فيها أمر الله خالصة له من دون النَّاس.

قد تطول طريق الحقيقة لكنها تُوصِل، وقد تقصر طُرق الباطل لكنها مهلكة.

سورة «الأحزاب» كأنها شُطِرت شطرين، **أولاهما:** كان حديث الغزوة، **وثانيهما:** حديث العلاقة النَّبويَّة مع زوجاته رضوان الله عليهن، وهذا له دلالة واضحة غير خفية، ذلك بأنَّ هذين الأمرين هما أمرٌ واحدٌ، وهما يتعلَّقان بالبناء الداخلي للمجتمع المسلم، إذ لولا الصلابة الإيمانيَّة لمجتمع الصَّحابة ﷺ لما تم النَّصر، فهذا البناء الأول ثم البناء الثاني وهو البناء الأُسري، وهو مُهم على درجة لا تقل عن البناء الأول.

توزع الحديث عن المُنافقين في البِنائَيْنِ، فقد بسطَ حال المُنافقين حال الغزوة بسطاً واضحاً، ثم جاء الحديث عن المُنافقين بعد الأمر بإدناء الحجاب على المؤمنين، لأنَّ سبب هذا الأمر هو ما يقترفه المنافقون من إيذاء المؤمنات حال خروجهن لحاجتهن من بيوتهن.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[1].

من درسَ القصة القرآنيَّة يرى توافقاً بين الأسلوب والهدف، فبناء القصة القرآنيَّة وسياقها له ارتباطٌ بضرورة الخطاب وأهدافه، ففي سورة «البقرة» في قصة بني إسرائيل مع ذبح البقرة رأينا أنَّ هدف ذبح البقرة تأجَّل إلى نهاية القصة، لأنَّ هدف القصة هو بيان تعنتِ اليهود وتحايُلهم في عدم امتثال الأمر الإلهي، فالمقصود هو هذا فكان البدء به ثم جاء الهدف من الذبح، ثم هذا القلب ـ أي ذكر الأمر بالذبح قبل البدء بعلته ـ يُعادل القلب الذي يحياه اليهود وعدم سلامة نفوسهم واستوائها.

في سورة «الأعراف» يفتتح الله قصة القرية المحتالة العاتية عن أوامر الله في اعتدائها يوم السبت بقوله تعالى: ﴿ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ... ﴾[2]. لأنَّ في هذا الأسلوب تَبْكِيتٌ وتَعْيِّيرٌ لهم، لا لأنَّ الأبناء يرثون ذنب الآباء كما تقول النَّصرانيَّة بل لأنهم يسيرون على طريقتهم وسُننهم، فحين يقول العائب للمذنب: «أتذكر ما فعلَ آباؤك؟» فهو ولا شك تعيِّيرٌ وتقبيحٌ مع التنبيه والتحذير.

وهذا واضحٌ في القصة القرآنيَّة وجليٌّ.

في هذه الآيات القاصة حادثة الأحزاب ابتدأها الله بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ... ﴾ فهو مطلعٌ يروي حدثاً ليُتْلَى ويُحْفَظ ويُعْتَبَر به، وهو حادثٌ للذكرى «ٱذۡكُرُواْ» لتعدد عِبره التي سيحتاجها القارئ المُؤمن دوماً.

فهي حادثة للذكرى، وفيها تِعداد لِنعم الله تعالى حيث فرغ المسلمون من أي قوة سوى انتظار الفرج لا غير، لأنهم لا يملكون سوى ذلك.

لم يكن بين أيدهم إلاَّ الصَّبر والنظر إلى السماء ليقضي الله بينهم وبين أعدائهم، فهم يرقبون نِعمته ويرجون رحمته، وهم على حالٍ لا يحتمل إلاَّ النَّجاة أو الفناء، هذا الفناء الذي يقضي على الرجال وتُستباح النساء وتُؤخذ الأرض، وكان يمكن لهذا أن يقع كما وقع في التاريخ الإسلامي أمثاله من سقوط حُصون الإسلام أمام المشركين، وذلك كما سقطت عكا أمام الصليبيين، وسقطت بغداد أمام التتار وغيرهما من الأمثلة، لكن الفارق بين هذه الأحوال وحال غزوة الأحزاب وأمثالها في أمورٍ أهمها أنَّه في مراتٍ كثيرةٍ يكون الالتجاء إلى الحصون والمُدن سببه الهوان والخذلان والجبن عن

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٩.
[2] سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

مُواجهة الأعداء والخصوم، فيرجع المسلمون إلى الحصون لا لأنَّه هو الاختيار الأفضل لهذه الحرب بل لجبن أهلها عن المُواجهة، فمثل هذا الحال يُورث الخذلان، لأنَّ الجبن والخور والاضطراب لا تنفع معه الحصون ولا غيرها، وحال المهزوم نفسياً وصفه أحد قادة الحرب المُشركين في غزوة حُنَيْنٍ وهو دُرَيْد بْنُ الصِّمَّة وكان شيخاً محنكاً ذو مِراسٍ في الحروب والرجال، فإنه لما رأى مالك بن عوف وكان ابن ثلاثين سنة، وهو قائد جيش المُشركين قد ساق المواشي والأموال والنساء والأبناء كي يثبتوا ويُقاتلوا قتال المُستميت عن نفسه وماله وعِرضه قال له دُرَيْد: راعي ضأن والله، وهل يرد المُنهزم شيء؟. فالمنهزم الملتجئ إلى بيته لا يلبث بعد قليل من الحصار والتجويعٍ أن ينهار، وفي مرات تكون تقديرات بعض الحصون غير سديدة كاعتمادهم على دعمٍ خارجي يرجونه فلا يكون، فينهارون وذلك بسبب تقصير المسلمين في دعمهم أو فك الحصار عليهم، ولذلك يجب أنْ تُدرس كل حالة على حِدة لتُعرف الأسباب المُؤدية إلى ما آلتْ إليه، وإنَّ مِن أهم أمور النَّصر في هذه المواطن هو حُسن العلاقة مع الله تعالى في أيام الرخاء حتى يكون ناصراً في أيام الشدَّة، أما الذين يعصون الله بالغفلة والاستهتار أمام الرخاء فإنَّ الدُّعاء قلمَا ينفعهم أيام الشدَّة، إذ أمر الدُّعاء كسببٍ للنَّصر كأمر الإعداد، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ ﴾[1].

ولهذا السبب يجب النظر إلى حال صُعُودِ الأُمم وهبوطها، فإنَّ الأُمم الصاعدة قلمَا يُؤثر فيها هزيمة عارضة، أما الأُمم الذاهبة التي نخرها الوهن فإنَّ نصراً عارضاً لا يُقيم لها شأنها بل يكون حالها كحال صحوة المريض قبل الموت كما يُعرف.

لم يقع الاجتياح للمدينة لنعمة الله تعالى عليهم بالصَّبر والثبات، وللخور والتنازع وقِلَّة الصَّبر عنْد المشركين وجُندي الريح الذي سُلط عليهم، وجُندي البيئة والطقس مهمٌ في عِلْمِ العسكرية، ولذلك يُسمِّي الدَّارسون في حروب نابليون في روسيا الثلج جنرالاً، فيقولون: «جنرال الثلج» لأنَّه من أهم أسباب هزائم نابليون هناك، كما كان سبباً في هزيمة جيوش هتلر كذلك.

فهذه أمورٌ يجب أنْ تُدرس في إطارها العسكري لتتم العِبرة بها، كما يجب النظر إلى ما يحققه الاهتداء إليه أنه من نعمة الله التي أكرم الله بها المؤمنين، وبذلك تتحقق العِبرة والحمد، وهذا هو مقاصد القصة القرآنيَّة.

﴿ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾.

لقد جاءت قريش مع حلفائها، وكان مجيئهم شاملاً على المدينة كما في الآية التالية: ﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ ﴾[2].

﴿ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا ﴾.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٦.

[2] سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

لقد كان بين مجيءِ الجنود المُشركين وبين إرسال الريح والجنود الغيبيَّة زمنٌ مهمٌ، هذا الزمن يملؤه فِعْلُ المؤمنين، وهو زمنٌ يلغيه بعض الخطباء والمُدرسين، وبهذا الإلغاء تُلقى التصورات الجاهلة في نفوس السامعين، فيظنون في أحوال معينة أنَّ حالهم لم يحصل فيه ما حصل في الحال الأول كما في القرآن الكريم.

لقد كان بين قول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾[1]. وبين إجابة هذا الدُّعاء مئات السنين الطويلة، فقد استجيب الدُّعاء، ولكن بين وقوع الدُّعاء واستجابته زمنٌ ليس بالقصير، فيجب تثبيت هذا حتى لا يتوهم أحدٌ أنَّ الأدعية العظيمة التي تتعلَّقُ بالأُمم والشعوب وكذا الأشخاص في قضاياهم العظمى تتحقق في يوم وليلة، لأنَّ هذه الأدعية هي في حقيقتها مشاريع عظيمة وقضايا كُبرى تتعلَّقُ بالتاريخ الإنساني، ووقوع مثل هذه المشاريع لابدَّ له مِنْ زمنٍ طويلٍ لأنَّ سُنَّة الله في ذلك هي الجارية وهي حاكمة على هذا الوجود وأحداثه.

إنَّ إلغاء الزمن في قوله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾[2]. لا يحقق العِبرة ولا الفائدة، بل يُفسدهما ويُفسد تصورات المسلم في دعوته، فلا يصبر ولا يثبت ولا يُديم عمله، فإنَّ بين دعوة نوح عليه السلام وبين الإجابة زمنٌ استغرقَ فيه بناء سفينةٍ كبيرةٍ تتسع لما أمره الله تعالى أن يحمله فيها، وهو شخصٌ وحيدٌ ومعه قِلَّة قليلة مؤمنة، هذا إنْ علمنا أنه لبث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً.

إنَّ الكلمات دالة على الفِعل، والكلمات تُتلى في لحظات والفِعل أطول من ذلك بكثير، وفَهْم هذا يُعلم المسلم الصَّبر والثبات وعدم الاستعجال، أما الذين يتصورون أنه بمجرد أنْ يرفع الرجل يديه فتنزل الملائكة لإجابة دعائه في طوره النهائي في لحظة واحدةٍ فهؤلاء جاهلون بربِّهم وبسننه، ومثلهم الذين يريدون فتح مكة في أول ضربة سيف في أعدائهم.

لا يجوز للمسلم أن يتساءل وهو يعملُ بطريقٍ سَنني مُستجيباً لأمر الله لِمَ هذا؟، ومتى هذا؟! فهذه أسئلة تُعطل الإرادات وتقضي على الصَّبر القلبي وتُفسد الإرادات الثابتة.

لقد حُمِلَ نوحٌ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ، أي أنه ذهبَ إلى الغابة وقطعَ شجرةً ثم نجرها في أيامٍ، وصنعَ فُرْناً في أيامٍ وأوقد فيه النِّيران ليصنع المسامير، وبصبرٍ لا يتزعزع يقطع لُوحاً وراء لوحٍ ومسماراً وراء مسمارٍ حتى اكتملتِ السفينة، ثم طاف في جزيرته ـ وأنا أعتقد أنَّ نوح عليه السلام كان يعيش في جزيرة يحيطها الماء من كلِّ مكانٍ ـ تحمل من كلِّ نوع من الحيوانات زوجين، لا بل هو كان يحمل إليها من كلِّ نوعٍ زوجين، ذكر وأنثى، ولا يجوز لك أن تتصور أنَّ نوحاً أعلن صرخه في

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
[2] سورة القمر، الآيات: ١٠ـ١٢.

غابة الجزيرة للحيوانات أنْ تعالوا من كلِّ نوعٍ زوجين، لا بل هو كان يحمل إليها من كلِّ نوعٍ زوجين، ثم لما تم الأمر وقع النَّصر الإلهي.

الزمن يكون فيه فِعْلُ المؤمن لا غِيابه ولا اضطرابه ولا عجزه ولا جُبنه، بل فِعْلُهُ الصغير الدءوب المُتكرر، وهو في هذا الفِعْلِ الصبور سيمر عليه الكثيرون وهم يسخرون منه، ولكنه واثقٌ بالله أنَّ العاقبة للمتقين.

في هذا الزمن من غزوة الأحزاب ضلَّ المنافقون ولم يروا ما رآه المؤمنون كما سيأتي وصف الفريقين بعد ذلك.

ثم اعلم أنَّ الزمن ليس اختياركَ، لأنَّ اختيار الزمن وتوقيته يعني فُقدان معنى الصَّبر والابتلاء، وهما مقصودان للفِعْلِ من الله تعالى، ولذلك هل يطول أم يقصر؟! هذا سؤالٌ ليس لك، هل أُدْرِكُ النَّصر أم يكون بعدي؟ هذا سؤال كذلك ليس لك، لأنَّ العبدَ ليس له اختيارٌ مع تدبير سيِّده.

﴿ وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ كانتِ الريح مما رأوه وأحسوه، والبرد الشديد قد أصاب الفريقين كما وصف ذلك حُذيفة بن اليمان ﷺ، وهذه الجنود الخفية التي تتسلل إلى القلوب فتقطع الصلة بين الإنسان وبينها، فتصبح ذاهبة ذهاب الهواء والريح، حينها لا يمكن للمرء إلاَّ أنْ ينهار.

هذه الجنود ضربتْ ضربتها في الأحزاب حين أقرتْ في قلوب المُشركين الخوفَ والجزعَ، وذهبَ الصَّبر وانباث قائد الجنود أبي سفيان.

إنَّ الريح لا تسيرُ إلاَّ بأمر الله، تدفعها ملائكة الله، والجنود منها ملائكة ربَّانيَّة ومنها جنود أُخرى كالرُّعب والخوف والاضطراب.

إنَّ المؤمن يحتاج إلى هذه الآية العظيمة وهو يرى جنود الكفر تصطف كأنها الجبال، فلا يُبصر إلاَّ ظاهرها من النِّعمة والتكاتف والصلابة، فتأتي هذه الآية لتُبشره أنَّ هناك جنوداً خفيَّة تسري بين الصفوف، وتتخلل جنبات النُّفوس فتعمل عملها المُوهِن فيهم، ويبدأ الشدُّ بين القوتين، شدٌّ داخليٌّ وبأدوات نفسيَّة باطنيَّة، فثقة المؤمن أنَّ هناك ضعفٌ ذاتيّ في الباطل تُديم صبره وهو يشجعها بقوله: «إنما النَّصر صبر ساعة»، فيبقى هو على ثباته ومكانه لا يتزعزع ولا يَريم، وهو مع ذلك يتألم ويكظم، ويُعاني ويرجو حتى يتحقق الانهيار في الآخر، ومثل هذه المعارك تكشفُ أي دَخَنٍ داخلي، وأي ضُعفٍ مستورٍ، فيبين ويدفع ثمنه غالياً في نتائج هذه اللقاءات.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ ﴾.

في هذه الفاصلة بيان استحقاق العباد للنَّصْر، فإنَّ بصر الله تعالى بما يعمل الصَّحابة في المدينة هو الذي سبَّبَ نزول النَّصر عليهم، فهذه مدينة النَّبيِّ ﷺ ورجالها هم صحابته، يجمعهم الحب وعلاقة الإيمان، وتحكمهم شريعة الرحمن، وجزر النِّفاق محصورة مقموعة مخذولة، تتخفى من ضعفها وحقارة شأنها.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

هذا وصفٌ للجنود الكافرين من قريش وغَطفان الذين جاؤوا من أسفل المدينة، واليهود من بني قُريظة هم مَن جاء من فوق المدينة، واليهود من بني قُريظة مُستقرون في حُصُونهم ولكن انضمامهم لحزب قريش وحلفائها جعلهم كإتيانٍ قادمٍ معهم سواء، ولذلك فقدْ أطبقَ الشرُّ كلُّه على المدينة وعلى المسلمين، فلا يمكن إلاَّ الصَّبر والثبات، ولا ينفعُ انحياز ولا تدبير.

في هذه الحالة وصف الله المؤمنين، وهو وصفٌ لإنسانٍ يرى الموت الماحق ماثل لعينيه، يريد أنْ يجتثه ويجتث أهله وجماعته.

لقد زاغت الأبصار عن أماكنها، وعدلت عن مقرها، فذهبت تشخص بعيداً إلى فوق لأنَّ ما أمامها سدٌ رائقٌ، فليس في الأرض أمامها منفذٌ تنفذُ فيه، فلعلَّ في السماء مخرجٌ ومنفذٌ.

وأما القلوب فقد اضطربت حتى زالت عن أماكنها فبلغتِ الحناجر، خفقاناً مُؤْلماً يطوحُ بها بشدَّةٍ وقوةٍ.

كل هذا بسبب الخوف القادم، والموت المُترقب، وألم العجز عن المُواجهة.

لقد وصفت العيون التي تبصر والقلوب التي تعقل، فتعطل ما في الإنسان من ملكات هي الهادية له ظاهراً وباطناً واختل ميزانها في الأبصار والتعقل.

هذه محنة المدينة المؤمنة حين تنشأ لتبقى وتقوى وترث، فهي شجرة تنمو كل عقلة فيها بالثمن الذي يرتقبها ويهيّأ لها من الله تعالى.

إنَّ الوارثين للإسلام من بَعْدِ جيل الصَّحابة تُوجِب عليهم هذه الآيات وأمثالها مما قصَّه القرآن عن المحن التي عاشوها أن يعلموا بيئة هذا القرآن وبيئة هذا الدِّين وأجواءه التي ينتعش فيها، وينمو من خلالها ويُعطي ثماره الوارفة، فهذا القرآن لا تنمو معارفه ولا يُؤتي ثماره في فضاءات الدعة الخاملة، ولا يرث أهله الأرض من خلال سلوك سُبل الأمان الموهوب من الخصوم ثمن التنازلات التي يُؤديها أهل هذا الدين.

إنَّ هذا القرآن نزلَ بحزنٍ، وقُرِئَ في محنةٍ، وأعطى ثماره في الغمرات الكبار، فأهله من أصحاب رسول الله ﷺ لا يخرجونَ من صدمةٍ إلاَّ إلى أُخرى، ولا يكاد يفلتون من محنة إلاَّ جاءتهم ما هي أكبر منها، ففي أُحد رأوا الموت ﴿ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾[1]، وههنا تزيغ الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر، وبين هذه الغزوة وأُحد كانت غزوة ذات الرِقاع التي تساقطت أظافر أرجلهم من شِدَّة ما

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٣.

لاقوا، وقبلها حادثة بئر مَعونة التي كانت عقب أُحد بأربعة أشهر فقط حيث قُتِلَ فيها سبعون من القُراء بعيداً عن أهلهم، وغزوات أُخرى كلّها كانت بالألم والمشقة والجهد.

هذه هي سِمَة هذا الدِّين وهذه خصيصته، وبهذه السِمَة والخصوصية يكون الدِّين وارثاً، وحين يخلد المسلمون إلى السلامة المهينة حينها يقبلون أن يعيشوا مجردَ رعايا تحت حُكْمِ الكفر وأهله، ويُقال عنهم حينئذٍ: «مواطنون صالحون»، لأنَّهم في الحقيقة صاروا جزءاً ممسوخاً في داخل بناء الكفر والشرك.

الدولة المُعاصرة تريد مسلمين على دينها، يقبلون سُلطانها وحُكْمها، ويذوبون في نسيجها، وبمثل هؤلاء المسلمين تقوى هذه الدول الشركية الطَّاغوتية، لأنَّه في الحقيقة لا يصلح جامياً لهذه الدول إلاَّ «المسلمين الصالحين» صلاحاً يمنعهم من إيذائها أو تعكير مِزاج أهلها أو مُنافستها.

إنَّ الدِّين الحقّ يلتقي مع بيئة الصَّحابة الأولى في الامتحان والابتلاء، وكلما تخلى أهله عنه وعن مبادئه كلما نعموا بالسلامة المذلة والهوان المضمخ بالشح النجس.

محنَّة الإسلام على مستويات عِدة، فالمسلم قد يُمتحن في أصل سلامته، ففي مجتمعٍ شركيٍّ مُغْلَقٍ يكون إسلام المرء ودعوة قومه للإسلام كافياً لحصول النِزاع والمحنة بينه وبين قومه، وقولنا: «مجرد إسلامه» يعني أنْ يهجرَ دينهم فلا يُشاركهم في شيءٍ من أعمالهم الشركيَّة والكفريَّة، وقولنا: «ودعوة قومه للإسلام» يعني أنْ يُبَيِّن ضلال دينهم وفساده وحُسْنَ دين الإسلام وصوابه.

هذه القضية الأولى بنفسها غير مقبولة من المجتمعات الجاهلية، وكلّ قوانين الجاهلية المُعاصرة والقديمة تُجُرِّم وتُحارب هذه المُمارسات الإيمانيَّة، ولذلك فالدعوة إلى ذوبان المسلمين في مجتمعات الجاهلية معناها أن يتخلى المسلم عن أصل دينه لا عن عملٍ من أعمال الإسلام، لأنَّ قبولَ المسلمِ بهذا الشرط يعني أنه قَبِلَ مِظلة الجاهلية حاكمةً لقيمه واختياراته، وهذا مُضادٌ للإسلام مضادةً تقضي على أصل الإسلام.

هذا المستوى الفردي الخاص بكلِّ مسلمٍ هو عينه ما يجري على الدولة المسلمة، والجماعة المسلمة، فإنَّ إيمان هذه الدولة بالإسلام وقيمه تعني خروجاً تاماً عن قيم الجاهلية ومظلتها، ودولة الإسلام دولة دعوةٍ وجهادٍ لا يشكُّ في هذا أحدٌ شمَّ رائحة الإسلام، والكفر لا يرضى أبداً بهذا، فإنه حين يقبل بوجود دولة «مسلمة» إنما يقبلُ بها إن كانت تحت مظلته وقيمه، وأي خروجٍ لها عن هذا الخط يعني أنها دولة مُعادية محاربة يجب إزالتها.

ما يدعو له البعض من مسلم مواطن، أي مسلم «يحترم» ويقبل الخضوع لقِيم ونظامِ الدولة الشركية الجاهلية معناه بكلِّ وضوحٍ هو أن يتخلى المسلم عن إسلامه، ومثلهم مَن يدعو إلى دولة مسلمةٍ ضِمن الشرعيَّة الدوليَّة، يعني أن تتخلى هذه الدولة عن إسلامها.

يجب على المسلمين جميعاً أفراداً وجماعات أن يعلموا أنَّ المُدافعة هي بين منهجين لا يجتمعان كعدم اجتماع النُّور والظلام، والله مدح المؤمنين بقوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1]. وهؤلاء يريدون أن يكون المسلم في بعض النُّور في الظلمات.

إنَّ الإسلام لا تتحقق أهدافه ولا يكون رحمةً للعالمين وهو يخضع لقيم إبليس وجُنوده، وإنما تتحقق رحمته على أهله أصالةً وعلى غيرهم تَبَعاً إنْ تمايز بوجوده كما هو مُتميز بقيَّمِه، وحين يفهم المسلم هذا يعلمُ يقيناً أنَّ الجهاد هو قدر هذا الدين، وأنَّ المُدافعة صفةٌ لاَزِمَةٌ له، فإننا لا يمكن أنْ نتصور إسلاماً بلا خضوع لحُكم الله تعالى، ولا يمكن أنْ نتصور إسلاماً فيه القبول بحكم الكفر والشرك، وهذا هو عين ما تقوله الجاهلية وقادتها من الشياطين، فهم لا يقبلون «مواطناً» غير خاضع لحُكمهم، وكذلك لا يقبلون ولاء مسلمٍ لغير «دولتهم»، فلابدَّ إذاً قَدراً من المُواجهة والمُدافعة.

هذه هي طبائع الدول والممالك، ومن تَبَصَّرَ بهذا عَلِمَ أنَّ المسلم لا يمكن أن يكون مجاهداً أو مُعْتَزِلاً لكلِّ تلك الفِرَقِ، وعَلِمَ أَنَّ دولة الإسلام لا يمكن إلاَّ أنْ تكون مجاهدةً، وكذلك لا يمكن أنْ تقوم إلاَّ على الجهاد كذلك.

هذا هو واقع دولة النَّبيِّ ﷺ، فإنها عاشت الجهاد منذ قِيامها لا ينفكُ عنها، والمرء لا ينبغي له أن يتساءل هل هي اختارت هذا الطريق أم فُرِضَ عليها، لأنَّ هذا السؤال إنما ينشأ في عقل مَن يتصور أنَّ الإنسان سمكة، أو يتصور السمكة إنساناً، فيتساءل هل تنفس السمكة في الماء اختياراً أم اضطراراً، ولذلك فارتباط الجهاد مع الإسلام هو ارتباطٌ قَدري، وهو بيئته التي يحيى بها، وهو فضاؤه الذي يعيشُ فيه، وأي محاولة لإخراجه من هذه البيئة وهذا الفضاء يعني موت الإسلام.

هناك مَن يخاف على الإسلام من هذا الحِمْل العظيم وهذه التكاليف الشديدة، ـ هذا إنْ أحسنا الظنَّ بهم فإنَّ بعضهم يريد إرضاء الله وإرضاء الشيطان معاً، ويريد الجنَّة بلا ابتلاءٍ ولا محنٍ ـ، فيُقال لهؤلاء الذين يخافون على الإسلام:ـ

إنَّ الخوف على الإسلام إنما يكون من البِدع والضلالات، فإنَّ الأديان الربَّانيَّة إنما بادتْ وذهبتْ حين غيَّرها أهلها ومسخوها عن حقائقها كما نرى في اليهودية والنَّصرانيَّة، وإنَّ أخطر ما واجهه الإسلام هو الأئمة المُضلين كما قال رسول الله ﷺ[2]، أما الأعداء فلم يكونوا يوماً إلاَّ مصدر قوة للأنبياء وأتباعهم كما قال الله تعالى في سورة «الفرقان»: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾[3]. فبوجودِ الأعداء تتحقق الهداية؛ لأنَّ الأشياء تُعرفُ بضدِّها،

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

[2] إشارة إلى الحديث الذي أخرجه أحمد في «المسند» **بإسناد صحيح**: «**إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَةُ المُضِلُّونَ**» حديث رقم: ٢٢٢٩٣. وهو عند الترمذي ٤/٤٣٧ حديث رقم: ٢٢٢٩ في الفتن «ما جاء في الأئمة المضلين». وقال: **حسن صحيح**، والدارمي ١/٨٠. طبعة الريان.

[3] سورة الفرقان، الآية: ٣١.

وبوجُودِهِم يتحقق النَّصر، لأنَّ النَّصر لا يكون إلاَّ بعد مُنازعةٍ، وهذا يُثبته التاريخ فإنَّ وجودَ الأعداء للإسلام هو عامل نهضةٍ وإحياءٍ لما يترتب عليه من الجهاد والعِلْمِ والطاعات.

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾.

تأملْ هذا الواقع الذي عاشته المدينة حين كانت المحنَّة التي يمكن لو وقعت أنْ تزول المدينة بكاملها، وتفكرْ فيها كمقدمةٍ لخطوةٍ خطتها نحو هدفٍ جديدٍ هو عاقبتها من طرد اليهود ـ بني قريظة ـ منها، تعلمْ أنه لا يمكن أنْ تسيرَ أُمَّةَ الإسلام خطوةً نحو هدفٍ من أهدافها إلاَّ بعد محنٍ وعقبات تُثبت فيها استحقاقها للنَّصر وتحقيق هذه الخطوة، ثم تنعم بهذا الابتلاء الجماعي الشامل لكلِّ المدينة وأهلها؛ رجالاً ونساءً وأطفالاً، لِتَعْلَمَ أنَّ المشاريع الجماعيَّة لأُمَّةِ الإسلام لا تُنَالُ بغداءٍ فرديٍّ، فالهبات العامة تحتاج إلى محنٍ عامةٍ، فلا يُساقُ النَّاس جماعات لغنائم ووراثة سلاطين وممالك وهم يهزجون أهازيج الفرح والسرور، بل لا تبلغ هذه الجماعات إلى خطوةٍ من الخطوات إلاَّ بغمرات تجتاحها فتتجاوزها بالصَّبر والثبات.

كل المناهج غير الجهادية، وكل المناهج الجهادية المحلية لتحقيق أهدافٍ يسمُّونها بالوطنية هي مناطق ظلال، لا النُّور أدركته ولا الظلمة أفلتت منها، ولكن وحدها اليوم جماعات وطوائف الجهاد التي صدمتِ الجاهلية هي التي تسير إلى أهداف الإسلام، وهو سير لا تظهر آثاره في بداياته لأنَّ الحال شديدٌ، والظلمة ساجية، فالخطوات قصيرة ولكنها حقيقية، لأنها لا تأخذها من منَّة الجاهلية، ولا حسنة مرضي عنْهم بها، بل تُؤخذ بالدم والعرق والخوف والحِصار والقُروح تِلْوَ القُروح، ثم إنَّ هناك ما نفقده اليوم هو عاملٌ مُساعدٌ للوضع الأول في نشوء مدينة رسول الله ﷺ وهو عامل اليوم ضدَّ المجاهدين وهو البيئة المُغلقة، فقد بنى النَّبيّ ﷺ مدينته وثبت أركانها وقِوى الكفر الكبرى من فارس والروم لا نعلمُ شيئاً عنها كما ثبت ذلك من قصة أبي سفيان مع هرقل الروم في بيت المقدس، وذلك بعد صُلح الحديبية، وإرسال رسول الله ﷺ رسالة الدعوة لهرقل، فإنَّ هرقل لم يكن يعلمُ شيئاً بأمر النَّبيِّ ﷺ ولا مدينته ولا ما يجري في داخل الجزيرة العربية في الحجاز، ولذلك لما خرج الصَّحابة لأول لقاءٍ مع حَرَسِ حدود الروم كان الوضع في المدينة ثابت، والمحيط التي تعيشه مؤمن بالصلح مع زعيم القبائل قريش في مكة، ومع ذلك فإنَّ هذا اللقاء لم يحقق هدفه وذلك في غزوة مُؤْتة كما هو معلوم.

ولكن يمكن أن يُستعاض عن هذا الوضع بنشوء حركات الجهاد في أماكن بعيدة عن المركز ـ أي سيطرة الكفر المُباشر والمهم ـ، وهذا ما يحصل بفضل الله تعالى، فإنَّ اهتمام جماعات البدعة في تحقيق وجودها وقبولها في المراكز لاهتمامها بخيالات وأوهام النَّصر الرقمية وغير الحقيقيَّة، يُقابله نشوء جماعات الجهاد في أماكن بعيدة عن هذه المراكز، والعصية على الإفناء والإزالة بفضل الله تعالى.

هنـاك مـشهدٌ خـادعٌ لـبعض المتـأملين، وفيـه صـورتان، صـورة الجهـاد الموضـعي الـذي يُـسمُّونه بالوطني، وهو جهادٌ يُدافع عن نفسه مـن خـلال الـشرعيَّة الجاهلية في حـواره مـع الآخـر، ويكـسب الأتباع الكثيرين مـن خـلال خطاب الله تعـالى وخطـاب الـشرع الإسـلامي لأنَّ المـسلمين هـم عُمدتـه وقواعده، وهـذا جهاد لحركات تبني نفسها من خلال المؤسسات الظاهرة المقبولة بصورة من الصور، والـصورة الأُخـرى لجهـادٍ يُؤسس نفسه مـن خـلال الخطـاب الـشرعي، وغـير مقبـول إلاَّ مـن خـلال الخُلَّص في فهمهم ووعيِّهم، وهو يصدُّ الكفر خارجياً وداخلياً، ويرفضُ أنْ يـضعَ نفـسه رقمـاً في أي حـسابٍ مـن فِـرَقِ الكفـر المُتنازعـة والمُتعـددة، وهـذا النـوع يـضطر أنْ يعـيشَ بعيـداً عـن المؤسـسات الظاهرة، والتي تحقق بعض المكاسب الإنسانية والقبول الاجتماعي، وهو يـأوي مـضطراً إلى أمـاكن بعيدة عن المركز لا تغري المفتونين بالعمل الجماهيري العريض، ولا بالذين يـأملون أن يكـون التغـيِّير من خلال حِرَاكٍ جماهيريٍ تصنعه الدروس والكُتب المثقفة للوعي العام.

هذا الاختيار القَدري المُلازم لعمل الإسـلام وهـو الجهـاد، ولعقيـدة الإسـلام بوجـوب الـبراءة مـن المُشركين وتوحيـد الله في الحُكـم والقـضاء، يُوجِـب تكـاليف شـديدة أقلـها هـو الـشَّهادة أو الـسجن، ولكن أكثرها عذاباً هو الصِّراع النَّفسي المُرافـق للقِلَّـة المُمتحنـة وهـي تـسير مُتوازيـة مـع قطيـعٍ كـبيرٍ في الطرف الآخر من الصورة السابقة.

لقد خُلِقَ الإنسان اجتماعياً بـالطبع كمـا يقولـون، والفَـرادة مُرهقـة جـداً، ولهـا تكـاليف شـديدة، ولكن مَن يسلك طريق القرآن ويتأمله في ليلـه ونهـاره، ويستحـضر ذِكـر الـدار الآخـرة في كـلِّ نفـسٍ يتنفسه سيُعان حتى يبلغ الشَّهادة بإذن الله تعالى.

ومن أعظم محن هذا الطريق كذلك أن تفتح له سبل نحو التحاق الجماهير بـه في ظـرف تـضعف فيـه سطوة المراكز على مكان من الأمكنة، فما يلبث المركز أن يُعيد اهتمامه بهذا المكان، فتقع المحنَّة علـى المجموع فيكون التمايُّز من خلال غزوة أحزابٍ شديدةٍ، فيظهر حينها حقيقة هذا النمـو، هـل هـو نمـو سرطاني غير حميد أم هو طبيعي يتلاءم مع ظرفه وحقيقته.

هذا التراجع إنْ كـان النمـو غـير حميـدٍ يُرهِـق هـذا الاختيـار وأهلـه، ولكـن حـين يتـذكر أهـل هـذا الطريق أنَّ خطوةً صغيرةً حقيقيَّةً خير من ألف خطوةٍ وهميَّةٍ حينها يتجاوزون هذا الألم ويثبتون على الطريق.

لقد نشأت دولة التوحيد في نجد بقيادة محمد بن عبد الوهاب في بيئة مُغلقة سياسياً واجتماعياً وحين اخترقت هذا الإغلاق ذهبت وانتهى أمرها وقضى عليها إبراهيم باشا بن محمـد علـي الألبـاني حـاكم مصر، ولكن في خِضَم هذا الوعي يجب على طوائف الجهاد أن تتجاوز رؤيتها الضيِّقة بأنهـا مؤسـسة هي التي بدأت الطريق وهي التي تجب أن ترث آثاره، لأنَّ هذا المعنى يُلغـي عالميتهـا، فهـي قـد تـرث بنفسها، وقد يأخذ كلّ إرثها طائفة بغير اسمها وبغير قيادتها لكنها على طريقتها في أماكن أُخرى مـن

الأرض، تكون هذه ثمرة من ثمار جهادها، واهتدت بنورها، وتحقق لها الظرف السَنني الذي يحقق لها الإرث في هذا المكان من العالم.

ومما يجب العِلْم به لهذه الطوائف المجاهدة أنَّ بركتها على المسلمين عامة، ولذلك فمجرد وُجودهم وبقائهم يحقق الخير لكلِّ المسلمين وشرح ذلك يطول، ولكن يكفي أن يعلموا أنهم خط الدفاع الأول عن المسلمين، فبقاؤهم يعني بقاء من وراءهم في أمانٍ في أعمال الإسلام التي يمارسونها لانشغال الكفر بهم، ولو انهار هذا الخط يعني تفرغ الكفر لمن وراءهم من أصحاب الاختيارات الضعيفة عن ذروة سنام الإسلام، ولقد انهارت الدولة المسلمة في نجد، ولكن كان لها آثارها العظيمة على قطاعٍ كبيرٍ من المسلمين عِلْماً وَعَمَلاً.

هذا كلّه مع الوعيِّ أنَّ الإسلام اليوم لا ينحصر في مكانٍ تجري عليه كلّ الحلقات القَدرية من أولها إلى آخرها، بل إننا نعلمُ أنَّه يمكن أن تتحقق خطوة في مكانٍ وعلى يدِ طائفةٍ، ثم ترث أرباح هذه الطائفة طائفة أخرى في مكانٍ آخرٍ، وهكذا تتراكم الانتصارات مُتجاوزة المكان الواحد والطائفة الواحدة، ولكن لن تنتهي حلقات المُدافعة بين الإسلام والكفر، لبقاء عوامل الإغراء القَدري والاستنزاف الإيماني في أُمَّة الإسلام، وهذا قد شرحته في كتاب: «**لماذا انتصرنا؟**»[1] أرجو من الله أن يُيسر نشره برحمته.

إيمانُ المسلم بدوام الجهاد مع كلِّ الظروف يعني كُفره بعقيدة نهاية التاريخ التي تُضاد القرآن من كلِّ وجهٍ، فسُنَّة التدافع تعني بقاء عوامل الصعود في الأُمَّة الحيَّة، وعوامل الهلكة في الأُمم المُتمكنة، حتى تأتي الساعة، وأما قبلها وقبل ظهور أشراطها فإنَّ سنن فناء الأُمم أقوى ظهوراً من سُنن سقوط الأَبنية.

﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾.

لقد وصف الله الحالة النفسيَّة للجموع في داخل المدينة في ما تقدم، وهنا وصف الحالة العلميَّة عند وقوع هذا الابتلاء، فالمؤمنون علِمُوا هذا الطريق علماً وعملاً، وشهدوا محن سابقة كانت فيها العاقبة لرسول الله ﷺ وأصحابه، ولذلك فهم يظنون بالله أحسنَ الظنِّ، وهو الذي يَلِيقُ بربِّنا سبحانه وتعالى، وأما المنافقون فقد ظنوا بالله شرّاً، والله سبحانه وتعالى عند ظنِّ العبد به إنْ خيراً فخير وإنْ شرّاً فشر، وهذا من أعظم أعمال القلوب، ولا يكون إلاَّ في المحن والشدائد، مثله مثل الصَّبر لا يكون إلاَّ بالابتلاء، وهذا يُعَرِّف المؤمنين أنَّ هناك أعمالاً إيمانية لا تكون إلاَّ بالابتلاء والامتحان، فلا يُدركها إلاَّ أهلها.

[1] لقد ضيَّع أعداء الله ـ أخزاهم الله في الدنيا والآخرة ـ هذا الكتاب وكُتبٍ أخرى كتبها الشيخ حفظه الله تعالى.

في هذه الآية ﴿ إِذْ جَآءُوكُم ... ﴾ زَخْمٌ وصْفِيٌّ دَافِقٌ، ليس فيه فراغٌ ولا هوامشٌ، بل امتلاءٌ بالحركة التي تملأ ساحة معركة لجيش لجِبٍ[1] يضربُ حِصَاره ويُطْبِقُ بِفَكَيْهِ على فئةٍ تعتصمُ بظنِّها الحسن بربِّها، ويمتلئ الوصف بأمواج باطنية تجتاح النُّفوس كالجبال الشاهقة، فهو لجب خارجي ولجب داخلي، ولو فككتَ هذا الزخم إلى أفراده ومساحته ومسرح أحداثه لَوقفتَ على مجرد الشواطئ فيه، لأنَّ المشاعر تُدرك معانيها عقلاً فقط من خلال البيان، ولذلك كان الخطاب في هذه الآية إلى مَنْ عاش الوقائع أحاسيس ومشاعر ومُشاركة، فهو أدرى بقيمة هذا الوصف الدافق المليء السابغ، وهؤلاء هُم أقرب النَّاس لإدراك قيمة كلمة النعمة التي تقدمت في الآية السابقة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾.

هذا الوصف الجامع للحركة الأرضية والحركة الباطنية، حركة الجموع على الأرض وحركة دواخل النُّفوس هو ما يميِّز كتاب الله تعالى، وفي هذه الآية سكتَ القرآن عن نفسيَّة المشركين ولم يأتِ على ذِكْرِهَا، لأنهم غير مقصودين بالخطاب، بل المقصود هو بيان نعمة الله تعالى على المؤمنين، ولذلك سنرى في الآيات التالية حديثاً خالصاً عن المدينة النَّبويَّة، إذ يُفيضُ في بيان مواقف أهلها من الفريقين؛ مؤمنين ومنافقين، وأما الأحزاب فيكفي وصف حركة جموعهم، وقد رأينا كيف قدم الله وصف مجيء اليهود ـ مِّن فَوْقِكُمْ ـ على وصف الأحزاب ـ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ـ لأنَّ خيانة بني قُريظة للعهود والمواثيق مع النَّبيِّ ﷺ كانت أشدّ إيلاماً وَوَقْعاً على نفوس المؤمنين.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[2].

في هذا الظرف الشديد حيث هطلَ عليهمُ الهول من كلِّ الجوانب، وأطبقت كلّ المنافذ بالحراب التي تحمل الموت والعذاب، والظنون تذهب وتأتي؛ هل هي النهاية؟ أم ماذا سيكون؟ فإنْ كانتِ النَّجاة، فكيف سيكون سبيلها؟ وفي كلِّ لحظة يزداد ضغط النُّفوس وخفقان القلوب.

إنه البلاء والمحنة؛ وهي قرائن الإيمان، ليس الإيمان الصامت الخفي الذي يسره صاحبه دون أن يحمله واقعاً ضدَّ الكفر، وليس الإيمان الذي يقبل المجاورة للباطل ليكون لوناً مجملاً لواقع الجاهلية التي تحسن في بعض حيلها هضمَ هذا النوع الساكن سُكُونَ مَن لا وجود له، فهذا النوع من الإيمان ـ إنْ كان ـ ليس له كرامة الابتلاء، وإنْ كان كذلك فليس له حقّ الوراثة في الأرض ولا الشَّهادة على الخَلق.

الشَّهادة على الخَلق التي يسعى إليها البعض ليست حواراً «أكاديمياً» يجريه هؤلاء مع قومٍ يتلذذون في المعارف تلذذ الطعام والحفلات ومُشاهدة المسرح، ولا يفهمونها «ديناً» يلزم القلب والعقل

---

[1] قال الليث: اللَّجَب: صوت العسكر، يُقال: عسكرٌ لَجِبٌ: ذو لَجب. «تهذيب اللغة العربية» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

[2] سورة الأحزاب، الآية: ١١.

والسلوك، فهمهم أن يملئوا المصطلحات الجديدة بكلمات إسلامية كبيرة لا تحركُ مسلماً لجهاد، ولا مُتصدقٍ لصدقةٍ ولا تاركَ صلاةٍ للصلاة، ثم يزعمون أنَّ هذا هو أعلى معاني الشَّهادة على الخَلق.

هذه الشَّهادة إنْ كانت كذلك فهي شهادةٌ باردةٌ لا تُغَيِّر قلباً ولا سلوكاً ولا دولةً بله أنْ يُقال إنها شهادة حضارية، فالحضارة ليست كلمات الفلاسفة، ولم تكن يوماً كذلك، بل الحضارة هي القيم العمليَّة في بناء الإنسان، لا واحداً بل الأُمَّة، والتي لا تكون أُمَّةً إلاَّ بكيانٍ واقعيٍّ مُمَكَّنٍ له سلطانٌ قاهرٌ.

فالشَّهادة الحضارية هي شهادة الأنبيَّاء وأتباعهم التي تصطدمُ مع الآخر لأنها تجاهده وتُعاديه وتُسفهه، فيقع لها البلاء والزلزال الشديد.

أما هؤلاء الذين يقبلون مظلة الجاهلية، ويعيشون في كَنفها، ويحترمون ويُهادنون كِيانها القاهر، وأعلى مطالبهم «مجالس حوار» صامتٍ باردٍ، سلاحه ورقة تُلقى مُقَابِلَ ورقةٍ أُخرى، مع تركهم لسلطان الجاهلية بجنودها الذين يرفضون براجمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيعملون عملهم في الإنسان والأرض والمُقدرات فهؤلاء مساكين بحقٍّ وهُمْ أولى النَّاس دخولاً في قوله تعالى: ﴿ **وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ** ﴿٢٢٤﴾ ﴾[1]. إذ يظنون أنَّ معارك الأُمم هي معارك البيان والكلمات.

إنَّ طريق الأنبيَّاء هو المؤدي قَدراً لهذا الحال ﴿ **هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا** ﴿١١﴾ ﴾. ولذلك ما أنْ يعمل المجاهدون عملهم في الأرض حتى يقع بعض التضِّييق على هؤلاء «الشعراء الغاوين» بعض التضِّييق؛ أي أن تذهب الابتسامة من وُجوه محاوريهم في حفلات الطعام، فيذهبون سبّاً وتجديعاً في المجاهدين بأقوال هي أشدّ من أقوال أهل الكفر، زاعمين أنَّ المجاهدين أساؤوا لسُمعة الإسلام وصُورته، وهذا من جهلهم إنْ لم نَقُلْ صادقين بكذبهم.

إننا نقول لهؤلاء: أخْرِجُوا أنفسكم من مُعادلة التدافع الحقيقي في الأرض بين الإسلام والكفر، لأنكم لا تُواجهون قِوى الجاهلية المُتمكنة القاهرة، وإنما تُواجهون مَن هم على هامش الحياة بالأوراق الصقيلة والكلمات الرشيقة، فإنَّ غضب هؤلاء عليكم إنْ واجه المجاهدون حكوماتهم ودولهم وجُنودهم فقولوا لهم: «لِمَ تغضبون؟ ألمْ نتفق أننا خارج ساحة الصِّراع بين المتقاتلين؟!» ولكن لن يقبلوا منكم ذلك لأنهم في الحقيقة ليسوا كذلك، بل لهم انتماء لهذه الحكومات المجرمة، لكنها لعبة الأدوار، وأنتم لم تقفوا موقف الإيمان الذي مثل الصَّحابي المُؤمن حين رأى خطأ في صف الإيمان فقال: «اللَّهُمَّ إني أعتذرُ إليك مما فَعَلَ هؤلاء ـ أي إخوانه ـ وأبرأُ إليكَ مما فعلَ هؤلاء ـ أي الكفار ـ» ثم تقدم فقاتل حتى قُتِلَ رضي الله عنه[2].

[1] سورة الشعراء، الآية: ٢٢٤.

[2] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ عَمَّهُ أنس بن النضْر غَابَ عَنْ بَدْر فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّل قِتَال النَّبِيِّ ﷺ لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَجِدُ فَلَقِيَ يَوْمَ أُحُدٍ فَهُزِمَ النَّاسُ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ ـ يَعْنِي الْمُسْلِمُونَ ـ وَأَبْرأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ**. فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ،

الشَّهادة على الخَلق هو أنْ تسلكَ سبيل الوراثة، وهو السبيل الذي لا يتحقق إلاَّ بقوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾. أما أن يتجهم لك صديقك في حفلات الطعام وتجعل هذا سبباً لسبِّ أفعال المجاهدين أنها تُسيء للإسلام والمسلمين، وكأنَّ هذا الصديق بَقِيَتْ له خطوة واحدة ليدخل الإسلام فيكون كعمر بن الخطاب؛ إسلامه فاتحة نصر للإسلام في الأرض، فجاء المجاهدون الذين يُدافعون عن دين الأُمَّة وأعراضها ومُقدراتها فغضب هذا الصديق وتوقفَ إسلامه، فتلك صورة لا شكَّ ببطلانها وتزويرها.

الذين يقولون إنَّ المجاهدين يُسِيئُونَ لصورة الإسلام هؤلاء يريدون إرضاء الكفر عنهم، إذ عندهم مدح كافر للإسلام مدحاً لا يُقدم ولا يُؤخر خيراً من عبادة العباد وصدقة المُتصدقين وشهادة الشُّهداء، وهم يعيشون في كَنَفِ الكفر يقتاتون من فُتَاتِهِ، ويخافون أن يقع عليهم بعض تنكر الوجوه لهم، فكيف لو وقع عليهم قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾. فماذا سيقولون يومذاك؟!.

ثمّ متى جاز للمسلم العالم أن يجعل شرط العمل الشرعي أن يرضى عنه أصدقاؤه المُفكرون الكفرة؟! فهل هذا من التجديد في أصول الفقه الذي يدعو إليه بعضهم اليوم؟! هكذا يريد هؤلاء إيقاف الجهاد وفناء المجاهدين لأنهم يُسِيئُونَ لسُمعة الإسلام عند الكافرين، أما دين الله الحقّ ومُقدرات الأُمَّة وقضايا المسلمين فهذه يمكن أن تتحقق بحوار موائد الطعام بين المُثقفين.

صدق الله تعالى: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾[1]، هؤلاء هم؛ وأما غيرهم من العُقلاء والهُداة فقد قال عنهم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾[2].

وارْعِ سَمْعَكَ لقوله: ﴿ وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ﴾. تَفَقَهْ على الله لِتَعْلَمَ من هم هؤلاء اليوم.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

هذا حال النَّبيّ ﷺ وأصحابه وهم في المدينة، أي بعد أنْ أقام دولة الإسلام، ومثل هذا الوصف لم يكن قبل في زمن الدعوة والكلمة، وإنما جاء بعد أنْ حمل المسلمون السلاح وجاهدوا قريش ومَنْ وراءها، وهذا يصلح حجة للمتقاعسين وكارهي الجهاد وأصحاب مناهج الباطل والبدعة، لأنَّ زمن الدعوة والكلمة كان أقسى ما يُلاقيه المرء أن يرمونه بالحجارة والقاذورات، ويسبونه

فَلَقِيَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ؟ إِنِّي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ فَمَضَى فَقُتِلَ فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِشَامَةٍ ـ أَوْ بِبَنَانِهِ ـ وَبِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ: مِنْ طَعْنَةٍ، وَضَرْبَةٍ، وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ. البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة أُحد. حديث رقم: ٤٠٤٨. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب ثبوتِ الجنَّة للشهيد. حديث رقم: ١٩٠٣.

[1] سورة الشعراء، الآيات: ٢٢٤ـ٢٢٦.

[2] سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

بالكلمات، وأما إنْ حمل السلاح وقاتل فالأمر مختلفٌ، إذ أنَّ الابتلاء حينها هو ابتلاء أرواح تفنى وتزهق، ومادة المُدافعة هي الأسلحة والدبابات والمدافع والصواريخ، وهؤلاء سيقولون: كلمة الحِكمة أسلم وأجمل وفيها حُسْن عاقبة في الدُّنيا.

ولكن شتان بين مُرَادِ الله ومُرَادِهِمْ، فإنَّ مُرَادَ الله مِنْ هذا الدِّين وأهله أن يرثوا الأرض، وأنْ يمكّن لهم فيها وهذا لا يكون إلاَّ بالجهاد، ولذلك جعل الله تعالى مقدمة التمكين هو إذنه بالجهاد في سبيل الله تعالى كما في سورة «الحج»، فقوله تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩** ﴾[1]. كان بعدها ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾[2]. فلا تمكين إلاَّ بجهاد، ولا جهاد إلاَّ بابتلاء ومحن وزلازل.

بعضهم يقولون: لا تستفزوا الكُفر بالجهاد، فإنْ صار له نوع تمكين قال: لا تستفزوا الكفر بإخلاصكم: أنَّ الحُكْمَ لله وحده، هذا مع أنَّ الكفر يعيث في الأرض فساداً، ويُهْلِكَ الحرثَ والنَّسْلَ، وهم يدفعون أثماناً من القتل والسجن بلا عاقبة.

إنْ تَرَكَ المسلمون الجهاد وتَركوا الحُكْم بما أنزل الله تعالى فماذا بقي لهم من دينهم الذي رضي الله لهم؟! نحن حين نَفْهَمُ على الله ونُطيعه بالجهاد، ونحض النَّاس عليه نَفْهَمُ كذلك أنهم سَيُبْتَلُونَ البلاءَ الشديد، وسَيُزَلْزَلُونَ في مواقع عِدَّة، ومواقف كثيرة، ونعلمُ أنَّ الموت في سبيل الله ينتظرهم، ولكن نعلم أنِّ العاقبة للمتقين كذلك.

هذه مدينة رسول الله ﷺ أُقِيمَتْ رغم أَنْفِ الكُفر، ولم تأخذْ إِذْناً مِنْ أَحَدٍ، ولذلك حصل لها ما حصل، ولكنها كانت كذلك مدينة أَكَلَتْ كُلَّ المُدن، فيها رجال ورثوا الأرض وملئوا العالم هدايةً ونوراً.

﴿ **وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢** ﴾[3].

لقد وقع الامتحان والابتلاء، وبه تم فضح المنافقين، فأخرجوا ما في صدورهم من الكفر والمرض، ذلك بأنَّ رسول الله ﷺ وعد أصحابه بفتح فارس والروم، وغنيمة أموالهما وإنفاقها في سبيل الله، فلما جاءتِ الأحزاب وحصل من البلاء ما حصل ذهبوا يستهزؤون بالوعود النَّبويَّة ويُشككون فيها وقالوا: لقد وعدنا باطلاً، وغرنا هذا الباطل فأوصلنا لهذا الحال من الشدَّة والبلاء وارتقاب الفناء.

لقد كانت غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة النَّبويَّة الشريفة، وقد رأى النَّاس، كلَّ النَّاس، نصرَ الله لرسوله ﷺ في بدر، في معجزة من معجزات الحروب التي لم يألفها العرب وذلك في السنة

---

[1] سورة الحج، الآية: ٣٩.
[2] سورة الحج، الآية: ٤١.
[3] سورة الأحزاب، الآية: ١٢.

الثانية للهجرة، ورأوا تأييد الله لرسوله ﷺ في حمراء الأسد في السنة الثالثة للهجرة، ورأوا نصر الله لرسوله في بني قينقاع بعد بدر في نفس عامها، ورأوا نصر الله لرسوله ﷺ في غزوة دومة الجندل في السنة الخامسة، إذ تفرق فيها المُشركون خوفاً من جُنْدِ المسلمين وغنموا فيها إبلاً، ورأوا نصر الله لرسوله ﷺ في غزوة المريسيع ضدَّ بني المُصطلق سنة خمس للهجرة، وقيل بعد الأحزاب في السنة السادسة للهجرة وقَواه كثيرون، كلّها غزوات مظفرة قد أدت مقاصدها، وكلّها تظهر فيها دلائل صدق الرسول ﷺ، وصحة طريق الجهاد الذي دعا إليه وكان شريعته، ومع كلِّ هذا فإنَّ أول ما تطل المحن والابتلاءات حتى يقول المنافقون هذه الأقوال المُرجفة الجبانة الضالة، فماذا سيُقنع هؤلاء المرضى وأسيادهم المنافقون؟!.

لقد كان رسول الله ﷺ بين أظهرهم، وهو مَنْ هو في كلِّ جوانب الحقِّ قولاً وسَمْتاً وهَدْياً، ومع ذلك كان النِّفاق حاضراً، مرضى النُّفوس يتأثرون ويُتابعونهم، ولا يَتابعون وعد رسول الله ﷺ ولا هديه، وهذا يعلِّم المجاهدين في كلِّ وقتٍ أنْ لا يلقوا سمعاً للمُخالفين، ويجب أنْ لا يحزنهم ما يقولون ولا ما يفعلون، فوالله الذي لا إله إلاَّ هو لو سارت البحار بين أيدي المجاهدين اليوم جنوداً، ولو أظلتهم الغَمام في سَيرهم ومَقيلِهِمْ، ولو نطقتِ الحجارة بخُطَبٍ تُؤيدهم وتُشجعهم لَبقي كارهُو الموت ومحبُّو الحياة في مواطنهم التي تبغض الجهاد وتكرهُ أهله، وسبب ذلك أمرٌ وحيدٌ أنَّ الجهاد بلاءٌ ومحنٌ، وأنَّ فيه الزلازل والقُروح، فهذه عِلَّة الرفضِ والكراهةِ لا غير، وأنهم وإنْ ساروا معك يوماً لغنيمةٍ مُتَيَّقِنَةٍ لأعرضوا عنك في محنةٍ محتملةٍ، ومثل هؤلاء لا يأتون في أول الطريق ولا وسطه، ولكنهم سيأتون حين تقتسم الغنائم وسيخطبون يومهم على المنابر غير خجلين مما كان منهم، يقول الله في هؤلاء: ﴿ **وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾** ﴾[1].

وإنهم اليوم والله قد قالها مرضى النُّفوس حين وقع البلاء ببعض المجاهدين: ﴿ **قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾** ﴾. ووالله إني لَسمعتها من تلاميذهم وهم يُرددون كلام شيوخهم وهم يقولون: «ماذا سيكون حالهم لو لحقوا بكم لهذه المواطن؟! أتريدون لهمُ الموت كما وقع لفلان وفلان».

أما المؤمنون فوالله إنهم ليقولون حين تفوتهم الشَّهادة مع الأخيار: ﴿ **يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا** ﴾[2]. ليحذرِ المجاهدون من هؤلاء وقتَ الغنائم بالتمكين والعزَّة وليقولوا لهم يومها: ﴿ **إِنَّكُمْ**

---

[1] سورة النساء، الآيتان: ٧٢-٧٣.
[2] سورة النساء، الآية: ٧٣.

رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]. وقولوا لهم: ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾[2].

إنَّ هـؤلاء المنـافقين وأتبـاعهم مـن مرضـى النُّفـوس مـن محـبي الـدُّنيا وكـارهي المـوت لا يلتحقـون بالمجاهدين بسبب نقص حجة المجاهدين، ولا بسبب غلط المجاهدين في باب من الأبواب، بل لأنَّ الجهاد في زماننا أُتون نارٍ محرقةٍ، مَن آمن به سيُبتلى وسيُزلزل في ماله وأهله ومصدر رزقه، وإنَّ أقل ما يُلاقيه هو السجن، وأحب ما يلقاه هو الشَّهادة في سبيل الله تعالى.

دَعُوكُمْ من هؤلاء واتركوهم يُراقبون على الشواطئ ومقاعد المشاهدين، وإنْ دافعوا عن أنفسهم بسبِّكم وشتمكم فامتثلوا لأمر الله وأعرضوا عن الجاهلين.

عيشوا أيُّها المجاهدون مع ذروة سنام الإسلام، ودعوا الراضين بالهوان يعيشون بين الحُفر.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

أما المنافقون فالكفر في قلوبهم مكينٌ ثابتٌ، فما شأن مرضى القلوب؟.

لقد وعد الله عباده المؤمنين وُعُوداً في كتابه العزيز، ورتب هـذه الوعـود مـع أعمـال المـؤمنين، فقـد وعدهم بإجابة الـدُّعاء إنْ دعـوه مخلصين لـه الـدِّين، ووعـدهم بطيب العيش وسعادته إنْ أطاعوه وامتثلوا أمره، ووعد القُرى المؤمنة بفتح خزائن السماء والأرض لـهم إنْ آمنوا واتقـوا، في وعـود كثيرةٍ وبين فعل المؤمن وحصول الوعد ووقوعه زمن ممتلئٌ، يسعى فيه المؤمن في جُهْدٍ ومشقةٍ، وهـو أشبه بمن يسير في نَفَقٍ مُظْلِمٍ يتعثر فيه ويُعاني ويتألم، وهـو مـؤمنٌ أنَّ في النهايـة نـوراً يُـذْهِبُ هـذه الظُلمة، ويَقِينُهُ جاء من وعد الله تعالى إذ قال: ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾، وهـو كلما اشتدت عليه محن الطريق وآلامها عَلِمَ أنَّ المخاض قريبٌ والفرجَ حانَ وقته، وهذا شأنه مع كلِّ محنةٍ، فإنَّ انقضاء محنة من المحن لا يعني أبداً أنْ لا يأتي غيرها، ومرض القلـوب ههنا هـو قِلَّة اليقين علـى وعد الله تعـالى القَدري وعلى شرعه، فهو لا يرى في تطبيق الشرع إلاَّ المشقة ولا يرى النُّور، ومع أنه يرى في صـورٍ مُتعددةٍ كيف تنفرج الغَمرات بفضل الله ورحمته، ولكن انتكاسة قلبه تمنعه من التبصر والاعتبار، واستغراقه في حاله وقت المحنة تغلق عليه أبواب البشارات الإلهيَّة بالفرج وانقشاع الغمـة، وهـذا من أشدِّ أمراض القلوب التي تعتري طريق العاملين لدين الله تعالى، فهو ربما يعلـمُ أنَّ العاقبـة خيرٌ لكنه يعلم كذلك من نفسه أنها لا تثبت وقت المحن وتتمنى أنها لو لم تسلك هذا الطريق.

هؤلاء المرضى لا يُصلحهم الآيات الكونية المُتعددة التي يرونها لأنَّ الآيات الكونية لم تكن يوماً طريقاً لإيمان المريض والكافر، وهذا مقرر في كتاب الله تعالى في مواطن عدَّة كما قال تعالى في سورة

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٣.
[2] سورة الفتح الآية: ١٥.

«الأنبياء»: ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1]؟!. وفي «الكهف» قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾[2]. لأنَّ هؤلاء يحبون الراحة والدعة ولا ينظرون إلى العواقب، وهذا مرضهم، ولذلك هم يرفضون الغمرات مع علمهم بما يأتي من الخيرات لأنَّهم أهل خوفٍ وجبنٍ.

هذا المرض وهو ضعف اليقين على وعد الله بحُسن العاقبة، والخوف من الغمرات وعدم تحمل الصِّعاب وهو ما يخرج هذه الكلمات ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾، ولذلك سترى أنه بعد انقشاع غمة الأحزاب ونصر الله للمؤمنين ووراثتهم أرض وأموال بني قُريظة بقي هؤلاء على حالهم من المرض والضعف كما قصَّ الله علينا أمرهم في سورة «براءة» في غزوة تبوك.

هؤلاء أصحاب إرادات ميتة، أَلِفُوا الهَوان، وربما تجد بعضهم قد خاض تجربة من التجارب ووقع له فيها امتحان وابتلاء ثمَّ مَنَّ الله تعالى عليهم بالفرج والنَّصر فبدل أن يعلم ويرى كيف نصره الله وأيده فيُعيد الكرة كرات يذهب ويتوب من أنْ يُعيدها مرةً أخرى، ويقول: «تلك نجوتُ منها فما أدري كيف ستكون الثانية».

ومن جهالات وضلالات هذا الصنف من المرضى ـ لا أقول المُنافقون ـ أنهم يظهرون أنفسهم أصحاب تجربة سابقة، أي تجربة الانتكاس والهروب، فيجلسون ويعظون النَّاس إيَّاكم وهذا الطريق، ويصرخون: «لقد جربناه فما نالِنا فيه إلاَّ الأذى والمكاره والصِّعاب والآلام».

إنَّ بعضهم يفعل ذلك تبريراً لنفسه للخور الذي أصابه في المحنة حين يطلب من الطاغوت أنْ يُسامحه وأنْ يرضى عنه، وهو الذي كان قبل ذلك يملأ الأرض بكلمات الحقِّ في وجه الطاغوت.

كان الأولى بهؤلاء أنْ لا يَعيبوا هذا الطريق، لأنه هكذا منذ بعث الله الأنبياء يدعون أقوامهم إلى دين الله ومُفارقة الشرك والجاهلية، طريق ألمٍ ومشقةٍ وابتلاءٍ، إذ كان ممن كان قبلنا «**يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ باثْنَتَينِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ**»[3]، وكان من أهل هذا الطريق من أُلْقِي في النَّار، كان الأولى بهؤلاء أنْ لا يَعيبوا هذا الطريق بل كان لهم سعة مِنَ الأمر وهو أن يعتزلوا هذا الطريق بصمتٍ ودون تبريرٍ للضعف، فيسكتون، ويُنكرون الباطل بقلوبهم، وهذا أمرٌ فيه سعة لهم، وهو من درجات الإيمان التي قَبِلَهَا الله تعالى من عباده، أما أنْ

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٦.

[2] سورة الكهف، الآية: ٥٥.

[3] البخاري عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ في «كتاب المناقب» باب علامات النُّبوة. حديث رقم: ٣٦١٢. طرفاه في: ٣٨٥٢، ٦٩٤٣.

لقد شرح الشيخ حفظه الله تعالى، ونفعنا بعلمه، هذا الحديث في رسالة مستقلة معنونة بـ«**طيب المقال في حديث الاستعجال**» فارجع إليها.

ينقلب هؤلاء المرضى على أعقابهم فيُصبح المجاهدون في سبيل الله مجرمين وطواغيت الأرض مؤمنون فيهم غلطٌ، فهذا ما لا يقبله الله منهم.

هذا الطريق لن تنتهي محنه بمحنةٍ واحدةٍ أتتْ فجاءت عاقبتها خيراً، بل ستمتد معه المحن، وكلما ارتقى المرء فيه كلما اشتدت عليه أنواع المحن العلمية والعملية لتُناسب المقام الذي يرقى إليه.

ليتفكر أهل هذا الطريق النَّبوي بالعاقبة، وأنها خيرٌ للإسلام والمسلمين، فلو صبر مرضى القلوب كما صبر المؤمنون في الأحزاب شهراً فقط لما قالوا هذه الكلمات الكافرة.

في مراتٍ كثيرةٍ يكون الفجر قد اقتربَ وحان وقته، فيربط الله فيها على قلوب المؤمنين وهم يُقَلِّبُونَ وجوههم في السماء وعيونهم دامعة تستمطر الرحمات الإلهيَّة، وأما مرضى القلوب فيصرخون جهلاً بأنَّهم لن يُعيدوا الكَرة، ويذهبون لغير الله طلباً للسلامة وطلب الفرج غير متوكلين على الله سبحانه وتعالى. ولو صبروا للحظات لجاءهمُ النَّصر والفرج وهم سجود بين يديه، صابرين، آملين الفرج من الله وحده.

هذه هي عِلَّة مرضى القلوب: قلَّة الصَّبر وضَعْف اليقين، ويتقوى الصَّبر بقوله تعالى: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** ﴾[1]. ويتقوى بأنَّ ما عند الله لا يُؤخذ بمعصيته، فلا يذل المرء دينه من أجل السلامة لأنَّ الله إنْ كتب لك السلامة فستأتيك لا يردها راد، وإنْ منعك الله إيَّاها فلن يأتيك بها أحد ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾[2].

حين يفقه المرء هذا لَفهم قول رسول الله ﷺ: «**أَشَدُّ النّاسِ بَلاءً الأَنْبِياءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ**»[3]. لأنَّ الأنبياء لا يسعهم إلاَّ العزيمة، عزيمة الصَّدع بالحقِّ، وعزيمة سبِّ دين المُشركين وآلهتهم، وعزيمة كسر أصنامهم، وعزيمة جهادهم، وعزيمة الزُّهد في الدُّنيا، وعزيمة العبادة وترك الشَّهوات، ومَنْ كان كذلك فسيُبْتَلى بلاءً تِلْوَ بَلاَءٍ، والنَّاس بعد ذلك درجات في هذا المقام، وكلما اقتربَ الرجل من هذه العزائم كلما اشتدَّ البلاء عليه، وكلما ترك باباً من أبواب العزائم كلما ابتعد عن طريق النُّبوة في ابتلائها.

---

[1] سورة التوبة: الآية: ٥١.

[2] سورة فاطر، الآية: ٢.

[3] الترمذي في الزهد من «جامعه» من حديث عاصم بن بهدلة عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله؟ أي النَّاس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**» وكذا هو عند النسائي في «السنن الكبرى»، وعند ابن ماجه في كتاب الفتن من «سننه» حديث رقم: ٤٠٢٣، ٤٠٢٤، والدارمي في الرقاق من «سننه»، وأخرجه أحمد بن حنبل وابن منيع وأبو يعلي وابن أبي عمر في مسانيدهم كلهم من حديث عاصم، وهو عند مالك في الموطأ وآخرين، وقال الترمذي إنه حسن صحيح، وصححه ابن حبان والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» في «كتاب أشد النَّاس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم» حديث رقم: ٨٢٨٣. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٠م).، وأخرجه أيضاً من حديث العلاء بن المُسيب عن مصعب، وللطبراني من حديث فاطمة رفعه: «**أشد النَّاس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون**» الحديث، وأورده الغزالي بلفظ: «**البلاء موكل بالأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل**».

مرضى القلوب لا يحبون هذا الطريق، فبدل أنْ يؤووا إلى أنفسهم فإنَّهم يخرجون على النَّاس بسبِّ هذا الطريق وعيب أهله والتشنيع عليهم، ويملئون الأجواء بكلماتهم: «أطيعونا فنحن أصحاب تجربة، وقد خُضْنَا هذا الطريق فلم نجدْ شيئاً»، مع أنَّهم لم يرفعوا في عين النَّاس إلاَّ لأنَّهم سلكوا طريق الابتلاء، إذْ بدونها ما هم إلا رُعاء الشَّاة وحملة أسفار بلا وعيٍ كالكثير من أمثالهم في معاهد الدراسة والتعليم ومسالك الوظائف التي يأكل فيها أهلها الماء باسم الله وباسم دينه.

لكنهم يظنون أنَّ ما يرفع لهم مقامهم في أعين النَّاس هو تميُّز علومهم ودقة فَهْمِ عقولهم لا ما قالوه من كلمة الحقِّ التي ابتلوا بسببها لتلازمهما، وهذا من جهلهم عن الله وبُعْدِهِمْ عن كتاب الله، فإنَّهم لما تعروا عن كلمة الحقِّ وبلائها عادوا حجارةً كالحجارةِ الكثيرة التي فقدت نور الهداية للنَّاس والحياة، وما أكثر الحجارة المنبوذة في الأرض.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ... ﴾.

المُنافقون يقولون هذا الباطل لكُفرهم بالدَّار الآخرة وكُفرهم بالرسالة، ومرضى القلوب يقولون ما يقولون بسبب ضعف إرادتهم وقِلَّة صبرهم ورَيْبِ يَقِينِهِم، ولكن القولَ واحدٌ، ويجتمعون مِنْ صعيدٍ واحدٍ، في مؤتمراتٍ واحدةٍ، الكفرة والزنادقة لأنَّهم يبغضون دين الله، والمنافقون لأنَّهم لا يتحملون تبعة المجاهدين في سبيل الله، فيسوق الزنادقة والكفرة هؤلاء الضِّعاف للتبرؤ من الجهاد والمجاهدين، ويلبسون كلماتهم ثوب الشرع والمصلحة الدينية، وهم يحلفون أنهم يريدون الإحسان والتوفيق ومصلحة الإسلام والمسلمين، ولا يعجبون من أنفسهم قط أنهم مع أعداء الله ومُبْغِضِي دينه في صعيدٍ واحدٍ، ويخُرجون معهم نفس الكلمات، ويُوَقِعُون جميعاً على بيانٍ وضلالٍ واحدٍ.

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

لقد جاء الوعد مِنْ رَحِمِ البلاء، إذ قال لهم رسول الله ﷺ ما قال من وعود النَّصر وهم يحفرون الخندق، ولما جاءه اليقين أنَّ قُريظة قد نقضوا العهود قال رسول الله ﷺ: «**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتحٍ من الله ونصره**»[1]. وهو وعدٌ قائمٌ لا يزول لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يخُلف وعده، وهذا الوعد هو حادي ركب المؤمنين دوماً، يُنْشِطُ فيهم الإرادات، ويبعثُ فيهمُ الأمل، ويُبْرِقُ في نفوسهم النُّور كلما ادلهمتِ الظُّلمة وألقتِ المحن بكلكلها على المؤمنين، فينبعثون زرافاتٍ وَوِحْدَاناً غير آبهين بالشيطان وجُنده ودِعايتهم أنهم لا يُغلبون، بل هم يؤمنون بوعد الله أنَّ الكفر لا روح له، وأنَّ القُرى العظيمة مهما كبُرَت وتعالتْ فإنَّ مصيرها إلى زوالٍ بأيدي المؤمنين.

[1] لم أقف عليه في المراجع التي بين يدي، ولكن وجدته باللفظ التالي عند الذهبي في «سير أعلام النبلاء» الجزء السادس والعشرون، الصفحة ٤٩١: «**اللهُ أَكْبَرُ! أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ. فَعَظُمَ عِنْدَ ذَلِكَ الْخَوْفُ**».

يُؤمنون بهذا وهُمْ قِلَّة، ويُوقنون بوعد الله والظُّلمة قاسيَّة ساجيَّة، والآلام تضغط على النُّفوس والأبدان، فيَصبرون ويُصبرون، ويُورثون هذا الصَّبر للأجيال وهم مُقيمون على أمر الله بالجهاد والاستشهاد حتى يأتي وعد الله تعالى.

إنَّ المجاهدين فقط هم الذين يحملون هذه الوعود عملاً، ويمهدون لها سُبُلاً، ويُوقِظُونها في القلوب كلما كادت أن تنسى أو تحَرَّف بتأويلٍ، لأنَّ غيرهم يخجل منها، فهم لا يطمعون بالوراثة، بل جل ما يطلبون ويأملون أن يكون لهم حضور في نسيج الجاهلية الضالة، فأنى لهؤلاء أن يُفكروا بميراثٍ وتمكينٍ؟!.

في سورة «براءة» سمى الله هذه الكلمات كُفْراً، ففيها نزل قوله تعالى: ﴿ **يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ** ...إلى قوله تعالى: **وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾** ﴾[1]. وهذه الآية دلت أنَّ الكفر يكون كلمةً يقولها المرء وهو مسلم فيكفر بالله تعالى مع عدم إرادته الكفر، فإنَّ الرجل الذي قال هذه الكلمة كان نصّ كلامه كما روى ابن زيد، قال: قال رجلٌ يوم الأحزاب لرجل من صحابة رسول الله ﷺ: يا فلان، أرأيتَ إذ يقول رسول الله ﷺ: «**إذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُما فِي سَبِيلِ اللهِ**»[2]. فأين هذا من هذا وأحدنا لا يستطيع أن يخرج يبول من الخوف؟ ﴿ **مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾** ﴾[3].

والجهل الذي أصاب هذا وأقرانه ووراثه من إخوانه في زماننا أنهم لم يفهموا معنى المِنح الربَّانيَّة، ولم يفقهوا أنَّ الأرحام تدفع ما فيها من خلال مخاضات الآلام، وأنَّ البشائر لا تأتي إلاَّ بعد الرعود والبروق والهول.

إنَّ هذا الدِّينَ مربوطٌ بوعودٌ إلهيَّةٍ عظيمةٍ، ولِعظمة هذه الوعود وجَلالها فإنَّ لها تَناسب مع عظمة البلاء التي تتلازم معها، وكلما اشتدَّ الخَطب دلَّ أنَّ الخير عظيمٌ، وكلما كانتِ المحن كانت الدرجات في الدُّنيا والآخرة، ولهذا كانت هذه الأُمَّة أُمَّةَ محنةٍ وبلاءٍ، وهذا قدرنا الذي لا تنفكُ عنه حتى لو أرادت ذلك - وقد شرحتُ هذا في موضع آخر -، حين تهرب الأُمَّة من المُواجهة إنما تهرب من دينها وهي لا تشعر، وتهرب كذلك من الوعود الإلهية.

﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾**

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٧٤.

[2] أحمد في «المسند» حديث رقم: ٧١٨٤، ٧٢٦٦، ١٠٤٥٠ عن أبي هريرة رضي الله عنه. ٢٠٧٦١ عن جابر بن سُمرة رضي الله عنه.

[3] ذكره أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان في تأويل آي القرآن» الجزء الحادي عشر صفحة: ١٣٣. طبعة دار الفكر. بيروت لبنان (١٤٠٥/١٩٨٤م).

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾[1].

هذه طائفةٌ من المُنافقين ومرضى القلوب أرادت أن تتخذ موقفاً عملياً يتناسب مع ريبها وشكها في وعد الله تعالى، وقد رأت نفسها في طَوْقِ جماعةٍ فُرِضَتْ عليها فرضاً، جماعةٌ رضيت طريق الله وسبيل الجهاد والشَّهادة، وهم لا يجمعهم معهم إلاَّ السُّكنى في الأرض الجغرافية فقط، فأرادوا أنْ يتنصلوا من هذا الاجتماع ليذهبوا بعيداً عنهم وعن اختياراتهم وقراراتهم، فما لهم ولهذا الأمر، وما الذي يجُبرهم عليه؟ فهم يريدون الذهاب من هذا الاجتماع المُوهم باتخاذ الغاية والهدف، واتحاد القرار والمصير، فالقوم من المؤمنين حديثهم حديث الجهاد وأخبار الشُّهداء، فمعركةٌ تقوم ومعركةٌ تأتي، ورجالٌ يذهبون لبئر معونة فلا يعودون، إذ خرجت جماعة القُراء بقيادة المُنذر بن عمرو الخزرجي، وقبلهم خرج رجال عاصم بن ثابت الأنصاري فحصل ما حصل في ماء الرجيع، فطريق هؤلاء القوم طريق المخاطر وتحتفها النِّيران مِنْ كلِّ جانبٍ، وهم يريدون المُهادنة والسلامة، لا يشغلهم إلاَّ زراعة أرضهم وعيش أهلهم بتجارة، فما لهم ولهذه الحال.

ثم الآن في حصار الأحزاب.

لقد بلغَ السَّيْلُ الزُّبَى ولابدَّ من الخروج بعيداً عن هؤلاء الذين يعيشون أخبار الغيب أكثر من عيشهم أخبار حركة الأموال بين التجار.

لقد نشط هؤلاء في بداية الأمر نشاط المُنسجم مع المجموع حتى إذا جاء الصَّهر وبدأتِ المحنة قالوا مقالتهم تلك: ﴿**يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ**﴾.

فقد كانوا مُرابطين مع النَّاس، يقفون في وجوه الأحزاب، فبدأ الوهن يتخلل قلوبهم ونفوسهم، فصرخوا بما ضعفوا به أمام إغواء الشيطان وتدسسه في أنفسهم: يا أهل يثرب لا مقام لكم في هذه الأربطة، واتركوها إلى بيوتكم.

هذا دخان الخبث في النُّفوس يتصاعد منها حين الضغط والامتحان، فترتجفُ الأرجل من خفق القلوب، ويمد هذا الارتجاف شك القلوب وضعف يقينها وقِلَّة صبرها، ولو كانوا مؤمنين لما ذهبوا مع هذا الارتجاف بل صدوه وحاربوه باليقين على وعد الله، وإلزام الأرجل الربط في الأماكن حيث أمرهم به قائدهم رسول الله ﷺ.

تأملْ هذا الحال وتنعم به، حالٌ يكون النَّاس فيه صفاً واحداً، ينظرون إلى حِراب الموت أمام صدورهم، والنُّفوس تُزلزل من هَوْلِ المقام، وفجأةً يصرخ بينهم من يصرخ: أيُّها النَّاس ليس هذا

[1] سورة الأحزاب، الآيات: ١٣-١٧.

لنا بمقامٍ، ثم يبدؤون بالنزوع والخروج يتسللون لِوَاذاً أمام الجموع، وهم لا يلتفتون لأمر قائدٍ ولا لِنُصْحِ ناصحٍ.

في سورة «النُّور» كان التأديب الإلهي للمؤمنين أنْ لا يتحركوا من أماكنهم وهم معه على أيِّ حالٍ يكونون حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾** ﴾[1].

فهذا أمرُ المؤمن لا يتركُ مقعده مع المؤمنين وهم على أمرٍ من أمورهم إلاَّ أنْ يستأذن قائده، حتى لو أراد قضاءَ حاجةٍ من حاجاته لأنَّ أمر المؤمنين أولى وأرعى.

أما الذين يستأذنون بترك الجهاد فهؤلاء لهم شأنٌ شرٌّ في كتاب الله تعالى، يقول تعالى في سورة «التوبة»: ﴿ **لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾** ﴾[2].

هم يستأذنوه في وقت الجهاد الواجب حين يستنفرهم القائد لهم كما في غزوة تبوك، أو حين يحضر اللقاء والصف بين المؤمنين والكافرين، وهذا استئذان الجبان الخوار، وهذا استئذان المُنافق ومريض القلب، واليوم في عصرنا وقد حضر هذا الواجب العَيْنِي من وجوهٍ كثيرةٍ تجد مَن يمنع الجهاد عن غيره، لا يستأذن بالنكوص عنه فقط، ويصرخ في النَّاس صريخ الشيطان: «لا تعرضوا أنفسكم للهكلة، ولا تبكوا أهليكم عليكم من بعدكم، ولا تنغصوا النوم الهنيء لحكامكم الطواغيت»، فيا لِصِدْقِ ما قال السلف: «أذنب بنو إسرائيل بحيلة يوم السبت فمسخوا قردة وخنازير»، ولكن هؤلاء أخر لهم العذاب يوم القيامة.

يصرخ خطيبٌ اليوم ساباً ومُنَفِّراً من أعمال النِّفاق التي وقعت زمن رسول الله ﷺ وهو لا يُبْصِرُ أنَّ ذنب المنافقين يومها نسمة خفيفة أمام رياح إرجافه وتخذيله.

لقد لحقتْ طوائف تُسمى بالحركات الإسلامية جارية تحت مظلة الطواغيت من عرب وعجم وهم يُقاتلون المسلمين، ويكشفون عورات المجاهدين، ويفتون لشباب الإسلام بأنَّ لا جهاد اليوم، ثمَّ يزعمون أنهم يحسنون صُنْعاً، ﴿ **أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾[3].

---

[1] سورة النور، الآية: ٦٢.

[2] سورة التوبة، الآيتان: ٤٤ـ٤٥.

[3] سورة هود، الآية: ١٨.

واحدٌ من المنافقين[1] يقول في غزوة تبوك: «ائذن لي يا رسول الله أنْ لا أسيرَ معك لقتال الروم فإني رجلٌ أخاف فتنة نساء الروم على ديني». كما قال تعالى عنه: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾** ﴾[2]، فيسجل الله موقفه في القرآن وأنه موقف ومقال المنافق، واليوم يُفتي أحدهم[3] بجواز أنْ يُقاتل المسلم تحت راية الكفر الصريح ضدَّ إخوانه المسلمين مخافة أنْ يُتهم في بلده بعدم ولائه لوطنه، ويزعم أنَّ هذا هو حُكْمَ الله ودينه، ثمَّ يُقال: هؤلاء علماء ومجاهدون ومؤمنون.

وآخرٌ تاجرٌ بلحيته الطويلة زماناً، ويفتخر القوم أنه ابن «للحركة الإسلامية» ثم هو يقبل أنْ يكون حذاءً لهذا الكفر الصريح، يعمل معهم، ويستخدم اسمه لإلحاق النَّاس بجند الكفر، ثمَّ يُقال للنَّاس: هذا هو الإسلام، وهذا هو الفقه الصحيح.

ثم غيره الذي يسمع بكلِّ جوارحه أنَّ الإسلام والمسلمين يُقتلون في بلدٍ يجاوره فيستجيبُ لنداء الشيطان من الإنس أنَّ هذا جهادٌ خاصٌ لا يلزم أهل بلدي، ويُقال: هذا فقه سلفي.

يُقال لهؤلاء: والله لو بقي في أمر الله أنْ ينزل اليوم قرآن على النَّاس لَكانت لكم سورة هي كـ«المشققة» سواء بسواء، وكنتم أنتم بأسمائكم وأسماء آبائكم يقول الله فيكم: ﴿ **وَمِنْهُم** ... ﴾ يلعنكم النَّاس كُلَّمَا مروا عليها كما يلعنون أسلافكم من مرضى القلوب والمنافقين.

هذه كلماتٌ كِبار تُلقى من هؤلاء، ومواقف أكبر في الشرِّ يَقْفُونَهَا دون أن يعرضوا صورها على مرآة كتاب الله لِيروا حقيقتها، ويُسقطون عِبرة الكتاب الكريم في زماننا بتزوير هذه الصور القبيحة بزوائد يُلْقُونها عليها زاعمين أنَّ الحالين مختلف، وأنَّ ما كان زمن النَّبيِّ ﷺ ليس هو ما نعيشه اليوم، والجهلة من أُمَّتنا لا يُدْرِكُون ألاعيبهم، وكأنَّ شخص النَّبيّ ﷺ هو عِلَّة أحكام القرآن في ما يقوله في المنافقين، وأنَّ في زماننا من الخلائط التي تمنع وضوح الصورة وجَلاَئِها، وهذا كلّه من الضلال، ومن تأويل كتاب الله تعالى تأويلاً هو التحريف بعينه، ولا تظن أنَّ إدراك البعض منهم لتأويل المُتكلمين في صفات الله تعالى هداية كافية لمنع التحريف في تحقيق العِبرة القرآنية، فهؤلاء لم يعرفوا تحريف المُتقدمين إلاَّ تقليداً لعالمٍ سابقٍ وَقَر في قلوبهم تعظيمه وإجلاله، لا بسبب النظر العلمي الذاتي الخاص، ثمَّ لأنَّ تأويل المُتكلمين لا ينبعْ من مرض النُّفوس المُنافقة من محبة الدُّنيا وكراهية الموت ومخافة الابتلاء، إنما مرضٌ عقليٌّ لغويٌّ، أما هؤلاء فحالهم أَنَّهم نشئوا في الحِلْيَّة ومُتَع الحياة، وتدنسوا في النَّعيم والترف، ويعزُّ عليهم ذهاب كلّ هذا، ويخافون عواقب كلمة الحقِّ، وخاصة في

---

[1] هو الجد بن قيس، وفيه نزل قوله: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ** ﴾ قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤٩.

[3] إنه يوسف القرَضاوي حيث أفتى بجواز انضمام المسلم! إلى الجيش الأمريكي، والمُقاتلة بصفه، وتحت رايته... والله المستعان على أدعياء العلم في هذا الزمان.

زمن تكون كلمة الحقّ ذات ثمنٍ باهظٍ شديدٍ، والله يقول: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾[1]، فهذا شأن المرأة الناقصة في عقلها تملأ هذا النقص بالحُلي الذي تلبسه، وتظنُّ أنها بهذا الحُلي تقضي على قوة خصمها في الحقِّ والنِزال العلمي، وقلبها في الحقيقة لا يملأ ميزان الحقِّ ولا خصومة العلم.

مثل هذه المرأة هو مثال بعضهم في ردِّ الحقِّ، وهو حالهم في ضُعف الدليل، إذ يملئون ضُعف حُجَجِهِمْ أمام الحقِّ والدليل بأسماء يملأها الباطل عليهم كتسمية بعضهم بالقُضاة أو كِبَار المُفتين، أو المُفكرين، وزادهم هذا الباطل سطوةً أُخرى هو المال والسلطة المقهورة بسلطان الباطل، ويزيد عليهم أشكال خاصة وسِمات معينة، كلّها لتملأ الحبط الذي يعيشونه.

الصورة واحدة يعرفها أهل العلم بالقرآن، وهذا الفقه القرآني لا غير، لا الفقه بمعناه الاصطلاحي، وبهذا الفقه يتجدد الخطاب القرآني في كلِّ زمنٍ، حيث يرى الفقيه أنَّ ما يقع اليوم هو عين ما وقع في قصة القرآن فيُسارع إلى اتخاذ موقف الحقّ والقرآن، وهذا شديدٌ على النُّفوس لأنَّ البعض من أصحاب التقوى الباردة يَأْنَف أنه يرى في حياته موقعة يُقارنها بموقعة لنَّبيٍّ من أنبياء الله، أو لوليٍّ وصحابيٍّ، ويمنعه من ذلك صور وهمية عن الإنسان في زمن القرآن، وظُلمة تغشاه من عصره الذي يعيش فيه، وقد يعتريه الحسد والحقد واختلاف المشارب فلا يقبل أنْ يُقال عن هذه الحوادث المُعاصرة بشخوصٍ يراهم، ويرى ضُعفهم أو بعض أخطائهم وانحرافاتهم أنها عين ما وقع للصَّحابة رضوان الله عليهم، وهم في ذهنه وقلبه أشبه بالملائكة الذين يسيرون على الأرض، فلا يتصور منهم ما يتصور في الإنسان من مواقف وممارسات حياة بشرية، وكذلك يظنُّ أنَّ النِّفاق يُسْتَنْكَر في زمن النَّبيِّ ﷺ والصَّحابة رضوان الله عليهم، لأنَّ نور النَّبيِّ ﷺ في ذهنه أجلى من أن يخفى، ولذلك فالنِّفاق مستنكرٌ هناك، أما اليوم فالحال مختلطٌ والضباب كثيفٌ والمواقف مُتداخلة فلا ينبغي تسمية مخالفٍ لموقفٍ بالمُنافقين، ولا تسمية المجاهدين بالمجاهدين، وهكذا تذهب عِبرة وعِظة القرآن، ويُصبح مجرد كلمات تُتلى لزمنٍ ماضٍ في هذا الجانب، ولا يصلح عند هؤلاء إلاَّ للأحكام الشرعيَّة العمليَّة، لا المعاني القلبية، وهي في حقيقة الكتاب لا تقل أهمية عن جانب الأحكام الشرعيَّة.

إنَّ المنافقين في زمن النَّبيِّ ﷺ ومرضى القلوب لا يدفعهم لمواقفهم هذه التي يقولها القرآن عنهم بسبب شكٍ في حقِّ ما يقوله لهم من دين، بل إنَّ سبب مواقفهم هو الثمن الباهظ الذي يُلاَقُونَهُ وهم يتبعون رسول الله ﷺ، وهو عين السبب الذي يدفع إخوانهم اليوم للوقوف في نفس المهيع والمسبعة.

لقد وقفَ تابعي يوماً لحذيفة بن اليمان موقفاً يدل على شيءٍ من هذا المعنى، إذ ذهب به الخيال إلى أنَّ الصَّحابة قصروا في حبِّهم وعطائهم مع رسول الله ﷺ، فلو كان النَّاس اليوم ـ في زمانه ـ هم من

[1] سورة الزخرف، الآية: ١٨.

حضروا رسول الله ﷺ لَكان منهم أمرٌ مختلفٌ، هذا لِتَوَهُمِهِ أنَّ حبَّ أهل زمانه لرسول الله ﷺ يفوقُ الوصف، وذلك عن طريق التوهم الذاتي الذي تصنعه الأشعار الجميلة الرائعة فماذا قال له حذيفة رضي الله عنه؟. لِنستمع لهذا الحوار الذي جرى وهو يدور حول موقف الصَّحابة رضي الله عنهم في غزوة الأحزاب وما لاقوه من الشِدَّة التي كانت تضغط عليهم ضغطاً يُعَوِقُهُمْ عَنِ المواقفِ الحالمة التي يتخيلها هذا التابعي:-

عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، قَالَ: قَالَ فَتًى مِنَّا، مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، لِحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، رَأَيْتُمْ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَصَحِبْتُمُوهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَا ابْنَ أَخِي. قَالَ: فَكَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: وَاللهِ، لَقَدْ كُنَّا نَجْهَدُ. قَالَ: وَاللهِ، لَوْ أَدْرَكْنَاهُ مَا تَرَكْنَاهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ، وَلَحَمَلْنَاهُ عَلَى أَعْنَاقِنَا. قَالَ: فَقَالَ حُذَيْفَةُ: «يَا ابْنَ أَخِي، وَاللهِ، لَقَدْ رَأَيْتُنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْخَنْدَقِ، وَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، يَشْتَرِطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ يَرْجِعُ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ، ثُمَّ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ هَوِيًّا مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا، فَقَالَ: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ، ثُمَّ يَرْجِعُ يَشْرُطُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّجْعَةَ، أَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ، فَمَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ، وَشِدَّةِ الْجُوعِ، وَشِدَّةِ الْبَرْدِ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ، دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ مِنَ الْقِيَامِ حِينَ دَعَانِي، فَقَالَ: يَا حُذَيْفَةُ، قُمْ فَاذْهَبْ، فَادْخُلْ فِي الْقَوْمِ، فَانْظُرْ مَا يَفْعَلُونَ، وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا. قَالَ: فَذَهَبْتُ، فَدَخَلْتُ فِي الْقَوْمِ، وَالرِّيحُ وَجُنُودُ اللهِ تَفْعَلُ بِهِمْ مَا تَفْعَلُ، لاَ تَقِرُّ لَهُمْ قِدْرٌ، وَلاَ نَارٌ، وَلاَ بِنَاءٌ، فَقَامَ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، لِيَنْظُرِ امْرُؤٌ مَنْ جَلِيسُهُ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: فَأَخَذْتُ بِيَدِ الرَّجُلِ الَّذِي إِلَى جَنْبِي، فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ. ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّكُمْ وَاللهِ، مَا أَصْبَحْتُمْ بِدَارِ مُقَامٍ، لَقَدْ هَلَكَ الْكُرَاعُ، وَالْخُفُّ، وَأَخْلَفَتْنَا بَنُو قُرَيْظَةَ، وَبَلَغَنَا عَنْهُمُ الَّذِي نَكْرَهُ، وَلَقِينَا مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ مَا تَرَوْنَ، وَاللهِ، مَا تَطْمَئِنُّ لَنَا قِدْرٌ، وَلاَ تَقُومُ لَنَا نَارٌ، وَلاَ يَسْتَمْسِكُ لَنَا بِنَاءٌ، فَارْتَحِلُوا، فَإِنِّي مُرْتَحِلٌ، ثُمَّ قَامَ إِلَى جَمَلِهِ، وَهُوَ مَعْقُولٌ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ ضَرَبَهُ، فَوَثَبَ بِهِ عَلَى ثَلاَثٍ، فَمَا أَطْلَقَ عِقَالَهُ إِلاَّ وَهُوَ قَائِمٌ، وَلَوْلاَ عَهْدُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: لاَ تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي، ثُمَّ شِئْتُ لَقَتَلْتُهُ بِسَهْمٍ، قَالَ حُذَيْفَةُ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مِرْطٍ لِبَعْضِ نِسَائِهِ مُرَحَّلٍ، فَلَمَّا رَآنِي أَدْخَلَنِي إِلَى رَحْلِهِ، وَطَرَحَ عَلَيَّ طَرَفَ الْمِرْطِ، ثُمَّ رَكَعَ، وَسَجَدَ وَإِنِّي لَفِيهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ، أَخْبَرْتُهُ الْخَبَرَ، وَسَمِعَتْ غَطَفَانُ بِمَا فَعَلَتْ قُرَيْشٌ، فَانْشَمَرُوا رَاجِعِينَ إِلَى بِلاَدِهِمْ»[1].

والمقصود من هذه الرواية هنا هو وصف الحال الذي كان عليه الصَّحابة من الشِدَّة والبلاء والصعوبة، إذ قال حذيفة عنه: «شِدَّة الخوف وشِدَّة الجوع وشِدَّة البرد»، وها هم فيه يسمعون

---

[1] أحمد في «المسند» من طريق يزيد بن زياد ـ وهو المدني المخزومي مولى عياش بن أبي ربيعة، ثقة ـ عن محمد بن كعب القرظي. حديث رقم: ٢٣٢٢٧. وهو عند مسلم في الجهاد «باب غزوة الأحزاب» حديث رقم: ١٧٨٨.

الوعد بالجنَّة وهم طُلابها ورجالها ومحبوها ولكن من شِدَّة العناء لا يقوم أحدٌ حتى يأتي الأمر خاصاً لحذيفة.

هذا هو حال الصَّحابة مع البناء الأول للإسلام، ولذلك يقول حذيفة: «والله لقد كنا نجهد» أي كنا نُلاقي المشقة ولذلك كنا نقدم كلّ طاقتنا.

هذه الثقة التي يجدها النَّاس اليوم في قلوبهم لصُحبة هذا الدِّين ليست بعيدة عما كان يجده المنافقون في زمن النَّبيِّ ﷺ، ولكن الفارق بين المؤمنين والمنافقين ومرضى القلوب هو مدى استعداد الفريقين لدفع الثمن الذي يطلبه هذا الدِّين منهم حين يكون البلاء، ولذلك يظنُّ البعض أنه بريء من هذه العوارض القادحة في الإيمان بسبب هذه المشاعر القلبية والواقع خلاف ذلك، والعِبرة بما يكون عليه المرء وقت المشقة والبلاء، وماذا سيقوله، وأي اتجاه سيذهب، وكمية استعداده بمفارقة ماله وأهله وتعرضه للبلاء إن قال كلمة الحقِّ أو وقف موقف المجاهدين في كلامهم وأعمالهم، أو سكت عن قول كلمة الباطل وإنكارها في قلبه وهو أضعف الإيمان.

النِّفاق الذي يسري في القلوب وتتكلم عنه هذه الآيات هنا وعند وُقوع البلاء لا علاقة له بالمعرفة ويقين النَّفس على قضيةٍ من قضايا الاعتقاد، وإنما علاقته بالرضى عن الله تعالى فيما يقعُ له من أقدار تلازم هذا الحقِّ، وبالاستعداد أن يدفع الثمن المُقدَّر لجهاده وثباته.

لقد جاء رسول الله ﷺ للمدينة، وحمَّل أهلها البلاء والجوع والخوف ـ كما في كلام حُذيفة ﷺ ـ، إذ خربت زراعتهم، وخربت تجارتهم، وقتل سُراتهم، ولا يكاد البلاء يذهب حتى يأتي غيره فما هو النِّفاق والمرض يومها؟ هل هو الشك بصدق النَّبيِّ ﷺ؟.

لِنقرأْ هذه الآيات التي بين أيدينا لِتكشف هذا النِّفاق والمرض.

إنه مرض الهروب والخوف من المُواجهة، فهو مرضٌ لا علاقة له بما جاء به رسول الله ﷺ من العلم، ولكنه المرض المُرتبط بالتكاليف التي يحملها هذا الدِّين وخاصةً الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾، هذا هو نفاقهم، وهذا هو مرض قلوبهم، يطلبون من المسلمين ترك الرباط حول الخندق.

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾، يريدون ترك الرباط وهم في ذلك يستأذنون، فهم على حال خير من قوم يتركون ويسبون ويلعنون، ويحملون المجاهدين سبب المصائب التي حلت عليهم.

هؤلاء ذكرهم الله في سورة «النساء»، فقد قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾[1].

نفاقٌ لا يريد إلاَّ أن يأتيهمُ الدِّين الحقّ إلاَّ بالحسنَّات الدُّنيويَّة من النَّعيم والترف والأموال والمُلك والسلطان، لكن إنْ جاء البلاء سبُّوا المجاهدين الذين سببوا بهذا، فإنْ جاءت الحسنَة قالوا: هذا هو الدِّين الحقّ، فهو يحقق الرخاء والسعادة والطمأنينة، وذهبوا يُعَدِدُونَ نِعَمَ الله عليهم إذ ساق لهم هذه الرحمة وجعلهم من أهلها، فهم مُوفَقُونَ في أعمالهم وتجارتهم، مُطمئنون في أُسرهم، محبوبون في مجتمعاتهم، ولا يُنغص عليهم شيء، وقد زادوا في زماننا أموراً «رائعة» فهناك الزي الإسلامي الذي يُوافق الرغبات، وهناك الموسيقى الإسلامية التي تسدُّ مَسَدَّ موسيقى الفُحش والعُهر، وهناك البنوك الإسلامية التي تحقق الفوائد المُضاعفة عن البنوك الربويَّة، كل هذا وغيره يُوجِب عليهم أن يقولوا: هذه من عند الله، ولذلك فالحمد لله.

أما إنْ جاءتِ الأُخرى، وقام الجهاد في سبيل الله تعالى، وآية «النساء» هذه في سياق قضية الجهاد إذ قال الله قبلها سِياقاً من آياتٍ عدَّةٍ ابتدأت بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعًا (٧١) ﴾[2]. ثم عرض القرآن قضية الرافضين لشريعة الجهاد بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧) ﴾[3]. ثم كانت هذه الآية: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ ﴾.

أقولُ: إنْ جاءتِ الأُخرى وقام الجهاد في سبيل الله تعالى وبدأتِ المحن، فهذا قتيلٌ وهذا سجينٌ، وهذا خُربتْ تجارته، وهذا ذهبتْ زراعته، وهذا شُرِّدَ، وهذا أُخِذَ فأُهِينَ في بدنه ونفسه حينها قال المنافقون ومرضى القلوب مقالتهم: «هذه من عندكم أنتم سببها، وأنتم جلبتموها علينا، فأسأتم لنا وللمسلمين»، والله يقول: ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾.

إنْ كان هذا الكلّ قد أراد الله به الشرع، فالذي فرض عليك ما حصل لك به النَّعيم هو الله، والذي فرضَ عليك ما كان به البلاء وهو الجهاد هو الله تعالى ﴿ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾.

---

[1] سورة النساء، الآية: ٧٨.
[2] سورة النساء، الآية: ٧١.
[3] سورة النساء، الآية: ٧٧.

وإنْ كان هذا الكلّ قد أراد الله به الأقدار الكونية من الحسنَّات والسيئات «وهو الأقرب» فهي كلّها من عند الله، يجريها الله تعالى بسبب الجهاد، نعيماً وابتلاءً، وما المجاهدون إلاَّ طائعين لربِّهم، ممتثلين لأمره.

النِّفاق ومرض القلوب البارحة في زمن النَّبيِّ ﷺ هو ما نراه اليوم من أقوال ومواقف يقولها البعض ويُتْقِنُونَها كذلك، ولكن يمنع هؤلاء المنافقين والمرضى اليوم أنْ يحملونها على أنفسهم أنهم يحسون بثقة نفسيَّة بصحة هذا الدِّين وصوابه، فيستبعدون أنْ يكونوا هم أهل هذه الآيات، ولو فهموا النِّفاق على حقيقته لَتيقنوا أنهم منافقين ومرضى قلوب حين يسبُّون على المجاهدين في سبيل الله بما سبَّ أسلافهم رسول الله ﷺ وأصحابه.

قد يقولون لجهلهم: وهل المجاهدون اليوم على الحقِّ الصَّريح الذي كان عليه رسول الله ﷺ؟ ثمَّ هل الكفار اليوم هم في وضوح كُفرهم زمن رسول الله ﷺ؟ وهل الجهاد اليوم في نفس ظروف الجهاد زمن رسول الله ﷺ؟.

أسئلةٌ كثيرةٌ يُثِيرُونَها جهلاً وتبريراً لمواقفهم المرضية والمُنافقة، ومما يشهد أنها مرضية منافقة أنَّ خصوم المجاهدين في زماننا لم يُقَدِمُوا رداً شرعيّاً يحمل سِمَة الفقه الذي يعرفه طُلاب العلم ضدَّ ما يقوله المجاهدون من أدلة وفِقه، وإنْ كان لهم دليلٌ فهو دليلٌ وحيدٌ يتردد على ألسنتهم جميعاً: «هؤلاء يُسيئون للإسلام»، والحقّ أنَّ إساءة المجاهدين اليوم للإسلام هي عين إساءة«!!» إبراهيم عليه السلام للإسلام عندما كسر أصنام قومه ـ وقد شرحتُ هذا في كتاب آخر [1].. وأعوذ بالله من أنْ يكون إبراهيم عليه السلام قد أساء للإسلام، بل إنَّ هؤلاء الذين يُداهنون في دين الله تعالى هم الذين يكذبون على الله وعلى رسوله ﷺ وعلى الإسلام وعلى العالَم أجمع.

أما الذين يقولون: هذا جهادٌ لا إجماع عليه، والرسول هو الرسول فهو الإجماع وفوقه، فنقول: لم يكنِ الجهاد في سبيل الله تعالى يوماً اختياراً وحيداً لكلِّ الأُمَّة المسلمة، فقد افترقتْ عليه زمن النَّبيِّ ﷺ والقرآن يشهد لهذا، ولكن القرآن يُسجل المُخالفين في خانة النِّفاق ومرضى القلوب، واليوم يريدون أن يجعلوا من أنفسهم أصحاب رأيٍ معتبرٍ لِيجعلوا الجهاد وواقعه مسألة اجتهادية.

واختلفَ النَّاس والأُمَّة «!!» في جهاد الصليبيين، واختلف النَّاس والأُمَّة«!!» في قتال التتار، واختلف النَّاس والأُمَّة في قتال الصليبيين في حملتهم الأخيرة عند ضعف الخلافة العثمانية وسقوطها، يعلم هذا مَن يعلمه ويجهله مَن يجهله، ومَن جهله فلا يحقُّ له أن يتكلم في قضايا الأُمَّةِ ومُقدراتها.

[1] وهو معنونٌ بـ«على خُطا الخليل إبراهيم عليه السلام، كسرُ الأصنام. قِراءتان». وقد نُشر وانتشر بين الإخوة من خلال الشبكة العنكبوتية.. فلله الحمد أولاً وأخيراً على توفيقه.

أغلب هؤلاء يتسترون باسم الفكر الإسلامي، وهو في أغلبه لَوْكُ كلام الجاهلية بعباراتٍ شرعيَّةٍ، ومَن تستر باسم الفتوى فهي مجرد رؤى ذاتية لا دليل عليها إلاَّ العبارات العامة المُوهمة.

أما أسئلتهم هذه فالحقيقة هي شبه نفسيَّة، وفي جوهرها تعطيلٌ لشرع الله ودينه والجهاد في سبيل الله، وإبطالٌ للعِبرة القرآنية، وإنْ تجردت عنِ الهوى «تنزيلاً في النِّقاش» فهي تدل على جهلٍ بكتاب الله، وجهلٍ بسيرة النَّبيِّ ﷺ، وجهلٍ بالتاريخ وجهلٍ بالواقع، فهي أسئلة الظلمات حقاً.

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾.

لماذا لا مُقام لهم؟ وما الذي أثبت أنَّ موقف المُرابطين حول الخندق غير صالح؟ وما هو الخِيار الآخر غير هذا الرباط والمُصابرة؟.

أجوبة هؤلاء القوم ههنا هي عينها أجوبة الناكصين عن الجهاد في كلِّ زمنٍ، إذ أنَّ هؤلاء يُبَرِرُونَ نُكُوصَهُمْ كَوْنَ هذا الطريق هو طريق الموت لا محالة، وطريق الفناء بلا مثنوية، فلا خيار غير هذا نُبصره أو نراه في الأُفق، طريق الجهاد يسوق الشباب لحتفهم وموتهم، ويُرسلهم للقبور أو السجون.

إذاً ما هي خياراتكم؟.

لقد أبطلَ القوم التوحيد، إذ صارت الأديان وجَهات نظر شخصيَّة، واختيارات حُرة، فلا يُكَفِرُ أحدٌ أحداً، ولا يحكمُ أحدٌ على الآخر بالخلود في النَّار، لأنَّ هذا شرط السياسة والعمل فيها، فمن دعا إلى تحكيم الشرع صاحب رأي لا يختلف حاله عمن دعا إلى تحكيم غير شرع الله تعالى.

لا يخوَّف المُخالف بعذاب القبر ولا بعذاب النَّار والخلود فيها، لأنَّ الأمر بين الفريقين ليس أمراً دينياً، فليس أحدهما نائباً عن رسول الله ﷺ ولا وارثاً لدينه وعمله، وليس الآخر وارثاً لأبي جهل وأبي لهبٍ وفرعون وهامان.

ثم الصعيد الجامع هو طعامٌ يُقدم ومشروعٌ دُنيوي يحقق لا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1]. ولذلك فالمجاهدون أعداء الوطن فهم أعداؤهم، والعلمانيون يريدون مصلحة الوطن فهم إخوانهم.

أما أنَّ المجاهدين أعداء الوطن فلأنهم يُقاتلون الكفار، ولأنَّهم يُفَرِّقُونَ بين النَّاس على قاعدة الحبِّ في الله والبُغض في الله، ولذلك يُفرِّقون بين المرء وزوجه، وبين الرجل وأخيه، فيُقاتل أبو عُبيدة أخاه، وأبو بكر ابنه، وأما العلمانيون الزنادقة إخوانهم فلأنهم في صعيدٍ واحدٍ في تحقيق الرخاء والسعادة والراحة للنَّاس.

المجاهدون يُقاتلون فيَقتلون ويُقتلون في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾[1]. ولذلك فهم خُصومهم، وأما أعداء الله فهم إخوانهم لأنهم يريدون السلم الوطني ووحدة النسيج الوطني«!!».

---

[1] سورة الحجرات: الآية: ١٠.

إنَّ النزاع حقيقي بين وُارث الأنبياء وبين أهل البدعة والضلال والنِّفاق في زماننا، إذِ القرآن يُقرر أنَّ النَّاس يفترقون على أساس الإيمان والطاعة والعبادة لا على غير ذلك من المسائل الأُخرى، وإنْ نشأ نزاعٌ على غير ذلك إنما لارتباطها بالعبودية لله تعالى والدَّار الآخرة، والذين يحققون الصورة الحقيقية للوراثة النَّبويَّة همُ المجاهدون، ولذلك هم عالَمٌ آخرٌ ونسيجٌ مختلفٌ عن شمولية الصورة التي تصنعها الجاهلية، ويحاولُ جَمْعٌ من المسلمين من علماء ومفكرين وحركات أن يندمجوا داخل هذه الصورة الجاهلية، بل هم يحاربون لِقبول ورضا الجاهلية عنهم، والذي يُعري حقيقة الصورتين هو القرآن الكريم، فالصِّراع بين صورتين قد تتشابهان في بعض الملامح ولكن الافتراق في إطار كلِّ صورةٍ ولونِ كلِّ صورةٍ.

إنَّ صورة الأنبياء وأتباعهم من الدُّعاة والمجاهدين تُشكل كلّ خطوطها المُتعددة العبودية لله وذِكرى الدَّار الآخرة، وأما صورة المُخالفين فهي صورة شوهاء لا تُشابه الأولى إلاَّ أنَّ بعض الخطوط مُتشابهة، يفقه هذا كلّ مَن قرأ كتاب الله وتنعم فيه وتدبره، ولذلك فالخلاف في الأصل والقاعدة لا في الخطوط الفرعية.

لقد أدركَ بعضهم هذا فقال: «لما كُنا دعاة إلى الله كانت حربنا حول «الهوية» فلما استغرقنا في «الحزب السياسي» صارت همومنا هي هموم النَّاس ومُتطلباتهم حول الخبز والوظيفة وإصلاح المرافق العامة».

والحقّ أنَّ هذه البدعة المُعاصرة هي أشدّ وطأةً من بدعة خَلْقِ القرآن، وأشدّ من بدع القَدرية والجبرية في زمانها، بواقعها وآثارها، فإنَّ حقيقتها مسخُ هذا الدِّين من أصْلَيْهِ: العبودية وذِكرى الدَّار الآخرة، وتجيِّير الدِّين من عبودية الله تعالى وتحقيق الأجر الأُخروي إلى مجرد فعلٍ إنسانيٍّ يحقق المصالح الدُّنيويَّة، وأسهل مِثالٍ يُوصِلُ المُراد هو الفرق بين مَن يترك الخمر رجاء رضوان الله والدَّار الآخرة، ومَن يتركه لنهي الطبيب له عنه بسبب إيذائه لصحته وحياته.

لقد تخلى هؤلاء المُبتدعون المرضى عن دعوة النَّاس إلى الحقِّ، فَقَلِبْ نظركَ في دعوة الحوار بين الأديان، إذ تخلى هؤلاء من شعار التقارب بين الأديان لِعلمهم بضلالها ولما تنطوي عليه من التنازل الذي لا يقبله الفُرقاء، وحملوا دعوة الحوار بين الأديان، لكن هل ترى أحدٌ من هؤلاء يحمل دعوة القرآن في هذا القرآن: ﴿ **قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾[٢].

فهذه دعوة القرآن لأهل الكتاب ولغيرهم من بابٍ أولى، وهي دعوة التوحيد قبل كلِّ شيءٍ، فإنْ تولوا فقولوا: ﴿ **ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾. وقول المسلمين بهذا يعني أن يخبرهم بما يُضاد الإسلام

[1] سورة النساء، الآية: ٧٦.

[2] سورة آل عمران: الآية: ٦٤.

من الاسم والعاقبة، وهذا من النُّصحِ الحقيقي، وإقامة الحجة، وأما زعم الحِكمة بعدم إخبارهم وإعلامهم بهذا فهو خِيانة للحقِّ أولاً ثم خِيانة وخِداع لهم، وإبطال للحجة التي بعث بها الأنبياء.

إنَّ الذين استبدلوا الذي هو شرٌّ وبدعةٌ بالذي هو دينٌ وجهادٌ في سبيل الله تعالى، فتحولوا إلى «أحزاب سياسية!!» وتركوا الجهاد وذموا أهله لم يكن فِعلهم هذا بسبب عدم إيمانهم بكفر الأعداء من أنظمة جاهلية أفسدتِ الدِّين والدُّنيا كما يزعمون، ودليلُ ذلك أنَّ هذه الطوائف المُبتدعة الضالة سارت في نفس المنهج بلا تخلفٍ لما جاء كفر صريح أصلي فأفسد الدِّين والدُّنيا كذلك، فعلموا ما هم عليه من العمل في ظِلِّ الأنظمة المُرتدة الجاهلية وتوحد خطابهم في كلا الصورتين بلا تغيِّير.

يزعم بعض مفتي هذه الطوائف المُبتدعة المريضة أنَّ المخالفين لهم من الدُّعاة والمجاهدين يهربون من إصلاح الواقع بما معهم من الدِّين حتى يتحقق الحُكم لله وحده، وهذا يجر المفاسد على المسلمين الذين يعيشون تحت ظِلِّ الأنظمة الجاهلية.

ويُقال لهؤلاء: إنَّ تصوركم للحل الإسلامي مقلوبٌ، ويخلط بين الظل والحقيقة، فلا أحد يدعو إلى توقف العلماء والدُّعاة من بيان حُكْمِ الله تعالى في كلِّ النوازل والحوادث، ولا يدعو أحدٌ من حملة الحل الإسلامي المجاهد أحداً من المسلمين من ممارسة دينه وسط أصنام الجاهلية وأوثانها ومؤسساتها، إنما هناك فرقٌ بين كَوْنِكَ بديلاً للجاهلية، تُعلِنُ حكمَ الله تعالى فيها، وتُبَيِّنُ فسادَ أفعالها ضِمن أعظم أصلين هما العبودية وذِكرى الدَّار الآخرة، وتُبَيِّنُ حُكْمَ المُخالف لذلك في مسألةٍ من المسائل أنَّ الخلاف ديني، فهو يخالفه لأنه لا يقبلُ الأصل وهو العبودية لله والرضا بحكمه، وأنه إنْ وافقكَ في مسألةٍ فهذا لا يعني أنه مُصْلِحٌ صالحٌ بل هو كافرٌ ما لم يقبل أصل الدِّين، ولا يُقدم حُكْماً على حُكْمِ الله تعالى ورسوله ﷺ، وحين تتفكر في الفرق بين هذا «وهو كما تعلم المُوافق لحقيقة دعوة الأنبياء والرسل وأتباعهم» وبين ما يفعله المُبتدعة تُدرك لماذا طريق الأنبياء يُؤدي قَدَراً لاَزِماً للجهاد بين الإسلام والكفر، وأنَّ طريق المُبتدعة يقبل المجاورة والرضى بمظلة الجاهلية.

التوحيد بفهمه العميق الشامل يُؤدي إلى المُفاصلة التي تؤدي حتماً للمُصادمة، وقد كانت هذه المفاصلة مع الأنبياء السابقين تُؤدي إلى هلكة المُشركين هلاكاً قَدرياً عاماً، ولكن منذ بعثة موسى عليه السلام كان الجهاد في سبيل الله تعالى.

حين تفهم هذا تفهم لماذا الجهاد في سبيل الله قدر التوحيد وبيئته وحياته، وحين تبحث عن طريقٍ آخرٍ غير الجهاد ضدَّ الأغيار والجاهلية فإنكَ تتنازل عن مفهوم التوحيد في بعض جوانبه.

نعم هناك طريقٌ آخرٌ وهو الإسرار بالتوحيد والإنكار بالقلب، وهذا يسع النَّاس وهو أضعف الإيمان، لكن شتان بين ذروة سنام الإسلام وبين أضعف الإيمان، لكن لِيتذكر هؤلاء الذين يسرون إيمانهم أنَّ هناك سؤال ربَّانيٌّ سيكون حاضراً يوم القيامة إن كانت لهم قُدرة على الهجرة إلى مواطن

الجهاد ومُدن عمل النَّبيِّ ﷺ وأصحابه. قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا (٩٧)** ﴾[1].

إنَّ لهؤلاء فقهاً يجب أن يعلموه حتى لا يخدعوا أنفسهم تحت هذا الباب وأهم ما يُقال لهؤلاء: إنَّ منزلةَ السكوتِ والإنكارِ القلبي لا تُقبل ممن قال الباطل من قبلُ، فإنَّ هؤلاء لا تنفعهم التوبة إلاَّ إذا نسخوا سيئاتهم بحسنةٍ تمحوها كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ **إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (١٦٠)** ﴾[2]. وقال ﷺ: «**..وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**»[3].

والواقع يشهد أنَّ الكثير من هؤلاء قالوا الباطل وولغوا في أعراض النَّاس علناً وصراحةً فليُبَادِرُوا قبل حلول الأجل.

لقد وعى الصَّحابة الأوائل رضوان الله عليهم هذه الحقيقة القَدرية المُلازمة لهذا الدِّين، ولذلك كانوا يسألون رسول الله ﷺ الإذن بالجهاد، ولم يكن هذا السؤال لينشأ لو فَهِمَ الصَّحابة ما يُريده المُبتدعة المرضى اليوم، إذ كان يسعهم وهم أوسعَ عقلاً وأبصرَ فقهاً وأعلمَ بقومهم، أن يُوجدوا لأنفسهم من الصيغ التي يبتدعها مَن يزعم الحكمة والمُقاربة الحسنة في الإصلاح، لكن كيف يمكن أن يقع هذا في تصورهم وهم يرون دعوة رسول الله ﷺ تحكم عليهم إنْ لم يُسلموا لله ويرضوا دينه أنهم كفار خالدون في جهنَّم، ويرونه وهو يَسُبُّ دينهم ودين آبائهم ويُسفه أحلامهم واختياراتهم.

لقد كانت الأصنام والأوثان عند قريش قضية اعتقاد ولاشك، ولكنها كانت قضية انتساب وبناء اجتماعي وإرث يُشكل مراكز القِوى والقرار في داخل المجتمع، ولذلك ارتبطتِ الأصنام والأوثان بوصفها اعتقاداً وعبادةً مع الجانب الاقتصادي كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ** ﴾[4]. فردَّ الله عليهم بأنْ ذكَّرَهُم أنَّ النِّعم منه لا من أصنامهم فقال: ﴿**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾.

أما إنْ ظنوا أنَّ رغد العيش الذي جاءهم بسبب الأصنام حول الكعبة مانعهم من العذاب فهم جهلة غير مُبصرين، لأنَّ الكثير من القرى كانت كذلك ثم دُمِرت، فقال سبحانه عقب ذلك: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨)** ﴾[5].

---

[1] سورة النساء، الآية: ٩٧.

[2] سورة البقرة، الآية: ١٦٠.

[3] أحمد في «المسند» بإسناد صحيح. حديث رقم: ٢١٢٥١، ٢١٢٩٧، ٢١٤٢٨، ٢١٩٥٨. والحاكم في «المستدرك» حديث رقم: ١٨٥. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. والترمذي في «سننه» في «كتاب البر والصلة» باب ما جاء في معاشرة النَّاس. حديث رقم: ١٩٩١. وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٤م). والدارمي في «سننه» في «كتاب الرقائق» باب في حُسن الخُلق. حديث رقم: ٢٧٩٠. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٦م).

[4] سورة القصص، الآية: ٥٧.

[5] سورة القصص، الآية: ٥٨.

أما ارتباط هذا الدِّين بما يحدثه من تغيِّير مراكز القِوى والقرار فقد أدركته قريش وهي تقول: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

ولذلك فالصَّحابة ﷺ يعلمون أنَّ الجهاد هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذا الدِّين بما يمثله التوحيد من تحرر الإنسان من عبودية الطواغيت البشريَّة والحجريَّة ليكون عبداً لله تعالى، وبما يستلزمُ هذا التحرر من مقتضيات وواجبات.

الإسلام حقٌّ كلّه، وغيره هو الجاهلية، والجاهلية نظامٌ يرتبط كلّه في منظومة لا تقبل التنازل عن أفرادها وآحادها لأنها تعلم أنَّ أي تنازل عن ذلك يعني بداية التحلل.

إذا كان الأمر كذلك، وهو ولاشك كذلك، فما طبيعة العلاقة إذاً بين الإسلام والجاهلية؟.

هذه القضية ممهورة بسيرة الأنبياء في القرآن، لا تتخلف عنها حالة واحدة، وهي أجلى ما تكون مع رسول الله ﷺ ومخالفيه فَمَالِ هؤلاء المُبتدعة اليوم لا يفقهون هذا ولا يُقرون به؟!.

سيقولون: لقد عاهد رسول الله اليهود، وهذا ضدّ ما يُقال إنَّ الإسلام لا يقبلُ الآخر. فيُقال لهم: هبْ أنَّ الأمر كذلك «مع أنه ليس كذلك كما يتصورون ويتوهمون» فما هي العاقبة التي صار الحال إليها؟!.

ثمَّ لو قال قائلٌ: هذا مِنْ سفاهة اليهود وقِلَّة عقولهم وسوء اختياراتهم.

فيُقال لهم: هذا كلّه حقّ، ولا تنسوا أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«لا يَجْتَمِعُ في جزيرةِ العربِ دينانِ»**[2]. ثم لِيتذكر هؤلاء أنَّ الحديث لا يدور حول أشخاصٍ بلا سلطانٍ يعيشون تحت مظلة الآخر، فهذا يقبله الإسلام من الآخرين كمستأمنين وأهل ذمة، وهذا تقبله الجاهلية من المسلمين أن يعيشوا تحت مظلتها يحتكمون لأمرها وينصهرون في داخلها.

لكن هل هذا هو الإسلام الذي خلَّفه لنا رسول الله ﷺ وحمله الخلفاء الراشدون من بعده؟!.

هذه هي القضية إذاً، فكلما وعينا على الإسلام وعلى الجاهلية وعلى سُنن التاريخ أدركنا أنَّ الجهاد في سبيل الله هو طريق هذا الدِّين، وهو طريق أهله الصَّادقين، وهو طريق العلماء والأولياء والشُّهداء والصَّالحين.

في فترة من فترات المُدافعة والمُصادمة تضعف الجاهلية وتبدأ مداركها الشعور بأنها تخسر المعركة، وهي ترى مقابل هذا صعود الإسلام وتهيؤه للوراثة فتلقي الحبل السِّحري الأخير للإنقاذ، ولِتلتقط الأنفاس لمعركة قادمة، فتقبل المُهادنة مع الإسلام، وقبول شراكته، مع وُعودها أنها ستمكن

---

[1] سورة الزخرف، الآية: ٣١.

[2] البيهقي في «السنن الكبري» حديث رقم: ١١٧٢٤. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٦م). والهيثمي في «مجمع الزوائد» حديث رقم: ٦٥٩٦. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٤م).

المسلمين من بلوغ أهدافهم دون جهادٍ وقتالٍ، وهي تشترطُ على المسلمين التخلي عن الجهاد لِتفسحَ له مجال التغلب والتمكين بسلاسةٍ وأمانٍ ودون مُغالبة، ويقع المسلمون في هذا الشرك الجاهلي فما أن يلتقط الشرك أنفاسه وتُعاوده العافية حتى يضرب ضربته التي لا ترحم ضدَّ المسلمين، وهذا معمولٌ به في التاريخ القديم والمُعاصر، وقد سجَّل القرآن هذه القضية لِيعتبر بها المؤمنون، ففي سورة «الأعراف» قال تعالى عن آل فرعون: ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[1].

فها هم وقعوا تحت ضغط الآية الكونيَّة الربَّانيَّة، وهم يُدركون أنها بسبب معصيتهم لموسى وردهم عليه كما سيأتي من سؤالهم له أن يكشفَ عنهم هذه الآيات فقال تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[2].

هكذا رضخوا للضغط، وتحت هذا الضغط قدموا الوعود لموسى عليه السلام بأن يحققوا له مطالبه إن رفع عنهم هذه المصائب.

فماذا كان؟.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾[3].

وهي كذلك في سورة «الزخرف»، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾[4].

فالجاهلية لا تذهب باختيارها، ولما تتنازل إنما تتنازل من أجل المكاسب، ولذلك لا ينفع معها إلاَّ الإزالة من جُذورها، وهذا لا يتحقق واقعاً إلاَّ بالجهاد، وكما تكرر سابقاً فإنَّ الآيات الكونيَّة العامة في إفناء المُخالفين قد توقفت بعد أنْ شُرِع الجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾[5].

القصة القرآنيَّة تذهب مباشرة إلى تحقيق الواقع النَّفسي للحدث، ولولا هذه الرواية الربَّانيَّة لَكان للبعض أن يعذر هؤلاء وأمثالهم، وها هو رسول الله ﷺ يعذر المُتخلفين عن تبوك، إذ أتى كلّ واحدٍ منهم بعذرٍ له منعه من اللحوق به في هذه الغزوة، ونزل القرآن يُبيِّن حقيقة الاعتذارات وكشف

[1] سورة الأعراف، الآيتان: ١٣٢-١٣٣.
[2] سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.
[3] سورة الأعراف، الآية: ١٣٥.
[4] سورة الزخرف، الآيات: ٤٨-٥٠.
[5] سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

أكاذيبها وعاتب حبيبه محمداً ﷺ حين قبل اعتذاراتهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[1].

وقد كشفَ القرآن في تلك السورة الفاضحة سِمات هؤلاء الكاذبين بما سنأتي عليه إن شاء الله تعالى في قصة القرآن مع غزوة تبوك.

الاعتذارات التي قدمها المُتخلفون ومرضى القلوب والمُنافقون والزنادقة تتستر بالحِيَّل العقليَّة وبالظروف الواقعيَّة لتستر حقائق القلوب وخوفها من الموت وما كان في معناه، وجُبنها من لقاء الأعداء، ويكون من هؤلاء الفقيه الذي يتستر بالفقه، والمُفكر الذي يتستر بعُمْقِ التفكير والنظر، والسياسي الذي يتستر بإمكانية تحقيق الأفضل بالحوار والحُسنى، وكسب الأصوات، والعامي الذي يتستر بالظروف القاهرة، وهي كلّها قد كُشِفَتْ في عِلْمِ الله تعالى أنها حبطٌ لا روحَ له.

فهؤلاء يستأذنون ترك الرباط ليذهبوا إلى بيوتهم حتى يمنعوا أهلهم من الأعداء، لأنَّ أهليهم لا حارس عليها؛ لأنَّ بيوتهم تُواجه الأعداء وهي ما يليه، ولا مانع لها من أعدائها الداخليِّين من السُّراق وغيرهم، وتكيِّيف قولهم يُشبه هؤلاء الذين يهربون من الجهاد في سبيل الله تعالى لإصلاح داخلهم وبواطنهم، إذ يقولون كيف نجاهد وإيماننا ضعيفٌ وعِلْمُنَا ناقصٌ وأوضاعنا فاسدةٌ، وخصوماتنا كثيرةٌ.

والقرآن يردُّ عليهم: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

إنَّ هذا الداخل لن يصلح وقد عريت أسوار الأمم أمام أعدائها، ولن تفرغ الأُمَّة لترميم ما تُعانيه وحصنها مهدمٌ مُستباحٌ.

لقد ثبت أنَّ أيَّ إصلاحٍ داخليٍّ مهما بلغ شأنه فإنه إلى زوال حين يكون بمقدار الأعداء تحريك هذا الداخل كما يريدون، ويسيرون قادته كما يحبون، ويتحكمون في القرارات التي تتحكم في مصير الأُمَّة ومُقدراتها كما يشاءون، ولذلك فمعيار قوة الأُمَّة هو الانطلاق نحو الخارج، ومعيار ذلتها وضعفها وهوانها أن يأتيها الأعداء كما قال رسول الله ﷺ: «**ما ترك قومٌ الجهاد في سبيل الله إلاَّ ضربهم الله بالذل**»[2]. ولقول عليٍّ ؓ: «**ما غُزي قومٌ في عُقر دارهم إلاَّ ذلوا**»[3]. وقد قال دارسُو التاريخ إنَّ معيار حياة الأُمم هو الانطلاق نحو الخارج، فهذا ذو القرنين، والرجل المُهتدي بلغ مشرق الأرض ومغاربها، ونشر الحقَّ والعدل، وأنا أعتقد أنَّ ذا القرنين رجلٌ من اليمن خرج حتى غزا

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٣.

[2] «الدر المنثور» للسيوطي، الجزء الثاني، الصفحة ٣٤٠. طبعة دار الفكر ببيروت.

[3] «ماغُزِيَ قوم قط في عُقْرِ دَارِهِم إلاَّ ذَلُّوا» خطبة له بعنوان: «استنهاض النَّاس». بكتاب: «نهج البلاغة» ـ إن صحت نسبته إليه ـ جمعه: أبو الحسن محمد الرضى بن الحسن الموسوي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح. طبعة: دار الأسوة للطباعة والنشر بإيران، الطبعة الثانية (١٤١٨).

أوروبا وبلغ البلاد الواطئة فيها وهي مغرب الشمس، وهي أرض كانت في القديم تغرق المياه في الشتاء حتى تكون كالماء المختلط بالطين وهو العين الحمئة، ثم بلغ مشرق الشمس حيث وصل إلى أقصى الشمال الشرقي هناك حيث يمتد النَّهار نصف عام ويمتد الليل كذلك، فقد بلغها في وقت كانت الشمس لا تغرب فلا يسترها الليل، وهو قوله تعالى: ﴿ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ ﴾[1]. إذ الليل سترٌ للشمس، ثم رجع إلى موطنه فمرَّ على «منشوريا»، وهي المنطقة التي بنى فيها السد، ومنشوريا هي أول مكان في العالم أنجب حداداً، وهي من أكثر مناطق العالم وجوداً للحديد، وأما قولي من اليمن فلأدلة كثيرة منها: اسمه «ذو القرنين»، لفظ عربيٌّ ينتشر هناك: كذي النواس اليهودي صاحب حادثة الأخدود، وهي مُوثقة في القرآن وفي تواريخ النصارى، وسيف بن ذي يزن وغيرهما، والقصد أنَّ الانطلاق نحو الخارج هو عنوان الحياة، وهؤلاء المنافقون يريدون أن يرتكسوا إليه تاركين خط الدفاع النَّبوي للفراغ، وهم يزعمون أنَّ البلاء في داخلنا من السراق لا من هؤلاء الأعداء الذين يقفون على حدودنا.

يقول القرآن: ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

لِنتذكر أنَّ هؤلاء ربما شاركوا في حفر الخندق مع النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وهم كذلك مرابطون حول الخندق، ولكن كان ثباتهم إلى حين، وصبرهم لم يَقُمْ حتى النهاية، بل تَضَعْضَعَ في وسط المحنة، وعند حدٍ معينٍ طلبوا الذهاب واستأذنوا، فالمرضى درجات كمرضى البدن والمعادن، فإنها تتعرض للضغط والشدَّة والجهد، وإذا كان فيها خبثٌ ظهر في مرحلةٍ من مراحل الشدِّ والضغط، والمؤمن الصَّادق هو النقي الصافي من الخبث، فإذا جاءتِ المحن والفتن اتخذها سبيلاً للرُقي وتصفيَّة النَّفس والقلب، فيزداد بها قوةً وصفاءً من الأمراض والذنوب، وأما المريض فتكسره المحن وتظهر خبث نفسه فيستسلم لها ويتابع واردات الشرِّ على قلبه.

في سورة «البقرة» كشف القرآن مراتب النَّاس في الصف المؤمن مع محنة الجهاد في سبيل الله تعالى كما في قصة طالوت، وفي سورة «القصص» كشف القرآن نفس هذه المراتب مع محنة وفتنة الدُّنيا كما في قصة قارون.

ففي قصة طالوت قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾[2].

هكذا تمت التصفية الأولى وهم في طريقهم لمقابلة جُند الطاغية جالوت، إذ سقط في هذه المحنة الكثير ولم يبقَ معه إلاَّ القليل. وهؤلاء سمَّاهم الله تعالى بالمؤمنين فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾.

[1] سورة الكهف، الآية: ٩٠.
[2] سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

فهذه الفئة المؤمنة وقع فيها من قال هذه المقالة حين رأت جند جالوت بكثرتهم وعدتهم، ولكن كان فيها الذين يستحضرون ذِكرى الدَّار الآخرة فقال الله عن هؤلاء: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾.

إذا تساءل المرءُ هل استجاب هؤلاء القائلين ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾. لهؤلاء الربَّانيِّين العلماء؟ فالجواب: نعم ولا شك، لأنَّ الله وصفهم بالإيمان قبل، ولكن هذا الخوف الذي وقع لم يمنعهم من الاستجابة لأمر الله وتحريض علمائهم فخاضوا معهم مجاهدين لجالوت وجنوده، وهؤلاء عُدتهم عُدَّة أهل بدرٍ كما في الصحيح.

فهذه مراتب ثلاث كما رأيتَ.

وفي سورة «القصص» كان مراتبهم كذلك مع فتنة الدُّنيا، فهذا قارون كان من قوم موسى عليه السلام، فنصحه قومه المؤمنون: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾[1].

لكن لما خرج على قومه في زينته وقع من بعض هؤلاء الضعف فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[2].

فنجَّا الله العلماء ومَن قال تلك المقالة، مع بيان اتعاظهم وعِبرتهم بما وقع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٢﴾[3].

ويشهد لهذا قوله ﷺ: «**لا يَزالُ الْبلاءُ بالْمُؤْمِنِ أَوِ الْمُؤمِنَة في نَفْسِهِ ومالِهِ وَوَلَدِهِ، حتّى يَلْقَى الله وَما عَلَيْهِ مِنْ خَطيئةٍ**»[4]، فهذا شأنُ المؤمن مع البلاء يُقوِّيه ويُصفيه ويُرقيه، وأما البلاء لغيره فيُعَرِيهِ وَيَكْشِفُهْ وَيَفْضَحُهُ وَيُسْقِطْهُ، ولذلك على السالك في هذا الطريق أنْ يعلم أنَّ البلاء بالمؤمن لا ينتهي حتى يأتيهِ الموت، فهو في سباقٍ نحو الخاتمة التي يحبها الله للمؤمنين من السابقين والسالكين لهذا الدرب، فالبعض منهم يخرج من هذا السباق تعباً من التكاليف والبلاء، ويرضى بما هو عليه

---

[1] سورة القصص، الآيتان: ٧٦-٧٧.

[2] سورة القصص، الآية: ٨٠.

[3] سورة القصص، الآية: ٨٢.

[4] الترمذي في «الزهد» ج٢ ص٦٤ وإسناده حسن، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» ج١ ص٤٩٧. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في «المسند» بإسناد صحيح، حديث رقم: ٧٨٤٦. وروى مالك نحوه، وقال الترمذي: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» ج٤ ص١٤٨. والتبريزي في «مشكاة المصابيح» ج١ ص٤٩٣ حديث رقم: ١٥٦٧. وهو في «جامع المسانيد والمراسيل» للسيوطي، حديث رقم: ٢٦٨٨٠.

فيستقيل، وهذه لم يرضها الصَّحابة رضوان الله عليهم بل قالوا: «والله لا نقيل ولا نستقيل»[1]، ولا يُعاب على هؤلاء إيمانيّاً إلاَّ كعيب القادرين على الكمال، وبعضهم يرتكسُ ويسقطُ من كلِّ مراتبه حتى يعود عدوّاً للإسلام والمسلمين وهو لا يدري، ومُنافقاً يتكلمُ بكلمات ومناهج وأحكام المُنافقين زمن رسول الله ﷺ وهو غافلٌ عن نفسه وأقواله، فليعرض كلّ واحدٍ قوله على كتاب الله تعالى ليرى صورته ومرتبته وكلّ امرئٍ حسيب نفسه إنْ فعلَ ذلك.

المُنافقون ومرضى القلوب تركوا الرباط في وقتٍ واجبٍ عليهم فيه الثَّبات ودوام المُصابرة، وساقوا حُجَجاً كاذبةً باطلةً لِتَرْكِ هذا الرباط، وأما المؤمنون مع طالوت فأصابهم بما يُصيب الإنسان وقتَ رؤية الكثرة التي تحمل الموت، ولكن إذا ذُكر تَذكر، وإذا وُعظ قَوي قلبه فأقبل، وأُولي العلم همُ الذين لا تخدعهم الصور ولا تُرهبهم الأصوات، ولا يُقعقع لهم في الشنان، فالموت مطلبهم لأنها الشَّهادة، والكثرة مغلوبة ولو بعد حين إنْ خلت من ذِكر الله تعالى، لأنَّ مثل الذي يَذكر ربَّه والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ والميتِ، وهؤلاء هم نور الهُدى وغيظ العَدى، ولا تزيدهم المحن إلاَّ نوراً وصفاءً وقوةً، إمامهم في ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه وعلى رأسهم الصِّدِّيق الأكبر أبو بكر الذي وقف في حرب المُرتدين موقفاً تعلَّق به الإسلام ووُجوده، فلم تكنِ الغَمرات تزيده إلاَّ قوةً، ولا أخبار الشُّهداء إلاَّ عطاءً ودِفْقاً وثقةً بوعد الله تعالى، ولا تكالب الأعداء إلاَّ صلابةً، ولا مخالفة النَّاس له مِنَ المؤمنين في هذه الحروب إلاَّ شدَّةً فهو القائل: «واللهِ لَوْ مَنَعُوني عَناقاً كانوا يُؤدُّونَها إلى رسولِ اللهِ ﷺ لقاتَلْتُهم على مَنْعِهَا»[2]، فرضي الله عنه وأرضاه مِن رجلٍ له دَيْنٌ في عُنُقِ كلِّ مسلمٍ إلى يوم القيامة، ووالله إنه لَتَغْشاني سَبحات أنوار النُّبوة لما أتفكرُ في رسول الله ﷺ، فلا أكاد أَمْسِكُ طَرَفاً منها لأُحِيطَ بمعالمه، ولكني أُحَاوِلُ تلمسها من خلال أصحابه ﷺ، فإنْ فرغتُ لأبي بكرٍ رضوان الله عليه وتلمستُ بعض جوانبه العظيمة الباذخة أدركتُ شيئاً من قول الملائكة وهم يزنون رسول الله بأُمَّتِه فلا يقدرون، فانتهوا إلى أنه أكثر من أُمَّته وزناً ﷺ، ذلك لأنَّ هذه العظمة البشريَّة في أبي بكرٍ عِلْماً وَعَمَلاً، قَلْباً وَقَالِباً لا تقدرُ عليها الجبال الرواسي، ولقد صدق الفاروق حين قال: «وَلَيْسَ مِنْكُم مَنْ تُقْطَعُ الأَعْنَاقُ إِلَيْهِ مِثْلُ أَبِى بَكْرٍ»[3].

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾[4].

---

[1] ذكره ابن الجوزي في «غريب الحديث» ج١ ص٥.

[2] البخاري في «كتاب الزكاة» باب وجوب الزكاة. حديث رقم: ١٤٠٠. أطرافه في: ١٤٥٦، ٦٩٢٥، ٧٢٨٥. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الأمر بقتال النَّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويُقيموا الصلاة، ويُؤتوا الزكاة، ويُؤمنوا بجميع ما جاء به النبي ﷺ، وأنَّ مَنْ فَعَلَ ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها، ووُكِلت سريرته إلى الله تعالى، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام، واهتمام الإمام بشعائر الإسلام. حديث رقم: ٢٠.

[3] البخاري في «كتاب الحدود» باب رجم الحُبلى من الزنا إذا أَحصَنَتْ. حديث رقم: ٦٨٣٠.

[4] سورة الأحزاب، الآية: ١٤.

هذا عِلْمُ الله فيهم وبما في قلوبهم، وباختياراتهم في الظروف الُمتقلبة والمحتملة، والبشر لا يقدرون على هذا لكن يمكن لهم أن يقرؤوا النتائج بالُمقدمات، ويتوقعون الاختيارات بالسوابق والأشباه، ذلك لأنَّ الإنسان هو الإنسان، والسنن الإجتماعية حقٌّ، وهذا الحدث وإنْ لم يقع في غزوة الأحزاب لما أكرم الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالنَّصر، فلم يدخلِ الُمشركون المدينة وصُرفوا عنها، لكن حدث أنْ دخل الغُزاة الُمشركون مُدُناً مسلمة فالتحق بهم طوائف، وصاروا للمشركين جنوداً وأعواناً، ولا حاجة للمسلم الُمعاصر أن يذهب للتاريخ ليقرأ سيرة الزنادقة عند دخول التتار بغداد، ولا لإخوانهم لما دخل الصليبيون بلاد الشام، ولا لغُزاة الغرب عند سقوط دولة الخلافة والتحاق طوائف في خِدمتهم والقتال معهم إذ رأينا المغربي في بلاد الإسلام يُقاتل مع الفرنسي وتحت رايته في المشرق، ورأينا الليبي يُقاتل مع الطلياني في الحبشة تحت رايته، ورأينا الهندي المسلم يغزو مع الإنجليز فلسطين وينشر الكفر والفساد، ورأينا السوداني يُقاتل تحت راية الإنجليز في مصر، والمصري يُقاتلهم تحت نفس الراية.

أقولُ: كل هذا تاريخ قد يصعب تعقبه عند البعض ولكن انظر اليوم وقد غزت أمريكا وبريطانيا العراق وأفغانستان، ودخلوا مدن المسلمين، فنادى هؤلاء المشركون النَّاس فركض إليهم المنافقون، يعملون تحت إمرتهم، ويسوسون النَّاس بسياساتهم، ويكذبون ويزورون أنهم يريدون مصالح المسلمين، ومثل هؤلاء «كلاب الحراسة» يسمَّون في ثقافة الشعوب المحتلة بالخونة، وفي القرآن الكريم بالمنافقين، وهم يصرون مع أتباعهم وحميرهم أن يسمُّوا بالسياسيين الأذكياء الذين يحسنون تحقيق الإنجازات بالجثي على أربع.

إنَّ هذا الوصف القرآني لهؤلاء السفلة في كلام الُمفسرين هي الشرك، وكلامهم حقٌّ ولكن إنْ أحاط المسلم علماً بمعنى الشرك، فالغازي قد يأتي بأوثان حجرية ينصبها ليعبدها أهل هذه المدينة، وقد يأتي بأنظمة شِركية يدخل النَّاس في دينها وطاعتها، وقد يبني معابد شركية للعبادة، وقد يأتي ويبني مراكز لهذه التشريعات التي تُعَبِّد النَّاس لغير الله تعالى، ثم يسأل النَّاس الدخول في هذا.

هو يسألهم ويحرضهم ويدعوهم، ومع هذا السؤال تهديدٌ للمُخالفين، وتحذيرٌ لهم، أما المجاهدون فليس لهم عند هؤلاء الداخلين إلاَّ الحرب والقتال.

إنَّ هذا الداخل يُريد أن يحقق نَصْراً دَائِماً، وذلك بقتل المجاهدين، وترهيب الضُّعفاء والمساكين، ومنع الُمذكِّرين والواعظين بما اختارته قريش مع رسول الله ﷺ؛ الإثبات أو السجن أو القتل أو الإخراج، واستقبال الطائعين والُمستجيبين، وحُسن دعمهم وتقويتهم ليتم لهم الُمراد.

إذاً غزوة الأحزاب هذه لم تكن فقط لإفناء المجاهدين من رسول الله ﷺ وأصحابه، بل كانت كذلك لتمكين الُمنافقين من إظهار ما يكتمون، واستخدام المرضى جنوداً لهؤلاء المنافقين لتعود المدينة النَّبويَّة على الحال التي كانت عليه قبل مجيء رسول الله ﷺ والإسلام إليها.

﴿ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ ﴾.

وهذا ما وقع اليوم إذْ أنَّ القوم من هؤلاء المنافقين من أصحاب الاختيارات الضالة المُناوِئَة للجهاد أسرعوا من أول يوم دُعُوا فيه، ولم يتوقفوا، وإنْ كان ثمة يسيرٍ من الوقت فهو وقتُ المسير لتقديم آيات العبادة والطاعة لهذا الداخل اللعين.

إنْ لم يكن هذا وصفهم اللائق لهم في كتاب الله تعالى، وإذا رفضوا هذه الحقيقة وأنهم إخوان وورثة المنافقين الذين كانوا زمن رسول الله ﷺ، فأين إذاً وصفهم في هذا الكتاب الذي فيه ذِكرُنا وذِكرُهُمْ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ ﴾[1].

هل همُ المجاهدون المُقيمون على الثغور؟.

هل هم أصحاب الأخدود؟.

هل هم الفارون بدينهم كأهل الكهف؟ ليقولوا لنا صورتهم في كتاب الله لِنُقارنَ ونَعلم.

إنَّ وصفهم الوحيد في كتاب الله تعالى أنهم منافقون، لكنهم لا يتدبرون القرآن، إذ على قلوبهم أقفالها.

لقد ترك هؤلاء الجهاد لأنَّ بيوتهم فيما يزعمون عورة، ويقولون إنْ جاهدوا كُشِفَتْ بيوتهم وصارت نَهْباً وعُرْضَةً للفساد والخراب، فانتكسوا لبيوتهم جُبْناً وَخَوْفاً.

فلما جاء الأعداء خلال البيوت وصرخ صريخهم: «هَلُمَّ إلى نِدَائِنَا»، خرجوا زرافات إليه وهم يحلمون أن يتحقق لهم الرضى والقبول، فينالوا نصيباً من الدُّنيا تحت مظلة المشركين.

هذه صورة القرآن لهم، ومع ذلك يريدون أن يضعوا على كلِّ هذه الصور الواضحة غلالة من الستور الظاهرة لتخفي هذه الحقائق، مع أنَّ هذه الستور هي عينها ما كان يفعلها المنافقون زمن رسول الله ﷺ فإنَّ بعضهم كان يخطب بين يديه ﷺ.

لقد لعن النَّاس أبا رِغال أبو ثقيف ورموا قبره ورجموه لأنه أعان أبرهة الحبشي في غزوه للكعبة، ولعن النَّاس كل من يمدُّ يده للمُعتدي الكافر، ومضتِ البشرية على هذا، مع أنَّ هؤلاء يتسترون بمصالح أُمَّتهم وشعوبهم، وأنهم يريدون تخفيف الشرِّ، وإزالة الأذى بغير قتالٍ ولا دمٍ ولا جهادٍ، ثم تمضي الأيام وتكون العاقبة للمؤمنين والمجاهدين، ويكتب التاريخ سيرته بلعنِ هؤلاء، وتسمِيَتَهم بأسمائهم الحقيقية، ويردُّ التاريخ الاعتبار للمجاهدين الذين كانوا يُسمَّون في زمن المحن والابتلاء بأسماء مُنفرةٍ ظالمةٍ، وتُلقى ضدَّهم الاتهامات أنهم سبب البلاء، وأنهم جروا عليها وعلى العباد الخراب والدمار، وأنَّ في جهادهم حجة للغُزاة في قتلهم وفسادهم، ولكن هذه فتنةٌ عابرةٌ ومحنةٌ مقضيةٌ، والعاقبة للمتقين.

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ١٠.

سيكتب التاريخ كلمته لأنَّ الزَّبَدَ يذهب جُفَاءً لا روحَ فيه، ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1]. ولذلك سيقول التاريخ عن هؤلاء المُخربين أنهم مجاهدون وأنَّ موتاهم شهداء، وسيكتب أنَّ خصومهم خونة ومنافقون وجبناء حتى وإنْ خدعوا البعض أنهم حكماء ومصلحون.

لقد رأيناهم في غزوة أُحد يقولون: ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ﴾[2]. ولما حضر الكفار إليهم هنا قالوا: ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ يريدون الفِرار، ولما دخل عليهم الكفار بيوتهم صاروا إليهم والتحقوا بهم وما تلبثوا بها إلاَّ يسيراً.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾[3].

لقد انفرطَ عقدُ العهد عند الضغطِ والشدِّ، فإنهم قبل قدوم الأحزاب كان لهم عهدٌ وميثاقٌ أنْ لا يفروا يوم الزحف، ولا ينكصوا على أعقابهم يوم اللقاء، ولا يشكن شاكٌ أنهم كانوا يوم الميثاق كاذبين، بل كانوا صادقين، لكنهم كانوا في سعة، ويرون في أنفسهم الصِّدق والقوة على أداء هذا العهد على وجهه الصحيح، وهم ينساقون مع الجموع التي تقوي نفوسهم، ولكن لما حضر النَّاس الصف، وفُتِنَ النَّاس فتنةَ الموتِ والقتلِ، لا فتنةَ العقائد والتصورات، اضطربت نفوسهم، وشلَّ خوف الموت وحبّ الحياة إراداتهم فطلبوا الخروج من الصف والاختباء في البيوت.

هذا نفاقُ الإرادات الذي لا يكشفه إلاَّ الجهاد في سبيل الله ومحنه وشدائده، وهو النِّفاق الغالب في القرآن، وهو النِّفاق الأشهر في زمن رسول الله ﷺ، وهو الذي يُدمر هذه الأُمَّة ويجعلها ساحةً مستباحةً لأعدائهم، فمن خلال هذا النِّفاق يستسلمُ الضُّعفاء ويُوالون المُشركين ويدخلون في طاعتهم، ويتركون الجهاد في سبيل الله.

من جِذْرِ هذا النِّفاق يتولد الفقهُ الأعوجُ، ويمنح المفتون فتاوى الضلال، وتنسج جماعات الانحراف أحابيلهم لجمع حسنى الشعار الإسلامي مع ضلال السلوك الشيطاني، وتتستر الأهواء الشخصيَّة وراء مصالح الأُمَّة وبيوتها وأركانها، ويلتقي أهله مع المُشركين في صفٍ واحدٍ ضدَّ المجاهدين، ويتفنن رجاله في قصف أهل البلاء بألقاب الخِسَّة والدناءة، ويمتنع أهله من أحكام الفقه إلى كلمات الظلال الوسطية بين الظلمة والنُّور، وتؤول معارك الإسلام إلى معارك المصالح الذاتية والحزبية.

أهل هذا النِّفاق يدعون المشركين إلى كلمةٍ سواءٍ في إصلاح الواقع تحت مظلة الجاهلية، ويتبرؤون من المجاهدين لأنَّهم حققوا انتصاراً كما يصرخون إنْ أعادوا مجاهداً إلى حظيرة الجاهلية ومظلتها، ويأنفون أشدَّ الأُنفة أن يُنسبوا لمكرمات المجاهدين أو يُذكروا في سياقهم.

---

[1] سورة الرعد، الآية: ١٧.

[2] سورة الأنبياء، الآية: ١٦٧.

[3] سورة الأحزاب، الآية: ١٥.

بعض هؤلاء لما حصل الكفر بدارهم لم يروه كفراً، ولما صار جاراً لهم اختلط عليهم نسبه، إذ لا يرون الكفر إلاَّ ما كان غريباً بعيداً، لكن لما صار خلال البيوت ويُقيم بين الظهور ويحمل شارات أهل المدائن وأسماءهم لم يروا مانعاً من اللحوق به، لأنَّ الكفر عندهم ما كان أجنبياً، ويُعادى إنْ كان بعيداً، ولو سُئل أحدهم هاتِ دليلاً واحداً عن هذا القريب عن ذاك الغريب لما درى ما يقول، لأنه يرى أنَّ دين الغريب هو عينه دين القريب، إذ كلاهما يحكم بشريعة الشيطان، ويرى أنَّ أفعال القريب أشدّ ضرراً من أفعال الغريب، بل لم يكن لهذا الكافر الغريب يداً ولا إفساداً في البلاد ولا إضراراً بالعباد إلاَّ بسطوةِ هذا الكافر القريب، كلُّ هذا يعلمه ويراه ولكنه يظنُّ أنَّ الفتنة أنْ يفترقَ البيتُ الواحد على قاعدة الإيمان والكفر لا أنَّ الفتنةَ هي الشرك والكفر، فما أبعد هؤلاء عن فقه الكتاب ونور هدايته وخصوصية صِبْغَته.

هؤلاء في زماننا ضعفوا لما رأوا هجمة الباطل العاتية وقسوتها في ضرب خصومها، ولم يعلموا أنَّ هذه وَسْمَةَ الباطل في كلِّ زمانٍ، وأُمَّتنا اليوم لم تعاني كما عانى رسول الله ﷺ وأصحابه في غزوتي أُحد والأحزاب، ولا عانت بمقدار مُعاناتها أمام التتار وإفسادهم، ولا أمام الصليبيين واحتلالهم للقدس، ولكن كان في الأُمَّة مجاهدون علماء لا تُرْهِبُهُمْ هذه اللحظات، ولا يستسلمون لهذه الزلازل والهزات لأنهم يعلمون أنها أمواج سرابٍ، جاءت لما غاب النُّور وضعف النَّاس، فاستنهضوا النَّاس إلى الجهاد لا غير، ولعنوا كلّ من ذهب هناك عند المشركين، وفضحوا كلّ من دعا إلى خورٍ أو جبنٍ أو تخاذلٍ، وصرخوا في النَّاس أن هلمُّوا إلى جهادكم المبارك، فاستجاب لهم نُزَاعٌ من القبائل، وقامت سُوقُ الجهاد وتحقق للمؤمنين بعد طُول السنين بل مئاتها مقاصدهم.

أما اليوم فقد ارتجفتْ أقدامهم وخارتْ عزائمهم وانماثتْ إراداتهم أمام صرخات الشيطان، وأيقنوا بالهلاك لما رأوا تساقط الدول وسجن المهاجرين والمجاهدين فظنوا كما ظنَّ المُشركون أنَّ التاريخ قد توقفَ ههنا، وأنَّ حُسْنَ العمل والفقه أنْ نحسن خلاص الباقي، وأنْ نُرْضِي الكفر لعلَّه يقبل بمجرد وُجُودِنا فقط، ونفوسهم تظهر: أين المجاهدون الذين كانوا يحلمون بالخلافة ووراثة الأرض؟! ها هم بين قتيل وأسير، فهذا ليس وقت الوعود ولا زمانها، وإنما هو وقت السكون ومصالحة الآخرين وهم خلال ديارنا بين أظهرنا، والصلح معناه عندهم أنْ ندخل في دينهم وأنْ نعمل بشرائعهم، وأنْ نستظل بظلالهم وأنْ نقبل شروطهم.

لكن سلوا أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه لو كان بين أظهركم ماذا سيفعل، وسلوا نور الدين زنكي، وصلاح الدين، وعمر المختار، وعز الدين القسام ومَنْ هم على صورتهم لتعلموا ما هي طريق الأولياء، وما هي هداية القرآن، وما هي الثقال التي تمكث في الأرض ويُكْتَبُ لها البقاء ويحملها التاريخ سيرةً لأجيال الإيمان التي يتصل نسبها بالأنبياء صلوات ربِّي وسلامه عليهم أجمعين.

هاتان صورتان تظهران عند كلِّ منعطفٍ تاريخيٍّ، وفي كلِّ عَرْضٍ قُرْآنِيٍّ، وللنَّاس وهم على بصيرةٍ أن يدخلوا في أحدهما بلا تزويرٍ ولا تزويقَ ألفاظٍ وشعاراتٍ.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

إنهم يتمنون الجهاد، ويأملون لو يفتح لهم بابه، ويتفننون به شِعْراً لماضٍ ذاهبٍ، أو لبعيدٍ عن بيوتهم، فإذا حضر إليهم، وساقه الله إليهم هربوا عنه، واختلفوا عليه، ولن يعدموا أن يقولوا فيه الكثير.

لقد كانوا يدعون للجهاد وهو بعيدٌ فكانوا يعتذرون أنه فرض كفاية، ولما حضر إليهم صار إفساداً في الأرض وخراب الديار، والفتاوى جاهزة والأدلة محتملة والتبرير فن يُتقنونه ويتوارثونه.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾[1].

هكذا يُعري الله كلَّ حُجَجِهِمْ، ويفضح مكنون نفوسهم، فالأمر كلّه خوفٌ من الموت والقتل، ومُفارقة المُتع والمحبوبات ورغائب النُّفوس.

إنَّ الجهاد في حقيقته صراعٌ بين إيمان المرءِ بالقضاء والقدر وبين حبِّ الدُّنيا وكراهية الموت، فالجهاد في سبيل الله تحقيقٌ عمليٌّ لحبِّ المرءِ للدَّار الآخرة، وتحقيقٌ لقوة يقينه بما كتبَ الله له، وأنَّ أما أصابه لم يكنْ ليُخْطِئَهُ، وأنَّ ما أخطأه لم يكنْ لِيُصِيبَهُ، وكلّ حجج المُعرضين عن الجهاد وإنْ بدت تقوم على المصلحة والعقلانية هي هَوَاء، ومبناها على حبِّ البقاء، وها نحن نرى في كلِّ المواطن القرآنية في حديثها عن الجهاد إنما تسير في اتجاهٍ واحدٍ ضدَّ مُعارضيه، هذا الاتجاه يقفُ أمام نفسيَّة المُخالفين بحبهم الحياة وطول البقاء والخلود، وخوفهم من الموت ولقاء الله تعالى.

إنهم يحذرون من أفعال المجاهدين أنها تجر الموت للنُّفوس، والخراب للاقتصاد، والحصار للديار، وما علموا أنَّ الفرار من الجهاد لا يحقق لهم الأمان ولا يأتيهم بالرغد، فإنهم وإنْ فعلوا ذلك وركنوا إلى عمارات الديار وتكثير الخيرات والأموال فإنما خرابها آتٍ، فلما ورث الصَّحابة أرض اليهود حول المدينة، وحازوا أموالهم وحدائقهم وبيوتهم، وكلّ هذا بالجهاد في سبيل الله تعالى، ولما تركتِ الأُمَّة الجهاد في بعض البقاع حدث العكس من ذلك، إذ ورث اليهود ديار المسلمين في فلسطين، وسكنوا حدائقهم وبيوتهم وديارهم، بل إنَّ بعض بلاد المسلمين قد حازتها طوائف كانت خسيسة المقام، ذليلة الحال، فهذه بلاد الشام يعبث فيها النُصيريون، ويسلبون أموال النَّاس وبيوتهم، ومع أنَّ هذه الطائفة كانت مِنَ الخِسَّةِ بمكان حتى إنهم كانوا يبيعون بناتهم لغيرهم من حقارتهم وهوانهم، فكم تمتع المسلمون بمتع الحياة حين تركوا الجهاد في سبيل الله تعالى؟.

﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

لقد تمتع مَن تمتع في هذا القليل ثم ذهب الجميع موتى، ولكن كانت العواقب الفاجعة إذ صارت أُمَّة الإسلام كالقَصعة بين يدي اللِئام الجِيَّاع، ينتهبها كلّ أحدٍ، حصونها متهاوية يلج فيها كلّ

[1] سورة الأحزاب، الآية: ١٦.

طامعٍ، ويلغ فيها كلّ جائعٍ، ويحويها كلّ وضيعٍ لكيعٍ، وهي بأعدادها الكثيرة غُثاء كغُثاء السيل لا تَصدُّ ولا تَردُّ ولا تُدافعُ، والعِلّة الوحيدة أنَّ الأُمَّة ماتت فيها آيات القرآن التي تستنفرُ الصُّمَّ، وتهيجُ النُّفوس نحو المَعَالِي والقِمَم، فإنْ قام قائمٌ يدعوهم ويُؤذن فيهم ويستصرخهم سبُّوه ولعنوه لأنه أوقظهم من سُباتهم.

لقد تهودَّت قيم الأُمَّة العظيمة فصرنا نحن أحرص النَّاس على حياة، إذ رضي مُفْتُونَا ومشايخنا فِقْهَ حياة الهَوان، وجعلوها شِرْعَةً للنَّاس، وقذفوا كلَّ مُنْكِرٍ لها بالضلال والإفساد في الأرض، فصار مُنْكِرَ الهَوان ورافضَ الذلة والمسكنة في فقه هؤلاء مريضٌ مفسدٌ خارجيٌّ، فيا لهذه الأُمَّة كم تُعاني من هؤلاء وكم هي عظيمة بلواها بهم.

هل المجاهدين بحقٍّ يُفسدون مُتَعَ النَّاس، وهم يقبلون هذه التُّهمة برضىً وفرحٍ وحبورٍ، لأنها تهمة يُطلقها المنافقون والمرضى ضدَّ الرجال الأوفياء لدينهم، وضدَّ القلوب التي تعلَّقت بحبِّ الله والدَّار الآخرة، ولكن لِيقبل هؤلاء المُعارضون للمجاهدين في سبيل الله أنهم ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾[1]. وأنهم يفرون من الموت ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[2]. وأنهم لا يتدبرون القرآن بل على قلوبهم أقفالها من الجبن وخوف الموت وحبِّ الحياة.

هذه حقيقة الجهاد، إذ يكشف الدِّين الحقّ في قلوب الذين يؤمنون به ويعملون له على كلِّ حالٍ، في السعة والضيق، وفي القبض والبسط، ويكشف الدِّين النافع والذي لا يأتي إليه أصحابه إلاَّ وهو يقدم لهم المُتع والرغبات والشهوات.

لقد قال الزنادقة كلمتهم: «إنَّ الأديان جاءت لتحقيق المنفعة الدُّنيوية للبشر» على معنى الضلال لإبعاد مهمات الدِّين وحقّ العبادة وألبسها المُفتون كلمات العلماء زوراً وبهتاناً «حيثما كانت المصلحة فثم شرع الله» وعلى قواعد ﴿أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ صار الجهاد إفساداً للنَّاس، وإضراراً بوحدة الوطن، وتفريقاً بين النَّاس على أساس الدِّين والإيمان، وضرباً لعلاقة الخنوع بين الحاكم الكافر والشعب المُهان، فباسم الدِّين صار المجاهدون أعداء الإنسانية جميعاً، وباسم الدِّين صار الجثي على أربع صلاحاً وتقوى.

لِيجلس هؤلاء الفارون هناك، حيث قصور المُنعمين، وحيث حروب الكلمات الجميلة، وصراع البسمات بين المتحاورين، وليبقَ المجاهدون في أربطتهم وثغورهم وصفوفهم، ولنرى بعد ذلك من يدفعُ أكثر، ومن أتقى وأعبد؛ الذي يدفع دمه وروحه ثمناً لحفاظ دينه، أم الذي يدفع دينه ثمناً لحفاظ حياته؟.

أما حديث بعد الموت فله مكان آخر.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٩٦.

[2] سورة الجمعة، الآية: ٨.

نعم إنَّ المُقيم في بيته مُنعَّمٌ، وإنَّ المُقيم في الثغور والسجون مُبتلى، لكنها أيام وسيموت الجميع، والأمس قد ذهب، فمن أقام ليله وصام نهاره فقد ذهب عنه، ومن أقامه في الثغور فقد ذهب عنه، ومن نامه في أحضان نعيمه فقد ذهب عنه، ولكن القضية في غد.

هذه الدُّنيا كلها «أمس» وأما «غد» فهو بعد الموت، والعاقل لا يعدُّ النَّعيم ما كان في «أمسه»، بل النَّعيم الحقيقي ما كان في «غده»، ألا ترى أنَّ المرءَ يتعبُ في الأرض اليوم ليأكل منها غداً، ويرحل اليوم ليرتاح غداً.

إنها أيام «أمس» الذاهبة وغداً يقيل المتعبون ويحطون رِحالهم في جِوار الرحمن في مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.

لم يفهم شيء ـ والله ـ، فما هي إلا لُقَيْمَات طعام مرت لذيذة للحظة يسيرة على الفم ثم صارت بُرازاً، وخيوط ناعمة مرت على الأبدان ثم خلفت وبالت، وثواني لامست أجسادهم أجساد النساء ثم أعقبها تعب وارتخاء.

لم يفتكُمْ شيءٌ أيها الرجال، فإنكم خلال أكلهم وجلوسهم وفسادهم كنتم ترون رحمات الإله، وعطايا السماء، والرُّؤى المُبشرات، والمسك الفواح من أبدان الأقران، والبسمات على شِفاه المقيلين في عالم الغيب.

لقد أكرمكم الله بأنكم أغظتم الشيطان وجُنده، فهم يصرخون مع ضعفكم، ويتألمون مِنْ صمودكم وثباتكم، وتضيق عليهم حياتهم ومناكم لأنكم تعملون خارج النص الذي رسموه لعبادهم ومأجوريهم.

﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

إنه متاع السراب الخادع، إذ يفرحُ لأرقام يُهْداها كما يفرحُ الطفل الغرير بصور الأشياء من التماثيل والدمى، وكما تفرحُ الدابة لضمة علفٍ تُلقى بين يديها، فهذا مبلغ ما تمتعون به فهنيئاً لكم قليلاً، لكن القاصمة بعد:ـ

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾[1].

هذه حجة الحقِّ سبحانه وتعالى في الهاربين من الجهاد مخافةَ الضرر والأذى لجهلهم بقدر الله تعالى وقضائه، وجهلهم في عدله وحُكمه، وجهلهم في رِضاهُ وغَضبُهُ، إذ يظنون أنَّ الضرر له بابٌ واحدٌ هو ما يهربون منه، وأنَّ باب الهرب هو باب النَّجاة والسلامة.

[1] سورة الأحزاب، الآية: ١٧.

إنَّ أقدار الله تعالى بهم محيطة، والهاربون من الجهاد لن يطول هربهم إلى النَّعيم، بل هناك ما هو أسوأ من الضرر الحاصل بسبب الجهاد، فأين هم من عذاب الله الدُّنيوي بمخالفة أمره وترك الجهاد في سبيل الله، وأين هم من إذلال الكافرين لهم حين يغلبون عليهم؟!.

لقد أمر الله بأوامر وتكفل لمن أطاعه أن يكون حَسْبُه، وأن يكفيه الشرور والعذاب، وأن لا يقع عليه بلاء إلاَّ وكانت عاقبة البلاء خيراً له، فإنْ قضى نحبه فهو في السعادة الأبدية والجِنان الخالدة، وإن بقي عاش عزيزاً مُطمئنَ القلب بذكر الله وراحة البال.

سعادة قلبه خيرٌ من مذاق لسانه بالطعام، وفرج قلبه خيرٌ من ابتسام الثياب على جسمه، وعزة نفس المؤمن خير من افتخار الأغنياء بأموالهم وسلطانهم، وأما غيرهم فمعيشتهم الضنك لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1]. ووالله لقد رأينا هؤلاء الذين يحسبهم النَّاس أسعد النَّاس بسبب مالهم أو سلطانهم فما رأينا الواحد منهم له سعادة مع زوجةٍ ولا مع ولدٍ ولا مع مطعمٍ ولا ملبسٍ، وما يرى النَّاس إلاَّ الصور التي يحضَّر لها للحظات، فإنْ زالت آب أحدهم إلى وحدته وشقائه، فيركضون إلى المخدرات والخمر، وإلى البؤس والشقاء، والوحدة والفراغ، يعجز أحدهم أن يجد زوجة يأتمنها على عِرضه وماله، أو ولد يرث عنه ماله وتلاده، فوالله إنَّ حياتهم الشقاء، ولو فَهِمَ أهل الكَفاف ما هم فيه من النَّعيم لحَمدوا الله أنْ جنبهم حياة هؤلاء، ولما برحوا مكانهم الذي هم فيه من الراحة واطمئنان البال، لكن النَّفس البشرية جاهلة ظلومة، وقد صدق رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آل محمَّدٍ قُوتاً**»[2].

إنَّ العذاب الذي تحيَّاه الأُمَّة بترك الجهاد أضعاف ما تُقدمه بسبب الجهاد مِنَ الجَهْد والمشقة، هذا مع ما في مشقة الجهاد من سعادة قلبية يعرفها أهل هذا الطريق، وكفى بهم سعادة أنهم حين يستشهدون يتمنون الرجوع إلى الدُّنيا ليُقاتلوا فيُقتلوا مرةً بعد مرةً.

إنكم إنْ قُمْتُم للجهاد كان الله مولاكم، وكان هو ناصركم، وأما إنْ تركتم الجهاد فلا مولى لكم ولا ناصر، وكل ما تظنون من غير الله يحميكم وينصركم فهو باطلٌ في باطلٍ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾[3]. ويقول سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[4]. فهؤلاء الآلهة الباطلة سيصرخون حين يأتي عذاب الله كما صرخ الشيطان من

---

[1] سورة طه، الآية: ١٢٤.

[2] البخاري في « كتاب الرقائق» باب كيف كان عيش النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدُّنيا. حديث رقم: ٦٤٦٠، ومسلم في «كتاب الزكاة» باب في الكفاف والقناعة. حديث رقم: ١٠٥٥. كلاهما من طريق أبي هريرة ﷺ.

[3] سورة الحج، الآية: ٧٣.

[4] سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

قبل: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[1]، وصورة تخلي الأولياء عن عبيدهم صورةٌ متكررةٌ في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾[3]. والحقُّ أنَّ هذه المسألة لِتَرَدُّدِها في القرآن تحتاج إلى مُؤَلَّفٍ مستقلٍ.

لقد رأى أهل التاريخ أنَّ طواغيت البشر والجن لا ينصرون عبيدهم وقتَ المحن والكروب كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾[4]. فهم يتخلون عنهم في الدُّنيا ويوم القيامة كذلك.

إنَّ أودية الباطل التي يستدفئون بها إلى حينٍ سُرعان ما ستذهب عنهم، وسيتعرون عنها، وقد رأينا في زماننا الكثير من هؤلاء الطواغيت يكون في المُلك والسلطان، مُتوكلاً على غير الله، مُسْتَنِداً إلى جُنده وجُند غيره فما أن تأتي رياح القدر حتى لا يجد أحدهم مأوى يأوي إليه، أو بيت خص يحميه، وإن مات فأفقر العباد أكرم منه مستقراً.

كفى بأهل الجهاد أنهم يثقون بوعد الله، ويُعلقون عواقب أفعالهم بولاية الله ونصره، فنظرهم إلى رضى الربِّ عنهم دائماً، فإنْ جاءتِ القُروح رأوها ابتلاءً وامتحاناً، وإن جاء نصر الله رأوها نعمةً تُوجِبُ شكراً وحمداً، فهم على ذلك حتى تأتيهم الشَّهادة، أما غيرهم فهم يبذلون ماء المحيا ليرضى عنهم الطاغوت، ويقبل بهم في نسيجه ودينه، وهم في تنازلٍ عن الدِّين الذي لا يرضاه حتى ينصرهم نصر البقاء فقط.

ثم كذلك ها هنا صورتان، صورة المجاهدين كما يعرضها القرآن، عملوا وهم مُوقِنُونَ بوعده، وتسابقوا إلى هذه الوعود وهم يتوكلون على الله، ويستنصرون به وحده دون غيره من العبيد والخَلق، فيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وصورة أخرى يُسمُّونها اليوم بالحركات الإسلامية!! صورتها أنها تطلبُ رضا الجاهلية عنهم، وتقفُ أمام عَتباتها السنين الطويلة لِتقبل بهم، وفي كلِّ طلبٍ لهم يقدمون تنازلاً جديداً يزعمون أنه اجتهادٌ جديدٌ، وبعضهم لما جاء الكفر الأصلي وأفسد العباد والبلاد دخلوا في طاعته، وركضوا لِبَلاَطِهِ ومَوَائِدِهِ، فأين صورة هؤلاء في كتاب الله؟.

هذا سؤال يُترك لمن آمن وتيقن أنَّ هذه الأُمَّة لا تخرج من الذلة إلى العِزَّة ومن الهزيمة إلى النَّصر إلاَّ بالعودة لكتاب الله، فندخل في صورة أتباع الأنبياء وأصحاب رسول الله ﷺ، ونتجنب جُهدنا أنْ نُشابه المنافقين ومرضى النُّفوس، وهكذا يكون إحياء وتجديد الدِّين حين يُفعَّل كتاب الله عملاً وعلماً

---

[1] سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

[2] سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

[3] سورة الأحقاف، الآية: ٢٨.

[4] سورة الأحقاف، الآيتان: ٥-٦.

لِيستوعبَ الأحداث المُعاصرة وشخوص هذه الأحداث، فيحمل الزمن المُعاصر على قوالب السابقين فيعرف النَّاس منازل القوم وأحكامهم ومصائرهم.

إنَّ فِرَقَ اليوم ليست فرقَ أقوامٍ يختلفون على مسائل تصورية عقائدية، هذا مع وُجودها في داخل الصف المسلم، لكن محنة الإسلام اليوم تتعلَّقُ بأصل الدِّين ووُجود الأُمَّة وهويتها، فهي مُستهدفة في مُكَوِّنِهَا الحقيقي وهو كتاب الله تعالى، لأنه هو وحده مع السنَّة النَّبويَّة في كونها راويةً لسلوك النَّبيِّ ﷺ ومواقفه من الآخر من يحمي هوية الأُمَّة وصورتها الربَّانيَّة في كونها خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلْنَّاسِ.

فتغيِّير هذا المكون يُبطل فاعلية هذه الأُمَّة ويحَيلها إلى مجردِ خيالِ ظلٍ لا قيمةَ له.

إنَّ التجديد يعني وضع المرايا القرآنية عند كلِّ مُنعطفٍ وعند كلِّ زاويةٍ، مع وُضوح هذه المرايا بكلِّ أبعادها وخُطوطها ليعرف النَّاس واقعهم من خلال هذه المرايا القرآنية، فلا يلتبس عليهم حدث، ولا يخدعهم رجال ضلالة، فهذا هو التجديد العلمي أولاً، ومن خلال هذا التجديد العلمي يقع تفعيل الإرادات المسلمة في بعث روح النُّبوة التي ملأت هذا الكتاب الكريم في نفوس هذه الأُمَّة شباباً وعلماءً ونساءً حتى يتواصل الحديث بالقديم وتتصل سلاسل الهُدى في جهادنا ومُضادتها ضدَّ الباطل وملأه، وضدَّ الشيطان وجُنده.

حين تُهْدَّم حُصون الأُمَّة من الداخل كما يقول الأستاذ محمد حسين رحمه الله تعالى، وحين يصل النخر إلى هوية الأُمَّة، وحين تحمل هذه الأُمَّة من عقيدة الوراثة في الأرض إلى مجرد خيطٍ مكوِّنٍ داخل النسيج الجاهلي يكون الصِّراع قد بلغ مَداه، فإما نكون أو لا نكون.

إنَّ مشكلتنا الأكبر اليوم وصِراعنا الأعظم يدور حول هذه الأرض قبل كلِّ شيءٍ، وهي أساس الخلاف بين ما يطرحه أهل الجهاد اليوم من مُطاردين وأهل ثغور ومقيدي سجون وغرباء وبين غيرهم من آلاف المُفتين والقُضاة وحركات إسلامية سياسية ودعوية وإصلاحية يُعالجون مشاكل داخل هذا النسيج الجاهلي، فهم يريدون أشخاصاً مسلمين ومؤسسات وحركات إسلامية تعيش في ظل هذا الإطار وتُصْلِحُ ما يُعَطب فيه، وأما غيرهم من الداخلين في الصورة الأُخرى، وهي صورة النُّبوة وأتباعها فهم يصبون جُهدهم ويُوجهون سِهامهم نحو هذا الإطار نفسه لِيُحَطِمُوه، ولِيرثوا الإمامةَ في الأرض، وهم يعلمون أنَّ هذا هو صراع الهوية وهو صراع الأُمم، والذي لا أداة فيه إلاَّ الجهاد كما يشهد لذلك التاريخ والقرآن، وهم يعلمون كذلك أنه يمكن أن ينشأ المسلم العابد والمؤسسات الجيدة داخل إطار الجاهلية حين تختار السلامة مع الإطار الجاهلي، وكذلك أنه يمكن أنْ ينشأ قدراً المسلم الفاسق والمُبتدع داخل الإطار المسلم والهوية الإسلامية والأُمَّة المسلمة، بل وتقبل الكافر مُستأمناً ولا يُضام.

الجهاد هو الحل الوحيد لصراع الهويات والأُمم، وحين تتخلى أُمَّة من الأُمم عن الجهاد يعني أنها قبلت محو الهوية ورضيت أنْ تعيش بلا إطارٍ مميَّزٍ ولا كِيانٍ مستقلٍ ولا هويةٍ ممكنةٍ جامعةٍ.

لقد تناظر النَّاس كثيراً حول قضايا فرعيَّة، ولكن الكثير منهم غفلوا عن أسباب نُشوء هذه المسائل الفرعيَّة، وسبب هذه الغفلة هو إطار هذه المسائل، فهناك مفكرون ومفتون وقادة قبلوا العيش في الدون، ورضوا الإسلام مكوناً لا وارثاً، وهناك مجاهدون وغرباء علموا من دين الله أنه يَعْلُو وَلاَ يُعْلَى عَلَيْهِ، ويرث الآخر ولا يقبل الدنيَّة ولا الخنوع، فافترقَ النَّاس إلى فِرقتين، هكذا هي المسألة دون زخرفة.

المجاهدون والغرباء طريقهم أشقّ وأصعب، لأنَّهم غرباء، والغربة أقسى ما يُلاقيه الحكماء والعقلاء في تاريخ البشرية، وهي طريق الأنبياء لكنها طريق الوراثة، وهي طريق الرجال وأشباه الجبال، أُمنية أحدهم الموت فعلاً في سبيل الله:-

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا[1]

لا يفرغ أحدهم من نِزَالٍ إلاَّ إلى آخر، وقد يموت أحدهم ودرعه مرهونة عند يهودي على صاعٍ من شعيرٍ، ولعلَّ آخر غزوةٍ يغزوها أحدهم تكون غزوة العسرة حيث لا طعام ولا رحال للمقاتلين ومع ذلك يقذفهم قائدهم إلى أقاصي البلاد حيث لا مانع لهم هناك من أهلٍ أو إخوانٍ أو أقاربٍ، ويكون بينهم المنافقون لم يزالوا على ما هم فيه من الشرِّ وضعف القلوب وقِلَّة اليقين.

هذا هو حال هذا الطريق، وهو حال رجاله ليس لهم وعدٌ بالراحة هنا إنما لهم وعدٌ وحيدٌ: الجنَّة.

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

هذا قسمٌ آخرٌ من المنافقين في غزوة الأحزاب، إذ فرقةٌ منهم شككت بوعد الله تعالى بالنَّصر والغَلبة، وفرقةٌ شهدت الخندق ثم ضَعفوا وجبنوا وطلبوا الهروب من المُواجهة، وهذه فرقةٌ أُخرى قعدتْ بعيداً عن هذا وجلستْ تُعَوِّقُ الذاهبين للجهاد، وتُنادي المُقيمين فيه لِيلحقوا بهم إلى بيوتهم تاركين رسول الله ﷺ وأصحابه في رباطهم وجهادهم.

هم قُطاع الطريق إلى الله، وقُطاع الطريق على المجاهدين، يُعَوِّقون الذاهبين ويُنادون المقيمين، وهذه سِمَة الشيطان، فإنه لم يقبل أنْ يُضل وحده ويكفر وحده ويفسد وحده، بل ذهب ليضلَّ

---

[1] البيت من قصيدة «كفى بك داءً» لأبي الطيب المتنبي، وهي أول قصيدة مدح بها كافور بن معن، وذلك في سنة ست وأربعين وثلاثمائة. قال الخطيب البغدادي حدثني علي بن أيوب قال: خرج المتنبي من بغداد إلى فارس، فمدح عضد الدولة، وقام عنده مديدة، ثم رجع يريد بغداد، فقتل في الطريق بالقرب من النعمانية في شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة. «تاريخ بغداد» لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، ج٤ ص٣٢٤. طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٧م.

[2] سورة الأحزاب، الآيات: ١٨-٢٠.

النَّاس ويُفْسِدَ الآخرين، وهي سِمَة كلِّ فاسد، فإنه يكره أن يرى ضعفه أمام الآخرين، فهمُ المرآة التي يبصر فيها خِسة نفسه وقذارة صورته وقُبح مواقفه، فَلِكَيْ يبطل هذا الألم وهذا الصغار الذي يستشعره أمام الصالحين فإنَّه يعمل عمله في إلحاقهم إلى رِكابه، وأخذهم معه، وهذا هو التفسير الحقيقي لواقع الجالسين عن الجهاد من مُفتين ومُفكرين وقادة حركات، فهم يرون أنفسهم صغاراً أمام شبابٍ باعوا أنفسهم لله، فرفعهم الله تعالى وجعلهم أئمة هُداة، وأما هم ففي خُمُول، وإنْ ظهر أحدهم للنَّاس وأخرج قيئه لعنوه وسبُّوه، ولم يجد حوله إلاَّ منافقٍ وأخو منافقٍ، يرهب أحدهم الموت ويرتجفُ أمامٍ السجن ويُؤجر نفسه لكلِّ مالكٍ، فبدل أن يهتدي ويُدرك حكمة الله وعدله فيما يجري يذهب حسداً وحِقْداً إلى سبِّ الجهاد والتنفير منه ومنع الذاهبين إليه وتحقير المقيمين فيه.

هؤلاء يظنُّ أحدهم بكتابة مقال في جريدة يُغَيِّرُ التاريخ، وليته مقالَ حقٍّ بل يبدؤه بقوله: كنتُ يوماً...، ويختمها بقوله: ولقد قلتُ هذا الذي وقع...، ولقد نصحتُ قبل سنين طويلة...، فكلامه على قاعدة علي بن أبي طالب ﷺ. فَعَنْ مَعْمَرٍ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عَلِيًّا، مَرَّ بِقَاصٍّ، فَقَالَ: «أَتَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنَ الْمَنْسُوخِ؟» قَالَ: لَا. قَالَ: «هَلَكْتَ وَأَهْلَكْتَ» قَالَ: وَمَرَّ بِآخَرَ قَالَ: «مَا كُنْيَتُكَ؟» قَالَ: أَبُو يَحْيَى قَالَ: «بَلْ أَنْتَ أَبُو اعْرِفُونِي»[1]، ولو سألتَ أمثال هؤلاء: هل تقرأ كتاب الله؟ وفي كم تقرؤه وتختمه لَعلمتَ مقدار صلته بحبل الهداية الإلهيَّة لهذه الأُمَّة، بل لو سألته ماذا يقرأ من سنَّة رسول الله ﷺ لَرأيتَ أنه لم يتم قراءة «رياض الصالحين»، وهو يزعم أنه مفكر إسلامي وقادرٌ أن يخوض في أعظم مسائل الأُمَّة وهي مسألة إحيائها.

أحباء هؤلاء وخَدمهم مَن لا يذكرُ الله إلاَّ قليلاً، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسالى، وأما صفتهم هنا في هذه الآية: ﴿ **وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾** ﴾. فماذا يُرجى من هؤلاء؟ وماذا يمكن لهم أن يقولوا إذا رأوا الجهاد في سبيل الله تعالى، وهم لا يرون فيه إلاَّ الموت والبلاء وقتال النَّاس على أساس الدِّين وخلافهم في الله تعالى وأحكامه وشرعه؟!.

وهؤلاء هم خَدم الجاهلية، فإنَّ جنود الجاهلية يُقاتلون المجاهدين بأسلحتهم وهؤلاء يخدمونها بكلماتهم وتحليلاتهم الباطلة، ويقيسون الأمور حُسْناً وَقُبْحاً بقياس أهل الجاهليَّة من منافع دنيويَّة ومُتَع وشهوات، فلا حقَّ الله وإلهيته تعنيهم في شيءٍ، ولا قيم الآخرة حاضرة في قلوبهم، بل يخجلُ أحدهم ـ لأنه السياسي العميق المفكر اللوذعي ـ أن يذكر القبر والجنَّة والنَّار في حديثه حين يُقِيمُ فِعْلاً أوْ حَدَثاً، فما أدري ما هو الإسلام عند هؤلاء من غير تأليه الله تعالى ووحدانيته ومن غير مِعيار الدَّار الآخرة؟! فإنَّ أيَّ إسلامٍ من غير هذين الأمرين هو إسلامٌ لا صِلَّة له بالكتاب الكريم ولا بالسنَّة النَّبويَّة الشريفة، ذلك بأنَّ أول القضايا التي علمها الله لموسى لما أوحى إليه أن قال له: ﴿ **إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ**

[1] «مصنف عبد الرزاق» حديث رقم: ٥٤٠٧. طبعة المكتب الإسلامي.

﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾[1]. فهذه دعوة الأنبياء وأتباع الأنبياء وكلّ ما وراء ذلك تَبَعٌ له، وكلّ أمرٍ ظنَّه النَّاس إحساناً من دون ذلك هو الفساد بعينه، بل إنَّ الله يبتلي عباده بالنَّعيم وضِدِّه من أجل اختبار إيمانهم بالآخرة كما قال تعالى في سورة «سبأ» بعد أنْ ذكر أمرَ قُرى سبأ الكافرة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾[2].

فهذا هو أمرُ الدِّين الحقِّ وما سِواه لغطُ كلامٍ وتلعبُ أبالسةٍ بدين الله تعالى ليصرفوه عن حقيقته، فإنْ أرادوا صَلاحاً للعالَم وإزالةً للفراعنة فإنَّ الطريق هو إيمان من يقود هذا العالَم مَن يؤمن بالآخرة، إذِ الفساد كلّ الفساد سببه الكفر بيوم القيامة كما قال موسى عليه السلام وهو يرى فساد فرعون وطُغيانه كما في «غافر»: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[3]، ولأني أعلمُ أنَّ أمثال هؤلاء «المفكرين» لا يرون كتاب الله تعالى كما ينبغي أن يكون في قلوب المُصلحين وقادة الحضارات وبُنَّاةَ الأُمم، لأنهم يرونه مجرد كتاب «دين» بفهمٍ مغلوطٍ قاصرٍ في معنى الدِّين، فإني أُنبه هؤلاء إلى ما قاله المُفكر الروسي المُنشق «سوردكين» وهو باحث لا شهرةً له لأنه خارج السياق المُفسد لقيم الإنسان، ومتوفي في عام ١٩٦٨م في أمريكا، إذ كتب بحثاً اتخذته الباحثة «آني جلين جونز» معياراً لدراسة شاملة للثقافة الغربية من فنون كثيرة أهمها القصة والمسرح وسمت كتابها: «رفع المرآة، كيف تهبط الحضارات» ولم يُترجم، خلص «سوردكين» إلى قاعدةٍ صائبةٍ وهي أنَّ الحضارات يبدأ شبابها وامتدادها حين يكون لها تعلُّق بالغيب، ويكون كلّ إنتاجها مَبنياً على هذا الإيمان الغيبي، ثم تبدأ كُهولتها حين تنزل ثقافتها وإنتاجها إلى الرؤى الإنسانية الخاصة بعيداً عن عالم الغيب، ويكون انهيارها وفسادها وتوحشها ـ وهذه مني ـ عندما تنحط قيمها الأخلاقية وذلك بانتشار الزنا واللواط والظلم.

الغريب أنَّ هذه الباحثة خلصت في كتابها، وقد صدر سنة ١٩٩٥م، إلى أن الغرب مقبلٌ ولا شكَّ ولا مندوحة عن ذلك إلى انقلاب حقوق الإنسان فيه وتجاوزها، وهي مقدمة ستكون سبباً لصعود الإسلام، وكان خطؤها الوحيد حين تصورت أنَّ وراثة الإسلام لقيادة العالم ليس بالضرورة أن تكون عن طريق الصدام «الجهاد» مع هذا الغرب المُتهالك.

وعلى كلِّ حالٍ فأمر نشوء الحضارات الفاعلة التربوية في القرآن الكريم تحتاج إلى دراسة مستقلة لو تفرغ لها البعض بصدقٍ ودون تأثرٍ بانبهاره بالآخر لَقدمَ للمسلمين خيراً كبيراً، فأغلب ما كُتب هو رجعُ الصدى للفكر المادي وانبهارٌ بالواقع.

---
[1] سورة طه، الآيات: ١٤ـ١٦.
[2] سورة سبأ، الآيتان: ٢٠ـ٢١.
[3] سورة غافر، الآية: ٢٧.

إنَّ التقيِّيد على المجاهدين والغرباء كما قُيِّدَ أسلافهم من قِبل ملأ الجاهلية كما قال تعالى عن ملأ الكفر من قوم مدين لشعيب عليه السلام: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾[1]. وهي سِمَة الكفر كلِّه مع أهل الحقِّ كما قال تعالى في سورة «إبـراهيم»: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ﴾[2]، وفتح القنوات الإعلامية لهؤلاء يجعلهم في وَهْمِ قوةِ المنطق والحجة لغياب المُخالف وحصاره، فهم على قاعدة:ـ

وَإِذا ما خَـلا الجَبَانُ بأَرْضٍ   طَلَبَ الطَّعْنَ وَحدَهُ وَالنِّزَالا[3]

إنَّ طواغيت عصرنا أظلم من فرعون موسى عليه السلام، فإنَّ فرعون موسى سمح لموسى عليه السلام أن يحاجج السَّحرة يوم الزينة كما قال تعالى على لسانه: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾[4]. فقال موسى عليه السلام: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾[5]، وأما هؤلاء الطواغيت فإنهم يمنعون هذا لِعلمهم بكُفرهم وفسادهم.

أما هؤلاء المُعوِّقُون للجهاد والمُشاغبون عليه فإنَّ أقصى ما يفعلون أن يقذفوا النَّاس عن بُعد، أو وَهُمْ يُرافقون الجلادين ليُناقشوا الغرباء وهم تحت السياط، وإن خرج أحدهم ـ من المُعوِّقين ـ إلى العلن بخبرٍ عما دار هناك صح فيه قول عمِّي الحكيم لي: «يا بني لا تصدق شاباً تغرب وعجوزاً مات أولاد جيله»، فمن سيكذبك يا بطل المناظرات وخصومك في السجون والمعتقلات؟!.

حقّاً خصوم المجاهدين لم يفقدوا الهُدى فقط ولكن فقدوا الحياء كذلك، ولذلك فلا عجبَ أن يسقطوا من عين النَّاس فلا يستطيع أحدهم أن يهدي تاركَ صلاةٍ أو مانعَ زكاةٍ أو شاربَ خمرٍ أو زانٍ، وكيف يفعلُ ذلك وهو لا يرى أنَّ هذه قضايا مهمة، فإنَّ هذا المفكر مشغول في قضايا الفكر الإنساني العميق، وهمه في القضايا العُظمى في الحوار بين الأديان، ولذلك فهو ينتقل من مؤتمر إلى مؤتمر؛ المتحدثون فيها هم المُستمعون أنفسهم، وموائد الطعام فيها هي ما يُشغل الفكر العميق.

حدثني أحدهم: «اقتحمت على مؤتمر من هذه المؤتمرات بلا إذن، فرأيتُ قوماً جلوساً، أحدهم كان رئيس جامعة إسلامية كبرى ثم تفرغ ليكون مرجعاً إسلامياً لبرلمان إحدى الدول، وحوله مجموعة من حملة الشهادات العلمية الكُبرى».

[1] سورة الأعراف، الآية: ٨٨.
[2] سورة إبراهيم، الآية: ١٣.
[3] بيت لأبي الطيب المتنبي من قصيدة طويلة بعنوان: « وإذا ما خلا الجبان بأرض».
[4] سورة طه، الآية: ٥٨.
[5] سورة طه، الآية: ٥٩.

قال محدثي: «اقتحمت عليهم مجلسهم من أجل أنْ أُحدثهم عن قضية أهل بلدي وما يُعانونه من قتلٍ وسجنٍ وتهجيرٍ، وكنتُ قد حضرتُ الصور الكبيرة للعرض، فنشرتها أمامهم لتكون شاهداً على ما أقول، ثم شرعتُ في الحديث، فما أن بدأتُ حتى بدأ المجلس يتهامسون فيما بينهم، وأنا مسترسلٌ لعلَّهم يخجلون، ولكن القوم بلا حياءٍ ولا خجلٍ، ثم صاروا يتضاحكون وقد علا همسهم لأسمع الحديث الذي يشغلهم.

لقد صدمت، لقد كان حديثهم عن مذاق السمك الرائع الذي قُدم لهم على موائد اليوم السابق».

قال محدثي: وهو غير الأول بل هو أستاذ جامعي كان مُدرساً لي في مرحلة الماجستير: «دُعينا إلى بلدٍ عربيٍّ لنلقي فيها محاضرات إسلامية ورافقني فيها مفتي البلد ـ وكان وزير أوقاف مرات عدَّة وعُيِّن وقتاً قاضي لقُضاة هذا البلد ـ»، قال: «سرنا راكبين من صلاة العصر قبل المغرب ثم دخل بنا وقت المغرب والعشاء وكاد الفجر ينشق وأنا أطلب منه أن يصلي هذه الصلوات وهو يشير بيده نافضاً إيَّاها لأبتعد وأسكت، ومضتِ الأوقات وهو جالسٌ لا يصلي».

قال محدثي: ـ وهو والدي ـ حفظه الله تعالى ـ قلتُ لأحدهم: «عجبتُ لك تتركُ منصب المفتي العام مع كرامته لتدخل عضواً في مجلس الشورى كرجلٍ بين آخرين لا تحل ولا تربط»، فقال المفتي: «يا أبا علي إنها خمسمائة دينار في الشهر ـ وكان يومها مبلغٌ كبيرٌ ـ وراتب تقاعدي مدى الحياة»، ثم قال بلغته: «بلا مفتي بلا هم».

وإني سأضغط على القلم لئلا يسترسل في أمثال هؤلاء الذين يُراد للأُمَّة أنْ تُطيعهم، ويريدون من المجاهدين أن يتخذوهم مُوقعين عن ربِّ العالمين، ويُعلِّق مصير الأُمَّة بفتاواهم وآرائهم.

قد يقول قائلٌ: هؤلاء شُذاذ، وأما الأكثرون فعلى غير هذا الغرز، فنقول لهم: «بالله عليكم دلونا على رجلٍ ثقةٍ في دينه، راسخٍ في علمه، زاهدٍ في الدُّنيا، باذل نفسه لله، لا يُرائي ولا يُداجي، يقول كلمة الحقِّ ولا يهاب فيها أحداً من الخَلق، لا حاكماً ولا محكوماً، يرى النَّاس فيه البذل والشَّجاعة والدِّين والتقوى، لا يشتري بدينه عرضاً من الدُّنيا ثم هو يخالف المجاهدين والغرباء، ويُعوِّق الذاهبين إليهم، ويُنادي المقيمين عندهم أنِ ارجعوا».

إنكم تعلمون والله يعلم قبلنا وقبلكم أنَّ هؤلاء المعوِّقين ليس فيهم أحدٌ غير موظفٍ عند طاغوت، أو غير راغبٍ بدنيا، أو غير خائفٍ من بطش سلطان، فإذ اجتمع هؤلاء في لقاء أو مؤتمر يدعو إليه من يريد حفظ سلطانه فيموله ويغدق المنح قالوا: أجمع العلماء.

رحم الله مالكاً وأبا حنيفة والشافعي وأحمد، إذ ليس هناك من أحدٍ منهم إلاَّ وقُيِّد وجُلد وحُبس وعُذِّب في ذات الله تعالى وهم يعيشون في دولة الإسلام وظل حُكْمِهَا وجنودها.

هاتوا لنا عالماً له مقامٌ في الفتوى ونوازل عصره لم يُصبه الأذى ولم يقع عليه البلاء، ثم قارنوا الماضين بالحالين ممن يتصدر للفتوى والنوازل والحوادث، فمالُ الذاهبين يُبْتَلُونَ والمُقيمين يُنَعَمُونَ وَيُسْبَغْ عليهم الأموال والعطايا والمِنح؟!.

سيقول البعض: وهل صار السجن والعذاب مِعياراً للحقِّ عندك لتقول هذا الكلام؟، ويُرد عليهم: من آثارهم تعرفونهم، ومن كلام الله تعالى نعرف سِمَةَ الحقِّ وأنه مُبتلى، ومن كلام رسول الله ﷺ نعلمُ أنَّ الابتلاء صنو الأنبياء وأتباعهم، ومن حكمة الشافعي نعلمُ أنَّ الرجل لا يمكَّن حتى يُبتلى، فهل أخطأنا الطريق حين علمنا أنَّ هذه الجموع التي عوَّقت الذاهبين للجهاد في سبيل الله ضِدَّ الطَّواغيت، وضِدَّ الكفر الأصلي الغازي في المشرق والمغرب، والمُنادين على أهل الثغور أن تعالوا إلينا إلى البيوت والأهل والسلامة أنهم منافقون؟!.

إنَّ بيننا وبينكم كتاب الله تعالى، هو الحكيم لمعرفة واقعنا ورجاله، وهو الفصل في الخصومة بيننا وبين مَن بغى على المجاهدين وسبَّهم ونفَّر منهم واستهزأ بهم ورماهم بالأكاذيب والبُهتان.

هذه صورتكم في كتاب الله، وهذا مقامكم فيه، وهؤلاء هم أشباهكم زمن رسول الله ﷺ، ولن تنفعكم كلّ العناوين التي تتخفون وراءها، وسيكتبُ التاريخ عنكم كما كتبَ عن أمثالكم الذين صنَعوا صنائعكم.

إنَّ هؤلاء المنافقين زمن رسول الله ﷺ وصفهم القرآن بقوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾، فبعضهم كان له مشهدٌ ثم انقلب على عقبه، وبعضهم شهد بعض المواقع ثم رحل عنها ينفر عنها، ويسبُّ أهلها وينشرُ عورات المجاهدين فيها، وبهذه اللحظات التي عاشوها في الجهاد اتخذت عندهم دليلٌ على أنهم أهل سابقة، وأنهم رجال جهاد، ولكنهم خبروا الطريق فلم يجدوا فيه خيراً ولا أصابوا من ورائه مصلحة للإسلام وأهله.

هؤلاء: منْهم من جمعته الطريق في أرض جهاد ومع المجاهدين، ووقع عليه البلاء بسجن أو هجرة، فذهب يسبُّ الجهاد والمجاهدين أنهم سبب البلاء الذي لقيه، ولكنه يستر هذا المرض من الخور حين يجعل مصلحة الإسلام هي المقصود لا مصلحته، وأنَّ الضرر يعود عليها لا عليه.

إنَّ هذا القليل الذي وقع منهم جهاداً في سبيل الله لا يجوز أن يتخذ حجة لتنفير النَّاس عن الجهاد، فالحقّ ليس لِبَاساً يرتديه المرء يوماً فيكون كاسمه لا ينفك عنه، بل إنَّ الرجل يصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيعُ دينه بعرض من الدُّنيا، وكذا المجاهد تضعف إرادته فإنْ تزينت له الدُّنيا ذهب إليها، وهي حالة تكون في كلِّ الأزمنة، لأنَّ الإنسان هو الإنسان، وفي زماننا هناك من جاهد وكان له سابقة ورفع الله شأنه بهذا الطريق ثم قصرتْ همته وانماثتْ إرادته في فتنة المال والمنصب وحبِّ السلامة فانقلبَ على عقبه، وصار يُطلق لسانه في الشرِّ أكثر من غيره، ذلك لأنه يعرف أكثر من غيره عن عورات المسلمين وواقعهم.

لقد سقط هؤلاء إذ أعماهم الحسد أنْ رفع الله غيرهم بالجهاد حين ذهبوا هم إلى غيره ليجلسوا مجلس الواعظين الحُكماء، وليشتروا بتاريخهم السابق دنيا يطيرون إليها، ولعاعة منها يتشاجرون حولها، فإذا فتح لأحدهم باب كلام في الوارثين أطلق لسانه السرطاني يجول في الأعراض ويُسابق الكفار في السبِّ والشتم، واتخذ معرفته بالمجاهدين وأشخاصهم تقية لقيء لسانه وبشم بطنه وفؤاده، فيالله كم أضاعوا من دينهم وكم فقدوا من أُجورهم وأعمالهم، وكم صاروا أداةً للطَّواغيت والجاهليَّة.

هؤلاء - يقيناً - لا يضرون المجاهدين بل إنَّ وُجودهم علامة صحة هذا الطريق، لأنَّ المجاهدين والغرباء يرونهم آية من آيات الله، إذ يرون إكرام الله لهم ورِفعته لمقاماتهم بسبب الجهاد، فهذا رصيدهم، ويرون كذلك كيف صاروا ذباب موائد وتجار أكاذيب لما عادوا المجاهدين، إذ لا يحفل بهم إلاَّ الزنادقة ولا يتبسم في وجوههم إلاَّ عدوٌّ للإسلام وأهله، ولا يبذل لهم العطايا إلاَّ كلُّ حاقدٍ على دين الله تعالى، فسقطوا من عين الله لما يرون من سقوطهم من أعين أهل الديانة والتقوى، فهل هناك آية أعظم من هذه الآية أنَّ طريق الجهاد محبوبٌ عند الله، وأهله هم أحباب الله وأولياؤه الذين يحبهم أهل الإسلام ويدعون لهم.

إنَّ وجودهم دليل صحة هذا الطريق حين يسقط هؤلاء أمام الإغراء الشهواني، فهم لا ينقلبون من جهادٍ إلى علمٍ أو عملٍ ديني يحبه الله تعالى، بل ينقلبون من جهادٍ إلى سقوطٍ أخلاقيٍّ ورذالة ممارسات وسُعار يأكل قلوبهم في حبِّ الدُّنيا.

هل رأيتَ في هؤلاء قط مَن صار بعد الجهاد إلى باب من أبواب الخيْر العظيمة حتى تحمد فِعله وتعلم أنَّه ازداد هداية فوق الهداية التي كان عليها؟.

سيقولون كنَّا وفعلنا ورأينا لكن أين هم الآن وما هي مقاماتهم في طاعة الله وقد تركوا ما كانوا عليه؟.

﴿ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ ﴾.

إنَّ ذكر كلمة «الإخوان» هنا لها دلالة في طريق خطاب هؤلاء المُنافقين، إذ يتقربون إليهم بصيغ الخطاب المحبب والمقبول في قلوبهم، فيأتون على وجه النصيحة والرِفق وحبِّ الخير، لأنَّ هذه هي صفة خطاب الأخ مع أخيه، وقد يحلفون لهم كما حلفَ الشيطان كما قال تعالى: ﴿ **وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ** ﴿٢١﴾ ﴾[1]، فخطابهم على هذا النحو يَلْقَى القبول لما فيه من ظاهر العاطفة الأصلية بين الإخوان، وهذا شديد إنْ أتى على هذا الوجه، خاصةً إذا جاء ممن له مقام احترام وتقدير في نفس السامع، ولا يقف له إلاَّ من صدق الله وباع نفسه له وتيقن في صدق هذا السبيل بصحة دليله

[1] سورة الأعراف، الآية: ٢١.

وقوته، ثم قولهم: ﴿ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ إشارة إلى أنهم يوسعون لهم مجالسهم، ويبسطون لهم صدورهم، ويبذلون لهم الوعود بالحماية إنْ تركوا الجهاد وغلب الأعداء، وبالمال والمنصب، مع ما في هذا اللفظ من إشارة إلى قاعدة: «ودت الزانية أنَّ كلَّ النساء يزنين». فهم يريدونهم مثلهم وتحت أيديهم وتبعاً لهم.

إن قوله تعالى: ﴿ مِنكُمْ ﴾ فيها خطورة هؤلاء القوم، وقسوة فِعالهم ضدَّ المجاهدين، لأنهم إن لم يكونوا معهم في المكان أظهروا أنهم ﴿ مِنكُمْ ﴾؛ يريدون نُصحكم ويبتغون مصلحتكم، وهم يعيشون خِلالكم كما يعيش الشيطان في مجرى الدم في العُروق، ولذلك هم وهنٌ داخلي، وهو أشدُّ وأقسى من أعداء الخارج، لأنَّ النَّاس لا يُؤْتَوْنَ إلاَّ من داخلهم، ولا يصيب الأعداء من هذه الأُمَّة إلاَّ بسبب هؤلاء الذين هم منا، فهؤلاء «مُعوِّقون منا»، وهو وصفٌ يلقي تنبيهاً أنَّ العجلة التي تدور بمشقةٍ وجهدٍ إنما يعود لحبالها أو عصيها، إذ بدل أن يكون مقوياً باعثاً على النشاط يكون معوقاً مفسداً مانعاً للحركة، فلو تُرك النَّاس لحالهم لانْبعثوا بفِطَرهم السليمة ودينهم القويم، ولكن تجد المُنبعثين يجدون المشقة وهم يُلاقون التعويق من هؤلاء.



إضاءة

اختلفَ أهل التفسير في سبب دخول «قَدْ» على الفِعل المُضارع ههنا، إذ لم يقصد منه التشكيل كما هي القاعدة، فقال بعضهم: إنما يُقصد من هذه الصيغة التقليل، أي تقليل المعلوم، وقال آخرون: إنما قُصد منه المُبالغة في العلم، وهذا الأقرب لقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾[1]. كما في سورة «النُّور» فههنا لا يمكن تصور التقليل في شيء مما ذُكر.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾.

هذا أول وصف خُلُقي لهم وهو البخل، وهذه سِمَة عامة في المنافقين، فإنَّ النِّفاق قَرِينُ هذه الصفة الخبيثة، فهي صفتهم في سورة «براءة» وهي صفتهم في سورة «المنافقون»، فاقتران عدم الإنفاق بالنِّفاق سِمَةٌ ظاهرةٌ بيِّنَةٌ، لأنَّ أساس النِّفاق هو ضعف النَّفس أمام رغباتها، وعدم ثقتها بوعد الله، ولا يقينها على الأجر الأُخروي، فالبذل والعطاء قهرٌ لشهوة النَّفس ومبناه على الثقة بوعد الله واليقين على الآخرة، ولذلك كانت الزَّكاة فرضاً إيمانيّاً لا يمنعها إلاَّ كافرٌ بالله تعالى كما قال سبحانه وتعالى في سورة «فصلت»: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ ﴾[2]، وتكفيرُ تاركِ الزَّكاة مذهب ابن مسعود رضي الله عنه وجماعة من أهل العلم كالحُميدي رحمه الله وهو أحد الأقوال في مذهب أحمد، وهو الأقوى لأنَّ الله جعلَ أداء الزَّكاة شرطاً لترك قتال الكافرين فقال سبحانه في سورة «براءة»: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[3]، وجعلها كذلك شرطاً لدخول الكافر في سِمَة الإيمان وأُخوته كما في نفس السورة: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾[4].

إنَّ هذا الدِّين عظيمٌ وهو كالماء الصافي الزلال لكن لا يصلح إلاَّ في أوعية قويَّة سليمةٍ نقيةٍ، فالقلوب لا تكون كذلك إلاَّ بصفتين ذُكِرَتا في هذه الآية العظيمة، **أولاهما**: الكرم، **وثانيهما**: الشَّجاعة كما سيأتي، ولذلك فإنَّ هذا الدِّين تحوّر معانيه ويفسد نقاؤه ويؤول إلى الباطل إنْ صار إلى أوعية البخل والجبن، فهاتان الصفتان فرضان إلهيَّان هما وعاء الدِّين ولا يصلح إلاَّ بهما، ولا تقوم

---

[1] سورة النور، الآبة: ٦٤.

[2] سورة فصلت، الآيتان: ٦-٧.

[3] سورة التوبة، الآية: ٥.

[4] سورة التوبة، الآية: ١١.

معانيه في الوجود وتتحقق آثاره في النُّفوس وتكون له الفاعلية في الأرض إلاَّ برجال يبذلون أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى، فبذل المال هو الكرم والجود وبذل الأرواح هو الشَّجاعة، والكرم هو عُدَّة المؤمنين في داخل الصف، وهو ركن المجتمع في باطنه وبين أهله، والشَّجاعة هي عُدَّة المؤمنين ضدَّ الأعداء والمُعاندين.

هاتان الصفتان دون غيرهما هما سِمَةَ العرب قبل الإسلام، هذا مع بيان ووُضوح وإعراب دون رمز أو زمزمة، إذ لم يدخل الرمز في الشعر واللغة إلاَّ من خلال بدعة التصوف، وأما قبل ذلك فلم يكن للرمز البياني وُجود، وكان بدلاً منه «المثل» وهو مادة القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[1]. وشرحُ ذلك يطول وليس هذا مكانه، ولكن «الرمز البياني» يُضاد الشَّجاعة النفسيَّة بوجهٍ من الوُجوه، لأنَّه في الأصل يتخذ مخافة الإعراب والإبانة، والعرب هم مادة الإعراب، واسمهم اشتق من هذا المصدر دون غيره، وكما قال بعض أهل العلم: إنَّ للأمم نصيبٌ من أسمائهم، فالعرب من الإعراب، وهو الإيضاح والكشف، وهم كذلك فلا يُنافقون ولا يختالون، هذا في عمومهم، إنْ فرحوا تبسموا وإنْ غضبوا أربدوا، وإن شعروا تكلموا وأفصحوا، وهي سِمَة خير العرب ﷺ كما قال كعب بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجهه حتى كأنه قطعة قمر وكنا نَعْرف ذلك منه». وكما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: « كان رسول الله أشدّ حياءً من العذراء في خِدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه». وأما «الفُرس» فاسمهم اشتق من «الفَرَس»، وهو سِمَة للخيلاء والفخر والغرور، وهي صفة قديمة فيهم، وأما «الروم» فمن «الرَّوْم» وهو من المُخاتلة والاختلاس، وهذا مشهورٌ فيهم إلى اليوم، فهم أهله ورجاله، بل إني لا أستبعد أن تكون «الضحكة الصفراء» قد اشتقت نسبة لبني الأصفر، لأنها شائعة فيهم، إذ تبتسمُ وجوههم وقلوبهم مُبغضة.

أقولُ: إنَّ الكرم والشَّجاعة صفتان أصليتان في العرب، وهما من بقايا دين إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ورثا عنهما، إذ عُلِمَ منهما هاتان الصفتان واشتهرا بهما عليهما الصلاة والسلام، فتوارثهما العرب، ولذلك نزل هذا الدِّين الخاتم والرسالة المُهداة فيهم دون غيرهم من الأُمم، ومهما حاول بعض الباحثين والأذكياء في معرفة سرِّ اختيار العرب دون غيرهم ليحملوا هذه الرسالة وليكون منهم خاتم الأنبياء فلن يجدوا أعمق من هاتين الصفتين فيهم، أي الجُود والشَّجاعة.

إنَّ هذا الدِّين لن يُعطي ثماره ولن تكون فاعليته في البشرية إن كان أهله فاقدين لهاتين الصفتين، فالمُفتي البخيل الجبان لن يخرج منه إلاَّ فتوى الجبن والبخل، والأُمَّة الجبانة البخيلة أُمَّة ميِّتة خاملة ساكنة، مليئة بالأمراض الداخليَّة النَّفسيَّة والاجتماعيَّة، وعُرضة للهوان والذل من الأعداء والخصوم، والفكر دوماً تبع النُّفوس وطنينها، كما أنَّ النُّفوس ترقى بالأفكار العظيمة ومبادئ

[1] سورة العنكبوت، الآية: ٤٣.

الإيمان الحقّ، ولذلك فشرط النهضة والوعي على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ أنْ تنهضَ إرادة الأُمَّة وتستقيم نفسيتها بالبذل للمال بالجُود والبذل للنَّفس بالشَّجاعة، وتحقيق ذلك من خلال تفعيل مفهوم الإيمان عِلْماً وعَمَلاً ومن خلال بيئته الوحيدة الصالحة لذلك وهو الجهاد في سبيل الله دون غيره.

إنَّ الكرم والشَّجاعة يطفئان ويسدان كلَّ منقبةٍ أخرى، وبفقدهما تذهب كلّ الحسنات بلا معنى في هذه الحياة، وإني لأُشْهِدُ الله أنه مما يشدني لهذا الطريق الذي سلكه المجاهدون في سبيل الله هو اختصاص أهله بالجُود والشَّجاعة، فإنَّ المرءَ قد يُؤمن بهديٍ مَا ولكن يرى أصحاب هذا الهدي على غير ما يجب من رفعة النُّفوس وشرفها فيعتزل طريقهم مع إقراره بما يدعون من هدى، ولكن مما يميِّز هذا الطريق، طريق المجاهدين في سبيل الله، أنهم أهل بذلٍ وكرمٍ، وأهل شجاعةٍ وإقدامٍ تأسر النَّفس الكريمة التواقة للمعالي والمكرمات، هذا مع ما رأيتُ وشاهدتُ من غيرهم من تكالبٍ على الدُّنيا، وجشع في تنافسها، والرغبة في ازديادها حتى إنَّ الرجل منهم لَيُخاصم صديق عُمْرِهِ على هذه اللعاعة، بل ويتحاكم إلى الطاغوت ضدَّ هذا الصديق من أجل دُرَيْهِمَات قليلة هي أخسُّ ما في جناح هذه البعوضة المهانة في الله تعالى. ولقد رأيتُ بعضهم ممن يحب طريق المجاهدين وهو على غير هذا الغرز من الجود والشَّجاعة، بل هو لَجوج مخاصم على الدرهم والدينار فكنتُ أعجب من انتظامه في هذا السبيل، فما هي إلاَّ صدمة غلت تحته تكشف حاله وبان معدنه، فذهب مع الذاهبين في أفكار فهل المجاهدين لما صار في البلد الذي يرجو مزيته وعطاءه، ويخاف منعه وغضبه، ويفتي للمسلمين بكشف ستر المجاهدين.

شتان بين من يبذل ماله ونفسه لله تعالى غير مُبَالٍ بما يقع له، لا يرجو إلاَّ الجنَّة، وبين حركات تنشطر حيناً وتتشاجر حيناً على مناصب يعرضها عليهم الطاغوت، ولقد تتبعتُ حركةً من هذه الحركات الإسلامية!! فما وجدتُ لهم مرةً واحدةً يُعرض على أحد قادتهم منصبٌ من المناصب فيتوقف للحظة، بل يُسارع إليها بِكُلِّهِ وجماع طاقته، فتقوم هذه الحركة!! بتجميده وفصله، فلا يُبالي لهم لسُعاره بالمنصب، ثم بعد ذلك يعود إليهم حين تلتحق هذه الحركة كلّها نحو المناصب ليُعلن انتصاره في اختياره، ويُقرون هم بخطئهم ضدَّه حين جمدوه أو فصلوه، وتتكرر هذه الصورة على نفس النسق، مع زعمهم جميعاً أنَّ عملهم واختياراتهم للإسلام لا لأشخاصهم، وبعضهم يصدق قليلاً فيقول: إنما أريدُ مصلحة أهلي وعشيرتي.

إنه مما يدل على أنَّ الأُمَّة بمُصْلِحِيهَا ومُفَكِرِيهَا لم يضعوا أنفسهم على جادة التغيِّير لإخراج الأُمَّة من الانحطاط والهزيمة إلى العِزَّةِ والنَّصر أنك لا تجد إلاَّ حديثاً خجلاً عن هاتين الصفتين الجليلتين - الجود والشَّجاعة -، وكلّ ما يدور يحوم حول السلوك الظاهر للعابد، أو حول قضايا تصورية دون البحث عن آثارها النَّفسيَّة على الإنسان والمجتمع، وهذه القضايا في الحقيقة هي مِقدار إدراك الإنسان

في طفولته الأولى، ولذلك بقيت الأُمَّة في هذه الحالة عاجزة تفحص مكانها كفحص الصبي عند أول تحرك ثناياه بإرادته الواعيَّة أو بغير هذه الإرادة.

إنَّ ارتباط فاعليَّة الإيمان بهذين الخُلُقَيْنِ أمرٌ لا انفكاكَ فيه، فيجب على المُصلحين والدُّعاة إنْ أرادوا صادقين تغيِّير واقع هذه الأُمَّة وتقدمها أنْ يُدْرِكُوا معنى الإيمان الفاعل، وأن يبنوا له أرجل الحركة بالجود والشَّجاعة، وحينها سيُدركون معنى ما تقوم به جماعات الجهاد من جُهْدٍ واقعيٍّ في هذا الطريق الشاق الطويل، وسيُدركون كذلك حقيقة غيرهم الذين ظنوا ظنون البدعة والخطأ.

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾.

إنَّ هذا شحٌّ خاصٌ، أي على المجاهدين وأهلهم، وشحٌّ على المسلمين، إذ لا يمنع هذا الشحَّ الخاص أنْ يكون أحدهم يبذل الأموال الجزيلة على شهوته وعلى أهله ومَن يلوذ به، إذ ينفق الأموال الكثيرة على مسكنه وملبسه وأهله وطعامه وطعامهم، لكنه إنْ دُعي إلى مكرمات للمجاهدين ولخير المسلمين ذهبَ يعد عليهم القليل إنْ فعل، وكيف يفعلُ ذلك وهو ينفر عنهم ويسعى جُهده لصرف النَّاس عنهم ولصرفهم هم عن هذا الطريق، ولذلك فإنَّ سِمَةَ الإنفاق المحتسب هو ما كان لله تعالى ورجاء الدار الآخرة لأنَّ هناك مَن ينْفقُ ولا يرجو الدَّار الآخرة كما قال تعالى فيهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ ﴾[1].

إنَّ الإنفاق على المجاهدين في هذا العصر هو جهادٌ في سبيل الله تعالى، إذ أنَّ الكفار والطَّواغيت يسعون جُهدهم وطاقتهم لمنع وُصول الأموال إلى المجاهدين وأهلهم، وهم في هذا بمقدار ما يبذلون من لحوق الرجال بهم، ولذلك فإنَّ المُنفقين الذين يحتسبون إنفاقهم ويريدون وجه الله وعظيم الأجر أن يتحلوا بصفة الشَّجاعة كذلك، فلا يمنعهم كلّ هذا الكيد وصُراخ الشيطان من أن يبذلوا الأموال للأولياء الذين يُدافعون عن دين الأُمَّة وأعراضها وقيمها.

ومن معاني قوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ كما قال أهل التفسير رغبتهم وحِرصهم في امتلاك الغنائم، فإنَّهم مع فِعَالهم القبيحة وأقوالهم المُنكرة وقتَ الجهاد إلا أنَّهم وقتَ الغنيمة يسعون منعها عن أهلها، ويُشبه هذا المعنى ما يفعله أهل هذا العصر من محاولة جني الانتصارات إلى جُعْبَتِهِم، فيزعمون أنهم عُدتها، وأنَّ فِعالهم مهدت لرجالها، وهم قد بنوا قاعدتها، وذلك في قلَّة حياء تتناسب مع البخيل والجبان، فشحهم جليٌّ في بابين، المال وكلمة الحقّ. هذا مع ما في معنى كلام

[1] سورة النساء، الآيات: ٣٦ـ٣٩.

المفسرين بأنَّ المنافقين لا يحبون النَّصر للمؤمنين، ولا يتمنون لهم حصول الغنيمة، وهذا شأن البخيل فإنه يكره الخير للآخرين حتى لو وقع من يد غيره.

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾.

هذه صفتهم الثانية، وهي صفة الجبن عند النوازل والحوادث والكُربات، والقرآن يذهب فوراً إلى الحقائق النَّفسيَّة دون تطويلٍ في الوصول إلى الهدف، مع وصفٍ إلهيٍّ باهرٍ للمشهد الإنساني المُعبر عن هذه الحقائق الإنسانيَّة، فأنتَ كما رأيتَ اللفظ السابق ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بغناه المعنوي، ودفقه البليغ من خلال كثافة اللفظ وإيجازه، ذلك بأنَّ الشحَّ هو منع ينكفي صاحبه إلى داخله دون أيِّ تعبيرٍ جسديٍّ في هذا الموقف، وهو موقف لا يقع السؤال لهم بالعطاء بخلاف ما لو وقع السؤال للبخلاء فهناك جاء وصف حركة أجسامهم وذلك في سورة «براءة» في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، ذلك بأنَّ البخيل إنْ سُئل كان أول الإعراض في العطاء يتمثل في وجهه ثم يستديرُ إلى جُنبه ليُفارق السائل، ثم يدبر ماشياً بعيداً عنه مُولياً له ظهره.

هنا وصفٌ كثيفٌ ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ لخُلُقِ البخل الشديد، والشح عندهم زائد عن مجرد البخل بل فيه كذلك تهمة الجمع والحرص على التكثير، ومع ما في منعه من سوء الخُلُقِ، وحين جاء القرآن الكريم إلى جبنهم وصف قسمات وجوههم وحركة عيونهم لما في ذلك من دلالات أشمل وأعمق، فإنَّ هذه الحركات المُتوجهة إلى شخص الرسول ﷺ فيها تعبيرٌ عن معاني الإنكار الذي يُوجِهونه له بأنه سبب هذه المحنة الشديدة.

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ ﴾ وهذا من باب تسميَّة الشيء بأثره، فإنَّ مجيء الأعداء بهذه الكثافة دون وجود الجيش القادر على مُواجهتهم يعني مجيء الخوف، ومجيئه هو قدر المدينة المسلمة وقدر أهلها وهو في طريق لأكل القرى الآخرة ووراثة الأرض.

هذا الخوف الآتي تسلل إلى الداخل، مع أنَّ سببه وهو الجيش لم يتعدَ حدوده إلى داخل المدينة، وهذا هو معنى الجبن الحقيقي، إذ أنَّ الأثر النفسي كالهالة التي تحيط بالشيء فتصنع منه حجماً أكبر من حقيقته بسبب ضعف المقابل وقلَّة يقينه، وهذا شأن الأعداء كما قال النَّبيّ ﷺ: «**نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شَهرٍ**»[2]، وهو من أدوات الحرب يستخدمها كلّ فريقٍ ضدَّ الآخر، ولذلك تقدم ما فعل الله في

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ٣٤ـ٣٥.

[2] البخاري في «كتاب التيمم» باب التيمم وقولُ الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾. حديث رقم: ٣٣٥. طرفاه في: ٤٣٨، ٣١٢٢. ومسلم في «كتاب المساجد ومواضع الصلاة». حديث رقم: ٥٢١.

قريش بقوله: ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾[1]. وما عصم الله عباده بأمره للملائكة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

إنَّ وصف القرآن للخوف بالمجيء وصفٌ يُلقي بضعف هذا الجندي في يد الأعداء، فهو سلاحٌ وهميٌّ خادعٌ، فلو تأملتَ الفَرق بين كلمة المجيء في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[2]. لَعلمتَ قوَّةَ الحقِّ في نفسه حتى بمجرد حركته الاعتياديَّة، وذلك بخلاف وصفه لكيفية فِعله ضدَّ الباطل كما قال سبحانه: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾[3]، ولذلك فالخوف لا يملك قوة القذيفة كما يملكها الحقّ، لأنه سلاح الشيطان كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[4]، ولذلك فإنَّ كلَّ هذه الجنود لا تملكُ فِعْلاً حقيقيّاً إنما هو الخوف ذلك السلاح النَّفسي الذي يستجيبُ له المرضى والمنافقون، وأما الفِعل فهو كما وصفه تعالى: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾[1].

المؤمن لا يرى إلاَّ جنوداً ورجالاً بأيديهم السلاح، فهذا قدرهم، ولذلك يتعامل معهم تعاملاً قَدرياً دون أن يتخللوا إلى داخله، فليست حدودهم إلاَّ الواقع الكوني الخارجي، وأما غيرهم من الضعفاء والمرضى والمنافقين فإنَّ فِعْلَ الكافرين يتجاوز ذلك إلى داخلهم ولهذا السبب يتم الانهيار ويقع الضعف فيُسارعون فيهم وهم يقولون: ﴿ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾[5].

تأملْ وصف الأحزاب عند ذكرهم في معرض المنَّة الإلهية على المؤمنين فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾[6]، ولما كان الخطاب وصفاً للمنافقين جاء ذِكر الأحزاب بقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ ﴾[7]، ذلك لأنَّ الأحزاب في نفوس الصَّحابة ﷺ مجرد جنود، يقع بينهم ما يقع بين الجنود من صِراعٍ سَنني، يتألم هؤلاء ويتألم هؤلاء، ويوم لنا ويوم علينا، ولكن الأحزاب في نفوس المنافقين والمرضى أكثر من مجرد كونهم جنوداً، بل هم «خوف»، لا يقتل الأبدان فحسب ولكن يُفسد القلوب كذلك، ولذلك فالشُّجاع يموت مرةً واحدةً، وذلك حين يموت بدنه، وأما الجبان فيموت مرات لأنَّ ما يقتله ليس سلاح خصمه بل الخوف الذي يعتريه عند كلِّ فزعةٍ وهيعةٍ وصرخةٍ.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ١٢.
[2] سورة الإسراء، الآية: ٨١.
[3] سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.
[5] سورة المائدة، الآية: ٥٢.
[6] سورة الأحزاب، الآية: ٩.
[7] سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾. فهذا موتهم في كلِّ مرةٍ يأتيهم فيه الخوف، فتدور أعينهم موتى مرةً بعد مرةٍ مع أنَّ قدر الموت الحقّ لم يأتِ بعدُ.

أما أنهم ينظرون إليك، فبعض أهل التفسير قال: لِوَاذاً بِكَ، أي يرقبون منك نجدتهم وإخراجهم من هذه الحُفرة التي تحيط بأرواحهم وأنفاسهم، والأمر أشمل من ذلك، فهم ربما ينظرون نظرة اللوم وكأنهم يقولون: هذا كلُّه بسببك، وذلك كما وصف الله بقولهم: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾[1].

﴿ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾.

لقد شلَّ الخوف إرادتهم وأذهبَ عنهمُ العقل والرُّشد والإدراك فذهبت عيونهم تدورُ مضطربةً اضطراباً يُعبر عن خفقان القلوب التي تكاد تقفُ وكأنَّ الموت غشيها، وهذه صفة النُّفوس التي تلقي بظلالها على العقول، فالخوف النَّفسي أبطلَ حِكمةَ العقول، فهل هذا النِّفاق له تعلَّقَ بتصور ما يستقرُّ في العقل ويُردده اللسان ثم لم يغشَ القلب فيحيله شجاعاً ثبتاً راسخاً؟! إنها العِلل النَّفسيَّة التي ترتد على العقل فتُبْطِلُ قواعد الفِطرة فيه فلا يدري ما يقول.

هذا الوصف الربَّاني الجامع، والذي يُسلط ضوءه على وجه هذا الجبان، فيتلاشى كلّ هذا الرأس في منظرِ العينين وهم يُدوران اختلاجاً لا روحَ فيهما، بل هو أشبه بارتعاش البدن من مرضٍ قاهرٍ سُلِطَ عليه، هذا مع ما تقدم من حالهم وأنهم قُعودٌ في طريق الذاهبين للجهاد والمُقيمين فيه، وكأنَّ بدنهم كلَّه صار رمةً باليةً لا تستدعي النظر لأنها ساكنة خالية، ولم يبقَ في هذا البدن إلاَّ حركة العينين على وجه يُثير تعزز الشجعان.

إنَّ ثبات النظر وحِدته يدلان على ثبات الجِنان وقوة يقينه وإدراكه أمام ما يُعرض عليه من محن، وأمام ما يرغب ويزيد به خصمه، وثبات الجِنان يُوجِبُ ثبات البدن ولُزومه في غرز الجهاد وعدم مُفارقته.

هذه هي مُعضلة الناكبين عن الجهاد والعائبين لأهله، والذاهبين إلى طريق البدعة والباطل، وكلّ عقلانية يتخفون وراءها هي غلالات رقيقة لا تصمد أمام الكشف القرآني، ذلك بأنَّ الله سبحانه وتعالى يحكمُ ولا مُعَقِبَ لحُكْمِهِ، ويصفهُ ووصفُهُ الصِّدق، وهذا ما لهم زمنَ رسول الله ﷺ وفي كلِّ زمنٍ إلى يومنا هذا، فإنهم لما رأوا جيوش الكفر زاحفة بأسلحتها، ترمي بأطنان الدمار والخراب، ورأوا البلاد تُؤْخَذْ واحدةً تِلْوَ الأُخرى، وهم قد جلسوا طويلاً يسمعون قصف العقول في حرب سبقت حرب الأسلحة، فلم يعد أمامهم إلاَّ الانبطاح والذهاب إلى عتبات الغازي لطلب الود والرضا، وتهارشوا[2] مع الآخرين على ما يلقى إليهم من عطايا الكافرين، فإنْ خُوطبوا بالوعود

---

[1] سورة النساء، الآية: ٧٨.

[2] رجل هَرِشٌ: مائِقٌ جافٍ.

الإلهيَّة قالوا: ليس هذا زمانها، بل هذا زمان طأطأة الرأس والانحناء أمام سطوة الكافر وجبروته، وذلك كما ركض إخوانهم إلى موائد المرتدين أزلام الكفر الأصلي يطلبون حقَّ الحياة، وأخذ بعض العطايا والمِنح، فتشابه الحال بلا كذبٍ ولا نفاقٍ، لأنهم زعموا قَبْلُ أنهم لا يرون كُفْرَ هؤلاء المُرتدين، بل هم مسلمون مثلهم، فإنْ كان الأمر كذلك، وليس كذلك، فَلِمَ إذاً ركضتم إلى كفار النصارى لما غزوا بلادنا وسرتم معهم سَيْرَ إخوانكم مع المرتدين؟!.

إنه ضعف اليقين على وُعُودِ القرآن، ﴿ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾، وإنه الجُبن والخور الذي غزا القلوب إذ لم ينهضوا نهوض الرجال الشُّجعان - حتى من غير المسلمين - لمجابهة أعداء أُمَّتهم ودينهم ومقومات بلادهم، فقد تجاوز الأمر خُلوهم من وصف المؤمنين إلى وصف المنافقين إلى وصفٍ إنسانيٍّ جامعٍ لأمثالهم من بني البشر جميعاً: خونة جُبناء.

هؤلاء المنافقون والجبناء والخونة بأوصافهم الشرعيَّة والإنسانيَّة - في القرآن والتاريخ - يتسترون بحجج يظنون أنهم أصحاب بكرتها ولم تكن في أمثالهم في السابقين، وأنَّ ما يفعلونه هو عين الحكمة، وأنَّ طريقتهم هذه تستطيع أنْ تحقق المُراد، وتحفظ مطالب الأُمَّة والدِّين بدون دماء وقتلى وقتال «يا لهؤلاء القوم وبُغضهم للجهاد والشَّهادة والمحن»، وهي حججٌ قالها أسلافهم لكنَّهم لا يقرؤون، وليس للتاريخ عندهم موطنٌ يعتبرون به ويتعظون بأحداثه، وأما القرآن فهو عندهم كتاب لتوزيع الإرث وأحكام الصَّلاة والزَّكاة وما في هذا المعنى، وظنهم هذا لا يبعد عن ظنِّ الزنادقة في كتاب الله لو فَقِهُوا.

لقد أقام المجاهدون في سبيل الله تعالى ضدَّ المرتدين حُججهم الشرعيَّة الوافيَّة القويَّة، ولم يُرَدَّ عليهم إلاَّ بكلامٍ ذاتيٍّ شخصيٍّ ألبسوه عمائم العِلم زُوراً وأطلقوا عليه اسم الفتوى، وزعم الناظرون في الأمر أنه مُشتبه، ثم حصل ما حصل من أحداث جِسام «في عصرنا»، غزا فيه الكفر بلاد المسلمين وحطوا رِحالهم فيها بجنودهم ومشاريعهم، فحصل ما حصل، إذْ ذهبت جماعات البدعة والانحراف إلى صف النِّفاق، فلم تعد بدعة في القول، بل صارت فِعْلَ نِفَاقٍ صَرِيحٍ وَصْفُهُ في كتاب الله تعالى، ولم يبقَ في ساحة الإيمان ضدَّ جموع الكفر وأحزابه إلاَّ هؤلاء الرجال الذين علموا الإيمان وعملوا به، ووقفوا موقف الجود بالمال والنَّفس، كُرماء شُجعاناً، فلم ترتجف أرجلهم أمام الزحوف، ولا ظنُّوا بوعود الله ورسوله ﷺ شرّاً، ولا نسوا قوله تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[1]. بل ساروا على درب الأنبياء وأتباعهم، واهتدوا بسيرة الصَّحابة ﷺ،

والـمُهارشَةُ في الكلاب ونحوها : كالـمُحارَشةِ. يُقال : هارَشَ بين الكلاب.

والهراشُ والاهْتِراشُ: تقاتُلُ الكِلاب. الجوهري: الهراشُ المُهارَشةُ بالكلاب، وهو تَحْرِيشُ بعضِها على بعضٍ. والتَّهْرِيشُ: التَّحْرِيشُ، وكلبُ هِراشٍ وخِراشٍ. وفي الحديث: «يَتَهارَشُون تَهارُشَ الكِلابِ» أَي يَتَقاتَلُون ويتَوَاثَبُون. وفي حديث ابن مسعود: «فإِذا هُمْ يَتَهارَشُون». مختصر من «لسان العرب» لابن منظور.

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

وما زالت نار الحرب قائمة، فمن يجوز له الآن أن يشكَّ أو يضطربَ في معرفة حال النَّاس وافتراقهم؟!.

إنه لا يُوجد مُنْصِفٌ عَالِمٌ بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، خالٍ من الجبن والبخل، ثابت الرُّشد إلاَّ وهو يعلمُ بل ويُوقنُ أنَّ طائفة الجهاد في زماننا هي طائفة الحقِّ، وهي دون سِواها المُقيمة على نفس الدرب الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه.

سيُنازع في ذلك أهل النِّفاق من الجبناء والبخلاء لأنهم أصحاب وصفٍ ثالثٍ:-

﴿ **فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾.

لقد كانوا عند مجيء الأحزاب رمةً ميتةً لا تتحرك فيهم اختلاجاً إلاَّ عيونهم، قد ضغط الخوف على قلوبهم حتى لَتكاد تزهقُ، فما أنْ يذهب عنهم الخوف حتى تتحرر مفاصل أبدانهم، ويفيقوا من غشيهم فما ترى منهم بعد ذلك إلاَّ هذه الحراب والسكاكين الحادة تخوض في المؤمنين والمجاهدين.

حين يذهبُ الخوف، إما أنْ يذهبَ جسداً وقوةً بصرف الله تعالى له، وإما أنْ يذهبَ الخوف بأنْ ذهبوا في كنفه وحِياطته فآواهم وطمأنهم وأسبغ عليهم أمانه ورضاه عنهم، حينها «**سَلَقُوكُم**»، والسلق لفظٌ جامعٌ لمعاني الشرِّ هنا، إذ أنه يحمل معنى الأذى والقطع وفصل الأعضاء عن بعضها كما يسلق اللحم عن العظم أي يفصلها، وغلاها بالنَّار وأحرقها، فكلّ هذا فعلوه بألسنتهم، وهو يدل على قوة فِعْلِ اللسان وأثر كلامه في الحياة والمجتمعات والإنسان.

وعلى المرء أنْ لا يعجب هذا من الجبناء والبخلاء، فإنَّ مَنْ اتصفَ بهاتين الصفتين لن يُعدم أن يكون قليل الحياء كذاباً، ولن يُعدم تبريراً لبخله وجُبنه، والحقّ أنَّ المرء يرى هذا في النَّاس حقّاً، فحين ترجو من البخيل الجبان حياءً فكأنك ترجو الشهد من الحنظل، إذ له جنان على الوقاحة ومُلاقاة وجوه النَّاس وعدم الاستتار منها شيءٌ عجيبٌ، مع أنه يرى عيون النَّاس وهي تنظرُ لبعضها مُتعجبةً من مقاله، وهو يتمادى كأنه لا يفهم ما تقول عيونهم لبعضها، فما يبرح العقلاء إلاَّ أن يقوموا ساكتين واجمين مِن هول كلامه وتبجحه وهم حيارى من وجود هذا النوع من البشر، ثم هو يمضي لا يضره أنْ يعلم النَّاس عنه كذب مقاله وجبن وبخل نفسه، وكأنه يقول: «فليقولوا ما يقولون ولكني نجوتُ ونجا مالي وهذا عندي أغلى وأهم»، وهذه هي صفة الوقاحة التي تُضاد الحياء، والحياء صفة التي لا تأتي إلاَّ بخير منها كما وصفها رسولنا ﷺ[1].

﴿ **بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾.

---

[1] حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِى السَّوَّارِ الْعَدَوِىِّ قَالَ سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ بِخَيْرٍ**». فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ إِنَّ مِنَ الْحَيَاءِ وَقَارًا، وَإِنَّ مِنَ الْحَيَاءِ سَكِينَةً. فَقَالَ لَهُ عِمْرَانُ أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ. البخاري في «كتاب الأدب» باب الحياء. حديث رقم: ٦١١٧، ومسلم في «كتاب الإيمان» باب بيانِ عددِ شُعَبِ الإيمان وأفضلِها وأدناها وفضيلةَ الحياءِ وكونِهِ من الإيمان. حديث رقم: ٣٧.

إنَّ هذا الوصفَ القرآني لألسنة هؤلاء بـالغٌ عميقٌ، وكـأنَّ الألسنة قِطَع مَعْدَنٍ لا جُزْءاً مِنْ بَدَنٍ إنْساني، وهذا يجعلُ الألسنة أسلحة أقوى ما في البدن من قوى، وهي قوة المُنافقين في إيذاء المؤمنين، وهي قوة للحقِّ حين تكون مع أهله، وهذا بابٌ محله ما قاله رسول الله ﷺ في شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه ومقامه في الذبِّ عن رسول الله ﷺ وهجاء المُشركين[1].

وللعلماء مقالات في نوع هذا السلق، فمنهم من قال: إنها حين الغنيمة، ومنهم من قال غير ذلك، ولا شكَّ أنَّ الأمر أعم من ذلك، وإنما هذا من جنس تفسير الشيء ببعض صُوره، ومن جنس ما يُعانيه المجاهدون اليوم من سلق إخوان هؤلاء ما يقولونه عن المجاهدين وهم في كَنَفِ الكُفر وحمايته حين رضوا لدخولهم في طاعته، أو لتوبتهم من مجاهدته في سبِّ المجاهدين وذِكر عيوبهم وعوراتهم وتحميلهم سبب بلاء الأُمَّة وحصول الشُّهداء، وهم في ذلك أسلحة غائرة في لحوم المجاهدين، وألسنة لاعِقة لدمائهم.

لقد جاء وصف ألسنتهم بذلك ليكون دالاً على هجومهم ضدَّ المؤمنين، لا وصفاً لمن يُدافع عن النَّفس فقط، ولذلك هم يسلقونكم بمقالهم وكلامهم، وهذه وقاحة أُخرى، إذْ أنَّ المرءَ إنْ ملك بعض الحياء يمكن له أن يُدافع عن نفسه بتبرير ما وقع منه من التخلف، لكن وقاحة القوم تعدتْ إلى الهجوم ضدَّ المجاهدين الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله تعالى، وهذا أمرٌ مُوغلٌ في الشرِّ بعيد الغور فيه[2].

﴿ **أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ** ﴾.

هذا على الأقوى وصفٌ لألسنتهم، أي أنها لا تأتي بخيرٍ من القول، وهناك مَن قال: إنَّ هذا وصفٌ عند الغنيمة كما قالوا في الأولى: ﴿ **أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ** ﴾، والتأسيس عند أهل العلم أولى من التأكيد، والحقّ أنَّ أمر الغنائم في هذا الباب ـ أي في الأولى وهنا ـ بعيدٌ لأنَّ الأمر له تعلُّقٌ بالحال العام الذي يكونونه في الخوف ويكونونه إذا ذهب، وذهاب الخوف لا يقتضي حصول الغنيمة، بل إنَّ الخوف قد يكون بسببٍ وهمٍ لا حقيقة كما هو شأن الجبناء غالباً كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ **يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟** ﴾، وكذلك في وصف الله نِعمه على قريةٍ مِنَ القُرى بقوله: ﴿ **وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ**

---

[1] حديث الْبَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِحَسَّانَ: «**اهْجُهُمْ ـ أَوْ هَاجِهِمْ ـ وَجِبرِيلُ مَعَكَ**». البخاري في «كتاب المغازي» باب مرجِعِ النَّبيِّ ﷺ من الأحزاب ومَخْرجِهِ إلى بني قُريظة ومحاصرتِهِ إيَّاهُم. حديث رقم: ٤١٢٣، ومسلم في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب فضائل حسَّان بن ثابت رضي الله عنه. حديث رقم: ٢٤٨٦. والرواية الأخرى عند البخاري: «**اهْجُ الْمُشْرِكِينَ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ مَعَكَ**» حديث رقم: ٤١٢٤ :

[2] كما قال في أمثالهم ابن بري رحمه الله تعالى:-

أَفِي السِّلْمِ أَعْياراً جَفاءً وغِلْظَةً وفي الحَرْبِ أَمْثالَ النساءِ العوارِكِ؟

أي في حالة المُسالمة كأنهم الحُمر، والأعيار جمع عير وهو الحمار، وفي الحرب كأنهمُ النِّساء الحُيض.

ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[1]. فجمع بين الأمرين والاطمئنان لها، وهذا دليلٌ على اختلافهما من وجه ذلك لأنَّ الترادفَ ممنوعٌ في القرآن على الصحيح، فقد يكون المرء مُطمئناً لجهله بما يحيط فيه فلا يكون في أمانٍ، وقد يكون آمناً لا شرَّ يحيط به ولكنه غير آمنٍ لوهمِ الخوف في قلبه، ولذلك فجماع الخير لهذه القرية هو اجتماع الأمان الواقعي والاطمئنان النَّفسي، والخوف ضدّ قلوبهم وهو كافٍ لحصول العذاب سواء نقض الأمان أم لم ينقض والله أعلم.

ولذلك فقوله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ هو حال الاطمئنان بعد ذهاب الخوف، فليس لهم مقامات في الخير حال الأمن، كما ليس لهم صولات حال الجهاد، هذا الذي يقتضيه العموم، فإنْ كان وصفاً لألسنتهم، فإنَّ بخل المرء بكلمة الخير حالَ الأمان أدعى للبخل بما هو أكبر منها من العطاء وفِعْلِ الخير كلِّه.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ ﴾.

هذه خصوصية العلم القرآني الذي لا تجده أبداً إلاَّ فيه، وما سنَّة رسول الله ﷺ إلاَّ تفسيراً له وهو يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ..**»[2]، مع أنَّ القرآن أبلغ وأعظم وأوعب، فهل هناك أحدٌ ممن كتبَ في الإيمان جعل الشَّجاعة والجود فِعْلاً إيمانياً، وواجباً من واجباته، وأنَّ تخلفهما يلقي الرجل في أعمال تُضاد الإيمان وتُذهبه إما على وجهٍ كليٍّ أو وجهٍ جُزئيٍّ بواجبٍ من واجباته؟.

هذه خصوصية القرآن والتي يجب على أهل العصر أن يعودوا إليه قبل كلِّ مشروعٍ، وقبل كلِّ حركةٍ لأنَّه وحده القادر على بعث الحياة في هذه الأُمَّة وتغيِّير مسيرها إلى وراثة الأرض، ودون ذلك إنما هو أَبْنِيَّةٌ صغيرةٌ لا تُقِيمُ إلاَّ سواقي صَغِيرَةٍ مِنَ الخَيْرِ لا يُنْكَرُ فَضْلُهَا لكنها لا تصل إلى أهداف القرآن في الوجود، ولا إلى أهداف أُمَّة الإسلام التي جعلها الله خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

إنَّ الوجه والصورة الحقيقية لأصحاب رسول الله ﷺ الذين أقاموا أساس المشروع الكلِّي لحضارة الإسلام وهداية النَّاس وإدخالهم في دين الله تعالى كانا على وجهٍ مميَّزٍ، إذ لم تكن رؤاهم ذرية، وليس عندهم استغراق فيها إلاَّ ضمن البناء الكلِّي الكبير، وهذا هو عينه ما يبيِّنه القرآن إذ يذهب إلى الإنسان لِيُقِيمَ عُنْصُراً فَاعِلاً فَرِيداً، له همَّة تذهبُ إلى المعالي التي تتعلَّقُ بالوجود كلِّه، ذلك لأنه عبدٌ لله وحده، لا تأسره الصغائر، ولا تعوقه الأهواء، ولا تُرهبه الأوثان والصور، فالإيمان عنده عدوٌّ لكلِّ ذلك، فكما أنه عدواً للآلهة الباطلة التي تُعبد من دون الله، فهو عدوٌّ كذلك للقُيُّودِ التي تُعَوِّقُ الإرادة.

---

[1] سورة النحل، الآية: ١١٢.

[2] البخاري في «كتاب الدعوات» باب التعوُّذِ من البُخْلِ. حديث رقم: ٦٣٧٠.

تجديد القرآن ليس موقوفاً أمام ألفاظٍ نُصححها، وكلماتٍ نُقِيمُ اعْوِجَاجَهَا، وحركاتٍ نُعَدِّلُ صورها، بل تجديد القرآن هو بعث الإنسان من أسار الجهالات العلميَّة ومعوقات الإرادة الباطنيَّة، ومن خلال الألفاظ الجامعة التي تذهب مباشرة إلى قلب الإنسان، ذلك المُضغة التي إنْ صَلُحَتْ صَلُحَ الجسدُ كلّه وإنْ فسدتْ فسدَ الجسدُ كلّه.

إنَّ التاريخ العلمي الفاصل بيننا اليوم وبين كتاب الله تعالى ضروري، وضرورته لا تعني أبداً أنْ نستغرق فيه دون الوصول إلى الهدف وهو القرآن، ولكن هذا ما وقع فيه الكثير من دعاة الإصلاح، وقد يكون في زمنٍ من الأزمان هذا الفعل صحيحاً حين يكون الوهن فرعي وفي ساقية من سواقي الإسلام الذي يسري بحره نقياً سليماً، لكن حين تنهارُ الأُمَّة وتتلاشى هويتها وتغيب وراثتها فإنَّ هذا الفعلَ لا يُصْلِحُ هذا الخلل الكبير، إنما يجب العودة إلى القلب لا إلى الأطراف، والعودة إلى القلب تعني العودة إلى القرآن، والأُمَّة كما قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ**»[1]، وهذا تفسير لقوله تعالى: ﴿ **بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴿٤٩﴾ ﴾[2]، فالقلوب هي مرجل الحياة، وهي أساس الصلاح، وعماد صلاحها هو القرآن، لا بألفاظه كما كان عند أهل الكتاب ﴿ **لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ** ﴾[3]. أي قراءة حروفه دون تدبر معانيه، بل لابدَّ من فاعليَّةِ علومه في القلوب، وهكذا كلما عاد القرآن حيّاً في القلوب كلما تحققتْ وُعُود الله تعالى للعباد.

﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟** ﴾.

إنَّ هؤلاء الذين جبنوا عند اللقاء ومنعوا الخير عن المؤمنين والمجاهدين لم يُؤمنوا، وهكذا يتم التدافع بين هذين المرضين وبين الإيمان، فإذا قوي الإيمان ضعف الجبن والبخل، وإذا ضعف الإيمان قوي الجبن والبخل، فإذا جاءتِ المحن وتفجرتْ سلوكات الجبن والخوف إلى واقعٍ عمليٍّ هو واقع المنافقين فذلك هو المُراد من قوله تعالى: ﴿ **أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟** ﴾.

دَعْ كلّ طاعتهم التي يقومون بها، ولا تنظر إلى عُجبهم أمام المساجد، ولا إلى صُراخهم بلبيك اللهم لبيك، ولا بكلِّ الطاعات التي تحبها أنفسهم من لباس البياض ومحبة أكل الذراع من الشَّاة وانظر إلى مواقفهم عند مجيء الخوف وماذا يفعلون، ولا والله ليس الأمر تقليلاً من هذه الأعمال ولا تصغيراً لها، فكلّ طاعةٍ أمرَ الله بها هي إيمانٌ ودينٌ مَن استهزأ بها كَفَرَ، ولكن معايير الإيمان التي تُفارق النِّفاق لابدَّ من معرفتها، لأنَّ النِّفاق لا يعني أبداً أنْ لا يعمل المرء بطاعة قط، وغياب الإيمان

---

[1] الترمذي وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. حديث رقم: ٢٩٩٣. والحاكم وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في «شعب الإيمان» فصل في تعليم القرآن. حديث رقم: ١٩٤٣. والمتقي الهندي في «كنز العمال» حديث رقم: ٢٢٧٦، ٢٤٧٨. والسيوطي في «الفتح الكبير» حديث رقم: ٣٢٠١. كلهم من طريق قابوس بن أبي ظبيان، عن أبيه عن ابن عباس.

[2] سورة العنكبوت، الآية: ٤٩.

[3] سورة البقرة، الآية: ٧٨.

لا يعني أنْ لا يكون المرء على عبادة من العبادات أبداً، فمن ظنَّ هذا فإنه لا يعرفُ الإيمان ولا يعرفُ النِّفاق.

قوله: ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أي ماضياً، لأنَّ لَمْ حرف جزمٍ لنفي المُضارع وقبله ماضياً، فهل هؤلاء لم يكونوا مؤمنين من قبل قدوم الأحزاب؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف حبطت أعمالهم بما اقترفوه من جبنٍ وبخلٍ في هذه الغزوة وهم غير مؤمنين قبل فلا أعمال مقبولة لهم؟!.

يصح هذا المعنى، وهو عدم إيمانهم من قبل الأحزاب، وأما حبوط أعمالهم بما فعلوا وقالوا في الأحزاب فإنه على معنيين: إما العموم؛ أي بسبب عدم إيمانهم فإنَّ ما يعملونه من عملٍ فإنه حابطٌ، وأما ههنا في الأحزاب فقد وصفهم القرآن بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. فهذا العمل الصالح يحبط إيمانهم قبلُ فهذا فيما يُناسب الحال وسياق الحدث.

وهناك معنىً آخر؛ وهو عدم إيمانهم في هذا الموقف الجهادي في الأحزاب، فإنَّ فِعْلَهُمْ هو مُضاد للإيمان وهو فِعْلُ الصَّحابة من الصَّبر والثبات والعطاء، فلما لم يفعلوا فِعْلَ الإيمان صح فيهم القول ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾[1]، وهؤلاء لما جاءهم الأحزاب لم يُؤمنوا حيث لم يقوموا بفعل الإيمان المطلوب منهم، وعلى هذا الوجه فكيف يكون معنى قوله تعالى: ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾؟.

الحبوط على الصحيح يكون عاماً ويكون خاصاً، فالشرك يحبط عموم العمل ولا يبقى للمُشرك منه شيء، والمعاصي من الكبائر تُحبط الأعمال كذلك، لكن ليس بعمومها، فكما أنَّ ﴿ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[2]. فكذلك العكس، وهذا هو الحقّ، ومَن زعم أنَّ هذا مذهب بدعي فهو مخطئ لا يعرفُ مقالات النَّاس ومذاهبهم، فعلى هذا يكون تخلفهم عن فِعْلِ الإيمان في الأحزاب سبباً في حبوط أعمالٍ صالحةٍ لهم.

وقوله تعالى: ﴿ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ ﴾ يحتمل ذهاب الإيمان كلِّه ويحتمل بعضه وهذا معروفٌ في كتاب الله تعالى، وليس قوله تعالى: ﴿ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ يقتضي الكُفر الأكبر كما تقدم، والنَّاس في هذا بحسب مراتبهم، وأما حمل هذه الآيات على المنافقين نفاقاً أكبر دون النِّفاق الأصغر فقولهم بعيد.

﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

إنَّ ختم إحباط العمل بهذه الفاصلة القرآنيَّة الجليلة لَيدل على أنَّ إحباط الأعمال الصالحة أمرٌ عظيمُ الشأن، ولذلك هو فعلُ الربِّ سبحانه وتعالى دون سِواه، ومَن نازعه في ذلك كَفَرَ وَأَشْرَكَ ذلك لأنَّ أمرَ الحسناتِ والسيئاتِ أمرٌ ربانيٌّ لا دخلَ للبشر فيه، ثم يدل على أنَّ الله سبحانه وتعالى

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٨٩.

[2] سورة هود، الآية: ١١٤.

لا يستكرهه أحدٌ مهما بلغ شأنه ورفعة عمله، فإنما غيره عبيدٌ له يجب عليهم طاعته في كلِّ حالٍ ووقتٍ حتى يأتيهم اليقين. مع ما في ذلك من الوعيد الشديد للسالكين والعابدين والمسلمين من السقوط وقتَ المحن، فإنَّ أهل الإسلام مُبْتَلُونَ دائماً، فجريان العابد والمسلم على وجهٍ واحدٍ من الحياة والطاعة أمرٌ بعيدٌ، بل ستأتيهم هزات ومحن تُقلبهم فتبِينُ معادنهم، فسقوط المرء في إحدى هذه الامتحانات مؤذن بحبوط عمله وذهاب أجره الذي كان يعمله مهما كان عمله الذي كان عليه، ولذلك فإنَّ تاريخ المرءِ ليس مانعاً من سقوطه في امتحان يُلاقيه، ومن هنا كان خوف السابقين من العواقب، أما أنْ يجلس المرء فاتحاً فاهُ على الشرِّ، مُقِيماً رِجْلَيْهِ على الباطل، داخلاً، في زُمرة أعداء الدِّين، ويدفع عنه التهم بحجة سابقته فهذا صنيعُ المنافقين الذين لا يرجون الله والدَّار الآخرة.

ومما يُؤْسَفُ له أنَّ هذه الصور المُتتكسة موجودة في كلِّ زمانٍ تظن أنَّ العمل الصالح الذي قدمته عبادة لا يمكن أن تنزع عنه، فهو يتاجر بها عند كلِّ مُلمةٍ تكشف معدنه الذي صار إليه من الضلال، فنعوذ بالله من الحور بعد الكور[1] ونعوذ بالله من الضلالة بعد الهُدى.



[1] الحور بعد الكور معناه النُقصان بعد الزيادة، كالعصيان بعد الطاعة، والجهل بعد الحلم.

إضاءة

ورد في بعض كتب التفسير أنَّ بعض هؤلاء ممن شهد بدراً، وهذا أمرٌ ينبغي الضرب عليه وعدم رفع الرأس به فإنه مما يخالف قوله ﷺ: «**لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ؛ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[1]. وكما في الصحيح أنهم خير أهل الأرض زمن رسول الله ﷺ[2]، ولولا وجوده في كتب التفسير الشهيرة لما عرضتُ له لما في ذلك من إشاعة الغلط.

﴿ **يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾** ﴾.

﴿ **يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟** ﴾.

هذا تمام وصف الجبن في قلوبهم، فهم يظنون الأحزاب لم ينصرفوا عنهم لِما دخل في قلوبهم من الخوف الشديد منهم، وأَنْعِمِ النَّظَرَ في الفَرْقِ بين قوله في الآية السابقة ﴿ **فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ** ﴾، وبين قوله: ﴿ **يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟** ﴾. وذلك لأنَّ الخوف ساكنٌ في قلوبهم حتى بعد انصراف الأحزاب بزمنٍ، فذهاب الأحزاب مع وَهْمِ بقائهم أدام الخوف في أنفسهم، وهذا شأن المُرتعش جُبناً من عدوٍّ فإنه يخشاه مع بُعْدِهِ، ويرتجفُ منه وهو مُنْصَرِفٌ عنه، وما أن يقعقع له الشنان حتى تصطك رجلاه طويلاً بلا سبب إلاَّ الخوف الكامن في القلب، هذا الخوف المبني على الوهم، وهذا ما حذر الله منه في قوله في سورة «آل عمران»: ﴿ **إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾** ﴾[3].

الاعتناء الربَّاني بأثر الأحزاب على نفوس هؤلاء يدل على أهمية هذا البناء وأثره العميق في النَّصر والهزيمة.

لقد ذهبَ الأحزاب وانصرفوا ومع ذلك بقيت الآثار المُدمرة في نفوس المُنافقين، فإنَّ معركة الأحزاب أراد منها أصحابها تدمير المدينة النَّبويَّة وقتل المؤمنين فيها، وإلحاق الباقين في طاعتهم من الذين استجابوا في الفتنة ولم يتلبثوا فيها إلاَّ قليلاً، ومع ذلك لم يتم لهمُ المُراد وانصرفوا على

---

[1] البخاري في «الجهاد والسير» باب الجاسوس وقولِ الله عزَّ وجل: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾. حديث رقم: ٣٠٠٧. أطرافه في: ٣٩٨٣، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠، ٦٢٥٩، ٦٩٣٩. ومسلم في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب من فضائل أهل بدرٍ ﷺ وقصةِ حاطبِ بنِ أبي بَلْتَعَة. حديث رقم: ٢٤٩٤.

[2] عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، قَالَ: «جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟ قَالَ: «**مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ**» - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ». البُخَاري وتفرد به - رحمه الله تعالى - حديث رقم: ٣٩٩٢. طرفه في: ٣٩٩٤.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

أعقابهم وهُزِمُوا هَزِيمَةً رَبَّانِيَّةً جَلِيَّةً، ولكن هؤلاء المُنافقين لم يَرَواْ نَصْراً مُؤَزَراً، ولا يُعانون ما يُعانيه المؤمنون من التأييد الإلهي، لأنَّهم هُزِمُوا ولم ينتصروا كما انتصرَ المؤمنون، وهذا شأن المنافقين الجبناء، إذ لا يرون النَّصر الذي يقع لما يكون في قلوبهم من اشراب الهزيمة، ولما يبصرون ويعظمون ما يقع لهم من البلاء والخسارة اللازمة للجهاد نصراً إنْ وقع وقُرُوحاً إن كانت، فهؤلاء مهزمون دوماً لأنهم جبناء.

لا عجبَ بعد ذلك أن يكون من معاني قوله تعالى: ﴿ **سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ** ﴾ هو ما يقع منهم من القول بسبب الهزيمة التي لحقت قلوبهم ونفوسهم، فهم يخوفون المؤمنين منهم، ويُرجفون بالأقاويل المُدمرة التي تحبط إرادات المجاهدين من قصد الجهاد والنفير إلى أرض أعدائهم.

إنهم يتصورون أنَّ أيدي الأحزاب طويلة حتى لو ذهبت جنودهم، فليصح هؤلاء الأغرار!! من المجاهدين الذين امتلأت قلوبهم تصديقاً بوعد الله، وإيماناً بأنَّ الشَّهادة أقصر الطُرق لرضى الله وجِنانه، لِيَفِقْ هؤلاء فإنَّ ذراع الكفر تستطيع أنْ تبطش متى شاء، وتصل إلى أي أرض مرامٍ تريده، والحقّ أنَّ هؤلاء المنافقين لا يرون يد الله في تدمير وزلزلة هؤلاء الكفرة الأحزاب، وهم عُميان عما في الكفر من ضعفٍ حتى وهو في أوجِ صُراخه وتهديده، فها هي أحزاب عصرنا قد ضربها الوهن الداخلي، إذْ أنفقت المال صداً عن سبيل الله ثم صارت عليهم حسرة، وهم في طريق الهزيمة الكاملة، فصار الدرهم الواحد تشكو من ذهابه أكابر الدول والحكومات، وصاروا يعدون على جنودهم مقدار ما يأكلون ويشربون وهم الذين أوهموا المنافقين أنهم آلهة يقولون للفقر كن غنىً فيحول إلى مُرادهم، وينفخون في الأوراق فتصير ذهباً، وها هي أبنيتهم تنقض عليهم من داخلها بأكل دابة الأرض لها، وسينهارون وحينها سيعلم المنافقون أنَّ آلهتهم باطلة وأنها هواء ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾** ﴾[1].

﴿ **يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ** ﴾.

هذا هو منهج الهزيمة الذي لا يرى النَّصر إلاَّ بمقدار رغد الحياة الذليلة، ولا يرى النَّصر أبداً في زمانه على يد المؤمنين حتى يصير هو غني المال موفور السعادة الجاهلة، ولا يتخيل أنْ يقف الإيمان بضعف أهله ضِدَّ الشرك وطُغيانه فينتصر عليهم حين يثبت أمامهم وتطول مُنازلاتهم بيومٍ لهم ويومٍ عليهم، فإنْ وقع ذلك صرخ هذا النِّفاق: «لقد انصرفوا عنكم بإرادتهم ولو شاءوا لفعلوا فيكم الأفاعيل»، وبعضهم يقيء بقوله: «منعهم من سحقكم قواعد دينهم ومناهج حروبهم حين احتميت في المدنيِّين وإلاَّ لأزالوكم من الوجود».

---

[1] سورة هود، الآيتان: ١٠١-١٠٢.

هذا هو منهج الهزيمة الذي يُبرر كلَّ ثباتٍ للإيمان الذي يدفعُ ثمنه شهداء أنه فِعْلُ إلهه الباطل ومن خلال مشيئته هو.

لقد نصر الله المؤمنين انتصارات عظيمة في زماننا إذ وقع لهمُ النَّصر حين نجا الله أتباع محمد ﷺ ووُراث هديه كما وقع له بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾[1]. فلم يراه المنافقون شيئاً.

في زماننا حين وقفوا لأعتى أسلحة الكُفر فأذلوهم وجعلوهم للنَّاس عِبْرَةً، فضغط هؤلاء على أتباعهم من المنافقين ـ وارثي النِّفاق ـ فجاسوا من داخل المؤمنين وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فإنَّ قدر هذه الأُمَّة الضعف إنْ كان الشرّ من داخلها.

لقد نصر الله المؤمنين في زماننا حين صرخ الشيطان صرخته بدفع النَّاس للدخول في طاعة أوليائه من فراعنة العصر فلم يبقَ أمام هذا الدجال إلاَّ هذه القِلَّة من نُزَّاعِ القبائل فاستَعْلَواْ بإيمانهم فكانوا مؤمنين كما قال تعالى: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾[2].

كلّ هذا العُجاج الذي خلفته هزيمة الأحزاب، وكلّ هذا الدِفق الإيماني الذي يحقق هذه الانتصارات ومع ذلك لا يرى هؤلاء المُنافقون إلاَّ الشُّهداء فيسمُّونهم قتلى ويعدُّونهم في خانة الخسارة، ولا يرون إلاَّ السجناء الذين خرج الكثير منهم وهم حفاظ لكتاب الله في دورات إيمانية عظيمة. إنهم لا يرون هذا البعث الإيماني الجهادي والذي أحال الشباب من عُباد شهوات إلى طُلاب شهادة لأنهم لا يرون النَّصر إلاَّ أنْ يدخلوا المدائن على حِصَانٍ أَبْيَضٍ من أول موجةٍ يصنعها أولياء الله وذلك بعد كلِّ هذا الخراب الذي لحقَ بالأُمَّة من عقائد فاسدةٍ وأفكارٍ مُضللةٍ، وجاهليَّة ضربت في عُمْقِ المسلمين حكاماً ومحكومين، فانفكت أول عُرْوَةٍ وهي الحُكم بما أنزل الله، وتتالت العُرى ذهاباً حتى أضاع النَّاس الصَّلاة واتبعوا الشَّهوات.

يا لِبلاء أهل الإسلام بهؤلاء القوم، ويا لِهذا الدِّين العظيم حين يركب على هذه الأوهام فيصبح مجرد كلماتٍ وأشكالٍ لا روحَ لها.

لقد صارت قلوب هؤلاء هواء، ولذلك فلينعم الأحزاب بهؤلاء الجنود الذين يعيشون بيننا ويرون ما لا يرى الأحزاب أنفسهم، فإنَّ الأحزاب تعلم أنها مهزومة، وسترحل وهي ذليلة، ولكن المنافقين لا يرون ذلك، بل هم كما قال المثل الفارسي: «إنَّ الشيخ لا يطير ولكن أتباعه أطاروه».

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٣١.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

والله إنَّ الواحد منهم لَينصح الآخر بعدم قول «آه» إلاَّ تحت اللحاف حتى لا تسمعِ الأحزاب شكواه فيعد من طائفة المجاهدين، ولَيْتَهُمْ يقولون هذا على وجه إتقان العمل بعيداً عن أعين الأحزاب، ولكنهم يقولونه على وجه إذهاب العمل وعدم وجوده، وهذا فعلُ الجبان.

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾ ولذلك لا يتصورون إمكانية العمل ويُنادون على وجه اليأس ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨ ﴾[1]، تلعباً بكتاب الله تعالى، فإنْ وقع فِعْلٌ جِهَادِيٌّ عَظِيمٌ رأوه ضمن خطة الطاغوت، لأنهم لا يرون سواه، فهو كما يملأ عليهم نفوسهم كذلك يرونه قد ملأ الوجود بعلمه وإحاطته وقُوته، ويسمُّون هذا وعيّاً سياسيّاً.

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٠ ﴾.

كان ذلك وصفهم إنْ ذهبَ الأحزاب واقعاً، وكان ذلك وصفهم إنْ ذهبَ الخوف عنهم، ولكن هذا وصفهم إنْ جاء الأحزاب إليكم: «يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ».

لقد كان مجتمع المدينة مجتمعاً مدنيّاً عظيماً، فهم أهل مصر حقّاً يأرز النَّاس إليهم، والخارجون عنهم هم أعراب أهل بداوة، وهذا ذمٌ شديدٌ في كتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ.

إنَّ من مهمات الإسلام الوُجوديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة هي إخراج النَّاس من فوضى البداوة وحياة الأعراب إلى حياة المصر والمدينة، ولذلك كان من كلام رسول الله ﷺ أنْ جعلَ «التعرب بعد الهجرة»[2] من الكبائر، وهذا في كتاب الله تعالى فإنَّ يوسف عليه السلام لما كان في ذكر تِعْدَادِ نِعَمِ الله عليه أنْ قال لأبويه: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾[3]. فالبداوة تخلفٌ إنسانيٌّ لا تصنعُ حضارةً ولا تبني أُمَّةً، ولذلك من أعمال الإسلام العُظمى أنْ تحول النَّاس إلى أمْصَارٍ ومُدُنٍ تحقق فيها تعارف الشعوب الذي ينضج الحياة ويعين هذه الشعوب على التخلص من ذاتيتها الضيقة القائمة على مفهوم القبيلة ليصبح التجمع قائماً على مفهومٍ آخرٍ يصنع هذه المدنية، وهو الإسلام في تاريخنا. ولذلك تحول النَّاس في أنسابهم من ذِكْرِ القبيلة إلى ذِكْرِ المصر الذي نشئوا فيه وأقاموا فيه،

---

[1] سورة النجم، الآية: ٥٨.

[2] عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يتم بعد الحلم، ولا عتق قبل ملك، ولا رضاعة بعد فِطام، ولا طلاق قبل نكاح، ولا صمتَ يومٍ إلى الليل، ولا وِصال في الصيام، ولا نذر في معصية الله، ولا يمين في قطيعة، ولا تعرب بعد الهجرة، ولا هجرة بعد الفتح، ولا يمين للمملوك مع سيد، ولا يمين لزوجة مع زوجها، ولا يمين لولد مع والده، ولو أن صغيراً حجَّ عشر حُجج كانت عليه حجة الإسلام إذا عقل إن استطاع إليه سبيلاً، ولو أنَّ أعرابيًّا حجَّ عشر حُجج كانت عليه حجة إذا هاجر إن استطاع إليه سبيلاً**». رواه أبوداود الطيالسي، وأبو بكر بن أبي شيبة والحارث بن أبي أسامة واللفظ له، وأبو يعلى، والبزار، والحاكم، والبيهقي، وله شاهد من حديث ابن عباس. «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» لأبي العباس أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم ين قايماز بن عثمان البوصيري. الجزء الثالث، الصفحة ١٨٧.

[3] سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

فلم تعد تعرف أنساب النَّاس بأجدادهم أكثر من معرفتك بمدنهم وأمصارهم كالبغدادي والدمشقي والمكي والمدني والصنعاني والمصري والأندلسي.

لقد أخطأ ابن خلدون وهو يرى أنَّ الدول يقوم أساسها على البداوة، وفسر حركة الحياة الإسلاميَّة بهذا المفهوم ومفهوم العصبة بمعنى القبيلة، وجعل انهيار الدول يقوم على تغلغل الحضر في هذه البداوة، هذا مع اعترافه أنَّ الأعراب أبعد النَّاس عن العلوم، وهذا صحيح.



تنبيه

العرب في مصطلح ابن خلدون هم الأعراب وهو وصفٌ متداولٌ في ذلك الزمان، مع أنَّ هذا خلاف اللغة فالأعراب هم أهل البادية والعرب أهل المصر لكنهم كانوا يُطلقون لفظ العرب على البدو.

أقول لقد أخطأ ابن خلدون في تصويره عمود الحضارة الإنسانيَّة بهذا القول، لأنَّ سبب نهوض العصبة هو عمود الوجود الحضاري لا العصبة نفسها، وهي المفاهيم الإيمانية بدلالتها الشاملة، ثمَّ إنَّ البداوة ليست خُشونة الاندفاع الذي تحققه السيطرة، بل البداوة مفهومٌ يعني غياب النظام والأُنس، وهذه لا تصنع الحضارات ولا الدول، وعلى كلٍّ فمقدمة ابن خلدون إسلاميَّة الأصول، ولكن هي ككلِّ اجتهادٍ إسلاميٍّ فيها الكثير من الحقِّ وفيها ما يختلفُ فيه النَّاس، وحتى هذه المسألة فإنها تحتاج إلى وقوفٍ طويلٍ واستعراضٍ واسعٍ ليس هذا محله لأنَّ ابن خلدون يربطُ المدينة بالترف والبذخ ويجعلهما سبباً للانحطاط وهذا حقٌّ ولا شكَّ فيه، لكن إطلاق مفهوم الحضر على هذه المعاني وجعلهما حالةً واحدةً هو ما يحتاج إلى تدقيق، وأظنُّ أنَّ مشكلة ما يُسمَّى بالمنطق الأرسطي التي تجعل التصور له منفذٌ وحيدٌ هو التعريف هي سبب هذا الخطأ من ابن خلدون. لكن يبقى القول إنَّ البداوة والتعرب ضدَّ الإسلام وهي من الكبائر كما صح عن النَّبِيِّ ﷺ، لأنَّ البداوة هروبٌ من اللحمة، وإضعافٌ لها، وتحللٌ من تكاليفها كما في هذه الآية هنا، ولذلك تمنى هؤلاء المنافقون هذه الأُمنية الخبيثة، فإنهم يخشون المُواجهة وآثارها فإنْ جاء الأحزاب تمنواْ لو ذهبوا هناك حيث التحلل من ضريبة المدنية المُؤمنة، وهناك فقط ينظرون نتائج هذا الحصار على المؤمنين، ويستطلعون الأخبار وهم يتلمظون ويستمتعون بشهواتهم بعيداً عن هذه المحن التي يفرضها الإيمان والجهاد في سبيل الله تعالى.

البداوةُ قرينُ عملٍ خاصٍ وهو الانشغال بالإبل، والتحلل من التبعات، وانفصام الروابط، والفراغ من العيب لِتشتت النَّاس في المسكن والعمل، وهذه كلّها تُضاد الجهاد في سبيل الله تعالى، لأنه قصف لما يحبه النَّاس من الإبل والأنعام والحرث، وهو انتظام المرء في قضايا أُمَّةٍ شرحتها خواتم آيات سورة «الأنفال» كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ**... إلى قوله تعالى: **إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾** ﴾[1]، فالمنافقون يسعون للخروج من الجهاد إلى البداوة لما يحقق لهم هذا الخروج من شهوات.

[1] سورة الأنفال، الآيات: ٧٢-٧٥.

هذه أماني المنافقين وهم في فرحٍ كبيرٍ أنهم لم يلتحقوا بالمجاهدين حتى لا يُصيبهم ما أصابهم، فهم يخافون الهجرة إليهم لما يقع عليهم من البلاء، ولذلك يستقرون في أماكنهم يُطالعون الأخبار فقط، ويحمدون الله على جُبنهم أنهم لم يكونوا معهم، بل كانوا أذكياء عُقلاء!! حين لم ينخدعوا بدعوات المجاهدين: هَلُمَّ إلينا، بل هم قرؤوا القضيَّة جيِّداً، وعلموا أنَّ الأمر سيؤول إلى عواقبه التي يعلمونها، ولذلك هم يؤمنون لذكائهم!! أنه لابدَّ من بناء المؤسسات في أماكن مُستقرة، بعيداً عن خضات المجاهدين وأفعالهم غير المحسوبة والتي تجر الأحزاب مرة بعد مرةٍ لخراب ما يبنونه، وهؤلاء المنافقون شعارهم ـ إن كانوا ذا أدب ـ: «اذهبوا واعملوا فإنْ أفلحتم سنأتيكم وإلاَّ فإنَّ مِنَ العقل أنْ لا نضعَ كلَّ المسلمين في قضيةٍ واحدةٍ غير مأمونة العواقب»، فهم يُقيمون بعيداً وفي منزلة السلامة يبنون إسلاماً وديعاً وله نَفَسٌ طويلٌ، وحقّاً إنَّ أمثال هؤلاء تطول حياتهم وحياة مؤسساتهم لمداهنتها واتساقها مع لون البيئة التي تكون فيه، كشأن الزواحف التي تملك قدرة تغيِّير اللون على البُقعة التي تحل بها.

ولكن القرآن يعظ المؤمنين أن لا يحزنوا إنْ ذهبَ هؤلاء وضربوا بعيداً عنهم لأنهم:ـ

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

وهذا القليل في الحقيقة مفسدٌ للقتال وسببٌ من أسباب الهزيمة، فإنَّ المرءَ حين يضعُ في حسابه أنَّ جُنده في هذه المعركة يضمن أعداد هؤلاء ثمَّ في وسط المعمعة ينقلبون عليه فهذا مؤذن بالهزيمة والخسران، بخلاف مَن يعرف عدد مَن سيبدأ معه ويبقى معه ويدوم إلى النهاية في القتال معه.

إنَّ هذا الوصف ليس فيه أيّ مدحٍ لهم، فليس قتالهم القليل فيه خيرٌ لدينهم ولا لمصلحة المؤمنين، بل هو شرٌّ كبيرٌ، ذلك لأنَّ الكثير من النُّفوس تتأثر من انقلاب من حولها لغلبة سُنَّة القطيع في البشر، فإنَّ النُّفوس تضعفُ حين ترى المُرافقين يتساقطون جُبْناً في الطريق، وهذا يعتري حتى أهل الصلابة واليقين فكيف بالضعفاء الذين يحتاجون دوماً إلى إمدادٍ نفسيٍ لثباتهم ودوام قِتالهم. كما قال تعالى في سورة «التوبة»: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

في غزوة الأحزاب لم يحصلْ قتالٌ، ولذلك كشفَ الله أمانيهم، وكشفَ مستقبلَ نفوسهم لو وقعَ القتال، وبهذا أحاط الله تعالى وصف واقعهم كلّه، فكشفَ أقوالهم وأفعالهم وأمانيهم النَّفسيَّة، وذلك في ألفاظٍ مُعربةٍ بيِّنةٍ لخطرهم وشرِّهم وخُبث دورهم في داخل صف الإيمان، ولأنَّ هذا النموذج مُتكررَ الوقوع في كلِّ موقعةٍ إيمانيَّة تُبتلى فيها مدينةٌ مؤمنةٌ وجماعةٌ مجاهدةٌ، ولذلك كانت صورة النِّفاق في هذا الموطن نقيَّة صافية مُستوعبة لهم، فيأخذها المهتدون بالقرآن نوراً يهتدون به في كشف زمانهم ورجاله وتجمعاته، ومع هذا العلم التفصيلي، وهو علمٌ واجبٌ، لأنه علمٌ يتعلَّقُ

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٧.

بالإنسان في أشدِّ حالات الاختبار، لأنَّ حصار المدن يعني الوجود أو الفناء، فالجهاد ليس مناظرة علميَّة يتدارك النَّاس فيها أخطاءهم، بل الجهاد عند محنة أهله وحِصارهم كما وقع في الأحزاب يعني ملحمة قاسية قاهرة.

أقولُ مع هذا العلم التفصيلي الذي يعلمنا إيَّاهُ كتاب ربِّنا فإنَّ المرءَ يحتاج إلى شجاعة الإنزال، أي أن يُنزل هذه الأحكام على واقعه، برجاله وأحزابه وقُواه، وهذه شجاعةٌ واجبةٌ كذلك، لأنَّ آيات القرآن ليست خبراً لما مضى لكنها أمرٌ وعِظةٌ لما سيأتي، وكما أنَّ النَّاس يُنازعون المجاهدين في طريقهم فسينازعونهم كذلك في مراياهم التي يحملونها آيات من كتاب الله لتعينهم في لزومهم لغزو النَّبي ﷺ وأصحابه.

إنَّ هذا الأمر يحقق مقالة والد شاه ولي الله الدهلوي له: «يا بنيَّ اقرأ القرآن وكأنه ينزل عليك»، وبهذا يكون القرآن حيّاً، وتدوم مسيرة الطريق لما يرى المجاهدون آيات الله تنزل عليهم وعلى واقعهم.

لقد كان عدد آيات موقعة الأحزاب في سورة «الأحزاب» تسعة عشر آية، كان الحديث فيها عن المنافقين في تسعِ آياتٍ مُتواليةٍ، وفي هذا كِناية لِيعلم النَّاس خُبْثَ هؤلاء القوم في زمن رسول الله ﷺ وفي كلِّ زمنٍ.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1].

بعض هذه المسيرة الكاشفة للمنافقين، حيث الواقع الجبان الخسيس الذليل، والبخل الحريص الخبيث، والنُّفوس المُتهاوية أمام أعدائها، والهروب ضرباً في تيه الصحراء، والأقوال المُشككة بقوة السلاح الذي يحمله المجاهدون وهو الوعد الإلهي، ونقض العهود التي أوثقوها مع الله، فبعد كلِّ هذا يأتي النُّور القرآني ليصف النُّور الإيماني الذي تتحقق به الوعود وتتنزل عليه الانتصارات، ويرفع شامخاً منارة يهتدي بها السائرون إلى جِنان الرحمن، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

هذا الرسول الكريم الشُّجاع شجاعة تتقاصر دونها شجاعات الرجال، وهذا الجواد الذي بهر الكرماء بكرمه وعطاياه، وهذا الواثق بربِّه وبنصره، وهذا الثابت مع المؤمنين في بيوتهم ومنازلهم ومقاماتهم هو أُسوتكم، ومثالكم وإمامكم، فالزموا غَرْزَهُ في هذه المقامات.

إنَّ الأُسوة الحقّ لا تكون في ما ترغب النَّفس البشريَّة وتشتهيه، وإنما تظهر الأُسوة تحت ضغط الابتلاءات والغمرات، ولذلك هي محنة لا تقدم لها إلاَّ صفات المؤمنين بالله والراجين رضاه ونصره ودخول الجنان والذاكرين الله كثيرا.

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

كانت هناك في الأحزاب صورتان، صورة النِّفاق في الخسة والجبن والبخل، وصورة الهادي المُهتدي رسول الله ﷺ، وهي صورة مشرقة في العطاء والبذل والثبات والثقة بالله فأقبلوا على هذا الإمام الرسول وكونوا من ورائه أتباعاً له.

إنَّ أُسوة المرء في الحياة تكون في أول الأمر إتباعاً لأصل الصورة قبل الدخول في التفاصيل، وعمود الصورة في شخص رسول الله ﷺ هو ما يتعلَّقُ بركن الحياة الذي يسري في كلِّ جوانبها، وإنْ كانت حياة المؤمنين هي الجهاد كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]. أي الجهاد، فإنَّ ركن هذه الحياة هو الشَّجاعة والجُود، ولذلك فعمود صورة الحبيب ﷺ في كونه رسول الله في هذا الموطن هي شجاعته وجُوده، فلا عجبَ أنْ تكون آيات الأمر بالإقتداء والتأسي تجري في سياق الجهاد في سبيل الله، وخلال عرض الصورة المُضادة لجبن وبخل المنافقين خلال محنة الحصار حول المدينة.

هل يُفيدُ التذكير بخطأ الكثيرين في فهمهم معنى العودة للكتاب والسنَّة لحصول التغيِّير في الأُمَّةِ حين أبعدوا النجعة وسلكوا غير هذه الطريق، ولم يعرفوا ما هي بيئة القرآن وما هي دعوته، وما هي الحياة التي يدعو إليها؟!.

إنَّ مقام هذه الأُسوة شديدٌ، ولا حظ للنَّفس فيه قط، ولذلك فإنه مربوطٌ بهذه الشروط: رجاء الله والدَّار الآخرة، ودوام ذِكر الله تعالى.

إنَّ هذه الخصال ليست معارف عقليِّة باردة، بل هي حقائق قلبيَّة تأسر الإنسان وتسوقه إلى قيم السلوك العاليَّة، ذلك لأنَّ المعارف العقليَّة الباردة لا يدفعُ أصحابها الثمن، وهي عند الابتلاءات تغيبُ عن نفس صاحبها لأنه غير مستعدٍ لدفع ثمنها، فَمَنْ هذا الذي عنده استعدادٌ أنْ يدفعَ روحه ثمناً في ابتلاءٍ يتعلَّقُ حول سؤالٍ يدور بين مُتخاصمين في رقمٍ من الأرقام الحسابيَّة لا علاقة له به حتى لو كان مُتيقناً من هذه المعرفة، لكن حين يكون المرء محباً لله خائفاً منه، راجياً منه خيريِ الدُّنيا والآخرة، وهو لا يَعنيه أن يخسر في هذه الدُّنيا أو يربح، بل هو على استعدادٍ أن يخسرَ روحه من أجل أن يربحَ الآخرة لما فيها من نعيم ورضوان الله فإنه حينئذٍ يُقِيمُ على غرز الإقتداء بهذا الرسول، حتى لو كانتِ النَّار تشتعلُ تحت رجليْهِ، والسياط تأكلُ من بدنه، والقيود تحز في يديْهِ ورجليْهِ.

إنَّ الإقتداء بالرسول ﷺ لا يفعله المرء لأنه يُوصِله إلى شهوته في الدُّنيا، بل إنَّ هذه القدوة ههنا تقضي على شهوته في الدُّنيا لِتصل به إلى الجنَّة، ذلك لأنَّ الجنَّةَ أُحيطت بالمكاره كما النَّار أحيطت بالشهوات، ولذلك فأعظم ما يتحقق به الإقتداء هو الإقامة على ذروة سنام الإسلام في المعالي، فإنْ حصل ذلك فإنَّ ما دونها أهون، ولذلك فالذين يَشْكون من النَّاس بُعدهم عن طريق الرسول ﷺ وهجرهم لسُنَّته لِيسألوا أنفسهم أين هم من إقامتهم لأنفسهم في هذا المقام ليلحق النَّاس بهم هناك

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

فيكون الحديث بعد ذلك عن السنن الأُخرى سهلاً ميسوراً، أما جلوس النَّاس وسط الشَّهوات والرغبات ودفعهم للسنَّة النَّبويَّة فهو كجر العربات بلا دواليب، وهذا ما وقع فإنَّ مَن يستجيبُ لك اليوم في باب سينتكسُ في آخرٍ، ومَن يتقدم معك خطوةً فسيرتكس عشر خطوات، وبذلك ستبقى الدعوة إلى إحياء السنن مكانها، ولذلك فلا عجبَ أنْ يتحول دعاة الإصلاح ورجال الفتوى إلى ما يسمَّى بفقه التيسير، وهو في حقيقته فقه التلفيق وتتبع الزلات وسقطات العلماء، وحجتهم في ذلك أنَّ النَّاس لا يسعهم إلاَّ هذا، والحقّ أنهم هُمْ قد هانتْ عليهم السنن، ورضخوا في حمأة الشَّهوة، ورضوا للنَّاس ذلك فصارت مطالبهم من الآخرين تلاقي المشقة والعنت، فهم يحاولون الجمع بين الشَّهوة والدِّين، وبين إتباع السنن وإتباع الأهواء، ويجدون المشقة الشديدة في ترك الشَّهوات فتتم التضحيَّة بالدِّين والسنَّة، وهذا شأنُ النازل عن الذروة فإنه سيبقى يتدحرج حتى يصل إلى القاع، هذا مع أنَّ صورة المفتي والواعظ صورة الحريص على الدُّنيا، وهو لا يكف عن الصِّراع كغيره لتحسين دنياه والرقي فيها، ومثل هؤلاء يجدون في أنفسهم العذر للنَّاس في ترك السنن والشرع لأنهم يحسون بهذا.

إنَّ طائفة الجهاد هي وحدها التي تُهَيئُ للأُمَّةِ السبيل القويم في تطبيق السنن النَّبويَّة والتزامها، لأنَّ كثيراً من السنن تترك في زماننا بسبب نفسيَّة الهوان والذلة والضعف أمام الآخرين، فيصبح السني خجولاً في اقتدائه بسنَّة رسول الله ﷺ، والجهاد في سبيل الله تعالى حالة نفسيَّة مبعثها العزَّة بهذا الدِّين والنظر باستعلاءٍ إيمانيٍّ لكلِّ ما يخطه النَّاس من أساليب حياةٍ بعيدةٍ عن الهَدي النَّبويِّ، ولذلك فبيئة الجهاد ونفسيَّة المجاهد هي أرقى البيئات لعمل السنن والتمسك بها والاعتراف بإظهارها.

واقع الصورتين واضحٌ جليٌّ، فإنَّ كلَّ ناظرٍ متأملٍ يرى أنَّ الذين يختارون طُرق البدعة ويتنكبون طريق الجهادِ في سبيل الله تعالى هُمْ أعداءُ السُنَّنِ، وأَبْعَدُ النَّاسِ عَنِ العَمَلِ بِهَا، وَأَقَلُّ النَّاسِ حَظاً في عُلُومِهَا، فلو رَاقَبْتَ صَلاَةَ أَحَدِهِمْ لَرَأَيْتَ العَجَبَ في جَهْلِهِ بِالسُنَّنِ، ولو ذاكرته في الحديث النَّبوي لما وجدته عالماً فيه، بل لا يقتربُ من المبتدئ في طلب العلم، ومع كلِّ هذا فإنهم يسمون المجاهدين بالجهل، ووالله لا ندري ما العلم الذي عندهم، فهل عندهم عِلْمُ الكتاب، وهل عندهم علم اختلاف العلماء، وهذه هي أُسس العلم وقواعده، أما لو سألتهم عن أصول الفقه لما وجدتَ عنده إلاَّ تعريفات لمصطلحاته، وهذا شأن كُبرائهم ومُقدميهم، أما مَنْ وراءهم فَحَدِثْ عن بحرِ الجَهْلِ وَلاَ تَخَافْ.

ومِن وراء هؤلاء يتستر قومٌ بقولهم أنَّ ما يلزم أهل الإسلام المُعاصرين فقهٌ آخرٌ غير الفقه التقليدي!! فإنْ باحثْتَ ما يعني رأيتَ بذور الزندقة مغروسة فيه وهو لا يدري، إذْ يظن أنَّ قراءة مقالات العلمانيِّين ومباحثهم ودراستهم هو ما يعنيه، فلا عجبَ بعد ذلك أن يَهْرِفَ أحدهم بأقوالٍ ـ هي الفتوى لو أدرك ـ خالف ما أجمع عليه الإسلام، ويسمِّي الفقهاء!! بالمتكلسين والمتحجرين، ولذلك فلا عجبَ أنْ صارت قواعد النَّاس المشركين اليوم في تصنيف النَّاس هي عين قواعدهم، وأنَّ

قواعد التعامل البشري في العالم هي ما يؤمنون به، بل تجد أحدهم يستخدم ألفاظ الجاهلية بمعانيها هي، وبآيات لا يدري ما قال الصَّحابة ﷺ فيها يحتج لكلِّ هذا الضلال.

هذه نفسيَّة وواقع أعداء المجاهدين اليوم، وهذا فِقههم، وهذه طريقتهم في ردِّ الفقه الشرعي الذي يدل عليه الكتاب والسنَّة وإجماع العلم، وهؤلاء هم مَن أعطى لنفسه الحقَّ أن يصفَ المجاهدين بالشباب المُتحمسين، وبالجهلة الأغرار، يُساعدهم في هذه مؤسسات تُساندهم، ووسائل إعلام مفتوحة لهم، وأتباع يعيشون موظفين في هذه المؤسسات، مع دخولهم في سبيل المجرمين مراتٍ عديدةٍ حين يستخدمهم الكفر لِضرب المجاهدين وتنفير النَّاس منهم، بل لا يستحي أحدهم من الله وهو يقول: «إننا وحدنا مَن يصلح للوقوف أمام المجاهدين»، وقد صدقوا فإنَّ الله منع هلاك هذه الأُمَّةِ بيد أعدائها، لكن لم يمنع أنْ يُسلط بعضها على بعض، فتكون المصيبة من داخلهم.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

ضَعُوا الأُمَّة في طريق الجهاد، وأقيمُوا في نفوسها حبَّ الشَّهادة، واطلبُوا منهم أرواحهم وأموالهم فحينها تجدون المُستجيبين لكم هم أقرب النَّاس لهذا الرسول ﷺ، لأنكم حينئذٍ تعلمونهم أنكم قادة العالم وأسياد الوجود ووُرَّاث الأرض، ومَن كانت نفسيته كذلك فإنه أبعد النَّاس أنْ ينهارَ أمام الآخر ليتخذه أُسوةً وقدوةً له.

إنَّ النُّفوس البشريَّة مجبولة على العبودية، ولذلك مَنْ لم يَعْبُدِ الله سَيَعْبُدُ سِواه شاء أم أبى، وإنَّ النُّفوس مجبولة كذلك على الإقتداء بالمثال، فهو يسعى جاهداً ليكون شبيهاً به، حتى في سكناته وحركاته، وفي طعامه وشرابه، وهو شغوف بتتبع أخباره وسيرته، ومن رحمة الله تعالى بهذه الأُمَّةِ أنْ جعل أُسوتها ومثالها في ذلك هو سيد الخَلق ﷺ أنَّ هذه الأُمَّة هي خيرُ الأُمم، وكلما ابتعدتِ الأُمَّة عن هذه الأُسوة فإنها تبتعدُ عن الخيرية، وكلما اقتربتْ منه كلما اقتربتْ من الخيرية، ولذلك لا تجد أحداً ـ رجلاً أو امرأة ـ يبحث عن فتوى تحلله من الإقتداء برسول الله ﷺ إلاَّ وقد شُغِلَ بأُسوةٍ أُخرى أَحَبَّها ورغبَ بصورتها، فالمُتحللون من السنن هم مُقلدون للشياطين ـ شاءوا أم أبوا ـ لأنَّ الصِّراع في حقيقته صراعٌ بين الإنسان في صورته العابدة لله تعالى في خير مقاماتها، وبين صورة أعداء هذه العبودية وإمامهم هو الشيطان، وإني لأعجبُ من هذه النُّفوس الصغيرة التي تُعرض عن مثال الإنسان في أكمل مراتبه ومقاماته لينزل في دركات التشبه بالشيطان والحيوان.

﴿ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

هذا تقريرٌ ربَّانيٌّ أنَّ الذاهبين عن سنَّة رسول الله ﷺ في مواقفه، وأعلاها الجهاد في سبيل الله، وهم الجبناء والبخلاء من المنافقين هم قومٌ قد فرغتْ قلوبهم مِن أُسِّ هذا الدِّين ورُكنه الذي يُشكل حقيقته الكليَّة وهو العبوديَّة لله والإيمان بالدَّار الآخرة.

الجهاد في سبيل الله تعالى يعني الثِّقة بالله والثِّقة بوعُوده الدُّنيويَّة والأُخْرويَّة والثقة بنصره، ولا يقوم به إلاَّ مَن تعلَّقت قلوبهم بالجنَّة وخافوا النَّار، وكذلك هو الطريق الذي يحقق ما عند الله تعالى من وعودٍ يطلبها الإنسان في الدُّنيا والآخرة، لأنه هو طريق رسول الله ﷺ، وأما طُرق الأغيار فإنها لا تُوصِل أبداً إلى الوعد الإلهي بالنَّصر، ولا الوعد الإلهي بالوراثة، وأصحابها يعلمون ذلك فإنهم أقصى ما يطلبون أن يكون خيطاً مرضياً عنه ضمن نسيج الجاهليَّة، أي واحد من مُتعددٍ، وهم يُصرحون بهذا ويُعلنون أنهم لا يريدون إلغاء الآخرين بل مُشاركتهم، ولذلك ليس في قلوبهم قط رجاء الوعد الإلهي بالنَّصر في الدُّنيا فكيف يكون عندهم رجاء دخول الجنَّة وحِرمان الكافرين منها، هذا مع ما يسمعون من خبر رسول الله ﷺ أنه ما من مسلم يوم القيامة إلاَّ ويُعطى له كافرٌ يأخذ مكانه من النَّار، فعندما يقول المجاهدون: «إنَّ طريق الإسلام هو طريق الجهاد»، لأنَّهم يعلمون أنَّ الإسلام هو العبوديَّة لله والإيمان بالدَّار الآخرة، ولذلك لا يقومُ بالجهاد إلاَّ أهل هذيْن الركنين، وإنَّ كُلَّ مناهج الباطل لَتَلْغِي من خِطابها للآخرين هذيْن الركنين، فلا يعقلون أبداً خلافهم مع الآخرين حول عبوديَّة الله، ولا يُنذرونهم بالنَّار التي سيصلاها كلّ كافرٍ، بل هم قبِلوا لُعبة الجاهليَّة أنَّ الخلاف بين دعاة الحُكم بما أنزل الله وبين خُصومهم إنما هو خلاف برامج سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة منبت الصلَّة عن خصوم الإيمان مع أقوامهم.

اقرأ الصورة مِنْ كلِّ جوانبها ستجدْ أيَّ انحرافٍ وقعَ فيه الناكبون عن طريق الجهاد في سبيل الله سواء ضدَّ المُرتدين أم الكفار الأصليِّين، حقيقة الانحراف هي جهلٌ بحقيقة الدِّين الذي بُعِثَ به الأنبياء، وليس انحرافاً في مسائل فقهية كما يُريد البعض تصويرها، ويجتمع مع هذا سلوك سياسي انتهازي قبيح يُعبر عن حقيقة إطار هذه الجماعات وهو خطابها اللِّين ضِدَّ خُصومهم السياسيِّين من الكُفار وغلظة خطابهم بل وبراءتهم من المجاهدين وكأنهم قبِلوا قول الصَّحابي وهو يبرأُ من المُشركين ويعتذر عن المسلمين[1]، فصار هؤلاء يعتذرون عن أفعال المُشركين ويبرؤون من أفعال المؤمنين.

﴿ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

هذا ركنٌ آخرٌ من أركان تحقق الإقتداء برسول الله ﷺ، فهو وَقود العاملين والدُّعاة والمجاهدين، لا يُواصل الطريق إلى مُنْتَهَاه وهو الموت إلاَّ مَنْ عاش في كلِّ لحظاته، ولذلك جعل الله ذكره سبحانه وتعالى وصيته لموسى وهارون عليهما السلام في رحلتهما لدعوة الطاغية فرعون فقال تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ﴾[2]، وهذه الصفة هي سِمَة الربَّانيِّين الذين يحققون التغيِّير في الحياة، ولو تأملتَ سيرة المجددين في التاريخ الإسلامي، وقادة الجهاد الذين حققوا أعظم الخيرات لهذه الأُمَّة لَوجدتَ فيهم صفةً جامعةً هي صفةُ الربَّانيَّة، وهي التي لا تتحقق إلاَّ بدوام ذكر الله تعالى

[1] هو الصَّحابي الجليل أنس بن النضر ﷺ. تقدم حديثه بهامش الصفحة ٢٨١.
[2] سورة طه، الآية: ٤٢.

في حِلِهِمْ وتِرْحَالِهِمْ، وفي قِيامهم وقُعُودِهِم، فلسانهم رطبٌ بذكر الله، ولهم من الأوراد الشرعيَّة ما تملأ عليهم يومهم كلّه، وذلك بالاستغفار والصَّلاة على رسول الله ﷺ والباقيات الصالحات، وصلاة قيام الليل وصلاة الضحى وكثرة النوافل والاعتناء بالسنن الرواتب، إذْ لا ترى الواحد خالياً من عملٍ من أعمال الحياة إلاَّ وهو دائمُ الذكر لربِّه، وأعظم الذكر هو قراءة القرآن؛ بختمه الكُلي منهم كلِّ شهرٍ مرة، وأما طريقة الكثيرين من أهل هذا الطريق أن يختم في كلِّ أسبوع مرة لا يشغله عن ذلك أمرٌ من أمور الحياة، بل هو يضبط شؤونه الخاصة من خلال هذه الأعمال التي تحقق له دوام الصلة مع الله ودوام مُراقبته.

إنَّ مهمة المجاهدين والغرباء صبغة شاقة لا يقوم لها على وجهها الصحيح وهي أنها عبادة لله تعالى إلاَّ بِأَنْ يُرَاعِيَ المرء حالة قلبه مع الله تعالى، وهذا الأمر ليس تتمة للصورة، بل العبوديَّة لله تعالى هي حقيقة الصورة التي يجبُ أنْ يفهمها المرء ليكون مسلماً صادقاً، فالله تعالى وعد أولياءه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾[1]، والنَّاس لا يتركون طريق الولاية وعبوديَّة ربِّ العالمين إلاَّ بسبب هذين المرضين: الخوف ممن له جبروت وسطوة وقوة، والحزن من فوات النَّعيم، وبالاستجابة للخوف والحزن يذهب النَّاس عن طريق الله تعالى وعن طريق الرسول ﷺ، وبذكر الله تعالى يحصل اطمئنان القلوب المُذهب لهذين المرضين، والله يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾[2].

إنَّ دوامَ ذِكر الله تعالى ليس نافلة للمجاهد، وليس نافلة للدَّاعي، وليس نافلة للغُرباء إلاَّ إذا قُلنا إنَّ الوقودَ نافلة القلوب، فبالغفلة يغلبُ الشيطان على القلوب ويُسيطر عليها، وإنْ ظننتَ أنْ يأتيَ خيرٌ عامٌ لأُمَّةِ الإسلام ممن لا يقوم إلاَّ بالفرائض فَاعْلَمْ أَنَّكَ وَاهِمٌ، لأنَّ هذا ليس سيرة التاريخ ولا سيرة الرجال فيه، ولا يقولن قائلٌ: كيف تُوجِب على النَّاس ما لا يُوجبه الشرع؟ فيُقال: إنَّ الحديث هنا عن هُداة مهديِّين، وقادة وحملة رسالة فكيف لمثل هؤلاء أن لا يكونوا قُوَّامَ ليلٍ؟! وكيف لهم أن لا يلتصقوا بالقرآن وقد وصف رسول الله المؤمن «**وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا**»؟![3]. فماذا سيعطي للنَّاس مَن لا ريح طيبة فيه بقولٍ يقوله لهم، وبفعلٍ

---

[1] سورة يونس، الآية: ٦٢.

[2] سورة الرعد، الآية: ٢٨.

[3] عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلاَ رِيحَ لَهَا**». البخاري في «كتاب فضائل القرآن» باب فضل القرآن على سائر الكلام. حديث رقم: ٥٠٢٠. أطرافه في: ٥٠٥٩، ٥٤٢٧، ٧٥٦٠. ومسلم في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب فضيلة حافظِ القرآنِ. حديث رقم: ٧٩٧.

يقودهم به؟! وكيف لمثل هؤلاء أنْ يكونوا موتى لأنَّ رسول الله ﷺ يقول: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ، وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»؟![1].

لينظرِ النَّاس إلى سَمْتِ مَن يقتدون به، وليُراقبوا خصوصيته مع الله تعالى لِيعلموا هل هو على هدي أم أنه مجرد ثائر تراب لا روحَ فيه، ولا يغرنك قول البعض: أنني مشغولٌ بأمور العامة عن هذه النوافل، فهل هو أكثر شغلاً بأمورهم من أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ؟ فاقرأ صفات هؤلاء القوم وذِكرهم لله وقراءتهم للقرآن وقِيامهم لليل تعلمْ تهافت حُجج هؤلاء.

إنَّ المجاهدين والغرباء في صِرَاعٍ مع نفوسهم حتى تبقى صورتهم صورة عباد لله تعالى، لهم سمت الصالحين والذاكرين، وسمت الأولياء الذين لهم تعلُّقٌ بالله وطاعته والقُرب منهم، تخشع قلوبهم لذكر الله وتُوجل، وتقشعرُ جلودهم إذا سمعوا آياته، يحنُّون إلى الليل لمناجاة ربِّهم كما تحن الطيور لأوكارها، لهم ساعات بينهم وبين ربِّهم يلقون فيها سؤالاتهم وأحمالهم، ويستغفرونه لضعفهم وذنوبهم وجهلهم، يخرون بين يديه وهم يبكون، فلا يعرفون النَّوم في السحر، ولا الجلوس في مجالس اللغو، ولا ترك صحبة القرآن الكريم، إذا رآهم النَّاس ذكروا الله تعالى، لأنها هذه صفة أولياء الله.

لا يسبقن المجاهدين والغرباء أحدٌ في هذا الباب ولا في أي بابٍ من أبواب الخير، ولكن لِيكن هؤلاء هم أئمة الطريق في هذا الأمر لأنهم أهله وأحق به، وهم يحتاجونه في جهادهم كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2]. وهو القائل سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[3]، وكفى بهذه المرتبة مقاماً أنْ قال الله العظيم العزيز: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾[4].

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾[5].

غزوة الأحزاب محنَّة الوعد الإلهي في قلوب النَّاس، فالمنافقون لا يرون إلاَّ الرُعود والبُروق، وتقف مداركهم الجاهلة عن إدراك حقيقة هذا الدِّين وبيئته التي يعملُ فيها، فما أنْ تقع محنَّة لأهله حتى تعمى عقولهم عن رؤية ما وراء ذلك من الحِكَم، ويقفون في شكٍ وريبٍ، وهكذا يجهلون معنى الألم في الحياة، وأنَّ بين الألم والمِنح الإلهيَّة تَلاَزُمٌ لا يَنْفَكُ، وأما المؤمنون فقد أدركوا قوله

---

[1] البخاري في «كتاب الدعوات» باب فضل ذكرِ الله عزَّ وجَلَّ. حديث رقم: ٦٤٠٧. ومسلم في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب استحبابِ صلاة النافلة في بيته وجوازِها في المسجد. حديث رقم: ٧٧٩. كلاهما من طريق أبي بُردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

[3] سورة البقرة، الآية: ١٥٣.

[4] سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

[5] سورة الأحزاب، الآية: ٢٢.

تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[1]، فهم علموا أنَّ النَّصر ينبثقُ مِنَ البأساءِ والضَّراءِ والزَلازلِ، وأنَّ هذه سُنَّةٌ جاريةٌ في الأنبياء وأتباعهم لا تتخلَّفُ قط، وها قد جاءهم «الزلزال» والأحزاب، فحين جاءهم هذا علموا أنَّ النَّصر قريبٌ، ولذلك سموا هذه الأحزاب وعداً لِما أيقنوا من كلام الله تعالى ما وراءها.

هذا الوعي والعلم والفهم على حقيقة هذا الدِّين هو الإيمان الذي يحقق النَّصر، ومن دون ذلك فإنَّ النَّصر لا يكون حتى لو أتى العابدون بأعمال الإيمان الأُخرى، ذلك بأنَّ كُلَّ وَعْدٍ إلهيٍ له سنَّة خاصة يسلكها العابدون عِلْماً وَعَمَلاً، وهو وعيُّهم على حِكْمَةِ الأقدار، إذ يفقهون معنى القتل في سبيل الله وأنه شهادة، ويفقهون معنى الخروج من الديار أنه هجرة، ويفقهون معنى الآلام والصِعاب والبأساء والضَّراء وزلازل الحوادث أنها مُقدمات نصرٍ.

لقد ارتدتِ العرب جميعاً بعد وفاة رسول الله ﷺ إلاَّ المدينة ومكة والطائف وجواتى في البحرين، ووقع البلاء والزلزال حتى إنَّ النَّاس خافوا مِنْ أنْ تجرَّ الكلاب بأرجل نساء النَّبيِّ ﷺ ولا يقدر أحدهم على دفعهم، بل لو طرق المدينة يومها طارقٌ لما كان فيها من الرجال ما يمنعهم، لذهاب كلِّ القادرين على الجهاد إلى بُعوثهم، فهل رأى أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ في ذلك غير ما قاله هنا وأمثاله من المؤمنين ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

إنَّ الزلزال الحقيقي الذي يقع فلا يرى له النَّاس وجهاً لزواله، ولا قُدرة التنفس أمامه، وهو يحيط بهم من كلِّ الجوانب، ويضغط عليهم ضغطاً يصرخون فيه: متى نصر الله؟، فهؤلاء المؤمنون لما قالوا ما قالوا من كلمات الإيمان هذه لم يكونوا في سعة من الأمر، ولا في بحبوحةٍ من الحياة، بل وقعوا حقّاً وصِدقاً في بَأْسٍ وَضُرٍّ وَزِلْزَالٍ، وما كان الواحد منهم يقدر أنْ يخرج لحاجته، ولا يدرون مَن ينجو ومَن ذهبَ شهيداً، فالوعد لا يعني أبداً أنْ لا يقع الموت وأنْ لا يقع الجوع الشديد المُهلك ولا البرد الذي لا طاقة لهم بدفعه، لأنَّ هذا الوعد بالنَّصر هو للفئة الباقية وقد يطولُ الأمرُ ويقعُ التوارث في الطريق، وأما الوعد للراحلين فهي الجِنان.

إنَّ الوعد لا يعني ضماناً لك أنتَ بشخصك، فقد تموتُ جُوعاً أَوْ قَتْلاً أَوْ سِجْناً، وقد تفقدُ الحبيبَ تِلْوَ الحبيب، ولا ضماناً لجيلٍ يبدأ الطريق ثم تتم حلقة المحن بهم، لكن الوعد الإلهي هو لأهل الإسلام الذين يثبتون على هذا الطريق ويَرثونه ويُورثونه لغيرهم، وكلّهم يتساءل: متى نصر الله؟! ونصر الله حقّاً وصِدقاً قريبٌ، فإنَّ أُمَّةَ الإسلام جاهدتِ الصليبيين مئة عام ثم كان النَّصر وكان قريباً، وعندما ذهب الصليبيون كأنهم لم يكونوا يوماً هنا بل بقي الإسلام وأهله، وأما الزَّبَدُ فذهب جُفَاءً.

[1] سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

سيأتي خلال هذه المحن رجَّات وصِعاب تُضاد هذه الوعود وتُزلزلها في قلوب أهلها حتى لَيُوشَكُ أنْ يدخل البأس في قلوبهم، لِطُول هذه الرجَّات والزلازل، ولِتعاقبها وتكاثرها كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾[1]، وسيقول المنافقون: «لقد سبقكم مَنْ قبلكم وهم يؤمنون بهذه الوعود فماتوا ولم تحصل لهم، بل قد مرَّ جيلٌ وجِيلاَنِ وهم ينظرون إلى السماء يرقبون النَّصر الموعود ولم يأتِهم، فلماذا يأتيكم أنتم؟». ثم يقولون: «إنَّ واقع زماننا لا يدل على أنَّه وقت هذه الوعود، فاتركوا هذا الطريق لوقت الوعود»، والمنافقون في هذا كذبة فجرة جهلة، لأنَّ كلَّ جيلٍ أقام على هذا الطريق الحقِّ في الجهاد في سبيل الله تعالى كانوا يرون انتصارات ربَّانيَّة، ويُعايِّشُون وُعوداً تنبثقُ من الظلمات المحيطة، وهي لهم خاصة لأنهم من يُعانيها ويحيَّاها، هذا مع عِلمهم أنهم حلقة من حلقات رجال الوعد الإلهي بالنَّصر والتمكين، فإنه وإنْ لم يقع لهم، فهم يُوَطِئُون له، ويُهيِّئُون له حتى يأتي وعد الله، وكفاهم بهذا منزلةً عند الله تعالى.

ثم إنَّ النَّصر هو الإقامة على الحقِّ، والإقامة على طريق الشَّهادة والنَّصر، والبقاء ثابتاً تؤذي بثباتك الأعداء وتُغيظ قلوبهم، لأنك تستعلي على شهواتهم وآلهتهم وبطشهم وإغرائهم.

إنَّ المنافقين يجهلون معنى النَّصر الإلهي، ويجهلون سنَّته ولذلك فلا عجبَ أنْ يكون واقعهم وأعمالهم لا وجودَ لأثر الوعد الإلهي فيه، ولماذا يرقبون الوعد وهم محاطون برعاية الجاهليَّة، ومُنعمون في كنفها، والمرءُ لا يرقبُ الوعد إلاَّ وهو في البأساء والضَّراء والزلزال يُنادي: متى نصرُ الله؟.

لقد جاءتِ الأحزاب وأحاطت بالمدينة، وخان يهود بني قُريظة العهد واشتدَّ البلاء، وخلال هذا كان رسول الله ﷺ يعدهم؛ ففي حفر الخندق يُبشرهم بفتح فارس والروم وإنفاق أموالهما في سبيل الله، ولما جاء خبر بني قُريظة ونقضهم للعهد كبَّر واستبشرَ، فكانت هذه الوعود بَلْسَمَ جراحٍ، وقطرات ندى تُعين هؤلاء الرازخين تحت البلاء، ولذلك فإنَّ قراءة الوعود الإلهيَّة من أحاديث رسول الله ﷺ ضرورةٌ مهمةٌ في هذا الطريق، ومن أعاجيب هذه الوعود أنها لم تقع في التاريخ إلاَّ بالجهاد، وهناك وعودٌ آتيةٌ كلّها فيها خبر الخيول والسيوف والجهاد، فهل يفقه المسلمون هذا ويُقبلوا على هذه الوعود بطريقها الصحيح أم أنهم سيبقون في بحثٍ دائمٍ عن تحصيل هذه الوعود بطريق لا جهاد فيه ولا محن ولا شهادة!!.

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ ﴾.

إنَّ المؤمنين لم يروهم «خوفاً» كما رآهم المنافقون، بل رأوهم جنوداً وأحزاباً، فلم ينهاروا أمامهم ولم يتنازلوا عن قيم العزَّة والشَّجاعة الكامنة فيهم، فلما أشار رسول الله ﷺ على الأوس والخزرج أن يُعطوا غطفان بعض ثمار المدينة حتى يرجعوا عن الحصار والانضمام لقريش، رفض الأنصار

[1] سورة يوسف، الآية: ١١٠.

ذلك، وتفجرت قيم الإنسان العربي في أنفته وعِزَّته وشجاعته، وهي قيم جاء الإسلام فمكَّنها وأمدها بمددٍ أقوى، ورفع وِجْهَتَهَا إلى حيث الدَّار الآخرة، ولذلك كانوا على استعدادٍ أن يموتوا جميعاً ولا تُؤخذ منهم حبة تمرٍ واحدةٍ على سبيلِ الذلة والقهر، فهذه قيم العربي وهي وعاءُ الإسلام الذي يحفظ من خلالها كتاب الله تعالى واقعاً عملياً، لا قيم المهانة والذلة والخسة حين يقبلُ أحدهم أن يبذل عِرْضَهُ وَمَاءَ وَجْهِهِ من أجلِ أنْ يحيا حياة الذل والصغار والتبعية :-

هَذِي الْمَكَارِمُ لاَ قَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْــوَالاَ[1]

الشَّجاعة والأنفة في الحقِّ والجُود هي أدوات الوعود الإلهيَّة، أما الذين يُتقنون تولية الدبر وطأطأة الجبان والتمسح على العتبات النجسة فهؤلاء لا يستحقون الوعود، بل يعيش أحدهم ذليلاً ويمضي إلى قبره ذليلاً حتى لو رأيته على فُرُشِ الحرير وبُسِطَ له البساط الأحمر، فإنَّ الطاغوت يعلمُ أنَّ لهم أثماناً من الدرهم والدينار.

﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

لقد قالوا مقالة الإيمان فاستحقوا زيادة الإيمان، ولقد سلموا أمرهم لله فكافأهم الله بأنْ زادهم قُرْباً منه، لأنه سبحانه وتعالى أجرى لهم هذا القدر «الوعد» حتى تكون لهم فرصة زيادة الإيمان والتسليم، فإنَّ هذا هو شأن الحوادث والرضات للمؤمنين، إذ تشكل له فرحة إيمانية لِيثبت صِدقه مع الله فَيَرْقَى إيمانه وتسليمه لله، فيوم الأحزاب يومٌ من أيام الله، شأنه شأن السحر يغتنمها المرء ليزداد قُربه لربِّه، ويزداد قُربه من الفردوس. وإنَّ هذه الكلمة الرائعة هنا «تَسْلِيماً» لَتقع موقعَ العجب، إذ أنها تكشفُ ضدَّها البعيد العميق في واقع هؤلاء المؤمنين أمام الأحزاب، إنه واقع الرفض والدفع والمُعاندة، وإنه واقع القتال والثبات والمُباعدة، وهم في هذا قد ازداد تسليمهم لربِّهم يفعلُ بهم ما يريد من تقليبٍ لأقدارهم وهم في رضىً عنه سبحانه وتعالى، فلا يعترضون على هذه الأقدار، ولا يسبونها ولا يتساءلون لِمَ؟ بل قبلوها وعاملوها بما تستحق، فكانوا في حالة تسليم لله تعالى، يفعل بهم ما يشاء لأنهم عبيده، والعبد لا هوى له مع أمرِ سيده وتدبيره، ذلك لأنَّ كلمة العبد مأخوذة من قولهم: «عبَّدَ الطريق» أي سهلها للمشي، فهؤلاء قد ذهب ما في قلوبهم من جهلٍ وهوى،

[1] قاله أُميَّة بن الصلت وهو ربيعة بن وهب بن عوف ثقفي من شعراء الجاهلية مبرهن خواص على المعاني، معتن بالحقائق، متعبدٌ في الجاهلية، يلبس المسوح، ويطمع في النُّبوة، ويُؤمن بالبعث، وهو أوَّل من كتبَ باسمك اللهمَّ. وزعم الكلاباذي أنه كان يهودياً ودخل في النَّصرانية، وأكثر في شعره من ذكر التوحيد وأحوال القيامة والزهد والرقائق والحكم والمواعظ والأمثال. قال الزمخشري: كان داهيةً من دواهي ثقيف دُهاة العرب، ومن دهائه ما همَّ به من ادِّعاه النُّبوة، وكان جلابة للعلوم جوالاً في البلاد. أدرك وقعة بدر ورثا من قُتل بها من الكفار ومات أيام حصار الطائف كافراً. وروى ابن مردويه بإسناد قال ابن حجر قوي عن ابن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: **﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾** [الأعراف: ١٧٥]. قال: نزلت في أُميَّة ابن الصلت. وقال غيره في بلعام بن باعر «باعور»، «باعوراء» كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس، الذي أُوتي الاسم الأعظم كان في بني إسرائيل.
وروى مسلم عن عمرو بن الشريد عَنْ أَبِيهِ . قَالَ: رَدِفْتُ رَسُولَ اللهِ يَوْماً. فَقَالَ: «**هَلْ مَعَكَ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْءٌ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**هِيهِ**» فَأَنْشَدْتُهُ بَيْتاً. فَقَالَ: «**هِيهِ**» ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ بَيْتاً. فَقَالَ: «**هِيهِ**» حَتَّى أَنْشَدْتُهُ مِائَةَ بَيْتٍ. «كتاب الشعر» حديث رقم: ٢٢٥٥.

ولذلك تجري عليهم أوامر الله تعالى وأقداره بسهولةٍ ويُسرٍ، بل يأخذون كلَّ هذا بالسمع والطاعة والقبول.

إنَّ هذا العطاء الربَّاني: زيادة الإيمان وزيادة التسليم له يعني أن يُنْجِزَ الله لهم الوعود، ويعني أنهم قد انتصروا، ذلك لأنَّ هذا أغلى ما في الوجود، وهو طلبهم وهمهم، فلن يكدون ويتعبون، ولذلك فقد تمتِ الصفقة، فحين سلموا القيادة له سبحانه وتعالى، وبرؤوا من حولهم وقوتهم، وفرغوا من أي آمال في الأرض، وذهبت عنهم كلّ معوناتها فلم يبقَ إلاَّ الغني الحميد، حينها فقط يكون الدُّعاء حقيقياً، ويكون السؤال صادقاً، وحينها فقط يأتي المدد الإلهي ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾[1].

لقد كانوا مؤمنين ومسلِّمين له سبحانه وتعالى فقالوا تلك الكلمات العالمة الشجاعة الرائعة فحصل لهم زيادة الإيمان والتسليم كما قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾**﴾[2].

إنك حين ترى قوماً قد غيَّروا الطريق إذا جاءتهم المحن، فبدَّلُوا وقالوا شراً فاعلمْ أنَّهم لم يرواْ المحن مِنَحاً، وأنهم جهلة حتى لو كان أحدهم يلبسُ جُبَّةً كالخرجِ أو عمامةً كالبُرْجِ، وأنَّ هذا الضعف الذي أصابهم إنما هو بسبب جهلهم بفقه القرآن، وفقه الحياة، وفقه الجهاد، وفقه المحن، ومَنْ جَهِلَ هذه الأمور فخيرٌ له أنْ لا يتكلم كلمةً واحدةً عن هذا الطريق، فإنَّ هذا الطريق لا يصلح لليائسين، ولا للجبناء، ولا للبخلاء، ولا للزافرين زفرات الانقلاب عند كلِّ موجةٍ تُواجههم وعند كلِّ صِعَابٍ تعترضُ طريقهم، بل هو طريق الفقهاء الذين يُوقِنُونَ أنه كلما طال فقد اقتربَ الفرج، وأنَّه كلما قلَّ الناصر فقد تحققتِ الغربة الممدوحة، وأنه كلما سقط الشُّهداء فقد تم القبول، وأنه إذا جاءتِ المحن واشتدت فقط اقترب النَّصر، هذا هو الفقه القرآني الواجب تعلمه لمن يريد أنْ يبدأ ويعرض نفسه هادياً للمسلمين إلى طريق الخلاص والعزَّة وتحقيق الوعود.

لقد كان العرب عقلاء ـ مشركون ومسلمون ـ وهم يسألون رسول الله ﷺ حين يسألهم الإسلام والحماية والإيواء لأنَّهم يعلمون معنى هذا الدين وحقيقته وما هي بيئته فيقولون: «أرأيتَ إنْ بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟». قالها بنو عامر بن صعصعة فلما أجابهم: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، فقالوا: «أنهدف نحورنا للعرب دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك»[3].

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٩.

[2] سورة محمد، الآية: ١٧.

[3] قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَحَدثني الزُهْرِيّ أَنَّهُ أَتَى بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ فَدَعَاهُمْ إِلَى اللهِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ بَيْحَرَةُ بْنُ فِرَاسٍ: وَاللهِ لَوْ أَنِّي أَخَذْتُ هَذَا الْفَتَى مِنْ قُرَيْشٍ لأَكَلْتُ بِهِ الْعَرَبَ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ بَايَعْنَاكَ عَلَى أَمْرِكَ، ثُمَّ أَظْهَرَكَ اللهُ عَلَى مَنْ خَالَفَكَ، أَيَكُونُ لَنَا الأَمْرُ مِنْ بَعْدِكَ؟ قَالَ: «**الأَمْرُ إِلَى اللهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، قَالَ: أَفَنَهْدِفُ نُحُورَنَا لِلْعَرَبِ دُونَكَ؟ فَإِذَا أَظْهَرَكَ اللهُ كَانَ

وقال أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل: «يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـ يعني العهود ـ فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟». قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «**بَلِ الدّم الدّم، والهَدم الهَدم، أنا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنّي، أُحَارِبُ مَنْ حَارَبْتُمْ، وَأُسَالِمُ مَنْ سَالَمْتُمْ**».[1]

وأما العباس بن عُبادة بن نضلة الأنصاري، أخو بني سالم بن عوف فيقول: يا معشر الخزرج، هل تدرون عَلاَمَ تُبايعون هذا الرجل قالوا: نعم؛ قال: «إنكم تُبايعونه على حرب الأحمر والأسود من النَّاس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبةً، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدُّنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدُّنيا والآخرة»؛ قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك يا رسول الله إنْ نحن وفَّيْنا بذلك؟» قال: «**الجنَّة**». قالوا: «ابسطْ يدك»؛ فبسط يده فبايعوه[2].

هذا هو فقه هذا الدِّين:ـ

- حرب الأسود والأحمر من النَّاس.
- نهكة الأموال.
- قتل الأشراف.

وعلى هذا بايعوه، ولذلك لما رأوا الأحزاب قالوا: ﴿ **هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ** ﴾، لأنهم على هذا الأمر بايعوا، فهم على بَيِّنَةٍ منه، فلا مُفاجآتٍ، ولا نكوصٍ، ولا كلمات منافقين تُقال للمجاهدين: «أنتم سبب خراب بيوتنا وقتل أبنائنا وسجننا»، يقولها مشايخ علمٍ ودينٍ وقادة فكرٍ وتنظيمات، ثم يُقال عن هؤلاء فقهاء ورثوا فقه الكتاب والسنَّة، وسلفيُّون على غرز الأوس والخزرج والمهاجرين، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نقولها لما نرى من كثرة الموت في هؤلاء، ولا يغرنك حفظ أحدهم للكتاب أو سرده للسيرة النَّبويَّة، فإنَّ هؤلاء يقرؤون هذا كلَّه لكنهم يرونه لغيرهم من الصَّحابة ﷺ وليس لهم، أما هم فإنَّ آيات الجنَّة لهم فقط وآيات النَّار للكفار، فتمتِ القِسمة وأُقْفِلَ باب الاجتهاد لأنَّ الإجماع قد انعقد أن يكون المسلمون مواطنين صالحين تحت ظلال الجاهلية.

﴿ **وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾** ﴾.

الأَمْرُ لِغَيْرِنَا، لاَ حَاجَةَ لَنَا بِأَمْرِكَ، فَأَبَوْا عَلَيْهِ. «السيرة النبوية» لابن هشام المعافري. الجزء الثاني، الصفحة ٥٢. تحقيق محمد السيد. طبعة مكتبة الرحاب بالقاهرة. (١٤٢٨/٢٠٠٧م).

[1] من حديث طويل رواه أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٥٧٣٨. إسناده صحيح.

[2] «السيرة النَّبويَّة» لابن هشام المعافري. الجزء الثاني، الصفحة ٦٦-٦٧. تحقيق محمد السيد. طبعة مكتبة الرحاب بالقاهرة. (١٤٢٨/٢٠٠٧م).

إنهم لم يُسلموا رسول الله ﷺ للأحزاب لِتَسْلَمَ لهم زُروعهم وبيوتهم وأنفسهم، ولم يُسلموا المهاجرين لقريش، لأنهم يعلمون أنهم لو فعلوا ذلك لما كانوا مؤمنين، أما الاحتجاج بصلح الحديبية في إسلام رسول الله ﷺ للمهاجرين من قريش إن جاؤوا إليه بغير إذنهم فهذا على غير الوجه الذي يفهمه هؤلاء الذين يريدون السلامة لدنياهم وذلك من وجوه:-

أولها: إنَّ المهاجرين إليه إنما هم مستضعفون في أهلهم، فأهلهم هم مَن يحبسهم عن الهجرة وأهلهم هم من يحميهم من عُدوان غيرهم عليهم، وهذا يعلمه رسول الله ﷺ وقد أشار إلى ذلك الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، فهذا أبو جندل بن سهيل بن عمرة والذي كان أول من طُبق عليه الصلح هل ترى أن يعذِّبه أبوه عذاب المُهلك له، وإنما أقصى ما يفعله فيه أن يحبسه في قيود - وهو فعله حقاً - حتى يمنعه من الهجرة، وأما هؤلاء القوم في زماننا فإنهم يُسلمون المسلمين لأعدائهم ليقتلوهم ويُعذبوهم، لأنهم أعداء مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، فشتان بين الأمرين.

ثانيهما: إنَّ هذه حادثة عَيْنٍ لا يُقاس عليها وهذا ما قاله جماهير من أهل العلم، ذلك لعلم الله تعالى الذي أعلمه لرسول الله ﷺ بأنْ يجعل لهم فرجاً ومخرجاً، وهذا قوله ﷺ لأبي جندل: «**يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرَجاً وَمَخْرَجاً**»[1]، وقد كان كما هو معلوم من قصة أبي بصير رضي الله عنه ولحوقه إلى ساحل البحر وقطعه الطريق على قوافل قريش حتى جاءت بطلب هذا البند من الصلح.

ثالثهما: إنه ليس من مفهوم هذا البند في الصلح أن يسلم المسلم إليهم، بل مفهومه أن يرده عن المدينة ولا يقبله فيها، وهذا يعني حقه أن يذهب في الأرض كيف شاء، وهذا قوله ﷺ كما في صحيح مسلم: «**نَعَمْ، إِنَّهُ مَنْ ذَهَبَ مِنَّا إِلَيْهِمْ فَأَبْعَدَهُ اللهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مِنْهُمْ سَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ فَرَجاً وَمَخْرَجاً**»[2]. ولذلك لما ردَّ الرسول ﷺ أبا جندل «وثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. قال: ويدني قائم السيف منه. قال: يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه؛ فَضَنَّ الرجل بأبيه، ونفذت القضية»[3].

ومن عجائب صُلح الحُديبية أنه لم يقع تحت الضغط على المسلمين، ولم يكونوا في موقف ضعف ليكون هذا الفِعل استجابةَ المُكره، وهذا يدل على أنَّ أمرَ الحُديبية أمرٌ خاصٌ، وهو كذلك ويشهد لذلك سورة «الفتح»، فإنَّ الله سمَّاه فتحاً.

---

[1] أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٨٨١٢. **وإسناده حسن.**

[2] مسلم في «كتاب الجهاد والسيَّر» باب صُلح الحُديبية في الحُديبية. حديث رقم: ١٧٨٤.

[3] أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٨٨١٢. وإسناده حسن.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[1].

هذه صورة الإيمان بالوفاء مع عهد الله بالصَّبر والثبات عند اللقاء، وهي صورةٌ تُقابلُ موقفَ المنافقين الذين قال الله فيهم من قبل: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ ﴿١٥﴾ ﴾، فإنَّ هؤلاء المؤمنين لما قالوا ما قالوا من كلمات الإيمان والاستبشار بقدوم الأحزاب فإنهم صدقوا عهدهم مع الله فلم يتنهنهوا ولم يضعفوا ولم يهربوا في الأرض طلباً للأمن والسلامة بل ثبتوا حتى كان منهم ما كان، فمنهم من قُتِلَ في سبيل الله ومضى إلى رضوانه ومنهم من ينتظر الشَّهادة أو اليقين دون أنْ يُغَيِّرُوا ويبدلوا ما عاهدوا الله عليه.

إنَّ مِنْ هؤلاء من فاتته موقعة سابقة فآلى على نفسه إنْ حضر غيرها أن يَبلي البلاء الحسن وكان منهم من قُتل في أُحد كأنس بن النضر رضي الله عنه[2]، وعلى سنن هذا يجري تاريخ الإيمان في كلِّ وقتٍ إذْ يُعَاهِدِ المؤمنون ربَّهم وينذروا النذر فينقسمون قسمين، قسمٌ يوفي بنذره فيفضي إلى ربِّه، وقسمٌ ينتظر أن يفِي بنذره وعهده ليلحقَ بسابقه، ويُقيم على ما بايع عليه حتى يقضيه.

هذه قسمةُ المؤمنين مع هذا الدِّين؛ قاضٍ للنذر والعهد ذاهبٌ لربِّه، ومقيمٍ على العهد حتى يؤديه فيلحق بربِّه، لا يبدلون عهدهم، ولا يقيلون أنفسهم من نذورهم وعهودهم وبيعاتهم، فلا طول الطريق يُوهنهم، ولا صعوبة ما فيه من غمرات تُعيقهم، بل هم يرقبون عين الله تعالى لأنهم أهل الإحسان.

لكن هؤلاء الذين ينتظرون لهم صفة قيمة وهي ـ **وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا** ـ وهذا حالٌ وليس فِعَالٌ، وقد وصف الله هذا الحال بقوله تعالى في سورة «براءة»: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾[3]. فإنَّ الزاعمين أنهم ينتظرون لابدَّ لهم من إعطاء موقف الصدق على هذا الزعم والإدعاء وإلا كانوا كاذبين فحين تأتي الواقعة يصدق فيهم بقية الآية: ﴿ وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

إنَّ هذه القِسمة الربَّانيَّة لأهل الإيمان لا تصدق واقعاً إلاَّ على المجاهدين في كلِّ زمانٍ، فهم أهلها والأحقّ بها دون غيرهم، وهي تؤكد حقيقة المجتمع الذي بناه الإسلام وأرسى قواعده رسول الله ﷺ، فهو مجتمعُ البيعة والعهد كما ظهر في بيعة العقبة الثانية، لأنَّ هذا العهد هو السيرة التي ستجري فيه، ولذلك فالحالمون أنَّ مجتمع القرآن، ومجتمع الإسلام يمكن أنْ يُبْنَى على غير هذا العهد، وأنْ يستقر أمره على غير هذه السيرة هم واهمون، ولذلك فلا عجبَ أن يُجمعَ الفقهاء ـ فقهاء الإسلام

[1] سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٣ـ٢٤.

[2] مرَّ حديثه رضي الله عنه. انظره بهامش الصفحة: ٢٨١.

[3] سورة التوبة، الآية: ٤٢.

لا فقهاء الأُمم المتحدة، وفقهاء دولة الإسلام لا دولة الجاهلية، وفقهاء الكتاب والسنَّة لا فقهاء القانون المدني الشركي ـ أقول: **لا عجبَ أن يجمع الفقهاء على وجوب الجهاد في كلِّ عام على إمام المسلمين، ولو ترك الإمام الجهاد لوجبَ عزله، هذا يُقال في جهاد الطلب لا جهاد الدفع عنهم،** لكن فقهاء الأُمم المتحدة ودولة الجاهلية وقانون الفقه المدني الشركي لا يرون للمسلم أن يخرج من حدود بلده الذي أقرته الأُمم المتحدة ليُجاهد بلداً مسلماً غزاه الكفر الأصلي مخافةً منهم أن يُفقَهَ دين الله ويكتشفَ الجهل الذي يحيَّاه فقهاء بلده، وهؤلاء فقهاء الأُمم المتحدة وقانون الفقه المدني الشركي لا يرون جهاد المرتدين لأنَّ هذا يُسمى في فقههم بالحرب الأهلية، وفِعله تهديدٌ للسلم الأمني، ولذلك فدم المواطن محرمٌ على دم المواطن، وقول عمر بن الخطاب ﷺ لأبي جُندل عن دماء المشركين: «إنما دم أحدهم دم كلب» هو فقه المخربين والإرهابيين والطائفة الضالة والمفسدين في الأرض.

إنَّ مشكلة هؤلاء الفقهاء مشكلة جهلٍ بالكتاب الكريم، وجهلٍ بسيرة رسول الله ﷺ، وجهلٍ بحقيقة هذا الدِّين، وجهلٍ بالواقع وسنن النَّفس والإنسان، بل لقد مُسخت قيم العرب فيهم فلم تَعُدْ تعرف من أين تبدأ بهم، وكيف تسير معهم في الحوار، لأنَّ الأمر ليس من العقل في شيءٍ ولكنه خراب النُّفوس بالجبن والشح، وحين وقوع هذين المرضين في أحدٍ إلى درجة التشبع لا تنفع معه كلّ حقائق الوجود، فقد جاءهم الخوف فصاروا كالمغشي عليه من الموت لا يسمع ولا يفقه ولا يهتدي.

لقد ابتلي بعضهم ابتلاءً ازداد فيه بصيرة بعدوِّه، إذ كان يظنُّ أنَّ حُكامه مخطئون، فرأى كُفرهم ورِدتهم ومقدار عدائهم لدين الله واستهزائهم به، فبدل أنْ يُورثه هذا العلم قوةً في الحقِّ، وتقدماً في خطوات المُواجهة بما يُوجِبُ الشرع ذهب يقول الباطل، وما زاد إلاَّ أنْ بكى ألم ما صنع فيه هؤلاء الطواغيت من تعذيبٍ بدنيٍّ وإهانةٍ لدينه، فهل نفعتهم الآيات؟! وهل قوَّمت نفوسهم البصائر؟! لم يقع شيء من هذا لأنَّ المشكلة مشكلة نفسيَّة تتعلَّق بثمن هذا الطريق وواجباته.

﴿ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾.

إذا كانت هذه قِسمة المؤمنين الصادقين، شهيدٌ ومنتظرٌ في الغَرز والإعداد والانتظار، فأي جزاءٍ ينتظرونه إذاً في هذه الدُّنيا؟ إنه جزاء الشَّهادة على الخَلق، وتعذيب الكافرين والدفع عن المؤمنين المستضعفين الذين يقولون في بلادٍ تركَ أهلها موقفَ الإيمان والصدق والجهاد ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ﴾[1]، فهم من هَيْعَةٍ إلى هَيْعَةٍ، يُؤدبون الطواغيت الذين يتجبرون في الأرض، فَيُمَرِّغُونَ كِبْرِيَاءَهُمْ في التراب لِيعلمَ أهلُ الإسلامِ خاصةً وأهلُ الأرضِ عامةً أنَّ فرعونَ كلِّ زمانٍ إلى زوالٍ، وأنَّ الفئةَ المُؤمنة القليلة تغلبُ الفئة الكثيرة الكافرة بالإيمان، وأنَّ المسلمين وحدهم مَنْ يملك الثقة بالله ووُعوده بأنَّ الشرك سبب خراب

[1] سورة النساء، الآية: ٧٥.

العالم، وأنَّ معصية الله هي سبب دمار العالم، فهم شهداء الله على الخَلق، وهم جُنْدُ الله الذين يُوقِعون إرادتهم في الخَلق، فهم العلماء الذين يُوقعون إرادته العلميَّة وهمُ المجاهدين الذين يُوقِعون إرادته الكونيَّة والشرعيَّة.

هذا هو جزاء الصَّادقين في الدُّنيا، وهو مقام الأنبياء، ذلك لأنهم بحقٍّ وُرَّاثُ الأنبياءِ وأتباعهم.

وجزاؤهم في الدُّنيا أنْ ينصرهم على عدوِّهم، غير أنَّ بدراً تتجدد فيهم ومعهم، فيكونون أعزة مع ضعفهم وقِلَّتِهم، ويرون دين الله يسري في النُّفوس بسببهم، فهم أئمة الهُدى ومصابيح الدجى.

وجزاؤهم في الدُّنيا أن تغمرَ قلوبهم حلاوة الإيمان وأنواره فيحسون لذة تهون أمامهم كل لذائد الأرض، فيحسدهم عليها الملوك وأبناء الملوك، ويقولون كما قال أسلافهم: «إنَّ قلوبنا تغشاها حلاوة لو كانت هي لذة أهل الجنَّة لَكانت كافية».

نعم هي جزاء لا يعرف قيمتها سفلة البشر ولا البهائم في أثواب الشرِّ، إنما يعرفها أصحاب المعاني وذائقُو لذتها.

أما جزاؤهم في الآخرة، فَهُنَاكَ حَيْثُ لا عَيْنٌ رأتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ، وَيُنَادِيهِمْ رَبّهُمْ: اليوم أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً.

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

هنا يفتح الله باب التوبة للمنافقين، فإنه يخوفهم إنْ بَقَوْا على ما هم عليه من الجبن عند اللقاء والشح في العطاء والريب في الوعود بأنْ يُعذبهم، وأما إنْ تابوا عن ذلك وأعرضوا عنه وصاروا مؤمنين بوعد الله، عاملين به، يقفون موقفَ الثبات عند اللقاء والمحن، ويعطون عطاء المؤمنين بلا شح ولا بخل فإنَّ الله يتوب عليهم، وهو أهلٌ لذلك، فإنَّ الله سبحانه تعالى أزلاً وأبداً غفورٌ رحيمٌ.

لقد جرت كلّ هذه المعاني والحوادث من أجل الجزاء، فيجزي الله الصَّادقين بصدقهم، منهم صدق الموقف، وصدق العهد والميثاق، ومنه سبحانه وتعالى صدق الوعد: ﴿ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾، والوفاء به.

إنَّ الجزاء هو مقصد الخَلق كلّه، هناك حيث الآخرة فالله يقول في «سبأ»: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾[1].

[1] سورة سبأ، الآيات: ٣-٥.

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾[1].

من غير ذِكْرِ الجزاءِ وذِكْرَى الاحتساب فإنما الأمر باطلٌ في باطلٍ، وحين يكون الاحتساب والجزاء يقول ﷺ: «**لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[2].

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾[3].

كان بداية خبر الأحزاب قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[4]، ومضى ذكر ما بعد مطلع هذا الخبر ذكر المنافقين والمؤمنين، ثم جاءت خواتم الخبر وتفصيل العاقبة ابتداءً من هذه الآية الكريمة، فالخبر كلُّه محاطٌ بهذه الحقيقة التي وردت في المطلع ووردت ههنا، ليكون ما بينهما وصف الداخل، ويكون الوعد الإلهي والمنح الإلهيَّة هي المبدأ وهي الخاتمة.

لقد جاءت جنود الكفر فردهم الله بالريح والجنود الغيبيَّة من الملائكة وما معهم من الرُّعب والتخذيل والأوامر، إذ أنَّ هذا الأسلوب القرآني الذي يفتح الأقواس ليفسر العارض ويشرحه ويُبيِّن ما فيه ثم يعود بعد ذلك إلى السياق الأول ليبقى التواصل وحضور قلب القارئ والسامع لكتاب الله تعالى.

لقد ردَّ الله الكافرين بالريح والجنود، فَغُلِبَتْ إرادتهم وقُهروا قَهْرَ المغلوب الذي يرى مُراده بين يديه ثمَّ يحال بينه وبين التقاطه، وإنَّ وقوع هذا الردِّ للأحزاب هو نصرٌ ربَّانيٌّ عظيمٌ يُلاءم الحال، إذ فيه إبطالٌ لِمراد المُشركين من هذه الغزوة، وحفظ بقاء جماعة المؤمنين وقائدهم ومدينتهم.

لقد انتصروا هم حين ثبتوا وصبروا، وحين زاد إيمانهم بالله وتسليمهم له، وحين التفوا حول رسول الله ﷺ فتأسوا بمواقفه وشجاعته ويقينه وعطائه، ولقد نصرهم الله بهذا النَّصر الذي تحقق على أيديهم بأنْ صرف عنهمُ الأعداء.

لقد وعدهم رسول الله ﷺ وهم يحفرون الخندق بفتح فارس والروم فهل فُتِحَتْ فارس والروم بغزوة الأحزاب؟ الجواب: نعم، لأنه هذه سنَّة تحقيق الوعود، ذلك بأنَّ كلَّ خطوةٍ يحصل فيها النَّصر هي اقترابٌ نحو الوعد، وبذلك يتحقق الوعد، وقطعاً سيسأل المنافقون بعد ذلك: «أين نحن من فارس والروم؟» كما سألوا ذلك من قبلُ.

---

[1] سورة المؤمنون، الآيتان: ١١٥-١١٦.

[2] مسلم عن أبي هريرة ﷺ في «كتاب الذكر و الدعاء والتوبة والاستغفار» باب فضل التهليل والتسبيح. حديث رقم: ٢٦٩٤.

[3] سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

[4] سورة الأحزاب، الآية: ٩.

لقد جاء الأعداء لمدن مسلمة لِيقضُوا على المجاهدين، وكانت هذه المدن عامل ضعفٍ واستنزافٍ لتمكين يكلف أكثر مما يجني من فوائد في تحقيق الوعد الربَّاني بالوراثة، فزالت المدن، وبقي المجاهدون وحصلت الامتحانات والابتلاءات على وجه ما جرى في أُحد، وبعضها على وجه ما جرى في بدر، وبعضها على وجه ما جرى في الأحزاب وبعضها على ما جرى من الهجرة بنجاة الرسول ﷺ وصحبه، ولكنها في مجملها لمن تمعن خطوة نحو هلكة الأعداء إذ ضرب فيهم الوهن، وخطوة لانتشار المجاهدين إذ فتح الله لهم من أبواب الخير ما لم يكونوا يحتسبوه من قبل، فلم يرَ المرضى والمنافقون هذا شيئاً، ولم يعلموا أنَّ في الأمر مصلحة للإسلام وأهله.

قد تسقط المدن بحصار، وقد يكون وُجودها في ظرفٍ من الظروف عاملَ إرهاقٍ وتكلفةٍ للوعد الإلهي، وقد حصل أنْ فتح المسلمون حِمْص ثمَّ لسببٍ عسكريٍّ بحتٍ تركوها بإرادتهم ليعودوا لها مرةً أُخرى، وقد تسقط المدن لذنبٍ في المسلمين فيكون سقوطها كالحمى التي أصابتِ المسلمين في أُحد ليخرجوا منها أقوى وأصلب، فقد سقطت مدن المسلمين أمام الحروب الصليبية فكان هذا سبباً في إقامة سُوق الجهاد على وجهٍ أعظمٍ مما كان قبلها، فعلى هذا يجب على المسلمين أنَّ كلَّ ما يقع لهم خيرٌ لهم إنْ فهموا وجهه وعالجوا سببه واستفادوا منه، حتى قُروح أُحد هي خيرٌ للمسلمين كما تبيَّن.

أقول هذا حتى لا يظنَّ ظانٌ أنَّ ردَّ الله الكافرين والأحزاب عن المدينة هو الخطوة الوحيدة نحو الوراثة الربَّانيَّة وتحقيق الوعود، ومَن تصور هذا فهو لا يعرفُ التاريخ ولا سيرة الأنبياء.

في هذه الغزوة ردَّ الله الذين كفروا على أعقابهم وقد امتلأت قلوبهم غيظاً لما فاتهم من تحقيق مقاصدهم، فلا نصرَ ولا غلبةَ ولا غنيمةَ ولا تدميرٍ للمدينة النَّبويَّة، فـ﴿ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ﴾ فرحلوا وليس معهم إلاَّ الغيظ وكفى بهذا عذاباً لهم.

﴿ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ﴾.

إذا كان يمكن أن يكون قتال ولكن الله تعالى كفاهم إيَّاه، وبقيتِ الغزوة في صورتها قتال إرادات وعزائم.

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

هكذا يتردد اسم الله ثلاث مرات في هذه الآية: «وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...»، «وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ»، «وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا»، إذ أنه سبحانه وتعالى هو الذي حُورِبَ في هذه المعركة، ومَنْ يُغَالِبِ الله يُغْلَبْ، فالله قويٌّ، وما مِن قوةٍ في الأرض إلاَّ خاضعة له، وقد استكبر الطغاة دوماً وقالوا: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾[1]. فيرد الله عليهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾[1]، وهذا شأنهم دوماً

[1] سورة فصلت، الآية: ١٥.

حين ينسون أنفسهم ويصرخون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[2]. لأنهم يملكون بعض ما يُعطيهم الله تعالى تزييناً لهم.

لقد مات سليمان عليه السلام الذي سخر له الجن والريح، ومات واقفاً لم يعلم به جنوده من الجن، وذهب الصالحون وغيرهم ولم يبقَ إلاَّ وجه الله تعالى الذي لا يموت.

فالله سبحانه وتعالى قويٌّ، وقُوته مُطلقةٌ، وهو سبحانه وتعالى عزيزٌ، وحِكْمَة هذه الفاصلة القرآنية في هذا الموطن أنها في معرض فِعْلِهِ في أعدائه سبحانه وتعالى، لأنَّ العزَّة مِنْ معنين: الفرادة والندرة فتقول: الذهب عزيزٌ، لنَدرته وفَرادته، ومَن غلبَ وملكَ. فنقول: عزيز مصر أي سيِّدها وغالبها وملكها، والله سبحانه وتعالى اسمه العزيز جامعٌ لكلِّ معنى حسن من ذلك، لأنَّ أسماءه حُسنى جلَّ في عُلاه، ولذلك فقد جرى حُكْمُهُ في هؤلاء القوم، وكان ما جرى فيهم لعزته فهو الغالب، ولعزته لأنه لا يُشْرِكُهُ في حُكْمِهِ أَحَدٌ، وقد وقع هذا لقوته سبحانه يجريها هنا عذاباً لأعدائه، أما اجتماع العزَّة مع الحكمة، وهي الأكثر في القرآن، لأنَّ العزيز المالك المُتغلب قد تجري أحكامه على وجهٍ غير حكيم، فكان تقيِّيد عزَّة الله بحكمته هو تمام الحسن، وهي صفة لأسماء الله وصفاته ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[3]، وقد ورد في آيات في المغفرة ختم بالعزَّة والتمكين كقوله تعالى في سورة «المائدة» على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[4]، وكذلك في «التوبة» قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾[5]، وهذا كلّه خلافُ ما يجري به القرآن في مثل هذه المواطن من ختمها بغفورٍ رحيمٍ، وتوجيه ذلك:-

في سورة «المائدة» كان الحديث عن قوم كذبوا على عيسى عليه السلام وقالوا فيه البُهتان والغُلو، وسأل الله عيسى بقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[6]. فرد عيسى عليه السلام ردَّهُ الصَّادق، وهو ردُّ العبد المُخبت العابد الخائف الأمين، ثم جاء قوله بهذه الآية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ ...﴾ ذلك بأنَّ مغفرة الربِّ لمن استحق العذاب ليست عن ضُعْفٍ، إذ أنَّ هذا هو شأن الكثير ممن يغفر لمن يستحق العذاب، فيعفو عنه ضعفاً عن عقوبته فكان هذا التوهم مدفوعاً ههنا بقول عيسى عليه السلام في حقِّ هؤلاء: -إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ - أي مع استحقاقهم -فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ - أي الذي لا يغلبك أحدٌ -ٱلْحَكِيمُ - في هذه المغفرة حتى لو جهل معناها خَلقك..

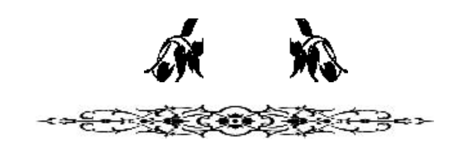
---

1 سورة فصلت، الآية: ١٥.
2 سورة القصص، الآية: ٣٨.
3 سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
4 سورة المائدة، الآية: ١١٨.
5 سورة التوبة، الآية: ٧١.
6 سورة المائدة، الآية: ١١٦.

أما في «الممتحنة» ، فإنَّ هذا قول المؤمنين من إبراهيم عليه السلام ومن معه ، إذ قالوا لربِّهم جلَّ في عُلاه : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾[1] . إذ أنَّ أصل حديثهم هو سؤالهم لله أن يصرف عُلُو وعذابَ هؤلاء الكفرة من أقوامهم عنهم ، وهذا معنى قولهم : ﴿ لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وهو الذي استحقَّ هذه الفاصلة بقولهم : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ ، لا سؤالهم المغفرة ، وأما سؤال المغفرة ههنا فهي اتهامٌ لأنفسهم أنْ لو وقعتْ عليهم الفتنة بالعذاب من قومهم فإنَّ هذا بذنوبهم ، فسألوا المغفرة لرفع البلاء والفتنة عنهم لا من العقوبة بسببها ، فالسياق كلّه لهذا الباب وهو باب دفع بلاء الكافرين عنهم ، وهذا الباب حقُّه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾. إذ أنَّ عِزتك وحكمتك هي دواعي صرف غلبة وعذاب هؤلاء عنا.

أما في سورة «التوبة» : فإنَّ الآية لا تتحدث عن الذنوب فيقع ما يُناسبها من المغفرة والرحمة ، إنما قال سبحانه وتعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾. وذلك بعد أن قال فيهم : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾. فلا ذكر لذنبٍ هنا لِيُغفر إنما ذكِرٌ لوعدِ الرحمة ، وهي أوسع في دلالتها على الوعد لمن يأتي بهذه الأعمال ، إذِ الرحمة تشمل النَّصر والاطمئنان والعزة وغير ذلك ، ولذلك فهذه الرحمة بعمومها تستحق أن تكون من عزيزٍ غالبٍ حكيمٍ يضعُ الشيءَ في محله ، لأنَّ ذِكر المغفرة والرحمة مُوهِمٌ بالأصل بحصول الذنب ولا ذِكْرَ له في الآية.

هذا ما وجدتُه وتأملتُه فعسى أنْ أكون مُصِيباً غير قائلٍ على الله تعالى بغير عِلْمٍ.



[1] سورة الممتحنة ، الآية : ٥.

إضاءة

سأل رجلٌ ابن عباس ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾[1]. فقال ابن عباس ﷺ: إنَّ الله كان ولم يزلْ كذلك، ومعنى كلامه أنَّ وُجود وَصْفِهِ في الماضي لا يقتضي انتهاءه، بل هو كما كان بلا بدايةٍ فهو لم يزلْ كذلك، لأنه الأول والآخر.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

غاب اليهود عن المشهد كلِّه حتى حضروا في هذه الخاتمة المُذلة المهينة لهم، حيث تلقي هذه الآية صفةَ قومٍ يُقيمون في «صياصيهم»، أي حصونهم، و«صياصي» جمع صِيصَية، وهي طرفُ الجبل، وتُقال لأصل الشيء، وتُقال للشوكة، وهم متعلِّقون فيها فأنزلهم الله إلى يد الصَّحابة ﷺ يفعلون بهم ما يستحقون قتلاً وأَسْراً.

وحرف «الصاد» عند أهل العلم حرف خُصومة، وهو كذلك هنا إذ يُشير إلى خصومتهم في هذه الأماكن لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، فأماكنهم هذه حصون شوكة وقوة، ولكنها ملاذ خصومة، وعداء، فكانوا للأحزاب ظهراً يُؤيِّدهُم ويُعِينُهُم.

لقد نزلوا إلى أيدي الصَّحابة برعب أدخله الله في قلوبهم، وإنَّ المرءَ لَيَعْجَبْ من جبن هؤلاء القوم، إذ أنهم نزلوا بإرادتهم إلى القتل، فقد وصلهم بعض إشارة إلى أنَّ القتل مصيرهم كما في قصة أبي لُبابة ﷺ، فإنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يُرسله لهم وهو أَوْسِيٌّ وهم من حلفائه فأرسله رسول الله ﷺ، فلما رأوه قام إليه الرجال، وهشَّ إليه النِّساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، فقالوا له: «يا أبا لُبابة، أترى أن نَنْزِلَ لِحُكم محمد؟». قال: «نعم وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح». وبقية قصته معروفة ﷺ في ربطه لنفسه في المسجد وتوبته[3].

---

[1] وردت الآية في عدة سور: سورة النساء، الآيات: ١٧، ٣٩، ٨٥، ٩٢، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٨، ١١١، ١٢٦، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٥، ١٧٠. الكهف، الآية: ٤٥. الفرقان، الآية: ٧٠. الأحزاب، الآيات: ٩، ٢٥، ٢٧، ٤٠، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٩، ٧٣. الفتح، الآيات: ٤، ٧، ١٤، ١٩، ٢١، ٢٤، ٢٦.

[2] سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٦-٢٧.

[3] روى ابن وهب عن مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا لُبابة ارتبطَ بسلسلة ربوض، والربوض الضخمة الثقيلة اللازقة بصاحبها بضع عشرة ليلة، حتى ذهب سمعه فما كاد يسمع، وكاد أن يذهب بصره وكانت ابنته تحله إذا حضرت الصلاة أو أراد أن يذهب لحاجة وإذا فرغ أعادته إلى الرباط. قال ابن عبد البر: اختلف في الحال التي أوجبت فِعل أبي لُبابة هذا بنفسه. وأحسن ما قيل في ذلك ما رواه معمر عن الزُهري قال: كان أبولُبابة ممن تخلف عن النَّبيِّ ﷺ في غزوة تبوك، فربطَ نفسه بسارية وقال: والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى يتوب الله علي أو أموت. فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خرَّ مغشياً عليه ثم تاب الله عليه. فقيل له: قد تاب الله عليك، يا أبا لُبابة! فقال: والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني، قال فجاء رسول الله ﷺ فحله بيده، ثم قال أبولُبابة: يا رسول الله! إنَّ من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبتُ فيها الذنب وأن انخلع من مالي كلَّه صدقةً إلى الله وإلى رسوله، قال

أقولُ: كان اليهود يعلمون ما هو مصيرهم ومع ذلك ساروا إلى الذبح مختارين، ولكنه العجب حين يقرأ المرء أنَّ هذه سيرة مَنْ أعرضَ عن أمرِ الله فحقَّ عليه العذاب في الدُّنيا، فإنَّ أشدَّ من هذا حدث للمسلمين عندما غزاهم التتار، فقد ذكر ابن الأثير أخباراً تكاد تكون من الخيال في مقدار الجبن الذي أصاب المسلمين، وعلى المرءِ أنْ لا يذهب بعيداً فإنَّ في واقعنا ما يشهد لهذا العذاب الإلهي؛ وهو حصول الوهن في القلوب، فإنَّ الجبان حين لا يقوى على المُواجهة والردِّ والصدِّ والقتال يذهبُ يؤمل في عدوِّه أن يعفو عنه لآخر لحظة، فيعيش على أمل البقاء، وجُبنه يصور له أنه إنْ قاتل فإنه مقتولٌ لا محالة، ولو أيقن بعقيدة الغدِّ لما كان كذلك.

لقد أنزلهم الله سبحانه وتعالى بعد حصار رسول الله ﷺ لتقعَ المُفارقة بين صورتين حدثتا في نفس الوقت، إذ أنَّ المدينة ليست حُصُوناً، ولم يكن حولها إلاَّ الخندق، وحاصرها المُشركون شهراً أو يزيد، فلم يهن أهلها ولم يتنازلوا، بل بقوا صابرين حتى جاء النَّصر وانكسرت إرادة المُشركين، وسلط الله الرياح والملائكة عليهم، وها هو رسول الله ﷺ يحاصر بني قُريظة خمساً وعشرين ليلة فما يلبث اليهود إلاَّ أنْ استسلموا، فوقع فيهم ما وقع مِنْ حُكْمِ الله مِنْ فوق سبع سموات على لسان سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه وأرضاه.

إنَّ الاستسلام في هذه المواقف رجاء النَّجاة مهلكة سببها حبّ الحياة، والنَّجاة فيها بعيدُ المنال، فقد استسلمت بغداد للتتار، فدخلوها بعد الحصار القليل، إذ أشار بعض الزنادقة على الخليفة أنْ أهل العلم - أُعرضُ عن ذِكرهم وهم مشهورون لسُوء هذه الإشارة وقبحها - طمعاً في الأمان فقُتل جميع مَنْ فيها من الرجال، هذا مع الفارق بين إشارة هذين العالمين وبين ما فعله ابن تيمية رحمه الله لما جاء قازان[1] من قبل وقُوتل فاستعصت عليه القلعة فردَّ خائباً.

يجزئك يا أبا لُبابة الثلث. قال ابن عبد البر: وقد قيل إن الذنب الذي أتاه أبو لُبابة كان إشارته إلى حُلفاءه من بني قُريظة إنَّ الذبح إنْ نزلتم على حُكم سعد بن معاذ وأشار إلى حلقه فنزلت: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ [الأنفال: ٢٧] انتهى. «مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لأبي الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري (المتوفى: ١٤١٤هـ). نشر: إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند. الطبعة الثالثة عام ١٤٠٤ هـ، ١٩٨٤م.

[1] غازان محمود بن أرغون بن ابغا بن هلاكو بن تولى بن جنكز خان السلطان معز الدين واسمه محمود، ويقول له العامة قازان بالقاف عوض الغين المعجمة. كان جلوسه على تخت الملك سنة ٦٩٣، وحَسَّنَ له نائبه نوروز الإسلام فأسلم في سنة ٦٩٤، ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤوس النَّاس، وفشا بذلك الإسلام في التتار، وكان في مملكته خراسان بأسرها والعراقان وفارس والروم وآذربيجان والجزيرة، وكان إسلامه على يد الشيخ صدر الدين إبراهيم بن سعد الله بن حمويه الجويني، وعمره يومئذ بضع وعشرون سنة، وكان يوم إسلامه يوماً عظيماً. دخل الحمام فاغتسل، وجمع مجلساً، وشهد شهادة الحق في الملأ العام. فكان لمن حضر ضجة عظيمة، وذلك في شعبان سنة ٩٤، ولقنه نوروز شيئاً من القرآن، وعلمه الصلاة، وصام رمضان كل سنة، وكان غازان يتكلم بالفارسية مع خواصه ويفهم أكثر ما يُقال له باللسان العربي، ولما ملك أخذ نفسه بطريق جده الأعلى جنكز خان، وصرف همته إلى إقامة العساكر وسد الثغور وعمارة البلاد والكف عن سفك الدماء، ولما أسلم قيل له إن دين الإسلام يحرم نكاح نساء الآباء، وكان قد استضاف نساء أبيه إلى نسائه، وكان أحبهن إليه بلغان خاتون، وهي أكبر نساء أبيه. فهم أن يرتد عن الإسلام. فقال له بعض خواصه: إنَّ أباك كافراً، ولم تكن بلغان معه في عقد نكاح صحيح، إنما كان مسافحاً بها، فاعقد أنت عليها فإنها تحل لك، ففعل ولولا ذلك لارتد عن الإسلام، واستحسن ذلك من الذي أفتاه به لهذه

ولما سلَّم افتخار الدولة البرج بعد سقوط القدس رجاء نجاته استُبِيحَتِ القدس من قَبيل صنجيل[1] قائد الصليبيين، حتى قُتل فيها زهاء سبعون ألفاً.

﴿ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾.

إنَّ الذي فعله اليهود في هذه الغزوة أخسّ ما يفعله البشر في حياتهم، فهم الذين عاهدوا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد دون إيذان، وفي وقتٍ كان النقض فيه يعني فناء المسلمين جميعاً، وهذا مقصدهم، وكان هذا الأمر شديداً على المسلمين، وخاصة على حلفائهم من الأوس، ولذلك فسعد بن معاذ رضي الله عنه لما حكم فيهم ما حكم من الحقِّ كان حُكمه حُكْمَ الرجل الصادق الذي تؤذيه خيانة الجبناء، إذ أنَّ الكريم إذا عاهد وفى ولو أدى هذا لهلاكه، فهو يرى أنَّ الموت يهون أمام عهد عقده، وهو كان لِشرف نفسه وكرمها أنَّ حلفاءه بهذا المقام النَّفسي الرفيع، ولذلك لما نقض هؤلاء الحلفاء ـ والحِلف كان في الجاهلية ـ ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ تألم سعد أشدَّ الألم، وأدرك خسة هؤلاء القوم، ولذلك قال ما قال من الحُكم، فسِيقُوا قتلاً إلى الخندق، واستبقى الأطفال والنِّساء وغُنمت الأموال، وكان عدد ما قُتل بين الستمائة إلى السبعمائة، كلُّهم يذهبون أرسالاً ولا يعودون، وآلت الأرض والمال إلى أصحابها الذين هم أهلها وهم المسلمون.

إنَّ هذا هو المشهد الذي يعيشه كلّ مَن ترك أمرَ الله وأعرضَ عن الجهاد، وهو المشهد الذي عاشه المسلمون في الحروب الصليبية، وهو كذلك المشهد الذي عاشه المسلمون أمام اليهود في زماننا، وهو المشهد الذي يعيشه المسلمون في سوريا الشام أمام النُّصيْريِّين، وسيتكرر ما دام في الأرض التدافع، يُورث الله الأرض لقومٍ أخذوا بأسباب العزَّة، ويسلبها مِن قومٍ رضُوا بالزَّرع واتبعوا أذناب البقر

المصلحة، وكان هلاكو ومن بعده يعدون أنفسهم نواباً لملك السراي، فلما استقرت قدم غازان تسمى بالقان وقطع ما كان يحمل إليهم وأفرد نفسه بالذكر والخطبة وضرب السكة باسمه، وطرد نائبهم من بلاد الروم، وقال أنا أخذت البلاد بسيفي لا بغيري، وكان غازان إذا غضب خرج إلى الفضاء، وقال: الغضب إذا خزنته زاد، فإن كان جائعاً أكل أو بعيد العهد بالجماع جامع. ويقول: آفة العقل الغضب، ولا يصلح للملك أن يتعاطى ما يضر عقله. وأول ما وقع له القتال مع نوروز بن أرغون الذي كان حسن له الإسلام فإنَّ نوروز خرج عليه فحاربه، ثم لجأ نوروز إلى قلعة خراسان فأخذ منها وقتل، ثم عاد غازان إلى الأكراد الذين أعانوا نوروز فأوقع بهم، فقتل في المعركة خمسون ألف نفس وبيعت البقرة السمينة في هذه الوقعة بخمسة دراهم والرأس من الغنم بدرهم والصبي الحسن الصورة المراهق والبالغ باثني عشر درهماً، ثم طرق البلاد الشامية في سنة ٦٩٩ فكانت الوقعة عظيمة بوادي الخزندار والظفر لغازان، ودخل دمشق وخطب له على المنبر، واستمرت من ربيع الآخر إلى رجب، وحصل في تلك الوقعة لأهل الشام من سبي الحرم والذرية وتعذيب الخلق بسبب المال ما لا يوصف، وهلك خلائق من العذاب والجوع، ثم رجع، ثم عاد مرة أخرى سنة سبعمائة فأوقع ببلاد حلب أشهراً، ثم جهز قطلوشاه بالعساكر ليغزيهم على حلب وأمره أن لا يجاوز حمص فلما حضر وجد العساكر قد تقهقرت فخر البلاد إلى أن وصل إلى دمشق واستمر طالبه مصر فكانت الكسرة العظيمة عليه في وقعة شقحب وذلك في سنة ٧٠٢، وحمل غازان على نفسه بسبب ذلك فلم يلبث أن مات. وكان غازان أشقر ربعة خفيف العارضين غليظ الرقبة كبير الوجه وكان يعف عن الدماء لا عن المال وكانت وفاته في ١٢ شعبان سنة ٧٠٣ بقزوين. قال الذهبي كان شاباً عاقلاً شجاعاً مهيباً مليح الشكل. مات ولم يتكهل، واشتهر أنه سم في منديل ملطخ تمسح به بعد الجماع فتعلل وهلك، وكانوا أشاعوا موته مرارا ولا يصح ثم تحقق. «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة» للعسقلاني. الجزء الثالث، الصفحة ١٢٧. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٧م). انظر ترجمته في: «فوات الوفيات» للدمشقي. الجزء الثاني، الصفحة ٤٨٢. و«عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» للعيني.

[1] كان أحد ملوك الروم، تملك طرابلس من ابن عماد سنة ٤٩٥. وفي عام ٤٩٩ مرض صنجيل ومات، وحُمِل فدُفن بالقدس، وأَقامت الفرنج غيره.

وتبايعوا بالعِينة، فهذه أسباب الذلة، تُصِيبُ المسلمين كما تُصِيبُ غيرهم لأنَّ سنن الله تعالى لا تحابي أحداً.

كان أهل الإسلام يأخذون الغنائم فصارت بلادهم وأرضهم وأموالهم غنيمة للكافرين، وكانوا يجبون الجزية من أعدائهم فصاروا هم مَن يدفعها لهم، لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يقبل الدعاوى من أحدٍ، فالمسلمون الذين يُتابعون دعوى اليهود بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1] هم كذبة، لأنهم بشرٌ ممن خَلَقَ، يجري عليهم ما يجري على البشر، وسنن الله لا تتبدل لأحدٍ من الخَلق، وهذا تمام حِكمة الله تعالى وعدله في هذه الحياة الدُّنيا.

إنَّ طريق العِزَّة كلّها مسدودة إلاَّ من طريقٍ واحدٍ أن يعود النَّاس إلى الجهاد في سبيل الله، وأنْ يفهم المسلمون أنه حياتهم وحياة دينهم، وأنا أقول هذا الكلام مع علمي بجهل الكثيرين لمعنى أن يكون الجهاد حياة، وسبب ذلك أنهم يظنون أنَّ الجهاد يعني قتل رجلٍ ههنا أو ههنا، أو شبيهاً بهذا، وهذا لأنهم لا يفهمون مسيرة إعداد الأُمَّة لتكون أُمَّةً مجاهدةً، وكذلك أعلمُ أنَّ بعضهم يظنُّ أنَّ الجهاد وهو آخر مطاف الإعداد، أي لا يكون قتالٌ حتى يتم الإعداد لحصول النَّصر الذي يتصورونه، وهؤلاء كسابقيهم هم أهل أحلام.

إنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى مشروعَ أُمَّةٍ كاملةٍ، لكن الوصول إلى هذا لابدَّ من عصابةٍ تأخذ هذه المهمة، وهي بنص حديث رسول الله ﷺ الطائفة المنصورة[2]، تعمل في الجهاد، وتحيِّيه في الأُمَّة واقعاً وثقافةً، فيستجيبَ الأفراد والجماعات والقبائل، فحين يحصر أحدهم صورة الجهاد الذي تطلبه هذه الطائفة من الأُمَّة في صورةٍ فردٍ استجابَ لأمر الله فطبقه وسعه، ويقصر الصورة في هذا الحدث يكون ظالماً، مع أنَّ هذا الفِعْلَ الآحادي الفردي شرعي صحيح، بل هو فِعْلٌ عَقْلِيٌّ واقعيٌّ صحيحٌ لأنه ضِمن سياق تربية الأُمَّة وإيقاظها لِتحمل الجهاد في سبيل الله تعالى.

الجهاد في سبيل الله تعالى عبادةٌ جماعيَّةٌ وفرديَّةٌ، ويحقق نتائجه ضمن هذين السياقين، لأنَّ كُلَّ عَمَلٍ جِهَادِيٍّ يحقق مقصداً من المقاصد التي تُوصِل إلى النَّصر النهائي، فإنَّ بعض الأعمال مع فرديتها تحقق استنزافَ الخصم وإرهاقه، وكذلك تحقق البعث للآخرين وتقويَّة نفوسهم وإذهاب الجبن عنها، وحين تتكاثر تُرْهِقُ الخَصْمَ وَتُوهِنُهُ، مع أنها قد تبدو لبعضهم أنها طفرة صغيرة قامت ثم انتهت، وهذا التصور لا وجود له في عالم الإسلام الذي تكفل الله بحفظه وتوسعتْ رقعة أرضه.

لقد كان بعضهم يسبُّ ويستهزئُ بحالاتٍ جهاديَّةٍ في مناطقَ ما، ويُصورها تصويراً قاصراً في التفسير ثم تبيَّن بعد ذلك أثر هذه الحالة على المسلمين جميعاً، إذ صارت كحاملِ النَّارِ والجَمْرِ ينقلها

---

[1] سورة المائدة، الآية: ١٨.

[2] «لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ». رواه مسلم في «كتاب الإمارة» باب قول النَّبيِّ ﷺ: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ. لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ»، وتفرد به. حديث رقم: ١٩٢٤.

من مكانٍ لآخرٍ، يحميها من أنْ تنطفئَ، بل يرعاها في مكانٍ حِفَاظاً على أَصْلِهَا، وأما الْمُسْتَهْزِئُونَ فَلِعَيْشِهِمْ في أَسَارِ أُسْطُورَةِ الفِعْلِ الجَمَاهِيرِيِّ بَعْدَ تَشَكُّلِهِ دُونَ إِدْرَاكٍ مِنْهُمْ كيف حدث؟ وكيف تشكل؟ وكيف انبثق؟ فإنهم يستهزؤون في كلِّ هذه المراحل ولا يعرفون سننها.

إنَّ مقولة: «إنَّ الجهاد فِعْلُ أُمَّةٍ» يُوجِبُ على قائليه أن يتعلموا كيف تصنع هذه الأُمَّة المجاهدة؟ وكيف تكون؟ وكيف تُربى؟ وإنَّ من بديهيات قولهم: «تربية جهادية» أن يكون هناك جهادٌ في سبيل الله تعالى، وهذا ما يحققه واقعاً هم طوائف الجهاد فقط، هذه الطوائف التي تنكي في أعداء الله، وتُذكِّرُ المسلمين بوجوب الشَّجاعة والجود، وبوجوب مُقاتلة المشركين، وبوجوب حبِّ الله والدَّار الآخرة، فسيستحيب لها مَن هداه الله، وسيسبها مَن يرى فيها إقلاقاً لراحته، وإفساداً لنعيمه، وإبطالاً لمشروعه الذي يصنعه في غُرفة نومه حالماً.

لقد ورث الكفار أرضنا لِتركنا ديننا أي الجهاد في سبيل الله فقط، فهذه هي العلَّة الوحيدة، وإنَّ أيَّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمم تتركُ الغزو والقتال فستذل، مسلمة كانت أو كافرة، ولقد صِرنا أذلة لِتركنا الجهاد في سبيل الله فقط، وكلّ ما يقوله الآخرون هو تَبَعٌ لهذه القضية.

إذا قال قائلٌ: إنَّ سَبَبَ ذِلتنا هو تركنا لذكر الله فقد صدق، لكن ذكر الله ثانياً بعد الثَّبات كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[1].

وإذا قال قائلٌ: إنَّ سَبَبَ ذِلتنا تركنا لسنَّة رسول الله ﷺ فقط لكن سنَّة رسول الله ﷺ التي أمرنا بها هي الجهاد في سبيل الله.

وإذا قال قائلٌ: إنَّ سَبَبَ ذِلتنا جهلنا وعدم وعينا على دين الله وواقعنا فقد صدق، وحين يُدرك هؤلاء كتاب الله ويُبْصِرُوا واقعهم فسيعلمون أنَّ لا حل إلاَّ بالجهاد في سبيل الله تعالى.

أما إذا قال قائلٌ: إننا يمكن أنْ نتعايش مع واقعنا، ويمكن أنْ نَقْلِبَ الذلة إلى عزة بالتصالح مع الآخر وهو المجرم المُعتدي والدخول في لُعْبَتِهِ وطريقه، فنقول: أُفٍ وَتُفْ[2]، لأنَّ هذا الكلام يُزْكِمُ الأُنُوفَ السليمة، ويصدم العقول الصحيحة، ويُضاد الشريعة الصريحة، وقد رجا أهل العلم للعاصي توبة أما المُبتدع فلا توبة له، فكيف اجتمعَ مع البدعة جبنٌ وبخلٌ، فهذه والله هي الفاقرة القاصمة.

لقد انتهتِ الصِبْغَة الإلهيَّة في غزوة الأحزاب ومضتْ على هذا الأمر فالحمد لله ربِّ العالمين.

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٤٥.

[2] أف يئفُّ أفاً، وقالوا يؤف أيضاً، إذا تأفَفَ من كَرْبٍ أو ضَجَر. ويُقال: رجلٌ أفافٌ: كثير التأفف. وفي التنزيل: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾. ويُقال: أتانا على أف ذلك وأَفَفِهِ وإفّانِهِ، أي إبَّانه. وتقول: أفٍ لك يا رجل، إذا تضجَّرت منه. وذكر أبو زيد أن قولهم: أفٍ وَتُفْ؛ قال: الأفُّ: الأظفار، والتف: وسخ الأظفار. أهملت الهمزة مع القاف في الثنائي الصحيح. «جمهرة اللغة» لمحمد ابن دريد (٢٢٣ ـ٣٢١ هـ، ٨٣٧ ـ٩٣٢ م) الجزء الأول، الصفحة ٣٦. دار الكتب العلمية بيروت. (٢٠٠٥م).

صُلح الحُديبية

هذا الصُلح لم يكن غزوة، لا في المقصد الذي سار إليه رسول الله ﷺ وأصحابه، ولا في الخاتمة، فقد خرج رسول الله ﷺ وأصحابه يُريدون العُمرة، وحُبسوا في الحُديبية بحابسٍ ربَّانيٍّ، ثم كان خاتمة ذلك المسير أنْ رجعوا بدون عُمرة بعد أنْ عقدوا هذا الصُّلح مع قريش، ولكني آثرتُ أنْ أتكلمَ عنه لدلالات قرآنيَّة عظيمة قالها سبحانه وتعالى في سورة «الفتح»، وهي دلالات جهاديَّة علميَّة ونفسيَّة عميقة وقَدريَّة في مسيرة السالكين في هذا الطريق القرآني النَّبوي العظيم، ولذلك سيكون الوقوف مع آيات مختارة من هذه السورة تجلي هذه الدلالات وتجيبُ عن بعض الأسئلة المُعاصرة من أجل تحقيق العِبرة القرآنيَّة من غير دخول في أسر تفسير السورة كاملة.

لقد كانت غزوة الأحزاب هي نهاية الهجوم القريشي ضدَّ هذه المدينة الناشئة، ومنذ البداية والخط البياني الإيماني في صعود، وخط الكفر القريشي في هبوط، وقريش هي طاغية الجزيرة بلا مُدافع في ذلك الزمان، وقد تم الالتقاء بين الخط الصاعد مع الخط المُنهار في غزوة الأحزاب، ثم واصل كلٌّ خطَ مسيرته، فكان بعد ذلك أن انقلبَ الحال إذ صار الخط الإيماني هو الذي يغزو ولا يُغزى، هذا مع أنَّ بدر الكبرى هي خروجٌ نبويٌ إلى عِيرِ قريش، فهي لم تكنْ سهماً مُوَجَهاً إلى جسم قريش وهو مكة، بل كانت ضرباً للأطراف الذي تمثل يومها في تجارتها.

هذه الصورة قبل الأحزاب كان فيها دعوات نبويَّة لقريش أن تخُلي بينه وبين النَّاس حتى يُبَلِّغَ رسالةَ ربِّهِ، يعني أنْ يُواجه النَّبيّ ﷺ وأصحابه القِوى التابعة لا الطاغوت الكبير، لكن قريش لها شيطانٌ يُدرك أنَّ هذا يعني تعريتها وإضعاف قوتها، لأنَّ المحيط التابع هو جزءٌ من سلطانها، فكانت حريصة في الأحزاب أن يسير معها القبائل، ولذلك كانت قريش تتولى معالجة هذه المدينة بنفسها، وتأخذ الآخرين ضمن هذا الأمر كأتباع لها في المُواجهة، وهذا حديثٌ عسكريٌّ بحتٌ، وهو يمنعنا حين الاستغراق فيه من رُؤية الجانب الدعوي الذي يُوجِبُ على العُقلاء والمُنصفون أن يهتدوا ويلحقوا بهذا الدِّين ويدخلوا في دين الله أفواجاً، لكن هذا الجانب الدعوي يَضْعُفْ حين يصل الأمر إلى صِرَاعٍ وُجُودِيٍ بين قوتين، وقد حدث هذا إذ قد وصل الأمر بين قريش والمدينة النَّبويَّة وقيادتها وجنودها إلى حدِّ إلغاء ونسيان سبب الصِّراع وهو الدِّين في نفس قريش، مع بقائه في نفس البعض، لكن الحديث يدور عن طوائف مُقاتلة يسير فيها الكثير من النَّاس ضمن مسافات إنسانيَّة عامة كالقبيلة وغريزة القطيع وغير ذلك.

قريش ككلِّ الطواغيت الكِبار لا يسمحون لطائفة الإيمان بالاستفراد في الأطراف والصغار، مع أن هذه الطوائف تفعلُ كما فعلَ رسول الله ﷺ حين تتوجه إلى بناء نفسها وهي تقول: «هل خلّت

قريش بيننا وبين النَّاس». ولذلك وصف الله حال قريش بقوله: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1]، فيضطر المؤمنون منذ البداية من مُنازلة الطاغية الأكبر كما فعلوا في بدر، منازلةً لأطرافه الاقتصاديَّة والسياسيَّة والعسكريَّة، لعدم قُدرتهم مِنْ مُواجهةِ جسمه الأكبر.

هذا الوعي السنني على قدر الجهاد يردُّ على الذين يُخطِئُون طوائفَ الجهاد وهي تُواجه الطواغيت الكبار مع أنها لم تحقق مقاصدها في الأطراف والأتباع الصغار، وهذا له حكمةٌ ربَّانيَّة مع هروب طوائف الجهاد منها، لكنهم يذهبون إليها مضطرين بإرادتهم، لأنَّ حقيقة الأمر أنَّ الأطراف ستتساقط حين ينهار المركز أو يضعف وهذا الذي وقع بعد فتح مكة، إذ كانت الوفود تأتي بلا قتال وهي تدخل في دين الله أفواجاً.

ونذكر أنَّ هذا الإنجاز لم يكن لِيقع لو تم الدخول ابتداءً ضمن خطة الخصم ولُعبته، أي ضمن خطوط مساره الطُولِيَّة أو العَرضِيَّة كما فعلت في زماننا هذا بعض الدول التي تسمت بالإسلامية ـ منها ما هو غير سنِّي ـ وقَبِلَتِ الدخولَ في حِلْفِ الطواغيت، زاعمةً أنها تجري فعلها وإرادتها من ضلاله، وهي نفس صورة الأحزاب التي تتسمى بالإسلاميَّة حين تدخل ضمن لُعبة الجاهلية للوصول إلى بعض أهدافها الإصلاحية .

كان اختيار رسول الله وأُمنيَّته أن يتفرغَ لهذه القبائل، وأن تخُلي قريش بينه وبينهم، وكان قدر الله وحِكمته أن يلقي قريشاً أولاً في الواجهة لأنها رأس الأمر، وحين تَواصل التدافع بين قريش وبين النَّبيِّ ﷺ حتى وصل ما يصل إلى التعادل قبلت قريش بهذا الوجود وعقدت معه هذا الصُّلح، وعلى هذا الاعتبار سمَّاه الله الحكيم العالم فتحاً مُبيناً.

كانت الضربة الأولى في أطراف قريش «فُرقاناً»، وكان قبول قريش بالتفاوض مع النَّبيِّ ﷺ وقبوله مُعَادِلاً لهم، يدخل النَّاس في حِلْفِهِ كما يدخل النَّاس في حِلْفِ قريش «فتحاً مُبيناً».

لقد قَبِلَتْ قريش القِسْمَةَ، وهو ما في صُلح الحُديبية، إذ رضي النَّبيّ ﷺ كلَّ شروطهم التي سألوه إيَّاها، فلا عُمرة هذا العام، وأن يرد المسلمين القادمين إليه بغير إذن أهلهم، وأن يسمح للأفراد من داخله أن يذهبوا إليهم دون معارضة «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لاَ يَسألُونَنِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إلاَّ أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا**»[2]، كل ذلك مقابل قِسمة النفوذ على هؤلاء الأتباع من القِوى الصغيرة حتى لو لم يسموا، إنما دخولٌ في أحد الحلفين من غير إذلال وضغط قريش ونظمها ومجالسها وقوانينها. لأنَّ قريش كانت تضغط على هذا المحيط من القبائل وتُهدده حتى لا يلتحقوا برسول الله ﷺ، والمحاورة التي جرت بين سعد بن معاذ وأبي جهل تدل على هذا وإليك الخبر الذي رواه ابن مسعود رضي الله عنه يحدث عن سعد بن معاذ أنه قال: «كَانَ صَدِيقاً لأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَكَانَ أُمَيَّةُ إذَا مَرَّ بِالمَدِينَةِ نَزَلَ عَلَى سَعْدٍ،

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٣.

[2] البخاري في «كتاب الشروط» باب الشروطِ في الجهادِ والمُصالحَةِ مع أهلِ الحربِ وكتابةِ الشروطِ. حديث رقم: ٢٧٣١ـ٢٧٣٢.

وَكَانَ سَعْدٌ إِذَا مَرَّ بِمَكَّةَ نَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ. فَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ انْطَلَقَ سَعْدٌ مُعْتَمِراً، فَنَزَلَ عَلَى أُمَيَّةَ بِمَكَّةَ، فَقَالَ لأُمَيَّةَ: انْظُرْ لِي سَاعَةَ خَلْوَةٍ لَعَلِّي أَنْ أَطُوفَ بِالبَيْتِ. فَخَرَجَ بِهِ قَرِيباً مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ، فَلَقِيَهُمَا أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا صَفْوَانَ، مَنْ هَذَا مَعَكَ؟ فَقَالَ: هَذَا سَعْدٌ. فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: أَلاَّ أَرَاكَ تَطُوفُ بِمَكَّةَ آمِناً وَقَدْ آوَيْتُمُ الصُّبَاةَ وَزَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَهُمْ وَتُعِينُونَهُمْ. أَمَا وَاللهِ لَوْلاَ أَنَّكَ مَعَ أَبِي صَفوانَ مَا رَجَعْتَ إِلَى أَهْلِكَ سَالماً. فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ ـ وَرَفَعَ صَوْتَهُ عَلَيْهِ ـ: أَمَا وَاللهِ لَئِنْ مَنَعْتَنِي هَذَا لأَمْنَعَنَّكَ مَا هُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْهُ: طَرِيقَكَ عَلَى المَدِينَةِ....إلخ»[1]، وهو بَيِّنٌ على المُرَادِ.

فهناك الكثير من هؤلاء الذين ينتظرون التفلت من حِلف قريش وسُلطانها وهيئة أُممها لكنهم لا يستطيعون الذهاب، ولكن بمسيرة الجهاد العظيمة والشديدة، والتي كلفتِ المؤمنين الشُّهداء والخوف والجوع والتشرد، إذ كل خطوة بل وبعض خطوات نحو هذا الهدف كانت مليئة بالبذل النفسي والاقتصادي، بالأرواح والأموال وصلت إلى هذا المقام العظيم، مقام دخول الأطراف والأتباع في حِلْفِ هذا القطب الذي رسخ وُجوده مُقابل اهتزاز القُطب المُقابل وإضْعافه.

هذا هو الفتح العظيم والواضح الجليّ البَيِّن، وهو يعني أنَّ الخط الصاعد ومُضاده الخط الهابط، مازالاَ في اتجاهاتهما لعوامل عدَّة، تصنعها حقيقة هذا الدِّين حيناً، وتصْنعها رغبات داخليَّة لدى الطاغوت الأكبر بإعادة السلطان والهيبة، وتصنعها هذه القوى التي التحقت بإحدى القُطبين، وكلّ هذا قد وقع بعد الحُديبية وكان سبباً لفتح مكة وانتهاء قريش.

إنَّ قريش لم تصل لهذا الحد إلاَّ بسبب الإنهاك، إنهاك الحرب لها كما قال رسول الله ﷺ: «..**وإِنَّ قُرَيشاً قَدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ وَأَضَرَّتْ بِهِمْ**»[2]، وهي في المُقابل قد فعلتْ في المؤمنين ـ أي الحرب ـ الأفاعيل، لكنه وقود الإيمان بالله والإيمان بالدَّار الآخرة، وعقيدة الابتلاء، فقريش تنهك فتتعب، والمؤمنون يُبتلون فيزدادون إيماناً وتسليماً، ثم هناك فرقٌ بين الخط الصاعد والخط الهابط، بين فتى يكبر ويقوى، وبين شيخ يتهالك فيذوي ويضعف، ولذلك فقد كان خروج رسول الله ﷺ إلى العُمرة هو تعبيرٌ عن ضُعف قريش، كشف لهذا الضعف الذي وصلت إليه، فكيف يخرج هو وأصحابه إلى عُقر قريش في مكة ويعتمر هناك آمناً أمام من كان يَتحَين الفُرص للقضاء عليه وإفنائه؟!.

إنها حكمة الله تعالى في تدبير أقداره لهذا الدِّين حيث يجري فيه الجريان السَنني في تحقيق النَّصر له وهزيمة أعدائه، وقد شعرتْ قريش بهذا وهو أنَّ هذا الاعتمار هو صورة لإذلال سُلطانها وهيبتها، لكنها لا تستطيع أن تُقاوم مقاومة معاركها السابقة للإنهاك الذي أصابها، ولذلك لجأت إلى التفاوض وإرسال الرسل لرسول الله ﷺ، وأما إظهارها عزم الصدِّ والقتال فهو مجرد استعراض، تعلم هي أنه لا يمكن أنْ يأتي بآثاره، ولا يمكن لها أن تقومَ به حقَّ القِيام.

---

[1] البخاري في «كتاب المغازي» باب ذكر النَّبي ﷺ من يُقتلُ ببدرٍ. حديث رقم: ٣٩٥٠.

[2] البخاري في «كتاب الشروط» باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. حديث رقم: ٢٧٣١ـ٢٧٣٢..

بعض أهل العلم يظنُّ أنَّ تسميَّة صُلْحِ الحُديبية فتحاً من باب تسميَّة الشيء باسم سببه، أي لِكَوْنِ صُلح الحُديبية كان سبباً لفتح مكة، وهو قولٌ له وجاهته، ولكن الصَّحابة كانوا يرفضون هذا المعنى، ويسمون صُلح الحديبية نفسه «فتحاً مبيناً»، قال البراء ﷺ للتابعين: «تعُدُّون أنتمُ الفتحَ فتحَ مكة، وقد كان فتحُ مكةَ فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحُدَيبيةِ»[1]، ومما يُقوِّي هذا القول ويجعله الأصوب هو حديث البخاري[2] ومسلم[3] من حديث سهل بن حنيف من ذِكره خبرَ عمر الفاروق ﷺ يوم الحُديبية وما فعلَ، وردِّ رسول الله ﷺ وأبي بكر ﷺ عليه، قال سهل: «فَنَزَلَتْ سُورَةُ «الْفَتْحِ»، فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى عُمَرَ إِلَى آخِرِهَا فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَو فَتْحٌ هُوَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». بل إنَّ القرآن نفسه وفي السورة نفسها ما يشهد لذلك ويجعل القول الوحيد وهو قوله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾** ﴾[4]، فقوله تعالى: ﴿ **فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾. هو صُلح الحُديبية لأنه هو وحده الذي حدث عُمرة القضية، وهي التي وقع فيها قوله تعالى: ﴿ **لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ** ﴾. والقرآن يُفَسِّرُ بعضه بعضاً. لأنَّ قريش تداهنت يومذاك لما رضيتْ بهذا الشرط وقبِلتْ بهذا الكائن الجديد، رأساً برأس، بل هو أقوى منها، والدليل هو البيعة التي كان معناها أنَّ الدفق الإيماني في نفوس هذا الكائن الجديد ما زال قوياً بل مُتَصَاعِداً، وهو يملك قوةَ وإرادةَ الدفع نحو أهدافه حتى الموت في سبيلها.

بسبب هذا الفتح ـ وعلى هذا المعنى فقط ـ انطلقَ رسول الله ﷺ بدعوته خارج الجزيرة العربية لأنَّ الجزيرة قد انتهتْ، وأمر دخولها كلّها تحت الفتح الكُلِّي يحتاج فقط إلى عاملِ الزمن، ولن يكون في هذا الزمن القادم أيّ مُفاجاءات تحُولُ دون تحققه، فخرج رسول الله ﷺ بالرسائل إلى ملوك الأرض وحُكامها يُبلِّغُهم الرسالة، وأما قريش فموقفها موقفَ المُراقب الذي لا يملك شيئاً في دفع القدر المحتوم القادم عليه.

لقد تحقق الفتح من خلال حروبٍ جرتْ على الوجه الذي وصفه الصَّحابة يوم لنا ويوم علينا، وهو نفس مقالة أبي سفيان في شرحه لهرقل: «الْحَرْبُ بَيْنَنا وَبيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا ونَنَالُ مِنْهُ»[5]، وهو الوجه السَنني لهذا الكائن الجديد حتى يصل إلى حالة الاستقرار والتمكين، ولذلك فالجهاد هو

---

[1] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوةِ الحُديبية وقولِ الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. حديث رقم: ٤١٥٠. كما روى ابن مسعود ﷺ وغيره أنه قال: «إنكم تعدون الفتح ـ فتح مكة ـ ونحن نعد الفتح صُلح الحديبية».

[2] البخاري في «كتاب الجزية والمُوادعة» حديث رقم: ٣١٨٢.

[3] مسلم في «كتاب الجهاد والسِيِّر» باب صُلح الحُديبية في الحُديبية. حديث رقم: ١٧٨٥.

[4] سورة الفتح، الآية: ٢٧.

[5] البخاري في «كتاب باب الوحي» حديث رقم: ٧.

طريق التمكين الذي يكون هو قاعدة انطلاق الجهاد إلى الجهاد نفسه، ولا يمكن أنْ يقعَ الفتح كذلك إلاَّ بجهاد.

إنَّ هذا الوصف لما جرى في الزمن النَّبوي لا يعني أبداً أنه حالة فوريَّة تجري لدعوة الإسلام في كلِّ وقتٍ، ومع كلِّ الظروف كما يظنُّ البعض، فيسعى أنْ يُشابه التصرف مع اختلاف الظرف السَنني، فبدل أنْ يستجيبَ للظرف السَنني بما يُلائمه من الأقدار الشرعيَّة يسعى لأنْ يُطوِّعَ نفسه لسببٍ من الأسباب التي يتخيَّلُها، وهذا جهلٌ خطيرٌ يمارسه أقوامٌ تغلبُ عليهم أوهام الإقتداء بالفِعل النَّبويِّ على وجهٍ مرضيٍّ لا وعيَّ فيه كمن يقول بوجوب السريَّة أولاً ثم العلنيَّة ثمَّ الهجرة.... إلى آخر ما يقولون، أو كمن يُوجِبُ طلبَ النُّصرة على وجهٍ خاصٍ رآه هو، وبشروطٍ خاصةٍ[1]، كلُّ ذلك مخالفٌ للعقل لأنَّ الظروف البشريَّة تختلفُ، فكيف نُوجِب السريَّة مثلاً في مجتمعٍ مسلمٍ بمجردِ أنْ تطلق دعوتك للحقِّ والهُدى «علناً» يستجيبُ لك المئات بل الآلاف، ثم كيف تُوجِبُ الهجرة لو استجابَ لك أهل بلدك كما استجابَ وفد عبد القيس في وقتٍ مبكرٍ؟، فهل نحن مَن يفرضُ الظرف ليتلاءم مع السلوك الدعوي أم أنَّ السلوك الدعوي يجب أن يستجيبَ للظرف الواقع؟!.

هذا الوصف لمفهوم «الفتح» في هذه السورة، وهو لفظٌ قرآنيٌّ يجبُ الوعي على مدلوله مِنْ خلال حادثته التاريخيَّة يدلنا على صواب فِعْلِ المجاهدين اليوم، وصحة مُنطلقاتهم الكُليَّة التي تُشَكِّلُ هدفهم الشرعي الصحيح، فالمجاهدون اليوم هم فقط مَن يسعى لضرب سُلطة الجاهليَّة وتقويض مِظلتها لتحقيق «الفتح» الذي وقع في صُلح الحُديبية، وهو ـ على الأقل ـ هذا هدفه، وقد يخطأ في بعض الفروع، ولكن الخطأ لا يُبطلُ الهدف ولا الطريق الكُلِّي الذي تسعى من خلاله، فالدول اليوم مأسورة لسلطة الطاغوت الأكبر، وهي تدخل في طاعته طوعاً وكرهاً من خلال مؤسساته التي صنعها خلال الحروب الطويلة والقاسيَّة، كالأُمم المُتحدة ومؤسساتها، ومنظماته الاقتصاديَّة والتحكيميَّة وغير ذلك، وقد كان من فقه المجاهدين ضرب العدوِّ القريب اقتداءً بأمر الشرع، ثم حدث أنْ فرض العدوّ البعيد ـ الطاغوت الأكبر ـ نفسه في صُوَرٍ مُتَعَدِدَةٍ، وهو ابتداءً لم يكنْ بعيداً عن القضيَّة، لكن كان يمكن تصور التفريق بين العدوِّ البعيد والعدوِّ القريب، ولكن لأسبابٍ مُتعددةٍ منها ما هو مِنْ فِعْلِ المجاهدين ومنها ما هو مِنْ فِعْلِ غيرهم فرضه الطاغوت الأكبر، قريش ـ وقريش عند بعض أهل العلم اسمٌ مأخوذٌ مِنْ دابةٍ في البحر كبيرةٍ تأكل غيرها هي أقوى ما هناك، وهو قولُ ابن قُتيبة الدنيوري في كتابه: «المعارف»، وقطعاً هو سمك القِرش. أقولُ: فرضَ الطاغوت الأكبر نفسه للمُواجهة، فالصِّراع يدورُ حول هذه القضية وهي تقويضُ سلطانه في المحيط، واليوم هذا المحيط هو العالم كلّه، لأنَّ الكون كما يقولون صار قريةً واحدةً بسبب آلات الاتصال وغيرها، وهذا قدرٌ شديدٌ على طوائف الجهاد، وتكليفٌ شاقٌ، لكن هم يملكون اليوم كذلك عوامل نصرٍ كبيرةٍ لم تكن

[1] هذه دعوة «حزب التحرير» ورؤيته لإقامة الخلافة الإسلامية التي يدعو إليها!.

في البحرية الأولى، فمن ذلك هذا المحيط الإسلامي الواسع الذي يملك القُدرة على الإثخان بهذا القِرش الكبير من خلال التحريض، وسيكون حاله وهو يتحرك في هذا المحيط المُتسع كحال ثور المُصارعة، إذ تغرس فيه السهام الصغيرة، وهو يجول ويصول، وكلما تحرك تقطعت أوصاله حتى تسدد فيه الضربة النهائية فيُصرع. (أظن قد ذكرت هذا المثال في موطن آخر[1] للتدليل على قضية أخرى فإنْ فعلتُ فإني أعتذر).

مقصد المجاهدين هو تحقيق الكِيان المُستقل عن سلطة القِرش/الثور الأكبر، ولو تأملتَ مقصد غيرهم لَرأيتَ أنَّ غيرهم إنما يسعى لتحقيق الإسلام داخل أحشاء الجاهلية، ووضعه كخط غير داخل النسيج الذي يُشكل مملكة هذا القِرش/الثور ستسمحُ لعبادة الجهاد أن تقوم في مناطقَ عدَّةٍ، وستسمحُ لكثيرٍ من النَّاس أن يتحرروا من سلطانه ويُعلنوا خروجهم عنه، وهو تحقيق لبعض الفتح لا كلّه، وهذا لا شكَّ نعمة كبيرة، وهو الذي بدأت بوادره تتحقق بفضل الله تعالى لمن تأملَ ذلك.

مما يؤكد هذا أنَّ الطُرق الأُخرى التي اتبعها أهل البدعة والانحراف في تحقيق مقاصدهم تسعى إلى الحِفاظ على الأمن، أي قوة مركزيَّة الدولة، وتسعى للحفاظ على مؤسساته الأمنيَّة كالجيش والشرطة والمُخابرات، ويعني هذا الحفاظ على قوة التابع الصغير، وهي أدوات مُباشرة في يد القِرش/الثور الكبير، وهذا هو أُسٌّ مِن أُسس الجهل في معرفة بناء الإسلام لأنَّ أقصى ما يسعى له هؤلاء هو الحفاظ على هيكليَّة الجاهليَّة وصبغة هذه الهيكليَّة ولكن بإلباسها اللباس الإسلامي، وأما المجاهدون - وُراث مفهوم الفتح النَّبوي - فإنَّ فَهمهم يقوم على مُزاحمة هذا الهيكل كلّه، وطمسِ هذه الصِبْغَة كلِّها وإحلال الإسلام بصبغته ومفاهيمه، وهذا المشروع ليس له تعلُّقٌ كما ترى بشخصٍ أو أشخاصٍ، بل هو مشروع يتعلَّق بإيجاد أُمَّةٍ تحيَّى لترث أُمَّةً أُخرى.

كل هذا، من مفهوم «الفتح» القرآني، ومِن تصور تحقيقه، ومِن معرفة واقع الجاهليَّة وحقيقة الإسلام يعني أمراً واحداً أنَّ الجهاد هو آلة الإسلام وأهل الإسلام في تقويض الجاهلية، وأنه الأسلوب الوحيد لتحقق النَّصر ووراثة الأرض، وبأيِّ أسلوبٍ كان، أي كعملٍ تحريضي، أو بإيجاد نماذج هادية، أو بعزل مناطق صغيرة عن سلطان الجاهلية، ليقع الإنهاك في القرش/الثور فيقع تفلت المقهورين من السلطان ويتم بناء العالم - كلّ العالم - على أساسٍ جديدٍ.

أنا أُؤْمِنُ أنَّ الكفر بسلطانه وتمكُّنه لن ينتهي من الأرض، وليس هناك من وعدٍ نبويٍّ يدل على هذا، بل هناك إشاراتٌ نبويَّة تدل على عكس ذلك، وهناك خبرٌ صريحٌ أنَّ بلاد الإسلام ستكون خاتمتها باجتياح الصينيين - يأجوج ومأجوج - وعندي بعض الفهم الذي أظنه، وهو أنَّ بلاد الإسلام

[1] لقد مرَّ بالصفحة: ٢٦٧.

ستغزى مرة أخرى من الصليبيين ـ وخاصة بلاد الشام ـ أفْهم ذلك من سورة «الإسراء»[1] ولن أُشغل القُراء به ـ ولكن أُؤمن كذلك أنَّ إيجاد قوةٍ إسلاميَّة لها قدرة الاستقطاب أمام قُطب الكفر الصليبي واستقطاباته أمرٌ كائنٌ وقبل ظهور الآيات، وإني لأرجو من الله أنْ لا يكون بعيداً، وإنْ بقيت مسيرة الجهاد على ما هي عليه اليوم ولم تحصل أي طفرات كونيَّة مفاجئة فإنَّ الدلائل تُشير لذلك، وقولي ـ طفرات مُفاجئة ـ لأنَّ الفِعْلَ الإنساني لا يسير دوماً في سياقٍ واحدٍ كما هو شأن سُنن المواد الأُخرى، فإنَّ الرجلَ يُصبح مؤمناً ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، وهذا شأن القلب فإنه أسرع تقلباً من الماء في القِدْرِ إذا استجمعت غليانها، ولكن لابدَّ أن هذا سيكون يوماً ما، وهذا من واجبات الأُمَّةِ الإسلامية وهو تطبيقٌ عملي لخيريتها في كونها أُمَّة ذات هويةٍ وكيانٍ وتمكينٍ، وبهذه الصورة دون غيرها سينشأ ما يُسمى بالحضارة الإسلاميَّة، وبغيابها فإنَّ أُمَّة الإسلامٍ هي شيءٌ ذهني لا حقيقة له، لأنَّ شرط مفهوم الأُمَّة أن يكون هناك تمكينٌ لأُسس هذه الأُمَّة وعقيدتها وتصوراتها عن الوجود والحياة، وبهذا الفهم يمكن لنا أنْ نُدركَ قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾** ﴾[2]، ولِتَكْتَمِلَ الصورة أجمع مع هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ** ﴾[3]، والمعروف والمنكر له وجوده الفردي من خلال فِعْلِ المُحتسبين، وله وُجوده الكوني من خلال فِعْلِ الدولة المُسلمة في منع منكر الطاغوت القرش/الثور، وإفساده وضلاله، ولذلك فإنَّ أعظم ما خسر العالم بانحطاط المسلمين هو غياب تمكين أُمَّة الإسلام الذي يفزعُ إليه المظلومون لإنصافهم مِن بطش طغيان أُمم الجاهليَّة الأخرى، فالحديث عن العدل الإسلامي والرحمة الإسلاميَّة والقيم الإسلاميَّة التي تُنصفُ البشر يجبُ ألاَّ يُستخدم من قِبَلِ المُفتين الجهلة لترك الجهاد بل مكانه الحقيقي حين يصل الجهاد إلى الفتح المُبين والذي حققه رسول الله ﷺ في الحُديبية.

هذا «الفتح» الربَّاني لرسول الله ﷺ فيه تجاوزٌ لمقاصد الفرد المسلم من أجل تحقيق مقاصد الإسلام الكُليَّة، فقد رجعَ المسلمون بدون عُمرة، وتم التعاقد أن يُعيد رسول الله ﷺ كلّ مسلمٍ يأتي من قريش بدون رضا أهله عن ذلك، وهذان الأمران قد وقعا موقعاً شديداً على نفوسهم، فتم من الأحداث ما هو مشهورٌ منها من ألم الصَّحابة رضوان الله عليهم، والأمر مجموع في قول أنس رضي الله عنه: «فنحن بين الحزن والكآبة»[4]، وأما رسول الله ﷺ فقد قال: «**لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ**

---

[1] لقد فسر الشيخ ـ حفظه الله تعالى، ونفعنا بعلمه ـ سورة «الإسراء» تفسيراً ممتعاً أثبت فيه أنَّ العلو الذي تعيشه دولة يهود الآن هو العلو الأول، وليس الثاني كما هو مشتهرٌ عند الكثير. فارجع إليه غير مأمور، وهو متوفرٌ على الشبكة العنكبوتيَّة.

[2] سورة الحج، الآية: ٤١.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

[4] البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٤٨٣٣. وذكره أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري في «أسباب النزول» الجزء الأول الصفحة ٢٤٥. طبعة دار التقوى.

إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾»[1]. وهي كذلك له خاصة بما بشره من مغفرةِ ذنبه ما تقدمَ منه وما تأخرَ، ولكن فرح رسول الله ﷺ بإتمام مُهمته في بسط سلطان هذا الدِّين في الأرض ودخول النَّاس في دين لله تعالى أفواجاً هو فرحٌ أصلي كذلك يُشاطر فرحَ المغفرة، وإدراك أهلِ الإسلام لمقاصد الإسلام حتى لو تجاوزت مقاصدهم الدينيَّة الشخصيَّة واجبٌ عليهم أن يفهموه خلال مسيرتهم لتحقيق الفتح الربَّاني، هذا إذا كان التزاحم بين هاتين الحُسنتين، أي مقاصد الإسلام العامة ومقاصد المرء الدينية الذاتيَّة، أما إن كان التزاحم بين مقاصد الإسلام ومقاصد دُنيا الشخص المسلم فإنَّ هذا أمرٌ مفروغٌ منه، ولا يُساوي بينهما إلاَّ المُنافق.

هذا الجهاد النفسي لتقديم مقاصد الإسلام لتحقيق الفتح على مقاصد التدين الذاتي لا يفهمه الصغار الذين لا يُدركون فقه الإسلام على الكُليات، بل هم مُستغرقون في الجُزئيات، مهما بدت مُتنافرةً داخل هذه الكُليات العُظمى، ولا يقعُ هذا الإحكام إلاَّ باجتماع أمرين اثنين لا يتحققان إلاَّ للكبار من القادة والعلماء.

هما التسليم والوعي، ومشكلة العالم كلِّه تدور حول الصِّراع بين هذين الأمرين لما يبدو بينهما من الخلاف والتضاد، إذ كيف يمكن للمرء أن يكون عاقلاً مُدْركاً مُفكِراً حُرّاً وبين كونه مُسَلِّماً مُقْتَدِياً مُتَبِعاً؟!. وهذا يحتاج إلى بحث خاص، ولقد كتبَ فيه السابقون، ولكن الهجوم المعاصر من قبل أصحاب المذهب ا الإنساني ومشايخ فتوى المصلحة يحتاج إلى كتابة جديدة لمعالجة قضايا عصرية، لأنَّ الكتابة القديمة دار أغلبها لحل قضايا زمانهم ـ فكتاب ابن تيمية رحمه الله: «درء تعارض العقل والنقل» هو لبحث قضايا المُتكلمين الاقتصاديَّة التي كانت مدار البحث يومذاك.

التسليم في ديننا هو الأساس، وهي الحالة التي يجب على الجميع أن يدخل فيها، وهي كذلك تسعُ الجميع على اختلاف مستوياتهم العقليَّة والذهنيَّة، لكن الوعي المُدرك حالة خاصة لا تكون إلاَّ للكبار، والنموذج الأكمل لاجتماع هذين الأمرين هو أبو بكر الصديق ﷺ ـ اللَّهُمَّ أشهدُ أني لا أحبُّ أحداً من البشر بعد الأنبياء كما أحب هذا الرجل فوالله إني لا أنظر إلى جانب من جوانبه إلاَّ وتأخذني العِبرة والذهول ـ فموقفه من هذا الفتح كان هو الأكمل والأتقى والأعقل كحاله كلِّه مع صاحبه وحبيبه رسول الله ﷺ، ومَن أراد النظر إلى نموذجٍ آخرٍ من هذا النوع فإنَّه جليٌّ في شخص الإمام الشافعي ﷺ، ولا أظنُّ أنَّ أحداً في عصره أو من بعده يعدل هذا الرجل في اجتماع هذين الأمرين فيه، فهو آية في العقل والإتباع، ولو وقفَ النَّاس فقط على كلامه في: «الرسالة» في معنى البيان لرأوا قيمة هذا العقل الكبير، ولذلك يحق لمعاصريه ـ وهم الكبائر ـ أن يُبهروا به ويُقروا له بالعقل والعلم.

---

[1] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة الحديبية. حديث رقم: ٤١٧٧. طرفاه في: ٤٨٣٣، ٥٠١٢.

قد كان هذا الفتح اختباراً كبيراً للصَّحابة ﷺ بين مفهوم الإتباع وعدم الوعي على الأمر الشرعي، وهو اختبارٌ كذلك بين الإتباع والفخر الإيماني لما في رُجوعهم عن العُمرة من ألمٍ وشدةٍ، فنجا الله الصَّحابة ﷺ بإيمانهم ودينهم وإتباعهم، ولو قارنا بين موقفهم السابق من إقبالهم الشديد على البيعة العظيمة؛ بيعة الرِضوان وأفعالهم المُتألمة مِن تحللهم من إحرامهم لَرأينا أنَّ اختبار التسليم أشدّ على نفوسهم من اختبار الشَّجاعة في الإقدام على الموت، وهذا تعليمٌ للمجاهدين أن يُراعوا هذا الجانب العلمي كما يُراعون دائماً جانب الإعداد النَّفسي في تحقيق صفة الشَّجاعة الإيمانيَّة.

إنَّ الشرع لا يأتي بما يخالف بداهة العقول، ولكن يأتي بما لا تُدركه بعض العقول، هذا ما يعلمه أهل الإسلام وقاله علماؤهم، وقدر الجهاد أن يقع فيه من المواقف التي تُؤلم المجاهدين وقادتهم لكن يجب عليهم التسليم لأمر الله تعالى، حتى لو بدت لهم اللحظة الراهنة على غير ما يحبون، ولذلك كان أبا بكرٍ هو أعظم النَّاس فهماً وعلماً وتسليماً وعقلاً.

الإيمان بالله يعني التسليم لأمره، ولكن القادة يلزمهم مع هذا التسليم وعيّاً كُليّاً على الحياة، ووعيّاً على حِكمة الشرع، ووعيّاً على التاريخ، ووعيّاً على الإنسان لِيحصل لهم الاستحقاق بأنْ يدخلوا في سِلْكِ ضبط الذهن الذي يُقيم له القرآن الشأن والاهتمام.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤** ﴾[1].

سورة «الفتح» هي خُلاصة المسيرة النَّبويَّة مع حياة الجهاد، أي الوصول مع النَّبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المرتبة التي يريدها الله من الإنسان بعد إنزاله إلى الأرض، وهي تحقق مرتبة العبوديَّة التي هي أكملُ مراتب الإنسان وأعلاها وأزكاها، وخيرُ ما فيها هو الغُفران.

إنَّ الحاجز الوحيد بين العبوديَّة واكتمالها وبين الإنسان هو الذنوب، وحين يصل الحبُّ الإلهي للإنسان بأنْ يغفرَ الله له ما تقدمَ من ذنبه وما تأخرَ فهذا يعني دخول الإنسان في العبوديَّة الكاملة لله سبحانه وتعالى، وهي المرتبة التي بلغها الحبيب محمد ﷺ، وهي منَّةُ الله عليه في ابتداء الدعوة ومنَّة عليه حين الخاتمة كما قال تعالى: ﴿ **إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣** ﴾[2].

إنَّ مسيرة الفتح هي مسيرة العبوديَّة لله تعالى، يسعى فيها أصحابها لتحقيق أعلى ما يطلبه العبد بأنْ يغفر الله له، فهم لا يسألون شيئاً من أشياء هذه الدُّنيا، فهي عندهم كما عند إمامهم «**الدُّنيا**

[1] سورة الفتح، الآيات: ١-٤.
[2] سورة النَّصر.

مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلاَّ ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاَهُ، وَعَالِماً أَوْ مُتَعَلِماً»[1]. ذلك لأنها في عين الله لا تعدل جناحَ بعوضةٍ، وأي ضعف أمام هذه الدُّنيا يعوق الوصول للتمكين كما قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا** ﴾[2]. ولما تقدم من حادثة أُحد في قوله تعالى: ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ** ﴾[3].

شرط سلوك هذا الدِّين والإمامة فيه، وشرط سلوك طريق الجهاد هو قطع الرغبة في هذه الدُّنيا، لأنَّ حُبَّها مرضٌ خبيثٌ يُعَطِلُ المسيرة ويُدنس مطالب الدِّين الجليلة ومقاصد الجهاد الربَّانيَّة، ولذلك اقترن الفتح بالغُفران، وهو مطلبٌ أُخروي غيبي، ولو تأملتَ إدراك موسى عليه السلام لنعمة المغفرة الربَّانيَّة لذنبه بقتل القِبطي كما في سورة «القصص» وجعل المغفرة سبباً لموقف الإصلاح في الأرض، ورد الظُّلم، ومُناصرة المظلومين لأدركتَ أنتَ أهميَّة المغفرة الربَّانيَّة في إعداد نفسيَّة الإمام الذي يقود الإصلاح على طريقة الأنبياء، وليس مسمى الإصلاح الذي يتدثر به المُفسدون، قال تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾** ﴾[4]. وعلى هذا الفهم فإنَّ الصَّحابة أدركوا أثر الذنوب في تعطيل النَّصر، لأنَّ النَّصر يقضي عليه الهوى والشَّهوة، وهما عدوَا التوفيق الإلهي وبلوغ المغفرة وهي قرين الفتح.

لِيحذرِ المجاهدون من أي صورةٍ مغريةٍ يسعى البعض لإلباسهم إيَّاها، فإنَّ صورتهم الحقيقيَّة هي صورة العبادة والطاعة والإخبات، وهي عمود صورتهم وإطار وُجودهم، وكلّ الأعمال الأخرى هي تَبَعٌ لها، ومِن أعجبِ ما ورد من أحاديث هو إجابة رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ - وهو مَن هو - حين سأله عن دعاء يدعو به في صلاته فقال له رسول الله ﷺ: «**قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْماً كَثِيراً وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مِنْ عِنْدِكَ مَغْفِرَةً إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ**»[5].

الاستغفار يعني أنك تُمارس طاعة لله، ويعني أنك عبدٌ لله تعالى، ويعني أنكَ فقيرٌ إليه، ولذلك فهو الذي يحقق العون والتوفيق، ولدخول العبد حقّاً في رعاية ربِّ العالمين وكَنفه.

﴿ **لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾** ﴾.

---

[1] الترمذي من حديث أبي هريرة عن ابن مسعود رضي الله عنهما في أبواب الزهد «باب ما جاء في هوان الدُّنيا على الله» برقم: ٢٣٢٣ وقال: هذا حديث حسن غريب.

[2] سورة القصص، الآية: ٨٣.

[3] سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.

[4] سورة القصص، الآيات: ١٥-١٧.

[5] البخاري في «كتاب التوحيد» باب قول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾. حديث رقم: ٧٣٨٧-٧٣٨٨. ومسلم في «كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه. حديث رقم: ٢٧٠٥.

المغفرة والنِّعمة والهداية والنَّصر هذه هي قدر رسول الله ﷺ وهي مقاماته العظيمة، وهي إرثه لأُمَّتِه، وكلَّما اقتربتِ الأُمَّة من هذه المقامات كان قُربها من رسول الله ﷺ، وكلما ابتعدتْ عنها كان ابتعادها عن رسول الله ﷺ، وهذه المقامات نال رسول الله ﷺ أعلاها؛ فالمغفرة عمتْ ما تقدمَ وما تأخرَ، والنِّعمة نال تمامها، والهداية لأقومِ صراطٍ مستقيمٍ، وأما النَّصر فهو العزيز، فهذا هو نبيُّ هذه الأُمَّةِ، وهذا هو إمامها وقائدها، فما أشقى وأضل ممن اقتدى بغيره واتخذه إماماً.

هذا الاجتماع لهذه العطايا الإلهيَّة كخاتمة رحلة النُّبوة في الأرض تُؤكد اقتران عطاء القلب من عطاء البدن، وعطاء الدُّنيا مع عطاء الآخرة، وهذه الأخيرة لم تجتمع لأحدٍ من الأنبياء، كما اجتمعتْ لرسول الله ﷺ، ولم تجتمع لأُمَّةٍ من الأُمم على النحو التي اجتمعتْ لأُمَّةِ رسول الله ﷺ، وقد تميَّزَ رسولنا ﷺ في هذا الباب بخوضه السَنني في تحقيق النَّصر والغَلبة والفتح، وهذا بخلاف الأنبياء السابقين، فسليمان عليه السلام أُعطي مِنَ المُلْكِ ما لَمْ يُعْطَ أحدٌ من الأنبياء، فقد سخر الله له الجنَّ والشياطين، كذلك الريح تجري بأمره كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾[1]، وأما موسى عليه السلام فقد دمَّر الله له عدوَّه بالإغراق في البحر، وأما رسولنا ﷺ فقد سار كلّ ما سار على وجهٍ سَنني في كُليته، هذا لأنَّ الرسول محمد ﷺ هو قُدوة أُمَّتِهِ في هذا الباب، فهو يقدم الأُسوة لها في إمكانيَّة تحقيق الهدف وهو النَّصر والفتح على وجهٍ شرعيٍّ لا تنازلَ فيه عن المبادئ والقِيَّم الإسلاميَّة، وهو ردٌّ على كلِّ مَن يزعمُ أنَّ صعوبة الطريق وقسوة ظروفها تدفعُ العاملين لبعض الأساليب التي تخالف هذه القيم، وهذا غلطٌ ولا شك، ولكن ما يجب استحضاره في هذا المقام أنَّ هناك عنصرٌ مُلازِمٌ لهذا التوافق بين تحقيق الهدف والتزام القيم وهو عنصر الصَّبر وتحمل التبعات والمشقات، فهذان أمران مُتضادان هما التزام القيم وبحبوحة العيش ورغدها، ولذلك فَطُريقُ الجنَّة محفوفٌ بالمكاره، وطريق الإسلام ابتداءً هو الغُربة، وحين يسعى البعض للتخفف من القيم رجاءَ الوصولِ إلى الهدف يعني لُزُوماً أنه يسعى للدُّنيا، وهذا لا يستقيم مع الهداية النَّبويَّة، فالخطوة التي تتحقق مع التزام القيم الشرعيَّة هي خطوة حقيقيَّة فيها الهداية وفيها النَّصر كذلك، وأما الخطوات التي تحصل بغير ذلك فهي رهقٌ سيُكلِّف الكثير، ولذلك سُرعان ما تذهبُ لأنها من الزَّبَدِ ولا حقيقة لها.

ثمَّ إنَّ النَّصر العزيز هو النَّصر الذي يتحقق بوضوحٍ وجلاءٍ، ويُؤخذ بقوةٍ وغلبةٍ، وتعهدِ العدوِّ وإذلاله، لا بإذنه وشروطه، وهذا لا يمكن تحققه إلاَّ بالجهاد في سبيل الله تعالى، أما أنْ تأخذَ ما تأخذ من الخطوات والمنافع وأنتَ تدفعُ ثمناً لها مِن قيَّمكَ، وترضى بشروط خصمِكَ ثمَّ تزعم النَّصر

[1] سورة سبأ، الآيتان: ١٢-١٣.

العزيز فإنَّ هذا من باطلِ القَوْلِ وخطئِهِ، فالوعد القرآني للنَّبيِّ ﷺ وأُمَّتِهِ مِنْ بعدهِ هو النَّصر العزيز، وقد علمهم طريق هذا النَّصر بهديهم إلى الصراط المستقيم، وَهَذَا أَقْوَمُ الطُّرُقِ وَأَقْصَرُ الطُّرُقِ وَأَصْوَبُ الطُّرُقِ لكنَّه مع ذلك أشقُّ الطُّرُقِ وَأَصْعَبُهَا.

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾[1].

لقد مضتْ سيرة الجهاد كلّها بلا أيِّ دورٍ للمنافقين، فإنْ قاتلوا قاتلوا يسيراً، وإنْ خرجوا لم يزيدوا المؤمنين إلاَّ ضُعْفاً في الرأي والبدن، فوقفوا أغلبَ المواقف موقفَ المُخذل وبعضها موقفَ المُراقب، وقد تم الفتح الربَّاني لرسوله ﷺ وهُمْ كذلك، حتى ورسول الله ﷺ خارج للعُمرة، لابساً ملابس الإحرام لِيُظْهِرَ مُراده أنْ لا قتال وقفَ المنافقون موقفَ الجبن هنا فقال تعالى عنهم: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ ﴾[2].

فتعللُوا بما شغلتهم به أموالهم وأهلُوهُم، فكشف الله مستورَ قلوبهم ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾[3].

لقد كان خروج رسول الله ﷺ إلى الحُديبية في السنة السادسة للهجرة، وقد مضت آيات الله العظيمة بنصر رسوله ﷺ وأصحابه، ومع مُرور كلِّ هذا فإنهم ما زالوا في شكٍ من وعْدِ الله، وما زال الخوف يملأ جوانحهم، وما زالوا يظنون أنَّ الأمر مجرد صُدف تتوارى وستأتي الحقيقة التي ينتظرونها وهي انتهاء هذا النَّبيِّ ومَن معه.

هذه نفسيَّة المُنافق، وهي نفسيَّة الجبان المخذول الذي يتعامل مع الذاهب أنه خطأ في التقدير ومع الآتي أنه حالة خاصة تستدعي الحذر وعدم الاندفاع، ويبقى كذلك حتى تأتيه القاصمة، ومثل هؤلاء الكثير في كلِّ زمنٍ، فهم يعذرون أنفسهم في ما مضى من المواقف، ويُقيمون على نفس النهج مع الآتي، لأنهم يبنون حساباتهم على أنَّ النَّصر هو النَّجاة، والفوزَ هو البقاء لأموالهم وأرواحهم، وأما الخسارة فهي الموت وخُسران الأموال ورغد الحياة. هؤلاء المنافقون لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى العُمرة، وفاتتهم بيعة الرضوان ثم كانت كرامة الله وعطاؤه لرسول الله ﷺ وأصحابه أنْ خرجوا لخيبر، فأرادوا الخروج معه، ولكن الله قال: ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ

[1] سورة الفتح، الآية: ١٦.
[2] سورة الفتح، الآية: ١١.
[3] سورة الفتح، الآية: ٢١.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾[1]. فمنع رسول الله ﷺ أن يخرج معه إلى خيبر إلاَّ مَن خرجَ إلى العُمرة وبايعَ بيعة الرضوان، لأنَّ خيبر هدية الله لهم على هذه البيعة.

ثمّ أجّل قبول توبة المنافقين إلى محنة قادمة قال الله فيها ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾[2].

وقد اختلفَ أهل العلم في هؤلاء القوم الذين هم أُولُو بأسٍ شديدٍ، فقال بعضهم: همُ المرتدون من بني حنيفة، وقال آخرون: هم أهل فارس والروم، وقيل غير ذلك[3]، وهذا التفسير هو من باب تفسير الشيء ببعض صُوره، ولكن هذا التأجيل يدل على أنَّ مسيرة الجهاد مُتواصلة، وأنَّ فتنةً ستقعُ على الدوام كما قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾[4]. وهذه كانت خاتمة قولِ الله فيهم بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، وهذا يدل كذلك أنَّ توبة المنافقين لا تكون إلاَّ بدخول هذا العمل، ولا يمكن قِياس النَّاس ومراتبهم مع قضية النِّفاق إلاَّ بالجهاد في سبيل الله تعالى، فهو المِعيار الحقّ، وهو المِقياس الربَّاني.

الصف الإيماني محنته الكُبرى من هؤلاء المرضى، وأسيادهم هم المنافقين، وهذه المحنة تتزيا بزي العلم والفقه، وهي تلبس مواقفها دائماً ألبسة العقل والمصلحة، ولن تُعدم دوماً أنْ تُحمَّل القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة معاني الجبن والبخل التي تكمن في نفوسهم، فيجعلون هذه الأمراض النفسيَّة معاني عامة تتعلَّقُ بمصلحة الأُمَّة، أو مصلحة الجماعة، وهذا فنٌ لا يعجز العقل الشِّعري «الذي يَهِيمُ في كلِّ وادٍ» أن يزينه بعبارات جميلة، ثمَّ لا يعجز المرضى بالجبن والبخل أن يُبرروا كلَّ هذا على وجهٍ عقليٍ خادعٍ، فالتبرير هو أقوى فنون هؤلاء القوم، لا يغلبهم فيه أحدٌ، ولذلك جعل القرآن معيار صدق التوبة هو مُقاتلة «قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ»، وجعل صفة القتال على وجه الذهاب فيه إلى آخره بقوله: «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ»، وهو لفظٌ يمنعُ إجراءَ أيِّ مُفاوضاتٍ وسطيَّةٍ بين هذين الأمرين، وقوله تعالى: «تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ» يحتمل المعنى الشرعي: أي أنَّ الله لا يقبل منهم إلاَّ ذلك، ولذلك قال مَن قال من أهل العلم: أنهمُ المرتدون، لأنَّ المُرتد لا يقبل منه إلاَّ الإسلام وإلاَّ

---

[1] سورة الفتح، الآية: ١٥.

[2] سورة الفتح، الآية: ١٦.

[3] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال، **أحدها**: أنهم هوازن، قاله سعيد بن جبير وعكرمة، **الثاني**: ثقيف، قاله الضحاك، **الثالث**: بنو حنيفة، قاله جويبر، ورُوي مثله عن سعيد وعكرمة، **الرابع**: هم أهل فارس، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن عطاء والحسن: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وقال ابن أبي حاتم عن الزهري في قوله تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأتِ أولئك القوم بعد، وعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنف كأن وجوههم المجان المطرقة**» قال سفيان: همُ الترك.

[4] سورة التوبة، الآية: ١٢٦.

فالقتال، وإما أنَّ المُراد المعنى القَدري ؛ أي أنَّ هـؤلاء القـوم لا يختارون قـدراً لأنفة نفوسهم دفع الجزية، وهذا وقع من فارس والروم، وأما مَن قال من أهلِ العلم: إنهم أهل الأوثان، لأنهم لا يرون قبول الجزية من المُشركين، ويجعلون جوازها مقصوراً على أهل الكتاب، والمسألة خلافية، والصحيح هو قول مَن قال: إنَّ آية الجزية عامة، وهو قول مالك رحمه الله تعالى وآخرين.

إذاً معيار ترك النِّفاق والتوبة منه هو قذفُ النَّاس في هذا المُعترك الشديد، ومن خلاله يتم التمييز ومعرفة مراتبهم، ثمَّ إنَّ منع الله تعالى للمنافقين من الخروج إلى الغنائم في خيبر مِنْ قِبَلِ رسول الله ﷺ، وهو ما تأكد بعد ذلك في سورة «التوبة»، لأنَّ «التوبة» نزلت بعد «الفتح» إجماعاً، ولذلك فقد أخطأ مَن ظنَّ من أهل العلم أنَّ الأمر في «الفتح» هو استجابة لما نزل في «التوبة» في قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ﴾[1]. يعلم هذا أهل الإسلام أنْ لا يولوا أحداً من النَّاس لم يمتحنْ بمحنة الجهاد، ولم يقفْ معها موقفَ المؤمنين، أيِّ ولايةٍ من أُمورهم الماليَّة والإداريَّة، فالغنائم مالٌ، وهي من عمد الحياة، ومثلها إدارة شؤون النَّاس وقضاياهم، ولذلك فإنَّ تولي ـ الجبناء والبخلاء ـ أمرَ الأُمَّة، أو أيَّ أمرٍ من أُمورها هو مفسدةٌ لهذا الأمر، ولذلك كان رجال الشورى هم أهل البيعة لا غير، ومَن دخل بعد ذلك فإنه يدخل تبعاً لا أصالةً، وعلى هذا تجري أمور المسلمين.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾[2].

هذه حكمةٌ ربَّانيَّةٌ في صَرْفِ مُرادِ المؤمنين عن أهدافهم التي يحبونها لأُمورٍ هي أعظم في عين الله، ومِن أجْلِ مقاصد أفضل من مقاصدهم، وقد يتم الصرف القَدري كما وقع بعض صور هذا الموقف الذي تشرحه هذه الآية، وقد يقعُ الصرف الشرعي، وهي صورة كذلك وقعتْ في الحُديبية، وحملُ هذا الكف على وجهٍ واحدٍ من الأمرين غلطٌ وقعَ فيه مَنْ وَقَعَ.

أما الصرف القَدري فقوله ﷺ: **«مَا خَلأَتِ القَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ»**[3]، وقد بايع رسول الله ﷺ أصحابه على الموت، فلم يكن قتال ولكن وقع الصُّلح وفي نفوس الصَّحابة ما فيها من الألم والحزن، ولذلك لم يدخل النَّبيِّ مكة بعد البيعة لِعِلْمِ الله أنه لو وقعَ هذا لَقُتِلَ من المسلمين المُستضعفين فيها مَن لا يعلمهمْ إلاَّ الله ولم يعلمهم الصَّحابة ﷺ، وهذا معنى

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٣.

[2] سورة الفتح، الآيتان: ٢٤ـ٢٥.

[3] البخاري في «كتاب الشروط» باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط. حديث رقم: ٢٧٣١ـ٢٧٣٢.

قولـه : ﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ ﴾، وهـذا يُعْلِّمُ المؤمنين أنهم إنْ اتقوا الله تعالى وأعْملوا جُهْدَهُمْ في إصابة الحقِّ، فوقعت الاستخارة والشورى ثم توكلوا على الله لإيقاع أمرٍ مِنَ الأُمُورِ ثُمَّ لم يكنْ أنْ لا يحزنوا، بل عليهم أن يعلموا أنَّ ما قَدَّره الله لهم هو الخير؛ وليعرضوا عن قول «لو»، وجماع هذا الأمر مجموعٌ في حديث النَّبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ. وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كان كذا وكذا لم يُصبني كذا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ. وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[1]. هذا حديثٌ من جوامع القَدر، وجوامع فِعْلِ الإنسان فيه، لا يَندُّ عنه شيءٍ، ولو تأملَهُ المرء لَعَلِمَ قِيمة هداية النَّبيِّ ﷺ لأُمَّته، فإنَّ أعظم ما فيه هو دفع المؤمن لتحقيق أسباب القوة، وهي كلّ ما في هذه الحياة، وأنْ لا يقبلَ المرءُ من كلِّ عملٍ فيه منفعة له بلا كسل ولا عجز، بل عليه أنْ يُقْبِلَ على أعظم المُهمات ولا يعجز، فإنْ وقع فهذا فضل الله وإنْ لم يقع فهذا قَدر الله وحِكمته وليغلق باب اللوم والتقريع، لأنَّ تخلف الفِعْلِ حينئذٍ لا ترتد عليه سيئاته، بل هو براءٌ منها، وهذا ما يجب على المجاهدين، فإنَّ عليهم أن يسلكوا هذا السبيل بحذافيره حتى يحققوا أمرَ الله، فإنْ صُرِفَ فِعْلٌ عن تحقيقِ مُرَادِهِمْ بعد استكمالِ المُوجِبات الشرعيَّة والقَدريَّة فإنما هو لأمرٍ في عِلْمِ الله، ولا لَوْمَ ولا تقريعَ، وهذا أمرٌ يجبُ أنْ يُرَاعُوهُ دائماً، فإنَّ هذا الدِّين دينه ولا يقدر له ولأهله إلاَّ ما فيه حِكمة، وليس الخَلق بأكثر رعاية لهذا الدِّين من الله تعالى.

وأما الصرف الشرعي فهو ما وقع لرسول الله ﷺ من إطلاق يد الأسارى الذين وقعوا في يده، أربعين أو خمسين رجلاً، حين حاولوا أن يُصِيبوا أصحاب رسول الله ﷺ، فأُخذوا، فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وهذا الصرف هو من حِكمة عقلاء القادة الذين يَزِنُونَ الأُمور بموازينها، فكلٌّ بحسبها، ولا يجعلون النَّاس والعالم والمُخالفين على وجهٍ واحدٍ، وهذا قد يجهله الصغار لأنهم أصحاب مِعْيَّارٍ واحدٍ، ولا تطيقُ عقولهم حكمة تعدد القضايا والنَّاس والحوادث وسأضربُ على ذلك أمثلة متعددة ليستوعبَ النَّاس هذا الأمر، فإنه مما سيُعاني منه القادة كثيراً مع الجنود، وربما يقع منهم ما وقع من الخوارج حين عابوا على عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قِتاله لجيش الجمل، وهو فيه معنى استحلال الدِّماء، ولم يستحلْ أموالهم ولا سبيهم، فكان منهم ما كان من الخروج عليه وتكفيره وقِتاله، ونعوذ بالله من ضلال أصحاب الجهل.

ومن هذه الصور التي كان رسول الله ﷺ يترك قتل أو قِتال البعض:-

في غزوة بدر خرج العباس عمّ النَّبيِّ ﷺ مع قريش مُقاتلاً، وعلم رسول الله ﷺ ذلك فقال: «**إني قد عرفتُ أنَّ أُنَاساً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقي أحداً**

[1] مسلم في «كتاب العلم» باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله» حديث رقم: ٢٦٦٤.

منهم ـ أي من بني هاشم ـ **فلا يقتله، ومَن لَقِيَ البختري بن هشام**[1] **فلا يقتله، ومَن لَقِيَ العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنَّه إنما أُخرج مُسْتَكْرَهاً**»، فقال أبو حذيفة بن عُتبة: أنقتلُ آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشائرنا ونتركُ العباس؟ والله لَئِنْ لقيته لألجمنه بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «**يا أبا حفص** ـ قال عمر: والله إنه لأولِ يومٍ كناني فيه رسول الله ﷺ أبا حفص ـ **أيُضربُ وجه عمّ رسول الله ﷺ بالسيف؟**» فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فأضربْ عنقه فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول بعد ذلك: والله ما آمنُ من تلك الكلمة التي قُلْتُ، ولا أزال منها خائفاً إلاَّ أنْ يكفرها الله تعالى عني بشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيداً ﷺ»[2].

هذا مع أنَّ النَّبيَّ ﷺ رفضَ أنْ يُطْلَقَ سراح العباس من الأَسر منّاً دون فِديةٍ، قال أنس بن مالكٍ ﷺ: «أنَّ رِجَالاً مِنَ الأَنْصَارِ اسْتَأْذَنُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ فَلْنَتْرُكْ لِابْنِ أُخْتِنَا عَبَّاسٍ فِدَاءَهُ. فَقَالَ: **لاَ تَدَعُونَ مِنْهَا دِرْهَماً**»[3].

ومن ذلك قصة المرأة التي أخذ الصَّحابة منها الماء، ومعجزة النَّبي ﷺ معها، وفي القصة: دعا النَّبي ﷺ عليّاً وآخر فقال: «**اذْهَبَا فَابْتَغِيَا المَاءَ**» فَانْطَلَقَا فَتَلَقَّيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ أَوْ سَطِيحَتَيْنِ مِنْ مَاءٍ عَلَى بَعِيرٍ لَهَا، فَقَالاَ لَهَا: أَيْنَ المَاءُ؟ قَالَتْ: عَهْدِي بِالمَاءِ أَمْسِ هَذِهِ السَّاعَةَ، وَنَفَرُنَا خُلُوفاً، قَالاَ لَهَا: انْطَلِقِي إِذاً، قَالَتْ: إِلى أَيْنَ؟ قَالاَ: إِلى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَتِ: الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ؟ قَالاَ: هُوَ الَّذِي تَعْنِينَ، فَانْطَلِقِي، فَجَاءَا بِهَا إِلى النَّبِيِّ ﷺ، وَحَدَّثَاهُ الحَدِيثَ، قَالَ: فَاسْتَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا...

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْمَعُوا لَهَا**»، فَجَمَعُوا لَهَا بَيْنَ عَجْوَةٍ، وَدَقِيقَةٍ وَسَوِيقَةٍ، حَتَّى جَمَعُوا لَهَا طَعَاماً، فَجَعَلُوهَا فِي ثَوْبٍ، وَحَمَلُوهَا عَلَى بَعِيرِهَا، وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا، قَالَ لَهَا: «**تَعْلَمِينَ مَا رَزِئْنَا مِنْ مَائِكِ شَيْئاً، وَلَكِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا**»، فَأَتَتْ أَهْلَهَا وَقَدْ احْتَبَسَتْ عَنْهُمْ، قَالُوا: مَا حَبَسَكِ يَا فُلاَنَةُ؟ قَالَتِ: العَجَبُ، لَقِيَنِي رَجُلاَنِ فَذَهَبَا بِي إِلى هَذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ، فَفَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَوَاللهِ إِنَّهُ لأَسْحَرُ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ وَهَذِهِ، وَقَالَتْ بِإِصْبَعَيْهَا الوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ، فَرَفَعَتْهُمَا إِلى السَّمَاءِ ـ تَعْنِي السَّمَاءَ وَالأَرْضَ ـ أَوْ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَكَانَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ ذَلِكَ يُغِيرُونَ عَلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنَ المُشْرِكِينَ، وَلاَ يُصِيبُونَ الصِّرْمَ الَّذِي هِيَ مِنْهُ، فَقَالَتْ يَوْماً لِقَوْمِهَا: مَا أَرَى هَؤُلاَءِ القَوْمَ يَدْعُونَكُمْ عَمْداً، فَهَلْ لَكُمْ فِي الإِسْلاَمِ؟ فَأَطَاعُوهَا فَدَخَلُوا فِي الإِسْلاَمِ[4].

---

[1] هو أبو البختري بن هشام بن الحارث بن عبد العزى بن قُصي القرشي. نهى رسول الله ﷺ عن قتله، لأنه كان أكفَّ القومِ عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، كان لا يؤذي رسول الله ﷺ ولا يبلغه عنه شيءٌ يكرهه وكان فيمن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم. قُتل ببدر على يد مجَذَّر بن ذياد البَلَويّ ﷺ، وهو ـ أي مُجَذَّر ـ الذي قتل سُويد بن الصامت في الجاهلية، فهاج قتلُه وقعةَ بُعَاث. وثَبَ ابنُهُ الجُلاَس بن سُوَيْدٍ على المُجَذَّرِ فقتَلَهُ غَيْلَة في الإسلام، فَقَتَلَهُ رَسُولُ الله قوداً، فكان أول من أقيد في الإسلام.

[2] رواه محمد بن إسحاق عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

[3] البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب فِداءِ المشركين. حديث رقم: ٣٠٤٨. وتفرد به.

[4] البخاري في «كتاب التيمم» باب الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ المُسْلِمِ، يَكْفِيهِ مِنَ المَاءِ. حديث رقم: ٣٤٤.

ومثلها قصة قوم ضماد كما في صحيح مسلم[1] فإنه لما أسلم ورسول الله في مكة قال لرسول الله ﷺ: هَاتِ يَدَكَ أُبَايِعُكَ عَلَى الإِسْلاَمِ، فَبَايَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَعَلَى قَوْمِكَ**» قَالَ: وَعَلَى قَوْمِي، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً فَمَرُّوا بِقَوْمِهِ. فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ[2]: هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هَؤُلاَءِ شَيْئاً؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً. فَقَالَ: رُدُّوهَا فَإِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمُ ضِمَادٍ.

ثم قصة هبة رسول الله ﷺ بني قينُقاع لعبد الله بن أبي سلول وعدم قتلهم، مع كراهة رسول الله ﷺ لهذا الأمر، فإنَّه لما أدخل هذا المنافق يده في جيب درع النَّبيِّ ﷺ قال له رسول الله: أرسلني، وغضبَ حتى رأوا لوجهه ظِلاً، فهذه أمورٌ من باب السياسة الشرعيَّة التي يرعاها الكبار ويَضِيقُ بها الصغار، وهي حوادث لا تنتهي ولا يقتصر فيها على ما ورد في السيرة، فإنَّ كلَّ أَمْرٍ أَمَرَ به الشارع على وجه العموم كجهاد الكفار، أو ترك فيه سعة الاختيار كحلم الأسرى، فإنَّ تطبيق أفراده يعود إلى المصلحة الشرعيَّة التي يراها أهل هذا الباب وخاصة الكبار منهم، ولذلك فقد كانت خُزاعة عيبة رسول الله ﷺ مُسلمِهِمْ ومُشركِهِمْ، مع أنَّ سبب مُوالاتهم له هو عداوتهم لقريش التاريخي، فإنهم هم أهل الحرم ابتداءً حتى أخرجتهم قريش منه في قصة طويلة، فبقوا كارهين لها حتى جاء الإسلام، فكانت عداوتهم لقريش سبباً في نُصحهم لرسول الله ﷺ، وقد راعى رسول الله ﷺ كلّ ذلك، ولم يُعاملهم معاملة غيرهم، فهذا بابٌ واسعٌ من السياسة الشرعيَّة ومَن لم يُراعيه خَسِرَ في معاركه خسارةً مُحققةً، فإنَّ المرءَ مهما كانت قُوته لا يستطيع أنْ يضربَ النَّاسَ بِقَوْسٍ وَاحِدَةٍ، لأنَّ النَّاس كذلك ليسوا في مرتبةٍ واحدةٍ حتَّى لو كان جامعهم اسم الكفر أو الردة، وهذه المسألة إدارية تحتاج إلى كثيرِ شرحٍ لإدْرَاكِ معانيها، وضبطِ حدودها، فمثلاً باب قتال المُرتدين يحسن التفريق فيه بين المقدور عليه وغير المقدور، ويحسن التفريق بين قتال الطوائف وإقامة حدِّ الردة، كلّ هذا يُقدم فيه ويُؤخر بحسب مصالح الشرع وتحقيق مقاصد الجهاد في سبيل الله تعالى.

والسياسة الشرعيَّة لا تنتهي حوادثها، ومَن يطلب دليلَ كلِّ عملٍ فيها على وجهِ الخصوص دون العمل بعموم الآيات والأحاديث حاله كحال جامدي الظاهرية الذين قصروا سجود السهو على الصور التي وقعت في الحديث زمن النَّبيِّ ﷺ دون غيرها حتى لو كانت من مَعنِيهَا، وهذا خلاف الحقِّ وما عليه أئمة الهُدى والدِّين.

فالقصد أنَّ الله يصرف عباده المجاهدين عن أفعالٍ أرادوها لحكمةٍ يعلمها، وهم كذلك ينصرفون عن أمور من إفراد الأمر مع انشغالهم بأصله وفُروعه الأُخرى لمقاصدٍ وحِكَمٍ يعلمونها.

ختاماً فالسورة مليئة بالعظات والمعاني لأهل الجهاد خاصة، وهي مُغرية للقراءة، فإنَّ أسلوبها لتقريراتها لها وقعٌ وجرسٌ خاصٌ على القارئ والسامع، يستطيع المتأمل أنْ يقول الكثير، ثمَّ إنَّ

[1] مسلم في «كتاب الجمعة» باب تخفيف الصلاة والخطبة. حديث رقم: ٨٦٨.
[2] ورد عند أبي نعيم في «دلائل النبوة» أنه علي بن أبي طالب ﷺ.

وقوعها بعد سورة «محمد»، وهي سورة «القتال» ما يفتح من المعاني التي لا يخطِئُهَا طالب العلم، ولكن كون المقصد هي مغازي رسول الله ﷺ في القرآن الكريم فلنقفْ هنا ولنخبر فقط عن هدية الله لأصحاب رسول الله ﷺ بعد تسليمهم له في صُلح الحُديبية، وما فعلوه من موقفٍ عظيمٍ في بيعة الرضوان، هذه الهدية هي غزوة خيبر التي ذُكرت في آيةٍ واحدةٍ مع أنها الغزوة التي حققت بعض الشبع لأصحاب رسول الله ﷺ كما قالت أُمُّنا عائشة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق، فرضي الله عنها وعن أبيها وعن جدها، وصلى الله على حبيبها وزوجها رسول الله: «لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ، قُلْنَا: الآنَ نَشْبَعُ مِنَ التَّمْرِ»[1]. وكما قال ابن عمر رضي الله عنهما: «مَا شَبِعْنَا حَتَّى فَتَحْنَا خَيْبَرَ»[2].

خيبر هذه التي كانت في السنة السابعة للهجرة النَّبويَّة الشريفة، أي إنَّ كلَّ مسيرة الجهاد قبلها كانت على الجوع حيث لا يجدون التمر إلاَّ قليلاً، فلا أشبعَ الله بطونَ الجُبناء والبُخلاء كارهِي المجاهدين في سبيل الله تعالى.

هذه الآية هي بعد قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[3]. قال سبحانه: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾[4]. فقد بدأتِ الغنائم الكثيرة تتساقط في يد أصحاب رسول الله ﷺ بعد الفتح في صُلح الحُديبية، وهناك غنائم موعودة قادمة لكلِّ مَنْ سلك هذا الطريق كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[5].

لكن مما ينبغي التنبيه عليه أنَّ قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ ﴾[6]. فإنَّ هذه الآية يجبُ فهمها على حقيقتها القَدرية على الوجه الذي وقع لرسول الله ﷺ حتَّى ذِكْرِ الآية.

لقد قاتل المسلمون قريشاً في أُحد ولم يقع هذا التولي من الكفار، وقاتلوا الروم في مُؤْتَة ولم يقع كذلك، فما وجه هذه الآية إذاً؟.

لهذه الآية وجهان: **أولهما**: ما حمله بعض أهل التفسير عن واقعة أهل الرِضوان مع مَن جاء مِن المُشركين لقِتالهم من أهل قريش، ذلك لأنَّ أمرَ المسلمين مع قريش صار على هذا المعنى الذي قدمناه في معنى الفتح المُبين في صدر السورة، فإنَّ قريش صارت مهزومةً في كلِّ موقعةٍ، إذْ انتهى أمر قُوتها

---

[1] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة خيبر. حديث رقم: ٤٢٤٢. وتفرد به.

[2] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة خيبر. حديث رقم: ٤٢٤٣. وتفرد به.

[3] سورة الفتح، الآية: ١٨.

[4] سورة الفتح، الآية: ١٩.

[5] سورة الفتح، الآيتان: ٢٠-٢١.

[6] سورة الفتح، الآية: ٢٢.

وأنهكتها الحرب، وصارت قوة المسلمين ظاهرةً على كلِّ وجهٍ وخاصةً الوجه المعنوي الذي وقع بتِكرار النَّصر لهم والهزيمة لأعدائهم، والتِكرار للهزيمة محبطٌ للنُّفوس، ويقضي على كلِّ إرادةٍ مندفعةٍ.

ثانيهما: أنَّ هذه الآية محمولةً على العواقب في خُلاصة اللقاءات بين طائفة الإيمان والكُفر عملاً بقوله تعالى: ﴿ **وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾[1]. فإنَّ نهاية الكُفر إلى تولي وإدبار على وجه السُّنة التي وقعت لرسول الله ﷺ، والتي هي سُنن الأنبياء وأتباعهم كما قال الله تعالى بعد هذه الآية: ﴿ **سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾** ﴾[2]. وهذه الآية هي مِن أرجى الآيات عند المجاهدين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، تُقَوِّي عزائمهم، وتشدهم لوعد الله تعالى الصادق مهما كثرت المشاق والظلمات، ومهما أصابهم من قُرُوحٍ وَمِحنٍ.



1 سورة الأعراف، الآية: ١٢٨. / سورة القصص، الآية: ٨٣.
2 سورة الفتح، الآية: ٢٣.

غزوة حُنَيْن

لقد وصلتِ الدولة والدعوة بعد فتح مكة إلى مداها في داخل الجزيرة العربية، إذ صار الإسلام هو القُطب الأول، وشَعَرَ الصَّحابة بأمانٍ نفسيٍّ سابغٍ، انعكسَ هذا الأمان على الحِرَاك العسكري وأسلوب تنقله، وهذا خطرٌ شديدٌ، فإنَّ مفهومَ الكثرة والقِلَّة في حَسْمِ نتائج الحروب يجب وصفه في إطاره الصحيح، بل يجب إنزاله عُنْصُراً تَالِياً عنِ العناصر الرئيسيَّة الأُولى، ومسيرة الصَّحابة ﷺ علمتهم هذا في كلِّ المواطن السابقة، إذ تقدمت عناصر البناء النَّفسي الإيمانيَّة، وعناصر الشَّجاعة والفِداء، وعناصر الحذر والوحدة، فجاءت غزوة حُنَيْن لتقيِّدَ استفزاز هذه العناصر، ولِتُقدم صورة العاقبة ما لو تجاوزها الجنود.

لقد فُتحت مكة، ودخل آلاف جديدة في الإسلام، فنمت قوة المسلمين العَددية والمعنوية، فلما شدُّوا الرِّحال إلى تجمعٍ قبلي يتزعمه مالك بن عوف، وكان تحته قبائل من هوازن وثقيف وغيرهما ليُعالجوهم، وخرجوا في حالةٍ من الاسترخاء، هذا الاسترخاء الذي صنعته الثِّقة بسبب الوضع الجديد المُخالف لحروبهم السابقة، وهو وضعٌ خطيرٌ مُدمرٌ للجيوش والجنود.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[1]. هذه أول الآيات نُزولاً من سورة «التوبة» كما هو مُروي عن مجاهد بن جُبير المكي، وإذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى؛ لأنه أخذه عن ابن عباس رضي الله عنهما تُرجمان القرآن، وقوله هذا وإنْ كان مِنْ قَبيلِ الرواية لكن أغلب الظَّنِّ أنه أخذها عن الحبر ﷺ، وهي آيات تُذَكِّرُ المؤمنين بعامل النَّصر الرئيس الذي يقعُ لهم دوماً، وهو تأْيِيد الله لهم، وذلك بما علمهم من أسبابٍ، وبما هدى الله قلوبهم إليها، وبما يُنزل معهم من جنود غيبيَّة تُؤيِّدهم وتُقوِّيهم، وتُلقي في قلوب أعدائهم الرُّعب، وكلّها كما قال ترى أسباب عُمدتها الإيمان بالله تعالى على وجهٍ من الباطل أهمها الصدفة بعدم وُقوع القتال مع قومٍ يُتقنونه كما قال أكثرهم، أو على معنى خُرافي باطل كالسحر وغيره، ولكن الصَّحابة ﷺ كانوا يحسُّون حقّاً تغيّراً في نفوسهم بسبب هذا الإيمان، واندفاعاً حميداً بما معهم من رصيد الوعود القرآنيَّة والنَّبويَّة، ويرون كذلك كرامات لهم ومعجزات لنبيِّهم ﷺ تُثْبِتُ لهم صوابَ ما هم عليه من الدِّين، لكن لم تكن هذه الكرامات والمعجزات لِتصل إلى إلغاء الفِعل

[1] سورة التوبة، الآيات: ٢٥-٢٧.

البشري الذي يُباشرونه هم كما وقع مع الأنبياء السابقين مِن هلاك أعدائهم، ذلك لما قلتُ سابقاً لتحقيق الأُسوة والقُدوة في هذه السورة لأُمَّةِ الإسلام مِن بعدُ، فإنَّ التأيِّيد الإلهي لا يقعُ إلاَّ على وِعائه الصحيح المُلائم له من شجاعةٍ وَجُودِ وعقلٍ وسلامةَ قصدٍ وإتباعٍ للسنن، وإنْ تخلف شيءٌ من هذا فإنَّ التأيِّيد سيتخلف ولا شك.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

كان الصَّحابة ﷺ في مكة وبداية عهدهم في المدينة يعيشون على الوعد الإلهي، فحين يأتي خباب بن عدي ليشكُو لرسول الله ﷺ ما يُلاقيه الصَّحابة من قريش فيلقي عليه رسول الله ﷺ نُور الوعد القادم، وبُشرى الأخبار الصادقة التي تنتظرهم في المحطات القادمة، فتُقوِّي قلوبهم، وتنشط أرواحهم، وتزداد عزائمهم صبراً وتحملاً، فالوعود هي الوقود الذي يُديم المسيرة.

كانت الوعود يومها تتعلَّق بالجزيرة العربية كما في حديث خباب ﷺ: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[1]،[2]، وفي المدينة في حفر الخندق يصبح الوعد كسرى وقيصر وفتحمها وإنفاق أموالهما في سبيل الله تعالى.

كان النَّصر أملاً يتهادى في جوانحهم، فهو اليقين الذي يترقبون وُقوعه، ولكما اشتدتِ الظلمات عليهم أضاء لهم نوراً يُزيلها ويُبددها.

في هذه الآية: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾. كان فيها تذكيرٌ بصدقِ الوعد، إذْ وقع الكثير منه، وتحقق النَّصر مرةً ومرةً ومراتٍ، وكلّ هذه الانتصارات رأى الأصحاب فيها يد الله ورعايته وتأييده وتدبيره.

في الحروب لا يُوجد نصرٌ وحيدٌ ونهائيٌّ، وحين تكون أُمَّة الإسلام هي أُمَّة الدعوة إلى الله فهي أُمَّة الجهاد الذي لا ينتهي، ولذلك فلا عجبَ أنْ يُذكِّرَ الله الصَّحابة ﷺ بنصره لرسوله ﷺ يوم الهجرة في هذه السورة نفسها «براءة» فيقول: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾[3]، ثمَّ لا عجبَ أن يكون صُلح الحُديبية فتحاً مُبيناً، ولم ينتهِ الأمر بفتح مكة بل ها هو الحديث عن النَّصر يدور بعد الفتح الأكبر، وهكذا تجري أقدار هذه الأُمَّة المجاهدة، وحين يتوقف هذا الدفق الجهادي،

---

[1] البخاري في «كتاب الإكراه» باب من اختار الضَّرب والقتلَ والهوانَ على الكُفر. حديث رقم: ٦٩٤٣. طرفاه في: ٣٦١٢، ٣٨٥٢.

[2] الشيخ أبي قتادة ـ حفظه الله تعالى، ورفع قدره في الدارين ـ شرح هذا الحديث العظيم في رسالة مستقلة بعنوان: «طِيب المقال في حديث الاستعجال» شرح حديث خَباب بن الأرت ﷺ: «**ولكنكم تستعجلون**». وهي متوفرة على موقع: «منبر التوحيد والجهاد».

[3] سورة التوبة، الآية: ٤٠.

فتتوقف الانتصارات، يعني هذا أنَّ الأُمَّةَ صارت في نُزُول وأُفُول، وبدأ خطها البياني بالهبوط حتى تتلاشى «الأُمَّة» بكيانها وهويتها، ويصبح المسلمون مجردَ أفرادٍ لا هَوية لهم تجمعهم، وهذا من أشدِّ صُوَرِ فُقْدَانِ مفهوم الدِّين الذي هو رحمة للعالمين، وهو ضَيَّاعٌ حقيقي لمفهوم الخيرية والشَّهادة، وهي أخص خصائص أُمَّة الإسلام.

إنَّ النَّصر في هذا الدِّين ليس مفهوماً نفسيّاً فقط يعطي أصحابه عِزة الإيمان ورفعة قيمه التي يدينون بها، بل إنَّ النَّصر هو فريضةٌ ربانيَّةٌ لأنه يحقق للمسلمين أداء فرائضهم الربَّانيَّة بأداء أحكامه في الخَلق، فمِنْ غير النَّصر لا يمكن للكثير من الأحكام الشرعيَّة أن تُطبق، لأنَّ هذه الأُمَّة مسؤولة عن إدارة العالم وقيادته وإرشاده، وهذا ما يقتضيه مفهوم الخيريَّة ومفهوم الشَّهادة، فسعي المسلمين للنَّصر هو سعي لتحقيق واجبٍ شرعيٍّ، لا تتحقق واجبات شرعيَّة إلاَّ به، وهو نصرٌ لا يتحقق معناه إلاَّ بالغلبة والتمكن، ولا يدوم إلاَّ بدوام الجهاد في سبيل الله في كلِّ الظروف والأوقات والأموال.

حتى يفهم المسلمون معنى وراثة الرسالة يُدْرِكُوا يومها أنَّ الجهاد هو حياتهم، فالتوحيد هو دينهم وهو شريعتهم، لأنَّ كلَّ أمرٍ ربانيٍّ هو تحقيقٌ لصفةٍ من صفات الله تعالى، والجهاد هو آلة هذا الدِّين وهو حياته ووِعَاؤُهُ، والذين يُعارضون هذا الفهم ليقرؤوا فقط قراءة عددية لآيات القرآن التي تحدثت عن الجهاد وحياته وظروفه وقضاياه وأحكامه ومواقف النَّاس منه في القرآن الكريم، حينها سيُبْصِرُونَ بأنفسهم حقَّ هذا القول وصوابه.

لا يمكن لِرَجُلٍ مُنْصِفٍ عَاقِلٍ إلاَّ ويُدْرِكْ أَنَّ كلَّ انحرافٍ عن مفهومِ الجهادِ سَيَعْقُبْهُ لُزُوماً تَغَيُّرٌ لمفهومِ الدِّين وحقيقتِهِ ودوره في الحياة البشريَّة، وستُصبح صبغة الأُمَّة صبغة وَضْعِية تمحو صبغة الله التي رضيها لها.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

فحياة الصَّحابة إذاً هي حياة الغزوات الكثيرة، هذه الحياة التي كانت فيها القفلة كغزوة، ولا فرار فيها بل كرار، وحين يقع بينهم الحديث أنْ لو تفرغوا قليلاً لبعض مصالحهم الزراعية التي ساءت أموالها بسبب عدم تفرغهم لها جاءهم الوعيد الإلهي بقوله: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1]. فترك الجهاد في سبيل الله هو التهلكة، والحياة في جهاد دون غيره.

هذا ليس وعظاً يحمل الألفاظ الجميلة لمعاني ضعيفة، بل هو دين الله تعالى، وهو حقيقة التاريخ وقانونه الصارم الذي يدوس مَن يقف أمامه، والذين يخالفون هذا سيقفزون إلى حوادث تاريخية يلوونها لتلاءم مفاهيمهم، وآخرون سيذهبون إلى البيان اللغوي ليركبوا منه الكلمات أحلاماً

[1] سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

جميلة، ورُؤى طائرة لا تمت إلى الأرض بصلة، إلاَّ بكون أصحابها استمرؤوا كثيراً صناعة الأوهام الحالمة، ولن تعدم آخرين يتقنون صيد خواطر العلماء السابقين، هذه الخواطر التي قيلت يوماً تنفيساً عن موقفٍ، أو وصفاً لحالةٍ يوميَّةٍ ليدخلوا فيها كلّ القرآن وحياته، وكلّ حياة الصَّحابة التي مضت على وجهٍ ونسقٍ واحدٍ في مجموعها واتجاهاتها.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾.

هو تذكيرٌ يُوجِبُ صياغة أحكام المؤمنين أنَّ هذا الدِّين يرعاه الله سبحانه وتعالى، لكن بشرط الوقوف في الصف الذي يستحق النَّصر، والثبات على النهج الذي يأتي منه النَّصر وهو الجهاد في سبيل الله، ولقد وقعت هذه الآية موقع التاريخ الحقيقي لأُمَّةِ الإسلام، فلو نَظَرَ الناظر لَوَجَدَ أنَّ الانتصارات هي الأكثر في تاريخها، هذا مع أنها الأُمَّة الأكثر تعرضاً للغزو وتعرضاً للمحن، والأُمَّة الأوسع وُجُوداً، والأكثر انتشاراً، ومع كلِّ هذا فإنها كانت دوماً تخرج من مُعْضِلَةِ الفَناء التي تعتري الأُمم الأُخرى، وتقفزُ إلى الواجهة المُؤثرة والمُثيرة في تاريخ العالم، ولذلك ليس مما يُستنكر أنَّ كلَّ الحضارات وهي في لحظة انتشائها وبهجتها يتنبأ الدارسون فيها إلى خطر هذه الأُمَّة على وُجُودِهِم، والكثير منهم يُطلق زفرات الحسرة أنَّ الوراثة ستكون لهذه الأُمَّة دون غيرها، يقولون هذا لمجرد وُجود ومضات ضعيفة تبرق هنا وهناك، ولذلك يكون السعي دوماً في منع تشكل هذا في عقليَّة المُجددين والمُصلحين، ويتم دفعهم إلى قضايا جُزئية تستغرقُ علومهم وطاقاتهم، وآخرون يتم احتوائهم داخل المنظومة الجاهلية وذلك على درجات رفضهم لهذه الجاهلية، والخوف الأكبر هو خروج قائد لا ينضبط بأدوات الصِّراع الذي تفرضه الجاهليَّة، ويكفر حقّاً بمناهجها وآفاتها المأذون فيها، وهذا هو أساس الانطلاق لتحقيق النَّصر على روح الجاهليَّة، وعلى قواعد وُجودها، وهذه مهمة شاقة وباهظة التكاليف، لأنَّ أساس الخصومة النَّبويَّة المحمديَّة مع قريش كان يدور حول أساس الوجود الإنساني يوماً لقريش وهم الآباء والأجداد، وذلك في ارتكازهم على الآلهة التي يحج لها كلّ العرب ويأتلفون حولها.

الأصنام شِرْكٌ عقائديٌّ خطيرٌ، وهو أخطر مرضٍ تُصَابُ به البشريَّة، لكنَّه يتسرب مع مرورِ الوقت إلى جوانب الحياة الأُخرى السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، وعلى ضوء ذلك تنشأ قِوى ومؤسسات تُدْرِكُ أنَّ انهيار الصنم يعني انهيار الوجود، ولذلك قال فرعون لقومه وهو يخوفهم من إتباع موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[1]، بل إنَّ الجاهليَّة لَتُحَارِبْ على قوانينها لأنها تعلم أنها سِياج الحمايَّة لوجودها، فانهيار القانون يعني انهيار المرجع، وهذا دمار للمؤسسة، فحين دعا لوط عليه السلام قومه إلى الزواج من بناته ليصرفهم عن جريمتهم وخطيئتهم أجابوه: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ

[1] سورة الأعراف، الآيتان: ١٠٩-١١٠.

الزواج من بناته ليصرفهم عن جريمتهم وخطيئتهم أجابوه: ﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾[1].

فتأملْ في قولهم: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ لِتُدْرِكَ رعايتهم لقانون الخطاب الذي يُوجِبُونَهُ على هذا النَّبيِّ العظيم، ولذلك فإنَّ الذين يدخلون في قانون الغير، أي قانون الجاهلية، وهم يزعمون تحقيق مصالح الإسلام، أي تحقيق العبوديَّة لربِّ العالمين هم مخطئون في فهمهم لقانون الصِّراع بين دينين، وبين منهجين، فإنَّ ما يفعلونه بِصُلْحٍ بين فرقتين داخل المنهج الواحد والدِّين الواحد، أما بين دينين فهذا يعني لُزُوماً أنَّ أحدهم تخلى عن دينه ومنهجه لصالح الآخر، وهذا هو عين الهزيمة، وهو تخلي حقيقي عن رعاية الله تعالى ونصره الذي يُوقعه للمؤمنين في حياتهم وجهادهم، فَهَؤُلاَءِ الضُّعَفَاءُ عِلْماً وَسُلُوكاً وَوَعْيّاً حين يقولون: لقد قبلنا قواعدكم يعني هذا أنهم تخلوا عن منهج دينهم، ولن يُدركوا مقاصده ولا أهدافه أبداً.

نعم، هم يزعمون أنَّ هذا أسلم وأبعد عن الدِّماء والفتن والتكاليف، لكنه كذلك أبعد ما يكون عن الوصول لتحقيق عبودية ربِّ العالمين، وهو ما تتمناه الجاهلية دوماً، بل هي استعدادٌ أنْ تذهبَ بعيداً مع هؤلاء في تحقيق مطالبهم ضِمْنَ هذا السلوك، وإعمالاً لقواعدها، وحين يتحقق لهم بعض مقاصدهم يتم الصراخ: أرأيتم لقد حققنا نصراً دون السير في ما يدعونا إليه المجاهدون - ويُطلقون عليهم أوصاف التشدد وأصحاب مذاهب العُنف وغير ذلك من ألقاب -، والحقّ أنَّ كلَّ هذا ضمن خُطة الخصم، وهو تحت رعايته، ولم يخرج هذا النَّصر المزعوم الخادع عن مدى رمَّة الدابة التي تجول فيها وهي في أيد راعيها، فما أنْ تتغيَّر بعض الأمور حتى يتم شد الرّسن، وتتكرر الصورة، وبتكررها ينشأ اليأس من تغيِّير الواقع، ويتفلت النَّاس إلى مطالب صغرى وضعيفة ومقبولة للجاهليَّة، وهكذا تنتهي كلّ تجربةٍ بتجردٍ جديدٍ من مطالب الإسلام حتى ينتهي الإسلام إلى مجرد شعارٍ لا حقيقةَ له، ويُصبح الإعلان بين الفِرق أنَّ الخلاف هو على برامج دنيويَّة، وهكذا ينتهي الدِّين، ويذوب مفهوم العبودية، وتُربط العصابات على أعين أصحاب الشعار الإسلامي أنَّ الخلاف ليس حول الصنم، ولا حول الشرك والإيمان، وحين يصل الأمر لهذا المستوى يُدرك البعض إمكانيَّة التقاء البرامج بين المسلمين وغيرهم، ولا عجبَ بعد ذلك أنْ يُصبحَ حزبٌ سياسيٌّ مشركٌ كافرٌ بالله أقرب لهذا الحزب الإسلامي من مسلمين آخرين هم خارج هذا السياق وهذه المظلة.

هل هذه انتصارات؟!.

سمَّاها بعضهم كذلك، لكن يجزم الجميع أنَّ الجاهلية تضحكُ في داخلها، لأنها استطاعت إدخالهم أطفالاً في رِعايتها، تُدير شؤونهم، وتُضبط مشاغباتهم، وتُكافئ محسنهم، وتُؤدب

[1] سورة هود، الآية: ٧٩.

مُسيئهم، فإنْ كان ما يُعطى لهم من حَلْوَى في نهاية الشوط هو انتصارٌ في مفهوم القرآن ومفهوم التاريخ فقد تغيَّر الكثير من مفاهيم الحياة، وهذا حقّ وخاصة ونحن في عصر ما بعد الحداثة.

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾: إنَّها آيةٌ تقول لأهل عصرنا اليوم ممن كرهوا طريق الجهاد وذهبوا بعيداً عنه.

هل تشكون في وعد الله؟! وهل أصابكم الوهن فبدلتم وغيَّرتم؟! فما الذي جعلكم تقبلون الهزيمة، وترضخون لشروط الكُفر وقواعده، فاستبدلتم الذلة بعزة الإسلام؟!.

لقد غيَّرتم وبدلتم لأنكم كرهتم طريق الجهاد، فهو طريق الشَّهادة، وابتلاء الرفاق، وتمحيص ما في الصدور، فآثرتم حبَّ الدُّنيا على حبِّ الموت، وقذف في قلوبكم الوهن.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

هذه عظةُ القرآن للمسلمين هذه الأيام حين يُؤجلون الجهاد حتى يتم تحقيق توازي القِوى بينهم وبين أعدائهم، فيُقَيِّدُونَ شباب الجهاد بفتاوى الباطل، ومذاهب الجبن والبخل، ويزعمون أنَّ لهم في رسول الله ﷺ أُسوة حين كان يجيبهم إنْ سألوه قتال قريش قبل الهجرة: « **إنا لَمْ نُؤْمَرْ**»[2]، وهذا من الافتراء وليس من الإقتداء بشيء، فإنَّ القوم اليوم قالوا أشدّ الأوصاف ضدَّ الجهاد، وقذفوه بأشنع الأقوال وأقذعها، ورموا أهله بكلِّ نقيصةٍ حتى كأنَّ كلَّ هذا الشرِّ في العالم هو سببه، وكأنَّ كلَّ بُغْضِ الكافرين للإسلام هو صانعه، فهل هذا هو معنى قول رسول الله ﷺ: « **إنا لَمْ نُؤْمَرْ**»؟!.

هناك في الأرض جهادٌ يحقق الانتصارات، وجهادٌ يُبْطِلُ مشاريعَ الكُفْرِ، وجهادٌ يَضْرِبَ أروعَ الأمثلةِ في حبِّ الشَّهادة وحبِّ الدَّار الآخرة، وجهادٌ يُوَطِئُ الأُمَّةَ لإعادة دورها الذي وصفه القرآن لها، وجهادٌ يحيِّي أحكاماً في الشرع نسيها النَّاس لِطُولِ العهد بها أو لمحاولات طمسها من مشايخ الهزيمة والتحريف، ثم يأتي مَن يُسمي كلَّ هذا إفساداً في الأرض، فهل قولهم هذا يلتقي بوجه الإقتداء برسول الله ﷺ: «**إنا لَمْ نُؤْمَرْ بَعْدُ**»؟!.

فهل تثبيطُ النَّاس عن الجهاد وأهله؟! وهل سببُ الجهاد وممالأة أعدائه هو معنى قوله ﷺ: «**إنا لَمْ نُؤْمَرْ بَعْدُ**»؟.

ثمّ هل كان رسول الله ﷺ يُصالح الكفار بمدح دينهم، أو يأمر الأصحاب بالدخول في طاعتهم، أو كان يتنازلُ عن سبِّ آلهتهم وعيبها وعيب آلهتهم وهو يقول لأصحابه ﷺ: «**إنا لَمْ نُؤْمَرْ بَعْدُ**»؟!.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٢٥.

[2] البيهقي في «دلائل النُّبوة» باب ذكر العقبة الثانية وما جاء في بيعة من حضر. الجزء الثاني الصفحة ٤٤٤. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٨٨م).

إنَّ القوم اليوم اتخذوا هذه الكلمة للانسلاخ مِن تَبعة الجهاد، ثم مشواْ على نفس النهج من الانسلاخ من كلِّ ما يحقق لهم التصادم مع الجاهلية لأنَّ هذا يعني إضراراً بشهواتهم وأهوائهم.

إنه منهج الهروب من المبادئ، لا منهج تحقيقها في الأرض على وجهٍ يحتمله العقل الذي يعلم أنَّ صدق المرء مع مبادئه يعني أن يُقدم الكثير.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

في هذا اليوم يصفُ القرآن أحوال الجنود، أو بعضهم، يصف نفوسهم، وليس شرطاً أنَّ أحدهم قال ما رُوي من أقوال: «لن نُغلبَ اليوم من قِلَّة»[1]، فهذا غير كافٍ في وصف سبب الانهيار، لأنَّ القرآن يصف النُّفوس، وهذه النُّفوس قد تُترجم ما فيها كلاماً وقد تكتمُ ذلك، إنما حدث هذا ووقع الإعجاب بالكثرة، وهذه الكثيرة ليست عيباً لكن العيبَ هو الإعجاب فيها، وهذا يُبطل قضيتين من أركان النَّصر؛ **الأولى**: قضية العلاقة مع الله تعالى وفصل حركته عن التوفيق الإلهي والرعاية الربَّانيَّة، لأنَّ هذا الدِّين ليس شأناً أرضياً فقط كما هو شأن الأديان الأُخرى يرعاها أهلها بوسائلهم وقِواهم، ويسعون لتحقيقها من خلال ذواتهم فيضطرون لسلوك الباطل لُزوماً أو الانتكاس عن أُفقِ الآمال التي يريدونها، فهذا ما تقع به كلّ الأديان والمذاهب الباطلة، فهي بين حدين؛ **أولاهما**: الأُفق الذي تريده في الوجود. **ثانيهما**: القُدرة والوسع فإنْ حافظت على الهدف اضطرت لسلوك المضايق غير الأخلاقيَّة، وإنْ حافظت على قيمها في الوسائل اضطرت للتنازل عن أُفق أهدافها، وهذا الدِّين لا يقبل هذين أبداً، وبهذا يحتاج إلى مددٍ غيبيٍ هو عُدة المؤمنين في جهادهم مع قُدرات محددة أمام سُمُوِ الأهداف وارتفاعِ أُفقها، ولذلك كانت كلّ الحروب النَّبويَّة وما تبعها من الحروب الإسلاميَّة يحصل لها الإمداد الغيبي من الملائكة وجنود السكينة والرُّعب.

أما القضية الثانية التي يُبطلها الإعجاب بالكثرة فهي سلوك الجنود في حروبهم ومسيرتهم، فليس هناك قط حربٌ مضمونة النتائج مهما بدت القراءات السابقة لها، وهذا يعلمه كلّ من قرأ تاريخ الحروب في التاريخ، والذين يذهبون إلى الحروب وهم في حالة استرخاء لضمان نتائجها سيدفعون ثمن هذا، فمادة الحروب هو الإنسان، وهو العُنصر الأكثر فَعالية، وتعقد عليها أكثر النتائج، والبناء النَّفسي لهذا الإنسان هو سلاحه الأكثر فاعلية، حتى هذا العصر الذي تقدمت فيه الآلة العسكرية وتمددت على حساب الإنسان والجنود، فإنَّ الأرض ودوام السيطرة عليها تعود إلى هذا العنصر أكثر من غيره.

---

[1] الهيثمي في «مجمع الزوائد» باب غزوة حُنين. عن أنسٍ قال: قال غلامٌ منّا من الأنصار يوم حنين: لن نغلب اليوم من قِلَّة... وقال عنه: رواه البزار، وفيه: علي بن عاصم بن صُهيب، وهو ضعيف لكثرة غلطه وتماديه فيه، وقد وُثِّق، وبقية رجاله ثقات. حديث رقم: ١٠٢٦٤. الجزء السادس، الصفحة ٢٦١. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٤م).

لقد تبيَّن اليوم أنه يمكن أنْ تحقق الآلة فِعْلَ الهدم السريع، لكن تبيَّن كذلك أنها كشفت سرعة انكشاف ضعف هذه الآلة في الحِفاظ على المكاسب الذي يحققه هذا الهدم، وبالتالي فإنَّ غرور القوة مَنَعَ من تحقيق الأهداف التي تسعى لها الحروب، إذ فقدَ الجنود المئات من القتلى يؤدي إلى تلاشي إراداتهم أمام خصومهم، مع ما رافق هذا من إرهاقٍ ماليٍّ خطيرٍ لا تحتمله الشعوب التي تغذي هذه الحروب، لأنَّ الحروب ليست فِعْلاً منبتاً عن المجتمع الذي يغذي الجنود بكلِّ ما يحتاجونه من أعداد وإعداد، فقوة الآلة وغرورها ارتد سلباً لعدم وجود الإنسان الذي يُساير هذه القوة.

من هنا فإنَّ القوة الأخطر في يد الخصم ليست القوة مهما بلغت، بل همُ المنافقون، لأنَّ هؤلاء هم من يحقق للأعداء مقاصدهم في داخل المسلمين بعد أن تفعل القوة عملها بالهدم والتخريب، وهؤلاء بضاعة رخيصة، يُباعون بأسعارٍ زهيدةٍ، ويعملون جُهْداً أكبر بكثير من الثمن الذي يطلبونه، ولذلك عندما عجزت «الإمبراطوريات الكُبرى» من الحفاظ على مناطق نفوذها لما ترتب على ذلك من تكاليف جنود وإرادات، ومن فُقدان عامل الدفع الذي كان موجوداً في الهجمات الأولى عند شعوب هذه الإمبراطوريات الحاكمة اضطرت للانسحاب، واستعاضت عن ذلك بالأُجَرَاءِ، وهم رَخِيصُو الثمن، شَدِيدُو الإخلاص لأنَّ ارتباطهم بأسيادهم ارتباطٌ وُجُودِيٌّ، يُدركون من خلاله أنَّ لا حياة لهم من غير هذه التبعية والانقياد، ثمَّ هم أقدر على صُنع الغطاء الكاذب والخطاب الخادع من الأجنبي.

لقد أعجبتهم كثرتهم ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾. شرط الكثرة لتحقيق أهدافها أنْ يكون من فيها «جماعة»، يُوحِّدُهم الهدف والقيادة، وإلاَّ فهم واحدٌ، هذا مجموعهم، لا يزيد عن ذلك، ولكن خطورة الإعجاب بالكثرة هو دفع المُهمات للغير، لأنَّ المرءَ حينها يرى أنَّ غياب فِعْلِهِ لن يُؤثر في تحقيق الأهداف، إذ غيره سيتولى ذلك، ولكن حين القِلَّة يعلم المرء ويُوقِنْ في نفسه أنَّ أيَّ تقصيرٍ منه أو تأخرٍ أو ضُعْفٍ سيؤثر سلباً على النتائج، وقد ملأ الإسلام هذا الأمر بقوله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَتِهِ**»[1]، فعلى كلِّ مسلمٍ أنْ يشعر مسؤوليته دون غيره من مهمات هذا الدِّين وواجباته «**فَلاَ يُؤْتَيَن مِن قِبلِكَ**»، ومن هنا يأتي الشعور بالمسؤولية، وهي أهم مطالب التغيِّير، وكلما ارتقى المرء في هذا الشعور كان تقدمه في الإمامة والوراثة، وكلما تلاشى شعور المرء بالمسؤولية كلما تأخر وتباعد.

لقد كتب الأستاذ «محمد أمين المصري» رحمه الله كتاباً في هذا الباب[2]، وهو من الكتب المهمة التي تحتاجها الأُمَّة لتحقيق الخطوات الحقيقية نحو التغيِّير، وهذا الرجل «محمد أمين» كان من أهل المُعاناة

---

[1] البخاري في «كتاب النكاح» باب المرأة راعية في بيت زوجها. حديث رقم: ٥٢٠٠. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرَّعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم. حديث رقم: ١٨٢٩.

[2] عنوانه: «المسؤولية..» وهو من مطبوعات دار الأرقم بالكويت.

في هذا الباب، وإنْ لم يأخذ حقَّه من الاعتناء، كما أنَّ ذهابه إلى الأعمال الإدارية والأكاديمية قلل كثيراً من آثاره على مستوى الأُمَّة، رحمه الله رحمة واسعة.

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾.

كان يوماً لا أكثر بل هي ساعات قليلة، لكن كان يمكن أنْ يتحقق فيها انهيار كلّ سنوات البناء السابقة، إنَّ بمجرد استرخاءٍ يسيرٍ، وغفلةٍ عن عِظَمِ المَوْقِعَةِ كادوا أنْ يكونوا كأمس الذاهب، ولذلك صرخ البعض من الأسواق: الآن ذهب السحر، وهذا يُنَبِهْ إلى عِظَمِ قضية الجهاد وخطورة مواقفه، فهو ذروة سنام الإسلام، وهو ذروة مظاهر نهوض الأُمم، فيه تتجمع كلّ قدراتها وأرباحها، لكن هذه القمة خطيرة الشأن لأنه بمجرد أن تفقد توازنك فوقها يمكن أنْ يؤدي بك إلى القاع، وهذا مع ما فيه إنذار لأُمَّة محمد ﷺ كذلك فيه بعثُ أملٍ أنَّ سقوط القِوى ليس عسيراً ولا ممتنعاً، ولذلك وصف هذا السقوط بالخرور كما قال سبحانه: ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾[1]. ووصفه بالفجأة كما في قوله: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[2]، وهذا من خِصال التغيِّير الاجتماعي لأنَّ الكثير من المُقدمات تكون خفية ومستورة، والمجتمعات تُتْقِنُ فَنَّ الستر من خلال الصخب والضجيج والتنفخ.

في لحظةٍ كان مجموع المؤمنين في صعيدٍ واحدٍ يتقدمون في الصباح إلى عودهم، وقد كَمُنَ لهم في فَمِّ الوادي فما أنْ صاروا في منطقة المُراد لهذا العدوِّ حتى حجم عليه كالسَّيل، فكان ما كان من قوله تعالى: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾، فتلاشت هذه الكثرة، وانفرط عِقْدُهَا وذهبتْ مُولِيةً مُدْبِرَةً.

انهيار الكثرة أمام هذا الهجوم المُباغت يعني أنها كانت مُسترخية، وبمجرد وصف الهجوم بأنه مُباغت يعني حصول الغفلة، وسببها سقوط المسؤولية في داخل النفوس، واحتقار الخصم وعدم إعطائه حقه في الاعتبار والتقدير.

خصوم الإسلام ليسوا جُبناء كما يحلو للبعض تصويرهم دائماً، وهزيمة أهل الإسلام لهم ليس لضعفهم وغبائهم وجهلهم بأساليب الحرب كما كان بعضهم يصف بعضاً عندما يتصدون هم للمسلمين، كما وصفت اليهود وقريش بعد بدر فسقطوا هم، وكما وصفت هوازن قريش بعد فتح مكة، وإذا كان خصوم الإسلام كذلك دوماً فإنَّ هزيمة المسلمين لهم ليس شرفاً يستحق الثناء والتنويه به ومدحه، فإنَّ هزيمة الجبان والجاهل بالحروب لا تستحق الفخر، وحين يتصور مقاتل خصمه كذلك فإنَّه قد تحقق فيه هو نفسه أول عوامل الهزيمة، وقد قاتل المسلمون خصوماً كانوا آيةً في الشَّجاعة وآيةً في دهاء الحروب سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها، ولو قرأ المرء حروب الصَّحابة للمرتدين لَعَلِمَ صِدْقَ هذا الوصف الرَّباني في قوله تعالى: ﴿ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ

---

[1] سورة النحل، الآية: ٢٦.
[2] سورة الأعراف، الآية: ٩٥.

شَدِيدٖ﴾[1]، أما حروب المسلمين ضدَّ فارس والروم وحروبهم في شمال إفريقيا ضدَّ البربر فهي عجبٌ من الأعاجيب، وكأنَّ الصَّحابة يُنازعون الجبال العاتية، وكذلك في الحروب الصليبية فإنَّ بعض قادتهم حين تقرأ وصف المُؤرخين المسلمين له ولِبأسه وإقدامه تكاد تشك أنَّ هذا وصفاً لبشرٍ من البشر، ولذلك كان الصَّحابة ﷺ في حروبهم كأنهم الجنّ فوق الخيول، وبمثل هؤلاء كالبراء بن مالك وخالد بن الوليد وقبلهم أبو بكر وعمر وطلحة والزبير كان يقع النَّصر، وبوراثهم من أمثال آل زِنْكِي وصلاح الدين وقُطُز وبيبرس كان يمكن لأهل الإسلام أن يحققوا النَّصر على هؤلاء، ولذلك فيجب الحذر من خيالات بعض الخُطباء والوعاظ الذين يصورون معارك الإسلام كأنها حلقة ذِكْرٍ ما أنْ يُكَبِّرَ فيها المسلمون ربَّهم حتى تتهاوى صفوف الكافرين، أو بمجرد أن يرى الكفار عملاً من أعمال السُنن كاستعمال السواك حتى ينهاروا ويُسلموا رِقابهم لأهل الإسلام، فهذه أوصاف لا تمت للتاريخ بصلة، وهذا ليس تقليلاً لذكر الله تعالى أو أعمال السنن ـ نعوذ بالله أن يخطر هذا على بالِ أَحَدٍ ـ لكن توصيف بعضهم لوقائع المعارك على هذا النحو أوْصَلَهُمْ إلى إلغاء الجهاد الحقِّ والإعداد له، ولذلك فلا عجبَ أن تسمع من بعض الحالمين ـ وهم قادة فِكْرٍ ومَشَارِيعَ وَعْظٍ ـ يحسم معركة المسلمين مع اليهود اليوم بأنْ يسيرَ إليهم أهل الإسلام مجرد مسير، وبأيديهم المجردة ليحصل الحسم النهائي، وهذا إبطال لسنن الله في الخَلق، وتوصيفٌ باطلٌ لحقيقة المُدافعة في الأرض، ولو عَلِمَ هؤلاء مِقْدَارَ الجهل في أقوالهم هذه لخجلوا منها وهي تخطر على بالهم لا أنْ يتحدثوا بها لعموم المسلمين، ولكن لم يعدِ المرء يتعجب مما يقوله مشايخنا هذه الأيام، فوالله إنَّ الكثير منهم لا يعرف هداية الإسلام ولا عقل أهل الجاهلية كما وصف بعض السلف أهل زمانه، فحسبنا الله ونِعم الوكيل.

﴿إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾.

حين وقعت الصدمة صار الكثير عِبْئاً على المُدبرين المُتولين، فهذا زحام التولي الذي يصنع الفوضى وقلَّة الوعي وذهاب ملكات النَّفس إلاَّ مِنْ شيءٍ واحدٍ وهو الهروب، فتغلب نفسيَّة القطيع، لكنها تتدافع من غير نسقٍ وترتيبٍ، فتضيق بهم الأرض لا يدري المرء أين يتوجه ولا إلى أين يسير، فهكذا صارت الكثرة ضيقاً وعبئاً، يتمنى الواحد منهم قلَّة الزحام حتى يتسنى له التفلت مرتاحاً إلى الوراء.

لقد أراد مالك بن عوف حرباً فُجائية تحقق الصدمة التي تُؤدي للانهيار، وقد تحقق له ذلك، إذ استجابت هذه الكثرة لُمراد الخصم، وهذا نوع من الحروب المُباغتة التي لا تترك للخصم الإعداد

[1] سورة الفتح، الآية: ١٦.

والتعبئة المعهودة في الحروب التي كانت تجري يومذاك مِنْ تَصَافٍ ثـمَّ مُبَارَزَةٍ ثـمَّ النِبَال والالتحام، ولذلك صار الأمر إلى هذه القلَّة التي قالها القرآن بقوله:ـ

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

لقد انماثتِ الحواشي وذهبت مُوَلِية مُدْبِرَة، ومِنْ عُمْقِ هذه الصدمة، ومِنْ مُعَانَاةِ هذه الفئة من الجموع المولية وقف رسول الله ﷺ موقفاً لم يحدث في التاريخ الإنساني مثله قط، فلم يكن تحته ﷺ إلاَّ بغلته، والبغال ثقيلة الحركة في الحروب، وشأنها أنْ تكون لحمل الأثقال وجرها، لا لكر الحروب وفرها، ومع ذلك وقف يعلِّق عن نفسه أمام سيل العدوِّ المُندفع قائلاً: «**أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، اللَّهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ**»[2]، وأُشْهِدُ الله أنه لو لم يكن لرسول الله ﷺ في حياته كلّها إلاَّ هذا الموقف لَكان كافياً بصدقِ قوله إنه رسول الله.

لقد أعلن عن نفسه، وَلَمْ يَضْطَرِبْ وَلَمْ يَتَلَجْلَجْ وَلَمْ يَتَرَاجَعْ، وفي هَوْلِ هذا المقام يُنادي: «**أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ**»، فهل يُوجد أحدٌ من الخَلق يمكن أن يقول هذا الكلام هنا إلاَّ وهو رسول الله حقّاً وصِدْقاً؟. إنه لَرسول الله ﷺ حقّاً وصِدْقاً بأبي هو وأُمي، فأين عقول هذه الأُمَّة، وأين عقول شبابها ورِجالها وفِتْيانها وهم يذهبون إلى غيره ليقتدوا بسيرته وحياته؟!.

إنَّ هذه الأُمَّة لَيحق أنْ تفخرَ أنها تابعة لرسول الله ﷺ، وأنَّ هذا الرجل هو إمامها وقُدوتها، وهو سائقها إلى كلِّ المكارم والمعالي، فهو الإمام الذي يهدي القلوب ويهدي الحياة إلى جِنان الخُلد، فالحمد لله ربِّ العالمين.

لقد نزلتِ السكينة على رسول الله ﷺ وجعلَ يدفع ببغلته إلى الأمام ويقودها ابن عمِّه أبو سفيان بن الحارث، فثبت قلبه وعقله وبدنه ولسانه، فجعل يُنادي ويأمر عمّه العباس وكان جهوري الصوت بمناداة النُخبة الصافية، ورجال المواقف، وعُدة النوازل، وعمد الكُربات.

نادى أصحاب بيعة الرضوان، فالتفتوا كأنها الإبل إذا حُشرت إلى أولادها يقولون: يَا لَبَّيْكَ! يَا لَبَّيْكَ![3].

ثم خصَّ الأنصار بالنداء ثم قصرها على بعضهم، فتدافع السامعون إلى مركز النداء وقُطب الصَّبر وأصل الهداية، فبدأ صد المُشركين، حينها قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة التي لم ينطقْ بها ابن أنثى

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٢٦.

[2] مسلم في «كتاب الجهاد والسير» باب غزوة حُنين. حديث رقم: ١٧٧٥.

[3] مسلم في «كتاب الجهاد والسير» باب غزوة حُنين. حديث رقم: ١٧٧٥.

قبله: «**الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ**»[1]، فهكذا لا ينزل النَّصر إلاَّ بعد أن يحمى وطيس المعارك ويشتد أداءها وتغلي بالنَّاس، أما بردِّ العاجزين فلا يضع إلاَّ تولي الدُّبر.

لقد نزلتِ السَّكينة على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين لأنهم أهلها، فهمُ المؤمنون، وهم حملة الصفات التي ناداهم بها رسول الله ﷺ، إذ قرعت قلوبهم ذكريات البيعة، ومعنى الأوصاف التي حلاهم الله بها فهمُ الأنصار، وهم حملة سورة «البقرة».

هكذا صارت حليتهم مع الإسلام، فهذا بَدْرِيٌّ، وهذا أُحُدُيٌّ، وهذا من أهل بيعةِ الرِضوان، وهذا غسيلُ الملائكة، وهذا حاملُ السرِّ، وهذا صاحب الميضأة؛ ألقاب قد استمدت من حركة الإيمان، وفِعْلِ الطاعات، وكان أغلبها من مشاهد الجهاد الإيمانيَّة التي كانوا أهلها وأحقَّ بها.

وأنزل جنوداً لم يرها الأصحاب، فأنزل ملائكة التثبيت على قلوبهم، وملائكة الرُّعب على قلوب أعدائهم غير هيابين، فانقلبَ الأمر إلى ضدِّه وكان النَّصر الموعود، ولذلك قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ** ﴾ أي نصركم كذلك يوم حُنين نصراً خاصاً وله معناه، وفيه قيمه العظيمة وهدايته التي تميز بها.

﴿ **وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ** ﴿٢٦﴾ ﴾.

لقد وقع ما قاله دريد بن الصِّمَّة[2]، وهو رجل الحرب، فانهارت قِوى هوازن وثقيف ومن معها، وفرَّ النَّاس ولم يكن بينهم مَن يقفُ موقف الإمامة كما وقف رسول الله ﷺ بل فرَّ مالك بن عوف ـ وقد أسلم بعد ذلك ـ وتركوا وراءهم أموالهم وأعراضهم نهباً لجنود المسلمين.

لقد عذَّب الله الكافرين بأيدي المؤمنين، وهذه سنَّة الله تعالى بعد أنْ فرض الجهاد، فإنْ كانتِ الملائكة تأتي قوم لوط في الصباح ﴿ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴿٨١﴾ ﴾[3]. فإنَّ صُبح الكافرين بعد ذلك كان يزين بالعاديات كما قال تعالى: ﴿ **وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا** ﴿١﴾ **فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا** ﴿٢﴾ **فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا** ﴿٣﴾ ﴾[4]. وفوقها الخميس كما قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ** ﴿١٧٧﴾ ﴾[5].

لقد عذَّبهم الله بأنْ جَعَلَ أموالهم وأهليهم غنيمة للمسلمين، وقُتِلَ مِنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَهُزِمَ مِنْهُمْ مَنْ هُزِم.

---

1 أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٧٧٦.

2 قتله يوم حُنين ربيعة بن رفيع بن أهبان بن ثعلبة السلمي ﷺ، كان يقال له ابن الدغنة. وكان وقتها فتىً صغيراً. وقصة قتل دريد بن الصِّمَّة عجيبة فارجع إليها في «أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة» لابن الأثير. الجزء الثاني، الصفحة ١٧٨. طبعة دار المعرفة ببيروت (١٩٩٧م). و«الإصابة في تمييز الصَّحابة» للعسقلاني. الجزء الثاني، الصفحة ٣٨٦. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٥م).

3 سورة هود، الآية: ٨١.

4 سورة العاديات، الآيات: ١ـ٣.

5 سورة الصافات، الآية: ١٧٧.

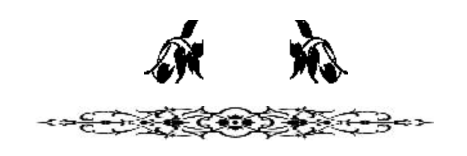
﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٧ ﴾[1].

ذلك أنَّ بعض مَنْ هُزِمَ مِنْ هَوَازِن جاؤوا مسلمين، وما جرى بعد ذلك مشهورٌ معلومٌ من سيرة المصطفى ﷺ من ردِّ السبايا إليهم.

لقد كانت غزوة حُنين بهذا المعنى إقامة حقائق هذا الدِّين على المعاني الأُول التي قام عليها، وأنَّ هذا الدِّين لا تتغيَّر معايير نصره وتثبيته في الأرض مهما بلغت قوة أهله وكثرتهم وعُدتهم، لأنَّ أهله بحاجة دوماً إلى السكينة التي تتنزل دوماً على الجنود، وإلى حاجتهم إلى جنود غيبيَّة معهم، لأنَّ الكثرة فيه لا تصنع النَّصر بل يصنعه أولئك المؤمنين الذين يستحقون هذه العوامل الغيبيَّة.

النَّصر في الصِبْغَةِ الإلهية فِعْلٌ ربَّانيٌّ خالِصٌ يغيب فيه الإنسان المؤمن مع أنه مادته، إذ لم يذكر في هذه الآيات أي نشاط أرضي سوى الفِعل السلبي، وأما النَّصر وأسبابه فهي من الله وحده، وهذه هي حقيقة التاريخ الإيماني ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول وهو داخل مكة يوم الفتح: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[2].

وحين يستقر هذا في نفوس المؤمنين، فيُوقِنُونَ برعاية الله لدينه، ووعده لأهله بالنَّصر والتمكين فإنه لا وجود لليأس ولا للقنوط حينئذ، وكلما ظنَّ الظانون بعد الوعد رآه المؤمنون قريباً، ويكفي أهل هذا الطريق أنْ يُبْقُوا هذا الدِّين سلسلةً متصلةً، تُقِيمُ الشَّهادة على الخَلق، وتُنِيرُ الطريق للسائرين، وحمل مشاعل النَّور للأجيال القادمة، وسيدعون يوم القيامة بأحبِّ ما يُدْعَى إليه النَّاس بعد الأنبياء كما قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠ ﴾[3].



[1] سورة التوبة، الآية: ٢٧.

[2] عند الشيخان وأحمد: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، ولا شيء بعده».

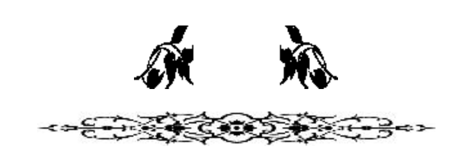
[3] سورة الزمر، الآيات: ٦٨-٧٠.

إضاءة

لقد كانت هذه الآيات أول ما نزل من «براءة» كما تقدم من قول مجاهد بن جُبير، وقال: يُوطنهم لغزوة تبوك، ذلك بأنَّ استنفار الله ورسوله للمؤمنين لغزوة تبوك ليس لحاجته إليهم، فقد نصر الله رسوله في حُنَين حين ولى الأكثرون وتركوه مع قِلَّةٍ قَلِيلَةٍ، وإنما الاستنفار لحاجتهم هُمْ لدين الله وللجهاد في سبيل الله تعالى، وقد تقدم أنَّ هذا من أسلوب القرآن، وضرب بعض الأمثلة هناك، وهذا من شواهد هذا الأسلوب العظيم، فإنَّ آيات غزوة تبوك تبدأ من قوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ** ... ﴾[1]، فكأنَّ هذه الآيات هي من معنى قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ** ... ﴾[2].

وَيَشْهَدُ لِهَذِهِ التَوْطِئَةِ قوله تعالى قبل هذه الآيات: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾** ﴾[3]، ودلالتها على ذلك بيِّنٌ فإنَّ غزوة تبوك هي غزوة العُسْرَة كما سيأتي.

ومثله ما جاء مِنَ الأمرِ بعد هذه الآيات بقتال أهل الكتاب، والتفصيل في ذكر النصارى في السورة فسيأتي كذلك الحديث عنه في الغزوة القادمة وهي غزوة تبوك إنَّ شاء الله تعالى ويسر.



[1] سورة التوبة، الآية: ٣٨.
[2] سورة التوبة، الآية: ٤٠.
[3] سورة التوبة، الآية: ٢٤.

غزوة تبوك

توطئة

ابْتِدَاءً أَشْعُرُ بِأَنَّ مِنَ الخَيْرِ لِي وَلِلْقَارِئ أَنْ أَعْتَرِفَ بِأَنَّ مُعَانَاةَ الفَصْلِ بَيْنَ الغَزْوَةِ بِصِفَتِهَا حَدَثٌ، وَبَيْنَ السُورَةِ كَامِلَةً إِنْ كَانَ بَعْضُهَا هُوَ المَقْصُود، لأَنَّهُ عَزْلٌ بمُنَاسَبَةِ هَذِهِ الغَزْوَةِ كَانَتْ شَاقَةً عَلَيَّ، وهذا كان في ما سبق من الغزوات يسري على نفسي وبالتالي على قلمي، لكن هذه المُعاناة هنا أشدّ وأقوى، وقد توقفتُ أياماً وأنا أُقلِبُ في تسهيلِ هذا الأمرِ عليَّ حتَّى أبدأ في هذه الغزوة، ومن الآيات التي نزلت فيها، لأنَّ هذه السورة كلّها لها علاقة بالغزوة وأحداثها ثم بنتائجها، فغزوة تبوك هي آخر غزوات الحبيب المصطفى ﷺ قبلَ أنْ تحل بالأُمَّةِ مُصِيبَةَ رحيله إلى الرفيق الأعلى سبحانه وتعالى، وأما أحكام البراءة من المشركين التي افتُتحت فيها السورة فهي الأحكام النهائيَّة التي استقرتْ عليها الشريعة مع أصناف البشر من غير المسلمين؛ مُشركين ومُنافقين، والترابط بين الأمرين بيِّنٌ لا يخفى، وهناك أسبابٌ أخرى منها:-

ذُكِرَ تمهيداً لآيات غزوة تبوك أمره سبحانه وتعالى بمنع المُشركين من دخول المسجد الحرام فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾[1]. وهذا أمرٌ ربَّانيٌّ سيكون أولَ وَقْعِهِ على المؤمنين له تَعَلُّقٌ بالمالِ، وبمَصْدَرِ الرِزْقِ، لأنَّ الحج والعُمرة هما مصدره في هذه البلاد، فمكة بلدٌ غير ذي زرعٍ، لا يُوجد فيها ما يغري إلاَّ هذا البيت الذي جعلَ الله قلوبَ النَّاسِ تَهْوِي إليه بسبب دعوة أبي الأنبياء خليل الله إبراهيم عليه السلام، فإنْ مُنِعَ النَّاسُ مِنْ إِتْيَانِهِ كان في هذا دمار لاقتصادهم ـ هكذا سيقع في القلوب ابتداءً ـ فجاء الضمان الإلهي بقوله: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾[2]. فطمأنهم بحصول الغنى.

كان هذا الغنى له سبيلٌ عظيمٌ، طاهرٌ مُطَهَرٌ، هو مالُ الجِزْيَةِ، وطريقُ الجهاد، ولذلك قال بعد ذلك:-

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[3].

[1] سورة التوبة: الآية: ٢٨.
[2] سورة التوبة: الآية: ٢٨.
[3] سورة التوبة: الآية: ٢٩.

فهذا هو طريقُ الغنى من الفقر لهذه الأُمَّةِ، وهو رزقُ رسول الله ﷺ الذي جعله الله تحتَ ظِلِّ رُمحِهِ[1]، وفي هذه الآية سنقفُ وقفات:ـ

O إنَّ هذه مِنْ آخِرِ آياتِ أحكام الجهاد، وقد عَلَّقَ الله الجهاد فيها على قضايا دينيَّة غيبيَّة ليس فيها شيءٌ مما يتعلَّقُ بحقوق البشر، فالله أمرَ عَبِيدَهُ وجُنُودَهُ أن يُقاتلوا على حقوقه هو سبحانه وتعالى، أي ضدَّ الذين يرفضون عبادته: ﴿ **ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ** ﴾.

O هذه الحقوق الربَّانيَّة منها ما هو قلبي بحتٌ ومنها ما هو عملي، فالإيمان بالله واليوم الآخر أمران قلبيان، وعدم تحريم ما حرَّم الله وإنْ كان أمراً قلبياً إلاَّ أنَّ مظهره عملي في الطوائف والتجمعات، ويدخل فيه التشريع ـ وهو تسميَّة الأشياء بالحِلِّ والحُرْمَةِ أو تحسين الأشياء وتقبيحها ـ، ويدخل فيه مجرد الفِعْلِ كما قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ** ﴾[2]. فقِتَالُ هؤلاء بمجرد عدم الامتثال سواء كان لجحودٍ أو لشهوةٍ.

O اختلفَ أهل العلم في القَيْدِ الذي ذكره الله تعالى: ﴿ **مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ** ﴾ هل هو عامٌ على جميع ما تقدم أم أنه لأقربِ مذكورٍ له فقط، وهو قوله تعالى: ﴿ **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ** ﴾، وبسبب اختلافهم في هذا كان الاختلاف في أحكام الجِزية، هل تُؤْخَذُ من أهل الكتاب فقط «وأُدخل المجوس للرواية»، أم تُؤْخَذُ من عموم الكفار والمشركين؟[3].

فالذين جعلوا القَيْدَ عاماً قصروا الجزية على أهل الكتاب «والمجوس»، ولم يقبلوا من غيرهم إلاَّ الإسلام أو القتل، والذين جعلوا القَيْدَ خاصاً بآخرِ مذكورٌ، وهو قوله: ﴿ **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ** ﴾. قبلوا الجِزية من عموم الكفار والمشركين، والآية تشهد للفريق الثاني، فإنَّ أهل الكتاب لا يكفرون باليوم الآخر، فإنَّ دينهم الذي يدينون به زمنَ نزول الكتاب هو الإيمان به، ولذلك قالوا: ﴿ **لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖ** ﴾[4]، فدلَّ أنَّ القَيْدَ خاصٌ بآخرِ مذكورٍ.

نعود إلى ارتباط مقدمات السورة بغزوة تبوك وبالآيات التي نزلت بسببها فنقول:ـ

---

[1] البخاري في « كتاب الجهاد والسِّيَر» باب ما قِيل في الرِّماح، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «**جُعِل رِزقي تحت ظِلِّ رمحي، وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على مَن خالفَ أمري**» حديث رقم: ٢٩١٤.

[2] سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨ـ٢٧٩.

[3] جاء في تفسير ابن كثير لآية الجزية: ﴿ **قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩** ﴾: «وقد استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا مِنْ أهل الكتاب، أو مَنْ أشبههم كالمجوس، لما صح فيهم الحديث أنَّ رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر، وهذا مذهب الشافعي وأحمد في المشهور عنه. وقال أبو حنيفة رحمه الله: بل تُؤخذ من جميع الأعاجم، سواء كانوا مِنْ أهلِ الكتاب أو من المُشركين، ولا تؤخذ من العرب إلاَّ مِنْ أهلِ الكتاب. وقال الإمام مالك: بل يجوز أن تُضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسي ووثني وغير ذلك» انتهى.

[4] سورة آل عمران، الآية: ٢٤.

إنَّ غزوة تبوك تمَّ فيها التعامل مع هذا الحُكْمِ واقعاً مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ، فقد أرسلَ رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل[1]، فأخذوه فأتوا به، فحُقِنَ دمه، وصالحه على الجزية كما ورد عند أبي داود[2]، وكلام أهل العلم أنَّ الجزية لم تُشرع إلاَّ بعد فتح مكة، وعلى هذا يحمل أحاديثها وأشهرها حديث بُريدة ﷺ عند مسلم[3] في: «كتاب الجهاد والسِّيَر»، وفيه: «... **وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاَثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلاَلٍ -، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، وَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، فَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلى الْمُؤْمِنِينَ، وَلاَ يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ والْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ..**».

ولذلك فإنَّ الآيات التي سبقت آيات غزوة تبوك لها تعلقٌ بهذه الغزوة.

❍ ذُكِرَ في آيات سورة «براءة» الأُولى البراءة من الأقارب كالآباء والأبناء والعشيرة وما تعلَّقَ من أُمورِ الدُّنيا، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾[4]. وهذه آياتٌ ولا شك فيها التوطئة لغزوة تبوك، وقول مَن قال إنَّ هذا وَعِيدٌ منسوخٌ، غلطٌ لأنها آياتٌ مُتأخرةٌ في الزمن عما ادعاه مَن قال بالنسخ، وقد تقدم أنَّ آيات هذه السورة هي خاتمة أحكام الجهاد والعلاقة مع النَّاس.

---

[1] هو أكيدر بن عبد الملك بن عبد الجن بن أعيا بن الحارث بن معاوية بن خلاوة بن أبامة بن سلمة بن شكامة بن شبيب بن السكون صاحب دومة الجندل. قيل أنه أسلم وأهدى النَّبي ﷺ حلة سيراء فوهبها لعمر وتعقب ذلك بن الأثير فقال إنما أهدى إلى النَّبيِّ ﷺوصالحه ولم يُسلم وهذا لا خلاف فيه بين أهل السير ومن قال إنه أسلم فقد أخطأ خطأً ظاهراً بل كان نصرانياً ولما صالحه النَّبي ﷺ عاد إلى حصنة وبقي فيه ثم إنَّ خالد بن الوليد أسره في أيام أبي بكر رضي الله عنهما فقتله كافراً. «الإصابة في تمييز الصَّحابة» للعسقلاني الجزء الأول الصفحة ٣٧٨. بتصرف يسير.

[2] عنْ عُثْمَانَ بنِ أبي سُلَيْمَانَ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَعَثَ خَالِدَ بنَ الْوَلِيدِ إِلَى أُكَيْدِرِ دُومَةَ، فَأُخِذَ فَأَتُوهُ بِهِ، فَحَقَنَ لَهُ دَمَهُ، وَصَالَحَهُ عَلَى الْجِزْيَةِ». «معالم السُّنن شرح سُنن أبي داود» باب في أخذ الجزية. للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي البُستي. حديث رقم: ٨٤٥. الجزء الثالث الصفحة ٣١-٣٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٤١١/١٩٩١م).

وقال في شرحه لهذا الحديث. قلتُ: أكيدر دومة رجلٌ من العرب يُقال هو من غسان ففي هذا من أمره دلالة على جواز أخذ الجزية من العرب كجوازه من العجم؛ وكان أبو يوسف - صاحب أبي حنيفة - يذهب إلى أن الجزية لا تُؤخذ من عربي. وقال مالك والأوزاعي والشافعي، العربي والعجمي في ذلك سواء.

وكان الشافعي يقول إنما الجزية على الأديان لا على الأنساب. ولولا أن نأثم بتمني الباطل وددنا أن الذي قال أبو يوسف كما قال وأن لا يجري على عربي صَغار، ولكن الله أجل في أعيننا من أن نحب غير ما قضى به.

[3] مسلم في «كتاب الجهاد والسِّيَر» باب تأميرِ الإمامِ على البُعُوثِ ووصيتِهِ إيَّاهُم بآدابِ الغَزوِ وغيرِها. حديث رقم: ١٧٣١.

[4] سورة التوبة، الآية: ٢٤.

لقد تقدم في غزوة حُنين أنَّ آياتها جعلها الله توطئة لغزوة تبوك.

❍ أما مناسبة ذِكْرُ النسيء وأنه كُفْرٌ قبل آيات غزوة تبوك فإنَّه أمرٌ جديرٌ بالتنبيه عليه، ذلك لأنَّ الأمر بدأ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]، ثم ذكرتْ آية النسيء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾[2].

وسبب النسيء هو المصلحة التي يراها المشركون في تأجيل الأشهر الحرم وتقديم غيرها، وفي غزوة تبوك ثم استنفار النَّبيّ ﷺ لأصحابه في وقتِ الثمار ونضجها، فمالت النُّفوس إلى تأجيل الجهاد إلى شهورٍ أُخرى، ومَن ظنَّ أنَّ الأشهر الحُرم لا يجوز فيها القتال فقد أخطأ، وقد حاصر رسول الله ﷺ أهل الطائف في ذي القعدة كما في الصحيحين، وبسط مناقشة هذه المسألة لا يحتمله هذا المقام، ومما يشهدُ لهذا المعنى هو قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ وذِكْرُها في معرض عدد الشهور عند الله وتنويعها إلى أشهرٍ حُرُم وأشهرٍ حل، لأنَّ مَن كان هذا حاله، وهو مقاتلة المُشركين كافة فإنَّ تأجيله للقتال بحسب مصالح شأنه الدنيوي مفسدة عليه قصده في هذا الجهاد، وهذا بيِّنٌ.

في غزوة تبوك كان أول خروج نبويٍّ إلى أطراف الجزيرة العربية، وهذا فيه بُعْدٌ عنِ الحجاز مكان البيت الحرام، وهو مُؤذِنٌ بالانطلاق خارج الجزيرة، ومما هو متوقع أن تميل نفوس المؤمنين إلى مُلازمة البيت الحرام وما في معناه من المسجد النَّبوي للطاعات والعبادة، فكان قوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[3]. وهذه الآية وإنْ ذُكِرَ أنَّ المعنى كان للردِّ على الكافرين الذين نازعوا المسلمين في الأفضلية، وأنَّ عِمارتهم البيت الحرام بالتشيِّيد وخدمة أهله خيرٌ مما فعل المسلمون من الإيمان بالله واليوم الآخر والجهاد في سبيل الله، إلاَّ أنَّ الآية كذلك ردٌّ على كلِّ أحدٍ يُفَضِلُ عَمَلاً تَعَبُدِيّاً في أماكنٍ فاضلةٍ على الجهاد في سبيل الله تعالى، ويشهدُ لهذا الحديث الصحيح عند مسلم[4] وفيه: «عن النُّعمان بن بشير قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ . فَقَالَ رَجُلٌ: مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ. إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ: مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ. إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ. وَقَالَ آخَرُ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ وَقَالَ:

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٣٦.

[2] سورة التوبة، الآية: ٣٧.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٩.

[4] مسلم في «كتاب الإمارة» باب فضلِ الشهادةِ في سبيلِ الله تعالى. حديث رقم: ١٨٧٩.

لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ . وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ. وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ الآيَةَ إِلَى آخِرِهَا»، فمِنَ المعلوم أنَّ الصَّحابة ﷺ كانوا يُسَمُّون المعاني التي تدخلُ في الآية سببَ نزول، وهذا معروفٌ في كُتُبِ علوم القرآن، ولذلك قد يتعدد سبب النزول لتعدد نزولها أو للمعنى الذي ذُكر هنا.

وهذا معنى جلي يجعل ارتباط هذه الآية بغزوة تبوك بَيِّنٌ وَجَلِيٌّ.

لقد كان من المسائل الأَولية في سورة «التوبة» الدفع الربَّاني للمؤمنين لقتال الكفار المشركين، وبرَّرْنَا ذلك بآياتٍ تُؤَهِلُ نفوسهم للإقبال على هذا القتال من غير ترددٍ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخْشَوْنَهُمْۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[1]. وآيات غيرها ومعناها في هذا الباب بيِّنٌ. فكان قتال النَّبيِّ ﷺ وأصحابه للمشركين قد تأهلَ في نفوسهم، وقد قاتلوا اليهود من قبل لعللٍ مُدركة من أفعالهم رأوها وعاشوها، وبغزوة تبوك انتقل القتال إلى أُفُقٍ آخرٍ، فيه مُصادقة في الأغلب لأهل الكتاب من النصارى، ولذلك كان هذا القتال يحتاج إلى قواعده وتبريراته القرآنية فكان قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾[2]، وفي هذا التعليل نقول:ـ

١ـ إنه تذكيرُ المؤمنين بأنَّ معاركهم تتعلَّقُ بكونهم جنوداً لله تعالى، فهم يُقاتلون عن حقوقِ نَيْلَ حقوقِهم، وهذا لا يفقهه إلاَّ الذين امتلأت قلوبهم بعظمة الله سبحانه وتعالى، وأدركوا مقصد الوجود والخَلق الإنساني من كتاب الله تعالى، أما الذين لا يرون الجهاد والقتال وإزهاقَ الأرواح وبذل الأموال إلاَّ مِنْ أجل منافع الإنسان وحقوقه فهؤلاء عبيد لأهوائهم، وليس في قلوبهم ما يجب من إيمان المؤمنين وذِكْرَى الدَّار الآخرة، وهؤلاء اليوم يملئون السهل والواد، فلو أنَّ أحدهم ظُلِمَ في درهمٍ من ماله لأقامَ الدُّنيا ولم يُقْعِدْهَا، لكن أنْ يسمعَ سبَّ الله تعالى، والإشراك به، وسبَّ الرسول ﷺ فإنه لا تتحركُ منه شَعرة، وقد رأينا مَن يزعم تعليم النَّاس الإيمان يُنْكِرُ على المسلمين غضبهم حين سمعوا سبَّ الرسول ﷺ؛ بأبي هو وأمي، ويُطالبهم بضبط النَّفس والتعقل ـ زعم ـ، ولو فَقَدَ هذا وظيفته لَرأيته كيف يصرخ ويملأ الدُّنيا اعتراضاً وضجيجاً، هذا مع أنه يأكلُ ويشربُ ويجمعُ المال ويشتهر بفضل رسول الله ﷺ وبعلمه وبسيرته، لكنها القلوب التي أحبتِ الدُّنيا وفقدتِ

[1] سورة التوبة، الآية: ١٣.

[2] سورة التوبة، الآيتان: ٣٠ـ٣١.

الرُّشد والإيمان والغيرة الإيمانية، فوالله لو ماتت كلّ أُمَّةِ محمد ﷺ في الدفاع عن رسولها لَكَانَ هذا قليلاً في أداءِ واجبه عليها، ولماتوا شُهداء ولَكَانَ نِعْمِ الموتِ.

٢. قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هو تشريعٌ للمؤمنين بقتالهم، لأنَّ أفعالَ الله سبحانه وتعالى دينٌ وشرعٌ كما يعرف هذا أهل الأصول، باستثناء ما جاء الخصوص به، ودليلَ ذلك احتجاج ابن عباس رضي الله عنهما بعذاب الله لقوم لوط على حد اللواط.

فكون هذا مقدمة وتوطئة لخبر غزوة تبوك في القرآن فيه ما يفقهه كلّ ناظرٍ.

٣. لقد جعل الله فِعْلَهُمْ هذا، وهو إشراكهم، واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله مقدمة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]. ثمَّ جعل طريق النَّبيِّ ﷺ ودينه وشريعته هي ما تُوقِفُ هذا الجُرْمَ الأكبر في الوجود ـ أي الشرك ونَشْرِهِ ـ فقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2]. وأمر الجهاد بيِّنٌ في هذه الآية لقوله سبحانه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فإنَّ الظهور الأعظم هو ما جمع الأمرين؛ **العلمي:** بالحُجة والبيَّان، **والكوني:** بالسيف والسنان، وسياق الآيات هو الحديث عن قِتالهم كما هو بيِّنٌ.

سينشأ بسبب الجِزية وتأمين أهل الكتاب في ديار الإسلام، وهمُ الأغلب قدراً كما تبيَّن بعد ذلك من التاريخ، مجاورة بينهم وبين المسلمين، ولذلك جاء التحذير من مُشابهتهم، وخاصة مُشابهة أئمتهم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]. وهذا أعظم وأضل وأفسد ما يُصِيُب علماءَ هذه الأُمَّةِ، ولذلك كان من قول الأولين: إنَّ مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ كَانَ فِيهِ شَبَهٌ بِهِمْ، وحالنا اليوم يشهدُ لهذه المُشابهة، فإنَّ العاملين في الفتوى والإرشاد والنُّصح قلَّمَا تجد فيهم مَن لا يأخذ مالاً يحرص عليه أشدَّ من حرصِ أهل الدُّنيا على جَمْعِهِ، وهو يُنَافِسُ غيره في هذا الباب، ولو سألتَ أهل بلدٍ من بلاد المسلمين عُدَّ لي عالماً زاهداً في بَلَدِكَ لَوَجَدَ صُعُوبَةً في تذكره.

ولو قال قائلٌ: إنَّ الله وصفهم بقوله: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾، وهؤلاء من أصحاب الوظائف الدِّينيَّة ليسوا كذلك، فيُقال له: إنَّ الله يقول بعدها: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فَمِعْيَارُ الباطلِ الذي يأكلون المال به هو صدُّهم عن سبيل الله، ككلِّ مَنْ صَدَّ عن سبيل الله وأخذ مالاً مُقابل ذلك فهو آكلٌ للمال الباطل، فهذا هو وجه الحقِّ في معنى آكل مال النَّاس بالباطل، وعلى هذا الميزان فَاحْكُمْ على أئمةِ الفتوى والقضاء وغيرهم، فهل يرضى الطاغوت مِنْ أَحَدِهِمْ أَنْ

[1] سورة التوبة، الآية: ٣٢.
[2] سورة التوبة، الآية: ٣٣.
[3] سورة التوبة، الآية: ٣٤.

يَقُولَ كَلِمَةَ حَقٍّ اليومَ في المجاهدين في سبيل الله تعالى؟! وكم عدد هؤلاء الذين دفعوا الشباب لسبيل الله من أجل الشَّهادة والدفاع عن المسلمين وحُرُمَاتِهِمْ ودينهم؟!.

إنَّ هذا التحذير الربَّاني للمؤمنين من مُشابهة هؤلاء الضُّلال المفسدين له علاقة بهذا السهم الجديد المُنطلق خارج الجزيرة العربية إذ كانت أول مَعَالِمِهِ في غزوة تبوك.

لهذا كلِّه يكون فصل غزوة تبوك عن السورة كلِّها من أولها حتَّى آيات الغزوة يُذْهِبُ الكثير من المعاني التي تُوَطِئُ قيمة هذه الغزوة، وقيمة أخبارها وإعلاء شأنها، ولعلَّ في هذا السرد السريع ما يرفعُ هذا الأمر، ويضعُ القارئ في الأجواء الأُولى التي مهدتْ لأخبار غزوة تبوك، والآن إلى الغزوة في سورة «التوبة»، إذ أنها تبتدئ بقوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾** ﴾[1].



[1] سورة التوبة، الآية: ٣٨

الغزوة في القرآن الكريم

هذه غزوةٌ لها خصوصيتها وفَرَادتها، فهي آخر غزوات الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك بعد تسع سنواتٍ فاعلةٍ، وهي أي التسع سنوات وإنْ كانت في التاريخ الإنساني قليلة جداً لكنها كانت كثيرة الكثافة، فإذا كان التاريخ كالجغرافيا فيه الجبال والصحراء والغابات والوِديان، فإنني لا أظنُّ أنَّ هناك فترة زمنية بهذا العدد من السنوات كان فيها كثافة الحركة ونوعيتها وآثارها على الوجود الإنساني كلِّه بعد ذلك كما كانت في هذه السنوات القليلة، إذ امتلأت بالبناء الداخلي على نحوٍ خاصٍ بعيداً عن اتجاهات الوجود كلِّه، وأنا أعتقدُ أنَّ الوجود الإنساني منذ وُجوده إلى يوم ذهابه وفناء العالم يمكن تصوره من خلال حياة الإنسان فرداً، فقد بدأ الإنسان الأول مسلماً فِطْرياً كما هو شأن كلِّ مولودٍ، ثم بدأ هذا الوجود يتصاعد في نموه حتَّى كان في قمة العطاء والشباب والاكتمال في هذه السنوات النَّبويَّة، وقد بلغت الإنسانيَّة في رُقِيِّهَا وشبابها ووعيِّها في اللحظة التي قال الله تعالى فيها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[1]، ثمَّ كان عطاء هذا الشباب الإيماني لذلك الزمان ممْتَداً إلى الخلافة الراشدة والدولة الأُموية وصَدْراً من الدولة العباسيَّة بالرغم مما في هاتين الفترتين من نِقَاطٍ سُودٍ يَسِيرَةٍ لا تَقْدَحُ في مجال هذا الشباب واكتماله، ثم بدأتِ الكهولة فالشيخوخة إلى أنْ افترقَ السلطان عنِ القرآن، ثم عادتِ الإنسانيَّة إلى جاهليتها الأولى، وعاد الإيمان غريباً وأهله غُرباء، وسيبقى هذا الحال حتَّى تأتي صحوة الموت التي تُصِيبُ النَّاس الذين يموتون بداء السَّام دون غيره، وهناك يكون ظهور المهدي وقد مَهَّد له هؤلاء الغُرباء الأرض والرجال وأسباب الصِّراع، وهي تتجدد بتجدد الحياة واختلاف البشر فيها، هذا هو تصوري للوجود الإنساني، ولذلك فإنَّ قمة وعي البشريَّة كان في هذه السنوات النَّبويَّة العظيمة خلال هذه الغزوة النَّبويَّة المباركة، أما أقذر مظاهر وجود هذه الإنسانيَّة فهو في فترتيْ صعود العلو اليهودي أي زماننا هذا وما يأتي من زمان الدجال، وهو ملك اليهود كما شرحت هذا في جزء خاص بالنبوءات[2] في غير هذا الكتاب.

إنَّ التصور الساذج والأَوَلِي لغزوةٍ تكون بعد اكتمالِ البناء أنْ تسير على نسقٍ مريحٍ من كلِّ الجهات للقائد، إذ قد تم البناء الداخلي سواء للجنود أو المجتمع كلِّه، وكذلك يمكن تصور انتهاءِ المعارضة سواء التي تقوم على الشكِّ لصدق نبوة القائد أو بسببِ ضعفها النَّفسي القائم على الجبن والبخل،

---

[1] سورة النَّصر إلى آخرها.

[2] «قراءة في النبوءات.. المسيح الدجال». وقد قام أحد المُتشبعين بسرقته ونسبته لنفسه. هدانا الله وإياه. وقد فُعل مثل هذا مع مؤلفات أخرى للشيخ حفظه الله تعالى.

ولكن كلّ هذا لم يكن إلاَّ تصوراً ساذجاً لواقع هذا الدِّين وحركته وسنن وُجوده، إذ تكشف لنا الآيات أنَّ تسع سنوات من الآيات والتأييد الربَّاني والانتصارات المُتلاحقة لم تغيِّر شيئاً من نفوس المُنافقين، بل ما زالت هي هي على وجه القذر والساقط والخسيس، وهي قضية ستبقى من أعقدِ القضايا وأشقها التي سيُبتلى بها أهل الإيمان وخاصة أهل الجهاد منهم، لأنَّ هؤلاء المُنافقين لا ينقصهمُ النَّصر ليتوبوا ويهتدوا، ولا يَعُوزُهُمُ البرهان والدليل لِيقوى إيمانهم ودينهم، بل هم على وجهٍ آخرٍ من هذا كلِّه، وكأنَّ لهم طبائع أشبه بطبائع المعادن لا تتغيَّر ولا تتبدل، مع أنَّ هذا غير صحيح على إطلاقه، لأنَّ هناك أخلاقاً فِطْرِيَةً وأُخْرَى تُكْتَسَبْ.

سنكتشفُ في الصِبْغَةِ القرآنية لغزوة تبوك أنَّ مساحةَ المنافقين أوسع، وحُجَجَهُمُ الكاذبة أكثر، وتَجَليات جُبْنِهِمْ وبخْلِهِمْ أوضح وأجلى.

بعد تسع سنوات من الجهاد، وهي سنوات نصرٍ وتأييدٍ للمؤمنين ستعرفنا صبغة الله أنَّ الجهاد في سبيل الله هو محنةُ هذه الأُمَّةِ، وأنَّ المؤمنين الصَّادقين، والمجاهدين الشُّجعان يحتاجون دوماً إلى وَقُودِ التحريضِ والتعبئةِ، فَهُمْ بَشَرٌ لهم تطلعات في هذه الدُّنيا، ولهم عيونٌ تَرْقُبُ الحياة الأرضيَّة، فتُلاحظ المزارع والمتاجر والأبنية والمساكن، وتلقي بأطراف عيونها إلى الآخرين الذين حصل لهم الدُّنيا، فاستثمروا وجمعوا، وبنوا وشيَّدوا، وأمَّا هم فلا شيء بأيديهم لأنها فارغة، وجنوبهم جافة، وكلّ غِناهم في داخلهم، وكلّ أرصدتهم فرموها هناك لِمَا بعدَ الموت، فيبدأ الحديث: نريد استراحة، وبعض إجازة؛ وقليلاً من التحلل من تكاليف هذا الأُتون المتقد، فتأتي الصبغة الإلهيَّة لتحرق هذه المطالب، وتشعل النُّفوس بطاقات عظيمة لمواصلة المسير إلى اليقين، وتلقي التحذيرات التي تهتز لها القلوب، وترتجفُ لها الأبدان، وكأنَّ القوم ما زالوا في الصفوف الأُولى يحتاجون إلى الردع والتأديب والتهذيب.

يا الله، يا أرحمَ الراحمين اغفرْ لي وارحمني، فوالله إني أُعِيدَ النظر مرةً بعد مرةٍ وأنا أفكرُ في هذه الآيات المحذرة للمؤمنين مِنَ القُعُودِ وتَرْكِ الجهادِ والمسيرِ إلى تبوك.

❍ أهذه الآيات حقّاً نزلتْ على قومٍ جاهدوا تسع سنوات مُتواصلة لم يرتح لهم فيها بدن، وقطعوا كل الصلات إلاَّ صلات الإيمان، وابتلوا كلّ هذه الابتلاءات مِنْ أُحُدٍ، والخندق، وبئر معونة وغيرها؟

❍ هل هذه الآيات نزلتْ على الذين وطئوا للإسلام هذه الجزيرة العربية، وصارت مَهْدَ الإسلام والإيمان، وأرضَ الأمان والسلام، وكأنها قطعة واحد؟.

إذا كان قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ نزل

في هؤلاء فماذا يُقال للنَّاس من أهل يومنا الذين جعلوا الجهاد عاراً يستحي منه، وتهمة يبرؤون منها، وفِقْهاً ضالاً يفتون بخلافه؟.

إذا كان قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]. نزل في هؤلاء يحذرهم من عدم النفير، فماذا يُقال للذين يرون الجهاد الأعظم، هو جمع المال، وتحصيل المناصب، واغتنام الفرص، والارتحال في أحضان الشهوات، والرضى بالدُّنيا؟.

إذا كانت هذه الآيات نزلت في الذين أقاموا صرح الدِّين، ورفعوا منارات الحقِّ، ووطئوا للإسلام في الأرض، وهم عُبَّادُ الليل وَصُوَّام النَّهار فماذا يُقال للذين تركوا الجهاد وهم يرون الإسلام تُهْدَمْ أركانه، وتُطْفَأ مناراته ويستهزئون به ويحكم بغير شريعته؟!.

إذا كانت هذه الآيات تُقال لأصحاب محمد ﷺ وهم خيرُ الخَلْقِ بعد الأنبياء فماذا يُقال لأهل هذا الزمن الذين يشتمون المجاهدين لأنهم يُقْلِقُونَ عليهم سُبَّاتهم ونومهم وشهواتهم وكذلك ذِلتهم وخِستهم وحَقارتهم؟!.

حقّاً إنها صبغة الله حقّاً وصِدقاً، صبغة الله في الحديث عن هذه الغزوة التي جاءت على معانٍ أُخرى وقيم إيمانيةٍ جديدةٍ، لأنَّ هذه الغزوة جاءت على معنى من معاني الابتلاء، ليس ابتداء الجهاد والابتلاء ولكن تواصله وتقدمه، لأنَّ الجهاد هو حياتهم، وهو عملهم، وهو سوقهم، وهو زراعتهم، وهو سياحتهم، ففيه المحيا وفيه الممات.

إنها غزوة يحملهم قائدهم الرحيم الرءوف في وقتِ عُسْرَةٍ وَشِدَّةٍ، ومَسْغَبَةٍ، وقِلَّةَ ظَهْرٍ ودابةٍ، لأنهم بلغوا أعلى الدرجات، وحين يصلُ المرءُ لهذه المراتب فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ما هو آتٍ أشقّ وأقسى لأنَّ الجنَّة ليستْ سلعةً رخيصةً تُبْذَلْ للكُسالى والنومى وطالبي النَّعيم واللذات الدُّنيويَّة، فهي غزوة الوصول إلى الفردوس الأعلى، وغزوة الانطلاق إلى أُفقِ المعالي والدرجات العُلى في مقاعد الصِّدْقِ عند ربِّهم سبحانه وتعالى.

هي غزوة يتحقق فيها توبة الله على النَّبيِّ ﷺ والمهاجرين والأنصار، وهي غزوة تتعرى فيها كلّ قيِّمِ النِّفاق الخفيَّة الباطنيَّة والتي لا تظهر إلاَّ تحت أشدِّ الضغط وأذكى النِّيران.

هذه غزوة الانطلاق إلى أقسى التخوم بلا طعامٍ كافٍ ولا ماءٍ مُؤَمَّنٍ، وإلى أرضٍ أُخرى، يقذفُ بهم قائدهم إليها، كلّهم، ولا يأذنُ لأحدٍ أن يتخلفَ إلاَّ أصحابَ الأعذار، وتبدأ مسيرة النُّور، وكلما ذكر اسم واحدٍ من الأصحاب هل جاء أم تخلف يطلق رسول الله ﷺ كلمة التقِّيم النهائي:

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٣٩.

«**إنْ يُرِدِ الله به خيراً يأتِ به**»[1]، لأنها خاتمة الرحلات والامتحانات، فكلّ مَن تجاوزها فهو من أهل الخير وإلاَّ فَسُحْقاً له وَبُعْداً عن رحمة الله تعالى.

هذه غزوةٌ حطمت حدوداً وهميَّةً في المكان، وحدوداً وهميةً في النَّفس، حدوداً يضعها النَّاس بسبب ألوانهم ولُغاتهم ونَسبهم، لتحفظ لهم خصوصيتهم المزعومة، وقديم قوانين الإنسان الأرضي في أُفقِهِ وَرُؤَاه، فيأتي هذا النَّبيّ العظيم ويرحل بجنوده ليُحطم هذه كلّها، وذلك لأنَّ الأرض لله، والإنسان عبدٌ لله، فليكنْ ما يحكمهم جميعاً هو دين الله، ولِيبقى هناك حدٌّ واحدٌ فقط بين النَّاس هو ما قاله الله: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ** ﴾[2]، وليكون حدُّ الأرضِ والدِيَّارِ هو حدُّ الإيمان الذي يُفَرِّقُ بين دار الإيمان ودار الكفر لا غير، وذلك من خلال رحلة العُسْرة، لتكون عنوانَ المسلم دوماً في ردِّ كلِّ العوائق التي يضعها البعض لمنع الجهاد، فبأيِّ شيءٍ سيحتج المُثبطون، أبِقِلَّةِ الطعام والغذاء؟ أم بِقِلَّةِ الظَهْرِ والعَتاد؟ أم بِبُعْدِ الطريق وخطورتها؟ أم بحدود صنعتها الجاهليَّة؟ أو أوهام الإنسان الداخليَّة؟ كل هذه تأتي عليها الغزوة لتحيلها أعذار باطل أو دعاوى نفاق.

مع هذه الغزوة الخاتمة تمَّ كشف الستار عن كَيْدٍ جَدِيدٍ ومنه سيكون هو عنوان الصدام الداخلي حين يصل أمر الإسلام إلى ذروة مصادمة الكبش الكبير- الروم وعُملائها الغساسنة -، إنه لعبة المؤسسة الدِّينيَّة الموازيَّة لطائفة الإيمان والجهاد، إنه مسجد الضرار، وستكون الفتنة بعد ذلك حين يغيب حُكْم الشرع من قلوب المسلمين في تطبيق أحكامه بسبب الورع البارد أحياناً، وبسبب الغفلة وقلَّة الإدراك وضُعف الهُدى أحياناً أُخرى فيصبح هو صوت الإسلام، ويغيب صوت الإسلام الحقّ وصوت المجاهدين ليكون هو النَشاز والغريب.

والآن إلى كتاب الله تعالى وكلامه في هذه الغزوة المباركة:-

قال تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾** ﴾[3].

القرآن الكريم بوصفه لتحضيرات غزوة العُسرة يتجاوز الوضع الاقتصادي الذي تعيشه المدينة، بل لم يُشِرْ له إلاَّ بكلمةٍ واحدةٍ هي هذه الكلمة «ساعة العُسرة»، فهي ساعة فقط، وسيأتي التنبيه على أهمية هذا الوصف القرآني العظيم هناك في موطنه، فالقرآن يتجاوز كلّ هذه الظروف، وخلال

[1] بحثتُ في الكتب التي بين يدي فوجدتُ في «عُمدة القاري» للعيني، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطي، و«تاريخ الإسلام» للذهبي. كلهم ينسبون قول: «إن يرد الله به خيراً يُسلم» إلى حمزة ﷺ في قصة إسلام عمر بن الخطاب ﷺ. أما: «إن يُرد الله به خيراً يهده» جاء في «دلائل النُبوة» للبيهقي، و«أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة» لابن الأثير، و« محمد ﷺ» لرشيد رضا، و«الفاروق عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين ﷺ» لرشيد رضا. أنه قول النَّبي ﷺ.

[2] سورة التغابن، الآية: ٢.

[3] سورة التوبة، الآيتان: ٣٨-٣٩.

سِياق هذه الغزوة جعل هذه الظروف مجرد أعذار منافقين ﴿ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ ﴾[1]، وانطلق الوصف القرآني إلى النُّفوس المُؤمنة ليُخاطب دواخلها وحديثها واتجاهاتها بهذه الآية العظيمة، لأنَّ الإنسان مع هذا الدِّين لا يكون أسيراً لوضعه لِيتعللَ به، ولكن في الحقيقة يكون أسيراً لنفسيته، فإنْ انطلق فَلأَنَّهَا هي كذلك، وإنْ تثاقل فلأنَّ دواخله مُتثاقلة، فالظرف الإنساني ليس قيداً حديدياً يحكم إرادته، بل هو يتسعُ ويضيقُ بحسب ضيق النَّفس واتساعها، فنفس الإنسان هي الأصل والظرف السَنني تابع لها، لا العكس، ولو انقاد الإنسان لظرفه الذي يحيط به لَكان كَلاً عاجزاً، لا يُتقنُ إلاَّ الشكوى، ولا يفعلُ إلاَّ الخمول، لأنَّ انتظار الغدِّ الذي تكتمل فيه ظروفه، ويتلاءم فيه المحيط الذي يكتنفه لن يأتي أبداً، وهذا هو أخطرُ ما يُصيبُ الإنسان، أقصدُ الانتظار حتَّى يبدأ العمل، وهو أشبه بمرض التسويف الذي يغمر العاجزين والكسالى وكذلك الحالمين.

لم تلتفتِ الآيات إلى واقع المدينة في شيءٍ، مع أنها كانت قاسية، ولم تلتفتْ إلى بُعْدِ الطريق مع أنها كانت طويلة، لكنها ذهبت إلى هذا المرجل الذي أراد القرآن أن يجعله قمة عطائه وأوج فاعليته، فتتحرر الإرادة من كلِّ أمراضها، لأنَّ القرآن لا يحرر العقول من الأفكار الباطلة فحسب، لكنَّه مع التوازي في هذا يحرر الإرادة الإنسانيَّة من أمراضها وأسباب شللِها، وهذا أمرٌ لا ينبغي المَلل من تِكراره وهو أنَّ التجديد لا يعني أبداً ما يتعلق بالعلوم والأفكار فقط، لكنه إحياء الأُمَّةِ يُوجِبُ تحرير إرادتها من الجبن والخوف ومن حبِّ الدُّنيا وإيثار السلامة والرغبة بالعافية، أو الرضى بالقليل من المعالي فإنَّ المسلم يعلمُ ذلك من قوله ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ**»[2]، ولذلك من غير أنْ نقذفَ الأُمَّةَ إلى ميدان الجهاد، في كلِّ ظروفها، وعلى كلِّ أحوالها، وعلى تباين قُدراتها، فإنَّ التجديد الذي يسعى إليه البعض سيبقى مجرد كلمات، وستبقى السلاح بين الفِرَقِ المختلفة، ولذلك فبدلاً من انتشار كلمات كانت هي الأكثر قبولاً يتم استبدالها بكلمات أخرى، وهذه سُرعان ما تتحول إلى بضاعةٍ يَتَصَيَّدُهَا أصحابُ القُدرات التسويقيَّة والتجاريَّة، وهذا وقعَ حقّاً في مَن ظنَّ ذلك، إذ سُرعان ما تحولت كلماتهم إلى بضاعة تنافسيَّة في سوق المال والغِنى، ودخلت كما تدخل البضائع فيه عادةً بين التجار.

لقد تمَّ افتتاح هذا الحديث بهذا التحذير الإلهي:-

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٠.

[2] البخاري في «كتاب الجهاد والسِّيَر» باب درجات المجاهدين في سبيل الله. حديث رقم: ٢٧٩٠، وفي «كتاب التوحيد» باب: ﴿ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾[هود: ٧]، ﴿ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[التوبة: ١٢٩]. حديث رقم: ٧٤٢٣.

الحديث بتمامه: عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «**من آمَنَ باللهِ وبرسولِه وأقامَ الصلاةَ وصامَ رمضانَ كان حَقّاً على الله أن يُدْخلَهُ الجَنَّة، جاهدَ في سبيلِ اللهِ أو جلَسَ في أرضهِ التي وُلِدَ فيها**. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، أفلا تُبَشِّرُ الناس؟ قال: **إنَّ في الجنةِ مائةَ درجةٍ أعدَّها الله للمجاهدينَ في سَبيلِ الله ما بينَ الدرجتين كما بينَ السماءِ والأرض فإذا سألتمُ اللهَ فاسألوهُ الفِردَوسَ فإنهُ أوْسَطُ الجنة وأعلى الجنة** ـ أُراهُ قال: وفوقَهُ عرشُ الرحمنِ ـ ومنهُ تَفَجَّر أنهارُ الجنة» قال محمدُ ابنُ فُلَيح عن أبيهِ «وفوقَهُ عرشُ الرحمن».

إذاً النفير يعني قطع العلائق مع الأرض، لأنَّ النفير ذهابٌ إلى القمة، والتثاقل إلى الأرض يعني العيش في زُرُوبِ الصغار والهوان، فالنفير يعني ترك المحيط الذي تأنس به النَّفس وتطمئنُ إليه، فتسعى للتعلق به والمحافظة عليه، وهذا وإنْ بدا لبعض النَّاس هو الأسلم، لكنه في حياة الشعوب عامةً وفي قيم هذا الدِّين وطريقة حياته خاصةً هو مرضٌ وسببُ هلاكٍ.

هذا التثاقل له أسبابه الكثيرة التي سيكشفها القرآن بعد ذلك في إخباره عن المنافقين، لكنه مجموعٌ في شيءٍ واحدٍ هو: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾، فللتثاقل عنوانٌ وحيدٌ وهو مرض الإنسان كلّ الإنسان الذي جاء الأنبياء كلّهم لإخراجه منه، إنه حبُّ الدُّنيا والتعلُّق بها، والوقوف عند حدودها كالدواب دون النظر إلى عاقبة الآخرة.

هَذَا صِرَاعُ حُبٍّ، وَصِرَاعُ رِضَى، وَصِرَاعُ إِيثَارٍ، وَصِرَاعُ تَرْجِيحٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ؛ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَبِكُلِّ وُضُوحٍ قُرآنِيٍّ، وَبِصَرَاحَةِ مَعَانِيهِ هُنَاكَ صِرَاعٌ بَيْنَ هَذَيْنَ الأَمْرَيْنِ.

لقد غزى حبُّ الآخرة قلوبَ الأُمَّةِ لما مَهَّد البعض لحبِّ الدُّنيا بقولهم إنه مشروع، وإنَّ الإسلام يجمع بين هذين الحُبين، وقالوا: إنه يمكن للمرء أن يجمع بين هذين الحُبين، كما يمكن للمرء أنْ يجمع بين ضرتين، هذا الأمر يقوله المحسنون من الوُعاظ اليوم، وأما بعضهم فقد جعل الدِّين، كل الدِّين خادماً للدُّنيا ومصالحها، وينسى هؤلاء جميعاً سيرة النَّبيِّ المصطفى ﷺ وسيرة أصحابه ﵃ وسيرة أئمة الهُدى والدِّين والعلم، وسيرة المجاهدين والصِّدِّيقين في تاريخ الأُمَّة جميعه، ويأتون إلى آيات وأحاديث وكلمات أئمة هُداة ويضعونها في غير موضعها من هذا الأمر.

يأتون إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾[1]. ويجعلونه حجةً لهم في تَبْرِيرِ انْغِمَاسِ الأُمَّة في شهواتها، والغرق في الترف الذي يُفْسِدُ الأُمم والشعوب، ونسوا أولاً أنَّ هذه الآية ردٌّ على المشركين الذين كانوا يحرمون ستر أجسامهم في حَجهم وعُمرتهم إلاَّ من «الحمس» وهي لباس يشترونه من أهل مكة، فكانوا يطوفون عُراة إن لم يجدوا ثمن ثوب الحمس، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم أن يأخذوا زينتهم أي لباسهم في طوافهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[2]، فهذا ما يفسِّر الزِّينة في الآية، هذا في خصوص السبب، أمام عموم اللفظ فإنه مُقَيَّدٌ بتحريم الذهب والحرير على الرجال في الألبسة، مع حُرمة اتخاذ الذهب والفضة في أدوات الأكل والشرب، مع شروط أخرى لألبسة الرجال والنساء كعدم مشابهة الكفار في حياتهم كلِّها، وعدم لبس الرجال ألبسة النساء، وغير ذلك من حرمة الإسبال للرجال، وجواز إسبال خاص للنساء، كل هذا يدل على أن ما قالوا من معنى الزِّينة غير

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
[2] سورة الأعراف، الآية: ٣١.

صحيح، ثمَّ إنَّ الآية تُقَيِّدُ هذا الحل بعدم الإسراف، سواء كان في اللباس أو الطعام والشراب، فمِنْ أين لهمُ التحريض على أن يتخذ النَّاس في بيوتهم أكثر من ثلاثة فُرش؛ واحدٌ له، وواحدٌ لأهله، وثالثٌ للضيف، فالترف مهلكٌ للأمم؛ لشبابها ورجالها ونسائها، ولو التفتَ هؤلاء إلى زماننا لرأوا أنَّ كلَّ حُجَجِ المانعين للجهاد لها دافعٌ واحدٌ، وهو الخوف في نفوسهم عند أيةِ صرخةٍ، وكذلك الأفراد المُترفين هم كذلك يخافون ذهاب أموالهم وشهواتهم ومناصبهم، فبيوتهم بُنيت على وجه الزخرفة التي تضرها وتؤذيها ذرات الغُبار، فكيف بالأسلحة والقنابل وغيرها، وهذا ليس في العوام فقط لكنه في أئمة الفتوى والقُضاة ووُعَاظ المساجد، فقد ارتبطتْ حياتهم على نسقِ هذا الترف، ولو قام المجاهدون بعملٍ فإنَّ مِعْيارَ صحته وغلطه هو صون هذا الترف أو الإضرار به لا غير، ولذلك سمعتُ من بعضهم مَنْ يُنْكِرُ على المجاهدين وهم يعملون في جهادهم في بلادٍ غير مترفة، فلا يوجد فيها همُّ الخوف من الجهاد وتِبعاته، لأنها غير مثقلة إلى الأرض وشهواتها، وأهلها لا يرتجفون عند كلِّ صَيْحةٍ كما ترتجفُ مَن تنشأُ في الحِلْيَةِ والنَّعيم، ويرى هؤلاء أنَّ السعي الصحيح لإقامة الإسلام إنما يكون في بلاد الثراء والغنى، وفي بلاد النَّعيم والمال، فسبحان مَن يُضل ويَهدي، وسبحان من ربط الحقّ في قيمه مع أساليبه التي تدل عليه، وعرَّف الباطل بزُمرة رجاله وهيأتِهم وأمانيهم، فوالله إنَّ كلَّ سِمات الحقِّ القرآني، وكلَّ هدي الأنبياء لَيدلُ على أنَّ طائفة الجهاد هي الحقّ، وأنَّ كل ما يفعله مخالِفوهم لَيدلُ على بدعتهم وانحرافهم.

إنَّ الحديث عن الترف والدُّنيا بصفتهما معياراً أو بكونهما من موانع الجهاد ليس لإجبار كلِّ آحادِ الأُمَّة على وجهٍ واحدٍ من وُجُوهِ الحياة، فهذا لا يقوله أحد، ثمَّ لا وجه للجمع بين الغنى والترف، ولا تلازم بين كثرة المال وبين الضلال، ولكن القرآن يجمع بين الترف والفساد، بل بين الترف والضلال فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)** ﴾[1]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)** ﴾[2]. فبيَّنَ من الموضعين: **الأول**: في سورة «سبأ»، **والثاني**: في سورة «الزخرف»، أنَّ المُترفين يعتمدون في ردِّ الحقِّ على أمرين؛ **أولاهما**: المال الذي يملكونه، فإنهم يرون مانعاً من لحوقهم بالحقِّ، وهذه قالها فرعون في ردِّ دعوة موسى عليه السلام فقال الله على لسانه: ﴿ **وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ**

---
[1] سورة سبأ، الآيات: ٣٤-٣٦.
[2] سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[1]، وهي حجة صاحب الجَنتين كما في سورة «الكهف»، فقد قال الله على لسانه: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾[2]، وقد حكاها الله في مواطن أُخرى عن آخرين، **أما الأمر الآخر:** الذي يعتمد عليه المُترفون في ردِّ الحقِّ فهو إتباع الآباء وتقليدهم، وهي حُججهم اليوم في رفضهم للالتحاق بالحقِّ وأهله، فمالك الرجال يحتج بكثرة أتباعه، وصاحب النسبة التاريخية والأسبقية الزمنيَّة يحتج بها، وهكذا، فإنَّ مَن ينظر إلى الحقِّ فقط دون غيره من الهوامش التي لا تعود عليه بالإفساد أو الإبطال قليلٌ من العقلاء والمحسنين.

إنَّ للحقِّ سِمَاتٌ، وهي عينها سِماتُ المجاهدين اليوم، ولو تفكرَ أحدٌ بهذه السِمَاتِ في القرآن الكريم لَوَجَدَ أنَّ هذا حقٌّ لا ريبَ فيه، وهذا بابٌ يَطُولُ لكن تفكر اليومَ في التهمة التي تُوجه للمجاهدين أنهم فِتْيَةٌ وشبابٌ مُتَحَمِّسٌ، وأنَّ مخالفيهم من الكبار، أو كما يُسمُّون أنفسهم بالعقلاء وأهل التجربة، وقلِبْ نظركَ في القرآن في سِمَاتِ أتباع الحقِّ، ومِن أيِّ مراتب الأعمار هم، فأهل الكهف قال الله عنهم: ﴿ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ ﴾[3]، وأتباع موسى قال الله عنهم: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾[4] فهم ذرية، فالحمد لله على توفيقه.

﴿ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

هذه الكلمات القرآنيَّة فيها وحدها الكفاية في الردِّ على الذين لا يرون إلاَّ جهاد الدفع، إذ أنهم يريدون من الأُمَّة أنْ تكون خاملةً نائمةً، غارقةً في هُمُومِ دُنياها، ومعايش أهلها، كما يعيشُ بقية أهل الدُّنيا، فإنْ حصلَ أنْ طَرَقَهُمْ طارقٌ من الخارج هبوا للدفاع عن أنفسهم، وهذا أمرٌ في حقيقة الحياة يفعله كلّ أحدٍ من المخلوقات، ومِنَ النَّاس يفعله الكبار ويرونه واجباً من واجبات حياتهم لا يحتاج لتحريضٍ، ولا لوضع الهدايا والمُكافآت لأصحابه، فلو كان أمر الجهاد في سبيل الله تعالى في ديننا على هذا المعنى فما هو الدَّاعي والباعث لوضع الأُجور العظيمة له، وكيف يكون ميزة لهذه الأُمَّة دون سِواها من الأُمم؟ هذا ما لا يمكن تصوره أبداً حين يتفكر المرءُ في هذا التحريض الشديد في القرآن والسنَّة على الجهاد في سبيل الله تعالى، وكأنه ركنٌ من أركان هذا الدِّين، فإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فإنَّ الجهاد في الإسلام على معنى آخر غير المعنى الفِطْرِي في الخَلق وهو الدفاع عن الحقوق، أي على معنى الغزوة والنفير، ولذلك يقول تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾، والنفير هو مفارقة الأرض، فدلَّ على أنَّ هذه الآيات وأمثالها تُحْمَلُ على جهادِ الطَّلَبِ، وهو جهاد الدعوة في سبيل الله تعالى لإخضاع الأرض لدين الله تعالى، وهو واجبٌ عينيٌّ حين يستنفر الإمامَ طائفة من

---

[1] سورة الزخرف، الآيات: ٥١ـ٥٣.
[2] سورة الكهف، الآية: ٣٦.
[3] سورة الكهف، الآية: ١٣.
[4] سورة يونس، الآية: ٨٣.

النَّاس بأعيانهم، فلا يجوز لهم التخلف أو الاعتذار بأعذار أهل النِّفاق، والعجب أنْ يكون هذا المعنى جليٌّ واضحٌ ثمَّ يكون في زماننا من يحرم جهاد الدفع عن الدِّين والأعراض والحُرمات والأرض، بحجة أنه يُفسد على أهل الدُّنيا دنياهم، ويذهب بالشباب إلى الموت كما يقولون، يقولون هذا التحريف والضلال ويُسمُّونه فتوى شرعيَّة، افتراءً على الله، وكذباً على الشريعة، وصدق رسول الله ﷺ في هؤلاء وهو يقول: «**اتخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»[1].

﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾.

تأملْ هذا اللفظ القرآني العجيب، وكأنه يصفُ أقواماً قد تكدستْ شُحُومُهُمْ فعجزتْ أَرْجُلُهُمْ عن حملِ أبدانهم، فكأنَّ في أرجلهم دسر الحديد تمنعهم من الزوال، أو كأنَّ هؤلاء القوم قد حملوا الأثقال الكثيرة فهي عالقة بأجسادهم وثيابهم، وتلقي بثقلها عليهم فتنحني ظهورهم ورقابهم منها، وهم يُقيمون في أماكنهم، لا إقامة المرتاح المُتخفف بل إقامة المُثقل الذي يَئِنُ ويتألم حتَّى مع تسمره، لأنَّ هذا حالهم، فهمْ وإنْ كانوا غير بارحين، إلاَّ أنهم مثقلون متأملون يتصببُ منهمُ العَرق، وهو كحال من وصفه الله من علماء السوء بالكلب ﴿ **إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث** ﴾[2]، وقد صدق الله فيهم، فإنَّ ضريبة ترك الجهاد هي الألم، وإنَّ كلَّ ما يفرون منه فإنَّه مُلاقيهم، فهم إنْ خافوا على أموالهم سلطَ الله عليهم أموالهم فجعلها عذاباً عليهم، وإنْ خافوا مِنَ الموت فإنهم يموتون مع كلِّ صرخةٍ وَهَيْعَةٍ[3] تقرع آذانهم، وهذا واقع الأُمَّة اليوم فهي تَئِنُ مع جلوسها، وتصرخ ألماً مع بطالة نفوسها وكسلها، إذ تحول كلّ ما خافوا عليه عذاباً عليهم، وكان سبباً في أطماع الغير بهم حتَّى أُخِذَ منهم وهم ينظرون إليه ونفوسهم تذهبُ حسرات.

لقد اثاقلوا حتَّى صغروا وهانوا فصاروا غثاءً، وتقاصروا عن المعالي حتَّى صاروا أفراخاً، فدخلت فيهمُ العيون، وهانوا حتَّى على دواب الأرض، وعلى أخس الخَلق وأجبنهم، وهم الذين ضربَ الله عليهم الذلة والمسكنة، وكيف لا يكون ذلك وموشيه دايان يقول لشعبه «وعلينا أن نكون مستعدين ومسلحين أقوياء، فإذا سقط السيف من يدنا حانت ساعتنا»، ويقول مشايخنا بحرمة الجهاد في سبيل الله، ويسمون المجاهدين بالفئة الضالة، ويسمُّون أفعال المجاهدين إفساداً في الأرض، فلا عجبَ إذاً أنْ نكون كذلك، ويكون أعداؤنا في المكان الذي هم فيه.

---

[1] «**إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزاعاً يَنتزِعُهُ من العِبادِ، ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبض العُلماءِ، حَتَّى إذا لم يُبقِ عالماً اتخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**». أخرجه الشيخان عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ. البخاري في «كتاب العلم» باب كيف يقبض الله العلماء؟ حديث رقم: ١٠٠، ومسلم في «كتاب العلم» باب رفع العلمِ وقبضه وظهورِ الجهلِ والفتنِ في آخرِ الزَّمان. حديث رقم: ٢٦٧٣.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

[3] الهيعة ويُقال الهائعة: وهي الصوت الشديد عند الفَزَع.

في بلاد المسلمين يُعذب ويُسجن ويُعدم مَن يقتني السلاح، ويُعذب ويُسجن مَن يسعى للتدريب، وعند غيرنا، عند اليهود يكون الجيش هو المجتمع، والمجتمع هو الجيش، لأنهم يعلمون سنن الحياة والبقاء، وأما نحن فنعلمُ كيف نمشي على أربعٍ، ولا يكون لنا من عملٍ إلاَّ عملَ الدواب؛ الأكل والشرب والسِّفاد.

إنَّ هذه الحياة صعبةٌ وشاقةٌ، وكثيرةُ المفاوز، ومتعددةُ العقبات لا ينفعُ معها إلاَّ المُتخفف الذي إذا سَمِعَ هَيْعَةً طارَ إليها[1]، أما المُثقلون المُتثاقِلُون فهم سيعيشون في أماكنهم، وسيموتون في أماكنهم، وسيأتي اليوم الذي يتحولون فيه إلى مجرد أُجراء عند الغاصب، وفي أراضيهم هُمْ، وفي ثرواتهم هُمْ، لأنَّ الذلة والصغار حُكْمَ الله على مَنْ تركَ النفير في سبيل الله تعالى.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

هذه قاعدةٌ قرآنيَّةٌ، وهي قاعدةٌ أُصُوليةٌ فقهيَّةٌ، وهي مع ذلك بناءٌ نفسيٌّ في ترجيح المصالح الغيبيَّة على المصالح الدنيويَّة، فهي آية يُحْتَجُ بها على ما أجمع عليه أهل الدِّين والعلم والفتوى أنَّ مصالح الآخرة مُقدمة على مصالح الدُّنيا، فقد يحصلُ التضارب والتعارض بينهما فحينئذٍ المُقدم هي مصالح الآخرة وُجُوباً لا مَثْنَوِيَةً فيه، ومِنْ أجلِ ذلك فرضَ الله الجهاد مع ما فيه من إزهاقِ النُّفوس، وذهاب الأموال وفِرَاقِ الأهل والأوطان، وهذا من خصائص هذا الدِّين، وهي من خصائص أهله، والتفكر في هذا جليّاً يلغي الكثير مما يقوله الزنادقة عن الإسلام، فإنهم حين يعجزون عن تدميره، وحين يجبنون عن مُواجهته صراحةً فإنهم يتوجهون إلى تحوير وتحريف روحه، فيزعمون أنَّ الأديان جاءت لخدمة الإنسان، أي شهواته، لا على معنى تحقيق مصالحه التي يُقرها الشرع وخاصة مصلحة دخوله في رضوان الله تعالى وتحصيل جنته والنَّجاة من عذابه وعدم دخوله النَّار، وهذا هي أعظم مصالح الإنسان وأجلها، بل هي مقصد وُجوده في هذا الدُّنيا لا ما يزعم مِنْ عِمَارَتِهَا على معنى تزيينِهَا وزخرفتها والتنافس في تحصيل ملذاتها.

إنَّ التثاقل إلى الأرض يمكن أنْ يحصل لأهله متاعها، لكنه متاعٌ زائلٌ لا يدوم، بل سيأتي أنه سيتحول إلى عذابٍ على أهله كما في الآية التالية، ولكن المحقق من هذا أنَّ فاعلَ ذلك سيفوته تحصيل الآخرة، وفي هذه الآية بيانٌ أنَّ شأنَ الجهاد هو شأنٌ أُخرويٌّ في أُصوله وقواعده، وأما ما يحصلُ بعد ذلك فهو فضلٌ زائدٌ كما قال تعالى في سورة «الفتح»: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٥﴾﴾[2]. فسمى ذلك فوزاً

---

[1] إشارةً إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ. كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ. يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ. أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ مِنْ هَـذِهِ الشَّعَفِ. أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَـذِهِ الأَوْدِيَةِ. يُقِيمُ الصَّلاَةَ وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ. وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ. لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلاَّ فِي خَيْرٍ» أخرجه مسلم في «كتاب الإمارة» باب فضل الجهاد والرباط. حديث رقم: ١٨٨٩.

[2] سورة الفتح، الآية: ٥.

عظيماً، لكنه لما جاء إلى أَمْرِ الغنائم جعلها آيةً على صدق الوعد بالنَّصر والتأييد فقال سبحانه: ﴿ **وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾** ﴾[1].

لقد قطعَ الله على المُتثاقلين كلّ دعاويهم لأنه حصرها بحبِّ الدُّنيا والرضى بها، لأنهم سيحتجون بالكثير من الدعاوى، ذلك لأنَّ الإنسانَ يُتْقِنُ التبرير، ولن ينقطع في زعمه ومقالاته، لكن الحقيقة التي يكشفها القرآن هي حقيقة الواقع التي تحياها النَّفس الإنسانيَّة في رغبتها بالعاجل دون النظر إلى العواقب وما بعد الموت، فلذلك هي حقيقة واحدة هي حبُّ الدُّنيا.

في زماننا، كما في أزمان الإنسان، يتخفى المُتديِّنون أكثر من غيرهم وراء ستار الدِّين ومقاصده حين يُؤجلون واجباته التي تُفرض عليهم من أجل تحقيق الدُّنيا وشهواتها، ادعاءً أنَّ ما يسعون له يُعينهم على تحقيق أهداف الإسلام ومقاصده، فيزعمون أنَّ المال الذي يجنونه، ويسهرون على تكثيره وإنمائه لتحقيق منافع إسلامية، وطُلاَّب المناصب أمثالهم، بل إنَّ كلَّ مَن يسعى بشيءٍ يزعمُ أنه يريد الإسلام من وراءِ ذلك، وتمرُّ الأجيال، وتتعاقبُ الدورات، وتكثرُ الأموال بين يدي المُتدينين، فإنْ طُلِبَ منهمُ المال للجهاد بخلوا به بحجة أنَّ هذا يضرهم، ويُعرض حياتهم ومصالحهم لخطر الأعداء، وأصحاب المناصب أمثالهم، وهكذا، فيغيب الإسلام لتبقى الشهوة والدُّنيا مع غلافٍ دينيٍّ يسيرٍ.

أُمَّتُنا اليوم تحولت إلى غُثاء كغثاء السيل كما وصفها سيِّدها الحبيب المصطفى ﷺ[2]، وهي في مرحلةٍ خطيرةٍ جداً، فالواجب أنْ تكثف الدعوة للإقبال على عملٍ واحدٍ دون غيره هو الجهاد في سبيل الله تعالى، والإعداد له باعتباره مهمة حياة، ووظيفة أصليَّة، لا أنْ يكون تابعاً للغَني المسلم والطبيب المسلم والمهندس المسلم، والفَرق بين الحالين هو تعيِّين الأصل وهو الجهاد ورفد غيره به لا العكس كما يفعلُ المُتديِّنون اليوم، ومما يؤكد زَعْمَ هؤلاء المُتديِّنين أنه قد صار بل وما زال هناك ساحاتُ جهادٍ تحتاج لأموالِ الغَني المسلم وللطبيب المسلم ولغيرهما ولكن تجد أغلب هؤلاء أبعد ما يكونون عن هذه المواطن والعمل فيها.

تأملْ حالةً واحدةً لها تعلقٌ بالجهاد من جهة مهمته، وهي الدعوة إلى الله تعالى في بلاد المسلمين الفقيرة النائية، وهي المناطق التي ينشط فيها دُعاة الكُفر والشرك، إذ يتفرغُ المرءُ فيهم سنين طويلة في القرى والغابات، يعيشون شظف العيش، وقسوة الحياة، واختلاف الظروف المعيشيَّة، ولكنهم

---

[1] سورة الفتح، الآية: ٢٠

[2] وهو حديث ثَوْبَانَ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ، مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**. قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: **أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**. قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» أخرجه الإمام أحمد في «المسند» حديث رقم: ٢٢٢٩٦.

يصبرون على باطلهم، وحين يأتي الأمر إلى المسلمين تجد صورةً معاكسةً لذلك كلِّهِ، فقد سمعتُ أحد الناشطين[1] للدعوة إلى الله وإغاثة المسلمين في أفريقيا يشكُو ويتألم أنه لم يجد شاباً مسلماً داعياً إلى الله يصمد معه في قرية من تلك القُرى أكثر من ستة شهور، ويصفُ أنَّ الواحد منهم يأتي مُتحمساً مُصمماً فلا يلبث بعد شهورٍ قليلةٍ حتَّى يبدأ الشكوى ثم الهروب، هذا مع ما تدفعه مؤسسات العلم ومعاهده من طلبة علمٍ وَوُعاظ ومدرسين بالمئات سنوياً، لكن أين هم؟! هذا لنعرفَ أنَّ مرض حبِّ الدُّنيا وضعفِ الإرادة وغياب هَمِّ الإسلام هو أمرٌ حقيقيٌّ، وإنَّ أعظم مظاهره هو ترك الجهاد في سبيل الله تعالى، والذين يتحدثون عن الدعوة إلى الله، ويجعلونها أصلاً لا حياة الأُمَّة هم مُصيبون ولا شك، لكن هذا القول يحتاج إلى تفصيلٍ ليس هذا مكانه إلاَّ أنَّ من المُهم أنْ يفهم هؤلاء معنى الدعوة إلى الله، وأنها تكليفٌ شديدٌ، لا كما يفهمها الكثير على أنَّ الدعوة صورةٌ من صورِ الهروب من الجهاد بالسيف والسلاح، ولا على معنى أنْ تُتَخَذَ الدعوة باباً من أبواب الرِزق، ولا أنْ تكون الدعوة على معنى تركِ كلمة الحقِّ والموت في سبيلها، وغير ذلك من المعاني الباطلة، لأنَّ الدُّعاة إلى الله على هذه المعاني قد كثروا اليوم، وتحولتِ الدعوة إلى الله بديلاً عن حقائق شرعيَّة كُبرى أهمها الجهاد في سبيل الله، وصارت وسيلة من وسائل الكسب والعيش، ولذلك تجد أصحابها يتزاحمون على مراكز المال في الدول الثرية دون غيرها، مع فقرٍ شديدٍ في أماكن الجهل التي تحتاجهم لا لسببٍ إلاَّ لأنَّ المالَ غير موجود هناك، وإنْ وُجِدَ فهو عَزِيزٌ قَلِيلٌ.

لقد تحول طلبة العلم الشرعي إلى مجرد طالبي رزقٍ كغيرهم، يقفون كما يقفُ كلّ واحدٍ مِنْ طلبة الدُّنيا على أماكن لُقمة الخبز، فهل مثل هؤلاء يعيشون همَّ الدِّين؟! وهل في قلوب هؤلاء تلك الغيرة الدِّينيَّة التي حركتِ المُصلحين في تاريخ أُمَّتِنا، فغيَّروا النَّاس وقادوهم إلى معالم الهُدى؟!.

أين زُهْد هؤلاء من زُهْدِ طلبة الحديث من أسلافنا، مع زعمهم أنهم طُلاب حديث وأهل رِواية؟! فهل هناك رجلٌ من أهل الحديث في طبقات الرجال لم يعشِ الفقر وشظف الحياة، وأصابته الابتلاءات في رَحلاته وتنقلاته؟!.

أين جَلد هؤلاء وصبرهم مِن جَلد أولئك الرجال الذين حملوا هذا الدِّين وحفظوه ودونوه حتَّى وصلنا نقياً صافياً؟!.

أين موقف هؤلاء من موقف السلف في شجاعتهم مع كلمة الحقِّ التي كانوا يقولونها لأئمة المسلمين؟! لِيذهب عُشْر هؤلاء المُتمسحون بشعار الدعوة وطلب العلم إلى أقاصي البلاد حيث لا يوجد هناك مَن يعلمهم كيفية الصَّلاة، ولِيبتعدوا عن أماكن التُخمة التي يتناظرون فيها حول مسائل الهيئات في الصَّلاة.

[1] هو الشيخ عبد الرحمن السميط من الكويت ـ حفظه الله تعالى، وبارك فيه وفي جهوده. وعافاه من مرضه. فقد دخل الآلاف إلى الإسلام بسببه... جعل الله ذلك في موازين حسناته.

إنَّ مشكلةَ حبِّ الدُّنيا والرضى بها، وعدم الرغبة في الآخرة أكثر مما تتجلى في الأُمَّةِ حين تُدعى إلى الجهاد في سبيل الله تعالى فلا تقوم ولا تنفر، ثم هي تكون ظاهرةً في كلِّ قضايا الأُمَّةِ وأحوالِها، إذْ تَعُودُ عليها بالفساد والخراب، وأشدّ من ذلك بعذاب الله تعالى، فلا تظنن أنَّ قضية إعراض الأُمَّة عن الجهاد هي حالة مُنعزلة عن نشاطها في ميادين أخرى كما يريد بعض أصحاب الشعارات الفارغة أن يصفوها، بل هي مرضٌ يُسْقِطَ الأُمَّةَ عن ذروة سنام الإسلام، ثم يبدأ الهبوط حتَّى يصل إلى القاع لأنَّ أمثالَ هؤلاء مُثقلون ومُتثاقلون إلى الأرض.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ﴾.

إنَّ الحياة الأخرى لا ينالها الذين يُؤثرون الحياة الدُّنيا عليها، وهذا دليلٌ على أنَّ ما قُلْتُهُ وَسَأَقُولُهُ دَوْماً أنَّ مشكلة المُعرضين عن الدِّين هي مشكلة نفسيَّة، أي مشكلة حبٍّ ورضا وإيثارٍ، والذين يَتَخَفَوْنَ وراءَ الأفكارِ أغلبهم كاذبون، وها هنا فقد جعل الله دخول الجِنان تتعلق بترك الرضى بالحياة الدُّنيا، والإقبال على الحياة الأُخروية ووسائل تحصيلها، وحين يرضى المرء بالحياة الدُّنيا وينشغل بها، ويجعلها همَّه الذي يُقِيمُ له كلَّ أوقاته وإرادته يعني أنَّ الآخرة ليست من نصيبه، وليس هو من أهلها.

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾.

هذا القليلُ جاء وصفه في حديث رسول الله ﷺ من حديث المستورد بن شَدَّاد ﷺ الذي رواه مسلم[1] أنه قال: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟**»، فهذه هي الحقائق القرآنيَّة التي يجب أنْ تسري في نفوس أهل هذا الدِّين، وتستقر فيها، لا مجرد كلماتٍ وأفكارٍ عقليَّةٍ، بل تُصبح هي ميزانهم في اختياراتهم وحياتهم، وعلى أساسها يُقَوِّمُونَ الرِبح والخَسارة، ومن خلال مصلحة الآخرة يكون ميزان التحسين والتقبيح، والحِل والحُرمة، فالفعل يزن حسناً بمقدار ما يحصل من منافع، وحقائق الوجود تكون أولاً بالتكامل القائم بينها، ولكن قَلَّمَا يُوجد في هذه الحياة خيرٌ محضٌ أو شرٌّ محضٌ، بل إنَّ خيرَها مختلطٌ ببعض الضُّرِّ، وشرُّها مختلطٌ ببعض المنافع، وإدراك النَّاس للخير والشرِّ بمعناهما المُطلق غيرُ خَفِيٍّ، إذْ قَلَّمَا يلتبسُ أمرهما على الأَسْوِيَاءِ، لكن كما قال أهل العلم إنَّ التفاوتَ في مدارك النَّاس يكون في إدراكِ خيرِ الخَيْرَيْنِ وشرِّ الشَرَّيْنِ، فلو أنَّ الدُّنيا تجردتْ عن الشرِّ وكانت خيراً محضاً ثمَّ كان هذا الخير يُقابل خير الآخرة بخلوده وكماله لَكانَ العقل الفِطْرِي الشديد يقتضي ويُوجبُ اختياره للآخرة وعدم الاهتمام قط بهذا النَّعيم الزائل، ولذلك كانَ اختيار الأنبياء لهذا الأمر حتَّى في باب الفضل، دون أن يكون ما يُترك من الدُّنيا حراماً أو مكروهاً، ففقر النَّبيِّ ﷺ كان فقراً اختياراً، فهو الدَّاعي بأنْ يجعل الله قُوتَ آل محمدٍ

[1] مسلم في «كتاب الجنَّة وصفة نعيمها وأهلها» باب فناء الدُّنيا وبيان الحشر يوم القيامة. حديث رقم: ٢٨٥٨.

كفافاً[1]، وهو القائل: «**كُنْ فِي الدُّنيا كأَنَّكَ غريبٌ أَوْ عَابرُ سَبِيْلٍ**»[2]، وهذا من تمام عقلِ واختيارِ هذا النَّبيِّ العظيم، وحياته هي أكمل الحياة التي يحبها الله لعَبِيدِهِ وأصفيائه وأوليائه.

هذه الحقيقة القرآنيَّة ليست وعظية يُقْبِلُ عليها أهل الإحسان دون غيرهم من عموم المسلمين كما يظن البعض، بل إنها حقيقة يجب أنْ يكون لها وجودٌ في عموم الفقه من عبادات ومُعاملات وأخلاق، فذِكْرَى الدَّار الآخرة التي تدفعُ حبَّ الدُّنيا هي التي منعت ابن عمر رضي الله عنهما أن يفك حبوته ليرد على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما وهو يلقي خطبته في تعيِّين ابنه يزيد خليفته من بعده فقال: «فتذكرتُ ما أعد الله للمؤمنين في الجَنَّة فسكتُ»، وهي التي تجعلُ المرءَ يتركُ تجارته وماله ليسعى إلى ذِكر الله تعالى إنْ سَمِعَ النِّداء، وذِكْرَى الدَّار الآخرة هي التي تمنعُ الفقيه من اقتراحِ الحِيَّلِ التي تَلْتَفُ على الحُكم الشرعي فتجعلَ الحرامَ حلالاً، ولو تأملَ المرء دين الله كلِّه لَوجده مبنياً على هذا الأمر، أي تحصيل منفعة الدَّار الآخرة، ولذلك فالُمتكلمون على المصالح اليوم وجعلها ديناً على وجهٍ يُرْضِي الكافرين بالدَّار الآخرة هم مُزَوِرُونَ لأصلِ الدِّين وحقيقته، فالدِّين جاء لِلَجْمِ الشَّهوات لأنها طريقٌ إلى النَّار، وهؤلاء يجعلونها مقصوداً شرعيّاً مُعْتَبَراً، ويُقِيمُونَ أحكام الشرع في عمومها لتحقيقها، ويزعمون أنَّ هذه هي كُليات الدِّين التي تضبط فروعه الشرعيَّة، ولذلك فلا عجبَ أن يجرد الدِّين من حقيقته ويتحول الفقه إلى صورة اختيار من مُتَعَدِدٍ لتحقيق منافع الأشخاص الذاتيَّة بحجة اليُسر الدِّيني، وهذه المسألة هي التي جعلت مسخراً اليوم لأهل الشَّهوات من حُكام ومحكومين، ومُفترين وعُصاة، وهي التي جعلتِ الفتوى حالة يسيرة هيِّنَة يُدركها الجميع كما يظنون، ويُدركها الأفراد بذواتهم في نوازلهم ووقائعهم، إذ كلّ ما يحقق لهمُ المنفعة هو دين، وهذه هي التي تتردد اليوم على ألسنة الفقهاء والأُصوليين، وعلى أساسها سيحكمون في النوازل والوقائع، أما أمر الآخرة فهي لها تعلق بمصالح الدِّين، لأنَّ الدِّين هو عبوديَّة المرء لربِّه، والعبودية إلغاءٌ للاختيار والهَوَى، إذْ أنَّ العَبْدَ لا يكون كذلك حتَّى يخضعَ لأمرِ سيِّده باطناً وظاهراً، ويكون أمر سيِّده مُقدماً على ما يحبُّ ويكرهُ، ولذلك حُفَّتِ الجنَّة بالمَكارِهِ[3]، لأنَّ الله جعلَ الهُدى مُقَابِلَ الهَوَى فقال سبحانه عن المُشركين: ﴿**إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾**﴾[4]، ومما يُؤْسَفُ له أنَّ هذا الضلال قد شاعَ وانتشرَ، وهو من المسائلِ التي يجبُ أنْ يُعَادَ التجديد فيها من خلال القرآن قبل أنْ تُلْتَقَطَ كلماتٌ من هنا وهناك قالها أهل العلم على وجهٍ خاصٍ ومعنًى فرعِي.

---

[1] «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحمَّدٍ قُوتاً**» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ. البخاري في «كتاب الرقائق» باب كيف كان عيش النَّبي ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدُّنيا. حديث رقم: ٦٤٦٠، ومسلم في «كتاب الزكاة» باب في الكفاف والقناعة. حديث رقم: ١٠٥٥.

[2] البخاري في «كتاب الرقائق» باب قول النَّبي ﷺ: «**كُنْ في الدُّنيا كأنكَ غريبٌ، أو عابرُ سبيل**». حديث رقم: ٦٤١٦.

[3] إشارةً إلى حديث أنس بن مالك ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشهوَاتِ**» أخرجه مسلم في «كتاب الجنة وصفةِ نعيمِها وأهلِها» حديث رقم: ٢٨٢٢.

[4] سورة النجم، الآية: ٢٣.

إنَّ الآخرة في مقصد الخَلق، وهي مقصد بعثة الأنبياء، وربحها هو الربح كلّه، وخسارتها هي الخسارة كلّها، ومصلحتها هي المصلحة المُعتبرة، وكلُّ فِعْلٍ لا يرجو صاحبه منه الآخرة والفوزَ بها لا يكون ديناً، وكلُّ فِقْهٍ لا يُرَاعِي هذا الأجرَ الأُخْرَوِي لا يكون فِقْهاً إسلاميّاً قط، ولذلك من إحياء فقه الدَّار الآخرة، وإنَّ مِنَ الجُهود التي قَلَّمَا يعتني بها الدَّارسون اليوم هو إعادة ربط الفقه بالتوحيد وبالدَّار الآخرة، إذ لو بذل أهل العلم والفقه والأصول في تجلية هذه القضية بعض وقتهم وأبحاثهم لَكَانَ في هذا خيرٌ عظيمٌ، ولَتَبَيَّنَ مِقْدَارَ انحرافِ الكثير من طرف أفناء المعاصرين اليوم واختياراتهم، وهذه القضية تبدأ من القرآن أولاً وآخراً، وفي ذلك إحياءٌ لفقه القرآن الكريم والسنَّة النَّبويَّة إحياءً حقيقيّاً.

﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

لقد تم عرض النفير في الآية السابقة كوضعٍ يُصَادِمُ حبَّ الدُّنيا والرضى بها، وأنَّ النفير هو طريق الآخرة والفوز فيها، ثم كانت هذه الآية تحذيراً ربَّانيّاً في نتائج الإعراض عن النفير، وعواقب ترك الجهاد في سبيل الله والتثاقل إلى الأرض والرضى بالدُّنيا.

إنَّ هذه الآية تعرض النفير والجهاد في سبيل الله على وجهِ العبادةِ المحضة التي لا حظَّ للإنسان فيها قط، فهي أمرٌ ربَّانيٌّ يجب امتثاله ككلِّ الأوامر الإلهيَّة، وعواقبَ تركه كعواقب أي معصية كُبرى يقترفها أصحابها، ولذلك فإنَّ ترك الجهاد ليس اختياراً للإنسان بتركِ المَعالي والأمور وقبوله ببعض مراتب البقاء المقبول، إذ يتصور البعض أنَّ الجهاد هو دعوةٌ للقمة والذروة، والنفير فضلٌ يسلكه أهل الإحسان، مع وُجود مراتب غيره مقبولة لنوعٍ مِنْ أَنواعِ الحياة البريئة من العذاب والعِقاب، وهذا غلطٌ كامنٌ في نفوس كثيرٍ مِنَ النَّاس، سواء كانوا قادةَ فِكْرٍ أو عوامٍ، وهم يُترجمون هذا التصور على وجهٍ ما، يركبون فيه أنَّ الجهاد حالة تفزع إليها الأُمَّة بَعْدَ اكْتِمَالِ وُجُودِهَا، وتَأْمِينِ قُدُرَاتِهَا، ثم بعد ذلك تسعى نحو الفضل والذهاب نحو الذروة والقِمة، وهذه الآية ترد عليهم، لأنها تجعلُ الجهاد عبادة واجبة، وبمجرد ترك الأُمَّةِ لها يكون العذاب، ويقع الإلغاء لها ليكون هذا الإلغاء سبباً لِبُرُوزِ غيرها، لأنَّ ساحة الجهاد في قدر الله تعالى لا تقبل الفراغ، فهي جزءٌ كبيرٌ من واقعِ التدافع الكوني الذي لا يتخلف أبداً وُجُوداً وَقَدَراً.

حين تتركِ الأُمَّة النفير والجهاد فإنها تُعذب، وهذا يعني أنه لا يمكن البناء ابتداءً من غير جهادٍ، لأنَّ العذاب عقوبة ربَّانيَّة تُعَطِلُ تحصيل المنافع أو إدراك نتائجها، بل هي تحصِّل ضِدَّها لُزُوماً، فَمَهْمَا سَلَكَ المُصلحون سُبُلَ الإصلاحِ فلن يُدركوه إنْ كانوا في حالةِ عذابٍ ربَّانيٍّ، أي إنْ تركوا الجهاد في سبيل الله تعالى، وهذا دليلٌ على أنَّ الجهاد حالةَ ابتداءٍ في مسيرةِ الإِصْلَاحِ، وليس حالة انتهاء، فأمره هو جزءٌ من التوبة التي هي شرط الدخول في تحقيق الوعود الإلهية بالتوفيق والقبول والتسديد

والهداية، فحين يسأل النَّاس متى النفير يجب أن يكون الجواب: الآن، وصِدْق هذا يكون امتحاناً بين المؤمنين والمنافقين وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾[1].

هَذَا أمرٌ يَتَعَلَّقُ بالأُمَّةِ، وَبِمَجْمُوعِهَا، وَيَتَعَلَّقُ بِأَفْرَادِهَا ورِجَالِهَا، والقائمُ فيه هو مَنْ أَعْذَرَ إلى اللهِ وبَرِئَ مِنَ العُقُوبَةِ.

النفير والجهاد عند المُتثاقلين عذابٌ وألمٌ، وجوعٌ وموتٌ، ولكن القرآن يُقرر أنه بترك النفير يقع العذاب الربَّاني، فالنفير فيه آلام الإنسان الذي يسعى للمعالي، وترك النفير فيه عذاب الله تعالى وعقوبته، وسنن التاريخ وواقع أيامنا يدل على بعض آثار هذا العذاب الدُّنيوي قبل الأُخروي، لأنَّ ترك النفير هو سكون الكسول، لكنه كذلك مستنقع الأمراض والعقوبات، وإنَّ أقَلَّ العذاب الذي تحيَّاه الأُمَّة اليوم بترك الجهاد هو أنها صارت كالقصعة بين يدي اللِئام، وهانت في عيون أخس أعدائها، وضرب الله قلوب بعضها ببعض، وغياب حقيقة الدِّين وحبّ الدَّار الآخرة، ومصائب لو وقفَ المرء لِعَدِّهَا لاحْتَاجَ إلى مجلدات لِيَصِلَ إلى بعضها، ومما لا شك فيه أنَّ البعض سيقول إنَّ للجهاد كذلك مشاكله، وهذا حقٌّ، لأنَّ هذه هي سنن الحياة، لا يخلو شأنٌ من شؤونها مِن فتنه التي تحتاج إلى تسديد ومُراجعة وإصلاح، لكن شتان بين العارض الذي يقع من لوازم حركة الحياة السديدة الصحيحة، وبين المرض الذي يحدث بسبب مُصادمة سنن الحياة وقواعد يحملها، فالأول عرضٌ يُعالج في وقته، ويُزال كأثرٍ طارئٍ، لكن أمراض ترك الجهاد تذهبُ في عُمْقِ الأُمَّةِ، وعُمْقِ التاريخ، ويكفي أنْ نذكرَ أنَّ الله سبحانه وتعالى ضرب الصَّغار والذلة والتيه على بني إسرائيل أربعين عاماً بسببِ تركهم الاستجابة لنداء نبيِّهم موسى عليه السلام في دخول الأرض المُقدسة، فأمراض ترك الجهاد تمضي إلى الجذور وإلى الأجيال وإلى عُمْقِ المجتمع، ثم هي تذهبُ في شمولها كلَّ نواحي الحياة، لأنَّ حركةَ الأُمَّةِ مع الجهاد هي كحركة الماء التي تُنَقِيهِ وتحافظ على نَقَاوَتِهِ، فهي تُبْعِدُ عنه أسباب الفساد كما تحافظُ عليه طهوراً لغيره لأنَّ شرطَ الإصلاحِ القَدري للماء هو أنْ يكون نقياً لِيعملَ عملية النَّحر كما يُسمُّونها، فإذا اختلطت فيه أسباب الفساد فَقَدَ هذه الخاصية.

﴿ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

إنه العذاب الذي يذهبُ في العُمْقِ، ويَنْخُرُ في البناءِ، أي في مقصد وُجود هذه الأُمَّةِ، فتفقد الأُمَّة خيريتها ومرتبة الشَّهادة التي هي أشرف المراتب، لأنها تتحول إلى أُمَّةٍ مريضةٍ، مشغولةٍ في همومها وآلامها، وتطبيب جِراحها التي تنشأ من داخلها ومن أعدائها.

إنَّ العذاب هي الأمراض التي تعرفها المجتمعات، وتكون سبباً لهلاكها أو انْزِوَائِهَا على هامش الحياة، لأنها تفقدُ التأثير والقيادة، والجهاد وحده هو الذي يحقق زوال الأمراض التي تَعْتَرِي هذه

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٦.

الأُمَّة، فالجهاد ليس فِعْلاً بعد التطبيبِ والإصلاحِ، بل هو نفسه الدواء الذي يُصلح الأُمَّة ويُذْهِبُ عنها عوارض الفَناء والتهميش.

لقد هربتِ الأُمَّة من الجهاد مخافةَ القَتْلِ، فاستُحل فيها القتل وهي في مكانها خاملة، وتركتِ الجهاد مخافةَ ذهاب المال فصار مالها غنيمة لأعدائها، وتركتِ الجهاد إيثاراً للكسلِ والخمولِ فتحولت إلى سخرة يُرْمَى شبابها إلى العمل في أخس وأحقر الأعمال في المشرق والمغرب، فهل في هذه الدُّنيا أعظم للشعوب والأمم من هذا الألم؟!.

﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

هذه صفةٌ من صفاتِ أُمَّةِ الإسلام، فهي أُمَّة الحضورِ وعدمِ الغيَّابِ، وهذا قدرُ هذا الدِّين، فهو باقٍ بقيَّمِهِ وحين يقعُ الذهاب يكون الذهاب والغِياب في القبائل والبُلدان والشعوب حين تتخلى عن الجهاد في سبيل الله، فإنْ وقع التخلي ينتقل هذا الدِّين وعمله إلى أوفياءَ جُدُدٍ له يقومون بحقه.

إنَّ ساحة الصِّراع لا تقبلُ الفراغ، وفاعلية هذا الدِّين وحضوره لن تفنى ولن تذهب، والذين يطلبون مِنَ الأُمَّةِ ترك الجهاد بحجة عدم القُدرة حيناً، أو بحجة عدمِ وُجُودِ ظرفه السَنني، أو بدعوى عدم جَدْوَاه إنما يريدون في الحقيقة إفناءَ هذه الأُمَّةِ حتَّى يَفْرُغَ الأمر لأعدائها حضوراً وتأثيراً وقيادةً، وهذا من أعظم الفساد في الأرض.

هؤلاء سيذهبون، لكن ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[1]، فهذه الآية ـ أي الآية السابقة ـ يقولها الله لأصحاب رسول الله ﷺ الذين أَرْسَوْا دَعَائِمَ الدِّين، ووطنوا قواعده وأُسسه، ثم يأتيهم التحذير إنْ تركوا الجهاد أنْ يقوم له غيرهم، ويأتي في كلِّ زمنٍ ـ وفي زماننا ـ مَنْ يظنُّ أنه بمجرد أنْ أكرمه الله وأعزَّه حين صار يوماً مع الجهاد، ثم صار له تقدماً وإمامةً أنْ لو ترك الجهاد سيلحق به النَّاس، وهؤلاء لا يعلمون ـ لشدَّة جهلهم ـ أنَّ الجهاد هو الذي رفعهم، وليس العكس، فهم يظنون أنَّ الجهاد صار له سُوقٌ بهم، مع أنهم يقرؤون قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[2]، فهمُ الذين يرتفعون بالدِّين لا العكس، وهمُ الذين يضرون أنفسهم إنْ تركوه ولن يضروه شيئاً.

إنها آيةٌ تُعلم أهل القرآن أنَّ ساحة الجهاد يجب أن تكون حاضرةً شرعاً وقَدراً، وقد حذر الله المُعرضين بأنَّ بدائلهم جاهزة لتأخذ مكانهم، ووالله لقد رأينا في زماننا هذا من يُقِيمُهُ الله مِنَ الشركِ ثم يمضي به إلى مقام الجهاد والشَّهادة في شهور قليلة، وهي دلائل أنَّ هذه السنَّة حاضرة تُهدد الذين يظنون أنهم عمد الدِّين وقواعده، فإنْ تخلواْ عنه ذهبَ وغابَ!.

---

[1] سورة المائدة، الآية: ٥٤.

[2] مسلم عن عمر ﷺ في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب فضل من يقوم بالقرآن ويُعلمه، وفضل من تعلم حكمةً من فقهٍ أو غيره فعمِلَ به وعلَّمها. حديث رقم: ٨١٧.

لقد ختم الله سورة محمد بهذا الإنذار والوعيد فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾[1]، يقولها ربُّنا لأصحاب محمد ﷺ وهم خيرُ الخَلْقِ بَعْدَ الأنبياءِ، يدفعهم بذلك أن يتمسكوا بهذا الغَرز، وهذا الطريق، فليسوا هم خير من يقوم به، لكن لرحمة الله بهم اختارهم هم، ومن كان هذا حاله فإنَّ شكره لله أنْ يبكي بين يدي الله تعالى أنْ لا يُغَيِّرَ قلبه، ولا يُقَلِبهُ إلى غير هذا الطريق الحقِّ، وفي سورة «المائدة» هدد الله وأنذر عباده إنْ ارتدوا بالاستبدال فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[2].

فهذه آياتٌ ثلاث تتحدثُ عنِ الاستبدال، وكلّها تتضمن قِيام البدل بالجهاد في سبيل الله تعالى، فدل هذا على أنَّ الأُمَّةَ التي ترث هي أُمَّة الجهاد، وأنَّ الأُمَّةَ التي تقوم وتبقى هي أُمَّة الجهاد، وأنَّ الجهاد هو شرطُ بقاءِ الأُمم وحياتِهَا ودوامِهَا، ولا يمكن أنْ يُقْفَزَ إلى التاريخ إلاَّ من خلال هذا السبيل وهذا العملِ العظيم، والذين يطلبون من الأُمم الوداعة والسكون إنما يطلبون لهذه الأُمَّة الإلغاء.

هذه الآيات وإنْ كانت إنذاراً لكنها كذلك بُشْرَى أنَّ دِينَ اللهِ بَاقٍ، وأنَّ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَ اللهِ رِجَالاً لَنْ يَسْمَعُوا للمُخذلين، ولا لفتاوى الضالين، مهما تَزَيَّنَتْ مقالاتهم وأكاذيبهم من حجج العقل الحالم، وإفرازاتِ النَّفس الجبانة البخيلة.

الجهاد في سبيل الله تعالى حالةٌ إنسانيةٌ يُدْرِكُ قيمتها أصحاب العقول الفِطرية السديدة، ويعرف أهميتها أصحاب البصر بالتاريخ الإنساني وحركة الوجود، وينفعل معها الذين يسمعون هذه الآيات فترتجف قلوبهم من هَوْلِ الإنذار والتهديد، ويُدِيم الثبات عليها الذين لا يقفون أمام اللحظات السريعة الماضية بل الذين يرجون الدَّار الآخرة، ويرون ببصيرة عقولهم وقلوبهم وعد الله لهم بالتمكين مهما طال الطريق.

لكن حين يتم الاستبدال كيف نتصور حال المُستبدَلين؟ وماذا سيقولون لهؤلاء الوُرَّاث الجُدد من الفِتيان؟.

إنَّ في الواقع الكثير من الصور التي يمكن للمرءِ أن يراها في هؤلاء، وسيكون منهم أذى، لكنهم سيذهبون غُبَاراً يحْدِثُ بعضَ العُطَاسِ ثُمَّ سَيَحْمَدِ أهل السُّرَى أنْ ذَهَبَ هؤلاء لأنهم كما قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾[3].

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾.

[1] سورة محمد، الآية: ٣٨.
[2] سورة المائدة، الآية: ٥٤.
[3] سورة التوبة: الآية: ٤٧.

إنَّ هذا الجهاد اصطفاءٌ واختيارٌ، ونعمةٌ ربَّانيَّةٌ تَسْرِي في الوجود يُوقِعُهَا الله على قومٍ فيهم خاصية الوِعاء لهذه النِّعمة، ووالله لقد رأيتُ في هذا الطريقِ خِصَالَ أهلِهِ، فَهُمْ أَهْلُ شجاعةٍ وكَرَمٍ، وأهلُ غِيرَةٍ دِينِيَّةٍ جَلِيَّةٍ، تَقْضِ مضاجعهم أخبار الأُمَّة، يتململُ أحدهم غيظاً مِنْ صنائعِ الكافرين في بلاد المسلمين، إنْ وقعتْ عَيْنُ أحدهم على امرأةٍ مسلمةٍ باكيةٍ مِنْ ظُلْمِ الظالمين بَكَى لِرِقَّةِ قلبه وسُرْعَةِ دَمْعَتِهِ، وإنْ رأى نَصْراً للمسلمين أو خَيْراً فيهم انبسطتْ أَسَارِيرُهُ فَرَحاً لنعيمٍ لا يصلُ إلى يده منه شيءٌ، فقلوبهم حيَّة لم تَمُتْ غيرتها ولا انفعالاتها ولا عاطفتها.

أما أعداء الجهاد اليوم فإني أُشْهِدُ الله أني رأيتُ فيهم صَلَفَ قُلُوبٍ وَجُمُودَ عُيُونٍ، لا يهتم الواحد منهم لأمرٍ من الأمور إلاَّ بمقدار منفعته أو منفعة جماعته، ولا يهتزُ قلبه لمآسي المسلمين، بل في قلوبهم دياثة جلية، إذ تعجب له كيف يطلبُ من الأُمَّة الحكمة المزعومة وهو يسمع سبَّ الله وسبَّ رسول الله ﷺ، ويطلبُ من الشباب الانكفاء إلى دُنياهم وهم يرون نساء وأطفال وشيوخ المسلمين يُقْتَلُونَ أمامَ بَصَرِهِ، فأي قلوبٍ في جنوب هؤلاء أصحاب حكمة الجبن والبخل والعجز؟! أقول هذا في الأغلب والأكثر وإنْ كان البعض مأسوراً لجهلٍ وتقليدٍ ورباطَ التاريخ مع جماعته.

إنهم يَعِيبُونَ على أهل الجهادِ غيرتهم، ويُعَيِّرُونَهُمْ بها أنهم أصحاب حماسٍ زائدٍ، وقد صدقوا فهم وُرَّاثُ الصَّحابة الذين لا يرون الدِّين أبداً يقفُ أمام غيرتهم على أعراضهم وحُرماتهم، فهذا سعد بن عُبادة ﷺ يسأل رسول الله ﷺ: لَوْ وَجَدْتُ مَعَ أَهْلِي رَجُلاً لَمْ أَمَسَّهُ حَتَّى آتِيَ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«نَعَمْ»** قَالَ: كَلاَّ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ إِنْ كُنْتُ لأُعَاجِلُهُ بِالسَّيْفِ قَبْلَ ذَلِكَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اسْمَعُوا إِلى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُمْ، إِنَّهُ لَغَيُورٌ وَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»**[1]، ولو وقعت هذه النوازل لأحدهم اليوم لأَمَرَهُ بالتَرَوِي والصَّبر وكفِّ الأذى مخافة السجن أو القتل أو التغريم، لأنَّ الغيرة ماتت في القلوب إلاَّ من قلوب المجاهدين وأحبابهم، وصار الموت في سبيل الدِّين والعِرْضِ رَمْياً للنَّفس والتهلكة، وقتلُ سابِّ الله ورسوله ﷺ تَهَوُراً، والانتصار للأُمَّةِ ضَيَّاعٌ للجهود ولِقَوْمٍ لا يَسْتَحِقُونَهُ، فهذه قواعدهم اليوم، ثم يأتي السؤال لماذا صِرنا في مُؤَخِرَةِ الركب ونهباً لكلِّ سارقٍ.

﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

لقد خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ وهو غنيٌّ عنهم، فهو سبحانه وتعالى القدوس الصمد الذي لا ينقصه كفر الكافرين، ولا تنفعه عبادة العابدين، فالله سبحانه وتعالى يخلقُ الخلقَ بكلماته، ويهدي النَّاس بأمره ورحمته، فإنْ أعرضَ قومٌ فهو غنيٌّ عنهم ولا يرضَى لهم هذا الإعراض، وهو قادرٌ أن يبدل غيرهم فيأتون لهذا الدِّين، أوفياء له، يقومون بحقه خيرَ قيامٍ، واعتقاد المسلم المجاهد بهذا الأمر وتذكره له في أوقات المحن والشدائد ضروري لأنَّ هذا الاعتقاد يحفظ عليه استقامته، فهو خائفٌ من

---

[1] مسلم عن أبي هريرة ﷺ في «كتاب اللعان» حديث رقم: ١٤٩٨.

الاستبدال، وكأنه في مَرْبَعٍ من الخيرات والنَّعيم فإنْ زالت قدمه عنه جاء غيره وملأه، فحاله حال المُراقب لنفسه أن يضعفَ ويسهو أو يُغيّر، وهذا حقٌّ لا مِرْيَةَ فيه، إذ كانتِ الوِراثة دوماً تقع على حَمَلَةِ هذه الصفة الجليلة وهي راية الجهاد في سبيل الله تعالى، ارتفعت بها شعوبٌ وأُممٌ وأقوامٌ، وبَرَزَ بها رجالٌ وقادةٌ، وسُجِّلَتْ أسماءهم في كُتُبِ التاريخ لهذا الفَضْلِ، وكلما غيَّر الأبناء وبدَّلوا جاء غيرهم وحملوا الراية، وكم رأينا مَن يقوم بها أقوامٌ يأتون من الغيب الذي لا يتوقعه أحدٌ، ومن مناطق لا يَأْبَهْ لها أحدٌ، فبالجهاد تقذف إلى عين الوجود وصرة العالم، وقُطب الاهتمام، وواقع الأُمَّة يشهد على هذا، والأمثلة كثيرةٌ لمن تأمل.

تركُ الجهادِ مَوْتٌ، ومَنْ يَأْبَهْ للموتى في هذه الحياة، والجهاد هو الحياة الحقّ التي قدم فيها أهلها روح الوجود وحركته، فبأفعالهم مع قِلَّتِهِمْ إلاَّ أنهم يضبطون إيقاع حياة البشرية على أفعالهم وأقوالهم وقَراراتهم، ويحسد الحاسدون بأنهم «شرذمة قليلون»، ويستصغرهم الغافلون، وأما العقلاء حتَّى من أعدائهم فيعرفون أنهم هم مَن يضبط الفِعَّال التي تهزُّ أرجل الشيطان وخُططه ومشاريعه.

إنَّ الله تعالى هو الفَعَّالُ لما يُرِيدُ، وهو الذي يُبَارِكُ في القِلَّة، وينزعُ التأثير من الكثرة، فالله لن يضره ذهاب أولئك الذين يزعمون أنهم يقودون الحشود الكثيرة من المسلمين الغافلين، ويُسَوِّمُونَ أنفسهم بهذا الأمر ليقبل بهمُ الشيطان والجاهلية، ويتغنون أنَّ المجاهدين قِلَّة معزولة لا تأثير لها، فهم يعلمون أنَّ كثرتهم هي مجردَ أرقامٍ سلبيةٍ لا يستطيعون بها أنْ يبدلوا حركة الحياة، لكنهم يُسْتَخْدَمُونَ حيناً في سُوقِ العَرْضِ مِنْ قِبَلِ الجاهلية لصرفِ النَّاس من المسلمين عن حياة المَعالي والوراثة، فَهُمْ أرقامٌ لغيرِ المسلمين لا للإسلام، وهي في أحسنِ الأحوال مجرد أرقامٍ ساكنةٍ لا فَعَالِيَةَ لها في حركةِ الوُجُودِ.

إنهم لن يضروا الله شيئاً في إيقافِ إرادته إنْ توجهتْ أنْ يرثَّ المُؤمنونَ الأرضَ، فبِآحَادٍ مِنَ المجاهدين تنشأ أمواج الحِراك في الأرض لتسقط دول، وتتعرى مبادئ، فتتغير خريطة القِوَى في الأرض، ويتم الإعداد للوراثة على عين الله، وتُبْنَى سفينة النَّجاة، وأما هم فيسخرون منهم يوماً بأنهم قِلَّة، ويوماً أنهم في شَعَثِ الجبال، ويفرحون هم أنَّ أرقامهم كثيرة، وأنهم مطلوبون في سوق السياسة الجاهلية، ولابدَّ أنْ يأتي اليوم الذي يستدعون فيه.

لكن من عجائب هؤلاء المُستبدلين الذاهبين أنهم يستمدون شرعيَّة وُجودهم بأنهم جاهدوا يوماً، وأنهم قالوا كلمة الحقِّ يوماً، وقد صدقوا لكن نسوا ما هم عليه الآن، وبقاؤهم اليوم لا يعني بقاء الوارث بل بقاء القادر على مُسايرة الظروف كالأميبيا ودود الأرض.

إنَّ من قواعد الحياة أنَّ الكبارَ العُظماء لهم طريقان؛ **إما الوراثة وإما الشهادة**، وهذه خاتمة المجاهدين، لا يقبلون بغيرها، وأما المُتملقون والصِغار فَسَيَطُولُ بقاؤهم لكنَّه بقاء الراضي بالعيش في الهوان ودنايا المقامات، ولذلك قالوا إنَّ من أسباب محافظة الديدان على وُجودها وعدم انقراضها

أنها تُتْقِنُ العيشَ في أماكن الهَوان، فسبحان مَن جعلَ أهل الدِّين وحملته حقّاً يُؤَثِرُونَ في العالمِ مع قِلَّتِهِمْ، وجعل مخالفيهم لا أثر لهم وإنْ كثر أعدادهم ككثرة غُثاء السَّيْلِ.



إضاءة

نقل ابن جرير[1] عن عِكرمة والحسن البصري القول بنسخ هذه الآية، ورده بأنَّ هذه الآية نزلت في قومٍ مخصوصين استنفرهم رسول الله ﷺ للغزو، وليست عامة في المسلمين حتَّى يكون قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾[2] نسخاً لها.

والذي أراهُ أنَّ القولَ بالنسخ صحيحٌ لكن على غير معنى النسخ الاصطلاحي الذي يُذْكَرُ في كُتُبِ الأُصُولِ، وتفصيل هذا الترجيح كالتالي:-

مِنَ المعلوم أنَّ كلام السلف وخاصة الصَّحابة والتابعين يجب حمله على مُرادهم لا على مُراد من جاء بعدهم، لأنَّ كثيراً من المُصطلحات تتغيَّر مدلولاتها من طبقةٍ إلى أُخرى، وهذا في كلِّ العلوم، وهو مشهورٌ معلومٌ لِمَنْ تَتبع ذلك، فكلمة النسخ عند الأَولين كانت تعني مُطْلَقَ الرَفْعِ، سواءٌ كان جُزْئِيّاً أَوْ كُلِيّاً، وهذا بخلاف ما استقر عليه المُصطلح بعد ذلك، إذ صار النسخ هو رفعُ حُكْمٍ كُلِي سَابِقٍ بحُكْمٍ كُلِيٍّ لاَحِقٍ، فإنَّ حملَ كلام عِكرمة والحسن على هذا المعنى كان القول بالنسخ خطأً ولا شك، ولِغياب هذا التفريق بين مفهوم الأوائل للنسخ وبين مفهومه عند المتأخرين ردُّ الكثير من أقوالهم، ولِوجود فَهْمٍ خاصٍ للمتقدمين لكلمة النسخ كَثُر عندهم القول بالنسخ لآيات القرآن، ومَنْ نَظَرَ في كُتُبِ الآثار وَجَدَ هذا وَاضِحاً حتَّى قال بعضهم إنَّ آية السيف ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾[3] نسخت مائة وأربعة وعشرين آية، ثم قالوا: ثم نسخ آخرها أولها، ومن المعلوم أنَّ النسخ ليس ما يُصَارُ إليه أولاً في عَمَلِ الفقيه والمُفسر بل يكون أولاً الجمع ثم النسخ ثم الترجيح وإلاَّ فالتوقف، هذا مع أنَّ القول بالنسخ يحتاج إلى شروطٍ منها أن يكون النَّص مما يمكن وُقوع النسخ فيه ثم معرفة التاريخ لتمييِّز المُتقدم من المُتأخر.

فابتداءً يكون بالجمع، والجمع يبدأ العمل به بانفكاك الجهة، أي حمل كلِّ نصٍ على واقعةٍ لها خصوصٌ فيكون كلّ نصٍ فتوى، وعلى هذا المعنى يكون قول ابن القيم وغيره: «تتغيَّر الفتوى بتغيُّر الزمان والمكان»[4]، وليس كما يزعمُ الجاهلون أنَّ المراد هو تغيُّر الحُكْم الشرعي مُطلقاً لتغيُّر الزمان والمكان، والفرق بينهما كبيرٌ، ولِنضرب مثلاً في الحادثة الشهيرة من فِعْلِ الفاروق ﷺ بعدم إقامة الحد في عام الرمادة لأنه مما كثر الاحتجاج بها على وجه اللعب بدين الله تعالى.

---

[1] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للإمام الطبري. المجلد ٦، الجزء العاشر الصفحة ١٣٥. طبعة دار الفكر ببيروت (١٤٠٥- ١٩٨٤م).

[2] سورة التوبة: الآية: ١٢٢.

[3] سورة التوبة، الآية: ٥.

[4] عقد رحمه الله تعالى فصلاً كاملاً تحت عنوان: **وجه تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأحوال.** «أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين» الجزء الثاني الصفحة ٢٣. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

مِنَ المعلوم ضرورةً أنَّ حَدَّ السَّارقِ هو قطعُ اليد، فهذا حُكْمُ الله تعالى الذي لا يجوز لأحدٍ أنْ يُشَرِّعَ بَدَلاً مِنْهُ قَوْلاً أَوْ حُكْماً، ومَنْ فَعَلَ ذلك كان كافراً، لكن قد يسرق الابن من أبيه، والشريك من مالِ الشركة التي شاع مُلْكُهُ فيها، وقد يسرق الوارث من مال الإرث الذي شاع نصيبه فيه، وقد يسرق الضيف من مال المضيف الذي امتنع عن ضيافته الواجبة، وصورٌ كثيرةٌ تملأ حياة البشر تدخل في مُسمى السرقة، وكل حادثة لها زمانها ومكانها، ليس على معنى الزمن ـ أي الوقت ـ ولكن بمعنى ما فيه كقوله تعالى في الحديث القدسي: «**يَسُبُّ ابْنُ ادَمَ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ بِيَدِيَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**»[1] أي مقدِّر حوادثه ووقائعه، وكذلك المكان، فالمفتي والقاضي ينظر لهذا كلِّه لِيرى موانع إلحاق الحُكم الشرعي بآحاد الفاعِل، إذ قد يحجب الحُكم كليّاً أو جزئيّاً، كما هو الشأن في الإرث، فقد يحجب كليّاً أو جزئيّاً لِوجود مانعٍ، فالقاتل لا يرث، والكافر لا يرث المسلم، وهكذا، فهذا لا يُقال فيه: تغيُّر الحُكم الشرعي، واستبدال بغيره كما يزعمُ أهل الضلال والجهل في زماننا، بل هذا يُقال فيه تغيُّر الفتوى لِوجود المانع، أي بتغيُّر الزمان والمكان، ولذلك يرى بعض أهل العلم عدم إقامة حد السرقة على مَن سرق من مالٍ له فيه شُبهة المُلْكِ، كمَن سرق من مال أبيه، هذا مع خلاف البعض في التسمية، وهي مسألة لفظيةٌ بحتة في بعض جوانبها، كخلافهم في أخذ المرأة من مال زوجها بغير إذنه بالمعروف هل يُسمى سرقة أم لا؟.

في عام الرمادة سرق جماعةٌ من المَوالي بعيراً لسيِّدهم وأكلوه، فشكاهم إلى الفاروق، فلم يُقِمْ عليهم الحد، فقال المعاصرون: «غيَّر عمر حُكْمَ الله تعالى في عام الرمادة»، وقال الفقهاء: «تغيَّرتِ الفتوى بتغيُّر الزمان»، والسبب أنَّ المعاصرين يريدون شبهةً ولو يسيرةً لِيُبَرِرُوا للمُبدِّلين تغيِّير أحكام الشريعة واستبدالها، وأما الفقهاء فإنَّهم على بيِّنَةٍ من ربِّهم.

قال الأوائل: إنَّ للمولى شبهةَ تملكٍ في مالِ سيِّده، إذ له حقَّ الطعام والكسوة والكِفاية بالمعروف، ولهذه الشبهة لم يُقِمِ الفاروق عليهم الحد، لأنَّ الحدود تُدرأ بالشُّبهات، وقال آخرون: إنَّ سيِّدَهم منعهم حقَّهم في عام الرمادة فلم يكفِهِم في طعامهم فأخذوا ما مُنعوا مِن حقوقهم كأخذ هند بنت عُتبة من مال زوجها أبي سفيان بغير إذنه لما منعها حقّها، فالفاروق أعْمَلَ حُكْمَ الله لأنَّ هذا هو حُكْمه في هذه الواقعة بزمانها ورجالها، ولا اختصاص لعام الرمادة بالحُكْم، فلو كان الفاروق قد أسقطَ حُكْمَ السرقة مُطْلَقاً في هذا العام لَكانَ لكلِّ أحدٍ أنْ يسرقَ ولا يُعاقبْ، وهذا لا يقوله أحدٌ يعقلُ ما يخرج من رأسه.

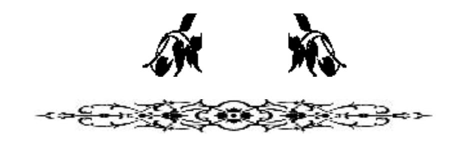
---

[1] البخاري في «كتاب التفسير» باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ حديث رقم: ٤٨٢٦، ومسلم في «كتاب الألفاظِ من الأدبِ وغيرِها» باب النهي عن سبِّ الدَّهر. حديث رقم: ٢٢٤٦ـ٢٢٤٧.

إنْ كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فإنَّ ما قالوه من نسخ كثيرٍ من الآيات لا يصح إنْ كان النسخ بمعنى الرفع، لأنه يمكن الجمع بينها وذلك بانفكاك الجهة، أي أن تعمل كلّ آية في زمانها ومكانها، فهذا أول ما يُوجِبه النظر والفقه والأصول.

فلو طبقنا هذا على آية السيف لَوجدنا أنها ليست ناسخةً لما قالوا على معنى النسخ عند المتأخرين، لكنها رافعة لعموم الآيات التي ذكروها، إذ أنها أتتْ بحُكْمٍ جديدٍ لم يكن معمولاً به قبل، بل كان غيره شاملاً لهذا الجزء من الحال الذي نزلت على وصفه.

أما لماذا رجحتُ قول من قال إنَّ هذه ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ﴾ منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾، فلأَنَّ حَمْلَ الآية على العموم ثم القول بنسخها ـ أي رفع العموم ـ أولى من قول ابن جرير إنها خاصة ابتداءً، فإمام المفسرين ابن جرير ردَّ النسخ بأنَّ آية النفير خاصة، ونقل بعض الآثار أنَّ المقصود بها إما قوماً بعينهم استنفرهم رسول الله ﷺ فتثاقلوا فجاءهم الوعيد، وإما أنَّ النفيرَ واجبٌ على كلِّ أحدٍ لا يكون إلاَّ مع رسول الله ﷺ، وأما إنْ كان غيره هو الذي يستنفر النَّاس فلا تشمله هذه الآية، والذي يُقويه النظر أنَّ هذه الآية عامة، وأنَّ النفير واجبٌ على مجموع الأُمَّةِ، فهو حياتهم، يقوم به أهل الكفاية في جهاد الطلب، وتقوم به كلّ الأُمَّة في جهاد الدفع، فإنْ تركتِ الأُمَّة النفير، سواء الكِفائي أو العيني وقع هذا الوعيد، فهي آية في لفظها عامة يُراد منها العموم، أي أنْ تنفر كلّ الأُمَّةِ في كلِّ وقتٍ، ثم جاء التخصيص إنْ حصل النسخ فهو مرجوحٌ لعموم اللفظ أولاً، ولإبقاءِ معنى هذا العموم أنه واجبٌ من الواجبات الشرعيَّة التي تُخاطَب بها الأُمَّة جميعاً لأَنَّ هذا هو شأنها وهذا مقامها في القرآن الكريم كلِّه، تقوم به في كلِّ وقتٍ بحسب حُكْمِهِ إما الواجب العيني وإما الواجب الكفائي، وكلاهما خطابٌ للأُمَّةِ.



إضاءة

اتكأ بعض المُعاصرين على كلمةٍ لأبي بكر المعافري في تسمية هذا النوع الذي يُسمُّونه نسخاً بالنَّسأ في احتجاجهم بأنَّ الجهاد اليوم صار مُؤَجَلاً لحضور الحُكم السابق بالعُفو في قوله تعالى: ﴿**فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ**﴾[1] وبالجنوح إلى السلم إنْ جنحوا له، وغير ذلك من الآيات الدَّاعية إلى هذه المعاني، والعجب من هؤلاء كيف يُنَقِبُونَ على أي كلمةٍ تُسْعِفُ مُرَادَهُمْ بالطعن في الجهاد وطريقه في زماننا، من أجلِ دَعْمِ رُؤَاهُمَ الدَّاعية إلى مناهجهم، وبعض هؤلاء يزعمُ الانتساب للسلف دون أن يُكَلِّفَ نفسه العودة إلى فقه السلف حقّاً، والحقُّ أنَّ الدَّعوةَ لفقه السلف أي الصَّحابة والتابعين والمُقتدين بهم دعوةُ دينٍ وصوابٍ لكنها تحتاج إلى علماء ربَّانيِّين، أصحاب عقلٍ وإدراكٍ وبصيرةٍ، استطاعوا أن يهضموا مقالات السابقين وفتاواهم ليصدروا منها إلى كُلياتهم التي كانوا يعقدون عليها فروعهم، كما فعلَ الإمام العظيم محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى في كتابه «الرسالة» وهو الكتاب الذي لا تجد له ذِكراً إلاَّ القليل في كلام دارسي الأُصول هذه الأيام، لأنَّ الأُصولَ اليوم صارت عند أهلها مجرد فَهْمٍ للمصطلحات، لا مَلَكَةَ إِدْرَاكٍ تَسْرِي في عَقْلِ الفَقِيهِ لِضَبْطِ فَتَاوَاه وعُلُومه، ثمَّ بعد أن تُستوعب قواعد السلف ـ أقصد الصَّحابة والتابعين خصوصاً ـ يُصَارُ إلى عَرْضِ ما يقوله المتأخرون من قواعد وأصول، لأنَّ المحققين يعلمون أنَّ عِلْمَ الأُصول هو من أكثر علوم الشريعة تأثراً بالمنطق الأرسطي، تماماً مثل عِلْمِ الكلام الذي هو عِلْمُ العقائد في مصطلح المتأخرين، فالدَّعوة إلى فقه السلف لا تكون حقّاً إلاَّ بالعودة إلى كُلياتهم وقواعدهم التي بَنَواْ عليها الفقه، لا مجردَ ترديدَ فروعِ الفقه الذي نُقِلَ عنهم، وأنا أدعُو طلبة العلم إلى قراءة كتاب «الصَّفَدِيَّة» لابن تيمية رحمه الله تعالى، لأنَّ فيه التنبيه على بعض ما يعتري الفقيه من خلائط تُؤثر على فقهه وفتاويه، وضرب على ذلك مثلاً بحكم البُغاة، إذ قال فيه ما معناه: «إنه لغلبة الفِسق على البغاة في زمن بعض الفقهاء جعلهم يحكمون على البغاة بالفِسْقِ، والأمر ليس كذلك، بل قد يكون البغاة أسلم ديناً ممن خرجوا عليه»[2]، وهذا يدل على دخول التاريخ في الفقه وهي قضية يجب التنبه إليها حين تنقل نوازل هؤلاء العلماء، أي أن تقرأ من خلال زمانهم، أقصد الفتاوى لا الأحكام التي تُستفاد من الكتاب والسنَّة، لأنَّ هذين المصدرين حقٌّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كما نُبِّهَ على ذلك في الإضاءة الأولى.

ما قاله ابن العربي في تسمية هذا النوع نسئاً خطأً، لأنَّ النسأ هو التأجيل، أي قد جاءت أحكامٌ متأخرةٌ أجلتِ الحُكْمَ السابق لوقتٍ آخرٍ، وهذا المعنى بهذا الإطلاق باطلٌ، لأنه يعني أن ينسخ

[1] سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

[2] لقد تصفحتُ كتاب «الصَّفديَّة» صفحةً صفحة، ولم يتبيَّن لي كلاماً لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه ربُّ البريَّة ـ، يُشبه ما ذكره شيخنا أبا قتادة بالمعنى.

المُتقدم المتأخر في وقتٍ قادمٍ، وابن العربي إنْ أراد هذا فقد أخطأ وإنْ أراد أنَّ هذا الحُكْمَ المُتقدم لم يُرْفَع بالكُلية، لكن تغير واقع النَّبيِّ ﷺ رفع الحاجة إليه، مع بقائه أصلاً في حُكْمِ الله تعالى فقد أصاب، لأنَّ ما يُسمُّونه نسخاً ليس كذلك على معنى النسخ عند المتأخرين، بل هو تخصيصٌ على ما قدمتُ سابقاً، فإنْ عاد مُقتضاه عاد حُكْمُهُ لِبقائه وعدم رَفْعِهِ بالكُلِّيَّة، وعلى هذا يكون المعنى حقٌّ لا غلطَ فيه.

لكن انظرْ إلى نموذج الإعراضِ عن فقه السلف، وعدم العلم بمعنى مصطلحاتهم إلى أين يصير بأصحابه، ثم انظرْ إلى نتائج إحداث ألفاظٍ جديدةٍ في علوم الشريعة كيف يصل بالمُقلد، أو صاحب الهوى إلى أقوالٍ باطلةٍ في دين الله، فهذه كلمة قالها واحدٌ من أهل العلم لا تجد له مُتَابِعاً في ما طُبِعَ مِنْ كُتُبِ القواعدِ والأصولِ، فيفرح لها صاحب هوى، فيطيرُ بها ويجعلها رُكْناً يرتكزُ إليه في إبطال أحكامٍ شرعيَّةٍ يقينيَّةٍ لا يُنازع فيها إلاَّ ضال، ويجعلها سبيلاً لِوجُوبِ تركِ الجهاد ـ نعم وُجُوبِ تركِ الجهاد ـ لأنَّ الأصل هو عدم وُجوبه لكن جاءت أحكام نسأتها لحين، ثم جاء الوقت الذي يجب عودة الأحكام للأصل، وهذا الذي يقولونه لا يدرون كم يُفْرِحِ الزنادقة في بلاد المسلمين، ولا يعلمون أنهم بهذا يُؤَصِّلُونَ للمرتدين والزنادقة مقالاتهم، تماماً مثلما كان الأمر قديماً مع المُتكلمين، حين صارت مقالاتهم التي لا تُبْطِلُ باطلاً ولا تحقُّ حقّاً مدخلاً لإبطال نصوص الشريعة، فأهل التأويل هم بابُ الباطنية، وكلَّ قولٍ قالوه صار هو عُمدة تأويل كلِّ الشريعة كما تقول به الباطنية، لأنه لا يمكن للمرء الذي يُطلق كلمةً باطلةً أن يقدر على ضبط آثارها، فكيف للمرء أن يقول: يجوز تأويل بعض النصوص على قاعدةٍ واحدةٍ هي قاعدة الحقِّ والأخذ بما تُوجبه لغة العرب من الخطاب، والفريق الآخر الذي يرفضُ التبعيض فيرى أنَّ قانون التأويل يصح في كلِّ النصوص، وهذا هو قانون الباطنية، ولذلك صدق مَن قال: «أنَّ المتكلمين مخانيث فكر»، أي أنهم يريدون الجمع بين الشيء وضدِّه، وهذا غلطٌ، واليوم يفتحُ فقهاء التيسير والعمل بالمصالح على الوجه الذي يُفسرونها باب إلغاء الشريعة للزنادقة وهم لا يشعرون، كما فعلَ أسلافهم، لأنَّ قواعد المصالح هي قواعد مقبولة لعموم النَّاس ـ مُؤمنهم وكافِرِهم ـ، ومن دون ضبط أحكام الشرع لرؤى العقول في إدراك المصالح يفتح باب التشريع على خلاف الشرع، يقوله الزنادقة على وجه كُليات البشر العامة من وُجُوبِ العدلِ وَبُغْضِ الظُّلم، ويقوله فقهاء المسلمين على قاعدة اعتبار المصالح في تحقيق منفعة الإنسان، وأنَّ ذلك مُرَاد الشرع، وكذلك أمر فقه التيسير، وهو فقه التلفيق الذي يقوم على قاعدة تصويب المجتهدين، وهي قاعدة الضلال كما كان الأوائل يُسمُّونها.

ولو فُتِحَ باب النَّسأ هذا، وستجد مَن يفعله ويُعَممه سيصل الأمر والحال إلى ما قاله الزنديق محمد شحرور[1] في كتابه: «الكتاب والقرآن» مِنْ أنَّ نصوص القرآن تحمل دلالات ومعاني لم يكن وقتها

[1] سوري الأصل، وهو أستاذ جامعي. أتى بالعجائب والغرائب في كتابه المذكور، ومنها مسألة الحجاب إذ أنه فسر الجيوب تفسيراً غريباً ادعى فيه أن المرأة لها أن تُظهر كلّ جسدها للأجانب سوى الجيوب، وهي التي تحت الثدين والإبطين وهكذا.

وتاريخها قد حان زمن النزول على رسول الله ﷺ، بل ستظهر في أوقاتٍ قادمةٍ ومتأخرةٍ عنها، فالذين يقولون إنَّ آيات الجهاد والسيف قد نسأت آيات العفو والصفح فأجلت العمل بها لتاريخٍ قادمٍ هو عين الذي يقوله هؤلاء، لأنهم يستطيعون القول بأنَّ كلَّ الأحكام الشرعيَّة قد نسأتِ الأصل الذي كانت عليه أحكام العرب قبل البعثة إلى وقتٍ تعود فيه هذه الأحكام الجاهليَّة لوقتٍ آخرٍ.

هل هذا بعيد؟.

لا أظن، لأنَّ هناك مَن قال ما هو أشدُّ من ذلك، فقد سمعتُ لأحدهم قُدِّم أنه مجتهد إسلامي، ومجدد معاصر، وباحث جاد يقول بأنَّ القرآن قد أصَّل للعلمانيَّة، ويحتج بقوله تعالى في سورة الكهف عن ذي القرنين: ﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۗ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا (٨٦)** ﴾[1].

فقال ـ فضَّ الله فاه كما فضَّ قلبه من الإيمان وعقله من الفهم ـ: «إنَّ الله أذن لهذا الحاكِم أنْ يُعْمِّلَ في هؤلاء القومِ رأيه الذي يراه فيهم دون أن يرجع لأمرِ الوحي، وهذا هو أصل العلمانيَّة، لأنها تُعْطِي للنَّاس الحقَّ أن يقولوا من الأحكام ما ينفعهم دون سنَّة الوحي وحُجته».

وقال بارك الله في مُبغضيه: «إنَّ سورة الكهف جعل الله خاتمتها عاصمة من الدجال ـ وهذا حقٌّ ـ، ولذلك فأحكامها هي أحكام الأزمان المُتأخرة، أي أزماننا هذه، وبالتالي فما قاله الله لِذي القرنين هو حُكْم الله لأهل هذا الزمان في جواز أن يقولوا ويشرِّعُوا من الأحكام من غير دليل الشرع ونصوصه».

وهكذا صارت العلمانيَّة هي حُكم القرآن كما يقول هذا المجدد!! الزنديق.

وجهل هذا الرجل أنَّ أمر هذه الآية كقوله تعالى في تخيِّير نبيِّنا في الأَسرى: ﴿ **فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا** ﴾[2]. فالتخيِّير بين أمرين حين يأذن به الله يكون الأخذ بأحدهما هو الأخذ بحكم الله، لإذنـه سبحانه وتعالى فيهما على وجه التخيِّير، كما قال سبحانه وتعالى في كفارة اليمين المُنعقدة: ﴿ **فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ** ﴾[3]. وقوله سبحانه وتعالى في مَهْرِ مَن طُلِقَتْ قبل الدُخول بها وقد فرض المهر عند العقد أو بعده قبل الطلاق: ﴿ **فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ** ﴾[4]، فحين خَيَّرَ الله ذا القرنين بين الأمرين إنما خيَّره بين حُكمين، كما يخيِّر الله وليَّ القتيل عمداً بين القصاص أو العفو، فمِن أين لهذا المجترِئ على الله القول بأنَّ المسلم في زماننا مخيَّرٌ بين الأخذ بحُكم الله أو الأخذ بغيره؟!.

[1] سورة الكهف، الآية: ٨٦.
[2] سورة محمد، الآية: ٥.
[3] سورة المائدة، الآية: ٨٩.
[4] سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

والحقّ أنَّ الذين يُعْرِضُونَ عن فقه السلف وقواعدهم إنما هم دون غيرهم يفتحون للزنادقة أبواب الشرِّ، لكنهم لا يشعرون لهذا ابتداءً، لما في قلوبهم من محبة بعض الأقوال والميل إليها، واتفاق أهوائهم معها، فيفرحون إنْ وجدوا ما يُؤَيِّدُ هذه الأقوال من قواعد لا يحصونها ولا يعرفون مآلاتها وعواقبها، وهذا من ضعف العبوديَّة وصِدق الامتثال.

وهذا له أمثلة كثيرة تحتاج لمجلدٍ كبيرٍ لاستقصائها وشرحها، وفي زماننا هذا لا ينجُو إلاَّ مَنْ بَرِئَ مِنْ هَوَاهُ، وتَرَكَ مُوَافَقَةَ رغباتِ النَّاس، وأَعْمَلَ عَقْلَهُ في ما يسمع ويرى، وقرأ كثيراً في كُتُبِ الأولين، وأدامَ النظر في كتاب الله تعالى، وتضلع إلى حشاشه بسنَّة النَّبيِّ ﷺ، ولم يخفْ في الله لومة لائم، وتذكرَ رضى الله والدَّار الآخرة في ما يقولُ ويفعلُ، فمثل هذا يُرْجَى له النَّجاة إنْ أفتى أو تكلم، وقليلٌ ما هم، فإنْ قال قائلٌ: هذا شأن العلماء الربَّانيِّين، فما شأن العوام وهم أكثر النَّاس؟ فيُقال: إنَّ العامي لا ينجُو حتَّى يتأمل حال مُفْتِيهِ في دينه وورعه، وفي تعظيمه للشرع وسنَّة النَّبيِّ ﷺ، وفي هجره مواطن الفتن وأماكن الريب، وفي استدلاله بقال الله وقال الرسول، وفي مصدر رزقه وطعامه، وفي صِدقه في كلمة الحقِّ إنْ تعينت عليه، ولن يُعدم العامي من معرفة أمارات الحقِّ أو بعضها، فإنَّ للحقِّ نوراً وللباطل ظُلمة، كما في الأثر: إنَّ الحقَّ أَبْلَجْ وَالبَاطِلَ لجْلَجْ، والله الهادي سواء السبيل. فمن يُرد الله أنْ يهديه يشرح صدره للإسلام «**وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ**»[1].

اللهمَّ إنا نسألك شرح الصدور، ونعوذ بك من ضيقها وحرجها.

﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠** ﴾.

هذا في سياق الوعيد الإلهي إنْ ترك المسلمون النفير مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، وهي عامة لكلِّ مَن يظن أنَّ الإسلام بحاجة إليه، ولا يقوم إلاَّ به، حيث يُذكِّر الله عباده بأمر الهجرة، هذا الحدث العظيم الذي تحقق فيه النَّصر لرسوله ﷺ بأنْ أنجاه من كيد قريش، وبلَّغَهُ مُراده بالوصول إلى المدينة وهذه الآية فيها قضايا عدَّة هي النُّور والهُدى لمن تفكر فيها ومنها:-

لقد سمى الله نجاة رسول الله نصراً، ونسبه إلى نفسه لجلاله وعظمته وأهميته، وواقع الهجرة هو خروج الرسول ﷺ من قِبل المُشركين كما قال سبحانه فيها - **أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** -، فالهجرة ليس فِعْلاً يُصارع المرء فيها خصومه بالشدَّة والقوة فيغلبهم، فرسول الله ﷺ خرج مُتخَفِّياً، مُتَسَتِّراً، مُسْتَعْمِلاً طرائقهما في النَّجاة من أعدائه، فحين تحققتِ النَّجاة كانت نصراً إلهيّاً، إذ فيها تحقق مُراد

[1] سورة الأنعام، الآية: ١٢٥.

المُنتصر وفساد مُراد المهزوم بغض النظر عن الوسيلة السَنَنية التي اتبعها في الوُصول إلى مُراده، وهي النَّجاة، ويُقال هذا لأنَّ الكثير يُنازع في هذا الفهم، ولا يتصور تسميَةَ هذا الوصف نصراً، لغلبة هذا الاسم في أذهانهم على معنًى معينٍ، فلا يكون إلاَّ بخوض المعارك ثم المرور على جُثث الخصوم وإفنائهم، وهذا فَهْمٌ قَاصِرٌ، فإنَّ بقاء النَّبيِّ ﷺ حيّاً، ثم نجاته إلى مُراده في تلك المرحلة من مراحل المُدافعة بينه وبين قريش هو نصرٌ إلهيٌّ، فمفهوم النَّصر يجب أنْ يُنْظَرَ إليه ضِمن الظرف السَنني، وما يمكن أن يقع فيه من غلبة أحد الإرادتين في هذا التدافع، وقد تقدم سابقاً أنَّ حياة النَّبيِّ ﷺ في النَّصر وتحقيق مقاصد الإسلام بالوراثة والاستخلاف لها ميزة فريدة وهي أنها تحقق هذا كلَّه ضمن السنَّة التكوينيَّة، فلم يحصل معه ﷺ ما حصل لموسى عليه السلام عندما شقَّ له البحر وأُهلك فرعون، بل اختفى رسول الله في الغار، واقتربت أعين وأيدي قريش منه حتَّى سمع هو وصاحبه كلام المُشركين، ولذلك فشرط النَّصر أنْ تتحقق هزيمة مُراد العدوِّ فيك وتتحقق إرادتك في نفسك أو فيه، ويُقَيَّمْ هذا النَّصر ضِمن الظرف السَنني لك وله، فلا يُطلب في البدايات ما يتحقق في النهايات، فنجاح الهجرة يجب أنْ لا يُقارن مع غزوة خيبر، لأنَّ المقارنة بينهما في المُطلق دون اعتبار طرف كلِّ حدثٍ مفسد في التقِّيم والاعتبار، ومن المعلوم أنَّ البدايات أشق، لكنها أهم لأنها تُرسي القواعد، ولذلك لا تبدو في لحظتها ذات أهمية كبرى إلاَّ بعد أن يكتشف النَّاس تلك المعالي الكبرى التي استقرتْ عليها، فما الإنسان إلاَّ نطفةً تُمنى، وما التاريخ إلاَّ حركةَ رجلٍ واحدٍ لخطوةٍ أُولى تدخل فيها عيون الكثيرين ولا تُقيم لها شأناً.

لقد عَلِمْنَا أنَّ الهجرة هي انفراد النَّبيِّ ﷺ وصاحبه في الفعل، فأهل المدينة لا يملكون إلاَّ فعلَ الانتظار على مشارفها، وهي فِعل في أكثره نحو الذات أي النَّجاة، وغزوة تبوك فِعْلٌ نحو الآخر، أي خروج النَّبيِّ ﷺ إلى مشارف الجزيرة العربية، فكيف نفهم هذا التهديد إنْ حصل أنْ ترك أهل المدينة النفير معه؟.

تصورْ واقعَ هذا التهديد لا يخضعُ للاحتمالات بل له حقيقة واحدة، إذ أنَّ استحضار نصر الله لرسوله في الهجرة في التحضير لغزوة تبوك وحصول التثاقل يؤذن أنَّ المسيرة يمكن أن تعود إلى بدايتها، لأنَّ الهجرة كانت بسبب عدم استجابة قريش لدعوة التوحيد، وستعود الهجرة جذعة جديدة إنْ ترك أهل المدينة النفير، وهذا تحقيق لما تم التهديد به في الآية السابقة: ﴿**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا**﴾ وهؤلاء الجُدد من المؤمنين المدخرين في عالم الغيب وُصِفُوا في «المائدة»: ﴿**يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ**﴾[1]، فقريش أخرجته لعدم استجابتهم للتوحيد، وإنْ أَعْرَضْتُمْ عن الجهاد فسيخرج من بينكم مهاجراً إلى قومٍ هم بدل عنكم ليُجاهد بهم في سبيل الله تعالى، ولذلك فلا عجبَ أن تتوقفَ الهجرة من مكة إلى المدينة لتحولها دار إسلام مع بقاء النفير والجهاد

[1] سورة المائدة، الآية: ٥٤.

لقوله ﷺ: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ. وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ. وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**»[1]، فإنْ تَرَكَ أهل المدينة الجهاد هاجرَ عنهم رسول الله ﷺ إلى بلدٍ وقومٍ يجاهدون معه، وسينصره الله بهم كما نصره بكم لما هاجر إليكم، وسينفرون معه إذا استنفرهم.

هذا هو موضع الآية وذكرها للهجرة، واستحضارها والنَّبيّ ﷺ يستنفرهم لتبوك فيتثاقل البعض عنه، فهذه مسيرة هذا الدِّين، يذهبُ الله به إلى قومٍ يكون النفير حياتهم، ويكون الجهاد دأبهم، فإنْ تخلواْ عنه بعد ذلك رحلَ إلى غيرهم ولم يَطِبْ له المقام فيهم، ولن تخلُوَ الأرض من مجاهدين وأرض جهاد، وكلما حمله قومٌ كانوا هم الطائفة المنصورة، وكانوا هم الغرباء، وكانوا هم نُزاع القبائل، كما جاءت أوصافهم في حديث رسول الله ﷺ.

لقد ذُكِرَتِ الهجرة في معرض التهديد والوعيد إنْ تثاقل قومٌ عن الجهاد بأنها سلاحٌ ربَّانيٌّ حاضرٌ في نُصْرَةِ هذا الدِّين، لا يستقرُ بشرعيَّة التاريخ أنهم كانوا يجاهدون، بل شرعيَّة في الحضور في كلِّ وقتٍ أنهم يجاهدون الآن، فهذا دينٌ لا يرفع قوماً كانوا أهل جهادٍ ثم تركوه، ولا أنَّ آباءهم كانوا حملة الجهاد فغيَّر الأبناء طريقهم، بل إنما يرفعُ مَن رفعه جهاداً في الوقت الذي يحيَّاه ويعشيه، فإنْ تركوه سيهجرهم هذا الدِّين إلى قومٍ آخرين، وسينصره الله بهم، وأما هم ﴿ **يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ وكفى بهذا عذاباً عليهم حين تهجرهم العِزَّة، ويحلَّ عليهم بدلاً منها أن تُغزى بلادهم، ويطأها أعداؤهم، ويصيروا إلى ذلةٍ وهوانٍ.

ولذلك فَمِنَ الخطأ تصور النَّصر الذي أوجبه على نفسه لنبيِّه ولهذا الدِّين أنْ يكون على غير هذا المعنى إن تخلى عنه قومٌ وركنوا إلى الدُّنيا وتركوا الجهاد، فسُنَّة الله مع هذا الدِّين أن يجريه على معنى السنن القَدرية، والتاريخ يُثْبِتُ هذا، فما تخلى قومٌ عن الجهاد والنفير إلاَّ وأقام الله بدلاً منهم من ينصر هذا الدِّين من أقوام آخرين وبلاد أُخرى.

لقد حمى الله هجرة الحبيب المصطفى مِنْ أَنْ تتكرر، وحمى الله أهل المدينة مِنْ تَرْكِ النفير، وتحقق فيهم الخيريَّة والوراثة، ووقع النَّصر الإلهي لهم، وهذه هي التوبة التي تابها الله عليهم كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ **لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ** ﴾[2]. إذ حماهم من المعصية فَلَمْ يَلِجُوهَا، لكن يمكن أن يقع هذا للدَّاعي في وقتٍ من الأوقات، فيتخلى عنه وعن عِصابته المجاهدة أهل الأرض التي هاجر إليها، أو كان منها، فالواجب عليه الاستنصار بقومٍ آخرين، ولابدَّ أن يجد لوعد الله تعالى أن لا يموت هذا الدِّين، وأن لا تخلو الأرض من قائمٍ بحجة الله، وهذا الذي قاله موسى عليه السلام لما تخلى عنه بنو إسرائيل فقال الله على لسانه: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي**

[1] البخاري في «كتاب الجهاد والسِّيَر» باب فضل الجهاد والسير. حديث رقم: ٢٧٨٣. و ٢٨٢٥ باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والنية، ومسلم في «كتاب الحج» باب تحريم مكة وصيدهاوخَلاها وشجرها ولُقطتها إلا لُمنْشِدٍ على الدوام. حديث رقم: ١٣٥٣.

[2] سورة التوبة، الآية: ١١٧.

﴿وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٥﴾[1]، فطلب موسى عليه السلام فِرَاقَ القَوْمِ، لكن كان في عِلْمِ الله تعالى أن تنتهي حياة موسى عليه السلام، فهذا هو قدر هذا الدِّين وهذا قدر أهله المجاهدين، لا ييأسون، ولا يعتبرون أن تخلي قومٍ عنهم فَشَلاً وهَزِيمةً، بل المهزومون هم الذين يتخلون عن هذا الدِّين، ويتركون الجهاد في سبيل الله، وأما المجاهدون فهم في نصرٍ لمجرد بقائهم وهم يحملون همَّهُ وطريقته وواجباته حتَّى يتحقق وعد الله تعالى، فإنْ هاجروا فهجرتهم هي النَّصر كما يُقرر القرآن، وهذه المعاني يجبُ على المجاهدين أن يفقهوها قبل غيرهم، فلا يلتفتون إلى تقيِّيم غيرهم إنْ حرم الله قوماً من نُصرتهم والجهاد معهم أنهم فشلوا في هذه المرحلة وهذه التجربة بل هم منصورون بحُكْمِ القرآن فيهم ما داموا باقين على الجهاد.

﴿إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾.

الهجرة فِعْلُ كثيرٍ من الأحداث العظيمة، وفي هذا الفِعل تجلى معنى النَّصر في كلِّ حركةٍ فيه، من بدايته حتَّى نهايته، ومَن قرأه عَلِمَ كيف خرج رسول الله ﷺ من بيته، وماذا وقع له مع سُراقة بن مالك بن جعشم، وأحداث أخرى معلومة في السيرة النَّبويَّة، لكن ذكر الغار، بل لحظة فيه عندما قال الصِّدِّيق لسيِّده وحبيبه: «**لو نظر أحدهم إلى تحت قدميه لرآنا**» - يعني أنَّ لهذه اللحظة خصوصية النَّصر، وفَرادة الموقف، فهي اللحظة التي اقتربتْ فيها يد قريش من رسول الله ﷺ، فهي تبدو للناظر انتهاء القضية، وحسم هذا التدافع والصِّراع بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فكأنها لحظة تُلقي كلّ معنى التقدم الذي يحققه هذا الدِّين، فمُكْتَسَبَاتُه لا تعني في تلك اللحظة أنها عصية عند الإزالة، بل هي ما زالت في طور الضعف الشديد الذي يمكن أنْ تُبَادَ وَتَذْهَبَ، ولم يكن مِنْ فِعْلِ النَّبيِّ ﷺ وصاحبه الصِّدِّيق إلاَّ الكمون حتَّى تذهبَ الأرجل الذي تطلبه، فحاله عليه الصلاة والسلام مع صاحبه لا يحتمل إلاَّ أنْ يبقى لِيقع النَّصر، وهذا بعد ثلاث عشرة سنَّةٍ من الدعوة إلى الله، وهي حالة على نفس نسق الأحزاب فيما بعد في هذا المعنى، وهذا بيانٌ واضحٌ أنَّ ارتفاع البناء لتحقق الوراثة لا يعني أنْ يسير على نَسَقٍ واحِدٍ يحمل معلم الجمع الذي يراه كلّ ناظر، لأنَّ هذه اللحظات من الابتلاء تلقي في روع البعض كأنَّ الطريق في بدايته لم يحقق شيئاً، إذْ لا يمكن لهؤلاء إلاَّ أنْ يقولوا لو كان هذا الأمر يتقدم ويسير إلى نصرٍ ووراثةٍ وتحقيق وُعُودٍ لما كان أمره على الوجه في هذه اللحظة، سواء كان في الغار أو في الأحزاب، ومع ذلك فإنَّ حقيقة الأمر أنَّ هذا الدِّين في نصرٍ وَسَيْرٍ نحو الوراثة حتَّى مع وُجود هذه اللحظات.

قدر هذا الدِّين وأهله وجود هذه المعاني، فقد يُؤْسَرُوا، وقد يعيشوا حِصَاراً في مكة، وحِصَاراً في الغار، وحِصَاراً في الخندق على طُولِ المسيرة، ولا يعني هذا أبداً أنْ ينسوا أنهم يسيرون لتحقيق الوعود الإلهيَّة، وهذه المعاني النَّبويَّة التي عاشها رسول الله ﷺ وأصحابه ستتوزع على أُمَّته، وعلى

[1] سورة المائدة، الآية: ٢٥.

تاريخها، وعلى رجالها، فيجب عليهم أنْ يستحضروا أنَّ وجود هذه اللحظات ليس عودة إلى الوراء ما داموا في هذا السبيل، وإنما تكون العودة إنْ تركوا دين الله تعالى وتركوا هذا الطريق.

هذه اللحظة في الغار أعطتْ معنى من معاني الخصوصيَّة لهذا الدِّين، وهو رعاية الله تعالى له، وحِفظه لأهله، وليس معنى أن يحفظ الله هذا الدِّين وأهله أن يكون كلّ واحدٍ منهم عصياً عنِ القَيْدِ، عصياً عن قَبْضِ أعدائه عليه إنْ أراد الهجرة والجهاد، عصياً عنِ القَتْلِ إنْ قبضُوا عليه، لكن معنى هذا أنَّ الطريق باقٍ بمن يبقى، عصياً أنْ يقع مُراد الكافرين فيه وفي بقائه في الأرض، فَمَنْ قُتِلَ فهو شهيدٌ، ومن أُسِرَ في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝٥٩﴾[1]، ولن يستطيعوا تقيِّيد الجميع ولا قَتْلَ الجميع بل سيبقى مَن يصلُ إلى الوراثة بفضل الله تعالى كما تحقق ذلك لرسول الله ﷺ وصاحبه.

هذا المعنى في لحظة الغار، إذْ اقتربت يد قريش من رسول الله ﷺ ثم نجاته بفضل الله تعالى تحْمِلُ معنًى تربويّاً مهماً لِحَمَلَّةِ هذا الدِّين، أي أنْ يثقوا بالله، وأنْ يُتَابِعُوا الطريق، لأنَّ البعض ممن يجهل قَدْرَ هذا الدِّين إنْ حصلَ له هذا الحدث حمد الله على النَّجاة ثم أزمع النيَّة وعقدها أنْ لا يعودَ إليها، فيكفِيه أنه نجا منها هذه المرة، فمَن سيضمنُ له النَّجاة مرةً أخرى، وهذا نراه في واقعنا كثيراً ممن تكسرهم التجارب وتُثْنِيهِمْ عن عزائمهم، وخاصة إنْ وصل الابتلاء إلى هذه اللحظة من الذروة، ولو فَهِمَ هؤلاء أنَّ المقصد لم يقع، بل لا يمكن أنْ يقع قط حتَّى يأتي المرء اليقين، فيَلْتَحِق بالرفيق الأعلى لَكان في هذه النَّجاة زاداً لهم أو قوةً تدفعهم إلى مهماتٍ أُخرى تنتظرهم.

هذا الدِّين هو طريق الغَمرات التي لا تنتهي، فحين تنجُو من واحدةٍ فانصبْ قدمك لأُخرى، وهيئْ حياتك بأنَّ ما هو آتٍ هو عين ما ذهبَ أو ما في معناه حتَّى تأتي يوم القيامة راضياً مرضيّاً، لكن حين ينجُو المرء من موجةٍ عاتيةٍ فيجلس في البرِّ طالباً السلامة فقد خسر، وانهزم، لأنَّ إرادته قد كُسِرَتْ وتحقق مقصد أعدائه فيه، ولو تابع المرء طريق الفاعلين في التاريخ، مسلمين وكافرين، لَرأى أنهم قد مرُّوا في ظروفٍ قاهرةٍ تُوحِي للناظر أنَّ شأنهم قد انتهى، وأنَّ أمرهم إلى زوال، ولكن لِقوةِ إرادتهم وتصميمهم يعودون أكثر عزيمةً وإصراراً ووعيّاً على أنفسهم وعدوِّهم فيكون لهم العاقبة، وأهل هذا الدِّين هم أولى النَّاس بهذا الأمر، وأحقّ النَّاس بهذه الصفة، فلا تكسرهم لحظة كون، ولا لحظة قرر عدوّهم فيها أنْ يُبْعِدَهُمْ عن ساحة المُدافعة، لأنَّ العبد لا هوى له مع أَمْرِ سيِّده، ولا اختيار له مع تدبيره، فهو عبد الله لا يعجز حتَّى يأتيه الموت ويحصلَ له الرضوان.

لقد كُسِرَتْ إرادة كثيرٍ من العاملين للحظةٍ عاشوها من لحظات الغار فخرجوا من الساحة، ولكن جاء غيرهم فلم يضروا إلاَّ أنفسهم، نعوذ بالله من الخذلان.

[1] سورة الحج، الآيتان: ٥٨-٥٩.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ ﴾.

لقد تكلم أهل العلم رحمهم الله تعالى حول هذه الآية وما فيها من خصائص للصدِّيق ﷺ، وكلّ واحدةٍ من هذه الخصائص لو استقل بها لَكان حَرِياً بمنزلته التي يعرفها المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ ومَن بعدهم، وأبو بكر هو الصِّدِّيق حقّاً وصِدْقاً، وكلما تفكرَ المرءُ في جانبٍ من جوانب العلم أو العمل لَرأى أنه المُقدم فيه لا يُدَانِيهِ أَحَدٌ بَلَهْ أنْ يسبقه، فهو إمامٌ في فَهْمِ كتاب الله، ومِنْ أشدِّ النَّاس في زمانه انتزاعاً لآياته عند النوازل والمحن والحوادث، والفاروق عُمر مع وصف رسول الله ﷺ بأنه لَو كان في هذه الأُمَّةِ محدثون لَكان عمر، إلاَّ أنه لم يكن يُدْرِكُ شأن أبي بكر في هذا الباب، وهو الذي يحضر السنن النَّبويَّة إنْ غابتْ عن المجموع العالِم الفقيه من أصحاب رسول الله ﷺ، وهو إمامُ المُعَبِّرين للرؤى في زمانه، وأما الدِّين والتقوى فليس هناك أرق منه قلباً حين يقفُ بين يدي ربِّه ولا أسرعَ دمعةً، ولا أكثر منه ورعاً في تحري الحلال، أما الكرم والبذل فيكفيه شهادة إمامه وسيِّده رسول الله ﷺ أنه لم ينتفع بمال أحدٍ كما انتفعَ بمال أبي بكر، ولا لأحدٍ عليه مِنَّة في مالٍ إلاَّ ما لأبي بكر، أما الشجاعة فقد شَهِدَ له علي بن أبي طالب ﷺ في ذلك يوم بدر فقال فيه: «إنه لما كان يوم بَدْرٍ جعَلْنَا لرسول الله ﷺ عَرِيشاً فقلنا: مَن يكون مع رسول الله ﷺ لِئَلاَ يَهْوِي إليه أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ؟ فوالله ما دنا منه إلاَّ أبو بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ لاَ يَهْوِي إليه أحَدٌ إلاَّ أَهْوَى إليه»[1]، فهذا أشجع النَّاس. وهذه الآية تشهد له بذلك، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ نهاه عن الحزن، مع أنَّ المُتبادر إلى الذهن أنْ ينهاه عن الخوف في هذا الموقف، ولكن لم يكن في قلب الصِّدِّيق الخوف على نفسه حتَّى ينهاه عنه، بل امتلأ قلبه حزناً أنَّ حبيبه سَيُؤْخَذْ عنه حين تَقْدِرْ عَلَيْهِ قُرَيش فَتَحْبسه أَوْ تَقْتُلْهُ، فلا يدري المرء ما يقول ههنا؛ أيعجبُ لشجاعته أم يعجب لهذا الحبِّ الذي ملأ قلبه لسيِّده حتَّى يحزن عليه من مُفارقته، فسبحان مَن يصنعُ هذه القلوب ويهديها، وسبحان مَن اختار لأعظم خلقه أعظم البشر بعد الأنبياء صاحباً وحبيباً وخادماً وخليفته، ويحقُّ للصِّدِّيق ذلك فهو كصاحبه إنْ وُصِفَ، فقد وصفه ابن الدغنة لما أراد الهجرة إلى الحبشة فرده قائلاً: أينَ تُريدُ يا أبا بكرٍ؟ فقال أبو بكرٍ: أخرَجَني قومي، فأنا أُريدُ أنْ أسيحَ في الأرضِ فَأَعْبُدَ ربِّي. قال ابنُ الدّغنةِ: إنّ مِثلَكَ لا يَخرُجُ ولا يُخرَجُ. فإنكَ تكْسِبُ المعدومَ، وتصِلُ الرحِم، وتحمِلُ الكَلَّ وتُقْرِي الضيفَ وتعينُ على نَوائبِ الحقّ، وأنا لكَ جار. فارجِعْ فاعبُدْ ربّكَ ببلادِك...[2].

وإنْ شِئْتَ أنْ تَعْلَمَ مِقْدَارَ عِلْمِهِ وَيَقِينِهِ فَقَارِنْ بين كلامه في صُلْحِ الحُديبية مع الفاروق وهو يُرَاجِعُهُ في شأن الصُّلح وكلام رسول الله ﷺ لِتَعْلَمَ أيّ رجلٍ الصِّدِّيق في هذا ﷺ.

[1] أخرجه البزار في مسنده عن علي ﷺ. حديث رقم: ٧٦١. قال أبو بكر ـ أي البزار ـ هذا الحديث لاَ نعلمه يُروى عن علي ﷺ إلاَّ من هذا الوجه بهذا الإسناد. الجزء الثالث الصفحة ١٤. طبعة مكتبة العلوم والحكم (٢٠٠٥م).

[2] البخاري في «كتاب الكفالة» بابِ جوارِ أبي بكرٍ في عهد النبيِّ ﷺ وعَقدِه. حديث رقم: ٢٢٩٧.

رضي الله عن أبي بكر الصدِّيق فوالله إني لأحبُّ هذا الرجل النحيف، الدقيق الجنأ ـ وهو من أشرف كاهله على صدره ـ، أما حِدته التي يضعها الفاروق فهي الحدة التي تبعث قارئ أحداثها على البسمة، فهل يملك المُنصف إلاَّ أن يبتسم، وعائشة الصِّدِّيقة تصفُ كيف دخل عليها في غزوة المُرَيْسِيعِ[1] لما أقامت على قرط لها من أظفار تبحث عنه، فاحتبست النَّاس، فشكوا إلى أبيها ما فعلتْ إذ أقامتهم في مكان لا ماء فيه، فدخل الصِّدِّيق محتداً عليها يلكزها، وقد نام رسول الله على رجلها، فلم تستطع التحركَ لمكانة رسول الله ﷺ منها حتَّى لا تُوقظه، فيستيقظ رسول الله جُنباً فلم يجد الماء، فنزلت آية التيمم فقال سعد بن عبادة: ليست هذه بأول فضلكم يا أبا بكر.

ومَن لا يبتسم وهو يُلاحق عبده وقد أضاع الجمل الذي عليه زاده وزاد رسول الله ﷺ في حجة الوداع، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ويبستم.

وكذلك قصته مع ابنه وحدته عليه حين أرسله ليُطعم بعض فقراء أهل الصفة فلم يأكلوا حتَّى يأتي أبو بكر وهو ساهرٌ مع رسول الله ﷺ وما حصل فيها من كرامة بركة الطعام.

وحِدته على أُمِّنا عائشة وقد دخل عليها تُراجع رسول الله ﷺ في أمرها، فقام إليها حتَّى منعها رسول الله منه، فلما خرج جعلَ يقول: «**كيف منعتك من الشيخ**»، وجعلا يضحكان، فدخل عليهما الصدِّيق: «فقال أشركاني فرحكما كما أشركتماني في غضبكما».

وأُخرى وأُخرى يقرأها المرء فيبستم لهذا الشيخ الجليل الذي أتعب مَنْ بَعْدَهُ كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ وهي حدة كذلك تكون فيها معاني إيمانيَّة يُكْرِمُ الله بها هذه الأُمَّة، تتعلم منها، كما حدث في آية التيمم[2]، وكما في بركة الطعام مع أهل الصُّفَّةِ، وكما في ممازحة رسول الله ﷺ لأُمِّنا عائشة الصِّدِّيقة رضي الله عنها، فهذا رجلٌ مباركٌ، لا يخلو له موقفٌ إلاَّ وفيه الخير له ولمنْ تَعَلَمَ مِنْهُ وَأَرَادَ الهُدى. اللَّهمَّ إنه لا يبغضُ أبا بكرٍ إلاَّ منافِقٌ، كافرَ القلبِ واللسانِ، سافِلَ المرتبةِ في الرجال والقيم.

﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾[3].

زعم بعضهُمْ أنَّ اختصاص رسول الله ﷺ بالسَّكينة في هذا الموطن دون الصَّدِّيق يقدح في مرتبته ﵁، هذا مع قول بعض أهل التفسير أنَّ الضمير هنا يعودُ على أبي بكر، والصَّواب أنه يعود على رسول الله ﷺ.

---

[1] وهي غزوة بني المُصْطَلِق، وفيها حصل حديث الإفك.

[2] حديث التيمم أخرجه البخاري «كتاب التيمم» باب التيمم وقول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ حديث رقم: ٣٣٤، ومسلم في «كتاب الحيض» باب التيمم. حديث رقم: ٣٦٧.

[3] سورة الفتح، الآية: ٢٦.

وأما الاختصاص هنا فلأَنَّ الخطاب في الابتداء مُتَوَجِهٌ إليه، والحديث يدور حوله، وقد ذُكر نزول السَّكينة في مواطن أُخرى على المؤمنين كما تقدم في حُنَيْن، وكما في سورة «الفتح»، فالسَّكينة نعمة ربَّانيَّة ينزلها على المؤمنين، وكون رسول الله ﷺ قد اختص بها هنا ولم يُذكر أبو بكر لا يعني خُلوه عنها ﷺ، ولو ذُكر هو فيها لَزعمَ أعداء الصِّدِّيق أنَّ هذا يعني خُلو قلبه ابتداءً ولَعَدُّوا هذا نَقْصاً، كما جعلوا قول حبيبه له: «لا تحزن» نَقْصاً فيه، فهذا شأن الأعداء والخصوم حين يتمكن الغيظ والبُغْض من قلوبهم تعمى عن الحقِّ ورُؤيته.

﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

هي جنودٌ تنزُل على قلب رسول الله ﷺ بالمعاني العِلميَّة وأعمالِ القلوب، مِنْ تَعْلِيمِهِ وَتَثْبِيتِهِ بالوعود الإلهيَّة والصَّبر والثَّبات، ومن جنود ينزلها الله على أعدائه بصرفِ عيونهم عنه، وصرفِ قلوبهم عن تتبعه إلى حيث يقدرون عليه، وهذه ينزلها الله بالملائكة الذين هم جنوده سبحانه وتعالى، وذِكْرُ الجنود ههنا في موطن الغار يدل على جلال وعظمة هذا الموقف، فإنه لولا هذه الآيات العظيمة التي يصدقها المؤمنون وتخبتُ قلوبهم لها وسِيقت هذه القصة بتجريدها من هذه الآيات، في كون رجلٍ اختفى في غارٍ فَلَحِقَ به أعداؤه حتَّى وصلوا الغار ثم لم يروا إلاَّ أنْ يرجعوا، إما لظنهم صعوبة الدخول فيه لأنَّ بعض الرحالة قديماً «كابن بطوطة في كتابه» يصفون الغار قديماً بأنَّ المرءَ لا يقدر أنْ يدخله إلاَّ زَاحِفاً على بطنه، بل لو دخله من جهة رأسه لم يستطع، إنما لابدَّ من الدخول من جهة رِجْلَيْهِ لئلا تعترض كتفاه الباب من ضيقه، أو لما ورد من أخبارٍ من نسجِ العنكبوت وبيض الحمام، وهي أخبارٌ ضعيفة، ثم ادعى أحدهم أنَّ هذا وقع بنزول الملائكة وتأييدهم لتبسم لذلك أقوام، لأنهم لا يرون ذلك شيئاً، فهم قومٌ لا ينظرون إلى يد الله تعالى مع الدُّعاة والمجاهدين لقِلتهم، إذ تُبهرهم الحكايات الكبيرة، والصور الضخمة، والجيوش الجَرارة، والحشود الكاثرة، ولا يلتفتون إلى معنى الإيمان في الحدث، أهو فيه أم لا، وهو جهلٌ بمعاني القرآن وقيمهِ في تقيِّيم الأحداث والوقائع.

لقد كان خروج رسول الله ﷺ من بين يدي قريش وهي لا تملك أقماراً صناعيَّة، ولا مجسَّات تجسس، ولا رصد في كلِّ الطُرقات، ولا مناظير ليلية تخترق ظُلمته، ونزلت جنود الله تحميه حتَّى لا يقعَ في أيديهم، فكيف لا يُقال اليوم إنَّ جنود الله وملائكته لا تنزلُ على المجاهدين وقادتهم حين يفلتون من حصارٍ هو كالطَوْقِ والأَسْورَةِ على المعصم في وقائع يسمعها النَّاس ويرونها؟!.

سيبتسمُ أقوامٌ استهزاءً بهذا القول، لأنهم يرون إفلاتهم هو هروب الجبناء وقد كذبوا، بل هو نجاة القادة الذين يغيظون الأعداء، ويُديمون الوقود للطريق حتَّى تقع أقداره التي يحبها، ولأنَّ في نجاتهم برهان صدقٍ أنَّ دينهم هو دين النَّبيِّ ﷺ وطريقتهم هي طريقته، ولِتكون آية للمؤمنين أنَّ الكفرَ مخذولٌ مع قُوته، وأنَّ الإيمان منصورٌ مع ضُعفه، ولِتكونَ بُرْهَاناً يقذفُ في قلوب الجبناء الذين

يحسبون كلَّ صيحةٍ عليهم، وأنَّ الكفرَ بهم محيطٌ، وأنَّ أُلوهيته شاملة للأرض لعلَّهم يعتبرون بذلك، ويُدركون أنَّ جُبْنَهُمْ ناشِئٌ عنِ الوهم، وعن تخويف الشيطان فيتوبون.

إنَّ نزول الملائكة يكون في كلِّ حَدثٍ وموقعةٍ يتحقق فيها مُراد المؤمنين في الكافرين، ويتم خُذلان الكافرين مِن الوصول إلى أهدافهم في المؤمنين، فهذا موسى عليه السلام يخرج مع «شرذمةٍ» قليلةٍ كما سمَّاها فرعون، وليس كما تقول التوراة المكذوبة أنهم كانوا بمئات الآلاف، وهؤلاء الفِتية من أهل الكهف «سبعة وثامنهم كلبهم» يخرجون بإيمانهم إلى الكهف، وقبلهم خروج إبراهيم عليه السلام يخرج ناجياً كما قال تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾[1]. فهي سيرة النَّجاة، وهي سيرة النَّصر لا كما يزعمُ خصوم القرآن، وخصوم المجاهدين اليوم، وتِكرار ذكر الجنود الإلهيَّة من الملائكة في مواطن التأْيِيد والنَّصر والنَّجاة لا ينبغي أنْ يُقْرَأَ كحدثٍ ماضٍ لا يسري بعد ذلك في الحياة، بل إنَّ ذكره يُعلمنا أمرين: **أولاهما**: أنَّ هذا الدِّينَ منصورٌ مَؤَيَّدٌ، وأهله مُؤيَّدُونَ منصورونَ، فإنْ نجوا فبالتأْيِيد، وإنْ ماتوا فالشَّهادة، وإنْ أُسروا فللابتلاء، ذلك بأنَّ أمرَ المؤمنَ كُلَّهُ له خير[2]، **وثانيهما**: أنه يُعَلِمْنَا كيف نقرأ التاريخ كلّه، لا ما قصَّه القرآن فقط، بل لتضطرد السنَّة على ما يقع من أمثالها في البشرية، وفي حياتنا المُعاصرة، فيعي النَّاس مناهج الحقِّ، ورجال الحقِّ، وجُملة الرسالة، ووُرَّاث الأرض، ولا أقولُ أنَّ هذا يتعين على كلِّ من نجا من أُمَّة محمد ﷺ أنْ يصل بنفسه، فهذا لا يخطر على بالِ أحدٍ يعرف قدر هذا الدِّين وسنَّة التاريخ، لكن هذه راية لا تقعُ حتَّى يتسلمها آخرون، بهم جميعاً يتحقق ما تحقق لرسول الله ﷺ من نتائج، وهذا من معاني وزن الملائكة لرسول الله ﷺ بأُمَّته فيكون وزنه في ميزانهم أكثر من أُمَّته جميعاً كما قالوا عليهم السلام، فانصبْ قَدَمَكَ، وقد عرفتَ الطريق، وانزعْ عنك الجبن والشك، وأَلْقِ خلفكَ كلّ صرخات التخذيل، فمكانك أيها المسلم ينتظرك، فإنْ لَمْ تَأْتِ فسيكون غيرك، وأما أنتَ أَيُّها المُقيم فَالْزَمْ غَرْزَكَ، وإيَّاكَ أنْ تُبَدِّلَ أو تُغَيِّرَ فيقعَ عليك العذاب الأليم.

﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

هذه الآية دليلٌ على ما قدمنا من معاني النَّصر، فإنَّ خذلان الكافرين وعدم تحقيق مُرادهم في المؤمنين هو نصرٌ إلهيٌّ للمؤمنين، فقد مرَّغ الله كلمتهم في التراب، وجعلها سُفلى، فقد تأخرت حين سبقتها كلمة الله تعالى، وهي سابقةٌ دوماً، لأنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ.

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٧١.

[2] إشارة إلى قوله ﷺ: «**عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ**» أخرجه مسلم عن صهيبٍ ﷺ في «كتاب الزهد والرقائق» باب المؤمن أمره كُلَّه خيرٌ. حديث رقم: ٢٩٩٩.

لقد غابَ فِعْلُ المؤمنين عن مشهد الفعلِ سوى الثقة بالله، والهم الذي يملأ القلب بالحزن على رسول الله ﷺ، فكان الصِّراع حولهم دائراً بين إرادة الله تعالى وإرادة الكافرين، فأنجاهما الله منهم، فغلبت كلمة الله كلمة الكافرين.

هذا الحدث الإيماني العظيم يقصد القرآن على وجه الحقِّ الذي لا ريب فيه، لكنه يمكن أنْ يُقْرَأَ على وجه الباطل الذي لا حقَّ فيه كما يفعلُ اليوم دهاقنة الكفر، وزاعمي التحليل السياسي، وحُراس الرذيلة، وسحرة فراعنة العصر من صحفيين، وخُبراء ضُلال، وحملة ألقاب، ونماذج قراءتهم لن أتعرضَ لها هنا لأنها تحتاج إلى مجلدٍ خاصٍ، ولذلك فإني عازمٌ إنْ شاء الله تعالى على كتابة مُؤَلَّفٍ معناه في عنوانه: «إبراهيم عليه السلام يكسر الأصنام بين القصة القرآنية وبين رواية مجلة شعر»[1]. ومجلة شعر لمن لا يعرفها هي مجلة أنشأها مأجورين من مؤسسات الكفر والضلال في تحليل ودراسة الفعل الإيماني، وهي تحليلات يتلقفها بعض المسلمين جهلاً وانخداعاً بتزويقِ الباطل، لأنَّ واقعنا يشهدُ هذه المناهج في الصُحف والكُتب ووسائل الإعلام، بل يلقيها بعض المشايخ والوعاظ في دروس العلم وهم لا يشعرون، فتأمل لو أنَّ إبراهيم عليه السلام كسر الأصنام اليوم كيف سيقرأه هؤلاء، أرجو من الله أنْ يُعِينَنِي عليه، لأنَّ ردَّ الأُمَّة في تقيِّيم الأحداث والوقائع إلى طريقة القرآن سبيل إلى إعادة إحياء هذه الوقائع الإيمانية، فقد كسر بعض المعاصرين[2] الأصنام فبدل أنْ يروا في فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ إحياءً لملَّة إبراهيم ودين نبينا محمد ﷺ، ذهبوا يحللونه على طريقة الجاهليين، لأنَّ أقوامنا يقرؤون الحداثة، ويرطنون بألفاظها، فقد تقدموا وتثقفوا، ولم يعودوا أحباساً على الكُتُبِ الصفراء وكلام الأقدمين!!، أما نحن فلا نقول إلاَّ حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل فقد هزلت وبان هزالها لكن القوم لا يبصرون.



[1] للشيخ حفظه الله تعالى كتاب بعنوان: «على خُطا الخليل إبراهيم عليه السلام، كسرُ الأصنام. قِراءتان». وقد نُشر وانتشر بين الإخوة من خلال الشبكة العنكبوتية.. فلله الحمد أولاً وأخيراً على توفيقه.

[2] أي الطالبان بأمرٍ من أمير المؤمنين الملا عمر حفظه الله، ونصره على الأعداء. وقد سافر ذلك المغبون ا لإنبطاحي يوسف القرَضاوي إلى أفغانستان من أجل التوسط للأعداء لدى الطالبان بعدم إسقاط تلك الأصنام التي تُعبد من دون الله زاعماً أنها من الآثار، إلا أنَّ رد المجاهدين عليه كان قوياً، ولم يُصغوا لكلامه فأقدموا على ما يُرضي الله عليهم العزيز الرحمن، ويُسخط المُنهزمين الأشرار.

إضاءة

«الواو» في قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ للاستئناف والابتداء، لأنها لو كانت عاطفة لَكان ما بعدها منصوباً لإتباعها ما عطفت عليه وهي: ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾، هذا بيَّنه وقاله أهل العلم سابقاً، ومعنى ذلك أنَّ كلمة الله تعالى عُليا دوماً، فلا تسفل حتَّى تجعل بعد ذلك عليا، وإنْ حصل إنْ كانت كلمة الكافرين عالية فإنما هو بإذن الله تعالى لِعِلَلٍ وَحِكَمٍ يعلمها ربُّنا سبحانه وتعالى، وهي كثيرةٌ ويعلمُ بعضها أهل العلم والإيمان.

ثمَّ كَوْنَ كلمة الله هي العُليا في كلِّ آنٍ تُوجِبُ على المؤمنين اللِّحَاقَ بها ليكونوا معها حيث هي، فإنْ سفلوا فَلِعَجْزِهِمْ أوْ كَسَلِهِمْ، وإلاَّ فهم «الأعلون» بإيمانهم والتصاقهم بها.



إضاءة

مِنَ المعلومِ عند أهل التفسير أنَّ قول الصَّحابي: نزلت هذه الآية يحتمل معنيين؛ أنَّ هذا سبب نزولها، أو أَنَّ الصَّحابي يريد أنَّ هذه الآية تتضمن حُكْمَ هذه الواقعة وإنْ لم تكنِ الآية نزلت بسببها، كما قال الزركشي في «البُرهان»: «هو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع»[1]، وقال مثله ابن تيمية في «قاعدة التفسير»[2]، وهذا الفقه من أصحاب رسول الله ﷺ يجعل حضورَ القرآن في حياة الأُمَّة، بل يجعله كأنه يتنزل عليهم في يومهم وأعمالهم وأزمانهم، وهذا معنى قول البعض: «اقرأ القرآن وكأنه عليك ينزل»[3]، فالقرآن ليس أخباراً عن ماضٍ ذهبَ وانقضَى فقط، لكنه كلمات الله تعالى التي تنزل لكلِّ أحداث الوجود التي ستحياها هذه الأُمَّة بعد ذلك، والفقهاء الربَّانيُّون بالقرآن هم مَن ينزعون منه الآيات لِتُجِيبَ عن هذه الأحداث التالية والأزمنة التي يعيشونها، وذلك من خلال تشربهم لآياته وغَوْصِهِمْ في معانيها، واختلاطه في دمهم وعقولهم وقلوبهم، فهو ميزانهم الذي يضبط عقولهم ونفوسهم وحياتهم، يقتدون في ذلك بإمامهم الحبيب رسول الله ﷺ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»[4]، فمنه وحده ينظرون إلى العالَم، وما السنَّة النَّبويَّة إلاَّ شارحة له، مبيِّنة لمعانيه، حتَّى نُقِلَ عن الشافعي رضي الله عنه قوله: «لا أعلمُ حديثاً للنَّبيِّ ﷺ لا أعلمُ وجهه من كتاب الله تعالى»، ولذلك فحِبر الأُمَّة ابن عباس رضي الله عنهما كان يعجبُ من صلاة الضحى، وأين هي من كتاب الله تعالى حتَّى وجدها في سورة «ص» في وصف صلاة وذِكر النَّبيِّ داود عليه السلام: ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾**﴾[5]، ومشهورة هي قصة احتجاج الشافعي للإجماع بقوله تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾**﴾[6]، ويحتاجون كذلك البصيرة بزمانهم وأحداثه ووقائعه ورجاله، وحال دُوَلِهِ وقادته، وخاصة أهل الإيمان فيه، وتكون هذه المعرفة عن قُرْبٍ ومن أهلها حتَّى لا تزوَّر عليهم الوقائع والأخبار، فيذمون ما هو حقّ ويمدحون ما هو باطل، ولذلك كان القُرب من أهل الباطل مانعاً من إصابةِ الحقِّ لتأثره بهم، وبأحكامهم، وبأوصافهم في أنفسهم، وفي

[1] «البرهان في علوم القرآن» فصل: «فيما نزل مُكرراً» ص٣٣. تحقيق أبي الفضل الدمياطي. نسختي طبعة دار الحديث بالقاهرة. ١٤٢٧ـ٢٠٠٦م.

[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب: «مقدمة التفسير»، وهو في المجلد الحادي عشر من «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية»، الصفحة ٣٥٥: «**فصل**: وأما النوع الثاني من مستندي الاختلاف وهو ما يُعلم بالاستدلال لا بالنقل». ثم شرح المقصود من ذلك.

[3] قالها والد شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله تعالى لابنه.

[4] جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض. حديث رقم: ٧٤٦.

[5] سورة ص، الآية: ١٨.

[6] سورة النساء، الآية: ١١٥.

المؤمنين، لأنَّ القُرْبَ مؤذنٌ للاعتذار للباطل، كما هو شأن المفتي أو العالم إنْ اقتربَ من السُلطان، حتَّى مع إسلامه وتحريه للحقِّ، فكيف إذا كان مرتداً كافراً، ولذلك فلا عجبَ أنْ تتغيَّر أحكام النَّاس في آخرين إنْ حصلَ لهم بعض الخير على يدهم أو يد تابعيهم، فهذا رجلٌ قد قُتِلَ مُرْتَداً كما قُتِلَ مُسَيْلَمَة الكَذَّاب، ثم يتغيَّر الحُكم ليُصبح شهيداً كعثمان بن عفان قد قُتِلَ مظلوماً[1]، والزعم أنَّ هذا سببه تغيّر الاجتهاد جهلٌ وغلطٌ، لأنَّ السبب هو تغيّر منهج الحُكْم ومرجعيته، وفَهْمُ أهل العلم لذلك جعل ابن تيمية يقول للنَّاس وهو يدعو لقتال التتار: «لو وجدتموني معهم فاقتلوني»، أو ما في معناه، ولم يَقُلْ قد يتغيّر اجتهادي، فالوقائع التي ارتابوا فيها بين الحُكمين ليست قريبة الشبه، بل هي بين الردة والإيمان، فهل يشتبه أحدٌ بين مسيلمة وعثمان حتَّى يتغيَّر الاجتهاد؟! هذا مع زعمهم أنَّ قواعدهم الدِّينيَّة لم تتغيَّر، فهل تغيَّر عِلمهم بالمَوْصُوفِ وبَانَ لهم إيمانه الخفي، وسعيِّه واجتهاده في إصابة الحقِّ في سرِّه ونجواه؟! نعوذ بالله من الجهل وسوء الخاتمة.

إنَّ طريقة الصَّحابة في ذكرهم: نزلت الآية في كذا على المعنى المُتقدم تجدد لأهل الإيمان والعلم والتقوى أن يقولوا: إنَّ هذا الحدث اليوم داخل في هذه الآية، وكأنها نزلت فيه، وليس هذا من التألي على الله، ولا مِن القول على الله بغير علم، هذا مع تقوى الله وذكر الدَّار الآخرة والعلم بالقرآن والوقائع.

﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾[2].

هذه الآية تُؤَكِدُ أنَّ الأمرَ بالنفير عام لكلِّ المسلمين، فآيات التهديد ليست خاصة لقومٍ استنفروا في تبوك فتثاقلوا، بل إنَّ النفير يجبُ على المسلمين، فهو خطاب الله تعالى لجميع الأُمَّة، إما على وجه الوجوب العَيْني في ظروفٍ معروفةٍ في الفقه، وإما على الوجه الكِفَائِي، فهذه الآية لم تتركْ لأحدٍ عُذْراً بتركِ النفير، كما أنَّ النفير لا يكون في صورته الأُولى إلاَّ جهاد طلب لنشر دين الله تعالى وتحقيق دخول النَّاس جميعاً تحت حُكْمِهِ الشرعي كما هو تحت حُكْمِهِ القَدري، وهذه مهمة هذه الأُمَّةِ المسلمة.

لقد شملت هذه الآية أحوال المسلمين جميعاً، فلم تَسْتَثْنِ أحداً، وشملتْ أبدانهم وأموالهم، فاستوعبتِ المجتمع الإسلامي في داخل الأمر بالنفير، لأنَّ هذه هي حياة هذه الأُمَّة، وهذا عملها الذي وقفها الله عليه، وهو شرط الخيريَّة كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[3].

---

[1] يُشير الشيخ حفظه الله تعالى إلى بعض مُنتكسي الجماعة الإسلامية بمصر حين وصفوا الهالك المرتد أنور السادات أنه قُتل شهيداً؟!!. نعوذ بالله من الضلالة والخذلان، ونسأله الثبات حتى الممات.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤١.

[3] سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

لقد كانت رحلة تبوك تستدعي عند البعض الكثير من التحضير، والكثير من التأني والبحث عن الوقت المُلائم لهذه الرحلة الطويلة، بعيدة الشُّقَّة، ولكنها جاءت على غير ما يتوقعون، فهي أوقات عُسْرة وشِدَّة، وهي مسافةٌ بعيدةٌ، وهناك أمرٌ لا يستثني إلاَّ أصحابَ الأعذارِ مِنَ المرضى والجرحى والعُميان، فهو أمرٌ يشمل الجميع؛ خِفَافاً وثِقَالاً، شُبَّاناً وَشِيباً، وأغنياء وفُقراء، ورُكْبَاناً وَمَاشِينَ، فهي آيةٌ بحثت عنهم كلّهم حتَّى شملتهم، لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يختبئَ عنها إلاَّ منافقٌ، ولا يفرُّ من الأمر بها إلاَّ مَنْ ظنَّ أنَّ عين الله لا تراه، فهذه تربية القرآن لأهله، وهذا هو إعداده لجنده الذين يستحقون أنْ يُنْسَبُوا له، فحين تقعُ الواقعات الشِداد يُنادي بعضهم بعضاً: «يا أهل القرآن» لا يَعْنُونَ مَنْ حَفِظَهُ لَفْظاً، ولا مَنْ جَوَدَهُ تَرْتِيلاً، ولا من اكتسبَ منه لطعامه وشرابه، ولا مَن قرأه ليقدم به امتحاناً ينال به شهادة يسلكُ بها سبيل أهل الدُّنيا، فليس هؤلاء هم أهل القرآن، بل هم حملة صفاته، والمُستجيبين لندائه، إذ يُنادي بعضهم بعضاً يوم اليمامة وكثرة القتلى على باب حديقة مسيلمة: «يا أهل القرآن»، فينزعون إلى النداء، ويعطفون على اللواء، فيستحر القتل في أهل القرآن وحملته، فلا يقول قائل: هذا ضدّ مصلحة الدِّين، وضدّ مصلحة حفظ القرآن، لأنَّ أهل القرآن يعلمون أنه نزل بحزن، وقرئ بحزن، ولا يحفظ إلاَّ بدماء هؤلاء، وعرق أهله الذي إذا دُعوا إليه أجابوه.

لقد كانت هذه الآية شعار الصادقين إنْ كبروا، وشعارهم إذا فقروا، وشعارهم إذا جُرحوا، ودليلهم حين يعذرهم النَّاس أنْ لو جلسوا وأقاموا عن الجهاد لكفاية أبنائهم لهم، لأنهم يعلمون أنَّ هذه الآية خطاب الله لهم.

كم واحد منا يقفُ أمامها ويصدق الله أنها مُتوجهة إليه؟!.

كم من هذه الأُمَّة اليوم يتلو كتاب الله ثمَّ إنْ جاء على هذه الآية سأل نفسه أين أنا منها؟ وأين الأُمَّة منها؟!.

كم من أهل العلم في زماننا ذكَّر الأُمَّة بها حين اسْتُبِيحَتْ بَيْضَةُ الإِسْلاَمِ وَقُتِلَ أَهْلُهُ وَهُتِكَتْ أَعْرَاضُهُ؟.

هل وقف الواعظون والمُفتون أمامها يصدون أهل الإسلام عن العمل بها، أم أعلنوها على رؤوس الأشهاد: «أن انفروا فُراداً وجماعات، شُباناً وشِيبة»، فلا شروط لها وهم يسمعون قول الله تعالى: ﴿ **فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ** ﴾[1] أي أنَّ الدَّاعي إنْ أراد الإمامة سلك السبيل وأرسل لمن وراءه أن يلحقوه، لا أنْ يقفَ كالأفعى على رأس البئر فلا يشرب منه ولا يدع غيره يأتيه كما يفعلُ أهل الضلال اليوم بوضع شروطٍ تُعطل قوله تعالى: ﴿ **ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا** ﴾.

[1] سورة النساء، الآية: ٨٤.

يأتون على الصريح من كتاب الله كقوله: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فيثنون عِنانه بأهوائهم ثم يشكون أن سقطت هيبة العلم والعلماء من قلوب النَّاس، ولم يعد شباب الإسلام يسمعون لهم.

كيف يسمعون لهم وهم يرونهم يتهارشون مع أهل الدُّنيا على الدُّنيا؟ وكيف يخدمونهم وهم يرونهم يُغيِّرون كلَّ يومٍ كلماتهم؟!.

لقد قال أهل العلم: «إنَّ من سِمَات المفتي المُوفَق أن يفتي بلفظ الكتاب والسنَّة للسائل، لما في نفس اللفظ من المعاني التي تُؤثر أكثر من تأثير غيرها»، فكم أفتى المفتون بهذه الآية في زماننا، وكم سمعها النَّاس منهم، لا لجهاد خارج ديار الإسلام بل لردِّ الكفار عن حريمهم ودينهم وتوحيدهم لربِّهم؟.

سمعتُ أحدهم يقول ـ ونِعْمَ ما قال ـ: «لقد وقفَ المسلمون اليوم في حلقات التدريس والتعليم عند «إدغام» انفروا، أي إدغام حرف النون مع الفاء، يجودونها ويُشددون عليها، وظنوا أنَّ هذا يحق النَّصر والعودة للقرآن، فإنْ فعلوا ذلك ظنوا أنهم صاروا من أهل القرآن».

إنْ صَدَق المسلمون مع ربِّهم، وصدقت نِياتهم في تغيِّير حالهم لجعلوا قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾ شِعَارهم ودَيْدَنهُمْ وعملهم كما كان شأن أصحاب رسول الله ﷺ، لأنَّ هذه الكلمة تعني أنْ لا يستقر أحدٌ لدنيا، ولا يجبن أحدٌ عن مَهَامٍ، ولا يعتذر أحدٌ بِعُذْرٍ، ولو فَعَلَتِ الأُمَّة فقط هذا الأمرَ واستجابت له ضِدَّ أعدائها، وضِدَّ غاصبيها، وقامت مثنًى وفرادى فهل يكون حالنا هذا الحال، وهل نُهَانُ هذا الهَوَان!!.

هذه كلمة الله لنا ـ **ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا** ـ وهي عصية عن تقيِّيد فقهاء الجبن والبخل، وعصية عن أهواء الفكر الجاهل الذي غَرَّتْهُ بُنَيَّاتُ الطريق، وبِدَعُ الحوادث التي يُزَيِّنُهَا الشيطان للنَّاس، فهي الماحيَّة لكلِّ جَهْلٍ وَلِكُلِّ بِدْعَةٍ وَلِكُلِّ جُبْنٍ وَبُخْلٍ.

هذه كلمة الله التي تلغي من قلوب عبيده الكسل والخمول والاستسلام للواقع، فليس واقعك ليحدك وينميك، بل لِتتحداه وتتجاوزه لا بالوقوف عنده، بل بالذهاب بعيداً إلى الآخر كما يفهم كلّ دارسي التاريخ بأنَّ أعظم مشاكل المجتمعات لا تكون بالسكون والوقوف عليها، بل بالذهاب إلى الآخر غزواً ونفيراً، ومع المسلمين جهاداً في سبيل الله تعالى.

هذه كلمة الله لقومٍ ينتظرون نضج ثمار بساتينهم فتحملهم نفرة إلى منابع الرزق الحقيقي لهم، لأنهم أُمَّة تحمل صفة الفِعل الإلهي في الأرض، رحمة على المؤمنين أعزة على الكافرين، فهي تقول لهم: «ليس هنا رزقكم إنما رزقكم بقطع القِفَار والصحاري لتبليغ دين الله ونشر رسالة النُّور، فهناك رزقكم وخيركم ومقامكم».

هذه كلمة الله التي تُعلمهم أنْ لا يحول بينهم وبين رسالتهم وصِفَتِهِمْ حائِلٌ مهما أطبق عليهم وأحاط بهم، لأنهم جُنْد الله، فإنْ كانوا كذلك فهم يجاهدون واقعهم كما يجاهدون أعداءهم سواء،

بل لا يمكن أن يتحقق أحدهما إلاَّ بالآخر، فهل يمكن للمرءِ أنْ يجاهدَ نفسه صبراً على تقلب الظروف ـ **خِفَافًا وَثِقَالًا** ـ على وجهٍ يُعادِل أنْ ينفرَ وهو على هذه الصفة؟!.

أين الذين يتحدثون عن التربية من غير جهادٍ؟! وأين الذين يقولون بأنَّ جهاد النَّفس يمكن أن يكون بغير نفير؟! لِيَأْتِ هؤلاء إلى هذه الآية وواقعها ليعلموا حقيقة التربية التي يُريدها القرآن للمسلمين لِيَرَواْ تأْيِيد الله لهم، ونُصرة الله لهم، وإكرام الله لهم.

إنَّ مَنْ أَسَرَتْهُ أمواله واستسلمَ لها لا يُغيِّر واقعه، وإنَّ مَنْ وَقَفَ على همومه ليقضيها ستطبق عليه وتحيط به.

انفروا إلى الآخرين ونقوا أنفسكم بالذهاب إليهم جهاداً، وأصلحوا أوضاعكم بالمسير لا القيام فـ ﴿**خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾.

هذه وَصْفَةُ القرآن لعلاج الأمراض إنْ كانت، وللتَحَصُّنِ مما لم يأتِ، فإنْ ابتعدَ النَّاس عنها فهو العذاب الأليم.

حين تُشْغَل الأُمَّة بالجهاد تهتدي وتُنقى من الشوائب وتتحصن من الأمراض، وحين تسكن وتثاقل وتقعدُ كما هو شأن كلِّ المجتمعات تبدأ بالتآكل والفساد، وتفشو فيها الأمراض، فيكون الفناء ﴿**وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ**﴾.

﴿**ٱنفِرُواْ**﴾ هي سنَّة الله في السحب التي تحيي الأرض بعد موتها، وهي سنَّة الله في الأنهار التي تقوم عليها الحضارات والأمم، وهي سنَّة الشمس التي تبعث الحياة.

هذه كلمة الله الشافية للأُمم والجماعات والأفراد، وليست شِعْراً يتردد على الأفواه لتستمع به الآذان وأصحابها قُعُود.

اللهمَّ إنَّ المجاهدين في كلِّ وقتٍ وفي زماننا هم غيث هذه الأُمَّة وهم هواءها وماؤها وشمسها.

﴿**لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾**﴾[1].

كانتِ الآيات الأُولى لِوَصْفِ الحال قبل المسير، والتحريض عليه، وما زالت الآيات تصفُ موقف النَّاس يومئذٍ، فهؤلاء قِسْمٌ جاؤوا للرسول ﷺ وقد استنهضهم لتبوك البعيدة، وفي وقتِ الحَرِّ والقيظ وانتظار الثمار؛ يعتذرون أن لو يأذن لهم بعدم المسير، وحجتهم قِلَّة الزاد والرحل والعجز عن المسير، يقول الله عنهم: ﴿**وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ**﴾.

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ٤٢-٤٣.

وقد قدَّم الله في هذه الآية اختيارات هذا الصنف، فهم يكرهون الجهاد، ويكرهون مشقته، وليس ما ادعوه من عدم الاستطاعة، فلو دعاهم إمامهم لغنيمةٍ قريبةٍ أو سفرٍ سهلٍ لأجابوه لطلبه، فالذي منعهم هو ضعف إرادتهم عن تحمل المشقة في سبيل الله تعالى، وليس هناك ما يغري نفوسهم وما تحب من السفر، فإرادتهم لا تنشط للجهاد لأنهم لا يحبونه، ولا للدَّار الآخرة لأنها ضعيفة في قلوبهم، فالنُّفوس إنْ أحبت شيئاً غامرتْ في سبيله، ونشطتْ لتحصيله، هذا مع أنَّ هناك خَلْقاً لله سبحانه سِيمَاهُمْ البطالة لا يصدرون لمكرمةٍ، ولا ينشطون لشيءٍ، وهؤلاء كالبَقِّ من الحشرات، لا نفعَ منهم، وإنْ كان عامة النَّاس هو النشاط لما تحب قلوبهم، فمن امتلأ قلبه بحبِّ الدُّنيا نشط لها، وضرب في الأرض طُولاً وعرضاً من أجلها، بل ربما أراق ماء وجهه للقليل منها، ومَن أراد الدَّار الآخرة فسينشط لها ولأعمالها التي تحقق السعادة فيها.

هكذا يُعري الجهاد ومحنته، وأشواطه البعيدة، ورحلاته الشاقة النُّفوس، والقرآن يذهبُ إليها لِيكشفَ كذِبَ تبريرات القاعدين والمغيِّرين، لكنهم زمن رسول الله ﷺ لم يسعهم أن يقولوا في الشريعة شيئاً، ولا في الفقه إحداثاً وتلعباً، لأنَّ رسول الله ﷺ بين أظهرهم، يتكلم عن الله وَوَحْيِهِ، فإنْ خاضوا في شيءٍ مِنْ ذلك تبيَّنَ للنَّاس ضلالهم، وافتراءهم على الشرع والفقه، لكن فَنَّ التبرير للقاعدين والجُبناء وأصحاب الإرادات الدنيويَّة أو الكسولة سَيُسْعِفُهُمْ في كلِّ موطنٍ لينشئوا من الحِيَلِ والأقاويل العِلميَّة والواقعيَّة ما يدفعُ عنهم أمره سبحانه وتعالى بالنفير، هذا مع صراحة الأمر ووضوحه وإحكامه، لكن إنْ كان توحيد الله تعالى وهو أوضح ما بعث به الأنبياء قد تلعبتْ به الأُمم السابقة، ووجد من هذه الأُمَّةِ مَن تلعبَ به، وقال بالشرك الذي قالته الأُمم السابقة، وحَرَّفُوا أسماءه وصفاته، وهي قضايا علميَّة، فكيف بهذا الأمر العِلمي الشاق، فهل يعجزُ هؤلاء مِن أنْ يحرِّفُوا كلماته عن مواضعها؟!.

لقد كان المجاهدون دَوْماً لهمُ الحب والقبول في أُمَّة محمد ﷺ لأنهم يرونهم أهل التضحية والبذل، ولا يُنافسون أهل الدُّينا في دُنياهم، فلم تكنِ الأُمَّة تحس بهم إلاَّ أهل خيرٍ عليهم، لأنَّ أُمَّةَ الإسلام كانت قائمة، ودار الإسلام موجودة، فإنْ سقط بعضها قام فئاتُ المجاهدين بالجهاد ضِدَّ المُعتدين، وللشوق في البلاد أن يعودون لدار الإسلام يجعلهم في موقف الدُّعاء والحبِّ للمجاهدين، لكنَّ الأمرَ اليومَ قد تغيَّرَ، فقد سقطت دولة الإسلام، وتغلبَ مرتدون على البلاد والعِباد، وأقاموا فيها أنظمة تخدر النَّاس بمبادئ الكفر، وتغلغلتْ مفاهيم الجاهليَّة كالقُطْرية والقومية في الشعوب ورضي أكثر النَّاس بهذا، وانشغلوا بدنياهم، فمنهم من يرتع في الدُّنيا إلى أُذنيه ومنهم من يبحث عن الكفاف، وآخرون يريدون مجرد البقاء على ما هم فيه أو التقدم يسيراً في الدُّنيا، ودفعوا شباب الإسلام إلى مسالك تأمين الحياة، والتي يُسمُّونها بالسعيدة، أي سعادة المأكل والمشرب والملبس والمسكن، وسرى الخدر في عموم الأُمَّة، وبسط الكفر سُلطانه العام على العالم أجمع، وحصل بهذا الأمر أمراض اجتماعيَّة وسياسيَّة، ومن تراكُمَاتِ التاريخ انتشرتْ بدعٌ دينيَّة وجهلٌ بالشريعة، فقام

المُصلحون إلى هذه الأمراض التي سرت في أفراد الأُمَّةِ لِيُصْلِحُوهَا ويُدَاوُوهَا، واستغرقوا في هذا، ولم يعرفِ النَّاس في يومنا عمل الدِّين إلاَّ في هذا الاتجاه، وأما الجهاد فله صورٌ عندهم وهو الحفاظ على كِيَانِ هذه الدول من بعضها البعض، أو من غازٍ أجنبيٍّ، لأنهم يرون في هذا الغازي إما إفساداً لدُنياهم التي هم فيها، وإنما تغيِّيراً لنمط الحياة التي يعرفونها، فإذا قام مسلمٌ وجاهد في سبيل الله لإعادة الدِّين إلى الحياة، أو إلى إعادة مسار الحياة على وِفْقِ الشريعة، سواء كان في قُطْرٍ أو أقطارٍ، رأى فيه النَّاس إفساداً لدُنياهم، فكيف لو توجه هذا المجاهد إلى أكثر من ذلك وهو قطع شريان الكفر الأكبر الذي يمنع تحقيق الإسلام في بلده أو بلاد المسلمين عموماً، إنه ولا شك حينئذٍ سيصبح في نظر الجاهليين والغافلين والباحثين عن مجرد الحياة أو الحِفاظ عليها مفسدون في الأرض.

هذه محنَّةُ الجهاد اليوم مع المسلمين، تنشأ من جهلهم بمهمتهم في الحياة، وبدورهم الذي أكرمهم الله به من إصلاح أنفسهم وذلك باعتزازهم بدينهم، فلا يحكمهم إلاَّ مَن كان منهم، ولا يدينون في كلِّ تشريعاتهم إلا بحُكْمِ الله تعالى، كما هي مُهِمَتهُمْ بوراثة الأرض وحُكْم البشرية بشريعة الله تعالى.

لقد تخلى المسلمون عن هذه المُهمة، وصار هَمُّ المصلحين ترميمَ البدن دون دفعه إلى العمل خارجه، سواء كان محيطه القريب منه أو البعيد عنه، وهذا لا يمكن تحقيقه أبداً، فها همُ المصلحون يعملون منذ عقود، فما أن يأخذوا فرداً إلى الدِّين الحقِّ حتَّى تأخذ الجاهلية العشرات، ولا يكادون يحققون خطوة في اتجاه، إلاَّ وحصل الاختراق الجاهلي في ثغورٍ أُخرى للإسلام والمسلمين، حتَّى البلاد التي كانت عصيةً على قيم العلمانيَّة والزندقة صارت تنهار جوانب فردية واجتماعيَّة منها بسبب خضوع النظام لمظلة الجاهلية، وبسبب ارتباط هذا النظام بفلك الكفر الأكبر، فالمصلحون يقفون أمام السواقي وأما زَخْمَ التيار الهادر الأكبر من الشرك والكفر فهم في غفلةٍ عنه، بل إنَّ المحسن منهم يدعو لمصالحته ومُداراته ليسمح لعمليات الترميم الصُغرى بالوجود، وهذا ليس طريق الأنبياء قط، ولا هو طريق رسول الله ﷺ، لأنَّ الصِدام بين دعوة الأنبياء كان يقع مع الملأ، هكذا وقعَ مع جميع الأنبياء، وكذلك وقع لإبراهيم وموسى عليهما السلام، إذ توجه موسى لفرعون مُباشرة، وكان من خلال هذا التوجه يقع انحياز المهتدين لموسى عليه السلام، ولذلك كان قول مؤمن آل فرعون لقومه في بيان سبيل الهداية: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾[1]. فقد علَّقَ الهداية على إتباعه، أي الخروج من سِيَاقِ الحياة وقوانينها وسُلطانها إلى سِيَاقٍ آخرٍ هو سِيَاق الدَّاعي إلى الله تعالى، أما إبقاء المهتدين تحت سلطان الجاهلية في الوجود الكلِّي، وبقائهم تحت مِظلتها وسِيَاقها دون الخروج عن ذلك ولا اعتزاله، والإعلان عن الكفر بها فإنَّ هذا لا يُصلح العالم، لا في

[1] سورة غافر، الآية: ٣٨.

وُجوده العام ولا في أفراد المؤمنين، والذين يسلكون هذا السبيل تحت دعوى السلامة إنما يقتطعون من الدِّين أعظم ما فيه من أجل دُنياهم.

فالمجاهدون في سبيل الله تعالى حقّاً وصِدْقاً يُبغضهم أهل الدُّنيا في زماننا هذا لأنَّ المجاهدين هم من يحمل دعوة الأنبياء بوجهها الصحيح، ويُصادقون في تكاتفهم وتوجههم هذا السلطان الذي يمثله الملأ الأصغر في مجتمعاتهم، وفرعون الأكبر في العالم، وفي هذا الصِدام يقع البلاء للمسلمين الساكنين من الذين يُتْقِنُونَ الجلوس على مقاعد المُتفرجين يُراقبون لِمَنِ الغلبة حتَّى ينحازوا إليه، فكيف لو دُعي هؤلاء إلى واجبهم العَيْنِي بالنفير، ومصادقة سلطان الجاهلية في بلادهم أو على تخولها أو في مواطن النِزال، فماذا سيقولون؟.

هذه الآيات تَعِيبُ على القاعدين لمجرد قُعودهم وتثاقلهم، فماذا لو كان كتاب الله ينزل هذه الأيام فماذا سيقول عن هؤلاء الذين يسبُّون المجاهدين لأنهم أفسدوا عليهم دنياهم، فوالله لقد قرأتُ لأحدهم سبّاً للمجاهدين لأنَّ جهادهم كان سبباً لأنْ أذهبتْ بسمات الكفار في وجهه، بل إنَّ بعضهم كَتَبَ سبّاً للمجاهدين بسبب تنغيصهم عليه حياته في سفره أنه لم يَعُدْ يجد في أطباق الطعام في الطائرات أدوات طعام جيدة لأنها يمكن أن يستخدمها المجاهدون فرفعتها شركات الطيران من الخدمة.

فهل مثل هؤلاء هم ميزان الحقِّ الذي يُعْتَمَدُ في تقيِّيم رحلة الجهاد إلى مقاصده العظيمة في تحرير الأُمَّةِ وإغاظة الكافرين؟!.

ستأتي آياتٌ عظيمة في خاتمة السورة تُبيِّنُ أجْرَ الذين يغيظون الكفار ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ** ﴾[1]. ثم يأتي هؤلاء ليجعلوا حصول هذا الغيظ والحقد والكراهية سبباً لسبِّ المجاهدين، وقد أخذ هؤلاء هذا الفقه من أصحاب العمائم الذين كرهوا بيان بعض الأحكام الشرعيَّة للنَّاس لأنها مما تنفرُ هؤلاء النَّاس عن قبول الإسلام، هذا منهجهم وأما منهج القرآن فيقول: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ** ﴾[2]، فمنهجه أنْ يُبْتَلَى النَّاس في إيمانهم، لأنَّ الإيمانَ عزيزٌ كريمٌ، وأجرهُ عظيمٌ جليلٌ، فلا يُعْرَضْ على وجهِ ما تُعْرَضُ السِلع الخسيسة الرخيصة التي تستجدي السفلة ليشتروها.

لقد هانَ دين الله في أعين هؤلاء حتَّى صاروا يطلبون أقوال اللوطيين وأبناء الزنا وأكلة الخنزير وأزواج العاهرات، وآبائهن ممن يكرهون في نسائهم وبناتهم أن تكون إحداهن بكراً لا تعرفُ الزنا

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٢٠.
[2] سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

والعُهر منهم القول عن الإسلام مدحاً، ويضرهم أن يسبُّوا الإسلام أو يكرهوه، فأيُّ أحكامٍ تُقْبَلُ من هؤلاء القوم؟ وأيُّ مدحٍ للمجاهدين يُرْجَى مَنْ وَصَلَ لهذه المرتبة؟!.

هؤلاء الذين لا يريدون لأُمَّةِ الإسلام أن تقوم لتأخذ حقَّها كما يأخذ كُرماء البشر حقوقهم إلاَّ بعد أن يرضى الذين قال الله فيهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[1]. بإعطائهم هذه الحقوق تكرماً منهم، كيف يقبلون من المجاهدين أن يقوموا بالجهاد في سبيل الله من أجل حقوق الله تعالى على عبيده بتحكيم شريعته وإعزاز دينه؟!.

فهذا زمانٌ لا يُقَالُ لأهل الذل ﴿انفِرُوا﴾ بل يُقال لهم كُفوا عمن ينفر في سبيل الله تعالى، ولا يُقال لهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾. بل يُقال لهم ادفعوا عن حريمكم وحقوقكم كما تفعلُ سِباع الأرض، فإن لم تفعلوا فاصمتوا:-

لا خَيْلَ عِندَكَ تُهْدِيهَا وَلا مَــــالُ ... لِيُسْعِدِ (الصَّمْتُ) إنْ لم يُسْعِدِ الحالُ

أي والله فليسعد «الصَّمْت» فلا يُراد منهم قول: فَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسعِدِ الحالُ، كما قال أبو الطيب المتنبي.

يَسُبُّ أحدهم ويَعِيبُ على المجاهدين لأنَّ جهادهم أضاعَ عليه وظيفته، وأفسدَ عليه رحلاته الاستجمامية في بلاد الترف والفساد، وجعل العالم يخاف من المسلمين، فهو لا يحب إلاَّ أنْ يَكُونَ فَأْراً أَوْ حَيَوَانَ بَيْتٍ عِنْدَهُمْ يُرْبَت عَلَى كَتِفِهِ، وَيُلْعَب بِهِ لِلْتَسْلِيَةِ.

يا لهذا القرآن اليوم مع أهل هذا الزمان ممن يكون على حالهم حين يُقارنوه مع تاريخهم، ويريدون العزة من غير ثمنٍ، ومن غير مشقةٍ، يُهَدِدُهُمْ إنْ لم ينفروا، ويعيبُ عليهم إذ يستنهضهم في الحَرِّ والجُوعِ وَقِلَّةِ الرحل ليمشوا في الصحراء ولهبها لمقابلة عدوِّهم فيعتذرون، واليوم لا يعتذرون، ولا يتثاقلون، ولكنهم يسبُّون ويشتمون ويعيبون، ويحاربون بأقلامهم وألسنتهم، والكثير منهم بفعله وبدنه فماذا سيقول عنهم كتاب الله تعالى؟!.

نعم صدقَ كتاب الله تعالى، فإنَّ أبناء المسلمين يطوفون الأرض ويغتربون، ويقضون السنوات في المشقة، والبُعْدِ من أجل دُنياهم، ومناصبهم، وشهواتهم، ويتحملون الذل والهوان من أجل العيش، مجرد العيش فقط فهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ﴾.

﴿وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾.

هي محنةُ الجهاد أنْ يُرمى أبناءه في الأماكن البعيدة، ويقذف بهم في الغَمرات، لأنَّ الجنَّة لا تُنَال إلاَّ بهذا، ولأَنَّ شهادة الإيمان لا تُعْطَى بغير ثمنٍ، ولذلك ستبقى الرحلة والهجرة سِمَة هذا الدِّين، فهي سِمَة العلماء، فلا عِلْمَ إلاَّ بها، وهي سِمَة المجاهدين، فلا جهاد إلاَّ بها، والذين يرجون أنْ يسير

[1] سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

الخير إليهم هم واهمون لأنَّ هذا الدِّين عزيزٌ، ومثل القرآن كالإبل لا تأتي بل تُؤْتَى، لأنه كريم يُستدعى ولا يذل نفسه.

الشُّقَّةُ البَعِيدَةُ: هي دفعُ الأُمَّة أنْ لا تنتكسَ إلى داخلها، ولا تتجمعَ إلى مراكز تصنع الزِمام، بل سِمَة الإسلام تقول: «**مَنْ أَحْيَا أَرْضاً مَيِّتَةً؛ فَهِي لَهُ**»[1]. لأنَّ الأُمَّةَ التي تَنْطَوِي على نفسها لا تنقى، ولا تُفِيدُ ولا تَستفيدُ، وستعريها عوامل الهلاك، لكن حين تندفع الأُمَّة إلى أطرافها، فتغزو، وتدفع بنفسها إلى مواطن جديدة تكون أُمَّةً حَيَّةً فَاعِلَةً، وبهذا الاندفاع اخترقَ الصَّحابة أطراف الأرض فبلغوا الصين، ودانتْ لهم أعالي أفريقيا، وفي أدوات عصرهم ووسائل زمانهم، وحين انطوتِ الأُمَّة على نفسها بدأ الشِقاق والخِلاف، وبدأ غزو أعدائها لها، واليوم يكون الجهاد على حدود بلاده، فيراه بعيداً عنه وكأنه لا يعنيه، وحين يحل بداره يبدأ بالصراخ.

كانت الآية السابقة: ﴿ **ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا** ﴾ فأبطلتْ عُذْرَ النَّفس وأحوالها، وعُذْرَ الواقع وضُغُوطِهِ، ومُعَوِقَاتِ الآن وروابطه، وفي هذه الآية إبطالٌ لِعُذْرِ المسافة وطُولِهَا، وعذر مشقة السفر ومتاعبه، فلم يبقَ لأحدٍ حُجَة، فلا أعذار نفسك مقبولة، ولا أعذار الأماكن مقبولة، لأنَّ هذا شأن العبد الذي يريده الله، وهذا شأن المؤمن الذي يحبه الله، وهذا حال الإرادة التي تحقق العبوديَّة لله في نفسها وفي الآخرين، فهي فوقَ معاذير العجز، وأقوى من حوادث الزمن، وعصية على حدود المكان، فإذا كانت الصحراء القاحلة وهي تكوين حقيقي لا تمنعه، فكيف تمنعه حدود الوهم والضلال التي يكرسها الشيطان وجنوده في نفوس النَّاس؟!.

يقول فقهاء العجز ومفتُو التثاقل: هذه بلادنا، وتلك بلادهم، يكرسون فقه الجاهلية، ويسبغون عليها شرعيَّة الإسلام، ويلفُّون الكفر برقائقه من الإسلام المُزور، فينشرون فقه الكراهية بين المسلمين، ويُعمقون ما يريده الشيطان من تفرقٍ على أساس الأرض التي طواها الله لرسوله ﷺ فجعلها له، ويزعمون أنَّ هذا هو الفقه، وهم يجهلون أصوله وقواعده، وهم الذين يطبعون كُتُبَ ابن تيمية وفتاواه وفيها كتاب أصولي يقول: «إيضاح الدلالة في عموم الرسالة للثقلين»[2]، ومجاهلهم يظنون أنَّ عموم الرسالة معنى قاصرٌ على التوحيد والعبادات النُّسكية، حتَّى هذه ضربوا فيها سيف الفُرقة في الأُمَّةِ كما هو ظاهر في مسائل الحج، حتَّى جعل أحدهم حج وعُمرة من دخل البلاد من

---

[1] البخاري في «كتاب المُزارعة» باب من أحيا أرضاً مواتاً ورأى ذلك عليٌّ في أرض الخرابِ بالكوفة موات. حديث رقم: ٢٣٣٥. وله حديثٌ آخر في نفس الباب، وهو عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ أَعْمَرَ أَرْضاً لَيْسَتْ لأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ**». قال عُروة: قضى به عمر رضي الله عنه في خلافته.

[2] الرسالة ضمن «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» رحمه الله تعالى بالمجلد التاسع عشر من الصفحة ٩ وما بعدها. طبعة دار عالم الكتب بالرياض (١٤١٤هـ-١٩٩١م).

المسلمين بغير إذن طاغوتها باطلين، ولا يُقبلان منه[1]، وهم لا يخافون على دين الله تعالى لكنهم صدى أسيادهم الذين يخافون على أموال أسيادهم.

أما عموم الرسالة بأنْ تكون أُمَّةَ الإسلام أُمَّةً واحدةً فهذا فقه بَائِدٌ ألغته مواثيق الكُفرِ وأُممِهِ، وأبطلته الشرائع الدولية المُعاصرة، فيا ليتَ شِعْرِي هل بهؤلاء يقوم دين؟! أم بهم تعود لأُمَّةِ الإسلام عزتها؟!.

إنَّ توحيد الله تعالى وفقه الشريعة عِلْمٌ، ولا يكونان في الأرض إلاَّ بأوعيةٍ من الفهم والحركة والفِعْلِ، ومن غير فقه المُفتين لحقائق هذا الدِّين التي تعلم فقه الإسلام في الحياة والوجود وفي الأرض وفي الشعوب فإنَّ فقههم يكون قاصراً بل في واقع الأمر يكون مطية لأهواء الجاهلية كما هو الحال اليوم، فها نحن نرى استخدام كل المتنازعين في الأرض، مسلمين وكفار لطائفة من المُفتين، يلوون لهم ما يشتهون باسم الدِّين، ويخضعون النافرين لهم بحجة أنهم ظل الله في الأرض وسُلطانه.

هذه عواقب الانتكاسة للداخل حين يقول الفقهاء!! هذه بلدنا، وتلك بلدهم، وأما فقه الصَّحابة فهو الذهاب إلى البعيد مهما كانت المشقة ليكون لنا؛ أي لدين الله تعالى، فهذا فقهان، لا خلاف بينهما في فهم أسماء الله وصفاته، وفي وُجوب الرجوع للكتاب والسنَّة في الصَّلاة والصوم والزَّكاة، لكنه خلافٌ حول صورة الدِّين وحقيقته في الوجود، وخلافٌ حول دور هذا الدِّين في المجتمعات والشعوب والدول، وخلافٌ حول صياغة الأُمم بمجموعها وتجمعاتها، ولو فَقِهَ هؤلاء أواخر سورة «الأنفال» لعلموا شيئاً مما جهلوه، بل وخالفوه وعادوه وهم لا يعلمون.

القرآن يقذفُ بالمؤمنين إلى خارج أرضهم لينشروا دينِ الله، وفُقهاء كلِّ سلطانٍ في زماننا يطرد كلَّ مهاجرٍ حتَّى لا يأكل من قَصْعَتِهِ، ويزعمُ بعضهم كذباً وتستراً باسم الدِّين أنه يمنع الإمام الشافعي من دخول بلده حتى لا ينقلب النَّاس إليه عن مذهب مالك، أو من مذهب الحنابلة إلى مذهب الأحناف، ويفتون فتاوى الصدِّ عن سبيل الله بتحريم أن يفتح أهل بلدهم آذانهم لغير فتاويهم حتَّى لا يسمعوا لنداء الله تعالى لهم ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾ حتَّى لو بَعُدَتْ عنكمُ الشُّقَّة وتجاوزتمُ الحدود وكسرتم سلطان الشيطان ورُسومه، وهم الذين ملئوا الزمان ضجيجاً بحرمة التقليد، فهلاَ برزوا بعلمهم للمجاهدين في ميادين العلم والدليل ليعلم النَّاس من معه فقه الكتاب والسنَّة ويعملَ بهما، ومن معه فقه الأُمم المتحدة على الكفر والشرك، ووالله ما رأيتُ مسكيناً جاهلاً تابعهم إلاَّ وقال هذه الكلمة: «هؤلاء يريدون إفساد بلدنا»، فيا أيُّها المسكين كيف طَوَاكَ الشيطان وحماها جنوده؟! وكيف قدمتَ تفرقةَ الشيطان بين النَّاس على هذا الأساس على تفرقةِ القرآن بين مؤمنٍ وكافرٍ؟!.

عُدْ إلى دينكَ في فَهْمِ الحياة، وَعُدْ إلى حقيقةِ توحيدكَ التي لا تكون إلاَّ بالولاء والبراء على أساس الإيمان، وانْزَعْ عنكَ ثوبَ الجهل وقُلْ كما قال إبراهيم عليه السلام والمؤمنون معه لقومهم: ﴿ إِنَّا

[1] الشيخ محمد بن صالح العثيمين هو صاحب هذه الفتوى الغريبة العجيبة.

بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[1]، فالتوحيد هو جنسيتكَ، وأَرْضُ الإسلامِ هي أرضكَ، والمسلمون هم إخوانكَ.

ستقول هذه أصولُ الدِّين فهل جهلها المُفتون الكِبار في بلدي حين قالوا ما قالوا من حُرْمَةِ الجهاد ضِدَّ طواغيت بلادهم، وحين منعونا من الذهاب في الأرض جهاداً في سبيل الله؟.

أقولُ لكَ: إنه الهوى الذي ضربَ القلوب، والدُّنيا التي ألقتْ على العِلْمِ ظِلالها فمسخته، وإنْ شِئْتَ الدليل فإليكَ الامتحان.

اجلسْ مع نفسك، وقلْ لها سأُجاهدُ في سبيل الله تعالى، ولا تخبرها أين ستُجاهد، ولا مع مَنْ، ولا مَنْ ستُجاهد، بل اعرضْ عليها الجهاد في سبيل الله تعالى فقط، وانظرْ جوابها إليك، فبالله عليكَ هل ستمنعك من الجهاد أم لا؟ فإنْ كنتَ تتقنُ النظرَ في نفسك، وتُرَاجِعُهَا في هواها كما شأن العقلاء في ذلك فنَقِبْ عن سبب المنع، فهل ستجد فتوى لعالمٍ في الأرض هي التي تصدك عن الجهاد، أم ستجد الخوف من ذهاب الدُّنيا التي ترعاها، ستقول لك نفسك: فمن لشركتك؟ ومن لرعاية مصالح مالك؟، فإنْ كنتَ محباً للجهاد ستقول لك: ستُجاهد، لكن ليس الآن، إنما بعد أن تقضي بعض الحوائج، وتُدبر بعض القضايا العالقة.

هذه القضايا العالقة، وهذه الحوائج هي بعض معنى قوله تعالى: ﴿ **خِفَافًا وَثِقَالًا** ﴾.

فإنْ زَهِدْتَ في ذلك، وانتصرتَ على هذه العَقبة الشديدة، ستقول لك أين الجهاد الآن؟ فإنْ قالت لكَ: لا جهاد اليوم في الأرض وصدقتها فقد بانَ لك مقدار جهلك، ومقدار فساد نظرك، فإنَّ الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة قَدراً وشرعاً، وقد وصف رسول الله ﷺ الطائفة المنصورة بأنها باقية لا تزولُ حتَّى يخرج الدَّجال، وهي طائفة جهاد[2]، فإنْ رأيتَ جهاداً فسترى أنها ستقول لكَ: وأين أنتَ من هذا؟ الطريق طويلٌ وشاقٌ، فالمسالحة على كلِّ المنافذ، والعُيون ترقبكَ، فإنْ خلصتَ فلن تخلص بيسير، فاقعدْ.

عالِجْهَا حينذاكَ بهذه الآيات، فإنْ قالت لكَ: هذا إلقاء بالنَّفس في التهلكة، حينها افتحْ كتاب التفسير لفقيه في الكتاب والسنَّة، لا فقيهاً في معرفة الفَرق المادي بين موظف في الدرجة الأولى والدرجة العاشرة، ولا مُفتياً يغضبُ إن قلتَ له: فضيلة الشيخ، ولم تَقُلْ له: سماحة الشيخ، لأنك استصغرته، أو لم تعرف الفرق بين درجة كلمة فضيلة وكلمة سماحة كما أنكَ لا تعرفُ الفَرْقَ

---

[1] سورة الممتحنة، الآية: ٤.

[2] وذلك في قوله ﷺ هذا ومثله: «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ فَصَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ الله هذِهِ الأُمَّةَ**» أخرجه مسلم في «كتاب الإيمان» باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع النَّاس ونسخ الملل بمثله. حديث رقم: ٢٤٧.

بين كلمة المُحْكَم والنَّصِ في عِلْمِ الأصول، فإنْ فتحتَ هذا الكتاب ستعرفُ حينها ما معنى التهلكة في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾[1].

حين تُدْرِك هذا من نفسكَ ستعرفُ أنَّ مشكلة القوم هو الهوى وحبّ الدُّنيا، والله يقول: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾[2]، وما الفتاوى إلاَّ أُعطية جاهلة لهذه النُّفوس المريضة، كما هو الشأن مع نفسكَ هنا إنْ صدقتَ وحققتَ، إذ ستجد أنَّ الفتوى لا حضور لها في نفسكَ إلاَّ بعد أنْ ترى مِنْ نفسكَ الضعف والخوف، ومشقات الطريق، فستقول بعدها: لكن بعض العلماء يقولون بكذا وكذا، فإنْ قِيلَ لَكَ لكنَّ الله قال الحقّ، وهو غير ما يقولون، حينها يبدأ التأويل والتحريف لكتاب الله تعالى وهذا مُوصِلٌ لما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[3]. لأنَّ المعاصي تبدأ بهذا الأمر وهو الهوى والضعف من أداء التكاليف ثم يُصَارُ إلى القول على الله بغير عِلْمٍ.

﴿ لَّٱتَّبَعُوكَ ﴾.

هذه دليلٌ أنَّ رسول الله ﷺ كان سيذهبُ إلى تبوك ولو وحده، وبمن حضر حتَّى لو تخلف الكثير، الإمام الذي يصدر إلى الفِعْلِ قبل غيره، ويُقْدِمُ إليه بنفسه وهو يدعو النَّاس إليه، ولا ينظرُ خَلْفَهُ، وهذا تطبيقٌ لقوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾[4]، فرسول الله إمامُ الهُدى ساعَ إلى مقصده، والنَّاس له تبعٌ، ولا يضره مَن تخلف أو ضعف، فهو يقوم بأمر الله تعالى، فإنْ جاء النَّاس فهذا الخير العظيم لهم، وإلاَّ فالدِّين لن يخسرَ شيئاً، بل هم سيخسرون.

﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾.

سنجد أنَّ هذا الصنف الضعيف الجبان والمُتخاذل يُكْثِرُ الحَلِفَ في هذه السورة، فهم يحلفون هنا على هذا القول الكاذب، وسيحلفون مرات أخرى:ـ

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[5].

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾[6].

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾[7].

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٩٥.
[2] سورة القيامة، الآيتان: ١٤ـ١٥.
[3] سورة الروم، الآية: ١٠.
[4] سورة النساء، الآية: ٨٤.
[5] سورة التوبة، الآية: ٥٦.
[6] سورة التوبة، الآية: ٦٢.
[7] سورة التوبة، الآية: ٧٤.

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾[1].

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[2].

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾[3].

هذه كلّها في هذه السورة المُشققة عن المُنافقين، والتي تبحث عن سرائرهم ونواياهم وقبولهم، وعن مواقفهم وأعمالهم وأقوالهم، فلا تُبْقِي لهم سِتْراً، وحلفهم المُتكرر هذا دليل سقوط عظمة الله من قلوبهم، فإنَّ كلَّ إيمانهم هذا قد كَشَفَ الله كذبها، ومَنْ حَلَفَ هذه الأيمان الكاذبة في هذه المواطن بل ما هو أدنى منها فإنما يغمس نفسه في جهنَّم، ويُوبِقُهَا في غَضَبِ الله ومَقْتِهِ، لكن هؤلاء القوم لا يهمهم قيمة نفوسهم في عين الله تعالى، إنما هم يريدون تدبير شؤون حياتهم الدُّنيا، فيرضون أهلها، ويُمضون ما يحبون ويرغبونه، حتَّى لو عَلِمُوا أنهم ساقطين من عين الله تعالى، ولم يعلموا أنَّ مَنْ سَقَطَ من عين الله تعالى فلنْ يكون له شأن في عيون النَّاس، أما مَنْ يَلْتَف حول هؤلاء القوم فهُمْ أمثالهم، والمُتاجِرون بالبشر، يدفعون لهم الأثمان ليكونوا جنوداً عندهم، فهم مجرد بضاعة خسيسة لها ثمن عند هؤلاء السماسرة، وأما المؤمنون فقد باعوا أنفسهم لله تعالى، ويعلمون أنه لا يجوز بَيْعٌ على بَيْعٍ، فالله يقول: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[4]، فقد باعوا وينتظرون الجزاء الإلهي الرحيم ـ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ـ[5] فهذه صفات المؤمنين، أما أهل الخِسَّة والصغار، فهم بضاعة حقيرة يتلقفها العبيد، ويُقلبونهم تقليب الدواب في الأسواق والتجارات.

يكثرون الحلف لأنهم يعلمون من قلوب المؤمنين أنَّ الله عظيمٌ في قلوبهم، ولا يحلفون به كذباً، ولا يتخذون أيمانهم هُزُواً ولا لَعِباً، ولذلك حين يكتشفِ المؤمنون كَذِبَ هؤلاء فإنهم يَذهلون من استهانتهم بأيمانهم كما قال الله في سورة «المائدة» عن هذه الحالة: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[6]، ولذلك كان من تعليم الله للمؤمنين أنَّ أَيمانَ أعدائهم هَوَاء ولا قِيمَةَ لها، فإنَّ آدم عليه السلام لعظمة

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٥.
[2] سورة التوبة، الآية: ٩٦.
[3] سورة التوبة، الآية: ١٠٧.
[4] سورة التوبة، الآية: ١١١.
[5] سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
[6] سورة المائدة، ألايتان: ٥٢-٥٣.

الله في قلبه لم يتصور كذب إبليس في قَسمه كما قال تعالى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]، وفي هذا فقهٌ للمؤمنين يجبُ عليهم أن يعلموه، وإلاَّ سيقعون فيما وقع فيه أبوهم آدم عليه السلام من المعصية في هذا الأمر هو:ـ

إنَّ الشيطانَ وجُنْده لن يكفوا عن استخدام الوسائل للوصول إلى أهدافهم، فهم يُقاتلونهم قِتَالاً صريحاً إنْ كان لهمُ القوة مُقَابِلَ ضُعْفِ المسلمين، وسَيَسُبُّونَ المسلمين ودينهم في هذا الظرف، فإنْ كان في هذه الصراحة ذهبوا إلى وِدْيَانٍ أُخرى من الخِداع والتزوير، وستكون عامة هذه الوِديان بِاسْمِ الدِّينِ والأخلاقِ، أو ما يُسمُّونه اليومِ بالقيم المُشتركة، حتَّى إذا وصلوا من خلال هذه الوسائل الخبيثة أظهروا مُرادهم الصريح، وفقه الشيطان وجنده في استخدام أَدْيَانِ أعدائهم للوصول إلى مكاسبهم فقهٌ قديمٌ، لأنَّ الشيطان هو أُستاذهم في هذا، وقد استخدمه كما تقدم مع آدم عليه السلام، وأصابَ به مُرَاده، ولذلك صدق الكذوب حين قال: «كم يخيفني الشيطان عندما يأتيني ذاكراً اسم الله»، وسيأتي تفصيل بعض هذا الأمر حين نأتي إلى مسجد الضِرار والحديث عنه، لكنْ لِيَعْلَمَ المسلمونَ أنَّ الكلمات الجميلة لا تنفع، فقد أَسْلَمَ ظاهراً نابليون مِنْ قَبْلُ لما دخل مصر في حَمْلَتِهِ الكافرة، وخدع من خدع من النَّاس، ولو قرأ المرء اليوم ما قاله المؤرخ الجبرتي[2] عن البيانات التي أصدرها نابليون لما دخل مصر، ولما كوَّن هيئة لعلماء المسلمين ونصَّب نفسه أميراً عليها لَرَأى أنَّ كلمات بياناته هي عينها كلمات كل الكفر في كلِّ زمان، وفي زماننا حين يأتون إلى أُمتنا لردها عن دينها، ولذلك كان من فقه الشيخ عبد الله الشرقاوي رحمه الله تعالى، وهو شيخ الأزهر يومها ـ أن قال لنابليون: «لو كنتَ مسلماً حقّاً لطبقتَ الإسلام في بلدك فرنسا» فَغَضِبَ الخبيث، فالكلمات حين تأتي من الأعداء تمثل قذائف الدخان وهي تحمي عمليات الاجتياح والتقدم، وينخدع بها الجهلة والأغرار، وها نحن في زماننا نسمع كبار الطواغيت، أصليين ومرتدين، يمدحون المسلمين المُعتدلين، والإسلام، وينسبون للإسلام أوصاف الرحمة والإنسانية والاعتدال، بل إنَّ بعض هؤلاء يفتي أنَّ هذا يجوز في الإسلام، وهذا لا يجوز، وهي مجرد كلمات لا تغيِّر من حقائق الوقائع شيئاً، ولا تُوقِفُ جنودهم عن قَتْلِ أُمَّتنا، ولا توقفُ سياستهم عن محاربة الدِّين وعِباد ربِّ العالمين، وبعضهم لا يمتنع من حضور مناسبات دينيَّة للمسلمين كالأعياد وغيرها، ويرقص الجهلة فرحاً من

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ٢١.

[2] هو عبد الرحمن بن حسن الجبرتي صاحب كتاب: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» يقع في ثلاث مجلدات (١٣٩٢صفحة) طبعته دار الكتب العلمية ببيروت عام ١٩٩٧م. ضمَّنهُ حوادث مصر التي جرت في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر جارياً في ذلك على سياق السنين منذ فتوح السلطان الغازي سليم خان الأوَّل للقطر المصريّ إلى غاية سنة ١٢٣٦ ذاكراً للوقائع المعتبرة مع تراجم الأعيان المشهورين وقد أدخل فيه قسماً كبيراً من تاريخ آخر وصف فيه وقائع بعثة بونابرت إلى مصر دعاهُ «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس» كتبهُ سنة ١٢١٦هـ (١٨٠٢م) وتاريخ الجبرتي قد نُقل إلى الفرنسيَّة بهمَّة بعض نصارى مصر وهم شفيق منصور بك وعبد العزيز كحيل بك وجبرائيل نقولا كحيل بك واسكندر بك عمون. وقد ترجم الفرنسوي كردين تأليفهُ الآخر مظهر التقديس. وُلد في مصر ١١٦٧هـ (١٧٥٣م-١٧٥٤م) وقال كاتب فهرست مخطوطات المكتبة الخديويَّة (١:٨٣) أنه توفي مخنوقاً في رمضان سنة ١٢٣٧هـ (١٨٢٢م). [تاريخ الآداب العربية، لويس شيخو].

هذه الفِعال، وهم لا يعلمون شرَّ هؤلاء، ولا كُفرهم، لأنَّ هذه الفِعال تغطي عيونهم عن تصديق ما يقوله أهل الجهاد في هؤلاء.

المغفلون لا وجود لهم في هذه الحياة، وأحسن أحوالهم أن يكونوا مطايا لأعدائهم حتَّى يصلوا إلى أهدافهم، ولا تظنن أنَّ المغفلين قِلَّة في زماننا، بل أغلب المُعممين والوُعاظ والقُضاة يشملهم هذا الوصف وهذا اللقب، وإنْ شئتَ الدليل فانظر إلى تجمعاتهم وهم يبتسمون حين يسمعون طاغوتاً يقرأ آية أو يحتج بحديث وهو يرقق صوته ويحاول دفع الدمعات من عينيه، فيخرج الجمع وهم يحلفون أنَّ إيمانه أكثر من إيمانهم، لكنها الظروف التي تمنعه من إظهار إيمانه.

ستأتي الآيات التي فيها قول الله تعليماً للمؤمنين أن يقولوا لهؤلاء: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾[١]، والآية التالية لهذه الآيات هنا: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٢]، كلّها تعلم أهل الدِّين أنَّ الغفلةَ لا تستقيم مع هذه المعركة، وأنَّ الإيمان الحقّ يُنافي الغَباء، والذين يزعمون أنَّ المؤمنين طَيِّبو القلوب، بمعنى الغفلة والغَباء هم كاذبون، ينسبون لدين الله ما ليس فيه جهلاً وضلالاً، ولو تابع المرء تاريخ الإسلام المُعاصر لرأى أنَّ السِمَةَ الغالبة على حركة أهله هي الغفلة واستخدام الخصوم له، فالثورة البلشفية الشيوعية إنما قام جيشها الذي يُسمُّونه بالجيش الأحمر على المسلمين الذين اجتمع بهم لينين سنة ١٩١٧م وأقسم لقادتهم أنهم لو أعانوه في إزاحة القيصر سيُعطيهم حقَّ تقرير المصير، فحاربوا معه ثم لما غلبت ثورتهم كان المسلمون هم كبش الفِداء، وقُتِلَ منهم الملايين بعد ذلك على يده وخلفه المجرم ستالين بعد أن اتهمتهم أنهم ساعدوا هتلر في الحرب الثانية لما دخل إلى روسيا، ولذلك قال بعض المؤرخين: «إنَّ الثورة البلشفية قامت بالمال اليهودي والجنود المسلمين»، وقد صدقوا.

لقد ساند كثيرٌ من العلماء حركة المجرم الحسين بن علي الموسوم بالشريف لما قام ضِدَّ دولة الخلافة، وكان أغلبهم من الشام، مثل الشيخ محمد رشيد رضا والأستاذ محب الدِّين الخطيب «وهما شاميان كانا يُقيمان في مصر» لانخداعهم بأنه يُريد إعادة الخلافة للعرب، وإصلاح أحوال النَّاس بعدما تسلط حزب الإتحاد والتَرقي على أواخر الخلافة العثمانيَّة، ولم يدرك هؤلاء المشايخ مِقْدَارَ إجرام هذا الشريف، وأنه إنما باع أُمَّته للإنجليز، وتحالفَ معهم ضِدَّ الخلافة، وقام جيشه الذي سمَّاه بالجيش العربي بقيادة ابنه فيصل الذي كان مُنْقَاداً للورنس الإنجليزي بذبح الجنود المسلمين الأتراك في كلِّ مكانٍ، وهناك مكانٌ في الأردن يُسمى بوادي الرحم لكثرة ما أُلْقِيَ فيه جُثث المسلمين الأتراك على يد هذا الجيش اللعين، ولذلك فقد انخدع المشايخ بالخبيث لكنه كان كذلك مخدوعاً بأسياده الإنجليز، فعامله الله بضدِّ مقصده إذ كانت عاقبته آية للخائنين.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٤.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤٣.

أَقْسَمَ جمال عبد الناصر على القرآن مع الإخوان المسلمين أنَّ الثورة ضدَّ العائلة الخديوية ستحكم بالشريعة، فخرجت جموعهم تحمي الثورة في الشوارع والأحياء والأزقة[1]، ثم كانتِ العاقبة بعد تمكنه أنْ ساقهم إلى السجون والمشانق، عليه مِن الله ما يستحقه، ولعلَّ المُتابع لا يخطئ كيف خرجتِ الجموع إلى عابِدِين ضدَّ رجال الثورة فلم يردهم إلاَّ الشهيد عبد القادر عودة قائلاً: «انطلقوا»، ثم علَّقه عبد الناصر على المشنقة.

وحادثة تكاد تكون مثلها كانت في اليمن.

والقائمة تطول، ولا تكاد تكون تجربة إلاَّ والطريقة واحدة، وكذلك النتيجة، والمؤمنون يُلْدَغُونَ مِنْ نَفْسِ الجُحْرِ عشرات المرات، فلا يُوجد طاغوت إلاَّ وهي لُعبته، ولا يُوجد محتلٌ وغاصبٌ إلاَّ وهذه حيلته، وكأنَّ هذه الأُمَّة ليس لها إلاَّ خصلة وحيدة هي خصلة الغَباء، واتقانِ الجثي على أربعٍ لِتُمْتَطَى مِنْ قِبَلِ أعدائها ليبلغوا عليها حاجاتهم، فهم في زماننا خير نموذج لما يُقال له: المُغفل النافع، فبمجرد كلمات قليلة، وبعضهم لا يحتاج أنْ يحلف له ليصدقه من المشايخ وقادة الحركات حتَّى يحملوه إلى مقاصده، والعِلَّة أنَّ هؤلاء لا يفهمون أنَّ يُقيموا الإسلام واقعاً بعيداً عنِ الآخرين، بل هم على الطريقة التي شُرحت سابقاً وهي إدخال الإسلام ضمن حركة الآخرين، فلو أنَّ هؤلاء استقلوا، ودعوا إلى الإسلام ورايته بعيداً عن قِوى الآخرين، ولو لحِقَ بهم القليل لحققوا مقاصد الإسلام، ولما اتخذُوا مَطَايَا لغيرهم، لكنَّ ضُعْفَ وَعْيِّهِمْ وَفِقْهِهِمْ لمهِمَّةِ الإسلامِ في الأرضِ يَصِيرُونَ إلى هذه النتائج.

إنَّ فِقْهَ الإسلامِ وتوحيدِ الله يحتاجان إلى وِعاءٍ يحضنهما ليتحقق لهما النَّصر والعِزَّة والوِرَّاثة، ولهذا الوِعاء فقهٌ، قد يُسمُّونه الفقه السياسي أو الفقه الحركي، وليسمُّوه كما يشاءون لكن شرط صحته أن يكون مصدره الوحيد هو القرآن الكريم وسنَّة النَّبيِّ ﷺ، وقد يعجبُ البعض من هذا الشرط، لأنَّ هؤلاء يظنون أنَّ الحركة الإنسانيَّة في الوجود إرثٌ إنسانيٌّ، وكلامهم فيه حقٌّ، لكن لو تأملَ هؤلاء كتاب الله على الوجه الصحيح، وراقبوا السنَّة النَّبويَّة بوعيِّ العلماء والمحققين والباحثين لَرأوا غناء هذين المصدرين عن كلِّ مصدرٍ آخرٍ، فانظر إلى هذه السورة العظيمة سورة «التوبة» وتأملها ضمن هذا السِياق، فهل هناك كتابٌ في الوجود يمكن أن يُقدم لك الحماية لحركتك نحو أهداف الإسلام كما تقدمها هذه السورة؟.

إنَّ تسمية سلفنا لها بالمُشققة، أو سورة البحوث لإدراكهم عُمْقَ مُلاحقتها للإنسان أمام الجهاد ومحنته، وكشف أقاويله ونفسيته ومواقفه، فهي تُعطيك وَعْيّاً تفصيليّاً على المحيط، وترفعُ عندك

---

[1] خرج جمع كبير من الإخوان المسلمين وفي مُقدمتهم مؤسسهم حسن البنا إلى الشوارع تضامناً ونصرةً لعدوِّ الله جمال عبد الناصر. وبعد استتابة الأمر له، وإمساكه بزمام الأمور.. ردَّ هذا الجميل!! للإخوان المسلمين بقتلهم وسجنهم.. فهل وعى الإخوان هذا؟. لا، وللأسف. راجع الكتاب القيِّم النفيس للشيخ المجاهد الدكتور أيمن الظواهري حفظه الله تعالى، ونصره على الأعداء «الحصاد المر، الإخوان المسلمين في ستين عاماً». تجده بالشبكة العنكبوتية على موقع: «منبر التوحيد والجهاد» www.tawhed.ws

درجة البصيرة في البشر والتجمعات، فتصنعُ منك محققاً عالماً ناقداً بصيراً، لا تخطئ فِراستك في ملاحظة أي كلمةٍ أو أية حركةٍ، أو أي موقفٍ.

إنها ترصد الإنسان في بدايته ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1]، وترصد مسيرته بلا غَمْغَمَةٍ ولا خِدَاعٍ، وبالألفاظ تحيط بهؤلاء القوم على وجهٍ لا يخفى على مُرَاقِبٍ، فإنْ فَقِهْتَ هذا عَلِمْتَ أنَّ ما يسمُّونه عِلْمَ النَّفْسِ العَسْكَرِي هو قَطْرَةٌ، بل قَطْرَةٌ غَيْرَ نَقِيَّةٍ أمامَ هذا الغَيْثِ الربَّانيِّ العظيم، فحين تحذرهم من قومٍ لهم مواقف في بدايتهم، وكان سلوكها على الوجه الذي كشفه القرآن من نفوسهم فهل يُلْدَغُ الُمهتدي بالقرآن مِنَ الجُحْرِ مرتين وثلاث وأكثر؟!

هذا القرآن هو فقه الحياة، ولأنَّ حياةَ الأُمَّةِ هي الجهاد، فإنَّ بِيئَةَ القرآنِ هي الجهاد، ولأنَّ هذا القرآن كلمة الله للإنسان، لِيَعْلَمَ الُمهتدي به، ويُعْرِضَ الُمعْرِض عنه، ولأنَّ قمة ما يُمْتَحَنُ به الإنسان هو الجهاد في سبيل الله تعالى، فإنَّ القرآن يكشف الإنسان من خلال هذه القمة العظيمة، فإنكَ لو أنصفتَ لَرأيتَ هذا جَلِياً في كتاب الله.

هذه السورة من خواتم سور القرآن نُزُولاً، ولذلك تضع المَرَايَا الكثيرة لمراتب الخَلْقِ أمام المؤمنين ليكونوا على بصيرةٍ بمجتمعاتهم وشعوبهم، وليكونوا أبْصَرَ الخَلْقِ بالخَلْقِ، وأشَدَّ النَّاس صلابةً من دخول الخِداع عليهم، أو اتخاذهم مطايا، وما الضيَّاع الذي نحيَّاه إلاَّ بسبب إعراضنا عن هذا النُّور والهُدى، فالنَّاس فريقان فيه: قومٌ يدعون للعمل به دون العلم به على حقيقته، وهم مُغفلون أصحاب نوايا طيبة، ومقابلهم آخرون رأوا في الفريق الأول سذاجة الإدعاء بأنَّ القرآن فيه فقه الحياة فذهبوا إلى غيره يطلبون الوعي وفقه الحياة، فتضلعوا من الآخرين، وبهذا تسللت فيهم قيم الجاهلية وهم لا يشعرون، والفريقان ضرب الله مثلهم في سورة «النحل»، فالأولون قال الله فيهم: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾[2]. فهم عاجزون، ولعجزهم يُقيمون مكانهم، والآخرون قال الله فيهم: ﴿ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾[3]. فهو مُقَادٌ من غيره، يسعى، وسعيه إلى فسادٍ، والفساد إما بإيقاع الشرِّ أو الانتهاء إلى الفشل، وأما المؤمنون حقّاً فهم: ﴿ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾[4]، وأعظم الرزق الحسن هو القرآن، وهو: ﴿ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾[5]، فهو مالكٌ للعِلْمِ والعَمَلِ ويُدرك سبيلهما ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

1 سورة التوبة، الآية: ٨٣.
2 سورة النحل، الآية: ٧٥.
3 سورة النحل، الآية: ٧٦.
4 سورة النحل، الآية: ٧٥.
5 سورة النحل، الآية: ٧٦.

لكن مما ينبغي التنبيه عليه أنَّ هذه ليست قضايا نظرية، والمُتَمَعِنْ في هذه الآيات وفي القرآن كُلِّهِ ليس لاستخراج الدرر العِلمية لتسجل للواحد من قائليها أنه فقيه بكتاب الله تعالى، بل فقه هذه الآيات له أهل، هم أهل الاختصاص بها، هؤلاء هم المجاهدون، فلا يمكن تحقيق معانيها إلاَّ بهم وبأعمالهم وسلوكهم، وهم أشدُّ النَّاس حاجةً لهذه لئلاَ يقع عليهم قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ كما هو شأن كلّ عملٍ يخالف سلوك الحقِّ والصراط المستقيم، أي الشرع وفقهه، والتكوين وسننه، وكلاهما في كتاب الله تعالى.

﴿ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

فهذا ادعاءُ العجز، وعدم القُدْرَةِ، وهو ادعاءٌ كاذبٌ، نَعَمْ في هذا الخروج مشقة وتعب، لكنه تعب تقدر النُّفوس عليه، وتستطيع تجاوزه، والظن بأنَّ القُدرة التي يُعَلِّقُ الشارع عليها الأمرَ هي الفراغ من المشقة والمُكابدة ظنٌّ واهِمٌ، لكنه يُوجد في نفوس الكثيرين، فإنَّ مجردَ وُجود المشقة والتعب يمنع البعضِ مِنْ إتيانِ الأمر الإلهي، ولا يُقْبِلُونَ عليه إلاَّ إذا حقق لهمُ الرَّاحة والدَّعة والتَّرف، فإنْ كان يجُرُ عليهم بعض البلاء والمشقة يزعمون أنَّ الله لم يأمر بهذا، ولم يُكلفهم به على هذا الوجه، هذا مع أنَّ كلَّ الأوامر هي ابتلاءٌ للعبيد، فهذا أمره سبحانه وتعالى بحُرمة الصيد للمُحرم جعله من أجل الابتلاء فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾[1]، ولهذا ابتلى الله بني إسرائيل بالحُوتِ وكثرته يوم السبت فقال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾[2]، فالذين يضبطون الفقه على معنى إفراغ الأمر من المشقة هم جاهلون بحُكْمِ الله تعالى، وما يقولونه هو جهلٌ بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[3]، فهذه الآية هي بعد أنْ رخص الله للصائم بالإفطار في سفره ومرضه، وهي قاعدةٌ شرعيَّةٌ صحيحةٌ، لكن أنْ يَصِلَ الأمرُ بالفقيه أنْ يُسْقِطَ أحكام الشرع محتجاً بها فهذا خطأ، فالصيام فيه حبس النَّفس عن طعامها وشرابها وشهواتها فهل يجوز لهؤلاء أن يُبْطِلُوا أحكام الصيام لهذا الفهم البدعي؟!.

لقد كان الخروج إلى تبوك محنةً وابتلاءً، فهو في زمن الحر والقيظ، والمسافة بعيدةٌ، والرحل قليلٌ، ومع ذلك فإنَّ هذا مما يقدر عليه النَّاس من غير المرضى والعُرْجَانِ والعُمْيانِ، ومن لم يفعلْ محتجاً بعدم القُدرة فهو كاذبٌ، فهذا عِلْمُ الله تعالى فيه، وهو حُكْمُهُ الذي يجبُ أنْ يعلمه من نفسه، ويعلمه المسلمون كذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

1 سورة المائدة، الآية: ٩٤.

2 سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

3 سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

أي أنهم يُوبِقُونَ أنفسهم في الهلاك والعذاب حين حلفوا هذه الأيمان الكاذبة.

فهذا أول الأيمان منهم، يتسترون به أمام المؤمنين حتَّى لا ينفروا معهم.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

لقد سكتَ القرآن عما فعلَ رسول الله ﷺ بهم، ولكن هذه الآية تُبَيِّنُ أنه أذِن لهم ﷺ، أي أنه أعذرهم وسمح لهم بالإقامة وعدمِ المسير، فجاءت هذه الآية الربَّانيَّة تُعَاتِبُهُ معاتبةَ المحِبِّ، وكما قال بعض أهل المعاني فإنها مِن أرق العِتاب حيث قدمتِ العفو قبل ذِكْرِ مُوجِبِهِ فقالت: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، ثم ذكرتِ الفِعل: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾، وهذا لمقام الحبيب المصطفى عند الله تعالى، ويحقُّ له ذلك بأبي هو وأمي ما أعظمه وأعبده، وما أجل درجاته عند ربِّه ومولاه، وهي تُعَلِمُ المسلمين المؤمنين كيف يتعاملون مع كُبَرَائِهِمْ وَمُقَدِمِيهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ وَرِجَالِهِمْ حِينَ يُرِيدُونَ الْخَيْرَ، وَهُمْ أَهْلُهُ، فيأتونَ بأفعالٍ تستحقُ العِتَابَ، فالواجب أن يسلكوا أدب القرآن، ويهتدوا بهديه في الخطاب والنُّصح، مِنْ وُجُوبِ الرِفْقِ، والإتيانِ بالكلمات التي تحفظ الود، وتؤدي إلى حصول المُراد.

ثم في هذه الآية أمرٌ لرسوله ﷺ بالتَبَيُّنِ مِنْ دَعْوَى هؤلاءِ القومِ قبلَ أنْ يَأْذَنَ لهم ويَعْذُرْهُمْ، فإنَّ أيمانهم ليست كافيةً في إثباتِ صِدْقِ دَعَاوِيهِمْ، وهو أمرٌ للمؤمنين بالتنقيب في أحوالِ النَّاس عند الشبهة والتهمة، وعدمِ الوقوف على الظواهر، ولذلك فقول بعضهم: لنا الظاهر في قبول النَّاس وكلامهم ودعواهم ليس على إطلاقه، فالمرءُ له تاريخ يجبُ أنْ يُسْتَحْضَرَ عند القضايا العظمى، وله سوابق تكشفُ مقامه واختياراته، أما الدعوى بأنَّ الظاهر كافٍ في اتخاذ الأولياء والأصفياء، واختيار القادة، ووضع البعض في مصادر القَرار والتأثير فهذا لا يسلكه إلاَّ أهل العيِّ والعجز والضعف والجهالة، ومَنْ فَعَلَ هذا فإنما يجني على نفسه وعلى الإسلام وعلى مَن ولاه الله رعايته، وخاصة حين تكثر الفِتن، ويكون مِنْ أساليب المجرمين والأعداء اتخاذ هذه الوسائل في حَرْفِ الطريق وإفساد أهلها، فعين المؤمن القائد ومَن كان في معناه ليست عَمياء ولا كليلة، بل هي تعرفُ النَّاس مِنْ لَحْنِ القَوْلِ، وَمِنْ سِيمَاهُمْ، وَمِنْ أَخْدَانِهِمْ، وَمِنْ تَارِيخِهِمْ، وَمِنْ عِبَادَاتِهِمْ، وَمِنْ صَفْوِهِمْ، وكلُّ ذلك بَيِّنٌ في كتاب الله تعالى في كشفِ خبايا النَّاس.

فالله يرشد حبيبه محمد ﷺ أنْ يُوقِفَهُمْ حين جاءوه، ولا يُعْطِيهُمُ العُذْرَ قبل التَبَيُّنِ، بل يُرْجِئْهُمْ حتَّى يسألَ عنهم نُقَبَائَهُمْ وَأَهْلِهِمْ وَجِيرَانِهِمْ، فَيَعْذُرَ مَنْ يَسْتَحِق، وَيَرُدَّ مَنْ لاَ يَسْتَحِق، والتَبَيُّنَ يكون عند وُجود المعارض في أُمورٍ، وهو أصلٌ في أمورٍ حتَّى لو لم يُوجَد المعارض.

فعِنْدَ وُجُودِ المعَارِضَ كما في الدعاوى بين المُتخاصمين، فإنَّ الأصل البراءة، فإنْ وُجِدَتِ التهمة فلابدَّ من التبيُّنِ بالشُّهودِ أو البَيِّنَاتِ مع الحلف إنْ لم يكن إلاَّ شاهدٌ واحدٌ، وكذلك إثبات عدالة الأئمة عند انتشار تهمة الزندقة في وقتٍ أو بلدٍ.

وهناك أمورٌ تُوجِبُ التبيُّن حتَّى مع عدمِ المعارض قبل إثبات العدالة في الشهود «كما هو رأي الجمهور خلافاً للأحناف»، وإثبات العدالة في رُوَاةِ الحديث، فإنَّ العدالة لا تثبت بالبراءة الأصليَّة هنا، بل هي أمرٌ زائدٌ تحتاج إلى اختيارٍ وتبيُّنٍ، ولذلك يُسمى غير العدل مجهولاً أو مستوراً حتَّى لو لم يُوجَدِ المعارض من اتهام الفسق أو الضعف في الحفظ، ومثل ذلك اتخاذ أهل الحل والعقد، والأصفياء والمُستشارين للقادة، وكذلك أُمراء الأَجناد والأقاليم، فإنَّ هذه مراتب تُوجِبُ التبيُّن، ولا يكتفي فيها بالبراءة الأصليَّة وسلامة الظاهر.

ويُشْبِهُ ذلك اتخاذ القُضاة والمُفتين وأصحاب الشارات من أئمة ومُقدمين ومَن كان في معناهم.

وعلى العلماء والقادة أن لا يخلطوا بين الأمرين، لأنَّ التفريق بينهما أمرٌ مهمٌ في حياة البشر وحياة المؤمنين، وخاصة حين انتشار الفتن، وازدياد المنافقين، وكثرة الشُّبهات، فإنَّ اتخاذ الأولياء والأصفياء من غير الأكفاء في رُسُوخِهِمْ في العِلْمِ والمواقف يعود بالضرر الشديد.

والمسألة الثانية في هذه الآية أنها تُبيِّن أنَّ الحُكْمَ في الظاهر لا يُسْقِطُ حقَّ الباطن إنْ كان على خلافه، فإنَّ قضاء القاضي لا يُسْقِطُ الحقَّ الدِّيني، لأنَّ القاضي بما يظهر له مِنَ البَيِّناتِ والدلائلِ والقَرَائنِ، وقد تخطئ هذه كما قال رسول الله ﷺ: «**وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ**»[1]، فإنْ وقعَ هذا لا يحلل المال إنْ كانتِ الخصومة عليه، ولا الفروج ولا الحقوق، فهذا رسول الله ﷺ أَذِنَ لَهُمْ وَأَعْذَر، ولكنَّ اللهَ عَلِمَ كذبهم فلمْ يُسْقِطْ عنهمُ المُؤاخذةَ والعِقَابِ، وبقي عليهم الوصف الذي يلزمهم في باطنِ الأمر الذي يعلمه الله تعالى، فلا يظن المرء أنَّ قضاء القاضي وَحُكْمَ الحَاكِمِ وَمَدْحَ المَادِحِ وإعْذَارَ المُعْذِرِ تُغَيِّرُ مِنَ الحَقِّ الذي يعلمه الله شيئاً، وكذلك ما يعلمه المرء من نفسه، والمرء إنْ فرحَ بما يحكمُ له، ولكن الله تعالى يقول الحقَّ، ويحكمُ به، وهو عليمٌ بذات الصدور.

لكن هذه الآية لا يحتج بها على كشف أسرار النَّاس الباطنة التي هي من شؤون أنفسهم في حياتهم وبيتهم، بل لا يكشف عن أموالهم الباطنة كالذهب والفضة في الزكاة، إنما يكشفُ عن الأحوال الظاهرة كالزروع والثمار والإبل والبقر والغنم، وهذه هي سيرة المسلمين في هذا، ولذلك كان من حكم الصدِّيق ﷺ: «أنه مَن تتبع عورات النَّاس أفسدهم» بلِ الواجب في هذه الأُمور السِتْر إنْ عَلِمَ المرء منها شيئاً كالقاذورات الذاتية من زنا وشربِ خمر، فمثل هذه الأمور لا يجوز لأحدٍ أن يتجسس على غيره ليفضحه سواء كان حاكماً أو محكوماً، قاضياً أو غير قاضي، ولذلك كان النَّبيّ ﷺ ينهى

[1] عن زينب عن أم سلمة رضي الله عنهن أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ** - أي أَلْسَنُ وَأَفْصَحُ وَأَبْيَنُ كلاماً وأقْدَرُ على الحُجَّة.-، **فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بَحقِّ أَخِيهِ شَيْئاً بَقَوْلِهِ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، فَلاَ يَأْخُذْهَا**». البخاري في «كتاب الشهادات» باب من أقامَ البَيِّنةَ بعدَ اليمين. وقال النَّبيّ ﷺ: «**لَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَتِهِ مِنْ بَعْضٍ**» وقال طاوُسٌ وإبراهيمُ وشُرَيحٌ: البِيِّنَةُ العادلةُ أحقُّ منَ اليمينِ الفاجرة. حديث رقم: ٢٦٨٠، مسلم في «كتاب الأقضية» باب الحُكْمِ بالظَّاهِرِ واللَّحْنِ بالحُجَّةِ. وهذا نصه: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً، فَلاَ يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ بِهِ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ**» حديث رقم: ١٧١٣.

أصحابه أن يحملوا له أخباراً لا يحبها منهم ويقول: «**فإنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدّرِ**»[1] وينهى عن تتبعُ العورات وكشفِ السُتور والله يقول: ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾[2]. وهذه في سورة «الحجرات»، وهي سورة تُرسي قواعد الحياة الاجتماعيَّة في داخل المجتمع المؤمن.

لكن السؤال ماذا يُفِيدَ القائدَ أنْ لا يأذن لهذا النوع مِنَ الخَلْقِ في داخل المجتمع المؤمن؟ لأنَّ البعض سيقول: إنَّ من صفات القائد الناجع التغابي، وهي صفة حث عليها السلف، فإنْ أدركَ أقرانه أنه يعلمُ دخائلهم وحقائق نفوسهم وبواطنَ ما يخفون ينشأ بغضهم له، ويُورث بينهما العداوة والتنافر، فيُقال:ـ

إنَّ صفة التغابي، ومعناها إدعاء الذكي البصير عدم العِلْمِ بالآخر، فكأنه غبيٌّ وليس كذلك، صفة ممدوحة بين الإخوان والأصحاب والأصدقاء، أو بين مَن تخاف عداوته أنْ تضر بك وتفسد عليك شأنك، والأمر ليس كذلك هنا، فإنَّ الله تعالى قد قمع المنافقين في آخر الأمر، وصاروا إلى ستر أمورهم لما هددهم الله بقوله: ﴿ ۞ **لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾** ﴾[3]، ولم يكنْ هذا الحُكم في أول الأمر، بل كان النَّبيّ ﷺ يعفُو عنهم فإذا طلب أحد أصحابه منه قَتْلَ أحدهم أعرض عنه وقال: «**لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[4]، ولذلك قال عن زعيم المنافقين ابن أُبي: «**أَما وَاللهِ قَتَلْتُهُ يَوْمَ أَمَرْتَنِي بِقَتْلِهِ لأَرْعَدَتْ لَهُ آنُفٌ**»[5]، لكن أمرهم في زمن تبوك في هوان وليس لهم شأن، فلو كشفهم بأن لا يأذن لهم، فيتخلفون على وجهٍ صريحٍ من الإعراضِ عَنْ أَمْرِ الرسول ﷺ لكانَ في ذلك خِزْيٌ لهم، ولَكانَ للرسول ﷺ أنْ يُعاقبهم، لكنْ كَانَ مَا كَانَ مِنْ أعذارهم فاطمأنت نفوسهم وسكنت، ومثل هؤلاء في مثل هذا الحال يكون كشفهم وفضحهم ولحوق الخِزي بهم مصلحة عُظمى للإسلام وأهله، ولكن هذا لا يكون في كلِّ حالٍ، فإنَّ هناك مِنَ الأحوال التي يضطر فيها المؤمنون الإعراض عن هؤلاء، والسكوت عنهم، وعدم مجابهتهم حتَّى لا تكثر عليهم الشرور، وتتكالب عليهم الأعداء كما قال تعالى في سورة «النساء» عن بعضهم: ﴿ **إِلَّا**

---

[1] عن عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنهما، قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**لا يُبْلِغْنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابي عَنْ أَحَدٍ شَيْئاً فإنِّي أُحِبُّ أنْ أخْرُجَ إلَيْكُم وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدّرِ**» أخرجه أحمد في «المسند» حديث رقم: ٣٧٥٩، وأبو داود في «سننه» باب في رفع الحديث من المجلس. حديث رقم: ٤٨٥٦، والترمذي في «سننه» باب فضل أزواج النَّبيّ ﷺ. حديث رقم: ٤٠٦٣، والبيهقي في «السنن الكبرى» باب ما على السلطان من منع النَّاس من النميمة. حديث رقم: ١٧٠١٠. وغيرهم.

[2] سورة الحجرات، الآية: ١٢.

[3] سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٠ـ٦١.

[4] البخاري في «كتاب المناقب» باب ما ينهى من دَعَوى الجاهليةِ. حديث رقم: ٣٥١٨، ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب نَصْرِ الأخِ ظالماً أو مظلوماً. حديث رقم: ٢٥٨٤.

[5] ذكره ابن جرير في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد الرابع عشر، الجزء الثامن والعشرون الصفحة ١١٦. كما ذكره أهل التفسير والسير، ولم أقف على من خرجه من أصحاب الحديث في الكتب التي رجعت إليها مع كثرتها.

﴿ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴿٩٠﴾﴾[1]، فلكلِّ حالٍ ما يُوجِبُ مِنْ حِكْمَةِ الاختيارِ في الأحكامِ الشرعيَّة، لأنَّ بعضَ الأحوالِ يكون تحييد النَّاس عنك، وابتعادهم عن إظهار مُعَادَاتِك خيرٌ مِنْ أنْ يُظْهِرُوا عداوتَهُمْ فيلحقونَ بمَنْ يحُارِبُك.

ولذلك فهؤلاء قِلَّةٌ في داخل المدينة النَّبويَّة، ولم يكنْ لهم أيّ أثرٍ، وقد صار نِفاقهم إلى الجبن والخوف والكسل، وأما عامة أهل المدينة من الأنصار فقد تبوءوا الدَّار والإيمان.

ثمَّ يُقَال: إنَّ هذا العِتاب الرقيق يدل على أنَّ الأمر بين حَسَنٍ وَأَحْسَنٍ، أو بين جَائِزٍ وَأَفْضَلٍ، لا بين محْظُورٍ وَجَائِزٍ، وَلِتَعْلَمَ هذا المعنى قَارِنْ هذا العِتَابَ بما وقع له ﷺ ولصاحبه الصِّدِّيق مِنْ أَمْرِ أَسَارَى بَدْرٍ كما في سورة «الأنفال» في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾[2].

وهناك سؤالٌ آخرٌ: لو أنَّ رسول الله ﷺ حقق أقوالهم، ثم لم يأذن للقادرين، فإنَّ حالهم إلى أمريْنِ؛ إما المعصية الصريحة الظاهرة بعدم النَّفير، وإما النَّفير مع الكراهة، والثاني هو الأقرب، فكيف يُدفع مثل هؤلاء إلى الغزو مع رسول الله ﷺ والله يقول فيهم: ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[3].

فيُقَال:ـ

إنَّ الكثير من هؤلاء ضِعَافٌ في نفوسهم، وخَوَارِينَ، وكُسَالَى، فإنَّ الإذنَ لهم يكون تقوية لهذا الضُعْفِ وَالخَوَرِ وَالكَسَلِ، فيجلسون عن النَّفير، ولو وقع بأن لم يُعْطَوْا الإذن فإنهم سينشطون مع كراهة، وعمل الطاعات مع الكراهة في النُّفوس مطلوبٌ شرعاً كما قال رسول الله ﷺ لِرجلٍ أعلمه بكراهته الإسلام فقال له: « **أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًا**»[4]، هناك فرقٌ بين هذا النوع من الكراهة وبين الكراهة التي قالها الله تعالى عن المنافقين في قوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾[5]، فهناك قومٌ ـ وهو أمرٌ عامٌ في المسلمين ـ أنْ يجاهدوا أنفسهم على الطاعات مع كراهة نفوسهم لها، لأنَّ النَّفس أَمَّارَةٌ بالسُّوءِ وداعِيَةُ هَوَى، فهذه كراهته لا تضر الفِعْلَ ولا قَبُولَه، ولكن مَن يكره الدِّين على وجه مخالفة ما تدين نفسه به من الباطل فهذه كراهة المنافقين والكافرين، فهؤلاء إنْ قاموا بالعمل إنما

1 سورة النساء، الآية: ٩٠.
2 سورة الأنفال، الآيتان: ٦٧ـ٦٨.
3 سورة التوبة، الآية: ٤٧.
4 أحمد في «المسند» عن أنس رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لرجلٍ: «**أَسْلِمْ**» قال: أَجِدُنِي كَارِهاً، قال: «**أَسْلِمْ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهاً**» حديث رقم: ١٢٠٠٠ و ١٢٨٠٣.
5 سورة التوبة، الآية: ٥٤.

يقومون بالأعمال من أجل إرضاء الله والدَّار الآخرة والخوف من النَّار، وهم يجاهدون أنفسهم وما تحبُّ بما تكره من الأعمال كما يجاهدون الكفار والله يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾[1]، مع دينهم الذي يَدِينُونَ به أنَّ ما تكرهه نفوسهم هو الحقّ، وسعيهم الدءوب أن يصبحَ ما تكرهه نفوسهم حبيبٌ لها.

فالقصد أنَّ بعض هؤلاء ممن يستأذن، إنما يستأذن على وجه مُتابعة هوى النَّفس، فلو ضُيِّقَ عليه فنفر مع أهل الإيمان لَكانَ له أجْرٌ، وربما بطاعته هذا يكون أمره إلى خيرٍ، وفي هذه المسألة فقهٌ لقادة الجهاد يصلح في بعض الأحوال لا كلِّها، وهي قذفُ النَّاس إلى معارك لا يحبونها ولا يرغبون بها، ولكن يعلم هؤلاء القادة أنَّ هؤلاء فيهم خيرٌ ودينٌ، لكنهم إما لجهلٍ أو كسلٍ يرغبون عن هذه الطاعات، فإنْ وجدوا أنفسهم في وسطها قاموا بها خيرَ قِيَامٍ، وعلى أَحْسَنِ وَجْهٍ، فللعلماء والقادة أنْ يُلْقُوا بهؤلاء كارهين وسط هذه المعامع والطاعات، لكن هذا يحتاج إلى وعيٍ شديدٍ، وإدراكٍ للخطورةِ، فإنَّ مجردَ خطأٍ في تقدير رداتِ فِعْلِ هؤلاء يُؤَدِي إلى عَكْسِ المَطْلُوبِ فتكونَ الفاجِعَة، ولكن مثل هذا الأمر له وجهٌ لأهل السياسة والحِكمة والتقدير، فإنَّ الأصلَ هو أن لا يسير معك إلاَّ مَن كان على بصرٍ، لأنَّ الطريق طويلٌ وشاقٌ، والفتن فيه كثيرة، والثمن الذي يدفعه أهله شديدٌ وباهظٌ، ولو تأملتَ قصة غزوة بدر لَرأيتَ فيها هذا المعنى إذ أقام الله الأنصار خاصة في هذا المقام، فوقفوا أمام جيش قريش على غير رغبة منهم: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[2]، ولكن لإيمانهم، وقوة يقينهم كانوا أهلاً لهذا الامتحان، لكن لا يُقال أبداً عن جُنْدِ النَّبيِّ ﷺ في بدرٍ أنهم أهل كسلٍ وضعفٍ فَرُمُوا في مثل هذه الحالة، ومَن قال هذا فيهم فهو كاذبٌ ضالٌ، لكني أردتُ أنْ أُنَبهَ إلى هذا الموقف مِنْ حَمْلِ النَّاسِ على أَمْرٍ لِيَحْصُلَ لهمْ فيه الخير، له وَجْهٌ مِنْ فِعْلِ النَّبيِّ ﷺ، مع اختلاف بعض وُجوه المُشابهة بين الصور والحالات المعروضة.

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[3].

يُقرِرُ القُرْآنَ هُنَا أَنَّ الاعتذار عَنِ الجِهَادِ وَالقُعُودِ وَعَدَمَ النَّفِيرِ وَعَدَمَ إِنْفَاقِ الأَمْوَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى يَعْنِي خُلُوَ قَلْبِ صَاحِبِهِ مِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ، وَدَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ الرَّيْبِ ـ وَهُوَ شَكٌ مِنْ جِهَةِ العِلْمِ وَضُعْفٌ مِنْ جِهَةِ عَمَلِ القَلْبِ وَيَقِينِهِ، فَالرَّيْب يَكُونُ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ ـ ، وَهَذَا مِعْيَارٌ رَبَّانِيٌّ فِي حَقِيقَةِ الإِيمَانِ أَوْ عَدَمِ حَقِيقَتِهِ، لأَنَّ الدَعَاوَى كَثِيرَةٌ، لَكِنَّ الأَدِلَةَ تُصَدِّقُ هَذِهِ الدَعَاوَى أَوْ

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٧.

[3] سورة التوبة، الآيتان: ٤٤ـ٤٥.

تُكَذِّبهَا، وَالَّذِينَ يحْرِصُونَ عَلَى إِرْضَاءِ اللهِ وَبُلُوغ الجَنَّةِ فَإِنَّهُمْ يَسْعَوْنَ لإِثْبَاتِ هَذَا الإِيمَان في قُلُوبِهِمْ وَتَقْوِيتِهِ عَنْ طَرِيقِ هَذَا السَّبِيلِ العَظِيمِ، أي الجِهَادَ بِالمَالِ وَالنَّفْسِ.

في هذه كشفٌ داخليٌّ للنُّفوسِ، ولم يذكر فيها ربُّنا سبحانه أيَّ موقفٍ عمليٍّ تجاههم، لكن ستأتي هذه المواقف التي أمر الله بها رسوله والمؤمنين أن يفعلوها معهم، وكلّها لِغياب هذه الحقيقة، وهي خُلو القلوب من الإيمان بالدَّار الآخرة، وريبها في لقاء الله تعالى، وهي مواقف ستبين للمؤمنين أنَّ معيار المسلم في تعامله مع الخَلق في هذه الدُّنيا معلَّقٌ بإيمانِ المرءِ بالدَّار الآخرة أو عدمِ إيمانه، وهذا يثبت أنَّ المسلم عبدٌ لله، يحبُّ ما يحبُّ الله، ويُبْغِضُ مَا يُبْغِضُ الله، فيُسَالِمْ على حقوق الله والدَّار الآخرة، ويُعَادِي على هذه الحقوق، وليس كما يُريده أهل هذا العصر مِنْ أَنْ يجعلوا كلَّ حركات المسلمين في جهادهم وسِلْمِهِمْ له تعلَّقٌ بحقوقهم هم في هذه الدُّنيا، وحين يُصبحُ المسلم كذلك فلا يكون بينه وبين غيره من الكفار أي فرقٍ في مُوجباتِ جهاده وسِلْمِهِ، وحُبِّهِ وَبُغْضِهِ.

إنَّ الإيمان بالدَّار الآخرة هو باعث الهمم، ومُقَوِي القلوب، ومُثبت الإرادات والعزائم، ومُديم المسير نحو مقاصد الإسلام دون تبديلٍ أو تغيِّيرٍ، لأنَّ نداء الآخرة يعني الاستقامة على أمر الله تعالى حتَّى يأتيَ اليقين، إذ قبله لن يأتي أحد ضمان بالرضوان وبلوغ الجنان، فإن جاء اليقين جاء المؤمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[1]، وأما الكافر فيقول الله فيه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

إنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى من أعظم الطاعات، ومِن أشقها على النُّفوس، ولعظمته فإنه يحتاج إلى وقود عظيم يُلائِمُهُ، وهذا الوقود هو الإيمان بالله واليوم الآخر، فإنْ وُجِدَ الإيمان بالدَّار الآخرة هانت نفس المرء عليه، وهانت عليه دُنياه، فأقبل على الجهاد الذي فيه الشَّهادة في سبيل الله، وفيه إنفاق الأموال، ومُفارقة الأهل والإخوان، أما من غير هذا الوقود فإنَّ الإرادات تخمل، والقلوب تموت، والعقول تفسد، والفقه يصبح مطية لذلك كلِّه، فيبدأ تأويل كتاب الله على غير وجهه، وحمل سنَّة رسول الله ﷺ على غير مُراد صاحبها، ويبدأ تبرير القعود، وإسباغ الشرعيَّة على الكسل المُوصِل للمهانة والذل والخزي لأهل الإسلام، ولذلك فالتنقيب عن سبب فساد الآراء، وضلال الفتاوى إنما يبدأ من ههنا، أي من عظمة الإيمان بالدَّار الآخرة في القلوب أو ضُعفه، وحال المرء وزُهده وطاعته تكشفُ عن ذلك، وتُعري المرء أمام نفسه والآخرين.

---

[1] سورة فصلت، الآيات: ٣٠-٣٢.

[2] سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩-١٠٠.

هذه الآية العظيمة تكشفُ وتُجيبُ عن سبب ذل الأُمَّةِ، وذل قيادتها، وسبب هوانها حين تتوقف إرادتها عنِ المعالي، وحين تنتكسُ إلى داخلها وهي توقِفُ حركتها نحو الآخرين غزواً ونفيراً وجهاداً في سبيل الله تعالى، بأنَّ سبب ذلك غياب الإيمان بالدَّار الآخرة، ولذلك فمن هنا يبدأُ البناء، ومن هنا تستقيمُ الحياة، ومن هنا يبدأُ تجديد الإسلام؛ فقهاً وفكراً ووعيّاً وإرادةً، وهذا البناء لا يكون بالوعظ فقط ولكن بتجلية الأعمال التي ليس لها تعلقٌ إلاَّ بهذا المعنى، حتَّى وهي تُعارض مصالح الإنسان في الدُّنيا، وتقضي على شهواته ورغباته الحاضرة كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾[1]، أما حين يتحول الخطاب الدِّيني كما هو الشأن في زماننا وعلى لسان أغلب الفقهاء والوعاظ والمصلحين إلى إصلاح الحياة الدُّنيا بما يستقيمُ لهذا الخطاب من أحكام فقهية، ويكون الحديث عن الدَّار الآخرة تبعٌ لهذا الأصل فإنَّ هذا من أسباب خذلان إرادات المسلمين حين يستدعون إلى الطاعات التي فيها البلاء والمحنَّة فلا يُقْبِلُونَ، لأنهم فهموا أنَّ الدِّين هو ما يحقق لهمُ الراحة في هذه الحياة، على معاني تُغَيِّبُ الدَّار الآخرة.

إنَّ إعادة المسلمين إلى دينهم، وإلى تجديد إراداتهم لتحقيق أهداف الإسلام إنما يبدأ بإعادة كلِّ مسلمٍ إلى وَعْيِّهِ أنه عبدٌ لله، يسعى لتحقيقِ رِضَاه ودخول الجِنَّان، بِغَضِ النَّظَرِ عما يَلْقَاهُ في هذه الحياة الدُّنيا، بل عليه أنْ يعلمَ أنَّ تحقيق العبوديَّة لله، وتقوية اليقين على الدَّار الآخرة لا يمرُّ إلاَّ عبر ابتلائه وجهاده وامتحانه، وهذا ما تحققَ لأصحاب رسول الله ﷺ، فهذه بوابة فقههم لهذا الدِّين، لا كما يفعلُ النَّاس اليوم بأنْ يلِجُوا الإسلام من باب تحقيق مقاصدهم الدنيويَّة، فالداخل من هذا الباب لا يصمد أمام الاختبارات، ولا يرضى بفقه السلف، ولا يُقْبِل على الشريعة وأعمالها التي تُسَبِبُ له المحن والابتلاءات، وسيكون إلقاء سمعه مُتَوَجِهاً إلى الفقيه الذي يُقدم له فقه التحلل من المشقة التي تعطل عليه شهوته، وسيرفضُ أيَّ عملٍ فيه إرضاء الله تعالى على وجهٍ خالصٍ لمصالح الدِّين إن كان فيه إفسادٌ لدنياه، وهذا هو الحال اليوم في مقدار وعيِّ المسلمين على دينهم وعلى ما يُسمُّونه روح الدِّين ومعانيه.

لقد دخل الصَّحابة من باب الآخرة، وتربوا عليها من خلال الابتلاء، ومن خلال ضَيَّاع دنياهم، لكن مسلم اليوم يفهم أنَّ أيَّ عملٍ يحقق له الابتلاء وضَيَّاع مصالحه الدنيويَّة لا يكون ديناً، لأنَّ معياره في التقيِّيم ليس هو معيار الدار الآخرة وخلوصها، فحين يثبت هذا المعيار في قلبِ المؤمن وهو تحقيق العبوديَّة لله وأنَّ المصالح المُعتبرة والمقدمة هي مصلحة الآخرة، فإنَّ أمر فقه المسلم ووعيه يستقيم، ويكون تحصيل السعادة في الدُّنيا بعد ذلك تبعٌ لهذا الأصل.

لقد انقلبتِ الصورة عند البعض، واختلطتْ عند آخرين، فالذين انقلبتْ عندهم صار أمر مصالح الدُّنيا هو المُقدم والآخرة تبعٌ لذلك، أي أنَّ الدِّين وأمر الله جاء لهذا الأمر، وأما الذين اختلطتْ

[1] سورة القصص، الآية: ٦١.

لديهم الصورة وهم أكثر مَنْ يُقَالُ لهم تِيَّار التدين، فهم يرون توازي هاتين المصلحتين، ويخُضِعُون الفقه لما يُشاهدون آنياً من مصالح الدُّنيا، وأما فقه القرآن والصَّحابة فهو يعلق الشريعة وما جاء به الرسول ﷺ على تحقيق الدَّار الآخرة حتَّى لو فسدتْ دُنيا النَّاس، وهي قد تفسد آنياً ثم يستقيمُ أمرها على ما يحب الله ورسوله والمؤمنون، لا ما يحب أهل الأهواء والدُّنيا.

قد يظنُّ البعض أنَّ هذا الأمر لا تَعَلُّقَ له بالفقه والاجتهاد والأحكام الشرعيَّة، فيقصرونه على الوعظ والإرشاد والنُّصح العام، وهذا خطأ، فإنَّ نوازل المسلمين اليوم من قضايا عظيمة تتعلَّقُ بأمورهم العامة، وأخرى ترتبطُ باختيارات المسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسائل السلوك الفردي إنما يُفْتَى فيها اليوم مِنْ قِبَلِ المُفتين على جهة مصالح الدُّنيا فقط دون اعتبار للآخرة، فعامة أهل النُّصح اليوم لا يرضون من مسلمٍ أنْ يَأْمُرَ بمعْرُوفٍ وَيَنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ يكون عاقبته القتل أو السجن، بل ولا حتَّى ضياع الوظيفة، وما كان السلف يموتون من أجله، ويفتون المسلمين بذلك، صار فقهاء اليوم يختارون غيره تحت زعم الحِكمة، أو عدم ترتب الضرر على فاعله، حتَّى صار هذا شرطاً كامناً في نفوس المُفتين إنْ سُئِلُوا عَنْ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، فلو قامَ رجلٌ مؤمنٌ لغِيرَتِهِ الدِّينية، وشدَّة حبِّهِ لله ولرسوله ﷺ قَتَلَ سَابَّ اللهِ أَوْ سَابَّ الرَّسُولِ ﷺ ثُمَّ سُجِنَ هذا القَاتِلَ أَوْ قُتِلَ لأَنْكَرَ عليه المُفْتُونَ ذَلِكَ، تحت بابِ الحكمة في الدعوة، أو عدم جواز إلقاء النَّفس بالتهلكة كما يزعمون، بل لو سُئِلَ الكثير منهم عَمَنْ قُتِلَ في سبيلِ عِرْضِهِ لَوَجَدْتَ مِنَ المُفْتِينَ مَنْ يُنْكِرُ عليه ذلك، ولَدَلَّهُ على طريقِ الذُلِّ من الالتجاء لشرطة بلده، أو الشكوى إلى محاكم الكُفر فيها.

لقد صار معنى الحكمة في نفوسهم اليوم أنْ لا يلحقك ضررٌ في جهادك، وأمركَ بالمعروف ونهيكَ عنِ المُنكر، فإنْ لحقكَ ضررٌ في فِعْلٍ ذلك كان دليلاً على أنَّ فِعْلَكَ لم يَكُنْ حكيماً، بل إنَّ كثيراً منهم يطلبُ منك أن لا تفرغ لأمرِ الدِّين حتَّى تضمن لنفسك الدُّنيا على أحسنِ ما يحب أهلها، حتَّى الجهاد في سبيل الله لا يكون إلاَّ بهذا الوجه عندهم، وأما جهاد رسول الله ﷺ فألْقِ سَمْعَكَ لما يقول خال الحبيب محمد ﷺ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ: «إِنِّي لأَوَّلُ الْعَرَبِ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَقَدْ كُنَّا نَغْزُو مَعَ رَسُولِ اللهِ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الْحُبْلَةِ، وَهذَا السَّمُرُ حتَّى إِنْ كَانَ أَحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ مَا لَهُ خلْطٌ»[1] أي يخرج منهم كما يخرج من الشَّاة، غير متماسك لجفافه ويبسه، أما «الحُبلة»: بضم الحاء المهملة وإسكان الباء المُوحدة. فهي ثمر العضاة يكون في الفُلاة، و«السمر»: بفتح السين المهملة وضم الميم: كلاهما من شجر البادية يكون للإبل.

ولذلك لو عرض على أحدهم فِعْلَ أبي ذر ﷺ لما أسلم لُعابه، ولَرآه على غير وجه الحكمة التي يفهمها ويفقهها، فإنَّ أبا ذر لما أسلم قال له النَّبيّ ﷺ: «**ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حتَّى يَأْتِيَكَ**

[1] البخاري في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب مناقب سعد بن أبي وقاص الزُهري وبنو زُهرة أخوال النَّبيِّ ﷺ، وهو سعد بن مالك. حديث رقم: ٣٧٢٨، وكذلك أورده في «كتاب الرقائق» باب كيف كان عيش النَّبيِّ ﷺ وأصحابه، وتخليهم من الدُّنيا. حديث رقم: ٦٤٥٣، ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» حديث رقم: ٢٩٦٦.

أَمْرِي»، فقال أبو ذر: وَالَّذِي نَفْسِي بَيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ، فَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ثُمَّ قَامَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّى أَضْجَعُوهُ وَأَتَى الْعَبَّاسُ، فَأَكَبَّ عَلَيْهِ قَالَ: وَيْلَكُمْ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ، وَأَنَّ طَرِيقَ تِجَارِكُمْ إِلَى الشَّامِ فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ لِمِثْلِهَا، فَضَرَبُوهُ، وثَارُوا إِلَيْهِ، فَأَكَبَّ الْعَبَّاسُ عَلَيْهِ.[1].

يقولُ لي أحدهم: يا هذا إنَّ الإسلام لا يقوم على البلاد الفقيرة، ولا القوم الفُقراء، يعيبُ عليَّ أني أُؤَيدُ المجاهدين في بلادٍ لَمْ تُبْنَ فيها مساكنهم من الزجاج، ولا يعرفون أرقام البُورصات، ولا يملكون أَسْهُماً فيها، فهل مثل هذا يعرفُ فقه هذا الدِّين؟ مع أنه قائدٌ مِنْ قُوَادِ ما يُقَالُ لها الحركة الإسلامية؟.

هل قرأ هذا حياة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ﷺ؟.

هل سَمِعَ هذا وأمثاله، وهم كثيرٌ، قول جابر ﷺ في الخندق: «وَلَبِثْنَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لاَ نَذُوقُ ذَوَاقاً»؟![2].

وهل قرأ هذا خبر أمير المؤمنين في الحديث عن أبي هريرة ﷺ وهو يقول: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي وإِنِّي لأَخِرُّ فِيما بَيْنَ مَنْبَرِ رسولِ الله ﷺ إلى حُجْرَةِ عائِشَةَ مَغْشِيّاً عَلَيَّ فَيَجِيءُ الجائِي، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلى عُنُقِي ويُرى أَنِّي مَجْنُونٌ وما بِي مِنْ جُنُونٍ، ما بي إلاَّ الجُوعُ»؟![3].

نعم هذا الدِّين يقوم على الفقراء ـ حقّاً لا مجازاً ـ لكنهم يُؤمنون بالدَّار الآخرة، وهم على أتم الاستعداد أن يبذلوا كلَّ شيءٍ من نفوسهم وأموالهم في سبيلها؟.

مثل هذا القائد وجُنده[4] معه ليس من فقههم أن يجوعوا ويحاصروا من أجل مسلم يلجأ إليهم[5]، فيحمونه من أعدائه، فكيف يموتون من أجل ذلك وهم يخافون أن يقولوا فيه كلمة خيرٍ حتَّى لا تؤذي هذه الكلمة مؤسساتهم ومصالحهم الدُّنيويَّة؟.

فقه الدَّار الآخرة يعني مدح من ماتَ في سبيل الحقِّ، وفضلِ مَن أُوذي في سبيل القيم، وعظيمِ منزلة مَن خَسِرَ ماله وراحته من أجل الدفاع عن دين الله تعالى وعِرضه، أما أمثال هؤلاء الذين يذمون المجاهدين بأنهمُ الفقراء والعاطلين عن عمل الدُّنيا وكسب التجارات فهؤلاء يذمون ما يمدحه الله لو كانوا يعلمون.

---

[1] البخاري في «كتاب مناقب الأنصار» باب قصة إسلام أبي ذر الغِفاري ﷺ. حديث رقم: ٣٥٢٢، ومسلم في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب من فضائل أبي ذر ﷺ. حديث رقم: ٢٤٧٤.

[2] البخاري في «كتاب المغازي» باب غزوة الخندق وهي الأحزاب. حديث رقم: ٤١٠١.

[3] البخاري في «كتاب التوحيد» باب ما ذكر النبيُّ ﷺ وحَضَّ على اتفاقِ أهل العلم، وما اجتمعَ عليه الحَرَمانِ مكةُ والمدينة وما كان بهما من مشاهد النَّبيِّ ﷺ والمهاجِرينَ والأنصارِ ومُصلَّى النَّبيِّ ﷺ والمنبر والقبر. حديث رقم: ٧٣٢٤.

[4] المعني هنا هو أمير المؤمنين الملا محمد عمر وجنده، حفظهم الله تعالى، ونصرهم على الأعداء.

[5] هو الشيخ المجاهد قاهر الصليبيين أبي عبد الله أسامة بن لادن رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، وأعان خليفته على إكمال مهمته على الوجه الذي يُرضي الله، ويحقق للأمة مبتغاها.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

لقد عَلِمَ الله ما في قلوب الذين يستأذنون بعدمِ النَّفير، فهي خالية من الإيمان بالدَّار الآخرة، وعلى المؤمنين أن يعلموا هذا، فإنَّ إيمان الباطن يتجلى في سلوك الظاهر ضرورةً إلاَّ ما كان تحت الإكراه، أما الزعم أنَّ المرءَ يمكن أن يكونَ مؤمناً باطنه، مؤمناً بالدَّار الآخرة وهو لا ينفرُ للجهاد فهذا زعمٌ باطلٌ، لا يقبله الله، وعلى المؤمنين أن يجعلوه مِعْيَاراً لهم في فَهْمِ قلوب النَّاس، فإنَّ القلوبَ وإنْ كانت في حقيقتها خفية عن عيوب الآخرين إلاَّ أنه يمْكِنُ للنَّاس أنْ يعرفوا ما فيها من خلال سلوك أصحابها، ومواقفها عندما يدعو داعي الإيمان للطاعات.

وها هنا قد تجلى كيف أنَّ الإيمان بالدَّار الآخرة يصنعُ مؤمناً فاعلاً، عصياً عن الخوف من الشيطان وجُنده، قوياً في انطلاقته نحو الآخرين، فالإيمان بالدَّار الآخرة ليس تصورياً في الباطن فقط، لكنه فِعْلٌ عَمَلِيٌّ، وطاقة تغيِّير، وترفع عن الكسل والعجز والجبن، فهذه قيمة الإيمان في صورته الواضحة التي تخاطب الإنسان في كلِّ مستوياته، فيفقهها العالم والعامي، والصغير والكبير، فيصبح الجميع في وادٍ واحدٍ مِنَ الفِعْلِ والحركةِ والتغيِّير، أما الذين يُعَلِّقُونَ التغيِّير والإصلاح على نخبةٍ مِنَ النَّاس لهم خطابٌ خاصٌ يَسْتَعْصِي على عَوَامِ المسلمين ككلامِ المُتكلمين والفلاسفة، ويرطنون بألفاظ لا يستوعبها إلاَّ هم والخاصة من النَّاس، ويظنون أنَّ شرط الإصلاح هو حصول وعيٍّ المسلمين على هذه المُصطلحات أو الأفكار الخاصة هم واهمون، بل هم يحرثون في الوهم، ولن يبلغوا مُرادهم، ولو عادوا إلى القرآن، وإلى أسلوبه، ومعانيه، لَوجدوا قيمة هذه المعاني الإيمانية، وسهولة فَهْمِ النَّاس جميعاً لها، ولَوجدوا كذلك قوة فاعلية هذه المعاني والأوامر القرآنيَّة.

الإيمان بالدَّار الآخرة ركنٌ من أركان الإيمان في الإسلام، لا يصح إسلام المرء إلاَّ به، ولذلك فهو تكليفٌ لكلِّ أحدٍ، عَامِيهِمْ وَعَالِمِهِمْ، وهو بيِّنٌ وَاضِحٌ في معانيه، وفيه قوة الفاعليَّة في الإنسان ما يحقق التغيِّير في أسهل الطُرق وأَنْجَعِهَا، ولكن بشرط أن يعود ربطه بالحياة، وبالفقه، وبمقاصد الإسلام العُظمى، وجعله مصلحة أولى لا يُقدم عليها شيء من مصالح الإنسان الأُخرى البدنيَّة والمالية والدنيويَّة، أما أن يتحول الحديث عنه إلى مجرد معرفة وِجدانية، أو معلومات تصوريَّة عقليَّة، وحين تأتي مسائل الفقه، وقضايا الحياة فإنه يغيبُ تحت شهوات النَّاس والمُفتين، أو يُؤَخَرْ لتقدم المصالح الدنيويَّة فإنَّ هذا يُفْقِدُ الإيمان بالدَّار الآخرة معناه الحقيقي وأثره في حياة البشر والشعوب.

لقد ربطَ الله التقوى ههنا مع الإيمان بالدَّار الآخرة، فالتقوى فِعْلٌ واختيارٌ، والإيمان بالدَّار الآخرة تصديقٌ لخبر الله تعالى، وهذه طريقة القرآن في جعلِ الشيءِ وأثره أمراً واحداً، يُسمي كلَّ واحدٍ باسم الآخر لأنَّ هذا هو واقع الحياة، وواقع المعاني الفاعلة كذلك، فالمُتقون همُ المؤمنون بالله والدَّار الآخرة، والمؤمنون بالله والدَّار الآخرة همُ المُتقون.

أما الذين يستأذنون بتركِ الجهاد والنَّفير وقد تَعَيَّنَ عليهم فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ومَنْ حَكَمَ عليهم فما أخطأ فهذا حُكْم الله تعالى، فهو العليم بالتقوى ومعانيها، وحُكْم القرآنِ هو حُكْم الحقِّ، وسيُنازع أهل الأهواء في ذلك بقولهم: «كيف تحكمون على القلوب وما أخفت؟ ومن أعطاكم هذا الحقّ بأن تجعلوا هذا مؤمناً بالله والدَّار الآخرة وآخر كافرٌ بهما؟».

فالجواب: هذا حُكْمُ القرآن، وهذا مِنْ هَدْيِهِ، فالقرآن ليس كتاب إرشادٍ للمرءِ في خاصة نفسه فقط، لكنه إرشادٌ للمرءِ في معرفة حالِ الآخرين، وهو كتابُ أحكامٍ ليعلمها المؤمن في نفسه وفي الآخرين، فيرضى ما يرضاه، ويحب ما يحبه، ويبغض مَن يبغضه، ومَن عَمِلَ عملاً وكان حُكم القرآن فيه أنه غير مؤمنٍ بالله واليوم الآخر فهو دين يدين به المرء المؤمن فيه وفي أمثاله، وهذا الحُكم يترتب عليه أمورٌ يعرفها أهل العلم والدِّين.

ومما يجب العلم به أنَّ نَفْيَ الإيمانِ في الكتاب والسنَّة إنما يعني نفي الإيمان الواجب الذي يترتب عليه الوعيد، ولكن الحُكم عليه بنفي أصل الإيمان أي بالكفر فهذا ليس من لوازم هذا اللفظ، لا في الكتاب الكريم ولا في السنَّة النَّبويَّة، لأنَّ القرآنَ عندما حَكَمَ عليهم بهذا لم يُعاملهم رسول الله ﷺ وأصحابه مُعاملةَ المرتدين ولا أحكامهم، وسورة «التوبة» فيها الأحكام النهائيَّة، فنفي الإيمان الواجب لا يعني نفي أصل الإيمان، وهذا مشروحٌ في كُتب أهل العلم، وذلك كقول رسول الله ﷺ: «**وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ**». قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[1]، ومعروفٌ أنَّ هذا المرء لا يكون كافراً، وقد يعلق الله اسم الإيمان على العمل المُستحب كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾[2]، فهذا إيمانٌ مستحبٌ، لكن لا ينفي الإيمان عنِ المرءِ لِتَرْكِهِ المُستحب أو الأفضل، ومَن قال هذا فقد أخطأ، هذا مع انتشار هذا القول في كُتب الحديث عند المتأخرين.

فهاتان مسألتان: **الأولى**: إنَّ نفي الإيمان في الكتاب والسنَّة لا يقتضي الكُفْرَ، ولكنه يعني وُجُوباً نفي الإيمان الواجب الذي يستحق صاحبه به الوعيد، وأما كونه كفراً أم لا فهذا يحتاج إلى دليلٍ آخرٍ.

ثانيهما: إنَّ تعليق الإيمان على فِعْلٍ لا يستلزمُ أنْ يكونَ وَاجِباً، فقد يكون مُسْتَحَباً، ولمعرفة مرتبته يحتاج إلى دليلٍ آخرٍ.

أما كلمة «الريب» في القرآن وإنْ فسرتها كُتب التفسير بأنها الشك، فهي ليستْ على التساوي مع هذه الكلمة، لأنَّ الشكَّ لا يكون إلاَّ من جهة العِلْمِ، والشك مضادٌ للتصديق والاطمئنان، فالتوقف شك، والشك مراتب قد يقوى وقد يضعف، لكن الريب يكون في العلم والعمل، ولفهم هذا: فقد يكون المرء مُصَدِّقاً لخَبَرِ الرسول باليوم الآخر وأنَّه حقٌّ، ومع ذلك في قلبه ريبٌ، فلو قِيلَ له أَنْفِقْ

---

[1] البخاري في «كتاب الأدب» باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه. حديث رقم: ٦٠١٦.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٢.

مَالَكَ، وابْذُلْ نَفْسَكَ مِنْ أَجْلِ هَذَا اليَوْمِ لَبِخِلَ وَجَبُنَ، دون أن يكون في بخله وجُبنه شك في صِدْقِ الخَبَرِ، لكن الريب، وهو ضعف إرادة القلب للعمل له، وتفسير السلف للريب بالشك هو تفسير للتقريب، فهؤلاء لا يؤمنون بالله أولاً أي لا يأتمرون بأمره، ولا يحبون رِضاه، ولا يخافون من عذابه، فهذا معنى عدم إيمانهم بالله، أو لوجود المانع الأقوى لذلك وهو حبهم للدُّنيا أكثر من حبِّهم لله وللدَّار الآخرة، وإنْ كان قلب المرء لا يخلو مِنْ حُبٍّ وَرَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، فضعف أحدهما يعني وُجود المُعارض الأقوى له، لقول النَّبِيِّ ﷺ: «.. **وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ**»[1]، فقوله تعالى عن المنافقين: ﴿**فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾**﴾ يشملُ عدم يقينهم على الدَّار الآخرة، وكذلك التدافع بين حبِّها وحبِّ الحياة الدُّنيا حتَّى لو كانوا يصدقون بها دون شكٍ.

كما في الآيات الحاضة على النَّفير وقول مَن قال فيها إنها منسوخة، فقد ذكر ابن جرير عن عكرمة والحسن البصري القول بنسخ هذه الآيات[2]: ﴿**لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾**﴾[3]. بقوله تعالى في سورة «النور»: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾**﴾[4]. والقول بالنسخ هنا عجيبٌ وغير مقبول، لأنَّ نفي الإيمان في هذه الآيات خبرٌ، والأخبار لا تُنْسَخُ في دين الله تعالى، ولا يقول بنسخِهَا إلاَّ أهل الرفض والضلال، إلاَّ إذا حُمل كلام عكرمة والحسن على معنىً آخر، وهو أنَّ حُكْمَ الله السابق كان بحرمة الاستئذان ثم أذن به وجعله حلالاً، فلما حل صار النَّاس إلى قسمين: قسمٌ يستأذن، فيذهب بإرادة الرسول ﷺ بإذنه، وقسمٌ يتسلل لِوَاذاً كما قال تعالى: ﴿**لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾**﴾[5]، فهذا المعنى مُحْتَمَلٌ، فَمَنْ استأذنَ في تركِ واجبٍ، وهو قادرٌ على أَدَائِهِ وَقَعَتْ عليه الآية هنا في «التوبة»، ومَنْ استأذنَ في تَرْكِ وَاجِبٍ لعَدَمِ القُدْرَة حَقّاً، أو استأذنَ في غيْرِ وَاجِبٍ فلا إِثْمَ عليه، ومَن تركَ المُقَامَ من غَيْرِ إِذْنٍ فهو مُهَدَّدٌ بالفتنةِ أو العذابِ الأليمِ.

---

[1] أحمد في «المسند» عن أبي وهبٍ الجشمي، وكانت له صُحبة. حديث رقم: ١٨٩٣٣. وأخرجه أيضاً أبو داود في سننه «كتاب الأدب» في تغيير الأسماء. حديث رقم: ٤٩٥٠، والنسائي في سننه «كتاب الخيل» ما يُستحب من شبه الخيل. حديث رقم: ٣٥٦٥.

[2] انظره في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لابن جرير الطبري. الجزء العاشر، صفحة ١٤٣.

[3] سورة التوبة، الآيتان: ٤٤-٤٥.

[4] سورة النور، الآية: ٦٢..

[5] سورة النور، الآية: ٦٣..

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ٤٦ ﴾[1].

هذا أول الأدلةِ على صِدْقِ المرءِ في دَعْوَاه أنه من أهل الجهاد أم لا ، لأنَّ الجهاد ليس لحظة النفير فقط ، ولا لحظة الاشتباك مع العدوِّ ، لكنه الحياة ، أي قبل ذلك بكثير ، وبعد ذلك إلى الممات ، والزاعمون للجهاد كثيرٌ من المسلمين ، والجهات التي تصرخ أنها لا تُنْكِرُ الجهاد تملأ الجو ، لكن الفارقَ بين الصادقِ والمُدَّعِي هو الإعداد ، وسِمَةُ المنافقين هنا هو الاحتجاج بعدمِ القُدرة على الجهاد ليجعلوا هذا العجز عذراً لهم بعدمِ النَّفير ، ويبقى حالهم كذلك ؛ إنْ قِيلَ لهم : أعدوا. قالوا : لا جهادَ اليوم ، فإنْ وقعَ الجهاد وتعيَّن قالوا : لسنا قادرين عليه ، فأكذبهم القرآن وكشفَ نِفاقهم بأنَّ عدم جهادهم اليوم لعدم الوُسْعِ والقُدْرَةِ إنما مبعثه عدم وُجود الإرادة له مُسبقاً بعدمِ الإعداد له يوم أنْ كان هناك وُسْعٌ لذلك.

فهذا العجز الذي تعيشه الأُمَّة اليوم هو لِغِيابِ حُكْمِ الجهاد في قلوبهم ، وقد قامت في بلاد المسلمين كثيراً من الساحات التي استجابَ لها أهل الإيمان ، فأعدوا أنفسهم ، وجاهدوا كذلك ، وانتشر بهمُ الخير العظيم في بلاد المسلمين لما وقعتِ المحن في هذه البلاد ، وصار هؤلاء هم أئمة الجهاد فيها ، وحملة مشعل الدفاع عن بلاد المسلمين وأعراضهم ، وبقي المُعرضون عن هذه الساحات في أماكنهم ، يتآكلون ، ويخوضون في نفس المُستنقع دون أن يتقدم بهمُ الإسلام خُطْوَةً واحِدَةً إلى الأَمَامِ.

وتفسير الآية على أنَّ هؤلاء قدَّموا عُذْرَ عَدَمِ الاستطاعة هنا لعدمِ إعدادهم لهذه الاستطاعة هو وَجْهٌ من وُجُوهِ التفسير ، وهناك قَوْلٌ وَتَفْسِيرٌ آخَرٌ وهو أنَّ هؤلاء المنافقين لو أرادوا الخروج لذهبوا إلى ما عندهم من الوُسع كالطعام والدواب فجهزوها للخروج استجابةً لأمرِ الله تعالى ، ولم يأتوا إليك ليعتذروا بعدمِ الوُسْعِ والقُدْرَةِ ، والآية تحتملُ المَعْنَيَيْنِ ، فهناك مَنْ يَعْلَمُ حُكْمَ اللهِ بالجهاد ، وَيَعْلَمْ أَنَّهُ مُتَعَيِّنٌ عليه وعلى الأُمَّةِ ، ولكنه يُعَطِلُ هذا الحُكْمَ لِعَدَمِ إعدادِ الأمَّةِ له ، وبالتالي فهي غَيْرُ قادِرَةٍ عليه ، وكلما دُعِي لجهادٍ احتجَ بهذا ، واعتذرَ عَنِ الأُمَّةِ بذلك ، بل ربما رمى بهم في وِدْيَانٍ مِنَ الأَوْهَامِ التي لم تَقَعْ قَطٌّ في التاريخ ، كوجوبِ عِلْمٍ خاصٍ على كلِّ أحدٍ ، وقد كان هذا العلم في كلِّ مراتب تاريخ الأُمَّةِ خاصاً بِقَوْمٍ وَفِئَةٍ لا بكلِّ أحدٍ ، أو يُوجِبُ عليهم أنْ يصلوا إلى مقامٍ من التربية يزعمها قبل أنْ يجاهدوا ، أو أنْ يذهبوا للإعداد ، وكلّ هذه شروطٌ باطلةٌ ، ولم تكنْ قط في زمنٍ من أزمانِ هذه الأُمَّةِ منذ عصر النَّبيِّ ﷺ ، وهم إنما يقولون بهذا تَوَصُلاً لعدمِ الجهاد الذي تعيَّنَ في زماننا ، وهناك آخرون يقولون بوجوب الإعداد قبل الجهاد ، ويجعلونه شرطاً على معنى لا يكون ، ومن ذلك أنْ يكون عندهمُ القُدرة كما عند أعداءِ المسلمين ، والقول بهذا الشرط يُقْصَدُ منه التخذيل والتثبيط ، واستحالة الجهاد ، وهذا مقصدهم ، وهؤلاء جهلة بسنن التاريخ وطُرق إحياء الأُمم ، فإنه

[1] سورة التوبة ، الآية : ٤٦..

لا يوجد قط في تاريخ البشريَّة مَن تحصل له القوة الكاملة والمُعادلة لقوةِ عدوِّهِ خارج دائرة صِراعه مع أعدائه، بل إنَّ الأمم تقوم وتحيا وتقوى من خلال مراحل الصِّراع، وتَتَرَقَى قوتها وهي في مسيرها إلى أهدافها، ومن عجائب هؤلاء جهلهم بطُرُقِ إحياءِ الأُمم، وخُلُوِ عقولهم من قراءة التاريخ، حتَّى إنهم يجهلون جهلاً حقيقيّاً بسيرة رسول الله ﷺ، وقد غلبَ على أذهانِ قُرَاءِ السيرة في زماننا تفسيراً معيَّناً للسيرة، تجدِ الكلَّ يسيرُ فيه حسبَ رُؤَاهُ وَزَعْمَهُ، فلا يفهمون إلاَّ كلمة الدعوة، والفترة السريَّة، ثم الفترة العلنيَّة ثم الهجرة، دون أن يفهموا طُرق بناء الأُمَّة وتصاعدها لتحقيق أهدافها، ودون الوعي على البناء الداخلي الذي كان يصنعه رسول الله في أصحابه، ولا ينظر هؤلاء إلى الأحداث إلاَّ على معنى منفصلٍ كما يقرؤون الأحاديث النَّبويَّة في كُتب السنَّة، ولا يعرفون التاريخ إلا ما كان له تعلُّقٌ بالنَّاسخ والمنسوخ، ولذلك فَكَوْنَ الرجلِ عالماً بالحديث لا يعني أنَّ له الحقَّ أن يتكلم في التاريخ الإسلامي، ولا في السيرة النَّبويَّة وفقهها، ولا في طريق النَّبيِّ في بناء الأُمَّةِ الإسلامية ومراحل ذلك، ولذلك فالحقّ أنَّ ما يُكْتَبْ في فقه السيرة واستخدامها في معرفة بناءِ الأُمَّة وإعادتها، وكيفية إخراجها من هذه المرحلة التي تعيشها، وهي مرحلة غياب الفاعلية، إلى مرحلة الحضور والشَّهادة والوراثة لا يكادُ يُذْكَر، وذلك لأنَّ المعاصرين أغلبهم يقلد قراءة الأوائل للسيرة، فقراءة الأوائل هي قراءة لحلِّ مُشكلاتهم المُعاصرة، وهي إجابة السيرة على مشكلاتهم الفقهية في جهادهم، وهي قراءة فقهية كما هو صنيع الإمام ابن القيم في «زاد المعاد»، أو قراءة السرخسي لـ«السير الكبير» لمحمد بن الحسن الشيباني، فيأتي المُعاصرون على طُرق هؤلاء فيسيرون عليها، ولذلك ظنَّ البعض أنَّ فقه السيرة فقهٌ مُبْتَدَعٌ لاستغناء المسلمين بالفقه على المعنى الاصطلاحي عن هذا الفقه، وهذا جهلٌ آخرٌ، فإنَّ فقه الأحكام ليس هو كلّ الفقه الإسلامي، ولا هو أعظم ما في القرآن والسنَّة، بل إنَّ من أعظم الفقه هو فقه التاريخ، وهو فقه الإنسان وحقيقته، سواء كان بمُفرده أو بمجموعه في أُممٍ وشعوبٍ وممالكَ وملأ وقادةٍ وأتباعٍ، ولا أدري كيف يزعمُ البعض أنه يسلكُ سِلْكَ التجديد في هذه الأُمَّة ثم هو يقفُ على هذا التجديد على اجتهاد الأولين من الفقهاء والعلماء في تصنيف العلوم، وفي مباحثهم للمسائل، ويمنع أنْ تعود الأُمَّة إلى الكتاب والسنَّة من خلال إدراك فقههما في إحياء الأُمَّة المسلمة وإعادة فاعليتها وحضورها ووراثتها؟!.

القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ وحياته بينهم هما من صنعا الصَّحابي الأول بخطابهما المُتوجه إلى الإنسان في نفسه وعقله، وفي حركته وإرادته، وكلّ كُتب العلماء إنما تستقي فروعاً وسواقي من هذا البحر الزاخر، والغيث العميم، ولن يستطيع أحدٌ أنْ يزعمَ أنَّ عِلْماً وَاحِداً هو مَن يُقَيِّمَ الحياة ويحكمُ على كلِّ ما فيها من تصرفات وآمال وأماني، لأنَّ هذا العلم ساقيةً وفرعاً من فروعِ الإنسان، وفرعاً من فروعِ القرآن والحياة النَّبويَّة، وما نحتاجه اليوم هو هذا القرآن وهذه الحياة النَّبويَّة لإعادة الإنسان، لا فرداً فقط ولكن أُمَّةً كذلك، والصَّحابة كانوا يُدْرِكُونَ الإقتداء بالنَّبِيِّ ﷺ أوسعَ مما يقوله العلماء اليوم.

وقصد ذلك أنَّ القول بأنَّ الجهاد ساقطٌ عن الأُمَّةِ لِعدم وُسْعِهَا، ولذلك فلا جهاد حتَّى يكون الوُسع، والوُسع عندهم على معنى معين، يتصورونه قريباً من الخيال الذي لا يكون أبداً، فإنَّ قولهم هذا باطلٌ وجهلٌ في طُرُقِ إحياءِ الأُمم، وهم جهلةٌ حقّاً في سيرة النَّبيِّ ﷺ، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يُنْشِأ جهاده في فراغٍ مِنَ المُواجهة المُتواصلة مع أعدائه، وهذا شأنُ كلِّ الأُمم الحيَّة والتي لها سِمَة الغزو والقتال، وهي سِمَة هذه الأُمَّةِ إنْ كانت في مقام الخيريَّة، ولذلك فهي تجاهد وفي جهادها إعدادٌ، وفي إعدادِها تَقَدُمٌ نحو الأهداف، وهذا الواقع بفضل الله تعالى، فإنَّ الجهاد لم يبلغ اليوم هذه القوة، ولم يصل تأثيره في حياة العالم فجأةً، ولا من فراغ، بل هذه الحلقة من حلقات الطائفة المنصورة كانت تسيرُ وتتهادى من طورٍ إلى طورٍ، ومن مرحلة إلى مرحلة حتَّى صارت هي الوارثة الوحيدة في صدِّ طغيان فرعون وجنوده، وهي التي تعمل عملها في إبطال مقاصده في العالم أجمع، وغيرها تبعٌ لها، بل لم يَقْوَ غيرها حتَّى أثبتت هذه الطائفة بإيمانها أنها قادرة على إهانة فرعون والدَّوْسِ عَلَى كِبْرِيَائِهِ وغُرُورِهِ.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾.

ولو أرادوا الجهاد لَهاجروا.

ولو أرادوا الجهاد لَبذلوا أموالهم وأنفسهم وأوقاتهم في الوصول إلى مواطنه.

ولو أرادوا الجهاد لَعبئوا نفوس الأُمَّةِ بحبه والشوق إليه والرغبة فيه.

ولو أرادوا الجهاد لحَرموا على الأُمَّةِ أن تلغ في شهواتها التي تعطل حياته.

ولو أرادوا الجهاد لأفتوا بوجوب قِتال مَن يمنعه ويمنع الأُمَّة من ممارسته.

ولو أرادوا الجهاد لَعلَّموا الأُمَّةَ أنَّ أهدافَ الإسلام لا تكون إلاَّ به.

لقد أكذب الله مَن زعم حبَّ الجهاد وإرادته وهو سائرٌ في طريق الإهانة والتخاذل والقعود، لأنَّ الجهاد ليس كلمات تُقال، والإيمان بآياته ليس ألفاظاً يتغنى بها، بل الجهاد فعلٌ وحركةٌ وحياةٌ، وجهادٌ ونفيرٌ وإعدادٌ.

في هذه الآية: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُـرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ إظهارُ نِفَاقِ المُعرضين عن الإعداد لعدم الخروج فماذا يُقال لمن ترك الجهاد «على المعنى الثاني من الإعداد كما تقدم في معنى الآية» وقد نفر الأعداء إلى بيته وأرضه وأهله؟ وماذا يُقال للمُفتين الذين يمنعون أهل الإسلام من النفير لرد المشركين عن بلاد المسلمين وأعراضهم؟!

هل يُقال عن هؤلاء إنهم جهلة بكتاب الله؟ أم أنهم يعلمون حُكْمَ الله تعالى لكنهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1].

إنَّ بِوُسْعِ كُلِّ أُمَّةٍ أنْ تجدَ من الأدوات والقُدرة الأَولية لِتَشرع في جهادها ومنذ اللحظة الأولى، فهناك تجارب إنسانيَّة لا يصل ما عندهم من العلم والهدى إلى عشر معشار ما عند المسلمين من كتاب وسنَّة وبدؤوا قتالهم بأدوات يسيرة أمام قوى ضخمة وعاتية، ثم من خلال مسيرتهم هذا تحقق لهم التوازن ثم الغلبة على أعدائهم، وهذا يفهمه كلُّ مَن يتكلم في هذا الباب، لكن حين يتكلم في هذا الفن مَن لم يكنْ من أهله فإنه يأتي بالعجائب كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «أنَّ الرَّجُلَ إذَا تَكَلَّمَ فِي غَيْرِ فَنِّهِ أَتَى بِالعَجَائِبِ»[2]، والعجيب أنَّ أمرَ إحياءِ هذه الأُمَّةِ، والسير فيها إلى أهدافها، والعمل من أجلِ إعادتها إلى مرتبة الخيريَّة صار الحديث فيه نهباً لكلِّ أحدٍ، ويتكلم فيه كلّ زاعمٍ، ولذلك لا تجد أثراً لحديثهم في تغيِّير الأُمَّةِ، وحين يرفع صادقٌ فيها راية الجهاد تجد له القبول والرضى والحب، فيقفُ قُطاع الطريق أمامه من محبي الدُّنيا وحملة الشعارات الدِّينيَّة المدفوعة الثمن والأُجرة مِنْ مُفْتِينَ وخُطباءَ ليصدوا النَّاس عن هذا السبيل، وأما غير ذلك من السُبل فهي لا تجد عداءً ولا مُعارضةً، لأنَّ الشيطانَ يتركها لنفسها إذْ أنَّ بُطلانها في داخلها كَفِيلٌ بذهابها وسقوطها وذهاب أثرها في حياة المسلمين.

إنَّ دعوى الإعداد لا تصلح في دين الله تعالى حجةً لتركِ الجهاد، لأنَّ الإعدادَ عند هؤلاء المُتلاعبين كحال من لا يريد أن يصلي مع المسلمين جماعة فأكل الثوم والبصل غير نضيجين ليعمل بحديث النَّبي ﷺ: «**مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلاً، فَلْيَعْتَزِلْنَا أَوْ لِيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ في بَيْتِهِ**»[3]، ذلك لأنَّ الإعدادَ في حقيقته جهادٌ، وليس أَمْراً مُنْفَصِلاً عنه، بل إنَّ الإعداد الحقيقي لا يكون إلاَّ بممارسة الجهاد فِعْلاً وَعَمَلاً.

ومما يُؤيدُ المعنى الثاني للإعداد ـ هو النَّفير بما عندهم من الوُسع والقُدرة ـ هو قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ فقد جعلَ الله قعودهم عن الذهاب إلى أموالهم لجعلها محفزة للنَّفير كما يفعلُ المؤمنون هو من تثبيطه لهم، لكراهته لهم أن ينفروا.

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

[2] ذكره محمد أنور الكشميري في كتابه «فيض الباري شرح صحيح البخاري» الجزء الرابع الصفحة ٣٨، ونسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ربُّ البريَّة. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (٢٠٠٥م).

[3] البخاري في «كتاب التوحيد» باب الأحكام التي تُعرفُ بالدلائل وكيف معنى الدلالة وتفسيرُها. حديث رقم: ٧٣٥٩، ومسلم في «كتاب المساجد ومواضع الصلاة» باب نهي من أكل ثوماً أو بصلاً أو كُرَّاثاً أو نحوها عن حضور المسجد. حديث رقم: ٥٦٤.

وأما على المعنى الأول؛ وهو أنَّ هؤلاء لم يروا الجهاد أصلاً، بل عزموا قبل الأمر بالنَّفير أنْ لا يكونوا من أهله فلم يعُدوا له عُدَّته، فيكون معنى قوله: ﴿**وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ**﴾ أي ثبطهم عن الإعداد لما كان هذا في قلوبهم أولاً لكراهة الله لهم أن ينفروا حين يكون الأمر به.

وهذا يدل على أنَّ الإعداد يكون على وجهين، **أحدهما**: أنْ يبذل المرء وُسعه في أن يكون من أهل الجهاد، بدناً وقوةً وعلماً، حتَّى في زمن الوُسع وعدم مباشرة النَّفير، **وثانيهما**: أنْ يعمل المرء ما عنده وعلى ما هو عليه من القوة المُباشرة للجهاد والنَّفير، وبهذا يكون المرء في جهادٍ، ولا يسعه أنْ يحتج بعدم الجهاد بعدم القُدرة، والذين يعلمون طُرق القتال يُدركون أنَّ أقل الوسائل التي يحوزها النَّاس يمكن أن يجاهدوا بها، فإرهاق الخصم وإعاقته، وإكثار العُطوب فيه، واستنزاف قُوَتِهِ يكون بأقل القليل التي يمكن للأُمم استخدامها، وهذه ليست مما يستهين بها العقلاء، إنما يستهين بها الجهلة الذين تخدعهم الصور الكبيرة، والأصوات الضخمة، إذ لا يتصورون جهاداً إلاَّ بما يحقق لهم هذا الوهم ولن يكون.

حين يقرأ المرء تاريخ هذه الأُمَّةِ، ويرى ما وصلت إليه، وما وصل إليه أعداؤها يُدرك أنَّ سبب هذا هو غِيَّاب هذا الأمر الإلهي، فلو أنَّ هذه الأُمَّةِ قامت بأمر الإعداد، ولم تُقَصِّرْ فيه لَبَقِيَتْ مُهابة الجانب، ولن تُسْبَقْ في شأنٍ من شؤون الحياة، ولَكانت دوماً تحقق أهدافها ومرتبتها في الوجود، **لكن ركون الأُمَّة للراحة، وإقبال أعدائها على بناء قُوتهم العسكرية، ثم استخدامها فينا جعل أرضنا وثرواتها نَهْباً لهم، ثم كان السقوط وتحول السقوط سبباً في لحوق الكثير من طوائف الأُمَّةِ بدين أعداء أُمتهم لما فقدوا الثقة بدينهم فآل بنا الحال إلى ما نرى،** ولذلك فإنَّ الإعدادَ يكون ببناء الأُمَّة في نفسها وقُدراتها، وتعليمها وسائل القتال وإنهاكِ العدوِّ، لأنَّ هذا النوع من الجهاد هو ما نحتاجه اليوم من أجل إدامةِ هزيمةِ الأعداءِ، وتصاعُدِ خطِ بِناءِ الأُمَّةِ، وهذا جهادٌ له خصوصيَّة الصَّبر والمُثابرة، لأنَّ آثاره لا تتحققُ بصورةٍ ظاهرةٍ كهزيمة الجيوش في المعارك الكُبرى، بل ربما تصل إلى الكثير من أهدافك وتحقق الكثير من الخطوات دون أن يعترفَ بك الخصم مُنتصراً، بل ربما لا يعترف بك ضِعاف النُّفوس من المسلمين أنك تحققُ نصراً.

﴿**وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦**﴾.

إنَّ هذه الآية وما كان في معناها لَتَجْعَلُ أهل الدِّين والتقوى في خوفٍ دائمٍ من عقوبة الطرد والإبعاد، ذلك بأنَّ البعضَ يظنُّ أنه هو الذي يعرض عن الدِّين، وهو الذي يستعلي عليه، وحقيقة الأمر أنهم همُ المطرودون، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ سبحانه وتعالى هو لم يرضَ بهم عبيداً له فأبعدهم وأخزاهم، لأنهم أهل نجاسةٍ وَرِجْسٍ، وأهل قذارةٍ وخُبْثٍ، فلا يستحقون الوقوفَ في صف العبوديَّة لله تعالى، وهذا والله لو تأمله أهل القلوب السليمة لَبكَواْ من هذا الحال، وهو كذلك عند المؤمنين المتقين، فإنَّ أخشى ما يقع في قلوبهم أنْ يُطْرَدُوا عن بابه، ولذلك فإنَّ من أوائل ما قاله

الرسول ﷺ من كلمات يُناجي بها ربَّه: «**إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي. أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَت الظُّلُمَاتُ لَهُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخَطُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى**»[1]، وهذا الحديث وإنْ كان فيه مقالٌ لأهل الفن، إلاَّ أنه يصلح شعاراً لأهل التعبد والخشية والتقوى، وصحة معناه لا يشك بها مسلم، ولذلك فإنك حين ترى أنك غير مُقبلٍ على الطاعات، وترى عدم إقبال قلبكَ على الله فَابْكِ بين يدي مولاك الرحيم بأنْ لا يطردكَ عن بابه، وأنْ لا يردكَ عن عبادته، فإنَّ المرءَ حين لا يقوم الليل فَلِشَّرٍ في نفسه حرمه الله من أن يقفَ بين يديه، وحين لا يتصدق فلكراهية الله لماله صرفه عن الإنفاق والصدقة، وحين لا يقرأ القرآن فلبُغْضِ الله له أن تجري كلمات الله على لسانه، وهكذا كلّ الطاعات، فعلى المرء أن يتوبَ ويستغفرَ لِيفتح الله له باب القبول والرضى، وإلاَّ فهو محرومٌ، ولذلك كان يخاف الصالحون المعاصي، لأنهم يعلمون أنها تمنعهم من الطاعات، وتحجبُ عنهم تحقيق العبادة، لِعلمهم أنَّ طاعة المرء لربِّه كرامةٌ من الله تعالى له، وقد أوفى على الجادة الإمام الشافعي الذي جعل حمده لله توفيقاً وإكراماً يستلزم حمد الله على هذا الحمد كما قال في مقدمة كتابه «الرسالة»، فرضي الله عنه وأرضاه ما أحكمه وما أتقاه لربِّه وهو يقول: «وَالحَمْدُ للهِ الَّذِي لاَ يُؤدَّى شُكْرُ نِعْمَةٍ مِنْ نِعَمِهِ إِلاَّ بِنِعْمَةٍ مِنْهُ، تُوجِبُ عَلَى مُؤَدِّي مَاضِي نِعَمِهِ بِأَدَائِهَا: نِعْمَةً حَادِثَةً يجِبُ عَلَيْهِ شُكْرُهُ بِهَا»[2].

إنَّ الله هو الغنيّ الحميد، فهو لا يطلب عبادة الخَلق له لحاجته لهم، ولا لأنَّ معصيتهم له تضره في شيء سبحانه وتعالى، بل هو غني عن عبادة العباد، ولا تضره معصية العاصين، وفي الحديث القدسي: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. مَا زَادَ ذلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً. يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ. وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ. كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ. مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً»[3]، وهذا مِصْدَاقُ قوله تعالى: ﴿ **إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٨** ﴾[5].

وقوله تعالى: «**لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**» أي أنه مع غِناه عن طاعة الطائعين إلاَّ أنه سبحانه وتعالى يحمد مَنْ أطاعه ويحبه ويجزيه بأحسن ما كان يعمل، وهذا من تمام المدح والثناء.

[1] ذكره محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي في قصة خروج النَّبيِّ ﷺ إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عزَّ وجلَّ وإبائهم عليه، فذكر القصة بطولها وأورد هذا الدُّعاء الحسن.

[2] «الرسالة» للشافعي بتحقيق وشرح أحمد شاكر رحمهما الله تعالى. الصفحة ٧-٨، طبعة دار المكتبة العلمية ببيروت.

[3] مسلم في «كتاب البر والصلة» باب تحريم الظلم. حديث رقم: ٢٥٧٧.

[4] سورة الزمر، الآية: ٧.

[5] سورة إبراهيم، الآية: ٨.

ولكن لِيُعْلَمَ أنَّ عدل الله شاملٌ لكلِّ أقواله وأفعاله سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾[1]، بل ورحمته مقدمة على عدله كما في الحديث: «إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»[2]، وغضب الله جل في عُلاه لا يكون إلا عدلاً، ولذلك فإنَّ طَرْدَ الله لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ من الطاعة إنما يكون لشرٍّ فيه، بل لو أقام هذا المرء في طاعة لما أتى منه إلا الشر كما قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3].

فهؤلاء كَرِهَ الله انبعاثهم، لما في قلوبهم من الشَّرِّ، ولما في خروجهم من الأذى والثقل على المجاهدين معهم، فرحم الله المجاهدين بأنْ صرفهم عن الجهاد، ولذلك فعلى أهل الجهاد أنْ لا يتألموا كثيراً من إعراض البعض عنهم، ومن بداية الطريق، لأنَّ هؤلاء لو خرجوا في أهل الجهاد لكانوا شرّاً عليهم، فهم كالدواب الكسيحة، والتي لا تسير إلا بجَرٍ وَدَفْعٍ، وبعضهم يحمي الله المجاهدين منهم لما يعلم الله من قلوبهم من قِلَّةِ الصَّبر وضعف اليقين، فإنه قد يسيرُ معك ذِرَاعاً ثم يجري به مرضه إلى النكوص والردة فيكون انقلابه شرّاً أكثر مِنْ شرِّهِ لو أعرضَ مِنْ بِدَايَةِ المسيرِ والطريقِ، ولذلك لِيُدْرِكَ أهل الجهاد دَوْماً رعايةَ الله لدينه، وتدبيره للجهاد وأهله، فإنه لا يقع لهم أمرٌ إلا وفيه الحِكمة لهم، والخير لهذا السبيل، لأنه سبيل الله تعالى لا سبيلهم، فليست كل كثرةٍ ممدوحةٍ إلاَّ إذا كانت على خيرٍ وثباتٍ وصبرٍ ويقينٍ.

لقد كان رسول الله ﷺ يأمر بعض المسلمين في مكة من غير أهلها أنْ يرجعوا إلى أهليهم حتَّى يُظهره الله، كما تقدم من حديث أبي ذر رضي الله عنه لما أسلم، وحصل هذا مع غيره، وهذا فيه فقه لأهل الدعوة وهذا الطريق أنَّ بعض الظروف، وبعض الساحات لا تحتمل الكثير من الأتباع على نحوٍ مُعَيَّنٍ، ومثل هذه أمره ﷺ لمن قدر من أصحابه أنْ يُهاجر إلى الحبشة لشدَّةِ ما كانوا يلقون من قومهم من العذاب، فمكة مكانٌ ضَيِّقٌ، وَمُرْهِقٌ للقائد إنْ كَثُرَ فيه الأتباع، فإنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم يومذاك ضعفاء، وأكثرهم من الفقراء الذين لا يجدون من يُدافع عنهم، ولم يكن بوسع الحبيب المصطفى ﷺ أن يمنعهم من قريش، بخلاف الرسول ﷺ فقد كان من يحميه في قومه، فحب الدعاة والمجاهدين أنْ يلحق بهمُ الكثير حب مشروع ومرضي عنه عند الله تعالى، لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حال الدعاة والمجاهدين أن لو لحق بهم النَّاس في وقتٍ على وجه ما فإنهم لا يقدرون استيعابهم ولا إدارتهم، فليثقوا بتدبير الله لهم، ولا يقولون أبداً أنَّ هذا الحال هو شرٌّ لهم، أو لشرٍّ فيهم، بل هو الخير لهم، فإنَّ النُمُوَّ السليم هو النمو المُكافئ للحال والزمن، فإنْ تعدى ذلك صار نمواً مرضياً سرطانياً لا يلبث أنْ يعود بالفساد على صاحبه.

---

[1] سورة هود، الآية: ٥٦.

[2] البخاري في «كتاب التوحيد» باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[الصافات: ١٧١]. حديث رقم: ٧٤٥٣. ومسلم في «كتاب التوبة» باب في سِعَة رحمةِ الله تعالى وأنها سبقتْ غضبَه. حديث رقم: ٢٧٥١.

[3] سورة الأنفال، الآية: ٢٣.

لقد دخل النَّاس في دين الله تعالى أفواجاً بعد فتح مكة، وما مات رسول الله ﷺحتَّى قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾[1]، وهذا لم يقع حتَّى كان في المسلمين سعة لهذا الفتح، ولذلك لما ارتدت هذه الجموع كان عند المسلمين القُدرة على جهادهم وردهم إلى دين الله تعالى، ثم انطلق بهمُ الخلفاء إلى الجهاد خارج الجزيرة العربية، فالكثرة دفقٌ سريعٌ مفاجئ، ولا يكون صحيحاً إلا بوجود السعة له، وإمكانية الحفاظ عليه، فإنَّ ثلاثة عشر عاماً في مكة لم يُسْلِمْ إلاَّ أقل من مائة إنسان، ثم في سنة واحدةٍ دخل أهل المدينة في الإسلام إلاَّ القليل منها، وبدأ العدد يزداد حين كانتِ القبائل والوفود بأجمعها تدخل في دين الله تعالى، وهذا نراه في كلِّ سُنَنِ البناء التكويني، كالغيث يبدأ بقطر قليل ثم يتدافع، وكذلك الإنسان ربما احتاج إلى ثلاث سنوات حتَّى يمشي على رجليه، وربما ذَهَبَ رُبْعَ عُمْرِهِ قبل أن يبلغَ مرحلة التكليف، فالبدايات لها خصوصيتها من المُعاناة وبطأ البناء ثم يتمِ الصعود بدفقٍ وقوةٍ، فلا ينبغي على المرءِ أن يتعجل من إقبال الجموع، لأنَّ لهذه الجموع سُنَناً خاصةً، منها نظام القطيع، أي المتابعة للآخرين دون وعي خاص، أما السابقون فهؤلاء هم القواعد الأولى التي تحمل عُمْقَ الوَعْيِّ وَالإِدْرَاكِ، وصلابةَ إتباع الحقِّ دون تأثرٍ بالجموع، مع استعدادٍ لتحمل تبعَاتِ هذا التفرد والتميز والمُخالفة، ولذلك فقول الرسول الله ﷺ: «**إِنَّ الإِسْلاَمُ بَدَأَ غَرِيْباً وَسَيَعُودُ غَرِيْباً كَمَا بَدَأَ**»[2]. مع ما فيه من معاني الابتلاء للسابقين الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝٤٠﴾[3]، وهم خلاف أهل اليمين الذين قال الله فيهم: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٤﴾[4]، إلاَّ أنَّ الحديث فيه كذلك بشرى لهؤلاء الغرباء بذهاب غُربتهم كما ذهبتِ الغُربة الأولى عن رسول الله ﷺ وأصحابه، وعلى المرء أنْ لا يستعجل لأنَّ أعظمَ ما يُصِيبُ العالمين هو دعاء الاستعجال المميت، فإنَّ دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٢٩﴾[5]. مضت عليه قرون حتَّى وقع، إذ ذهبت النُّبوة الكثيرة في فرع إسحق عليه السلام، وغابتِ النبوة عن نسل إسماعيل قروناً مدخرة، حتَّى كانت للحبيب محمد ﷺ، ونبوته أعظم النبوات في تاريخ العالم إلى يوم فنائه.

---

[1] سورة النَّصر إلى آخرها.
[2] مسلم في «كتاب الإيمان» باب بيانِ أنَّ الإسلامَ بدأ غريباً وأنه يَأْرِزُ بين المسجدين، وانفرد به. حديث رقم: ١٤٦.
[3] سورة الواقعة، الآيتان: ٣٩ـ٤٠.
[4] سورة الواقعة، الآيتان: ١٣ـ١٤.
[5] سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

وقد كان مِنْ طِبِّهِ ﷺ لأصحابه في مكة أن يُعالج هذا المرض كما في حديث خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ ﷺ: **«واللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»**[1].

التحاق الجموع مسألةٌ سهلةٌ، لأنه أمرٌ يتعلق بتهيئة الظرف والحال ووجود القُدرة والقوة اللازمتين للاستقطاب أكثر من قوة الخطاب، ووضوح الحجة، ولذلك هم مغيبون في القرآن حال الصراع بين الأنبياء وأعدائهم، فإنَّ الأعداء هم الملأ دوماً، ولما جُمِعَ النَّاس يومَ المُناظرة بين موسى عليه السلام والسحرة قال فرعون وملؤه: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2]، ثم أسلم السحرة، لم يذكرِ القرآن شيئاً من أمر هذه الجموع، لأنهم في الحقيقة كذلك، أي لا شيء في مسائل الاختيار الذي فيه الثمن، وفيه قوة الإدراك والفقه، فلا يحزن كثيراً على ذهابهم إلا بمقدار حزننا أننا لا نملك التمكين الذي يُهيئ لهمُ اللحوق بنا، لكن هذا لا يعني قط أنَّ الجموع رقم وهمي، فإنَّ الله سمى إسلامهم فتحاً ونصراً كما في سورة «النَّصر»: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. لأنَّ هذه الجموع حين تكون مع الحقِّ، فإنَّ أهل الحقِّ يسيرون بهم إلى مقاصد الإسلام وتحقيق العبودية، وكما أنَّ للغربة ضريبة، فكذلك للتمكين والتحاق الجموع ضريبة، والمسلم دوماً في ابتلاء.

﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

كفى بالقعود ذماً أن يقول الله عنه هذا الأمر، وكفى بأهله خِسة أن يذمهم الله بهذه المقالة، إذ جعل الله مقام القعود هو أشد العقاب الذي يُوبق فيه هؤلاء، لأنَّ القعود ذم في الرجولة، وذم في الدِّين، وذم في الأخلاق، ولو أدركَ هؤلاء خسة هذا المقام ما قبلوا في الدخول فيه، ولبكوا أمام مولاهم بأنْ يحميهم منه ومن الوقوع فيه، ولكن كما قيل: مَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيلاَمُ.

لقد نسب الكره سبحانه لنفسه فقال: «**كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ**»، وقال: «**فَثَبَّطَهُمْ**»، وقد تنزه سبحانه وتعالى أن يقول: وقال لهم اقعدوا مع القاعدين، بل قال: «**وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**»، لأنَّ مقامهم لا يستحق خطاب الله لهم.

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾[3].

لقد كان صرف الله للمنافقين عن الخروج وتثبيطهم لشرِّ نفوسهم، لأنهم لا يليق بهمُ العمل في الصالحات، فبينهم وبين الحق نُفرة، كما بين الخبيث والطيب، فهذا أمرٌ أولٌ يتعلق باختلاف الأمرين

---

[1] البخاري في «كتاب الإكراه» باب من اختار الضَّرب والقتلَ والهوانَ على الكُفر. حديث رقم: ٦٩٤٣. طرفاه في: ٣٦١٢، ٣٨٥٢.

[2] سورة الشعراء، الآيتان: ٣٩-٤٠.

[3] سورة التوبة، الآيتان: ٤٧-٤٨.

في ذات الأمر، ثم في هاتين الآيتين: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾. بيانُ فضل الله على المؤمنين في هذا الصرف، وهذه طريقة القرآن الكريم في بيان حكمة التشريع والتكوين، وهي مجموعة في آية المُداينة في سورة البقرة حين ذكر حكمة الإشهاد على الدِّين فقال سبحانه: ﴿ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُواْ ﴾[1]، **فالحكمة الأولى** تتعلق بحُكم الله فيه، وأنه محبوبٌ عنده، **والحكمة الثانية** تتعلق بحقيقة الأمر في نفسه وأنه حق، **والحكمة الثالثة** تتعلق بأثر هذا الأمر في الخَلق، **فالأمران الأولان** حقٌّ مُطْلَقٌ، ومحبوبان عند الله، **وأما الثالث** فلتعلقه بفعلِ الإنسان كان نِسْبياً فقال: ﴿ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُواْ ﴾ وهو واقعُ الأحكام في نفوس النَّاس وحياتهم، وهو واقع أفعال الإنسان الصالح كذلك، إذِ العِبرة بالغلبة، ولا شيء مطلق في هذا حين يصير الحكم إلى فعلِ الإنسان.

المؤمنون المجاهدون يحبون التحاق النَّاس بهم لتكثير السواد، ولحصول الاطمئنان بكثرة الرفقاء والأصحاب، والقرآن يُرشدهم إلى وجهٍ آخرٍ من عطب هذا السواد والتكثير، وإلى أمراضه التي تكتنفه إن لم يكن سليماً مُعافى، فليس العِبرة بالكثرة، إنما العبرة بالنوع، وخاصة حين تكون الرحلة شاقة ومُتعبة، فأنت بحاجة للصبور المُثابر، ولا ينفعك إلاَّ مَنْ حملَ عنك الهموم، وأذهبَ عنك الكسل، وقوَّى عزائمكَ، ولذلك كان إخراج الخبث من الجموع نعمة ربانية لأنَّ النَّاس النافرين من المؤمنين ليسوا طبقة واحدة، فمنهم من لا تهزه كل كلمات الباطل، ولا يرده عن دينه وأمرِ الله أحدٌ، وهو سائرٌ مع الحقِّ حتَّى لو كان وحده، ومنهم أبو ذر ﷺ الذي مدحه النَّبي ﷺ بقوله: «**رَحِمَ الله أَبا ذَرٍّ، يَمْشي وَحْدَهُ، وَيَموتُ وَحْدَه، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ**»[2]، وهي سمة كلِّ الأنبياء، ولذلك قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾[3]، وقصة رسول الله ﷺ، ولكن في المؤمنين المجاهدين من ليسوا كذلك، بل ربما ألقوا بسمعهم إلى المثبطين فضعفوا وصاروا إلى القعود، ولو خلا هؤلاء إلى المؤمنين الصابرين لقويت نفوسهم معهم إلى الطاعة دون تردد أو كسل، فلنعمة الله على المؤمنين صرف هذا النوع عن الخروج والنفير.

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾.

هذه رحلةٌ طويلةٌ، قلَّ فيها الرحال والطعام، وفقد الجيش فيها الماء في بعض مراحلها، وهذا كله ضعف سيُعانيه الجيش، وهي مُعاناة المحيط الخارجي والظرف والبيئة والمسافة، ومثل هؤلاء لا ينقصهم أنْ يأتي أحدٌ ليزيدهم ضعفاً في نفوسهم وقلوبهم، ولا أنْ يزيدهم إرهاقاً بكثرةِ الشكوى

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٨٣.

[3] الحاكم النيسابوري في «المستدرك على الصحيحين» وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. حديث رقم: ٤٤٢٣.

والأنين، ولا بادعاء الخير كذباً بكثرة «لو»، فإنْ حصل وَوُجِدَ هؤلاء فإنَّ بوجودهم ستحصل كل هذه الغمرات أشد وأقسى، وسيكون حالهم ثقالاً جديدةً، ومشقةً زائدةً، والمرء قد يحتمل ألم البدن ومشقات الطريق، لكن لا يحتمل كثرة الأنين والصُّراخ والشكوى.

﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾.

هكذا يُسمي الله تعالى ترك النفير، أو النكوص عنه، أو عدم مُواصلة المسير إلى نهاية الهدف فتنة، أي فساد وضرر، وهو انحراف عن جادة الحق، وحصول فساد بين المؤمنين.

والإيضاع هو الفِعْلُ السريع، فهم يتخللون المؤمنين، مُسرعين في سيرهم، يطيرون هنا وهناك، ويُلاحقون النَّاس في مجالسهم، وتجمعاتهم يريدون نكوص المجاهدين إلى ديارهم، وتركِ المسير مع رسول الله ﷺ، ولو دفع هذا لكان نتيجة ذلك المعصية ثم الرد على رسول الله وهذا هو الكفر، لأنَّ المعاصي بَرِيدُ الشرك والكفر[1]، والفتنة في القرآن هي الشرك في مواطن كقوله تعالى: ﴿ **وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾[2]، وهي المعاصي كذلك.

وهذان الوصفان: ﴿ **مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ** ﴾ هما وصف لأثر المنافقين على المجاهدين، **فأولاهما** تتعلق بالإرهاق، **والثانية** تتعلق بالانحراف، وهكذا الشر إما عجزٌ وكسلٌ عن الفِعْلِ الإيماني، وإما عَمَلٌ ولكنه بانحرافٍ عن الحق، وكلاهما ضلال، والصحيح هو العمل الإيماني، وحين يخلو المرء منه بأنه لابدَّ أن يأتي بالباطل لُزُوماً، لأنَّ الفراغ ممنوع، ولذلك فكسل أهل الحق أو عجزهم شرٌّ يقوي أهل الباطل، وأكثر منه شراً هو العمل بالباطل والانحراف عن الحق.

وفِعلهم هذا قد يكون لكثرة شكواهم من الصِعاب دون قصدٍ منهم بحَرْفِ المجاهدين عن مُواصلة الطريق، وإنْ كان في فِعلهم هذا تحقيق للحرف والإفساد، وقد يكون مبعثهم ردّ المؤمنين ليحصل التساوي في الشر، فلا يُعاب عليهم ما لو انفردوا هم بالقعود والجبن وعدم النفير، وكلاهما في الشر سواء.

بهذه الآية احتج أهل العلم بوجوب منع المُخذلين والمُثبطين من الخروج إلى الجهاد مع أهله، لما في خروجهم من الضرر العظيم عليهم وعلى جهادهم، وهي دليلٌ كذلك على وجوب عزل أصحاب الريب والانحراف والأهواء من المجتمعات المؤمنة لنفس الحِكمة والقصد.

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

---

[1] قالَ أَبُو نُعَيْمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو عَمْرِو بْنُ حَمْدَانَ، حَدَّثَنَا أَبِي قالَ: قالَ الأُسْتَاذُ أَبُو حَفْصٍ: «**المَعَاصِي بَرِيدُ الكفرِ**ـ أي تسوق إليه عافانا الله تعالى من الشَّرِّ ـ، كَمَا أَنَّ الْحُمَّى بَرِيدُ الْمَوْتِ».«سير أعلام النُبلاء» للذهبي. الجزء الثاني عشر الصفحة ٥١٠، فصل تاريخ البخاري. طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت، الطبعة السابعة (١٤١٠/١٩٩٠م).

[2] سورة الأنفال، الآية: ٣٩.

في هذه دليلٌ على عدم جواز الاستماع إلى هذا النوع من الخطاب، أي خطاب التخذيل عن الجهاد، وإنْ كان الأمر بعدمِ سماعه فكيف بقبوله وتحسينه؟!.

هؤلاء يملكون المُبررات لصرفِ النَّاس عن الجهاد، فهم يُضخمون الآثار والابتلاءات، ويجعلونها الأصل والأظهر، ويخفون الحسنات خاصة أنَّ حسنات الجهاد في بدايته لا تكون ظاهرةً كما في نهايته، فيستمع لهم أصحاب النظر السريع والقاصر، ويجدون في كلامهم ـ بعض المنطق كما يقولون ـ فيميلون لهم، ويصيرون لهم جُنْداً وأَبْوَاقاً، وهم في خِطابهم يُدغدغون شهوات النَّاس، ومصالحهم الدنيوية فيبرزون لهؤلاء نتائج الجهاد على هذه المحبوبات والرغبات، فيلتقي الخطاب الجاهل السطحي مع الشهوة الكامنة الخفية ليتموا أمام الجهاد ومُواجهته.

لو تأمل المؤمن العاقل في أيامنا هذه ورأى أدلة خطاب هذا النوع من المنافقين والمرضى لرأى هذا جلياً فيهم، إذ أنهم لا يُدَنْدِنُونَ إلاَّ على ما يأتي به الجهاد من البلاء والشهادة والسجن، وهو خطابٌ يلتقي فيه أعداء الإسلام من الزنادقة ضدَّ أي جهاد في سبيل الله حتَّى لو كان مقبولاً من جهة حق الشعوب والأُمم، مع خطاب المسلمين والمشايخ ضدَّ جهاد المؤمنين ضدَّ أعداء الله والمرتدين، فالمُنطلقات واحدة، وتجييش المُخالفين للجهاد يدور حول ضياع مصالح أهل الدُّنيا، أو بحرفِ الأبصار إلى المشقات دون العواقب، أو بقصر الأفكار على عاجل الأمور دون آجلها، وكلها من الجهل والهوى كما قال تعالى: ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ** ﴾[1].

المجاهدون لا يملكون قوة تحصين كل أفرادهم، كما لا يمكن أنْ يكون كل اللاحقين بالجهاد على درجةٍ عاليةٍ من رد الشبهات والحصانة من الشهوات، ولذلك فالطريقة الأقوم هو العزل، وفي زماننا هذا لا يمكن تحقيق العزل الذي كان يمكن تحقيقه قديماً، أي إبعاد المُفسدين من الصف، فإنَّ وسائل الإعلام اليوم وانتشارها تمنع تحقيق هذا النوع من العزل، لكن يمكن تحقيق نوع مهم من العزل، وهو منع إلحاق صفات التعديل في من يحس منه أهل الشأن ضعفاً في عِلمه أو إرادته، فإنَّ المرء مخبوءٌ تحت لسانه، والتجارب تكشف مستويات الخَلق فيجب رصد ذلك كله، وخاصة أصحاب اللسان والفكر والتقدمة، ولو تأملنا تاريخ هذه الأمة وما كُتِبَ عن رجالها في فروع العلم لرأينا شيئاً رائعاً في هذا الباب، وهو باب الرصد والمُتابعة، فَعِلْمُ الحديث مثلاً، وهو أجل ما يمكن الاستشهاد به، لأنَّ شأن الرُواة مهم في قبول حديث النَّبي ﷺ ورده، فعلماء الجرح والتعديل يُتابعون كلَّ روايةٍ يرويها المحدث، ويُقَيِّمُونَ سلوكه ودينه واتجاهه العلمي وحياته ورحلاته وشيوخه وتلاميذه، وكأننا أمام دائرة تنقيب ومتابعة وتحليل، وأهل الجهاد اليوم يجب عليهم رصد المُميزين في أبواب الحياة، وليس هذا من الغيبة، ولا من التجسس، فكل هذه التهم قد ردَّها الأوائل عن هذا العلم لما في ذلك من مصلحة تعود على دين الله تعالى، وحين يُرى في المرءِ ما يَشي بالضعف فيجب التحرز من تعديله

[1] سورة النجم، الآية: ٢٣.

على وجهٍ يكون مقبولاً مرضياً عند النَّاس، لأنَّ انقلاب هؤلاء لو وقع يكون له التأثير الشديد على الجهاد وأهله، فهذا عزلٌ مهمٌ لتحقيق المنعة في المجاهدين.

وهناك عزلٌ آخرٌ يتعلق بتقوية الموانع في داخل الصف المجاهد، وأفسد الموانع وأقبحها هو الجهل، لأنَّ بعض العاملين في التنظيمات والتجمعات يرغب ويحبذ في الأتباع صفة التقليد، لأنَّ التقليد يحجر على عقولهم مِنْ أنْ يستمعوا لغير قادتهم، وهذه الخِصلة هي الغالبة اليوم على عموم الأتباع في هذه التجمعات، والتحصين الحقيقي يكون بالعِلْمِ، لأنه هو القادر أنْ يمدد الشُبه التي يُثيرها المُثبطون والمُخذلون، ومن أهم العلوم هو ربط المجاهد بالكتاب والسنة وفقه الثقات من السابقين، ودوام كشف المُخالفين لهما مِنْ مُدَّعِي فقهٍ وعلمٍ ونظرٍ، وذلك ببيان أصول هؤلاء المُخالفين وقواعدهم ليعرف المجاهد قواعد الانحراف التي تأتي بهذه الأقوال.

هذه المسألة فيها بعض الصعوبة، وهي رفع مستوى العلم الشرعي في أغلب المجاهدين، خاصة حين يتحول الجهاد إلى حالة جماعية في مكان تتحقق فيه الظروف السننية لذلك، وخاصة أنَّ الكثير من الشُبه تلتفُ على الحقائق الشرعية بمكرٍ وخديعةٍ، لا يُدركها إلاَّ الخاصة، ولتحقيق الحصانة لابدَّ من إعادةِ قواعد القرآن الجلية في كَشْفِ المُخالفين والمُعاندين، لأنَّ عَرْضَ أقوال هؤلاء وكذلك أحوالهم على واقع النَّاس زمن رسول الله ﷺ كما يقص ذلك كتاب الله يكشفُ الأمرَ بجلاءٍ ووضوحٍ.

سيذهب المُخالفون دوماً إلى تعقيد القضية، كما هو الشأن في كلِّ مراحل الصراع بين الحق والباطل، وسيزعمون أنَّ قضية الجهاد قضية خاصة في الفقه والفهم، ولا يُدركها إلا خواص الفقهاء، سعياً منهم في إضفاءِ صبغةٍ خاصةٍ على المُثبطين والمُخذلين من المُفتين والوُعاظ والمُفكرين، ولكشفِ هذه الحِيَلِ يكون بإعادة خطاب القرآن الواضح الصريح، وبيان فساد حالِ وسلوكِ المُخالفين، وتناقض أقوالهم، لأنَّ عامة ما يقولونه إنما هو مجرد كلامٍ فارغٍ لا حقيقة له، وهُمْ قَلَّمَا يحتجون بالكتاب والسنة، إنما نراهم يُخْرِجُونَ الفتاوى السريعة دون أدلةٍ، ويكتشف المجاهدون جهل هذه الفتاوى حين يستخدمون الأدلة الشرعية من كتاب وسنة، ولذلك فعامة ما يقولونه هو كلام عام من الكلام على المصلحة، واستنفار الخوف من الضرر وذهاب الدِّين عند المُخالفة.

لا يعني هذا أن ينتهي أثر هؤلاء، لكن لابدَّ من التخفيف من آثارهم، والإنسان لا يمكن ضبط قوله وفِعْلِهِ فيه، ففي زمن رسول الله ﷺ ارتد من كان كاتباً للقرآن[1] بين يدي رسول الله ﷺ، فهذه من محن الإيمان التي لابدَّ من وجودها كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا** ﴿٣١﴾ ﴾[2]. فلذلك صدق من قال من أهل العلم: «إنَّ وجود الأعداء للأنبياء

1

2 سورة الفرقان، الآية: ٣١.

وأتباعهم هو من نصرة الله تعالى لهم»، واحتجوا بهذه الآية، وقد صدق عمار بن ياسر ﷺ حين كان يقول عن أُمِّنَا عائشة رضي الله عنها: «وَاللهِ إِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ، وَلَكِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ابْتَلاَكُمْ، لِيَعْلَمَ إِيَّاهُ تُطِيعُونَ أَمْ هي؟»[1].

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾.

إنَّ مَنْ وضحت له الحُجة، وأنار الله قلبه لطريق الحق لا ينبغي له أنْ يُضَيِّعَ زمانه مُنشغلاً بأهل الجبن والبخل، ليرد عليهم حُججهم النفسية، فإنَّ هذا النوع من الشبه لا ينتهي أبداً، فَمِنَ الحِكْمَةِ الإعراض عنهم، والإقبال على ما فيه خيرٌ للمرء، ولدين الله تعالى، وإنَّ مِنْ أعظمِ الإغاظة لهؤلاء هو الإعراض عنهم، وستأتي آيات عظيمة تحض المؤمنين على هذا الأمر، وهو عدم إعذار المُخذلين وعدم الاستماع لهم.

هذا أحدُ وَجْهَي التفسير في قوله: ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي يتأثرون من أقوالهم، والوجه الآخر من التفسير: إنَّ هؤلاء يسمعون حديث المؤمنين فينقلونه إلى المنافقين من أهل التثبيط والتخذيل، أي أنهم عُيون وجواسيس عليكم لهم[2]، ورجح ابن جرير[3] هذا القول، وأما ابن كثير[4] فقد رجح الأول.

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

هذا دَيْدَنُهُمْ، وَتِلْكَ خِصْلَتُهُمْ، فليس هذا الموقف اليوم في التحضير لتبوك بأمرٍ غريبٍ عليهم، والمرء لا يكون أبداً ابن لحظته، بل هو تاريخ، واللحظة ليست صناعة وقتها، بل هي صناعة ممتدة مع كل أحداث الماضي؛ كقطرات الماء تتجمع لتُشكل حدثاً يبدو للبعض مُفَاجِئاً وليس كذلك، فكل لحظة من الحاضر هي صناعة الماضي، وهي بنفسها تصنع الغد وأحداثه، فهؤلاء المنافقون هذا تاريخهم وتلك صناعتهم، لكنها إلى خسارةٍ ومحقٍ.

هذا أمرٌ لرسول الله ﷺ بعدمِ إقامة الشأن لصنيعهم، وهو أمرٌ لأُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، فإنَّ الله تعالى قد ردَّ كيدهم سابقاً، ومضى أمرُ الله إلى مُستقره الذي يكرهونه، وسيمضي كذلك ههنا، فهم مَقْمُوعُونَ، خَائِبٌ سَعْيُهُمْ.

هذا صنيعهم في أُحد، والخندق والأحزاب، والحُديبية، يرجفون، ويسعون طاقتهم للإفساد والخراب، ثم في كلِّ مرةٍ يظهرُ أمرُ الله وهم كارهون.

---

[1] أخرجه البخاري في «كتاب الفتن» حديث رقم: ٧١٠٠ـ٧١٠١. وفي «كتاب فضائل الصَّحابة» باب فضل عائشة رضي الله عنها. حديث رقم: ٣٧٧٢ ـ بألفاظ متقاربة ـ.

[2] وقال مجاهد: المعنى وفيكم عُيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم، والمعنى الأول أظهر وهو الأشهر ـ أي: وفيكم ضعفاء قلوب يُصغون إلى قولهم ويُطيعونهم ـ، غليه ذهب قتادة واختاره ابن كثير.

[3] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. المجلد السادس، الجزء العاشر الصفحة ١٤٦.

[4] «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» اختصره محمد نسيب الرفاعي. المجلد الثاني الصفحة ٣٤٢.

لقد أعملوا كُلَّ حِيَّلِهِمْ، وجربوا كل ما يُوحي لهم شرهم وشياطينهم، لكن الله كان لهم بالمرصاد.

فهاتان خصلتان للشر فيهم: تاريخٌ متواصل دءوب، وفكر ساعٍ غير مقصر، فهما إحاطتان: زمنية وذهنية، وهذا أبلغ ما يكون الشر، وهي سمة سيدهم إبليس إذ طلب الإمهال إلى يوم القيامة ﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]. وصمم على الإفساد من كلِّ وجهٍ ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ﴾[2].

وأما ظهور أمر الله فلأنَّ المؤمنين كان فيهم ما يُضاد هذين الأمرين؛ فهم في عملٍ دءوب لدين الله تعالى، فلا يكون للحظةٍ أو لوقتٍ ثم ينتهي، بل وقفوا أنفسهم لله في كلِّ حياتهم وأوقاتهم، وكل ما يشغلهم ويشغل أذهانهم وعقولهم هو نُصرة دين الله تعالى.

هذا صراعٌ دائمٌ متواصلٌ، والهزيمة لمن ترمش عينه أولاً، والنَّصر لمن يبقى حاضراً، فالشيطان سيبقى دوماً يركب بإرادته على عبيده وأوليائه، والله سبحانه وتعالى ولي دينه لا يتركه قوم حتَّى يأتي بغيرهم ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾[3].

﴿ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾.

يتكلم النَّاس اليوم عما يُسمى بنظرية المُؤامرة، وهناك جيشٌ من الخبثاء والزنادقة ويتبعهم بعض أصحاب السذاجة ممن يسميهم الأعداء بالمغفلين النافعين يستهزؤون بهذا التصور، وقد انتشر هذا الاستهزاء من هذا الجيش الخبيث والمُغفل ممن يقول إنَّ ما يقع في المسلمين مِنْ أحداثٍ هو ضِمْنَ خُطة مرسومةٍ، ومؤامرةٍ مُدبرةٍ يُديرها أعداء هذه الأُمَّة فيها، وقد تسرب بعض ما يُديره هؤلاء الأعداء لاستغفال الأُمَّةِ، ومن ضمن هذه الخُطط هو نشر ثقافة الاستهزاء ضد القائلين بوجود مؤامرة.

إسقاط وجود مؤامرة ضدَّ هذه الأُمَّةِ هو محاولة لتبييض صفحة الأعداء، وإظهارهم بمظهر الطيبين، وأنَّ كلَّ عِلَلِ الأُمَّةِ إنما هي من داخلها، ومِنْ صُنْع أيديها، فهي خطة من وجهين:-

أولهما: تبرئة الأعداء من إجرامهم وخُبثهم ومكرهم الليل والنَّهار ضدَّ الإسلام والمسلمين.

ثانيهما: نشر ثقافة جلد الأمة وتحقيرها تحت دعوى الإصلاح، ويرتكز هذا الأمر على صور متعددة؛ **منها**: وصف هذه الأمة بصفات لازمة، وكأنها موروثات جينية في بُنْيَتِهَا، ولا تنفك عنها، بأنها أُمة متخلفة، جاهلة، لا تصلح قط لأي داعية تجديد أو تقدم، فهي دوماً أمة ثقافة الموت والخراب والفساد، ولإعمال هذا التفسير يذهبون إلى التاريخ لِيُشوهوه ويقرؤونه من خلال تعظيم وتكبير أحداث الفتنة، وهذه طريقة بدأت قديماً، ولكنها تستخدم اليوم ضمن الخطة الكاملة هذه.

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٤.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٧.

[3] سورة الحجر، الآية: ٤٢.

ومنها: أنَّ سبب تخلف هذه الأُمَّة هي موروثاتها الدِّينيَّة، والكثير منهم يهرب من هذه التسميَّة إلى تسميات أخرى تهويناً من مصادقة الدِّين مباشرة، فيسمُّونها: موروثات غيبيَّة، أو تاريخيَّة، أو اجتماعيَّة، والسهم في حقيقته مُوجهٌ ضدَّ الدِّين، بل إنَّ بعضهم لا يجبن من أن يستخدم آيات قرآنيَّة شعاراً لهذا المستهزأ به.

ومنها: تحقير وتسفيه العاملين لدين الله تعالى، وإبرازِ أخطائهم سواء الحقيقيَّة أو المكذوبة أو المُؤولة على وجه الخطأ وهي أعمال حق ودين.

أمام هذا القصف ضدَّ الدِّين والتاريخ والرجال يتم تبرئة الأعداء، وكأنهم غير معنيِّين بإفساد أُمَّتِنا، ولا بِنَهْبِ ثرواتها، ولا بتفتيتِ قِواها، فلا وجود لكلِّ هذه الأوهام التي يدَّعِيها البعض من وجود مؤامرة لهذا.

في هذه الآية كشفٌ ربَّانيٌّ أنَّ صف النِّفاق في داخل المجتمع المسلم يخطط ويتآمر، ويدرس ويحلل ويمارس أفعال الهدم والإفساد، ونشر الفتنة، وفي آياتٍ أُخر كشف حديثهم في السرِّ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

وذكرَ عن اليهود قوله: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[2].

وقد ذكرَ الله مكر الأعداء في غير هذين الموطنين كثيراً، وكان المكر مُوجهاً في أغلبه للضعفاء فقال سبحانه عما يدور بين المُستضعفين والمُستكبرين في جهنَّم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾[3].

فهو مكرُ اللَّيل والنَّهار إذاً، وهذا هو قول الله تعالى في كشف أستار هؤلاء المُستكبرين المجرمين، ولو تتبعَ المرءُ كلَّ وِدْيَان الباطل سواء كانت الثقافيَّة أو الاجتماعيَّة أو السياسيَّة أو الاقتصاديَّة لَوَجَدَ أنَّ القائمين عليها هم أُجَرَاءٌ للمُستكبرين المجرمين، فَلَهُمْ عشرات المجلات ومئات الجرائد وآلاف

1 سورة البقرة، الآية: ١٤.
2 سورة آل عمران، الآية: ٧٢.
3 سورة سبأ، الآيات: ٣١-٣٣.

المراكز الثقافيَّة التي تمول مِنْ قِبَلِ الكُفر ودولته ومؤسساته، وكلّها تعملُ لِتُوهِنَ عواملَ القوة في داخل هذه الأُمَّة، ومثل هذه الأمور لم تَعُدْ خفيَّة، بل صار الكثير منها يصرخ بذلك ولا يأنف من هذه التهمة القذرة لشدَّة خُبْثهم ولقوة سيطرتهم، بل صار الأمر إلى بعض العاملين في داخل الصف الإسلامي أنْ التحقوا بهذه الأنهار النجسة الخبيثة، يدخلونها تحت مُسمى البحث العلمي، والفكر المجرد، والدراسات الثقافيَّة، فلمِ يعدْ غريباً أنْ ترى دكتوراً!! في الشريعة مستشاراً لوزارة الداخلية البريطانية أو الفرنسية، أو باحثاً في مخابرات هذه الدول وأمريكا، أو في وزارة الدفاع، وبعضهم يتستر باسم المعاهد العلميَّة التي تُدرِّس الإسلام للعاملين في هذه المؤسسات المجرمة، أو تعتني بالمسلمين!! «وهمُ المرتدون» العاملين في مؤسسات الأمن والجيش والشرطة.

كل هذا لم يعدْ غريباً، ولا مُنكراً، بل يصرحون بذلك، ويُعَرِّفُونَ أنفسهم بمثل هذه الألقاب: مستشار في وزارة الداخلية، أو وزارة الدفاع «الحرب ضدَّ المسلمين».

بل إنَّ بعض قادة الحركات الإسلامية قد التحقوا بهذا الركب المجرم، وصاروا إلى الردة والكفر، والقيام بدور الشيطان الرجيم، ووضوح هذه الأمور في زماننا يعود فيها الفضل إلى الله سبحانه وتعالى ثم للمجاهدين الذين رفعوا درجة المُواجهة بين الإسلام والكُفر، فازدادت الحرارة فَبَانَ الزيف من الذهب النفيس.

إنَّ وقودَ المُؤامرة همُ المنافقون والمرتدون وضِعاف النُّفوس، وهؤلاء قد كثروا اليوم كتكاثر الظباء على خراش، ومن الدِّين والعلم وواجب التاريخ أن يُسجل أسماء هؤلاء بأمانةٍ وصِدْقٍ، ولِنُصْحِ الأُمَّةِ حتَّى لا تقع في حَبائلهم، وهذا من بابِ الدِّين والعلم وأمانة الشَّهادة على الخَلق، وهم أصنافٌ يملئون كلَّ سُبُلِ الحياة وخاصة وسائل التوجيه كوسائل الإعلام ومشايخ الفقه، ومدَّعي الاجتهاد في الدِّين واللغة والتاريخ، ولولا ضيق ذات اليد ههنا في هذا السجن مِنْ قِلَّةِ الوصول للمراجع والأدلة لَفتحتُ هنا في هذه الصفحات هذا الباب بأسماء أقوامٍ يكون ذِكْرُهُمْ عاراً عليهم وعلى جماعاتهم وأفكارهم، لكن لن يُعدم وُجود العلماء القادرين على هذا الأمر ممن همْ في سعة من ذلك، وليعلموا أنَّ هذا من الواجبِ الشرعي الذي يأثم مَن يتركه وهو قادرٌ عليه.

المُؤامرةُ حقيقةٌ قرآنيَّةٌ، وحقيقةٌ واقعيَّةٌ لا ينفيها إلاَّ خبيثٌ مأجورٌ أو جاهلٌ مُغَفَلٌ ساذجٌ يصلحُ مطية للأخباث دون عِلْمٍ ودِرَايةٍ، وهم كما وصفهم الله تعالى «أي المتآمرين» يُقلبون كلَّ الاحتمالات، ويفكرون اللَّيل والنَّهار، ويستخدمون كلّ ما بوسعهم لصرف النَّاس عن دينهم، لأنَّ الدِّين هو العامل الوحيد الذي يحصل به التحصين الحقيقي، فقد سقطت كلّ الأفكار، وسقط أهلها، ولحقوا بأعداء الأُمَّةِ، ولم يبقَ في المعركة عند اشتداد أوارها إلاَّ أهل الدِّين والجهاد، فقد أبانوا بفضل الله تعالى عن معدن الصِّدق والإيمان، والقوة واليقين، والصَّبر وتصديق الوعد، فالحمد لله ربِّ العالمين.

بَقِيَتْ مسألةٌ يكثر فيها الخوض، وهي بروتوكولات خُبثاء «حكماء» صهيون، وهي إحدى المسائل بين مُثبتي تآمر الأعداء ضدَّ الأُمَّةِ المسلمة، وبين نُفاة هذا التآمر، وإنْ كان يُوجد مِنْ مُثبتي نظرية المُؤامرة مَنْ يَنْفِي صحة هذه البروتوكولات، وقد تكلم فيها النَّاس الكثير، والذين ينفون صحتها يعتمدون على الشُّبهة التاريخية من جهة سندها، أو ينفونها من جهة آثارها لأنها تُظهر اليهود كقوة مسيطرة لا يُردُّ لها كيدٌ ولا تخطيطٌ.

وأنا هنا أقول فيها بما أراه، مع قراءتي للكثير من شُبه النافين لصحتها، وكذلك تقديري لما يقولون من حُجج، وخاصة ما يتعلق من الآثار النفسيَّة التي تحدُثْ ما لو آمنَ المرءُ بصحتها، أما الشُّبهة التاريخية فليست ذات قيمة لا للنافين ولا للمُثبتين، لأنها خالية مِنْ قوة الجزم، وإنْ كان الشك في السند يكون قوة للنافي، إلاَّ أنَّ مثل هذه الأمور لا يتعلق وجه الصحة لها مِنْ جهة السند بل من جهةٍ أُخرى وهي إثبات الواقع لها أو عدمه.

لو أخذنا هذه الوثيقة من جهةٍ عكسيةٍ لا رأسيةٍ، أي لو بدأنا بالواقع وأحداثه لِنَتَجِهَ بعدَ ذلك للنَّص، فهل يكون النَّص مُطابقاً للواقع أم لا؟!.

إذا ثبتت صحة الوقائع، وهي ثابتة دون شك، ولا أعلمُ أحداً شكك بواقعةٍ واحدةٍ في ما ذُكِرَ من هذه الوقائع، بل الأحداث كلّها تدل عليها، فحينذاك يُصبح إثبات هذه الوثيقة أقرب للصحة والإثبات، ولذلك فالذي يميلُ إليه القلب أنَّ هذه وثيقة صحيحة، لصحة وقائعها وأحداثها، وأما الآثار النَّفسيَّة للقول بهذا القول فهو مردودٌ، لأنَّ إدراكَ المرض على الوجه الصحيح خيرٌ من تجاهله مهما كان عظيماً وقوياً، فاليهود هم في عُلُوِّهِمُ الأول كما أعتقدُ مِنْ تفسير آيات سورة «الإسراء»، وهو عُلُوٌّ عجيبٌ وغريبٌ في أطوار التاريخ، وإدراكنا لهذا يُعطينا قوة للمُواجهة، ويبصرنا بالطرق السليمة لمواجهته، أما دفن الرؤوس في الرِّمَالِ فليس وسيلة مرضية في إصلاح الخطأ، ولا مُعالجة الخطر، واليهود يحاولون بقوةٍ ردَّ تُهْمَةِ هذه الوثيقة، ومثلها قصة الفطير المقدسي، أي الذي يعجنه اليهود في أحد أعيادهم[1] مع دم رجلٍ من الغوييم «أي الأُميين، وهم غير اليهود»، وهي عقيدة ثابتة في التلمود كشفها باحثون كُثر، وأما قصة قتلهم لطبيب توما[2] في دمشق فهي ثابتة في الوثائق، وقد سجلها الأستاذ نجيب الكيلاني في رواية سماها «دم لفطير صهيوني»، وهناك كتاب منشورٌ يُسجل وثائق هذه الحادثة قدَّمه أستاذي مصطفى الزرقاء رحمه الله تعالى، واليوم لا يحتاج اليهود لقتل أُمي لهذا الفطير لأنَّ بنوك الدم يمكن أنْ تُوفر لهم هذا الطلب.

سيبقى مَنْ يُنْكِرُ الحقائق لغرابتها مِنْ جِهَةٍ، أو للجهل مِنْ جِهَةٍ أُخرى، لكن الواجب هو إعمال الطُرق العلمية للإثبات والنفي، ولا يضرك بعد ذلك مَنْ يخالفكَ أو يُعاديكَ، لأنَّ العالَم اليوم غير

---

[1] هو «عيد الفصح».

[2] هو صاعد بن يحيى بن هبة الله بن توما النَّصراني. من أهل بغداد؛ كان من الأطباء المتميِّزين، وكان طبيبَ نَجم الدولة أبي اليُمْن نجاح الشّرابي، كمن له اثنان من الأجناد ليلاً وقتلاه بالسكاكين سنة عشرين وستّمائة. انظره في «الوافي بالوفيات» لصلاح الدين الصفدي.

محكومٍ بالحقائق، بل إنَّ أعظم الحقائق يستهزئ بها المستهزئون ويُكابر في قبولها الْمُشككون، فمع وجود الأطباء وعلماء الفلك، والفيزياء، إلاَّ أنهم يعبدون البقر، ولا يأنفون من ذلك، فلا يخدعك القول: بأنَّ هذا عصر العلم، وزمن التطور والتمدن، فإنَّ النَّاس وإن تقدموا في الفيزياء والكيمياء والفلك إلاَّ أنهم في جاهلية في باب القصائد والقيم والتصورات، وهي التي تزن الحضارات وتحكم عليها.

﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ ﴾.

إنهم لن يَأْلُوا جُهْداً، ولا محاولةً، إلاَّ وسيسلكونها في هذه الأُمَّةِ، فناس يشترونهم ويُضلونهم بالمال، وآخرون بالسلطة، وآخرون بالشهوات البدنية، ومن لم يقبلِ الدخول في هذه الْمُغريات برضاه فإنَّ سوط القتل والسجن بإيجاد إسلامٍ مُزَوَّرٍ ومحَرَّفٍ ومُؤَوَّلٍ، يقطعون منه عوامل العبودية، وبواعث العزَّة، وقوة التأثير للوراثة، فلا يشعر المرء بأنه يخالف دينه، وكلما تراجع خطوة طلبوا منه أُخرى حتَّى يصيرَ إلى عبوديةٍ تامةٍ لهم ولشياطينهم، فيسلبون منه الدِّين ثم يسلبون منه الدُّنيا كذلك، وقد صدق من قال في تنصير الأوروبيين للأفارقة: «لقد أخذوا منهم كلَّ ما يملكون، وجعلوهم عبيداً لهم، ولم يعطوهم إلاَّ الإنجيل»، ويُزاد على قوله: «ولم يعطوهم إلاَّ الإنجيل لكن بعد أنْ استهزؤوا به وجعلوه ألعوبة لتحريفهم إيَّاه واتخاذه مطية لأهوائهم».

﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾.

الحقّ قوةٌ في نفسه، فكما أنَّ كلمة الله العُليا دَوْماً، إذ لم يقلِ الله فيها ما قال في كلمة الذين كفروا: «وَجَعَلَ»، فكذلك الحقّ يملك عوامل القهر لغيره، ولذلك يصف الله حركته بهذا اللفظ السهل: «جَآءَ»، وحين وصف الله فاعليته قال: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ ﴾[1]، والباطل عَدَمٌ كما هو شأن اللَّيل، فإنه يعني عَدَمَ وُجود الشمس، فوجود الباطل يعني غِياب الحقِّ، وحضور الحقّ كحضور الشمس يعني غياب الباطل، ولذلك فعجز أهل الحقِّ إنما هو سبب غيابه، لا لضعفه، لكن لعجزهم أو كسلهم عن حمله ليحقق زوال الباطل، وهذا يعني أنَّ الحقَّ لا يحتاج للباطل في شيءٍ ليُحقق وجوده، بل وجود الباطل في شيءٍ يعني أنَّ الحقَّ مستورٌ مُغَيَّبٌ لِضُعْفِ أصحابه من جهة علومهم حيناً، ومن جهة إرادتهم حيناً آخر أو باجتماع غيابهما.

ولذلك فَمِنْ جَهْلِ بعضِ المسلمين بالحقِّ، وغِيَّاب هدايته عن قلوبهم وعقولهم يذهبون إلى الباطل ليأخذوا منه أَرْجُلاً لِيُقيموا عليها ما يعتقدونه مِنَ الحقِّ، ويُسمُّونها حيناً بالوسائل، أو بالْمُتغيِّرات، وكلّ هذا لجهلهم بشمولية الحقِّ وهدايته، ولو استفرغ هؤلاء وُسْعَهُمْ في الكتاب والسنَّة وسيرة الخلفاء المرضيين لَوجدوا في ذلك الهداية والرُّشد، ولذلك فإنَّ العلمَ مستقرٌ أنَّ العلاقة بين الحقِّ

[1] سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

والباطل هي علاقة صراعٍ وتدافعٍ، لا كما يريدها البعض اليوم علاقة تآلفٍ وتكافلٍ وتعاونٍ، وهؤلاء حين يأخذون ببعض الباطل إنما يُضَيِّعُونَ بمقدار ذلك من الحقِّ، وحين يتخلف الحقّ تتخلف النُّصرة والتأييد، وكلما تخلف في بابٍ تخلفتِ النُّصرة من هذا الباب وبهذا المقدار.

﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

كراهية أعداء هذا الدِّين تتعلق بأمرين؛ وجود الحقِّ وظهوره، وهم يعلمون أنَّ وجود الدُّعاة والعلماء الربَّانيِّين يعني أن يكون للحقِّ رجالٌ يتحقق ظهوره وغلبته، ولذلك فهم يبذلون وسعهم لطمس الحقِّ، ومنع الدعوة إليه، أو تحريفه أو تزيِّيفه، فإنْ حصل هذا امتنع غلبته وظهوره.

هذا التلازم بين معرفة الحقِّ، وإيمان رجالٍ به ليتحقق الظهور هو قدرٌ مضطردٌ، والحقُّ قد يكمن لكن لا يموت، وقد يعيش في الهامش لكن لا يغيب، فقد وصف الله الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة لها وُجُودان؛ واحدٌ في الأرض ثابتٌ لا يزول، وآخرٌ في السَّماء يمدها بأسباب الحياة والنَّصر قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[1]، فهذا وصفُ حقيقتها، وكذلك وصفُ آثارها في قلوب الرجال، ولذلك من عجائب ما وقع في الأقدار أنَّ إبراهيم عليه السلام أذن في النَّاس حيث لا ناس في تلك الأرض المُباركة، ثم تردد صوت هذا الأذان في قلوب ملايين الخَلق بعد هذا الأذان بقرونٍ عديدةٍ كما قال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾[2]، فهذا سرٌّ قوة الحقِّ الذي يجهله أهل الباطل، ويجهله بعض مَن يقول من المسلمين إنَّ الأذان في النَّاس اليوم لا ينفعُ ولا يُغَيِّر الواقع.

لقد كمنت بعض كلمات أهل العلم مئات السنين في الأرض، ثم انبعثتْ حاضراً كأنها قِيلَتِ اليوم، وكأنَّ قائلها يعيش بين النَّاس ويُلقيها بين أظهرهم، فقد قال ابن تيميَّة رحمه الله كلماته، ولما ماتَ كان بعض تلاميذه يستر اسم كتابه إنْ كان لابن تيمية، ثم انبعث ابن تيمية في وقتٍ آخرٍ، وزمنٍ آخرٍ كأنه وُلِدَ من جديدٍ، فلا يغرنك كثرة الباطل ولا عُلوه فإنما هو زبدٌ فارغٌ وإلى زوالٍ، ولا يحزنكَ قلَّة أتباع الحقِّ ومحنة أصحابه فإنَّ لهمُ الظهور والنَّصر بإذن الله تعالى.



[1] سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٤-٢٥.
[2] سورة الحج، الآية: ٢٧.

إضاءة

لقد ذكر الله فضله على المؤمنين بعدم خروج المنافقين معهم إلى تبوك، وعلل ذلك بقوله: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾[1]، وقد ذكر في هذه الآية أنهم ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ﴾[2]. فباء أمرهم إلى خُسرانٍ وهزيمةٍ، فهل تغيَّر الحال بين واقعٍ كان لهم فيه إمكانية الفتنة والإيضاع بها، وبين واقعٍ جديدٍ بَطُل سعيهم فيها وخاب في إمكانية إعمالها؟.

نعم، هذا وجهٌ لأنَّ سعيهم السابق كان له تأثرٌ كما حدث من رجوع ثلث الجيش في أُحد، وكما هو شأنهم في الأحزاب، لكن صرف الله هؤلاء المُنافقين عن الذهاب معهم في هذه المرحلة الشاقة الطويلة هو لاستغناء المؤمنين عنهم، وعن تكثير السواد بهم، لأنَّ هذه رحلة الصَّبر، وهو عدتها، فأي إضعاف له هو الفتنة.

ووجهٌ آخرٌ أنَّ المؤمنين بين حالين؛ حال يقدرون فيه رد فتنة المنافقين وإبعادها وعزلهم، وحال لا يكون لهم القدرة في ذلك، والله عزَّ وجلَّ هو الناصر لدينه، ومُؤيد العاملين له.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[3].

لقد كان احتجاجهم سابقاً بالظرف وعدم القُدرة فأكذبهم الله تعالى، وها هي حجةٌ جديدةٌ، لكنها من نوعٍ آخرٍ وسبيلٍ محدثٍ، وهو التستر باسم التقوى وخوف المعصية، فهذه لغة لها القبول في قلوب المؤمنين، بل ربما ترفع درجة صاحبها في نظر البعض، لأنَّ دافعه زعم الخوف من الله، وحفاظة التقوى والإيمان.

هذا فنٌّ شيطانيٌّ محكمٌ، تقوم عمادته على ضرب الدِّين باسم الدِّين، وقد نقل بعضهم عن بعض أتباع الشيطان قوله: «لا يُوجد طريقة أحكم ولا أقوى من محاربة الدِّين باسم الدِّين»، والتخفي بالتقوى للهروب من التكليف والجهاد وأساليبها.

خطاب هؤلاء اعتمد أنَّ الذهاب إلى أرض الروم محفوف بالمخاطر الدِّينية، لأنه قذفٌ لهم في أماكن فتنة النِّساء البيض، وقد علم قديماً أنَّ نساء بني الأصفر سافرات، يحضرن بهذا السفور في المجامع والأسواق ومجالس الرجال، فادعى البعض أنَّ ذهابهم لتلك الأرض مع المؤمنين سيُعرضهم للفتن والمعصية؛ فجعل الله جلوسهم وعدم نفيرهم هو الفتنة التي أوبقوا أنفسهم بها، ومَن كان هذا حاله فجهنَّم مصيره ومُستقره.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٧.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤٨.

[3] سورة التوبة، الآية: ٤٩.

الجهاد في سبيل الله تعالى فعلٌ إنسانيٌّ، وهو محكومٌ بسنن الأرض وقواعدها، وإنْ كان الفعل كذلك فهو نسبي، فيه الحقّ الكثير، وفيه الضرر والخطأ، والأحكام الشرعية مبناها على الغلبة، فحين يكون الفعل ضرره أكثر من نفعه فإنَّ الشرع يمنعه[1]، وحين يكون الفعل نفعه أكثره من ضرره يحله الشرع ويحضُّ عليه، والتقدير يعود للشارع لا للخَلق، وكذا ضبط المصلحة والمفسدة، فإنَّ المعروف ما عرَّفه الشارع وحضَّ عليه، والمُنكر ما أنكره الشارع وحضَّ على تركه، فالذين يطلبون من الجهاد النفع المُطلق، والحسنات التي لا تشوبها سيئة، والمعروف الذي لا يُقارنه ضرر هم واهمون جهلة، ووجود هذه الخلائط هي فتنة المنافقين، إذ يلقون على هذه الشوائب مَرَايَا التكبير، ويُضخمونها حتَّى تبدو أنها الأصل والأكثر والأعم، فيستجيب لهمُ المغفلون تحت دعوى الطُهر والتقوى وخوف المعصية.

هذه حيلةٌ مُحكمةٌ، يتم بها إنهاك الدِّين بسلاح الدِّين، وضرب المسلمين بالمسلمين، فتكون المصيبة داخلية، ويتحقق ما سمَّاه البعض بنصرٍ بلا حربٍ وهي خطة لها أسلوبان: سلبية بصرف المسلمين عن الطاعات وخاصة الجهاد في سبيل الله، وفِعلية وهي تحقيق الصدام بين المسلمين أنفسهم.

الأسلوب الأعلى يقوم على عزل المجاهدين عن المسلمين، وتنفيرهم عنهم، ليخلوا لهم اقتناصهم وتدميرهم، وهذا الأسلوب له مستويات، وتبدأ المعركة في تحقيق نتائجها حين يقول مسلم أو بعض المسلمين عن المجاهدين: إنهم يُؤيدون الجهاد والمجاهدين ولكن...، بهذه الكلمة يتم الاختراق، ودوافع هذا الاستثناء يكون تارةً بسببٍ حقيقيٍّ في الاختلاف، ولكنَّ الكثير منه سببه الخوف من دفع ثمن الدخول في طائفة الجهاد، أي ليحفظ لنفسه من المُسائلة التي تترتب على قوله إنهم منه وهو منهم، وهذا الخرق يبدأ في الاتساع، لأنه في حقيقته إعطاء موطئ قدمٍ للشيطان وجُنده في نفسِ وعقلِ قَائِلِهِ، وبعدها يسهل جره بعيداً عنهم حتَّى يصل للعداء لهم، **وَلِذَلِكَ فَإِنَّ التَّقْوَى أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ بِكُلِّكَ، وَزَعْمكَ أَنَّكَ لَسْتَ قَائِلاً بِكُلِّ ما فيهم تحت بابِ الورعِ زعمٌ باطلٌ، فأنتَ لستَ الحقَّ المُطلق، لا بما تقول ولا بما تفعل، ولو خطوتَ خطوةً واحدةً في العمل لأدركتَ فسادَ قولكَ حين يأتي آخرٌ لِيقولَ عنك هذا القول**، لكنكَ في ساحة الوسع وعدم الفعل، وقلة العلم، وفراغ المُمارسة تصغي عليك حالة من شعور امتلاك الحقِّ المُطلق الذي يعطيك حقَّ وزن الآخرين من خلالك.

يبدأ هؤلاء بدعوى عدم التقليد، فإنهم لجهلهم يظنون أنهم لو قالوا نحن مع المجاهدين في كلِّ أعمالهم سيفقدون حقَّ الاختصاص بأنهم أهل نظرٍ مستقلٍ، وأنَّ لهمُ القُدرة العلميَّة والعمليَّة بأنْ يكون لهم شأنٌ خاصٌ، ووجود مستقبل، ولو قدّر لأحدهم الممارسة حقاً لَرأى مِقدار أوهامه التي يحيَّاها، وأما إنْ بقي في صحراء الفَراغ دون عملٍ فسيموت وهو يشعرُ دوماً أنَّ المسلمين لا يعرفون قِيمته، وأنه لم يأخذ فُرصته في الإبداع والقِيادة والتوجيه.

---

[1] كما هي القاعدة الأصولية: «درء المَفْسدة مُقدَّم على جلب المَصْلحة».

إنَّ قول أهل التقوى والدِّين والعلم إنهم مع المجاهدين في جهادهم يعني براءتهم من الكافرين، وإعذارهم للمؤمنين، كقول الصَّحابي الجليل أنس بن النضر ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ ـ يَعْنِي الْمُسْلِمُونَ ـ وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ»[1]، وهو عين قول النَّبيِّ ﷺ في فتح مكة عن فِعْلٍ لخالد لم يرضَ عنه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالَدُ بْنُ الوَلِيدِ، مَرَّتَيْنِ**»[2]. فهذا حوارٌ داخل الصف، وهو قولٌ من خلال العمل والولاء والانتماء لا بعيداً عنه، ولا إعراضاً عنه، والتبعة تكون على الجميع، أما الاستثناء من هؤلاء فهو حجة لهم في الابتعاد الكُلي عنهم، وقد رأينا هذا من خلال المُمارسة، أي أنه يبدأ من هذه «لكن...» ثم ينتهي أي أن يكون مع الآخرين، بل وصل بعضهم أن يكون مع الكافرين ضدَّ المجاهدين.

أنْ تصدقَ مع الله، وأنْ تنصحَ لأهل الجهاد هو أنْ تكونَ منهم، تحمي ظهورهم، وتدفع عنهم جهلَ الجاهلين، وظُلْمَ الظالمين، أما أنْ تجلس لِتَتَلَقَفَ أكاذيب أعدائهم، وجهالات خصومهم لتتخذها ذريعة لِتَتَنَصَّلَ من فِعلهم فهذا فِعْلُ جَبَانٍ وَجَاهِلٍ، وهو صنيع الُمتخاذلين، وحين تتستر بالدِّين والتقوى يكون ستراً عن نفسك وعند أهل الدِّين وأهل القرآن مكشوفاً.

هذا المستوى يرضاه منك الأعداء، وهم يُتقنون البناء عليه واستغلاله، لما يملكون من منصات إعلام هجومية، وقُدرة في الوصول للجموع، وتقيِّيدهم أهل الحقِّ من الدفاع ونشر الحقِّ، والصور الصادقة للفكر والحدث، وعندهم لعبة جاهزة، وللأسف فإنها كثيراً ما تُؤْتِي أُكُلها وهي شقُّ الصف بمجردِ وجُودِ فجوةٍ صغيرةٍ فيه، إذ يبدؤون بغرس حِرابهم فيها وتوسعتها حتَّى يتم الفصل النهائي، والدافع في بدايته هو الحقّ والدِّين وتحقيق الصواب، ولذلك يجب قراءة الخلاف من وُجوهٍ كثيرةٍ، ليس فقط ما تعتقد أنه الصواب، لكن لابدَّ مِنَ النظر إلى عواقبه، لأنَّ عواقب الخلاف شرٌّ مِنَ الخطأ الذي لا ترضاه في الآخرين، ولذلك فإنَّ هذا المستوى اليسير يصل كثيراً إلى الحرب والقتال بين الطائفة الواحدة، وقد تبيَّن من سنن التاريخ والفتن، أنَّ الفتن لا تكون بقرار، وأنَّ أصحابها لا يريدونها، لكنها تبدأ منهم على وجه الخير في مراتٍ كثيرةٍ ثمَّ سُرعان ما يتلقفها الجهلة والمنافقون والكفرة فيدفعونها إلى نهايتها، ومَن تأملَ معركة الجمل رأى هذا جلياً وواضحاً، وتبيَّن له أنَّ المرءَ يريد الحقَّ، لكنه يصل به الُمطالبة بالحقِّ من خلال مُنازعة المسلمين إلى القتال وإراقة الدماء، فهذا شأن الفتن لا تقعُ بقرارٍ من أهلها، لكنهم يمهدون لها دون إِدْرَاكٍ وَعِلْمٍ، فهكذا أدى الأسلوب الأول وهو صرف المسلمين عن الطاعات إلى تحويلهم إما أدوات للباطل ضدَّ المسلمين في أيدي الكافرين، أو أدوات صِرَاعٍ بين المسلمين أنفسهم.

---

[1] أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ في «كتاب المغازي» باب غزوة أُحد. حديث رقم: ٤٠٤٨، ومسلم في «كتاب الإمارة» باب ثبوتِ الجنَّة للشهيد. حديث رقم: ١٩٠٣.

[2] أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ في «كتاب المغازي» باب بعثِ النَّبيِّ ﷺ خالدَ بن الوليد إلى بني جَذيمة. حديث رقم: ٤٣٣٩، طرفه في ٧١٨٩.

الدِّين حقٌّ، وأمرٌ ربَّانيٌّ، لكن يجب على المسلمين إدراكَ مُستوياته حتَّى لا يضخم أمرٌ على أمرٍ أكبر منه، ثم يجب الحذر من اتخاذه سلاحاً بيد الأعداء، لأنه خطاب يمكن اتخاذه سلاحاً ككلِّ خطابٍ آخرٍ، وقد جعلَ الله فيه إمكانيَّة الفتنة ابتلاء للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ** ﴾[1]. فالقرآن لا يملكُ الحصانة من تأويله وتحريفه في معانيه كما يملكُ عصمة تبديله وتغيِّير ألفاظه كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾[2]، وكم كلمةٍ قِيلَ فيها ما قاله علي بن أبي طالب ﷺ: «كلمة حقٍّ يُراد بها باطلٌ»[3]، وهذا من باب الابتلاء للمؤمنين وللعلماء منهم، فإنَّ الشُّبهات بابٌ من أبواب الشيطان، وأعظمها ما كان دليله من القرآن والسنَّة على وجه التحريف والتأويل.

لقد حرَّم المرضى والُمنافقون اليوم الجهاد، واحتجوا بالقرآن والسنَّة، وأخضعوا الأُمَّةَ للطواغيت، وأشربوها كأس الذل والخضوع والإهانة، وكلّ ذلك بآيات القرآن وبأحاديث النَّبيِّ ﷺ، ولذلك كانت انتكاسة هذه الأُمَّةِ أشدَّ من غيرها، لأنَّ باعث الجهل فيها هو الدِّين الباطل، وباعث الخنوع والذلة والجبن هو الدِّين المُزور، مع أنَّ أُمماً كثيرةً تتحركُ بفِطرتها في الحياة، وبما يحققُ لها مصالحها دون أي اعتبارٍ ديني لكنها تسير مسيراً صحيحاً في مجموع هذا السير، لكن حين يتحول الدِّين أُلعوبة بيد الطواغيت، ومحرفاً بأيدي فقهاء الباطل، وفتوى خنوعٍ في فم قُطاع الطريق فإنَّ المحنة تكون شديدة، ومِنْ أجلِ ذلك كان من تحذيرات الحبيب المصطفى لهذه الأُمَّةِ: «**لَتَتَبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْراً شِبْراً وَذِرَاعاً ذِرَاعاً حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»[4]. فكما أنَّ هذه الأُمَّة مجمع الخير، وأعظم الأُمم، ومعصومة بمجموعها، إلاَّ أنها مجمع كلّ شرور الأُمم السابقة، فلا يوجد ذنبٌ وقعت فيه أُمَّة سابقة إلاَّ وسيكون فيها، ولذلك فلا عجبَ أنْ يكون فيها طائفة جهاد تأتي بالعجائب من الكرامات، وخيرات الأعمال في إصلاح العالم وتقويمه، وهدم صروح الباطل وأصنام الكفر، ثم يكون أكثرها في ذل ومهانة لا مثيل لها في الأُمم، وترجع إلى التبعية والسُّخْرَةِ[5] لأعدائهم، ويكون أخس خَلق الله هم قادتها وأهل الشأن فيها، وأعجبُ العجبِ أن يكون المجاهدون ـ وهم

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ٧.

[2] سورة الحجر، الآية: ٩.

[3] ذكر ابن جرير أنَّ علياً ﷺ بينما هو يخطب يوماً إذ قام إليه رجلٌ من الخوارج فقال يا علي أشركتَ في دين الله الرجال ولا حُكْمَ إلا لله فتنادوا مِنْ كلِّ جانبٍ لاحُكْمَ إلاَّ للهِ لاَ حُكْمَ إلاَّ للهِ فجعلَ علي ﷺ يقول: «**هذه كلمة حقٍّ يُراد بها باطلٌ**». «البداية والنهاية» لابن كثير. الجزء السابع الصفحة ٢٨٠. طبعة مكتبة المعارف ببيروت (١٩٨٨م).

[4] البخاري في «كتاب التوحيد» باب قول النَّبيِّ ﷺ: «**لَتَتَبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**». حديث رقم: ٧٣٢٠، ومسلم في «كتاب العلم» باب اتِّباع سُننِ اليهودِ والنَّصارى. حديث رقم: ٢٦٦٩.

[5] السُّخَرَةُ: الضُّحَكةُ، فأما السُّخْرةُ: فما تَسَخَّرْتَ من خادمٍ أو دابَّةٍ بلا أجْرٍ ولاثمن، تقول: هُمْ لك سُخْرةً وسُخْرِياً. «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

أكثر الخَلق في زماننا ـ لا شأن لهم بين مشايخ الفتوى والدِّين والفقه، مع أنَّ أحدهم لو وُجِدَ في أُمَّةٍ أُخرى لافتخرتْ به حاضراً وتاريخاً، يعني أفرادها بالعزَّة والرُّشد والقيادة، لكن صدق مَن قال: «لا كرامة لِنبيٍّ في وطنه»، وما ذلك إلاَّ بسبب خذلان الله لأهل الكسالة والبطل والجبن والبخل والنِّفاق.

﴿ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓ﴾.

لقد قال ذو النُّورين الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ كلمة صدَّقها التاريخ: «والله لو قتلتموني لا تجتمعوا على قتال عدوِّي بعدي أبداً»، فافترق المسلمون كيانات سياسية، واشتعلت ممالك عن مركز الخلافة، ولم تعدِ الوحدة بينهم وبين المركز إلاَّ وحدة اسمية، وكان الفضل لكلِّ مملكة يقدر بما يكون فيها من جهاد ضدَّ الكُفار والمُشركين، فيرفع الله شأن هذه المملكة بالجهاد، ويذهب عنها الخير وحب الأولياء لها بما يتخلف أهلها عن الجهاد، وهناك قومٌ يعلقون الجهاد على وحدة الأُمَّة بل إنَّ بعضهم يزعم أنَّ الأُمَّةَ لم تجاهد إلاَّ لوجود إجماعٍ على الجهاد، يقولون هذه السفاهات دون أنْ يُقدموا دليلاً واحداً على ذلك، بل التاريخ يشهد ضدّهم، والأُمَّة اليوم بسبب غياب القرآن عن الحُكْمِ والقضاء صارت أَوْزَاعاً وفِرَقاً، لا تنتسب في هذه الفرق والطوائف للدِّين بل لمسميات جاهلية، ومع ذلك فإنَّ هؤلاء يرفعون عن الأُمَّةِ حُكْمَ الجهاد حتَّى تتحقق وحدتها باسم الدِّين وتحت مِظلته، ويحتجون بأنَّ الجهاد لو وقع اليوم لاتخذ مطية لهذه الفرق من أجل أهوائها، هذا مع أنَّ أهل الجهاد يدعون النَّاس إلى جهادٍ لا شُبهة قرآنية ولا سُنِيَّة فيه، بل هو جهادٌ مجمعٌ عليه عند سلف الأُمَّة وأهل العلم السابقين الموثوقين، كجهاد المرتدين والكفار الأصليِّين، لكنهم يزعمون خوف ـ الفتنة ـ، ويتسترون بالتقوى وأنَّ السيوف مشتبهة عليهم، مع رفضهم دوماً خطاب الشريعة والفقه، واستخدامهم ألفاظ عامة لا تصلح لشرعٍ ولا لدينٍ ولا لجهادٍ في سبيل الله تعالى.

هذه التقوى الكاذبة، وهي غير التقوى الباردة، لأنَّ التقوى الباردة هي التقوى المُتكلفة في ترك الهيِّن مِنَ الفِعْلِ، واقتراف الكبير منها، وأما هذه فتقوى مُدعاة لا حقيقة لها في قلوب أصحابها، بل هي مزاعم يتخذونها ستاراً لهم مِنْ أنْ يأتوا الصالحات.

تتجدد صور اتخاذ الدِّين والتقوى ذريعة تصدُّ عن دين الله تعالى، لأنه منهج موهم، وتتحقق آثاره دوماً، بل ربما يصيرُ هذا المنافق المدعي إماماً لغيره، لما يخدع به الآخرين، خاصة إن كان من أهل اللسان وتقليب الكلمات والألفاظ، وأقل ما فيه أن يعذره الآخرون بقولهم: «رجل خاف الفتنة فدعوه لما هو في الدِّين ولا تضيِّقوا عليه»، ومن عجائب أهل زماننا أنَّ الصوفية التي قام أساسها على هُجران الدُّنيا بما يُسمُّونه الزهد، وعلى مجاهدة النَّفس التي يُسمُّونها الرياضة إلاَّ أنها صارت خياراً للجاهلية في صرفِ النَّاس عن المجاهدين، فهم مُقربون إلى الكُفر وأهْلِهِ، ومَرْضِيٌّ عنهم، مع أنَّ أئمتهم فيهم سعار حبِّ الدُّنيا والاستكثار منها أكثر من سعار مريض الكلب، وطبقاتهم اليوم في كلِّ مكانٍ شرٌ على الإسلام وأهله لا ينتفع بهم في أيِّ خيرٍ كان يحصل من بعض في الماضي.

﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾.

لا يتخفى المرءُ بأمرٍ من أُمور الدِّين، وإلاَّ وهذا الأمر يكشفه، وما من آيةٍ يحتجُ بها مبطلٌ على باطله إلاَّ وفي الآية نفسها ما يرد عليه، فهذا أمرٌ من خصائص الحقِّ، يحرق مُدَّعيه، ويهتكُ سِتر زاعمه، إذ سيأتي عليه محنٌ تكشفه، سواء كانت مسائل علمية تُبيِّنُ اضطراب فهمه، واختلالَ قواعده، أو عملية تجعله يلغُ في ما زعم الخوف منه، ولذلك من عجائب سير مانعي الجهاد في سبيل الله مخافة الفتنة أنهم يفتون للطواغيت قتالهم ضدَّ خصومهم، ويُبيحون لهم دماء مخالفيهم، ويُضْفُونَ الشرعيَّة على حروبهم الجاهلية، فقد قامت حروب لم يذكر فيها اسم الله تعالى إلاَّ ستاراً لباطلٍ فركض إليها زاعِمُو الخوف من الفتنة حين يأتي المجاهدون في سبيل الله، وصاروا من وقودها ومُسعريها، ووضعوا أسماءهم على أحكام القتل ضدَّ المجاهدين بدعوى أنهم أهل حِرابة فاستحقوا حكمها، فأين تقواهم المُدعاة، وأين خوفهم من الفتن كما زعموا.

﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ﴾.

لقد هربَ الكثيرون من عبادة الجهاد في سبيل الله مخافة الفتن فيما زعموا، واجتهدوا وُسعهم في اقتباس مناهج الباطل، ادعاءً أنها أسلم وأقل كُلفة، وتُوصِلُ للمُراد، فماذا كانتِ النتيجة؟.

لقد سقطوا في أعظم مما هربوا منه، فقد هربوا من الشَّهادة والإنفاق في سبيل الله تعالى والابتلاء فوقعوا في الشرك، إذ أقروا بأحكام الجاهلية، ولم يَعُدْ من الشرِّ ولا الشرك في عِلم هؤلاء أن يقولوا: «رضينا بالديمقراطية حُكْماً فعلينا أن نقر بنتائجها»[1]، يقولون هذه الكلمة السهلة على ألسنتهم، وهي من أعظم الكبائر في دين الله تعالى، بل هي الشرك الصراح الذي لا يشك فيها أحدٌ يعلم التوحيد وما يُضاده.

هربوا من قِتال المُشركين والمُرتدين فوقعوا في خِدمتهم وطاعتهم، وكحال كلّ مَن يعصي الله في أمرٍ إلاَّ ويسلط الله عليه هذا الأمر، لأنَّ الله تعالى هو المُتكبر، إذ يُسلط الطواغيت على عبيدهم فيذلونهم ويخزونهم كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ

[1] وُجه السؤال التالي لمحمد حامد أبو النَّصر ـ وكان وقتها المرشد العام للإخوان المسلمين ـ في حديثه لمجلة العالم الذي تصدره عنوان: «**نريدها ديمقراطية شاملة وكاملة للجميع**».

س: البعض يتهم الإخوان بأنهم أعداء للديمقراطية، ويُعادون التعدد الحزبي، فما هي وجهة نظركم في هذا الاتهام؟.

ج: الذي يقول ذلك لا يعرف الإخوان، إنما يلقي التهم عليهم من بعيد، **نحن مع الديمقراطية بكلِّ أبعادها وبمعناها الكامل والشامل، ولا نعترض على تعدد الأحزاب، فالشعب هو الذي يحكم على الأفكار والأشخاص.** [مجلة العالم، عدد ١٢٣، ٤ شوال ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦/٦/٢١] نقلاً عن كتاب: «**الحصاد المُر.. الإخوان المسلمين في ستين عاماً**» للشيخ المجاهد الدكتور أيمن الظواهري. الصفحة ٤٦، الطبعة الثانية. ربيع الثاني ١٤٢٦هـ/ مايو ٢٠٠٥م

فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

لِيتأمل أهل الدِّين والعقل ماذا قدَّم المُعرضون عن الجهاد لأُمَّةِ الإسلام، وأي شرٍّ جنوا عليها وعلى أتباعهم، وكيف أوقفوهم عن أعمال الخير العُظمى تحت باب الانتظار والصَّبر دون تبصرٍ ولا هدايةٍ، ثم لِيروا مُقابل ذلك ماذا قدَّم المجاهدون للأُمَّةِ، وكم حققوا لها مِنْ خَيْرٍ؟ وكيف أبصر النَّاس الحقائق بهم، وظهرت مخبوءات النُّفوس من أهل الكفر كما ظهرت قوة الإيمان وأثره في الحياة وعلى الشباب والأُمم؟!.

لقد هربوا من الجهاد مخافة القتل أو الابتلاء والسجن، فسُجنوا وقُتلوا، وأعرضوا عن الجهاد مخافة الموت في سبيل الله تعالى فمات الشباب في وِدْيَانِ الباطل والبحث عن الأوهام، لرحلاتهم ومجازفاتهم إلى الشَّهوات وخدمة الكافرين، وتركوا الجهاد لعلَّ طُرق السلامة تُوصِلهم فما زالوا مكانهم، ويظنون أنه مجرد البقاء نصرٌ، مع أنه بقاء يستمد وجوده من إذن الكافرين، إذ يبذلون الجهود في بناء المؤسسات والجمعيات وبإرادة جُند الشيطان في لحظة يذهب كلّ هذا هباءً كأنه لم يكن.

إنَّ ضريبة ترك الجهاد أعظم بكثير من ضريبة الجهاد، فبالجهاد في سبيل الله لمن تأمل آثاره في بعض البلاد أنْ صار شهداء، وصار إنفاق أموالٍ في طاعة الله، وهاجر مَن هاجر فَرُزقُوا الخيرات الكثيرة التي لم يكن لهم أن يحلموا بها لو بقوا في بلادهم، أما إذا قيل إنَّ النَّاس عُذِّبوا لما سكنتْ موجة الجهاد. فيُقال: نعم، لقد عُذِّب النَّاس لما تركوا المجاهدين في الميدان، وخلوا إلى شهواتهم، وجبنوا عن اللحاق بهم، فعذبهم الله تعالى بأنْ سلط عليهم مَن خافوه من دونه سبحانه وتعالى، ولو قام النَّاس مع المجاهدين لَكان لهم شأنٌ من العزَّة والنَّصر والتمكين، أما المجاهدون فلم يُصبهم إلاَّ الخير بإذن الله تعالى حسب منهج القرآن الحقِّ، وأما المُشاهدون المُنتظرون والمُتاجرون بدماء الشُّهداء فكفى ببقائهم يلعقون أقدام الطواغيت عذاباً من الله تعالى.

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

هذا أعظم ما يخوِّفُ الله به عباده، لأنَّ هذا القرآن قوامه على الإيمان والدَّار الآخرة كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتۡهُمۡ نَفۡحَةٞ مِّنۡ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2]. فهذه الآيات جامعة لسبيل

---

[1] سورة الحج، الآيات: ١١-١٣.

[2] سورة الأنبياء، الآية: ٤٤-٤٧.

الله تعالى في تعامله مع الخَلق، وخاصة أهل الإعراض، يمتعهم قليلاً إنْ كان لهم فُسحة من عُمْرٍ، ولكنهم ينقصون ويموتون، وقد اختلفَ أهل العلم في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾. وقد رجح الكثير هو نُقصان أمر وسلطان الكافرين وزيادة المؤمنين بالنَّصر والعزَّة، وهذا وجهٌ من وجوه التفسير، والآية تحتمل غير هذا المعنى، وخُلاصة معنى هذه الآيات أنَّ الكافرين مُعذَّبين في الدُّنيا حتَّى لو طال بهم التمتع فيها، وإنَّ نذارة القرآن لن تنفعهم لعميهم عنِ الحقِّ، وهذا لا يُغَيِّر من حقائق الدُّنيا والآخرة شيء، فسيبقى المؤمنون ينذرون الكافرين بعذاب الله حتَّى لو لم يفقهوه، وهذا ردٌّ على مَن استهزأ بالمؤمنين حتَّى يحذرون الكافرين من جهنَّم وعذابها، فيقولون: «إنهم لا يؤمنوا بها فكيف يخوفون بها»، والله يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾. فلا يملك الأنبياء إلاَّ إيَّاه، وهناك عذابٌ آخرٌ هو قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾[1]. كما سيأتي في هذه السورة، وقد أنذر الأنبياء أقوامهم يوم القيامة مع عدم إيمانهم بها لِتتم الحُجة عليهم.

هؤلاء الهاربون من الجهاد ساقطون في الفتنة، وهي أنواع، أعظمها الذنب الذي يُوجب العقوبة في الآخرة، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهناك فتنٌ منها موت القلب، وخُبث النَّفس، والذِّلَّة كما ضربها الله على بني إسرائيل ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[2].

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾[3].

هذا شأن المنافقين، وقد تقدم هذا المعنى في سورة «آل عمران» في غزوة أُحد عند قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[4]، وفي هذه الآيات معنى زائد عما في «آل عمران» وهو كشف القرآن عن سبب هروبهم من القتال وهو قولهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ فهؤلاء أهل خُبْثٍ مَاكِرٍ حَقّاً، وخُبثهم هو ما يُسمُّونه الإعداد للعواقب كما قال الله عنهم: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾[5]، فَهُمْ يَعُدُّونَ العُدد للمصائب، ولا يلقون كلّ أوراقهم وقُدراتهم في

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٥٢.
[2] سورة البقرة، الآية: ٦١.
[3] سورة التوبة، الآية: ٥٠.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
[5] سورة المائدة، الآية: ٥٢.

مكانٍ واحدٍ كما يفعلُ المجازفون والمُتهورون!! من المجاهدين، فالمجاهدون عندهم أهل غفلة، وجهلٍ، ولا يَعُدُّونَ العُدة للعواقب، بل هم شباب لا يُدركُ ما تخبئ له الأيام التالية!!.

هؤلاء منافقون في القرآن، وهم عند أنفسهم أهل حِكْمَةٍ وتجْرِبَةٍ وَحِنْكَةٍ وَبَصَرٍ، ولذلك حين يدعوهم المجاهدون لحرب الأبيض والأسود، والعرب والعجم، والطواغيت القريبة والبعيدة، يجيبونهم: «أنتم أهل مُقامرة، وقد غرَّكم دينكم، فما أنتم إلا قِلَّة لن تصمدَ لحظةً من اللحظات»، أما هم فيقولون إنْ أصابتِ المؤمنين مُصيبة: ﴿ **قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ** ﴾، أرأيتم مِقدار وعينا على العواقب، وهل أدركَ الصغار التابعين حِكمة جُبن كُبرائهم حين وصفوهم من التورط مع المجازفين والمُتهورين من حملة الجهاد في سبيل الله تعالى؟.

بهذه الكلمات يبدأ جلد الكبار الجبناء للصغار التابعين، وبهذا التنفخ الفج القبيح يلقون على أنفسهم أوصاف الحِكمة والنظر والبصيرة في العواقب، والله يقول عنهم: منافقون.

إنَّ المسلمين المجاهدين ليسوا بُرءاء من وُقوع المصائب عليهم كما يُقرر القرآن، وليس وُقوع المصائب عليهم بسبب خطأ طريقهم، بل هي سنَّة الأنبياء: «يومٌ لَنَا وَيَوْمٌ عَلَيْنَا»[1]، ووُقوع هذه المصائب والسيئات دليلٌ عند أصحاب الجبن والبخل والهوى والبدعة أنَّ ما يقولونه مِنَ الإعراضِ عن الجهاد هو حقٌّ وصوابٌ، وهو فرحةٌ لهم للضحك والاستهزاء بالأتباع الذين سيقولون: «لقد صدق أسيادنا وقادتنا، فقد فكروا خيرَ تفكير، وأجالوا في الأُمور خيرَ ما يكون، وقد تنبئوا فصدقوا أنَّ مصير هؤلاء إلى هذه المصيبة فالحمد لله أننا أطعناهم وآثرنا السلامة».

هذه من فتنة الله تعالى بهؤلاء الجبناء والبخلاء، وهي من الابتلاءات بالمؤمنين، لأنَّ هذا أشدّ ما يُصيبهم، لكن هذه سنن هذه الطريق، يجب على أهل الإيمان أنْ يفقهوها، وأي شك في القلوب في

---

[1] عن ابن مسعود: «أَنَّ النِّسَاءَ كُنَّ يَوْمَ أُحُدٍ خَلْفَ الْمُسْلِمِينَ، يُجْهِزْنَ عَلَى جَرْحَى الْمُشْرِكِينَ، فَلَوْ حَلَفْتُ يَوْمَئِذٍ رَجَوْتُ أَنْ أَبَرَّ، إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَّا يُرِيدُ الدُّنْيَا، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ، عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ** ﴾، فَلَمَّا خَالَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ، وَعَصَوْا مَا أُمِرُوا بِهِ، أُفْرِدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي تِسْعَةٍ، سَبْعَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، وَهُوَ عَاشِرُهُمْ، فَلَمَّا رَهِقُوهُ، قَالَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلاً رَدَّهُمْ عَنَّا**»، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ سَاعَةً، حَتَّى قُتِلَ، فَلَمَّا رَهِقُوهُ أَيْضًا، قَالَ: «**يَرْحَمُ اللهُ رَجُلاً رَدَّهُمْ عَنَّا**»، فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَا، حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: «**مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابُنَا**»، فَجَاءَ أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: اعْلُ هُبَلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، فَقَالُوا: «**اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا عُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: قُولُوا: «**اللهُ مَوْلاَنَا، وَالْكَافِرُونَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ**»، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: **يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، يَوْمٌ لَنَا، وَيَوْمٌ عَلَيْنَا، وَيَوْمٌ نُسَاءُ، وَيَوْمٌ نُسَرُّ**، حَنْظَلَةُ بِحَنْظَلَةَ، وَفُلاَنٌ بِفُلاَنٍ، وَفُلاَنٌ بِفُلاَنٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ سَوَاءً، أَمَّا قَتْلاَنَا فَأَحْيَاءٌ يُرْزَقُونَ، وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ**»، قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: قَدْ كَانَتْ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ لَعَنْ غَيْرِ مَلإٍ مِنَّا، مَا أَمَرْتُ وَلاَ نَهَيْتُ، وَلاَ أَحْبَبْتُ وَلاَ كَرِهْتُ، وَلاَ سَاءَنِي وَلاَ سَرَّنِي، قَالَ: فَنَظَرُوا، فَإِذَا حَمْزَةُ قَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ، وَأَخَذَتْ هِنْدُ كَبِدَهُ فَلاَكَتْهَا، فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَأْكُلَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَأَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: مَا كَانَ اللهُ لِيُدْخِلَ شَيْئًا مِنْ حَمْزَةَ النَّارَ**»، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَمْزَةَ فَصَلَّى عَلَيْهِ، وَجِيءَ بِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَوُضِعَ إِلَى جَنْبِهِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، فَرُفِعَ الأَنْصَارِيُّ وَتُرِكَ حَمْزَةُ، ثُمَّ جِيءَ بِآخَرَ، فَوَضَعَهُ إِلَى جَنْبِ حَمْزَةَ، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ رُفِعَ وَتُرِكَ حَمْزَةُ، حَتَّى صَلَّى عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ صَلاَةً». أخرجه أحمد في «المسند» حديث رقم: ٤٤١٤.

فَيَوْمٌ علَيْنَا وَيَــوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرْ

ذكر الحسن بن بشر الآمدي في «المُؤتلف والمُختلف» أنه بيت للنمر بن تولب. ويُضرب به المثل في انقلاب الدُّول والتَّسلي عنها.

صدق هذا الطريق، أي طريق النَّبيِّ ﷺ وأحكام القرآن يجب أن تزول من قلوب أهله، وإلاَّ سيزولون إلى صف الجهالة والبدعة والجبن والبخل.

هذا طريقٌ شاقٌ، حارقٌ، مزيلٌ لكلِّ أمراضِ القلوبِ، ومزيلٌ لكلِّ أصحابِ الأمراضِ، لأنَّ ذروة القمة تكشف كلّ الخلل والأمراض الكامنة في الأبدان، ولا يستقر عليها إلاَّ أهل العافية والقوة والصلابة، والجهاد ذروة هذا الدِّين، تتساقط فيه الهمم الضعيفة، والقلوب المريضة، ولا يستقر عليها إلاَّ أهل القلوب مع الله، وأصحاب الصِّدق واليقين، والعلم بالله وبالقرآن والسنَّة.

﴿ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾.

هي حكمةُ الجُبناء والمُخذلين، يُرددونها بعد أنْ يبقوا ممتعين في هذه الحياة، وبعد أن يمضي الشُّهداء لربِّهم، ثم يسير إلى هذه الحكمة الجبانة مَن تاب من الجهاد، وآب إلى سلطة حكماء الجبن والقعود والتخذيل، ليقولوا: «قد جربنا، وقد نجونا من الأُولى، ولا نأمن أنْ ننجوا من الثانية فلنَؤْوِي إلى هذه الحكمة التي تُبقينا على الهامش، وليسعنا ما وسع الآخرين من دين». يقول به فقهاء هذه الحكمة، وجماعات تُسيَّر من قادة شعارهم هذه الحكمة، فقد صارت لهم ديناً، وصارت لهم مَعْلَماً، وهي خادعة، لأنها تحمل الأمان، والبقاء، فالجهاد قد تنتصر به مرةً فتفرح، ولكن لا تأمن أن يعثر بك أُخرى فيكون القبر والبلاء، فلماذا لا نأوي إلى شاطئ السلامة الدائم، نعم هو لا يحقق النَّصر، لكنه يحقق البقاء، وهو كبقاء الديدان، طويلة الحياة، خسيسة الحياة كذلك.

إنَّ الأمر الذي أعدُّوه من قبل، وحضروه لهذه الواقعة سهلٌ ميسورٌ، لا يحتاج إلى كثير تعبٍ، ولا شيئاً مِنَ الإعداد، بل يحتاج إلى أمرٍ واحدٍ، أن تنسحبَ من صناعة الحياة، وأنْ تأوي إلى مُدرجات المشاهدين، وخُذْ معك شيئاً من الكلمات الكبيرة، وجرِّدْ لسانكَ حاداً، لا يتقن إلاَّ مضغ اللحوم، وهتكَ الستور، واتخذْ شيئاً مِنَ الأرشيف، لأنه سيلزمكَ في هذه المُعضلة، فبه تقضي على الخُصوم، ودَعْ نهرَ الحياة يمضي، وَسَتَرِدْ عليكَ الجُثث، فقُمْ بِعَدِّهَا، وستسمعْ آهات المكْلُومينَ فأحسنْ استخدامها في التخويف من سلوك الصِّعاب، ولا تنسى أنْ تجمع أمثالاً لكَ من مرضى القلوب، وحاملِي الرايات الزائفة، لأنهم عُدَّتُكَ في قصف المجاهدين، وليكونوا أهل تقليد، وليكنْ لهم صوتٌ قويٌّ، وحَمِّلْهُمْ بعض الأرشيف والصور ليتخذوها في حروبهم ضدَّ المجاهدين.

هذه حروب الجُبناء، أقوى ما يكونون ضدَّ المجاهدين بألسنتهم، وأجبن ما يكونون ضدَّ أعداء الأُمَّةِ والدِّين.

لكن لماذا يفرح هؤلاء بمصيبة المجاهدين؟!.

هذه قضية تتعلَّقُ بأصحاب النُّفوس المريضة حين تزعم الحِكمة الجبانة، فهم لا يحبون الخير إلاَّ إنْ جاء من أيديهم، لأنَّ أساس مرضهم يتعلَّق بضعف العبودية لله تعالى، فالمؤمنون لا يرون نصراً إلاَّ وهو فضلٌ مِنَ الله تعالى عليهم، ولا خيراً في أنفسهم إلاَّ وهو نعمة مِنَ الله، وحين يقع البلاء عليهم

فإنما هو بعجزهم أو بضعفهم، ففي الأُولى يحمدون الله تعالى، وفي الثانية يستغفرون الله، وأما أصحاب النُّفوس المريضة فإنهم إما يحبون الشرَّ في الخَلق لحسدهم الكامن في قلوبهم، وإنْ أحبوا خيراً في الخَلق فإنما يحبونه لما يجرُ عليهم من مدح الخَلق لهم، فيتخذونه وسيلةً للرفْعَةِ على الخَلق والعُلو عليهم، فإنْ وقعَ خيرٌ من غير طريقهم كرهوا هذا الخير، وتقذرت نفوسهم منه، لأنه لم يُنسب لهم، ولكن لو نُسِبَ لهم لأَحبوه وفرحوا به.

هذا شأنُ القلوب المريضة التي لا تؤمن بالله والدَّار الآخرة، وخلت من عظمة الله تعالى ومحبة الدِّين وأهله، وهي علَّة أمراض الكثيرين من أهل التعصب والجهالة، ورضي الله عن ابن عباس وهو يخبر عن نفسه أنه يفرح للغيث يُصيب أرضاً للمسلمين ليس له فيها مال، لما يقع للمسلمين من الخير، ورحم الله الشافعي وهو يتمنى أن يُظهر الله الحقَّ على لسان خصمه في المناظرة[1]، فهذا شأن القلوب المؤمنة، التي تفرحُ لفرح المسلمين حتَّى لو خالفوهم في بابٍ من الأبواب، وتحزن لحزنهم.

أما المرضى فإنهم يحولون كلَّ خيرٍ في الآخرين إلى شرٍّ، وكلَّ نصرٍ إلى هزيمةٍ، وكلَّ إيمانٍ إلى شكٍّ، فبعد أن تكره قلوبهم الحقَّ في الآخرين، والنَّصر فيهم، يذهبون كذباً وزوراً وإرجافاً إلى تحويل كلِّ خيرٍ إلى ضدِّهِ، فالبُغْضُ غلالةٌ سوداءٌ في القلوب تُعميه عن رؤية الأمور على حقيقتها، والحسد داءٌ يحولُ طَعْمَ كلِّ حسنٍ إلى مُرٍ قبيحٍ، ولذلك كان من قول فرعون وملئه في موسى عليه السلام: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]، وإني لأنظرُ في كُتب المذاهب والأديان والأقوام، فلا أجدُ اتهام النيَّات عند النَّجاح إلاَّ في الوسط الدِّيني، فإنَّ خصوم الحقِّ عند عجزهم عن اتهامه في واقعه يذهبون إلى اتهام النيَّات، واتهام النيَّات لا يكون صادقاً إلاَّ بالعمل الدَّال عليها، واتهام النوايا عند صواب العمل وصحته من أفسد النقد والتقويم، هذا مع انتشاره في الوسط الدِّيني.

﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾.

يفرحون لنجاتهم من البلاء، وعدم مُشاركتهم المؤمنين فيما وقع لهم من بلاءٍ، ولا يعلمون أنَّ ما أصاب المؤمنين هو خيرٌ كما تقدم من شرح ذلك في غزوة أُحد، ويفرحون بوقوع البلاء في المؤمنين، لأنهم لا يحبون نصرهم ولا نجاحهم.

---

[1] قال الشافعي رحمه الله: «ما ناظرتُ أحداً إلاَّ وددتُ أن يُظهر الله الحق على يديه». «شذرات الذهب» لابن عماد الدمشقي الحنبلي. الجزء الأول الصفحة ٢٣، «تهذيب الأسماء واللغات» ليحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني النووي. الجزء الأول الصفحة ٧٠. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٦م).

[2] سورة يونس، الآية: ٧٨.

وقد تكرر ذكر فرحهم بالشرِّ في هذه السورة فقال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾[1]. وقال تعالى عقبها: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[2].

وفرحهم هذا عاقِبته العذاب كما قال تعالى في سورة «غافر»: ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[3].

وقد ذكر ذم فرح المؤمنين والكافرين في القرآن في مواطن، وذكر فرح المؤمنين المحبوب في سورة «يونس» فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[4]، وهذا فرحُ وسرورِ أصحاب المعالي والمعاني، الذين يرون حصولَ النِّعم في القلوب خيراً مِنَ المال والمتاع والترف الدنيوي، وهذه المرتبة تمنى حصولها عُقلاء البشر، وهي ممدوحة في كلِّ أطوار التاريخ حتَّى صرنا إلى هذا العصر الذي انحدرت فيه هذه المعاني في عموم البشرية، ولم يبقَ من أهلها إلاَّ المجاهدون في سبيل الله وخاصة أئمتهم وقادتهم، فإنهم يهجرون كلَّ نعيمٍ دنيوي رجاءَ نورَ آيةٍ يُضِيءُ في قلوبهم، أو رجاءَ بارقة رضى ربَّاني يحسونه، فلذلك هُمْ أعظم النَّاس زُهْداً في الدُّنيا، وأعظمهم حباً للآخرة، عَلِمَ صدقَ هذا القول كلّ مَن تأمل حال النَّاس في هذا العالم، وكلّ مَنْ راقب التنظيمات والتجمعات الإسلامية وغيرها، ولذلك هم أحقُّ النَّاس دخولاً في هذه الآية: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

﴿ وَيَتَوَلَّواْ ﴾.

هم ما زالوا في تولٍ عن الحقِّ، وإدبارٍ عن أهله، وبُعْدٍ عن طاعة الله والنَّظر للدَّار الآخرة، ويذهبون مرةً ومرات ليأخذوا العُدَّة في تدبيرِ جبنٍ آخرٍ، وإنْ كان للمؤمنين كَرَّةً أخرى.

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[5].

هذا دواءٌ ربَّانيٌّ ناجعٌ يُعالجون به قروحَ أقوال هؤلاء المنافقين، لأنهم يُؤْذُونَهُمْ وستكون كلماتهم خناجرَ شرٍّ في قلوب المؤمنين، فبماذا سيرد المؤمنون المجاهدون على جلد هؤلاء المنافقين لهم؟! وخاصة ما يُقال من ادعاء الحِكمة ومعرفة عواقب الاندفاع بالجهاد في سبيل الله تعالى.

الجواب هو: قدَّر الله وما شاء فَعَلَ، فما وقع بنا واقعٌ لا محالة بالجهاد إنْ أطعنا الله ومارسناه عبادةً، وبترك الجهاد إنْ عصينا الله وأعرضنا عنه، فكما أنَّ المنافقين سقطوا في الفتنة حين هربوا من

[1] سورة التوبة، الآية: ٨١.
[2] سورة التوبة، الآية: ٨٢.
[3] سورة غافر، الآيتان: ٧٥ـ٧٦.
[4] سورة يونس، الآيتان: ٥٧ـ٥٨.
[5] سورة التوبة، الآية: ٥١.

الجهاد، فالمؤمنون فرُّوا مِنْ قَدَرِ الله إلى قَدَرِهِ، وعالجوا قَدَرَ الله تعالى بما أمرَ مِنْ أقداره الشرعيَّة، فإنْ وقعَ أمرٌ فهو مُقَدَّرٌ وكائنٌ لا محالةَ، بطاعة الله تعالى أو بمعصيته.

هم سيقولون الكثير، اتهاماً للجهاد، وسبّاً للمجاهدين، وسيتخذون المصائب دليلاً على بُطلان هذا الطريق، ولكن لِيعرض عليهم أهل العلم الواقع، وليظهروا للمسلمين الذين يموتون طلباً للشَّهوات أكثر مما يموتون طلباً للشَّهادة، وأنَّ الخيرات التي تستنزفُ جِزيةً يدفعها أهل الإسلام للكافرين المُتغلبين أكثر مما تُنْفَقُ على الجهاد في سبيل الله، وأنَّ الذين يموتون في سبيل الطواغيت في حروبهم من أجل ضلالهم ومناصبهم وعقائدهم الباطلة أكثر مما يموت في سبيل الله تعالى، وأنَّ المسجونين في المعاصي أضعافاً مُضاعفةً ممن يُسجن في سبيل الله، وأنَّ الموتَ في الراحلين في سبيل الدُّنيا أكثر مِنَ القتلى وهم مهاجرون في سبيل الله تعالى، فهل تغيَّر الأمرُ حين تركَ المسلمون الجهاد في سبيل الله تعالى من جهة الأرقام والمصائب والوقائع؟!.

لو عقلَ المنافقون والمرضى والجاهلون أمْرَ القدر كما أراده القرآن وعَلِمه المسلمين لَدفعوا الشباب دفعاً للجهاد، وألقوهم جُمُوعاً تَتْلُو جُمُوعاً للشَّهادة والهجرة، ولحولوا كلَّ واحدٍ مِنْ أُمَّةِ الإسلام ومن شبابه إلى طاقةٍ ضدَّ أعداءِ الأُمَّةِ، وضدَّ هوانِها، لكنه مما يُنْدَى له الجبين أنهم يجبنون عنِ الكلامِ في كلِّ المصائب التي تكون بالمعاصي أو من أجل الدُّنيا، وإنْ وقعت مصيبة يقتل فيها عشرات من المجاهدين أقاموا الصراخ والعويل ولم يسكتوا، وبدؤوا بجلد قادة الجهاد من: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا** ﴾، ومما يجعل المصائب تتحول إلى ذخيرة خيرٍ للمؤمنين، وعدة طريق لنصرٍ قادمٍ هي تلك الكلمات التي أعقبت إيمانهم بالقدر وتسليمهم للعبودية وهي قولهم: ﴿ **هُوَ مَوْلَىٰنَا** ﴾.

﴿ **هُوَ مَوْلَىٰنَا** ﴾ يختبرنا بالضَّراء والسَّراء، بالنَّصر والقُروح، فلا نُغَيِّر ولا نُبَدِّل، ولا نشكو إلاَّ ذنوبنا وتقصيرنا، ولا نُعلِّق المصائب إلاَّ على عجزنا أو كسلنا، وكِلاهما يُوجب الاستغفار والتوبة والإنابة، فالله مولانا في النَّصر، إذ لا يقع النَّصر إلاَّ منه وحده ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ** ﴾[1]. وإمامهم يقول: «**وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**»[2]، وهو مولانا في القُروح، لم يتخلَ عنا، ولا كان سقوطنا إلاَّ مرحلةً مِنْ مراحلِ الطريق، وسُنَّةً مِنْ سُنَنِ الله مع الأولياء.

﴿ **هُوَ مَوْلَىٰنَا** ﴾ في المصائب إذ لم تكنْ قاصمة، وهو مولانا إذ لم تكنْ في ديننا، وهو مولانا حين أخذ بعضنا شهداء وأبقى غيرنا إساءةً للكافرين ولمواصلة الطريق.

﴿ **هُوَ مَوْلَىٰنَا** ﴾ هي مقالة رسول الله ﷺ في أُحد، وقد أُصيب في جسده، وفي أصحابه، وكيف لا يكون كذلك وما وقع بنا إنما كان في سبيله، فهذا الحبيب ينظر إلى أُصبعه وقد دُمي فيقول: «**مَا أَنْت**

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ١٧.

[2] البخاري في «كتاب الجهاد والسِّير» باب ما يقولُ إذا رَجَعَ مِنَ الغَزو. حديث رقم: ٣٠٨٤. وأطرافه في: ١٧٩٧، ٢٩٩٥، ٤١١٦، ٦٣٨٥، ومسلم في «كتاب الحج» باب ما يقولُ إذا قفلَ من سفرِ الحج وغيره. حديث رقم: ١٣٤٤.

إلا أُصْبُعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيت»[1]، وحين يكون الأمر في سبيل الله فلا يقع في أهل هذا السبيل إلاَّ الخير، إنْ أصابتهم سراء شكروا، وإنْ أصابتهم ضراء صبروا، وعلى الأمرين لهم جزاء الخير[2]، لأنَّ الله مولاهم.

﴿ **هُوَ مَوْلَـٰنَا** ﴾ لأنا طلبنا النَّصر منه، ونازعنا بالجهاد أعداءه، ولم نكن كالمنافقين والمرضى نطلب الرضى من أعداء الله تعالى، ولا نجني من الانتصارات ما يأذنوا بها، بل نأخذها بعزة الإسلام وبنصر الله وبذل الكافرين.

﴿ **هُوَ مَوْلَـٰنَا** ﴾ فلا يقع قدرٌ من الأقدار إلاَّ بإذنه، فما أذن به من المصائب إنما أذنه لِيختبرنا به، ولِنرقى به في سِلْكِ العبوديَّة، ولِتكون الفرصة في إثبات عبوديتنا له في العُسر واليُسر، ولِثقتنا أنَّ المصائب خطوة للنَّصر كما هزائم الأعداء سواء بسواء.

﴿ **هُوَ مَوْلَـٰنَا** ﴾ فقد جاهدنا ثقةً بوعده، وهو صادقُ الوعد، لا يخلفه ولو طال الزمن وتأخر، لأنَّ كلَّ شيءٍ بقدرٍ، ولا يأتي أمرٌ إلاَّ بعد اكتمال سنَّة الله كالوليد لا يخرج من بطن أُمه سليماً إلاَّ في موعده، فإنْ خرج قبل ذلك كان سقطاً.

﴿ **هُوَ مَوْلَـٰنَا** ﴾، فمن مولى المنافقين؟ إنهم لا مولى لهم، والله أعلى وأجل، ﴿ **فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾** ﴾[3]. وعسى كما قال ابن عباس في القرآن واجبة الوقوع.

﴿ **هُوَ مَوْلَـٰنَا** ﴾ يقولها المجاهد حتَّى لا يحزن بهذا المُصاب لأنه يعلم قوله تعالى: ﴿ **مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾** ﴾[4].

﴿ **وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾** ﴾.

---

[1] أخرج الترمذي وصححه وابن أبي حاتم واللفظ له عن جندب البجلي قال رمى ﷺ بحجر في أصبعه فقال:

مَا أَنْت إلا أُصْبُعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيت

روي أنه ﷺ أصاب أصبعه الشريفة حجر في بعض غزواته فدميت فتمثل بقول الوليد بن المُغيرة: على ما قاله ابن هشام في السيرة أو ابن رواحة على ما صححه ابن الجوزي:

مَا أَنْت إلا أُصْبُعٌ دَمِيَتْ وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيت

وقيل: هو له عليه الصلاة والسلام.

[2] عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَباً لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ. إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ. وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ. إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ. فَكَانَ خَيْراً لَهُ. وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْراً لَهُ**». أخرجه مسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب المؤمنُ أمرُهُ كلُّهُ خيرٌ. حديث رقم: ٢٩٩٩.

[3] سورة المائدة، الآية: ٥٢.

[4] سورة الحديد، الآيتان: ٢٢-٢٣.

هذه بُشرى في العاقبة، لأنَّ التوكل سبيل الفرج والنَّصر كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[1]. والحسب هو الكافي، فلا يكون التوكل إلاَّ خيراً، وهو أعظم سبيلٍ لتحقيق ما يحبه المرء من رضا الله تعالى، ولكن قال تعالى: ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾. فالتوكل لا يعني أبداً خروجاً عن السُنن في وقوع العاقبة الحسنة للمؤمنين، لأنَّ التوكل فعلٌ إيمانيٌّ ككُلِّ الأفعال الإيمانيَّة التي شرعها الله، وهذه الأعمال لها سننٌ تصير إلى مستقرها من خلال عامل الزمن وعامل التِكرار، فلا يظنن ظانٌ أنه بمجرد التوكل يقع الأمر على وجهٍ تامٍ منذ البداية، فهذا لا يكون، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ أي إنَّ مراد الله واقعٌ لا يرده راد، ثم قال: ﴿ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾، فلا تطلب الشيء قبل أوانه فتيأس وتنقلبَ على عقبيك، بل كن بصيراً بالقَدَر وسُنَّته كما أنتَ بصيرٌ بالأمر الشرعي وسُنَّته، وإيَّاك وأوهام الصوفية، وخيالات الحالمين، وقصص الكرامات المكذوبة التي يظن البعض أنها هي الأصل في الوجود، فالكرامات حقٌّ وصدقٌ لا يُكذب بها أحدٌ يُؤمن بالكتاب والسنَّة، لكن الأصل هو السنن، وإقامة الأُمم لا يكون إلاَّ بها، وحياة الشعوب لا تستقيم إلاَّ بالعمل من خلالها، وأي تجاوز لها هو معصية لله تعالى، وقَتْلٌ للنُّفوس، وإزهاقٌ للقوى، وأما العمل ضدَّها فهو معصيةٌ تعادل معصية شارب السمِّ طلباً للحياة والقوة.

إنَّ التوكل ليس علماً ذهنياً، بل هو عملٌ قلبيٌّ يصيرُ المرء إليه إنْ خلا من القوة، ووصل إلى طريقٍ مسدودٍ، وقَلَّبَ نظره في السماء فلم يرَ إلاَّ باب الله تعالى يسأله ويرجوه ويستغيث به ويطلب منه النجدة والعون، ولذلك لابدَّ من الغمرات، ولابدَّ من المحن، ولابدَّ من الابتلاءات.

لقد استقر التوكل في قلوب أصحاب النَّبيِّ ﷺ لما ضاقت بهمُ الأرض في مكة، وفرغوا مِنْ حَوْلِهِمْ وقُوَتِهِمْ، فتوجهوا إلى الله بكُلِّيَّتهم، فكان النَّصر، فأيقنوا أنَّ باب الله تعالى هو باب النَّصر وحده.

لقد تربوا في كلِّ مراحل جهادهم على هذا السلاح الذي لا يخطئ، إذ عاشوه في بدر وفي أُحد وفي الخندق وفي حُنين، فقد كانت تُغْلَّقُ السبل أمامهم، فيستغيثون بمولاهم فيغيثهم، فيعلمون صدق الوعد، وأنَّ الأمر كلَّه لله.

فمن دون الغمرات لا يكون التوكل، والذين يُطيلون النظر إلى الأرض لن يفرغوا للنظر إلى السماء، والذين تُقضى حوائجهم مِنْ أهل الأرض لن يسألوا مَنْ في السماء.

هذا لا يعني أبداً أن يرمي المرء بنفسه اختياراً في الماء بلا عُدَّة، وفي الصحراء بلا ماءٍ ولا زادٍ، فقائل هذا يرد عليه القرآن بقوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾[2]، لكن واقع الجهاد وقدره اللازم له يجعلِ العامل فيه في حالة عبوديَّةٍ قلبيَّةٍ قويَّةٍ من التوكل على الله تعالى، ومن امتحان هذا التوكل،

---

[1] سورة الطلاق، الآية: ٣.

[2] سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

وترقيه، ومن قوة الاحتساب والتصديق بالوعد، وهي أعمال إيمانيَّةٌ واجبةٌ كالصَّبر واليقين والدُّعاء، وهذه المراتب لا يمكن أن تكون في عملٍ من الأعمال الحياتيَّة التعبديَّة كما هي في الجهاد في سبيل الله تعالى، ولذلك فالمجاهدون هم خِيرَةُ الخَلْقِ، ولا يخلص الصِّدِّيقون إلاَّ منهم ومن كانوا في معناهم من الجهاد العام كقول كلمة الحقِّ، والهجرة في سبيل الله، والرحلة في طلب العلم، ولعلَّ المرء يستطيع أن يُلاحظ صعود الخط الصوفي البدعي لإدراك هذه المراتب بسبب خُفُوتِ[1] حركة الجهاد كفعلٍ اجتماعيٍّ تحيَّاه الأُمَّة، وتحوله إلى فِعل وظيفة وعسكر، كما هو شأن انتشار الرهبنة في النَّصرانية ﴿**مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ**﴾[2]، كبديل للنذر الذي كان يمارسه الأقدمون كما قالت أم مريم عليها السلام ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا**﴾[3].

إدراك فضائل الجهاد في حصول المراتب العالية، والمعاني القرآنية الواجبة يرفع درجة نفوس أهله، ويُقوِّي المسلمين للإقبال عليه، ولكن هذا لا يكون حتَّى ترتفع قيمة هذه السلعة الربَّانيَّة، وقد تقدم علو كعب المؤمنين في إدراكهم هذه المعاني وفرحهم بحصولها ﴿**فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨**﴾[4]، ولذلك كان فضلُ العلماء الربَّانيِّين وهم يقولون: «نحن في نعمةٍ لو عرفها أبناء الملوك لَقاتلونا عليها بالسيوف»[5]، بل إنَّ بعضهم قال: «إنَّ هذه المعاني هي الشيء الوحيد في الدُّنيا الذي يُشبه ما يحسه أهل الجنَّة»، وقد صدقوا، ولهذا ارتبط عُلو الجهاد في سبيل الله تعالى في الأُمَّة بارتفاع فهمها لقيم الحياة، وإدراكها لأذواق القلوب، ومحبتها للمعاني الإيمانيَّة، ويُقابل هذا زُهْدٌ في الدُّنيا، وإعراضٌ عن ملذاتها، والخوف من الإكثار منها حتَّى لا يُصيبهم قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾[6]. وهذا ميزانٌ لا يقبله أهل الأهواء، ولا الكافرين بالدَّار الآخرة، أو ضُعفاء الإيمان، وإنما يقبله الذين يفهمون قول رسول الله ﷺ: «**لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ**

---

[1] قال ابن المظَفّر: الْخُفُوتُ: خُفُوض الصَّوت من الجوع: تقول صَوْتٌ خَفيضٌ، خَفيتٌ. «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

[2] سورة الحديد، الآية: ٢٧.

[3] سورة آل عمران، الآية: ٣٥.

[4] سورة يونس، الآية: ٥٨.

[5] قال إبراهيم بن الأدهم رحمه الله تعالى: «لو يعلم الملوك، وأبناء الملوك، ما نحن فيه لجلدونا عليه بالسيوف». «جامع بيان العلم وفضله» لأبي عمر يوسف ابن عبد البر النَّمَري القُرطبي الأندلسي. الجزء الأول، الصفحة١٨١. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت. بدون تاريخ. وفي كتاب «الموافقات في أصول الشريعة» لابن إسحاق الشاطبي: «لو عَلِمَ الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف» الجزء الأول، الصفحة ١٩٨/الجزء الثاني، الصفحة ٤٧٥. طبعة دار المعرفة ببيروت. الطبعة الرابعة (١٤٢٠/١٩٩٩م). وفي «فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير» لمحمد عبد الرؤوف المناوي: « لو علم الملوك ما نحن فيه من النعيم لقاتلونا عليه بالسيوف» ـ حرف الهمزة ـ الجزء الثاني، الصفحة ١٧٤. دار الكتب العلمية ببيروت (١٤١٥/١٩٩٤م).

وكان أبو حنيفة رحمه الله إذا أخذته هزة المسائل يقول: «أين الملوك من لذة ما نحن فيه؟ لو فطنوا لقاتلونا عليه. «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبُلغاء» لأبي الفرج الأصفهاني. الحد الأول في العقل والعلم والجهل وما يتعلق بها. فصل: تلذذ العلماء بعلمهم.

[6] سورة يونس، الآية: ٥٨.

وَلاَ إِلَـهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»[1] ، أو الذين يبيعون كل ما يملكون مقابل ركعتين في السحر قبل الفجر ، فمثل هؤلاء يعرفون قيمة الوقوف في الصف ، وتَبْيِّتَ الأعداء ، كما قال خالد بن الوليد ﷺ: «ما كان أحب لي في الأرض من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين ، أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد»[2] ، فهؤلاء أصحاب المعاني ، وكلما كان الرجل فقيهاً فيها كان عابداً لله تعالى ، لأنَّ هذه أعمال القلوب التي يحبها الله ، وهي محط نظره سبحانه وتعالى ، فتأملْ مقام الفاروق ﷺ في هذا وهو يقول : «لَوْلاَ ثَلاَثٌ لأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ لَحِقْتُ بِاللهِ: لَوْلاَ أَنْ أَسِيرَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ أَضَعَ جَبْهَتِي للهِ فِي التُّرَابِ سَاجِداً ، أَوْ أُجَالِسَ قَوْماً يَلْتَقِطُونَ طَيبَ الْكَلاَمِ كَمَا يُلْتَقَطُ طَيبُ الثَّمَرِ»[3]. فبذلك تفهم معنى الإيمان في قلوبهم ، لأنَّ الإيمان ميزانٌ بين أمرين ، واختيارٌ بين محبوبين ، فإنْ رأيتَ أنَّ كلمة سبحان الله أحبّ إليكَ من جبلٍ من ذهبٍ فاعلمْ أنكَ مؤمنٌ ، وإنْ رأيتَ أنَّ مُقام ساعة في الجهاد أحبّ إليكَ من مُلك الأرض لو وُضِعَتْ بين يديكَ فاعلمْ أنكَ مؤمنٌ ، أما إنْ كنتَ تقدم دُنياكَ على آخرتك ، وأعمال إكثار الدُّنيا على عبادتك فاعلمْ أنَّ دعواك الإيمان ليست صادقة.

أما الحديث عن التوكل دون اختياره فهو كحديث المحبوب عن لذة النكاح ، والكتابة فيه ككتابة مقطوع اللسان عن لذة الذوق ، هذا مع العلم أنَّ المعاني القلبية لا تكون بغير ابتلاءٍ وامتحانٍ لعزها وكرامتها ، فثمن حصولها هو البلاء في البدن والمال والنَّفس ، ولا ترتقي إلاَّ بارتقاء الثمن ، ولذلك «**أَشَدُّ النَّاسِ بَلاَءً الأَنْبِيَّاءُ**»[4] ، وهم أعظم النَّاس في هذا الباب ، والنَّاس تَبَعٌ لهم.

فالجهاد في سبيل الله فيه الصَّبر ، وفيه التوكل ، وفيه اليقين ، وفيه الاحتساب ، وفيه رُؤية الوعود ، وإبصار يد الله في أعدائه وفي أوليائه ، ولذلك صدق من قال : «إنَّ قراءة القرآن في الجهاد لها معنى

---

[1] مسلم عن أبي هريرة ﷺ في «كتاب الذكر و الدعاء والتوبة والاستغفار» باب فضل التهليل والتسبيح. حديث رقم: ٢٦٩٤.

[2] «ما ليلةٌ تهدى إلى بيتي فيها عروس ، أنا لها محبٌ وأبشر فيها بغلام ، بأحبَّ إليَّ من ليلةٍ شديدة الجليد في سريةٍ من المهاجرين أُصَبِّحُ بها العدوَّ». أخرجه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح. «مجمع الزوائد» للهيثمي. الجزء التاسع ، الصفحة ٥٨٣. حديث رقم: ١٥٨٨٥. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٤م). وأخرجه أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي في «مصنفه» بألفاظ متقاربة. الجزء الرابع ، الصفحة ٥٧٨. حديث رقم: ١٥١٧١. طبعة دار الفكر بيروت (١٩٩٤م). وأبي يعلى الموصلي في «مسنده» الجزء الخامس والثلاثون ، الصفحة ١٨٠. حديث رقم: ٧١٨٧. دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٨م). «فضائل الصَّحابة» لأبي عبد الرحمن أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار. حديث رقم: ١٤٨٠. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٨٦م). «المطالب العالية» لابن حجر العسقلاني. الجزء الثامن ، الصفحة ٤٢٠. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (٢٠٠٣م). «إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة» للبوصيري. الجزء السابع ، الصفحة ٣١٢. «الإصابة في تمييز الصَّحابة» للعسقلاني. الجزء الثاني ، الصفحة ٢١٥. دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٥م). «ثقات ابن حبان» لابن حبان. الجزء الثالث ، الصفحة ١٠١. طبعة دار الفكر ببيروت. (١٩٧٥م).

[3] أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ، وسعيد بن منصور في «السنن» ، وابن أبي شيبة في «المصنف» ، والمتقي الهندي في «كنز العمال» حديث رقم: ١١٣٢٤ ، والسيوطي في «جامع المسانيد والمراسيل» حديث رقم: ٣٨١٩. وابن المبارك وابن سعد وغيرهم.

[4] «**إِنَّ أَشَدَّ النّاسِ بَلاءً الأَنْبِياءُ ثُمَّ الَّذِينَ يَلونَهُمْ**» أخرجه الحاكم النيسابوري في «المُستدرك على الصحيحين» في «كتاب أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم» حديث رقم: ٨٢٨٣. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٠م).

يحسه المجاهدون ولا يحسه غيرهم، لأنَّ بُنْية القرآن هي الجهاد في سبيل الله، فيتم التقاء الكلمة بمعناها فيتحقق النُّور والهُدى والرحمة».

حين تحصلُ هذه المعاني في القلوب، وهي معاني حقيقيَّة إيمانيَّة وليس كما يفهمها أهل البدعة من أهل التصوف وغيرهم، فإنها هي سلاحُ المؤمنين لحصول النَّصر والثبات، وفي الآخرة دخول الجِنان، ولذلك قرنَ الله تعالى في هذه الآية التوكل وأمرَ به مع ولاية الله تعالى للمؤمنين ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ومعنى ذلك أنْ أبشروا بزوال هذا المُصاب، لأنكم أتيتم بالدواء على حقيقته، فإنَّ العاقبة لكم، ولذلك قال بعدها سبحانه:-

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾[1].

لقد ساوى الطرفان، طرفٌ ذهبَ إلى ربِّه شهيداً فهو في الحُسنى، ونال درجتها، وطرفٌ بقي في الأرض يعيش في الحُسنى، جهاداً وبلاءً، ينتصر بالله فينصره، ويبكي في الله فيصبر، فليس المتقدم خيراً من المُتأخر، وليس الذاهب بخير من الباقي، وليس المُنتصر خيراً من الشهيد، كما أنَّ المُنتصر ليس خيراً من المُنتظر، فهذه كلّها مراتبٌ حُسنى، وهي مراتبٌ يعبد فيها الصالحون ربَّهم، لا يرون أنَّ الأمر قد انتهى حتَّى تحط رِحالهم في الجنَّة بجوار مولاهم الرحمن، فليخسأ المنافقون بجهلهم، فهم وإنْ فرحوا بالمُصيبة على المؤمنين إنما كان فرحهم لجهلهم بما أصاب المؤمنين من النَّعيم، لأنهم ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾[2]. فحين يسقطُ شهيدٌ من المؤمنين يفرحُ الأعداء بأنهم أصابوا مقتلاً في المؤمنين، لأنهم لا يعلمون أنَّ هذا العبدَ قد ارتاحَ من عناء الدُّنيا وفتنتها، وصار إلى خير مقامٍ، ولذلك أَلقِ بسمعكَ لهذه الآيات وتأملْها تأملَ المؤمنِ البصير لِتعلمَ قوة هذا الخطاب للمؤمنين، وجهلَ الكافرين به، وهي آياتٌ من سورة «الفرقان»، وهي سورة فُرقانٍ بين صورتين؛ صورة المؤمن، وصورة الكافر، في الدُّنيا والآخرة. يقول تعالى:-

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾[3].

فهذا خطاب الكافرين بالآخرة، فلا قيمة عندهم إلاَّ للكنوز، والطعام، ومغانم الشهوات، فاسمعْ ماذا قال حُكْمُ الله عليهم:-

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾[4].

[1] سورة التوبة، الآية: ٥٢.
[2] سورة الروم، الآية: ٧.
[3] سورة الفرقان، الآيتان: ٧-٨.
[4] سورة الفرقان، الآية: ٩.

لكن استمعْ إلى خطاب الآخرة، وهو خطابُ الله للأنبياء، وهم أكرم خلقه، وأحبُّ عبيده إليه، وهو خطابُ الحقِّ والصِّدق:ـ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ﴾[1].

حين يأتي هذا الخطاب الربَّاني لنبيِّه وللمؤمنين، فماذا ستتصور ردَّ فِعْلِ الكافرين والمُشككين بالآخرة؟!.

إنه الاستهزاء ولا شك، بل سيقول البعض: «وماذا سينفعُ هذا الخطاب لمرءٍ لا يؤمنُ بالآخرة؟».

أما الجواب: فهذا لا يضرُّ، فإنَّ الأعمى لا يضرُّ وجودَ الشمس، بل يضرُّ نفسه، ومُنْكِرُ الحقائق لا يلغي وُجودها، وإنما الخسارة عليه، ولذلك قال تعالى رداً على إنكارهم:ـ

﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ ﴾[2].

المؤمنون لا يضرُّهُم فرح الكافرين بسقوط الشُّهداء، ففرحهم لا يُغيِّر الحقيقة أنهم في حُسنى، ولا يُؤذيهم هذا الفرح إنْ كانت مصيبة في المؤمنين، لأنها خيرٌ لهم.

هكذا يُعلم القرآن أهله كيف يستعلون، ويترفعون على خصومهم في المعارك والنوازل، فلا يهمهم مقالاتهم، لا كما يفعلُ ضعفاء النُّفوس من المسلمين حين يرقصون فرحاً لكلمة تُقال فيهم مدحاً من طاغوتٍ أو كافرٍ، ويبكون حزناً وألماً إن قالوا فيهم شراً، فمثل هؤلاء لم يَتَرَبَواْ على مائدة القرآن، ولم يفقهوا كتاب ربِّهم.

في سورة «هود» كشفَ الله الإنسان الكافر وضعيفَ القلب والإيمان والإرادة والعلم، وفضحَ ضعفه، وفَقْرَ إدراكه، وقِلَّةَ علومه، وعَجْزَ إرادته، وصُغْرَ مطالبه فقال: ﴿ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾[3].

بعد هذا الكشفِ الإلهي لهذه الحقائق ذهب لرسوله ﷺ ليقول له: أَمِنْ أجل هؤلاء تترك الحقَّ الذي أُنزل إليك؟! ولعقول هؤلاء وما تُفرزه من أقوالٍ يضيقُ صدرك بما معك من الحقِّ، فقال سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾[4].

---

[1] سورة الفرقان، الآية: ١٠.

[2] سورة الفرقان، الآيات: ١١ـ١٤.

[3] سورة هود، الآيات: ٩ـ١١.

[4] سورة هود، الآية: ١٢.

هذا هو فقه القرآن، وهذا سبيله حين يرفعُ نفوس أتباعه لتستعلي على الباطل، وتمتلئَ عزةً وفخراً بما معها من الحقِّ، وتزدادَ بصيرةً أنَّ خصوم دينهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[1].

وهذه هي مقدمة الجهاد، لأنَّ القتال لا يكون إلاَّ مرحلة تصل فيها القطيعة النفسيَّة والعلميَّة إلى مُنتهاها، أما إنْ كان هناك مجالٌ للتلافي فالقتال لا يصيرُ إليه إلاَّ السُّفهاء، فأما الكافر فحقده وحسده وبُغضه للدِّين لا يعلمُ مَداه إلاَّ الله تعالى، لكنَّ المؤمن لسلامة سريرته، وحُسن نواياه، وطِيبة نفسيته فإنه بحاجةٍ لهذا الكشف القرآني لنفسيَّة وحال وعقل الكافر، ولذلك جاء التحريض الربَّاني ضدَّه، يستفزه لِيُقْبِلَ على قِتاله وهو مُرتاح أنَّ مثل هؤلاء شرٌّ لا خيرَ فيهم، وفسادٌ لا صلاحَ فيه، وضلالٌ لا هوى فيه، أما هؤلاء الذين يشعرون بالهزيمة أمام أعدائهم، وبالضعف أمام أحكامهم، والخنوع أمام نظراتهم، فهؤلاء لا خير فيهم، لا في دينٍ، ولا في عقلٍ، ولا في جهادٍ، وهؤلاء هم خصوم المجاهدين، فإنَّ عُمدة أقوالهم اليوم أنَّ المجاهدين يُسيئون سُمعة المسلمين، وهم ضعفاء مهزومون، بل عبيدٌ أمام أسيادهم الكفار، ولذلك فلا عجبَ أن يحتقر الواحد منهم ملايين المسلمين، ولا يرى لهم قيمة، ويرقص فرحاً إنْ سمع أحد الكفار وخاصة طواغيتهم ذُكره بخير، أو أثنى على حزبه وطائفته، وكلّ هذا من النِّفاق، وضُعف الإيمان.

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾.

افعلوا ما شئتم، فكلّه خير بالمؤمنين، ولا تظنن أنَّ هذا خطاب لا يُؤْذِي الكافرين، ولا يزيدُ قهرهم وألمهم، إنه والله يملأ قلوبهم غيظاً، وخاصة ما أكرم الله عباده من جعل الشَّهادة في سبيله باباً من أبواب عذاب الكفار وقتلهم والرحيل بهم إلى جهنَّم، ولذلك كان من فقه العلماء الربَّانيِّين أنْ أفتوا المسلم بأن ينغمس في صفوف الكفار من أجل أن يظهر لهم محبة الجنَّة والرغبة فيها، وهذا فقه لا يعرفه أصحاب الأهواء وقُطاع الطريق إلى الله تعالى.

هذه الراحة القلبيَّة التي يحسها المؤمنون بأنْ اتخذ منهم شهداء، وهذا الإقبال على الشَّهادة، وهذا التفسير الإيماني للمصائب التي تلم بالمؤمن تُصيب الكافرين بالغيظ، والغضب، فيعبرون عن هذا بالاستهزاء حيناً، ويسير في هذا الاتجاه الزنادقة الذي يتسمون باسم الإسلام زوراً وبهتاناً، ويعمل هذا الاستهزاء عمله في قلوب الضعفاء حتَّى يُصابوا بالخجل من أنْ يُظهروا هذا الدِّين، وهذه المعاني، ليبدأ تفسيرهم للجهاد والشَّهادة على وجهٍ ماديٍّ دنيويٍّ يُلاءم قوانين الكافرين، ويتماهى مع كُفرهم بالدَّار الآخرة، وهذا بسبب إلقاء هؤلاء الضعفاء آذانهم لما يقوله هؤلاء الكفرة وأتباعهم من الزنادقة.

﴿تَرَبَّصُونَ﴾.

---

[1] سورة الفرقان، الآية: ٤٤.

أليس عجيباً أن يكون مَن يتربص المنافقين وأسيادهم بالمؤمنين أن ينالوا النَّصر؟ إن تربصهم لموت المؤمنين شهادة في سبيل الله تعالى ظاهر المعنى، لكن كيف يتربصون بالمؤمنين الحسنى الدنيوية وهي النَّصر؟ .

هذا قدر الله بالمؤمنين، يجريه في الأرض تحت أعين الكافرين والمنافقين، بل ويسوقهم هم بأفعالهم ليكونوا أداةَ نصرٍ للمؤمنين، وإن عدم فقه الكافرين، وغلظة قلوبهم، وفساد عقولهم هي من أسلحة المؤمنين التي يصلون بها إلى أهدافهم، لكن لو سألتَ لِمَ لَمْ نَرَ ذلك في أيامنا؟ فالجواب: لأنَّ المقابل من المسلمين قد ضعف، وتركَ الميدان طويلاً إلاَّ من فئاتٍ قليلةٍ، وبالتالي فإنَّ كثيراً من الأخطاء الكُبرى التي يُوبق الكفار فيها أنفسهم لا تجد من المسلمين مَن ينفذ منها إلى إهلاك الكافرين والنَّصر عليهم، والأمثلة في الزمن الحاضر كثيرة جداً، ولو جُمِعَتْ لَكانت في مجلدٍ كبيرٍ، لكن كما قال موشيه دايان[1] وقد ذكر بعض الأسرار العسكرية في جريدةٍ سيارةٍ، فعُوتِب أنَّ أعداءك سيطلعون عليها فتكون ضدَّك، فقال: «العرب لا يقرؤون»، وكما تقدم من أنَّ التاريخ لا يقبل الفراغ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾[2]، فإنَّ سقوط الكافرين لا يكون إلاَّ إذا كان الوارثون، وإلاَّ فإنَّ أخطاءهم لا تبِين ولا تظهر مع وُجودها.

---

[1] موشيه دايان، يُترجم اسمه من العبرية إلى العربية إلى «القاضي موسى»، ويُلقب بالوطن العربي «الأعور». وُلد في فلسطين يوم العشرين من مايو ١٩١٥م. عندما كانت تحت الهيمنة العثمانية، وعندما بلغ الرابعة عشر من عمره، التحق بمنطقة الهاجاناه العسكرية والبالماخ في بداية تكوينها قُبيل الحرب العالمية الثانية.

وعندما حُظر نشاط الهاجاناه من قِبل القوات البريطانية في فلسطين، ألقت القوات البريطانية القبض عليه، وتم إطلاق سراح موشيه بعد عامين، عندما قامت الهاجاناه بالتعاون مع القوات البريطانية ضدَّ قوات المحور، وبمشاركة القوات الأسترالية ضدَّ قوات المحور في سوريا. فقد دايان عينه اليُسرى وبدأ بارتداء غطاء العين الذي اشتهر به، وقلدته الحكومة البريطانية أعلى الأوسمة العسكرية.

شغل موشيه العديد من الأدوار المهمة في حرب ١٩٤٨م، وعمل على قيادة العمليات العسكرية الدفاعية في سهل الأردن، وأُعجب به رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن غوريون أشد الإعجاب، واختاره وشيمون بيريز لحمايته الشخصية. وترقّى بالمناصب العسكرية بعد حرب ١٩٤٨ بين الفترة ١٩٥٥-١٩٥٨م إلى أن وصل لمنصب رئيس الأركان للجيش الإسرائيلي.

في عام ١٩٥٩م، وبعد عام من تقاعد موشيه من السلك العسكري، انضم دايان إلى تيار «مابي» السياسي اليساري بزعامة بن غوريون، وعمل كوزير للزراعة حتى عام ١٩٦٤م. وبعد تسلم ليفي أشكول لرئاسة الوزراء، وتنامي الموقف المتأزِّم بين العرب وإسرائيل في عام ١٩٦٧م، عين أشكول موشيه دايان وزيراً للدفاع رغم عدم محبَّة أشكول له.

لم يكن لموشيه دور يُذكر للتخطيط والإعداد لحرب ١٩٦٧م، إلا أنه أسهم إيجابياً للجانب الإسرائيلي في مجريات الحرب، ولم يدَّخِر جهداً بعد الحرب في الأمور الدعائية لنسب الإنتصارات في حرب ١٩٦٧م لصالحه.

وبتسلم جولدا مائير السلطة في عام ١٩٦٩م، كان موشيه وزيراً للدفاع. ورفض شنَّ هجوم احترازي على كل من مصر وسوريا لقناعته بقدرة الجيش الإسرائيلي لصد أي هجوم عربي على إسرائيل، وللحيلولة من تصوير إسرائيل أن تكون البادئة بالهجوم. وبتعاقب الهزائم الإسرائيلية في بداية حرب أكتوبر، كان موشيه على استعداد للإعلان عن هزيمة إسرائيل لولا منعه مِنْ قِبل مائير من الإدلاء بهكذا تصريح. وتكلَّم موشيه بدون توريه عن استعمال إسرائيل لأسلحة الدمار الشامل في حال احتياج إسرائيل لمثل هذه الأسلحة لدحر الهجوم العربي.

وبعد الحرب، قامت اللجنة المسؤولة بإعداد تقرير حرب ١٩٧٣م بإعفاء الكادر السياسي الإسرائيلي من المسؤولية في تكبُّد الخسائر في الأيام الأولى من الحرب، إلا أنَّ الغضب والاحتجاج الشعبي الإسرائيلي أدَّى إلى استقالة كل مِنْ موشيه دايان وجولدا مائير.

في ١٦ أكتوبر ١٩٨١م، مات موشيه متأثراً بسرطان القولون في مدينة تل أبيب ودُفن في «ناهال» حيث نشأ. فإلى جهنم وبئس المصير.

[2] سورة الإسراء، الآية: ١٥.

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾.

إنَّ هذه الآية من أعظم ما يمدح الله به عباده المجاهدين، إذ يصبح هؤلاء هم يد الله التي يعملها في العُصاة من عباده، فيقذفهم إليهم كما يقذف سبحانه الشهب والأعاصير كما قال سبحانه: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[1]، فكما أنَّ الله يُرسل آياته على الكافرين وعبيدهم، كذلك يُرسل جُنده مِنَ المؤمنين عليهم، فيُعذبهم بهم، فصارت يد المجاهدين هي إرادة الله في الأرض، وهذا مِنْ أعظم الفضل والتكريم والمدح كما في الحديث القدسي: « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِشْيءٍ أحَبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وما يَزالُ عَبْدِي يَتقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، ويدَهُ الّتي يَبْطُشُ بِها، ورِجْلَهُ الّتي يَمْشِي بها، وإنْ سألَنِي لأعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لأعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عنْ شَيْءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدّدِي عنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ يَكْرَهُ المَوْتَ وأنا أكْرَهُ إساءَتَهُ»[2]، فالمجاهدون هم أولياء الله حقاً، بأيديهم يبطشُ الله بالكافرين، وبصنيعهم يحفظ الله الدِّين والعورات والخيرات، فهم قدر الله الذي يحبه في الأرض.

﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾.

كما أنَّ المؤمنين بين حدين من قدر الله، هما حُسنيان، النَّصر والعمل له والبقاء في سبيله، أو الشَّهادة واللحوق بالرفيق الأعلى، وهكذا أعداء الله تعالى بين حدين، لا ينفلتان منهما، ولا خروج عنهما، إما عذاب الله وإما العذاب بأيدي المؤمنين، وعذاب الله تعالى بابٌ واسعٌ فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾[3]، فإنَّ عدوَّ الله لا ينعمُ أبداً، ولا يعيشُ راحةً أبداً، حتَّى لو رأيتَ الدُّنيا بين يديه، فإنما هو في عذاب الله، ولا يُدرك هذا المعنى على حقيقته إلاَّ مَنْ هداه الله تعالى من هذه البيئات، فَعَلِمَ نِعمةَ الإسلام، وراحةَ الإيمان، وأدركَ أيّ حياة يعيشها الجاهليون المُعرضون عن شرع الله تعالى وطاعته، وقد لا يُدرك المؤمن الذي وُلِدَ مُسلماً، وعاش في بيئة الإسلام هذه النِّعمة ولذلك قال الفاروق ﷺ: «إنما تُنْقَضُ عُرَى الإِسْلاَمِ عُرْوَةً عُرْوَةً إِذَا نَشَأَ في الإِسْلاَمِ مَنْ لاَ يَعْرِفُ الجَاهِلِيَّة»، وأما قوله تعالى: ﴿ بِأَيْدِينَا ﴾، فهو دليلٌ أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى عذابٌ للكافرين بأيدي المؤمنين، ولذلك يكره الكافرون والمنافقون الجهاد، ولا يُعادون أحداً في الأرض كما يُعادون المجاهدين، لأنهم عذاب الله لهم، وهم في يومنا يصرخون

[1] سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.
[2] البخاري في «كتاب الرقاق» باب التواضع، وتفرد به. حديث رقم: ٦٥٠٢.
[3] سورة طه، الآية: ١٢٤.

أنهم لا يبغضون الإسلام ولا المسلمين، ولكنهم يبغضون المجاهدين، وكيف لا وهم عذاب الله لهم، وبهم يكشفُ الله سِتْرَ أكاذيبهم، ويقضي على أحلامهم وأوهامهم.

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾.

كلٌّ من الفريقين يتربصُ بالآخر، فالمؤمنون ينتظرون وعد الله تعالى على كلِّ حالٍ هم فيه، والكافرون والمنافقون ينتظرون عذاب الله لهم إما بالجهاد بأيدي المؤمنين، وإما بأقداره سبحانه وتعالى.



إضاءة

قد يقول قائلٌ: إنَّ المؤمنين لهم أحوالٌ أُخرى غير النَّصر أو الشَّهادة، فهم يُسجنون ويُبتلون ويُهاجرون، فأين هذا من قوله تعالى: ﴿إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾؟.

فالجواب: لقد جعلَ الله ثباتَ المؤمنين حين البلاء والقُروح والمحن نصراً فقال: ﴿**وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴿١٣٩﴾﴾[1]، فالنَّصر ليس قاصراً على ما يفهمه البعض، هذا أولاً. وثانياً: إنَّ هذه الأعراض هي سبيل النَّصر، والشيء يُسمَّى باسم وسيلته، بل إنَّ النَّصر لا يكون إلاَّ بهذه السُّبل التي جعلها الله قَدَراً لازِماً كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ** ﴿٢٤﴾﴾[2]. ولذلك قال الشافعي: «لا يمكَّن المرءُ حتَّى يُبتلى»[3].

﴿**قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** ﴿٥٣﴾ **وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ** ﴿٥٤﴾﴾[4].

هذا استعلاءٌ إيمانيٌّ آخرٌ على المنافقين المستورين، وأسيادهم الكافرين المكشوفين، فإنهم في الأولى يفرحون بمصائب المؤمنين فردَّ الله فرحتهم قَرْحاً وَأَلَماً، وأقام الهُدى في قلوب المؤمنين من أجل ردِّ هذه السِّهام من ضحكاتهم وتوليهم وفرحهم، وهنا يأتي استعلاء المؤمن على مال المنافق وسيِّده، لأنَّ المال سببٌ للعُلو، فاليد حين تعطي يكون لها المنَّة على اليد الآخذة، وقد يكون أصحاب الأموال في داخل المجتمع المسلم من المنافقين حيناً، لأنَّ هؤلاء هم مَن يخاف فساد حاله بالجهاد ومُعاداة الأبيض والأحمر مِنَ الخَلق، وهم بهذا المال يستعلون على المؤمنين، وحين يدفعونه لهم يطلبون مُقابله ذلة من المؤمنين لهم، ثم هم يتخذونه وسيلةً لدفع الجهاد عنهم كما ورد في أسباب هذه الآية، فإنْ طُلب منهم النفير اتقوه بالمال، فيقولون خذوا المال فجاهدوا به، وأنتمُ الفقراء تحتاجون له، ودعونا قاعدين.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

[2] سورة السجدة، الآية: ٢٤.

[3] وهي سنَّةٌ جاريةٌ على الأُمَّة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم لِيمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك.

ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي حين سأله رجلٌ: أيهما أفضل للمرء، أن يمكَّن، أو يُبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكَّن حتى يُبتلى، فإنَّ الله تعالى ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحدٌ أن يخلص من الألم البتة.

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمرٌ حتميٌّ من أجل التمحيص، ليقوم بُنيانهم بعد ذلك على تمكنٍ ورسوخٍ، وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار. «فقه النَّصر والتمكين في القرآن الكريم» لعلي محمد الصَّلاَّبي. طبعة مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة بالقاهرة. الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

[4] سورة التوبة، الآيتان: ٥٣-٥٤.

بهذين الأمرين والوسيلتين يتخذِ المنافقون المال للعزَّة على المؤمنين، فردَّ الله كيدهم وعِزتهم بأنْ رفع الله عن أحوالهم كرامة القبول والرضا، ولم يجعل مالهم أبداً وسيلةً لردِّ وُجوب النَّفير الذي تعيَّنَ عليهم حين استنفرهم رسول الله ﷺ، فعاد أمر مالهم في نفوسهم ونفوس المؤمنين إلى هوانٍ وخِزيٍ، لا إلى استعلاءٍ وعزةٍ، وبهذا يتجردِ المنافقون من دِّثارهم[1] الزائف، ويقع في الأرض ما وقع لابن آدم الأول من عدم قبول ماله كما قال تعالى: ﴿ ۞ **وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾** ﴾[2]، وهذا مع ما فيه من تجريدٍ لأسباب عُلو المنافقين بين المسلمين وفي صفوف الصالحين والمجاهدين، إلاَّ أنه كذلك من أسباب زيادة الغيظ في قلوب المنافقين حتَّى يصيروا إلى الكفر الصريح إن لم يهتدوا، كما وقع مع ابن آدم الأول حين قتل أخاه حسداً من قبوله لصدقته التي قدمها، وحِرمانه هو من قبول صدقته.

سنرى في هذه السورة قضية الإنفاق تأخذُ شطراً كبيراً، وتُعالج المالَ الذي يقبله الله والمال الذي لا يقبله، وسبيل إنفاق المال الواجب في الزكاة، وقيمة القليل إنْ كان وُقوعه في يد الله لِطُهره وطُهر أصحابه، وبيان حال إنفاق المنافقين من الأعراب، واتخاذهم هذا الإنفاق وسيلة للصدِّ عن سبيل الله تعالى، وما يُقابل هؤلاء من الأعراب المؤمنين، لأنَّ شأن المال في الجهاد عظيمٌ، ولأنَّ شأنَ الأغنياء التأثير في قضايا الأُمَّةِ من خلال قوة ما يملكون، فالمؤمنون منهم رافدٌ[3] من روافد الحقِّ والجهاد، ووُجودهم عِمَادٌ مِنْ عُمُدِهِ، وقاعدةٌ من قواعدِهِ، والمنافقون والملأ مانعٌ من موانع الجهاد، ونحن نرى أنَّ سياسات الدول إنما تتأثر من خلال قوة هذه الفِئة، فهي الحاكمة فِعْلاً، وهي القادرة أنْ تبسط رؤيتها على حركة الدول وقراراتها وجيوشها، ولكنها تتخفى وراء القادة الظاهرين، وإنْ كانوا في الحقيقة همُ الأصل، والحقيقة الاجتماعيَّة جبن هذه الفِئة مِنَ الخَلق، لما يخافون من ذهاب أموالهم وتجاراتهم، ولذلك يُسَيِّرُونَ غيرهم جنوداً لمقاصدهم، «**إنما النَّاسُ كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة**»[4]. كما قال رسول الله ﷺ، أي أنهم يُشترون ويُباعون من أصحاب هذه القِوى العالمية، والأُمم تنتكسُ حين يُصبح التجار والأثرياء هم قادتها، لأنَّ منطق التجار هو المال، وهو مِعيار الربح والخسارة، وقادة الأُمم الحقيقيون يعنيهم قيم الأُمَّة، وهذان منطقان مُتضادان، لا يتقدم أحدهما إلاَّ ويُصادم الآخر، ومن عجائب الحضارات أنَّ بُناتها الأوائل، وآباءها المُؤسسين هم أبعدُ النَّاس عن التجارة والمال والعمل فيهما، فإذا أراد الله دمار أُمَّةٍ جعل قادتها تجاراً، حينها سيُسري الفساد في هذه الأُمَّةِ.

---

1 «الدِّثَارُ» خِلاَفُ الشِّعَارِ وَهُوَ كُلُّ مَا أَلْقَيْتَهُ عَلَيْكَ مِنْ كِسَاءٍ أَوْ غَيْرِهِ وَالْجَمْعُ دُثُرٌ. «المغرب في ترتيب المعرب» لابن سعيد الغرناطي. دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٧م).

2 سورة المائدة، الآية: ٢٧.

3 الرفد: جمع رافد، وهو المعين، أي إذا حزب أمرٌ حشد بعضهم بعضاً، وتساندوا وتظاهروا، وصاروا يداً واحدة وهم معاوين في الخطوب. «الفائق» لجار الله الزمخشري. الجزء الثاني الصفحة ٣٢٦. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٦م).

4 البخاري في «كتاب الرقاق» باب رفعِ الأمانة. حديث رقم: ٦٤٩٨.

وقد يعترضُ معترضٌ بأنَّ الصَّحابة كان فيهم التُّجار، وهم أئمة الهُدى والدِّين، وأقول لهذا المُعترض إنك لم تفهمِ الكلام، فإنه لا أحدَ يحرم ما أحلَّ الله، والتجارة مِنْ خيرِ الكسب الحلال، وقد قرنها الله بالجهاد فقال: ﴿ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1]. فهذا معلومٌ بالدِّين من الضرورة، لكنَّ الحديث عن سُنن النَّاس في واقعهم، وأغلبهم، وإلاَّ فإنَّ الكثير من أصحاب الأموال والتجارات هم أهل دِينٍ وَزُهْدٍ وَجِهَادٍ، ثمَّ إنَّ الحديث يدور حول التحذير من سنن التُّجار الذين يقيسون المنفعة بما يحصلُ لهم من ربحٍ، وهم أشدُّ النَّاس خوفاً مِنْ أنْ تذهب تجاراتهم وأموالهم، وكذلك الحديث عن قادة الأُمم الذين يخوضون بها من أجل مبادئها وخاصة أهل الإسلام الذين لا نظر لهم في جهادهم إلاَّ إعلاء كلمة الله تعالى وتحقيق الدَّار الآخرة، خاصة في زمن الاستضعاف والبناء من القواعد الأُولى، والتي يكون العطاء فيها أكثر من المردود بكثير، بل لا يكون فيها من المردود شيء، كما هو شأن الإسلام في غُربته الأُولى، حين كان الصَّحابة يبذلون ويعطون، ويحاصرون، ويُهاجرون مع تركِ أموالهم كما حصل لصهيب رضي الله عنه الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2].

عقلية التُّجار ونفسيَّتهم إن لم يهتدوا بنور الله، وحبِّ الدَّار الآخرة، والإخلاص في طلبها، ستكون عائقاً تكبل إرادة القادة الذين يخوضون بأُمتهم الغمرات لتحقيق دينها وقيمها ومبادئها، وإنْ سمحوا بالجهاد فإنما يسمحون به إنْ كان يحقق لتجارتهم الكسب والزيادة والنَّماء، أما إنْ جرَّ عليهم الخسارة والانكماش فلن يرضوا به، ونحن نرى اليوم أنَّ باب الأموال والاقتصاد هو المنفذ الذي تَلِجُ منه المشاريع السياسيَّة والاجتماعيَّة والعسكريَّة، والدول الطاغوتية تلوحُ دائماً لأهل الإسلام بنعيم الدُّنيا، وتغير الأموال المادية إنْ دخلوا في دينهم، واتبعوا أوامرهم، وأطاعوهم في ما يحبونه، ولضعف الإيمان فإنهم يستجيبون لهم، ثم إنَّ تحالف السياسة مع المال في الدول الطاغوتية وهو شبيهٌ بتحالف فرعون مع قارون يجعل أفواه النَّاس مربوطة بإضلال الشعوب وسَوقها إلى مُراد طواغيتها، من أجل ذلك كان من دعاء موسى عليه السلام أن قال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾[3]، وهذا من فقه الأنبياء وإدراكهم أنَّ الأموال في يد المفسدين سبيلٌ لإضلال البشر، وقد تقدم في غزوة بدر وبني النضير بيان أهمية الجهاد لضرب مصالح الطواغيت.

من جانبٍ آخر فإنَّ وُجود المجاهدين في لحظات البناء الأُولى يضر بمصالح التُّجار وأهل الأموال، وهذا شأنٌ قَدَرِيٌّ لا انفكاكَ منه، وسيتخذِ الطواغيت هذا التغيُّر والتضيِّيق لصرف النَّاس عن

---
[1] سورة المزمل، الآية: ٢٠.
[2] سورة البقرة، الآية: ٢٠٧.
[3] سورة يونس، الآية: ٨٨.

المجاهدين، وتنفيرهم منهم، وهذا لا ينبغي أنْ يُؤثر في نفسيَّة المجاهدين، لأنه قد تقدم أنَّ الجموع التي تقفُ في مُدرجات المشاهدين هي أرقام سهلة الانحياز والتحول، فحالها حال الأرض الميتة في الحروب، أي إنَّ كلَّ طرفٍ قادرٍ في ظرفٍ معينٍ أن يحقق فيها نصراً، وأنْ يأخذها إلى صفوفه، لكن تصبح القضية أعقد وأشق حين تُساق هذه الجموع بدافع المال لقتال المجاهدين، وهي وسيلة مُتبعة من الشيطان وجُنده، فحينئذٍ على المجاهدين الاستعانة بالله، والثِّقة به، والتوكل عليه، لأنَّ توسيع دائرة الإنفاق من قِبل الطواغيت له مردودٌ سلبيٌّ عليهم من جانبٍ آخرٍ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

ما يهمنا من هذه الآيات هي تلك المعاني التي تحدثها في نفوس المؤمنين، إذ أنها تُشعرهم بقذارة هذه الأموال، وبنجاسة أمرها، لأنَّ موازين المؤمنين هي موازين الرضى الإلهي، والحبّ الإلهي، والقبول الإلهي، وهذا ميزانٌ لا ينبغي أن يكون في جانبٍ من جوانب الحياة، بل هو شاملٌ لكلِّ أحكام المؤمن، وفي المقابل هي خزيٌّ وعارٌ على المنافقين، إذ أنَّ أموالهم لا تُقبل من الله تعالى.

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾.

احتجَ بعض المرضى من المُنهزمين بهذه الآية وبما في معناها أنَّ دولة النَّبيِّ ﷺ لم يكن فيها مفهوم القوانين اللازمة التي هي عِماد مفهوم الدولة، وقال: «إنَّ عدم قبول أموال المنافقين يدل على أنَّ مفهوم الدولة الدِّيني ـ أي تعليق القبول بالرضى الإلهي، وبموازين الآخرة ـ لا يلتقي مع مفهوم الدولة الذي يتعامل مع المال بأرقام لا بمعانيه الغيبية».

هكذا قال هذا الرجل، وهو محسوبٌ على الفكر الإسلامي، ويُنسب لما يُقال له: "الحركة الإسلامية"، ويُعدُّ في أوساط الأسواق الفكرية ابناً من أبنائها، ولا عجبَ فإنَّ الانهزام هو سلعة هذه الأسواق، والمرء في زماننا لا ترتفعُ أسهمه إلاَّ إذا «نهق» بما يُفرحُ الشيطان وجُنده، وهؤلاء المتاجرون بعقولهم مُصابون بلوثة إرضاء الكافرين، واستدعاء أحدهم لإلقاء محاضرة في مؤسسة ظاهرها الفكر وباطنها الكُفر والعمالة فخرٌ يدخره في ملف رِفعته بين الأقران، وشارة تُقربه من مفهوم المثقف «الإنساني» الذي يجب أن يُشهر به، وهم يحبون تلوين خطابهم «الإنساني» هذا بآياتٍ قرآنيةٍ، أو بحادثةٍ من حوادث السيرة، و«الإنساني» هذا هو العلماني الزنديق، لكنهم لا يقدرون على كشف ذلك، وشأنهم شأن كُتاب القصة الذين يرتقون إلى مصاف الأدب «العالمي» من أصحاب الأسماء الإسلامية، فإنَّ السوق التي تروج في شراء هؤلاء، وترجمة قصصهم، والإحسان إليهم بجوائز «الغفلة» «الشراء» هي تلك القصص التي تشتد في عُهرها، ووقاحتها، وكلما ارتفعت درجة الكشف عما يمارسه الرجل أو المرأة إذا جلس وحيداً في بيت الخلاء فإنه يكون قاصاً مرموقاً، وأديباً عاليَّ

[1] سورة الأنفال، الآية: ٣٦.

الكعبِ، وواسعَ الخطو للوصول إلى قلب المفسدين في الأرض من الكافرين، أما إذا كانت تجربة هذا الكاتب فيها فرادة الشذوذ باللواط أو الفحشاء مع الحيوانات في بلده فهذه لا يحول بينها وبين الجائزة حائلٌ أبداً، وتُدخله بلا استئذان في ملكوت القبول الشيطاني.

أما هذا الكاتب الإسلامي!! الذي أشرتُ إليه، وإلى احتجاجه بهذه الآية فهو جاهلٌ حقاً، فلو رجعَ لأقرب كتاب تفسير لديه لَوجد أنه يفتري على الله الكذب، والآية بنصها تكشفُ جهله وحماقته، لأنَّ الآية تقول: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾، فمن يُكْرِهُ هؤلاء المنافقون على الإنفاق؟!.

السلف يقولون هو الإنفاق الواجب كالزكاة وغيرها، وهذه تُؤْخَذُ منهم وُجُوباً رغم أُنوفهم، فهذا هو تفسير «كَرْهًا»، ويفسر هذا قوله تعالى بعدها: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[1]. قال الحسن البصري بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ هو من أجل مزيد تبكِيتٍ لهم، ومزيد عذابٍ عليهم، هو مُراد القرآن في ذلك، ولذلك كان الخطاب لهم، مع ما في ذلك من تربية إيمانيَّة للمسلمين أنَّ موازين الآخرة هي موازين الحبّ الإلهي كما قال: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾[2].

ومثل هذا الكاتب وغيره من الجهلة لا يعلمون خطورة الكذب على الله تعالى، ولم يعلموا أنَّ الله جعل القول عليه كذباً أشدّ من الشرك والكفر لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]. قال ابن القيم: «إنَّ الله بدأ بالأدنى فالأعلى، فجعل أعلى ما حرَّم هو القول عليه سبحانه وتعالى كذباً»، وهذا حقٌّ، وواقع الأمر يُثبته فإنَّ الشركَ فرعٌ من فروعِ القول على الله بغير علمٍ، وتأصيلٌ له، وإدامةٌ له في الأرض، وما استقرار شرك الأُمم إلاَّ بعد تحريف أديانها التي أنزلها الله تعالى نقيةً، وقائل هذا القول أراد نفي الحُكم بما أنزل الله تعالى أولاً، ثم أراد أنْ يُبيِّن تخلفَ دولة الرسول ﷺ عن مفهوم الدولة المُعاصرة، وعدم قُدرة المسلمين إملاء هذه الدولة من خلال النموذج النَّبوي الهادي، ولا النموذج الراشدي بعده، وهذا هو الشرك وأكثر منه، لأنه دعوة للحُكم بغير ما أنزل الله، ودعوة لأخذ مناهج الكفار في بلاد المسلمين، وتأصيل ذلك من خلال القرآن الكريم، وهذا الرجل أرسل كتابه هذا لي هدية وقال لحامله: «أعلمُ أنَّ فلانَ لا يرضى عن كتابي هذا»، والحقّ أنَّ الله لا يرضى عنه، وهو الأهم لو كان يعلم.

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٥٥.

[2] سورة فاطر، الآية: ١٠.

[3] سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

هذا دليلٌ أنَّ الكفرَ يُسمى فِسْقاً، وهو كذلك في اللغة، لأنَّ الفسق معناه تجاوز الحد، والكفر كذلك، لكن الفسق كالكفر درجات، منه الأكبر وهو الكفر الأكبر، ومنه الأصغر، وهو الفسق الأصغر، وقد سمى الله تعالى الظلم شركاً فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾[2]، كما سمى المنافقين فاسقين فقال كما سيأتي: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾[3].

وهذه المصطلحات القرآنية واجبة التعريف لمن أراد فقه الكتاب والسنَّة، لأنَّ الجهل بمعناها يؤدي إلى الجهل بالكتاب والسنَّة، وكذلك الانحراف عن مُراد الله ورسوله فيها مصيره الضلال، ومنَ المعلوم أنَّ أول فتنةٍ حدثت في الأُمَّةِ كان خطأ فريق منها في مفهوم الإيمان، فضلَّت فيه الخوارج، ثم المعتزلة، ثم المرجئة، ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾[4].

وقد فسَّر الله الفِسق في هذه الآية بالآية التي تليها، فإنَّ الله علَّق عدم قبول أموالهم عنده بقوله: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ ثم فصَّل هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾[5].

فهذه ثلاثة أعمالٍ منعت قبول نفقاتهم التي قدَّموها من أجل دفع النَّفير عنهم مع رسول الله ﷺ؛ **أولاً**: لكُفرهم بالله وكفرهم برسوله ﷺ، **وثانيهما**: «وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ». **وثالثهما**: «وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ»، ومما هو بيِّنٌ في آخر سببين هما أداؤهما، لكنه أداءٌ ظاهرٌ خالٍ من معنى القبول القلبي، فهم يأتون الصلاة لكن بدون إرادة المحب لها الراضي بحكمها، وهم يُنفقون كذلك لكن مع كُرْهٍ لهذا الإنفاقِ، وعلَّة ذلك هو الكفر بالله تعالى، وعدم القبول بأمره، وهذا أول كفرٍ وقعَ في الوجود، وهو كفر إبليس، إذ ردَّ أمرَ الله تعالى، فهو كفرٌ قلبيٌّ وفي أعماله، لا في أقواله، وهو ردٌّ على مَن يقصر الكفر على الاعتقاد، فهذا كفرٌ لا وجودَ للاعتقاد فيه، إنما هو متعلِّقٌ بالإرادة وأعمال القلوب.

أما لماذا يعملِ المنافقون هذه الأعمال مع عدم حبِّها، فهذا يقع منهم لدفعهم القتل عن أنفسهم، فإنهم لو تركوا الصلاة والزكاة لقُوتلوا لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟

---

[1] سورة لقمان، الآية: ١٣.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

[3] سورة التوبة، الآية: ٦٧.

[4] سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

[5] سورة التوبة، الآية: ٥٤.

﴿سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ﴾[1]، فترْكُهُمْ بلا قَتْلٍ أو قِتَالٍ مُعَلَّقٌ بالصَّلاةِ والزَّكَاةِ، وهذا أمرٌ يُفسر مقصدَ دولة الإسلام، وأنها دولة لإقامة حقِّ الله تعالى قبل كلِّ أمرٍ، فالصَّلاة حقُّ الله في البدن، والزَّكاة حقُّ الله في المال، ولذلك كان من فقه الصِّدِّيق أنْ قاتلَ مانِعي الزَّكاة من المُرتدين وغيرهم، فالمنافقون يتقون القتل بهذه الأعمال، لا طاعةً لله تعالى، ولا حباً في الأجر والاحتساب.

الكسل هنا ليس هو ما يُصِيبُ النَّفس من عوارض التعب، والذي يُصِيبُ الإنسان بعد المشقة، أو كمن يسترخي بعد النوم فلا ينشط إلاَّ بمجاهدة، وإنما هذا كسلٌ دافعه ومنشؤه كراهية ذات العمل، أي كراهية الصَّلاة، والفرقُ بينهما أنَّ المؤمن يحبُّ الصَّلاة، ويحبُّ أهلها، كما أنه يحبُّ أنْ يُؤديها ويُكْثِرَ منها، لكن نفسه تحبُّ الراحة، وتدعوه للخمول، ولقوة رغبته بالدَّار الآخرة وإرضاء الله يجاهد نفسه ويقوم لصلاته، والقيام للصَّلاة الواجبة مجاهدة واجبة، وأما القيام للصلاة المُستحبة فالمجاهدة لذلك مُستحبة، وهو يفرحُ إنْ فعلها، ويشكر الله على إعانته بأنْ أداها، ويدعو الله أنْ يجعله وأهله من أهلها كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠﴾[2]. ويدعو النَّاس لأدائها: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[3]، ويحض أهله عليها كما وصف الله إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾[4]، وأما المنافق فلو خلا لوحده لما أداها، ولو تمكن لما أمر النَّاس بها، وإنْ فاتته لا يحزن لتركها، فهو يكرهها ويكره الأمر بها، ولذلك فهو يقوم لها على كسلِ المُبغض لها، وأما المؤمن فإنْ كسلَ فهو يقوم وهو كارهٌ لكسله، محبٌّ لها.

ومثل ذلك يُقال عن الكراهة في الإنفاق، سواء بسواء.

وقد اختلف أهل العلم في باب التفاضل بين من أتى بالفِعل وهو محبٌّ له، وراغبة فيه نفسه، ولا يجاهد نفسه في إتيانه، وبين من أتاه على وجه المجاهدة له، أيهما أفضل؟!. وقد تكلم العلماء في هذه المسألة، والذي عندي أنَّ هذه مسألة تخيلية، ولا حقيقة لها عند العابدين، فإنَّ المؤمن لا يتصور كراهته للفِعل الإيماني، لكن الحديث عن الإرادة، والإرادة في الإنسان لا تكون على حالٍ واحدٍ، فقد تنشطُ للفِعل، ولا يُقال لنشاطها له إنَّ في هذا النشاط خُلو عن المجاهدة، فالمحب كذلك يجهد فيه كالكاره له، وقد تكسل، ولا يُقال لكسلها إنها تكره الفِعل، وحين تقوم فيه فإنها تجهد فيه كما تجهد فيه حين نشاطها، وإنْ صح وجود شخصين، شخصٌ لا يجهد إرادته كثيراً للفعل، وآخرٌ يشق عليه هذا ويجهد لفِعله كثيراً، فإنَّ هذا لا يكون على الدوام أولاً، ثم إنَّ وصولَ المرء لمقامٍ يثبت فيه إدامته للفِعل لا يكون إلاَّ بعد مجاهدة لإرادته في البدايات على معنى يقل حيناً بعد ذلك، مع ما في البدايات

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٥.
[2] سورة إبراهيم، الآية: ٤٠.
[3] سورة الحج، الآية: ٤١.
[4] سورة مريم، الآية: ٤٥.

من معاني خاصة لا يحسها الراسخون والمقيمون، كما قال أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ لما جاء أهل اليمن، فقرأ عليهم القرآن فبكوا، فقال الصِّدِّيق ﷺ: «هكذا كنا في بداية الإسلام ثم قست قلوبنا»[1]، فقوله: «ثم قستْ قلوبنا» من باب غَمْطِ النَّفس، وهي سِمَةُ الصِّدِّيقِين، وهو إمامهم، وأكبرهم، ولكنه قال هذا لما صار النُّور مألوفاً لقلبه، وصارت واردات العِلْمِ والهُدى فيه مستقرة ودائمة، بخلاف البدايات فإنَّ النُّور له معنى خاصٌ يدفع صاحبه للفرح به، فيبكي له، لشدَّة قوة وارده عليه، وهذا ما وقع للمؤمنين الموحِّدين مِنَ النصارى لما وقع على قلوبهم نور القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2]، والله أعلم.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[3].

إنَّ مضي الآيتين وما فيهما من بيان حال مال المنافق إذا أنفقه هو من أجل هذه الآية، لأنَّ نفوس المؤمنين في هذا الواقع هي المُراد، وتقويمها على الحقِّ هو مقصد الخطاب القرآني، والنُّفوس الإنسانية تتأثر بما في أيدي النَّاس من المحبوبات التي ذكرها الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾[4]، لكن هذه يُرقيها القرآن، ويُقوِّمها خطابه، ويرفعُ شأنها من النظر إليها إلى الآخرة فقال: ﴿ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ﴾[5]، ففي هذه الآية: « فَلَا تُعْجِبْكَ » قطع الإعجاب بما في يد الكافر والمنافق من المال والأولاد، وهذا المعنى كثير في القرآن الكريم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾[7]، ذلك لأنَّ إعجاب المؤمن بمال الكافر والمُنافق سبيلٌ إلى تعظيمه وإجلاله، والإعجاب بعمله وعقله

---

[1] ذكرها بعض أهل التفسير، ومنهم: إسماعيل حقي البروسوي في «تفسير تنوير الأذهان» وفي «روح البيان» الجزء الثالث، الصفحة ٣١١. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (١٩٨٥م). وأبو بكر محمد بن حسين الآجري في «تفسير حقي» الجزء الرابع، الصفحة ٣٧٤. طبعة الدار السلفية بالهند. وأبو حامد محمد الغزالي في «إحياء علوم الدين» الجزء الثاني، الصفحة ٢٤٨. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٥م).

[2] سورة المائدة، الآية: ٨٣.

[3] سورة التوبة، الآية: ٥٥.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٤.

[5] سورة آل عمران، الآيتان: ١٤ـ١٥.

[6] سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

[7] سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

ووسائل حياته، وهذا لو وقع لَكان شرّاً في قلبه، مؤذنٌ بتقليده، ثم باتخاذه إماماً وقُدوةً، وهذا ما وقع في الأزمنة المُتأخرة، فإنَّ ما أعطاه الله من دنيا في يد الكافر، وكثرة النَّعيم عنده كان سبباً في شك المسلمين بدينهم، ثم إتباعهم طُرق الأغيار، ولو تربى المسلمون على هذه الآية لَكفتهم في هذا الشأن، ولَعصمتهم مما يُقال الانبهارَ بالكفر، لكن مرض حبِّ الدُّنيا، واتخاذ ما فيها ميزاناً يقيم منه صواب المنهج وضلاله هو ما صرف الكثير من المسلمين عن الإسلام، وهذا منهج فرعون في التفضيل حين قال: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾.

إنَّ قيمة نعيم الدُّنيا بما يجعله المرء وسيلة لرضوان الله تعالى، وكيف هو في عين الله تعالى، وقد تقدم أنَّ أموال هؤلاء القوم غير مقبولة عنده سبحانه وتعالى، فهذا أمرها حالاً، أما أمرها مآلاً فهو: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[2].

هذا البناء القرآني للنَّفس المُسلمة، هو عُمدة الشخصيَّة التي تصنعُ التاريخ، بل وتقتحمه، لأنها ترى نفسها دون غيرها بما معها من معاني الطُهرِ والخيرِ والهُدى أحقّ النَّاس بخلافة الأرضِ، فهي في قُروحها عزيزة، وفي فَقرها غنية، وفي ضعفها قوية، فهي لا تهون في فقرها أمام غنيٍّ، ولا في قُروحها أمام مُنْتَصِرٍ، ولا في ضعفها أمام قويٍّ، وهذا بناءٌ حقيقيٌّ يكون في حالته السليمة لحظة الجهاد فقط، ومن غير الجهاد يكون حالة مرضية حقّاً، لأنَّ مَنْ ينسحبُ مِنَ الحياة بسبب هذه المعاني لو حصلت في قلبه ونفسه فإنها مشاعر كاذبة، لا يصدقها الواقع، وحين تكون المشاعر النَّفسية خاصة دون وقائع فإنها حينئذٍ تكون مرضاً، ولذلك فالترجمة الحقيقية لهذه المشاعر الإيمانية هو حملها للوجود من أجل إدخال العالم فيها، لأنها مشاعر رحمةٍ على الخَلق، ومعاني مبذولة للآخرين، غير قاصرةٍ على قومٍ أو عشيرةٍ، بل هي مُرتبطة بمعاني، فمن آمن بها كان مِنْ أهلها، ومَن تخلى عنها كان مِنَ المحرومين، فوجود هذا البناء لا يقتصر على العزَّة فقط، بل هو يمتزجُ بالتساوي مع الرحمة، ولذلك اقترنتْ صفة الغِنى لله تعالى مع الحمد، فالله هو الغنيُّ الحميد، لأنَّ الغِنى استعلاءٌ، والحمد شُكْرٌ وَثَنَاءٌ، وهذا مِنْ أبلغ المدح وأحسنه وأعدله، وقد وُصف رسولنا ﷺ بالضحوك القتال[3]، وهذا أبلغ ما يكون عليه الإنسان الكامل، فهو لا يذلُ لعزيزٍ مِنَ البشر، ولا يستنكفُ من مُواساةِ ضعيفٍ، والمسلم مكتفٍ بما عنده مِنَ الحقِّ، ساعياً لبذله في الخَلق، فلهذا كان المسلم عادلاً رحيماً عزيزاً.

---

[1] سورة الزخرف، الآية: ٥٢.

[2] سورة التوبة، الآية: ٨٥.

[3] وفي الحديث: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أنا الضحوك القتال» يعني أنه ضحوك في وجه وليه قَتال لهامة عدوه. قاله ابن كثير في تفسير الآية: ١٢٣ من سورة التوبة. «تفسير القرآن العظيم» الجزء الرابع، الصفحة ٢٠٨. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (١٩٨٥م).

شعور المسلم بالامتلاء، واستعلائه الإيماني على الآخر فِكراً وسلوكاً وقيماً ومالاً وولداً هي مقدمات النَّصر، وهي مقومات البقاء الحضاري لأيِّ أُمَّةٍ تُؤمن بهذا، وإنما الأُمم تذوب وتزوى بسبب فراغها من هذه المعاني، فتلتحق بالآخرين، وتتبعهم، فتنهار وتتلاشى، وهذا يكون في القليل والكثير، حتَّى في الألبسة، وطرائق الحياة الفِطرية من كيفية الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، وهذا ليس خاصاً بالمسلمين، فقد قرأتُ لأحد دهاقنة الشرك في هذا العصر يفتخر بأنَّ العلو الثقافي لحضارته الشركية مظهره هذا اللباس «الإفرنجي» من «بنطال» وتوابعه من ربطة العُنق وغيرها، وهو يفسر هذا بأنَّ المرءَ في كلِّ البلاد قد يلبس لباسه الثقافي، ولكن في الوجود الكلِّي حين يجتمع الجميع يُصبح لهم مظهراً واحداً هي ثقافة حضارته الشركية، هكذا يقول هؤلاء، وحين تتحدث عن السنَّة النَّبويَّة في هذه الجوانب، وهي جوانب عظيمة، لها آثارها النَّفسية والإيمانية، تجد مَن يزعم الانتساب إلى سنَّة رسول الله ﷺ وإلى دين الإسلام يستهزئ بك[1]، ويزعمُ أنك تُقزم الإسلام في هذه المظاهر، مع أنَّ مظهر المياه في سطحها هو مُعَبِرٌ عن صفائها أو كدرها في عُمقها، وثقافة الهزيمة هي أصلٌ في القلب تنبعث في مظاهر الحياة، صغيرها وكبيرها.

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ﴾.

إنك يا محمد ـ ﷺ ـ لستَ بحاجةٍ لهذه الأموال، ولا بحاجةٍ لقِواهم، فلا تتمنى مجيئهم إليك لشعورك أنَّ هذا الدِّين سيَقْوَى بهم إنْ جاؤوا، لأنَّ الله يعلمُ أنهم لو جاؤوا لَكانوا شرّاً عليك، وعلى جهادك، وعلى أُمَّتك، فإنَّ الله يُبارك في القليل إنْ كان فيه الإخلاص، ويمحق الكثير إنْ كان خبيثاً كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾[2]، وهذه الآية في سورة «المائدة»، جاءت في سِياق حُرمة صيدِ البرِّ للمُحرم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ ﴾[3]، إلى قوله تعالى: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[4]، وقد فُتِن الصَّحابة رضوان الله عليهم بأنْ كانت أوابد الوحش مما أحله الله للحل وحرمه على المحرم تقتربُ منهم في رِحالهم وهم حُرم، كما وقع لبني إسرائيل يوم السبت كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾[5]، فعصم الله أصحاب رسوله ﷺ من المعصية، ولو أكلوها وصادوها لَكانت كثيرة بين أيديهم، لكنها الكثرة الخبيثة، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾.

---

[1] لقد سمعتُ أحد المنهزمين ألاَّ وهو الهالك محفوظ النحناح الجزائري وهو يقول: «لو كان النَّبيِّ ﷺ في عصرنا ما وَسِعه إلا ارتداء البدلة، وربطة العنق»!!. كما أنه كان يستهزئ بالأخوات المُنتقبات ويُسميهن بالنينجا. ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

[2] سورة المائدة، الآية: ١٠٠.

[3] سورة المائدة، الآية: ٩٤.

[4] سورة المائدة، الآية: ٩٦.

[5] سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

إنَّ الجهاد ليس بحاجةٍ إلاَّ لمالٍ طيبٍ، ولو كان قليلاً، وهو غنيٌّ عن مال الخُبث ولو كان كثيراً، فليقطعِ المجاهدون من نفوسهم تمني أموال المُنافقين بين أيديهم، وليُزيلوا من نفوسهم إعجابهم بهذه الأموال، وهذه الأعداد من أولادهم وتابعيهم، فما عندهم من الطيب كافٍ للظرف الذي هم فيه، والله يقول: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[1]، وقوله: «نَكِدًا» أبلغ من قوله: «عُسْرًا» كما فسرها السابقون، فإنَّ قوله: «نَكِدًا» معنىً مادياً ومعنىً معنوياً نفسيّاً، وهذا شأن المال الخبيث له أثرٌ على الأبدان وعلى النُّفوس، وهو سبيل شرٍّ على أهله في أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم وائتلافهم، كما هو سبيل شرٍّ على قِواهم وأعمالهم.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

تقدم قول السلف كالحسن البصري أنَّ العذاب هنا هو أخذ الزكاة منهم رغم أُنوفهم، فهذا من عذاب الله عليهم، والآية أعم من ذلك، فإنَّ المال بين أيدي النَّاس الذين لا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، ولا يطيعون رسول الله ﷺ هو مصدرٌ من مصادر هلاكهم وعذابهم في هذه الحياة الدُّنيا، وهو سبب الشحناء بينهم، والخصومة، بل إنَّ المرء لَيقتل أباه أو أخاه على هذا المال، وتقوم الثورات عليه، بل هناك من المذاهب الكفرية من علقت الثورات وتقلبات الحياة على هذا المال، والمرء البخيل معذَّبٌ بماله، معذَّبٌ بجمعه الذي لا يشبعُ منه، ومعذَّبٌ في الحرص عليه، ومعذَّبٌ بكراهية النَّاس له بسبب هذا الحرص، ومعذَّبٌ بخوف ذهابه من بين يديه.

أما عذاب الله تعالى لهم بأولادهم، فهو ظاهرٌ في الواقع، بيِّنٌ لمن تأمله، حتَّى صار يُربي كلباً خيراً له مِنْ أنْ يُربي ولداً، والمرء يحبُّ الولد لأمور منها امتدادٌ له، ورغبة الإنسان في الخلود هي منفذ الشيطان إلى أبينا آدم حين قال له: ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾[2]، فوجود ابنٍ له يحمل نسبه يُعَوِّضُ عنه عدم قُدرته على البقاء والخلود، ثمَّ إنَّ الولد قوة لأبيه، ولذلك فإنَّ عبد المطلب جد النَّبيِّ ﷺ لما دخلت كلمة قريش فيه لما حضر بئر زمزم تمنى أن يرزقه عشرة من الولد ليقوى بهم، ونذر نذره الشهير أنه لو رُزق عشرة لَذبح أحدهم[3]، والمرء اليوم بسبب المعاصي وانتشارها لم يَعُدْ يرى هذا في أبنائه، فليسوا له عِزْوَة، ولا ينتفع بهم بمالٍ، بل هم في كثيرٍ من

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ٥٨.

[2] سورة طه، الآية: ١٢٠.

[3] روى الطبري في «التفسير» في المجلد الثاني عشر، الجزء الثاني والعشرون الصفحة ٨٥، عن الصُّنابحي، قال: كنا عند معاوية ابن أبي سفيان، فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم: «كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجلٌ، فقال: يا رسول الله عُدْ عليَّ مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك عليه الصلاة والسلام فقلنا له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إنَّ عبد المطلب لما أُمِر بحفْر زمزم، نذر لله لئن سَهُل عليه أمرها ليذبحنَّ أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله، فمنعه أخواله، وقالوا: افْدِ ابنك بمئة من الإبل، ففداه بمئة من الإبل، وإسماعيل الثاني».
قال الحافظ السيوطي: هذا حديث غريب، وفي إسناده مَنْ لا يُعرف حاله.

الأمور سبب شقائه وتعبه، وهذا من أشدِّ العذاب والشقاء، لأنَّ مجيء العذاب من باب الرجاء أشدّ من مجيئه من مصدر العداء، فالمرء قد يحتمل عداء العدو، لكن يصعبُ عليه عداء القريب، فكيف إنْ كان هذا العداء من الابن، وفي زماننا نرى أنَّ أصحاب الأموال والثراء والملأ الذين لا يُقيمون شأناً لدين الله في بيوتهم وحياتهم، ولا يهتمون بأبنائهم يُسلط عليهم هؤلاء الأبناء، فهم كالوحوش، لا يرفعون رأس احترامٍ وتقديرٍ لآبائهم وأُمهاتهم، ولا يُطيعونهم في أمرٍ، بل لا شأن لهم سوى الولوغ في الشَّهوات، ولذلك فلا عجبَ أنَّ أبناء الملأ قد انتشرت فيهم ظواهر مُقرفة مُقززة، وصارت فيهم أديانٌ عجيبةٌ كعبادة الشيطان، والمُخدرات، فيسلط الله الأبناء على الأموال، كما أفسدتِ الأموال هؤلاء الأبناء، فيؤول حرص الأب على العمل، وكده لجمع المال إلى أن يصير المال سبب شقائه، وهذه هي بعض صور العذاب في الحياة الدُّنيا حين يسلط الله الأموال والأبناء على مثل هؤلاء القوم، وإلاَّ فهناك صورٌ كثيرةٌ، ومن ذلك عدم انتفاعهم بها مع أنها بين أيديهم، لما يُصيبهم الله مِنَ الأمراض والضعف، أو يسلط الله عليهم مَنْ يأخذها منهم على وجه الإكراه، أو الحيلة، وهذا أكثر ما يقع اليوم في أموال المسلمين، وخاصة العامة منها، فكم من بلدٍ سلط الله عليها المرتدين والزنادقة فسلبوا الأموال، وأضاعوها على شهواتهم، والنَّاس لا يجدون ما يأكلون مع أنَّ بلادهم هي من أغنى بلاد العالم وأثراها، وما يجمعه الكثير من المسلمين في سنين يأخذه أعداؤهم منهم في لحظات، كما كان يُسمى قديماً بالتأميم حين تحول الأثرياء في لحظة إلى فقراء، أو من خلال لعبة الانتكاسات الاقتصادية في أسواق المال حيث تذهب الملايين في لحظات إلى هباء[1].

كل هذا العذاب الذي تحيَّاه أُمَّة الإسلام في أموالها وأولادها إنما سببه هَوان هذه الأُمَّة على الله، وقد صدق من قال: «ما أهون الخَلق على الله إنْ هم عصوه»، ولذلك قال تعالى بعد أنْ أغرق فرعون وجُنده: ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ** ﴿٢٩﴾ ﴾[2]، وقد ظنت هذه الأُمَّة أنَّ فراغها لِدُنياها، وإكثارها من جمعِ المال سبيل لحصول الرِفعة والعِزَّة، فها هي بلاد المسلمين تُعذب بالجوع حيناً، وبغزو أعدائها حيناً، وبسرقة أموالهم حيناً، وقد تحول أبناؤهم إلى سخرة وعبيد بين أعدائهم، وكل هذا بترك الجهاد كما قال النَّبيّ ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[3]. أي لجهادكم.

---

[1] كما حصل مؤخراً لما أطلقوا عليه اسم: «الأزمة الاقتصادية»، وسببها الرئيس الربا. وصدق الله إذ يقول: ﴿ **يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟** ﴾.

[2] سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

[3] أبو داود في «السنن» في «كتاب الإجارة» باب في النهي عن العِينة. حديث رقم: ٣٤٦٣، والبيهقي في «السنن الكبرى» حديث رقم: ١٠٧٤٩، وأخرجه أحمد في «المسند» في أكثر من موضع بألفاظ مُتقاربة، وهذه روايته عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنَّ النَّاس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعِين، واتَّبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يُراجعوا دينَهم**» حديث رقم: ٤٨٢٥. وقال أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ: **إسناده صحيح.**

لقد صارت أموال المسلمين وغناهم سبب شقائهم، وصارت كثرتهم سبباً للبلاء، لأنها وُضِعَتْ في غير موضعها، وهذه هي سنَّة الله تعالى تمضي بلا تخلفٍ أنَّ مَن يعصي الله بشيء فإنَّ الله يُسلطه عليه.

﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

هذا الاقتران بين عذاب الله تعالى للمنافقين في أموالهم وأولادهم، وموتهم وهم كفار فيه معنى قرآني، وهو أمر واقع من هؤلاء، وهو أنَّ حصول العذاب في الأموال والأولاد يزيد بُعْدَ هذه القلوب عن الله تعالى، حتَّى يصل أمرها إلى مستقر الوفاة على الكفر، لأنَّ البعض يظنُّ أنَّ البلاء والعذاب على مثل هؤلاء يحيِّي قلوبهم، ويُعِيدُ عقولهم إلى رُشدِّها، ويُبصرهم بالهُدى، ولكن هذا الظن مخطئ، لأنَّ البلاء لا يحمل معنىً في ذاته إلاَّ مِنْ خلال ما في القلب من معاني وعلوم واعتقادات، فالبلاء إنْ وقع على القلوب الضالة فُسِّرَ على معنى الضلال وزيادته، وإنْ وقع على المؤمنين زادهم إيماناً وهُدىً وعلماً، كما قال الله تعالى عن المرض: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1]. وهي آيةٌ ستأتي في ختام هذه السورة إن شاء الله تعالى. فهؤلاء الضالون في قلوبهم حين وقع بهمُ العذاب بأموالهم وأولادهم لم يهتدوا أنَّ هذا مِنْ عند أنفسهم، ولم يسترشدوا بما وقع لإدراك فساد دينهم وأعمالهم، بل الكثير منهم يسبُّ الدهر، ويسبُّ يد الله، ولا يلتفتُ لنفسه وما جنت يداه، فيستقر على الكفر من الأحوال، وهو قبل ذلك لا يدري ما يقول، ولا يهتم لقضايا الغيب والقدر، لأنَّ أمر الدِّين لا يعنيه في شيء، لكن إنْ وقع البلاء صار حاله كحال قوم فرعون ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾[2]، ولو رفع عنهم الرجز لَكان أمرهم كأمرهم: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾[3]، ولذلك فأغلبهم بعد المصائب يسبُّون حِكمة الله، ويتهمون قدر الله بالظلم، وقد تكون خاتمتهم مع هذا القهر، وهي خاتمة وصفها الله تعالى هنا بهذه الكلمة «وَتَزْهَقَ» فتموت وهي كافرة مقهورة بهذا الموت.

العينة، بكسر العين المُهملة: قال ابن الأثير: «هو أن يَبيعَ من رجلٍ سلعةً بثمنٍ معلومٍ إلى أجلٍ مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به، فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضاً عينة، وهي أهون من الأولى، وسُمِّيت عينة لحصول النقد لصاحب العينة، لأنَّ العين هو المال الحاضر من النقد، والمُشتري إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه معجلة».

«**وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع**» يُريد أنهم تفرغوا للزرع وأذلوا أنفسهم للأرض وتركوا الجهاد، وهذا شيء مُشاهد ظهرت آثاره في المسلمين، حين صاروا عبيد الأرض والزرع، بل هو ظاهر في كلِّ أُمة استعبدتها الأرض وقصرت نفسها على الزرع. والجهاد هو ملاك الأمر كله في الإسلام، رضي عبيد أوربة أم أبواْ. من تعليق أحمد شاكر على الحديث بتصرف يسير.

[1] سورة التوبة، الآية: ١٣٦.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

[3] سورة الأعراف، الآية: ١٣٥.

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[1].

يضطرُ المنافقون في أحيانٍ عِدة أن يُعلنوا دخولهم مع المؤمنين، وخاصة زمن الانتصار والتمكين، والقرآن في هذه الآية يكشفُ سببَ هذا الدخول الظاهري الكاذب، وهو أنهم قومٌ يخافون من المؤمنين، وهم في محاولتهم لإثبات هذا الدخول والانتماء يُقسمون الأَيمان، وقد تقدم بيان هذا المعنى من اتخاذ الحلف وسيلة للرضى والقبول عند القلوب المؤمنة التي تُعظم الله تعالى، وفي هذا بيانٌ أنَّ المرءَ المسلم في معركته مع الأعداء يلزمه أن يعرف عُمْقَ خُبْثِ هؤلاء القوم، وأن يكون بصيراً بقلوبهم ونواياهم، ذلك لأنَّ ظاهر القلب قد يقع في وَهْمِ حُسْنِ الظنِّ الذي يحيَّاه هو في نفسه، فيخسر بهذا الوهم معركته، فالمؤمن عاقلٌ مُدركٌ لطبائع الخَلق، مؤمنهم وكافرهم، فمع المؤمنين يُعمِل قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾[2]، ومع الكافرين يُعمل قوله تعالى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾[3]. كما سيأتي، أما التعميم بما يحسه المرء من نفسه، فيقيس الآخرين على ذلك فهذا موطن العطب والانحراف والخسارة، ولذلك يقول الفاروق: «لَسْتُ بِخَبٍّ وَلاَ يَخْدَعُنِي الخَبّ»، والخَب بالفتح وقد يُكسر، هو الخداع الذي يسعى بين النَّاس في الفساد[4].

لكن لماذا يخاف هؤلاء من المؤمنين فيضطروا لهذا الحِلف الكاذب؟.

هذا لأنَّ المؤمنين لا يخافون في الله لومة لائم، ولا يتهاونون في أمر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[5]، فلو أظهر هؤلاء كفرهم لما وجدوا من المسلمين تساهلاً ولا سكوتاً، وفي هذا بيان عمل المؤمنين في المجتمع المسلم، وهو رد على الزنادقة الذين ينفون حُكْمَ الله في الردة والزندقة، ويزعمون أنَّ أبا بكر ﷛ إنما قاتَل المُرتدين لأنهم خرجوا على نظام الدولة لا على الردة في أمرٍ مِنْ أُمُورِ الشَّرْعِ الذي هو حقُّ الله تعالى، وقائلُو هذه المقالات الكافرة دافعهم هو هوان أمر الله في قلوبهم، فإنهم لا يرون أنَّ الإيمان يستحقُّ أن يُقْتَلَ عليه المرء، وأنَّ حقَّ الله لا يُوجب خصومةً بين الفُرقاء، لكن هؤلاء يجيزون بل وُيوجبون الحروب على الدرهم الواحد، لعظمته في قلوبهم.

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ٥٦-٥٧.

[2] سورة النور، الآية: ١٢.

[3] سورة التوبة، الآية: ٩٤.

[4] أخرج النيسابوري في كتابه: «المستدرك على الصحيحين» عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ والفاجِرُ خَبٌّ لِئِيمٌ**» حديث رقم: ١٤٠.

[5] سورة النور، الآية: ٢.

إنَّ المنافقين «يفرقون» من سيف المؤمنين، ومن شجاعتهم، ومن بذلهم نفوسهم لله تعالى، ولذلك لا يُعلنون كفرهم، وقد خلق الله الكثير من البشر على هذا النحو، لا يرتدعون لخطاب الحقِّ، ولا يستقيمون لهدي الكتاب ووعظه، لكنهم يسيرون على خيرِ طريقٍ بالخوف والردع، وهذا كما أنَّه في الأشخاص كذلك هو في الشعوب والدول، بلِ الأغلب عليها كذلك، ولذلك ﴿ **وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾** ﴾[1]، فالحياة لا تستقيمُ إلاَّ بهذين؛ الميزان العادل من الأحكام والشرائع، ومصدره الكتاب الكريم، والحديد الناصر الذي ينصر الكتاب ويحميه[2]، وغياب أحدهما يعني الفساد في الأرض، فالحقّ إنْ كان ضعيفاً لم يهتدِ به إلاَّ القِلَّة، ولا ينتفع به إلاَّ الصفوة، والقوة من غير كتاب يهدي تكون سبباً للفساد والظلم والخراب، ويتخذها أهلها لسلب الحقوق، وإفساد العباد، ولذلك لابدَّ من وجود إسلامٍ رادعٍ، وفئةٍ مؤمنةٍ تبذل نفسها من أجل عِقاب الخَلق المُفسدين والشاذين، وقصر عمل المسلمين على الإرشاد والوعظ فقط هو مِنْ طُرق الشيطان لإفساد الخَلق، وخُلُوهِ بهم لأخذهم إلى طاعته، وهذا يجعل الجهاد في سبيل الله تعالى فريضة الحياة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ميزان الإيمان كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[3]. وقوله أضعف الإيمان لأنه تحصين لنفسه فقط، فلو خلا قلبه من ذلك لَدخل هو مع المُفسدين والفاسدين والعُصاة، والحديث جعلَ التغيِّير باليد هو أعلى درجات الإيمان، لا كما يقول مُفتو قُطاع الطريق إلى الله إنَّ هذا من الإفساد في الأرض، ومن نشر الفتن، وهذا أمرٌ ربَّانيٌّ لا يحتاج إلى إذن أحدٍ[4]، فإنْ أصابه مكروهٌ بسبب هذا كان له أجرٌ عظيمٌ، وقد تصل إلى الشَّهادة، ولذلك هو أعظم درجات الإيمان في هذا الباب، والذين قالوا من أهل العلم إنَّ هذا الحُكم مضبوطٌ بأنْ لا يجر فساداً أعظم منه لا يقصدون أبداً عدم لحوق الأذى بأمرٍ ونهيٍ[5]، لأنَّ هذا لا يتصور، بل إنَّ الضابط لذلك هو الدِّين كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[6]، أما أنْ يُعطل الجهاد والأمر بالمعروف من أجل خوف الموت أو السجن أو الجَلد أو ذهاب المال فهذا لا يقوله فقيهٌ سابقٌ إنما يقوله المُدعون.

---

[1] سورة الحديد، الآية: ٢٥.

[2] ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية إذ قال: «قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر». «مجموع الفتاوى» الجزء العاشر، الصفحة الثالثة عشر.

[3] مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ في «كتاب الإيمان» باب بيانِ كونِ النهي عن المُنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيدُ وينقصُ، وأنَّ الأمر بالمعروف والنَّهيَ عن المُنكر واجبان. حديث رقم: ٤٩.

[4] فإنَّ علماء السلاطين يشترطون شرطاً لا يوجد في كتاب الله ولا سنَّة رسوله ﷺ ألا وهو إذن الحاكم، الذي يُطلقون عليه ولي الأمر ـ أي طاغوتهم الأكبر ـ. ومن عجائب هذا الزمان أنَّ طاغوت بلاد الحرمين أصدر مرسوماً بعدم جواز الإفتاء لمن لم يأذن له بالفتوى.

[5] فإنَّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يحتسب عند الله كل ما يُصيبه من الأذى عند قِيامه بهذه المهمة العالية، ولذا أطلق الفقهاء عليها «الحِسبة».

[6] سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

إنَّ الأُمَّة تستكين، وتهون في نظر أعدائها، إذا رأت أنها تقوم بما تقوم به من أمورٍ ضدَّها ثم هي لا ترد على ذلك، ولا تجابه شرها، لكنها لو علمت أنَّ هذه الأُمَّة لا تسكتُ على باطلٍ، ولا تنامُ على ضَيْمٍ[١]، فمَنْ حركَ لها أصبعها قُطع، ومَنْ تكلمَ بكلمةٍ ضدَّ دينها قُتل، ومَنْ أرادها في شرٍّ أذاقته سوءَ العذاب، كان هذا رادعاً للأُمم أنْ تقتربَ منها، لكن ضاعت فلسطين، وظنَّ الأعداء أنَّ الأُمَّةَ ستحرق الأرض على ضيَّاعها، فلم يروا إلاَّ تفويضاً مِنَ هذه الشعوب لحكامها الطواغيت بحل المُشكلة، فباعوها لأنهم أُجراء لأسيادهم، وأُحرق المسجد الأقصى، فارتقبَ الأعداء أن تتحول أُمَّة الإسلام إلى قوى تُري أعدائها ما تستحق، فوقع ما وقع في الأولى؛ أي فوضوا حلَّ القضية للطواغيت الأُجراء، فمضت كغيرها، وهكذا دخل الهوان والذلة في هذه الأُمَّة، وصارت علامةً لذلك، حتَّى قيض الله لها مَنْ أحيا فيها الجهاد في سبيل الله، فصارت في سنين قليلة هي، وهي وحدها، مَنْ يقفُ لِيُعلمَ العالَمَ كيف يذلُّ الطواغيت.

صاحبَ هذا الهوان فقهٌ أعوجٌ منحرفٌ، وهو أنَّ قضايا الأُمَّة العامة لا يتحدث فيها، ولا يقوم لها إلاَّ هؤلاء الطواغيت، يقولون هذا الفقه ليسدوا الأبواب أمام الطوائف المنصورة والمجاهدة، وحتَّى لا تقوم فترد المُنكر الذي يتخللها ويسري فيها، والله يقول: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾[٢]، هذا مع أنَّ خطاب الله للأُمَّة وليس للحُكام، والحُكام وُكلاء لها، فإنْ تخلى الوُكلاء عنِ المُهمة عادتِ المهمة إلى الأصيل، فإنْ قصَّرت كانت آثمة، وحقَّ عليها غضب الله تعالى.

إنه لا حياة لأُمَّةٍ مِنَ الأُمم ما لم يهابها المنافقون والأعداء في داخلها، والأعداء مِنْ خارجها، أما إذا بلغ الأمر بالأُمَّةِ أنْ صار الأعداء في داخلها، وحطوا رِحَالَهُمْ بينهم فإنما هذا لهوانهم كما قال أبو الدرداء ﷺ: «وإذا سلط على قوم السِّباء فليس لله فيهم حاجة»، وقال: «ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره!»[٣]، وكيف لا تهون وقد هان الله في قلوبهم، وهان حُكمه، وهان رسوله ﷺ، وصار النَّاس يُقاتلون على الدُّنيا، وتشتدُّ الحروب في داخلها على الدُّنيا، وتهب الأقوام إنْ جاعت وفقدت رغيف الخبز، أما أنْ يُكفر بالله بين أظهرها، ويُهان اسم الله، وتُترك الصلاة، وتفشو المحرمات فلا تتمعر وجوههم، فلم يعدِ النَّاس يسمعون أنَّ فلاناً قتل آخر لِسبِّه رسول الله ﷺ، أو لِسبِّه اسم الله تعالى، وإنْ وقع فإنما هو واحدٌ أو اثنين في مجموع الأُمَّة، مع أنَّ هذا السبَّ قد شاع في

---

[1] الضَّيْمُ، والذَّيْمُ: معناه الظلم، وهو كالقهر والاضطهاد.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

[3] قالها ﷺ وهو يبكي عندما فتح معاوية ﷺ جزيرة قبرص بأمر من خليفة المسلمين الثالث عثمان بن عفان ﷺ حيث سبوا سبايا كثيرة، وغنموا مالاً جزيلاً جيداً. ولما جيء بالأسارى جعل أبو الدرداء يبكي، فقال له جبير ابن نفير: «أتبكي وهذا يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟». فقال: «ويحك إن هذه كانت أمة قاهرة لهم ملك فلما ضيعوا أمر الله صيرهم إلى ما ترى سلط الله عليهم السباء، وإذا سلط على قوم السباء فليس لله فيهم حاجة». وقال: «ما أهون العباد على الله تعالى إذا تركوا أمره!». ذكرها ابن كثير في كتابه: «البداية والنهاية» الجزء العاشر، الصفحة ٢٢٩. تحت عنوان: ثم دخلت سنة ثمانٍ وعشرين، فتح قبرص.

أقوامٍ، وفي بُلدانٍ، حتَّى هان أمر هذا في قلوب بعض من انتسبَ للعلم فلم يعد يحكم بالكفر على سابٍّ الله وسابٍّ الرسول ﷺ[1]، ولو كثر الرجال الذين يبيعون أرواحهم ونفوسهم لله، ويبذلونها رخيصةً لغيرتهم على الله ورسوله فصار كلّ مَنْ سُمِعَ منه كلمة سبٍّ لله ولرسوله، أو استهزاءٍ بالدِّين يجد فِدائياً يرمي رأسه بين يديه، أو يُوجه له طلقة تستقرُ في قلبه لما صار الأمر إلى هذا الحال مِنَ الهوان، لكن هان دين الله في قلوب الأُمَّة فهانت في عين الله، فكان هوانها عند أعدائها، لأنها صارت أُمَّةَ أكلٍ وشُرْبٍ وحرصٍ على الدُّنيا، ولولا وجود المجاهدين في سبيل الله الذين يحرضون الأُمَّة على أفعال محمد بن مسلمة وأبي جندل بن سهيل بن عمرو، وأبي بصير لَدخل الأعداء إلى مخادع بيوت الشيوخ والُمفتين قبل غيرهم، وكيف لا يدخلون وقد صار فقه الهوان والذلة والخِسة والجبن هو الفقه الُمعاصر الذي يتدثر به الجبناء برداء الحِكمة والصَّبر، أو برداء توكيل مهمات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحكام الردة والخيانة.

﴿ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾.

النِّفاق جُبنٌ، والإيمانُ شجاعةٌ، هذه قاعدةٌ قرآنيةٌ، فكلما غزا الجبن قلباً كلما رحل إليه بمقدار ذلك النِّفاق، وكلما حطت الشجاعة رِحالها في القلوب كلما صارت وعاءً للإيمان، فالمنافقون قومٌ يفرقون، فما أنْ يُقعقع لهم بالشنآن حتَّى يدب الفزع في قلوبهم، فترتجف أوصالهم، وتزيغ عيونهم، وتتساقط هِممهم، لأنهم لا يخافون الله، ولا يرجون الدَّار الآخرة، ولذلك هم يبحثون عن ملجأ يهربون إليه ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[2].

فكيف لمثل هؤلاء أن يخرجوا إلى قتال عدوٍّ؟! وكيف لهم أن يعرضوا صدورهم للموت؟! هذا لا يكون، بل هم ينظرون إلى ما يتسترون به حتَّى لا يراهم أحدٌ، ولا يصل إليهم قاصدٌ.

هذا دينهم، وهذه طريقة حياتهم، وهؤلاء لا تظنن أنهم أهل عجزٍ لسانيٍّ في حمل كلّ هذا الجبن على معانٍ عقلية جميلة، بل هم أهل ذكاء الفأر، ولهم حكمة الجبناء، لأنهم سيتقون المعركة بدعوى الحِكمة، وسيكون فيهم فقهاء، أي فقهاء الفرق والهروب، وفقهاء السكون والانبطاح والذلة، بل سيكثرون في وقتٍ، وحينذاك سيهجمون على الُمخالفين من الواقفين والمجاهدين أنهم أهل تهورٍ وغباءٍ، وأهل جهلٍ واندفاعٍ، فيصبح الصِّراع خلافاً فقهياً مُعتبراً، فلكلٍّ وجهة نظره، فسبحان مَن جعل في زماننا للجبن فقهاً، وللخيانة تأويلاً، وَلِما كان عاراً عند الآباء وجهاً من وُجوه الحِكمة والنظر.

[1] فقد أفتى الشيخ ناصر الدين الألباني بعدم كُفر سابٍّ الله أو سابٍّ رسوله ﷺ، معتبراً هذا من سوء التربية، ولا يصل بصاحبه إلى الكفر. فإلى الله الُمشتكى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

[2] سورة التوبة، الآية: ٥٧.

لقد تكلم عن الخوف من الأعداء فقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾[2]، وهذا موسى الكليم فرَّ مِن فرعون قبل النُّبوَّة فقال تعالى على لسانه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[3]، ولكن بعد النُّبوَّة جاءهم، وصرخ بالحقِّ بين أظهرهم، فهذه ميزة الإيمان، وتلك صناعته، فلا تظنن أنَّ هذا دين الخنوع والذلة، وكونكَ لم تقرأ في كتاب سابق أنَّ الشجاعة من الإيمان، ولم يكتب فيها التربويون من أهل عصرنا كما كتبوا عن «طاعة ولي الأمر»، وعن شروط الأمر بالمعروف والتي تعني أن يُلغى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعن وجوب إذن ولي الأمر في الجهاد في سبيل الله، وأمثال ذلك من الأبحاث التي تتحدث عن الفرق بين «الكُوع والبوع والكُرْسُوع»[4]. والخلاف الخطير في السجود على الأيدي أم الركبتين، لا يعني أنَّ الشجاعة أمرها هينٌ في دين الله تعالى، بل هي والجود هَما وعاءِ الإسلام، وحافِظَا هذا الدِّين، وإنَّ الدِّين الحقّ لو نزل على قلوبٍ جبانةٍ وبخيلةٍ لَتحول هذا الدِّين إلى باطلٍ مِنَ القول وزوراً، ولَشكل الجُبناء والبُخلاء هذا الدِّين على معنى يُوافقهم كما هو شأن الكثير من هؤلاء في زماننا.

المنافقون ليسوا من هذه الأُمَّة، وخِصلتهم الكُبرى أنهم يفرقون ويخافون ويجبنون، ويهربون من الجماعات والبلاد والمواطن التي فيها البلاء، ويستقر أمرهم في ملاجئ ومغارات وسرب الجبن التي تقيهم جمرات الجهاد والمجاهدين، وستبتلى دولة الإسلام التي قامت بهؤلاء، فستجدهم يهاجرون منها إلى الملاجئ والمنافي التي تحتضنهم وتحميهم وتُؤمن لهم حياة الذل تحت أيدي الكافرين، وسيهربون من بلد الإسلام خوفاً على أموالهم، وسيفتحون أفواههم هناك أنَّ المجاهدين سبب خراب الدول، وعِلَّة عدم استقرار الأموال وخَرابها، ودلائل هذا النِّفاق بادية اليوم من كلامهم، لأنهم يحذِّرون الأُمَّة أنْ لو تمكن المجاهدون هنا أو هناك لأثاروا العالم ضدَّهم، ولحولوا البلاد سجناً من المُعاناة بسبب مُعاداة الشرق والغرب، فهذه كلماتهم يقولها «طبقات المنافقين» كلٌّ بحسبه من الوُضُوحِ والصَّراحة، بل إنَّ بعضهم لَيعرض نفسه بديلاً عن المجاهدين حتَّى يرضى عنه الكُفر وأهله، وهو مع ذلك يزعم العمل الإسلامي، والانتساب لجماعات تعمل لتحكيم شرع الله تعالى[5]، وإنْ كان هذا المطلب عندهم قد ضعف وكاد يتلاشى، لأنَّ البضاعة السائدة هي تحقيق الإصلاح السياسي فقط، وهي شعار الجميع اليوم، وعلى معنى واحد، وقد أُخذ مضمونه من مذاهب الكفر، وطرائق الشيطان.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٧.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٣.
[3] سورة الشعراء، الآية: ٢١.
[4] الكوعُ: رأسُ الزَّنْد الذي يَلِي الإبهام، والكُرْسُوعُ: رأسُه الذي يلي الْخِنْصَرَ.
[5] كما حصل من بعض قادة الجماعة الإسلامية بمصر حيث ألفوا الكتب والرسائل التي تدعو للانبطاح والذلة والهوان لترك الجهاد..

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾[1].

لأنَّ القوم ميزانهم العمل، فهو إلههم، وإليه تهفو قلوبهم، فميزان الحب للآخرين بما يُعطونهم منه، وكذلك البُغض إنْ حجب عنهم، فهم يُشترون به، ويُباعون به، ومن كان له ثمن من هذا الجنس فهو رخيصٌ خسيسٌ، بخلاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، ولم يقبلوا ثمناً لهذه النُّفوس إلاَّ رضوان الله والجنَّة، أما هؤلاء فهم مجرد سلعةٍ رخيصةٍ، يتداولها خصوم هذه الأُمَّة بما يدفعون لهم مِنْ لُعَّاعَةِ الدُّنيا الملعونة، ولذلك هم أهل خِسة في أنفسهم، وعند أهليهم، وعند مَن يُتاجر بهم، وبسبب خِستهم في أنفسهم فإنهم يحقدون على المجاهدين، لأنهم مرآة نفوسهم التي تذكرهم بسقوطهم، وتقرع أرواحهم أنهم سقط متاع، ولذلك تجدِ الساقطين من هذه الأُمَّةِ هم أشدُّ حِقْداً على المجاهدين مِنْ أعداءِ هذه الأُمَّة، فكم سمعنا مِنْ قادة كُفْرٍ أصليٍّ يعترفون بخصال المجاهدين، كالشَّجاعة، والإقدام، وصِدق الثبات على العقائد، لكن لا يمكن لك أنْ تسمع هذا من الزنادقة والمرتدين والمنافقين، لأنَّ حِقدهم يعمي أبصارهم، فالخسيس يحسد صاحب المبادئ، **وكم تساءل الإخوة**: لماذا نحس حقداً ضافياً مِنَ المرتدين في بلادنا أكثر من اليهود والنصارى؟ **والجواب**: لأنَّ هؤلاء حين يمكنون من تعذيب المجاهدين والدُّعاة فإنهم يفعلون ذلك من باب هذا السقوط النَّفسي للشخص المرتد والزنديق، فهم يحقدون حِقد الجُعل عند الرائحة الحسنة، فيأتي منهم شرٌّ زائدٌ عن غيرهم من اليهود والنصارى، أما خِستهم عند أهليهم فإنهم ساقطون في عين الله، ومَن سقط من عين الله سقط مِن عين النَّاس، ومثل هؤلاء أشدّ ما يكونون وُضوحاً بين أهليهم، من زوجاتهم وبناتهم وأبنائهم، فيمقتونهم لخستهم، ووضاعتهم، بل رأينا من هؤلاء مَن يبذل عرضه من أجل المال والمنصب، وهذه صفة غالبة في الملأ الحاكم حول فرعون كما وصفهم الله في سورة «يوسف»، حين قال العزيز لزوجته: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾[2]. لم تبين بعد ذلك أنَّ زوجاتهم جميعاً في هذه الطبقة على هذه الصفة من العُهر، مع عِلْمِ أزواجهم منهم إذ قال تعالى على لسان يوسف الصِّدِّيق عليه السلام: ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾[3]، فلم يكنِ الأمر خاصاً بزوجة العزيز فقط، بل كان عاماً في كلِّ هذه الطبقة، وهن يقلنَّ هذا أمام أزواجهن، ولم يرينَّ في أزواجهن شرفاً ولا غيرة تمنعهنَّ من التصريح بطلب الزنا أو بالرغبة فيه، وقد حدثني أحد الأطباء في بلدٍ من بلاد الإسلام حيث يعمل في

[1] سورة التوبة، الآيات: ٥٨-٦٠.
[2] سورة يوسف، الآية: ٢٩.
[3] سورة يوسف، الآية: ٥٠.

مستشفى عسكري شهير، أنه لما جاء رجال المخابرات وضباطهم ليعتقلوه، قال: «وكنتُ أعرفُ الكثير من نسائهم وبناتهم، حيث يتداوين من مصائب الزنا في هذا المستشفى»، فقلتُ لهم: «ألا تتقون الله في المسلمين! فإنكم تعلمون ما عليه أعراضكم من بناتكم ونسائكم من مصائب العُهر مع عِلْيَّةِ القوم وأسيادكم، وأنتم تعلمون أني طبيبٌ مُطَلِعٌ على هذه الأمور»، فقال: «والله ما هالني إلاَّ أنهم قالوا لي»: «ستدفع الثمن غالياً من أجل هذا الكلام»، وقد كان، فقد عُذِبْتُ عذاباً مُضَاعَفاً، يقول: «أي قلوب هذه لا تخجل ولا تَرْعَوِي ولا تتوب».

فهذا حال هؤلاء القومِ أمام أهليهم، أما خِستهم أمام مَنْ يُتاجر بهم، ويدفع لهم ويشتريهم فهو بيِّنٌ، لأنه يتخذهم دواباً تمتطى للوصول إلى أهدافه، فإذا قضى حاجته منهم رماهم رمي النواة، فهم عنده لا شيء إلاَّ بمقدار تحقيقهم لحاجته.

هؤلاء عبيد المال لحقوا بالإسلام طمعاً في المال، فإنْ أُعطوا مالاً أو حافظ على أموالهم ومصالحهم فهو حسن وجيد ومحبوب، أما إن ابتلاهم في مالهم، أو لم يتحصلوه ذموا وسخطوا على الإسلام وأهله، وقد كانت من أعظم الكلمات سوءاً في حقَّ النَّبيِّ ﷺ أنْ صار إلى مدينة المنعة هي تلك التي قِيلت له في حقِّ قِسمته للمال، حيث قال المنافقون: «إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»[1]. وقولهم: « اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ»[2]، وهذه تُقال لسيِّد العادلين، وإمامِ المُتقين، فكيف بمن كان بعده من القادة والحُكام العادلين؟ ولذلك إنَّ أعظم ما يتهم له هؤلاء إنما يكون في موضوع المال وقِسمته، وهي تهمة تصلح للإشاعة، إذ تسير في النَّاس سير النَّار في الهشيم، لأنَّ النُّفوس المريضة تحب لوكها والخوض فيها، وهي لا تحتاج إلى دليلٍ في المجتمعات المريضة، حتَّى إذا انتشرت وتناقلتها الألسنة صارت خبرَ صِدْقٍ متواترٍ لا يُرد، وإني في هذا الباب فقط سأسمح لنفسي أن أتحدث عن تجربتي الشخصية، لما فيها من عِبرة وعِظة للعاملين، وللناظرين، وابتداءً فإني بفضل الله تعالى لا أعلمُ أنَّ لي في هذه الأرض شيئاً أملكه؛ فلا مال، ولا عقار، وقد عَلِمَ أهلي وصية حملتهم إيَّاها إنْ متُ أن

---

[1] حدّثنا أبو الوليدِ حدَّثنا شُعبةُ عنِ الأعمشِ قال: سمعتُ أبا وائلٍ قال: سمعت عبدَ اللهِ ﷺ قال: «قَسمَ النبيُّ ﷺ قَسْماً، فقال رجلٌ: إنَّ هذهِ لقِسمةٌ ما أُريدَ بها وَجهُ الله. فأتيتُ النبيَّ ﷺ فأخبرتهُ، فغضبَ حتى رأيتُ الغضبَ في وجههِ، ثم قال: **يرحمُ اللهُ موسى، قد أُوذِيَ بأكثرَ مِنْ هذا فصبرَ**. أخرجه البخاري في «كتاب أحاديث الأنبياء». حديث رقم: ٣٤٠٥، ومسلم في «كتاب الزكاة» باب إعطاء المُؤَلَّفَةِ قلوبُهم على الإسلام وتصَبُّرِ مَن قَويَ إيمانُه. حديث رقم: ١٠٦٢.

[2] عن جَابِرِ بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْجِعْرَانَةِ، مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُنَيْنٍ، وَفِي ثَوْبِ بِلَالٍ فِضَّةٌ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ يَقْبِضُ مِنْهَا يُعْطِي النَّاسَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اعْدِلْ، قَالَ: **وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟! لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: دَعْنِي، يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَقْتُلَ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: **مَعَاذَ اللهِ، أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْهُ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**». قائل: «اعدل يا محمد» هو أبو الخُويصرة.

والحديث أخرجه الشيخان بألفاظ متقاربة، والرواية المذكورة لمسلم في «كتاب الزكاة» باب ذكر الخوارج وصفاتهم. حديث رقم: ١٠٦٣، والبخاري في «كتاب فرض الخُمس» باب ومن الدليل على أنَّ الخُمس لنوائب المسلمين ما سأل هَوَازِنُ النَّبِيَّ ﷺ ـ برضاعه فيهم ـ فتحلَّلَ مِنَ المسلمين، وما كان النَّبي ﷺ يَعِدُ النَّاسَ أن يُعطِيهم من الفيءِ والأنفال من الخمس، وما أعطى الأنصار، وما أعطى جابر بن عبد الله من تمر خيبرَ. حديث رقم: ٣١٣٨.

لا ينتفعوا بشيءٍ يُنسبُ إليَّ، بل يُتصدق به، ومع ذلك فإني أُشهدُ الله أَني قد عانيتُ في هذا الباب الكثير؛ من قريبٍ وبعيدٍ، وقد كان بعض الإخوان يزورونني فأقدم لهم ما يجب مِنَ الضيافة، أو ما في معناها مِنَ الإكرام، فأرى في عيونهم الحديث فيما بينهم: من أين له هذا؟ وما هو إلاَّ ما يأكله عامة النَّاس في بيوتهم، ولقد كان أبنائي يشتهون بعض الألبسة في الأعياد فأمتعهم بها مخافة الكلام السيئ، وكان بعض المحبين يعلمُ هذا فيذهب ويشتري لهم دون علمي، ثم ليلة العيد يحضرها إلى البيت، فيلبسونها، فأُصاب بالحرج الشديد لما أرى مِن تساءل البعض عنها، وقد اتهمتُ مِراراً بأنَّ لي عقاراً هنا أو هناك، والله يعلمُ أنَّ هذا لم يكن فقط ولا صار، والنَّاس يعجبون، وقد كان بعض الإخوان يرون قِدَمَ ما ألبس فيهدون لي الحذاء الجديد، فأذهب به إلى غيري مخافة الحديث السيئ، فما أشقى مَنْ يُولى في شيءٍ من أموال النَّاس، والسعيد من عافاه الله مِنَ ذلك، ولقد قلتُ يوماً لأحدهم وقد قال كلام الشرِّ فيَّ: «الله يعلم كذب ما تقول، ولكن هلا اتقيتَ الله وعددتني كوليِّ مال اليتيم، إذ أجاز الله له أنْ يأكل بالمعروف إن احتاج»، فأخذها رجلٌ لم يتقِ الله تعالى، ولم يشكر يد الصُحبة والأُخوة التي بيننا، ولن أقول لم يشكر يدي عليه، فقال شرّاً، وسبَّ وجدع، فالله يغفر للجميع، وإني أحللتُ عرضي له في ما قال رجاء أن يرفع الله درجته بالعمل لدين الله تعالى، وقد كانت هذه الآية سِلْوَانِي في هذا الباب، ومثلها أخبار الحبيب المصطفى ﷺ في ذلك، فهذا بابٌ لا يسلم منه أحدٌ، ومثله تلك الاتهامات في الأعراض والنوايا والخفايا التي لا يطلعُ عليها إلاَّ الله تعالى، فالذين يُعلقون محبتهم على ما يُؤدى لهم من مالٍ هم منافقون، داخلون في هذه الآية، وكفاهم بذلك شرّاً.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ ﴾.

هذه هي طريقتهم، وهذا هو أسلوبهم، لا يُواجهون الأمور مُواجهةً، لأنهم لو فعلوا وطُولبوا بالدليل لَظهر كذبهم وافتراءهم، لكنهم يلمزون ويعرضون، ويلقون كلاماً مُوهماً، يقع في نفس السامع أشدَّ مِنْ وُقُوعِ الكلام الصريح، ويتقون بهذا العريض[1] المُساءلة والمُراجعة، وإنْ رُوجِعُوا زعموا أنهم يريدون الإصلاح، وكذلك الحرص على أموال المسلمين ومُقدراتهم، ولو أُعطوا هم أمرَ المال، أو أُعطوا منه لَسكتوا، وباعوا كلماتهم فلم ينطقوها، والأمر في أصناف هؤلاء مُتعدد، فمنهم من هو خبيث النَّفس، كاذب القول، يعلم ما يقول أنه كذب، ويريد به الشرَّ والإيقاع بعباد الله العاملين، فيمنع عنهم الخير الذي يجري على أيديهم، ومنهم من هو مغفلٌ يُردد ما يُقال كابنة الجبل «الصَّدى»[2]، ينعق مع كلِّ ناعقٍ، وهو آثمٌ ولا شك، وإن كان الأول أشدّ شرّاً وأعظم إثماً.

---

[1] لعلها: التعريض.

[2] ابنة الجبل: الصَّدَى، وهو الصوت يُجيبك من الجبل وغيره، والداهية يُقال لها ابنة الجبل أيضاً، وأصلها الحية فيما يُقال، يقول: اسكتي إنما تكلمين إذا تكلم.
يُضرب مثلاً للإِمَّعَةِ الذليل، أي أنك تابعٌ لغيرك، قاله أبو عبيدة. «معجم الأمثال والحِكم» لأبي الفضل المَيْداني.

لكن لِمَ قِيلَتْ آية توزيع الزكاة في هذا الموطن؟.

حِكمة ذِكر هذا التوزيع هنا لوجوهٍ؛ **أولها**: أنَّ رسول الله ﷺ وتابعيه مِنْ متولي الزَّكاة لا يجوز انتقادهم في هذا، لأنَّ أمرَ الصَّدقات ليس لهم، إنما هو لله تعالى، فإنْ كانوا مُطيعين فإنما هم يضعونها كما أمر الله، فلا يجوز انتقادهم، ومَن عاب هذا التقسيم فإنما هو رادٌ على الله تعالى لا على المُصدق «جامع الصدقة ومتوليها».

ثانيها: إنَّ هذا توجيهٌ للمتولي أنْ لا يتأثر بلمزهم وتعريضهم وكذبهم ليُرضِيهم، فإنَّ أمر هذا المال ليس له يجتهد فيه رأيه، بل هو لله تعالى، فليضع أصابعه في أذنيه، وليصمها عن سماع لمزهم وكذبهم مهما صرخوا وكذبوا، ومهما تأذى منهم وتألم، فإنه إنْ حاول أنْ يُرضيهم في هذا سيُغضب الله وسيعصيه، لأنَّ مصارف الزَّكاة لا اجتهاد فيها، إذ لا تُصرف إلاَّ لهذه الأصناف الثمانية فقط دون غيرهم.

ثالثها: تقدم مِراراً أنَّ بيئة المجتمع المسلم هي بيئة الجهاد، وحياتهم هي الجهاد، وقد تقدم أنَّ أمرَ الأُسوة برسول الله ﷺ إنما كان في معرض الحديث عن هذه الشعيرة التي تكتنف الحياة للمسلمين، وتحيط بها، فها هنا كذلك يسوق الله أمرَ حُكم مصارف الزَّكاة في معرض الحديث عن موقف المنافقين من النفير في الغزو إلى تبوك، كما ساق أمر الربا في سورة «آل عمران» في معرض الحديث عن غزوة أُحد، وكما في صلاة الخوف في سورة «النساء»، وهو بيانٌ ربَّانيٌّ لمن عقله أنَّ الجهاد هو حياة الأُمَّة، وهو المظلة التي تعيش تحتها، ويمارسون حياتهم في كَنفها.

في هاتين الآيتين ذِكْرُ قَوْمٍ يأتونَ من أجل المال، وهم أهل النِّفاق، وذِكْرٌ في مصارف الزَّكاة للمُؤلفة قلوبهم، وهم مَنْ يُعطى من الزَّكاة رجاءَ إسلامه، أو ثبات إسلامه، وهناك فارقٌ بين الحالتين، فإنَّ المؤلفة قلوبهم يُعْطَوْنَ ليثبت دينهم، ويقوى إيمانهم، ثم يصبح لهم الشأن في الإسلام وأهله، ولكن المنافقين إن لم يتوبوا ويصلحوا أمرهم يبقون على هذا الحال، كاللعبة التي لا تتحرك إلاَّ بالقطعة المعدنية المالية، تسير إن وُضعت فيها، فإنْ مُنعت عنها توقفت، ثم هذه لو عُرضت عليها صفقة أكبر من غير المسلمين لَطاروا إليها، وهذا من أخطر ما يكون عليه المرء في داخل الصف المسلم.

توجه الآية ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ إلى طريقة الإيمان في هذا الباب، وهو الرضى بما يُعطى لهم، وعدم السخط عليه، فلا يستقل، ولا يثقل أمره في الطلب الذي يُرهِق أمرَ المؤمنين، فإن لم يغنهم ما أُعطوا التجاءوا إلى الله وقالوا: حسبنا الله ونِعم الوكيل، وهذه هي عين الوصفة الربَّانيَّة لمن خاف على ورثته الضيعة لعدم وُجود ما يُورِّثُهُ لهم، قال تعالى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟

والعرب تقول:

صُمّي ابنة الجبل مهما يُقَل تَقُــلْ

مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾[1]، وقد تكفل الله في الآيتين لمن أخذ بهذا الأمر أن يكفيه الله تعالى، فقال: ﴿ **وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾** ﴾[2]، وهذا يدل على عِظَمِ أعمال القلوب في حلِّ مشاكل الإنسان المسلم، والقضاء على مصاعبه.

في هذه الآيات دليلٌ على استخدام المال في نشر الدعوة، أو تَسْكِينِ الفِتن، أو صرف الشرِّ، أو تحيِّيد الخصوم، فإنَّ عُصبة الإيمان إنْ كثر عليها الخصوم جاز لها أنْ تصرفَ شرَّ الكثير بما تقدر عليه، حتَّى تفرغ لأهل الشرِّ والفساد من الكبار، وهذا من باب السياسة النَّبويَّة، ولذلك فجلب المال لهذه العُصبة من أجل استخدامه في هذه الحاجات هو من باب الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد كان النَّبيّ ﷺ يُعطي الرجل وغيره أحب منه[3]، لأنه يكل البعض لإيمانهم، ويتألف الضعفاء وزعماء القبائل، وفي زماننا فإنَّ طواغيت العصر يستخدمون هذا السلاح كثيراً في تمرير أهدافهم ومشاريعهم، ومن بابٍ أولى أنْ يطمئن المجاهدون أهل الثراء والمال، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ كان ينهى عن كرائم أموال النَّاس في أخذ الزَّكاة، والله يقول: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾** ﴾[4]، ﴿ **هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾** ﴾[5].

تضمنت هذه الآيات مراتب الإيمان بالقدر وهو الرضا بما قسم الله له في الأمر، ثم التوكل على الله، ثم الدُّعاء. وهذا في قوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾** ﴾[6]، والسّخط يُضاد ذلك كلّه.

---

[1] سورة النساء، الآية: ٩.

[2] سورة التوبة، الآية: ٥٩.

[3] بوب البخاري في صحيحه «كتاب الخُمس» باب ما كان النَّبيَّ ﷺ يُعطي للمؤلفة قلوبُهم وغيرَهم مِنَ الخُمس ونحوه. حديث رقم: ٣١٤٧، ومسلم «كتاب الزكاة» باب إعطاءِ المُؤلفةِ قُلوبُهم على الإسلام وتَصبُّرِ مَن قَويَ إيمانه. حديث رقم: ١٠٥٩. وذكرا مجموعة أحاديث منها هذا الحديث:-

حدّثنا أبو اليمانِ أخبرَنا شعيبٌ حدَّثَنا الزُّهريُّ قال: أخبرَني أنسُ بن مالكٍ أنَّ ناساً منَ الأنصارِ قالوا لرسولِ اللهِ ﷺ حِينَ أفاءَ اللهُ على رسولهِ ﷺ من أموالِ هَوازِنَ ما أفاءَ، فطفِقَ يُعطي رجالاً من قُريشٍ المائةَ منَ الإبل، فقالوا: يَغفِرُ اللهُ لرسولِ اللهِ ﷺ، **يُعطي قُريشاً ويَدَعُنا، وسُيوفنا تقطرُ من دِمائهم**. قال أنسٌ: فحُدِّثَ رسولُ اللهِ ﷺ، بمقالَتهم، فأرسلَ إلى الأنصارِ فجمَعَهم في قُبَّةٍ مِن أدَمٍ، ولم يَدْعُ معَهم أحَداً غيرَهم، فلما اجتمعوا جاءَهُم رسولُ اللهِ ﷺ فقال: «**ما كانَ حديثٌ بَلغني عنكم؟**». قال له فُقَهاؤهم: أمّا ذَوُو آرائنا يا رسولَ اللهِ فلم يقولوا شيئاً، وأمّا أناسٌ مِنَّا حَديثةٌ أسنانُهم فقالوا: يَغْفِرُ اللهُ لرسولِ الله ﷺ يُعطي قريشاً ويتركُ الأنصارَ، وسُيوفنا تَقطرُ من دِمائهم. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **إني أُعطي رجالاً حديثٌ عهدُهم بكُفْرٍ، أما تَرضونَ أن يَذهبَ الناسُ بالأموالِ، وتَرجعوا إلى رِحالكم برَسولِ اللهِ، فوَاللهِ ما تَنقَلِبونَ بِهِ خيرٌ مما يَنقلِبونَ به**». قالوا: بَلى يا رسولَ اللهِ، قد رضينا. فقال لهم: «**إنكم ستَرَونَ بعدي أثرةً شديدة، فاصبروا حتّى تَلْقَوُا اللهَ ورسولَهُ على الحَوضِ**». قال أنسٌ: فَلَمْ نَصبِر».

[4] سورة محمد، الآية: ٣٦.

[5] سورة محمد، الآية: ٣٨.

[6] سورة التوبة، الآية: ٥٩.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1].

هذا طعنٌ له شقان ؛ **الأول**: الطعن في ضعف القيادة، وأنها مأسورة لمن حولها، أي تسلط عليها قومٌ صاروا لها حاضنة تحيط بها، وتسيِّرها كما تريد، **والثاني**: طعنٌ في هذه الحاشية التي تلقي كلاماً على أُذن القائد، وهذه لعبة شيطانية، تسري من ذلك اليوم إلى يومنا، وإلى ما شاء الله تعالى، والقصد منها إيذاء القيادة، أي إضعافاً وصرف الاحترام عنها، وتمرير مخططات التدمير من الداخل، وسوق هذا الاتهام بعد اللمز في قِسمة المال والصَّدقات معلومٌ في واقع الأمر، فإنَّ البعض بعد أنْ يرمي كلامه في قضيةٍ من القضايا كقضية المال أو المناصب وإسنادها لأُناس، يذهب ليُخَفِفَ حرة[2] الاتهام ضدَّ شخصِ القائد، خاصة إن كان هذا القائد له شهرة في التقوى والزُّهد، فيري اتهامه بالضعف والأسر لمن حوله، والقائد لا يصلح له إلاَّ أمران: الأمانة والقوة، فإنْ خاب سلاح طعن الأمانة، ذهب لسلاح الطعن في القوة.

والإيذاء هنا جريمةٌ في ذاتها، ومعصيةٌ دون مقصدٍ يتعداها، لكن المقصود هو الطعن للتخريب، والإيذاء للإفساد، ففي حقِّ الرسول ﷺ طعنٌ في استحقاقه للنُّبوَّة، أو طعنٌ في النُّبوَّة نفسها، وفي غيره طعنٌ في استحقاقه للقيادة، وهي وسيلةٌ ناجعةٌ في أوساط ضعف[3] العقل والدِّين والإدراك، وقد أحدثت هذه الوسيلة أول فتنةٍ في الإسلام وهي مقتل الخليفة الراشد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي تتحول من فساد شخص يقولها إلى تجمع يتكاثر ويؤدي إلى شطر الأُمَّةِ والجماعة، ثم يسري هذا الشطر في كلِّ تجمعٍ، والفقه الذي يرد هذه الفتنة هو فقه كبار الصَّحابة، وهو عدم مُنازعة وُلاة الأمر، وعدم بث الإشاعة والترويج لها، لكنه النصح في السر والعلن، والبحث في نفس المرء الذي يتقي ربَّه عن سبب حدوث هذا في نفسه، لأنَّ عامة ما يحدث سببه الحسد والتنافس على الدُّنيا، فلندفعه في أنفسنا في هذا الباب لئلا يمرر الشيطان وجُنده الألاعيب تحت ستار الإصلاح، والإصلاح كما هو معلوم لا يكون بالفُرقة، ولا بالتنازع، ولا بحمل السلاح ضدَّ إخوانك.

لكن في هذه الآية بيان إيقاف هذه التهمة القذرة وهي قوله: ﴿ **أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ** ﴾، ففيها ردٌّ من وجهين علمي وعملي، **أما العلمي**: فهو تقوى الله في السرِّ، والخشية منه، وطاعة أوامره، وذلك بوضع كلِّ أمرٍ مِنْ مالٍ ورجالٍ موضعه، **أما العملي**: فهو اتخاذ الأتقياء من الإخوان مستشارين وأَخْداناً، ممن لا مطعن للنَّاس فيهم، فهم مشهودٌ لهم بالدِّين والعلم والقُدرة والتقوى، وبهذا سيرى النَّاس آثارهم في حياتهم كما قال تعالى:

[1] سورة التوبة، الآية: ٦١.
[2] لعلها: حرارة.
[3] لعلها: ضِعاف.

﴿**وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ**﴾، لأنهم يعظون قائدهم بالعفو عن المسيء، ومكافأة المحسن، وستر العورات، وردِّ الشُبه وكيد الخائنين.

في هذه الآية بيانُ فَضْلِ اتخاذ المُستشارين، وأنه ليس ضعفاً، بل قوة، فلم ينفه القرآن عن رسول الله ﷺ، بل أثبته، وعدَّهُ فِعْلاً إيمانياً لا يستنزه منه أكمل الخَلق عند الله تعالى، بل هو يفعله على خير حال، وعلى أكمل وجهٍ، ولو عقلَ العائبون ما فيه من خيرٍ لهم ما عابوه فإنه ﴿**وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ**﴾، أما ضدّها؛ أي عذاباً، فهي للعُصاة والمُنافقين، ولذلك لا يخاف من هذه الخِصلة إلاَّ مَنْ تجُرُ عليهمُ الوَبال والعذاب.

ذُكر من بعض معاني هذه الآية أنَّ المنافقين قالوا: إننا نحلف لرسول الله فيصدقنا، أي يستهزؤون أنه يسمع ويُصدق ما يُقال له منهم، وعلى هذا المعنى يكون في الآية تقويمٌ قِيلَ بعد ذِكْرِ أيمانهم الكاذبة التي كشفها القرآن، وهو عدم تصديق أيمانهم، وبيان أنَّ رسول الله ﷺ وإنْ كان أدبه أنْ يسمع لمن يحدثه إلاَّ أنَّه لا يُصدق إلاَّ المؤمنين ﴿**وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ لا غيرهم من المنافقين، حتَّى لو حلفوا وأقسموا، فهو ﷺ: ﴿**أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ**﴾ أي يُصدقُ ما هو خيرٌ لا ما هو شرٌّ، وأنه ﷺ لا يأذن لجلساء الشرِّ عنده، ولا يسمحُ للشرِّ أنْ يُقال في أُذنه، وهذه هي خِصال المؤمنين عامة، والقادة الصالحين خاصة.

قد بيَّنتِ الآية عظمة رسول الله ﷺ ورحمته على أصحابه وأُمَّته، وبيَّنتْ سِمة أصحابه الخُلص الذين كانوا عَيْبَة[1] نُصْحٍ له في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والليل والنَّهار، وأنَّ الله سبحانه وتعالى حين اختار هذا الحبيب ليكون خيرَ خَلقه، اختار له خيرَ أصحابٍ في الوُجود، وخيرَ حواريي الأنبياء ليكونوا حوله ومعه، فيكون هو طيِّباً، وما حوله مما يسمع طيِّباً، وهذا ردٌّ على الأخباثِ مِنَ الخَلق الذين يزعمون حبَّ الرسول ﷺ ويسبون أصحابه ونساءه[2]، وهذا لا يفعله إلاَّ مَنْ يُبغض النَّبِيَّ مهما زعم

---

[1] العَيْبَة: عَيْبَة الثيابِ وغيرِها، وهي عربيَّة صحيحة، قال رسول الله ﷺ: «الأنصارُ كَرِشي وعَيْبَتِي..» البخاري في «كتاب مناقب الأنصار» باب قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ حديث رقم: ٣٨٠١، ومسلم في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب من فضائل الأنصار ﷺ. حديث رقم: ٢٥١٠. «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس. ص ٦٩٥. دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

قوله ﷺ: «**الأنصار كَرِشي وعَيْبَتِي**» قال العلماء: معناه جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم وأعتمدهم في أموري، قال الخطابي: ضرب مثلاً بالكرش لأنه مستقر غذاء الحيوان الذي يكون به بقاؤه. والعَيبة وعاء معروف أكبر من المخلاة يحفظ الإنسان فيها ثيابه وفاخر متاعه ويصونها ضربها مثلاً لأنهم أهل سره وخفي أحواله. «شرح النووي على صحيح مسلم» المجلد السادس عشر، الصفحة ٥٦.

[2] كالروافض الملاعينالذين يُكفرون زوجاته ﷺ، ورضي الله عنهن وأرضاهن. وكذا خيرة صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

إليك أيها القارئ هذه الرواية من أصح كُتب القوم وعُمدتهم ألا وهو كتاب «الأصول من الكافي» لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكُلَيْنِي، وهو بمثابة صحيح البخاري عند المسلمين:-

«عدَّةً من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن محمد بن أورمة، عن النضر، عن يحيى بن أبي خالد القمَّاط، عن حمران بن أعين قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: جُعِلْتُ فِداكَ ما أقلَّنا لو اجتمعنا على شاة ما أفنيناها؟ فقال: ألاَّ أُحدِّثُكَ بأعجب من ذلك، **المهاجرون والأنصار ذهبوا** - أي كفروا - **إلا - وأشار بيده - ثلاثة - والمُراد بالثلاثة: سلمان وأبو ذر والمِقداد** - قال حمران: فقلتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ ما حال عمَّار؟ قال: رحم الله عمَّاراً أبا اليقظان بايع وقُتل شهيداً، فقلتُ: في نفسي ما شيء أفضل من الشهادة فنظر إليَّ فقال: لعلَّكَ ترى أنه مثل الثلاثة أيهات

مِنْ حُبِّه، فكيف يمدح هو ويُذم خُلصاءه وإخوانه وأخدانه؟!. ولذلك ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦١﴾، فإنَّ مَن سبَّ ناصحي الرجل إنما يسبه هو، ومَن سبَّ نساءه إنما يسبه في أعظم ما يُدافع عنه بعد الدِّين وهو العِرض، وهذا بيِّنٌ لمن عقله، ولكن على قلوبٍ أقفالها.

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾[1].

وهذا حلفٌ آخرٌ، فقد تقدم حلفهم أنهم منكم فنفى الله هذا الانتساب، إذ لا يستحقون الدخول مع طائفة الإيمان، وهنا يحلفون للمؤمنين على ما يحبون ويرضون حتَّى يرضى عنهم المؤمنون، وهم لا نظرَ لهم، ولا اعتبارَ في قلوبهم لما يحب الله ويرضى، فلا نظرَ لهم للغيب، وليس في قلوبهم محبة الله، ولا الخوف منه، ولا رجاء الدَّار الآخرة، وهذا هو أساس النِّفاق، وهي مُقوماته.

فهؤلاء قومٌ لا يقولون إلاَّ الشرَّ، ويفعلونه، ويُسرون به في مجالسهم، فإنْ ظهر، وكشفه الله للمؤمنين جعلوا يحلفون أنهم ما قالوه، ولا أسروا به، حتَّى يرضى عنهم المؤمنون، وينفون عما نُسب إليهم، ولو كانوا أهل إيمانٍ صادقٍ لما قالوا الشرَّ، فإنْ قالوه تابوا عنه، ونظروا إلى رضى الله تعالى لا رضا النَّاس.

والمسلمون عامةً والمجاهدون يعانون مِنْ هذا الصنف الكثير مِنَ الشرِّ، فإنَّ فِراخهم في زماننا كثيرٌ، حيث يجلسون إلى الكافرين، ويُرضونهم بالشرِّ الذي يقولون ضدَّ المجاهدين المسلمين، فيتبرؤون منهم، ويكشفون عوراتهم، ويقولون فيهم أشدَّ الكلمات، فتخرج هذه الكلمات، لأنَّ الله يفضحهم، وهذه سنته في الخائنين، فإنْ خرجتْ جعل هؤلاء المنافقون يحلفون الحَلف الكثير أنهم مع المجاهدين، وأنَّ هذا كذبٌ عليهم، أو نقلٌ على غير وجهه، وهم يعلمون أنهم يكذبون، وأنَّ أيمانهم تغمسهم في جهنَّم، زيادةً عما يغمسهم فيها مِنَ الشرِّ الذي قالوه عنِ المجاهدين، وعنِ العَمالة والخِيانة التي أرضواْ بها الكافرين، ومِنْ هذا الصنف دُعاةٌ، وقادةُ حركات، ومُدعو فكرٍ ونظرٍ

أيهات» قوله: «أيهات» لغة في هيهات. أي بعد عن الحق رأيك. «الأصول من الكافي» للكُليني. «كتاب الإيمان والكفر» باب في قلَّة عدد المؤمنين. المجلد الثاني، الصفحة ٢٤٤. طبعة دار الأضواء ببيروت.

كما روى شيخهم الكُشي صفحة ٨ بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: «**ارتد النَّاسُ إلا ثلاثة نفر: سلمان وأبو ذر والمِقداد**، قال الراوي فقلتُ: عمَّار؟ قال: كان جاض جيضة ثم رجع، ثم قال: إن أردت الذي لم يشك ولم يدخله شيء فالمقداد فأما سلمان فإنه عرض في قلبه أن عند أمير المؤمنين عليه السلام اسم الله الأعظم لو تكلم به لأخذتهم الأرض وهو هكذا وأما أبو ذر فأمره أمير المؤمنين عليه السلام بالسكوت ولم يأخذه في الله لومة لائم فأبى ألا يتكلم» انتهى.

وفيه بإسناده، عنه عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: «ضاقت الأرض بسبعة بهم تُرزقون وبهم تُنصرون وبهم تُمطرون ـ أليس هذا بالشرك الصريح يا عباد الله؟ـ منهم سلمان الفارسي والمقداد وأبو ذر وعمار وحُذيفة رحمهم الله. وكان عليه عليه السلام يقول: وأنا إمامهم وهم الذين صلوا على فاطمة عليها السلام». وفيه: في حديث آخر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ارتد النَّاس إلا ثلاثة نفر: سلمان وأبو ذر والمقداد وأناب النَّاس بعد، كان أول من أناب أبو ساسان** ـ حصين بن منذر الوقاشي صاحب راية علي عليه السلام ـ **وعمار وأبو عروة وشتيرة فكانوا سبعة فلم يعرف حق أمير المؤمنين عليه السلام إلا هؤلاء السبعة**»!!.

[1] سورة التوبة، الآية: ٦٢.

واجتهادٍ، وإذا كان هذا الصنف هنا مِنَ المنافقين من قال عن «القُراء» كلمة يراها اليوم هؤلاء أشبه بالقذاة صغراً وحقارةً، إذ قال رجلٌ من المنافقين: «ما أرى قُراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بُطوناً، وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء»، فقال الله فيه هذا القول وهذا الحُكم، فكيف بمن يُسمي المجاهدين مفسدين في الأرض، ويُعلم الكافرين طرائق القضاء عليهم لأنه كان منهم يوماً، أو هو خبيرٌ بهم لقُربه منهم، فهل هؤلاء أقل من الأوائل حُكْماً؟ لا والله بل هم كافرون كما قال تعالى كما سيأتي: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[1]. **فوالله إنَّ كلمةً واحدةً يقولها هؤلاء يُرضون بها الكافرين، ويكشفون بها عورات المؤمنين المجاهدين هم مرتدون بها**، لكنهم لما فسدت قلوبهم، واسودتْ صارت هذه المعاصي صغيرة في أعينهم، ولا أظن أن تنتهي في بلده، ثم يصير كافراً مرتداً، يُقاتل مع الكافرين، ويدخل في طاعتهم، ويمقت المجاهدين، ذلك بأنَّ الله يمهل ولا يُهمل، وحين يصير هؤلاء إلى هذا الكفر الصريح البواح لن يكون في قلوبهم نور الحقّ الذي يلومهم على هذه الفِعال، لأنَّ النُّفوس اللوامة تردعُ صاحبها يوماً، لكن حين تَسْوَدُّ القلوب، وتُغلق، ويُربط عليها بالكفر، فحينئذٍ لا رجاء لهم بالتوبة، وهذه هي سنَّة الله في أمثالهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾[2].

هذا تحذيرٌ ربَّانيٌّ مِنْ أنهم بفِعلهم هذا إنما يحاربون الله ورسوله، ويحادونهما، ومُستقر مَنْ فَعَلَ ذلك جهنَّم والخلود فيها، وهذا كافٍ في العذاب والخزي لمن علمه.

والقرآن يُهدد هؤلاء بالآخرة، كما هو شأنه مع كلِّ المُخالفين، وهي ليست بعيدة، ولا للنَّاس منها مفرٌّ، وهم مع كُفرهم يتألمون لهذا التحذير، فقد كانت قريش تنفي الآخرة والحساب كما قال تعالى عنهم: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾[3]، ومع ذلك فقد كان رسول الله ﷺ ودعوته، ومَن راقب ما يقوله دهاقنة الكُفر، وسبب غليان قلوبهم ضدَّ المسلمين هو مقتهم أن يقول المسلمون: «إنَّ الكافرين في جهنَّم، وأنَّ مَنْ لم يؤمن بالإسلام هو كافرٌ، ومستقره جهنَّم»، بل إنهم لَيغضبون إنْ قِيلَ لهم أقلَّ من هذا، وهي حُرقة المعاصي التي يقترفونها، حتَّى سمعتُ لأحدهم من المرتدين يقول عن المجاهدين: «إنَّ هؤلاء يريدون جلدي ثمانين جلدة إنْ شربتُ كأس خمرٍ»، ومثل هذا كُثر في المرتدين والكفار «الأصليين» ففي وقتٍ انتشر في بلاد الكفر الأصلي حل اللواط، وانتشرت هذه المعصية في بلادهم صار أكثر ما يُغضبهم أنْ يقول لهمُ المسلمون حُكْمَ الله في اللواط، فتجد أحدهم تنتفخ أوداجه، وتحمر عيناه إنْ سمعَ هذا، وهذا أشدّ عنده مِنْ أَنْ تسبَّ أباه وجده، بل أنْ تسبَّ دينه، ولذلك فإنَّ الجمعيات اليهودية في الغرب تحرض أهله ضدَّ المسلمين عامة والمجاهدين خاصة

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٦٦.

[2] سورة التوبة، الآية: ٦٣.

[3] سورة يس، الآية: ٧٨.

بأنهم يقولون بجلد أو قتلِ الزاني، واللوطي، وجلد شارب الخمر[1]، أما إنْ قِيل لهم إنكم بعد الموت في جهنَّم خالدِّين فيها أبداً فإنَّ نفسه تكاد تخرج مِنْ جبينه غضباً، وإنه مما يُؤسف له أنَّ بعض الدُّعاة يخونون الله ودينه، بل ويخونون هؤلاء الكفرة حين يكتمونهم هذه الحقائق الصادقة، والتي هي اليقين الذي لا شك فيه، بل إنَّ بعضهم صار يمنع غيره من أن يُسمِّي غير المسلم كافراً، زعماً أنَّ هذا من باب الحكمة، وهذا كذبٌ، بل هذا مِنْ باب الخيانة، إنْ لم يكن من باب الشك في هذه العقيدة الحقة، ولقد سُئل أحدهم عن أميرة كافرة ماتت في الغرب[2]، وبكاها أهل بلدها، فسُئل أحد الدُّعاة عن مصيرها بعد موتها، وعرض السائل الصحفي بأنَّ المسلمين يقولون أنها من أهل النَّار، فجبن الشيخ وقال: «الله أعلم بحالها، لأنَّ الله يقول: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾[3]»[4]، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

إنَّ كلَّ هذا من باب كِتمان العلم اليقيني، وهو أُسُّ بعثة النَّبيِّ ﷺ، ومِنْ أجلها قامت السموات والأرض، والله يقول: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾[5].

أما الكاتمون للحقِّ فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ ﴾[6]، وقارن بين هذا الوعيد على الكِتمان، وقول رسول الله ﷺ: **«إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»**[7].

---

[1] وكتبهم المُحرفة تشهد بصحة هذه الأحكام في هؤلاء القوم ففي كتاب: الأَوِّيِين، الإصحاح الثامن عشر: ٢٢: «وَ لاَ تُضَاجِعْ ذَكَراً مَضَاجَعَةَ امْرَأَةٍ. **إِنَّهُ رِجْسٌ**». وفي كتاب: الأَوِّيِين، الإصحاح العشرون: ١٣: «وَإِذَا اضْطَجَعَ رَجُلٌ مَعَ ذَكَرٍ اضْطِجَاعَ امْرَأَةٍ فَقَدْ فَعَلاَ كِلاَهُمَا رِجْساً، **إِنَّهُمَا يُقْتَلاَنِ**، دَمُهُمَا عَلَيْهِمَا». وانظر إن شئت المزيد من كتابهم المحرف: التكوين، ١٩:١٥. القضاة، ١٩:٢٢. روم، ١:٢٧، رومة، ١: ٢٦ـ٣٢.

[2] هي الأميرة البريطانية «ديانا» التي ماتت في حادث بالسيارة في فرنسا مع عاشقها المصري، وهو ابن محمد الفايز من أكبر الأثرياء ببريطانيا.

[3] سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ـ٨.

[4] لعلَّ هذا الشيخ لم يقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وصنيعه هذا يُشبه ما قاله يوسف القرضاوي عند هلاك زعيم الكاتوليك بولس يوحنا الثاني. فإلى الله المشتكى من أدعياء العلم، والفقه، والحكمة، والتيسير!!.

[5] سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

[6] سورة البقرة، الآيتان: ١٥٩ـ١٦٠.

[7] أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ. حديث رقم: ٢٧٥٥. ورواه البزار من حديث عائشة مختصراً قال: «مُعَلِّمُ الْخَيْرِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْبَحْرِ».

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1].

كان المنافقون زمن رسول الله ﷺ يحذرون فضيحة القرآن لهم، لأنه يتنزلُ على رسول الله ﷺ، وقد فضحهم القرآن فَضْحاً وَاضِحاً بَيِّناً، حتَّى كاد أنْ يذكرهم بأسمائهم، لما في التفصيل الذي ذكره عن أقوالهم وأعمالهم من وُضُوحٍ وكِفَايةٍ، ولذلك فَفَضْحُ المنافقين منهجٌ قرآنيٌّ، أما مَنْ ظنَّ أنَّ هذا من باب الخبث في داخل الصف الذي يجب أنْ لا يُثار حتَّى لا تظهر رائحته فهذا خطأ، لأنَّ شرَّ المنافقين ليس على أنفسهم فقط، بل شرٌّ متعدٍّ إلى غيرهم، يُؤذون المؤمنين، ويُثبطون النَّاس عنِ الجهاد والإنفاق، ويستهزئون بالطاعات وأهلها، ويُثيرون الفُرقة، وإنْ حصلَ لهم فرصة انقلبوا إلى صف الأعداء، بل ويُراسلونهم ويُشجعونهم على الشرِّ، ومَنْ كان حاله كذلك يجبُ فضحه وكشفه، ووضوح صور المنافقين في القرآن تجعل أهل القرآن في كلِّ زمنٍ على بصيرة بمعرفة طبقات المنافقين في زمانهم، ومما ينبغي بيانه أنَّ القرآن في هذه السورة لم يجعل شرط النِّفاق أنْ تجتمع كلّ هذه الخِصال في امرئ لِيكون منافقاً، بل إنَّ قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[2] تجعلُ انفرادَ صِفَةٍ في رجلٍ أو امرأةٍ كان لِوَسْمِهِ بهذا الوصف القرآني الذي يليقُ به، ولذلك فإنَّ من السطحية والغفلة أن يعمي النَّاس عن هذا الأمر، فيظنون أنَّ المنافق على صفةٍ من الشرِّ الذي تحيط به في كلِّ جوانب سلوكه، وفي كلِّ أقواله وأعماله، وهذا خطأ، وبُعْدٌ عن بصيرة القرآن وهِدايته، فهؤلاء المنافقون هنا يقولون كلمة لا يريدون بها النِّفاق، ولا يتصدون بها الكفر، ولهم طاعات من صلاة وصيام وبذل ومع ذلك فالله يقول لهم: ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾، فشهد لهم بالإيمان قبلاً، لكن حَكَمَ بكفرهم بكلمة قالوها استهزاءً، فكيف بمن يقول كلاماً وكلمات يُوالي بها الكفار، ويبيعُ لهم أعراض المؤمنين، أو يُثبط بها المجاهدين، ويصرفَ عنهمُ الأنصارَ والأتباع، ولو استجاب النَّاس له لخلا الكفار في ساحات المعارك دون وُجود المجاهدين، وهم لخبثهم في زماننا يزعمون حبَّ الجهاد، لكنهم يسبُّون مجاهدين مُعينين ومقصودين، لِيجعلوا لأنفسهم تقية تحميهم أمام النَّاس بأنهم لا يقولون عن الجهاد شرّاً، لكنهم لا يرضون عن أفعال أشخاص، ويقولون: «هذا حقٌّ للدِّين لا لنا»، وقد كذبوا، لأنهم يعلمون أنَّ الجهاد في الأرض ليس آية، ولا حُكْماً، بل الجهاد آية ورجلٌ، وحُكْمٌ وجماعةٌ، فمن سبَّ رجلاً فقد سبَّ الجهاد، ومن سبَّ طائفةَ الجهاد فقد سبَّ حُكْمَهُ، لا يعني هذا أنَّ رجل الجهاد وطائفة الجهاد لهمُ العِصمة لا يخطئون، لكن شتان بين مَنْ يريد خيراً لهذا الرجل وهذه الطائفة، فيرجو نصره، ويدعو له، ويحبه ويُواليه، ويحض النَّاس على اللحوق به،

---

[1] سورة التوبة، الآيات: ٦٤-٦٦.
[2] سورة التوبة، الآية: ٥٨.

وهو مع ذلك ينصحُ له نصحاً لا يكون فيه تثبيطاً، ولا يكون فيه إعانةً لأعدائه عليه، وبين من يُثبط عنه، ويقدحُ فيه قدحَ اللاعن له، والمُنافر الذي يخذله، فيكره نصره، فهذا هو النِّفاق الذي لا مثنوية فيه، حتَّى لو صلى وصام وأنفق.

وبعض هؤلاء لو قِيلَ: «أنتَ تُؤمن بالجهاد، لكن أرِني في الأرض مجاهداً تراه على الحقِّ، فتواليه وتنصره»، لسمَّى لك جنود الطواغيت المرتدين، من جيوش الردة التي لا عملَ لها إلاَّ قتل أهل الإسلام وسجنهم ومُلاحقتهم، وما قامت إلاَّ لتثبيت أركان المرتدين، وليس لهم نفرة لقتالٍ إلاَّ مِنْ أجلِ كُفْرٍ صريحٍ كالدفاع عن حدودٍ جاهليةٍ، أو حُكامٍ كفرةٍ، أو استجابة للطاغية فرعون من أسياد هؤلاء المرتدين، فإنْ توسع قليلاً في ذكر المجاهدين في الأرض لم يرَ جهاداً إلاَّ ما كان على معاني إسلامية تُوافق أحكام الجاهلية، كالقتال على الوطن ضدَّ الأجنبي الكافر، وبعدها يقفُ حِماره لجهله تارةً، أو لنفاقه.

أما كيف يكشف النِّفاق اليوم ولا قرآن ينزل، فإنه يُكْشَفُ بإِعْمَالِ آيات القرآن التي تفضحهم وتُعريهم، فيُفَعَّل كتاب ربِّنا بأنْ تُنزل آياته وكلماته على أعمال النَّاس وأقوالهم، فيعرفَ النَّاس أفراد المنافقين وجماعاتهم، فلا يخدعون برايات الإسلام التي يرفعها أقوام ليقولون كلمات النِّفاق، ويقفون مواقف المنافقين، ذلك لأنَّ الجهل بهذا هو الذي يؤدي بالأُمَّة إلى النهايات البائسة المُدمرة، ولو أعملَ المسلمون آيات القرآن في هؤلاء مُبكراً لاكتشفوا المرض مُبكراً فاتقوه وما أُسقطوا فيه، كما هو شأن تشخيص الأمراض في أطوارها الأولى فيكون العلاج حميداً ناجعاً، لكن إن استفحلَ وبلغَ مراحله المُتقدمة استعصى على العلاج، ومما يُؤسف له أنَّ المسلمين يتسمَّحون لهذه الكلمات وهذه الأعمال، مع أنها لرحمة الله فيهم يُبَيِّنُها في أصحابها في البدايات، ويُعري أصحابها وهم في مطلع الطريق، لكن لغفلة المسلمين، وتركهم هدي الكتاب يتركون هؤلاء، ويبحثون لهم عن المعاذير، وربما مدحوهم في الجوانب الأخرى التي يعملونها، أو التي يُتقنونها، فيسري هؤلاء إلى منصات القيادة الفكرية والعملية، وتزيد انحرافاتهم يوماً بعد يوم، ثم يتفجرون فساداً وخُبْثاً، فيقع التساؤل: كيف حدث هذا؟ وما هي أسبابه؟ وكيف صار؟ وينسون أنَّ البدايات كانت علامة النهايات، وأنَّ التسمُّح بهذه الأقوال والمواقف هي السبب الذي أَوْدَى إلى هذه الخاتمة السيئة، ويصبح الحال شديداً حين يصبح لهؤلاء أتباع، ولهم سطوة وقوة مالية وإدارية وفكرية، فإنْ صار النَّاس إلى الإصلاح كان الأمر شديداً وقاسياً ومُؤْلماً.

هذا الفارق بين حال المجتمع السليم الذي كان بحياة الصَّحابة تحت قيادة النَّبيِّ ﷺ، وبين حالنا من غلبة منافقين على كثيرٍ من مفاصل الدعوة، والقيادة يسجله القرآن بقوله: ﴿ **يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ** ﴿٦٤﴾ ﴾ فهم في الزمن الأول: يحذرون، لأنَّ العيون مُبصرة، والعقول مهدية وواعية، والرصد الإيماني لهذه الظواهر المرضية قوي، فيبدأ بعد ذلك العزل والإبعاد، أما إحسان الظنِّ على حساب الحقائق، والتهوين من

الكلمات العظيمة التي جعلها الله نفاقاً صريحاً، وكفراً لا يقبل التأويل ولا الاعتذار، لأنَّ مبناه على استخفاف قلوب هؤلاء بالشريعة، وهوان دين الله في نفوسهم يُؤدي إلى عظيم المصائب في المجتمعات المؤمنة.

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾.

فهذا المكتوم في القلوب كَتَبَ الله أنْ يظهر رغم أُنوف أصحابها على فلتات ألسنتهم، ولذلك قال تعالى عنهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. وهذه الحالة من التخفف في أوقات الراحة تكون كاشفة لما استُتر في القلوب، لأنَّ المرءَ فيها ينسى الكثير من القيود التي يحكمها على نفسه في لحظات وأزمنة التهيؤ، أما لحظات الانبساط إلى الأقران فهي تكشفُ هذا المخبوء وتُظهره، ولما كان الأمر أمرَ دينٍ، والقضية موقف إيماني يُعبر عن التزامٍ، فإنَّ السخرية والاستهزاء يُناقض هذا مهما كانت معاذيره، ولذلك جعل الله كلماتهم هذه هي حقيقة ما في قلوبهم، وليست حالة عارضة.

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، فهذه لا تتعارض مع قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾. لأنَّ هذا الكُفْرَ قد حصل بعد قولهم كلمات الاستهزاء، فهو كفرٌ قوليٌّ قالوه، وهو كفرٌ قلبيٌّ لأنَّ الاستهزاء باللسان لا ينشأ إلاَّ مِنْ هوان المستهزأ به في القلب، فلما قالوا كلمات الكفر بألسنتهم صاروا يكتمون هذا الكفر في قلوبهم، وهم يرونه نقيصة في دينهم، لكنهم لم يظنوا أنَّ هذا كفرٌ يخرجهم من الإسلام، ومع ذلك فقد حَكَمَ الله بكُفْرِ قلوبهم، وكُفْرِ ألسنتهم، حتَّى لو لم يعلموا مرتبة هذا الاستهزاء، وهذا الهَوان الذي في قلوبهم نحو آيات الله ورسوله ﷺ.

لقد كشفَ القرآن حذرهم من إظهار ما في قلوبهم من الشر، وسكت عن قولهم: إنما كنا نخوض ونلعب، وهذا إقرارٌ أنهم لم يُريدوا الكُفر، وحَكَمَ على اجتماع هذين الأمرين بالكُفر، فدل على أنَّ القوم علموا سوء ما قالوا، وإنْ لم يريدوا به الخروج من الإسلام، ومع ذلك خرجوا منه، وهذا دليلٌ على أنَّ الرجل يكفر بكلمة الكفر من غير اعتقاد، ويكفر بكلمة الكفر وإنْ لم يُرِدِ الكفر، ويكفر بكلمة الكفر حتَّى لو لم يعلم أنها كلمة كفرٍ تخرج من الملَّة، وكل مسألة من هذه المسائل في موضوع الإيمان لها أدلة أخرى من الكتاب والسنَّة، وهي رد على أهل الجهالات البدعية الذين يشترطون للتكفير شروطاً في هذا الباب تخالف صريح الكتاب والسنَّة[1]، وهذا الموضوع وهو تكفير الملحدين من أهم ضرورات الدِّين لما يترتب عليه من أحكام عظيمة، فيها الدماء والأموال.

﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

[1] أمثال مرجئة العصر الذين يزعمون ويرفعون راية الانتساب إلى السلفية ـ كذباً وزُوراً ـ، والسلف منهم براء. وقد تصدى لهم عددٌ كبيرٌ من أهل العلم بالرد على بِدعهم ونسفوها نسفاً. فارجع ـ غير مأمور ـ إلى كتاب الأخ الشيخ أبي محمد المقدسي ـ عجل الله بفك أسره ـ والمعنون بـ«إمتاع النظر في كشف شبهات مرجئة العصر»، وكتاب الأخ الشهيد ـ نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحداً ـ محمد بُوالنِيت المراكشي ـ رحمه الله تعالى ـ والموسوم بـ«أدعياء السلفية في ميزان أهل السنَّة والجماعة»، و«ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي» للشيخ سفر الحوالي.

كما أنَّ معرفة صفات الإيمان واجبة لإقرارها والدخول فيها، فكذلك معرفة صفات المنافقين واجبة للحذر منها والإعراض عنها، وفي كلِّ حالٍ يجب معرفة أصل هاتين الفِرقتين بأسمائهم وأعيانهم، فمن واجبات المؤمنين معرفة المنافقين، وكشفُ ما في قلوبهم من الخبث والسوء والضلال، والرصد لمن يتحول إليهم من المؤمنين، لأنَّ الله يقول: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فهذه منطقة حدودية مُلاصقة مع الإيمان، وانزلاق الأرجل فيها قريبٌ ومحتملٌ، وقد تقدم قوله تعالى في سورة «آل عمران» ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾[1]، فهذا برزخٌ خطيرٌ، يقع فيه أهل الغفلة، وأهل الاستهزاء، وأهل الضعف، وأهل الجهل، فالحكم بالإيمان واستقراره أمرٌ شديدٌ، ولذلك قال أهل العلم: «لا يخاف الوقوع في الشرك إلاَّ الجاهل بحقيقة الإيمان»، وقالوا: «إنَّ لحوق الرجل بالشرك أهون من لحوقه بالإيمان»[2]. فهذه كلمةٌ يقولها المرء في سخط الله تهوي به في جهنَّم سبعين خريفاً[3]، وهذه كلمةٌ يقولها المرء استهزاءً تُلحقه بالكُفر يقيناً، فهذا يدل على خطرِ أمرِ الإيمان، وضعف السند التاريخي للمرء إنْ أتى بضدِّه، والذين يلتحفون بتاريخهم الإيماني لتمرير ضلالهم وانحرافهم هم جهلة ومفسدون، ولا يلحق بهم إلاَّ الأغبياء والمغفلين والجهلة أو أمثالهم من الفاسدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

لقد قال هؤلاء كلمة بألسنتهم، وحَكَمَ الله على قلوبهم، فدل على أنَّ الحُكْمَ على الرجل بالكفر هو حُكْمٌ على قلبه، إذ لا يجوز لأحدٍ أنْ يزعم أنَّ الحُكْمَ بالكفرِ على مَن عمل الكفر أو ما قاله هو حُكْمٌ في الظاهر فقط، ومَنْ توقفَ لسببٍ من الأسبابِ على كُفْرِ قلبِ المرء وباطنه فلا يجوز له أنْ يحكمَ عليه باسمِ وحُكْمِ الكُفر، فلو أنَّ رجلاً قال كلمةً لا يريدها كقول الرجل الذي ضلت راحلته ثم نام، فأفاق فوجدها فوق رأسه فقال فرحاً بها: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ»[4]. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ، فهذا لا يحكم عليه بالكفر، لأنه وإنْ قال كلمة الكفر إلاَّ أنه لم يردها ـ أي كلمة الكفر ـ، والفرقُ بين الحالتين أنَّ المستهزئين أرادوا الكلمة التي قالوها، لكنهم لم يُريدوا الكفر، وهذا الرجل لم يُرد الكلمة أصلاً، بل أخطأ لسانه عن مُراده، فَفَرْقٌ بين مَنْ أراد الكلمة ولم يُرد مُقتضاها مِنَ الكفر، وبين من لم يُردِ الكلمة أصلاً.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٦٧.

[2] قال الإمام السمعاني ـ رحمه الله تعالى ـ: «ولحوق الرجل بالكفر أسرع من لحوقه بالإسلام» كتاب: «الاصطلاح» الجزء الأول، الصفحة ٢٩٥. طبعة دار المنار..

[3] عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لاَ يُلْقِى لَهَا بَالاً، يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لاَ يُلْقِى لَهَا بَالاً يَهْوِى بِهَا فِى جَهَنَّمَ**». خرجه البخاري في «كتاب الرقاق» باب حِفظِ اللسان، وقول النَّبيِّ ﷺ: «**مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخرِ فَليَقلْ خيراً أو لِيَصمُتْ**» وقوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨] حديث رقم: ٦٤٧٨.

[4] مسلم عن أَنسٍ رضي الله عنه في «كتاب التوبة» باب في الحضِّ على التَّوبة والفرحِ بها. حديث رقم: ٢٧٤٧.

والقصد فلا يجوز لأحدٍ أنْ يحكمَ على أحدٍ بالكفر ظاهراً وهو يشكُّ بكُفره باطناً، والقول بوجود هذه الحالة؛ وهي الحُكْم بالكُفر على الظاهر دون الباطن قولٌ باطلٌ لا دليل عليه، بل هو قولٌ بدعيٌّ[1].

ومثل هؤلاء في الضلال من اقتنعَ بالحُكم على المرء بالكفر وقد قال الكفر أو عمله حتَّى يعلم هل كفرَ قلبه أم لا، وذلك باشتراط إرادة الكفر، وهذا الضلال قد شاع في زماننا اليوم في الأفراد والمشايخ والحركات ـ إلاَّ من رحم الله ـ، وبسببه تلعب هؤلاء الكفار في هذه الآية، وحكموا على رقابها، وفعلوا الجرائم المُكفرة الكُبرى، ثم تستروا باسم الإسلام، وَوُجِدَ مِنْ هؤلاء من يُدافع عنهم ويحكم بإيمانهم.

﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾.

دلَّ هذا على كُفْرِ مَن استهزأ بالله أو بشرعه أو بكتابه أو بسنَّة رسوله ﷺ أو بشخص رسول الله ﷺ ولو على سبيل المِزاح والمُداعبة، فكلّ كلمة يقولها المرء عن الله وكتابه ورسوله ليُضحك منها النَّاس يكون قد كفرَ بها وخرج مِنَ الملَّة، وهذا يقعُ لكثيرٍ من النَّاس، لاستسهالهم إيَّاه، وعدم إدراكهم لخطورته، ومثله الاستهزاء بالأنبياء والمِزاح عليهم، وعلى الوجه من هذا مَن قرأ القرآن على سبيل التقعر ليُضحك بذلك السامعين، حيث يفعله المجرمين ليستهزئوا بالقرآن أو أهله، ومثل هؤلاء من يسبُّ قوماً لنسبتهم لآية يقولونها كمن يقول في كلامه أو كتابه: هؤلاء أصحاب «والآخرة خيرٌ وأبقى»، يقول مثل هذا كثيرٌ من الكُتاب الزنادقة الذين يكرهون دين الله.

وجَماعُ الأمر أنَّ أيَّ كلمةٍ يقولها المرء أو حركةٍ يفعلها على وجه الاستهزاء بالدِّين هي كُفرٌ، وصاحبها كافرٌ، ولا مانع أبداً من تكفير هذا إلاَّ أنْ يكون مُكْرهاً، وهذه الحالة لا يدخل فيها التأويل، ولا الجهل، إذ لا يتصور الجهل في هذه الحالة، فإنَّ النَّاس يعلمون على اختلاف طبقاتهم أنَّ الاستهزاء إهانة وتصغير وتحقير.

وأشبه النَّاس اليوم بهذا الصنف الذي تكلمت عنه هذه الآية زمن رسول الله ﷺ هم المستهزئون بالمجاهدين حين يقومون بجهادهم تصديقاً لوعد الله بالنَّصر والغلبة وفتح البلاد وإعادة التمكين، فيأخذ هؤلاء المستهزئون بترديد ما قاله أسلافهم: «يظن هؤلاء أنهم سيغلبون الطواغيت، والكفار، وفراعنة الأرض، هيهات، هيهات، هيهات»، فهم يستهزؤون بالذين يثقون بوعد الله، ويقومون لتحقيقه، فهؤلاء أولى النَّاس دخولاً في حُكْمِ الطواغيت.

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ﴾[2].

---

[1] من الذين قالوا بمثل هذا القول الشيخ عبد القادر بن عبد العزيز ـ رده الله إلى الجادة، وفك أسره ـ وذلك في كتابه: «الجامع في طلب العلم الشريف» ومما قاله أنه يمكن أن يكون الشخص كافراً في الدُّنيا، مؤمناً في الآخرة!!.

[2] سورة التحريم، الآية: ٧.

هذا الاعتذار المرفوض هو التبرير الباطل للفِعل القبيح، وهو ادعاء الخوض البرئ واللعب، ويعني عندهم عدم استحقاقه اللوم والمُسائلة ابتداءً على الفِعْلِ، وهو اعتذارٌ غير مقبول، أما أن يتوبَ المرء ويستغفرَ بعد أن يُراجَع فهذا لا مانعَ منه في دين الله تعالى فإنَّ الله يغفرُ الذنوب جميعاً، فكما أنَّ المرءَ يكفرُ بعد إيمان، فكذلك يُؤمن بعد كُفر، ولكن لابدَّ للمؤمن بعد كُفْرٍ أن يعود من الباب الذي خرجَ منه، وإلاَّ فلا عودة له، أي أن يتوب عن السبب الذي أوداه هذه المهلكة، أما إقامته عليه، أو عدم توبته منه، فإنه يبقى عليه حُكم الكفر حتَّى لو أتى بالأعمال الصالحة الأُخرى.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[1].

يقولون: «النَّاس كأسراب القطا يتبع بعضهم بعضاً»[2]، ذلك بأنَّ الإنسانَ يميلُ إلى مَنْ يُشاكله، وأعظم المُشاكلة هي ما كانت في الدِّين والمذهب والأخلاق، ولذلك فإنَّ الكريمَ يحبُّ مثله، والصَّادقَ كذلك، والكاذبَ يحبُّ ويجتمعُ مع مَنْ يُشاكله، والجبان والبخيل كذلك، فهذه من الخصال التي فطر عليها الإنسان، ولذلك قال تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾[3]، وقال تعالى في سورة «النُّور»: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾[4]. وهذا وإنْ كان حُكْماً بصيغة الخَبر، إلاَّ أنه إقرارٌ لواقع النَّاس وما يحبون مِنَ القُرناء، وهكذا هنا، فإنَّ الله حَكَمَ بأنَّ أهل النِّفاق يميلُ بعضهم لبعضٍ، ويجتمع بعضهم لبعض، ولذلك قال الله تعالى عنهم في سورة «البقرة»: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾[5]، وشياطينهم هم كبراؤهم أو أسيادهم مِنَ الكُفار المشركين أو اليهود زمن رسول الله ﷺ، وفي هذا بيانٌ ربانيٌّ تعليميٌّ وإرشاديٌّ للمؤمنين بأنْ يعرفوا المُنافقين من خلال أصدقائهم وخِلانهم، فإنَّ صديق المرء لمثيله وشبهه، فإنَّ اشتبه عليكَ حال امرئٍ فانظر إلى مَنْ يُخالل ويُصادق، ومَن هم مَوْضِعَ أسراره، ومَن هم عَيْبَةُ نُصحه، فإنْ كان شأنه في هذا مع المنافقين كان منهم، وإنْ كان مع المؤمنين فهو منهم، وهذه قاعدةٌ قَلَّمَا تخطئ، وهي نصيحةٌ لأهل الإيمان بعزل المُنافقين، وعدم اتخاذهم أولياء كما قال تعالى في سورة «النساء» عنهم: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءًۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[6]، ثمَّ في هذه الآية بيانٌ أنَّ النِّفاق يكون في

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ٦٧-٦٨.

[2] وقال شيخ الإسلام: «إنَّ النَّاس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض».

[3] سورة النور، الآية: ٢٦.

[4] سورة النور، الآية: ٣.

[5] سورة البقرة، الآية: ١٤.

[6] سورة النساء، الآية: ٨٩.

الرجال ويكون في النساء: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ ﴾، وكما أنَّ الشرَّ يأتي مِنَ الرجال إنْ كانوا منافقين، فكذلك يأتي مِنَ النساء إنْ كُنَّ منافقات، وهم يتولون بعضهم بعضاً، ويُدافع بعضهم عن بعضٍ، وينصر بعضهم بعضاً، ولذلك فإنَّ المرأة حين تعلمُ من زوجها النِّفاق يجبُ عليها فِراقه، فإنْ قَبِلَتِ الحياة معه كانت مثله، والمرء أوضح ما يكون في أهله، لأنه يخلو بهم، ويخلون به، ويُسر لهم ما لا يُسر لغيرهم.

ومن خِصَالِ المُنافقين والمُنافقات أنهم يأمرون بالمنكر، وأعظم المُنكر الذي يأمرون به كما كشف ذلك القرآن هو الجبن عن الجهاد، والبخل عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا نهي عن المعروف كذلك، والمنكر هو كلّ ما أنكره الشارع ونهى عنه، والمعروف كلّ ما عرفه الله وحض عليه، فهم الذين يقولون: ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾[1]. وهم الذين يقولون عن الشُّهداء: ﴿ لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ ﴾[2]. وهم: ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[3]. وغير ذلك مِنْ دعوتهم إلى المُنكرات قولاً وفِعْلاً، ونهيهم عن الطاعات قولاً وفِعْلاً.

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾.

هذه خِصلتهمُ الأبرز وهي البخل، وعدم الإنفاق، ومنع المال عن المسلمين عامة، وعن أهل الجهاد خاصة، وقد تكررت هذه الصفة في مواطن عدة، ذلك لأنَّ النِّفاق وعدم الإنفاق قرينان لا ينفكان، فالبخل هو مرض الإيمان الذي يُدمره ويُودي به، فلا مرض يُشبهه، وهو قرين الجبن كذلك كما تقدم.

﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾.

من أساليب العربية استعمال الكلمة في بعض معانيها، كتسمية الزوجة جارة، لأنَّ الزوجة لها حالٌ مع زوجها، وهو المُجاورة له، ولذلك قال الأعشى:-

أيا جارتا بيتي فإني مُفارقك

يقول هذا لزوجته، والزوجة صاحبة كذلك، لأنَّ لها المُصاحِبَة له، وقد سمى النَّبيّ ﷺ الشريك جاراً فقال: «**الْجَارُ أَحَقُّ بِصَقَبِهِ**»[4]، والجار هنا على الصحيح هو الشريك لا مُطلق الجار، فاللفظ دلالة على حال، وقد يكون هذا الحال جامعاً في واقعه لأحوالٍ مُتعددةٍ، فيجوز حينئذٍ تسمية هذا اللفظ الجامع لهذه الأحوال على بعض صوره، فالمكر لفظٌ يجمع معانٍ مُتعددةٍ لأحوالٍ مُتعددةٍ، فمِنْ معانيه أنْ يعمل المرء في غيره ما لا ينتظره ويرقبه منه، وقد يكون هذا الفِعل على سبيل العدل به لما

---

[1] سورة المنافقون، الآية: ٧.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٥٦.

[3] سورة النساء، الآية: ٧٧.

[4] البخاري في «كتاب الحِيل» باب احتيال العاملِ ليُهدى له. حديث رقم: ٦٩٨٠.

فعل مِنَ الشرِّ، وقد يكون على سبيل الشرِّ والكذب والخِداع، وإنْ كان لفظُ المكر في أصله لا يكون إلاَّ على سبيل الشرِّ، فقول الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ إنما هو على فِعلهم القبيح، حين أتوا بالأعمال التي ظاهرها الحُسن وباطنها وعاقبتها القُبح، وأتوا بها على سبيل الشرِّ، فلما جازاهم الله بأنْ أتى لهم بِفِعْلٍ على غير ما يؤملون وينتظرون كان فِعْلُهُ مَكْراً، ولكنه مَكْرٌ حَسَنٌ، لأنه على سبيل العدل والمجازاة فقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وههنا فإنَّ النِسيان فيه معنى الترك، فإنَّ المرءَ حين ينسى شيئاً فإنه يتركه فلا يأتيه ولا يرعاه، وقد يكون هذا الترك على سبيل ضُعف الذاكرة والغفلة، وقد يكون بقصدٍ، مع أنَّ الأصل أنْ تُطلق كلمة النسيان على الحالة الأولى وهي ما كان سبب الترك الغفلة والضعف، فنسيان الكافرين لربِّهم قد يكون بغفلتهم لانشغالهم بمحبوباتهم وشهواتهم عن ذِكْرِ الله وإتيان أوامره وقد يكون بقصدٍ، أي أنْ يذكروا فيعرضوا مع حضور الأمر في ذاكرتهم، وكِلاهما قبيحٌ، ولكن نسيان الغفلة والضعف لا يتصور في حقِّ الله تعالى، فإنَّ الله لا ينسى ـ أي لا يترك ـ أحداً من رعايته وهدايته وتوفيقه إلاَّ بقصدٍ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾[2]، فهذا نِسيانٌ منفيٌّ، وأما النِسيان بقصده، وهو جزءٌ في كلمة النِسيان، أي الترك، فهذا ما يُثبته الله تعالى هنا فقال: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾، وبالاستقراء فقد تبيَّن أنَّ هذه الصفات على هذا المعنى أي لا التي فيها معنى قبيح وآخر حسناً أنها لا تأتي في القرآن إلاَّ على جهة المُقابلة كقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾. وقوله هنا: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[3]، أما الصفات التي لا يتصور فيها إلاَّ الحُسن فتأتي مستقلة كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[4]، وقد تأتي مع صفة تكملها في الحُسن فتزيدها حسناً كقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وقوله: ﴿ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وهي صفات حسنة إنْ استقلت، وتزداد حُسْناً مع الاجتماع الذي يقتضيه السياق كقوله: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[5] بعد أنْ ساق الله أحكام اللعان، مع ورودها في القرآن[6] ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، لأنَّ السياق يحكي عن توبة الله على الزاني والقاذف، وحِكمة شرعه في ذلك سبحانه، وهذا كلّه تفسير لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[7].

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

[2] سورة مريم، الآية: ٦٤.

[3] سورة النساء، الآية: ١٤٢.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٥٣، سورة التوبة، الآية: ١٦، سورة المجادلة، الآية: ١٣، سورة المنافقون، الآية: ١١.

[5] سورة البقرة، الآية: ١٦٠.

[6] وردت في القرآن الكريم ست مرات أربع مرات في سورة البقرة، الآيات: ٣٧، ٥٤، ١٢٨، ١٦٠. ومرتين في سورة التوبة، الآيات: ١٠٤، ١١٨.

[7] سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

والقصد أنَّ المنافقين تركوا أمرَ الله، وأعرضوا عنه، كما أنهم يغفلون عنه لعدم اعتنائهم به، وعدم قِيامهم به على وجه المُراقبة، فقابلهم الله تعالى بأنْ تركهم في ضلالهم وغيِّهم، فلم يُوفقهم لخيرٍ، ولم يهدِهِم لإيمانٍ، ولا ساقهم لتوبةٍ، وهذا مِنْ أعظمِ العذاب عند أهل الدِّين والإيمان، فإنَّ ما يرجوه المؤمنون هو أنْ يكونوا من أوليائه، فيكون كما قال: «**كُنْتُ سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بِهَا**»[1]، وأن ينسبوا له كما قال تعالى: ﴿**كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾**﴾[2].

﴿ **وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا** ﴾.

هذا دليلٌ على أنَّ النِّفاق الأكبر كفرٌ وشركٌ، فاجتماع المنافقين مع الكافرين في هذا المُستقر على اتحاد حُكمهما عند الله تعالى، وإنْ كان مُستقرهم في جهنَّم على معنى خاص للإثم ما كان عليه حالهم من معنى خاص، وهو خلاف ظاهرهم لباطنهم، وكذلك هم في النَّار يقول الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾** ﴾[3]، فهذا مِنْ خِدعة الله للمنافقين، فهم حين يطلبون النُّور من المؤمنين، يُقال لهم ارجعوا إلى مكانِ تقسيم النُّور، فيرجعون، فلا يجدون إلاَّ الظلمة، وهذا لما كان يخدعون المؤمنين في الدُّنيا.

وكون المُستقر في الآخرة لهما واحدٌ، لا يعني أنَّ تعامل المؤمنين معهم واحدٌ في الدُّنيا، فإنَّ النَّاس يُؤاخذون في الدُّنيا بظواهرهم كما قال تعالى عنهم في آية «الحديد» المُتقدمة: ﴿ **أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ** ﴾ فأقرهم المؤمنون على هذا بما كان من ظواهرهم، وعلقوا دخولهم جهنَّم بما في بواطنهم مِنَ الكُفر.



---

[1] حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلاَلٍ حَدَّثَنِي شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِى نَمِرٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**». أخرجه البخاري في «كتاب الرِقاق» باب التواضع. حديث رقم: ٦٥٠٢.

[2] سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

[3] سورة الحديد، الآيات: ١٣-١٥.

إضاءة

قال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ أنَّ المنافقين: «صِنْفٌ واحدٌ»[1]، وهذا لأنَّ شيخ المفسرين لا يرى تعدد صور النِّفاق، ولذلك فسر المثلين في سورة «البقرة» على معنى واحد[2]، أي المثل المائي والمثل الناري، وهذا غير صواب، فإنَّ المثلين لنوعين مختلفين، فهناك نفاقٌ مستقرٌ في القلوب وهو مقصود المثل الناري، وهناك نفاق شكٍ وترددٍ وهو مقصود المثل المائي، فالمثل الناري قال فيه تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾[3]. فهذا مثل النِّفاق الذي استقر قلب صاحبه على الظلمة أي الكفر، وأما المثل المائي فقد قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾[4]. فهذا مثل مَنْ شك، وارتاب، فآمَنَ مرةً إنْ أضاء له نور الإيمان، وكَفَرَ مرةً إنْ أظلم عليه وذهب عنه النُّور. وقد ناقشتُ هذا في بحث مستقلٍ عن النِّفاق[5]، وهو مشهورٌ.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾[6].

هذه عظمةُ التاريخ، وهي بيان جريان سُننه في الأرض، وارتباطِ أحداثه ووقائعه بالإيمان والتقوى، وهذه من أهم قضايا القرآن الكريم، وهي إحدى مسائل الخلاف بين هدي القرآن وأقوال الجاهلية، فإنَّ التاريخ عند الجاهليين والمُشركين له دلالات باطلة، وهو عُمدتهم في مفاهيم شركية، إذ يجعلون أحداثه ووقائعه لا ارتباطَ لها بموضوع الإيمان والخوف من الله، ورجاء الدَّار الآخرة، والقرآن يجعلُ التاريخَ صورة الإيمان في القلوب، وممارسة الإنسان، طاعة لله أو معصيته، وهذا الارتباط ليس إشراقاً لا إدراك له في العقول، بل هو سَنني، تُدركه العقول الفِطرية السليمة،

---

[1] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. المجلد السادس، الجزء العاشر الصفحة ١٧٤.

[2] انظر «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. المجلد الأول، الجزء الأول، الصفحة ١٤٠ وما بعدها.

[3] سورة البقرة، الآيتان: ١٧ـ١٨.

[4] سورة البقرة، الآية: ٢٠.

[5] «مسائل في النِّفاق» للمؤلف ـ حفظه الله تعالى، وعجل بفك أسره ـ تجده بالشبكة العنكبوتية على موقع: «منبر التوحيد والجهاد» www.tawhed.ws.

[6] سورة التوبة، الآيتان: ٦٩ـ٧٠.

والأبصار المُهتدية، ولذلك هو يذكر بذلك، لِتَعِيهِ هذه العقول، وهذه الأبصار، وبإدراك هذا الترابط بين التاريخ والإيمان نعلمُ ويعلم المُهتدون صِدْقَ الرسل، وصِدْقَ الشريعة، وحين يذهب الدارسون أعمق من ذلك يُدركون سنن الاجتماع والسياسة والاقتصاد، ويقع لهمُ اليقين بذهاب الباطل مهما علا، وبعلو الإيمان مهما امتحن.

المادة ليست ما يصنع التاريخ، لكن الذي يصنعه هو الإنسان، والذين يظنون أنَّ الجهاد سلاحاً فقط، وقوةً ماديةً فقط هم مخطئون، لأنَّ بعضهم من ضُعف وعيِّه يظنُّ أنَّ الدعوة للجهاد هي دعوة لامتلاك القوة العسكرية فقط، ولإثبات صواب قولهم يمثلون بالدولة العثمانية، فإنها مع قوتها العسكرية، بل هي أول مَنْ صنع المدفع، إلاَّ أنَّ هذا لم يمنع تسميتها بالرجل المريض، ثم انهيارها.

هذا التفسير تسطيح لمفهوم الجهاد في الأُمَّة، ثم هو اختزالٌ لمفهوم الأُمَّة ومقومات بقائها، ذلك لأنَّ الجهاد في الإسلام ليس قوة عارية عنِ القيم، بل الجهاد أولاً قيمةٌ إيمانيةٌ سلوكيةٌ شاملةٌ لكلِّ مفاهيم الحياة الدُّنيا والحياة الآخرة، وما القوة إلاَّ آلة رديفة لهذه القوة، ولكون الجهاد قيمة إيمانية يتوجه في الأصل إلى الخارج، فإنَّ هذا يعني أنَّ قوته الأولى ترعى الداخل وتُصلحه وتُقومه وتحميه، ولذلك كان جواب الأوائل حين يُسألون مِنْ قِبَلِ أعدائهم عن مقصد مجيئهم، كان جوابهم: «أن تكونوا مثلنا»، لكن حين يكون الجهاد دفاعياً لإعادة الحقوق، فإنه يشتبكُ مع قضايا مادية، وهي الحقوق المسلوبة، فيظهر لحظة الذروة وكأنه صراعٌ على الماديات، وهي هذه الحقوق، وهذا الحال هو ما استغله فرعون حين جاءه موسى عليه السلام يطلبُ منه أن يؤمن بالله، وأن يُرسل معه بني إسرائيل، فالطلب بأنْ يعتق بني إسرائيل مِنَ الأَسر، ويُرسلهم معه حقٌّ ماديٌّ، يُؤدي عند فرعون وملأه إلى فساد حياتهم، ولذلك قال فرعون عن موسى عليه السلام: ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾[1]، فالدعوة اليوم إلى حياة الجهاد قد تبدو عند البعض دعوة إلى عملٍ جُزئيٍ في الحياة يتعلق بمطلبٍ ماديٍّ كالتحرر من المحتل، أو دفع ضررٍ ما في ظرفٍ جغرافيٍّ أو تاريخيٍّ، مما يجعل البعض يتصور الجهاد قاصراً على هذا الحال، وهذا الخطأ يُشبه خطأ البعض الذين يتصورون حياة الجهاد تعني ما يمارسه المجاهدون في ظرفٍ ما، كما هو الحال اليوم حين يتصور هؤلاء أنَّ الجهاد وهو تفجير قُنبلة، أو اغتيال طاغوتٍ عَمَلاً بقوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾[2]، ومثل هذه التصورات جاهلة سواء نشأت في عقل خَصْمٍ للجهاد أو محبٍ له، لأنَّ حياة الجهاد هي مظلة حياة المسلمين في كلِّ ظرفهم، وسيرة الجهاد وهي السيرة التي تشمل داخل المسلمين وخارجهم، فيتخللها صلاح الدِّين وصلاح الدُّنيا، فإنْ كان الظرف لا يحتمل إلاَّ صورةً مِنْ صُور الجهاد، لا يعني أنَّ هذه الصورة في كلِّ الجهاد، ذلك لأنَّ الجهاد ثقافةٌ، ووعيٌّ، وممارسةٌ، وفِعْلٌ نحو الداخل، كما هو فِعْلٌ نحو الخارج،

[1] سورة الأعراف، الآية: ١١٠/ سورة الشعراء، الآية: ٣٥.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٢.

فلو تأملَ المُنصف لَرأى أنَّ الخُبث الداخلي للمجتمع الإسلامي في حياة النَّبيِّ ﷺ لم يَقُمْ إلاَّ مِنْ خلال حياة الجهاد، فهؤلاء المُنافقون، وهم عِلَّة الفساد في الداخل، لم يُعرهم القرآن، ولم يكشفهم، ولم يُرشد المسلمين لطرائق العمل معهم إلاَّ مِنْ خلال رحلة الجهاد في سبيل الله تعالى، وقد رأينا قضية الغنائم، ومثله الفيء، وهي مِنْ أهم مصادر بيت مال المسلمين كيف تعالج داخل رحلة الجهاد في سبيل الله تعالى.

فالتاريخ يصنعه الإنسان بقاءً وفساداً، فالإيمان هو الذي يحمي الأُممٍ والحضارات مِنَ الاندثار، وآلة الإيمان العملية لهذه الحماية هو الجهاد، هذه هي القضية، مع وعيٍ تامٍ أنَّ الإيمان يتعدد، وأنَّ الجهاد حياة.

فهذه الكلمات الربَّانيَّة توجيهٌ لأنظار المُخالفين لهذا الدِّين، وخاصة المنافقين الذين يتربصون في الداخل فرصةَ انهيار المجتمع المسلم، وتحول قِواه إلى وهنٍ إلاَّ أنَّ انتظارهم سيطول، لأنه انتظار الوهم، وإنْ كان انهيار المجتمع المسلم لعوارض تاريخية وذاتية، فإنَّ هذه العوارض هي أصلية في المجتمعات التي يرجون مجيئها، أو صُعودها، وأما ما يرجونه من الاستمتاع من هذه المجتمعات الكافرة، وهو ما يفقدونه في داخل الصف المؤمن، بسبب مهمته، وواجباته في الوجود فإنَّ هذا الاستمتاع سبب دمارهم وذهاب وُجودهم.

﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا ﴾.

فهؤلاء حازوا الأسبابَ المادية، مِنْ قوةٍ مانعةٍ، وقاهرةٍ لغيرها، وكان معهم أسباب الاستغناء عنِ الآخرين؛ لكثرة الأموال والأولاد، ثمَّ إنهم لم يقصروا في صرف الأموال والقوة في أسباب الاستمتاع الدنيوي، ولكن كلّ هذا لم يدفع العذاب عنهم، ولا منع حبوط سعيهم الدنيوي، وهذا دليلٌ على أنَّ الأمم والحضارات لا تبقى بمجرد القوة، ولا بكثرة الأموال والرجال، ولكنها تبقى من خلال القيم التي ترعى هذه القوة، وتُدير هذه الأموال، فالتحاق المنافقين إلى صف الكفار بسبب قواهم، أو بسبب أموالهم، وبكثرة مُتعهم الحياتية هو سِمة النِّفاق قديماً وحديثاً، وهو في زماننا أوضح وأجلى، لكن نذارة القرآن بزوال هذا لا شك فيه، وهو حقٌّ وكائنٌ.

وقد تقدم أنَّ الجهاد ليس مظهر قوة مادي، بل هو قيم، وللقيم آلة كما قال تعالى في سورة «الحديد»: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]. فهذا هو الجهاد، كتابٌ يهدي وسيف ينصر كما قال ابن تيمية رحمه الله تعالى[2]، والحياة لا تصلح إلاَّ بهذين.

﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾.

لقد قال المنافقون كلماتٌ كافرةٌ على سبيل السخرية والاستهزاء، وقد ارتدت هذه الكلمات عليهم حُكْماً ربَّانياً بالكُفر، فجاءت هذه الكلمات الربَّانية لِتُبَيِّنَ أثر هذه الكلمات على حياة الأُمم والشعوب، وأنها مِنْ أسبابِ الدمار والهلاك، ومن مظاهر فساد الشعوب والأُمم كلماتهم التي يقولونها، وألفاظهم التي تسري في حياتهم العملية، وفي أوقات مُتعهم، وقد تقدم سابقاً أنَّ هناك من رصد دمار الحضارات السابقة من خلال «المسرح»، وما فيه مِنْ فسادٍ، وقد توافق دمار الداخل الإسلامي مع انتشار الشعر الذي شاع فيه الغزل في الغِلْمَانِ، حتَّى استخدمه الصوفية في شعرهم الذي يكنّون به عن الله سبحانه وتعالى، وفي هذا بيانُ عظيمِ الكلمة مِنْ شعرٍ وأدبٍ وقصةٍ ومسرحٍ، ولعلَّ المرءَ يستطيع أنْ يرصد مِقدار انحراف الأُمة مِنْ خلال هذا الإنتاج، وهؤلاء الزنادقة الذين يتخفون بأسماء إسلامية يتسترون بأنَّ الإنتاج الأدبي لا يخضع للمعايير الدِّينية، وكأنَّ الكلمات لها الحق أنْ تكون أقوى مِنْ أَمْرِ الله وحُكْمِهِ، وبهذا يُصبح هذا النوع من النَّاس كالشعراء والكُتاب لهم حصانة الكفر والشطح والافتراء، دون رقيبٍ عليهم، وبعض هؤلاء يجعل الطرائف لها هذه الحصانة، أي أن يقولوا ما يشتهون مِنَ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله والمؤمنين، ثم لا يحاسبهم أحد.

فبهذا تم إغلاق الحلقة في بيان سبب دمار الأُمم والحضارات، حتَّى وهي قوية السلاح والعتاد، كثيرة المال والرجال والجنود، لكن إنْ دب فيها انتشار الشهوات، وانغمس أهلها فيها، وسقطت قوانين الضبط التي تحمي القيم، آل الأمر بهذه الأُمم إلى الدمار والزوال.

والغريب اليوم أنَّ الأُمَّةَ وهي في حال الهوان والضعف، وفي أدنى درجات المنعة والمهابة، إلاَّ أنَّ قوماً فيها يسعون من أجل إدخالها في الوجود والحضور الحضاري الفاعل من خلال هذين الأمرين؛ أي الاستمتاع والخوض، وكلما ارتقى خسيسٌ سافلٌ في أحد هذين الأمرين إلاَّ وصفقت له هذه الجموع فرحاً أننا دخلنا الحضارة، وبلغنا المجد، وسامينا أعداءنا حضوراً وتقدماً.

لقد دخل المال في يد هذه الأُمَّة بلا جُهْدٍ، فاغتنى أقوامٌ كثرٌ منها، ولكن لم يتمكنوا أبداً بهذا الغنى من جلب احترام العالم لهم، بل إنَّ النَّاس ينظرون إليهم كجموع مِنَ الأغبياء الذين تفجر الذهب من تحت أرجلهم، وقد أثبت هؤلاء هذه النظرة بأنْ صرفوا هذا الذهب على مُتعهم وشهواتهم، أي

[1] سورة الحديد، الآية: ٢٥.

[2] «قوام الدين بكتاب يهدي، وسيف ينصر». «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية، الجزء العاشر، الصفحة الثالثة عشر. وقال أيضاً: «فالدين الحق لابدَّ فيه من الكتاب الهادي والسيف الناصر». وكما في حديث جابر ﷺ حيث قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ـ أي السيف ـ من عدل عن هذا ـ أي القرآن ـ ».

أشبه بالدواب، فصار فيهم سببٌ قرآنيٌّ للهلاك، وآخرون زعموا أنهم يستطيعون تحقيق الاحترام والشهود من خلال الأدب الساقط، والذي هو اجترارٌ كاجترارِ البعير لما يقوله الآخرون، وكلما أوغل أحدهم في التقليد، وصرح بجلد قيم هذه الأمة ودينها وأخلاقها، كلما ألقى إليه الأعداء قِطعة الحلوى، شأنهم شأن الكلاب التي تمتع أصحابها بحركاتها، فيُلقي لها ثمن حركاتها المُضحكة في فمها لتزداد عطاءً في الرقص والنَّط[1]، ويزعم هؤلاء الحمقى أنهم بهذا تترقى الأُمَّة وتدخل التاريخ ويحصل لهمُ الشهود، ولا يعلم هؤلاء أنهم هم مِنْ أسباب الهلاك والخيبة، ومِنَ العجائب أنَّ وجود هؤلاء ممدوحٌ، لأنهم يُفْرِحُون الكفار بوجودهم، ووجود المجاهدين مذمومٌ، فالأوائل[2] وجهٌ مُشرقٌ إنسانيٌّ لهذه الأُمَّة، والمجاهدون وجهٌ قبيحٌ يُنَفِرُ الآخرين منا.

هكذا لِقُبْحِ الصورة مِنْ قِبَلِ السحرة الكفرة، والزنادقة المنافقين؛ فالشاعر الماجن، والقاصِ الذي تحدث عن طفولته كيف كان يلوط في الحمير والكلاب والذي يكتب ساباً ربَّ العباد، مستهزءاً بقدره وبحكمة الوجود، أو معرضاً برسول الله ﷺ، وأصحابه، وأُمهات المؤمنين.

فهم رُسُلُ سلامٍ، ومظهرُ إشراقٍ مُبْهِجٍ لهذه الأُمَّة، وأما المجاهدون الذين يُعادون الكفار، ويُعذبونهم، ويُقاتلونهم على حقوقِ الأُمَّةِ المسلوبة مِنْ قِبَلِ هؤلاء الأعداء فَهم قَتلةٌ، وصورة سيئة تُشَوِّهُ الأُمَّةَ ودينها وتاريخها، وفي الصف الإسلامي من يخوض هذا الخوض، ويحمل هذا الميزان، بل يسعى لأنْ يلتحق بصورة الأوائل، ويهرب من صورة المجاهدين، لأنَّ الفقه المعاصر يقول: إنَّ من شروط كون المعروف معروفاً هو أنْ يرضى عنه الكافرون، وأما المُنكر فهو كل ما أنكره الكفار والزنادقة والمنافقين، فهذا هو أساس التجديد في كلِّ ما يُسمى اليوم تجديدٌ مِنْ قِبَل هؤلاء، ولا شيءَ سواه، ولقد خبرتُ أقوالَ هؤلاء عن عِلْمٍ، واطلعتُ على أغلب ما يكتبون، وإني بفضل الله تعالى أقرأ لهم أغلب ما ينتجون عندما يكون في الحال متسعٌ، فلم أجد عند أعداء المجاهدين إلاَّ الجهل، والكذب والفساد، وأما حَسَن النية فهو جاهلٌ ببغاء كابنة الجبل[3]، لا يدري ما يقول، وأما المُفتون وزَاعِمُو الفقه، فوالله إني لأبحث في كلامهم قول الحق لعلِّي أتخفف من محن طريق أهل الجهاد، وضريبة حبهم، وأُدقق في ما يقولون وأنا أرجو صوابهم، فلا أجد إلاَّ الضلال والانحراف، وتأويل الكتاب والسنة على غير ما كان عليه أئمة الدِّين من الصَّحابة والتابعين ومَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ المشهود لهم بالعلم كالأئمة الأربعة وأصحابهم، ثمَّ إني أُعْمِلُ قولَ أهل الحكمة «من آثارهم تعرفونهم»، فانظر ما يؤول أمر أعداء المجاهدين أين صاروا، وما هو حالهم في الدِّين، والتقوى، ونُصرة الشريعة، فلا أرى إلا ساقطاً فوق ساقطٍ، ومأجوراً فوق مأجورٍ، وجباناً يتبع مثله، وخسيساً رخيصاً يُباع بالدرهم والدِّينار، فأعلم أنَّ ما يزعمون مِنَ الحِكمة هو الجبن، وأنَّ ما يُسمونه تجديداً هو النكوص،

---

[1] قال الأصمعي: رجلٌ نَطّاطٌ: مِهْذارٌ كثيرُ الكلام. «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري.

[2] لعلها: الأول.

[3] مَثَلُ: ابْنَةِ الجِبَلِ مَهْمَا يُقَلْ تَقُلْ. يضرب للإمَّعَةِ يتبعُ كلَّ إنسان على ما يقول. «مُعجم الأمثال والحِكم» لأبي الفضل الميداني.

وأنَّ ما يُسمُّونه مُراجعات هو الارتداد على العقبين، ثم أُحاول أنْ أتصورَ حياة الأُمَّة المسلمة من غير مجاهدين، أي حين لا يبقى مَنْ يحمل اسم الإسلام إلاَّ حزبي يسعى لكسب شرعية حزبه، ولاَهِثاً لكسب صوتٍ انتخابيٍّ من خلال استدرار لُعاب الناخبين على دنيا، وموظفاً يأكل بالدِّين الخبز وحُسْنَ الملبس والمسكن، ومتاجراً بكلمات الشريعة ليبيعها كتاباً يقتات من ثمنه، والكل يتهارش على لُعاعة الدُّنيا، فلا أتخيل إلاَّ مرتدين يخوضون في أعراض الأُمَّةِ، يُشرعون لها ما تقوله دوائر الكُفر في نسائنا، إذ جلّ مطلبهم أنْ يصبح الزنا مُباحاً، وأن يخطب على المنابر بالكفر الصريح كما هو ممنوع اليوم أن يُقال الحقّ الصحيح، ووالله لولا المجاهدين في سبيل الله لَوجد ما يُقال له الدول الإسلامية أحكاماً تمنع تلاوة آياتٍ مِنَ القرآن، ولَصار باب الردة الصريحة يُقنن لها، ويُدافع عنه، ويُقتل مَنْ يُعاديه، وبوادر هذه الشرور وأكثر منها بادية لمن عقلَ وتأملَ وأبصرَ.

ثم إني قلتُ ما قلتُ في أعداء الجهاد عن خِبرةٍ بهذه الحياة وبهؤلاء القوم، فقد رأيتُ واطلعتُ وقرأتُ وراقبتُ، **فأدركتُ أنَّ طريق الجهاد هو طريق الصِّدق**، وهو اعتقادُ المرءِ حين يخلو مع نفسه، وحين يُراقبُ ربَّه، وأنَّ الطُرق الأُخرى هي سُبل الدُّنيا، ووالله إني أستطيعُ أنْ أتلعبَ بدين الله تعالى مثلهم كما يتلعبون، وأتشدقَ بكلمات الفقهاء كما يفعلون، وأخوضَ معهم فيما يخوضون، وأستدل على الباطل بالقرآن والسنَّة كما يستدلون، لكني أعلمُ أني لو فعلتُ ذلك وصِرْتُ مثلهم فإني حين أجلسُ مع نفسي وحيداً سأبصقُ عليها، وإنْ كلَّمتُهَا سأقول لها: «أنتِ منافقة، ومُتلعبة بدين الله تعالى، وكاذبة على الله وعلى رسوله ﷺ»، وإني على يقينٍ أنهم هكذا يفعلون حين يخلون إلى أنفسهم، فلا تغرك صرخاتهم حين يظهرون أمام الملأ، ولا تخدعك مظاهرهم، وكما أنَّ المرء يشربُ الخمر لينسى ما حوله، ويهربَ مِنْ واقعه، وكما أنَّ مَن يتعاطى المخدرات يأخذها ليرحل عن مصائبه إلى الأحلام، فإنَّ هؤلاء لا يفيقون من مُتعهم الدُّنيويَّة والشَّهوانيَّة، ولا يكفون عنِ الخوض حتَّى لا يسمعون، فإنَّ قرع سمعهم الحقَّ يوماً تألموا، ثم صرخوا: «اجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً»، فيا أيُّها الصَّادق مع نفسه، والمُراقب لربِّه، ويا أيُّها الراجي لقاء الله عليك بالقرآن لِتعلم مَنْ هم أهله في زمانك، ومَنْ هم أحقّ النَّاس به، وأقول لكَ: «مَنْ جربَ مثل تجربتي، وعرفَ مثل معرفتي أدركَ أنَّ أهل الجهاد اليوم هم أهل القرآن، وهم حملته، سواء علموا هم ذلك مِنْ أنفسهم أم لم يعلموا، ويكفيهم أنَّ الله بهم عليم، وهو حسبهم ووليهم، فإنْ بقوا فهم إلى نصرٍ، وإن رحلوا رحلوا شهداء عند ربِّهم يرزقون».

كان من صفات المنافقين أنهم بخلاء، ويقبضون أيديهم عنِ العطاء والإنفاق، ثم جاء بيان حال الأُمم التي أهلكها الله مع ما في أيديهم من الأموال والأولاد، فدلَّ هذا أنَّ الحديث ليس عن كلِّ الأُمَّة، بل هو حديثٌ عن فِئَةٍ مِنَ الملأ، وهي فئة الإقطاع والمال كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ

قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾[1]، وقد حذر الله من هذا الوضع فقال: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾[2]. ثم يسري مال هؤلاء إلى شراء ذِمم الحُكام كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[3]، فحينها يجتمع فساد الملأ الثري البخيل المُنافق، مع فساد الحاكم صاحب القوة، فيقع العذاب بعدها، ويكون الهلاك، وهذا لا يعني أبداً غياب المستضعفين، ولا ذهاب التكليف عنهم، فقد تكرر ذكر هذه القضية في القرآن كما تقدم في سورة «سبأ»، وكقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾[5]، وهذا لمن تأمله دعوة قرآنية بعدم قبول الاستضعاف، ولا الهوان، ولا الرضوخ لاستكبار المُستكبرين، وكلّ حجج الضعفاء التي يسوقونها لتبرير دخولهم في طاعة المُستكبرين لا تُقبَل في سنن الدُّنيا، ولا في سنن الآخرة كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾[6]، فالهوان لا يجامع الإيمان، وإلغاء العقل والفكر والنظر المستقل هو سبيل العذاب في الدُّنيا والآخرة، ثمَّ العجب أن يتحول عند بعضهم الضعف إيماناً، والتقليد ديناً، وإلغاء العقل سبيل الدخول في رضا الرحمن، بل إنَّ الدِّين اليوم عند بعضهم هو إسناد قضايا الأُمَّة إلى حُكامها دون مُراقبة، وإلى علمائها دون مُراجعة، وإلى مُتكلميها دون تفكير، وهذا مِنْ أشدِّ أسباب الهلاك والدمار، وقد أصدر دهاقنة[7] الكفر في الغرب توصيات عِدة بإعادة فقه الطاعة والتسليم، لأنهم يرون أنَّ مشاريعهم الكافرة لا يقوم لها إلاَّ رجال لا يلغون عقولهم لأحدٍ كائناً ما كان، ولا يسلمون إلاَّ للكتاب والسنَّة، فالحاكم إنْ كان مسلماً يخطئ ويُصيب، وإنْ كان كافراً فالواجب عزله وقتله، والمفتي إنْ كان صالحاً يُؤخذ مِنْ قَوْلِهِ ويُرد، وإنْ كان على السلطان يحل ما يُريد، ويحرم ما يُريد فهو مرتدٌ كافرٌ.

---

1 سورة الإسراء، الآية: ١٦.

2 سورة الحشر، الآية: ٧.

3 سورة البقرة، الآية: ١٨٨.

4 سورة البقرة، الآيتان: ١٦٦-١٦٧.

5 سورة غافر، الآيتان: ٤٧-٤٨.

6 سورة النساء، الآية: ٩٧.

7 الدِّهقان والدُّهقان: تاجرٌ يكون في مكانه لا يبرَح - فارسي مُعرَّب وهم الدَّهاقنة والدَّهاقِينُ.
والدِّهْقان والدُّهْقان: القوي على التَّصرف مع حِدة. انظر: «المُخصص في اللغة» لابن سيده علي. الجزء الثالث عشر، الصفحة ٢٦١. دار الكتب العلمية ببيروت، و«المُحكم المحيط الأعظم» لنفس المؤلف. الجزء الحادي عشر، الصفحة ٤٥٥. دار الكتب العلمية ببيروت (٢٠٠٠م).

وكثرة المُستضعفين المُتابعين للمستكبرين في الأرض ما يجعل قِلَّةَ الناجين إلى الجِنان يوم القيامة، وكثرة الهالكين، لأنَّ هؤلاء هم عامة النَّاس وأكثرهم.

هذه هي تمام الصورة، ملأ ثريٌّ يستمتع بشهواته، وطائفة كلام تستهزئ وتُضحك الملأ والنَّاس على الله سبحانه ودينه ورسوله والمؤمنين، وحُكام كفرة، يُعطون الملأ ما يريدون مِنَ الحماية، ويأخذون منهم ما يحقق مُتعهم، وأكثرية تابعة جاهلة ضعيفة قَبِلَتِ الهوان، وترجو أنْ تُصبح من طائفة الملأ، أو أنْ ترضى عنها طائفة الملأ والحكام، وهي لمن تأملها هي حال المسلمين اليوم، ولولا أهل الجهاد وأحبابهم والمُصلحون من الدُّعاة لحَقَّ العذاب كما قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾** ﴾[1]. فتأمل هذا القليل الذي يُصلح، وليس صالحاً فقط، وتأملْ هذا الكثير المُترف، وهو أهل الإجرام.

إنَّ الخطورة ليست في الفساد، لأنَّ الفساد لا ينتهي من الأرض، ولكن الخطورة أنْ يكون الفساد حاكماً، أو مُتبعاً، فيفشُو ويكثر، ويُحصر الصلاح، ويحارب ويُضايق أهله، ولذلك كان من الخطورة أنْ يغلب المنافقون على مفاصل الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذا ما يحذر القرآن منه، وقد سُئل رسول الله ﷺ: أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ قَالَ: «**نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[2].

وقد تقدم أنَّه لخطورة الملأ والقيادة فقد كان الرسل يتوجهون بالدعوة إليهم، ويكون الصِّراع دوماً بينهم وبين هؤلاء، مع أنَّ الذين يأتون للدعوة في الأغلب همُ الضُّعفاء، ومِنْ غرائب الدُّعاة اليوم أنهم لا يتوجهون في الخطاب إلى هذه الطبقة، بل يرونهم غير معنيِّين بالدعوة، وقد صار من فقه بعضهم أنَّ الحاكم لا يصلح إلاَّ بعد إصلاح النَّاس والأتباع، ولِضعف فقههم بالقرآن فإنهم يتصورون أنَّ مسيرة الدعوة تبدأ مِنَ القاع إلى القمة، وبعضهم يُعبر عن هذا بأنَّ مسيرة الإصلاح تبدأ بالفرد ثم بالأسرة ثمَّ بالحي ثمَّ بالمجتمع ثمَّ بالدولة، وهم يظنون أنَّ الحسابات الرياضية تصلح للقوانين الاجتماعية، وكل هذا لا يشهد له القرآن، ولا طريقة الأنبياء وقِصصهم، فإنَّ كُلَّ الأنبياء كان صِراعهم منذ البداية مع الملأ، وهي سيرة النَّبيِّ ﷺ في دعوته، ومن خلال هذا الصِّراع يأتي الأتباع والمُهتدين، وتنشأ المُدافعة حتَّى يحكم الله بين الطائفتين بحكمه، ومنشأ خطأ هؤلاء هو ظنهم إمكانية تجنيب الدعوة المُواجهة مع الملأ والطبقة الحاكمة والفراعنة، لأنَّ توجه الدعوة إلى هؤلاء يحمل في داخله المُواجهة لما يفقه هؤلاء الخُبثاء أنَّ الدعوة تستهدف أُلوهيتهم على الخَلق، وأنَّ حقيقتها تَقْوِيضٌ لسلطانهم الباطل، فينصرفَ هؤلاء ويشرحونها على معنى السلامة وعدم الخطر

---

[1] سورة هود، الآيتان: ١١٦ـ١١٧.

[2] أخرجه الشيخان عن زينب ابنة جحش رضي الله عنها. البخاري في «كتاب أحاديث الأنبياء» باب قصة يأجوج ومأجوج. حديث رقم: ٣٣٤٦، وأطرافه في: ٣٥٩٨،٧٠٥٩، ٧١٣٥، ومسلم في «كتاب الفِتن وأشراط الساعة» باب اقتراب الفِتن وفتح رَدْمِ يأجوجَ ومأجوجَ. حديث رقم: ٢٨٨٠ .

على الطغاة والآلهة الباطلة، وسلطان الفراعنة، ومثل هذه الدعوة لا تحقق الوراثة في الأرض، ولا تحمل أصحابها إلى المواقع التي يعد القرآن أهله به، لأنَّ كلَّ الوُعُودِ القرآنية تكمن مِنْ خلال المُواجهة بين الدعوتين، وبين الأنبياء وأتباعهم الضعفاء وبين الملأ المُستكبرين، وقد تطورت هذه المفاهيم داخل المؤسسات الإسلامية في دور الردة ودور الكفر الأصلي، إذ أنَّ كلَّ ما يسعى إليه الكثيرون هو طرح إسلامٍ خالٍ من مفهومِ المُدافعة بين الإسلام وأعدائه، أي خُلوه مِنْ أيِّ حالة مواجهةٍ، وصراعٍ نحو الوراثة والشَّهادة.

لقد تكرر في القرآن المكي ذِكْر آيات الله تعالى في الأُمم السابقة مِنْ قومِ نُوحٍ وعادٍ وثمود وقوم إبراهيم وقوم شعيب وقوم لوط، ولم يذكر أمرَ هؤلاء الأقوام كثيراً في السور المدنية، وهذا الموطن هنا في سورة «التوبة» ذكر هؤلاء الأقوام، وكان أمر ذكرهم في القرآن المكي بيِّن المعنى، ذلك من أجل إنذار قريش بمصائر الأُمم التي كفرت برُسلها، لكن ما معنى ذكر هؤلاء الأقوام في سياق إنذار المنافقين والتحذير مِنْ أفعالهم داخل الصف المسلم؟.

في هذه الآيات ذكر خصائص انهيار المجتمعات من الداخل، ومن خلال ممارساتها وأفعالها، وهذا غير قضية الكفر بالله ورسله، فإنَّ الحديث في هذه الآية: ﴿**كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ**﴾. يدور حول مجتمعٍ مطلقٍ، سواء كان مسلماً أو كافراً، تحصل فيه هذه الأمور فيكون سبب هلاكه ودماره، وهذه القضايا هي قضايا إيمانية، لأنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ، لكن هي تنشأ في مجتمعٍ مسلمٍ فيهلك بسببها، ولا يحميه كونه مسلماً من هذا الدمار إنْ وقعت فيه، وهي سيرة الله تعالى في الأُمم، وهذه القضايا هي انتشار ثقافة وممارسة المُتعة، وقد فسَّر السلف قوله تعالى: ﴿**بِخَلَٰقِهِمْ**﴾: أي بدينهم[1]، والدِّين هنا في كلامهم لا يعني أبداً ما يُقال له الاعتقاد، ولكن يعني المُمارسة والفِعل كما قال تعالى في سورة «يوسف»: ﴿**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ**﴾[2]. أي في شريعته، فغلبة مفهوم المتعة في مجتمع من المجتمعات، ثم سقوط قيم الخطاب في الثقافة مؤذن بحصول الدمار لهذه المجتمعات، بغض النظر عن كونها مسلمة أو كافرة، وهذا من تمام عدل الله تعالى في اضطراد سُننه وعدم تبدلها، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾** ﴾.

---

[1] قال عبد الرزاق ـ الصنعاني ـ في تفسيره: أنبأنا معمر عن الحسن ـ البصري ـ في قوله: ﴿**فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ**﴾ قال: **بدينهم**. ويروى عن أبي هريرة. ذكره محمد الأمين الشنقيطي في: «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» عند تفسيره للآية الثالثة والسبعون من سورة «الأنبياء». الجزء الرابع، الصفحة ٦١٦. (١٤٠٣/١٩٨٣م).

[2] سورة يوسف، الآية: ٧٦.

ثمَّ إنَّ في هذا نذارة لأهل الإيمان مِنْ أنْ يغلب هؤلاء المنافقون عليهم، أو أن ينشروا فقههم ودينهم وثقافتهم، لأنَّ المنافقين إنْ غلبوا أعملوا ما قال الله فيهم: ﴿ **يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ** ﴾[1].

﴿ **أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾[2].

حبوط أعمال المنافقين في الآخرة مفهومٌ لخُلوه مِنَ الإيمان بالله والدَّار الآخرة، أي خُلوه مِنَ الاحتساب، أما حبوطه في الدُّنيا، فهو بما يحصِّل هذا السبيل من نتائج مُدمرة على المجتمعات والأشخاص والأُمم، فإنَّ الدَّارسين لظاهرة صعود الأمم وهبوطها يُؤكدون أنَّ الأُمم تسقطُ بانتشار «دين المتعة»، فمَهْمَا بلغتِ الأُمم في مجال القوة والمال، والعتاد والرجال فإنَّ انغماس أهلها في هذا المُستنقع مؤذن بحبوط وهلاك أي توجهٍ يسعون إليه، وأيّ مرادٍ لهم سيرتد عليهم فساداً ودماراً، ولعلَّ سقوط دول الطوائف في الأندلس خير مثالٍ على هذه القاعدة في داخل التاريخ الإسلامي، أما في التاريخ الإنساني فإنَّ كلَّ الحضارات كان هذا هو سبب انهيارها، سواء اليونانية أو الرومانية أو الفارسية، وسيشهد النَّاس سقوط أُممٍ وحضاراتٍ قريباً بإذن الله تعالى، وسيفرحُ المؤمنون بنصر الله تعالى.

﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴿٧١﴾ **وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴿٧٢﴾ ﴾[3].

هذه مقوماتُ البقاء الحضاري في ما يخص البناء الداخلي؛ فأول صفةٍ هي الإيمان بالله تعالى، وحين يكون الإيمان فاعِلاً فإنه يُنتِجُ المُقومات الأُخرى، ذلك لأنَّ الإيمان ليس حالة شعورية داخلية فقط، وليس ذوقاً معرفياً يعيشه صاحبه بلا عملٍ وسلوكٍ، وقد قدَّم الله أثر الإيمان على المحيط على أثره الداخلي، فقال: ﴿ **بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ ثم قال: ﴿ **وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾، وهذا مضطردٌ في القرآن إنْ كان الحديث عن فقه الجماعة والأُمة، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿١٠٤﴾ ﴾[4]، وهذا دليلٌ على أنَّ الإيمان فعلٌ نحو الخارج، ولا يمتحن صِدق الإيمان إلاَّ بهذا، ولا يتحقق الإيمان الجماعي إلاَّ بهذه الصفة، أي رعاية قضايا الأُمَّة قبل قضايا الفرد، بل

[1] سورة التوبة، الآية: ٦٧.
[2] سورة التوبة، الآية: ٦٩.
[3] سورة التوبة، الآيتان: ٧١-٧٢.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

لا يتحقق صلاح الفرد إلاَّ من خلال صلاح محيطه، أو صراعه مع المحيط المُناوِئ له، أما الانتكاسة نحو الداخل في داخل المحيط المُعادي للإيمان وصفاته فإنَّ مآل هذا الإيمان إلى الضعف والهزيمة.

تقدم شيئاً من سببٍ ذكر هذه الفاصلة القرآنية ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ بدل قوله: ﴿ **غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ في ذِكر سياق الرحمة على المؤمنين مُقابل إيمانهم وأعمالهم، وهناك سببٌ آخرٌ يتعلَّق بكون الحديث هنا عن الجماعة المؤمنة، فإنَّ الإيمان هنا في هذا السياق ليس حالة فردية، بل حالة جماعية، ولذلك قُدِّم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الصَّلاة والزَّكاة، وهذه الجماعة بهذا المفهوم في حالة مُدافعةٍ مع الشرِّ، سواء في منعه، أو في إزالته، والعاقبة في هذه المُدافعة هي النَّصر، فكان معنى الرحمة هنا في قوله: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ** ﴾ هو النَّصر والعاقبة، وهذا يقتضي هذه الفاصلة المُلائمة لهذا الوعد وهو قوله: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ كما قال في سورة «الفتح»: ﴿ **وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩** ﴾[1]. وكما قال في سورة «الأنفال» حين ذكر مكر المنافقين: ﴿ **إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٩** ﴾[2] أي ناصر المؤمنين بردِّ كيد ما يقوله المنافقون إنْ توكل المؤمنون على الله.

والمناسبة بين ذكر هذه الفاصلة هنا، وذكر الفاصلة في الآية الثانية: ﴿ **ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾ هو عين ما قاله تعالى في سورة «الصف»: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٢ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣** ﴾[3]، وكذلك قوله في سورة «الفتح»: ﴿ **لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ** ﴾[4]. أي هنا وَعْدَان للمؤمنين، **أولاهما**: النَّصر والتأييد والغَلبة على أعدائهم، فهذا أمرٌ يُلائمه الفاصلة القرآنية: ﴿ **عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾، لأنَّ الموطنَ موطن عِزة، والله عزيزٌ في نفسه، ويُعِزُّ مَنْ يستحقُ ذلك، فهو حكيمٌ في وَضْعِ هذه العزَّة موطنها، وأما **الوعد الثاني**: فهو دخول الجِنَّان، وهذا هو الفوز العظيم، وذكر الضمير هنا في قوله: ﴿ **ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ** ﴾ للتأكيد لما في هذه الآية من زيادة ذكر الرضوان، والذي هو أعظم النِّعم لأجلِ الجنَّة.

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ**

---
[1] سورة الفتح، الآية: ١٩.
[2] سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
[3] سورة الصف، الآيات: ١٠-١٣.
[4] سورة الفتح، الآيتان: ٥-٦.

مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

في وسط أخبار الله تعالى عن المنافقين، وفضحهم، وكشف أقوالهم ومواقفهم يكون الحل القرآني لهم، فهم أعداء الداخل، كما أنَّ الكفار أعداء الخارج، فَكِلاَهُمَا له حلٌّ واحدٌ، هو الجهاد في سبيل الله تعالى، وتوجه الأمر إلى رسول الله ﷺ هنا يدل على عِظَمِ هذا الحلِّ، وشَرفه، وخُطورته كذلك، وقد وردت هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ هنا في سورة «التوبة»، ووردت مرة أخرى في سورة «التحريم»، وهي سورة افتتحها الله بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾[2]، وفي سورة «التحريم» علاجٌ لقضيةٍ تتعلَّقُ بالبيت وداخله، وكان مثال الكفر المضروب هو زوجتيْ نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام، ومثال الإيمان المضروب هو امرأة فرعون عليها السلام ورضي الله عنها، ومريم بنت عِمران عليها السلام، وهذا يدل على تساوي خطورة النِّفاق بشقَّيْهِ الداخليين، أي داخل المجتمع كلِّه، وداخل الأسرة والبيت، ووجوب مجاهدة هذين النوعين مِنَ النِّفاق، والأمر نفسه كما في سورة «الأحزاب» حيث شُطرت السورة إلى نصفين؛ نصف يتحدث عن الأحزاب، وهم العدو الخارجي، وشطرٌ يتحدث عن بيت النَّبيِّ ﷺ وأزواجه رضوان الله عليهنَّ، فإنَّ خطورة الفساد في داخل البيت للمرء المؤمن لا تقل خطورة عن فساد المنافقين في داخل المجتمع المسلم، وهما يعدلان خطورة الأعداء الخارجيِّين من الكفار حتَّى وهم يقرعون حدود دار الإسلام.

جهاد المنافقين هو عينه جهاد الكفار، فكما يجاهد الكفار باللسان واليد والسلاح، فكذلك المنافقون يجاهدون باليد واللسان والسلاح، وقصر مجاهدة المنافقين على اليد واللسان دون القتال غير صحيح، لأنَّ الله يقول: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾[3]. فإنْ أظهر المنافقون نفاقهم قُتلوا، أما لو قيل: لِمَ لَمْ يقتلهم رسول الله ﷺ؟. فالجواب: لأنهم انتهوا وستروا نفاقهم، وقد بسطتُ هذا المبحث في جزءٍ خاصٍ منشورٍ[4].

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾.

وهذا حلف آخرٌ مِنْ أَيمانهم الكاذبة، يردون بهذه الأَيمان شهادة المؤمنين حين يخبرون أهل الشأن بمقالاتهم الكاذبة الكافرة.

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ٧٣-٧٤.
[2] سورة التحريم، الآية: ١.
[3] سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٠-٦١.
[4] «مسائل في النِّفاق» تجده بالشبكة العنكبوتية على موقع: «منبر التوحيد والجهاد» www.tawhed.ws.

وإنْ قِيلَ: لِمَ لَمْ يقتلهم رسول الله بإخبار القرآن أنهم قالوا كلمة الكُفر، أي ارتدوا؟.

فالجواب: هذا كلّه حِفاظاً على قاعدة الشريعة أنَّ الأحكام لها أدلة محفوظة، هي وحدها التي تُطبق بها الحدود، وهي البيِّنات التي يقضي بها القُضاة، فإنَّ القاضي بعلمه على الصحيح من أقوال أهل العلم، لكن لا يجوز أنْ يقضي على خلاف علمه، ومحل هذه المسألة كُتب الفقه، وقد ذكرتها في المبحث الذي أشرتُ إليه سابقاً[1].

﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾.

وهذا دليلٌ أنَّ الكفر يكون كلمةً، ويكون فِعْلاً، ويكون اعتقاداً، فهؤلاء المنافقون كفروا بعد إسلامهم بكلمة قالوها، وقد تعددَ سبب نزول هذه الآية، وتعدُد أسباب النزول معروفٌ، وله أسبابٌ، منها: أنْ يتعدد سبب نزول الآية، ذلك بأنه مُنزلٌ أكثر من مرةٍ، فتكون الآية حُكماً يُعمله أصحابه على المواطن التي نزلت فيها، فيكون ما يقوله الصحابي من الأخبار عن سبب النزول رواية على الحقيقة، ومنها أن يُعمل الصَّحابة هذه الآية في مواطنٍ متعددةٍ، ويعبرون عن هذا الإِعْمَالِ بقولهم: «نزلت الآية في كذا...» أي إنها حُكْمٌ لهذا الموطن، لا أنها نزلت حين نزلت في هذا الموطن، فيكون هذا إخباراً عن حُكْمٍ لا إخباراً عن روايةٍ، وقد اختلف أهل العلم في حُكْمِ هذا النوع الثاني هل هو في حُكْمِ المرفوع أم لا؟ والجمهور أنه في حُكْمِ المرفوع، وهو الحقُّ والصواب.

وقوله تعالى: ﴿ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ دليلٌ على أنَّ اشتراط اعتقاد الكفر في الفعل والكلمة لتسمية صاحبها كافراً شرطٌ باطلٌ مُفترى، لا يقوله إلاَّ جاهلٌ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾، فَمِنْ أين لهؤلاء شرط اعتقاد الكفر ليحكم الله عليهم بالكفر؟!.

إنَّ مَن يقول هذا إنما هو مدَّعٍ، يرى لنفسه حقَّ الاستدراك على كتاب الله تعالى ما لم يَقُلْ، وكفى بهذا جهلاً، لكن هذا لا يعني أنَّ قلوبهم لم تكفر، بل إنَّ كفر كلماتهم يدل على كُفر قلوبهم، بل لم تكفر ألسنتهم إلاَّ بعد كفر قلوبهم، لكن ليس عمل القلب هو الاعتقاد فقط، فإنَّ القلب له قولٌ وله عملٌ، وعمله إرادته، فإنَّ مَنْ قال كلمة الكفر إنما قالها بإرادة قلبه، لأنه لا عملَ إلاَّ بإرادة، فمَنْ أحبَّ الله في قلبه، قال الإيمان بلسانه، ومَنْ هانَ في قلبه الله وأمره وأمر رسوله ودينه ظهر هذا الهوان على لسانه، ولذلك فإنَّ مَنْ قال كلمة الكفر إنما قالها لِكُفْرِ قلبه ابتداءً، ومَنْ ظنَّ أنَّ كُفْرَ القلب لا يكون إلاَّ باعتقاد فهو جاهلٌ، لا يعلم معنى قول القلب ولا عمله.

﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾.

لقد قالوا كلمة الكفر، وأرادوا الشرَّ لرسول الله ﷺ ولدين الله تعالى، فلم يُعطهم الله مُرادهم، وأبطلَ عليهم نواياهم، وذلك لما رفع الصَّحابة الأمر لرسول الله ﷺ عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا

[1] «مسائل في النِّفاق» تجده بالشبكة العنكبوتية على موقع: «منبر التوحيد والجهاد» www.tawhed.ws.

جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾ ﴾[1]، فهذا هو الواجب، وهو السبيل السَنني في رصد هؤلاء لمعرفتهم وتجنُبِ شرِّهِم، وهذا ليس من باب التجسس، بل هو من باب الشَّهادة التي يجب بيانها وإظهارها، فإنَّ كِتمان القضايا والحوادث التي تتعلَّقُ بالأُمَّةِ ومصيرها، ولها شأنٌ عامٌ لا خاصٌ يكون خيانةً للأُمَّة، ونشرٌ للفساد، وتسترٌ على الباطل، أما المنهي عنه فهو ما يتعلَّقُ بالقضايا الخاصة التي يكتمها المرء عنِ النَّاس حياءً منهم، فهذه تُكتم وتُستر، لأنَّ سترها من صاحبها على وجه الحياء إيمان، وستر المسلمين على صاحبها ممدوح محبوب عند الله، فإنَّ مَن ستر على مسلم في الدُّنيا ستره الله في الدُّنيا والآخرة[2].

﴿ **وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ** ﴾.

لقد رفع الله شأن هذه الأُمَّة بسبب دينها، ومكَّنَ للمسلمين في الأرض لما جاهد الأجداد والآباء، فلم يقع خيرٌ لهذه الأُمَّة في دينها ولا في دُنياها إلاَّ بنعمة الله على هذه الأُمَّةِ بهذا الدِّين ورسول الله ﷺ، فما نحن إلاَّ أُمَّة لم يكن لها مِنْ ذِكْرٍ سابقٍ، فما كُنا إلاَّ قُطعاناً لا رابط لنا، وضائعي الهدف لا وجهة لنا، وأكبر الهموم هو البحث عن صيدٍ للاكتفاء بسد الرمق، فجاء الله لهذه الأُمَّة بهذا الدِّين، وتحققت دعوة الخليل وابنه إسماعيل عليهما السلام بأنْ أرسلَ فينا أحبَّ خَلْقِ الله، وأكرم البشر في الوجود، فصارت أُمَّته خير أُمَّةٍ، وبلغَ مُلْك هذه الأُمَّة مسير الشمس، فدانت لهم البلاد والعِباد، فاجتمعوا بعد افتراقٍ، واهتدوا بعد ضلالٍ، واغتنوا بعد فقْرٍ، وعزوا بعد ذلةٍ، فما مِنْ بلدٍ استقر فيها أهلها إلاَّ بهذا الدِّين، وما مِنْ مُلْكٍ صار لطائفةٍ منها إلاَّ وكان الإسلام ورسول الله ﷺ سببه، بل ما مِنْ بركةٍ في بلاد المسلمين إلاَّ بدعاء الخليل عليه السلام: ﴿ **وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ** ﴾[3]. فماذا ينقم المنافقون من هذا الدِّين؟.

هل ينقمون منه أنْ جعلهم أعزة بعد ذلةٍ، وأغنياء من بعد فقرٍ؟.

ألاَّ لعنَّة الله عليهم ما أخزاهم في كلِّ وقتٍ، ووالله إنَّ الزنادقة اليوم شرٌّ مِنَ المنافقين زمن رسول الله ﷺ، وإنَّ المُعرضين عن هدي رسول الله ﷺ شرٌّ مِنَ الحمير، فإنَّ هؤلاء الذين يهتدون بهدي المُشركين، ويطيرون إلى دينهم وحياتهم تاركين دين الله وهدي رسول الله ﷺ ما فعلوا هذا إلاَّ لقَذارةِ قلوبهم وسوءِ وشرِّ نفوسهم، فوالله ما مِنْ إمامٍ في الغرب والشرق يتخذه زنادقة بلادنا إلاَّ وهو لا يعرفُ كيف يزيل النَّجاسة عن بدنه، ولا يدفع التهمة عن عِرْضِهِ، ولا يطمئن إلاَّ لكلبه رفيقاً بدل

---

[1] سورة النساء، الآية: ٨٣.

[2] روى البيهقي في «السنن الصغرى» في «كتاب الأشربة» باب الستر على أهل الحدود ما لم يبلغ السلطان، عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من ستر على مسلم ستره الله يوم القيامة**». الجزء الرابع عشر، الصفحة ٢٩٦. طبعة دار المعرفة ببيروت (١٩٩٩م).

[3] سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

أبنائه، ولا يُفرقُ بين طيبٍ وخبيثٍ، ولا بين معروفٍ ومنكرٍ، ثمَّ يركضُ إليه المفتونون ليتشدقوا بأنهم يعرفون أقواله، ويحفظون نصائحه، ويتقفرون كيف يأكل ويشرب ويلبس وينام، وهو أضل من دواب الأرض.

لقد أكل الزنادقة طيب الطعام بدين الله تعالى، وملكوا بلاداً لولا الإسلام لما كان لهم أنْ يحلموا برؤيتها، ثمَّ هم يُعادون دين الله، ويكيدون لأهل الإسلام، ويتخذون أعداء الأُمَّة أولياءً وأحباباً وأخْداناً، فوالله لو لم تكن إلاَّ هذه سيئة فيهم لَكان حقّاً على الأُمَّة أنْ تستأصلهم، وكان حقّاً على المسلمين أنْ يُعلقوا مشانقهم.

حُكامٌ مرتدون، وزنادقة كلمة كافرة، وأتباع مناهج شيطانية، ما كان لهم أن يكون لهم شأنٌ في الوجود إلاَّ برسول الله ﷺ وسيفه وجهاده، وجهاد أصحابه.

ومُفتون وقُضاة وخُطباء ما كان لهم أنْ يأكلوا لُقمة الخبز إلاَّ بهذا الدِّين، ومع ذلك، كلُّ هؤلاء خانوه، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً.

فماذا ينقمُ هؤلاء مِنْ هذا الدِّين؟ وماذا ينقمون مِنْ رسول الله ﷺ؟ وماذا ينقمون مِنْ شريعة الله الهادية الرحيمة بهم؟.

إنَّ كلَّ مَن خانَ الله ودينه وسنَّة رسوله ﷺ يُقال له هذا الكلام الربَّاني: ﴿**وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ**﴾.

وإنَّ كلَّ مَن انتفع بنعيم هذه الأرض التي فتحها الصَّحابة رضوان الله عليهم ثمَّ خان الدِّين وأعرض عنه يُقال له: ﴿**وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ**﴾.

وإنَّ كلَّ مَن نال درهماً مِنْ وراء وظيفةٍ لأنه يعلم أمراً مِنْ أُمور الدِّين ثم لم يَقُلْ كلمة الحقِّ، بل تلعب به وباعه ليزداد أكلاً ومُتعةً يُقال له: ﴿**وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ**﴾.

هؤلاء ليسوا زنادقة بسبب إعراضهم عن حقٍّ فقط، بل هم سفلة خائنون لا يعترفون لأهل الفضل، ولا يشكرون النِّعم، فهم سقط البشر مِنْ كُلِّ بابٍ، وهم شرٌّ مِنَ الكَفرة الأصليِّين، لأنهم زادوا فوقَ الإعراضِ عنِ الحقِّ جريمةً أُخرى وهي أنهم خانوا الأمانة، وكفروا بالنِّعمة، وسرقوا الدُّنيا باسم الدِّين ثم باعوه وانقلبوا عليه، ولو كانوا رجالَ شَرَفٍ لَردوا الحقوق إلى أصحابها، ثم أخذوا ما أخذوا على وجه الغلبة الصريحة أنهم أعداء الدِّين، كما هو شأن الكفار الأصليِّين من اليهود والنصارى والمُشركين، وإنَّ أسفل هؤلاء جميعاً هم علماء السوء، ومفتُو الضلالة، وقُطاع الطريق إلى الله باسم الإسلام والشريعة والسنَّة، فإنَّ هؤلاء يأكلون الطعام ويلبسون اللباس ويسكنون أفخر المساكن، ويتسلطون على النَّاس بكلمات الله التي انتسبوا إليها، ثم هم يخونونها، ويُطوعونها لحكام الردة، وأهل الشهوات، وأسياد الضلالة، فما أشقاهم عند الله تعالى، وما أشدَّ جرائمهم يوم القيامة ﴿**وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ**

﴿ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾[1]، ووالله إني لأقول دائماً: إنَّ ذنب تاجر المُخدرات اليوم أهون من ذنب العالم الذي يكذب على الله وعلى رسوله وعلى دينه، فإنَّ تاجر المُخدرات يُفسد أبدان النَّاس، وهذا المُنافق يُفسد دين النَّاس، وتاجر المُخدرات يُرجى له التوبة، وأما هؤلاء فلا يزدادون عنِ الله إلا بُعْداً، وتاجر المُخدرات يعلمُ النَّاس معصيته فيتجنبوه، وهذا الزنديق يُخْدَعُ به الملايين لجهلهم، ظانين أنه يقول لهم ما يحب الله تعالى، وإني لأنصحُ نفسي وكلّ امرئ يُنسب للعلم والدِّين إنْ رأى في نفسه ضعفاً عن قَوْلِ الحقِّ أنْ يجلس في بيته طالباً الستر مِنَ الله، ولا يصدر نفسه واعظاً ومُفْتِياً ومُعَلِماً، فإنْ كان لابدَّ من اختيارين؛ أنْ يقول كلام الباطل والضلال باسم الدِّين أو أنْ يكون ساقياً في خمارة فليختر أن يكون ساقياً في خمارةٍ فهو أسلم له يوم القيامة، ومن لم يعرف مِقدار إفساد الموقعين عن ربِّ العالمين بالباطل والكذب والزور والبُهتان، ورأى أنه أقل إفساداً مِنْ ساقي الخمر فهو جاهلٌ بدين الله تعالى، وجاهلٌ بمراتب المعاصي.

إنَّ تاجر المُخدرات مجرمٌ عاصٍ لله تعالى، ويستحق دخوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾[2]، وإنَّ ساقي الخمر ملعونٌ على لسانِ رسول الله ﷺ حيث لُعن في الخمر عشراً[3]، ولكن الذي يقول على الله الكذب، ويُفسد دين النَّاس، ويُمَرِّرُ الذلة والمهانة على الأُمَّةِ باسم الدِّين، ويَصُدُّ عن سبيل الله مُستخدماً كلمات الله وأحاديث رسوله هو أشدُّ مِنْ هذين جُرْماً عند الله تعالى لأنَّ الله يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾[4]. فجعلَ أعظمَ المعاصي عنده في القول على الله بغيرِ علمٍ.

وثاني هؤلاء جُرْماً ودُخُولاً في هذه الآية أي قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ همُ المجرمون مِنَ الحُكام الذين ولاهم الله بلاد المسلمين بما فيها مِنْ خيراتٍ ونِعَمٍ، وما

---

[1] سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥ـ١٧٦.

[2] سورة المائدة، الآية: ٣٣.

[3] عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ، قَالَ: «لَعَنَ رسولُ الله في الْخَمرِ عَشرةً: عَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَشَارِبَهَا وَحَامِلَهَا والمحمُولَةَ إِلَيْهِ وَسَاقِيَهَا وبَائِعَهَا وآكِلَ ثمنِها والمشتري لَهَا والمشْتَرَاةَ لَهُ».

قال أبو عيسى ـ أي الترمذي ـ هذا حديث غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ. وقدْ رُوِيَ نَحْوُ هذا عَنْ ابن عَبَّاس وَابنِ مَسْعُود وابنِ عُمَرَ عَنِ النَّبيِّ.

أخرجه الترمذي في «سننه» باب ما جاء في بيع الخمر والنهي. حديث رقم: ١٢٩٢. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٤م).

وأخرجه أيضاً ابن ماجه في «سننه» بألفاظ مُتقاربة. في «كتاب الأشربة» باب لُعنت الخمر على عشرة أوجه. حديث رقم: ٣٣٨٠ عن ابن عمر رضي الله عنهما، وحديث رقم: ٣٣٨١ عن أنس بن مالك ﷺ. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت. حقق نصوصه ورقَّم كُتبه وأبوابه وأحاديثه وعلَّق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي ـ رحمه الله تعالى.

[4] سورة الأعراف، الآية: ٣٣.

خضع لهم النَّاس إلاَّ باسم الدِّين والإسلام، وكلّ خيرٍ في البلاد إنما هو بِنِعَمِ هذا الدِّين، وبعطائه سبحانه وتعالى، ثمَّ يذهب هؤلاء غير شاكرين لله نِعمه، بل يُعادونه، ويُعادون دينه، ويقتلون أهله ويُعذبونهم، وهم لولا هذا الدِّين لما كان هناك أُمَّة يحكمونها، ولولا هذا الدِّين لما كان لهم بلادٌ تخضع لهم.

فهذه محنَّة الدِّين مع الذين يأكلون به، ويرتفعون بعطائه، ثم هم ينقمون عليه، ويذهبون إلى غيره، فمن يتخذونهم مطايا لمآربهم، حتَّى إذا قضوا منهم وطرهم نبذوهم كالنواة، ورموهم كالقاذورات، فعادوا يبكون أنهم خُدعوا، والحقّ أنهم هم خَدعوا أنفسهم، وباعوها بثمنٍ بخسٍ.

لقد رفض هؤلاء أنْ يكونوا رؤوساً في الحقِّ، ورضوا أن يكونوا مطايا وذُيُولاً للباطل، واستكبروا على إتباع الرسول والدخول مع المؤمنين، ورأوا أنَّ لَعْقَ أحذيةِ الأعداء أكرم وأفضل، ومثل هؤلاء يُقال فيهم: ﴿ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

إنَّ مجرد نظرةٍ يسيرةٍ على تاريخ هذه الأُمَّة، وما أحدثه دين الله فيها لِيقضي لأهل العقول أنه دينٌ عظيمٌ، وأنَّه كما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[2]، وإنَّ أهل العقول لَيُدْرِكُونَ فضل رسول الله على هذه الأُمَّةِ، فهو الرحمة المُهداة كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[3]، ومع ذلك يستنكف الزنادقة إتباع هذا الدِّين والانتساب إليه، ويترفعون عن مُتابعة سنَّة رسول الله ﷺ، ولما كان الإنسان مجبولاً على العبودية كما هو مفطورٌ على الإتباع فإنه لابدَّ له مِنْ إمامٍ وقُدوةٍ يتخذه في شؤون حياته، فلما ترك هؤلاء إتباع رسول الله ﷺ فإنهم اتخذوا أئمةً مِنْ زبالات البشر، وحُثالة النَّاس، ووالله إنَّ المرء لَيعجب أنْ يترك هؤلاء هذه القُدوة العظيمة في سيرتها، الهادية في أقوالها وأعمالها، ثم يتخذون رجالاً هم للدواب أقرب منهم للبشر، ولما خبرتُ حياة هؤلاء المتبوعين الجُدد في المشرق والمغرب وجدتُ منهم سفالات يأنفُ منها آحاد البشر الأسوياء، ولقد ضلَّ أكثر الشباب والبنات باتخاذهم أئمة مِنْ سَقْطِ المتاع، يعلقون صورهم في بيوتهم، ويحفظون سيرهم؛ وكيف يلبسون، وماذا يأكلون ويشربون، فسبحان مَنْ مسخ هذه العقول الجاهلة، وصيَّرها إلى هذا الضلال.

أما المصيبة الأكبر فهذه الفتاوى الجاهلة التي عِمادها تأويل السنن النَّبويَّة حتَّى تتوافق مع أمزجة هذه الصور المُتبعة مما يحبه النَّاس في أئمتهم الجُدد، فحيث أحب النَّاس صورة من صور هؤلاء الساقطين والساقطات ذهبوا يتساءلون عن السنن النَّبويَّة التي تخالف ما هم عليه، فيقوم مشايخ

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ٩٣.
[2] سورة المائدة، الآية: ٣.
[3] سورة الجمعة، الآية: ٢.

الانحراف برد السنن أو تأويلها حتَّى تتوافقَ مع هذه الصور القبيحة، فالنساء يتساءلن عن نمص الحواجب، وعن العمليات الجراحية التي تُسمى بالتجميلية، وعن جواز لبس ألبسة مُعينة، وهي أسئلة كذلك للرجال الذين فقدوا قيمة رسول الله مِنْ قلوبهم، ولو كان في قلوب هؤلاء عظمة رسول الله ﷺ، وعظمة أصحابه ﷺ، وعظمة أُمَّهات المؤمنين لما نظروا إلى هذه الصور الممسوخة القبيحة إلاَّ بعين التحقير والازدراء.

﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾.

يتكرر في القرآن خُلو المنافقين مِنَ النَّصر، وذهاب الأولياء عنهم، فلا أحد يرضى عنهم، لأنهم ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[1]، فالمؤمنون لا يرضون عنهم لمصائبهم المُتعددة، سواء كانتِ الظاهرة والباطنة، وأما الكافرون فهم يتخذونهم مطايا إلى مقاصدهم، فليسوا عندهم بأكثر من دواب، حتَّى إذا قضوا حاجاتهم منهم رموهم بلا رحمةٍ ولا شفقةٍ، وهذه سنَّة تتكرر كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾[2]، فإنَّ هؤلاء الأولياء وقتَ الحاجة لا ينفعون أتباعهم، وهذا في الدُّنيا قبل الآخرة، أما في الآخرة فقد قال تعالى في الآية التالية: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[3]، [4]. فإنهم لا يتخلون عنهم فقط هناك بل يصيرون لهم أعداءً.

المنافقون جُبناء وبخلاء، وهؤلاء أشقى النَّاس في هذه الحياة، والمنافقون لهم أسيادٌ كُثُر ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ ﴾[5]، ومَنْ كان كذلك لا يقر له قرارٌ، ولا يهدأُ له حالٌ ولا بالٌ كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[6]، فالسعيد هو صاحب الهمِّ الواحد، وصاحب الغاية الواحدة، فهذا له سيدٌ واحدٌ هو الله، وله أمرٌ واحدٌ هو سيِّده، والجنَّة مقصده، فمُعَوقَاتُهَا فقط ما يُؤْلِمه، فلا يبكي إلاَّ على معصيةٍ، ولا يحزن إلاَّ على فواتِ طاعةٍ، أما المنافق فكلّ درهمٍ له إلهٌ، وكل صيحةٍ تُذهِبُ عقله، وكلّ قويٍّ أو غنيٍّ سيِّده،

---

[1] سورة النساء، الآية: ١٤٣.
[2] سورة الأحقاف، الآية: ٥.
[3] سورة الأحقاف، الآية: ٦.
[4] وقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦].
[5] سورة النساء، الآية: ٩١.
[6] سورة الزمر، الآية: ٢٩.

وهذه الدُّنيا دُول، فهو كالشَّاة العائرة تميلُ لهذا مرةً ولهذا مرةً[1]، ولذلك هو معذَّبٌ في الدُّنيا، ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾[2].

هذا كشفٌ آخرُ للمنافقين، وهم على سنن السابقين في البخل، وقد رأيتَ كيف يتكرر ذكر البخل بصفته سِمَة جَلِيَّة واضحة لهذه الجريمة البشرية وهي النِّفاق، وقد جعل الله هذه الآية البخل منبت النِّفاق، وسببه، وضرره الذي يُؤصل له وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾.

والصفة الجلية الأُخرى للنِّفاق هنا هي إخلاف الوعد الذي قطعوه على أنفسهم مع الله تعالى، فإنَّ عهد الله كان مسؤولاً عند المحن والابتلاءات، أيصدق صاحبه أم يخون ويخلف، والمرء المؤمن العالم يسأل الله العافية فيما هو فيه، ويتقي بالوسيلة التي قدَّرها الله له، سواء كانت فقراً أم غنىً، وخير حال المرء الكَفاف في هذا الباب، فلا فقرَ يؤدي إلى سؤال النَّاس، ولا الغنى الذي يُرهقه أو يفتنه، فإنَّ العبدَ لا تزول قدماه حتَّى يُسأل عن ماله، مِنْ أَيْنَ أَتى به، وفيما أنفقه[3]، ولذلك فقراء المسلمين يدخلون الجنَّة قبل الأغنياء بخمسمائة عامٍ كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ[4]، والمؤمن العاقل لا يعرض نفسه للفتن، بل يسأل الله السلامة فيما هو فيه، ويجتهد وُسعه أن يكون تقياً على ما قدَّره الله تعالى مِنَ الأموال، فإنَّ المرءَ مُدْرِكٌ بقلبه فيما هو فيه، ولا يدري كيف سيكون هذا القلب إنْ تغيَّرتِ الأحوال، هذا مع عهد المؤمن مع الله أن يكون له عبداً على كلِّ حالٍ كما وصف الله عباده بقولهم: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[5].

---

[1] عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَالشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً**». أخرجه مسلم في «كتاب صفات المنافقين وأحكامهم». حديث رقم: ٢٧٨٤.

[2] سورة التوبة، الآيات: ٧٥-٧٨.

[3] روى الترمذي في «سُننه»، باب في القيامة. حديث رقم: ٢٤٦٢. عن أَبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، قالَ: قالَ رَسُولُ الله: «**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعن عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وعن مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفيمَ أَنْفَقَهُ، وعن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاَهُ**». قال: **هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ**. وَسَعِيدُ بنُ عَبْدِ الله بنُ جُرَيْجٍ هُوَ بصري وهو مَوْلَى أَبي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، وَأَبُو بَرْزَةَ الأَسْلَمِيُّ اسْمُهُ: نَضْلَةُ بنُ عُبَيْدٍ.

[4] عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدري ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ، بِمِقْدَارِ بخَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ**». أخرجه ابن ماجه. في «كتاب الزهد» باب منزلة الفقراء. حديث رقم: ٤١٢٣. وله رواية أخرى عن أبي هُريرة ﷺ؛ قال: قال: رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الجَنَّةَ قَبْلَ الأَغْنِيَاءِ بِنِصْفِ يَوْمٍ. خَمْسِمَائِةِ عَامٍ**» حديث رقم: ٤١٢٢.

[5] سورة الأنعام، الآيتان: ١٦٢-١٦٣.

هؤلاء المنافقون لم يكن نِفاقهم نفاقَ اعتقادٍ، فهم يدعون ربَّهم، ويُعادونه، ولكنهم أخلفوا وعدهم وعهدهم مع الله، أي كان نِفاقهم عملياً، وجعل الله مستقره في قلوبهم، وهذا يُثبت ما تقدم من تفسير معنى الكفر القولي والكفر العملي، فإنَّ هذا الكفر ومثله النِّفاق لا يكون إلاَّ بعملٍ قلبي، ولكن ليس عمل القلب هو الاعتقاد فقط، فكون النِّفاق قولياً أو عملياً لا يعني أنَّ القلبَ بريءٌ منه، بل لا يكون عملٌ ولا قولٌ إلاَّ بعملٍ قلبيٍّ، لأنَّ العمل قُدرة وإرادة، والإرادة عملُ القلبِ وتنشأ بالحبِّ والبُغْضِ أيْ بقُوةِ الدافعِ، وبالعلمِ، فالعلم وقوة الدافع هما مُكَوِّنَا الإرادة، وكل هذه أعمال القلوب، فإنْ قال المرء قولاً أو فَعَلَ فعلاً إنما يعمله قلبه قبل القول والفِعل، ثمَّ إنَّ العمل والقول يمدان القلب بآثارهما الصالحة إنْ كانا صالحيْنِ، وآثارهما الضالة إنْ كانا فاسديْنِ، والعلاقة بين القلب والجوارح كعلاقة القلب بالشرايين، فضعفُ أحدهما ضعفٌ للآخر، وقوةُ أحدهما قوةٌ للآخر.

فهؤلاء المنافقون أخلفوا الله بعملهم، وهو عملٌ من أعمال النِّفاق، ثمَّ هذا العمل أورث نفاقاً في القلب، وقد سمَّى الله قولهم حين قالوه كذباً فقال: ﴿وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ فهما جريمتان: الكذب حين القول، وإخلاف الوعد حين حصول الشرط، ولذلك فقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ الله قد خُدع حين قالوا عهدهم ووعدهم، فردَّ الله هذا الجهل بقوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾. فهو سبحانه وتعالى عالِمٌ بما أسروا من الكذب، وعالمٌ بما سيقعُ بعد حصول الشرط وهو الغنى والفضل، فهذه فاصلة قرآنية تقطعُ هذه الظنون بالله تعالى، ذلك بأنَّ الله لما أعطاهم ما أعطاهم مِنَ الفضل والغنى إنما هو يعلمُ كذبهم بالوعد ابتداءً، ويعلمُ خيانتهم للوعد بعد ذلك.

وقد يسأل سائلٌ: هل لعهدهم هذا أثرٌ، وهل هو سببٌ لحصول الفضل والغنى؟. والجواب: قطعاً لا، فإنَّ النَّذر صدقة البخيل كما قال رسول الله ﷺ[1]، وهو لا يرد شراً، ولا يحصِّلُ نفعاً، ولذلك فأصح أقوال العلماء أنَّه مكروهٌ، وهو قول جماعة من أهل العلم، هذا مع وُجوب الوفاء به إن وقع وجوباً بلا خلافٍ بين أهل العلم لقوله تعالى عن المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾[2]، فإنَّ إخلافَ النَّذر خيانةٌ ومعصيةٌ وإثمٌ، ولكن هذا لا يجعل النَّذر مستحباً كما ظنَّ بعض أهل العلم كالغزالي من الشافعية، والمؤمن يفعلُ الطاعة بلا شرطٍ على الله تعالى، بل إنَّ الطاعات سبب حصول المطلوب للعبد، فالصَّدقة سببٌ لقضاء الحاجات، وبها يرد الله الكثير من المصائب والبلاء، فعلاج ما يكره المرء في علم الطاعات ابتداءً لا الوعد بها إنْ حصل العلاج.

---

[1] عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ النَّذْرِ قَالَ: «**إِنَّهُ لاَ يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**». أخرجه البخاري في «كتاب القدر» باب إلقاءِ العبدِ النَّذْرُ إلى القَدَرِ. حديث رقم: ٦٦٠٨. طرفاه في: ٦٦٩٢، ٦٦٩٣. ومسلم في «كتاب النذر» باب النَّهي عنِ النَّذرِ وأنَّه لا يرُدُّ شيئاً. حديث رقم: ١٦٣٩.

[2] سورة الإنسان، الآية: ٧.

ويُستفادُ من هذا أنَّ تأجيل الطاعات واشتراطها بعد شروط يضعها الناذرون، وهي شروط يحبونها لأنفسهم، خطرٌ على دين المرء، لأنَّ مثل هؤلاء النَّاس يرغبون في هذه المصالح ويحبونها، وهي غالية في قلوبهم، فإنْ حصلت لهم عزَّ عليهم بذلها، وكان في قلوبهم الألم في مُفارقتها.

ثمَّ هناك سرٌّ آخرٌ، وهو أنَّ ما يحصل لهؤلاء مِنَ النَّعيم إنما يكون بطريقٍ سَنني، ومثل هؤلاء لا يرون يد الله في هذا العطاء، بل هم سيقولون ما قال أسلافهم أو سيد أسلافهم قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾[1]، وهذه سِمَة غالِبَةٌ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[2]، وانقلاب حياة النَّاس مِنَ الضَّراء إلى السَّراء مذكورة في عِدَّة مواطن في القرآن، وكلُّها تُؤدي إلى نتيجةٍ واحدةٍ، وهي كُفران النِّعم، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾[4]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾﴾[5]، وهذا كذلك في مواطنٍ أُخرى في كتاب الله تعالى، وسبب ذلك كما تقدم أنَّ السنن لغير المُهتدي تحجبُ يد الله تعالى وعطائه، ولا يرى يد الله ورعايته إلاَّ أهل الدِّين والتقوى، وهؤلاء يبذلون بلا نذرٍ ولا شرطٍ.

ولذلك تجدِ البعض يُعلِّقُ نصره للدِّين إنْ حصلَ له بعض الفضل، فيسعى جُهده لتحصيل هذا الأمر، ثم يُيسره الله له، فينسى ما شرط على نفسه مِنْ أنْ يبذل هذا الفضل لدِّين الله تعالى، ويتخذه سُلماً لمنافقٍ ومُتعه وشهواته، فهناك مَن يشترط عِلْماً مُعَيَّناً كأن يكون طبيباً، أو مهندساً، أو صاحب سلطانٍ وقوةٍ، بل إنَّ بعضهم ليبذل له من أموال المسلمين ليحصل له هذا الفضل، ويقتطع أهل الإسلام مِنْ قُوتِهِمْ وحاجاتهم ليكون عوناً للإسلام وأهله، ثمَّ إنْ صار إلى شيءٍ مِنْ ذلك لم يرفع بذلك رأساً، ولم يفِ لله وعده ولا عهده، بل لا يفي للمسلمين شروطهم، إنما يتخذ كلَّ هذا لشهوته وذاته وملذاته.

---

[1] سورة القصص، الآية: ٧٨.
[2] سورة الأعراف، الآيتان: ٩٤ـ٩٥.
[3] سورة هود، الآيتان: ٩ـ١٠.
[4] سورة الروم، الآيتان: ٣٣ـ٣٤.
[5] سورة فصلت، الآيات: ٤٩ـ٥١.

ومِنْ نافلةِ القول التذكير بأنَّ ظنَّ البعض أنَّ الإسلام لا يُنصر، ولا تتحقق له الوعود في الأرض حتَّى يحصل للمسلمين بعض الشروط مِنْ مالٍ وغنًى، هو ظن مخطئ، وقد وقع فيه بعضهم حيث جعل جُهده في بناء مؤسسات مالية لتُحقق الضغط، ظاناً أنَّ هذا سبيل اليهود الذي اتخذوه في بناء دولتهم، وهو الوسيلة التي حققوا بها السيطرة على المجتمعات والشعوب الغربية، وهذا تفسيرٌ سطحيٌّ للعُلو اليهودي، وقد حصل لهؤلاء المال، وقامت لهم المؤسسات المالية، ثمَّ في لحظةٍ واحدةٍ تحول هذا الجُهد إلى إرهاقٍ وثقلٍ، حيث ضُربت هذه المؤسسات، وذهبت أموال النَّاس، واتخُذت هذه التجارب ورقةً سيِّئةً ضدَّ المسلمين والعاملين فيها، ومَن نجا منها تحول إلى جزءٍ من بناء المجتمعات تحت مظلة الجاهلية، يدور في فلكها، ويتعاطى من خلال قوانينها، وما تسمح له من ممارسات.

هذا لا يعني أنَّ هذه المؤسسات وهذه التجارب الإسلامية خطأٌ وانحرافٌ، لكن الخطأ اعتبارها وسيلة من وسائل تحقيق الخلافة في الأرض، أو مقدمة من مقدمات الوراثة، ويزداد انحراف أصحابها عندما يعتبرونها بديلاً سليماً عن جهاد الطواغيت، وأما أنها صوابٌ فهي عملٌ مِنْ أعمال الخير إنْ أخلص أصحابها لله تعالى، وأدوا العمل فيها على وجه العدل والكفاية، ولم تتحول إلى مؤسسات خاصة لخدمة أحزاب، أو عائلات، أو أشخاص، ولكن للأسف أنَّ هذا هو الغالب وُقوعه في هذه المؤسسات الخيرية والمالية والاجتماعية، مع أنَّ الكثير منها كذلك له جهودٌ في الدعوة وخاصة في البلاد النائية والفقيرة، والتي تتعرض إلى هجمات تبديل الدِّين، وأصحاب هذه المؤسسات فيهم دينٌ وغيرةٌ وصلاحٌ، نحسبهم والله حسيبهم، ومَن استمع إلى تجاربهم عَلِمَ قيمة ما يقومون به، ولكن عَلِمَ كذلك قِلَّةَ صبرٍ وكسلِ المنسوبين للمعاهد العلمية في الثبات معهم في أماكن الصَّبر والاحتساب، فتجد الآلاف من هؤلاء يكدسون في مناطق المركز، يُصارع بعضهم بعضاً على المساجد والمراكز الكبيرة، ولو نفروا بصدقٍ واحتسابٍ وزُهْدٍ ورغبةٍ في الدَّار الآخرة إلى تلك الأماكن حيث الجهل وقلَّة العِلم، فعَلَّمُوا النَّاس، ووقفوا أمام تنصيرهم ورِدَتِهِمْ، لحصل بهم الخير الكثير، لكن صحت النُّبوءة أنَّ أكثر منافقي هذه الأُمَّة هم قراؤها[1]، فإنَّ الواحد منهم لا ينفر للدعوة إلاَّ بأجرةٍ مُرتفعةٍ، وشروطٍ خاصةٍ تحصل لهم رغد العيش، فهي رحلة قصيرة لمتعٍ قادمةٍ بعدها.

وقد ظهر كذب الذين قالوا إننا نريد الطبيب المسلم لخدمة الإسلام، ومثله المهندس، وغير ذلك من التخصصات فلما احتاج النَّاس إليهم في مواطن البلاء لم تجد نافراً منهم إلاَّ القليل ممن لا يزيدون عن أصابع اليد الواحدة، ومَن استجاب إنما استجاب بعروضٍ خاصةٍ تُغريه للنفير والاستجابة، وسيرى النَّاس صِدق هؤلاء عندما يُقام حُكم الإسلام في مناطق البلاء كما هو شأن المدينة النَّبويَّة

---

[1] «**أَكْثَرُ مُنَافِقِي أُمَّتِي قُرَّاؤُهَا**». أخرجه البخاري في «خَلْقِ أفعال العباد» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، باب ما يدل على أصوات العباد. وأحمد في «المسند» حديث رقم: ٦٦٣٣، ٦٦٣٤، ٦٦٣٧. وقال: **إسناده صحيح**. وله روايتان عن ابن لُهيعة حديث رقم: ١٧٣٠٠، ١٧٣٤١وهما في درجة الحسن.

زمن رسول الله ﷺ، حيث لا يجد المهاجرون لُقمة الخبز ثلاثة أيام، وحيث لا يستطيع المُصلون القيام في الصَّلاة من الجوع، حينها سيعرفُ النَّاس الصَّادق من الكاذب، ويظهر مَن عاهدَ الله فصدق، ومن عاهده فكذب.

﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

أما اشتراطهم الصَّدقة بعد الغنى فمفهومٌ، لأنَّ الصَّدقة لا تكون عن ظهر غنى، لكن لماذا علَّقَ هؤلاء الصَّلاح على حصول الفضل؟.

هذه مقدمة شرٍّ في الخطاب منذ الابتداء، ومؤذنة بأنَّ القوم يعبدون الله عبادة التُّجار، حيث يُعلِّقون عبادتهم لربِّهم على حالٍ معينٍ، يحبونه لأنفسهم، كالغنى والصِّحة، فإنْ أصابهم ضدّ ذلك أعرضوا واعترضوا، وهذه عبودية غير خالصة، فإنَّ العبودية الخالصة أن ترضى ما قسمه الله لك، وقد ذكر بعض أهل العلم أنَّ الرضى مستحبٌ، لكن الصَّبر واجبٌ، وهذا الذي عليه الأدلة، ولكن السخط على الله كُفْرٌ، أما إنْ كان هذا الرضا هو مُنازعة القدر بالسنن القَدرية المشروعة فهذا جائزٌ، وواجبٌ في بعض صُوره، فرد الكفار واجبٌ، ودفع الصائل واجبٌ، وهذا كلُّه من مُنازعة القدر بالسنن القَدرية، وهذا معنى قول بعضهم: «نازعتُ أقدار الحقِّ بالحقِّ للحقِّ»[1]، وهي كلمةٌ صحيحةٌ.

لكن تعليق الصَّلاح والعبادة على حصول حالٍ معينٍ غير مرضي عند الله، وهو عين ما قاله إخوة يوسف عليه السلام وعليهم: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾[2]، فإنَّ مَنْ يسلك هذا السبيل لا يحصل له الصَّلاح أبداً إلاَّ أنه يتوب، فإنَّ دفع الأقدار بالمعاصي مِنْ أجل الطاعات لا يفعله إلاَّ جاهلٌ بالله تعالى، وقد وقع فيه بعض الجهلة، حيث أجاز بيع المُخدرات لجنود الكفار لإفسادهم، وهذا لا يقوله فقيهٌ يعلم دين الله تعالى، وهذه الصورة تختلف عن عدم منع المسلمين لهم من الوقوع في هذه الآفات، لأنَّ الفرقَ واضحٌ بين أنْ يبيع المسلم الحرام بنفسه، وبين أنْ لا يمنع مِنْ وقوع الكافرين به[3].

وفي هذه الآية تنبيهٌ على مفسدةٍ خطيرةٍ، هي مِنْ أشدِّ الآفات في الأفراد والجماعات وهي آفةُ التسويف حتَّى يحصل حالٌ آخرٌ، ومثل هذا الحال قد لا يأتي أبداً، وغالب ما يضيع الكثير مِنَ الخير

---

[1] هو قول للشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد سُئل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ربُّ البريَّة. انظره في «مجموع الفتاوى» الجزء الثامن، الصحفة ٥٤٧.

[2] سورة يوسف، الآية: ٩.

[3] مثاله ما ذكر ابن القيم في «أعلام الموقعين عن ربِّ العالمين» فصلٌ في تغيُّر الفتوى واختلافها بحسب التغير. الجزء الثاني، الصفحة ٤. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٧م) حيث قال: «وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: «مررتُ أنا وبعضُ أصحابي في زمن التَّتار بقومٍ منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم مَنْ كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلتُ له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصدُّ عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمرُ عن قتل النُّفوس وسَبْيِ الذرية وأخذ الأموال فَدَعْهم» انتهى. لله در فقه هذا الرجل العظيم.

على المسلمين سببه هذا المرض، فهذا يريد أن يحفظ كتاب الله تعالى، ولكن هو ينتظر أنْ يأتي اليوم الذي يفرغ لهذا الأمر فراغاً تاماً، وهذا حُلْمٌ جميلٌ لكنه لا يكون، وآخر يريد أن يطلب العلم لكن ينتظر أن يفرغ من بعض شؤونه الحياتية، وهذه الشؤون كلما حصل بعضها جرَّ بعضاً آخر، وآخر يريد أن يجاهد لكن يعترضه بعض الأمور فينتظر انقضاءها ولا تنقضي، وآخر ينتظر زمناً قادماً يكون فارغاً للعبادة وقراءة القرآن وقِيام الليل، وهذا الفراغ لا يأتي أبداً، وطالب علمٍ يريد أن يكتب كتاب عِلْمٍ يراه نافعاً لكن يُؤجل ويُسوِّف لأنه يريد أن يبدأ فيه باستجماع إرادةٍ قويةٍ وسينتهي منه مُتواصلاً بدل أن يكتب فيه كلَّ يوم صفحاتٍ قليلةٍ، والحلم يبقى ولا تأتي هذه الإرادة التي تحصل له مُراده.

هذا مرضٌ يعترض الإرادات، وسببه عدم فَهْمِ سنن الحياة، فحين تقول لك نفسك: أنتَ الآن متعبٌ، ولو قمتَ لتحفظ حزبك من القرآن فلن تستطيع، ويكون حزبك ربما ورقتين أو ثلاثة، فغداً تكون نشيط النفس، قوي الإرادة، مرتاح البال، فستحفظ خمس صفحات أو ست، فحين تحدثك نفسك بهذا فتستجيب لها فاعلمْ أنك وقعت في مصيدة الشيطان، فسيأتي غد، وستقول نفسك لك ما قالت لك اليوم، والطريق السديد هو أن تقوم الآن مِنْ فَوْرِكَ وتُقْبِلَ على حزبك، وما ستأتي به سيكون خيراً، فإنْ جاء غد، وكنتَ كما تؤمل وترجو حفظتَ كما تحب، مع أنَّ هذا في أغلبه يكون وهماً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**قَلِيلٌ دَائِمٌ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مُنْقَطِعٍ**»[1].

يُفسد إرادات النَّاس التسوِّيف، ويَصْنَعُ التسوِّيف الجهل بسنن الحياة وصناعتها وبناء الأعمال، ومما يجذر هذا المرض الحكايات الباطلة، أو عدم فهمِ الأخبار الصحيحة والحكايات الثابتة، فإنَّ الكثير مِنَ النَّاس يفهمُ الأحداث منبتة عن واقعها ومحيطها، إذ يتصور وُقوعها هكذا دون أن يحيطها حياة سَنَنية تعيشها أنتَ ويعيشها النَّاس من حولك، فإنه لا يوجد حدثٌ بلا حياة سَنَنية فيها الكَبَد والتعب، مهما كان هذا الحديث جميلاً، وحين يُساق الخبر على وجهٍ غير سَنَني، أو أنه هو كلّ الحياة فاعْلَمْ أنه كذبٌ، فاحذرْ مِنْ أن يُفسد عليك فهمك لسُنن الحياة، واعْلَمْ أنَّ ما تُعانيه أنتَ في عملٍ من الأعمالِ هو ما يُعانيه كلّ أحدٍ، وأنَّ ما تُلاقيه من ظروفٍ هي في الحقيقة سُنن هذا الحدث الذي لا تنفكُ عنه، فالحياة بسُننها ليست لقطة تسجل صورة على ورقة يبتسم فيها صاحبها، دون أن تعلمَ ما هو الحدث الذي سبقها، والحدث الذي بعدها، بل عليك أنْ تعلمَ كيف صُنعتْ هذه البسمة في هذه اللحظة، لأنَّ ما وراء هذه البسمة الشيء الكثير من سنن الحياة التي أدت إليها.

[1] عَنْ الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ، عَنْ عَائِشَةَ . قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ**». قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا عَمِلَتِ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ. أخرجه مسلم في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره. حديث رقم: ٧٨٣.

تخدعك نفسك حين تُوهِمك أنَّ يوماً قادماً هو أصلح وأفضل للقيام بطاعة من الطاعات، بل سيكون الغد كاليوم سواءً بسواءٍ، ولذلك قُمِ الآن من لحظتك، وأقبلْ على طاعتك، وكما قال الحبيب المصطفى ﷺ: «**استعن بالله ولا تعجز**»[1].

في باب الجهاد في سبيل الله تعالى، هل تظن أنَّ ظرفاً آخر سيكون حال النَّاس فيه مع الجهاد أفضل مما هم عليه الآن؟ إنْ قلتَ نعم فأنتَ مخطئٌ، فقد تبيَّنَ لكَ فيما قرأتَ مِنْ أوراقٍ في هذا الكتاب عن حال الجهاد أنَّ كلَّ ما تراه في واقعك كان في زمن رسول الله ﷺ، فهناك المجاهدون، وهناك المنافقون، وهناك الظروف الشديدة، وهناك الأعداء الأقوياء الأشداء، وهناك لحظات القُروح، وهناك لحظات النَّصر، وهناك الشُّهداء الذين ترتفعُ أصوات البعض ناعية على المجاهدين رميهم في المهالك، وهناك مَن يرى كلَّ يوم آيات الله في النَّصر والتأييد فلا يزداد إلاَّ بُعْداً، وهكذا تمضي الحياة، فإنَّ الذين يُعارضون الجهاد اليوم لو عاشوا زمن رسول الله ﷺ لَكانوا هُمْ هُمْ كما هُمُ الآن، ولو عاشوا زمن خلافة أبي بكر ﵁ لَكانوا كما هُمُ الآن، ولو عاشوا زمن صلاح الدِّين لَكانوا كما هم الآن، ولذلك فَقَوْلُ بعضهم إنَّ الجهاد اليوم ليس هو جهاد السابقين هو قولُ جاهلٍ، لأنهم يفهمون أخبار الجهاد عن السالفين بمعزلٍ عن الحياة، فيرونها لقطة ثابتة فيها البسمات، كما هو حال الجهاد عند مَنْ تسمع أخباره فقط، فلا يُقال إلاَّ الكرامات، وحكايات الشَّجاعة والعطاء، فإنْ حصلَ أنْ رأى أمثال هؤلاء الجهاد أو عاشوه غمرتهم الظروف السَنَنية المحيطة بهذه الكرامات وحكايات الشَّجاعة، فطمستْ بصيرتهم عن رُؤيتها لاستغراقهم بالآلام والغمرات والمشقات، وإنْ قِيلَ لهم متى الجهاد؟ ذهبوا يُسوِّفون حتَّى تأتي الظروف الُملائمة له كما يزعمون، وهذه الظروف لا وجود لها أبداً في هذه الحياة، بل هي خِداع داخلي في عقول أقوامٍ شعراء، يَهيمُونَ في وِدْيَانِ الأوهام والأحلام والصور الجميلة، والكلمات الكبيرة التي تطرب الآذان، وشتان بين عقل شعري وعقل سَنَني جهادي.

هؤلاء الذين علَّقوا الصَّلاح بعد الغنى لن يصلحوا، لأنَّ الصَّلاح إرادة ضدَّ الظرف الذي أنتَ فيه، فهو تحدٍ لكلِّ الظروف، وهو حالة إيمانية تتلاءم مع النُّفوس الصَّادقة في كلِّ حالٍ، سواء كانت مما تحبه النُّفوس أو تكرهها.

فإنْ قِيلَ لك لا جهاد إلاَّ بإجماع الأُمَّة، فاعْلَمْ أنَّ قائله يقول وبصراحة: لا جهاد أبداً.

وإنْ قِيلَ لك لا جهاد إلاَّ بأمير عامة، فاعْلَمْ أنه يقول إنَّ جهاد الأُمَّة المسلمة في أغلب عصورها لم يكن جهاداً عند هؤلاء.

---

[1] أخرج مسلم في «كتاب العلم» باب في الأمرِ بالقوَّةِ وتركِ العجزِ والاستعانةِ باللهِ وتفويضِ المقاديرِ لله. حديث رقم: ٢٦٦٤. عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ. وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».
وللشيخ حفظه الله تعالى، وزاده علماً وعملاً رسالة مستقلة شرح فيها هذا الحديث النَّبوي العظيم، تجدها في «منبر التوحيد والجهاد».

ولذلك فكلّ مَن قال إنَّ الجهاد ليس اليوم بل هو في الغد، لأنَّ الغد أفضل، فهو مُعلّقٌ للجهاد في أحضان خَلَفٍ له سيقولون قوله في الغد، وسيكون الغد في الحقيقة قيام الساعة.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾.

هذا حكمٌ قدريٌّ في هؤلاء أنَّ لا توبة لهم من هذا النِّفاق الذي فعلوه، فارتدَّ حُكْماً على قلوبهم، وسبب هذا الحُكم الخاص في هؤلاء دون غيرهم من المنافقين أنَّ نفاق هؤلاء له خصوصية الشرِّ، فإنَّ الله تعالى لم يحجبِ التوبة عن المنافقين، وفي هذه السورة «التوبة» ذكر توبة المنافقين فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]. وقال عن آخرين أكثر شرّاً منهم: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾[2]. وقد تقدم في سورة «الأحزاب» قوله تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾[3]. وقال سبحانه في سورة «النساء»: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ﴾[4].

لكنَّ شرَّ هذا النوع مِنَ النِّفاق يستحق هذا الختم الإلهي على قلوب أصحابه، لأنَّ مِنْ سُنن الله تعالى أنْ يعذب مَنْ علَّق إيمانه على آيةٍ أو فِعْلٍ ثمَّ حصلت له هذه الآية أو هذا الفِعْل فلم يُؤمن، ولذلك فإنَّ الله تعالى قال لعيسى بن مريم عليهما السلام حين سأل ربَّه المائدة بسؤال الحواريين له: ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾[5]، وهذا ما وقع مع أُممٍ كثيرةٍ طلبت الآيات فلما جاءتهم كفروا فكان عاقبتهم الهلاك، ولذلك رحم الله هذه الأُمَّة بأنْ منع عنها هذه الآيات كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾[6]، هذا النوع فيه معنى الاستهزاء والمكر، ولما يقع معنى المكر بربِّنا سبحانه وتعالى، وكذلك الاستهزاء فإنَّ هذا شديدٌ أكثر من غيره في المعنى، ولذلك علَّقَ الله هذا الحُكْمَ القَدري عند قوله: ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾، ولذلك مِنْ سِمات هذه الأُمَّة العظيمة أنها لم تطلب آية كما سألت الأُمم السابقة

[1] سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٠٦.
[3] سورة الأحزاب، الآية: ٢٤.
[4] سورة النساء، الآيات: ١٤٥-١٤٧.
[5] سورة المائدة، الآية: ١١٥.
[6] سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

مع قوله ﷺ عن أبيه الخليل: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ** إِذْ قَالَ: ﴿ **رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى** ﴾»[1].



[1] البخاري في «كتاب التفسير» باب ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾. حديث رقم: ٤٥٣٧. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب زيادةِ طُمَأْنِينَةِ القلب بتظاهُرِ الأدلة. حديث رقم: ١٥١. وفي «كتاب الفضائل» باب فضائل الخليل إبراهيم عليه السلام. حديث رقم: ٢٣٧٠.

إضاءة

اعلمْ أخي أنَّ كلَّ الأخبار الواردة في هذه السورة عن أسماء المنافقين لا تصح، فإنَّ التحقيق الحديث يُثبت ضُعف ونَكارة كلِّ الأخبار، ولم يصح في أسماء المنافقين التي وردت بها الأخبار إلاَّ اسم عبد الله بن أُبي بن سلول، وأما خبر ثعلبة بن حاطب فهو خبرٌ مُنْكَرٌ لا يُساوي الحبر الذي كُتب به، وكذلك ما ورد من اسم الجد بن قيس، ونبتل بن الحارث ورفاعة بن رافع، فكلها أخبار لا تثبت من الجهة الحديثية، ومما يجب على المُدرسين والوُعاظ والخطباء أن يتجنبوا ذكر هذه الأخبار وهذه الأسماء، فإنَّ في ذلك إساءة لأصحاب رسول الله ﷺ، واتهام لأسماءٍ مُعينة منهم بالنِّفاق دون دليلٍ يصح، ولا يجوز لأحدٍ أنْ يحتج بأنَّ هذه الأخبار مذكورة في كُتب التفسير والتاريخ والسيرة، لأنَّ هذه الكُتب لم يلتزم أصحابها الصِّحة، وهم قد أعذروا إلى الله بذكر الأسانيد، فدلَّ هذا أنَّ هذه الكُتب موكولة لأهل العلم بالأسانيد الذين يقدرون على تمّيِز صحيحها من سقيمها. أما أنْ يأخذها كلّ أحدٍ فيرويها للعوام على وجه الثبوت فهذا لا يفعله الأتقياء ولا العلماء، فوضع هذه الكُتب على هذه الصفة؛ أي روايتها بالأسانيد، يعني أنَّ المقصود بها هم أهل العلم لا العوام والجهلة، وأما الواعظ والخطيب فهو يلقي كلامه على كلِّ أحدٍ، فيأخذه السامعون على جهةِ التسليم بلا تمحيصٍ، وهنا يظهر الفرق بين ما فعله أهل العلم من رواية هذه الأخبار بالأسانيد وبين غيرهم ممن يُلقيها على وجه التصحيح لها.

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[1].

المنافق بخيلٌ، يمنع ماله ولا يُنفقه إلاَّ على ما يحقق له مقاصده الدُّنيويَّة، فهو لا يُؤمن بالله ولا باليوم الآخر، وهو يرى في حبسه المال قيمة لنفسه، وأهمية لأفعاله ولذلك فهو يجزم في نفسه أنه يملك قراراً في حركة الجهاد، فإنْ رأى في المؤمنين حاجة وفاقة في جهادهم فإنه يزداد تيهاً في نفسه أنه هو مَن يملك إزالة هذه الفاقة عنهم، فإنْ رأى غيره قدَّم القليل مِنْ وُسْعِهِ وطاقته استهزأ به، وذهب يرميه بقلة النفع فيما يعمل، وجعل بعد ذلك يطعن في نيته، فإنْ رُوجِعَ لِمَ أنتَ لا تسدُّ الخلة والحاجة جعل يلقي عليهم كلام الفخر الذي ينطوي على إدراكه الأكبر، وفقهه الأعظم أنه على غير ما يفهم هؤلاء المساكين من النَّاس، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ

[1] سورة التوبة، الآيتان: ٧٩ـ٨٠.

كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾[1]. والإيمان هنا ليس قاصراً على الاعتقاد، بل هو العمل الإيماني كذلك، فهم يتهمون أيّ عملٍ إيمانيٍ يأتي من غيرهم أنه سفاهة وجهل، ومبعثه سذاجتهم وقلة وعيِّهم على الحياة، فليس منهم إلاَّ حبس الخير، لأنهم لا يستطيعونه، لما في قلوبهم من جبن المُواجهة، وبخل العطاء، وفي استهزائهم هذا غِطَاءٌ لما يمارسونه ويقعون فيه من الجبن والبخل، حتَّى يشغلوا الآخرين بالردِّ والدفع عن أنفسهم، أو التفسير لِمَ لا يأتون بالأفعال الكِبار، فما هم إلاَّ فقراء ضعفاء وإنما يعذرون إلى الله تعالى.

دوماً يقول هذا المنافق: انظرْ إليهم ماذا يفعلون، لو كنتُ أنا لَرأيتَ فِعْلِي، والذي يفعله المؤمنون هو وُسعهم بما قدروا عليه من طاقة، وبما هو مأذون سَنني قَدري فيه، لكن المنافق يحبس قُدرته التي لديه، ولا يتقي الله في إعذار الآخرين بأنَّ هذا وُسعهم.

أما إنْ أتى الفِعْل كبيراً فحينها الطعن في النيَّات، وقذف ما في القلوب من المقاصد، وأنه ما قصد منه إلاَّ الاستعراض وإظهار الذات، فلا مفر للمؤمنين من هذه الألسن الخبيثة، فالفعل القليل لا نفع منه، إذ لو تركه صاحبه لما حصل نقصٌ، والفعل الكبير لصاحبه نيَّةٌ سيئةٌ غير مخلصة.

هذا الشر في تفسير أفعال المؤمنين مضطر لكلِّ ما يقولون به من الطاعات، فهو منهجٌ مُتبعٌ وسبيلٌ مسلوكٌ، وما على المؤمنين إلاَّ الإعراض عنهم، والاستعانة عليهم بربِّ العباد.

منهج الهدم والتدمير بحجة النقد والتقويم، وسِمة القعود عن المكارم، وإلغاء صفة الخير عن الآخرين، لعلَّ النَّاس يأتون إليه طالبين منه قيادة السفينة، وإدارة المعركة، ولكن هيهات وقد قال الله لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡ ﴾[2]، فإنَّ مَنْ يخضع لابتزاز هؤلاء عاصٍ لله، مفسد لطريقته وعمله، ومِنْ عجيب الأمر أنَّ هذه الكلمات الكبيرة لا تجدها إلاَّ عند أصحاب الإرادات الميتة والعزائم الواهنة، لأنَّ هؤلاء يتكلمون في الفراغ، فلا واقع عاشوه ليعلموا صعوبة البناء والفعل، ولا مِنْ مُرَاجِعٍ لأقوالهم بعد ذلك ليُحاسبهم مُقارناً بين هذه الكلمات وقلَّة الأعمال، وستجد مِنَ الجهلة الحالمين مَنْ يستجيبُ لهم، ويتأثر بإشاعتهم.

هذه نفوسٌ تُتْقِنُ رَصْدَ الآخرين بالشرِّ، وتلمح بوادر الأفعال، فتُلاحق كلَّ خطوة، وهي تجلس بعيدة، مختبئة وراء جُبنها وبخلها، حتَّى إذا وقع فعلٌ يكشف تخلفهم ونكوصهم أطلقوا كلمات العُفُونَة ليطمسوا صورته الجمالية، وليذهبوا عنه بهاء النُّور الذي يحقق الإقتداء به مِنْ قِبَلِ الآخرين، فتتلاشى حالة المقارنة بين نورُ الفِعْلِ الإيماني مِنْ غيرهم وبين ظلمة النكوص مِنْ أنفسهم، ويحل محلها صور أُخرى منها: المُدافعة عن صحة الفِعْلِ القليل أو الكثير، وخوف الكثيرين من تُهمة الرياء بممارسة المنع والترك للفعل، واستحياء صاحب القليل وانزوائه عنِ المُبادرة، فتتكرس حقيقة المنع،

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٣.

[2] سورة التوبة، الآية: ٥٥.

وتنتشر مبادئ الانزواء، وحينها لن يسكت هؤلاء، بل لهم سيوفَ شرٍّ أُخرى، لأنَّ الشرَّ لا يسكت حتَّى يحكم قبضته، فالشيطان لا يسري إلى النَّاس دفعة واحدة، بل هو يتقدم إلى مُراده مِنْ خلالِ خطواتٍ مُتتابعةٍ. كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾[1].

منافقون وعدوا الله لئن أعطاهم سيتصدقون، فبخلوا، فتقدم الذين لم يروا العطاء مشروطاً بالغنى، بل هو بما يملكون في هذا الحال الذي دُعوا إليه، فلم ينتظروا غنًى للصدقة، لأنهم ﴿ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾[2]، ويقتدون بسيد الكُرماء في تاريخ أئمتهم؛ إبراهيم الخليل حيث قال الله تعالى عنه: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ ﴾[3]، فاجتمع في هذا القول صفات، أنه ذهب روغاناً أي مُسرعاً وبكتمانٍ، وذهب على هذه الصفة إلى أهله لا إلى غيرهم، وهذه صفة عطاء الصادقين، فمشوا على سُننه، وهي صور قرآنية تعرض للمؤمنين حتَّى يحصل لهم المقارنة بينهما، فالمؤمن يُنفق مما آتاه الله على قدر ما عنده، قليلاً أو كثيراً، والمنافق يشترط على ربِّه الشروط، ثم يبخل، ومن أجل أن يتقي الملامة يُسارع بقذف العاملين والاستهزاء بهم ورميهم إما بالنيَّات إن لم يجد مَطْعَناً ظاهراً، أو بالكمية إنْ كان الفعل أتى قليلاً على قدر وُسع فاعله.

تقدم طعنهم في إدارة الصَّدقات، حين لمزوا النَّبيَّ ﷺ فيها، ثم جاء بخلهم بها، وقد يتسترون بالبخل أنها لا تقع على الوجه الذي يحبون، ثم ها هم يطعنون في المُسارعين إلى الطاعات بأدائها، فاجتمعت فيهم حلقات الشرِّ، من أجل تطويق الخير مِنْ كُلِّ جوانبه، وعلى أيِّ صفةٍ كان، وما ذلك إلاَّ لشرٍّ في قلوبهم، وإشاعة للفاحشة في المؤمنين.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾.

هذه صفةُ المؤمنين العُقلاء، فهم يرون إمكانية الطاعة على أيِّ حال، فإنَّ الإنسان لا يخلو مِنْ قُدْرَةٍ، قليلة كانت أو كثيرة، ولذلك يأتونها، ولا يتعللون بالقلَّة وعدم الوُسع، ولا يُسَوِّفُونَ الطاعة حتَّى تأتيهم القُدرة على الوجه الذي يؤملون، فمالك الدرهم بوسعه أن يأتي بالطاعة في إنفاق نصفه، وحاله كحال مَن يملك الألف، فإنَّ الإنسان المؤمن العاقل يُعَوِّدُ نفسه الطاعة في العُسر واليُسر، وفي الغنى والفقر، وفي السعة والضيق، حتَّى تكون له صفة لازمة يراها الله فيه فيُسميه بها كما قال رسول الله ﷺ: **«وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً»**[4]،

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٦٨. سورة البقرة، الآية: ٢٠٨. سورة الأنعام، الآية: ١٤٢.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١١٤.

[3] سورة الذاريات، الآية: ٢٦.

[4] أخرجه مسلم في «كتاب البر والصلة» باب قُبْح الكذب وحُسنِ الصِّدقِ وفضلِه. عن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: **«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ. فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ. وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ. فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ. وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً»** حديث رقم: ٢٦٠٧.

وكذلك المُتصدق والذاكر والساجد، ولقد كان عبد الله بن الزبير يُعرف بكثرة الطواف حتَّى إنه كان يطوف سباحةً حين تغمر المياه بيت الله والكعبة، وقبول العمل عند الله إنما يكون بقدر إخلاص صاحبه، وإمامته فيه كما قال تعالى: ﴿ **لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[1]، فالذي يرجو رضى الله، ولا يهمه ما يقوله النَّاس يبذل الجُهد والوُسع ويطمع أنْ يُبارك الله فيه، وهذا في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياة، وفي كلِّ عملٍ مِنْ أعمال الطاعة.

يُقابِلُ هذا الفهم الإيماني جهلٌ وأحلامٌ، هي الأوهام حين يعلِّقُ بعضهم الطاعة على استكمال القُدرة عندهم على وجهٍ خياليٍّ، كمَنْ يُعَلِّقُ الجهاد على بلوغ المسلمين قُدرة الكافرين بل والزيادة عليهم فيها، وتصور حدوث هذا بعيداً عن المُدافعة ابتداءً بقدر الوسع الذي تملكه وَهْمٌ لا وجود له، وضربٌ مِنْ ضُرُوبِ الجهل في سنن البناء والمُدافعة، فإنَّ القُدرة تُبْنَى مِنْ خلال حركة المُدافعة، وتتصاعد بطريق سَنني في داخل الحياة لا خارجها.

﴿ **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾.

منشأ السخرية احتقار واستصغار الآخر، فإنْ سخر من عمله فهو دالٌ على احتقاره وتسفيه عمله، فالمنافقون سخروا مِنْ فِعْلِ المُتصدِّقين، أي استصغروا وسفهوا واحتقروا عملهم، وهذا الفعل منهم منشؤه جهلهم بمعاني الأعمال في نفس الله تعالى، ذلك بأنَّ الله تعالى ربُّ القلوب، فسبحانه الغني، ولا يطلب الصدقة من العبيد لحاجته إليهم، فيفرح فرح الفقير المحتاج بالكثير إنْ وقع في يده، بل إنه سبحانه وتعالى يريد أنْ يرى قلبَ العبد، ومدى استجابة هذا القلب له، وهل فيه محبة ما يحبه الله تعالى، والأعمال لها قيمتان؛ **أولهما:** بكثرتها، فإنْ الله يحب كثرة الذكر والصدقة والأعمال الصالحة، ودعا عبيده لهذا، **والقيمة الأخرى:** بما فيها من إيمان وتقوى واحتساب، ولذلك فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال عن أصحابه: «**دَعُوا لي أَصْحَابِي، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً لَمْ يَبْلُغْ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**»[2]، وهذا لمعاني؛ **منها:** تقوى هؤلاء في هذه الأعمال، واحتسابها فيها لله تعالى، **ومنها:** أنها على معنى الإمامة في الفِعل كقوله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**»[3]، وهذه يُقصد بها السنَّة العملية لا التشريعية، وسبب الحديث دالٌ على هذا فإنَّ فيه: أنَّ قوماً قدموا

---

[1] سورة الحديد، الآية: ١٠.

[2] الهيثمي في «مجمع الزوائد» عن أبي هريرة ﷺ. حديث رقم: ١٦٣٧٨. وقال: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عاصم بن أبي النجود وقد وُثق.

[3] مسلم في «كتاب الزكاة» باب الحثِّ على الصَّدقة ولو بشقِّ تمرةٍ أو كلمةٍ طيِّبَةٍ وأنها حجابٌ من النَّار. عن المُنذر بن جرير عن أبيه. حديث رقم: ١٠٠٧.

على رسول الله ﷺ مجتابِي النِّمَارِ ـ أي لفقرهم وحاجتهم ـ عامتهم من مُضَرَ، فحض رسول الله على الصدقة وقال: «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوْبِهِ مِنْ صَاعِ بُرِّهِ مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ** ـ حتى قال ـ **وَلَوْ بِشِقِ تَمْرَةٍ**» وهذه سنَّة تشريعية، وهي حقٌّ لله ولرسوله ﷺ، فجاء رجلٌ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ ـ وهذه سنَّة عملية ـ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ...، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**...»، وهذا لا يعني أنَّ رسول الله ﷺ قالها على جهة المدح للُمتصدِّق الأول، لأنه بفعله قد حصل الإقتداء، كما أنَّ الأمر في الشرِّ سواء، فإنَّ كلَّ قاتلٍ في الدُّنيا عليه وِزر جريمته، وعلى ابن آدم الأول ـ أي القاتل ـ كِفْلٌ منها كما في الحديث الشريف[1]، ولذلك لا يمكن لأحدٍ أن يبلغ مرتبة أصحاب رسول الله ﷺ في الأجر حتَّى لو كان في عمل من بعدهم معنى التقوى الذي كان في قلب الصَّحابي، لأنَّ الصَّحابة هم أئمة، وغيرهم يُقتدى بهم، فللصَّحابة ﷺ أُجورَ أعمالهم، وأجورَ النَّاس من بعدهم، وكلّ هذه الأُجور هي كذلك لسيد الخَلق محمد ﷺ، ومنها: أنَّ الأعمال تحب عند الله تعالى على قدر جُهْدِ أصحابها، فإنَّ صدقة الغني محبوبة عند الله تعالى، لأنه يخاف الفقر، وصدقة الفقير محبوبة عند الله تعالى لأنه يُعاني الفقر، فلكلٍّ واحدةٍ معنى، وهو محط نظر الله تعالى.

ومنها: أثرُ هذا العمل، فإنَّ مَنْ تصدقَ على رجلٍ لينقذه مِنَ الموت فكانت نجاته أحب عند الله تعالى لمن يعطي مسكيناً يملك سفينة يقتات منها كما قال تعالى: ﴿ **أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ** ﴾[2]، ولذلك فإنَّ من معاني فضل أصحاب النَّبيِّ ﷺ على من بعدهم كائناً مَنْ كان أنَّ أعمالهم كانت لإرساء قواعد الدِّين، فهُمُ الذين قال عنهم سيدنا وسيدهم رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ**»[3]، وفضل السابقين منهم أعظم مِنْ فَضْلِ اللاحقين.

لهذه المعاني وغيرها كان فضل أصحاب النَّبيِّ ﷺ على غيرهم، وأنَّ ما هم فيه مِنَ المقامات لا يمكن لأحدٍ أن يبلغها كائناً مَنْ كان، لكن للنَّاس أن يلحقوا بأماكنهم في الجنَّة عن طريق الحبِّ لقول النَّبيِّ ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[4]، وسرُّ هذا العملِ العظيمِ، أي الحب، أنَّ منشأه على المُشاكلة، فإنَّ المرءَ لا يحب أحداً إلاَّ لاجتماعٍ بينهما على معانٍ نفسية وخُلقية، وكلما كانت هذه المعاني أكثر

---

[1] عن عبدِ اللهِ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تُقتَلُ نَفسٌ ظُلماً إلاَّ كَانَ عَلَى ابنِ آدَمَ الأوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، لأَنَّهُ أَولُ مَنْ سَنَّ القَتْلَ**». أخرجه البخاري في «كتاب أحاديث الأنبياء» حديث رقم: ٣٣٣٥، أطرافه في: ٦٨٦٧، ٧٣٢١. ومسلم في «كتاب القسامة والمحاربين والقِصاص والديات» باب بيانِ إثمِ منْ سنَّ القتلَ. حديث رقم: ١٦٧٧.

[2] سورة الكهف، الآية: ٧٩.

[3] أخرجه مسلم في «كتاب الجهاد والسيِّر» باب الإمدادِ بالملائكةِ في غزوةِ بدرٍ وإباحةِ الغنائم. حديث رقم: ١٧٦٣.

[4] أخرجه البخاري في «كتاب الأدب» باب علامةِ الحب في الله لقوله تعالى: ﴿ **إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ** ﴾ حديث رقم: ٦١٦٨، ٦١٦٩. ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب المرء مع من أحب. حديث رقم: ٢٦٤٠.

وأعظم كلما كان الحب، ولذلك فلا يظننَّ ظانٌ أنَّ الحبَّ مشاعر نفسية فقط فإنَّ الله يقول: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[1]، فليسعَ المرء جُهده أن يعمل مُشابهاً للحبيب المصطفى ﷺ وأصحابه حتَّى يصدق في حبِّه.

﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾.

لجهل هؤلاء المنافقين بهذه المعاني فهم يلمزون صدقات الأغنياء، ويسخرون من صدقات أصحاب الجُهد، فإنَّ الله يسخر منهم سبحانه وتعالى، فهم أصحاب جهلٍ، وتألٍ على الله تعالى.

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾.

سورة يفتتحها الله بقوله سبحانه: ﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾[2]. ويختتمها بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[3]، ويكون أكثر ما بينهما حديثاً عنِ المنافقين لجديرٌ بأنْ يعلمَ النَّاس، كلّ النَّاس عظمة رسول الله ﷺ ورحمته بأُمَّته، فإنَّ هذا القلبَ النَّبويِّ العظيم، والذي أعظم صفاته أنه رءوفٌ رحيمٌ حقيقٌ بهذه الأُمَّةِ أنْ تُصلي عليه في العَشي والإِبْكَارِ، وأنْ تحبَّه أكثر مِنْ حبِّهم لأنفسهم وأهليهم وأموالهم.

هذا العظيم في كلِّ جانبٍ إنسانيٍّ، هو أعظم ما يكون في رحمته على أُمَّته، وعفوه عنهم، وشفقته عليهم، فهو الذي يرى كلَّ هذا الصنيع مِنَ المنافقين، فهم يلمزونه، وينفرون النَّاس عنه، ويُثبطون الجموع أنْ تلتحق به، ويسخرون مِنْ أتباعه، وكلّ هذا يصل إليه، ويعلمُ مكرهم وخيانتهم، وكيدهم وسفاهتهم، وكذبهم ونفاقهم، وأمانيهم في هزيمة هذا الدِّين، ومع ذلك كلِّه استغفر لهم، لا مرةً ولا مرتين، بل سبعين مرة، وحين يستغفر لهم الكثير يُقال له: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾[4]. يذهب بقلبه الروؤف الرحيم فيستغفر لهم سبعين وسبعين، فأيُّ قلبٍ حَوَى هذا الصدر العظيم؟، وأي رحمةٍ ورأفةٍ سكنت في هذا القلب الكريم؟.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ٣١.
[2] سورة التوبة، الآية: ١.
[3] سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
[4] سورة التوبة، الآية: ٨٠.

إنه قلبُ الحبيب محمد ﷺ، سيِّدُ الخَلق، وإمام الأنبياء، وحبيب وخليل ربِّ العالمين، صاحب لواء الحمد يوم القيامة[1]، فله الشفاعة الكُبرى يختص بها يوم قِيام النَّاس لربِّ العالمين تحت الشمس، وهو الذي قال الله له: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ ﴾[2]، هكذا سعي الربِّ جلَّ في عُلاه ـ سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكة والروح ـ في إرضاء عبده محمد بن عبد الله.

لذلك ليس عجيباً أنْ تختم السورة بقول ربِّ العِباد: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ﴾.

أيُّ رجلٍ رءوف رحيم هذا الحبيب يا عبد الله؟ تكاد نفسه تذهب حسرات على المُعرضين عنِ الهُدى، فإنه يدعوهم إلى جنَّةٍ عرضها السموات والأرض، وهم يتفلتون إلى النَّار يتهافتون فيها تهافتَ الفَراش[3].

ويقفُ على موتى المنافقين ويُصلي عليهم، وحتَّى إنه لَينزع قميصه الشريف، والذي في طِياته عَرقه الشافي للأمراضِ والأوجاع فيُلبسه زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول[4].

صدق الله العظيم حين سمَّاه: ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧ ﴾[5].

لقد كان المُنافقون يرون هذا كلَّه مِنْ رسول الله ﷺ، فيعلمون رأفته ورحمته وشفقته، ومع ذلك لم يَكُنْ منهم إلاَّ الإعراضَ والنِّفاق وضلالات الأعمال، فيمضون في غيِّهم وكُفرهم وفسادهم،

---

[1] عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، قال: قال رَسولُ الله: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ، آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ». «سنن الترمذي» حديث رقم: ٣٧٦٥ . قال أبو عيسى: وَفِي الْحَدِيثِ قِصَّةٌ. وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ.

وقد روي بهذا الإسناد عن أبي نضرة عن ابن عباس عن النَّبيِّ ﷺ. وهو عند أحمد في «المسند» حديث رقم: ٢٥٤٦، ٢٦٩٢. وإسناده صحيح، أبو نضرة: هو المنذر بن مالك بن قُطعَة، بضم القاف وفتح الطاء والعين، العبدي، وهو تابعي ثقة، وثقه أحمد بن حنبل، ويحيى بن مُعين، وترجمه البخاري في الكبير ٣٥٦ـ٣٥٥/١/٤. والحديث في «مجمع الزوائد» ٣٧٢: ١٠ـ٣٧٣. ونسبه لأحمد، وبعضه لأبي يعلى، وقال: «وفيه علي بن زيد، وقد وُثق على ضعفه، وبقية رجالهما رجال الصحيح». وانظر الحديث ١٥ في «مسند أبي بكر».

[2] سورة الضحى، الآية: ٥.

[3] عن أبي هريرةَ هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَقْتَحِمُونَ فِيهَا»**. البخاري في «كتاب الرقاق» باب الانتهاءِ عنِ المعاصي. حديث رقم: ٦٤٨٢. ومسلم في «كتاب الفضائل» باب شفقَتِهِ ﷺعلى أُمَّتِهِ ومُبالغتِهِ في تحذيرِهِمْ ممَّا يضُرُّهُمْ. حديث رقم: ٢٢٨٤، ٢٢٨٥.

[4] عن عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيَّ، ابْنُ سَلُولَ، جَاءَ ابْنُهُ، عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إِلَى رَسُول اللهِ. فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ. فَأَعْطَاهُ. ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ. فَقَامَ رَسُولُ اللهِ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ. فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُول اللهِ . فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ. إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً. وَسَأَزِيدُهُ عَلَى سَبْعِينَ»** قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ. فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة الآية: ٤٨]. البخاري في «كتاب الجنائز» باب الكَفَنِ في القميصِ الذي يُكَفُّ أو لا يُكَفُّ، ومَنْ كُفِنَ بغيرِ قميصٍ. حديث رقم: ١٢٦٩. أطرافه في: ٤٦٧٠، ٤٦٧١، ٤٦٧٢. ٥٧٩٦. ومسلم في «كتاب فضائل الصَّحابة» باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه. حديث رقم: ٢٤٠٠.

[5] سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

وهو لا يزداد إلاَّ سعةً لهم رجاءَ الخير لهم، ورجاءَ نجاتهم مِنْ عذابِ الله يوم القيامة، وهكذا النَّفس الطيبة، تستبعدُ أنْ تخلو هذه النُّفوس مِنْ خيرٍ يردعها عَنْ غيِّهَا، ويردها إلى الحقِّ يوماً، لكنَّ الله تعالى هو ربُّ القلوب، هو عليمٌ بذات الصدور، ويعلمُ السِرَّ وَأَخْفَى، قد عَلِمَ سبحانه وتعالى قُبْحَ هذه القلوب، وقَذَارَةَ هذه النُّفوس، فهم أهل شرٍّ كامنٍ لا يَرِيم[1]، وضلالٍ مُقِيمٍ لا يتحول، فلذلك أخبر حبيبه أنْ لا تذهب نفسه عليهم حسرات، فهذه قلوبٌ خُتِمَ عليها بالشرِّ، وأُقْفِلَ عليها بأقفالٍ مِنْ كُفرٍ لا يُفَكْ، ولذلك أمَرَهُ بِأَنْ لا يستغفرَ لهم، لأنهم لا يستحقون ذلك، وأمَرَهُ أنْ لا يقوم على قبورهم، لأنه أكرم أنْ يَقِفَ على قبورِ أقوامٍ كفرتْ قلوبهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[2].

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾[3].

النُّفوس تفرحُ لما يُلائِمُهَا، فهي مشدودةٌ إلى طبائعها، فتنجذبُ إلى ما ترغبُ فيه، وتنفرُ عما تكرهه، ولما كانت نفوس المُنافقين خبيثة، تصغر أمامَ المكارم والمعالي فهي تفرح بالجلوس في مقاعد الجبن والكسل، وتنفرُ مِنْ مُرافقةِ رجالِ المكارم إلى مواطن العِزِّ والرِفْعَةِ والشَّهادةِ.

فرحهم هذا كان جامعاً لخصال السوء، **منها**: جلوسهم مقاعد الجبن مع الخالفين، **ومنها**: ترك مُصاحبة إمام البشرية وهو ساعٍ لمهمات الرسالة في تبليغ هذا الدِّين ونشره في النَّاس، **ومنها**: كراهيتهم المشقات، وهي سنن البلوغ للمكارم، **ومنها**: تثبيطهم الآخرين عن السعي للمكارم، **ومنها**: جهلهم وقِلَّة فِقْهِهِمْ في معرفةِ خيرِ الخَيَارَيْنِ بين راحةِ الدُّنيا أو راحةِ الآخرةِ.

الصورة في هذا الحدث في المسير إلى تبوك كالتالي: كان الحرُّ شديداً مُلْتَهِباً، وفيه عسرة قاسية، وعلى الرمال رسول الله ﷺ وأصحابه يسعون إلى تبوك، يعطشون مِنْ قِلَّةِ الماء فيرون المعجزات النَّبويَّة، حيث يشربون الماء المُبارك القادم مِنَ الغَيْبِ بلا اعتصارِ سُحُبٍ، بل هو يخرج من بين يدي النَّبيِّ ﷺ المُباركتين، ويجوعون فيأكلون من طعام الغيب من قوله تعالى: ﴿**كُن فَيَكُونُ**﴾[4]، وهناك

---

[1] الرَّيْمُ: البَراحُ، والفعل رامَ يَرِيمُ إِذا بَرِحَ يُقال: ما يَرِيمُ يفعل ذلك أَي ما يَبْرَحُ. «لسان العربي» لابن منظور. طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت (١٩٩٣م).

[2] سورة التوبة، الآية: ٨٤.

[3] سورة التوبة، الآيات: ٨١ـ٨٥.

[4] سورة البقرة، الآية: ١١٧. سورة آل عمران، الآية: ٤٧ و ٥٩. سورة النحل، الآية: ٤٠. سورة مريم، الآية: ٣٥. سورة يس، الآية: ٨٢. سورة غافر، الآية: ٦٨.

آخرون قصرت بهم هِمَمهم عن هذه المكارم والخيرات، فلاذوا كالفِئران إلى جُحُورِهِمْ، وعلى وجوههم بسمة الفرح أنهم فلتوا مِنْ مشقة الرحلة وعَناء الجهاد.

أهل المسير يفرحون بأنهم مع رسول الله ﷺ، وأنهم يخوضون في الرضوان ومدد الغيْبِ، لأنهم يجاهدون، وأهل القعود يفرحون بأنهم جلسوا مع الخالفين، فلم يُصبهم حره ولا مشقته ولا عناؤه.

هذه قسمة كلِّ فريقٍ، وكل يحصِّل ما يسعى إليه، فالعيش مع الغيب وعطاء الله وبلوغ الغايات يكون بالخوض في الحر والتعب والعُسرة، والعيش مع القاعدين عاقبته جهنَّم وبئس المصير، وكلّ يرى الصورة من خلال قلبه، فالمؤمنون يغيب عنهم الحر والتعب والمشقة وتبقى المُبشرات والمعجزات والنَّصر والتأييد، والمنافقون لا يرون إلاَّ التعب والعُسرة ويذهب عنهم النُّور كما قال تعالى في المثل المائي: ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ ﴾[1]. فهم لا يروا إلاَّ الظلمات والرُعود والبُروق في صيب الماء والخير، وعميت أبصارهم عن رؤية ما فيه الحياة والنُّور والخير والنَّماء، فهذه طبيعة الخير وصِفته، صيبٌ نافعٌ لكن فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ، فالمؤمنون يغيبُ عنهم كلّ ما فيه إلاَّ النُّور، والمنافقون يغيبُ عنهم كلّ ما فيه مِنْ نورٍ وتبقى الظلمات والرُعود والبُروق.

﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ ﴾.

هذه من المرات القلائل، بل والنادرة التي تفلتُ من ألسنة المنافقين الكلمات التي لا تبريرَ ولا التواءَ ولا كذبَ، فهم هنا كشفوا مشكلتهم مع رحلة النُّور إلى تبوك، وبَانَ بأنَّ كلَّ مواقفهم قد تعلقت بسبب المشقة، فلا خوف من فتنة النِّساء، كما ادعى بعضهم، ولا لأنَّ الجهاد غنيٌّ عنهم، ولا كلّ تبريراتهم الكاذبة، بل إنَّ عِلَّةَ عدم النفير والركون إلى القعود هو عدم استعدادهم للبذل وقتَ الحر مِنْ أجل دين الله تعالى، فهم إما مَيتُ الهِمَّةِ، لا تنشطُ إرادته لحالٍ، ففي الحر يطلبُ البرد، وفي البرد يطلبُ الحر، فَهِمَّتُهُ للآخرة لا تنشطُ قط، لأنه لا يؤمنُ بها، ولا يرجو البعث والنشور، ولا لقاء الله الرحيم الغفور، ولكن لو دُعِيَ لدنيا يراها، وشهوة يبصرها نفرَ إليها مُسْرِعاً، لأنَّ حاله حال الدواب التي تنثار لما ترى وتشم وتلمس، وإنْ خُوطِبَتْ خِطَابَ القَلْبِ لما استَجَابَتْ، فهؤلاء لا ينفرون للجهاد لا في حرٍ ولا في بردٍ، وينفرون للدُّنيا في الحَرُورِ والزَّمْهرير[2]، لأنَّ القلوب تنشطُ إلى ما تحب وترغب.

وهناك أقوامٌ يريدون الجهاد على مِقاس جهادهم، ولظروفٍ تتلاءم مع رغباتهم، فإنْ جاء الجهاد على غير ما يريدون نفروا منه وشتموه؛ أو أعرضوا عنه أنه غير مُلائِمٍ لهذا الوقتِ وهذا الحالِ، والنَّاس في هذا مذاهب في الحب، فمنهم مَنْ يريد الجهاد بعدَ المال، ومنهم مَنْ يُريد الجهاد بعد القوة

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٩.

[2] الحَرُورُ: هي الريح الحارة بالليل، والريح الحارة بالنهار تُسمى السَّمُوم. والزَّمْهرِير: شِدَّة البرد.

والسلطة، ومنهم من يريد الجهاد بعد الانتهاء من بناء الحياة في كلِّ صعدها؛ مِنْ وَلَدٍ ومالٍ وسُلطة، ومنهم من يريد الجهاد إنْ كان لأجنبي لا لِبَنِي جِلْدَتِهِ ولِسَانِهِ وَقَوْمِهِ، وهكذا يبقى الجهادُ عارياً لا جَمَالَ فيه عند هؤلاء إلاَّ ما يكسوه من رغباتهم وشهواتهم.

غزوة تبوك كانت رحلة النهاية النَّبويَّة، حيث وضعت الصناعة النَّبويَّة العظيمة والمحكمة في أَوَجِّ ابتلائها، فتقشرتِ الأصباغ الزائفة، وبانتِ المعادن النَّفيسة، في الأكثرين من أصحاب رسول الله ﷺ، فكانت هذه الرحلة هي وصية الحبيب لأُمَّتِهِ أن ينفروا خِفافاً وثِقالاً، في الحرِّ وفي غير الحر، وفي المَنْشَطِ والمَكْرَهِ، فإنْ فعلوا ذلك كانوا همُ الوُرَّاث الحقيقيين لهذه الحياة المُباركة التي عاشها رسول الله ﷺ وأصحابه، وإنْ مالوا عن ذلك المَيْلَ اليسير كان في ذلك العقوبة لهم، ولذلك لِيتأمل النَّاس في نفوسهم، صادقين في عرض هذا الدِّين وحقيقته عليها، فما الذي يمنعهم مِنَ الجهاد؟ عندما يُربي أحدهم جماعته وإخوانه على أنَّ أقصى ما يطلب منهم أنْ يعبدوا الله في أنفسهم بأعمالِ النُّسُك، وهم مُقيمون في حياتهم على ما عليه أهلِ الدُّنيا مِنْ غيرهم، بل هم أغلب منهم وأتقن، فهل هذا حين يخلو لنفسه ويصدق معها أنْ لَوْ طُلِبَ منهم الجهاد الذي يُودِي بكلِّ تجارةِ أتباعِهِ، وبكلِّ مناصبهم، وبكلِّ أموالهم، ويعرض مصالحهم للفتن والضيَّاع فهل تظنَّ يا عبد الله أنهم سيستجيبون له؟!.

هو يعلم أنهم لن يفعلوا، ولكن هل يقدر أن يقول أنَّ هذا هو السبب الذي جعله يعرض عن سبيل الجهاد بصفته أمراً ربَّانيّاً وحلاً وحيداً لمشكلة الهَوان والذلة التي تعيشها الأُمَّة، الجواب: لا، فما الحلُّ إذاً؟.

الحلُّ هو أن يتستر بالفقه، وبالتأويل، وبمصالح الأُمَّةِ، ولكن لابدَّ أن تفلتَ مِنَ القومِ مثل هذه الكلمات: **لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ**.

لأنَّ هذه الكلمة هي عينها ما يقول القوم اليوم، حين يتهمون المجاهدين أنهم يعرضون مصالح النَّاس للخطر، ويجلبون عليهم المصائب والمشاكل، ولذلك يقولون: **لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّ**، لأنَّ الجهاد عند هؤلاء حُلْمٌ جَمِيلٌ، ورحلةُ بِنَاءِ قصيدةٍ تهزُّ مشاعر السامعين بقوة بيَّانِها ولُغَتِهَا.

ثمّ يتساءل النَّاس بعد ذلك: أين جيل الصَّحابة! وكيف يُصنع! وكيف نُعيد إحياء الصَّحابي الأول! ويذهب المجيبون مذاهب التِيهِ، وأجوبة الجمال الذهني المُمتع، ويجتهدون في صياغة مقدمات حالمة في نتائج أبعد عنِ الأحلام، والحلُّ يسيرٌ مُدرك في كتاب ربِّنا: هو أن ينفروا في الحرّ، وخِفافاً وثقالاً، في العُسر واليُسر، ويصرخوا في النَّاس هذا الصريخ بلا كَلَلٍ، فإنْ أتى القليل، وهذا ما سيأتي فِعْلاً، فهم فقط مَنْ يصلح بهم تحقيق إذهاب الغربة الثانية، كما أُذهب بالجيل الأول الغربة الأولى، وبهؤلاء القلَّة يتحقق الوعد الإلهي ببقاء الطائفة المنصورة والتي يُقاتل آخرها المسيح الدجال.

إنَّ النَّاس لم يفهموا بعدُ أنَّ الجهاد غير محبوبٍ للنُّفوس كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾[1]، ولم يفهموا بعدُ أنَّ الجهاد يُصادم كلِّ رغبات الإنسان، وأنَّ الإيمان والعمل به سيُجابه الكثير من عوارض النُّفوس، وستسري هذه العوارض النَّفسية مُتسللة إلى العقول لِتحولها إلى خطابٍ فيه مَسْحَةٌ مِنَ العقل، وغلالة من الفقه، فإنَّ المرءَ لا يجاهد حتَّى يتجاوز كلَّ هذه العوارض وظِلالها، وإنَّ مَنْ لا يجاهد يعني لُزُوماً أنه انهزمَ أمام شهواته، وانهارَ أمام تحديات الجهاد في نفسه وواقعه، فإنْ أقرَّ بهذا كان فيه الرجاء أنْ يؤوبَ ويتوبَ، لكن إنْ ساير نفسه إلى نَقْلِ هذه العَوَارِضِ إلى عَقْلٍ يُبَرِرُ، وفِقْهٍ يَؤَوِلُ، فإنَّ رَجَاءَ التوبة يكون بعيداً، لأنَّ انتصار الشَّهوة على الجهاد معصية يُدرك المرء حقيقتها، فإنْ تحولتِ الشَّهوة إلى فقهٍ وعقلٍ صارت بدعة، والتوبة من البدعة ليس سهلاً في تاريخ البشرية.

النِّفاق في زمن رسول الله كانت ملامحه النَّفسيَّة واضحة جليَّة، وخطابه لا يمكن أن يتقنع بالنص، وإنْ كان فيه ملامح الخطاب العقلي قليلاً كقولهم: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، فهذا يمكن لقائله أن يجد مُبَرراً عَقْلياً لدعوته فإنه لو قال: أجِلُوا الغزوة حتَّى تينع الثمار، ونُكْفَى مِنَ الأموال، فتقوى أجسادنا، ونذهب للقتال، ونحن في قوةٍ ومددٍ يكون خيراً لنا لتحصيل الفوز وما نؤمل، لَوَجَدَ مَنْ يُبَرِرُ له ويَسْكُتْ عنه، وإنْ كان الخطاب نفسياً واضحاً كما تقدم، فإنَّ مَلاَمِحَ الخَوْفِ مِنَ المشقة هي الأجلى والأوضح، وكذلك كان في خِطابهم تسترٌ بالتقوى الزائفة كقول السابق: ﴿ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[2]، لَكان ما كان ممنوعاً عليهم هو التستر بالنص، وذلك لِوُجُودِ رسول الله ﷺ بين أظهرهم، وذلك مِنْ بَرَكَةِ الوحي، وبركةِ وُجُودِ رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾[3]، ولكن شرَّ البدعة، وهو أخطر ما يُصيبُ الأمم في كلِّ تاريخ البشرية، يفتح بعد العصور المباركة، فتحمل كل الشهوات والرغبات وضعف الإرادات على النص، فتتخفى وراءه، وتتقنَّع به، وهذا ما أصاب الجهاد في سبيل الله تعالى في هذا الزمن، فإنَّ كلَّ ما قاله المنافقون زمن رسول الله ﷺ مِنْ أجل تركهم الجهاد هو هو ما تراه الأُمَّة، ولكن كلّ هؤلاء يزعمون أنَّ لهم فقهاء يأخذون منهم حُكْمَ الجهاد، ولو تحول أحد هؤلاء الفقهاء إلى الصف الآخر فأفتى بالجهاد لتحولوا إلى غيره، وهُمْ كُثُر، لا أكثرهم الله ولا بارك فيهم، وخير هؤلاء مَن يضع للجهاد شروطاً تجعل الجهاد في كلِّ العصور حراماً، وحالهم كحال مَنْ سُئِلَ عَنْ حُكْمِ المسح عن الجوارب، فأجاب: إنه جائزٌ، ولكن بستة وثلاثين شرطاً، فقال له السائل: هلا قُلتَ غير جائز وأرحتني.

[1] سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
[2] سورة التوبة، الآية: ٤٩.
[3] سورة الحجرات، الآية: ٧.

فهذا هو الحال اليوم في أمر الجهاد، وهذا هو واقع مانِعِيهِ، فهم يمدحونه نصاً في كتاب الله، ويتغنون به تاريخاً مضى للسالفين، أما في يومنا فله شروط لا يصلح معها إلاَّ أنْ يكونَ حراماً.

هل يعني أنَّ الجهاد لا شروط له؟ الجواب: نعم، لأنَّ وجود الحياة يعني وجود الجهاد، وكلّ تعطيلٍ للجهاد يعني فساد الحياة للأُمَّة المسلمة، أقول هذا وأنا أعلمُ أنَّ جهاد الطلب فرض كفاية، وجهاد الدفع فرض عين، والجهاد اليوم فرض عينٍ، ولا يُوجد عالمٌ في الأرض قط قبل وجود الفقهاء الذين يبحثون عن حُكْمِ الجهاد في عيون الآخرين، وأثره على المُترفين، ورضى حُكام الردة في بلاد المسلمين، قال بأنَّ جهاد الدفع له شرط من الشروط التي يقولها هؤلاء، بل قد ذكر العلماء أنَّ جهاد الدفع لا شرط له.

والذين يضعون شرط القُدرة لجهاد الدفع، وهو حال المسلمين اليوم، إنما يقولونه مِنْ أجلِ بيَّانِ الفارق بين الآثم والمعذور مِنَ المسلمين، لا مِنْ أجلِ أن يتخذه فقهاء الجهل هذه الأيام لتحريم الجهاد، وسبِّ الجهاد، وتنفير النَّاس منه، فأيّ عقلٍ ودينٍ عند هؤلاء حين يقوم بعض أهل الإسلام بالجهاد فيأتون ليقولوا لهم: جهادكم باطلٌ لأنه لا قُدرة لكم عليه، فهل هؤلاء يفهمون نقيراً من أصول الفقه؟ وهل هم من أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم حين يجهل النَّاس؟.

إنَّ العَقْلَ الفِطْرِي قبل ورود الشريعة خيرٌ مِنَ الدِّين الباطل، وإنَّ فطرة الإنسان كما هو من غير دينٍ خيرٌ مِنَ البدعة، ذلك بأنَّ الأُمم تفهم من فِطرتها أن تنتصر لحقوقها، وتُدْرِكَ أنَّ مُتَسَلِطاً فاسداً عليها يُهلك الحرث والنسل يجب أن يُزال ولا يُقر، فإنْ زَعَمَ زاعمٌ أنَّ الدِّين يُوجِبُ السكوت على الظالم، ويُقر المحارب الذي يهلك الدِّين والدُّنيا فاعلمْ أنَّ هذا الدِّين الذي يدعو إليه هذا الزاعم هو دينٌ باطلٌ، ولذلك فلا عجبَ أنْ ترى في بلاد الكفار رفضاً لحاكمٍ فاسدٍ أو مُفْسِدٍ، وحَرْباً لِغَازٍ مُعْتَدٍ، ثم تجد في أُمَّة الإسلام بدعةً ضالةً، وأقوالاً تنتسب للإسلام كاذبة تزعم أنَّ الإسلام يُوجِب السكوت على الطواغيت، ويحرم الخروج عليهم خوفاً من الفساد، وهم أعظم الفساد، وأضر ما يكونون على دين الله وحقوق البشر، بل زاد الأمر عجباً في هذا الدِّين الباطل حين وُجِدَ فيه مَنْ حَرَّمَ قِتَالَ المُعْتَدِي، ومَنَعَ مِنَ النفير لإزالته إلاَّ أنْ يصل هذا المُعتدي باب بيته، فبهذا صار أهل الإسلام بالبدع الضالة هذه أذل الأُمم وأهون الخَلق في عيون الخَلق، وكفى بمجموع الأُمَّة ذلةً وخزياً لو كان أهل الشأن فيها يفقهون أن يروا أنَّ ذِلَّتهم ومهانتهم إنما هي بيدِ مَنْ كَتَبَ الله عليهم الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة.

ولإدراك معنى العودة إلى الفطرة إنْ غلبت البدعة فصار دين النَّاس تأويلهم لدينهم حتَّى يلاءم شهواتهم، فعليك بهذا النصِّ الذي تغلغل صاحبه في التاريخ، فأبصره بصر الحكيم الفقيه، وسار فيه يقلِّب سنن البقاء وسنن الهلاك، فخرج بقولٍ هو القبس الذي ينشق مِنْ هدي النُّبوة التي اتخذها هاديةً، فَعَلَ بها دون تحريفٍ، وآمنَ بها على بصيرةٍ ونورٍ، إنَّه صاحب العقل والإرادة عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه. قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ، عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ:

«**تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ**». فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ. قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ. قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالاً أَرْبَعاً: إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ. وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ. وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ. وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ. وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ».

هذا الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه[1] يستحق أنْ يُفرد له مُؤَلف خاصٌّ لو كان طلبة العلم مشغولون بإحياء أُمَّتهم، أو لو كان لهم نهمة[2] في البحث عن سُبل استنهاضها مِنْ كَبْوَتِهَا، ولَنَشَرُوا فِقْهَهُ في النَّاس بدل أنْ ينشروا فيهم فِقْهَ الركون إلى الظالمين، والسكوت عن الفاسدين المُفسدين، وطاعة معطِّلي شريعة ربِّ العالمين، ولكنْ حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل.

لو تأملتَ هذا الحديث لرأيتَ فيه سبب بقاء الروم، ولماذا سيكثرون قوةً وغلبةً ويقلُّ النَّاس مع كثرتهم غثاءً كغثاءِ السيل، ولو تأملتَ هذه الأسباب لَعلمتَ لِمَ قال الله تعالى: ﴿**ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[3]. وأنَّ حياة هذه الأُمَّة هو الجهاد، وحين تترك الجهاد يعني أنها خرجت مِنَ الشهود الحضاري، وفقدت معنى خيريتها في الأرض.

هذه الأسباب كلّها مرجعها إلى بابٍ واحدٍ، وهو إدارة الأزمات، لأنَّ الفتن والمصائب والهزائم وطيش الحُكام ونزوعهم للظلم والاستفراد ووجود التناقضات الداخلية قدرٌ لازمٌ لكلِّ الأمم، فهي العوارض التي لا مفر منها، والروم هم أكثر النَّاس في هذا، فإنَّ قارة أوروبا هي أصغر بكثيرٍ من مساحة مصر والسودان اللتين كانتا قُطْراً واحداً حتَّى في التنظيم العُثماني، وفيها من التناقضات القَدرية والفكرية والدِّينية أكثر من مجموع العالم الإسلامي من جاكرتا إلى موريتانيا، فهم النصارى الذين قال الله عنهم: ﴿**وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾**﴾[4]. وبسبب هذه التناقضات تقوم فيها الحروب والأزمات ما يخال للمرء ابتداءً أنَّ في ذلك زوالها، لأنَّ حروبهم ربما تهلك مئات الآلاف بل وبعضها أهلك الملايين، ومع ذلك لا يلبث أنْ يفيقَ هؤلاء ويُديرون الصِّراع بحُلُومٍ وعُقُولٍ ثابتةٍ حتَّى لَيُخال للبعض أنهم أُمَّة واحدة ورجلٍ واحدٍ وليسوا كذلك، ولم يكونوا قط في يومٍ من الأيام، وهم في كلِّ أزماتهم لا يترددون أبداً في شنِّ الحروب، لأنهم يعلمون أنها هي ما تحل مشاكلهم الداخلية والخارجية، وكلما ازداد تفاقم الأزمة كلما كان الانبعاث نحو الخارج كما حصل في الحروب الصليبية وبعثات الاستكشاف ثم ما

---

[1] مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب تقوم الساعة والروم أكثر النَّاسِ. حديث رقم: ٢٨٩٨.

[2] قال الليث: النَّهْمة: بلوغُ الهِمَّة في الشيء. «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

[3] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

[4] سورة المائدة، الآية: ١٤.

سُمي بالاستعمار، وهو لا يمت إلى الإعمار بصلَّة بل هو إفساد في الآخر وسرقة له لحل مشاكلهم الداخلية.

إذاً سِمَة الأُمَّةِ التي تغلب وتقوى وتبقى هي التي تُدير أزماتها الداخلية بحِلْمٍ وعَقْلٍ، وتكر بعد الفر، أي تنبعث نحو الآخر ولا تنكس للداخل إنْ حصل لها بعض الانهيار، ولا يقبلون طيش الحكام أن يمتد ويقيم، بل يردعونهم ويمنعونهم بكلِّ وُسعهم، ويُعالجون تناقضاتهم الداخلية وخاصة المالية، فلا يسمحون للغني أن يستأثر دون إعطاء الفقير.

هذه صفاتهم القديمة يُدركها عمرو بن العاص بعقله الثاقب، وإدراكه المُميَّز، وفي المُقابل تجد في هذه الأُمَّة مَنْ يُعلن انهيار هذه الأُمَّة عند أول بادرةِ ضعفٍ، وينعى وُجودها، فما أن تقع فتنة حتَّى ينهار ويَنْزَوِي، ويصرخ بدعوته للانتكاس نحو الذات، بل يذهب على مَنْ كرَّ بعد الفرِّ، وأصلح بعد الفتنِ والمصائب.

كما في هذه الأُمَّة من عَمي عن مقالة الصدِّيق رضي الله عنه وأرضاه لما وُلي الخلافة «فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ زِغْتُ فَقَوِّمُونِي»[1]، فهذا قانون الإمامة في الإسلام إنْ كان الإمام مسلماً، فكيف إنْ كفر وبدل دين الله وغيَّر الشريعة فأفسدَ الحرث والنسل، وضيَّع الدِّين والدُّنيا؟!.

هذه الأمور لهذه الأُمَّة إن أرادتِ العودة إلى الخيرية والقِوامة على الأُمم؛ الجهاد في سبيل الله تعالى ضدَّ المرتدين والكافرين، وإصلاح سياسي بمنع طيش الزائفين مِنَ الحُكام بكلِّ وُسْعٍ، وإصلاح اقتصادي وأعظمه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[2]، وهذه ليست مرحلة لاحقة بعد إقامة الإمامة في الأرض، بل هي بداية الطريق لعودة الأُمَّة، يعني أنْ تبدأ الأُمَّة مِنَ الآن بالجهاد، لأننا في مرحلة جهاد الدفع والذي لا شرط له، وتبدأ مِنَ الآن بحرب المُفسدين مِنَ الحُكام وإيقافِ فسادهم وفساد مَنْ يَلُوذُ بهم، وتبدأ مِنَ الآن بمنع السفهاء من إدارة أموالهم وأموال الأُمَّة، وكلما قدر الواحد مِنَ الأُمَّة فِعْلَ هذه الأعمال فهو واجبٌ عليه، والضعيف يَؤُوبُ إلى غيره ليتقوى به، وبالإعداد والتجمع والهجرة يحصل للأُمَّة القُدرة اللازمة على التغيِّير، وبِتِكْرَارِ الفِعْلِ حتَّى مِنَ الآحاد يحصل الأثر، ولا أقل من إقامة الحُجة والإعذار إلى الله تعالى.



[1] عن عُروةَ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا وُلِيَ أَبُو بَكْرٍ خَطَبَ النَّاسَ فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ وُلِيتُ أَمْرَكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، وَلكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَسَنَّ النَّبِيُّ ﷺ السُّنَنَ فَعَلَّمَنَا فَعَلِمْنَا، اعْلَمُوا: أَنَّ أَكْيَسَ الكَيسِ التَّقْوَى، وَأَنَّ أَحْمَقَ الْحُمْقِ الْفُجُورُ، وَأَنَّ أَقْوَاكُمْ عِنْدِي الضَّعِيفُ حَتَّى آخُذَ لَهُ بِحَقِهِ، وَأَنَّ أَضْعَفَكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الْحَقَّ، أَيُّهَا النَّاسُ، إنما أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي وَإِنْ زِغْتُ فَقَومُونِي، أَقُولُ قَوْلِي هذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ لِي وَلَكُمْ». «الطبقات الكبرى» لابن سعد. الجزء الثالث، الصفحة ١٨٣.

[2] سورة النساء، الآية: ٥.

إضاءة

هذا الحديث يمثل نموذجاً جَلِيّاً في منهج الصَّحابة رضوان الله عليهم في تفسير الأخبار النَّبويَّة، وذلك عن طريق قراءة الواقع والظواهر الإنسانية، لأنَّ الفارقَ بين النبوءة الصحيحة والنبوءة الكاذبة أنَّ النبوءة الكاذبة تُفْرَضُ بالقهر مِنْ خِلاَلِ الالتفاتِ على السُنن، أما النبوءات الصَّادقة فإنها تنشأ بطريقة سَننية، ثم تسري في إطارها المُدرك في عقول النَّاس وفِطَرِهِمْ، حتَّى تبدو لغير المؤمن بالغيب أنَّ لا علاقة ليد الله في وُجودها، فالنَّاس اليوم يرون اضطراب نظام الكون، واختلال سُننه، ومع ذلك لا يُدركون إلاَّ المؤمنين منهم أنَّ الساعة قريبةٌ، وأنَّ دمار النظام الكوني ليس بعيداً.

ولو تأملَ قارئ التاريخ كيف حصلتِ النبوءة الصَّادقة للحبيب ﷺ بأنَّ الأرض زُويت له، وسيبلغ مُلكه ما زُوي له منها[1]، لَرأى أنَّ وُقُوعَهَا كان بسنن الحياة وطبائع الخَلق، لكن لو قرأ هذا المرء أخبار زاعمي المَهدوية في التاريخ لَرأى محاولة القهر، وتدخل الأيدي وهي تجري قاصدة تحقيق النبوءة في الشخص المُعين، وحين يتم هذا فاعلمْ أنَّ في الأمر خطأ مِنْ أَحَدِ الجِهَتَيْنِ، أو مِنْ كِلاَهُمَا: إما من جهة صحة النبوءة في الأصل، وإما من جهة تفسيرها الواقعي، وإما من الجهتين معاً، فخبر المهدي حقٌّ لكنَّ الخطأ كان دوماً في تأويل حدوثه.

لقد سمى بعض العرب أبناءهم باسم محمد رجاء أنْ يكون هو النَّبي المُنتظر ولم يكن أحَدٌ منهم، وسمى عبد المطلب جد النَّبيِّ ﷺ ابن ابنه عبد الله محمداً حتَّى يحمده أهل الأرض وأهل السماء، فكان هو النَّبي الذي بشرتْ به الكُتب السابقة كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾**﴾[2].

﴿**قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا**﴾.

هذه نذارة مُضطردة في القرآن للعُصاة من كافرين ومنافقين، وقد يعجبُ المرء من ذلك؛ وهو كيف يُهدد المرء بأمر لا يُؤمن به، فإنَّ الكفار والمنافقين في شكٍ من الدَّار الآخرة، فإنْ خُوِّفُوا مِنْ عذَّابها لا يخافون ولا يحصل المقصود مِنْ هذا التخويف، وهو الردع والزجر، ولكن لِيعلم أنَّ القرآن عزيزٌ، فهو لا يذل للمُعرضين عن حقائقه، فإنَّ نَفْيَّهُمْ للدَّار الآخرة لا يُلْغِي هذه الحقيقة التي قامتِ السموات والأرض مِنْ أجلها، وهي أكبر حقائق الوجود، فَمِنَ الخير للنَّاس أن يُؤمنوا بها، فإنْ

---

[1] عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ. فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا. وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا. وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ...**.» أخرجه مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب هلاك هذه الأمَّة بعضهم ببعضٍ. حديث رقم: ٢٨٨٩.

[2] سورة آل عمران، الآية: ٨١.

نفاها الجاحدون فإنها تبقى حقيقة، والإنذار بالحقائق رحمة للخَلْقِ فَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، ثمَّ إنَّ ذِكْرَى القرآن نافعة للمؤمنين به، وأما المُعرضون عنه فهو عليهم عمى كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾** ﴾[1]، فأنْ يحافظ القرآن على المؤمنين بتكرارِ عِظَته ونَذارته خيرٌ من التنازل للمُعرضين عنه، فتقع الخسارة، إذ لا ينتفع المؤمنين ولا يؤمن المُعارضون، وهذا ما يقع فيه بعض الدُّعاة يجعلون خِطابهم مليئاً بالاستعطاف للكافرين والمُعاندين، ويلغون أيّ رحمة للمؤمنين، بحجة إيكال المؤمن لإيمانه، وهو في الحقيقة أنهم يُعظمون الآخر، ويرجون منه الكثير، ولا يُقيمون أهمية للمؤمنين لفقرهم وضعفهم.

إنَّ أيَّ عِظَّةٍ، أو انتصارٍ في مناظرة بين المؤمنين وأعدائهم لا تحقق النَّصر لقضية الحقيقة القرآنية أي الدَّار الآخرة هي خسارة أو لا شيء، وإنَّ أيَّ تقريبٍ للآخر إلى الإسلام إنما يكون بتقريبه إلى توحيد الله تعالى والخوف من الدَّار الآخرة، وهذا هو النَّصر الأكبر، أما الذين يرون طرح هذه القضايا بين المسلمين وأعدائهم مُعَوِّقاً ومَانِعاً مِنَ التوصل والتقريب بين النَّاس فهم بحاجة أن يُعِيدُوا قراءة القرآن والدعوة النَّبويَّة، بل ودعوة جميع الأنبياء.

﴿ **فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾** ﴾.

تميَّزَ المنافقون في هذه الآيات بكثرة ضحكهم وفرحهم واستهزائهم، فقد قال الله عنهم على لسانهم: ﴿ **إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ** ﴾[2]، وقال عنهم: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ** ﴾[3]، وقال سبحانه في هذه الآية عنهم: ﴿ **فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ** ﴾[4]. ثمَّ بيَّن أنهم كانوا على ضحكٍ مُقيمٍ لِما هم فيه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا** ﴾.

والسخرية من المؤمنين سلاحٌ قديمٌ، فقد قال الله عن المؤمنين من قوم نوح في حربهم النَّفسية لهم وهم يبنون السفينة: ﴿ **إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾** ﴾[5]، وقد ذكر الله عن صفة الكافرين مع المؤمنين بأنها حالة سخرية منهم فقال سبحانه وتعالى مخاطباً الكفار في نار جهنَّم: ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ**

1 سورة فصلت، الآية: ٤٤.
2 سورة التوبة، الآية: ٦٥.
3 سورة التوبة، الآية: ٧٩.
4 سورة التوبة، الآية: ٨١.
5 سورة هود، الآية: ٣٨.

مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾[1].

فهذا سلاحٌ قويٌّ وفاعلٌ مبناه على تدمير نفسية الخصم من خلال الاستهزاء والنكتة والسخرية، وقد اعتمدت آلة الكفر في بلادنا هذا السلاح، وجعلتها مادتها في وسائل الإعلام، لأنَّ السخرية إسقاط للخصم دون بذل جهد في نقاش عقلي يكشف الحقائق، وبه يتم عزل الداعي عن محيطه ومنع تأثيره في الآخرين.

عماد السخرية يقوم على عزل الجزءِ عن الكلِّ، فتُعزل الكلمة عنِ الجُملة، والجملة عن الموضوع، والصورة عن الحدث، ثم يبدأ بإلباس هذا الجزء لباساً هجيناً مُنفراً يُثير في الرائي أو السامع حالة استصغار وغرابة في الفاعل أو القائل، فتسقط هيبته، ويتحول خطابه من مادة للفكر والنظر إلى فضاء اللعب والاستجمام والتندر، وفي حالةٍ أُخرى يتم تجميع هذه اللحظات في سياقٍ واحدٍ لتشكل مادة غريبة عن الواقع تنم عن غباء فاعلها وعُزلته عن محيطه إما بارتداده إلى زمن متخيل، أو زمن ماضٍ له أو في التاريخ، وهذا هو دوماً ما يصوَّر به المُتدين في مجال السخرية والاستهزاء.

لقد قُدِّمت صورة العالِم الشرعي والخطيب والواعظ في وسائل الإعلام المجرمة على وجهٍ مُنفرٍ، فهو صاحب بطنٍ منتفخٍ، وقذر اللباس، وغبي الإدراك، ومتقعر في الخطاب بألفاظ كبيرة خالية من المعنى، يستر عباءة التدين الظاهرية فهماً جنسيّاً غير رشيد، حتَّى قال زعيمهم الخالد في جهنَّم[2]: «المفتي بفرخة» أي إنَّ المفتي يبيع فتواه ويُغيِّرها بفرخٍ يأكله ويُعطاه، وقد كرس هذه الصورة نماذجٍ موجودة من المفتين والخطباء، ثم نشطت قِوى الكفر الداخلي في تصوير المجاهد على وجهٍ إجرامي منفرٍ عماده السخرية منهم ومن أعمالهم، رافق هذا انتشار ثقافة الضحك حتَّى صار لها نشطاء وكُتاب وأفلام، ومن غباء البعض ظنه أن هذا جزء من الثقافة والوعي ونشر الإصلاح والتغيِّير، ومناقشة هذا الفهم يحتاج إلى كلامٍ طويلٍ ولكن يكفي للدلالة على فساده أنه لا يبعث لعمل، أُفق محدود، إن لم يكن في حقيقته تنفيس للإرادة عنِ الفِعْلِ، وممارسة هذا اللون يعني الترف، وهو حالة مرضية في الشعوب، وسببٌ من أسباب دمارها، وحين يكون الاستهزاء مأذوناً به في عالم النقد يعني وجود علاقة حميمية بين الطرفين، وهذا واقع هؤلاء اليوم، فإنَّ علاقتهم بالمؤسسات الفاسدة سواء السياسية أو الاقتصادية علاقة عضوية يعرفها المتلقي مما يجعل هذا الفعل مجردَ عرضٍ لتسلية الوقت.

خطورة انتشار هذه الحالة أنها جزء من دين المتعة، ومبدأ المتعة، ولا وجود لهذه الظاهرة في الأمم لحظة بنائها أو تمددها، إنما تنشأ عندما يبدأ الوهن في الأمم وتصير إلى الانحسار عن واجهة الحياة.

---

[1] سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠٩-١١٠.

[2] إنه الهالك المرتد جمال عبد الناصر، عليه لعائن الله المُتتبعات.

هنا تظهر قضية مهمة في الفتوى، وهي انتباه الفقيه وتفريقه بين حالة هامشية، هي جزءٌ يسيرٌ في الحياة، تُشكل بعض جوانب النظرة الإنسانية كالضحك واللهو واللعب، وبين أنْ تتحول هذه إلى ظاهرةٍ لها مؤسساتها وقواعدها، فتبدأ بالتمدد على حساب ضروريات الحياة، فتغدو هذه الضرورات هامشية مقابل هذه الظواهر، ثم تُصبح أمراض ناضرة في المجتمع، لا مجرد حالة إنسانية يمارسها النَّاس كما يمارسون قضاء الحاجة، فحين يفتي الفقيه بالجواز اعتماداً على ما وقع مثيلاً لها من حياة النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ﷺ يكون قد أخطأ، وبرر الفساد دون أن يعلم، لاختلاف التكيِّيف الواقعي للحالتين، ففرقٌ بين أن تكون قضاء الحاجة وقت الضرورة وبين أن تُصبح ظاهرة اجتماعية واقتصادية تُسيطر على مفاصل مهمة في حياة الأُمَّة.

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ٨٣ ﴾[1].

لقد وصلت قوة المسلمين إلى حالةٍ من الاستغناء عن هؤلاء المنافقين، وتحولوا إلى قِلَّةٍ معزولةٍ مكشوفةٍ، لا تملك تأثيراً في سياق حركة الجهاد التي بدأت مطالعها إلى خارج الجزيرة العربية من خلال غزوة تبوك، وهذا خلاف ما كان أولاً، فإنَّ ابن أُبي بن سلول رجع بثلث الجيش في غزوة أُحد، ولم يكن هذا يسيراً على الجنود والمجاهدين، ولكن في غزوة تبوك كانوا قلَّة متخلفة، وما سيأتي من الجهاد هو مرحلةُ جنيِّ المكاسب وتحقيق الأرباح، وبهذا يتحقق ما تقدم في الحُديبية من قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥ ﴾[2]، ولذلك فعزل المنافقين عن رحلة الجهاد له ظرفه، وهو وصول قوة المسلمين إلى الاستغناء عنهم، وتحول جهادهم إلى جنيِّ الأرباح، وأما قبل ذلك فإنَّ تصور التحاق المنافقين بالجهاد ممتنعٌ، بل هم سيهربون منه ويبتعدون عنه، وسيذهبون لذمه والتبرؤ منه، وهذا مما يُريح المجاهدين من جانبٍ ويُتعبهم من جانبٍ آخرٍ، فأما الراحة فإنَّ صفاء الصف من المنافقين في مطلع الجهاد وبدايته يجعل الصف مُتماسكاً قويّاً، وأما التعب فإنَّ حربهم النَّفسية وقذفهم المجاهدين والطعن فيهم يجعل الثقل زائداً في هذه المرحلة، ولكن هذا قدر الجهاد، وهو قدر هذا الدِّين.

﴿ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾.

البدايات لها معاني عظيمة، والنَّاس يتميَّزون عند الفتن، واشتباك المفاهيم، أما عند الظهور ووضوح الأمور فإنَّ النَّاس يتساوون فيها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا الصَّبر عِنْدَ الصَّدْمَةِ**

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٣.
[2] سورة الفتح، الآية: ١٥.

الأُولَى»[1]. لأنها تكون في أوجه قُوتها وحرارتها، وأما بعد أن تسكن فالكلُّ يتساوى فيها، ولا فضل لأحدٍ على أحدٍ، إذ تصير إلى رمادٍ لا يحتاج حامله إلى صبر وقُدرة تحمل.

لتحصيل السبق الذي يتم به التميُّز يحتاج المرء إلى عِلْمٍ وتربيةٍ، بهما يحصل القدرة اللازمة على التميِّيز عند الاختلاط، ولذلك فإنَّ استجابة أبي بكر السريعة للإسلام تدل على تأهلٍ سابقٍ في إدراك معاني الحقِّ والجمال، والنفرة من القُبح والمُنكر، ولذلك ما أنْ عُرض عليه الحقّ حتَّى رآه في نفسه على معنى الجمال الذي استقرَ فيها من قبل، فأسرعَ باللحوق به.

ثمّ يحتاج المرء إلى قوة نفسيَّة لمخالفة إيلافِ النَّاس، فإنَّ البدايات تعني مقاومة الجموع والتقاليد والمألوف، فقد يعرف المرء الحقّ، ولكن لا يقوى على مُصادمة النَّاس وتحمل مخالفتهم، ولذلك يحتاج المرء إلى قُدرة نفسيَّة عالية في الوقوف أمام الجموع التي تُساق ضِمن نظام القطيع، وفُقدان هذه الأهلية النَّفسية أكثر أثراً مِنْ فُقدان التميِّيز العلمي، فإنَّ عمَّ النَّبيِّ ﷺ مع عِلْمِهِ بِصِدْقِ النَّبيِّ ﷺ لم يُسْلِمْ إلى مماته، وما منعه من ذلك إلاَّ مخافة تعيِّير النِّساء له، وفي المُقابل فإنَّ هناك الكثير ممن كان في شكٍّ مِن صِدق النَّبيِّ ﷺ ثمَّ لما ظهرت لهم البراهين أسلموا وصاروا أئمة كخالد بن الوليد، وعمرو ابن العاص، وقبلهم عمر بن الخطاب، وبعدهم أبو سفيان بن حرب، ولذلك قال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾** ﴾[2]. وهذه الآية قالها سبحانه وتعالى بعد قوله: ﴿ **وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾** ﴾[3]. وقد بيَّن بعدها سبحانه وتعالى حالهم بعد وُرود الآيات فقال: ﴿ **وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾** ﴾[4]. وهذا تفسير للآية التالية بعد قوله: ﴿ **وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾** ﴾، ﴿ **۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾** ﴾[5]. فدل هذا أنَّ عدم إيمانهم أولَ مرةٍ لم يكن بسبب عدم معرفتهم بصدق الرسول بل بسبب جحودهم لها واستكبارهم عنها، فالذين يجلسون مجالس الجماهير المُنتظرة للنتائج ليلحقوا بالفائز والمُنتصر سيذهب عنهم فضلٌ عظيمٌ إنْ قَويت شوكة الإسلام وصار لها الظهور، أما إنْ كان للكافرين نصيبٌ فهم إلى كُفْرٍ صَرِيحٍ وَضَلالٍ محققٍ.

---

[1] البخاري في «كتاب الجنائز» باب زيارة القبور. حديث رقم: ١٢٨٣. ومسلم في «كتاب الجنائز» باب في الصَّبر على المصيبة عند الصدمة الأولى. حديث رقم: ٩٢٦.

[2] سورة الأنعام، الآية: ١١٠.

[3] سورة الأنعام، الآية: ١٠٩.

[4] سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

[5] سورة الأنعام، الآية: ١١١.

قال لي أحدهم يوماً: أراكَ لا تنظرُ خلفكَ ولا تدرسُ العواقبَ وأنتَ تُسارعُ إلى تأيِّيد كلِّ جهادٍ يقوم، فهلا انتظرتَ كما يفعلُ النَّاس حتَّى يكون للجهاد قوة ونصر فتلحقَ به كما يلتحقُ الآخرون؟.

فقلتُ له: هذه عبادة التُّجار، واللُّحوق بالحقِّ إنْ كان نافعاً ليس منهج القرآن، بل الواجب اللُّحوق بالحقِّ لأنه كذلك في نفسه سواء أتى بمنافعه للتُّجار أم لا، أما خوف البعض من تسجيل المواقف مع الجهاد الذي يصل إلى الأُخدود لا إلى التمكين فهذا لا يعنيني في شيءٍ، لأنني منذ وَعَيْتُ على دين الله وضعتُ في نفسي أنْ ألغي ما تقولُهُ الجُموع وراءَ الظهر، فحيث ظهرَ الحقّ فيجبُ إتباعه دون التفاتٍ إلى الخلفِ أو تسجيل المواقف أو اعتبارٍ لألسنةِ الأكثرين.

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[1].

هذا الأمر الإلهي فيه بيان معنى الطاعات، وأنَّ عبادة الدُّعاء والاستغفار ينبغي أنْ تُصرفَ لمستحقها ليتم قبولها من قِبَلِ الله تعالى، فهي لا تصلح للعرض الاستهلاكي والبيع والشراء ولا هي مظهر اجتماعي أو احتفالي، كما يفعلُ البعض من ذهابهم إلى اتخاذها وسيلة للنِّفاق أو شراء النَّاس أو إسكاتهم أو التلعب بهم، فالعبادات حقٌّ لله لا مادة كما يتصورها المنافقون والمتاجرون، يذهبون إلى عباداتهم النُّسكيَّة نِفاقاً وتزلفاً للرضى ودعوى المُواطنة والمُشاركة، فإنَّ هؤلاء حقاً منافقون مخادعون، والواجب طردهم من هذه الأماكن من قِبل جميع الأديان، لأنَّ النُّسك حقٌّ خالصٌ لله تعالى، له وحده يجب صرفه، وهذا في كلِّ ما هو عبادة نُسكية كالصَّلاة والأعياد والحج والصوم، ومن غياب هذه المعاني فإنَّ بعض المنافقين من المسلمين يذهبون إلى تهنئة المشركين بأعيادهم تزلفاً لهم، وتقرباً لنفوسهم وقلوبهم، ومنهم من يحضر صلوات أعيادهم وعِظاتهم في أماكن عبادتهم كالكنائس وغيرها، وكل هذا ضلالٌ وفسادٌ في الدِّين، وهذا بخلاف ما هو غير نُسكي كتعزية الميت بألفاظ لا تخالف الشرع، أو تهنئتهم بالولد والزواج، أو توديع مسافرهم، أو مُشاركتهم في استقبال غائبهم كل ذلك جائز في أصله ضِمن شروطه الشرعية.

لقد صلى رسول الله على ابن أُبي بن سلول لما خيَّره الله بين الاستغفار لهم أو تركه رجاء الرحمة لهم، وذلك بتخفيف العذاب عنهم، لأنَّ مِنَ شفاعة الحبيب للكفار أنْ يخفف الله عنهم كما سيكون الأمر لعمه أبي طالب يوم القيامة[2]، فجاء هذا الأمر بأنَّ هؤلاء أخس وأحقر من أنْ تُصلي عليهم،

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٤.

[2] البخاري في «مناقب الأنصار» باب قصة أبي طالب. حدَّثنا العباسُ بن عبدِ المطلبِ ﷺ: قال للنَّبيِّ ﷺ: ما أغنيتَ عن عمِّكَ، فوالله كان يَحوطُكَ ويغضبُ لك، قال: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّار**» حديث رقم: ٣٨٨٣ طرفاه في ٦٢٠٨، ٦٥٧٢. وهو عند مسلم في «كتاب الإيمان» باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيفِ عنه بسببه. بهذا اللفظ: عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ؟ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ قَالَ: «**نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ. وَلَوْلاَ أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**» حديث رقم: ٢٠٩.

وهم أهون مِنْ أَنْ تقوم على قُبورهم مُسْتَغْفِراً ربَّكَ لهم، ذلك بأنهم لما صاروا إلى الوفاة كانوا كُفَاراً وفاسقين.

كلّ هؤلاء انتظموا في سِلْكٍ وَاحِدٍ وهو ترك مُرافقة رسول الله ﷺ ساعة العُسْرَةِ إلى تبوك، فهذه هي سِمتهم الظاهرة، وهو المقياس الذي عرفهم النَّاس به، فهم «المخلفون» الذين قعدوا مقاعد الخلف، ومواقف كراهية الإنفاق في سبيل الله تعالى، فهؤلاء حرموا من أمرين عظيمين هما: الجهاد مع رسول الله ﷺ، وترك رسول الله ﷺ الصَّلاة عليهم، والاستغفار عليهم وهم في قبورهم.

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[1].

تقدم نظير هذه الآية في موطن استغناء الله تعالى عن نفقاتهم، وهي هنا لرفع مقام رسول الله ﷺ بعدم النظر إلى أموالهم بعد أن أرشده بعدم قبولهم في صفوف المجاهدين معه، فإنَّ الجهاد قد استغنى عنهم، وعن أموالهم وأولادهم، وقد فُسِّر العذاب في الآية السابقة بأخذ الزَّكاة منهم قَصْراً، وهنا العذاب أعم وأكثر من ذلك كما تقدم هناك.

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[2].

في هذه الآية من سورة «التوبة»، ونظيرتها في سورة «القتال»، «محمد» وهي قوله تعالى: ﴿ **وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾** ﴾[3]. يتماهى الجهاد في سبيل الله تعالى كأُفُقٍ خاصٍ فريدٍ في كشف النُّفوس، ويتحد مع التنزيل القرآني ليُصبح القتال حالة إيمانية كالصَّلاة والصوم والزَّكاة وأعمال النُّسك والعبادات، ويرقى في هذه الآية من سورة «التوبة» ليكون رديفاً للإيمان بالله تعالى ومُشاركاً له في اختبار عبودية المرء لربِّ العالمين.

في هذه الآية اقترن الجهاد مع الإيمان تنزيلاً، وضُمن معه من خلال سورةٍ واحدةٍ أمراً ربَّانيّاً، فكما أنَّ الإيمان تسليمٌ وعبوديةٌ، فكذلك الجهاد في سبيل الله تسليمٌ وعبوديةٌ لا اختياراً، ولا ممارسةً لثأرٍ،

وأخرج البخاري أيضاً في «كتاب الرقاق» باب صفة الجنَّة والنار. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ. فَقَالَ: «**لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَيُجْعَلُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ، يَبْلُغُ كَعْبَيْهِ، يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ**» حديث رقم: ٣٨٨٥ طرفه في: ٦٥٦٤، وهو عند مسلم في «كتاب الإيمان» باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه. حديث رقم: ٢١٠.

وعَن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، كَمَا يَغْلِي الْمِرْجَلُ وَالْقُمْقُمُ**». البخاري. حديث رقم: ٦٥٦٢، ومسلم في «كتاب الإيمان» باب أهونِ أهل النَّار. حديث رقم: ٢١٣.

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٥.

[2] سورة التوبة، الآيتان: ٨٦ـ٨٧.

[3] سورة محمد، الآية: ٢٠.

ولا لتنفيس أحقاد، ولا هو مظهرٌ لمرضٍ شهواني في إراقة الدماء وإزهاق النُّفوس[1]، وكما أنَّ الإيمان رُقي إنساني، وتسامي بشري في فهم الحقائق متجاوزاً سياق الدواب في إدراكها القاصر على الماديات، فكذلك الجهاد تعبير حقيقي عن هذا التسامي وهذا الرُقي، فالإيمان رُقي في الوعيِّ والإدراك والجهاد في سبيل الله تعالى رُقي في الإرادة والعزيمة.

الإيمان في سبيل الله تعالى مجاهدة وانتصار للانتقال من صفٍ إلى صفٍ، والجهاد في سبيل الله تعالى امتحان للثبات في هذا الصف، وتمحيص للمقيمين فيه لمعرفة درجات يقينهم وحبهم فكما أنَّ الانتقال اختبارٌ عظيمٌ، فكذلك التمحيص هو اختبارٌ يماثله، فلذلك اقترن الإيمان بالجهاد في سبيل الله تعالى.

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾.

تقدم في آيتين من كتاب الله تعالى **أولاهما** في سورة «الحشر»، **والثانية** في سورة «الأحزاب» الأمر بالإقتداء والإتباع لرسول الله ﷺ، وكان سياقهما هو الجهاد في سبيل الله تعالى، فدلَّ هذا كما تقدم أنَّ سياق الحياة النَّبويَّة هو الجهاد، وأنَّه بيئتها، وهنا جاء هذا الإجمال الذي تقدم تفصيله بأنْ اقترن في السورة المُنزلة: الأمر بالإيمان بالله سبحانه وبالرسول ﷺ، وكان الأمر بالإقتداء هو الجهاد مع رسول الله ﷺ، فالجهاد حياته وسُنته وطريقته، وقد ظهر ضُعف الإيمان من هؤلاء «**أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ**» أهل الغنى في مختبر الجهاد في سبيل الله تعالى حيث قبلوا الجلوس مع الخالفين، ولم يذكرِ القرآن موقفهم من قضية الإيمان بالله تعالى، لأنَّ هذا الترك موجودٌ معناه، مُدْركٌ للقارئ، ذلك بأنَّ الله قال في ختام الآيتين: ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ـ أي بالنِّفاق ـ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

لقد أُلغي الإيمان من قلوبهم، وتلاشت معالمه ليس لأنه اختُبر من جهةٍ معرفيةٍ ذهنيةٍ، ولا لضعف حُججه في مخاصمةٍ عقليةٍ فلسفيةٍ، بل عاد الإبطال على الإيمان بسبب موقفهم من الجهاد حيث قعدوا بسبب الجبن كما شُرح في سورة «القتال»، «محمد» كما قال تعالى: ﴿ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾[2]، فالجبن يلغي إيمانهم إلى نفاق، فإنْ اشتركَ في هذا الاختبار دعوة للغني منهم أن يُفارق محبوبه من المال فبخل وضعف عن بذله أو التضحية به طُبع على قلوبهم، وهو أشدّ ما يكون النِّفاق، فدلَّ هذا على أنَّ الاختبار داخل الصف المؤمن ليس إلاَّ اختباراً نفسيّاً، وكلما

---

[1] يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً، وأعلى منزلته في الجنَّة:ـ

«والإسلام لا يعد القتال غاية لذاته، ولا يأذن به إلا لغاية عظيمة. إن السلام هو غاية الإسلام... ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظُلم ولا بغي ولا عُدوان. أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقوم من مقومات الإنسانية الفاضلة، كحرية العقيدة، وحرية العبادة، والعدل في الحُكم، والعدل في الجزاء، والعدل في توزيع المغانم والمغارم، والحقوق والواجبات، واستقامة السلوك الفردي والجماعي على حدود الله... أما حيث يقع البغي والعدوان على أي مقومٍ من هذه المقومات في أية صورة من الصور، سواء وقع من فردٍ على فردٍ أو من من فردٍ على جماعةٍ أو من جماعة على فردٍ أو جماعة، أو من دولة على دولةٍ فالإسلام حينئذٍ لا يرضى بسلامٍ يقوم على هذا العدوان، فليس السلام في الإسلام إلاَّ تحقيق الخير والعدل على النهج الذي رسمه الله للعباد». «في ظلال القرآن» المجلد الخامس، الصفحة ٦٠٤.

[2] سورة الأحزاب، الآية: ١٩.

ارتقتْ نفس المرء ارتقتْ معاني الإيمان في قلبه، لأنَّ هذا هو ما يُضاد الطبع والختم، فكما أنَّ للنِّفاق آثاره من عدم الفقه كما قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1]، فللإيمان آثاره في حصول المعاني الفقهية الشاملة للحياة والشرع والوجود.

هذا التميُّز القرآني، وهذه الصبغة الفريدة في تزكية معنى الفقه لا وجود لها إلاَّ في القرآن الكريم، فالفقه في كلِّ مناهج البشر له فِرْقتان، ولكلِّ فرقةٍ وسيلة في تحصيله؛ أما **الأولى:** فهي عقلية بحتة، ولا ترى للمعاني النَّفسية والإرادية دوراً في تحقيق المعارف وتجليات هذه المدرسة أوضح ما تكون في المنهج الفلسفي، **والثانية:** هم الذين يلغون قواعد العقل الفِطرية والحدود المادية ليروا أنَّ المعارف هي إشراق داخلي نفسي فقط، يحصلها المرء عن طريق مجاهدته بالسهر والجوع والخلوة، وهي الطريقة الإشرافية، والإسلام ليس هذا ولا ذاك، بل هو يعلم أنَّ الفقه إدراك عقلي في حدوده وقواعده، لا يجوز تجاوزها، ولكن حصول الرقي المُميز للفقه إنما يكون بالمجاهدة في سلوك أوامر الشرع والتزامها ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[2]، وكما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾[3]، ولذلك فكثرة الذكر والاستغفار وقراءة القرآن سبيل لتحصيل المعرفة التي يتمايَّز بها العلماء والفقهاء فيما بينهم.

إنْ تبيَّن لك هذا علمتَ لِمَ تكون الأُمَّة مهتدية مبصرة لسنن الحياة، وموفقة في تحصيل مقاصدها إنْ كانت مجاهدة في سبيل الله تعالى، لأنَّ الجهاد هو أعظم ما يحصل به الهداية والفقه، فهي بذلك على نور من ربِّها الذي يُبصرها الحياة على حقيقتها، وهذا تفسير ما تقرؤه بأنَّ علماء السلف كانوا يطلبون بعض المعاني مِنْ أهل الثغور.

وحين تتركِ الأُمَّة الجهاد في سبيل الله تعالى فإنها تؤول إلى الجهل والحمق وضيَّاع الهدف، ويتنازعها الهوى والفُرقة والتشتت والبلاء، فالمجاهدون في سبيل الله تعالى هم أعقل النَّاس وأهدى النَّاس وأبصر النَّاس بحقائق الوجود، وهم أكثر النَّاس تأثيراً في التاريخ وصناعة الحياة، ولا يغرنك كثرة الكلام، وجميل العبارات والخطب، فإنَّ عامي المجاهدين خيرٌ من عوام كلِّ فِرَقِ المسلمين الذين لا يجاهدون، وعالم المجاهدين هو أعلم من علمائهم، وأما في السياسة الشرعية ومسائل الحياة فإنَّ عامي المجاهدين خيرٌ من عالمهم وهو أبصر وأفقه لما فيه خير الأُمم.

﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ﴾.

الجهاد في سبيل الله تعالى حربٌ على الترف والمُترفين، فهم يخافونه ولا يحبُّونه لأنَّه لا ينسجم ولا يتلاءم مع رغباتهم بالدعة والقعود والوُلوغ في الشَّهوات والمحبوبات، وهو يعرض ترفهم وأموالهم

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٧. سورة المنافقون، الآية: ٣.
[2] سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
[3] سورة الكهف، الآية: ١٧.

للرضَّات والمحن، ولذلك فهم في خوفٍ من فقده، وبهذا يجتمع فيهم البخل والجبن، وقد بيَّن سبحانه وتعالى أنَّ المُستضعفين يكرهون الأمم القاعدة لأنهم يرون كلَّ الشرور تحيق بهم بسبب الركود والقعود كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾** ﴾[1]، فبالجهاد يتم الحراك ويجد المستضعفون مجالاً للحياة والرزق وبلوغ الحياة الكريمة، وهذا الحراك يُسميه أصحاب الجهالات اليوم انفلاتاً أمنياً، لأنَّ هؤلاء «**أُوْلُوا۟ ٱلطَّوْلِ**» يريدون سيطرة الدولة الطاغوتية على مرافق الحياة ليخلو لهم تنفيذ خُططهم بأنْ تؤول الأموال ومُقدرات الأُمم إلى أيديهم وسيطرتهم، فينتشر الفقر بين الأُمَّة، ويزداد أهل الثراء ثراءً، وهذا واقع الأُمَّة اليوم فإنَّ الذي يغلبُ على الأُمَّة هم أهل الترف والثراء، وهم قِلَّةٌ قليلةٌ وعموم الأُمَّة في فقرٍ مُدقعٍ وضيقِ حالٍ مع أُفْقٍ مسدودٍ في أي مجالٍ يسمح بالحياة الكريمة، لأنَّ المُترفين لا يسمحون، وحين يقوم الجهاد في بلدٍ تجد هؤلاء المُترفين يهربون منها، وهم بعد ذلك مادة الكفر في الكيد للمسلمين، وهم يد الكفر في تنفيذ مآربه، يحب هؤلاء لأنه يُؤَمِّنْ لهم مصالحهم، ويُدرك مقدار جُبنهم في معارضة سياساته وقراراته، ولذلك تجد أموال هؤلاء في رعاية الكفر، وهم يبيعون أُمتهم من أجل الحفاظ على هذه الأموال وهذه المصالح، وهؤلاء هم مَن يشتري أبواق الإعلام وأقلام الكتبة الزنادقة لثلم المجاهدين وسبِّهم والاستهزاء بهم، وصوت المساكين والمستضعفين مغيَّبٌ مقهورٌ، وربما لِغلبة الجهل على هؤلاء المُستضعفين ولِكيد هؤلاء المُترفين ومكرهم في القصف الإعلامي على عقول المُستضعفين يستجيبون لهم في بعض الأحوال، ويلتحقون بهم خُدماً وأُجراء وجنود مُرتزقة يُقدمون الخدمات لِقاء بعض الفُتات الذي يُلْقُونَهُ لهم، ولذلك من مهمات المجاهدين وأهل العلم فيهم أن يكشفوا للأُمَّة فضل الجهاد في تدمير هؤلاء المُترفين المُتغلبين، وكيف أنَّ الجهاد رحمة عليهم في الدُّنيا وقبل الآخرة، وأنه فضاء الحرية الذي يعيش النَّاس فيه بلا سيطرة لهؤلاء المجرمين، بل إنَّ النَّاس يجدون في ما يُسمِّيه المُترفون «الانفلات الأمني» مجالاً لحياتهم الكريمة وتسهيلاً لسبل الرزق والكسب، وخاصة فيما جعله الله أهل الحلال وهو مال الغنائم، ومال الفيء، فمسيرة الجهاد أن تقضي أولاً على قبضة قارون وفرعون وهامان، فيجد المُستضعفون وسائل الرزق بعد انفلات قبضتهم، فإنْ قامت للمسلمين دولة وحصل لهم تمكين حصل بعد ذلك لهم الخير العظيم، وقمع «**أُوْلُوا۟ ٱلطَّوْلِ**» من تنفيذ مآربهم في سرقة النَّاس واتخاذهم عبيداً.

خلال خوض المجاهدين هذه المعركة هم مُعرضون لأشدِّ أنواع الحروب النَّفسية، لأنَّ مادة الطعن حاضرة، فهم مفسدون في الأرض، ولصوص، وقُطاع طريق، وقراصنة، وستتردد هذه التهم، وستكون سبباً لشنِّ الحروب عليهم، وسيتمالأ عليهمُ الكفر الخارجي والداخلي، والغرب الكافر قد

[1] سورة النساء، الآية: ٧٥.

يحتمل أيّ حرب توجه إلاَّ أنْ تكون مُتوجهة إلى مصالحه الاقتصادية فحينها الحرب الشاملة والقاسية، ولكن شرط الحرب التي تحقق الانتصار الحقيقي لأهل الإسلام هي أنْ تكون خارج حسابات الخصم، وخارج أنواع حروبه، لأنَّ الإسلام هو انقلابٌ على كلِّ قواعده، وتدميرٌ لكلِّ سلطانه، أما الحرب التي تكون ضمن خُطوطه فهي تكريسٌ لِلُعْبَتِهِ وقواعدِهِ وسُلطانِهِ، وحين تكون الحرب كذلك فإنها ولا شك ستكون قاسية وسيدفع أصحابها تكاليف مضاعفة، لكنها تؤدي إلى نتائج حقيقية في صياغة الأُمم والشعوب وقواعد الحياة في الأرض كلِّها.

لقد اتُّهم رسول الله ﷺ بأنه قاطع طريق لما حاربَ قريش في تجارتها، وقد قامت تجمعات إسلامية بهذه النوع من الحروب ضدَّ مصالح الكفر فاتهمت بالقرصنة كما فعلَ القواسمة باتخاذهم مع الوهابين ضدَّ السفن المحملة بالأموال المسروقة من الهند إلى أوروبا، واستخدم الغرب الكافر نفس السياسة من الحروب النَّفسية والإعلامية، وما زال الزمن يُكرر نفس الوسائل، وحين يُكرر الخصم نفس وسائله وينجح دلَّ هذا على غباء الُمقابل، وهذا ضدُّ الإيمان، فإنَّ الرسول ﷺ قال: «**لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[1]، ولكن هذا المسلم ما زال يُلدغ من نفس الجُحر عشرات المرات، فهو يستجيبُ للعبة الخصم، ويدخل في سبيله حين يترك الجهاد المشروع ويمارس أحكام الشرع فيه مِنْ أخذِ ماله غنيمةً أو فيئاً، وحين تُرد أموال الأُمَّة إلى أهلها من سارقيها الُمترفين، وحين يمنع السفهاء من إفساد أموالهم وتضيِّيعها وإذهابها على الدعارة والقِمار ووضعها في مصالح الكفر لتقويته فإنه لن يحقق الأمل المنشود من جهاده.

خصم المسلمين وعدوِّهم يُتقن هذه اللعبة، فهو يُضفي على كلِّ ممارساته لِباس الشرعية، فهو يسرق بالقانون الذي يفرضه، ويقتل ويحتل ويُفسد ويقضي تحت هذا الغطاء، ويجبر العالم كلّه على الدخول فيه والإقرار به، ويسمِّي كلَّ خارجٍ عنه بالأسماء التي يُطلقها ويفرضها في قانونه، فهو إنْ سرق لا يقبل أنْ يُسمَّى لِصاً، لكن حين يحاول خصمه أنْ يأخذ حقَّه فهو لصٌ وقاطع طريق وقرصان.

المسلم له قانونه، ولا يمكن أن تتحقق له العزَّة في الأرض إلاَّ بأنْ يسلكَ هذه الشريعة التي أنزلها الله رحمةً للمؤمنين، وهنا تتقاطع الخطوط، وتبدأ الحرب الحقيقية، فالمسلم يستحل ما أحلَّ الله له، وما أحلَّ وما حرم في دينه مُعَلَّقٌ بعلَّة الإيمان والكفر، والصَّلاح والفساد، والطاعة والمعصية، والكافر له شرعيته فالمشروع عنده ما حقق له الغلبة والسلطان، وما جلب له المال والثراء، وعلى هذه القواعد تنشأ الحروب بين الفريقين، فحين يخجل المرء المؤمن، والجماعة المؤمنة من تعليق ما تحله وتحرمه على ما تقدم فإنها تكون قد هُزِمَتْ منذ البداية، وكلّ خطوة تمشيها بعد ذلك تكون

[1] البخاري في «كتاب الأدب» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٦١٣٣، ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٢٩٩٨. كلاهما عن أبي هريرة ﷺ.

تكريساً للباطل، حتَّى لو ظنت أنها تقترب من أهدافها، لأنَّ تحصيل هذه الأهداف ضِمن خطة الخصم ليس انتصاراً أبداً، بل هو تعميقٌ لمفاهيم الكفر في الحياة وهذا هو عين الهزيمة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[1].

لقد أحكمَ الكفر قبضته على المسلمين، واستطاعَ أن يُدْخِلَ مفاهيمه في داخل الصف المسلم، فلم يعد غريباً أن تسمع من فقهاء وقُضاة ومفتين وقادة حركات إسلامية كلمات الكفر مثل الاحتكام إلى الشرعية الدولية، واحترام القانون الدولي، بل إنَّ بعضهم لَيدعو إلى ما يُقال له المحاكم الدولية في بعض الخصومات، **وهذا كفرٌ صريحٌ لا يختلف فيه عالمان في دين الله تعالى**، لكن لما صار هؤلاء ضمن خطة الخصم، وغابت شريعة الإسلام، وعاش النَّاس طويلاً تحت هذه المفاهيم، واستمر قصف العقول بها إعلاماً وواقعاً وحروباً وتدريساً صار النطق بها يُعَدُّ تحضراً وتقدماً وثقافةً، وحين يأتي مُعارضٌ لها فإنه متهمٌ بالإرهاب وخَرْقِ الشريعية والإفساد في الأرض، وهذه التهم ليست بشيءٍ إن قال بها الكافر المحارب لكن هي لغة خطاب الصف الإسلامي كذلك في سبِّ المجاهدين والتبرؤ منهم، يُرددونها كالببغاوات حيناً، وحيناً آخر يُرددونها لأنها ضريبة القبول بهم داخل النظام الجاهلي، ويزداد ضلالهم حين يعرضون أنفسهم لهذا النظام الطاغوتي العالمي بديلاً عن المجاهدين، وصيغة العرض هي ما تقدم؛ أي أنهم يقبلون الإسلام جزءاً من هذا النظام، يأتمر بأمره ويقبل قواعده وشرائعه، وينتظم داخل هياكله، وأما المجاهدون فهم خارج النسق الدولي، وضدَّ نظامه وقوانينه وشرائعه، وهذا حقٌّ والحمد لله ربِّ العالمين، لكن ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2]، لكن نسي هؤلاء الجهلة من المسلمين أنَّ الكفر لم يستطع أنْ يفرض هذه المفاهيم وهذه الشرائع إلاَّ عبر حروبٍ طاحنةٍ أحرقتِ الأخضر واليابس، وقدَّموا قبل غيرهم الملايين من القتلى، والكثير من الجُهد والتعب، ومشقات السنين، لأنَّ هذه هي سُنن الحياة، أما هؤلاء الجهلة فيريدون أن يعود الإسلام وشرائعه وأحكامه وتقريراته بإذنٍ من هؤلاء الذين دفعوا الدم والرجال والمال والعرق في سبيل ما وصلوا إليه.

إنَّ الغرب الكافر ليس غبياً حتَّى يتخلى عن مُكتسباته من خلال تصويت الملايين ضدَّ هذه القوانين، وإنَّ طائفة الملأ وأُولي الطول لن يقبلوا بقِسْمَةِ الشرع لمجرد أنَّ النَّاس رغبوا بالتغيِّير، ولذلك فهم سيخوضون حروبهم حتَّى آخر قطرة دم وآخر حبة عرق، وهذا ما يجب على المسلمين أن يفهموه، وأن يحضروا أنفسهم له إن أرادوا العودة إلى مرتبة الخيرية، وهي المرتبة التي لا تتحقق حقائقها إلاَّ أنْ يُصبح أهل الإسلام هم الذين يقودون الإصلاح في العالم، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويُقيمون الجهاد لردع الظالم والمُغتصب والمُعتدي، كما هو حال الكفر اليوم من

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.
[2] سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

أمرهم بالُمنكر ونهيهم عن المعروف وشنهم الحروب للحفاظ على شرائع المُنكر التي أقاموها للحفاظ على مكاسبهم وسلطانهم وشهواتهم.

هذه معركةٌ طويلةٌ وشاقةٌ، وشقها النَّفسي أقسى ما فيها، ولذلك لن يأتي إليها في بدايتها إلاَّ الصِّدِّيقُون والشُّهداء والصَّالحون، وهؤلاء لا يكونون أبداً في مستوى هذه الألقاب والأوصاف القرآنية حتَّى تكون نفوسهم قد استعدت لخلافة العالم أجمع في سبيل الحقِّ الذي آمنوا به، فلا تضرهم كلمات الباطل ضدّهم أنهم لصوص وقُطاع طريق وقراصنة، ولا تزيدهم أوصاف الكفر والزنادقة ضدّهم بأنهم مفسدون في الأرض وقتلة ومخربون وإرهابيون إلاَّ تصميماً في قلوبهم على مُواصلة الطريق، وإدراكاً في عقولهم أنهم يُؤذون الكافرين، ويُقَوِّضُونَ سلطانهم الذي طال ليله على هذه الأُمَّةِ التي انحطتْ عن مراتب الإيمان والفِعْلِ والشُّهود والخيرية.

«**أُوْلُوا۟ ٱلطَّوْلِ**» نبتٌ خبيثٌ ينشأ وينمو ويقسو داخل المجتمعات الجاهلية، لأنه جزءٌ مُكَمِّلٌ لمملكة الشيطان، ففرعون ركنٌ من أركان المملكة، ومثله قارون صاحب الثروة، والزير[1] هامان الذي يُدير الأعمال التنفيذية لتأله الحاكم، وكذلك السحرة، وهم أهل الإفساد الفكري من مفكرين وإعلاميين وخُطباء وصُناع أجواء لهذا التأله، وكلّ هؤلاء يحاول جاهداً أن يحافظ على قانون الغاب، ويحرصون بكلِّ طاقاتهم أنْ تُدار الأمور ضمن شروطهم، فأُولوا الطول يرتبط وجودهم بهذه الأجواء، ولذلك كان مِنْ إِرَامِ الله لنبيِّه ﷺ في تهيئة الهجرة إلى المدينة أنْ ذهبَ هؤلاء في معركةٍ طاحنةٍ قامت بين الأوس والخزرج وهي معركة «بُعاث» حيث قُتل كُبراء القوم، ولم يبقَ منهم إلاَّ الخبيث عبد الله بن أُبي بن سلول، وآلت إدارة الأُمور في يثرب إلى الشباب، وهم الذين استقبلوا رسول الله ﷺ وآمنوا به وحضنوا الإسلام والجهاد، ولذلك من الصعب أن تستقر دعوة الإسلام، أو أن يكون له تمكينٌ مع وجود هؤلاء وغلبتهم وقوتهم، لأنهم يعلمون أنَّ معركتهم مع الإسلام معركة وجود، وهم في منعهم لحركة الجهاد ضدَّ الكافر الخارجي عنهم يحفظون كياناتهم الداخلية، لأنَّ الأمر مشتركٌ بينهم في تقاسم المصالح، فأيُّ إخلالٍ لقوة الكافر هو إخلالٌ لوجودهم، ومن مصائب الفهم عند مَن يزعم العمل الإسلامي أن يتوقَّف عن استهداف هؤلاء «فرعون وقارون والسحرة» بحجة أنَّ استهدافهم يُقَوِّي الكفر الخارجي، ولذلك ـ كما يقولون ـ يجب إيقاف المُدافعة بين الإسلام وبينهم حتَّى تفرغ الأُمَّة للعدوِّ الخارجي، وأنت قد تجد في الأرض جاهلاً أو غبياً، لكن أن يكون في صفوف الأُمَّةِ المسلمة هذه الدرجة من الجهل والغباء والعمى فهذا شيءٌ لا يتصور وُجوده إلاَّ في الأحلام.

[1] رجل زِيرٌ: يحبُّ مجالَسة النِّساء ومحادثتهن. «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس. الجزء الأول، الصفحة ٤٤٥. طبعة دار إحياء التراث العربي بيروت (٢٠٠١م).

هؤلاء ما صاروا أُولوا الطَّول إلاَّ بمدد الكفر الخارجي، ولم تستقر لهمُ الأوضاع إلاَّ ضمن ظروف الجاهلية، فسلطانهم السياسي، ومُقدراتهم المالية والاقتصادية هي من خلال نفخ الروح الذي تُلقيه الجاهلية الكبرى التي تحمي هذه المظلة وترعى هذه الإدارة.

لقد علَّقَ القرآن وَصْفَ النِّفاق واضحاً وصريحاً على هذا الوصف من أصحاب المُقدرات المالية والسياسية والاجتماعية، وهمُ الملأ، وأهل الترف، فالصِّراع بين آيات الله تعالى التي تأمرُ بالإيمان والجهاد وبين هؤلاء هو صراعٌ حقيقيٌّ، وقَدَرٌ لازِمٌ لا مفرَ منه، وكما كان الحال زمن رسول الله ﷺ هو الحال كذلك في زماننا، وأخطر ما في هذه الصورة أن يلتحق هؤلاء بركب الإيمان ليصلوا إلى قيادته والتأثير على مجرياته، فيصبح فيهم المفتون والخُطباء والقُضاة والمفكرون وقادة الحركات الإسلامية، فيبدأ هؤلاء برسم مسيرة الإسلام وحركته ضمن مصالحهم وقواعد الحفاظ على مكتسباتهم، وهذا ما هو واقع اليوم، فإنَّ الترف والمال والغنى والطول صار سِمَة مميزة لهذا الصنف، وبعضهم أصلاً هم من تركيبة الجاهلية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولذلك هم يكرهون الجهاد وأهله، ويقيسون مفاسده من خلال ما يلحق بمصالحهم من ضَرَرٍ، ويُعممون هذه الأضرار على حياة المسلمين، بل إنَّ بعضهم لَيضع مصالح المسلمين في بلدٍ آخرٍ مقابلَ مصالحه في بلده، ولذلك نشأ الإسلام المُتعدد، وأتقنتِ النظم الجاهلية استغلال هؤلاء داخلها ضدَّ الآخرين، فأيُّ خصومة تنشأ بين طاغوتين مُتجاورين أو مُتباعدين إلاَّ وتجد اصطفاف هؤلاء إلى داخل الطاغوت الذي يحفظ لهم مصالحهم، فتحول الإسلام إلى لُعْبَةٍ طاغوتية، ولم يعدْ له تميز حقيقي يدعو إليه ويفيء أهل الإسلام إلى رايته، إلاَّ ما كان من المجاهدين فقط، أما الأحزاب الإسلامية وأصحاب الوظائف الدِّينية في داخل هذه النظم فهم جزءٌ من لُعبة الشيطان، فيسيرون ويتحركون خلال مساربها ودروبها، وسبب ذلك أنَّ هؤلاء «أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ» اخترقوا الصف المسلم، وصاروا قادته والمُؤثرين داخله، والذي سهل هذا الاختراق هو غياب مفهوم الإسلام الذي نشأ عليه أصحاب رسول الله ﷺ، فهم دخلوا إليه من بوابة الابتلاء، وهي بوابة إقرار الإيمان باليوم الآخر والزُّهد في الدُّنيا، فلما وصل الإسلام إلى ما وصل إليه كان أئمته وقادته هم أهل الآخرة، ورجال الدِّين والعبودية حقاً، وأما هذه الحركات فإنها منذ البداية عرضت الدُّنيا ونعيمها مُقابل الإسلام، فالتحق به مَنْ آمن بالإسلام حقاً لكن دون الشطر الآخر الذي يتحقق به المفهوم العملي له، وهو ما قاله الله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾[1]، فلم يحصل الابتلاء، وسار هؤلاء بفعل ما يملكون من قِوى خاصة، مالية واجتماعية وسياسية، بطريقة سَننية إلى مراكز القرار، ولو كان الطريق هو طريق القرآن لأتى إليه الكثير ثم حصل الهروب من خلال الجهاد كما قال

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٦.

تعالى: ﴿ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ﴾[1]، فانتقى الصف، وحصلتِ التصفية حتَّى لا يصل إلى المُستقر إلاَّ أهل الدِّين حقاً.

لقد استطاعَ «أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ» أن ينفذوا إلى قيادة ما يُسمى بالحركة الإسلامية؛ وهو اسم غير صحيح لأسبابٍ ليس هذا مكان بحثها، بسبب عاملٍ وحيدٍ وهو غياب الجهاد واقعاً، لأنَّ هؤلاء لو رأوا أنَّ الالتحاق بحركة الإسلام تعني تهديد مصالحهم وذهابها لَتخلف الكثير منهم، وصمد وبقي الصالحون الذين عندهم الاستعداد على تقديم كلِّ ما يملكون مُقابل وعد الله بالدَّار الآخرة.

ثمَّ بعد مسيرةٍ زمنيةٍ يسيرةٍ تحولت مكاسب هؤلاء داخل الحركة الإسلامية!! إلى اسمٍ جديدٍ، وهي مكاسب ومصالح الحركة، فصار أيّ تهديدٍ لها هو تهديدٌ للحركة، وهي بفعل دعايتها قد استطاعت سرقة اسم الإسلام، فآل الأمر إلى أنَّ مصالحهم هي عينها مصالح الإسلام نفسه.

هذا لا يعني أبداً أنَّ القواعد بريئة من هذه الاختراقات للمفاهيم، بل هم لجهلهم وتسليكهم - والتسليك لفظ صوفي في أصله، لكنه صار سِمَة لصياغة الأتباع ضمن لعبة المُتنفذ، والذي هو الشيخ في المذهب الصوفي - صار هؤلاء الأتباع ضمن اللعبة، لأنَّ الحركة كلَّها قد صِيغَتْ على شكل شركة للمتنفذ، فالتحق الأتباع فيها ابتداءً إيماناً بالدَّعوة، ثمَّ بالتسليك صاروا بعد مدةٍ أعضاء موظفين يكتسبون من هذا الوضع، فغابت الدَّعوة والدَّاعي ليتحول هؤلاء إلى موظفين، وقد يعلمون الأخطاء أكثر من غيرهم لكن المسألة صارت شركة تجارية أو مؤسسة اقتصادية يعيش التابع منها، ويقتاتُ من ورائها، فدخل التابع عضواً فاعلاً ضمن مصلحة أُولي الطَّول كذلك.

كلُّ هذه الأجواء تجعل الجهل إفساداً في الأرض عند هؤلاء، وهم خلال استغراقهم في هذه الأجواء يُدركون أنَّ الجهاد ضربٌ لمصالح المسلمين، لأنهم هم مسلمون، بل هم خُلاصة الأُمَّة، وقادتهم هم قادة المسلمين، وحركتهم هي حركة الإسلام الوارثة في الأرض، وعلماؤهم في مناصب مُؤثرة في الفتوى والفكر، والجهاد يضرُّ ذلك كلَّه، وهم صادقون في هذا، لكن نسوا أنهم صاروا منتظمين في سلك أُولي الطَّول، وهو وصفٌ معيبٌ في القرآن، يمكن لهم لو أرادوا الهداية أن يعرفوا ذلك من خلال بُغْضِهِمْ للجهاد والمجاهدين، لكن الهوى يا صاحبي غلاَّب.

هذا الوصف هو حال كلِّ التجمعات الإسلامية التي تعيش وتقتاتُ داخل لعبة الجاهلية، وهو حال الأفراد الذين يستفيدون من قبول الجاهلية لهم بسبب انشغالهم بأمور حياتهم الخاصة، وهو حال مَن زعم العلم أو دخل القضاء والفتوى والخطابة بإذن الجاهلية ثمَّ يرى أنَّ الجهاد يُفسد عليه وُجوده ومكاسبه، والتي يُلبسها ثوب مصلحة الإسلام، وهذا الإلباس سهلٌ جداً ليس فيه كبير عناء، ومادته منشورة مبذولة للأغبياء من قِبل الجاهلية نفسها، فإغلاق مسجد عن هؤلاء مفسدة عظيمة لا ينبغي أن تقع حتَّى لو كان مُقابلها أن يقوم الجهاد في الأرض كلِّها، وأما إن مُنِعَ هذا

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٦.

الخطيب من الخطابة فحينئذٍ لن يتردد بأن يصرخ بأعلى صوته: «إنَّ المجاهدين همُ المفسدون»، أما إنْ كان في دول الغرب الكافر فمُنِعَ من أخذ الجنسية للتشديد عليه وعلى المسلمين فهي الطامة التي يجب على الفقيه أن يُراعيها في كلِّ فتوى يقولها عن الجهاد والمجاهدين، أما إنْ مُنِعَ أحدهم من دخول بلدٍ، وحبست عنه تأشيرة الدخول فهذه والله تعدل سقوط فلسطين عند بعضهم.

إنهم «**أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ**»، والجهاد في أصله قضم لهذا الطَّول، وضربٌ لسلطانه، وقمعٌ لاستقراره، لأنه إعادة صياغة الحياة على أُسسٍ جديدة عِمادها: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ**﴾[1]، وأُسسها: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَاماً وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[2]، وإنْ أردتَ إدراك الفَرق بين بِناءِ الإسلام للصَّحابة ﷺ وبين بِناءِ المسلمين اليوم فانظرْ مَنْ رُفِعَ في بناءِ الصَّحابة، ومَنْ أُكْرِمَ في مجتمعاتهم، ثمَّ قَلِّبِ النظر في أبنيتهم اليوم لترى من هم الأكرم والأرفع، حينها تعلم قيمة الجهاد في سبيل الله في تحقيق وُعُودِ القرآن والسنَّة النَّبويَّة.

﴿**رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾**﴾[3].

الجهاد في سبيل الله تعالى حالةٌ إيمانيةٌ، وموقف طاعة لله ربِّ العالمين، والمعاصي انتكاس في الإرادة في مظهرها الأول ثم تعوج إلى حالة جهل وتخبط في إدراك المعاني، وكلما أوغل الإنسان في المعصية كلما ازداد جهلاً في هذا الباب الذي عصى الله فيه، وكلما ازداد طاعةً في هذا الباب ازداد حكمةً ونوراً في هذا الباب، والجهاد في سبيل الله باب إدراك الحياة، فمِنْ خلاله تفتح على المرء معارف النُّفوس البشرية، ومراتب الخَلق، ويصير النَّاس إلى حقائقهم، ويهتدي المؤمنون والعاملون به إلى فقه الوجود وإدارته بغير ظنونٍ ولا أوهامٍ، وحين تتخلى الأُمَّة عنه تنتكس في إيمانها، ويختفي عنها نور الهداية الربَّانيَّة في بلوغ فقه الحياة، ومن عجائب هذا الجهل أنَّ صاحبه كلما ازداد جهلاً كلما ازداد غِوَايةً كما قال تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿**فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ**﴾[5]، فهذا جهلٌ لا يُدْرِكُ المرء فيه أنه جاهلٌ، فهو جهلٌ مع غِواية، وهذا ما عناه الحبيب المصطفى ﷺ بقوله: «**غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ**»[6]، فالغثاء شيءٌ تافِهٌ حَقِيرٌ خَفِيفٌ،

---

[1] سورة الحجرات، الآية: ١٣.

[2] أخرجه مسلم عن عمر ﷺ في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب فضل من يقوم بالقرآن ويُعلمه، وفضل من تعلم حكمةً من فقهٍ أو غيره فعمِلَ به وعلَّمها. حديث رقم: ٨١٧.

[3] سورة التوبة، الآية: ٨٧.

[4] سورة الأنعام، الآية: ١٠٨.

[5] سورة غافر، الآية: ٨٣.

[6] مقطعٌ من حديث ثَوْبَانَ، مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ، مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا**. قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: **أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**. قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: **حُبُّ الْحَيَاةِ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**» أخرجه الإمام أحمد في «المسند» حديث رقم: ٢٢٢٩٦.

لكن له صفتان أُخريان حين يُضاف إلى السَّيل **وهما**: أنه لا يتحرك بإرادته، بل تُسَيِّرُهُ تيارات الماء التي تسوق من تحته، **والثانية**: أنه يشعر بالفخر والخيلاء لأنه يطفو لطيشه على سطح الماء، وهذا صفة الأُمَّة المسلمة اليوم فهي لا تملكُ القرار والتأثير بل تُسيِّرها التيارات الكافرة والقِوى الأُخرى، لكن الكثير منهم خارج إطار الجهاد يشعرون بالوجود والتأثير، وأنَّ لهم صفة المشاركة في قرارات الحياة السياسية والاقتصادية، والحقيقة أنهم غُثاء، وما يشعرون به هو شعور الغثاء وهو طافٍ على السطح، يظن أنه يقود وواقع الأمر أنه يُقاد.

هذا كلّه أثرٌ من آثار معصية ترك الجهاد، لأنَّ الجهاد هو الفعل الحقيقي الذي يحقق النَّصر بمفهومه القرآني، وهو المفهوم القَدري الوحيد في الوجود، وأما ما يُسمِّيه البعض بانتصارات يحققونها خارج الجهاد فهي من باب غِواية المعصية وتزيينها، وهذه أخطر آثار هذه المعصية، إذ يظن البعض أنه في نصرٍ وهو في هزيمةٍ، ويظن أنه يحقق مقاصد الإسلام وهو في الواقع يحقق مقاصد الجاهلية.

هذا الوهم يمكن أن يَتهم به كلّ فريق الآخر، وهو واقع الاتهامات اليوم، إذ أنَّ المجاهدين يتهمون السالكين للسبل الأُخرى بتحقيق مقاصد الجاهلية وهم يظنون أنهم يخدمون الإسلام، وخصوم المجاهدين يتهمون المجاهدين بهذه التهمة كذلك، وهذه التهم لا يمكن الفصل في صوابها إلاَّ مِنْ خلال عالِم الغيب والشَّهادة، ومن خلال شهادة التاريخ، والقرآن يشهد لصحة اتهامات المجاهدين لخصومهم، بأنهم هم أهل وَهْمٍ وغِواية، ويعملون ضمن خطة الكفر والطواغيت، وعدم شعورهم لذلك في أغلب الأحيان إنما هو بسبب ما طبع الله على قلوبهم من عدم الاستجابة لأمره بالجهاد لقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾[1]، وأما شهادة التاريخ فها هي سنون العالمين في الدروب والمسارب الأُخرى غير الجهاد وتمشي وتمر وقد تحقق فيهم مقولة السلف في أسلافهم: «لا الإسلام نصروا ولا الشرك كسروا»، بل تعمقتِ الجاهلية وتجدرت، وازداد سلطان الطواغيت، واتسعت مساحة استباحة الحرمات، وقويت نفوس المشركين في إعادة كرامتهم ضدَّ المسلمين، وفي الجانب الآخر فإنَّ أعمالاً جهادية لفئةٍ قليلةٍ أعذرت لربِّها تحقيق الخير العظيم والأثر الكبير.

طعمُ الغواية وتزيِّين الباطل ليس هو طعم الهداية في القلوب، وهذا حكمٌ آخرٌ للتفريق بين مَنْ هو على نورٍ من ربِّه، وبين من هو مبتدعٌ أخذَ سُبل الباطل منهجاً له، وهذه تحتاج إلى شهادة مخلصة من الفريقين، ومِنَ الصعب أنْ يشهد المُبتدع على نفسه بالظلمة لأنَّ غِواية البدعة والمعصية مختلطة بالهوى والشهوة والخوف على المكتسبات التي يُسمُّونها مصالح الإسلام كذباً وزوراً.

مدح المسلمين اليوم للصَّحابة ﷺ، وإدراكهم قوة تأثيرية في حركة التاريخ، لم يبصِّرهم أنَّ فقه الصَّحابة إنما كان نتيجة للجهاد في سبيل الله تعالى الذي كان حياتهم كلّها، بل ظنَّ البعض أنَّ الفقه

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٧.

سبق الجهاد، أو أنَّ الوعي على سنن الوجود كان تربية سابقة عن فِعْلِ الجهاد والحياة فيه، وهذا خطأ في تفسير فقه الصَّحابة وقوة أثرهم التاريخي في الفعل والعلم، بل إنَّ الصَّحابة ﷺ بسبب الجهاد في سبيل الله، والذي هو استجابة منهم لأمر الله تعالى حصل لهم هذا التأثير الكوني، وحصل معه الوعي والعلم على سنن الحياة، وبه كذلك حصل لهم الشهود والخيرية على الخَلق، فالذين يلقون الدروس الكثيرة على المسلمين، ويُوجبون عليهم تعلم فقه الواقع وسنن الحياة دون أن يخوضوا هم مع أتباعهم وتلاميذهم الجهاد واقعاً ستبقى كلماتهم فاقدة للتأثير، بل ستنشأ لديهم الأوهام الكثيرة التي يُسمُّونها عِلْماً وليست كذلك، ولو دخلوا هم معترك الحياة الحقيقية للإيمان لحصل لهم العلم والوعي المنشودان كما قال تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1]، أما القعود فهذه الآية تُبيِّن نتيجته: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾[2].

صورةٌ تُقَابِلُ صورةً، ووعدٌ يقابلُ وَعْداً، فإنْ كان القعود عاد على الإيمان بالإبطال، فإنَّ الجهاد عاد عليه بالقوة والتثبيت والإمداد، فها هو الرسول القائد، ومعه المؤمنون الصَّادقون ينفرون للجهاد، بما معهم من وُسْعٍ وطاقةٍ، وبأنفسهم، فهذه هي صفتهم التي يتميَّزون بها أمام المنافقين.

إذا كان المؤمن يتميَّز بخصالٍ كثيرةٍ أمام الكفر والشرك، فهو يصلي للقبلة، ويحج البيت الحرام، ويأكل ذبيحة أخيه دون ذبيحةً المُشرك، إلاَّ أنَّ الصفة الأجلى والأوضح في التميِّز بين المؤمن والمنافق هي الجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنَّفس، ذلك لأنَّ المُنافق يُصلي كما يُصلي المؤمن، ويحج كما يحج المؤمن، أما إنْ جاء إلى الاختبار في ثبات الإيمان وقُوته فإنه لا يكون هذا الاختبار إلاَّ بهذا الميزان الصريح الواضح، لأنَّ الجهاد بالمال والنَّفس اختبارٌ للإيمان في صدِّ الجُبن والبخل، فهو حارقٌ لهما، مانعٌ من وُجودهما، وحين يجاهد المرء في سبيل الله بماله ونفسه يعني أنه يبذل لدين الله تعالى ما يطلبه منه، ويقدم أمر الله على شهوات نفسه، ويُؤثر حبَّ الله على حبِّ ما يرغبُ ويريدُ، وبهذا يقدم دلائل صدق الإيمان، فيرتقي من كونه دعوى إلى حقيقة ثابتة، فإنْ حصلتِ الشَّهادة كان هذا هو أعظم اليقين في شهوده على نفسه أنَّ دين الله أغلى من نفسه وماله.

لقد خاض رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام ﷺ رحلةً شاقة إلى تبوك، لكنها غابت آلامها، وتلاشى التعب، وانماثت الصِّعاب، ولم يبقَ إلاَّ حقيقة واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وذلك لأنَّ التعب يزولُ ويبقى أجره، والألم يذهبُ ويبقى أثره الإيماني في القلب، فاللحظة الماضية كما اللحظة الحاضرة ضعيفة قلقة، وكلّ هذه الدُّنيا إما لحظة

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

[2] سورة التوبة، الآيتان: ٨٨-٨٩.

ماضية أو لحظة حاضرة، والذي يبقى هو التاريخ الذي تتناقله الأجيال، ويتدارسه الأتباع ليتخذوه منهاجاً ونوراً يستضيئون به ويهتدون بمنارته، ولذلك هؤلاء لهم البقاء، هذا البقاء الملتصق مع الرضى والحب، ومع الاقتداء والاهتداء كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1]، وكما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾[2].

لقد دخلَ هؤلاء التاريخ فصاروا أكبر من أزمنتهم، وأكبر من أحداثها، إذ دخلوا كلّ زمنٍ فيه حدثٌ إيماني، فهم مشاركون لكلِّ جهادٍ آتٍ إلى يوم القيامة، وهم يحضرون كلّ موقعة بين الإيمان والكفر، ولذلك هؤلاء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أما غيرهم فقد أكل وشرب ونام وقعد وبخل وجبن، فلم يكن له إلاَّ تلك اللحظات التي عادت عليه ألماً وعذاباً، وذهبت عنه فلم يبقَ منها إلاَّ الحسرة على فواتها والخوف من آثارها كما قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[3].

إذا فَقِهَ المرء هذه الآية: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ﴾ عَلِمَ مِن أين قال الحبيب المصطفى ﷺ: «**وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، ماتَ على شُعْبَةٍ مِنْ نِفاقٍ**»[4]. لأنَّ صفة النَّبيِّ ﷺ، وصفة أصحابه رضوان الله عليهم، وصفة المؤمنين أنهم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى، وخُلُوَ المرءِ من هذه الصفة يعني أنه صاحب شُعبة من شُعَبِ النِّفاق، لأنَّ الجهاد يعني الصِّدق مع الله، وترك الجهاد إخلالٌ بهذا الصِّدق، ولأنَّ الجهاد إثبات لشهادة الإيمان، وترك الجهاد قدحٌ في هذه الشَّهادة، فأين هؤلاء الذين يجتهدون وُسعهم أن لا يكون جهادٌ في زمن صار الجهاد واجباً، إذ به يدفع المسلمون عن أنفسهم وأعراضهم ودينهم، فليس جهادهم اليوم لإثبات الصِّدق مع الله، لكن الجهاد اليوم لإثبات إنسانيتهم، وسلامة فِطرتهم أنهم لا ينامون على ضَيْمٍ[5]، ولا يقبلون بإهانة أعراضهم ودينهم، ولا بسلب أرضهم ومُلكهم، فماذا يُقال اليوم عن تاركي هذا الجهاد؟ بل ماذا يُقال عن سابيه ومُناوئيه؟.

لقد طُمست معالم الإيمان في قلوب هؤلاء، وطُمست عقولهم، فصار أمرهم إلى ما قال السلف: «فقدوا هداية الإيمان وعقل الجاهلية»، فإنَّ أهل الجاهلية كانت فيهم غيرة تأبى أن يكونوا كأهل هذا الزمان، وأهل الإيمان مع رسول الله أمضواْ حياتهم جهاداً في سبيل الله، فصِرنا اليوم إلى مَنْ يَعُدُّ

---

[1] سورة الرعد، الآية: ١٧.

[2] سورة الحشر، الآية: ١٠.

[3] سورة الشورى، الآية: ٢٢.

[4] أخرجه مسلم في «كتاب الإمارة» باب ذم من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو. حديث رقم: ١٩١٠.

[5] الضَّيْمُ، والدَّيْمُ: الظُّلْمُ.

الجهاد تهوراً وسفاهةً وقِلَّةَ عِلْمٍ وضُعْفَ حِكْمَةٍ، وصار الجبن هو الحكمة، والبخل هو العقل، والتنعم في الشهوات مع ترك الجهاد أكل للحلال، فلا بخلق الجاهلية تخلقنا، ولا بأعمال الإيمان اهتدينا، ثم يرفع النَّاس السؤال: لِمَ تقدم الكفار وانحط المسلمون؟!.

﴿ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾.

كانت الصورة السابقة للمنافقين أنهم «**أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ**»، فهم أصحاب المال والشأن، وجاءت صورة المؤمنين وهم يُنفقون أموالهم في سبيل الله تعالى، ذلك لِيُعْلَمَ أنَّ الجهاد كان جهادَ أهلَ عُسْرَةٍ وشِدَّةٍ، وأهلَ مسغبةٍ[1]، فهم يُنفقون ما يجدون، وينفرون للجهاد مع القليل، فهذا وُسعهم، وهذه طاقتهم، لكنهم مؤمنون، وهم رُفقة رسول الله ﷺ الذي عاش كفافاً، وكان مع هذا الكفاف يجاهد، فلا عذر لأحدٍ في ترك الجهاد حين الاستنفار لأنَّ الله يقول: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا﴾[2]، وهؤلاء «أهل الكفاف» لا يلقون التبعة على «**أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ**» ولا يقولون: إنَّ تقصير هؤلاء عن الجهاد يُعطينا حجة بترك الجهاد، فهذه أعذار منافقين كإخوانهم، فالذين يتركون الجهاد بسبب فقرهم معتلين بأنَّ أصحاب الجد لا يجاهدون، والذين يتركون الجهاد بسبب إتباعهم للمشايخ الذين لا يجاهدون ويقولون لو كان الجهاد ديناً لجاهد هؤلاء، والذين يتركون الجهاد بسبب ترك الحُكام للجهاد، فهم ينتظرونهم لإعلان الجهاد، كل هؤلاء مع أسيادهم سواء، وكلّهم خارج الصورة المؤمنة ﴿ **ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ** ﴾ ذلك لأنَّ الجهاد حالة إيمانية ينفر إليها مَن أراد الإيمان وإتباع الرسول ﷺ.

﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾.

قد تكون الواو هنا في قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُ ﴾ تفسيرية، ولكن الظاهر أنها للعطف، فإنْ كانت كذلك فإنَّ هذا يعني أنَّ ما تقدم من وصف الرسول والمؤمنين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم هو من قبيل الإكرام لهم، فإنَّ الجهاد ليس تكليفاً بل كرامةً وتشريفاً، وهو من قبيل النِّعم التي يكرم بها أحباب الله تعالى وأولياؤه وأصفياؤه، والجهاد في سبيل الله تعالى بالنَّفس والمال هو كذلك لأنَّه هو العزَّة وهو الحياة وهو الكرامة، والمجاهد يحس بهذا كلِّه، فإنَّ مَن ذاقَ طَعْمَ الجهاد يعلم لذته، ويُدرك ما معنى أن ينتصر من أعداء الله تعالى، وأن يرتفق السلاح، وأن يعيش عزيزاً لا يُذل ولا يُهان، وهذا ما لا يُدركه القاعدون الجبناء، فإنَّ أذواقهم مريضة، وأمزجتهم مختلة، فهي ترى الحُلو مراً، وترى العزَّة كَبداً، وترى ارتفاق السلاح تكليفاً وضيقاً، والجهاد عند أهله محبوب، فهو مع عبوديته لله تعالى، إلاَّ أنَّ فيه معاني الحرية والرفعة على الدنايا والصغائر، ولذلك هو نعمة تُضاف إلى خيرات وعدها الله لهم في الدُّنيا والآخرة.

---

[1] مسغبة: أي مجاعة.

[2] سورة التوبة، الآية: ٤١.

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾.

هذا هو الحضور الأعظم في القرآن، وهو الحضور الأعظم في قلوب المؤمنين، وهو كذلك في قلوب المجاهدين، فإنَّ ما يسوقهم لهذا البذل والعطاء، ويسوقهم للشَّهادة في سبيل الله تعالى إنما هي الجنات التي وعدها الله لهم كرامةً وفضلاً، فهي شوقهم وحبهم ومقصدهم، وما يتحملونه في الدُّنيا من نصبٍ وتعبٍ، ومن جراحٍ وآلامٍ، ومِن فقد المحبوبات والإخوان إنما هو لهذا الوعد الذي يرقبونه في كلِّ لحظة من لحظات حياتهم.

هذا الامتلاء القلبي لحبِّ الآخرة يصنع العجائب في المجاهدين، وهو مصدر استهزاءٍ من المنافقين والكافرين كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾[1].

«أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ» لا ينفرون إلاَّ بحساب التُّجار، فما يحصِّل لهم مالاً وعزاً وسلطاناً فهو ما يستحق النفرة والتعب، أما قضية الآخرة فهي عمل الفقراء والمساكين، ولذلك هؤلاء يرقبون الشباب المجاهد ويرونهم يمضون للآخرة غير آبهين لما هم فيه من سفل فيفرك المنافقون من أُولي الطَّول أيديهم فرحاً أنَّ هؤلاء لا يحسبون الأمور على حساباتهم «الذكية»، ولذلك من سِمَات هؤلاء في داخل ما يُقال له: «الحركة الإسلامية» أنَّ أُولي الطَّول لما وصلوا لمراكز القرار أرسلوا المساكين والفقراء للمهمات، وأما أبناؤهم فأعدوهم لدنيا، وقووا فيهم «ٱلطَّوْلِ» ليرثوا مراكزهم ومناصبهم، والذين ينقضون هذه الحالة هم أهل الجهاد فقط، فإنهم هم مَن يؤمن بالآخرة، ويفرح إنْ سبقه أبناؤه إلى الدَّار التي يحبها ويُؤمن بها، وهو دوماً يُرسل إليها لأنه يعلم أنها مستقره الأخير كما قال أبو الدرداء لقوم ضافهم فرأوا زُهده: «إنَّ لنا داراً ننتقل إليها قدمنا فرشنا ولحفنا إليها، وإن بين أيدينا عقبة كئوداً، المخف فيها خير من المثقل».

فوقوع هؤلاء في هذه المواقع هو مِنْ شرِّ ما يُصيب الإسلام والمسلمين، لأنَّ النَّاس يقتدون بأئمتهم، فحين يدفع القادة أبناءهم إلى صدور المواقف والجبهات، وأخطر المهمات فإنَّ هذا يُقَوِّي الأتباع، وإنَّ مِنْ صِدْقِ الرسول ﷺ بأبي هو وأُمي، أنه أرسل إلى مُؤتة أحبَّ النَّاس إليه من أهله ورجاله، فهذا جعفر رضي الله عنه الذي غاب طويلاً في الحبشة ثم جاء من الهجرة إلى هجرة جديدة إلى المدينة النَّبويَّة، لم يكد يستقر حتَّى أرسله إلى مُؤتة للشَّهادة، وهذا زيد بن حارثة رضي الله عنه، وهو حِب رسول الله ﷺ يُرسله كذلك، فلم يكن الحبيب يدفعُ النَّاس الآخرين للنوازل والغمرات ليحفظ أهله ومَن يحب ليقودوا، فيحفظهم ويرعاهم خوفاً من تعبٍ أو شهادةٍ، ومما يُؤسف له أنَّ هذا بابٌ مِنْ أبوابِ الشرِّ

[1] سورة الشورى، الآيتان: ١٧ـ١٨.

التي تقعُ فيه جماعات البدعة، وهو سِمَة من سِمَاتهم، وأهل هذه الجماعات عندهم من الوقائع والصور كثيرة، والتي تُؤكد أنَّ الإسلام، وحركته ـ كما يسمُّونها ـ صارت وسيلة للرفعة في الدُّنيا دون اعتبار للدَّار الآخرة، وأنَّ «**أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ**» صاروا عائلة مُتضامنة، وشركة متآلفة، ولها مناهجها التي تحفظ لهم ولعائلاتهم وشركاتهم مكاسبهم، ولذلك هم يرفضون الجهاد.

﴿ **وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾** ﴾[1].

يعذر الله قوماً من الأعراب جاؤوا لرسول الله ﷺ ليأذنَ لهم بعدم النفير معه، وهم صادقون في عُذرهم، وهذا قول جماعة من المفسرين، ويُقابلهم قومٌ قعدوا في منازلهم، وهم أعراب حول المدينة، فلم يحضروا للنفير، لما في قلوبهم من التكذيب لله وللرسول ﷺ، وهؤلاء هددهم الله بالعذاب الأليم، وهذا دليلٌ أنَّ المعذور لا يتخذ قراره بنفسه، بل يجب عليه أن يستأذن إمامه وأهل الشأن في أمره، وهو مَن يُعطيه الإذن بالبقاء أو النفير، وهذا شأن الصَّحابة في أمورهم، كما حصل مع ابن أم مكتوم رضي الله عنه لما جاء إلى النَّبيِّ ﷺ يستأذنه بترك الجماعة لضره، وقال: « يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّهُ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقُودُنِي إِلَى الْمَسْجِدِ. فَسَأَلَ رَسُولَ اللهِ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصَلِّيَ فِي بَيْتِهِ، فَرَخَّصَ لَهُ. فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فَقَالَ: «**هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلَاةِ؟**» فَقَالَ : نَعَمْ. قَالَ: «**فَأَجِبْ**»[2]. ويزدادُ الأمر واجباً في مَنْ نَفَرَ إلى الجهاد فإنه لا يجوز له العودة عنه حتَّى يأذن له إمامه، أما أنْ يذهبَ ويأتي باختياره فهذا جهلٌ وإثمٌ، لأنَّ أمرَ الجهاد أمر عامةٍ، والأمير يرى ما لا يراه الفرد من أمرِ العامة، بل هو ينظر لشأنه خاصة دون الكلِّ، وقد يُلْحِقُ هذا الفعل الضرر بالإسلام، والجهاد حين يكون واجباً عَيْنِياً يجعل ترك النفير والجهاد أعظم وِزْراً وإثماً في هذا الباب.

وفي هذه الآية بيانُ صفةِ المُكذبين لله ولرسوله، وأنهم هم أهل القعود عن الجهاد الواجب، وهذا يُبيِّنُ أمرَ الجهاد في دين الله ويكشفُ مِقدار منزلته في بيان الإيمان في القلوب، فالذين يقعدون عن الجهاد الواجب هم مكذبون لله ولرسول الله، وهؤلاء لهم العذاب الأليم.

﴿ **لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾** ﴾[3].

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٠.

[2] أخرجه مسلم في «كتاب المساجد وموضع الصلاة» باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء. حديث رقم: ٦٥٣.

[3] سورة التوبة، الآيات: ٩١-٩٣.

لقد أعطى الله سبحانه وتعالى لرسوله وصفَ مَن يعذرهم بعدم النفير معه في هذه الآيات، وهمُ الضُّعفاء ممن لا يقوى على الجهاد أو المسير إليه، والمرضى، وأصحاب الفاقة الذين لا يجدون الوسع أو الدابة للمسير، وفي سورة «النساء» جاء وصفٌ آخرٌ للمعذورين من المؤمنين بعدم الهجرة في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ ﴾[1]. ومعلومٌ أنَّ الهجرة هي مقدمة الجهاد في سبيل الله تعالى، إذ لا يكون الجهاد إلاَّ بهجرةٍ في أغلب أحواله.

وهذا يدل على أنَّ الجهاد هو أصلٌ في هذه الأُمَّةِ، وهو الحالة الأصلية فيها، وتركُ الجهاد هو الاستثناء، لا العكس كما هو الواقع، إذ لم يبقَ اليوم من مجاهدين إلاَّ القِلَّة، وعامة الأُمَّة قاعدة، وخيرُ مَنْ فيها للمجاهدين هو من يُتابع أخبارهم، ويدعو لهم، وإلاَّ فالأكثرون لاَهُونَ في دُنياهم، لو سُئِلُوا عن أخبارِ الجهاد لما علموا منها شيئاً، ولو سُئِلَ أحدهم عن الدُّنيا وقضاياها لَوجدته العارف الخِرِّيت[2]، بل إنك لَتعجب ممن هو يأكل ويشرب من دين الله تعالى لا يعرف شيئاً عن أخبار المجاهدين إلاَّ إذا قرع سمعه خبرٌ ما، فإنْ وقعت له أخبارهم عرضاً لوى وجهه وأعرض وكأنَّ الأمر لا يعنيه.

لو نظرَ الناظر اليوم إلى نسبة المجاهدين العاملين لدين الله تعالى في مجموع الأُمَّة لَعَلِمَ لِمَ الهوان هو عنوانها، ولِمَ الذلة محيطة بها، ولِمَ الخذلان هو شعارها، ولو سألتَ من تسمى باسم العلم منها ماذا يعرف عن أخبار المجاهدين لَعَلِمْتَ لِمَ نزع الله من قلوب الأُمَّةِ محبة هؤلاء، ولِمَ صاروا إلى هوانٍ في عيون النَّاس، ذلك بأنَّ ربَّنا على صراطٍ مستقيمٍ، وهو حَكَمٌ عدلٌ، فعدوّنا لا يُوجد بينهم فرقٌ بين الجندي والمدني، بل المجتمع كلَّه جنود مُدربون[3]، وفي لحظات يلتحقون بأسلحتهم إنْ طُلب منهم ذلك إن استُنْفِرُوا، وأما أُمَّة الجهاد، وخير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس فإنَّ فتاوى أُولي الضلالة تحرم عليهم الاستعداد، وتمنعهم من اللحوق بالمجاهدين وحياتهم إلاَّ إذا أذن لهم الطاغوت[4]، وهذا الطاغوت لا يُدرب مِنَ الخَلْقِ إلاَّ شرار أهل البلد لأمرين اثنين فقط؛ **أولاهما**: الاستعراض والزينة، **وثانيهما**:

---

[1] سورة النساء، الآية: ٩٨.

[2] الخِرِّيتُ: الدليل الحاذق كأنه ينظر في خُرْتِ الإبرة من دِقّة نظره ويُجمع خَرارِت. «المخصص في اللغة» لابن سيده علي. الجزء الثاني عشر، الصفحة ٣٥. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

[3] وهذا الأمر لم يُصبح عندهم متوقف على الرجال فقط، بل إنَّ نساءهم مُدربات وجاهزات لخوض الحروب. فيهود لا يقتصرون على تدريب الذكور فقط بل إن نساءهم مدربات منهن من التحقنا بصفوف الجيوش، والأخريات في الجيش الاحتياطي ومستعدات للحاق في أي وقت طُلب منهن مع أن من هؤلاء من يُقيم خارج الأرض المحتلة..

وإنه من الخزي والعار أن تستنجد دولة كالسعودية ـ وهي أول دولة في العالم من حيث الإنفاق على الجيش ـ قبل أكثر من عشرين سنة بجيوش الأعداء، وهي تضم عدداً كبيراً من المُجندات، ولا يزالون يحتلون بلاد الحرمين إلى وقتنا هذا. ارجع إن شئت إلى كتاب أخينا الشيخ أبي محمد المقدسي ـ حفظه الله تعالى، وفك الله أسره ـ والمعنون بـ«الكواشف الجلية في كُفر الدولة السعودية» فإنَّ به حقائق تكشف خُبث هذه الدولة المجرمة لا تجدها في غيره.

[4] إن هذا يُذكرني بلقاءٍ صُحفي أُجري مع حامد أبو النَّصر ببيشاور في أواسط الثمنينات من القرن الماضي، وكان وقتها المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين. حيث سُئل هذا السؤال: لماذا لا تأتون ـ أي الإخوان ـ إلى أفغانستان وتجاهدون الروس؟ فكانت إجابته: لو تسمح لنا دولتنا لجاهدنا.!! فهذا مِصداق ما ذكره الشيخ أبي قتادة ـ حفظه الله تعالى ـ أعلاه.

لقتل الأُمَّة ومحاربتها، فهذا تاريخ هذه الجنود لو تأملته قليلاً لَوجدتَ لِمَ جنود الطواغيت، فإنهم لا عملَ له إلاَّ قتلَ الأُمَّةِ، ومحاربتها، وأما أمام أعداء الأُمَّةِ فهم فِئْرَان، يفرون ما أن يُقعقع لهم بالشنان.

يعذر الله تعالى أقواماً لهم صفات الضعف والمرض والعجز، فهؤلاء لا يجاهدون بالنفير، ولكنهم يجاهدون بالنصح لقوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وأما حال الأُمَّة اليوم فهم صاروا إلى حال العجزة والضعفاء والمرضى، ومثل هؤلاء لا يدفعون شرّاً عن الإسلام ولا عن بلادهم ولا عن أنفسهم، بل هم يُؤخذون بأقل القليل، وهذا هو واقعهم، فلذلك هي أُمَّة مشلولة، يعمل الكفر فيها عمله بلا مانعٍ، ولا مُدافعٍ إلاَّ مِنْ قِلَّةٍ قليلةٍ من المجاهدين، ثم ليتَ هؤلاء المشلولين نصحوا للمجاهدين، وأخلصوا لهمُ القول، وقوَّوا قلوبهم بحُسْنِ المقال لَكان فيهم بعض الخير، بل هؤلاء جلسوا يسخرون منهم، ويُثبِّطونهم، ويتتبعون عوراتهم، ويُسمُّونهم بأوصاف أهل الكفر فيهم، ولذلك ترى ما قال الله بعد ذلك في هذه السورة: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾[1]، فإنَّ البلاءَ على هذه الأُمَّةِ لم يُرفع، وسيفُ الفتن لم تترك بلداً إلاَّ وقطعته، وعذاب الله تعالى ينتقل مِنْ بلدٍ إلى بلدٍ، فكم من البلاد ظنَّ أهلها أنهم في مأمنٍ، وأنَّ سرورهم دائمٌ، وأن ما هم فيه لن يتغيَّر، فما هي إلاَّ نقمة ربَّانيَّة آتية حتَّى يشرد أهلها، ويُساموا سوءَ العذاب، ومَنْ لَمْ تَأْتِهِ فتنة صائحة حلَّ به عذاب طواغيت يُفسدون دينهم، وبناتهم، وشبابهم، فتحولتِ البلاد إلى مَرْتَعِ كُفْرٍ مُقِيمٍ، يُسَبُّ فيها الله تعالى ورسوله جهاراً نهاراً بين أظهر النَّاس، وإنْ سُبَّ الطاغوت أو ذُكِرَ بِشَرٍّ أُخِذَ الفاعل ولم يَعُدْ[2].

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٢٦.

[2] إليك ـ أخي القارئ ـ أمثلة من القانون العفن لدولة المغرب:ـ

«في الاعتداءات والمُؤامرات ضدَّ الملك أو الأسرة المالكة أو شكل الحكومة

الفصل ١٦٣: الاعتداء على حياة الملك أو شخصه يُعاقب عليه بالإعدام. ولا تُطبق أبداً الأعذار القانونية في هذه الجريمة.

الفصل ١٦٤: الاعتداء على شخص الملك، الذي لا ينتج عنه مساس بحريته ولا يسبب له إراقة دم ولا جرحاً ولا مرضاً يُعاقب عليه بالسجن المُؤبد.

الفصل ١٦٥: الاعتداء على حياة ولي العهد يُعاقب عليه بالإعدام.

الفصل ١٦٦: الاعتداء على شخص ولي العهد يُعاقب عليه بالسجن المُؤبد. فإذا لم ينتج عنه مساس بحريته ولم يُسبب له إراقة دم ولا جرحاً ولا مرضاً فإنه يُعاقب عليه بالسجن من عشرين إلى ثلاثين سنة.

الفصل ١٦٧: الاعتداء على حياة أحد أعضاء الأسرة المالكة يُعاقب عليه بالإعدام. والاعتداء على أحدهم يُعاقب عليه بالسجن من خمس إلى عشرين سنة. فإذا لم ينتج عنه مساس بحريته ولم يُسبب له إراقة دم ولا جرحاً ولا مرضاً، فإنه يُعاقب عليه بالسجن من سنتين إلى خمس سنوات.

الفصل ١٦٨: يُعتبر من أعضاء الأسرة المالكة في تطبيق الفصل السابق: أصول الملك وفروعه وزوجاته وإخوته وأولادهم، ذكوراً وإناثاً، وأخواته وأعمامه».

كل هذا وغيره مُدون في قانونهم العفن النتن، ومُطبق على أرض واقعهم.. ولم نجد في قانونهم مادة واحدةً تنص على مُعاقبة سابِّ الله أو الرسول ﷺ أو الدين... ألا لعنة الله على الظالمين، وسُحقاً لهم ولقوانينهم.

لقد قعد النَّاس عن الجهاد هروباً مِنَ البلاء، فجاءهمُ البلاء والعذاب، وهذا حال كلِّ البلاد، والأمر ما زال سائراً، والسنَّة ما زالت تعملُ، فهي تضم البلاد، وليتهم يتوبون بل هو كما قال تعالى في بقية الآية: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

إنَّ الذين يتساءلون عن سبب ذلة الأُمَّةِ وهوانها في هذا الزمن عليهم أن يستحوا مِنَ الله تعالى، وإنَّ الذين يُقلبون عيونهم في السماء في انتظار الفرج دون أن تعود الأُمَّة للقرآن وحياة القرآن هم قومٌ يستحقون التقريع والتأديب، وأما الذين يُكثرون التنظير، ويتقعرون ويتشدقون في تلك العناوين التي يرفعونها في قولهم: كيف نحيِّي الأُمَّة؟ وكيف نرفعُ عنها الذلة؟ وكيف نُصلحها؟، دون أنْ يُعيدوا الأُمَّة إلى دينها وهو الجهاد في سبيل الله فهم أكثر مَن يستحق التقريع والتأديب، أما أنَّ دين الأُمَّة التي يرفع الذلة هو الجهاد فهذا في قوله ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[1]. وبيِّنٌ مِنَ الحديث أن دين الله تعالى الذي يرفع الذلة هو الجهاد لا غير، فإنَّ سبب الذلة هو تركه، وسبب رفع الذلة هو العودة إليه.

لقد صارتِ الأُمَّة في أغلبها مرضى وضعفاء وعجزة لما تركوا الجهاد، والأحياء هم المجاهدون، وهم الأقوياء، وقد جاء في الحديث: «أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ فَقَالَ: «**كُلْ بِيَمِينِكَ**» قَالَ: «لاَ أَسْتَطِيعُ» قَالَ: «**لاَ اسْتَطَعْتَ مَا مَنَعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ**». قَالَ: «فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ»[2]، أي أنها شُلَّت بتركِ أمْرِ رسول الله ﷺ تكبراً، وهكذا فإنَّ الأُمَّةَ التي تترك حياة رسول الله ﷺ غُرُوراً بأفكارها، وفرحاً بمناهجها الباطلة هي أُمَّة مشلولة، ولن تصل إلى أهدافها، بل هي ستتآكل وتنقضي وتنقرض، ولولا أهل الجهاد والباذلون نفوسهم لله تعالى دون خوفٍ من سلطانٍ أو مُتَجبرٍ لهلكتِ الأرض كما قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا**

---

[1] أخرجه أبو داود في «السنن» في «كتاب الإجارة» باب في النهي عن العِينة. حديث رقم: ٣٤٦٣، والبيهقي في «السنن الكبرى» حديث رقم: ١٠٧٤٩، وأخرجه أحمد في «المسند» في أكثر من موضع بألفاظ مُتقاربة، وهذه روايته عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنَّ النَّاس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعِين، واتَّبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يُراجعوا دينَهم**» حديث رقم: ٤٨٢٥. وقال أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ: **إسناده صحيح.**

العينة، بكسر العين المُهملة: قال ابن الأثير: «هو أن يَبِيعَ من رجلٍ سلعةً بثمنٍ معلومٍ إلى أجلٍ مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به، فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضاً عينة، وهي أهون من الأولى، وسُمِّيَت عينة لحصول النقد لصاحب العينة، لأنَّ العين هو المال الحاضر من النقد، والمُشتري إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه معجلة».

«**وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع**» يُريد أنهم تفرغوا للزرع وأذلوا أنفسهم للأرض وتركوا الجهاد، وهذا شيء مُشاهد ظهرت آثاره في المسلمين، حين صاروا عبيد الأرض والزرع، بل هو ظاهر في كلِّ أُمة استعبدتها الأرض وقصرت نفسها على الزرع. والجهاد هو ملاك الأمر كله في الإسلام، رضي عبيد أوربة أم أبواْ. من تعليق أحمد شاكر على الحديث بتصرف يسير.

[2] «صحيح مسلم» باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما. حديث رقم: ٢٠٢١، «مسند أحمد» حديث رقم: ١٦٠٥٨، ١٦٠٦٤، ١٦٠٩٥. طبعة دار إحياء التراث العربي. «سنن الدارمي» باب الأكل باليمين. حديث رقم: ٢٠٣٢، «مصنف بن أبي شيبة» باب الأكل بالشمال. ج٥ ص٥٥٦ حديث رقم: ٨. طبعة دار الفكر ببيروت.

قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[1].

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾.

إنَّ الذي لا يَقوى ببدنه في الجهاد فإنَّ له قوة أُخرى يجب أن يعملها لدين الله تعالى، وهي النُّصح لله وللرسول وللمؤمنين، كما قال رسول الله ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[2]، وهذا يدل على أنَّ هذه الأُمَّة لا يوجد فيها أحدٌ غير فاعلٍ وعاملٍ، بل هي أُمَّة العمل، وأما غير العامل فهو الجنون الذي لا عقلَ له، ولذلك فأُمَّة الإسلام أُمَّة حَيَّة، لا يُوجد فيها من لا دورَ له، كلٌّ بحسب وُسعه وطاقته.

هذه هي الأُمَّة التي يُصوِّغها القرآن ويُصبغها بصبغته، فهي أُمَّة حيَّة في عقلها وقلبها وإرادتها، وكلّها مسؤولٌ مكلفٌ، فلا يخلو أحدٌ منهم من تكليفٍ وواجبٍ، ولذلك قال ﷺ: «**كلُّكم راعٍ، وكلكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِهِ**»[3]، ومن مذاهب الباطل وأقوال الضلال أنَّ الأُمَّةَ غير مكلفة بالجهاد والحدود، وإنما هي تكاليف للحُكام دون بقية النَّاس، وهذا من الكذب الصريح على دين الله تعالى، فإنَّ هؤلاء لا يعلمون أنَّ التكليف في أصله مُوجهٌ إلى الأُمَّةِ، ثمَّ وَكلتِ الأُمَّة حاكمها بإدارة هذه التكاليف، فإنْ قصَّرَ الحاكم فيها أو خانها فإنها تعود هذه التكاليف على الأُمَّة، وهي لا تسقط أبداً بتقصير الحاكم أو خِيانته لها، ولذلك قال تعالى: ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾[4]، والتنازع الذي يجبُ رده إلى الله والرسول عام، وأولى ما يدخل فيه هو التنازع الحاصل بين الأُمَّةِ وأُولِي الأمر، ولذلك قال بعض السلف: «لقد أخذ الله من أُولي الأمر ما أعطاهم في أول الآية في آخرها»، فحين يذهب أُولي الأمر إلى معصية أو تقصير فيجب رد الأمر إلى الله والرسول ونزع الطاعة منهم في ذلك، فإنْ حصل نزاعٌ على غير مأمور من جهة الشرف فحينها يُعمل بقوله تعالى: ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾[5]. ولذلك ففي القرآن قد يكون الباغي هو الحاكم لا المحكوم لوقوع الوصف عليه وذلك بأن يرد ما اصطلح عليه بينه وبين المسلمين الذين خالفوه، ولذلك قالت أُمُّنا عائشة رضي الله عنها: «إنَّ المسلمين لم يُعملوا هذه الآية».

---

[1] سورة هود، الآيتان: ١١٦-١١٧.

[2] مسلم في «كتاب الإيمان» باب بيان أنَّ الدين النصيحة. حديث رقم: ٥٥.

[3] البخاري في «كتاب الجمعة» باب الجمعة في القرى والمدن. حديث رقم: ٨٩٣. أطرافه في: ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠، ٧١٣٨. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائرِ والحثِّ على الرفقِ بالرعيَّةِ والنهيِّ على إدخال المشقة عليهم. حديث رقم: ١٨٢٩.

[4] سورة النساء، الآية: ٥٩.

[5] سورة الحجرات، الآية: ٩.

فالقصد أنَّ المرءَ يجب بذل وُسعه، وحيث أدركَ الحقَّ يجبُ أداءه وُسعه، أما الدعوة إلى تحذير الأُمَّة، وقذف الجهل فيها، والخور في أوصالها، وإيكال أُمورها إلى واحدٍ من البشر، ثم يقولون: إنْ أخطأ فعليه وِزْرُهُ، وإنْ أصابَ فللأُمَّةِ أَجْرُهُ، وهو في كلِّ يومٍ لا يأتي إلاَّ بشرٍّ، فهذا لا تقوله الأديان الباطلة، فكيف يقوله الإسلام الحقّ الذي يدعو أهله أن يستشهدوا في سبيل كلمة الحقِّ، بل أعظم الشُّهداء هو مَن قام لحاكمٍ فأمره ونهاه فقتله[1].

وأما ما يقوله العلماء مِنْ أنَّ آحاد الأُمَّةِ لا يجوز لهم إقامة الحدود وإعلان الجهاد، فإنْ فَعَلَ أحدهم ذلك فللحاكم أنْ يُعاقبه لافْتِيَاتِهِ عليه، فهو قولٌ صحيحٌ، ولكن الجهال يفهمونه على غير فهمه، فإنَّ وَصْفَ هذا الحُكْمِ هو أنَّ مَن رأى منكراً مِنْ آحاد المسلمين يجب عليه تغيِّيره بيده أو بلسانه أو بقلبه، وقوله بقلبه هو أضعف إيمانه، وأما العقوبة فهي ليست له، بل يجب رفعها لمن وكلته الأُمَّة بهذا الفِعْلِ، لأنَّ هذا حقّ الله تعالى، فإذاً هو حقُّ الأُمَّةِ جميعها، والذي يقوم به هو وكيلها، فإنْ عاقبَ الواحدَ مِنَ المسلمين فهو بمنزلة أنْ يعاقبَ المرء ابن جاره على غلط هو حقّ للأبِّ لا للجار، فحينها للأبِّ أن يطلب بحقِّه من هذا المُتعدي على حقِّه، وهو الذي يُقال له: «افتأتَ عليه»، فإنَّ للأبِّ ولاية على ابنه وزوجته، كما للسيِّد ولاية على مولاه، وليس لكلِّ أحدٍ أنْ يُعاقب هذا الابن أو هذا المولى، لكن إنْ خان هذا الوكيل هذه الوكالة أو قصَّرَ فيها فإنها تعود للأصيل، فإنْ قام بها آحاد الأُمَّةِ فلا يكون مُفْتَئِتاً، لأنَّ الافتئات إشغالٌ لأمرٍ فيه أهله، وهذا الأمر قد خلا بفساد الوكيل أو عجزه أو تقصيره، وهذا هو واقع الأُمَّةِ في كثيرٍ من أوقاتها، فإنَّ الخلافة صارت بعد ذلك أمراً صُورِياً، عجز فيها الخليفة فقام مَنْ قدر على الطاعة غيرهم، فالواجب هو أنْ تُوكِل الأُمَّة مَنْ يقوم بحقوقها وحقوق الله تعالى العامة، فإنْ قصَّرتِ الأُمَّة في ذلك جاز لبعضها أن يقوم بهذا، وهو مأجورٌ مُثَابٌ، وهذا واقع جماعات الجهاد، فإنَّ الأُمَّةَ لم يَعُدْ يَعْنِيهَا أمر الدِّين، ولا حقوق الله، وأما الحكام فقد صاروا أعداء الدِّين، فشرعوا أديان باطلة، وأفسدوا دينها ودُنياها وصار أمرهم كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾[2]، فصاروا هم مُستحقين للقتال، وصار حالهم في المال كحال السفيه الذي يجب الحجر عليه، ولذلك يجب قِيام طائفةٍ مُهتديةٍ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجاهد في سبيل الله تعالى، وتُصلِحُ ما فسد في الأُمَّةِ، وهذا هو الشرع، بل هو مقتضى العقل لو كان النَّاسُ يفهمون، أما أن يتحول الدِّين إلى مخدِّرٍ للشعوب، وتُتَخَذ آيات الله وأحاديث النَّبيِّ ﷺ وسيلة للفساد والسكوت عن الفساد فهذا يجعل الجهلة يشكون بصحة الإسلام نفسه، وهو ما وقع فيه الكثير من الزنادقة والمُلحدون.

[1] عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**سَيِّدُ الشُّهُداءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمطَّلِبِ وَرَجُلٌ قامَ إِلى إِمامٍ جائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهاهُ فَقَتَلَهُ**». أخرجه الحاكم في «المستدرك» حديث رقم: ٤٩٣٤. وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

[2] سورة النحل، الآية: ٨٨.

أما الاحتجاج بكلام أهل العلم بأنَّ مفسدة الخروج على الحاكم أعظم مِنْ إقراره، فهذا فهمه من خلال تاريخ هذه الأُمَّة حيث كان الحاكم يُقيم أمر الله تعالى، ويُطبق القُضاة الشرع، ويجاهد الأمراء في سبيل الله تعالى، وخلال هذه المسيرة البشرية يقع بعض المفاسد أو التقصير، وقد يقع في نفوس البعض الرغبة النَّفسية بالحُكم، للاستفادة مِنْ ميزاته، فيخرج هؤلاء على الحاكم، فمثل هذا الخروج يجب منعه والتحذير منه، أما أنْ يُصبح الحاكم هو أساس الفساد، وهو نفسه عدوّ الأُمَّةِ، ويكون جيشه لمحاربة المسلمين والعاملين لدين الله تعالى، ويكون همه منع تطبيق الشريعة وأحكام الله تعالى ثم يأتي قائلٌ ليقول إنَّ هذا الحاكم الذي منع أهل العلم الخروج عليه ومُقاتلته فهؤلاء جهلة في الدِّين وجهلة بقانون الحياة. ثم إنَّ قول أهل العلم إنَّ الحاكم هو وكيل الأُمَّةِ في إقامة حقوقها وحقوق الله لا يعني أنها بعد ذلك تفرغ لأهوائها وشهواتها، بل الواجب هي أن تتولى هذه الأعمال بقيادة هذا الحاكم، فهو يُعلن الجهاد، لكنهم هم يجاهدون، وهو يقضي الأحكام وهم يده التي يمضي فيها هذه الأحكام كما قال تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾[1]، أما أنْ يتخذ الحاكم الفاسدين في الأرض جنوداً، وأكْفَرَ خَلْقِ الله حُماةً للأمن، والمُرتشين قُضَاةً ونُواباً ثم تذهب الأُمَّة في وِدْيَانِ الأهواء والشهوات زاعمةً أنَّ الأمر لا يعنيها فهذا لا يجوز أنْ يُنْسَبَ لدين الله تعالى في شيءٍ، لأنَّ الأُمَّةَ المسلمة يجب عليها أن تُراقبَ هؤلاء الحكام، وهذه هي دعوات الخلفاء الراشدين عندما تولوا الإمامة في خُطبهم الأولى.

﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩١﴾.

هذا حُكْمُ الله تعالى بأنَّ المحسنين يجب رعايتهم وحِمايتهم والدفاع عنهم من أهل الإسلام، وخاصة من أهل الشأن فيهم، وهي دليلٌ أنَّ الإحسان يكون بقدر الوُسع والطاقة، فإنَّ هؤلاء الضُّعفاء والمرضى والعجزة إذا نصحوا لله ولرسوله بما يستطيعون كانوا من المحسنين، فلا لَوْمَ عليهم في عجزهم وضعفهم.

وقاعدة رفع الحرج عن المُتقين والمُحسنين قاعدة قرآنية إذا قدَّموا جُهدهم وطاقتهم ثم لم يحصل لهمُ الوُسع في أداء الفِعْلِ كاملاً كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾[2]. وهذه الآية من سورة «الأنعام» قالها تعالى بعد قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٦٨﴾[3]، فإنَّ المرءَ إنْ ترك مجالسة الظالمين فقد برئ مِنْ عُهْدَتِهِمْ وإِثْمِهِمْ، وبهذا لا يستطيع أنْ يُغَيِّرَ مُنكرهم، وبهذا لا يكون آثماً بسبب تقواه في أداء وُسعه، وكقوله تعالى في سورة «المائدة»: ﴿لَيْسَ

[1] سورة النور، الآية: ٢.
[2] سورة الأنعام، الآية: ٦٩.
[3] سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾[1].

وهذه القاعدة القرآنية العظيمة تُفِيدُ أنَّ المرءَ لا يُؤاخذ إلاَّ بما يستطيع، وهو معذورٌ بما لا يستطيعه، فلا تكليفَ فوق الطاقة، وتفيدُ أنَّ المقدور لا يسقط بالمعذور، فإنه يجب عليك مقدار ما تستطيع، فإنْ عجزتَ عن شيءٍ وقدرتَ على آخرٍ، أو عجزتَ عن أداءِ بعض الشيء دون بعضه الآخر فيجب عليك أداء ما تستطيع، وتفيدُ أنَّ الأثر المادي ليس هو مقصود كلّ الأمر الشرعي، بل إنَّ الأمر القلبي والأثر الإيماني والغيبي مقصود أول في الشرع، فإنَّ تغيِّيرَ المُنكر بالقلب لا يُغيِّرُ المنكر مادياً في الغير، لكنه يمنع حصول المنكر في القلب ـ أي في قلب الناظر ـ، ويمنع الإثم ويحقق الإيمان والأعذار إلى الله تعالى، وهذه مطالب شرعية عظيمة، والله تعالى يحبها ويريدها، فمن قيَّد شرعية عملٍ على أثره المادي فقط فهو غالطٌ، لأنَّ أمرَ القلب والغيب مقصود للشارع، وهذا يُثْبِتُ جَهْلَ مَنْ منع الجهاد بحجة عدم وُسع أهله اليوم أنْ يُقِيمُوا دولةَ الإسلامِ، فطلبَ منهم لجهله أن يتركوه، ولم يفهم هذا معنى أن ينظر المجاهد إلى عين الله تعالى، وإلى مُراقبة الله تعالى له أن يقوم في مقامات الطاعة التي تُرضيه سبحانه وتعالى، وإلى أنَّ المقصود الأجر والشَّهادة، فإنَّ وُعود القرآن للمجاهدين في هذا أعظم مِنْ وُعُودِ الغَلبة والتمكين.

ويُستفاد من هذه القاعدة الرد على مَن منع الجهاد لتحقيق بعض المقاصد الشرعية دون إدراكها كلِّها، فإنَّ هؤلاء منعوا أن يلتحق المسلمون إلى مواطن جهادٍ كان فيها الدفع عن المسلمين، وردِ الصائل، ولم يكن فيها الوسع أن تُقام لهم دولة، ولا أنْ يتحقق فيها التمكين الذي ينشدونه، فغلط البعض بأنْ منع هذا الجهاد، وهذا خطأ جسيمٌ عظيمٌ، فإنَّ الجهاد اليوم له مقصدٌ أعظم وهو إعادة الحُكم الإسلامي، والتمكين للإسلام وأهله، ولكن قد يقع جهاد يحقق مقاصد أخرى مِنْ دفعِ الظُّلم عن المسلمين، أو رعاية حُرماتهم، أو دفع الصائلين عليهم، فهذا جهادٌ واجبٌ لمن قدر عليه كذلك، ويشهد لهذا فعل موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾[2]، فإنَّ موسى عليه السلام استجاب لنداء المظلوم في ردِّ الظُّلم عنه، وفي السنَّة ما يشهد لهذا، ذكرته في غير هذا الموطن.

﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

هذه الفاصلة القرآنية في بيانِ صِفَتَيْنِ من صفاتِ ربِّنا سبحانه وتعالى، فيهما بيان ما يغلب من صفات الله تعالى على غيرها، فإنَّ الرحمة تغلب الغضب، والمغفرة تسبق العذاب، وها هنا في هذا

---

[1] سورة المائدة، الآية: ٩٣.

[2] سورة القصص، الآية: ١٥.

الموطن ليس فيهما من معاني إسقاط الذنب عن مُقترفه، بل لبيان رحمة الله ومغفرته في إسقاط المُؤاخذة عن الضُّعفاء والمرضى وأهل العجز المادي، فإنَّ رفعَ التكليف عنهم هو من قبيل الرحمة بهم والمغفرة التي تسبق فِعْلَ المعصية، وقد تقدم بيان هذا، فلو شاء الله لَكلف هؤلاء كما قال تعالى عن صرف مُقاتلة بعض المنافقين للمسلمين في سورة «النساء»: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وقد كلف الله بني إسرائيل تكاليف من قبيل العقوبة لهم كما قال تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[2]، وهذا كما يكون في الأمر الشرعي كذلك هو في الأمر القَدَري، فإنَّ الابتلاء يكون للعُصاة بسبب فِسقهم كما قال تعالى في سورة «الأعراف» في سبب ابتلاء القرية بالحوت يوم السبت: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[3]، وأما للمؤمنين فهو ابتلاء الرفعة والرحمة كما قال تعالى في سورة «محمد» عن سبب تكليف المؤمنين بالجهاد: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾[4]. وقال عن امتحان المحرم بوفرة الصيد بين يديه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[5]، وهذا كلُّه من قبيل الرحمة بهذه الأُمَّة كما قال تعالى عن سيد المرسلين وأُمَّتِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[6].

﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

أشهدُ أنَّ هذه كلمات ربٍّ رحيمٍ، وأشهدُ أنَّ هذا القرآن هو كلام ربِّ العالمين، وأشهدُ مواقف الإيمان حتَّى في اختفائها هي التاريخ الذي يستحق الكتابة والاعتناء.

هذه آيةٌ لا أقفُ عندها إلاَّ وأحسُّ بقشعريرة في جلدي، وبتشكل دمعة تترقرق في عيني، وحين أُفكر في سبب هذا أجدُ أُموراً تتنازع، فهي معانٍ كثيرةٍ لا معنًى واحداً، إذ أجدُ عارضاً من صورة

---

[1] سورة النساء، الآية: ٩٠.

[2] سورة الأنعام، الآية: ١٤٦.

[3] سورة الأعراف، الآية: ١٦٣.

[4] سورة محمد، الآية: ٤.

[5] سورة المائدة، الآية: ٩٤.

[6] سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

رجالٍ لا يملكون على أبدانهم إلاَّ ثوباً واحداً، يدخلون على حضرة النُّور رسول الله ﷺ يسألونه رحالَ السَّفر، لأنَّ في قلوبهم شوق الرغبة بالصحبة لحبيبهم، ودافع الأجر ببلوغ الجِنان، لكن قصَّرت بهم ظروفهم، فجاءوا يستعينون على هذا الحبِّ بدابة تحملهم، فينظر إليهم الحبيب نَظْرَ المُشفق، ويُقَلِّبُ فيهم بصره، فيعجب لهم حباً، ويعجبُ من غيرهم الذين كانوا في مجلسه قبلاً وهم أُولوا الطَّول يستأذنونه بالقعود، فيرد عليهم بحب: «**لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ**»، فتطأطئ رؤوسهم إلى الأرض، وتجيش قلوبهم بالحزن، وتغشاهم آلام كالسحب، فتفر الدمعات من عيونهم، إذ ستغيب عنهم صورة الحبيب المصطفى، وستفوتهم مراتب المجاهدين والشُّهداء.

ما أقسى ما يُلاقيه الجهاد! وما كبد قدره الذي أراده الله له! أُولوا الطَّول يتركونه مع سِعتهم، والفقراء يحبونه ولا يجدون وُسعهم للحاق به، وكما الحال قديماً هو الحال اليوم فهذا قدر الجهاد.

ثمَّ أعجب وأطرب من أن لا يذهب هذا المشهد خفياً في التاريخ، بل تأتي كلمات الله، وكفى مدحاً للكلمات أن تكون هذه الكلمات هي كلمات ربِّ العالمين لتُسجل هذا المشهد نوراً يُتْلَى إلى يوم القيامة، لِيعلم المؤمنون بهذا الكتاب أنَّ التاريخ الحقيقي الذي يستحق أن يُكتب هو تاريخ الإيمان، وأنَّ الرجال الذين يستحقون كتابة مواقفهم إنما هم رجال الإيمان، فقراء كانوا أم غير فقراء، ذلك لأنَّ دمعات هؤلاء الفقراء غالية ثقيلة في ميزان ربِّ العالمين، وحزنهم أنْ يفوتهم الخير أعظم مِنْ أعمالِ وأموالِ المُترفين، فهذا القرآن هو صحائف المؤمنين، وما فيه هو منهجهم في ما ينبغي أن يعرفوه ويعلموه ويُقيمُوا له الشأن.

ثمَّ أذهبُ مع أماني الصالحين، فهم يريدون الوُسع في المال لا للترف، ولكن لِيُنْفِقُوهُ في سبيل الله تعالى، وحين يقع الحزن في قلوبهم إنما يكون لقِلَّةِ الوُسع لأنْ يسلطوا عليه هلكته في الحقِّ، فهذا حُزنهم الذي يعتريهم، بأنهم لا يجدون ما يُنفقون. فهذه أماني الحقِّ، وهي تلحق أصحابها بمن يعمل، لأنَّ الأعمال بالنيَّة[1]، وإنَّ المرء ليُدرك بحسن نيَّته إنْ قصُّرت به قُدرته ما يُدركه العاملون أنفسهم كما جاءت بذلك النصوص الشرعية المُباركة[2]، وهذه أماني الحقِّ لا أماني المنافقين الذي تقدم ذِكرهم في قوله تعالى: ﴿ ۞ **وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ٧٥ ﴾[3].

[1] عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: «**إِنَّما الأَعْمَالُ بالنِّيات، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانتْ هِجْرَتُه إلى دُنْيَا يُصِيبُها، أَوْ إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُها، فَهِجْرَتُه إلى ما هاجَرَ إِلَيه**» أخرجه البخاري في «كتاب بدءِ الوحي» باب كيف كان الوحي إلى رسول الله ﷺ وقول الله جلَّ ذِكره: ﴿ **إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ** ﴾[النساء: ١٦٣]. حديث رقم: ١. أطرافه في: ٥٤، ٢٥٢٩، ٣٨٩٨، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيَّة**». وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال. حديث رقم: ١٩٠٧.

[2] روى أبو داود عن أنس ﷺ أنَّ ﷺ قال: «**لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاَّ وهم معكم فيه**». قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: «**حبسهم العذر**».

[3] سورة التوبة، الآية: ٧٥.

إنَّ هؤلاء داخلون في قوله تعالى: ﴿لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾، ولكن لهذه الدمعات الإيمانية، وهذه الأحزان المحبوبة إلى الله تعالى كان لابدَّ من إفرادهم بالذكر في آية قرآنية تُتلى إلى يوم القيامة.

هم قِلَّةٌ لا يزيدون عن سبعة رجال[1]، لكنهم عددٌ كثيرٌ في ميزان هذا الدِّين، وفي ميزان القيامة، وفي آيات الله العظيمة، ولذلك أُفْرِدُوا بالذكر تخليداً لعمل الإيمان القلبي الذي فعلوه، حيث أتوا إلى رسول الله ﷺ ولم يقعدوا، وطلبوا منه أن يحملهم لا أن يأذن لهم بالتخلف، ولم يخرجوا من عنده فرحين أنَّ التكليف سقط عنهم لقِلَّة الوسع بل خرجوا وأعينهم تفيض من الدمع، يا الله ما أجمل هذا اللفظ ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾.

إنَّ هذه الآية إرشادٌ ربَّاني لأهل الأعذار أن لا يفرحوا إنْ سقط عنهم التكليف لعدم الوسع، بل عليهم إنْ أرادوا عظيمَ الأَجْرِ، وإنْ أحبوا مُشاركة العاملين في حسناتهم أنْ تكون في قلوبهم الأماني أنْ لو قدروا على العمل فعملوا عمل الصالحين القادرين، أما هؤلاء الذين يفرحون بسقوط التكليف لعدم الوسع فهم محرومون مِنْ أجر العاملين، أما الذين يبحثون عن الأعذار الواهية لسقوط التكليف فهم أهل الحِيل التي دمر الله بسببها أسلافهم من اليهود من أهل القرية التي احتالت على الصيد يوم السبت.

ثمَّ إنَّ فيها الإرشاد أنْ يسعى العاجزون لردِّ العجز، وأنْ يبذلوا وُسعهم في نقضه إلى بديله من الوسع والقُدرة، فإنَّ هؤلاء ذهبوا وسألوا رسول الله ﷺ أن يحملهم، لأنَّ في هذا دليل الصدق، وفيه تمام الإعذار إلى الله تعالى.

---

[1] قال القرطبي رحمه الله تعالى: «رُوي أنَّ الآية نزلت في عِرباض بن سارية. وقِيل: نزلت في عائذ بن عمرو. وقِيل: نزلت في بني مقرن - وعلى هذا جمهور المفسرين - وكانوا سبعة إخوة، كلهم صحبوا النَّبيَّ ﷺ، وليس في الصَّحابة سبعة إخوة غيرهم، وهم النعمان ومعقل وعقيل وسويد وسنان وسابع لم يُسمَ. بنو مقرن المزنيون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله ﷺ ولم يُشاركهم - فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة - في هذه المكرمة غيرهم. وقد قِيل: إنهم شهدوا الخندق كلّهم. وقِيل: نزلت في سبعة نفرٍ من بطونٍ شتى، وهم البكاؤون أتوا رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ليحملهم، فلم يجد ما يحملهم عليه؛ فـ ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فسموا البكائين. وهم سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف وعلبة بن زيد أخو بني حارثة. وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن بن النجار. وعمرو بن الحمام من بني سلمة. وعبد الله بن المغفل المزني، وقِيل: بل هو عبد الله بن عمرو المزني. وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف، وعِرباض بن سارية الفِزاري، هكذا سماهم أبو عمر في كتاب: «الدرر» له. وفيهم اختلاف. قال القشيري: معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل وآخر. قالوا: يا نبي الله، قد ندبتنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزو معك. فقال: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ فتولوا وهم يبكون. وقال ابن عباس: سألوه أن يحملهم على الدواب، وكان الرجل يحتاج إلى بعيرين، بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبُعد الطريق. وقال الحسن: نزلت في أبي موسى وأصحابه أتوا النَّبيَّ ﷺ ليستحملوه، ووافق ذلك منه غضباً فقال: «**والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه**» فتولوا يبكون؛ فدعاهم رسول الله ﷺ وأعطاهم ذودا. فقال أبو موسى ألستَ حلفت يا رسول الله؟ فقال: «**إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيتُ الذي هو خير وكفرت عن يميني**».

قلتُ: وهذا حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم بلفظه ومعناه. وفي مسلم: «فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذود غر الذرى»... الحديث. وفي آخره: «فانطلقوا فإنما حملكم الله». وقال الحسن أيضاً وبكر بن عبد الله: نزلت في عبد الله بن مغفل المزني، أتى النَّبيَّ ﷺ يستحمله» انتهى.

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

لقد تقدم مَنْ أعذرهم الله تعالى، فليس عليهم سبيل بعقوبة أو ملامة، بل هم معذورون، فإنْ نصحوا لله ولرسوله ﷺ كانوا أهل إحسانٍ، أما غيرهم من الأغنياء ـ وهم أُولوا الطَّول كما تقدم ـ فهؤلاء عليهم الملامة، ولهم العقوبة لما رضوا بأن يكونوا خوالف عن النفير مع المجاهدين.

نظير هذه الآية قد سبق في قوله تعالى: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[1]، وفي هذه الآية: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾[2].

هكذا يأتي التصريح في هذه الآية أنَّ الله عزَّ وجلَّ هو الذي طبعَ على قلوبهم بالنِّفاق، وفي ذلك مزيد إذلالٍ لهم، ومزيد عقوبةٍ لهم، فإنَّ ذكر اسم الله العظيم في فِعْلِ هذه العقوبة لتجعل هذا الأمر أشد وأشق وأنكى، ولذلك كان في الآية السابقة قوله تعالى: ﴿ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾، والفقه شدة الفهم، ولكن لما ذُكر اسم الله تعالى هنا زادت العقوبة فقال: ﴿ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، فهم ليسوا محرومين من الفقه، بل هم محرومون بهذا الطبع من العلم.

وسبب هذا التشديد في هذه الآية أنَّ استئذان ﴿ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ ﴾ كان عند نزول الأمر بالجهاد مع الإيمان، فكان استئذانهم بأنْ لا يشملهم الأمر الإلهي بالجهاد، أما هؤلاء «الأغنياء» فإنَّ استئذانهم كان في حصول طلب النفير، وموقع هذا الاستئذان أشد سوءاً مِنْ استئذان الأوائل، فاستحقوا عقوبة أشد، ففي الأولى حُرموا الفقه، وفي الثانية حصل لهم الإثم وحُرموا من العلم.

﴿ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾[3].

هنا لابدَّ من إملاءٍ، يترك القرآن فعله لقارئه، فيُجْرِيهِ على سنن التاريخ في الأخبار كما تقدم مثال ذلك في بيان هذا الأسلوب القرآني، وقد ضربت مثلاً بقصة صاحب يس فليُرجع إليه[4]، وهنا فإنَّ الاعتذار لا يكون إلاَّ بهذه العودة الميمونة المباركة بالنَّصر والظفر، ولو كانتِ العودة كما كانت في أُحد لما كان لهم قولٌ آخرٌ لا ذِكْرَ فيه للاعتذار، أما وقد عادت جموع المؤمنين مع الحبيب المصطفى من تبوك بالرحمة والبركات وحصول الآيات فإنَّ ما سيفعله المنافقون هو موقف الاعتذار.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٧.
[2] سورة التوبة، الآية: ٩٣.
[3] سورة التوبة، الآية: ٩٤.
[4] انظر الصفحة: ٣٦٨ وما بعدها..

هذا الاعتذار ليس اعترافاً بالتقصير، وليس إقراراً بالذنب والندم عليه، بل هو اعتذار بأنْ لم يكن لهم الوسع بالخروج، فيأتون بالأكاذيب لتبرير تخلفهم وقعودهم، وما هي من الحقائق في شيءٍ، بل هي التمحلات والمُخترعات من الأقوال التي تصنعها أمراضهم، وقد عُلِمَ من التاريخ ومن الدراسات الجادة أنَّ هذا النوع مِنَ الخَلْقِ، أي مرضى القلوب بالجبن والبخل، هم أقدر النَّاس على الاختراع، وهو صنفٌ يتميَّزُ بالخيال الواسع في صُنْعِ الأكاذيب، ولكثرة ممارستهم الأكاذيب فإنها تُصبح صناعة متقنة يُعْجَبُ السامع منها، وأنتَ ترى الطفل عندما يكذب تَعْلَمْ مِنْ تردده وقَسمات وجهه وتخبطه أنه لا يحدث الحقيقة، ولكن هؤلاء المرضى تراهم يتحدثون الأكاذيب وكأنهم يقرؤون من كتابٍ مفتوحٍ، وكأنَّ الحدث الذي يسوقون خبره قد وقع لِتَوِهِ، فهم يخبرون عنه حقيقةً، فلا تَلَعْثُم، ولا تَرَدُد، ولذلك مِنْ أحاديث الحبيب المصطفى قوله: «..**وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً**»[1]، لأنه حينئذٍ يصبح اختلاق الأخبار عنده صفة لازمة لا يقدر عنها فكاكاً، فمرآة نفسه عند نفسه قد قبلت واسودت، أو تقعرت أو احدودبت، فهو لا يسمع كما يسمع النَّاس، ولا يرى كما يرى النَّاس، بل يسمع ما يتخيل، ويرى ما يتخيل، ويشهد لهذا حديث المصطفى: «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ، كَلاَبِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[2]. فإنَّ أمثال هؤلاء يُزوِرُون على أنفسهم أولاً قبل النَّاس، ولأثر الكذب على قلب فاعله فإنه يرتد على إيمانه أكثر من غيره من المعاصي، ولهذا قال الحبيب المصطفى: «**يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ**»[3].

هؤلاء المنافقون مرضى، ويُتقنون فنَّ الاعتذار والتمحلات، ولهم ألسنة أحلى من العسل، ولذلك علَّم الله المؤمنين طريقة التعامل معهم وذلك في قوله: ﴿**لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**﴾، فكلماتكم الجميلة، وحُججكم المسوقة، وأعذاركم المبذولة لن نردها إلاَّ بكلمةٍ واحدةٍ: ﴿**قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ**﴾ وهذا يعني أنها لولا خبر القرآن الرحيم لانطلقت كلماتهم على المؤمنين، لما تقدم من إتقان المرضى بالجبن فنَّ التبرير والكذب، ولأيمانهم التي يحلفونها أمام المؤمنين الذين لا يتصورون أن يقسمَ المرء بربِّ العزة والجلال كذباً وزوراً كما قال الله عن مؤمني الجن: ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥**﴾[4]، وكما قال تعالى عن المؤمنين في

---

[1] أخرجه مسلم في «كتاب البر والصلة» باب قُبْحِ الكذبِ وحُسْنِ الصِّدقِ وفضله. حديث رقم: ٢٦٠٧.

[2] أخرجه البخاري في «كتاب النكاح» باب المُتشبع لما لَمْ يَنَلْ وما يُنْهى من افتخار الضَّرَّة. حديث رقم: ٥٢١٩. ومسلم في «كتاب الآداب» باب النهي عن التزوير في اللباس وغيره والتَّشَبُّعِ بما لم يُعطَ. حديث رقم: ٢١٢٩، ٢١٣٠.

[3] أخرجه أحمد في «المسند». حديث رقم: ٢٢٠٧٠. وقال محققه: «إسناده منقطع، لم يُصرح الأعمش عمن حدثه، والحديث انفرد به أحمد. وعزاه له المنذري في «الترغيب والترهيب» ٥٩٥/٣، وابن حجر في «الفتح» ٥٠٨/١٠» انتهى.

وقال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير» الجزء السادس، الصفحة ٥٩٩:-

قال الهيثمي: وفيه انقطاع، ورواه البزار وأبو يعلى بلفظ: «يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب» قال المنذري: رواته رواة الصحيح. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال ابن حجر في «الفتح»: سنده قوي، وبه يعرف أن المؤلف لم يصب في إيثاره الطريق الضعيفة وضربه عن الصحيحة صفحاً.

[4] سورة الجن، الآية: ٥.

صدمتهم من المنافقين: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ٥٣﴾[1]، ولمعاني الخير في قلوب المؤمنين أنَّ ناساً يعيشون بينهم ويرون بركات النُّبوة، وعظمة الإسلام، ونصر الله له، ثم يجلسون قاعدين مُتخلفين عن رسول الله ﷺ، فهل يمكن لمن تقدم وصفهم الإيماني بالبكاء حزناً ألاَّ يجدوا ما يُنفقون يتصورون خُبث طوايا هؤلاء المنافقين؟.

كلّ هذه تجعل المؤمنين يصغون إلى المنافقين، فيعذرونهم، ويُسامحونهم، ولذلك أمر الله المؤمنين بأن يردوهم بكلمةٍ واحدةٍ: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡ﴾.

وقد كشف القرآن قلوب الكافرين، وقلوب المنافقين، وعراها، وعلَّم المؤمنين أحوالها، وحذَّرهم من الانخداع بظواهرهم سواء كانت هذه الظواهر من الكلمات أو البسمات أو المُسايرة، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾[2]، هذا إنْ ظهر منهم الكيد والكذب والخِداع، وكشروا عن أنياب الحِقد والغيظ والبُغض والكراهية ثم فوق ذلك يقول العليم الخبير بهم: ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾، ومع ذلك كثيراً ما نسقط جميعاً في هذا الامتحان، فما أنْ نسمع كلمةً حسنةً جميلةً، أو نرى بسمةً ظاهرةً صفراء حتَّى ننسى، ويذهب ما في نفوسنا من وقائع كانت قبل قليل، ومن تاريخٍ مُنتظمٍ لا تتخلف صِفتهم فيه، فنُكوَى مرةً بعد مرةٍ، ونخدع مرات بعدد ما يُريدون هم منا، فلم يعد الأمر فينا أمر طيبةٍ وحُسن نيَّةٍ ولكن غباء وغفلة وسذاجة تُضحك الثكلى.

لقد تكررت كلمة المكر في القرآن تصف فِعْلَ الكافرين، وهي صفة أذنابهم من المنافقين، وإني أشهد أنَّ هذه لعبة لا يقدر عليها منهم إلاَّ الله سبحانه وتعالى كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾[3]، ومن عجائب ما قال الله عنهم كاشفاً مكرهم وخِداعهم: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾[4]، فها هم الكافرون يموتون ويُعذبون في قبورهم، ويُسألون فيها عن ربِّهم ودينهم وعن رسول ربِّ العالمين، ثم يقومون من قبورهم، فيرون النَّار والعذاب، فيقولون كلماتهم هذه: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾، فهل يُصدق الله قولهم أم يُكذبه؟!.

إنه يُكذبهم ويقول عالم الغيب والشَّهادة سبحانه وتعالى: ﴿بَلۡ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخۡفُونَ مِن قَبۡلُۖ وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٢٨﴾[5]. أي إنَّ هؤلاء الكفرة كانوا يعلمون صِدق خبر النَّبيِّ ﷺ في ذلك

[1] سورة المائدة، الآية: ٥٣.
[2] سورة آل عمران، الآية: ١١٨.
[3] سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.
[4] سورة الأنعام، الآية: ٢٧.
[5] سورة الأنعام، الآية: ٢٨.

كلِّه، فلم يقع لهم إلاَّ ما كانوا يعلمون، ولو عادوا إلى الدُّنيا بعد كلِّ هذا لما كان منهم إلاَّ العودة إلى الكُفر والجحود والتكذيب.

فهذا هو لكُرههم وخِداعهم، فلا تأمن لهم ما استطعت، ولا تغرك الكلمات ولا البسمات ولا دموع التماسيح، فكل ذلك يفعلونه إنْ أرادوا منك بعض الأمر، أو يكون لك الغلبة، أما إنْ وقعتَ بين أيديهم، أو صِرْتَ ضعيفاً فحينها ستعلم صدق هذه الآيات عَيَّاناً في بدنكَ ونفسكَ وأهلكَ.

إنَّ قارئ تاريخ الصَّحابة ﷺ لَيعجب من حِكمتهم في الدعوة، ويعجب أكثر من لين قلوبهم في ما بينهم، ولينها أكثر في الطاعات والعبادات، فهمُ البكاؤون وأهل التأوه في الأسحار، والرقة على الضعيف والمسكين والفقير، ثم ما أن تُقلب الصفحة لتراهم في القتال وفي تعاملهم مع أعداء الله تعالى حتَّى لَترى واقع قوله تعالى وهو يأمر رسوله الرءوف الرحيم: ﴿ **فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾** ﴾[1]. فالله يأمر رسوله أن يضربهم ضرب مَن يُرعب الناظر، ويخيف المُراقب، حتَّى ينخلع قلبه فيشرد ويهرب عن المُواجهة بعد ذلك.

هذه الوصية الربَّانيَّة بعدم إعذار المجرمين هي قانون الحياة، وهي تأتي بعد قوله تعالى عن المؤمنين: ﴿ **مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ** ﴾، فالمؤمن يخطئ فيعُذَّر للحقِّ الذي في قلبه، ولِغلبة صفة الخير عليه، أما هؤلاء المجرمون فلا ترقب منهمُ الخير، بل عليك أن تكون أشدَّ حذراً وهو يبتسم، لأنه حينئذٍ يكون قد تجمع فيه السمّ وينتظر الانقضاض، ويتربصُ بك الفُرصة والدائرة لِترى منه عجائب الشرِّ، وإنك إنْ أخطأت هذه الوصية فلا تَلُومَنَّ إلاَّ نفسك، وحينها لن تجد مجال للمُراجعة، لأنَّ ضربة هؤلاء المجرمين ستكون القاضية ﴿ **وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾** ﴾[2]، وإيَّاك أنْ تقول: لِنجربهم هذه المرة، أو تقول قد تغيَّروا، أو قد انقلبت الأفاعي والذئاب إلى حملان، فإنك إنْ فعلتَ فإنَّ مكانك هو القبور لا منصات القِيادة.

مما يُؤسف له أنَّ المسلمين قد انقلبت عليهم الصورة، فهم يرفعون درجة الخطاب، ويملئون كلماتهم ناراً، وكأنَّ وراءها إرادات مُستعدة أن تخوض أعتى المعارك، فيشحن القادة أتباعهم شحناً مُتواصلاً، فترتفع درجة الغليان بينهم وبين خصومهم، فيذهب هؤلاء الخصوم إلى أقصى درجات الحرب، فيُعلنون النفير، فيضربون ضرباتهم القوية، وما أن يكون هذا حتَّى يبدأ خطاب قادة هذه الحركات بالتهدئة، فتلين كلماتهم، وتزول عنها حِدة المُواجهة والاستفزاز، فتنقشع الأحداث عن آلام وسجون وعذاب بلا مُواجهة سوى ما كان من تصعيد الكلمات فقط، وأما في الإرادات والأفعال فلا شيء، بل هو شيءٌ واحدٌ هو الاستسلام فقط، وهذه سنَّة تسلكها هذه الجماعات منذ عشرات السنين، وتتكرر التجربة بلا تخلف، وهذا كلُّه مِنَ الجهل في إدارة الحياة، أو هو الغباء في

[1] سورة الأنفال، الآية: ٥٧.
[2] سورة ص، الآية: ٣.

معرفة حقائقها، لأنَّ طريقة المُهتدين هي عكس ذلك تماماً، أي إنَّ طريقهم هي لينٌ في الخطاب، وشدَّةٌ في المُواجهة، ومَن خالفَ السنن عليه أن يدفع الثمن.

ومع هذه الصورة تجد أنَّ الله يقدر للمسلمين التقدم نحو أهدافهم، فتقع لهم الفُرص القَدرية المُلائمة للتمكين والغلبة، ثم تجد هؤلاء بمجرد جلوس شيطان من شياطين الإنس معهم، فيبتسم في وجوههم، وقد تدمع عينه تأثراً من كلمات الدِّين والحقِّ، ويزيد شيئاً على هذا من الإيمان أنه ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾[1]، فيخرج هؤلاء السُذج الجهلة وهم يحلمون الأحلام أنَّ مقاصد الإسلام قد تحققت بوعود هذا الشيطان الرجيم، وينسون ما دعا سليمان عليه السلام بلقيس في رسالته حين قال لها ولقومها: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[2]، فإنَّ منطق الحرب والقتال بين المُتصارعين إنْ بلغ أحدهما قوة لإزالة الآخر أن يُزيله تماماً ويجعله تابعاً له ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾، فأمرهم أن يخضعوا له، ويسيروا إليه مسلمين مُستسلمين، أما أن يبقى هذا الطاغوت الذي استمرأ الكفر سنين طويلة، وبلغ جُهده في حرب الإسلام والمسلمين، ثمَّ إنْ ضعف أمام المسلمين طلب منهم الصفح، وقدم الوعود أن سيكون ولياً من أولياء الله، فهذا لا يكون أبداً، ولا هو من سنن الحياة، ولذلك ما أن يعود هذا لقوته حتَّى يجعل أول ما يفعله هو فناء هؤلاء ودمارهم.

هذه القاعدة القرآنية ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ هي من قواعد الحياة في التعامل مع المنافقين وأسيادهم، وهي من قواعد الإيمان التي يجب على المسلمين إتباعها ليتحقق لهم الفوز والسعادة والظفر في هذه الحياة، ولتفعيل هذه القاعدة لجيل من الأجيال المؤمنة مع واقعهم يكون في بداية الطريق، وذلك من أول المسيرة، فهذه هي هداية القرآن فهو القائل: ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[3]، ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ﴾[4]، فَالمُؤْمِنُ لا يُلْدَغُ مِنْ حُجْرٍ وَاحِدٍ مَرَتَيْنِ[5]، فبداية الطريق تكشف مراتب النَّاس وحقائقهم، وسنن التكوين لا تحابي أحداً، ومَن وقف أمامها غلبته كائناً من كان.

سيحلفون أيماناً وراء أيمان، ويعتذرون بكلمات كقاموس البحر رقةً وذكاءً ولُيونةً، وسيكون هناك اختبارٌ للمؤمنين، وسيدخل مع هذا عوامل اجتماعية ونفسيَّة واقتصادية، كما دخل في أمر عبد الله

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٣٤.

[2] سورة النمل، الآية: ٣١.

[3] سورة التوبة، الآية: ٨٣.

[4] سورة التوبة، الآية: ٤٨.

[5] إشارةً إلى قول النَّبي ﷺ: «لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ» والذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة ﷺ. البخاري في «كتاب الأدب» باب لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَتَيْنِ. حديث رقم: ٦١٣٣، ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَتَيْنِ. حديث رقم: ٢٩٩٨.

بن أُبي بن سلول في غزوة قينقاع وجلائهم، فقد طلب رسول الله ﷺ أنْ يهبهم له لما كان بينه وبينهم مِنَ الحِلْفِ القديم، فلم يمدح فِعْلَهُ، ومدح فِعْلَ سعد بن معاذ سيد الأوس ﷺ لما حكم على بني قُريظة بحكمه العدل فمدحه رسول الله ﷺ بقوله: «**لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ**»، وفي رواية: «**قَضَيْتَ بِحُكْمِ اللهِ**»[1]. فإنْ صدق المؤمنون كلام الله فازوا وبلغوا مُرادهم، وإنْ خُدعوا فيصح قول المثل فيهم: «كم في جهنَّم من أصحاب النوايا الطيبة».

النِّفاق عِماده الجبن والبخل، وهما صفتان تقدحان في مُرُوءَةِ الإنسان، وأول ما تسقطان في داخل المرء احترامه لنفسه، فهو لا يأنف من السفالات، ولا تُثيره إهانات النَّاس له، بله نظراتهم أو أقوالهم، فمثل هؤلاء يتقنون فنَّ «الاعتذار»، وهم يخلطونه بالذل من الأقوال والأعمال، فسيبكون، وسيلقون بهاماتهم على أرجل النَّاس يستعطفونهم، وسيضربون على هذا الوتر في قلوب المؤمنين ـ أعني صفة الرحمة والرأفة ـ، لأنهم يعلمون أنَّ العفو عندهم مُقدم على غيره، وليتذكر المؤمنون أن ما كان لهم فلهم فيه العفو والإحسان، وما كان لله فليس لهم إلاَّ الاستجابة لقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ**﴾[2].

﴿**لَّا تَعْتَذِرُوا**﴾.

هذه تقطع على المؤمنين مجرد الاستماع لأعذارهم، فلا إصغاء، ولا محاورة بزعم الردِّ على أعذارهم وتمحُلاتهم، لأنَّ مجرد الاستماع هو سقوطٌ في الفخ، ويزيد التورط إن انشغل المؤمنون بالردِّ وتفنيد أعذارهم، بل عليهم نبذهم وعزلهم، وهذا الأمر ـ أي عدم الاستماع لهم وعدم الانشغال بالرد عليهم ـ أدعى بأنْ لا تنطلي حيلهم على الضُّعفاء من المسلمين، إذ يُوجد من قال الله فيهم من المؤمنين: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ**﴾[3]، والحيل النَّفسيَّة تُعْرَفُ عند أهلها بأنها لا تنتهي، فإنْ فنَّدَتَ واحدةً جاء بأخرى، وهكذا يقضي الوقت فيما لا طائل تحته سوى السقوط في ألاعيبهم، ولذلك يُقال لهم: ﴿**لَّا تَعْتَذِرُوا**﴾.

ومما ينبغي الانتباه له أنَّ هذه القواعد إنما تُعمل في عزَّة الإسلام وقُوته، وبعد بلوغ طائفة الإيمان مراتبها العليا في التمكين والظفر، كذلك ينبغي التذكير أنَّه مع وُجود المنافقين زمن رسول الله ﷺ إلاَّ

---

[1] الحديث أخرجه الشيخان في صحيحيهما. البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب إذا نزل العدوُّ على حُكم رجلٍ. حديث رقم: ٣٠٤٣. أطرافه في: ٣٨٠٤، ٤١٢١، ٦٢٦٢. ومسلم في «كتاب الجهاد والسير» باب جواز قتل من نقض العهدَ وجوازِ إنزالِ أهل الحصْنِ على حُكمِ حاكمٍ عدلٍ أهْلٍ للحُكم. حديث رقم: ١٧٦٨، ١٧٦٩.
حَكَمَ فيهم سعد بن معاذ ﷺ أن تُقتلَ مقاتِلَتُهُم، وتُسبى ذراريهم، وتُقسَّم أموالهم. فأمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخُدَّت في الأرض، وجيء بهم مُكتَّفين، فضرب أعناقهم، وكانوا بين السبعمائة إلى الثمانمائة وسبي من لم يُنبتْ منهم، مع النساء، وأموالهم. ذكره ابن كثير في التفسير «تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير» لمحمد نسيب الرفاعي رحمه الله تعالى الجزء الثالث صفحة ٤٨٧ـ٤٨٨. والطبري في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الجزء الحادي عشر الصفحة ١٥٠.
[2] سورة النور، الآية: ٢.
[3] سورة التوبة، الآية: ٤٧.

أنَّه لم يثبتْ عنه ﷺ أنه نقَّب على واحدٍ خفاياه بل كانت أعمال الإيمان العظمى التي يحياها المجتمع المؤمن هي التي تكشفهم وتُظهر حقائقهم، ولذلك على المؤمنين أن يعملوا ويعملوا، ولا يقفون على هذا وهذا ليُعَلِّقُوا عليه لافتة، بل من خلال ابتلاء الإيمان يعرفون المنافقين، ومن خلال بنائهم ومسيرتهم تنكشف معادن النَّاس، وهذا أعظم في البيان، وأوضح في تجلية هذا النوع الخبيث المريض، وبذلك لا يسمح لهم بخداع الآخرين، فإنه وإنْ انطلت حيلهم في واحدةٍ، فستأتي أخرى، وأخرى حتَّى تقطع أعذارهم في نفوس مَن يعذرهم الضُّعفاء، وخلال هذه الرحلة من أعمال الإيمان العظمى يتمايَّز النَّاس، وتصل مراتب المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ ﴾[1]، فتأمل قوله: ﴿ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. لِتَعْلَمَ أنَّ هؤلاء سيهربون خلال المسرة إلى صفوف أحبابهم كما قال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾[2]، فهم ابتداءً يُسارعون فيهم بالتجسس على المؤمنين، وبإقامة الصلات معهم، وبالنُّصح لهم ضدَّ المؤمنين، وسيصلون في وقتٍ أن ينقلبوا إليهم بأبدانهم فلا يعذر المؤمنون في قتلهم كما يُقاتلون أسيادهم، لكن كلَّ هذا لا يكون إلاَّ في مراحل متأخرة من مسيرة الجهاد ضدَّ الكافرين.

﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

هذا فتحٌ ربَّانيٌّ رحيمٌ لبابِ التغيِّير والتوبة، فهذه سنَّة الله تعالى في عبيده أنه لا يُغْلِّقُ على أحدٍ رحمته، فهؤلاء الذين وقفوا على الأخدود التي أَوْقَدُوا فيها النيران، ورموا فيها المؤمنين؛ نساءً ورجالاً وأطفالاً، لم يُغْلِّقِ الله تعالى عليهم باب التوبة بل قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾[3]. فعلَّقَ الله جلَّ ثناؤه العقوبة بعدم التوبة من الجريمة التي اقترفوها.

هذه التوبة المقبولة هي توبة العمل، فإنَّ القرآن يُعَلِّمُ المؤمنين أن لا يقبلوا الكلمات، ولا صِيَّغَ الاعتذارات الجميلة، بل ما يقبله الله لتغيِّير أحكام المؤمنين فيهم هي الأعمال التي سيأتونها إن ندموا وتابوا إلى الله تعالى، وهذه تربية قرآنية عظيمة لأهل الإيمان، وهو إيقافهم في أحكامهم على الخَلق بالأعمال التي يؤذونها، فهي الميزان والحُكم، لأنها هي الحقائق التي تعبِّر عما في القلوب، وأما الكلمات فيتقنها كل أحدٍ، والدموع والاعتذارات هي قوة المنافقين والعاجزين، ولذلك ردَّ الله

---

[1] سورة الأحزاب، الآيتان: ٦٠-٦١.

[2] سورة المائدة، الآية: ٥٢.

[3] سورة البروج، الآية: ١٠.

توبتهم على ما سيراه الله تعالى ورسوله من أعمالهم، وقد تأكد هذا الحُكم بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

وبهذا فإنَّ الحُكم في الدُّنيا والآخرة يكون بأمرٍ واحدٍ وهو العمل، وذلك حين تكون الكلمات مجرد حجابٍ يتخذها أصحابها لتبرير إجرامهم أو سِلْبِيَتِهِمْ، لكنَّها حين تكون من أصحاب العمل فهي كلمات إيمانٍ لها ثقلها في ميزان الله يوم الثبات.

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾.

المعنى أننا لن نُصدقكم في ما تقولون من اعتذارات، ولكن ذكر كلمة «الإيمان» هنا لتكون أبلغ في الدلالة، فهي تعني فوق عدم التصديق عدم الأمان منهم، ووجوب دوام الحذر مما يأتي من أعمالهم في المستقبل، فباب التعامل معهم هو المُراقبة والرصد الدائم حتَّى لا يجدوا منفذاً لشرِّهم وخُططهم، وتعني كذلك عدم قبول أقوالهم حتَّى في الظاهر، وذلك مثل قوله تعالى في وعظه لحبيبه في تعامله مع المُشركين في سورة «الأنعام»، وهي سورة مكية بكاملها: ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾[2].

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾.

هذه الأخبار التي أعلمها للمؤمنين هي في أغلبها تتحدث عن الباطن والنوايا، وهذه من نِعَمِ الله تعالى عن المؤمنين، وهي خاصية من خاصية هذا الكتاب العظيم، والذي فضلُ كلامه كفضل الله على خلقه، ذلك لأنَّ أيَّ كشفٍ من إنسانٍ لآخرٍ يكون في أمور الظاهر، وأما ربُّنا سبحانه وتعالى فهو عالمُ السرِّ وأخفى، فهو يكشفُ للمؤمنين ما يخفي أعداؤهم في بواطنهم، وما يُسرون في قلوبهم لأنه كما قال عن نفسه: ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ ﴾[3]. وقال: ﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾[4]، وبهذا فإنَّ من خصائص هذه الصبغة الإلهية أنها تُعالج النُّفوس البشرية، فتُعالجها وتُقوِّمُهَا بالأمر والعِظات، وتفضحُ خصومَ الحقِّ ونواياهم، والإعراض عن هذه الهداية الربَّانيَّة سببٌ من أسباب ضُعفِ الإيمان، وسببٌ من أسباب السقوط في فِخاخ الكافرين، فإنَّ تعليقَ عدم إتباع الكافرين وأذنابهم المُنافقين للحقِّ الذي عليه أهل الإسلام على عدم الأسباب النَّفسيَّة من انحطاطها وخُبثها يُؤدي إلى إعذارهم ولو قليلاً، بل إنَّ بعضهم يذهبُ إلى مدحهم بأنهم أهل وعيٍ وعقلٍ، وما سبب كفرهم إلاَّ لأنهم يتحققون من الاعتقادات بطريقة عالية من النقد والتمحيص، ويذهب هؤلاء البعض إلى تفضيل هؤلاء «العقلاء!! كما يُسمُّونهم».

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٤ / سورة الجمعة، الآية: ٨.
[2] سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.
[3] سورة النحل، الآية: ١٩.
[4] سورة الأنعام، الآية: ٣.

على مُقَلِّدَةِ المسلمين من العوام الذين هداهم الله للحقِّ لما عُلِمَ في قلوبهم من الخير، بل وصل بعضهم إلى التشكيك في مستقر الفريقين يوم القيامة، وتساءل جاهلٌ بليدٌ: كيف يُعقل أن يدخل مسلمٌ عامي؛ لا يعرف علوم العصر، ولم يكتشف فائدة تنفع النَّاس في دنياهم، الجنَّة يوم القيامة، ثم يؤتى برجلٍ اكتشف المصباح الكهربائي فأنار حياة النَّاس، يوم القيامة فيدخل النَّار؟!.[1]

هذه الأسئلة الجاهلة المُشككة بكتاب الله تعالى يقولها قومٌ لا يُقيمون شأناً لله تعالى، ولا لعبادته، ولا لتوحيده، إنما همهم أنْ يعيش النَّاس في هذه الدُّنيا في رخاءِ الدواب ونعيمها، وهم كذلك لا يُقيمون شأناً لنفوس هؤلاء القوم وما فيها من خيرٍ ورِقَةٍ وحبِ صلاحٍ، ولما فيها من رحمة وتواضع في إتباع الحق، وليت أمثال هذا ـ وهم كُثر ـ يتساءلون ماذا جلب الكثير من هؤلاء للعالم؟ هل جلبوا لهم السعادة التي قال الله تعالى عنها: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾[2]، أم أنَّ الذي وقع هو قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[3].

لقد تتبعتُ أخبار الكثير من هؤلاء الذين يمدحون مِنْ قِبَلِ المنافقين والزنادقة أنهم قدَّموا للعالم خيراً، فوالله لم أجد إلاَّ فاسدين ومفسدين، ولم أجد إلاَّ قذارات وسفالات في السلوك، ولولا أنَّ هذه الورقات ليست لهذه المسألة لَذكرتُ للقارئ العشرات من الأسماء التي تملأ العالم وشغلت النَّاس وما في صفاتها من الخبث والسفالة، وقد رُزِقْتُ بفضل الله برغبةٍ شديدةٍ في تتبع أخبار هؤلاء القوم، قديماً وحديثاً، فالمُذكرات الشخصية، وما يُوازيها من كتابات عن الرجال وشخصياتهم همتي في القراءة، فوالله ما رأيتُ واحداً خارج دائرة الإسلام يمدح في بيت؛ مع زوجة أو ولد، أو يمدح في سلوك إذا ما خلا مع أصدقائه وأخدانه، هذا في وقتٍ كان فيه بعض الأخلاق التي تُراعى اجتماعياً، أما اليوم فالأمر لا يحتاج إلى تنقيبٍ وبحثٍ، فأخبار فسادهم وخُبثهم وسفالتهم مُعلنة غير مخفية، وقد استفدتُ كثيراً من هذه القراءة فهي تُذْهِبُ عنك عظمة الأسماء الكبيرة، وتُسْقِطُ من نفسك قيمة الصور المصنوعة بالكذب والتزوير، وكان بعضهم ممن يحب أن يتعقبني لِيقدح، يستهزئ بي أني أقرأ أخبار هذه الأسماء، ويقول هذه نهمة الرجل، هذا عند القدح، وعند المدح يقول نفسه: «هذا رجلٌ مطلعٌ يقرأ كلَّ شيءٍ»، وهذه قضية شرحتها في كتاب: «فن القراءة»[4] يسر الله

---

[1] وحصل مثل هذا مع شخص من بلاد الحرمين، واسمه «عبد الله القصيمي»، وكان ممن ألف كُتباً قيمة في التوحيد.. وعندما زار هذا الشخص إحدى الدول الأوروبية، ويغلب على ظني «فرنسا» انبهر هذا الأخير بتقدم هذه البلاد في مجالات الصناعة.. وبما رأت عيناه، فارتد على عقبيه ـ عياذاً بالله ـ قائلاً: كيف يدخل هؤلاء القوم جهنَّم بعد كلِّ هذه الحضارة التي وصلوا إليها؟!.. نسأله تعالى الثبات حتى الممات، ونعوذ به من الحور بعد الكور.

[2] سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

[3] سورة طه، الآية: ١٢٤.

[4] علمتُ من الشيخ ـ حفظه الله تعالى ـ أن هذا الكتاب وكُتُبٍ أخرى ضاعت منه وتُعتبر في عِداد المفقودات. فالله المستعان. وذكر لي أنه انتهج في كتابة هذا الكتاب منهجاً لم يسبق لأحدٍ أن انتهجاه من قبل، حيث أنَّ الشيخ في كتابه هذا ذكر ما يزيد على ألف مصنفٍ، قام بإعطاء نبذة يسيرة على كلِّ كتاب ومُؤلفه، ثم بعد ذلك ذكر فوائد من الكتاب وتقيِّيمه له.

نشره، ويُقابل هذا من معرفة هؤلاء الذين يملئون قلوب الزنادقة والمنافقين وضِعاف الإيمان، يذهب القارئ إلى تاريخ أُمتنا ورجالها ونسائها قديماً وحديثاً فيعجب مما هم فيه من الخير والإيمان والصدق، في سرهم وعلانيتهم، ومع ذلك هم بشر، لكنهم أرقى الأمم وأعظم الأمم وخير الأُمم.

فما يقوله هؤلاء الجهلة من تعظيم الكافرين إنما مبعثهم بُعدهم عن هدي القرآن في معرفة هؤلاء الكفرة الفجرة، والمنافقين السفلة، فإنهم لو اهتدوا به لَعلموا من أخبارهم الشيء الذي يجعلهم في تقززٍ تامٍ منهم، هذا إن كانوا مُغفلين، أما إن كانت الأُخرى؛ أي على شاكلتهم من السفالة والفجور فإنَّ هذه الأخبار لا يرون فيها قيمة، لأنَّ موازينهم في التعظيم والحب موازين الجهل والضلال، وبهذه الموازين الجاهلة فهم لا يرون قدحاً في حِكمة الرجل وعقله أن يكون لُوطياً مأبوناً يشتهي الرجال، بل لما مات أحد هؤلاء واسمه «جان جينيه»[1] لم تتردد إحدى «الأديبات الناقدات العربيات...» أن تجعل اشتهاءه للرجال سببه حِكمة خالصة فيه، وخصوصية ثورة كامنة في نفسه، أي أنَّ الرجل يستخرج حِكمته من دُبره!!، وهذا شيءٌ غير عجيبٍ ولا فريدٍ، فهناك العشرات من أمثال جان جينيه، بل إنَّ إمامهم الأكبر «كافكا»[2] أي إمام الحداثين سافر من بلده إلى إثيوبيا من أجل أُبنته، أي شهوته للرجال، والغريب أنَّ هذا الإمام الأعظم والأديب الأوحد لم يكتب حرفاً واحداً إلاَّ تحت عقاقير الهلوسة.

على كلِّ حالٍ فكلّ هذه الخصال من الأخلاق السافلة لم تعد عيباً يُسْتَر، بل إنَّ أصحابها صاروا يذهبون إلى الكنسية ليتزوج الرجل صديقه ثم يكون له موعد في المساء ليلقي محاضرة في السلام بين الشعوب، أو في حلِّ مشاكل الاقتصاد، أو في الحوار بين الأديان، ويأتون إلى بلاد المسلمين ليستقبلهم مفكرين ونشطاء سلام، ومُوجهي أفكار، ولذلك فلا يغرك أنْ يُقال لك عن رجلٍ أنه فيلسوف أو مفكر أو باحث، فما هذه إلاَّ جزء من الصبغ الذي تُطلى به وجوه القبيحات لأخذ الصور لهن نماذج الحُسن الإنساني، فيذهب الغبي إلى زوجته المسكينة التي قضت نهارها في إعداد الطعام له، وغسل ملابسه، وملابس أبنائه فيشتمها أنها لم تكن مثل هذه الصورة، ففقهاء تاريخنا وزُهاده وعلماؤه وحُكامه ليسوا شيئاً أمام فيلسوف مأبون ـ لا تنسى أن سُقراط كان منهم ـ، وشاعر مأبون، ومفكر مأبون، لأنَّ فقيهنا لا يلبس لبسهم، ولا يشرب شرابهم، ولم يُراقص النساء في حفلات الرقي الحضاري التي تختم بنساء يُصبحن مراحيض الرجال.

---

[1] جان جينيه «Jean Genet» شاعر وروائي وكاتب مسرحي فرنسي مشهور، وُلد في ديسمبر ١٩١٠م في باريس من امرأة عاهرة ولم يُعرف أبوه.. تربى في دار رعاية حيث أودعته أمه بها.. كان لصاً كبيراً وانتحل السرقة التي أُدخل بسببها السجن أكثر من اثني عشر مرة.. توفي في باريس في ١٥ أبريل ١٩٨٦م.

[2] فرانس كافكا «Franz Kafka» وُلد يوم ٣ يوليو ١٨٨٣م بمدينة براغ، الإمبراطورية النمساوية المجرية. كاتب تشيكي يهودي من أسرة متحررة كتب بالألمانية، رائد الكتابة الكابوسية. يُعد أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة.. مات غرقاً يوم ٣ يونيو ١٩٢٤م بالنمسا.

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾.

هذا الجمع بين الأنباء للإخبار ورؤية الأعمال يجعل للآية معنى آخر، هذا المعنى يحتاجه المؤمنون في كلِّ وقتٍ بعد النَّبي ﷺ، إذ يكون معنى الإنباء للإخبار هو ما يُظهره الله تعالى من أعمال هؤلاء لِيَعْلَمَ المؤمنون حقائق خُصومهم من المنافقين وأسيادهم، وفي هذا يتم التواصل بين الإنباء الشرعي بما ذكره الله تعالى عن المنافقين زمن رسول الله ﷺ، وبين ما سيعمل أحفادهم وإخوانهم ممن يأتون بعدهم، فما أنْ يَلُوحَ عَمَلٌ من أعمال المنافقين قد عمله أسلافهم حتَّى يستحضر المؤمنون كتاب الله تعالى لِيُعْمِلُوهُ في هؤلاء المُعاصرين، فيعلمون ما هم عليه من الكفر والخبث.

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾[2].

العِظات إنما تكون لأصحاب القلوب، والعَتب يكون بين المحبين، أما مَن مات قلبه وقطعت صلته فلا عظة ولا عتاب، فإن كان هَم المنافقين أن لا تؤنبوهم فافعلوا، لا لأنَّ هذا يريح قلوبهم بل لأنهم أنجاس أوساخ لا يستحقون لومكم ولا عِظاتكم ولا عتبكم.

في هذه الآية يأمر الله المؤمنين بموافقة رغبة المنافقين، لا لتحقيق مقاصدهم من حصول البراءة التي تتوافق مع ترك التأنيب والملامة، بل لأنَّ جُرم المنافقين أعظم من يزول وينتهي بمجرد حصول التأنيب لهم، أو بمجرد كلمات عتاب تجري بينهم فيزول الذنب وتحل المحبة ولا يؤنبهم، فينصرفون لغلظة قلوبهم فرحين أنَّ الأمر قد زال وانتهى، وأما ما حصل مع الثلاثة[3] الذين تأخرت توبتهم فهم مؤمنون، فحصل لهم من الهجر والتشديد ليزول عنهم ما علق بهم، كما يحصل ممن علق به شيءٌ فيشتد في إزالته ليعود نقياً[4]، ﷺ وأرضاهم.

هذه القاعدة القرآنية قاعدة تضطرد في الفقه، فعلى الصحيح أنَّ اليمين المغموس لا تُوجب كفارة كاليمين المُنعقدة، لأن اليمين المغموس ـ أي تغمس صاحبها في الإثم والنار ـ إثم عظيمٌ، لأنَّ صاحبها حلفَ كاذباً، فهي تحتاج إلى توبة وإنابة، وأما اليمين المُنعقدة فهي التي تحتاج إلى كفارة، لأنَّ أمرها أيسر بكثير من اليمين المغموس، وكذلك القتل العمد، على الصحيح لا كفارة عليه أي صيام شهرين مُتتابعين إن لم يجد رقبة مؤمنة يعتقها، بخلاف قتل الخطأ، فإنَّ فيه الدية المُخففة،

---

[1] سورة الحج، الآية: ٤٦.

[2] سورة التوبة، الآية: ٩٥.

[3] هم: كعب بن مالك، ومرارة بن ربيعة العامري، وهلال بن أُمية الواقفي، وكلهم من الأنصار ﷺ.

[4] وما أجمل هذا التمثيل من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ربُّ البريَّة حيث يقول: «فإنَّ المؤمن للمؤمن كاليدين، تغسل إحداهما الأخرى، وقد لا ينقلع الوسخ إلاَّ بنوعٍ من الخشونة؛ لكن ذلك يُوجِبُ من النظافة، والنعومة، ما يحمد معه ذلك التخشين». «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» الجزء الثامن والعشرون، الصفحة ٥٣ـ٥٤.

والكفارة، وهكذا فإنَّ الكفارة تكون لما هو أهون، وأما ما يكون فيه الذنب عظيماً فإنَّ أمره لا يزول إلاَّ بالتوبة من الجُرم الذي اقترفه صاحبه، ولذلك فإعراض المؤمنين عن المنافقين، لأنَّ ذنبهم عظيم، وكفى بذلك أن يقول ربُّنا عنهم: ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾، والرجس يُغسل ويُزال، ولا يُزال عنه، بخلاف الظاهر إن علق به شيءٌ من الأوساخ اليسيرة فإنَّ إزالته سَهْلٌ مَيْسُورٌ.

وهذه قاعدة حياتية تُفِيدُ أنْ لا ينشغلَ المؤمن في محاولات كشف المُنافق لنفسه علناً، أي أن يأخذ منه اعترافاً بخطئه، لأنَّ هذا الطلب ضرباً من العجب الذي لا يقع في حياة النَّاس، لأنَّ المنافق يعلم نفسه على حقيقتها، والمؤمن يعلمه بما علمه القرآن وبما رأى منه، فحين تذهب لأخذ الاعتراف منه أنه كذلك قد أضعت وقتك وجُهدك في أمرٍ لا يكون، وهذا يقعُ فيه الكثير من المُبتدئين وأحداث السن، فإنْ عركتهم الحياة، أدركوا أن اعتراف هذا الصنف من البشر بخطئه من عجائب الوجود، ولذلك يذهب الحكماء إلى قاعدة «التغابي»، وهي خُلُقٌ يكاد ينقرض اليوم، وهو من أعظم أخلاق السابقين، ولا يفعله إلاَّ أصحاب خُلُقِ الإرادات السامية، لأنَّ النَّفس تميل إلى الظهور ابتداءً، وتنزع إلى إظهار علمها خاصة حين الخصومة، ولكن أصحاب خُلُق «التغابي» يكبحون هذه النوازع، ويمرون للأغبياء الذين يتعالمون ويتخابثون ضحكاتهم، ويعرضون عنهم وهم أعلم النَّاس بهم، وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ شيئاً عن هذا الخُلق العظيم فحاول أن تحكي حديثاً لِتجد أغلب الجلوس يسبقونك بإكماله، أو تسرد قصةً أو مثلاً فالكلّ يتسابق إلى إظهار معرفته، وعطاء بن أبي رباح ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: «إنَّ الرجل ليحدثني بالحديث، فأنصت له كأني لم أسمعه، وقد سمعته قبل أن يُولد!»[1]، فكيف لمثل هؤلاء تمرير خُبث الخبثاء مع عِلمهم بهم، ولكن القرآن يقول: ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾، فهذه قاعدةٌ يحتاجها العاملون لدين الله تعالى في كلِّ أطوارهم ليقل عداء النَّاس لهم، فإنَّ أعظم ما يجلب عليك الخصوم هو إدراكهم أنك ذكيٌّ بصيرٌ بهم، فإنهم إنْ علموا ذلك منك ذهبوا يحيطون أنفسهم باتهامك مُسبقاً حتَّى يدفعوا عن أنفسهمُ التهمة والريب.

و«التغابي» لا يعني أن تسكتَ أمامه ثم إنْ خرج ذهبت تتذاكى أنك تعرفه، وأنَّ حِيَلَهُ مكشوفة عندك، فإنك إنْ فعلتَ نقضت ما غزلتَ، وذهب عنك بفعلك ما بنيت.

﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾.

هم كإخوانهم الكفرة الذي قال الله عنهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾[2]، ولذلك حرَّم الله على الكافرين دخول المسجد الحرام، هؤلاء المنافقون طلب الله من المؤمنين الإعراض عنهم، وهو يشمل

---

[1] «تاريخ دمشق» ٤٠/٤٠١، «سير أعلام النبلاء» ٥/٨٦.

[2] سورة التوبة، الآية: ٢٨.

الهجران والعزل، فكلاهما فيه ما يُوجب الابتعاد وعدم المُقاربة حتَّى لا يؤذى بهم الطيب من الأماكن، والطيب من المؤمنين.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1].

هذا تفسيرٌ للآية السابقة في كشف نوايا المنافقين، وفي بيان معنى الإعراض الذي طلبه الله من المؤمنين، فالمنافقون سيحلفون للمؤمنين طلباً للإعراض، ظناً منهم أنَّ ترك التأنيب واللوم يؤدي إلى الرضى القلبي، والقبول لهم، وهذا من جهلهم فإنَّ الأمر كما قال رسول الله ﷺ: «..**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ**»[2].

وفيها بيانٌ أنَّ خضوع المؤمنين لاعتذار المنافقين، وإسقاط اللوم والكراهية من القلوب ليس سبيلاً إيمانيّاً بلِ المطلوب هو أن يحب المؤمن ما يحبه الله، وأن يُبْغِضَ المؤمن ما يُبْغِضُهُ الله تعالى، لأنه عبدٌ له، يخضعُ له ظاهراً وباطناً، ويستجيبُ له في أمر البدن كما يستجيبُ له في أمر القلب والنَّفس.

وفيها أنَّ حُكْمَ الحاكم والقاضي لا يكون في الظاهر والباطن، فإنَّ حُكمه لا يحل الحلال ولا يحرم الحرام إنْ أخطأَ، إنما حُكمه في الظاهر فقط، ويشهد لهذا حديث النَّبي ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ؛ فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِذَلِكَ؛ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ؛ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا**»[3]. وهذا يدل على أنَّ الظاهر هو ما يُقْضَى به عند الحاكم والقاضي مع اعتبار الباطن في نفس المُتنازعين لقوله: «**فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا**». ويشهد لهذا حديث عائشة رضي الله عنها في حادثة ابن وليدة زَمْعَة، فإنَّ رسول الله ﷺ قضى بالظاهر وهو الفِراش فنسبه لعُتبة بن أبي وقاص فقال: «**الوَلَدُ للفِراشِ وللعاهِرِ الحَجَرُ**»[4]. ثم اعتبر الباطن فقال لسودة رضي الله عنها: «**احتجبي منه**»[5] لأنه من مائه، ولذلك فمن نسب للشافعي رضي الله عنه قوله زواج الرجل ابنته من الزنا فهو مخطئٌ، هذا مع أنَّ الشافعي له قاعدة في العقود في اعتبار الظاهر دون النوايا والمقاصد، وخالفه الكثيرون، وقد ناقشتُ هذه المسألة في مصنفٍ مستقلٍ، والصواب مع الجمهور، والله أعلم.

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٦.

[2] البخاري في «كتاب الأدب» باب لم يكنِ النَّبي ﷺ فاحشاً ولا مُتفاحِّشاً. حديث رقم: ٦٠٣٢. طرفاه في: ٦٠٥٤، ٦١٣١. ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب مُداراةِ من يُتَّقى فُحْشُهُ. حديث رقم: ٢٥٩١ ـ بألفاظ مُتقاربة ـ.

[3] البخاري في «كتاب المظالم» باب إثم من خاصم في باطلٍ وهو يعلمه. حديث رقم: ٢٤٥٨. أطرافه في: ٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٩، ٧١٨١، ٧١٨٥. ومسلم في «كتاب الأقضية» باب الحُكم بالظاهر واللَّحْنِ بالحُجَّةِ. حديث رقم: ١٧١٣.

[4] قطعةٌ من حديث أخرجه الشيخان. البخاري في «كتاب البيوع» باب تفسير المُشَبَّهات. حديث رقم: ٢٠٥٣. أطرافه في: ٢٢١٨، ٢٤٢١، ٢٥٢٣، ٢٧٤٥، ٤٣٠٣، ٦٧٤٩، ٦٧٦٥، ٦٨١٧، ٧١٨٢. ومسلم في «كتاب الرضاع» باب الولد للفراش وتَوَقِّي الشُّبُهات. حديث رقم: ١٤٥٧، ١٤٥٨.

[5] جزءٌ من الحديث السابق.

هذا الحرص الشديد مِنَ المنافقين بطلب رضى المؤمنين هو قرين ظرف العزَّة التي يعيشها المؤمنون، لِمَا حقَّقُوا من انجازات في غزوة تبوك وما بعدها من دخول النَّاس في دين الله أفواجاً، لكن إنْ تغيَّر الحال فإنَّ أحبَّ ما يطلبون هو إيذاء المؤمنين، وقد تقدمت هذه الصور في طور البناء والصِّراع مع الداخل والخارج، لكن هذا الانقلاب ببذل الوسع في تحصيل الرضى هو بسبب الظرف، فالمنافقون أبناء الظروف، فيُشكلون مواقفهم بحسبها، وعندهم إحساسٌ شديدٌ وقدرة استشعارٍ عاليةٍ في معرفة حركة الريح أين تتوجه، فهم أول مَن يقفز من السفينة حين تهزها الريَّاح، وهم أول من يمسك الدفة ـ أو يحاول ـ عند السلامة وتهاديها إلى مقاصدها.

الظرف القَدري بالنسبة للمؤمن فرصةٌ لإثبات صِدْقِ مواقفه، فهو لا يبدل ولا يُغَيِّر، لأنَّ الحقَّ عنده مفهومٌ مطلقٌ فوق الزمان والمكان، فهو ما قاله الله ورسوله، أما الظرف للمنافق فهو فرصةٌ لإثبات القُدرة على التشكل في داخله، والتلون بلونه ليتلاءم في داخله بما لا يعوقه أو يُتعبه أو يقضي على مصالحه، ولذلك فالمنافقون هم أبعد النَّاس عن التأثير في الحياة، ولا يمكن لهم أن يُشكلوا لوناً للحياة في مجتمعٍ مِنَ المجتمعات، فهم أجبن من ذلك، وأضعف إرادةً في الوقوف أمام العوادي والتقلبات، وهذه خِصْلَةٌ يمكن للمرء أن يعرف فيها المنافق من الصادق، ولذلك فمن مصائب الإسلام في أهله وحملته أن يكونوا جزءاً من كلِّ تشكلٍ، حتَّى المتعارضات، وأنْ يكون أهل الفتوى فيهم على نسقِ كلِّ دولةٍ أو حاكمٍ أو طاغيةٍ، وهذا يعني النِّفاق بلا مثنوية، لأنَّ الإسلام ليس تابعاً، بل هو رأسٌ يُشَكِلُ الآخرين، ويمضي بهم إلى مقاصده، لا أنْ يمضي الإسلام إلى مقاصد الآخرين ليخدمها، فحين ترى الإسلام داخل الآخر، وحين ترى أهله يتشكلون مع كلِّ قِوى حاكمة فاعلمْ أنَّ أصحاب دعوى الإسلام هؤلاء منافقون، فإنْ جاء الإسلام حلفوا لهم ليُرضوهم، وإن جاء أعداء الإسلام حلفوا لهم ليُرضوهم، وبذلك سقطت قيمة الحقِّ، وصارتِ المنفعة هي الحاكمة.

لقد تطور النِّفاق اليوم، وذر رأساً جديداً، وذلك بتحويل الإسلام نفسه إلى حالة نفاقٍ ممقوتةٍ، لا يكون الناظر مُفرقاً بين الإسلام الحقِّ وبين أدعيائه الكذبة مِنَ المنافقين، بل يصبح المقت والكُره مُوجهاً للإسلام نفسه، أي الإسلام الذي يريده المنافقون، وذلك بتشكيلٍ جديدٍ لصورة الإسلام، وهذه عِمادها دعوة باطلة لجعل الإسلام منسوباً لخصوصيةٍ اجتماعيةٍ، فهناك الإسلام العربي، وهناك الإسلام الأوروبي، وهناك الإسلام الآسيوي، والإسلام الإفريقي، ويتولى كِبْرَهَا أدعياء فقهٍ وعِلْمٍ، عامتهم يعملون أُجراء عند الطواغيت، ويزعم هؤلاء الضالون المجرمون أنَّ الإسلام قد انصهر في داخل المجتمعات التي آمنت به، وتشكل بصورة هذا المجتمع الجديد، ويزعمون كذلك أنَّ العرب حالة اجتماعية يجب التفريق بينها وبين الإسلام الذي حملوه للعالم، وهذه الدعوة صورتها العملية أقوى في الواقع من تنظيرها الفلسفي والفقهي، وممارساتها العملية هي الأبرز، لكن وُجِدَ من تجرأ ليجعلها ديناً يُتَبَعْ، ونسبها للإسلام زُوراً وبُهْتَاناً.

حقيقة هذه الدعوة هي تحويل الإسلام كلِّه كحالة نفاقٍ يتأثر بالظرف الاجتماعي والسياسي، ويُسبغ على الواقع شرعية إسلامية، وحملة هذه الدعوة متأثرون بالأديان الباطلة التي تدين بها مجتمعات غير مسلمة، ولذلك تحول هذا الدِّين بسبب هذا التعدد إلى أديان، يجمعها اسمٌ واحدٌ كُلِّي مع تفرقٍ في كلِّ شيءٍ بعد ذلك، وهي مقدمة لإلغاء فاعلية الإسلام في توحيد الخَلْقِ، وصناعة تفرقٍ في الوجود على أساس الإيمان كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾[1].

القرآن يجعل المسلمين أُمَّةً واحدةً كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ ﴾[2]، ويقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[3]. وكلّ هذا على المستوى العقائدي والتربوي، وعلى مستوى الولاء والبراء، وفي سورة «الأنفال» جعل الهجرة أساس العصبة السياسية فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ ﴾[4].

كلُّ هذا بيِّنٌ في كتاب الله، أما كون العرب ـ أي الصَّحابة الذين حملوا الإسلام لغيرهم ـ حالة اجتماعية لا دخل لها في الدِّين، فهذه ذات منشأ شعوبي قديم، وهي منتشرة اليوم بكثرة، ولكن ليعلم أنَّ كثيراً من أهل الفقه يرون أنَّ المرجع النَّفسي لمدلولات الألفاظ الشرعية إنما يعود للمعاني النَّفسيَّة العربية، هذا مع إجماعهم على أنَّ مرجع المدلولات اللغوية للغة العربية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾[5]، فمدلول لفظ الخُبث هل يعود فيه إلى نَفْسِ العربي في الاستقذار أم لا؟ فالشافعي رحمه الله تعالى يرى ذلك، ويقول: «إن ما يراه العربي خبيثاً هو الخبيث ما لم يأتِ نص برفع الخبث عنه»، ويرى آخرون خلاف ذلك، وأنَّ الأشياء لا تحل حُكماً قبل ورود الشرع، وقد شرح هذا ابن تيمية في كتابه الأصولي: «إيضاح الدلالة في عموم الرسالة»[6]، وأنا لي مَيْلٌ في هذه المسألة لكلام الشافعي، مع ما ذكره ابن تيمية من تقويةٍ لكلامِ الآخرين[7]، وبعيداً عن هذه المسألة فإنَّ شخصية النَّبيِّ ﷺ ومعه أصحابه ﷺ هما الأسوة الحقيقية لكلِّ مسلم، وهما مثال الكمال الإنساني للعربي ولغير العربي، فالقول بعزل الإسلام عن صورة

---

[1] سورة التغابن، الآية: ٢.

[2] سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

[3] سورة الحجرات، الآية: ١٠.

[4] سورة الأنفال، الآية: ٧٢.

[5] سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

[6] الرسالة ضمن «مجموع الفتاوى» بالمجلد التاسع عشر من الصفحة ٩ إلى ٦٥.

[7] انظر الصفحة الثالثة والعشرون وما بعدها من المجلد التاسع عشر «أصول الفقه، الجزء الأول: الاتباع» من «مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية». ذكر رحمه الله تعالى: «أن جمهور العلماء على خلاف القول كمالك وأبي حنيفة وأحمد وقُدماء أصحابه، ولكن الخِرقي وطائفة منهم وافقوا الشافعي على هذا القول». طبعة دار عالم الكتب بالرياض (١٤١٤هـ ـ ١٩٩١م).

المجتمع العربي الذي نزل عليه القرآن الكريم هو عزل النموذج العملي للشرع، وهذا ما يريده هؤلاء الأخباث، لأنَّ هذه المقدمة هي التي تجعل لهم حرية تفسير الكتاب والسنَّة تفسيراً باطلاً يُوافق الأهواء وأمزجة المجتمعات والرغبات، فإنَّ اللغة مهما كانت واضحة صريحة، ومحكمة ومفصلة إلاَّ أنها تحتاج للنموذج العملي الذي يُبَيِّنُ المُراد، ولذلك قال الله عن رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1]، فعزل النموذج المُتقدم من هدي النَّبيِّ العربي وأصحابه العرب عن الكتاب والسنَّة القولية هو إفراغ الكتاب والسنَّة من محتواهما الحقيقي، وهنا يبدأ الإملاء لهما بالنماذج الأخرى لما يُضاف للإسلام من صفات، فيصبح هناك إسلام خاص لكلِّ قومٍ.

ومما يُؤسف له أنَّ بعض مَنْ لا يَعِي نتائج ما يقول، ولا لعبة الآخرين به زعمه أنَّ اجتهاد الفقهاء القدماء كالأئمة الأربعة وغيرهم هو نِتَاج واقعٍ اجتماعيٍّ وظرفٍ زمانيٍّ، ولذلك يدعون إلى اجتهاد جديد يُلاءم الواقع الجديد والظرف الزماني المُتجدد، وهذه زندقة صريحة، لأنَّ هؤلاء مِنْ جهلهم لا يعرفون أبجديات أصول الفقه، فإنَّ الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه العظيم «الرسالة» جعل أول كلمة في كتابه هي: «معنى البيان»، فمنطلق الفقيه ـ في كلِّ عصرٍ ـ لإدراك حُكم الله تعالى هو العودة «للبيان» أي اللغة، أي إنَّ الفقيه يجتهد في إدراك حُكْمِ الله في المسألة من خلال اجتهاده في معنى «النَّص» من جهة دلالته اللغوية أولاً وقبل كلِّ شيءٍ دون أي شيءٍ آخرٍ معه، وكلَّ شيءٍ آخرٍ هو للإعانة على إدراك معنى «النص ـ البيان» كأسباب النزول وغيرها، وهذا هو «الفقه» في الشرع، و«البيان» فوق الواقع الاجتماعي والظرف الزماني، لكن «الفتوى» هي التي تحتاج مع «الفقه = إدراك معنى البيان» إدراك الواقع، وذلك كالفرق بين الفقه والقضاء.

وهؤلاء القائلون بهذه الضلالات هم نتائج لُعبة الحداثة المُعاصرة، ومنها لعبة «التاريخانية» أي قراءة النص القرآني والنَّبوي من خلال ظرفه الزماني والاجتماعي، ووراء هذا زندقة وكفر بالله، وهي أنَّ القرآن إنتاج زماني اجتماعي وليس كلاماً ربَّانيّاً.

فمَن يقول بوجود فقه بدوي، وفقه حضري، هو ألعوبة لهذه الزندقة دون أنْ يدري، والذي يقول: إن تفسير سيد قطب «في ظلال القرآن» هو إنتاج لحالة نفسيَّة مقهورة، بتفسير مأزوم، هو ألعوبة لهذه الزندقة وهو لا يدري، لأنَّ الفقه فوق الحصر، وكذا التفسير، ولكن هذا لا يعني أنَّ الفقيه لا يخطئ، وأنَّ المُفسر لا يخطئ، لكن وُجود الخطأ في الفقه والتفسير شيءٌ، وإسناد أساس إنتاج الفقه والتفسير إلى حصرٍ زمانيٍّ واجتماعيٍّ شيءٌ آخرٌ، ولعلَّ ابن تيمية حين كتب رسالة: «إيضاح الدلالة في عموم الرسالة» كان يستشعر طلائع هذه الزندقة في عصره، والشيطان هو

---

[1] سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

الشيطان، والزنادقة في كلِّ عصر هُمْ هُمْ، تتغيَّر أشكالهم وأساليبهم، لكن أساس ضلالهم يعود إلى أُصولٍ واحدةٍ.

النتائج النهائية لهذه الدعوات وهذه المناهج هي تحويل الإسلام كلِّه إلى معنى من معاني النِّفاق، أي مُسايرة الواقع، وألعوبة بين الملأ والمُتنفذين واتجاهات القوى، ورحم الله الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة حين رفض هدم الكعبة لبنائها على أصول إبراهيم عليه السلام حتَّى لا تُصبح أُلعوبة بين الملوك، أي مطية للارتقاء على ظهرها، وأين لنا اليوم من فقيه كإمام هو النجم في العلم والدِّين والتقوى، ولا يسير إلى رِكاب السلاطين حِفاظاً على هيبة الدِّين، بل يقول لخليفة ترتجف منه أوصال الملوك في المشرق والمغرب، هارون الرشيد: «العِلْمُ يُؤْتَى ولا يَأْتِي»[1]، ولقد كانت أول صدمتي فيمن يُقال لهم المشايخ والمُفتين أني حضرتُ دورةً علميةً مع خريجي الكليات الشرعية، وفيها من يحمل درجة الدكتوراه والماجستير، وأقلهم مستوى الشهادات يومها من هو مثلي أي يحمل الدرجة الجامعية الأولى، وكان أنْ حضر زائرٌ لهذه الدورة مَنْ يُقال له في البلد الملكي ـ ولي العهد ـ، وقبل حضوره قام القائم المسؤول على هذه الدورة ليطلب من أصحاب العمائم الرسمية، وكلهم يلبسها إلاَّ القليل، أن لا يقدموا طلبات الحاجات ليد هذا الرجل كما يفعل العوام عند زيارته لهم، ووالله ربِّ العرش العظيم ما كنتُ أظنُّ أنَّ طالب عِلْمٍ شرعيٍّ يقفُ أمام أحد هؤلاء فيسأله كما يسأله المُتسولون، فذُهِلْتُ من هذا التنبيه، ولكن مضى المتحدث ليقول: لا تفعلوها كما فعلتموها من قبل، بل اعطوني طلباتكم وأنا أقدمها له، ثم جلسنا فدخل الرجل، وذُهِلْتُ أُخرى أن قاموا له كما يقوم التلاميذ لأستاذهم، وأكرمني الله بأنْ بقيتُ جالساً، ولم أَسْلَمْ ممن كانا على جانبي ومن خلفي من لكزات تدفعني للقيَّام، فلم أفعلْ بحمد الله، ووالله ما فعلتُ ذلك إلاَّ إكراماً لاسم العلم أن يُهان أمام هؤلاء، ولكني رأيتُ حال طلاب العلم في هذا الزمان وكيف هم، ثم فتح الباب فرأيتُ وسمعتُ الكثير، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾[2].

هذا شروعٌ في ذكر مراتب المجتمع المسلم، وما فيه من مكونات اجتماعية وإيمانية، وهي مراتب تتحدد من خلال فِعْلِ الجهاد وحركته، فالهجرة وما بعدها من تكوين المجتمع الذي يحمل على عاتقه

---

[1] رُوي عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال: «دخلتُ على هارون الرشيد، فقال لي: يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا، حتى يسمع صبياننا منك «الموطأ»، قال: أعز الله أمير المؤمنين، إنَّ العلم منكم خرج، فإنْ أعززتموه عزَّ، وإن ذللتموه ذلَّ، والعلم يُؤتى ولا يأتي، فقال: صدقت، أُخرجوا إلى المسجد، حتى تسمعوا مع النَّاس». «البداية والنهاية» ١٠/ ١٧٤.

[2] سورة التوبة، الآيات: ٩٧-٩٩.

الدعوة إلى الله، وإدخال النَّاس في دين الله، وقيادة حركة الوجود بصفته فاعلاً في الآخرين، وما يعنيه القرآن هو البناء الداخلي، لأنه هو المهم في أداء هذه المهمة، وقد بدأ الله بالأعراب باعتبار وصفهم جماعة ضعيفة الصلة اجتماعياً وسياسياً بالمدينة النَّبويَّة.

«الأعراب» وصفٌ لا علاقة له بالجنس كما يظن البعض، بل هو وصفٌ لحالة حياتية قوامها عدم الانتظام والتوزع، ويُقابلها التمدن، أي العيش في المدن والقُرى، فأي عيش يكون بعيداً عن الانتظام، وعدم مفهوم الجماعة هو «تعرب» سواء كان أهله من العرب أو العجم، ففي العرب تعرُّب، وفي العجم تعرُّب كذلك، وسبب شرور هذه الحالة هو البُعْدُ عنِ النظام، وقساوة المحيط مما ينعكس على القلب، وأعماله من قساوة وشدَّة، فإنْ وقعَ في هؤلاء الشر كان أعظم من وقوعه في غيرهم، لملائمة هذه القلوب القاسية للشرِّ الذي يحل فيها، ولذلك كُفْرُ هؤلاء أشدّ ونفاقهم كذلك، ولا يعني أنَّ غيرهم لا يكفر ولا يُنافق، لكن توافق قسوة القلوب مع الكُفر إنْ وقعَ ومع النِّفاق يجعل أمرهما شديداً.

فإنْ حصل وعلم هذا النوع من القلوب الخير والسنن والدِّين صار فيها نفرة من ذلك كلِّه كما قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ ﴾[1].

هنا لابدَّ من القول أنَّ هذا الموضوع، وهو موضوع العلاقة بين الطبائع والأفكار، أو بين الأجناس والمذاهب موضوعٌ طويلٌ، ويحتاج إلى مُؤَلَّفٍ مُستقلٍ، والقرآن الكريم هو مصدر الحقيقة في ذلك، لأنه قد قِيل الكثير؛ من التوراة إلى يومنا هذا، وسَيْطَرَ المنهج الطبعي والاستعلاء، وخدمة القضايا القومية والشعبية في تبرير الأبحاث، واستخدمت هذه الدراسات قوة دافعة لتدمير الآخر، وشحن الذات للاستعلاء عليه وسلبه وادعاء تعليمه أو إدارة شؤونه لعجزه عن ذلك.

أئمة هذه الألاعيب همُ الغرب الكافر، وهي قديمة رافقت نابليون في غزوه لمصر منذ البداية ثم امتدت حتَّى هذه اللحظة حين غزت أمريكا العراق، ويقوم بكبرها رجال يزعمون العلمية، والحيادية، وهم في الحقيقة صورة من صور الحرب ضدَّ هذه الأُمَّةِ.

إذا أردت أن أجمل حقائق القرآن لموضوع الجنس والتاريخ والجغرافيا فإنه يمكن أنْ يُقال التالي:-

البشر كلّهم جنسٌ واحدٌ، فلا يتميز جنسٌ عن جنسٍ في فِطْرَتِهِ وتكوينه، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾[2].

[1] سورة الجاثية، الآيات: ٧-٩.
[2] سورة الحجرات، الآية: ١٣.

لا يملك أي إنسان في هذه الفِطرة أي معرفة خاصة تميِّزه عن غيره، بل كلّهم يخرجون صفحة بيضاء كما قال تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨** ﴾[1]. فهذه الدار ليست امتداداً مَعْرِفياً لحياةٍ سبَقَتْهَا، ولا هي جزاءٌ لحياةٍ أُخرى، ولا عقل الإنسان قد شغل قبل وِلادته بأيِّ معرفةٍ.

الإنسان صناعة يتأثر بكلِّ ما يحيط به كما قال تعالى عن موسى: ﴿ **وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١** ﴾[2]، فهو ابن محيطه الفكري «**..فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ..**»[3]، وابن بيئته الجغرافية والعملية «**مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا**[4]**، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ**»[5]، والله يقول: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ** ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿ **أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨** ﴾[7].

الأفكار تتصلبُ كما تتصلبُ بعض المواد بفعلِ الزمن كما قال تعالى: ﴿ **۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ** ﴾[8]. فحين تتحول الأفكار إلى عادات وتقاليد تُصبح أكثر تشدداً وصلابةً.

تقتربُ الأُمم من الخير بمقدار اقترابها مِنَ النُّبوة والأنبياء، وتبتعد بمقدار ابتعادها عنهم كما قال تعالى: ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾[9].

---

[1] سورة النحل، الآية: ٧٨.

[2] سورة طه، الآية: ٤١.

[3] أخرجه البخاري في «كتاب الجنائز» باب ما قيل في أولاد المُشركين. حديث رقم: ١٣٨٥، ومسلم في «كتاب القدر» باب معنى كلُّ مولود يولد على الفِطرة وحكمِ موتِ أطفالِ الكفارِ وأطفال المسلمين. بهذا اللفظ: «**..فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ...**» حديث رقم: ٢٦٥٨.

[4] «**من سكن البادية جفا**»: أي غلظ قلبه وقسا. فلا يرق لمعروف كبرّ وصلة رحم لبُعده عن العلماء، وقلة اختلاطه بالفضلاء، فصار طبعه طبع الوحش. قال القاضي: وأصل التركيب للنبو عن الشيء. «**ومن اتبع الصيد غفل**» لحرصه الملهي عن الترحم والرقة أو لأنه إذا اهتم به غفل عن مصالحه أو لشبهه بالسباع وانجذابه عن الرقة. قال الحافظ ابن حجر: يكره ملازمة الصيد والإكثار منه لأنه قد يُشغل عن بعض الواجبات وكثير من المندوبات ودليله هذا الحديث. وقال ابن المنير: الاشتغال بالصيد لمن عيشه به مشروع ولمن عرض له وعيشه بغيره مباح وأما التصيد لمجرد اللهو فهو محل النهي... «فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير» لمحمد عبد الرؤوف المناوي. الجزء السادس، الصفحة ١٩٨.

تنبيه: قال ابن تيمية: فيه أن سكنى الحاضرة يقتضي من كمال الإنسان في رقة القلب وغيرها ما لا تقتضيه سكنى البادية، فهذا الأصل موجب كون جنس الحاضرة أفضل من جنس البادية وقد يتخلف المقتضي لمانع.

[5] أخرجه أحمد في «المسند» حديث رقم: ٣٣٦٢. وإسناده صحيح. ورواه البخاري في كتاب «الكنى» برقم ٦٤٩ عن عمرو بن علي بن سفيان: «حدثني أبو موسى عن وهب بن منبه عن ابن عباس، رفعه إلى النَّبيِّ ﷺ» فذكره. ورواه النسائي في «السنن» عن إسحق بن إبراهيم، وعن محمد بن المثنى، كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي بن سفيان. حديث رقم: ٤٣٢٠. وفي «الكبرى» حديث رقم: ٤٨٠٢. وأبو داود في «السنن» حديث رقم: ٢٨٥٩. قال: حدثنا مُسَدَّد، حدثنا يحيى. والتِّرمِذي في «السنن» حديث رقم: ٢٢٥٦. قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمان بن مهدي.

[6] سورة يوسف، الآية: ٢١.

[7] سورة الزخرف، الآية: ١٨.

[8] سورة الحديد، الآية: ١٦.

[9] سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

الأولية في إتباع الحقِّ تكسب حقاً في التفضيل، فقد فضل الله بني إسرائيل على غيرهم كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾[1]. وقال تعالى عن هذه الأُمَّة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[2]، فكون العرب أول النَّاس لحوقاً بالحقِّ يجعل لهمُ الأفضلية بهذا الامتياز، كما يجعل لقريش ذلك كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾[3]. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**الأَئِمَّةُ مِنْ قُرَيْشٍ**»[4]. وهذا ليس للفخر والخُيلاء والاستعلاء على النَّاس لكن سُنن الحياة تقتضي وجود مُرَجحٍ عند الاستواء.

هناك مرتبة في القدر تُوجب التسليم دون الإدراك كما قال رسول الله ﷺ: «**وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**»[5]، جاء رجل إلى الإمام أبي حنيفة يجادله في القدر فقال: «أما علمتَ أنَّ الناظر في القدر كالناظر في عيني الشمس كلما ازداد نظراً ازداد تحيراً»[6]. فإنْ سألَ سائلٌ لِمَ كانتِ الأولوية في قومٍ ولَمْ تَكُنْ في آخَرِينَ، فالواجب الإقرار بحكمة الله تعالى وعَدله حتَّى ومع إدراكنا للأسباب، وإن أدركنا الأسباب فسيكون السؤال: لم كانت هذه في هؤلاء دون غيرهم؟ فهذه هي مرتبة القدر التي نسكتُ في الحديث عنها لأننا لا نُدركها وفيها يقول الله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾[7]، فالله فضَّل الرجلَ وجعل له القِوامة فقال: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ ﴾[8]. فالإنفاق مدرك المعنى، وأما لِمَ جعل الله التفضيل في الرجل على المرأة فهذا كلّه من اختصاص

---

[1] سورة الجاثية، الآية: ١٦.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

[3] سورة التوبة، الآية: ١١٠.

[4] هذا صَدْرُ حديث رُوي من غير طريق، منها ما رواه الإمام أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٢٢٤٧، ١٢٨٣٥، ١٩٦٦٥. والبيهقي في «السنن الكبرى» باب من قال يؤمهم ذو نسبٍ إذا استووا في القراءة. حديث رقم: ٥٣٣٦. وفي: باب الأئمة من قريش. حديث رقم: ١٦٨٧٥، ١٦٨٧٦. والنسائي في «السنن الكبرى» باب الأئمة من قريش. حديث رقم: ٥٩٠٢. وابن أبي شيبة في «المصنف» باب ما ذُكر في فضل قريش. حديث رقم: ٢٨١٢٣، ٢٨١٣٢. وفي: باب من كره الخروج في الفتنة وتعوذ عنها. حديث رقم: ٣٢٩٤٤. ورواه الحاكم في «المستدرك» عن علي ﷺ. حديث رقم: ٧٠٤٠. وقال: صحيح وتعقبه الذهبي فقال: حديثه منكر وقال ابن حجر رحمه الله: حديث حسن لكن اختلف في رفعه ووقفه ورجح الدارقطني وقفه قال: وقد جمعتُ طرق خبر الأئمة من قريش في جزء ضخم عن نحو أربعين صحابياً فقول العلائي لم أجده ذهول قال التاج السبكي رحمه الله تعالى: ذكر في المجموع أن حديث الأئمة من قريش في الصحيحين ولعله أراد بالمعنى وإلا فالذي فيهما «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثنان» قال ابن حجر: وفيهما «الناس تبع لقريش». كما في «فيض القدير» للمناوي. الجزء الثالث، الصفحة ٢٤٧-٣٤٦. حديث رقم: ٣١٠٨.

وعند البخاري «في كتاب المناقب» باب مناقب قريش: عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**لاَ يَزَالُ هَذَا الأَمْرُ فِي قُرَيْشٍ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ اثْنَانِ**» حديث رقم: ٣٥٠١، ٧١٤٠. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب النَّسُ تَبَعٌ لقُرَيْشٍ والخلافةُ في قريشٍ. حديث رقم: ١٨٢٠. وللبخاري أيضاً: عن معاوية ﷺ أنه سمع رسول ﷺ يقول: «**إِنَّ هَذَا الأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لاَ يُعَادِهِمْ أَحَدٌ إِلاَّ كَبَّهُ اللهُ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ**» حديث رقم: ٣٥٠٠. طرفه في: ٧١٣٩.

[5] أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» عن عبد الله بن مسعود، وعن ثوبان ﷺ بإسناد حسن. حديث رقم: ١٤٢٧، ١٠٤٤٨.

[6] «قلائد عقود العيان» (ق-٧٧-ب).

[7] سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

[8] سورة النساء، الآية: ٣٤.

ربوبية الله على خلقه، وهو جزءٌ من امتحان للإنسان فقال: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1]. فالمرأة لا تعترض أنها وُلدت أُنثى، كما لا يعترض العبد أنْ وُلِدَ عبداً، مع وجود الفرق بينهما أنَّ هناك مِنَ الأقدار ما يمكن دفعه، وهناك ما لا يمكن دفعه وتغيِّيره، ولذلك قال تعالى عن اختياره بني إسرائيل لإتباع موسى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾[2]، وهذا الاختيار له ضريبة كذلك فوق ما يكون على الآخرين فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[3]. فكلُّ هذه الآيات وهي أكثر من ستين آية من البقرة تُبيِّن مقدار الابتلاء الذي لحق بهم لهذا التفضيل.

اتخاذ التفضيل بين الأُمم لإكرامٍ إلهيٍّ أو التفضيل بين القبائل والشعوب للبغي والظلم والاستعلاء ذنبٌ عظيمٌ، وظلمٌ بيِّنٌ، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[4]، قال رسول الله ﷺ: «**لاَ يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أنْ يَقُولَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى، ونسبَهُ إلى أبيهِ**»[5]، وسمى الافتخار بأسماء الإيمان جاهلية فكيف بالأسماء القَدرية، فقال: «**ما بالُ دَعوَى أهْلِ الجاهلية؟**»[6] قالها رسول الله ﷺ لما تداعى المهاجرون والأنصار للاقتتال تحت هذين الاسمين: يا للمهاجرين، وقال الأنصار: يا للأنصار.

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾.

الحقُّ طيبٌ قويٌّ في نفسه، ويحتاج إلى وِعَاءٍ قَوِيٍّ طيِّبٍ لإعطائه الفاعلية، فوضعُ الحقِّ في غير موضعه كوضع الجواهر في أعناق الخنازير كما جاء في بعض الكتب[7]، ولما كانت قلوب «الأعراب»

---

[1] سورة الزخرف، الآية: ٢٣.

[2] سورة الدخان، الآية: ٣٢.

[3] سورة البقرة، الآية: ١٠٣.

[4] سورة الشورى، الآية: ٤٢.

[5] أخرجه البخاري في «كتاب أحاديث الأنبياء» باب قول الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾. حديث رقم: ٣٣٩٦. أطرافه في: ٣٤١٣، ٤٦٣٠، ٧٥٣٩. ومسلم في «كتاب الفضائل» باب في ذكر يونس عليه السلام، وقول النَّبيِّ ﷺ: «**لا ينبغي لعبدٍ أن يقول: أنا خيرٌ من يونس بنِ متَّى**». حديث رقم: ٢٣٧٧.

[6] أخرجه البخاري في «كتاب المناقب» باب ما يُنهى من دعوة الجاهلية. حديث رقم: ٣٥١٨. طرفاه في: ٤٩٠٥، ٤٩٠٧. ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب نصْرِ الأخ ظالماً أو مظلوماً. حديث رقم: ٢٥٨٤

[7] ذكره القرطبي بهذا اللفظ: «لا تُعلِّقُوا الدُّرَّ في أعناق الخنازير» ونسبه إلى النَّبيِّ ﷺ. ومعناه: تعليم الفقه مَن ليس من أهله. «الجامع لأحكام القرآن» الجزء الثاني، الصفحة ١٢٤ـ١٢٥. وذكر مثله: أبو حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي في «اللباب في علوم القرآن» الجزء الثالث، الصفحة ١٠٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٧م). والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» الجزء التاسع، الصفحة ٣٥٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٧م). ولكن البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» في الجزء الثاني، الصفحة ٩٣. قال: حدثنا شعبة قال: رآني الأعمش وأنا أُحدث قوماً فقال: ويحك أو ويلك يا شعبة تعلِّق اللؤلؤ في أعناق الخنازير. طبعة دار الكتب العلمية (٢٠٠٣م). ونقل مثله محمد بن أحمد السفاريني في «غذاء الألباب شرح منظومة الأداب» طبعة دار الكتب العلمية/ بيروت (٢٠٠٢م). والعَيْدَرُوسِي في «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» الجزء الخامس، الصفحة ٣٤. طبعة دار الفكر ببيروت. ولكنه نسبه تبعاً لأبي حامد الغزالي

قاسية لا تهتدي، كان علمها بالحقِّ غير نافعٍ لها، بل سيذهب هذا الحقّ إلى معاني الباطل في قلوبهم ليتخذوه خادماً لهم، ولذلك فإنَّ أصحاب الفتن والضلالات والأهواء لا يحدِّثون إلاَّ بالأحاديث التي يتخذونها سُلماً لخدمة باطلهم، فقد ندم أنس بن مالك ﷺ لما حدث الحجاج بحديث العُرَينين[1]، والذي فيه صفة قتل أهل عُكل وعُرَينةَ الذين خانوا أمانة رسول الله ﷺ، فسَمَلَ أَعْيُنَهُمْ وَجَدَعَ أُنُوفَهُمْ، وَأُلْقُوا فِي الحرَّةِ يَسْتَسْقُونَ فَلاَ يُسْقَوْنَ، وذلك قِصَاصاً لما فعلوه في أمر راعي إبل الصدقة، فاتخذ الحجاج الفاسق هذا الحديث حجةً له في بطشه وظُلمه، وهذا يدل على أنَّ المعاني تتأثر بالأجواء النَّفسيَّة لمتلقيها، فتنكسر كما ينكسر الضوء في انتقاله من جوٍّ إلى جوٍّ آخرٍ له كثافة أُخرى، ومن أخطاء الوُعاظ اليوم هو هذا السيل المُتكرر في وعظهم بوجوب الحكمة والمُسالمة والإحسان، في وقتٍ صارتِ الأُمَّة إلى نِعَاجٍ مُسالمة، قَلَّمَا مَن يقوم منهم إلى نفرة السلف إلى المعالي، ولذلك ضرب الله مثل الصَّحابة رضوان الله عليهم لكلِّ أُمَّةٍ ما يلزمهم من النقص فيهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ ﴾[2].

فكان مثلهم لنبي إسرائيل القساة مثل العُباد في ركوعهم وسجودهم، وأما مثلهم في الإنجيل فهو: ﴿ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ ﴾[3].

فإنَّ اللين الذي في قلوبهم، والرهبانية التي ابتدعوها استلزمَ أن يُضرب لهم في الصَّحابة مثل القوى والغلظة على أعداء الله تعالى، وهذا مِنْ حِكمة القرآن في تقويم كلِّ فريقٍ بما يلزمه.

ومن فوائد هذه الآية أنَّ العِلْمَ له بيئته التي تُعِينُ عليه، وكذا الطاعات والعبادات، فالمرء إنْ أراد الخير لنفسه أن يرحل عن مواطن الغفلة والشرِّ، فالأعرابي الذي في البادية إنْ أراد رِقَةً لقلبه أنْ يُغَيِّرَ بيئته إلى أُخرى، والعاصي إنْ أرادَ إحسانَ التوبة أنْ يرحلَ عن قومِ السوء إلى أهل الطاعة والإنابة، ومِنَ الخير للجميع أنْ يعرضوا عقولهم على الآخرين، فإنَّ المرء لا يأمن أن يكون أسيراً لمعاني خاصة في ظرفه وبيئته لا عِمادَ لها مِنَ الحقِّ والواقع، فالقراءة وهي رحلة في الآخرين تقوِّم النَّفس والعقل، وكذا مُلاقحة أفكار الرجال باللقاء والرحلة، فإنَّ أفسدَ ما يعتري الإنسان هو أن يكون أسيراً للوهم وهو لا يدري، وأما الاحتجاج بكلام السلف في ترك المُناظرة والمُباحثة فهذا له ظرفه الخاص عندهم، ومثال ذلك ما ينقل عن الإمام مالك رحمه الله في نهيه عن المناظرة وقال: «أو كلما جاءنا

إلى عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم. ونسبه أيضاً إلى سيدنا عيسى عليه السلام أبو طالب المكي في «قوت القلوب» الفصل الحادي والثلاثون كتاب العلم وتفضيله وأوصافه.

ونحن نستبعد أن يكون هذا من كلام نبينا صلوات الله وسلامه عليه، إذ أننا لم نقف عليه في أحد كتب الحديث المُعتبرة.

[1] ذكره البخاري في «كتاب المغازي» باب قصة عُكْلٍ وعَرَيْنَةَ. حديث رقم: ٤١٩٢. ومسلم في «كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات» باب حكم المحاربين والمرتدين. حديث رقم: ١٦٧١.

[2] سورة الفتح، الآية: ٢٩.

[3] سورة الفتح، الآية: ٢٩.

رجل ألحن بحجته من الآخر أخذنا بقوله وتركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ» . فالإمام مالك بينه وبين الصَّحابة جيلٌ واحدٌ، فهو مطمئنٌ إلى البيئة المُهتدية التي يعيشُ فيها، وهي بيئة المدينة، وفي زمانه كانت أخلاق وعلوم وأجواء المدينة النَّبويَّة إنتاجاً خالصاً لما عليه الصَّحابة ﷺ، ومع ذلك فقد وُجد في عصره ومن تلاميذه مَن نازعه في ذلك في بعض الأمر لا في أصله، فالصحيح أنَّ عمل أهل المدينة قبل فتنة مقتل عثمان ذي النورين حجة في دين الله عند جميع أهل العلم الثقات، ثم حدث الاختلاف، لكن من يستطيع بعد ذلك أن يزعم أن ما نشأ فيه من أفكار ورُؤى هو إنتاج مهتدي كما هو الشأن في زمن مالك ﷺ؟!.

ويحتج بهذه الآية على جواز مَنْع العِلْمِ في ظروف كما قال تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾[1]، وهذا لا يُقال فيه: «**مَنْ سُئِلَ عن عِلْمٍ فكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ الله بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيامَةِ**»[2]. فإنَّ هذا يُعمل فيه فيمن جاءك يطلب العلم للعمل، أما من جاء يسأل ليتخذ ما يُقال سبيلاً للشرِّ، كمن يبحث عن الرخصة التي تُلائمه، أو من كان قتاتاً ينقل الكلام للآخرين، أو مَن كان عدوّاً يتربص بكمُ الدوائر، فهذا يمنع مِنَ العِلْمِ، فمثله مَنْ مُنِعَ مِنْ شِرَاءِ العِنب لأنه يتخذه خمراً، وهذه الآية من سورة «المائدة»: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ جاءت بعد قوله تعالى على لسان بني إسرائيل: ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾[3]، فهم يسألون ليأخذوا ما يحبون ويشتهون، أما إنْ جاء الأمرُ على خِلَافِ رغبتهم تركوه وحذَّروا منه، فأجاز الله لرسوله أن يمنعه عنهم ما يعلم من الحقِّ.

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾.

قراءةٌ سريعةٌ في التاريخ والحاضر تُنَبِئُ أنَّ هذه الأطراف المعزولة بالبداوة كانوا عوامل شرٍّ في تاريخ الأُمَّةِ، فبسبب بُعْدِهِمْ عن حواضر العِلْمِ انتشرت فيهم البدع كالخارجية، ولذلك كان من فضائل عمر بن عبد العزيز أنْ سمح لهم بارتياد المُدن والحواضر، ودعاهم للمناظرة، فكان وقته أقل الأوقات في ثورات الخوارج، وكان أمر هؤلاء الأعراب شرّاً في عملهم قُطاع طريق على الحجاج والمسافرين، حتَّى إنَّ بعض حواضر الإسلام كان ينقطع منها الحجيج بسبب الأعراب مِنْ قُطاع

---

[1] سورة المائدة، الآية: ٤٢.

[2] أخرجه أحمد في «المسند» حديث رقم: ٧٥٦١، ٧٩٣٠، ٨٠٣٥، ٨٥١٤، ٨٦٢٣، ١٠٣٧٠. وأبو داود في «السنن»، «كتاب العلم» باب كراهية منع العلم. حديث رقم: ١٤٥١. وابن ماجه في «السنن» باب من سُئل عن علمٍ فكتمه. حديث رقم: ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦. وأبو يعلى. والترمذي وحسنه في «السنن» حديث رقم: ٢٦٤٩. والحاكم وصححه في «المستدرك على الصحيحين» حديث رقم: ١١٠١. والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي هريرة به مرفوعاً. حديث رقم: ١٧٤٣، وهو عند الحاكم أيضاً وغيره عن ابن عمرو، وعند الطبراني من حديث ابن عباس وابن عمر وابن مسعود.

[3] سورة المائدة، الآية: ٤١.

الطريق، وبقوا على عملهم هذا إلى وقتٍ قريبٍ، وهم أنفسهم من اتخذهم أعداء الأُمَّة وسيلة لقتل جنود الدولة العثمانية وإسقاطها، وهم عشائر وقبائل من الأعراب معروفة، وهم ما زالوا إلى الآن مادة الكفر في تنفيذ مآربه، حتَّى إنَّ أشدَّ النَّاس على أهلنا في فلسطين هم البدو الذين انخرطوا كفراً مع اليهود في جيشهم، ومثلهم سكان الجبال في الأطراف حيث غلب عليهم البدع الشركية كالإسماعيلية[1] والدرزية[2] والنُصَّيرية[3]، فَلِقِلَّةِ عِلْمِهِمْ يسهل دخول الضلالات الشركية والبدعية فيهم، ولإزالة شرهم فإنَّ الأمر يحتاج إلى نشر العلم فيهم، وإلى خُطط دمجٍ لهم في داخل الحواضر لكسر حِدَّةِ شَرِّهِمْ، لأنَّ البداوة والتعرب ليستا وصفاً لازماً كما تقدم، بل هو وصفٌ لحالةٍ، يتغيَّرُ الوصف بتغيُّرِ شروطه، فحال الأعرابي هو حال الغنم القاصية، وهي أسهلها على الذئب، وذئب الإنسان شيطانه، ومن المعلوم أنَّ البداوة حالة تُرافق أغلب الشعوب والأُمم، فلكلِّ حاضرةٍ أطرافٌ قاصية تنفلت عن الحواضر والقُرى والمُدن.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾.

---

[1] الإسماعيلية: فرقةٌ من فرق الشيعة الإمامية، وتُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وليسوا على دينه، فلما مات في حياة والده انقسموا إلى فرقتين. الأولى: أنكرت موت إسماعيل، وهي تنتظره. والثانية: قالوا: إنما نصب جعفر ابنه إسماعيل للدلالة على إمامة ابنه محمد، وإلى هذا مالت الإسماعيلية الباطنية من الغُلاة، ولم يختلفوا عن بقية مذاهب الأخرى إلا بهذا القول حتى خلافة المُستنصر العُبيدي، فلما تولى الخلافة بعد ابنه المستعلي انشق عن خلافته فريق من الإسماعيليين بزعامة الحسن بن الصباح، وبايعوا لأخيه نزار. وبعد أن فشلت ثورتهم في الإسكندرية، انتقل الحسن بن الصبح إلى قلعة ألموت، وعندما أعلن الحسن بن محمد زعيم النزاريين عام ٥٥٨هـ إلغاء الشعائر الدينية، والامتناع عن إقامة الفرائض، أصبح النزاريون ـ أو الحشاشون ـ مغايرين لأصحاب المذهب الإسماعيلي العُبيدي، في حينٍ ظلوا يحملون اسم الإسماعيلية حتى اليوم، وهم أتباع أغاخان. أما الآخرون فهم المعروفون اليوم باسم البُهرة أو السبعية.

ويعتقد الإسماعيليون أنَّ الله تعالى فوق متناول العقل، وأنَّ الفعل الكلي يتجسد في الأنبياء، كما أنَّ النَّفس الكلية تتجسد في الأئمة، ويُعرف النبي بالناطق، والإمام أبو النقيب بالصامت، وهم يعتقدون أنَّ الإمام معصوم، ولا عبرة بما يأتيه من أعمال ظاهرة. انظر: «الفرق بين الفرق» لعبد القاهر بن طاهر البغدادي. ص٣٤ـ٣٩. و«التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفِرق الهالكين» لأبي المظفر الإسفرائيني. ص٢٣. و«الملل والنحل» لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني. ص٧٢ .

[2] الدروز فرقة باطنية نشأت في بداية القرن الرابع في مصر، ثم انتقلت إلى الشام، تنسب إلى أحد مؤسسيها وهو محمد بن إسماعيل الدرزي. هذه الفرقة تُؤله الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي، وعقائدها خليط من الأديان الوضعية والمنحرفة، وتعتمد على السرية في أفكارها فلا تنشرها للنَّاس، من عقائدهم إنكار الأنبياء والرسل جميعاً فلا يعترفون بهم، ويعتقدون بأن المسيح هو حمزة الزوزني، وهو أحد مؤسسي هذه الفرقة، كما يرون أن ديانتهم ناسخة لديانة الإسلام، ويقولون بتناسخ الأرواح، كما ينكرون الجنَّة والنَّار والثواب والعقاب الأخرويين، ويحرمون الزواج من غيرهم ،ولا يقبلون أحداً في ديانتهم، أما الصَّحابة فإنه يسبونهم سباً منكراً، ومناطقهم خالية من المساجد لعدم اعترافهم بها، وربما يتظاهرون بالإسلام على سبيل التقية. متواجدون الآن في سوريا وفلسطين ومعظمهم في لبنان. [د. ناصر العقل].

[3] النُصيرية ـ أو العلويون ـ إحدى فرق الباطنية الغُلاة، ظهرت في القرن الثالث للهجرة. انشقت عن فرقة الاثنى عشرية. وهم يقطنون في شمال وجنوب سورية، ولهم وجود في جنوب تركيا وأطراف لبنان الشمالي وفارس وتركستان الروسية وكردستان، وينتسبون إلى محمد بن نصير مؤسس الطائفة أو راعيها، توفي سنة ٢٦٠هـ. وكان الحسين الخصيبي يُعتبر أكبر مُتكلم الطائفة. تفرقوا إلى عدة فرق وطوائف، ومن أهم تلك الطوائف: الجرانة، الغيبية، الماخوسية، النياصفة.

ويعتقد النُصيرية في ظهور الروحاني بالجسد الجسماني، وأنَّ الله تعالى قد في صورة عليٍّ وأولاده، وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض. لذا يُطلقون اسم الإلهية على أئمتهم، وأثبتوا هذا الاختصاص لعليٍّ وأولاده. ومنهم من يُثبت له الشركة في الرسالة.

كانت الآية السابقة وَصْفاً لحال قلوبهم إنْ استقر بها الكفر، وهذه الآية وصفٌ للمعاني التي يُنفقون بها أموالهم إنْ كان ظاهرها في سبيل الله تعالى، فهم لا يُنفقون إلاَّ مُكرهين، فلا يحتسبون الأجر ولا لقاء الدَّار الآخرة، فهم تحت وطأةِ الخوف والإكراه يعطون ما يعطون، ومن كان هذه صفته فإنه ينتظر انفلاته، وتغير الحال بهزيمة المؤمنين حتَّى يُوقف عطاءه ونفقته.

هذا كشفٌ باطني لقلوبهم، وقد تقدم أنَّ هذه خصوصية الخطاب الربَّاني، لأنَّ الله عليمٌ بذات الصدور، وهو تعليمٌ للمؤمنين أنْ لا يَقفوا على الظواهر السريعة، بل يجب مُراقبة الظواهر المُستقرة لأنها هي التي تُعبر عن الحقائق الباطنية، وهذه الظواهر المُستقرة تُعْرَفُ مِنْ خلال الأزمات لقوله تعالى: ﴿ **وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ** ﴾. لقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾** ﴾[1]، والأزمات والرضات ليست اختياراً إنسانيّاً يذهب إليها الإنسان بإرادته، بل هي أمرٌ قَدَرِيٌّ مُرَافِقٌ لسنن الحياة، ومِنَ الخير للإنسان والمجتمعات أنْ تحاول جُهدها تجنبها ومنع أسبابها، لكنها حالة لازمة لأيِّ استقرارٍ، فهذا رسول الله ﷺ يشرف على أُطُمٍ[2] مِنْ آطَامِ الْمَدِينَةِ ويقول: «**هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى؟**» قالوا: لا، قال: «**فَإِنِّي لأَرَى الْفِتَنَ تَقَعُ خِلاَلَ بُيُوتِكُمْ كَوَقْعِ الْقَطْرِ**»[3]، والفرق بين مراتب النَّاس ومراتب الأُمم هو في إدارة الأزمات، فالمنافقون يتربصون هذه الخضات حتَّى يُظهروا ما في قلوبهم، فيأتون الشرَّ من كلِّ أبوابه.

«الأعراب» أطرافٌ ضعيفةُ الصلة بالمركز، فهي منفصلة جزئياً واجتماعياً وسياسياً عنه، ويصدر إليهم المركز من خلال الارتباط المالي، إذ يُوجب عليهم أداء الزَّكاة، وهذا واجبٌ عليهم يُؤدونه بلا اختيارٍ، وقد تبيَّن بعد وفاة الرسول ﷺ هذا الأمر، وهو «تربص الدوائر» حتَّى ينقضوا هذه الصلة، فأعلنوا امتناعهم عن أدائها، وبذلك يتم خروجهم كلياً عن جماعة المؤمنين، ولذلك نهض إليهم الصِّدِّيق رضي الله عنه لقتالهم، وفي هذا دليلٌ على أهمية منع الجماعات والطوائف من الانفلات، حتَّى لو أدى إلى تقوية هذه الصلات بالقوة فأداء الواجبات في قواعد الأُمم لا اعتبار للنيَّة فيه، لكن هذا يُوجِب الحذر من هؤلاء، والمُسارعة دوماً إلى دمجهم في الداخل استباقاً من وُقُوعِ الشرِّ، لكن هذا يُبَيِّنُ عدم وُجوب إلغاء هذه الظواهر، لأنها حقيقة حياتية، فقد منعَ الإسلام التعرب بعد الهجرة، لأنه انفلاتٌ مِنَ الالتزامِ، وهذا ممنوعٌ، ووضعَ قواعد في التعامل مع الأعراب وغير المُهاجرين إلى الدَّار المُسلمة اعترافاً بهم، مع وُجود مميزات إيمانية وتشريعية للمُهاجر، فقد مدح الله المُهاجرين وأوجبَ لهم حقَّ الولاية بالنُّصرة والحِماية، ولم يجعل هذا لغير المهاجرين، ففرقٌ بين الانفلات من

---

[1] سورة الأحزاب، الآية: ١٤.

[2] أطم: يدلُّ على الحبس والإحاطة بالشيء، يُقال للحصْنِ الأُطُم وجمعُهُ آطامٌ. «مقاييس اللغة» لأحمد بن فارس. ص٦٣. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

[3] أخرجه البخاري في «كتاب فضائل المدينة» باب آطامِ المدينة. حديث رقم: ١٨٧٨. أطرافه في: ٢٤٦٧، ٣٥٩٧، ٧٠٦٠. ومسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب نُزولِ الفتن كمواقع القِطْرِ. حديث رقم: ٢٨٨٥.

الالتزام وبين عدم الالتزام ابتداءً، كأمر الدخول في الإسلام فإنه لا إكراه فيه، وأما الخروج منه فممنوعٌ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾[1]، إذ يُكْرَهُ للمَرْءِ أنْ يَنْقُضَ عَمَلاً بدأ فيه دون أن يُتِمَّهُ كالصَّلاة والصيام والصدقة كما قال تعالى للصِّدِّيق لما امتنع عن النفقة على مِسْطَح بْنُ أُثَاثَةَ[2] ﷺ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[3].

لكن هل يجب قضاء صيام التطوع إنْ شرع المرء فيه ثم نقضه؟ قولان لأهل العلم، والصحيح عدمه، والله أعلم.

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ﴾.

هذا دعاءٌ وحُكْمٌ على هؤلاء، ذلك بأنهم أهل عجزٍ إنْ كان للمسلمين قوة، فهم مقهورون مغلوبون لا قُدرة لهم إلاَّ أداء الواجبات التي تُفْرَضُ عليهم، وإنْ كان للكافرين نصيبٌ كانوا مطايا سوء، يحملون الكافرين إلى مقاصدهم في بلاد المسلمين، ثم يرمونهم رِمماً بالية[4]، فهم محاطون بأمر السوء، ولا قِيام لهم منه، وشواهد هذا الحُكم الربَّاني عليهم قديماً وحديثاً، فقد دخل منهم طوائف مع الصليبيين وكانوا خولاً[5]، ودخل منهم طوائف مع الصليبيين الجُدد في مطلع القرن الميلادي الماضي عند انقسام دولة الخلافة العثمانية فلم يكنْ لهم شأنٌ إلاَّ أنهم خولٌ وعبيدٌ، يُساقون بأقلِّ القليل مِنَ الطعام يعلفون به كالدواب، ثم لا يكون لهم شأنٌ ما، وهم كذلك خولٌ مع اليهود في فلسطين، ومع ذلك هم أقل طبقات المجتمع كطبقة المنبوذين في الهند، فهم قومٌ جُبِلُوا على الخِسة لإحاطة دائرة السوء عليهم بما رضوا لأنفسهم من الجهل والقسوة وقلَّة الوفاء، كل ذلك لجهلهم أنَّ

---

[1] سورة محمد، الآية: ٣٣.

[2] مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ بْنُ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيٍّ، الْمُطَّلِبِيُّ، كان اسمه عوفاً. وأما مسطح فهو لقبه، وأمه بنت خالة أبي بكر، أسلمت وأسلم أبوها قديماً، وكان أبو بكر يمونه لقرابته منه، فلما خاض مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفعه. فنزلت: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ الآية. فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه. ثبت ذلك في الصحيحين في حديث عائشة الطويل في الإفك، وفي الخبر الذي أخرجه أبو داود من وجه آخر عن عائشة أنَّ النَّبِيَّ ﷺ جلد الذين قذفوا عائشة وعده منهم. ومات مسطح سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان، ويُقال عاش إلى خلافة علي، وشهد معه صِفِين، ومات في تلك السنة سنة سبع وثلاثين. «الإصابة في تمييز الصَّحابة» لأبي الفضل أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني. الجزء السادس، الصفحة ٧٤. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٥م).

وإليك ـ أيها القارئ ـ هذه الكلمات الذهبية للإمام الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ من كتابه الماتع «سير أعلام النبلاء» الجزء الأول، الصفحة ١٨٧: «إِيَّاكَ يَا جَرِيُّ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى هَذَا الْبَدْرِيِّ شَزْرًا لِهَفْوَةٍ بَدَتْ مِنْهُ؛ فَإِنَّهَا قَدْ غُفِرَتْ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِيَّاكَ يَا رَافِضِيُّ أَنْ تُلَوِّحَ بِقَذْفِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ نُزُولِ النَّصِّ فِي بَرَاءَتِهَا فَتَجِبَ لَكَ النَّارُ». طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت. الطبعة السابعة (١٤١٠/١٩٩٠م).

[3] سورة النور، الآية: ٢٢.

[4] الرُّمَّة: قطعة من الحبل بالية، والجمع رُمَم ورِمَام. «مَعجم الأمثال والحِكم» لأبي الفضل الميداني.

[5] قال أبو النجم: يُقال: هؤلاء خَوَلُ فلان إذا اتخذهم كالعبيد وقَهَرَهُمْ. «تهذيب اللغة» لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري. الجزء الرابع، الصفحة ٣. طبعة دار إحياء التراث العربي ببيروت (٢٠٠١م).

وقال ابن السكيت: الخَوَل: العَبِيد والإماء وغيْرهُم من الحاشيَة، الواحِدُ والجمع والمذكَّر والمؤنَّث في ذلك سواء، وقد خَوَّله الله إيَّاه، واستَخْوَلت القومَ: اتخذْتُهم خَوَلاً. «المخصص في اللغة» لابن سيده علي. الجزء الثالث، الصفحة ١٤٠. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

انقلابهم إلى الكافرين عند حصول دائرةٍ على المسلمين يجلب لهم المصالح والمنافع، ويُريحهم من تكاليف الإسلام، ومن مهمات الالتحاق بجماعة المؤمنين، فلا يكون لهم إلاَّ ضدَّ ما قصدوه، بل هم يُؤذون من أسيادهم أكثر مما يُصيب المؤمنين، ومع جريان هذه السنَّة واضطرادها إلاَّ أنه لجهلهم وغفلة قلوبهم وقسوتها لا يتوبون ولا يذَّكرون، بل يطيرون إلى كلِّ فتنةٍ تأتي، فحقَّ عليهم قوله تعالى: ﴿**عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ**﴾، فصار أمرهم أمر اليهود في قوله تعالى: ﴿**وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ**﴾[1].



[1] سورة البقرة، الآية: ٦١.

فائـدة فريـدة

أخرج ابن سعد عن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: «بَعَثَنِي الأَشْعَرِيُّ إِلى عُمَرَ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: كَيْفَ تَرَكْتَ الأَشْعَرِيَّ؟ فَقُلْتُ لَهُ: تَرَكْتُهُ يُعلمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ كَيِّسٌ وَلاَ تُسْمِعْهَا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ: كَيْفَ تَرَكْتَ الأَعْرَابَ؟ قُلْتُ: الأَشْعَرِيينَ؟ قَالَ: لاَ، بَلْ أَهْلَ الْبَصْرَةِ، قُلْتُ: أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ سَمِعُوا هذَا لَشَقَّ عَلَيْهِمْ، قَالَ: فَلاَ تُبْلِغْهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْرَابٌ إِلاَّ أَنْ يَرْزُقَ اللهُ رَجُلاً جِهَاداً في سَبِيلِ اللهِ»[1].

في هذا النص فائدتان فيما نحن فيه:ـ

أولاهما: كراهة النَّاس لاسم الأعراب زمن عمر ﷺ مما يدل على تغير مِزاج النَّاس زمانه في إطلاق هذه التسمية.

ثانيهما: أنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى يرفع اسم الأعراب عندما يكون هذا الاسم ذماً لقومٍ.

فأهل البصرة أعراب عند عمر ما داموا قاعدين في بيوتهم، فإنْ جاهدوا خرجوا من هذا الوصف.

لما كان «الأعراب» حالةً لا تشكل داراً بالمفهوم الفقهي الذي اسمه الدار على غلبة الأحكام، حتَّى إنَّ الإمام أحمد يجعل لهم وصفاً خارج دار الإسلام ودار الحرب، يُسمِّيها «دار أعراب»، أي أنها لا تنتظم تحت حُكْمٍ غَالِبٍ يجعل لها وصفاً شرعياً بالإيمان أو الكفر، وهو وصفٌ يُطلق كذلك على حالة الفوضى في الأُمم والشعوب، كان الحُكم يتعلق بالأفراد، فمنهم ـ وهم الأغلب ـ أشدّ كفراً ونِفاقاً، ومَنْ أَنْفَقَ منهم حالاً في واجبٍ كان إنفاقه تحت الكُرْهِ، وعُدَّ ما يُؤخذ منه على وجه الغرم والخسارة، ومنهم لا يكون كذلك، بل هو مؤمن بالله واليوم الآخر، وهو يُنْفِقُ ماله طمعاً في القُرْبِ مِنَ الله تعالى، وأنْ يَدْخُلَ في استغفار رسول الله ﷺ ودعائه، ذلك بأنَّ رسول الله ﷺ كان يستغفر للمُتصدِّقين والمُنفقين كما في الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما قال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَتَاهُ رَجُلٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلاَنٍ**». فَأَتَاهُ أَبِي فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى**»[2]. وهذا العمل منه ﷺ استجابة لأمره سبحانه: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾[3].

---

[1] «جامع المسانيد والمراسيل» للسيوطي. مسند عمر بن الخطاب ﷺ «١٦٥٨» الجزء الثالث عشر، الصفحة ٤٣٩. ومسند أبي موسى الأشعري ﷺ «١٠٢٧٣» الجزء السابع عشر، الصفحة ٣٤٥. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٤م). وهو أيضاً عند المتقي الهندي في «كنز العمال» الجزء الأول، الصفحة ٢٧٨٩. حديث رقم: ٣٧٥٥٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

[2] أخرجه البخاري في «كتاب الزكاة» باب صلاة الإمام ودعائِهِ لصاحب الصدقة. حديث رقم: ١٤٩٧. أطرافه في: ٤١٦٦، ٦٣٣٢، ٦٣٥٩. ومسلم في «كتاب الزكاة» باب الدعاء لمن أتى بصدقته. حديث رقم: ١٠٧٨.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[1].

هذه الفئة هم عُصْبَةُ المجتمع المؤمن، وهم عمادته، وعلى أكتافهم تقوم المُهمات الأولى للبناء لأنهم «السابقون»، فهذا مجتمعٌ مؤمنٌ يصطبغ أهله بالصفات الإيمانية، فهم مهاجرون، وأنصار.

الهجرة تبدأ بسبب الفتنة في الدِّين كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾[4]. ومدح القرآن لها ردٌّ على مَنْ يعتبرها هُروباً أو ضُعْفاً عنِ المُواجهة، فهي تُعبر عن اختيارِ المؤمنِ المهاجر للدين والإيمان على ما يحب مِنَ الدُّنيا، كالأهل والوطن والمال والمسكن والإيلاف، وهي اختبارٌ للأنصاري بالبذل وتقديم رابطة الإيمان على رابطة القرابة والأرض، فِمَا ينشأ بعد ذلك مِنْ صِلاتٍ بين هذين القُطبين يكون مَبْنِيّاً على حُبِّ الله وحُبِّ الدَّار الآخرة، وعلى علاقة الإيمان، وهذا ما يسمح بتشكيل سلوك هذا المجتمع على أساس الحقِّ الذي جاء به الرسول ﷺ.

سُكُون المجتمع، وبقاء صِلاته المُستقرة على الإيلاف والعادة والتقاليد تمنع السلوك الإيماني للعمق، وحصول الهجرة والنّصرة يخلخل هذه الصلابة المستقرة، وخاصة أنَّ القرآن قدَّم المهاجرين على الأنصار، فإقرار الأنصار بهذه التقدمة تعني تغْيِّير موازين القِوى في داخل المجتمع، إذ يقبل أهل الأرض بإمامة المهاجرين إليهم وتقدمتهم، وهذا ضَرْبٌ لأَشَقِّ ما تُلاقِيهِ المفاهيم الإيمانية في أي مجتمعٍ من المجتمعات، لأنَّ الأُلفة والعادة والقِوى المُستقرة هي الستار القَوي الذي يمنع لحوق المجتمعات بدعوة الأنبياء، كما قال تعالى عن قوم فرعون: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[5]. فهذان اعتراضان بينهما؛ **أولاهما**: يتعلّق بالتقاليد والمورُوثات، **والثاني**: تغيِّير موازين القِوى في داخل المجتمع، إذ استكبر قوم فرعون أن يتبعوا رجلاً مِنْ قومٍ هم لهم سخرة وأتباع كما قال تعالى: ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[6]، فالهجرة والنّصرة كما أنَّ فِعْلاً إيمانياً عظيماً يدلان على نجاح المؤمن في اختباره، إلاَّ أنهما كذلك

[1] سورة التوبة، الآية: ١٠٠.
[2] سورة النحل، الآيتان: ٤١-٤٢.
[3] سورة النحل، الآية: ١١٠.
[4] سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.
[5] سورة يونس، الآية: ٧٨.
[6] سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.

والنّصرة كما أنَّ فِعْلاً إيمانياً عظيماً يدلان على نجاح المؤمن في اختباره، إلاَّ أنهما كذلك فِعْلاً مُهماً في إرْسَاءِ المفاهيم الإيمانية بدل الجاهلية القديمة المُستقرة، ولذلك تجدِ المهاجر أكثر قبولاً من الساكن، والمجتمع المُتعدد أوسع وَعْياً وإِدْرَاكاً مِنَ المُغْلَقِ.

إبراهيم عليه السلام سمَّى الهجرة ذهاباً إلى الله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾[1]، لأنَّ البقاء تحت قانون الكفر رضى به يعني الدخول معهم في دينهم وعِبادتهم، كما قال تعالى على لسان المؤمنين مِنْ فِتية أهل الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[2].

لكن هل يمكن أن تلتقي الهجرة في سبيل الله مع مقاصد الطواغيت في إبعاد المؤمنين عن مجتمعاتهم؟.

الجواب: نعم، فإنَّ الكافرين هددوا الأنبياء بالطرد كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[3]، وقال تعالى على لسان قوم نوح: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾[4]، وكان الإخراج هو أحد اختيارات قريش مع رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾[5]، ولكن مما يُلاحظ أنَّ هذا الإخراج يُرافقه تحريضٌ عليهم، وقد يندمون في منتصف الطريق، فيحسدون المهاجرين على النَّجاة، أو على تحقيق الأمان والأنصار في المكان الجديد، ولذلك سعت قريش إلى منع النَّبِيِّ ﷺ من الهجرة بعد أن استقر رأيهم على قتله بالطريقة التي أشار بها عدوُّ الله أبو جهل، فالهجرة بكلِّ صورها مكسبٌ للمُهاجر، وسترتد على البلد المُعادي الآثار السيئة بسبب خسارتهم له، وهذا قد يُنْشِئُ المُدافعة بعد ذلك بين الفريقين، ولذلك لا ينبغي النَّدم على الهجرة لأنَّ لها من الفضائل التي يحصلُهَا المهاجر في نفسه وغيره الكثير.

الأنصارُ حالةٌ إيمانيةٌ راقيةٌ قَوامُهَا البذل كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[6]، ثم ينتهي هذا البذل إلى شيءٍ واحدٍ وهو رجاء الدار الآخرة

---

[1] سورة الصافات، الآية: ٩٩.
[2] سورة الكهف، الآية: ٢٠.
[3] سورة إبراهيم، الآية: ١٣.
[4] سورة الشعراء، الآية: ١١٦.
[5] سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
[6] سورة الحشر، الآية: ٩.

كما قال النَّبي ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً، فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ**»[1]. وقال: «**فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الأَنْصَارُ، حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ**»[2]، ولقد كنتُ أعجبُ من تسمية الشباب المُهاجر إلى مواطن الجهاد بالأنصار مع أنهم مهاجرون، وأهل البلد هم الأنصار، إلاَّ أنني تفكرتُ بحالهم الذي يصيرون إليه بعد كلِّ هجرةٍ فوجدتُ أنَّ مآلهم هو مآلُ الأنصار الذي أخبرنا عنه رسول الله ﷺ، فهم يقدمون كلَّ شيءٍ ثم يعودون إلى لا شيء سوى الآخرة، فحق لهم بفضل الله وصف المُهاجرين للفِعل ووصف الأنصار للمآل، فاجتمع لهم في زماننا طرفا الفضل، وهذا مِنْ نِعَمِ الله وفضله، فهم يُهاجرون عن أوطانهم، ويُنفقون مِنْ أموالهم، ويجاهدون بأبدانهم، ثم يقلون ويكثر النَّاس، ويصدر النَّاس إلى مناصبهم وأماكنهم ولا يكون لهؤلاء إلاَّ رحلة جديدة، وذلك فضلُ الله يُؤْتِيهِ من يشاء.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

السبق فضلٌ إلهيٌّ، لا يلحق به إلاَّ أصحاب وعيٍ مبكرٍ على الحقائق، وإراداتٍ قويةٍ لا تأبه لمخاطر الطريق، لأنَّ النهج المُسيطر له سطوة على النُّفوس، ولطولة الأُلفة له تجعل له حُكْمَ اليقين، فحين تأتي الحقائق المُخالفة لهذه الكُتَّل الصلبة مِنَ العادات والتقاليد والمفاهيم تكون غريبة غير مقبولة، فاستجابة أفرادٍ لها يعني وجود تميُّزٍ في إدراك هؤلاء على الحقائق، وربما يكون ـ وهو الأغلب ـ صراعٌ سابقٌ في نفوسهم حول هذه المفاهيم القديمة، فهم في شك منها، فبزوغ الحقائق الجديدة يكون فيه التلاقي مع شكهم القديم، ولكن هذه تبقى مجرد حوارات داخلية للنُّفوس إن لم يُرافقها إرادات قادرة على دفع ثمن مخالفة المجتمعات والقوى المُسيطرة والأفكار التي تتحول مع الزمن إلى مؤسسات تستفيد منها مالياً وسياسياً واجتماعياً.

هذا الوعي يُسميه السلف بالنُّور الذي يقف في القلوب، فيتمكن منها، ويختلط في دم المرء ولحمه وبشره، ويكون معه لذة العمل، ولذة تبليغه، والصَّبر على أذى المُخالف، والذي تكون جبهته ـ أي المُخالف ـ مِنْ عالمٍ بالحقِّ لكنه مُعاندٌ له بسبب الخوف على المكاسب، أو بسبب الكِبر من إتباع الدَّاعي، أو جاهلٌ لم يستطع تمييز الحقائق الهادية عن الضلالات المُستقرة، ثم يبدأ الصِّراع بين الطرفين.

«السابقون» يتحملون كلَّ المشقات، ويحفرون الطُرق ليسير الآخرين عليها، وكلما تقدموا خطوةً إلى مقاصد الحقِّ ككثرة الأتباع كلما تخلخل الصف المُقابل، وميزتهم في كلِّ أطوار النُّبوة وإتباعها أنهم منذ بداية الطريق يُعلنون إلغاء الآخر بتسميته باطلاً وضلالاً، ويدعون الجميع إلى الدخول

---

[1] أخرجه البخاري في «كتاب مناقب الأنصار» باب قول النَّبي ﷺ للأنصار: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**». حديث رقم: ٣٧٩٣، ٣٧٩٢. أطرافه في:٣١٤٧، ٣٧٩٤، ٧٠٥٧. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الأمر بالصَّبر عند ظلم الولاة واستئثارهم. حديث رقم: ١٨٤٥، ١٠٥٩.

[2] أخرجه البخاري في «كتاب المناقب » باب علامات النُّبوة في الإسلام . حديث رقم: ٣٦٢٨.

وراءهم كُلياً لا جزئياً كما قال مؤمن آل فرعون كما في سورة «غافر»: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٣٨﴾[1]، فإعلانُ الحقِّ لا مُواربة فيه، ولا ما يُسمِّيه البعض إتباع طُرق «السياسة» على المعنى الباطل، وهذا مع أنه يعني شدَّة المُواجهة ودفع التكاليف إلاَّ أنه يحقق الصدمة في الآخر والنَّصر، ويرسم طريق الأتباع أنَّ الحقَّ الذي يلتحقون به يُوجب البلاء والمحن، وهذه السنَّة النَّبويَّة لا نهاية لها إلاَّ على صورتين إما الشَّهادة كما حدث مع أهل الأُخدود ومؤمن آل ياسين وإما النَّصر، فالمُشاركة التي تُبْنَى على المُناصفة بين الإيمان والشرك لا وجود لها في الخط النَّبوي الذي يدعو إليه القرآن الكريم.

لهذا فإنَّ «السابقين» لهم معنى خاص في القرآن الكريم، وفي كلِّ قرن ـ سابقون ـ كما في الحديث[2]، وكما قال الله تعالى عنهم في سورة «الواقعة»: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾[3]، ويخطئ مَنْ ظنَّ أنَّ فضلهم ديني قلبي فقط، بل هم كما تقدم لهم فضلٌ علميٌّ، وبصيرةٌ نافذةٌ في معرفة جوانب الحقِّ حتَّى مع خفائه على الآخرين، ولذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يقدم أهل بيعة الرضوان على غيرهم، وهم مَن فسَّر بعض أهل العلم قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ بهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

الإتباع يمكن حمله على معنيين: **أولاهما**: أي إتباع المهاجرين والأنصار الأوائل في أعمالهم وسلوكهم وجهادهم، **وثانيهما**: أي إتباعهم بالهجرة والنُّصرة، فتكون الأولى لكلِّ مسلمٍ صالحٍ مجاهدٍ، وتكون الثانية لكلِّ مَنْ هاجرَ ونصرَ على ما قام به الأوائل في كلِّ زمنٍ، فالصَّحابة السابقون من المهاجرين والأنصار هم أئمة كلِّ مسلمٍ في الهُدى، وهم أئمة كلِّ سابقٍ في كلِّ قرنٍ يُهاجر وينصر وتُذهب غربة الدِّين كما أذهبَ الأوائل غربته الأولى.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

هذه غاية المُنى، ونهاية الطلب، وأعظم ما يبلغها العبد، فكلّ غايةٍ غيرها هي دونها، وكلّ نعيمٍ مهما بلغ هي أسمى منه وأرفع، فما أعظم وأجل وأغلى أنْ يرضى الله ربُّ العالمين عن العبد!!،

---

[1] سورة غافر، الآية: ٣٨.

[2] الحديث: «**فِي كُلِّ قَرْنٍ مِنْ أُمَّتِي سَابِقُونَ**» قال الحكيم ـ أي الترمذي ـ: «هم البدلاء الصديقون الذين بهم يدفع البلاء عن وجه الأرض ويرزقون، وذلك لأنَّ النُّبوة خُتمت بالمصطفى ﷺ ولم يبقَ إلاَّ الولاية فكان من الصحب من المقربين قليل ومن بعدهم في كلِّ قرن قليل»انتهى. وفي شرح الحِكم أنَّ المُراد بالسابق الداعي إلى الله المبعوث على رأس كلِّ قرنٍ للتجديد. الترمذي عن أنس ﷺ، ورواه أبو نعيم والديلمي عن ابن عباس ﷺ.

«فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير» لمحمد عبد الرؤوف المناوي. ضبطه وصححه أحمد عبد السلام. الجزء الرابع حديث رقم: ٥٩٦٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٤١٥/١٩٩٤م).

[3] سورة الواقعة، الآيتان: ١٣-١٤.

حينها يكون سمعه الذي يسمع به، وعينه التي يبصر بها، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فإنْ سأل أُجيب سؤاله، وإنْ استعاذ دخل في كنفِ القويِّ العزيز[1].

رضى الله مرتبةٌ يمكن لنا أن نُدرك آثارها، لكن حقيقتها لا يمكن وصفها، فإنْ كانت الجنَّة، وهي أثرٌ من آثار الرضوان، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2]، فكيف يمكن للمرء القاصر أن يبلغ إدراكه حقيقة رضوان الله على العبد، فالحديث عن رضوان الله حديث عن نفس الله تعالى، وربُّنا يُدرك الأبصار ولا تُدركه الأبصار وهو السميع العليم.

هذا الرضى لا يكون إلاَّ لأقوامٍ يُدركون قيمة المعاني القلبية، فالحب عندهم أغلى من الذهب والفضة، وبسمة المحبة تعدل الوجود كلَّه، وأذواق الكلمات أجمل من أذواق الأطعمة، وأكسية الضمات أبهج من أسية الحرير، وحين يكون الحديث عن رضى الرحمن، فهو حديث القلوب ومعانيها، وحديث الدموع التي تخط أجمل الكلمات والحروف، وحديث التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، وحديث أسرار المحب بين يدي حبيبه في دُجى الظلمات، حين يسجد بين يديه، ويُناجيه منادياً: «سبوح قدوس ربُّ الملائكة والروح» ويعظمه مُوَحِّداً «سبحانه ذا الجبروت والملكوت والكِبرياء والعظمة» فتغشاه هيبة الحبيب وعظمته وجلاله وجماله فيسر له ما يشتهيه: «اللهم إني أسألك رِضاك والجنَّة»، ويلقي على عتبة الذل حاجات العبد لسيِّده وحده لأنه حسبه ونِعْمَ الوكيل.

محجوبون أهل المعاصي وأهل الجهل، ولم يعرفوا قيمة الحب والرضى، فهم أغبياء وجهلة، أشبه بالدواب لأنَّ قلوبهم غليظة منكوسة، لا تغشاها المعاني، ولا تحركها الغيبيات التي هي آتيةٌ ولا ريب فيها.

كلّ هذه المعاني القلبية للعابدين يُدركها أقوامٌ لهم فِعْلٌ مميَّزٌ في تخطي حُجُبِ الواقع، فَهُمْ يُصَارِعُونَهُ، وَلاَ يَسْتَعْلُونَ عَلَيْهِ، فيذهبون مهاجرين ويتلقاهم أنصار ليحصل لهمُ الرضوان، هذا لِيُعْلَمَ أنَّ الأعمال التي تجمل معاني العبودية أقوى تأثيراً من أي عملٍ آخرِ من أعمال الإيمان، لأنها هي التي تحمي كلَّ الأعمال، فلا يمكن للسابق في الهجرة، والسابق في النُّصرة إلاَّ أن يكون مُصَلِياً ذاكراً عابداً مخبتاً، لأنه في كلِّ لحظةٍ هو في عبادة، إذ هناك مِنَ العبادات ما يفتتحها المرء بعملٍ ثم

---

[1] عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ـ ﷺ ـ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». أخرجه البخاري ـ وتفرد به ـ في «كتاب الرقاق» باب التواضع. حديث رقم: ٦٥٠٢.

[2] عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «قال اللهُ: أعدَدتُ لِعبادي الصالحينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعت، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَر. فاقرؤوا إن شِئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

أخرجه البخاري في «كتاب بدء الخلق» باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة. حديث رقم: ٣٢٤٤. أطرافه في: ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨.

ومسلم في «كتاب صفة الجنة ونعيمها» حديث رقم: ٢٨٢٤.

ينتهي بعملٍ، كالصلاة فإنَّ تحريمها التكبير وتحليلها التسليم، والصيام له مبتدأ ومنتهى في اليوم معلومان، والحج يبدأه المرء محرماً ثم إذا قضى تفثه أحل، لكن هناك أعمال عبادية هي الحياة كما هو شأن المهاجر والأنصاري، فهما في عبادةٍ في كلِّ لحظة من لحظات حياتهما، في صحوهما ونومهما، في قيامهما وقعودهما، في جدهما ولهوهما، فعبادتهما لربِّهما تستغرق حياتهما كالخيل إن وقفها صاحبها في سبيل الله تعالى، فإن روثها التي تضعه في ميزان العمل الصالح يوم القيامة كما جاء في الحديث[1]، ولهذا فإنَّ الجهاد لا يعدله عبادة إلاَّ أن يقوم الرجل فلا يفتر، ويصوم فلا يفطر حتَّى يرجع المجاهد[2]، وقد لا يرجع المجاهد فكيف يبلغه هذا العابد القائم الصائم؟!.

لقد علَّق الله الرضوان في كتابه على مواطن تقدم في هذه السورة ـ «التوبة» ـ قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[3]، وفي سورة «الفتح»: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾[4]، وفي سورة «المجادلة» قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[5].

وقال في سورة «البينة»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾[6]، **وقال في**

---

[1] عن أبي هريرةَ ﷺ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «الخيلُ لثلاثة: لرجُلٍ أجر، ولرجلٍ ستر، وعلى رجلٍ وِزر، **فأما الذي له أجرٌ فرجُلٌ ربَطها في سبيل اللهِ، فأطالَ في مَرْجٍ أو رَوضة فما أصابت في طِيَلها ذلكَ منَ المَرْجِ أوِ الرَّوضةِ كانت له حسناتٍ، ولو أنها قطعَت طِيَلَها، فاستنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفينِ، كانت أرواثُها وآثارُها حسَناتٍ لهُ، ولو أنها مرَّت بنَهر فشرِبَت منه ولم يُرِدْ أن يَسقيَها كان ذلك حسناتٍ له.** فأما الرجل الذي هي عليه وزر فهو رجُلُ ربَطَها فخراً ورئاءً ونواءً لأهلِ الإسلام فهي وِزرٌ على ذلك. وسُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ عن الحُمر فقال: ما أُنزلَ عليَّ فيها إلا هذهِ الآيةُ الجامعةُ الفاذَّة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾[الزلزلة: ٧ـ٨].

أخرجه البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب الخيل لثلاثة. حديث رقم: ٢٨٦٠. ومسلم في «كتاب الزكاة» باب إثم مانع الزكاة. حديث رقم: ٩٨٧.

[2] يُشير إلى حديث أبي هريرة ﷺ قال: «جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: دُلَّني على عملٍ يَعدِلُ الجهادَ. قال: **«لا أجِدهُ»**. قال: **«هل تَستطيعُ إذا خرَجَ المجاهدُ أن تدخُلَ مَسجِدَك فتقومَ ولا تَفتُرَ، وتَصومَ ولا تُفطِرَ؟»** قال: ومن يَستطيعُ ذلك؟ قال أبو هريرةَ: إنَّ فرَسَ المجاهدِ ليَستَنُّ في طِوَلِهِ، فيُكْتَبُ لهُ حسَناتٍ».

أخرجه البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب فضل الجهاد والسير. حديث رقم: ٢٧٨٥. ومسلم في «كتاب الإمارة» باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى. حديث رقم: ١٨٧٨.

[3] سورة التوبة، الآية: ٧٢.

[4] سورة الفتح، الآية: ١٨.

[5] سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

[6] سورة البيِّنة، الآيتان: ٧.٨.

سورة «المائدة»: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ ﴾[1].

فرضُ الله في القرآن مسطورٌ على فِعْلَيْنِ؛ **أولاهما**: مطلقُ العمل الصالح والصِّدق مع الله، **وثانيهما**: الجهاد والهجرة والنُّصرة والولاء والبراء، فانشغل أكثر المُصنفين في بيان تحقيق الوِلاية في السبيل الأول، وقلَّ مَنْ عَلَّقَ الوِلاية والرضى على الأمر الثاني، بل المسلمون اليوم لا يعلمون أنَّ هذه الأعمال هي عبادات كالذكر والصلاة والصيام، وقد يمدح النَّاس العابد النَّاسك المُعتزل لما يرون من سكونه وتفرده وتركه المُنافسة فيما يتنافسون فيه، لكن لا يرون هذه المرتبة في المهاجر والمجاهد وشديد الوطأة على العُصاة والكفرة والمرتدين، وما هذا إلاَّ للغفلة عن مفهوم العبادة في الإسلام، ولغياب هذه الأعمال وضُعف وجودها في المسلمين، فالولاء والبراء غابت معالمه، وحلَّ بدلاً منه مفهوم القَرابة والنسب، وجاء اليوم مفهوم الوطن الذي لغى فيه مشايخ الضلالة وجعلوه ديناً يُتبع، بل جعلوا دين الله تبعاً له، يحرمون ما يؤذيه حتَّى لو كان جهاداً في سبيل الله تعالى، ويُوجبون ما يُزيِّنُهُ ويحميه ولو كان شِرْكاً بالله وكُفْراً.

لقد ارتبطَ مفهوم الولاية في أذهان المسلمين بنمط السكون، مع أنَّ الولاية لله الحقِّ لا تكون إلاَّ للفاعل؛ المهاجر والأنصاري والمجاهد والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وقد كرست أنظمة الضلال الصورة المُنحرفة للولاية عن طريق تضخيمها نمط السكون واعتزال الصِّراع معها، أما هؤلاء الذين يخرقون نُظُمَهَا، ويُفْسِدُونَ ضلالها، ويكسرون حدودها، فيأتون الأعمال المُتقنة التي تضرب أُلوهيتهم الباطلة من أوراقٍ وحدودٍ ونُظُمٍ فهؤلاء تلقى عليهم أسماء الجريمة التي تُنفر النَّاس منهم.

إنَّ رضا الله لا يكون بالبسمات التي تُلْقَى لكلِّ أحدٍ، ولا بترك الولاء والبراء، ولا بترك الجهاد والهجرة والنُّصرة، ولا بترك تغييِّر المُنكر، ولا بترك البشاشة في وجوه أعداء الله تعالى بل إنَّ رضا الله وتحقيق ولايته هي القلب المُخبت لربِّه، المحب للمؤمنين، والمُبغض للكافرين، فهو محسنٌ للصالحين، قتَّالٌ لأعداء الدِّين، وهو العقل الذي لا يكف عن النظر والتفكر، فآيات الله الشرعية والكونية هي محط نظره، فهو يعرف الجاهلية كما يعرف الإسلام، وكما يقرأ سير المؤمنين والصالحين فهو يقرأ سير المجرمين والكافرين، وكل قراءة له تحقق عبودية لله لما تُلقي في قلبه من معاني تسبيح الله وتحميده وتأليهه وتكبيره.

ولاية الله وتحقيق رضاه ليس غِياباً عن الوجود، لأنَّ الغياب عن الوجود يعني الضّعف وقد يصل للموت، والمؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله مِنَ المؤمن الضعيف، ولذلك كان عمر بن الخطاب ﷺ يُعِدُّ الجيوش وهو في صلاته، وقد تعلم هذا من سيِّده وسيِّدنا وسيِّد ولد آدم محمد بن عبد الله لما أرسل عيناً ثم قام يُصلي، فجعل ينظر إلى فم الوادي يستطلع عينه، وقد فسَّر ابن القَيِّم هذا الأمر

[1] سورة المائدة، الآية: ١١٩.

بأنَّ هذا مِنْ أعظم حالات تحقيق العبودية إذ يجمع العابد بين صِلته مع الله بالنُّسك، وقِيامه بحقِّ الأُمَّةِ عليه، ومن فرائد ابن تيمية في فقه تأخير النَّبيِّ ﷺ صلاة العصر يوم الخندق حتَّى خرج وقتها أنَّ هذا التأخير كان باختياره لا نِسياناً، لأنَّ واجب الوقت هو القتال ودفع شرِّ المحاربين المُشركين، ولا أعلمُ أحداً من أهل العلم قال هذا القول معه لا قديماً ولا حديثاً، ولكن ما يهمنا هو ما لاحظه هذا الفقيه من موضوع العبودية.

لقد قال الإمام أحمد عن رجلٍ[1] ذكرَ أهل الحديث بسوءٍ: «زنديقٌ، زنديقٌ، زنديقٌ»[2]. أما والله لا يقول اليوم السوء على المجاهدين إلاَّ زنديقٌ أو جاهلٌ، فإنْ كان أهل الحديث هم مَن يذب الكذب عن رسول الله ﷺ، فإنَّ المجاهدين هم مَن يذب الزندقة عن دين الله، وهم مَن يذب الكفر عن أهل الإسلام، وهم مَن يذب الفاحشة عن أعراض المسلمين، منهم فتح الله باب الشَّهادة، وبهم فتح الله باب الابتلاء في سبيل الله تعالى، وبهم فتح الله باب النفقة والهجرة والنُّصرة، وبهم عرف النَّاس أهل الإيمان من أهل الكفر والضلال، ولقد صارت طائفة الجهاد اليوم بفضل الله لا طائفةَ قتالٍ فقط، بل جمع الله تحتها كل مَن ذبَّ عن دين الله أن يصبح نفاقاً، وذبَّ عن الإيمان أن يصبح كفراً، وذب عن الولاء والبراء أن يذوب ويذوى.

إنَّ الجهاد اليوم هو الفارق بين السنِّي والبِدعي، وبين المحرِّفِ للقرآن وبين السائر على هديه كما سار الأوائل، لا لكون الجهاد سلاحاً يحمل، ولا معركة يخوضها المجاهدون، بل لأنَّ الجهاد صار منهج تفكير، وطريقة فهمٍ لكتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ، واختياراً للسني بين مناهج الضلال التي كثرت حتَّى أفسدت عقائد المسلمين، والتي أغلبها يقوم على الجهال بالتوحيد، والتلعب بالفقه، ومُسايرة واقع الهزيمة، وتبرير الشرِّ والضلال.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾.

تقدم في آيات الرضى هذه رضى الله على رضى عبيده عنه، وفي آية الحبِّ تقدم حبّ الله كذلك على حبِّ عبيده فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[3]، لأنَّ الرضا كالحبِّ ثمرة ونتيجة فهو ثمرة مِنْ فِعْلِ الله

---

[1] هو يحيى بن إبراهيم بن أبي قُتَيْلَة.

[2] قال محمد بن إسماعيل الترمذيُّ: كنتُ أنا وأحمد بن الحسن الترمذي عند أحمد بن حنبل، فقال له أحمد: يا أبا عبد الله، ذكروا لابنِ أبي قتيلة بمكة أصحابَ الحديث، فقال: أصحابُ الحديث قوم سوءٍ، فقام أبو عبد الله ينفض ثوبَه، ويقول: «زنديقٌ، زنديقٌ، زنديقٌ. ودخل البيت».

ذكره: الخطيب البغدادي ف شرف أصحاب الحديث» الجزء الثاني، الصفحة ٧٤. طبعة دار إحياء السنة النَّبوية. وابن رجب الحنبلي في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» الجزء الثاني، الصفحة ٣٣٤. طبعة الغرباء الأثرية بالمدينة النَّبوية (١٩٩٦م). والنيسابوري في «معرفة علوم الحديث» الصفحة ٢. طبعة المكتبة العلمية بالرياض (١٩٩٧م). وابن تيمية في «مجموع الفتاوى» الجزء الرابع، الصفحة ٩٦. طبعة دار عالم الكتب بالرياض (١٤١٢/١٩٩١م). والذهبي في «سير أعلام النبلاء» الجزء الحادي عشر، الصفحة ٢٩٩. طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت. الطبعة السابعة ١٤١٠/١٩٩٠م). وأبي يعلى في «طبقات الحنابلة» الجزء الأول، الصفحة ٣٩، ٢٥٩. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٧م).

[3] سورة المائدة، الآية: ٥٤.

بالعَبْدِ، ونتيجة لِفِعْلِ العَبْدِ مع ربِّه، والمُلاحظ أنَّ آيات الرضى توافقت مع دخول الجِنان، فكان دخول الجنان ثمرة لهذا الرضى، وفيه كذلك يحصل تمام الرضى كما في الحديث الذي فيه إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنَّة: «يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. يَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[1]، والعباد كذلك رضوا عن ربِّهم بما أمرهم، ورضوا عنه بما قدَّر لهم، ورضوا عنه ربّاً لهم، ثمَّ رضوا عنه لما حصل لهم دخول الجنان وحصول الرضوان.

والرضى هنا ليس هو الخضوع بل هو أبلغ منه، لأنَّ الخضوع فيه معنى التكليف والمجاهدة، لكن الرضى الحاصل بعد الجنَّان وحصول كمال الرضوان فيها شيءٌ أبلغ من ذلك كلِّه، ويكفي أن يكون هو أبلغ نعيماً من الجنَّة نفسها.

وتقديم رضوان الله على رضى العبد لأنَّ رضوان الله في تحقيق رضوان العبد أبلغ مما يطلب العبد، فإنَّ العبد لقصوره يحصل منه الرضى على قدر عقله، ولكن رضوان الله يبلِّغه أعظم مما يحقق له الرضى، ففي الحديث: سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ؟ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمِ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنيا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ، رَبِّ فَيُقُولَ: لَكَ ذَلَكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ، رَبِّ فَيَقُولُ: هذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ. وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ...[2].

فتحقق رضى الربِّ على العبد يجعلُ لرضى العبد معنى أبلغ مما يظنُّ العبد، إذ يرفعه منازل كان رضاه أقصر من أن يطلبها ليكون، لكنَّه فضل الله على عبيده المؤمنين.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[3].

المؤمنون صنفٌ يتشكلُ من المهاجرين والأنصار ثم أتباعهم، وعلى الهامش أعرابٌ منافقون، وفي الداخل منافقون قست قلوبهم، فإنْ كان الأعراب لبُعدهم كان فيهم النِّفاق، وكان نفاقهم وكفرهم أشدّ مِنْ غيرهم، فإنَّ نفاق المدينة صار فيه صلابة وقسوة لطول عهده بالقلوب، ولاستمراء أهله له، فلم تَعُدْ آيات الله تُلِين هذه القلوب، ولا تردعها عن نفاقها، فلذلك صاروا في النِّفاق مردة، وهذا

---

[1] البخاري في «كتاب الرقاق» باب صفة الجنَّة. حديث رقم: ٦٥٤٩. طرفه في: ٧٥١٨. ومسلم في «كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار» باب إحلالِ الرِّضوانِ على أهلِ الجنَّة فلا يسخطُ عليهم. حديث رقم: ٢٨٢٩. وله أيضاً في «كتاب الإيمان» باب معرفة طريق الرؤية. حديث رقم: ١٨٣.

[2] مسلم في «كتاب الإيمان» باب أدنى أهل الجنَّة منزلةً فيها. حديث رقم: ١٨٩.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٠١.

يُبَيِّنُ أنَّ الشرَّ في القلوب يغلي ويشتد لعاملين؛ **أولاهما**: البُعد عن مصادر الهدى والطاعة ومواطن الخير، وهذا شأن نفاق الأعراب البوادي. **وثانيهما**: طُول الأُلفة له في القلوب، وهذا نفاق أهل المدن والقرى والحواضر، وإذا كان نفاق الأعراب شديداً وقوياً لارتباطه بغِلظة القلوب وقسوتها، فإنَّ نفاق أهل المدن في الخبث الذي يحمل قوة التشكل والتكيف في داخل الصف المؤمن، ولذلك وصف بهذا الوصف ـ مردوا على النِّفاق ـ إذ صار لهم سجية وخُلُق وأُلفة، فهم يتكيَّفون كصراصير الأرض وحشراتها، لقُدرتهم على الكمون والخداع والتلعب، فهو ليس نفاق الشدَّة والقسوة والغلظة، لكنه نفاق التلون والتكيف والقدرة على مُسايرة الظرف، كأن صاحبه لا عَظم له، فهو قادر على الدخول في أي شكلٍ وحالٍ ليكون جزءاً منه.

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ﴾.

هذه تبيِّنُ مُراد الله تعالى في قوله: ﴿ **ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا** ﴾[1]. على المعنى الذي تقدم، وهو أنَّ الأعرابي إنْ كَفَرَ أو نَافَقَ كان نِفاقه وكُفره أشدَّ من غيره، وفيهم كذلك المؤمن، وليس المُراد بها أنَّ كلَّ أعرابيٍّ منافق أو كافر كما يظن البعض، وإذا وُصِفَ كُفْر الأعراب ونفاقهم بالشدَّة فإنَّ نفاق أهل المدن في هذه الآية يجعل لهم فضلاً ولا كرامةً، ولا يفتح لهم باب التميز عن منافقي الأعراب، إذ أنَّ نفاقهم فيه لونٌ خاصٌ مِنَ الشرِّ وهو العُتو والدربة والقدرة على المُمارسة الطويلة، وسبب هذا النوع من النِّفاق أنَّ صاحبه يعيش في الوسط المؤمن، ويتعامل في أغلب لحظاته مع المؤمنين، فهو يشهد مجالسهم وصلواتهم، فمثل هذا إنْ نافق فإنه يحتاج إلى قُدرةٍ خاصةٍ لإخفاء نفاقه، شأنه شأن الجاسوس الذي يُدَرَّب ويمرَّن طويلاً حتَّى لا يُكتشف أمره.

منافق الأعراب هو أعرابي النزعة والسلوك، فهو لا يُتقن الابتسام، ولا الكلمات المقربة للعواطف، لكن منافق المدن كالتاجر الكاذب، فهو مادحٌ لكلِّ آتٍ، مبتسمٌ لكلِّ واردٍ، فهو يمارس النِّفاق والكذب مِنْ أول يومه إلى أنْ يَأْوِيَ إلى فراشه، ولهذا قال الله لنَّبيِّه: ﴿**لَا تَعْلَمُهُمْ**﴾، مع أنَّ دلائل النِّفاق التي نُصبت للمؤمنين في كتاب الله واضحة جلية، وقد كشفت أدق أعمالهم وأقوالهم وارتباطهم، وتغلغل إشارات كلماتهم ومواقفهم، ولكن هذا النوع من المنافقين ﴿**مَرَدُوا**﴾، ولذلك فأنتَ يا محمد ﴿**لَا تَعْلَمُهُمْ**﴾.

وهذه تُقال لأبصرِ النَّاسِ وأحْكَمِ النَّاسِ، وأذكى النَّاسِ، أي الحبيب المصطفى، وقد كشف الله لرسوله دلائلهم فقال: ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ** ﴾[2].

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٧.

[2] سورة محمد، الآيتان: ٢٩-٣٠.

ومع ذلك فهؤلاء الذين في المدينة ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فهل هناك عتوٌ وخِداعٌ أكثر من هذا؟!.

إنَّ هناك نوعاً من المرضى والمنافقين هم أقوى مِنْ كُلِّ الامتحانات التي يملكها النَّاس في معرفة الكاذب مِنَ الصادق، ومعرفة المُوالي مِنَ العدو، فهم ينجحون في هذه الاختبارات حتَّى تنطلي حِيَّلهم على البصير الخبير، وهذا منْ إعذار الله للمؤمنين أن لا يتهموا أنفسهم بالجهل والغباء إنْ صار بينهم أمثال هؤلاء، فيسيرون معهم السنين والشهور والأيام ثم يتبيَّن لهم بعد انتهاء المرحلة خُبثهم ونِفاقهم وتدسسهم، بل ربما لا ينكشفون قط، وتبقى الأسئلة قائمة، ذلك بأنَّ اختراق المنافقين ليس ظاهرة خاصة بقومٍ من الأقوام، بل هي ظاهرةٌ بشريةٌ يمكن أن تكون في أقوى الصفوف والمجتمعات، وكفى بذلك شهادةً أن يكونوا في زمن النَّبيِّ المصطفى ﷺ، ولذلك فاكتشاف منافق أو منافقين في صفٍ من الصفوف لا يجوز أن يُتخذ مدخلاً للإسقاط، فهذه يُقال فيها ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما لما قيل له: إنَّ اليهود يزعمون أنهم لا يُوسوسون في صلاتهم؟ قال: «صدقوا، ماذا يفعل الشيطان في القلب الخرب؟!»، فوجود العمل والأعداء يعني وجود المحاولات للاختراق، ويكون العيب حينها في أمور:-

أنْ تُلغى دلائل النِّفاق القرآنية الواضحة في أشخاص تحت دعوى إحسان الظن في الآخرين، فحينها تكون الملامة والعيب، لأنَّ هذا جهلٌ لا يُحتمل في الجهاد وإدارة الصِّراع، وأغلب ما وقع في الصف المسلم كان من هذا الصنف.

أنْ يلغى السبق في التقديم والإمارة إلى ملتحقين بآخره لجمال ألوانٍ لم تختبر، كالخطابة والعلم والمال وسطوة العشيرة وأشباه ذلك، ذلك لأنَّ السبق لا يكون إلاَّ باختيارٍ أهله عن غيرهم، وكذلك فإنَّ الاختراق في داخل الصف كان على هذا المعنى ومِنْ هذا الطريق.

خطورة النِّفاق ليس في نقل الأخبار، فهذا فن يُتقنه الصِّغار، لكن أعظم النِّفاق هو صناعة الأفكار، لأنها إنْ تمت تحوِّلُ أداء المرء وأفعاله إلى خدمةٍ لخصومه دون أنْ يشعر، وهذه أخطر أنواع الجاسوسية، فهؤلاء المنافقون يرسون قواعد العمل في داخل الصف ليتحول الصف إلى عدوٍّ نفسه، يُؤذيها وهو يظن إحسان الفِعل، واكتشاف هؤلاء يكون بأمورٍ مركبةٍ غير يسيرة كما قال ابن القيم في مسألة الأمراض المركبة بأنها تنشأ بسبب الأطعمة المركبة وهي تحتاج إلى أدوية مركبة غير سهلة، ولذلك قال: بأن أمراض العصر ـ أي عصره ـ قد لا تنفعها الأدوية التي كانت تنفع النَّاس قديماً لأنَّ أطعمتهم سهلة غير مركبة[1].

---

[1] هذه عبارته من «زاد المعاد في هدي خير العباد» الجزء الرابع، الصفحة ٦٥. طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت (١٩٩٦م): «وأما الأمراض المركبة، فغالباً ما تحدث عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها، فاختيرت لها الأدوية المركبة، والله تعالى أعلم».

هذا النوع من النِّفاق يحتاج إلى أطباء حاذقين، لهم فقهٌ في كتاب الله، وفي التاريخ، وفي النفس البشرية، وفي أغلب شؤون الحياة وفنونها، وما يهم بيانه هنا هو النِّفاق الفكري في هذا الباب، وهم أولئك الذي يلجون داخل الصف المسلم، يتحدثوا باسم الإسلام، وبلغة المسلمين، ليُصنفوا إسلاماً جديداً يخدم أعداءه، وأرجو من الله أنْ يكون هذا الكتاب كاشفاً لهذا النوع مِنَ النِّفاق.

هناك منافقون يلجون داخل القيادة والإدارة، فهؤلاء نترك لأصحاب الشأن الحديث فيهم.

﴿ **لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾.

هناك منافقون علمهم الرسول ﷺ بأسمائهم بتعليم الله له، وأخبر حُذيفة بن اليمان بأسمائهم، ولذلك كان يُسمَّى صاحب السرِّ كما في الصحيح[1]، وهنا منافقون علمهم رسول الله بلحن القول، كما في الآية التي تقدمت من سورة «محمد» ﴿ **أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ** ﴾. وهناك منافقون لا يعلمهم رسول الله ﷺ لهذه الآية: ﴿ **لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾. هذا هو الصحيح في هذه المسألة، وقد كتبتُ فيها جزءاً رددتُ فيه على المُخالفين وخاصة الإمام ابن حزم، وهو منشورٌ بفضل الله تعالى، وفي الجزء كذلك بيان سبب عدم قتل رسول الله ﷺ للمنافقين فليرجع إليه من شاء، وفي الجزء كذلك الرد على مَن زعم أنَّ أحد العذابين لهم في قوله تعالى: ﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ** ﴾[2]. هو الفضح والطرد مِنَ المسجد، والحمد لله ربِّ العالمين.

﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝١٠١** ﴾[3].

قد يحتج ضالٌّ مبطلٌ[4] بسبِّ الصَّحابة المقربين مِنْ رسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿ **لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ** ﴾ فيقول: إنَّ رسول الله ﷺ إنما قربهم ومدحهم لعدم معرفته بهم كما تقول الآية، ثم يفتحون لأنفسهم باب الشرِّ في سبِّهم، واتهامهم بالنِّفاق، وللردِّ عليهم نقول:-

إنَّ الله قال: ﴿ **سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝١٠١** ﴾ فقد حَكَمَ الله عليهم بالعذاب في الدُّنيا قبل أن يردهم إلى عذاب جهنَّم يوم القيامة، وعلى كلِّ أقوال أهل التفسير فإنَّ أحد العذابين

---

[1] أخرج البخاري في «فضائل الصَّحابة» باب مناقبِ عمَّارٍ وحُذيفة رضي الله عنهما. حديث رقم: ٣٧٤٢. طرفاه في: ٣٧٤٣، ٣٧٦١:- عن إبراهيمَ عن علقمةَ قال: «قدِمتُ الشامَ، فصلَّيتُ رَكعتَين، ثمَّ قلتُ: اللّهم يَسِّرْ لي جَليساً صالحاً. فأتيتُ قَوماً فجلَسْتُ إليهم، فإذا شيخٌ قد جاءَ حتى جَلسَ إلى جَنبي، قلتُ: مَن هذا؟ قالوا: أبو الدَّرْداءِ. فقلتُ: إني دعَوتُ اللهَ أن يُيسِّرَ لي جَليساً صالحاً، فيسَّرَكَ لي. قال: ممن أنتَ؟ قلتُ من أهلِ الكوفةِ. قال: أوَليسَ عندَكم ابنُ أمِّ عبدٍ صاحبُ النَّعلَين والوسادِ والمِطهَرَة؟ أفيكم الذي أجارَهُ اللهُ منَ الشيطان، يعني على لسانِ نبيِّهِ ﷺ؟ **أوَ ليسَ فيكم صاحبُ سَرِّ النبيِّ ﷺ الذي لا يَعلم أحدٌ غيرهُ**؟ ثم قال: كيفَ يَقرأ عبدُ الله ﴿ **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ** ﴾ [الليل: ١] فقَرأتُ عليهِ ﴿ **وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣** ﴾ قال: واللهِ لقد أَقْرَأَنيها رسولُ اللهِ ﷺ مِن فِيهِ إلى فِيَّ».

[2] سورة التوبة، الآية: ١٠١.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٠١.

[4] المقصود بهم الروافض الملاعين.

سيكون في الدُّنيا، وذلك على قول مَن قال إنَّ أحد العذابين هو عذاب القبر، وآخرون قالوا: إنَّ العذابين في الدُّنيا[1]، فأين وقع هذا العذاب على أصحاب رسول الله ﷺ كالأئمة الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان، وبقية الأصحاب رضوان الله عليهم جميعاً؟.

إنَّ سيرتهم مع رسول الله ﷺ، وبعد وفاته تدل أنهم كانوا منصورين مؤيدين، لا معذَّبين، بل كانوا هم عذاب الله على أعدائه والمُرتدين والمُشركين، ولذلك عاشوا في هذه الدُّنيا أعزَّ النَّاس، وأكرم النَّاس، ولم يُصبهم شيءٌ من العذاب، بل أعداؤهم ومُبغضوهم همُ المُعذَّبين، فإنَّ خصوم الصَّحابة كانوا وما زالوا أذلَّ خَلْقِ الله، يُسامون سوءَ العذاب في كلِّ الأزمنة والعصور، ولم يكن لهم شأنٌ إلاَّ في زمان شأنِ علو اليهود، أي في زماننا هذا، فاقترن علوهم بعلو أئمتهم[2].

إنَّ أقوال الرسول ﷺ في أصحابه الكرام لا تكون مِنْ قِبَلِ رأيه، بل هي داخلة في قوله تعالى: ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ④ ﴾[3]، فهو لا يقول إلاَّ حقّاً، فأقواله في مدح العشرة المُبشرين بالجنَّة[4]، وفي غيرهم، وحيٌ مِنَ الله تعالى، فإنْ كان رسول الله ﷺ لم يعلم أعيان بعض المُنافقين إلاَّ أنه معصومٌ أنْ يمدح هؤلاء، فإنْ مدح امرءاً دلَّ أنَّ هذا المدحَ حقٌّ فيه لنبوته صلوات ربِّي وسلامه عليه.

وصف الله هذا النوع من المنافقين أنهم ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ** ﴾ ووصفهم بقوله: ﴿ **مَرَدُواْ** ﴾ وهذا لا يكون أبداً لمهاجرٍ قط، وهذا معلوم إذِ النِّفاق لا يكون مع السابقين في الخير، إنما يكون بعد ذلك.

ثمَّ يُقال لهذا الضال: إنْ كان رسول الله ﷺ لم يعلمهم لمرانهم وخفائهم، فكيف عرفتهم أنتَ؟.

وإنْ كان عندك أنَّ عامة المهاجرين إلاَّ الواحد والاثنين منافقون فهل هؤلاء هم فقط مَن قال الله فيهم: ﴿ **وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ** ﴾؟!.

---

[1] وممن رجح هذا القول الإمام الشوكاني في «فيض القدير» في الجزء الثاني، الصفحة ٥٥٨. وذلك بعد أن ذكر جملةً من الأقوال في تفسير قوله تعالى: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾. ثم قال: «والظاهر أنَّ هذا العذاب المُكرر هو في الدُّنيا بما يصدق عليه اسم العذاب، وأنهم يُعذبون مرَّةً بعد مرَّةٍ، ثم يُردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة، وهو المراد بقوله: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾.

أما ابن الجوزي في «زاد المسير في علم التفسير» الجزء الثالث، الصفحة ٤٩٢ ـ٤٩٣. فقد ذكر عشرة أقوال في تفسير الآية، وكلها تفيد أن العذابين في الدُّنيا.

وذكر إمام المفسرين الطبري في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع. الجزء الحادي عشر، الصفحة ١٠-١٢. بعد سرده لخمسة عشر قولاً في تفسير الآية، كلها تقول بأنَّ العذابين في الدُّنيا إما بالقتل، أو الجوع، أو الخوف، أو الحدود، أو أخذ الزكاة من أموالهم، والعذاب الثاني يكون في القبر. ثم قال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يُقال: إنَّ الله أخبر أنه يُعذِّبُ هؤلاء الذين مردوا على النِّفاق مرتين، ولم يضع لنا دليلاً نتوصل به إلى علم صفة ذينك العذابين، وجائزٌ أن يكون بعض ما ذكرنا عن القائلين ما أنبأنا عنهم، وليس عندنا علمٌ بأيِّ ذلك من بأيّ، على أنَّ في قوله جل ثناؤه: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ دلالة على أنَّ العذاب في المرَّتين كلتيهما قبل دخولهم النَّار، **والأغلب من إحدى المرَّتين أنها في القبر. وقوله: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ يقول: ثمَّ يُردُّ هؤلاء المنافقون بعد تعذيب الله إيَّاهم مرَّتين إلى عذابٍ عظيمٍ، وذلك عذاب جهنَّم**».

[2] إشارة إلى إمامهم ومُؤسسهم اليهودي عبد الله بن سبأ.

[3] سورة النجم، الآية: ٤.

[4] وهم: أبو بكر الصِّدِّيق ﷺ، عمر بن الخطاب ﷺ، عثمان بن عفان ﷺ، علي بن أبي طالب ﷺ، أبو عُبيدة ﷺ، سعد ﷺ، الزبير ﷺ، طلحة ﷺ، عبد الرحمن ﷺ، سعيد ﷺ.

وللردِّ عن عِرْضِ الأصحاب يحتاج إلى كلامٍ طويلٍ، ولكن أردتُ التنبيه على وضعهم هذه الآية في غير موضعها فقط[1]، وهذا شأنُ المُتلعب بالقرآن يأخذ بعض الآية لا كلِّها، ويأخذ بعض الآيات ويعرض عن أُخرى، ولو اهتدى لَعَلِمَ أنَّ فهمه الضال يرد عليه تمام الآية، أو ترد عليه آيات أُخرى.

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[2].

هذه فئةٌ قد تخلفت عن تبوك، يمكن أنْ يكون فيهم لما تخلفوا نوعَ نفاقٍ يسيرٍ غلبَ عليهم، ويمكن أنْ يكونوا مجرد عُصاة غلبتْ عليهم نفوسهم فطاوعوها بعدم النفير مع رسول الله ﷺ، وكلا القولين قال به بعض أهل العلم، لكن أدركتهم رحمة الله فاعترفوا بذنوبهم فتاب الله عليهم كما قال سبحانه: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾. وعسى في القرآن واجبة[3] كما تقدم.

هذه مساحة إنسانية لا يخلو عصر منها، ومهما ارتقتِ الجماعة المؤمنة في قُوَّتِها المادية، ومهما كان فيها صعودٌ في الطاعة والعلم والتقوى فإنَّ هناك قومٌ تقصر بهم هِممهم عن هذه المعالي، وهؤلاء يجب فتح باب التوبة لهم، ودفعهم بالترغيب للالتحاق بالصف، بل ربما يقع المؤمن الصادق في لحظة ضعفٍ، أو في امتحانٍ ما لسببٍ من الأسباب الإنسانية، فمثل هذا لا يُطرد، ولا يُنبذ، بل يُراعى للعودة دون تثريب.

وقوع المرء في لحظة إخفاقه سببه الخلط بين عملٍ صالحٍ، وعملٍ فاسدٍ، فالمعاصي لابدَّ أنْ تُدْرِكَ المرءَ كما تُدْرِكَ الكبوة الفرس كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟** ﴾[4]، فالمعصية وهنٌ في البدن، ووهنٌ في الإرادة، ووهنٌ في العقل، وهي مدخل الشيطان لتوسعها واستغلالها، كما أنها سبيل أولياء الشيطان من الإنس حين يتخذونها وَجْهاً للاستغلالِ وتَكْرِيسِ العاصي ضدَّ المسلمين والمجاهدين، فوعي الجماعة المؤمنة على هذا الباب يمنع استغلال الشيطان وجُنده. كما في الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِسَكْرَان، فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِهِ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ مَا لَهُ أَخْزَاهُ اللهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**»[5].

---

[1] للشيخ حفظه الله تعالى، محاضرة مرئية بعنوان: «الشيعة» مدتها أربع ساعات، سجلناها له قبل ١٥ سنة. فاحرص على مشاهدتها.

[2] سورة التوبة، الآيات: ١٠٢ـ١٠٥.

[3] وعسى من الله واجب. قاله: ابن جرير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، الصفحة ١٣.

[4] سورة آل عمران، الآية: ١٥٥.

[5] البخاري في «كتاب الحدود» باب ما يُكره من لعنِ شاربِ الخمرِ وإنه ليس بخارجٍ من المِلَّةِ. حديث رقم: ٦٧٨١. طرفه في: ٦٧٧٧.

المؤمنون على وعيٍ تامٍ أنَّ الوجود كلَّهُ قائمٌ على الصِّراع من أجل مصير الإنسان، فالله يدعو عبيده إلى دار السلام، والشيطان يدعوهم إلى النَّار، والله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر، وإنْ يشكروه يرضه لهم، ولذلك فتح لعبيده باب التوبة، ورغبهم في الطاعات بما يحصل لهم في القلوب من حلاوةٍ وذوقٍ إيمانيٍّ عظيمٍ، وأعطاهم عليها راحة القلب والنَّفس والسعادة في الدُّنيا، وأجزل لهم الأُجور العظيمة يوم القيامة، ذلك لأنَّ الله يحبُّ الخير لهم كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾[1]، وهو سبحانه وتعالى يحبُّ مَنْ حبَّبَ الطاعة لعبيده، وعرَّفهم برحمة الله تعالى، وهو يُبغض مَن أغلق باب التوبة كما في حديث المُتألي على الله وقول الله له: «فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلاَنٍ. وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» ذلك لأنه قال: «وَاللهِ لاَ يَغْفِرُ اللهُ لِفُلاَنٍ»[2].

والذين يصمدون أمام كيد الشيطان حين وُقُوعِهِمْ في المعاصي ثمَّ تقسو عليهم الجماعة المؤمنة هم قِلَّة، كما وقع للصَّحابي الجليل كعب بن مالك ـ أحد الذين خُلفت توبتهم بسبب عدم النفير إلى تبوك ـ فإنَّ شياطين الإنس عرضوا عليه أن يلحق بهم كما في الحديث: «فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ، إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّامِ ـ أي الفلاح سمي بذلك لأنه ينبط الماء أي يخرجه كما يقولون: استنبط فلاناً حكم المسألة من الحديث ـ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ. يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ. قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ. حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَاباً مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ـ وهم نصارى على أطراف الجزيرة ومن العرب، كان لهم صلة بالروم ـ، وَكُنْتُ كَاتِباً. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ. فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ. وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ. فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ. قَالَ: فَقُلْتُ، حِينَ قَرَأْتُهَا: وَهذِهِ أَيْضاً مِنَ الْبَلاَءِ. فَتَيَامَمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا بِهَا ـ أي وضعها في الفُرن فحرقها ـ»[3]. فأمثال هذه القلوب قليلٌ، ولذلك لا ينبغي أن يُقسى على النَّاس، ولا يُشدد عليهم، بلِ الرفق أوسع لعموم الخَلق، فإنْ خلط بعض النَّاس صواباً بخطأ، وحقّاً بباطلٍ، وعملاً صالحِ بفاسدٍ، ثمَّ رؤي منهم إقبالاً على الحقّ، ومسارعةً إلى التوبة، وإرادةً في تخطي ما هم فيه فيجب الترحيب بهم، ويُنادى عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ ﴾[4]، ويتلقوا بالرحمة وبقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[5]، فإنَّ الله يحبُّ هذا ويُرغب فيه، وهذا مما

---

[1] سورة النساء، الآية: ١٤٧.

[2] مسلم، وانفرد به، في «كتاب البر والصلة» باب النهي عن تقنيطِ الإنسانِ من رحمةِ الله تعالى. حديث رقم: ٢٦٢١.

[3] جزء من حديث طويل أخرجه الشيخان في صحيحيهما، وهذه رواية مسلم في «كتاب التوبة» باب حديثِ توبةِ كعبِ بنِ مالكٍ وصاحبَيْه. حديث رقم: ٢٧٦٩. والبخاري في «كتاب المغازي» باب حديث كعبِ بنِ مالكٍ وقول الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾[التوبة: ١١٨]. حديث رقم: ٤٤١٨.

[4] سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

[5] سورة الزمر، الآية: ٥٣.

يغيظ الشيطان وجُنده، ولِيسمح لي القارئ المؤمن أنْ أُذكره بأحاديث عظيمة في التوبة، ليجعلها عُدته هو قبل كلِّ أحدٍ، وليعظْ بها نفسه وإخوانه، لأنَّ اليأس من رحمة الله كُفْرٌ، كما قال الله على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴿٨٧﴾﴾[1]، فمَهْمَا عَمِلْتَ أو عَمِلَ غيركَ، فإيَّاك أنْ تنسى هذه الأحاديث العظيمة:-

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[2].

فالمرء لابدَّ من وُقُوعِهِ في الذَّنب لا محالة، فهذا قدر الله في الإنسان، ثم يتمايز الخلق بعد ذلك بالتوبة والإنابة، ولذلك من أسمائه سبحانه «العفو» فلو لم يكن هناك عبدٌ يُذنب لما كان لهذا الاسم مِنْ مُوجِبٍ، وحينها سيذهب الله بالخَلْقِ لِيَخْلُقَ أقواماً يعمل معهم الربُّ سبحانه وتعالى باسمه الحسن «الغفور»، وكل أسمائه حُسنى.

ولذلك تأملْ في هذا الحديث العظيم، وتفكرْ فيه لِتَعْلَمَ أيُّ إلهٍ رحيمٍ هذا الذي خَلَقَكَ ودعاكَ لطاعته.

سبوحٌ قدوسٌ ربُّ الملائكة والروح، فما أشقى مَنْ أعرضَ عنه، وظنَّ فيه الظنون الباطلة.

وعنه رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ فِيمَا يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْباً. فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذَ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْباً. فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ».

قَالَ عَبْدُ الأَعْلَى: لاَ أَدْرِي أَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ «اعْمَلْ مَا شِئْتَ»[3].

فوالله لولا أنَّ هذا الحديث صحيحٌ كالشمس لَوَجَدَ المرء في نفسه من الجهل ما يقول فيه، ذلك لأنَّ رحمة الله تعالى أعظم من إدراكنا مهما حاولنا فهمها والتفكر فيها، وكفى بأنْ نعلم هذا الحديث الآتي عن الرحمة لنُدرك بعض معانيها:-

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ، يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، مِائَةَ رَحْمَةٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. فَجَعَلَ مِنْهَا فِي الأَرْضِ رَحْمَةً. فَبِهَا تَعْطِفُ**

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٨٧.

[2] مسلم في «كتاب التوبة» باب سقوطِ الذُّنوبِ بالاستغفارِ توبةً. حديث رقم: ٢٧٤٩.

[3] مسلم في «كتاب التوبة» باب قَبولِ التَّوبةِ من الذُّنوبِ وإن تكررتِ الذُّنوبُ والتَّوبةُ. حديث رقم: ٢٧٥٨. والبخاري في «كتاب التوحيد» باب قولِ الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾: حقٌّ، ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾: باللَّعِبِ. حديث رقم: ٧٥٠٧.

الْوَالِدَةُ عَلَى وَلَدِهَا. وَالْوَحْشُ وَالطَّيْرُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ. فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، أَكْمَلَهَا بِهذِهِ الرَّحْمَةِ»[1]. أي جعلها جميعاً يوم القيامة.

وعن صَفوانَ بنِ مُحْرِزٍ المازِنِيِّ قال: «بينما أنا أمشي مع ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما آخِذٌ بيدِهِ إذْ عَرَضَ رجُلٌ فقال: كيف سمعتَ رسولَ الله ﷺ في النَّجوَى؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: إنَّ اللهَ يُدْني المؤمنَ فيضَعُ عليهِ كنَفَهُ ويستُره فيقول: أتعرفُ ذَنْبَ كذا، أتعرفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقول: نعم أي ربِّ. حتَّى إذا قَرَّرَهُ بذُنوبِه ورأى في نفسِه أنه هَلَكَ قال: سَترتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ، فيُعطى كتابَ حسناتِه. وأمّا الكافر والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ: ﴿**هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾»[2].

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبْيٌ. فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ، أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ. فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتَرَوْنَ هذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لاَ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لاَ تَطْرَحَهُ. فَقَالَ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِهَا**»[3].

﴿**خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا**﴾.

هذه الكلمات الربَّانيَّة تجعلُ القلبَ مائلاً إلى أنَّ هذا النوع هم عُصاة وليسوا منافقين كما قال بعض أهل العلم، وأما ابن جرير، فقد فسر العمل الصالح هنا بالتوبة والاعتراف بالذنب[4]، وهو وجهٌ غير بعيدٍ، والله أعلم، وإمام المفسرين جعل الواو في قوله: «**وَءَاخَرَ**» بمنزلة «الباء» أي أنهم خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً[5]، أي أذهبه، فالصالح هو التوبة، وهي تُذهب السيئات.

﴿**ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ**﴾.

التوبة لا تصحُ إلاَّ أنْ يُقر المرء بذنبه أمام ربِّه، فيعترف أنه عصى، وخالفَ، وضعفَ، ثم يندم عليه، ثم يستغفر، وهذا مأخوذٌ من حديث أُمِّنا الصِّدِّيقة حبيبة رسول ربِّ العالمين عائشة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما، وعن أُمِّها وجدها في قصة الإفك، وفيه قول رسول الله ﷺ لها: «**يَا**

---

[1] مسلم في «كتاب التوبة» باب في سَعَةِ رحمةِ الله تعالى وأنها سبقتْ غضبَهُ. حديث رقم: ٢٧٥٣.

[2] البخاري في «كتاب المظالم» باب قول الله تعالى: ﴿**أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾ [هود:١٨]. حديث رقم: ٢٤٤١. طرفاه في: ٦٠٧٠، ٧٥١٤. ومسلم في «كتاب التوبة» باب قبولِ توبةِ القاتِلِ وإنْ كثُر قتلُهُ. حديث رقم: ٢٧٦٨.

[3] البخاري في «كتاب المظالم» باب رحمةِ الولدِ وتقبيلِهِ ومُعانَقَتِهِ. حديث رقم: ٥٩٩٩. ومسلم في «كتاب التوبة» باب في سَعَةِ رحمةِ الله تعالى وأنها سبقتْ غضبَهُ. حديث رقم: ٢٧٥٤.

[4] ﴿**خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا**﴾: يعني جل ثناؤه بالعمل الصالح الذي خلطوه بالعمل السيء: اعترافهم بذنوبهم وتوبتهم منها، والآخر السيء هو تخلفهم عن رسول الله ﷺ، حين خرج غازياً، وتركهم الجهاد مع المسلمين. «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، الصفحة ١٢.

[5] ابن جرير الطبري في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، الصفحة ١٢. وقال بمثله القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» الجزء الثامن، الصفحة ١٥٥. وزاد عليه حيث قال: «وقيل: بمعنى مع» انتهى. أي: «مع آخر سيئاً».

عَائِشَةُ؛ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ. وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ. فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»[1]، ولهذا كانت خطورة المعاصي العقدية والفكرية، لأنَّ أصحابها لا يستشعرون الخطأ، ولا يظنون أنهم على شرٍّ، وخاصة حين يُزيِّنُ الشيطان لهم ضلالهم وفسادهم، فيرون حسناً، وهذا الذي يقول الله فيه: ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾[2]، وعماد ذنوب هؤلاء هو غرورهم بأنفسهم، وترفعهم عن مُتابعة القرآن والسنَّة كما كان عليه أمر الصَّحابة ﷺ، فيُبيحُون لأنفسهم ـ ظناً جاهلاً غروراً ـ أنهم أصحاب عقلٍ قادرٍ على الهداية، والوصول للحقائق، وهذا شعور وإحساس واهم، فإنَّ المرءَ إنْ لم يكن له ميزانٌ سليمٌ لا يتغيَّر يقيس به عقله وظنونه وواردات نفسه تُقلب كلَّ يومٍ في قولٍ جازماً أنه الحقّ، وأنَّ غيره الباطل، ولذلك فلا عجبَ أنْ تجد صاحب العقل الرياضي الكبير، والذي لا يقبل حلاً لمعادلة رياضية إلاَّ ما كان مبنيّاً على قواعد صارمة من القانون السَنني للرياضيات، ثم هو مع ذلك يعبد العجل أو الصرصور، لأنَّ الوهم في الإنسان شيءٌ أصيلٌ في غير قضايا المادة، كالمسائل الغيبية، والشرائع الخلقية، ولذلك كان من رحمة الله تعالى إرسال الرسل، وإنزال الكتب، فالذين يرفضون المنهج الربَّاني في إدراك الحقائق بترفعهم عن التسليم لما جاء به الرسول هم أبعدُ النَّاس عنِ التوبة، وأهل البدع هم أشبه النَّاس بهؤلاء الضالين، ولذلك كيف يتوب مَن يظن أنَّ الإسلام يدعو للخنوع والاندماج في الكفر؟ وكيف يتوب مَنْ جَعَلَ الجبن ديناً يُتبع؟ فمثل هؤلاء يُقال فيهم قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[3].

إننا نرى عُصاة ينقلبون من شرب الخمر إلى مجاهدين وشهداء، ونرى عصاة في الزنا ولعب الميسر تاب الله عليهم فصاروا قادةَ خَيْرٍ وجهادٍ، دفعتهم الحمية للدِّين والعِرض، فضربت فيهم مواطن الخير التي يحبها الله تعالى في العباد، مِنَ الغيرة والشجاعة والكرم، وكان هذا التحول صدمة للكافرين، فأبطل عليهم دراساتهم لما يُسمُّونه ظاهرة المجاهدين والمُتدينين، وأفسد عليهم رصد رجال الله كيف يصنعون وكيف يتحولون، وما دروا ما معنى ظاهرة الإيمان، ولو تفكروا في إيمان السحرة زمن فرعون لأدركوا خصوصية هذه الظاهرة التي تستعصي على قوانينهم الفاجرة، وأسلحتهم وجنودهم، فهذه الأُمَّة التي ظنَّ الكافرون أنها قد ماتت، وبعضهم طلب إعلان هذا الموت كما قال نزار قباني: «متى يُعلنون وفاة العرب» وقد جاء اليوم مَنْ أعلنها من المشايخ فيخرجِ منها مَن يرغم أنف الطغاة، ويدس كبرياءهم بضعفه وفقره، ومِنْ قِفار الفقر المنسية يخرج الله عباداً

[1] البخاري في «كتاب الشهادات» باب تعديلِ النِّساءِ بعضِهِنَّ بعضاً. حديث رقم: ٢٦٦١. ومسلم في «كتاب التوبة» باب في حديثِ الإفكِ وقبولِ توبةِ القاذِفِ. حديث رقم: ٢٧٧٠.

[2] سورة الروم، الآية: ٢٩.

[3] سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

يُوحِّدونه، ويجاهدون في سبيله، ومِنْ مواطن الفساد، ومِن تحت جهود الكفر التي صُبت على البلاد يخرج الموحِّدون بفضل الله تعالى، وكلَّ خروجٍ فيه صدمة للكفر وجهوده.

لكن قَلَّمَا نجد مِنَ المُبتدعة مَن يتوب، وخاصة قادتهم، وكلما تقادمتْ بهم الأيام والسنون، كلما ازدادوا إيغالاً في الضلال والبدعة، مع أنَّ كلَّ يومٍ يأتي يكون فيه إثبات عُقْمِ طريقهم وفساده، وقِلَّةِ خيره ومنفعته، ومع ذلك يُصرون على الإيغال بعيداً في الضلال، وحين تكون التوبة إنما تكون في الأطراف البعيدة عن القيادة لقلَّة ضلالها، وعدم تجذر البِدع في قلوبهم.

أما ما نراه من انقلاب بعضهم إلى صفوف البدعة تحت مُسميات كاذبة كالتراجعات والإرشادات فهذه يجب فهمها في إطار السنن كذلك، إذ الكثير منهم تصدر علمياً دون استحقاق، وكان ارتفاعه بسبب «الفعل» لا «العلم»، ولكن هو لم يعرف لنفسه حقَّها، فظنَّ أنه بسبب قيادته لإخوانه صار عالماً يحق له القول والاجتهاد، فلما جاءت الفتن ضعف «الفِعل» وسكن بسبب ظروف خاصة لهم، وكان لابدَّ حينها من «علم» خاص يُقيهم شرور واردات الشيطان لحظة الابتلاء، وخاصة أنه ابتلاء طويل تجتاحه واردات نفسية كثيرة كما هو معلوم مشاهد، فلم يقنع هؤلاء بحقيقة مستوياتهم العلمية، وهي في أساسها تقوم لحظة الصدام أي «الفِعل» على مخالفة الفقه المُنحرف السائد في أوساط المُفتين والفقهاء والقضاة الذين سلكوا في سِلْكِ الطاغوت، وركنوا إلى المُهادنة، أو إلى إسباغ الشرعية على الواقع، فضعف «العلم» والذي هو ضعيف في الأساس أمام هذه الواردات، فانقلبوا إلى قطيع الجموع السائدة التي كانوا يخالفونها ابتداءً، فلم يزدِ الأمر سوى أن أخذوا ما قاله خصوم الأمس وتدثروا به، بل زاد الشر فيهم بأنْ سقط الحياء، فخلعوا البراقع، وجعلوا يتسابقون إلى أهدافٍ أبعد مما وصل إليه القوم من قبلهم.

فظاهرة هؤلاء ظاهرة «فعل» كان رداً «لفعل»، ولم يكن مَبنيّاً على علمٍ خاصٍ راسخٍ، وما حصل لهم ليس كذلك من العلم في شيءٍ، فمِنَ الخطأ الكبير تسمية ما قالوه عِلْماً، لا قبل التراجع ولا بعده، بل هو ظاهرة «فعل» فقط، يمكن أن يكون أغلبه قائماً على الثأر فقط، والزمن الطويل أسكن هذا الثأر فانقلبَ رماداً، وهم يسمُّون هذا الرماد ـ حكمة السنين ـ، و ـ عمق التجرة[1] ـ وكلُّ هذا لا صلة له لا بالعلم، ولا بالحكمة، بل هو في الحقيقة صورة من صور برودة الحرارة بفعل الزمن، والإيمان والعلم ليسا كذلك، لأنهما حقائق في القلوب، يؤديان مع صاحبهما في كلِّ وقتٍ كما قال ابن تيمية: «أنا جنتي وبُستاني في صدري»[2]، وهذا مأخوذٌ من قول آخرِ رجلٍ يقتله الدَّجال وذلك بعد أن يحيِّيه: «واللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي اليَوْمَ»[3]، فالحقائق ليست عُرضةً للتغيِّير، فالدَّجَّال

[1] تَجِرَّةٌ: تَفْعِلةٌ من الجَرّ.

[2] قال رحمه الله تعالى: «ما يفعل أعدائي بي؟! أنا جنتي وبُستاني في صدري، سجني خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

[3] البخاري في «كتاب فضائل المدينة» باب لا يدخلُ الدَّجَّالُ المدينةَ. حديث رقم: ١٨٨٢. طرفه في: ٧١٣٢. ومسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب في صفةِ الدَّجَّالِ وتحريمِ المدينةِ عليه وقتلِهِ المُؤْمِنَ وإحيائِهِ. حديث رقم: ٢٩٣٨.

هو الدَّجَّال، طال زمانه أو قصر، سواء حاربته فقتلته أو قتلك، لكن هؤلاء القوم ابتداءً لم يربطوا الصِّراع على أساس التوحيد والكفر، فما أسهلَ الحروب التي تنتهي بلا شيءٍ إن كانت على غير هذا الأساس، إذ لا يكون الخاسر فيها إلاَّ الموتى الذين قضوا نحبهم من أجل ورَّاث رضوا بالبقاء لقاء ثمن الطعن في طهارة الذين ماتوا.

وهذا كما يكون في الجماعات يكون في الأفراد، فإنَّ أقواماً يسوقهم «الفِعل»، كالجهاد والحسبة، محبة فيه، ثم تذهب بيئته، ويبرد عليه «الفِعل» ثم لا يجد «علماً» يحميه من الانزلاق والضلال إلى البدعة والارتداد على العقبين، لكن «الحِيَّل النَّفسيَّة» لا تنتهي، فمن أجل ستر ضعفه وانزلاقه يتستر بستار «الاجتهاد» أو «الاهتداء» وهو الضلال في القلوب، وإتباع الهوى، وأكبر دليل على هذا الأمر أنَّ هؤلاء لا يزيدون في ما يقولونه بعد الانزلاق والانحراف والارتداد على العقبين إلاَّ ما كان يقوله الخصوم قبلاً، مع أنهم سمعوا هذا الكلام كثيراً لحظة حرارة «الفِعل»، فلم يكن يثير فيهم إلاَّ الضحك والاستهزاء، وأعجب ما في أمرِ هؤلاء أنه مع قُربهم في زمن «الفِعل» للحقِّ، أقول: «قُربهم» لأنَّ بعضهم لم يكن له فضل الدخول كليّاً فيه، لما عادوا القهقري لم يجيبوا أبداً على أدلة أهل الحقِّ، بل راحوا يضربون كما يضرب أسيادهم الجُدد ـ وهم خصومهم القُدامى ـ بعيداً عن أدلة أهل الحقِّ فيما يقولونه، ذلك لأنهم ليسوا من «العلم» في شيءٍ، لكن يضرب لهم بالطبل مِنْ قِبَلِ العلمانيين، والطواغيت، وأبواق الكفر، ليظهروهم أنهم شيء، وليسوا بشيءٍ أبداً، وأما إسباغ الألقاب كالقائد السابق، والمفتي السابق، والخبير «الإستراتيجي» فهي:ـ

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... سَمَاعُ مُعْتَصِمٍ فِيهَا وَمُعْتَضِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخاً صَوْلَةَالأَسَدِ[1]

وهذا كلُّه من ظاهرة بيع الأصوات والألقاب التي صار لها الرواج في زمن خواء القيم، إذ صار أهل العُهْرِ هم «الأبطال» و«النجوم» و«الفوارس»، وصار اللصوص هم «المناضلون»، بل وصار البعير الجاهل «مفكراً» عبقرياً، وللملح ها كُم هذه القصة التي حدثني إيَّاها صاحبها:ـ

قال لي «بائس»: كنتُ أعملُ في إذاعة إحدى الدول النفطية، وأميرها بعيرٌ جاهلٌ، لكنه يحمل عصاة، وهي الحكمة التي تسلل إليها عقول أهل العقل في كلِّ الدهور، حتَّى صارت عصاته ـ هندسة ـ بذاتها.

قال«البائس»: دخل علينا رجلٌ يحمل كتاباً، فجلستُ إليه، وسألته عن كتابه فقال: هذا كتابٌ فريدٌ، أثبت فيه وجه الشبه بين الفيلسوف «كانت»، وبين حاكم البلد.

قال «البائس»: فذُهلت، فقلتُ له: وما أوجه الشبه بينهما؟.

[1] أبيات لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، عنوان القصيدة: «ألقاب في غير موضعها».

قال: كلاهما: مؤمن!!.

فقلتُ له: وهكذا أنا، فهلا وضعتني معهما!! انتهتِ الحكاية.

فيا عبدَ الله اتبعْ قوله تعالى: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴿٣٢﴾﴾[1] فهو خيرٌ لك.

أما الظاهرة الأخرى في تراجع البعض عن الإيمان والجهاد إلى البدعة والضلال فمَردها إلى المعاصي الخفية كما قال تعالى: ﴿**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ** ﴿١٠﴾﴾[2]، فهذه قضية قلوب وأسرار بينهم وبين الله، لا نعلمُ عنها الكثير في مراتٍ مُتعددةٍ، إذ هناك أمراضٌ خفية تكون بينهم وبين الله كما في الحديث: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. فَيَدْخُلُهَا. وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ. فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. فَيَدْخُلُهَا**»[3]، فنحن نرى الظاهر، وقد يشدنا الصوت الأعلى في ظرفٍ من الظروف، ولا ندري ما تحته من معاملة بينه وبين الله تعالى من صدق وطاعات وتواضع وإخلاص، فإنْ تعرض صاحب هذا الصوت لابتلاء، ظهر سره المخفي بينه وبين الحقِّ الذي يعمله، وهذا أمرٌ على الجميع أن يخاف منه، ولا يأمن منه إلاَّ الخاسرون كما قال تعالى: ﴿**فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ** ﴿٩٩﴾﴾[4]، ومما يُلاحظ في النَّاكصين وَقَاحَةَ العِبارة، وصلف[5] القلوب، وغرورٌ يكاد يتفجر من صاحبه، مع أنَّ وقائع الحياة تُثْبِتُ أنَّ التائب يُعذر ويُرحم على العاصي لقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ**﴾[6]، ولقوله تعالى: ﴿**كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾[7]، وبذلك تُدرك أنَّ هؤلاء لم يحسوا بهداية يرجونها لغيرهم الذين لم يُصِبُوها، بل تحس أنَّ وراء الكلام حسداً وحِقْداً أنْ ظهر أمره على الخزي، وبقي الآخرون في الطُهر والجهاد والرفعة في أعين النَّاس.

اللهم يا مُقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم أمِتْنا على التوحيد والسنَّة والجهاد. آمين، آمين.

---

[1] سورة النجم، الآية: ٣٢.

[2] سورة الروم، الآية: ١٠.

[3] البخاري في «بدء الخلق» باب ذِكْرِ الملائكةِ. حديث رقم: ٣٢٠٨. أطرافه في: ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤. ومسلم - واللفظ له - في «كتاب القَدَرِ» باب كيفيةِ الخلقِ الآدميِّ في بطنِ أُمِّهِ وكتابةِ رزقهِ وأجلهِ وشقاوتِهِ وسعادتهِ. حديث رقم: ٢٦٤٣.

[4] سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

[5] الصّلَفُ: مُجَاوَزَة القَدْر في الظَّرْف. «ذكر الفرق بين الحروف الخمسة» لابن السيد البطلوسي. الصفحة ١٢٩. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (٢٠٠٣م).

وقال أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري في كتابه: «تهذيب اللغة»: سمعتُ المنذريَّ يقول: سمعتُ أبا العبّاس يقول: إناءٌ صَلِفٌ: خالٍ لا يأخذُ من الماء شيئاً. قال: وقال: أصْلَفٌ من ثَلْج في ماءٍ، ومن مِلْحٍ في ماء قال: والصَّلَفُ: قِلّةُ الخَير.

[6] سورة الجاثية، الآية: ١٤.

[7] سورة النساء، الآية: ٩٤.

ووالله لولا أنَّ الأمرَ أمرَ دينٍ، أوجب الله على أهله أن يقولوا كلمة الحقِّ ما قلتُ فيهم كلمة، ولولا أنهم صاروا خصوماً لأولياء الله في الأرض، ولأَطْهَرِ مَن يدب على الأرض في زماننا، لما تكلمتُ بكلمة، لكن مثل هذا الشرِّ إنْ سَكَتَ عليه مَنْ عَلِمه كان كالُمشارك فيه. فاللهمَّ غُفرانك.

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾.

من الواجبات على العاصي إنْ أراد التوبة أن يعترف بمعصيته، فإنْ كانت المعصية خفيفة اعترف بها بينه وبين الله، وإنْ كانت علنية اعترف بخطئها عَلَناً، وخاصة ما كان مِنَ الذنوب العلمية، والتي يُسمِّيها البعض بالعقائد، فمن كتبَ كتاباً ضالاً سطَّر فيه الجهالات ثمَّ أراد التوبة منها وجبَ عليه أن يُعلن هذا، وأنْ يمحو هذه السيئة بحسنة من نوعها لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[1]، وإنْ لم يفعل فلا تصح توبته، فهؤلاء الذين كانوا كفاراً قَبْلُ، يدينون بأديان الشرك والكفر كالشيوعية والعلمانية ثم يميل بهم الفكر إلى تسمية أنفسهم بالُمفكرين المسلمين، فإنْ قيل لهم: أين أنتم الآن مما كنتم قبلاً؟ لم يُظهروا توبتهم مما كانوا عليه، ولم يُصرحوا بكفر أديانهم السابقة، بل تجد الكثير منهم يحاول جاهداً أنْ يُظهر في حديثه أنَّ الفارق بين الدِّينين ليس كبيراً، وبعضهم مَنْ يزعمُ أنَّ فكره السابق ما زال موجوداً لكن طَوره أو مزجه بحقائق جديدة عرفها، وبعض مَنْ يزعم الإسلام لا يَسْتَنْكِفُ أنْ يُسَمِّي نفسه «علماني إسلامي»، أو «قومي إسلامي»، وهذا كلّه من الكفر الصريح، فإنَّ الإسلام ليس فكراً ناقصاً ولا مجزءاً، بل هو دين، لا يدخل المرء في اسمه إلاَّ إنْ أقرَّ به كلّه، وخضع لكلِّ أحكامه، فإنْ أخذَ شيئاً وتركَ شيئاً لا يكون مسلماً، بل لو ترك أمراً واحداً لم يُقر به فإنه يكفر إن كان مسلماً، ولذلك فالحذر من هذا الصنف الذي يقدم نفسه تحت مسمى «الفكر الإسلامي»، ولكن مما ينبغي التنبيه عليه أنَّ هؤلاء لهم جهود نافعة في بعض أبواب العلم والدراسات، لكنها ليست في مسائل الشرع والدِّين، وهم في هذا كغيرهم من الباحثين في باب من أبواب الحياة، يُؤخذ منهم على قاعدة: «الحكمة ضالة المؤمن»، وبعضهم له حماسة في الدفاع عن قضايا الأُمَّة ضدَّ أعدائها، وكلُّ هذا لا شرَّ فيه، لكن أمثال هؤلاء لا يحترمون أنفسهم حين يتكلمون في الدِّين، والقرآن والسنَّة، وأحكام الشرع وقضايا الإسلام الفقهية، إذ يجعلون لأنفسهم الحقَّ أن يجتهدوا لتكون أقوالهم بعد ذلك داخلة تحت مسمى الاجتهاد الإسلامي، وهذا جهلٌ وانحرافٌ، إذ أن بعضهم ليس مسلماً حتَّى لو سمَّى نفسه وسمَّاه الآخرون مفكراً مسلماً[2]، بل هو كما قال الله

[1] سورة هود، الآية: ١١٤.

[2] مثل الشيوعي الُملحد السابق الفرنسي الأصل البروفسور «روجيه ـ رجاء ـ جارودي» من مواليد ١٩١٣م. فبمجرد أن أعلن إسلامه!! لُقب بالمفكر الإسلامي، وقد تواترت الأخبار أنَّ الرجل لا يُصلي. كما أنه لا يُؤمن باليوم الآخر، والجنَّة والنَّار، ويقول أنهما ـ أي الجنَّة والنَّار ـ في الحياة، وليس بالتصور الذي يظنه المسلمون أنه بعد الموت توجد نار يضرب الإنسان إذا أذنب في الدُّنيا، وإذا عمل طيباً يدخل الجنَّة. ويقول: الله معنا في كلِّ لحظة يُراقبنا على كلِّ صغيرة وكبيرة، وبعض النَّاس ـ انظر يا رعاك كيف أنه ينسب الذي جاء به القرآن والسنَّة إلى: «بعض النَّاس» ـ يُصورون الجنَّة بأن فيها نساء جميلات لهن عيون كبيرة، وخمرٌ من نوع خاص. وإذا كنتُ لا أُطيع الله إلاَّ لأني أريدُ عيون النِّساء والخمر اللذيذة فأنا أصبحتُ عبداً لشهوتي. وقد نُوقش من قِبل البعض الذين قابلوه في «الملتقى الفكري» بالجزائر، وقد صمم على رأيه،

تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ﴾[1]، ومَنْ كان منهم مسلماً فإنَّ حاله حال «أهل الكلام» قديماً، إذ فيهم إيمانٌ وبدعةٌ، وقوة هؤلاء كما كانت قوة المُتكلمين قديماً أي في حربهم ضدَّ «الزنادقة»، وأما داخل الصف المسلم فبدعتهم شرٌّ على المسلمين، وقد يعجب البعض من قوة هؤلاء وحرارة دفاعهم عن الإسلام أمام الكفر والجاهلية، لكنه مبتدعٌ في مسائل علمية كثيرة، لكن مَن قرأ تاريخ الإسلام عَلِمَ أنَّ أقوى النَّاس في ردِّ هجمات الزنادقة والباطنية والرافضة كان المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم، بل إن كتاب «دلائل النُّبوة» للقاضي عبد الجبار المعتزلي[2] هو من أقوى الكتب العقلية في الردِّ على الزنادقة المُشككين في نُبوة الحبيب المصطفى، فمثل هؤلاء يمدح لهم جهادهم ضدَّ أعداء الدِّين، ويحذر من انحرافاتهم ويدعهم في داخل الصف المسلم، وأما العلاقة معهم فإنَّ واجب الوقت هو رِعايتهم والمُقاربة معهم، وطرح كلام الأوائل بوجوب هجرانهم، لأنَّ

وهو أنه لا يوجد يوم آخر، وإنما هو عبارةٌ عن السعادة في الدُّنيا بطاعة الله، والشقاء في الدُّنيا بمعصية الله، ويرى أن الذي يُؤمن بوجود الحور العين والخمر والعسل الذي ذكره الله في القرآن، إنما هو عبدٌ لتلك الأشياء وليس عبداً حقاً لله.

وقال: إذا كان أهل الجنّة مثل محمد الغزالي وجاد الحق فإنه يُفضل أن يذهب إلى النَّار.

ويقول: الدكتور طه بن مصطفى أبو كريشة: «سبب حنق جارودي على الشيخ جاد الحق أنه كشف ما عنده من زيغٍ في الاعتقاد في وسط جمهورٍ كبيرٍ في قاعة الشيخ محمد عبده بجامعة الأزهر، وكنتُ حاضراً هذا اللقاء، وظننا أنَّ الشيخ جاد الحق لم يُحسن لقاء الرجل، ثم تبيَّن لنا فيما بعد صِدق ما أعلنه عنه، بينما كان جارودي قادماً وفي حُسبانه أنه سيلقى كل تكريم من أعلى مستوى ديني في مصر».

ارجع إلى كتاب: «حوارات في الدعوة إلى الله (١)، حوارات مع مسلمين أوروبيين» لعبد الله أحمد قادري الأهدل (أحد تلامذة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى صاحب «أضواء البيان»). طبعة دار القلم بدمشق، والدار الشامية ببيروت (١٤١٠/ ١٩٩٠م).

[1] سورة المائدة، الآية: ٦١.

[2] ابن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل، العلامةُ المتكلمُ، شيخُ المُعتزلة، أبو الحسن الهمداني الأسداباذي، نسبة إلى أسداباذ، وهي بليدة على منزلٍ من همذان إذا خرجتَ من العراق، صاحب التصانيف، من كبار فقهاء الشافعية.

سمع من: عليِّ بن إبراهيم بن سَلَمة القطَّان، ولعلَّهُ خاتمةُ أصحابه، ومن عبد الله بن جعفر بن فارس بأصْبَهان، ومن الزُّبير بنِ عبد الواحد الحافظ، وعبد الرحمن بن حمدان الجلاَّب.

حدث عنه: أبو القاسم التَّنُوخي، والحسنُ بنُ علي الصَّيْمَريُّ الفقيه، وأبو يوسف عبد السلام القَزْوِيني المُفسر، وجماعة.

وُلي قضاءَ القُضاة بالرَّيِّ وأعمالهما بعد امتناعٍ منه وإباءٍ وإلحاحٍ من الصاحب بن عبَّاد. ولما مات الصاحب كان يقول: أنا لا أترحَّم عليه لأنه لم يُظْهر توبته فَطَعَن النَّاس عليه بذلك ومقتوه مع كثرة إحسان الصاحب إليه. وكان عاقبةُ ذلك أن قَبَضَ فَخر الدولة عليه بعد موت الصاحب وصادره على ثلاثة آلاف ألف درهم وعَزَلَه عن قضاء الري وَولّى مكانه القاضي أبا الحسن علي بن عبد العزيز الجُرْجاني العلاّمة صاحب التصانيف التي منها «الوَساطَة»، ويُقال إنَّ عبد الجبار باع في مصادرته ألف طَيْلَسان مصري. وهو شيخُ المعتزلة ورئيس طائفتهم، ويزْعُم أنَّ المسلم يَخلدُ في النَّار على ربعِ دينار وجَمَعَ هذا المال من القضاء والحُكْم بالظلم والرشا، وتولاّها عن قومٍ هم في مذْهَبِهِ ظَلَمَة بل كَفَرَة.

وهو صاحب تصانيف كثيرة ومشهورة في الاعتزال، وتفسير القرآن، منها: «الأمالي في الحديث» و«دلائل النُّبوة» و«طبقات المعتزلة»، وقد طُبع من كتبه كتاب «تنزيه القرآن عن المطاعن» مذيلاً بمقدمة للتفسير للراغب الأصبهاني، وفي مقدمته ترجمة للمؤلف، وكتاب «شرح الأصول الخمسة»، وله كتاب «المغني» في علم الكلام يتألف من سبعة عشر جزءاً، وصل إلينا اثنا عشر جزءاً فقط، وقد نُشر من الجزء السادس، والسابع، والثاني عشر، والسادس عشر، والسابع عشر. وله أيضاً كتاب «التكليف» وصل إلينا بتهذيب تلميذه ابن متُّويه بعنوان: «المجموع المحيط بالتكليف». وانظر النسخ الخطية لبعض مصنفاته في «تاريخ التراث العربي» لسزكين ٢/٤١١-٤١٣. تخرج به خلقٌ في الرأي الممقوت. مات في ذي القعدة سنة عشرة وأربع مئة. من أبناء التسعين.

اعتمدنا في ترجمته على «سير أعلام النبلاء» للذهبي. الجزء السابع عشر، الصفحة ٢٤٤-٢٤٥. و«الوافي بالوفيات» لصلاح الدين الصفدي. مع تصرف يسير.

الأمرَ بهجرانهم - وهو أمرٌ شرعيٌّ - منوطٌ بما كان عليه المسلمون في القرون الأولى حيث الغلبة لأهل السنَّة، ودعاة البدعة قِلَّةٌ مقموعةٌ، فالهُجران يحقق المقاصد الشرعية، أما بعد ذلك فإنَّ كبار أهل العلم من أهل التوحيد والسنَّة والجماعة كانوا على صِلَّةٍ مع هؤلاء، يأخذون ما عندهم مِنَ العلم حتَّى إنَّ المذهب الحقّ هو قبول رواية المُبتدع الصَّادق، والصحيحان فيهما من رواية المُبتدعة الشيءُ البَيِّنُ، وكانوا يأخذون منهم الفقه إنْ كانوا فقهاء، بل إنَّ صِلاتهم الاجتماعية كالاحترام والتقدير كانت على وجهٍ بيِّنٍ واضحٍ، فمَن تأملَ معاملة الإمام الدارقطني للإمام الباقلاني ومِقدار احترامه له عَلِمَ صحةَ ما أقول، ولذلك لا هُجران اليوم إلاَّ للزنادقة وأعداء الإسلام، والمُفسدين في الأرض، أما مَنْ وقفَ أمام الزندقة والكفر فيُؤيَد بمقدار ما يفعل ويُنَبه على خطئه بمقدار ما يخطئ، هذا مع وجوب معرفة مراتب البدعة، فهناك جهلٌ شديدٌ في هذا الباب، إذ تجد الشاب الغر يحتد ويغضب على مسائل يسيرة قد لا تدخل في مسائل البدع، بل هي من مسائل الاجتهاد، ويسكت على كبائر البِدع والضلالات، ومِنَ الفقه أن يعلم المرء بِدع العصر التي تُزاحم الإسلام، فمِنَ الجهل أن يحارب المرء بدعاً قديمةً لم يبقَ منها إلاَّ آثارها اليسيرة ويسكت على بدع العصر المُكفرة، وكذلك يجب الانتباه لواقع الحال، فهناك بلاد يدور الصِّراع فيها صريحاً بين الإسلام والكفر، فيقرأ شابٌ كتاباً لعالمٍ يخاصم عالماً في بلدٍ آخرٍ على مسألة من المسائل، فيحمل هذا الغر هذه المسألة ليجعلها حرباً في بلده، وهذا منتشرٌ مشهودٌ.

ولمعرفة مراتب البدع يجب معرفة معنى السنَّة، لأنَّ هناك جهلاً شديداً في معرفة معنى السنَّة التي تُقابل البدعة، والتي على قاعدتها يُسمى الرجل سُنِّيّاً أو بِدْعِياً، فالسنَّة اليوم عند الكثيرين هي أن يقول الرجل ما كان يقوله السلف دون النظر إلى معركة الإسلام المُعاصرة، فالمعركة اليوم هي معركة الحُكم بما أنزل الله في الحُكم والتشريع، وقضايا الوقت كقضية الجهاد ضدَّ الطواغيت، وفي فلسطين، وضدَّ المحتلين، فالبِدعي الضال في زماننا هو مَن انحاز إلى صف الانحراف في هذه المسألة حتَّى لو كان دينه العقدي هو ما كان عليه الأئمة الهُداة الأوائل في زمانهم من مسائل الأسماء والصفات وغيرها، بل إنَّ هذه المسائل كانت قديماً تدور في داخل الصف المسلم، وأما هذه المسائل الجديدة فهي تُنازع أهل الإسلام، فالقائل بجواز الحُكم بغير ما أنزل الله في الحُكم والقضاء، ونوازل العصر كافرٌ مرتدٌ، ويقترب المُبتدع مِنْ هذا الحُكم بمقدار تشربه لهذا الضلال، فلا يجوز لنا القبول بِدَاعٍ أو عالمٍ يزعم أنه سنيٌّ، وهو حربٌ على المجاهدين وعلمائهم وقادتهم، ويمالئ الطواغيت ويُدافع عنهم ويدعو لحبهم ومُناصرتهم، فهذا ليس من أهل السنَّة ولا كرامة، بل ربما لا يكون مسلماً في الباطن، لأنَّ بعضهم يجيز التشريع لغير الله تعالى، ويدعو إلى احترام ما يُقرره الشعب من قوانين.

وأما قضية الجهاد ضدَّ الطواغيت والمحتلين الكفار، فقد يظن البعض أنها مسألة فقهية لا ينبغي إدراجها في مفهوم السنَّة، والتي هي عندهم على معنى الاعتقاد، وظنهم هذا خطأ، فإنَّ أهل السنَّة قديماً أدرجوا مسائل فقهية في مُتُونِ العقائد لما صارت في زمانهم فارقاً بين السنِّي والبدعي، ثمَّ إنَّ

مسألة الجهاد تعود إلى فَهْمِ التوحيد، فالذين يجيزُونَ الحُكْمَ بغير ما أنزل الله لا يجيزون الجهاد ضدَّ هؤلاء، وبعضهم لجهله يظن أنَّ الحُكم بما أنزل الله يجب في مسائل الأحكام الداخلية الدولية دون النظر إلى عهودها وعقودها ودينها الذي تدين به مع الآخرين، فهو لا يعلمُ أنَّ خضوع الدولة لتشريعات الكُفر الدولية وإقرارها لها هو أعظم كفراً مِنْ أنْ تُشرع تشريعاً يخص أفرادها في مسألة من مسائل الطلاق والزواج، ولذلك تجد هؤلاء المساكين يصرخون إنْ أرادتِ الدولة الطاغوتية فرض تشريع يخص المسائل الشخصية كالزواج والطلاق والإرث، وهمْ في سكوتٍ مُطْبِقٍ على دخول هذه الدول في تشريعات دولية كفرية، هي أشدُّ كفراً من هذه المسائل التي تخص الأحوال الشخصية، لأنَّ هذه المسائل والعقود تحدد صِبغة الأُمَّةِ جميعها، وتلزم دينها في مسائل الوجود التي تحدد وجهة الدولة والأُمَّة، فأنتَ ترى أنَّ جيش الدولة يُقاتل مَنْ تفرض هذه التشريعات قِتاله مسلماً وغير مسلم، فتُسَاقُ الأُمَّة ومُقدراتها خدمةً للكفر ومناهجه، بل لا يجوز لهذه الدول أنْ تُشرع قوانين داخلية تخالف الدِّين الطاغوتي العام تدين به في هذه التشريعات الكفرية الدولية، فقول البعض: إنَّ دولتنا تحكم بالشريعة! دون أن ينظر إلى إلتزاماتها بتشريعات الكفر الدولية يدل على جهلٍ شديدٍ في فهمهم لدين الله تعالى، وهذا ما أُحاول بيانه في أنَّ الأُمَّة لها صبغة هي التي تحدد دينها، وصبغة هذه الأُمَّة العملي هو الجهاد في سبيل الله تعالى، لأنه ينطلق من مفهوم التوحيد والولاء والبراء وعلاقة الأُمَّة بالآخرين، وهل هذه الأُمَّة تحمل صِبغة العبودية لله في أنها ﴿**أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[1] لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فتُعذِّبَ مَنْ يُغْضِبُ الله، وتُوالي مَنْ يَعْبُدُ الله، أو أنها كسائر أُمم الأرض تسوقها مصالحها الذاتية في حربها وسِلْمِهَا، وَوَلاَئِهَا وَبَرَائِهَا، وعدم فَهْمِ هذه القضايا هو أساس انحراف كثير من الفقهاء والعاملين لدين الله تعالى. ولذلك فإنَّ الجهاد ليس فعلاً اجتهادياً، بل هو دينٌ يُتبع لارتباطه بأعظم قضايا العصر ونوازله، وهي الحُكم بغير ما أنزل الله تعالى.

والذين يلغون الجهاد لابدَّ أن يمروا على مسائل التوحيد فيُفسدونها، ثم يمرون على أصول الفقه فيتلعبون بها، ثم على الآيات القرآنية، والسنَّة النَّبويَّة فيؤولونها ويحرفونها، وكلّ واحدةٍ من هذه المراتب هي بدعة كُبرى، وضلالة تُصارع بدع وضلالات الأقدمين، والأمثلة على هذه الرحلة البدعية كثيرة جداً يمكن لك أن تجدها في هذه الكتب التي أتت بالمحدثات في مسائل الجهاد، وستجدها في كلام مُدعي الفقه الذين يحاربون الجهاد والمجاهدين.

ولخطورة هذه القضية فإنَّ القرآن ربطها بالنِّفاق، وهو نهاية نفق البدعة، فأنْ يكون المرء مُبتدعاً - حتَّى على قوانين الأقدمين - خيرٌ مِنْ أنْ يكون منافقاً، فإنْ كانت الآيات دلت على أنَّ تاركي الجهاد منافقون، فماذا نقول عن الذين يجعلون ترك الجهاد شريعةً وديناً يُوجِبُونَ على النَّاس الدخول فيه تحت اسم الدِّين والفقه وإتباع السنَّة؟.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

إنك لا تجد مُدَّعِياً للفقه والكفر يُناوئُ المجاهدين في أصل ما يقدمون به في هذا العصر إلاَّ وهو ضالٌ في فهمه لتوحيد الله تعالى في قضايا التأليه، وضالٌ في مفهوم الأُمَّة ودورها القرآني الذي عاشه رسول الله ﷺ وأصحابه ومتلعبٌ بآيات الله تعالى وأحاديث رسول الله ﷺ، حيث يجريها على غير ما أجمعتِ الأُمَّة المسلمة طِوال القرون السابقة، فصار الجهاد اليوم هو الفارق بين السنِّي والبدعي في مسائل العِلْمِ، أما أنه الفارق بين المُنافق والمؤمن فهذه قضية قرآنية عملية هي الأخطر لو فَقِهَ هؤلاء على كتاب الله تعالى، ولانصرفوا إلى علاج أنفسهم من هذا المرض بدل أن يُدافعوا عنها دفاع أئمتهم المنافقين الأوائل.

الجهاد في سبيل الله تعالى مفهومٌ قرآنيٌّ، وسبيلٌ إيمانيٌّ، وصبغةٌ إلهيةٌ لهذه الأُمَّةِ، ولن يخوض أحدٌ فيه على غير الوجه الذي عاشه رسول الله ﷺ، وأصحابه رضوان الله عليهم، وعاشته الأُمَّة تاريخاً طويلاً إلاَّ كشفه الله ضالاً مُبْتَدِعاً مُنَافِقاً، وما اقترب أحدٌ مِنْ عِبَادَةِ الجهادِ في سبيل الله تعالى على الوجه السنِّي، وهو أمرٌ مجمعٌ عليه إلاَّ بعد أنْ انهار مفهوم الأُمَّة المسلمة، وتشكلتِ الدولة القُطرية الكافرة على أنقاض مفهوم الأُمَّة المسلمة الواحدة، ثم انطوتْ هذه الحلقات المرتدة تحت تشريعات كفرية دولية عامة، صاغها أصحابها لخدمة دينهم ومصالحهم، فدخل الضلال على مَن دخل، ورضوا بهذه القِسْمَةِ، فانشغل أكثر الصالحين بالمسائل الفردية، وبقضايا داخلية تمارسها الدولة الكافرة، ولم يهتدِ قط لمفهوم صبغة الأُمَّةِ وإعادة تكوينها كما كانت على أساس الإسلام إلاَّ المجاهدون في سبيل الله تعالى، لأنَّ اتخاذَ الجهاد سبيل حياة يعني إلغاء ورفض كلّ مفاهيم الكفر التي صاغت الواقع المعاصر.

والجهاد المقصود هنا ليس المستند على مفاهيم العصر فيما يسمُّونه المقاومة المشروعة تحت مظلة المفاهيم الدولية الكفرية، وإن كان هذا جهاد في سبيل الله إنْ برئَ صاحبه من هذه التشريعات والديانات الكفرية، لكن الجهاد المقصود هو الجهاد الذي تجاوز ذلك كلَّه، وكان همّه ضرب هذه التشريعات لإعادة صياغة الأُمَّة تحت صبغةٍ جديدةٍ في داخلها ومع العالم.

سيأتي يوم يقبل فيه أولياء الشيطان بالمقاومة التي تعترف بالشرعية الدولية، وسيأتي يوم يقبل فيه أولياء الشيطان بإسلام داخلي يحكم النَّاس في هذه الدول، لكن لن يقبل الكفر أبداً جهاداً يعيد صياغة العالم على غير تشريعاته الدولية العامة، ولن يقبل أبداً بدولة مسلمة «مارقة» ترفض الدخول في دينهم الكفري العام، وهذا ما سيجعل التدافع أمراً قَدرياً لاَزِماً لهذه الأُمَّةِ، ولن ينتهي أبداً، ولن يخلص من هذه المحن إلاَّ أهل البصيرة والإرادة، أولئك الذين يثقون بوعود الله أنَّ نهاية هذه المرحلة هي نهاية الغُربة الثانية التي أخبر عنها رسول الله ﷺ.

سيجد المجاهدون يوماً أنفسهم غُرباء حتَّى عمن يُشاركهم القتال من أجل مقاصد وسيطة عن مقصد الجهاد الأعظم، وقد حصل هذا في مواطن مُتعددة، أما غُربتهم وسط الآخرين فهذه قد أَلِفوها، وهي قدر هذا الدِّين، وقدر أهله، وقدر وُرَّاث سنَّة الحبيب المصطفى، لكنهم لن يموتوا،

ولن يبيدوا، فبدل الشهيد سيكون آخر آتياً، وبدل المتولي سيأتي وارث، ذلك كلّه لبقاء قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠ ﴾[1].

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

هذه الآية ليست كما ظنَّ الجهلة من الأعراب الذين ارتدوا بعد رسول الله أنها خاصة برسول الله ﷺ على معنى إيجاب الصَّدقة عليهم، بل الآية أمرٌ لرسول الله ﷺ بقبول صدقاتهم التي يبذلونها طاعة منهم، وهي كذلك فيها بيان قبول هذه الصَّدقات على المعنى الذي يحبه المؤمنون لأعمالهم، وفرقٌ كبيرٌ بين الأمرين، فالأعراب ظنوها أمراً لهم، وجعلوا هذا الأمر معلّقٌ بما يحصل لهم من الصلاة عليهم مِنْ قِبَلِ رسول الله ﷺ، فإنْ توقفت الصلاة عليهم بوفاة الرسول ﷺ توقف ما عُلِّقَ بها وهو الزكاة، وواقع الحال أنَّ الآية تبيِّنُ قبول الصَّدقة في الباطن ذلك بعد أنْ قبل الله منهم توبتهم، فالأخذ يكون على معنى حسن وهو حصول الطهر والزكاة والدعاء مِنْ قِبَلِ رسول الله ﷺ، وهذا هو شأنُ صدقةٍ مقبولةٍ في الباطن زمن رسول الله ﷺ وبعده إلاَّ ما كان مِنْ شأنِ الدعاء للمُزكين مِنْ قِبَلِ رسول الله ﷺ فإنَّ هذا يحتاج إلى دليلٍ خاصٍ آخر، فالآية لا تُثبت وجوب الزكاة لكن تُثبت فضيلة القبول لها مِنْ قِبَلِ المحسنين.

وهناك معنى آخر تتضمنه الآية وهي قبول الصَّدقات المُستحبة مِنْ قِبَلِ هؤلاء التائبين إنْ بذلوها لرسول الله ﷺ، لأنَّ بذلهم لها في يد رسول الله ﷺ ثمَّ قبوله لها منهم يُوقع لهم ما يحصل مِنَ الفَضْلِ المَذْكُور، وبهذا المعنى بيان حاجة النَّاس للبذل، لا حاجة الله لها، فإنَّ الله غنيٌّ عن المُعرضين، فحين يبذل المُتصدق بماله فإنه هو المحسن لنفسه، فلا ينبغي أنْ يشعرَ بالفضل حين البذل، لكن عليه أن يفرح أن أعانه الله على الفِعل ولم يحرمه منه كما حرم الآخرون، وهذا هو من معاني التقوى التي هي شرط لقبول الصَّدقات كما قال أحد ابني آدم لأخيه ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧ ﴾[3]، فإنْ شعر المُتصدق أنه يمن بصدقته حتَّى يبذلها فهو محبط لأجره كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾[4]. وهذا أمرٌ شديدٌ في الصَّدقة، لأنَّ مُعْطِيها له اليد العُليا على الآخذِ، فأنْ يقع في قلبه أنه المحتاج للآخذ إذ وجد من يقبل صدقته من المتقين الذين يدعون له فهو على خيرٍ عظيمٍ، فكيف إذا وضعها في يد رسول الله ﷺ ليضعها موضعها ويُصلي عليه بهذا.

﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ﴾.

---

[1] سورة البقرة، الآية: ٣٠.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٠٣.
[3] سورة المائدة، الآية: ٢٧.
[4] سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

هؤلاء المُذنبون بالتخلف عن تبوك كانت توبتهم القلبية مقرونة بالبذل، لأنَّ عماد النِّفاق هو البُخل والجبن، فكان الإنفاق والبذل هو من يسد شطرَ النِّفاق، أو كُلَّهُ إنْ كان سببه الكامل في شخصٍ ما، ولذلك أول ما نفر من هؤلاء للطاعة إنما نفروا للنفقة والصَّدقة وبذل المال، وهذا مِنْ فِقْهِهِمْ ﷺ، وجعل القرآن الكريم هذا البذل منهم سبباً لهذه الخيرات العظيمة التي وقعت لهم مِنَ التطهير والتزكية ودعاء الرسول ﷺ، وفي هذا فقهٌ أن يتوب المرء مِنْ معاصيه بقلبه ولسانه وأنْ يعودَ إلى الطاعة التي تُلائِمُ المعصية التي وقع فيها لِتَمْحُوهَا، ويشهد لهذا أفعال الصَّحابة ﷺ، فهذا عُمير بن وهب الجُمحي ﷺ والذي كان شيطاناً من شياطين قُريش لكثرة إيذائه رسول الله ﷺ وأصحابه في مكة، فلما وقع ابنه في الأسر بعد بدر جلس هو وصفوان بن أُمية وتذاكرا أمرَ قتلى قريش فقال عُمير: «أما والله لولا دَيْنٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه، وعِيَالٌ أخشى عليهم الضَّيْعة بعدي لَركبتُ إلى محمد حتَّى أقتله، فإنَّ لي فيهم علة، ابني أسيرٌ في أيديهم، فاغتنمها صفوان فقال: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعِيالك مع عِيالي أُواسيهم ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عُمير: فاكتم عليَّ شأني وشأنك، قال: سأفعل، ... وذكر قصته حتَّى جاء المدينة ودخل على رسول الله ﷺ والسيف في عنقه فقال له رسول الله ﷺ: ما جاء بك يا عُمير؟ قال: جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عُنقك؟ قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنتْ عنَّا شيئاً. قال: اصدقني ما الذي جِئْتَ له؟ قال: ما جئتُ إلاَّ لذلك، قال: بل قعدتَ أنت وصفوان في الحِجر فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلتَ: «لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتَّى أقتلَ محمَّداً، فتحمل لك صفوان بن أُمية بِدَيْنِكَ وعِيالِكَ على أنْ تقتلني له، والله حائلٌ بيني وبينك». فقال عُمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نُكذبكَ بما كنتَ تأتينا به مِنْ خيرِ السماء وما ينزل عليك مِنَ الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلاَّ أنا وصفوان، فوالله إني لأعلمُ ما أتاك به إلاَّ الله، ثم قال: يا رسول الله إني كنتُ شاهداً على إطفاءِ نور الله، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أنْ تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام لعلَّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنتُ أُؤذي أصحابك في دينهم»[1].

وسنأتي على قصة كعب حين تاب الله عليه فقال: «يا رسول الله، إنَّ من توبتي أنْ أنخَلِعَ من مالي صدقة إلى الله ورسوله».

﴿ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾.

فالتطهير إزالة الآثام التي علقت بهم من المعصية، والتزكية نماء أعمالهم الصالحة، وصلاة النَّبيِّ تُسكن قلوبهم لما يعلمون أنَّ الله قَبِلَ منهم الطاعات، فحصل لهم كلّ الفضل الذي يرجوه

[1] قصة إسلام عُمير بن وهب الجُمحي ذكرها أبو نعيم الأصبهاني في «دلائل النُّبوة» الجزء الثاني، الصفحة ١٧٢-١٧٣. طبعة المتنبي للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة. وابن هشام في «السيرة النَّبوية» الجزء الثالث، الصفحة ١١٤. طبعة دار الجيل ببيروت. وابن كثير في «البداية والنهاية» الجزء الثالث، الصفحة ٣١٣-٣١٤. طبعة مكتبة المعارف ببيروت (١٩٨٨م).

الصالحون من أعمالهم، إذ كانت سبب في مغفرة الذنوب وإزالة آثارها، ثم نماء الأعمال والإيمان، وحصول طمأنينة القلب.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾[1].

هذا بيانٌ أنَّ الصَّدقة إنما تقع في يد مَن يقبل التوبة، فإنه سبحانه يُرغِّبُ عبيده ويدعوهم إلى التوبة، فإنه لا يحول بين العبد وبينها شيءٌ، فإنْ قَبِلَ الله توبة عَبْدٍ قَبِلَ منه عمله وصدقته، فالقنوط جهلٌ بالربِّ، واليأس من قبول العمل مثله، فإنْ وُفِقَ العبد للتوبة كان هذا إيذاناً بقبولها وحصول المغفرة، وهذا المعنى موجود في سورة «القصص» في توبة موسى عليه السلام، فإنه لما قتل القِبْطِي قال: ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[2]، وهذا وقعَ له قبلَ النُّبوة، فكيف عَلِمَ أنَّ الله قد غفر له؟! فلا جواب إلاَّ أنْ يكون هذا من فقه الأنبياء، وهو أنه وُفِقَ للتوبة والندم لما كان هذا قبولاً لها، يستيقن المرء بهذا، والخوف إنما يكون عند المرء إنْ لم يحس بالندم إحساساً قوياً، أو لم يكن يشعر بعِظَمِ الذنب الذي اقترفه، فيجري ألفاظ الاستغفار إجراءً ظاهراً على اللسان دون التوبة القلبية.

﴿ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

في الحديث القدسي الشريف: «..اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلاَنٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدِي..»[3]. ذلك بأنَّ الصَّدقةَ تقعُ في يد الله تعالى قبل وُقُوعِهَا في يد العبد لكرامتها وفضلها، وهذا ترغيبٌ بالإنفاق والعطاء، وكفى بالصَّدقة أنها حجابُ المُتصدق بينه وبين النَّار لقوله ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ**»[4].

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[5].

ذكر ابن جرير عن مجاهد بن جبر ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ قال: «هذا وعيدٌ»[6]، أي مِنَ الله تعالى لهؤلاء المُتخلفين بأنَّ أعمالهم ستبقى تحت النظر، فإنْ أحسنتم فإحسان،

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

[2] سورة القصص، الآيات: ١٥-١٧.

[3] مسلم في «كتاب البر والصلة» باب فضل عيادة المريض. حديث رقم: ٢٥٦٩.

[4] البخاري في «كتاب المناقب» باب علامة النُّبوَّةِ في الإسلام. حديث رقم: ٣٥٩٥. ومسلم في «كتاب الزكاة» باب الحثِّ على الصَّدقةِ ولو بشقِّ تمرةٍ أو كلمةٍ طيِّبَةٍ وأنها حجابٌ من النَّار. حديث رقم: ١٠١٦.

[5] سورة التوبة، الآية: ١٠٥.

[6] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، الصفحة ٢٠.

وإنْ أسأتم فعقاب، وبهذا هو يحذرهم من العودة إلى ما كانوا عليه قبل التوبة، وهذا فيه إرشاد مِنَ الله للمؤمنين بمراعاة هؤلاء وعدم تركهم، بل عليهم إدامة النظر في أحوالهم حتَّى يستقيم أمرهم على الطاعة، ولا ينقلبون إلى المعصية.

وهذه الآية تقدمت في قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾[1]، وفي هذه الآية: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا ...﴾ ذكر المؤمنون ولم تذكر في الآية السابقة، والسبب أنَّ أمر آية: ﴿يَعْتَذِرُونَ ...﴾ كشفٌ لباطنهم الكاذب، فهم يعتذرون ظاهراً، مع إصرارهم الباطن، وهذا عِلْمُهُ إلى الله تعالى يخبره لرسوله ﷺ، وأما المؤمنون فهم لا يعلمون الباطن، ولذلك أسندوا عِلْمَ باطنهم لله تعالى لما قالوا: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾، فهم يسرون نوايا الباطل، وأقوال الباطل، وأعمال الشرِّ، والمؤمنون يرون ذلك، ولذلك ذكروا هنا.

ثمَّ إنَّ الآية الأولى: ﴿يَعْتَذِرُونَ ...﴾ كشفٌ للباطن والسرِّ عند المنافقين، وفي هذه الآية: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا ...﴾ دعوةٌ للمؤمنين بمراقبة شأن هؤلاء التائبين، فكان أنْ ذكر المؤمنون في الرؤية لأعمال التائبين.

والآية كما قال مجاهد: وعيدٌ، وهي كذلك ترغيبٌ بعمل الصالحات فقوله: «اعْمَلُوا»، تحمل على معنى قوله: أكثروا من العمل، أي حض عليه، وعلى معنى الحض والترغيب حملته أُمّنا عائشة رضي الله عنها كما روى البخاري أنها قالت: «إِذَا أَعْجَبَكَ حُسْنُ عَمَلِ امْرِئٍ فَقُلِ ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ أَحَدٌ»[2].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾. اختصاص ربَّاني بأنَّ سِرَّ العمل والإخلاص فيه لا لأحد إلاَّ الله تعالى، ويوم القيامة ينبأ المرء بباطن عمله؛ صالحاً أو باطلاً.

﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[3].

هذه الآية يرى ابن عباس، وعكرمة مولاه، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن إسحق، أنهم الثلاثة الذين خُلفت توبتهم وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية[4]، فكان النَّاس أقساماً:-

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٩٤.

[2] البخاري في «كتاب التوحيد» باب قولِ الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾. حديث رقم: ٧٥٣٠.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٠٦.

[4] ذكره ابن جرير في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، الصفحة ٢١-٢٢.

قِسْمٌ نفروا مع رسول الله ﷺ وهؤلاء في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾[1].

قِسْمٌ لم ينفروا عجزاً وضعفاً، وهؤلاء معذورون لقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾[2].

قِسْمٌ منافقون، جلسوا نِفاقاً، ثم جاؤوا فاعتذروا كذباً، فأمر النَّبي ﷺ بالإعراض عنهم وهم في قوله تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ... إلى قوله تعالى: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[3].

قِسْمٌ تخلفوا وهم عاصون، لا نِفاقاً، ولكن كسلوا حيث رغبوا بالجلوس رغبة عن التعب والمشقة، وهؤلاء جاء في الآثار أنهم ربطوا أنفسهم بسواري المسجد توبة، وآلوا على أنفسهم أن لا يفكوا أنفسهم حتَّى يطلقهم رسول الله ﷺ، فأطلقهم وهم في قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ... ﴾.

قِسْمٌ تأخر قبول توبتهم، وهم الثلاثة الكرام وهم في هذه الآية: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾، وسيأتي خبر قبول توبتهم.

فهذه غزوةٌ واحدةٌ، وهي آخر غزوات رسول الله ﷺ صنعت أقسام النَّاس، ففتحت أبواب الخير للطائعين، وأبواب الخير للتائبين، وأبواب الخير للباكين، وكشفت مراتب منافقين، فهذه محنَّة الجهاد، وهذا بعض فضله، والنَّاس بعد هذه الغزوة سيجدون مراتبهم في كلِّ معركةٍ من معارك الإسلام الآتية، فيعرف النَّاس أنفسهم، ويعرفون الآخرين وما هم فيه، فطبقات النَّاس في الطاعات ليست تُعرف إلاَّ مِنْ خلال رحلة الجهاد، ومعارك المجاهدين، وبدونها تختلط المراتب، وتميع الأحكام، فيرتقي من ليس أهلاً، ويذهب شأن مَنْ هو خليق بالخير والتقدمة، وهذه معركة جاءت للنَّاس على غير موعدٍ، فقُذِفَ النَّاس فيها بغير إرادتهم حتَّى تكون استجابة النَّاس بقدر ما في قلوبهم على الحقيقة، فهي غزوة عُسرة وشدَّة ألقت بثقلها على المجتمع المسلم فآب كلّ فريقٍ إلى حقيقته.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١١٧.

[2] سورة التوبة، الآيتان: ٩١-٩٢.

[3] سورة التوبة، الآيات: ٩٤-٩٦.

المجاهدون وقادتهم لهم فضيلة في الخلق، وخاصة على المجتمع المسلم، فهم يقذفون بهم في أُتون الجهاد، فيصرخ البعض: «لم نستأذن»، أو «لم نتجهز». ويتخذون حُجَجاً كثيرة للهروب والبراءة من فِعْلِ المجاهدين، وينفر البعض إليهم لما يعلم الله في قلوبهم من الخير، وهكذا تتجدد مراتب النَّاس بحسب مراتب النَّاس في هذه الغزوة.

إنه ليس من خطأ المجاهدين أنهم فاجؤوا النَّاس بجهادهم، لأنَّ الغافلين لو كانوا صادقين لعملوا بقوله: ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً ﴾[1].

وليس من خطأ المجاهدين أنهم لم يستشيروا النَّاس، لأنهم لو فعلوا لَضاع الجهاد حين يعلو صوت المنافقين على الصالحين، وقد كثروا لأنَّ المجاهدين غرباء في زمنٍ عزَّ فيه المجاهدون.

إنَّ المجاهدين كالمؤذن، فهو يرفع صوته بالأذان، فلا يعتذر معتذر أنه نائمٌ أو أنه مشغولٌ بصفقات أمواله، فإنَّ هؤلاء لو صدقوا لأجابوا ونفروا، ولكن في زمان الجهل صار هؤلاء لهم حُجج مقبولة عند فقهاء الجهل.

أما الذين يطلبون استئذان الأُمَّةِ وإجماعها للجهاد فهؤلاء علَّقُوا الجهاد على مستحيلٍ، فلو قالوا: لا جهاد لَكانوا أصدق مع أنفسهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾[2].

هذا أخطرُ كَيْدٍ يُوَاجِهُ أهلَ الإسلامِ عامةً، وأهلَ الجهادِ خاصةً، وهو نهاية الشرِّ وعمل الليل والنهار، وهو أخطر من خُطتهم في ما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[3]، وفي عِلْمِ الجاسوسية، وهو فرعٌ من فروع النِّفاق يعتبر هذا الفن هو نهاية الطلب وأقصى ما يعمل فيه العاملون؛ إنه إنشاء المؤسسات البديلة، والشخصيات المُوازية لضرب الخصم في شرعيته، ولتقسيم الكُتلة الواحدة إلى كُتَلٍ متعددةٍ، ثم تسيير الخصوم بأعمالهم ضمن خطة الخصم، حيث يعمل ـ المغفل النافع ـ عمله وجُهده في تثبيت وإقرار مقاصد الخصوم، وهو يظن أنه يحسن صُنْعاً في إضعافهم وقِتالهم.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٤٦.

[2] سورة التوبة، الآيات: ١٠٧ـ١١٠.

[3] سورة آل عمران، الآية: ٧٢.

عماد هذه الخطة يقوم على اغترارِ الضُّعفاء بالرايات، وانسياقِ الجموع للظواهر دون الحقائق، ولحوق المغفلين لدعوات الطهر بعيداً عن تاريخ الطوائف المؤمنة الصادقة، والتي لحق بها بعض غُبار الطريق من جَراء طول المسير وعَناء الرحلة.

ههنا مسجد؛ وهو اسمٌ له صدى القبول في النُّفوس المؤمنة الطاهرة، وله بناؤه وأركانه المادية وصورته الظاهرة، وهو واحد طرحه الخصم في البداية كرديف مُشارك للموجود، هذ إن كان الموجود عليه الوحدة والاتفاق، أما إن كان الراصد الخصم يعمل تململاً ما كحركة الخوارج الطهرية الجاهلية مثلاً، فهو في الابتداء يطرح نفسه بديلاً لجلب هؤلاء المُغفلين تحت شعارات جميلة، فيها العافية من مشكلات التاريخ الذي يحمله الواقع الموجود.

الجماعة المؤمنة وخاصة المجاهدة لها تاريخ فوق ما معها مِنْ عِلْمٍ ومنهجٍ، والعلم والمنهج شيءٌ مُطْلَقٌ في الذِهن، أغلبه لا شية فيه، لكن التاريخ ليس كذلك، لأنه فعلٌ إنسانيٌّ، فيه النجاح وفيه الإخفاق كذلك، كما أنَّ فيه الصواب وفيه الخطأ، فيأتي البديل الجديد بريئاً من هذا الثقل التاريخي ليطرح نفسه في عافية من ثقل الأحداث والوقائع، وتحت هذه الطهرية يلتحق الجهلة به كما تلتحق الفراشات نحو النَّار لتحرق وفوداً لمقاصد الآخرين.

اسم المسجد يعني الإسلام، ويعني العبادة، ويعني الخير، وإدراك القيادة الواعية لطبيعة هذا المسجد الخبيث يُوقعها في مشكلات عدَّة أمام أتباعها قبل خصومها، وأمام الجموع الجاهلة التي ترقب وتصرخ وتضغط وتُسْتغَل كذلك بصوتها لأنَّ أغلبها سلبي لا فاعلية له في وسط أُتُونِ المعارك والحروب، فماذا تفعل القيادة؟! إنْ تحركت نحوه بفعلٍ مُضادٍ لَقِيَتْ أمامها مشاعر الرفض من أتباعٍ لم يصلْ وعيهم إلى حقيقة الواقع، بل ربما فسروا ذلك على أنه وجهٌ مِنْ وُجُوهِ المُنافسة الدُّنيويَّة بين الجماعات والطوائف، وأنَّ هذه المعركة هي معركة حول الزعامة والقيادة، وإنْ سكتت عنه فإنه سيتضخم ويقوى، وربما تجاوز واقعه واقع جماعات الحقِّ لما يملك من دعمٍ خارجيٍّ، ودعايةٍ رديفةٍ ذات صوتٍ صارخٍ.

هذا موقفٌ خطيرٌ، وهي رحلة العذاب بالنسبة للطوائف المؤمنة في كلِّ أطوار التاريخ، ولعلَّ قراءةً سريعةً لتاريخ الهبات الإسلامية ضدَّ الشرِّ الداخلي والخارجي تكشف أنَّ هذه المشكلة الكبرى هي عُقدة العُقَدِ التي تُواجهها هذه الهبات في السير نحو أهدافها.

الفقه النظري لهذه المسألة شيءٌ، والواقع المُعقد المُتشابك شيءٌ آخرٌ، فيمكن للمرء أن يقول بسهولة: علينا أنْ نحرق مسجد الضرار، وأنْ نُدمر المؤسسات البديلة، وأنْ نقتل أئمة الكفر من الشخصيات الموازية، ويمكن له أنْ يحتج على كلِّ هذه القرارات بأدلة صريحة صحيحة لا شُبهة فيها، لكنَّ المحيطَ الذي نعيش فيه ليس محيطاً سليماً ليتقبل التطبيق التام لهذه القرارات، فهذا رسول الله ﷺ

يُراقب ردَّات فِعْلِ الآخر لو أنه قَتَلَ المنافقين، إذ سيقولون: «**أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1]، لأنَّ هذا النوع من البشر له ظاهرٌ مُتلونٌ خادعٌ حتَّى على أفراد الصف المؤمن.

هذه القاعدة، وهي مُراقبة ردَّات فِعْلِ الآخرين على الفِعْلِ الذي يقوم ضدَّ «النِّفاق» ومؤسساته ورجاله تعمل في زمن النُّبوة، والقائد هو رسول الله ﷺ الذي يُوحَى إليه، والمؤمنون يقرؤون قوله تعالى: ﴿**وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[2]. فماذا يُقال في زماننا هذا، حيث الجهل بالدِّين، وذهاب العقل المُستنير، وغلبة قواعد الجاهلية من الاصطفاف على أساس القبيلة أو الجماعة والتنظيم أو البلد والقُطر؟!.

مِنَ الواجبِ لحماية المسيرة رصد التحركات في بدايتها، فإنَّ معالجة هذه الظواهر النِّفاقية قبل استفحالها خيرٌ من تركها حتَّى تتضخم وتكبر وتُصبح أكبر مِنَ المُعالجة، وهذا ما شكى منه علي بن أبي طالب ﷺ حين طالبه الصَّحابة ﷺ بالاقتصاص من قتلة عثمان، فشكى أنَّ أمر هؤلاء صار أكبر مِنْ أنْ يُعالج في هذا الظرف، مع أنَّ هذا كذلك لا يمكن العمل به إلاَّ في ظروف تكون حركة الجهاد قد قَوِي شأنها وبسطت سلطانها ولو جُزْئِياً حتَّى تستطيع أخذَ زِمام المُعالجة.

يجب العمل بقوله تعالى: ﴿**فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ**﴾[3]، فإنَّ هذه الظواهر يلتحق بها الكثير من المُغفلين والجاهلين فيكون الانشغال بهؤلاء فتنة كبرى، لكن لو ضرب الأئمة الكبار الخبثاء لَكان في ذهابهم تفرقٌ لهذه الجموع، لأنهم هم أساس البلاء وقادة الشر، وهم مَن لهم الصلات بدوائر الكفر التي تمكر بالمسلمين، فهناك تجارب تدل على أنَّ القضاء على الخبثاء الكبار والأئمة العُتاة تجعل إذهاب قوة هذه التجمعات المنافقة سهلٌ ميسورٌ، وتلاشيها محققٌ[4].

يجب العمل بقوله ﷺ: «**الْحَرْبُ خَدْعَةٌ**»[5]. فإنَّ هذه معركة أغلب حروبها خفية غير مُعلنة، فلا ينبغي أنْ يصرخ أهل الحقِّ بكلِّ عملٍ يعملونه فإنهم لو فعلوا ذلك لَكانوا سُذَّجاً لا يستحقون

---

[1] البخاري في «كتاب التفسير» باب قوله: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ**﴾. حرَّكُوا: اسْتَهْزَءُوا بالنبيِّ ﷺ. ويُقرأُ بالتخفيفِ مِنْ لَوَيْتُ. حديث رقم: ٤٩٠٥، ٤٩٠٧. ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً. حديث رقم: ٢٥٨٤.

[2] سورة الحشر، الآية: ٧.

[3] سورة التوبة، الآية: ١٢.

[4] من الأمثلة على هذا مقتل عدوّيْ الله. الأول: نزار حلبي بلبنان، كان أكبر مروج لفكر الجماعة الشركية التي يُطلق عليها اسم «الأحباش» وهم أتباع الضال المجرم الهالك عبد الله الحبشي الهراري. وثانيهما: المجرم شاه مسعود بشمال أفغانستان، وتم اغتياله بيد اثنان من الإخوة التوانسة رحمهما الله تعالى، وتقبلهما في زُمرة الشهداء، وذلك يوم الأحد العشرين من جمادى الثاني لعام ١٤٢٢ الموافق ٩ سبتمبر ٢٠٠١م.

[5] البخاري في «كتاب الجهاد والسير» باب الحرب خَدعة. حديث رقم: ٣٠٢٨، ٣٠٢٩، ٣٠٣٠. ومسلم في «كتاب الجهاد والسير» باب جواز الخِداع في الحرب. حديث رقم: ١٧٣٩، ١٧٤٠.

الوراثة، بل عليهم في هذه المعركة أنْ يكتموا أغلبها، فإنَّ السكوت يسعهم، ولهم في قاعدة: «إِنْ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ»[1]. بابٌ من أبوابِ الحكمة التي تُعينهم في عملهم.

يجب الرصد والمُتابعة وإحياء فقه «المُعَدَّلِين»، وهم طائفة كان يتخذهم القُضاة في الأحياء والقُرى والقبائل لتعديل الشهود وتجريحهم، فهؤلاء يُتابعون حركة الأشخاص وأُصولهم الفِكرية ومَنابتهم التنظيمية، فإنَّ خروج الرجل من الظلام مؤذن بالشك وإلقاء الأسئلة، وكذلك مُراقبة التحولات السريعة في الأفكار، فإنَّ انقلاب المرء من المعصية إلى الطاعة، وهو مقدم فيها ـ أي المعصية، أو البدعة، أو الزندقة ـ ينبغي أنْ يُعمل فيه فقه الصِّدِّيق مع المرتدين، أي أنْ يُوقفوا حتَّى ينقوا، كما هو شأن «الجلالة» أي الدابة التي تأكل العذرة، فإنَّ صاحبها يتركها حتَّى تنقى ليحل أكلها، وأما ما نراه مِنَ التحول المُفاجئ ثم التصدُّر لبعضهم يشي بكثيرٍ مِنَ الغرابة، بل نرى أنَّ أغلبهم حمل كثيراً من البدع معه، والأمثلة كثيرة، ولذلك كان من فقه الفاروق إذا رأى رجلاً عَلِيمَ اللسان حبسه عنده حتَّى يمتحنه كما حدث مع الأحنف بن قيس[2].

يجبُ مُراعاة ظروف الفئة المؤمنة ومِقْدَارَ تمكنها، فإنَّ الله أمر رسوله ﷺ في بداية الأمر بمراعاة أهل الكتاب فقال: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ** ﴾[3]. فأمره بالعفو والصفح مع مكرهم في ردِّ إيمان المؤمنين، ثم نُسِخَ هذا الأمر لما صار للمؤمنين شوكة وقوة فقال سبحانه وتعالى:

---

[1] «**إِنْ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ**» ويُروى بدون لام الابتداء ورجاله ثقات أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب من الشعر حكمة. الجزء الأول، الصفحة ٢٥٤، والطبراني وغيرهما. قال مخرجه البيهقي: الصحيح أنه موقوف، ورفعه داود بن الزبرقان وهو متروك.

[2] والأحنف لقب له، لحنف كان برجله، واسمه الضحاك، وقيل: صخر بن قيس بن معاوية بن حصين بن عُبَادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم، أبو بحر التميمي السعدي.

أدرك النبي ﷺ ولم يره، ودعا له النبي ﷺ فلهذا ذكروه، وأمه امرأة من باهلة.

أخبرنا أبو الفرج يحيى بن محمود بن سعد الثقفي إجازة، بإسناده إلى ابن أبي عاصم قال: حدّثنا محمد بن المثنى، أنبأنا حجاج، حدّثنا ابن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن، عن الأحنف بن قيس قال: «بينما أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان ﷺ، إذ أخذ رجل من بني ليث بيدي فقال: ألا أبشِّرك؟ قلتُ: بلى، قال: أتذكر إذ بعثني رسول الله ﷺ إلى قومك، فجعلتُ أعرض عليهم الإسلام وأدعوهم إليه، فقلتُ أنتَ: إنك لتدعو إلى خيرٍ، وتأمر به، وإنه ليدعو إلى الخير، فبلغ ذلك النَّبي ﷺ فقال: «**اللهم اغفر للأحنف**» فكان الأحنف يقول: فما شيء من عملي أرجى عندي من ذلك. يعني: دعوة النَّبي ﷺ.

وكان الأحنف أحد الحكماء الدهاة العقلاء.

وقدم على عمر رضي الله عنه في وفد البصرة، فرأى منه عقلاً وديناً وحُسْن سمتٍ، فتركه عنده سنة، ثم أحضره، وقال: يا أحنف، أتدري لِمَ احتبستك عندي؟ قال: لا يا أمير المؤمنين قال: إن رسول الله ﷺ حذّرنا كل منافق عليم؛ فخشيتُ أن تكون منهم، ثم كتب معه كتاباً إلى الأمير على البصرة يقول له: الأحنف سيد أهل البصرة فما زال يعلو من يومئذٍ.

وكان ممن اعتزل الحرب بين علي وعائشة رضي الله عنهما بالجمل، وشهد صفين مع علي، وبقي إلى إمارة مصعب ابن الزبير على العراق، وتوفي بالكوفة سنة سبع وستين، ومشى مصعب ابن الزبير ـ وهو أمير العراق لأخيه عبد الله ـ في جنازته.

وذكر أبو الحسن المدائني أنه خلف ولده بحراً وبه كان يكنى، وتوفي بحر وانقرض عقبه من الذكور، والله أعلم.

«أسد الغابة في معرفة الصَّحابة» لابن الأثير. الجزء الأول، الصفحة ٦٤. طبعة دار المعرفة ببيروت (١٩٩٧م).

[3] سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾[1]، وسنن الله تعالى لا تحابي أحداً، فإنَّ مَنْ قَفَزَ فوقَ طَاقَتِهِ هَلَكَ، وهذا من قاعدة مُراعاة السنن كما قال الأولون: «التوكل على الأسباب شركٌ، وتركها معصية» فترك الأسباب والسنن معصية تؤدي إلى الهلكة.

يجب نشر العلم الحاصل في الأشخاص والمؤسسات، حتَّى يعرفها النَّاس على حقيقتها، وهذا من باب «الجرح والتعديل»، مع تقدير كلِّ أمرٍ بحسبه، فلا يُضخم اليسير، ولا يُصغر العظيم، مع الانشغال بتيار الزندقة أكثر من غيره، فإنَّه مَكْمَنُ الخطورة، ونهاية الصِّراع في الداخل معه، وسيقذف به الكفر يوماً في المُواجهة حتَّى تختلط الأمور ويقول النَّاس: ها هم المسلمون يقتل بعضهم بعضاً، فيجعلونها فتنة داخلية، مع أنَّ حقيقتها هي معركة بين الإسلام والكفر، لكنه الكفر المُتستر وراء هؤلاء الزنادقة.

من الخطأ الكبير والجهل بدين الله وبسنن التاريخ القول بتعدد الجماعات في الإقليم الواحد، فمِنَ العلمِ نشر الواجب الشرعي بالوحدة بين أهل الحقِّ، والخلاف اليسير أمرٌ فطريٌّ لا مفرَّ منه، فيجب على المسلمين أن يتعلموا فقه الاختلاف، وضرورة الاجتماع حتَّى لا يتخذ التفرق سبيلاً لدخول المنافقين والزنادقة لتضخيم الشرخ وبث الفتنة، واصطياد الصغار الذين يستجيبون للصراخ دون وعيٍ.

يبقى هناك حكمة القيادة ووعي الجنود، فإنَّ أمر الفتن في هذه الأُمَّةِ لا مفرَّ منه، ولا عصمة لها منه للحديث الشريف: «**وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ. وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ. فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ. وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ. وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ. يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ. وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ـ أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا ـ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً**»[2]، وفي لفظ: «**سَأَلْتُ رَبِّي ثَلاَثاً. فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً. سَأَلْتُ رَبِّي أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا. وَسَأَلْتُهُ أَنْ لاَ يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا**»[3]، ولذلك فالقول بوجوبِ مُراعاة ردَّاتِ فِعْلِ المُراقب، وعدم المجازفة في المُواجهة لا يعني أبداً أن تجعلَ الجهاد تحت رحمةِ هذه المشاعر، خاصةً إذا كان وجود الجهاد نفسه صار عُرضةً للفناءِ، فإنَّ الجهاد ليس عملاً استعراضياً يطلب حبَّ الآخرين، بل هو عملٌ جراحي شاق، فيه آلامٌ وصِعاب، فحين يصل التهديد إلى مستوى مُعين فيجب المُواجهة إعذاراً إلى الله تعالى، خاصةً أنَّ الخصم لن ينتظرك بل هو سيأتيك، وسيُثِيرُ الشرور والقلاقل بالمُواجهات القاصية

---

[1] سورة التوبة، الآية: ٢٩.

[2] مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب هلاك هذه الأمَّة بعضهِم ببعضٍ. حديث رقم: ٢٨٨٩.

[3] مسلم في «كتاب الفتن وأشراط الساعة» باب هلاك هذه الأمَّة بعضهِم ببعضٍ. حديث رقم: ٢٨٩٠.

ضدَّ الفئة المجاهدة المؤمنة، فالمُقاربة بين مصحلة الجهاد ومُراعاة جهل الآخرين فريضةٌ شرعيةٌ، لكن مصلحة الجهاد هي الأولى، فإنَّ ذهاب الجهاد يعني ذهاب الإسلام، وتولي هذه المؤسسات البديلة والشخصيات المُوازية إمامة الإسلام يعني تدمير الإسلام من داخله، وتحويله إلى إسلام اسمي مع باطنٍ كافرٍ كما سيأتي في تفسير قوله: ﴿مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾، ولذلك على القيادة أنْ تُوقِنَ أنَّ الفِتن قدرٌ لازمٌ لهذه الأُمَّةِ، ولحركة الجهاد، فيجب عليها أنْ تتعلم إدارة الصِّراع معها، أما إنْ انصرفت إلى مُهادنتها اتقاءً لشرِّها فهي واهمة، وإدارة الصِّراع مع الفتن يعني تحجيمها، ومنع وُصول أهل الفتن إلى القيادة، وتقليل لحوق الأغبياء والضُّعفاء بهم، ومنع استئثارهم لاسم الإسلام ودعوته، هذا مع أنَّ التجارب تدل أنَّ المواجهة قدرٌ لازمٌ، لكن تبقى الحِكمة في التوقيت وإدارة هذه المُواجهة.

يجب اليقين بأنَّ هذا الدِّين وعِصابته المؤمنة المجاهدة لا يمكن زوالهم، مع التصديق أنَّ الكاذب المُخادع، والمنافق الزنديق لابدَّ مِنْ فضحِ الله له، فإنَّ المرء مهما يسر فإنَّ الله كاشفٌ سِرَّهُ، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرٌّ، ومسيرة الجهاد هي أعظم كواشف حقائق النَّاس، ولذلك فالفارق بين المنافق والمؤمن هو الجهاد كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[1]، ففي هذه القضية هناك جانبٌ قدريٌّ فيه يد الربِّ، فيجب التوكل عليه سبحانه وتعالى.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾.

المسجد وِعَاءُ العَمَلِ الإيماني، ومَصْدَرُ العِلْمِ، ومجمع الطاعات، ولكن بقرارٍ خبيثٍ، وتدبيرٍ محكمٍ بُنِيَّ مسجدٌ ظاهره ذلك كلّه، وباطنه الإضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين وإعداداً لاستقبال المحاربين المُعاندين لله ولرسوله، وهذا منتهى المكر والخديعة، وإذا كان هذا يمكن أنْ يكون في ظلِّ اسم المسجد الذي يُتَخَذْ للسجود والعبادة، فما بالك فيما هو أدنى منه من الأسماء والأعمال؟!.

لقد صار المسجد ضِراراً، وصار المسجد كُفْراً، وصار المسجد تفريقاً بين المؤمنين، وصار المسجد وَكْراً للكيد والتخطيط واستقبال العُتاة من كبار المجرمين، ولم يكنْ للمؤمنين زمنَ رسول الله ﷺ كشفه إلاَّ بكشفِ الله له، وهذه الجرائم المُتعددة في اتخاذ هذا المسجد قد تتوزع على هياكل الطاعة في المجتمعِ المسلم، وقد يتعدد بعضها دون الآخر، ولكن كلّها لها حُكْمٌ واحِدٌ وحلٌ واحدٌ وهو هُجْرَانهَا وُجُوباً لا مثنوية فيه، وحرقها لمن قدر على ذلك.

هذا الفعل يدل على أنَّ إتقان المكر والخداع لم يكنْ وَلِيدَ اليوم، وإنما هو قديمٌ، والذي تطور هو الأدوات في تنفيذ هذا المكر، لكن القاعدة واحدة، والأسلوب هو هو لم يتغيَّر، فنحن نرى مؤسسةً

[1] سورة محمد، الآية: ٣١.

إسلاميةً ناجحةً ترعى عملاً إسلامياً من أعمال الطاعات، فيلتف النَّاس حولها، وتصبح مصدر هداية، ويعمل فيها ما قال الله لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾[1]. وهذا كلّه من باب التنظيم والتجميع لتحقيق الأهداف ومحاولة صبغ الجميع صبغة واحدة في عمليةٍ تربويةٍ جماعيةٍ، فما أن تنجح هذه المؤسسة حتَّى يُسارع الخصوم إلى إنشاء عملٍ يُوازي هذا العمل، ويُشابهه، ثم يبدأ بإدارة الأعمال التي نجح فيها هذا العمل الإيماني القائم، فيفترق النَّاس بين الأمرين القائمين، ويبدأ التنازع، وإثارة الفتن، وبثّ الشائعات حتَّى تصل الأمور إلى الُمواجهة والمحاربة، ومما يُذكر في التاريخ أنَّ النصارى المثلثين الُمشركين لما رأوا حبَّ النَّاس للنصارى الموحِّدين بدأت آلة الإمبراطورية الرومانية في اضطهادهم بعد أن دخل الإمبراطور قسطنطين وأمة هيلانة النَّصرانية الشركية فاضطر الموحِّدون إلى الهروب إلى القِفار والجبال متخذين الرهبنة عملاً أُجبروا عليه أمام قتلهم وتعذيبهم، فقام النصارى المثلثون بعمل رهبنة مُوازية حتَّى يتم جلب تعاطف النَّاس إليهم كما حصل التعاطف مع الموحِّدين.

فهذه حيلةُ شرٍّ قديمةٍ، وناجحةٍ، وهي تُوصِل إلى الكثير من الأهداف، إن لم تكن كلَّ الأهداف، وربما يتم استدراج السذج ـ وهو الأغلب ـ لإدارة هذه الأعمال تحت دعاوى كثيرة، منها ما هو جيِّدٌ في الشرع كحجة تكثير الخير، ومنها ما هو قائمٌ على الشرِّ ابتداءً كقذف الآخرين من أهل الحقِّ ومحاولة إلغائهم، ومجرد وجود آخر على هذا المعنى هو شرٌّ لما قاله تعالى: ﴿ وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فما يزعمه الجهلة مِنْ أنَّ هذا تكثيرٌ للخير هو في تسمية القرآن تفريق وشر، وهو سبب الفساد.

هذه المساجد، والتي يناؤها طاعة لله تعالى، جعل الشارع تكثيرها على غير معنى الحاجة تفريقاً وفساداً في الصف المؤمن، ولذلك من فقه العلماء أنهم أوجبوا هدم أي مسجد يُبْنى قريباً من مسجدٍ آخرٍ من غير حاجة له، لأنَّ بناءه شرٌّ يُشابه معنى مسجد الضرار الذي هدمه رسول الله ﷺ، فكيف يُقال إنَّ التكثير على هذا المعنى خيرٌ ومشروعٌ، بل يذهب البعض إلى تسمية حُكم هذا التكثير مستحبٌ لله تعالى؟!.

هذا الحُكم الشرعي بإضافة اسم الخير إلى وصف المعصية أي ـ مسجد الضرار ـ فقه لا يُبنى إلاَّ في نفوسٍ نَيِّرَةٍ عاقلةٍ حكيمةٍ، لأنَّ الورع البارد، والفقه الجامد يأبى هذا الاقتران، فكيف يُصبح المسجد كفراً؟، وكيف يُصبح ضِراراً؟، وعلى هذه القاعدة فكيف يُصبح طباعة المصحف أو حمله كفراً وضراراً، لكن علياً ﷺ أدرك أنَّ رفع المصحف فوق الرؤوس هو سبيل شرٍّ، فلم يقنع به، لكن مَن معه وقعوا في الخديعة وانطلت عليهمُ الحيلة، وقد أدرك كذلك أنَّ شعار «إنِ الحُكْمُ إلاَّ للهِ» هو كلمة حقٍّ يُراد منها باطل، ولكن الجهلة يتساقطون في النَّار لظنهم أنها نورٌ يأوون إليه.

[1] سورة يونس، الآية: ٨٧.

إنها قاعدة بناء الشرِّ على اسم الخير، فيبصر الفقيه الأمر فيقرن اسم الخير مع وصف الشرِّ حتَّى تذهب عن اسم الخير تلك المعاني المرتبطة به في عقول المسلمين ونفوسهم من الاحترام والتقدير.

هذا الأمر العظيم يجعل الأحكام منوطة بالمعاني لا بالأسماء، وبالمحتوى لا بالظاهر، فالأشكال والأسماء لها اعتبار في الشرع والواقع إن كانت تدل على حقائق باطنة، ومعاني توافقها، أما إن كانت الأسماء والأشكال والظواهر خادعة، لا تدل على محتواها، وخاوية من معانيها وحقائقها فهي لا تحمل حُكم الاسم الذي علق به، وهذا فقهٌ مضطردٌ في أبواب الفقه كلِّها، وفي مسائل الحياة أجمع، لأنَّ الأسماء دلائل، والمقصود هي المعاني والحقائق، والآيتين لما فيهما من الأعمال، ولما بنيت له من المقاصد، فحين تنقلب المعاني إلى أضدادها فإنَّ أحكامها تتغير بحسب المعاني، كما قال أهل العلم عن الاستحالة، لأنَّ الحكم معلَّقٌ بالوصف كما هو معلوم.

منذ بداية الخلق وكيد الشيطان يقوم على هذه القضية، وهي قضية الأسماء والمعاني، فشجرة المعصية سماها الشيطان لأبينا آدم ﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[1]. واليهود احتالوا على الشحم فأذابوه فصار سمناً فباعوه، وهذا كيدٌ يتكرر في كلِّ قضيةٍ، فنابليون لبس الجبة الأزهرية وتسمى باسم محمد، وشكل مجلساً للعلماء ليحكم بالشرع على أهل مصر، ومَن قرأ رسائله لأهل مصر لما دخلها كما رواها الجبرتي في «تاريخه» رأى أنَّ هذه الرسائل هي عينها التي يقولها كلّ مجرد يكيد لهذه الأُمة، فهي عين ما قاله بوش وبلير من غير خرم حرفٍ واحدٍ، وهي نفس الصورة التي قدم فيها قازان لما أراد دخول الشام زمن محمد بن الناصر قلاوون، ومع كلِّ هذه التجارب المُكررة بنفس الأسلوب والطريقة إلاَّ أنَّ هذه الحيلة ما زالت تنجح وتُؤْتِي أُكُلَهَا في المجتمعات الإسلامية، وما أن يرفع الشعار الخادع حتَّى تركض الجموع الجاهلة إليه، فتُلْدَغ مرةً وراء مرةٍ دون أن تَرْعَوِي أو تتعلم.

الأسلوب واحدٌ، والخطة مُتشابهة لكن الأدوات قد كثرت في زماننا، فهناك مسجد الضرار الذي ينبيه الطاغوت ليُدفن فيه، أو يبنيه أبناؤه وأحفاده حتَّى يجبر النَّاس على اسمٍ ممدوحٍ يلتصق به. فهذا مسجد الشهيد فلان، وهناك جماعة الضرار التي يبذل فيها الكفر بعض ماله ليغطي جرائمه وكُفره، فتسقط عنه أحكام الكفر التي يُطلقها أهل العلم، وهناك مؤسسات الضرار التي يجمع فيه الكفر مشايخ العلم والفتوى ليجلس إليهم مُتصدراً وآمراً، ثم ليتخذ منهم مُتكئاً لجرائمه وخُصوماته وحُروبه، وهناك صحف الضرار التي تبث الشرَّ والكفر تحت اسم الإسلام المُتمدن والمُسالم والمحرف، وهكذا فكلّ ما يقوم من وسائل لخدمة الحقِّ فإنَّ أهل الباطل يُسارعون لإيجاد البدائل المُوازية ليضعفوا أهل الحقِّ ويشتتون اتحادهم.

في مسجد الضرار هذا كان هناك صلاةٌ وأذانٌ وذكرٌ لله، فعلى المرء أن لا ينسى ذلك، حتَّى لا يظن ظان أنَّ هناك مسجدٌ في البناء فقط مع خُلوه من الطاعات التي تحويها بقية المساجد المؤمنة الصالحة

[1] سورة طه، الآية: ١٢٠.

التقية، لكن كان هناك مع هذه الطاعات التي كانت لبث أبخرة الدخان لتمنع رؤية الخفايا والدسائس، ولكن كلّ هذه الطاعات لم تمنع لحوق اسم الضرار على هذا المسجد ولا حُكْمَ الله تعالى فيه.

وأركان هذا المسجد الخبيث هي الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين واتخاذه وِكْراً لحرب المسلمين، وكلّ واحدةٍ من هذه الأركان كافية لتسمية المسجد باسم الضرار لا كما زعم بعضهم أنه لا يكون كذلك حتَّى تجتمع فيه كلّ هذه الأركان، ولو تفكرَ هذا القائل في معنى كلامه لما قاله، فهل يُعقل أنْ لا يكون المسجد مسجد ضرار، وقد قام على الكفر كمعان الجاهلية من مساجد فرق الباطنية كالقاديانية[1] والإسماعيلية[2] حتَّى يكون مقصد أصحابه اتخاذه وِكْراً لمؤامراتهم ضدَّ المسلمين؟! ثمَّ إنَّ أغلب كتب الفقه تتحدث عن المساجد الكثيرة لغير ضرورة في بلاد المسلمين بصفتها مساجد ضرار، كما أفتى السيوطي في عامة مساجد القاهرة في زمانه، حيث اتخذها النَّاس تباهياً، وحصلٍ بسببها قلَّة اجتماع المسلمين على الصلوات في المسجد الواحد، مع أنَّ أصحابها لم يُريدوا بها كفراً.

---

[1] **القاديانية** هي إحدى الفرق الباطنية الخبيثة، وذلك لأخذهم بالمبادئ الباطنية في تأويل النصوص تأويلاً باطنياً، ودعواهم أن للنصوص ظاهراً وباطناً، وتدينهم بكثير من المبادئ الباطنية. ظهرت في آخر القرن التاسع عشر المسيحي في الهند. وتُسمى في الهند والباكستان بالقاديانية، نسبةً إلى زعيمهم غلام أحمد القادياني، ولد عام ١٨٣٥م في قرية قاديان إحدى قُرى البنجاب بالهند. وسموا أنفسهم في أفريقيا وغيرها من البلاد التي غزوها بالأحمدية؛ تمويهاً على المسلمين أنهم ينتسبون إلى الرسول ﷺ. والقاديانية ثورة على النُّبوة المحمدية، وعلى صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وثورة على الإسلام ومؤامرة دينية وسياسية كما يذكر أبو الحسن الندوي - رحمه الله تعالى - في كتابه: «القادياني والقاديانية» ص٥.

ولقد قدم زعيمهم خدمة للإنجليز أثناء احتلالهم للهند حيث دعا إلى إسقاط فريضة الجهاد ضد المستعمر..

ومن الأمثلة - وهي كثيرة - على خدمة هذا المتنبئ لبريطانيا قوله في منع الجهاد: «لقد قضيتُ معظم عمري في تأييد الحكومة الإنجليزية ونُصرتها، وقد ألفتُ في منع الجهاد، ووجوب طاعة أولي الأمر - الإنجليز - منَ الكتب والإعلانات والنشرات ما لو جُمع بعضها إلى بعضٍ لملأ خمسين خزانةً!! وقد نُشرت جميع هذه الكتب في البلاد العربية ومصر والشام وتركيا، وكان هدفي دائماً أن يُصبح المسلمون مخلصين لهذه الحكومة، وتُمحى من قلوبهم قِصص المهدي السفاك، والمسيح السفاح، والأحكام التي تبعثُ فيهم عاطفة الجهاد وتُفسد قلوب الحمقى»، [شهادة القرآن، ص٣. القادياني والقاديانية، ص٩٤-٩٥].

ولقد سلك غلام أحمد مراحل عدة إلى أن ادعى في آخرها النبوة وهي كالتالي: ١: التأليف والمناظرات، ٢: الإلهامات، ٣: دعواه أنه المسيح الموعود، ٤: ادعاؤه النبوة. إلا أن ربنا تبارك وتعالى كان له بالمرصاد ففي شهر مايو ١٩٠٨م أُصيب بالهيضة الوبائية الكوليرا في لاهور، فمات في بيت الخلاء، وكان جالساً يقضي حاجته. ﴿ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

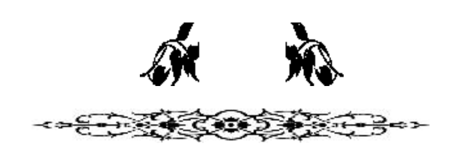
من كتاب: «فِرقٌ معاصرة تنتسبُ إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها» لغالب بن علي علي عواجي. بتصرف يسير. الطبعة الثانية. (١٤١٨/١٩٩٨م) طبعة دار البينة للنشر والتوزيع بدمنهوت.

[2] **الإسماعيلية** إحدى فرق الشيعة، وثاني أكبرها بعد الاثنى عشرية. يشترك الإسماعيلية مع الاثنا عشرية في مفهوم الإمامة، إلا أن الانشقاق وقع بينهم وبين باقي فرق الشيعة بعد موت الإمام السادس جعفر الصادق إذ رأى فريقٌ من جمهور الشيعة أن الإمامة في ابنه الأكبر الذي أوصى له إسماعيل المبارك، بينما رأى فريقٌ آخر أن الإمام هو أخوه موسى الكاظم لثبوت موت إسماعيل في حياة أبيه وشهادة الناس ذلك.

لعل معظم الإسماعيلية في الوقت الحاضر يتركزون في شبه القارة الهندية، وباكستان، وأفغانستان، وسوريا تحديداً في السلمية ومصياف وبعض قرى طرطوس، وفي جنوب وشرق شبه الجزيرة العربية، وفي اليمن، ومنطقة نجران جنوب السعودية، وفي شرق أفريقيا، كما يذكر أغاخان الثالث، إمام النزارية في مذكراته المنشورة أن الإسماعيلية في عصره تتواجد في بعض المناطق من صعيد مصر امتداداً للوجود الإسماعيلي في مصر منذ العصر الفاطمي وبعده.

ما يهم أهل الجهاد في هذا الباب هو ما ستقوم أركان الجاهلية به من بناء تنظيمات مُوازية ومُنافسة لأهل الحقِّ، وهي ترفع اسم الإسلام، وتُلحق بها أسماء إسلامية، كما يلتحق بها بعض السفهاء ممن يُسمى بالعلماء، لما يحملون من ألقاب تُباع كثيراً في عالمنا اليوم، فتجري على أيديهم أمور الضرار والتفرقة بين المؤمنين، بل قد يصل الأمر إلى القتال والصدام، فيختلط الأمر على النَّاس، وحينها يفرغ الكفر إلى تنفيذ مآربه في بلاد المسلمين.

من صور الضرار اليوم هو ما تقوم به طوائف الكفر والردة من ضم المساجد إلى حوزتها، وإخضاعها لسلطتها حتَّى تصبح كلها قاسورة لقوانينها وتشريعاتها، بل إنَّ أئمتها وخطباءها لا يكون في وُسعهم إلاَّ أنْ يَرْتَبِطَ رِزْقُهُمْ بعطايا هذه الطوائف المُرتدة، ولا يُؤذن لهم بقول إلاَّ ما كان خدمة لهذه الطوائف، فتحولت المساجد إلى منابر للدعوة إلى غير الله تعالى، وصارت أُلعوبة بيد أهل الشرِّ، ومَن وُجد من بعض أهل الخير يمنع من الإمامة والخطابة، فلا عجب بعد ذلك أن سقطت هيبة الأئمة والخطباء، إذ كيف يسمع النَّاس له وقد أُمر أن يتحدث عن أهمية نظافة الشوارع في الإسلام، وهو يرى أنَّ أعظم قضايا المسلمين لا يقدر الخطيب أن يتكلم عنها بكلمة، وإنْ أذن له أن يتكلم فالمأذون فيه أن يبين فضائل عمل الطاغوت في هذا الأمر، بل وشرعيته في دين الله تعالى، بل حدثني مَن أثق به أنَّ جنود الأمن في بلده يُوجبون على أئمة المساجد أن يعملوا عندهم، أي أن يتجسسوا على أهل المسجد، لينقلوا لهم أمزجة النَّاس، وماذا يقولون، وأقسم لي محدثي ـ وهو من حملة كتاب الله تعالى ـ أنه لما رفض هذا قالوا له: لماذا ترفض وقد قبل الكثير غيرك؟. فذلك عادة المساجد في هذا الباب وِكْراً لرصد المؤمنين وصيدهم واتخاذهم هدفاً[1].



[1] والله أنه حصل عندنا مثله، فقد كان أحد الخطباء يخطب يوم جمعة، فتهجم على الإخوة المجاهدين، وقال عنهم أنهم إرهابيون و.. و.. فقام أحد الإخوة وابنه ـ حفظهما الله تعالى ـ فأنكرا عليه، وهو على المنبر، ثم تركا المسجد وذهبا إلى بيتهما. وبعد وصولهما بوقت وجيز فُوجئا بحضور رجالٍ من المخابرات يطرقون باب بيتهما... فعلما منهم أن هذا الخطيب ـ قبحه الله ـ هو الذي أبلغا عنهما.
بل إن مخابرات هذا البلد ـ الدانمارك ـ المحارب للإسلام وأهله يعقد لقاءات دورية مع أئمة المساجد من أجل توجيههم، وأخذ معلومات منهم عن الشباب المُتمسك. وقد صرح أحدهم وهو على المنبر أنه لو علِم بأحدٍ يريد أن يقوم بعملٍ ما لَكان أول من يُبلغ الشرطة عنه! ونحن نقول له: هنيئاً لك بموالاتك لأعداء الله ورسوله ﷺ، وحشرك الله معهم.

إضاءة

تذكر روايات مسجد الضرار أنَّ زعيم الكفر والنِّفاق الذي دعا إلى بنائه هو أبو عامر الراهب ـ وهو والد الصَّحابي الجليل حنظلة الغسيل، وله ولدان آخران هما كذلك من خيار الصَّحابة أحدهما اسمه صيفي وآخر ـ، والذي سُمِّي بالفاسق، وقد ذُكر من سيرته أنه من الخزرج، لكنه تنصَّر، وقرأ علوم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية على دينه، وذُكر عنه أنه كان له كيدٌ غريبٌ في غزوة أُحد، ذلك أنه حفر حفائر فيما بين الصفين، وقد وقع رسول الله ﷺ في إحداها، وأُصيب فجُرح وجهه وكُسرت رُباعيته اليمنى والسفلى وشج رأسه ﷺ، وهذا يدل أنَّ هذا الكيد غير عادي، وأنَّ صاحبه له مِراس وقراءة وتدبر، فهو كبيرٌ من كبار القوم، وقارئٌ للكتب، وله مجاهدات في عبادته الشركية، فهذا الخطر ـ وهو خطر كيد مساجد الضرار والمؤسسات والجماعات البديلة والشخصيات الموازية ـ صناعة لا يرقاها إلاَّ الكبار من الشياطين، بل هي أمتن ما تُفرزه هذه العقول التي تمارس الكيد والخداع وتفكر فيهما ضدَّ المسلمين، وبالتالي فالوعي على هذه المكائد، والوقوف أمامها بتدبر إيماني محكم لا يقوم له إلاَّ فئة تملك العقل والهداية والبصيرة والحكمة في إدارة هذه المعركة الخطيرة، أما إذا تولاها الصغار والضِّعاف فإنَّ السنن ستؤدي إلى هزيمة الضُّعفاء، وواقعنا يشهد لهذا، فإنَّ الغزو الصليبي لما اجتاح بلادنا ثم أدرك أنَّ زواله لابدّ منه، أخرج آخر كيده وهو إنشاء قيادات عميلة ليُوسِد لها أمر خلافته بعد خروجه، وقد كان، وفي بلادٍ أُخرى قذف برجاله قبل رحيله إلى مواقع القيادة في داخل الصفوف حتَّى صاروا هم الوارثين له، لا الأُصلاء الذين حاربوه وقتلوه.

﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ١٠٧﴾.

كعادة المنافقين يتسترون بالحَلف والكلام الظاهر الحسن، والحقيقة القرآنية تكشفهم وتُبطل كلّ كيدهم، فهم يزعمون إرادة الحسنى، أي العمل الصالح، والله سبحانه وتعالى يكذبهم، وهذا كافٍ عند المؤمنين لتكذيبهم، وعدم الثقة بهم، لكن المشكلة في الغفلة التي تُصيبُ المسلمين دوماً حيث يتوهمون توبة الشيطان، وتغيُّر المنافقين، وانقلاب الذئاب حملاناً، وفي كلِّ مرةٍ تقع الفاقرة، ويكون اللدغ، وتأبى الأُمة أن ترتدع أو تتوب، فهي ما زالت كأبيها آدم تصدق إنْ حلف الشيطان لها، وتظن أنَّ وراء هذه الكلمات حقائق الصِّدق، وإني لأُجزم لو أنَّ طاغوتاً من طواغيت العصر في زماننا ممن هو أعتى كفراً وأشدّ إجراماً من فرعون خرج للنَّاس فقرأ عليهم آيات من القرآن، وتصنع البكاء للحظة، وصرخ فيهم صُراخ النخوة والشجاعة والإيمان لَوجدتَ النَّاس يتساقطون على رجليه، ولَسارعت الجماعات الإسلامية إلى تأييده واتخاذه إماماً[1]، وهذا الذي أقوله ليس ضرباً

[1] لعلَّ البعض يذكر البيان الذي أصدرته جمعية إحياء التراث الإسلامي بالكويت، وكان رئيسها وقتها عبد الرحمن عبد الخالق، وهو مصري الأصل. امتدحوا فيه صدام حسين، ووصفوه بـ«البطل الصنديد» بسبب حربه لإيران، وقد سُئل الشيخ الألباني عن البيان فامتدحه

من الخيال، بل هو الواقع، وهو التاريخ الذي يتجدد، وقد صدق من قال في هذا الباب: التاريخ يُعيد نفسه.. لكن على الأغبياء.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

المسجد الذي أُسس على التقوى في سياق هذه الآية مع قصة مسجد الضرار هو مسجد قُباء، مع ورود أحاديث تبيِّن أنَّ هذه الآية شاملة لمسجده الشريف، ولا تَعارض بين الأمرين، لأنَّ النزول قد يتكرر، وقد يشمل اللفظ الواحد هذين الأمرين، وكون أنَّ هذه الآية نزلت في مسجد قُباء لأنَّ الذين بنواْ مسجد الضرار إنما بنوه بجانب مسجد قُباء كما جاء في الأحاديث، ولهذا جاء الأمر الإلهي بالحض على الصلاة في المسجد العتيق الذي تحقق بناؤه على التقوى، وأنَّ الذين فيه رجالٌ أهل طهارةٍ وتطهرٍ، والله يحب المطهرين.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ ﴾.

هذا هو الواجب الأول مع هذه المساجد التي تُبنى على الضرار والكفر وتفريق المؤمنين واتخاذها مراصد لحرب الإسلام والمسلمين، وهو الواجب الذي على المسلمين إتباعه في كلِّ مكانٍ في معناها من المؤسسات والجماعات والفئات، فمن الكبائر والمعاصي أنْ يلتحق المسلم بهذه الهياكل والأسماء، بل يجب هُجرانها والأمر بهُجرانها، والتحذير منها، والآية تدل على النهي المُؤبد، وهذا عند بعض أهل الأصول لا نسخ فيه، ومعنى ذلك أنَّه لا يجوز القول بتنقيتها مِنْ عِلَلِ الشرِّ التي قامت عليها ثم الصلاة والإقامة فيها، لأنَّ الأصل مُعْتَبَرٌ، وهذا الأصل يُؤثر في الشيءِ ما بقي، كما أنَّ الذاكرة التي يعرفها النَّاس عنها محفوظة، ولها أثرٌ في النُّفوس، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بإحراقه وإزالته.

وهناك مبحثٌ في هذه المسألة عند أهل العلم وهو حرق وإفساد أماكن المعصية مع ما في إفسادها وتدميرها مِنْ تدمير مالٍ محترمٍ كالبناء، وبعض ما فيها من مالٍ شرعيٍّ مُصانٍ، فالصحيح أنَّ تدميرها جائزٌ شرعاً، ويستدل لها بهذه الموقعة من مسجد الضرار، وكما سيأتي في قوله تعالى: ﴿ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾. وقد فعل ذلك الصَّحابة المُقتدى بهم، فالفاروق رضي الله عنه حرَّق خمارة يهودي، كان صاحبها يتخذها لتجارة الخمر، ومأوى للشاربين، وقد شرح هذه المسألة ابن القيم في كتابه: «الطُرق الحُكمية» فليُرجع إليه[1]، وإذا كان الشارع قد أجاز تحريق وإفساد أماكن

وأثنى عليه.. وبعد أن دخل صدام الكويت واحتلها، ولى ذاك الشيخ ـ عبد الرحمن عبد الخالق ـ هارباً إلى السعودية، فانقلبت به سيارته، ومات إثرها أحد أبناءه.

[1] من الصفحة ٢٧١ وما بعدها. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيق محمد حامد الفقي.

السوء عقوبة لأصحابها فكيف إذا كانت هذه الأماكن قد أُقيمت للصدِّ عن سبيل الله تعالى، وأُنشئت لمحاربة دين الله تعالى، ونشر الرذيلة؟!.

يزعم الجهلة أنَّ هذه أموال الأُمة ولا يجوز إفسادها وإهلاكها، مع أنَّ هذه الأموال في الحقيقة تُصرف لتدمير الأُمة وإضعافها وصرفها عن مُهمتها الربَّانيَّة التي أخرجها من أجلها، ولذلك فلا يبكي على إفساد هذه الأموال وتحريقها إلاَّ جاهلٌ أو ضالٌ.

لكن هل يجوز أنْ تحوَّل أماكن المعصية إلى أماكن طاعة، أم أنَّ هذا لا يجوز أبداً لأمر الله لرسوله ﷺ بأنْ لا يقوم في مسجد الضرار أبداً؟.

فالجواب، والله أعلم: أنَّ هذا لا يجوز، بل هو الأفضل للمرءِ إنْ أمن أموراً هي التي منعت تحويل مسجد الضرار إلى مسجد صلاح وتقوى وإيمان؟ فمسجد الضرار هذا ـ أي مسجد عامر الراهب ـ أُقيم محادةً لمسجد المُتطهرين من أهل قُباء، فهو مجاورٌ له، فإصلاحه في هذه الحال بعيدٌ وغير متحققٍ، ولذلك أُمر بهجره وتحريقه، فإذا كان يمكن إصلاح المكان ليكون بيتَ طاعةٍ ومكانَ خيرٍ فإنَّ في ذلك تحقيقٌ لمقاصد الإسلام. وفي التحريق معنى ينبغي على الناظر مُراعاته وهو أنَّ فيه إحراق قلوب المنافقين، وتبكيتهم، وإملاء قلوبهم الغيظ والحزن والألم، وهذا مقصدٌ شرعيٌّ، فإنْ كان هذا يحصل في كبار الكفار والمنافقين فإنَّ المصير إلى التحريق هو الأفضل.

ثمَّ إنَّ مما ينبغي مُراعاته عند الترجيح بين الإحراق والتدمير أو التحويل، هو النظر إلى تعلُّق الآخرين به، فإنَّ إزالة الشيءِ الذي فيه تعلُّقٌ للقلوب على معنىً معينٍ يصعبُ إزالة هذا المعنى إلاَّ بإزالة الصورة فهذا يتعيَّنُ فيه التدمير والإزالة خاصةً ما كان في بقائه تهيِّيجٌ للنُّفوس على معاني باطلة إنْ رأوه أو حضروه، وهذا المعنى هو الذي حرم من أجله الشرب في أواني الخمر عند أهل الجاهلية كالنقير والدباء والحتم والمزفت، فهذه أواني كانت مخصوصة للخمر عندهم، فلما حرم الخمر، حُرِّم الشرب فيها ولو كان شرب الماء، لما في بقائها تهيِّيجٌ للنُّفوس التي استمرأتْ شرب الخمر، فلما ذهب هذا عاد الأمر إلى الحِلِّ ونُسِخَ التحريم.

وكذلك ينبغي مُراعاة التاريخ القديم، فإنَّ بعض الأماكن التي حولها أهل الإسلام إلى أماكن طاعة في زمن عزَّة الإسلام وقُوته حصل فيها الخير، لكن لما ضعف شأن المسلمين في هذه البلاد عاد أهل الجاهلية والشرك بالمُطالبة لإحياء هذه الأماكن على معنى الشرك التي كانت عليه أصلاً[1]، فكان في إبقائها وتحويلها خيرٌ في الحال لكنَّه شرٌّ في المآل ولو أُزيلت لَكان في ذلك قطع لهم من هذا الشرِّ.

[1] مثاله مسجد «أنيا صوفيا» بإسطنبول فأساسه مسجد بناه المسلمون، ولما استولى النصارى عليه حولوه إلى كنيسة، وهو الآن متحفٌ يزوره السيَّاح.

وحاصل الأمر أنَّ أمر الإزالة والتدمير والتحريق اجتهادي يعود إلى نفس المجتهد في تقدير ما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين. هذا مع بيان أنَّ التغيِّير والتبديل فيه معنى الإزالة في بعض الوجوه لا في كلِّها، فإنَّ هناك أماكن لا يمكن تحويلها إلاَّ بإزالتها بالكلية حتَّى تقوم على أمرٍ جديدٍ رشيدٍ.

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾.

هذه تبيِّن أنَّ مسجد الضرار كان فيه مُنافسة لمسجد قباء، فصلاة النَّبيِّ ﷺ في مسجد الضرار فيه نوع تفريغٍ لخيرِ هذا المسجد، ولذلك أُمر أن يقوم في مسجد التقوى بدل أن يقوم في مسجد الضرار، فلو أنَّ الأمر لم يكن فيه منافسة، ولا تعطيل لبعض الخير في مسجد التقوى لما قال الله تعالى لنَّبيِّه ﷺ: ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾، فإذاً هو مُدافعة بين مسجدين، ومن هو الأحق بالإقامة والصلاة فيه؟!.

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

يمدح الله تعالى أهل مسجد التقوى، سواء كان مسجده الشريف أم مسجد قباء، وهذا مدحٌ لأصحابه ﷺ، وفي هذا دليلٌ أنَّ الأماكن تُمدح بأمرين؛ بما بُنيَّت له ابتداءً من الخير والتقوى والدِّين، وبما فيها من الرجال الصالحين وأعمالهم، فقد يُبنى المسجد على التقوى ثم يصير أهله إلى غيرها، كما حصل للمسجد الحرام، فإنه بناء إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، ثم غلب عليه أهل الشرك، وصار مأوى لأصنام أهل الجاهلية، وقامت فيه أعمال الشرك، إذ لم تكن صلاتهم إلاَّ مكاءً وتصديةً كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]، وهذا كذلك يجعل الحفاظ على أماكن التقوى والصلاح واجباً من واجبات الدِّين، فإنَّ مسجد التقوى من الواجب منع أهل الباطل مِنْ إفساده، كما أنَّ الأمر في دار الإسلام لا يجوز أن تتحول إلى دار كفر، بل يجب منع ذلك، لأنَّ أماكن الطاعة التي أقامها أصحابها فيها فضلٌ ينبغي الحفاظ عليه.

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾.

بقوله تعالى هذا أخذ أهل العلم فضيلة الأماكن العتيقة في الخير، وأنها مُقدمة على المحدثة، ولذلك سُمي المسجد الحرام بالبيت العتيق، فما كان في معناه كان مُقدماً في فضيلته.

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

يُقرر الله تعالى لرسوله ﷺ ولأتباعه كذلك أنَّ المسجد الذي كان بُنيانه حين بُني على تقوى الله تعالى ووقوع رضوانه سبحانه وتعالى خيرٌ من مسجد الضرار الذي بُني على شفير حُفْرَةٍ مِنْ حُفَرِ

[1] سورة الأنفال، الآية: ٣٥.

جهنَّم فانهار فيها، وهذا فيه بيانٌ أنَّ مسجد التقوى والرضوان هما المحفوظان من الهلاك والفساد، فالله يأمر بحفظها كما قال الله تعالى عن المسجد الحرام: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾[1]، وهذا تطهيرٌ مادي ومعنوي، ولذلك كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أول من عملاً في خدمة المسجد، وهذا شرفٌ لمن سلكَ سبيلهما عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ هو ما فعله الحبيب المصطفى من إرسال صحابيين لمسجد الضرار وأمرهما بحرقه وتفريق مَن أقام فيه، وهذا من الأصول، أنَّ مَنْ حَكَمَ الله عليه قدراً بالفساد فالمسلمون مأمورون بذلك كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ١٧﴾[2]. فهذا حكمٌ قدريٌّ، وهو كذلك حكمٌ شرعيٌّ، إذ مما يُؤمر به المسلم هو حفظ وتنمية وإدامة ما فيه نفعٌ للنَّاس، وهو مأمور كذلك بإفساد وإهلاك ما فيه ضرر ومفسدة، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟﴾[3]. فهذا حُكْمٌ قَدريٌّ، وهو حُكْمٌ شرعيٌّ كذلك يُؤخذ من هذه الآية ومن غيرها كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[4]، ويُفَرَّق هنا ما بيَّنه الله حُكْماً قَدَرِيّاً، وما بيَّنه خَبَراً قَدَرِيّاً، فمثال الخبر القَدري قوله ﷺ عندما سُئل عن أمارات الساعة فقال: «**إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا، وإذا تَطَاولَ رُعَاةُ الإبِلِ البَهْمِ في البُنْيَان**»[5]. فهذه لا يُستفاد منها حُكْمٌ شرعيٌّ على الصحيح، وكذلك قوله ﷺ: «**تُصالِحونَ الرّومَ صُلْحاً آمِناً حَتّى تَغْزونَ أَنْتُمْ وَهُمْ عدواً من ورائهم**»[6]، فهذه أخبارٌ لا يُستفاد منها الأحكام الشرعية، أما ما كان حُكْماً قدريّاً قدَّره الله على فِعْلٍ مِنَ الأفعالِ فهذا يُقال له: «أفعال الله»، وهي دليلٌ شرعيٌّ، يُستفاد من هذه الآية: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ...﴾، ومِن استدلال حبر الأُمَّة ابن عباس على حُكم اللواط، فإنه حكمَ فيهم ما فعله الله في قوم لوط، وقد غلط بعض المعاصرين في الاستدلال بالأخبار القَدرية على الأحكام الشرعية، ووقع بسبب ما قالوه فسادٌ عظيمٌ.

وفي هذه الآية دليلٌ أنَّ الأصل يَلْحَقُ الشيء ويُدْرِكُهُ، فما كان أصله خيرٌ لحقَ به الخير ولو آجلاً، وما كان أصله الفساد لحقه الفساد، فليحذر المرء من بناء أُموره على الشرِّ، فالأصول في الأنساب

---

[1] سورة البقرة، الآية: ١٢٥.

[2] سورة الرعد، الآية: ١٧.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

[4] سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨-٢٧٩.

[5] البخاري في «كتاب الإيمان» باب سؤال جبريلَ النَّبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعِلْمَ الساعة. حديث رقم: ٥٠. طرفه في: ٤٧٧٧. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التَبرِّي ممن لا يُؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه. حديث رقم: ٩، ١٠.

[6] أحمد في «المسند» حديث رقم: ١٦٧٧٠. وابن حبان في «صحيحه» حديث رقم: ٦٥٩٤. والحاكم في «المُستدرك على الصحيحين» حديث رقم: ٨٣٤٩. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والطبراني في «المعجم الكبير» حديث رقم: ٤٢٣١.

والبيوت والتجارات والأموال لها أثر، فالمطعم الحرام يلحق صاحبه، وأُصول المرأة تُدركها مهما خفيت، وعماد البيوت، كلّ هذه وغيرها يجب على المتقين مُراعاة أصلها فإنَّ ما كان أصله فاسداً لحقَ به يوماً وأضره، وما كان أصله صالحاً لحقَ به ونفعه، وهذا الأمر مِنْ قَبِيلِ الفضل والتذكير والإحسان، وإلاَّ فإنَّ الصَّحابة ﷺ هم أولاد المشركين كما قال النَّبي ﷺ.

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

لقد أورثهم بناء هذا المسجد الخبيث نفاقاً وكفراً وريبةً في قلوبهم، وسيبقى فيها ما داموا أحياءً حتَّى يموتوا، ذلك أنَّ هذا الفِعل المجرم ملأ عليهم جوانحهم كما ملأ حب العجل قلوب بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾[1]، هكذا قال أهل التفسير.

وهذه سنَّة الله في الشرِّ، إذ أنَّ أثرها يبقى إلاَّ أن يتوب المرء، ويحسن توبته، ويُكْثِرَ مِنَ الأعمال الصالحة التي تُذْهِبها من قلبه، فالشرُّ ليس سيئة يحاسب عليها المرء في الآخرة فقط، بل هي نكتة سوداء في القلب كذلك.

وفي هذه الآية جعل الله الرِّيب وأثره في القلوب مَنُوطاً بالبناء، ولذلك أمر الله بتحريقه، لأنَّ إزالة البناء عنِ العَيان، يُذهب الكثير مما علَّق في القلوب منه، ومنه يُؤخذ هُجران أماكن المعصية التي ألفها المرء حتَّى يقطع عليه البُعد أثرها عن قلبه، وفي الآية كذلك بيانُ أثر هذا الجُرم والذنب على أهله الذين بنوه، ولم يذكرِ الله أثره على المؤمنين، لما كان من فضل الله للمؤمنين بكشفه وإزالته، فزال أثره في الواقع، ولكن بقي هذا الأثر على قلوب بنائه كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[2].



[1] سورة البقرة، الآية: ٩٣.
[2] سورة فاطر، الآية: ٤٣.

إضاءة

قضية مسجد الضرار هي جزءٌ من غزوة تبوك، فقد طلب المنافقون من النَّبيِّ ﷺ الصلاة فيه قبل توجهه إلى تبوك، فوعدهم أن يفعل إنْ قَفَلَ من الغزوة، ثمَّ إنَّ أبا عامر الفاسق أمر أتباعه فيه أن يعدوا فيه السلاح والرجال، ذلك أنه ذهب إلى هرقل قبلاً واستنصره على النَّبيِّ ﷺ فوعده ومناه، فأرسل إلى المنافقين يُقويهم أنه سيأتي بجيش يُقاتل به رسول الله ﷺ، فهذا رسول الله ﷺ ينهض وأصحابه إلى تخوم الجزيرة التي تُقابل الرومان، والمنافقون يريدون جلب الروم إلى داخل المدينة أو على تخومها حتَّى يحاربوا الإسلام من الداخل، ولذلك فمسجد الضرار جزءٌ من معركة الروم كما هي فنٌّ من فنون المنافقين الخبيثة، ثمَّ إنَّ الله قد كشف لرسوله ﷺ أمرَ هذا المسجد بعد قفلته من تبوك، قريباً من يوم أو يومين قبل وُصوله المدينة، فكان هدم المسجد ثمرة ربَّانيَّة أُعْطِيَتْ لرسول الله ﷺ ولأصحابه بعد طاعة النفير إلى تبوك، وهذه سنَّة الله مع الطائعين، يهديهم ربُّهم بإيمانهم، ويُعلمهم الخير، وهم في سبيل الطاعة، فالهداية لسبل الخير لها مواطن، فيها يتعرض المؤمنون لما يصلحهم، وهذا الذي يُقال له هداية التوفيق، فإنَّ المرء لا يُدركها حتَّى يعرض نفسه لمواطنها، ويُصلح قلبه ليكون محطةً مُلائمةً لها، وهكذا كما أنَّ الله كشف بغزوة تبوك صفات المنافقين وأقوالهم وأعمالهم، كذلك كشف له خُططهم وأماكنهم، ووصول قوة الإسلام إلى مرتبة انتكاسة الكفر إلى هذا الكيد الباطني الخبيث يدل على مقدار نعمة الله على رسوله والمؤمنين، وحين ذُكر لرسول الله ﷺ ما يُعانيه المؤمنون من الوسوسة في الصلاة قال: «**الْحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ**»[1]، وبهذا يظهر الفَرق بين تعامل الشيطان مع المجاهدين وتعامله مع غيرهم، فإنَّ جماعات الفتنة والبدعة، وجماعات الجهل وترك الجهاد لا يأبه لهم الشيطان، بل ربُّما رغب أولياء الشيطان بوجودهم، فهم لا يبذلون فيهم الكثير من الجُهد، لكن أمرهم مع الجهاد وأهله أمرٌ عظيمٌ من الكيد والحرب، فأنت تجد كيد الليل والنهار ضدَّهم، وربما يكون الرجل الواحد منهم، أو الفئة القليلة لكن تجتمع الدول عليه، وما ذلك إلاَّ لأنَّ الشيطان وجُنده يُدركون أنَّ أرواحهم زائلة مع وجود هذا الصنف من المؤمنين.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ

[1] «مسند أحمد» مسند عبد الله بن العباس ٢١٠٦. «سنن أبي داود» في باب رد الوسوسة ٥١٠٧. «سنن النسائي الكبرى»، الوسوسة ١٢. ١٠٤٠٢.

ٱلَّذِى بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

مقابل كلِّ هذا الخط المُنافق، وأمام كلِّ هذه الصفات التي كشفها الله للمنافقين هناك للمؤمنين جمعه الله تعالى في هذين الآيتين، وقد أكرم الله هذه الأوصاف وأهلها بأنْ افتتح هذا الوصف بأعظم إكرامٍ لها وهو أنَّ الله قد قبل دخولها في عبوديته، وأعْظَمَ لها المقام بأنْ صارت له وحده في عُلاه، فإذا كان هؤلاء المؤمنون قد باعوا نفوسهم لله فإنَّ الله قد اشتراها ليكون لهمُ الجنَّة.

هذه النُّفوس قد خلقها الله، فهو مالكها ابتداءً، ولكن اقتضت حِكمة الله تعالى أنْ يُركِبَ فيها نوازعَ التملك والهوى والشهوة، وهي نوازع تدفع الإنسان أن يكون خادماً لها، مُطِيعاً لأوامرها، فبهذا صار الإنسان ملكاً لها، فلما جاءت دعوة الحقِّ بأنْ تلتحقَ مِن هواها وشهواتها ورغباتها إلى حظيرة العبودية سارعتْ مجاهدةً لهذه المُعوقات، راغبةً في تحقيق رضا الله على رِضاها، ومشمرةً أنْ تستجيب لأمر الله على أوامرها، فبهذا كان هذا بيعاً لها.

ثم كان إكرام الله لها بعد أن وفقها أنْ صارت عابدةً له أنْ أعطاها كرامة عُظمى، ألاَّ وهي الجنَّة، وقد جاء في الحديث: «**لا يُدْخِلُ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»[2]، مع أنَّ العملَ سببٌ لدخول الجِنان كما قال تعالى: ﴿**وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ**﴾[4]. وآيات أخرى دالة أنَّ العمل سببٌ لدخول الجنَّة، فيكون معنى الحديث: «**لا يُدْخِلُ أَحَداً مِنْكُمْ عَمَلُهُ الجَنَّةَ**» أنَّ الجنَّة ليست مُقابل العمل، كما يُقال: «المبيع مقابل الثمن»، ذلك لأنَّ عبادة الله سبحانه وتعالى حقٌّ له، ويُقابل هذا الحقَّ أنْ لا يُعذب هذا الطائع كما في الحديث الشريف قوله ﷺ: «**يَا مُعَاذُ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: «**هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً**». ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: «**يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ**». قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ. فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟**». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**»[5]. فلم يَقُلْ الرسول ﷺ أنَّ حقَّهم الجنَّة، بل جعلَ حقَّهم أنْ لا يُعَذَّبُوا، فالجنَّة ليست ثمناً للعمل، بل هي نتيجة له، والعمل سببٌ لها، لأنَّ كلَّ ما يقع في هذه الحياة

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ١١١-١١٢.

[2] مسلم في «كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار» باب لا يدخلُ أحداً الجنَّة بعمله بل برحمة الله تعالى. حديث رقم: ٢٨١٧.

[3] سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

[4] سورة الطور، الآية: ١٩ / سورة المرسلات، الآية: ٤٣.

[5] البخاري في «كتاب اللباس» باب إرداف الرَّجُلِ خلفَ الرَّجُلِ. حديث رقم: ٥٩٦٧. أطرافه في: أطرافه ٢٨٥٦، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الدَّليل على أنَّ على من مات على التوحيد دخل الجنَّة قطعاً. حديث رقم: ٣٠.

الدُّنيا، وكلُّ ما يقع في الآخرة لا يكون إلاَّ بسببٍ، قد يعلمه الخلق، وقد يجهلوه، كما شأن الاصطفاء، فإنَّ الله اصطفى قلوباً، وهذا الاصطفاء لسببِ ما فيها مِنَ الاستعداد للخير، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقها على هذا المعنى، فإنْ سُئِلَ المرء: فما هو سبب اختيارها ليكون فيها هذا المعنى ليقع عليها الاصطفاء؟. فالجواب هو السكوت لأنه لا يُوجد أحدٌ مِن الخَلق يعلم حقيقة هذا الغيب، والشأن في ذلك كالشأن في الروح كما قال تعالى: ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾[1]، فالخلقُ لا يعلمون حقيقتها ولا ماهيتها، وكذلك بعض الأسباب لا نعرفُ حقيقتها ولا طُرق عملها، لكن اقتضت حِكمة الله تعالى أن لا يقع شيءٌ إلاَّ بسببٍ، فكانت طاعة العباد هي سبب دخولهم الجنَّة، لا لكونها حقٌّ لهم حين أطاعوا ربَّهم، لأنَّ حقَّهم كما جاء في الحديث: «**أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ**»، ثمَّ إنَّ الجنَّة تكون رحمةً من الله لهم كما في الحديث.

قوله تعالى: ﴿ **ٱشْتَرَىٰ** ﴾ لأنَّ النُّفوس بضاعة، وهي أغلى بضاعة في الوجود، ولابدَّ لصاحبها مِن بيعٍ كما في الحديث: «**كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمَوبِقُهَا أَوْ مُعْتِقُهَا**»[2]، ولما كانتِ الأشياء للإنسان كما قال تعالى: ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ** ﴾[3]. ولقوله: ﴿ **هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾[4]، كان لابدَّ لهذا الإنسان أن يكون لله تعالى، ولذلك فأول أمرٍ في القرآن الكريم هو قوله تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ** ﴾[5]. كما في سورة «البقرة»، وهي دعوةُ كلِّ الأنبياء، فحين يبيع المرء نفسه لله يُصبِحُ عَبْداً، وهو ببيع نفسه ظاهراً وباطناً، وفي سره وعلانيته، وفي صَحْوِهِ ونَوْمِهِ، وفي حياته ومماته كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾** ﴾[6]، وقد رُكب الإنسان على الفقر والحاجة، فهو أسيرٌ لهما مما يجعل منه عبداً، فإما عبودية لله، وإما عبودية لغير الله، ولذلك كان مِنَ الشرك أن يخضع المرء لأوامر هواه التي تُضاد أمر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ** ﴾[7]، فالمرء قد يكون عبداً لهواه كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾** ﴾[8].

---

1 سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

2 أحمد في «المسند» عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه. حديث رقم: ٢٢٨٠٠، ٢٢٨٠٦.

3 سورة الجاثية، الآية: ١٣.

4 سورة البقرة، الآية: ٢٩.

5 سورة البقرة، الآية: ٢١.

6 سورة الأنعام، الآيتان: ١١٢-١١٣.

7 سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

8 سورة القصص، الآية: ٥٠.

حين يكون المرء عبداً لله فهذا يعني أن يكون عبداً لواحدٍ لا عبداً لشركاء مُتشاكسين كما قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾[1]، وهذا الربّ رحيمٌ بعبده، لا يأمرهم إلاَّ ما فيه وُسعهم، وما فيه خيرهم، وهو حسبهم وكافيهم، لا يتخلى عنهم وقتَ حاجتهم، ثمَّ لهمُ السعادة في الدُّنيا والآخرة، وأما الآلة الباطلة فهي مُتشاكسة مُتضاربة، ستعذب مَن خضع لها، إذ كلّ إله سيطلب مطالبه، ثم حين السؤال لا يقضي حاجته كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾[2]، فهم في الدُّنيا غافلون عن مطالبهم، ويوم القيامة لهم أعداءً، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾[3]، وقال تعالى فيهم وعن صنيعهم بأوليائهم عند نزول عذاب الله عليهم في الدُّنيا: ﴿ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾[4]. وهذا المعنى كثيرٌ في كتاب الله تعالى.

فالمؤمنون علموا أنَّ هذه النُّفوس إنما خُلقت لتكون لله تعالى فباعوها، فقبل الله منهم صفقتهم فاشتراها، وكذلك الأموال هو الذي أعطاها لعبيده امتحاناً لهم كما قال تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةًۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[5]، فنجحوا في الامتحان فباعوها لله تعالى، وهذه الآية هي الوحيدة في القرآن التي يقدم الله تعالى فيها النُّفوس على الأموال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم ﴾[6]. وهذا لكرامة النُّفوس في هذا الموطن.

هذه الصفقة العظيمة الجليلة كان خُلاصتها أوضح ما يكون في قوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ ﴾[7]، وهذا دليلٌ لمن عَقَلَ أنَّ هذا الباب هو أعظم أنواع الولاية لله تعالى، وهو أقوى دليلٍ على صدق الإنسان في صَفقته مع مولاه، ولذلك فإنَّ المجاهدين هم أولياء الله حقّاً، وطريقهم هو أقرب الطُرق لتحصيل رضى الله تعالى، وأنَّ درجاتهم لن يبلغها العابد في نُسكه، ولا الصائم في صيامه إلاَّ على معنًى خاصٍ لا يمكن للمرءِ أن يأتيه حياته كلّها، ولذلك قال تعالى:

---

[1] سورة الزمر، الآية: ٢٩.
[2] سورة الأحقاف، الآيتان: ٥-٦.
[3] سورة فاطر، الآيتان: ١٣-١٤.
[4] سورة هود، الآيتان: ١٠٠-١٠١.
[5] سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
[6] سورة التوبة، الآية: ١١١.
[7] سورة التوبة، الآية: ١١١.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾[1]، بل إنَّ الصِّدِّيق لا يكون كذلك حتَّى يبذل وُسعه أن يكون على سبيل الجهاد وطلب الشَّهادة، ولا يُعرف عن صِدِّيقٍ أو وليٍّ في زمن رسول الله ﷺ إلاَّ وهو مجاهد لله تعالى، لكن الشَّهادة اصطفاءٌ آخرٌ لهؤلاء الأولياء.

في هذه الآية حين يُقدم الله معنى العقد بينه وبين المؤمنين، ثمَّ يجعل واقع هذا مُتمثلاً في صورة الجهاد والقتال، فهم يقتلون أعداء الله، ويُقتلون شهادةً في سبيل الله الذي في قلوبهم همّ رضى الله وتحصيل المراتب العالية في الجنان سلوك هذا السبيل، وكلّ عملٍ آخرٍ من أعمال النسك كالصلاة والصوم والذكر والدعاء والإخبات هي أعمال تندرج في مهمة الحياة الأُولى للمؤمنين، وهي الجهاد، فالجهاد هو العمل الذي أُخرجت هذه الأُمَّة من أجله، فهم إما عاملون به فعلاً، وإما يعدُّون له، وإما ردء لآخرين هم فيه، وخلال هذا العمل الذي وقفوا أنفسهم له هم عابدون ذاكرون كما سيأتي في الآية التالية من صفاتهم.

فعمل المسلم في هذه الحياة هو الجهاد، وأنه جنديٌّ لله تعالى لأنه عبدٌ له، وهو إما قاتلٌ وإما مقتولٌ كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾[2]، فهذه هداية القرآن لمن أرادها، وهذه طريق الولاية لمن في قلبه حبٌّ لحصولها وبلوغها، أما هؤلاء الذي يتعاملون مع الإسلام مجرد أفكارٍ جميلةٍ، يتمتعون في الحديث عنها، ويشعرون بصوابها أمام غيرهم، دون أن يفهموا أنَّ الإسلام عبودية لله، وأنَّ الإيمان به يعني أن يبيع المرء نفسه لمولاه، وأنْ يحضر نفسه لقتلٍ وقِتَالٍ، وهجرةٍ وشهادةٍ، وبلاءٍ وانتصارٍ، فهؤلاء مصيرهم غياب معنى الإسلام من القلوب، ولذلك فأنتَ لا ترى حديثاً في اجتماعاتهم وكُتبهم وبرامجهم عن طُرق تحصيل ولاية الله، ولا حديثاً عن الجنَّة، ولا حديثاً عن النَّار، بل لو أراد أحدهم أن يتحدث عن هذه الأبواب لَسخر منه كبراؤهم، ولاستهجنوا توجهه، ولذلك يقومون للصلاة وهم كسالى، ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً، ولا يُنفقون من أموالهم إلاَّ على شهواتهم وألبستهم وأهوائهم، ولو استنفرتهم قيادتهم لمكرمةٍ من مكرمات التضحية والجهاد حيث يخرجون فلا يرجع إلاَّ القليل لما وجدتْ نافراً إلاَّ القليل، لكنهم أصحاب ألسنةٍ طويلةٍ، يحسنون لَوْكَ الكلمات عن الفكر والتفكير، والعقل والعقلانية، ثم هم يستهزؤون في أحاديثهم عن هؤلاء الذين شُغِلَتْ قلوبهم بالطاعة والجهاد وتحصيل الجنان، ولا يأنفون من تسميتهم بالدراويش والبُله والمُغفلين، أما مَن يسهر ليله ضاحكاً، ويمضي نهاره قُطْرُبَ[3] الحركة، باحثاً عن زلات العلماء ليتخفف من أعباء العبادة فهم أصحاب الفهم والعقل!! وهذا سبيل مَن طمس الله على قلبه وعقله وهم لا يشعرون.

---

[1] سورة الحديد، الآية: ١٩.

[2] سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

[3] قطرب: القُطْرُبُ: دويبة كانتْ في الجاهلية، يزعمون أنها ليس لها قَرارٌ البتة؛ وقيل: لا تَسْتَريح نهارَها سَعْياً؛ وفي حديث ابن مسعود: لا أَعْرِفَنَّ أَحدكم جيفَةَ لَيْل، قُطْرُبَ نَهارٍ. قال أبو عبيد: يقال إِن القُطْرُبَ لا تستريح نهارها سَعْياً؛ فشَبَّه عبدُ الله الرجلَ يَسْعى

هنا ليطمئن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله، وليستيقن المُقبلون على الله بالجهاد والشَّهادة أنهم في عهدٍ وثيقٍ، وأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يضيِّعهم، فإنْ رجع النَّاس إلى أموالهم وأهليهم، وإنْ زادت تجارة التجار، وأموال الساعين، فإنهم هم مَنْ رَبِحَ وفَاَز، لأنَّ صفقتهم مع الله تعالى هو كما قال عن نفسه: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾[1].

فهذا عهده جلَّ في عُلاه قاله لعبيده في كُتبه، في التوراة والإنجيل والقرآن، فما عليكم إلاَّ أنْ تفرحوا أنتم دون غيركم بهذه الصفقة، لأنَّ وعد الله حقٌّ كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ ﴾[2].

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾[3].

إنَّ النَّاس يكتبون عُقودهم في أوراقهم، ويُسجلونها في حساباتهم، لكن هذا عقدٌ شريفٌ، رفع الله درجته بأنْ كتبه الله في كلماته التي أنزلها، ووالله الذي لا يحلف إلاَّ به إنَّ هذه الكلمات الربَّانيَّة لَتَهُزُ القلوبَ لَو كانت تعقل، وإنها لتهيِّج النُّفوس إلى النفير لَو كان فيها الخير، فربُّنا سبحانه وتعالى لا يكرهه أحدٌ، فهو الربُّ العظيم، وما سِواه خلقٌ له جلَّ في عُلاه، ثم هو يقول عن نفسه الكريمة: ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾، فهو سبحانه يُلْزِمُ نفسه هذا الالتزام الشريف الجليل العظيم، لأنَّ هذا الذي باع نفسه لله عظيم الشأن، جليل القدر، ويستحق أن يلقي عليه هذه الكلمات التي تحوي الوعد العظيم.

وهذا الوعد ليس كائناً هذا اليوم، بل هو وعدٌ سَرَى في تاريخ الأنبياء الذي فرض عليهم الجهاد، منذ موسى عليه السلام، وقد دخل فيه كلّ سلاسل الذهب من المجاهدين في سبيل الله تعالى مع كلِّ الأنبياء بعد ذلك، فكان وعدٌ عظيمٌ، وانتظم في كتبٍ عظيمةٍ، وحمله رجال عظماء، ثمَّ ما زال كتاب الولاية مفتوحاً يستقبل أسماء الذين يصدقون وعد الله، وتطير نفوسهم إلى الجنان، ثمّ إنْ سقطوا شهداء رأيتَ ـ والله ـ بسمات الاستبشار التي كانت كامنة في قلوبهم وقد ظهرت على وجوههم لما رأوا صِدق ما وعدهم الله به.

ثمَّ إنَّ هذا البيع لجميع المؤمنين، فكلّ مؤمنٍ قد باع نفسه لله، والله قد اشتراها منه، فكان القتال صفة لهم جميعاً لو كان أهل الإسلام يعقلون، فكيف بعد هذه الآية الصريحة في هذا المعنى يقول قومٌ إنَّ الجهاد عملُ طائفةٍ دون بقية النَّاس؟! ثمَّ كيف يجوز لقومٍ أن يقيلوا أنفسهم من هذا البيع فيذهبون ذات اليمين وذات الشمال ليتخذوا لأنفسهم أعمالاً بعيداً عن هذا السِلك الذي ينتظم فيه أهل الإيمان جميعاً؟.

نَهارَه في حوائج دُنْياه، فإذا أَمْسَى أَمْسَى كالاً تَعِباً، فينامُ ليلَتَه حتى يُصْبِح. «لسان العرب» لابن منظور. باب القاق. دار إحياء التراث العربي ببيروت (١٩٩٣م).

[1] سورة التوبة، الآية: ١١١.

[2] سورة فاطر، الآية: ٥.

[3] سورة التوبة، الآية: ١١١.

إنَّ هذه الأُمَّةِ قد قصَّرت في هذا كثيراً، حيث تركتِ الجهاد في سبيل الله، فصارت هذه الفريضة الربَّانيَّة قاصرةً على فئةٍ منهم، إذ حملها أهل الطائفة المنصورة، وهم مع قِلَّتِهِمْ يأتون بالخيرات العظيمة، ويُبطلون مقاصد المشركين في أُمَّةِ الإسلام، ويضيعون حركة التاريخ، فتفكرْ لو أنَّ أُمَّةَ الإسلام أخذت بهداية القرآن، وتحولت كلّها إلى أمر هذه الآية ﴿**يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ**﴾. كما كان الأمر زمن رسول الله ﷺ وبعده في زمن الخلفاء الراشدين وصدراً طيباً من الدولة الأُموية، حيث جاشت حركة الجهاد أمواج خيرٍ تجوبُ الأرض، وتسير حاملة راية الهداية ومشاعل النُّور، فتهاوت أمامها دول الكفر، وأزالت عن الأُمم شرَّ الطواغيت، فدخل النَّاس في دين الله تعالى أفواجاً، ثمَّ أمام هذا كلّه ما زال النَّاس يتساءلون: لماذا صِرنا إلى هذه الحالة مِنَ الهَوان؟! ولماذا صِرنا كالقصعة أمام اللئام؟!، ولماذا صِرنا نَهْباً لكلِّ أممِ الأرض؟! والعجب بعد ذلك من أجوبة البعض، فهذا رجلٌ يريد إحياء الأُمَّة بكلماتٍ ميتةٍ، وآخر يريد لها أن تقطع أنفاسها وهي تقرأ كُتب المفكرين!! وجماعة ترى أنَّ المشكلة في عدم تحقيق الأُمَّةِ مسائل الخلاف التي هي اختصاص العلماء، وآخرون يرون أنَّ المشكلة ذهنية فلسفية، وهكذا يضربون في التيه، ويتخبطون في الظلمات، وحالهم كحال الساقط في بحر الرمال كلما تحرك كلما ازداد غرقاً فيها، ووالله أنَّ معالم الكتاب أوضح مِنْ أنْ تكون خفية في هذا الباب، وشواهد التاريخ في بناء الأمم والدول والحضارات بيِّنة جليَّة لمن أراد الحقَّ، والعجب من هؤلاء أنهم يأتون إلى أسباب هلاك الأمم وتفرقها فيجعلونها سبباً للنهضة والإحياء، فتحول عندهم المرض إلى علاج، ولو رجعوا إلى كتاب الله تعالى وإلى صفات الصدر الأول الذين قامت عليهم قواعد الإسلام، ولو آمنوا حقّاً بمقولة الإمام مالك: «لا يصلح آخر هذه الأُمَّة إلاَّ بما صلح بها أولها»، ولو أخذوا بسنن الحياة في البعث والإحياء لَعلموا أنَّ هذه الأُمَّة لا تنهض إلاَّ بالجهاد، لأنَّ الجهاد حالة علمية تستعلي على بُنَيَّاتِ الطريق، وترتفعُ على المُهاترات الكلامية الفارغة، فتنتفذ إلى العلم الحقِّ، وهي حالة بعث للإرادة الخاملة، وفك للعقول والقلوب من أسر الجهالات العلمية وروابط النِّفاق والتخذيل، ولنصدق المقال فإنَّ ما يُقال لهم أهل الفكر والفقه والنظر في أُمتنا لم يفهموا معنى الجهاد، إذ ظنوه فِعْلاً ومهنةً، أي لا دخل له في البعث العلمي والعقلي والنفسي، فغفلوا عن معنى صياغة الجهاد، وكيف يصنعه مجاهداً في نفسه، ومجاهداً في علمه، ومجاهداً في إرادته، لأدركوا أنَّ هذا مع وُضوحه عِلْماً إلاَّ أنه يستغرق الحياة، ذلك بأنَّ أشقَّ تربيةٍ في الوجود هي تربية الجهاد، وأشقَّ سُبلِ الحياة هي سبيل الجهاد، ولو جرب النَّاس كيف يُدار الجهاد عَمَلاً، وكيف أنَّ ظرف الجهاد؛ رجالاً، وانتصاراً، ورضات وإخفاقات، وإدارة أزمات لَعلموا حقّاً قيمةَ هذا الفعل العظيم، بل الحياة العظيمة، لكن الأمور في نفوس القوم على غير هذا المعنى، لأنهم فهموا منذ زمنٍ أنَّ الجهاد مهنة قومٍ داخل دولة الإسلام هم الجنود، لهم أُجورهم وشاراتهم، أما هم وبقية المسلمين فلا دخل لهم فيه، فلما استقر هذا المعنى المُوغل في الجهل في النُّفوس، وصار أمر الحُكام إلى ما صار إليه من الردة والضلال والإفساد لم يستطِعْ هؤلاء إعادة

صِياغة الأُمَّة، ولا إعادة التكليف إليها، ولِضعف نفوسهم هم، وجُبنهم مِنْ تحملِ المسؤولية، ولجهل الكثير منهم قواعد الشرع في بناء الأُمم وإحيائها فإنهم ذهبوا إلى مهمات فرعية وجدوها سهلة ميسورة في الأمر، فهذا غارقٌ في الكتاب، وآخر قد تماهى عمله مع الواقع إلاَّ بتحسين رتوش وتزيينات، ولم يَقُمْ لأداء المهمة في قذف الأُمَّة أمام مسؤوليتها، وتحميلها واجبات الشرع التي هي عليها في قضايا الوجود والحياة إلاَّ أهل الجهاد، ولذلك كانت الصدمة عليهم كبيرة، فذهبوا يختبئون من آثارها، لأنها بحقٍّ أكبر مِنْ علومهم، وأكبر مِنْ هِمَمِهِمْ، فإنَّ الواحد منهم أقصى ما يمكن أنْ يبذله كلمة حقٍّ يتوقع أنْ يَنال منها الملامة، لأنَّ هذه الكلمة لا تُواجه أصل الباطل، ولا تُزلزل قواعده، ولا تسبُّ دينه الجاهلي، بل هي كلمة ضُربت على القشر الظاهر، ولم يَقُلْهَا صاحبها حتَّى اعتذر لها ألف اعتذار، ومهد لها القواعد والأصول أنه على دين الرجل، وأنه مِنْ أوليائه، وهو مِنَ المحبين له في السرِّ والعلنِ، فكيف لهؤلاء قبول صدمة الجهاد العالية، والتي هي قمة المُواجهة مع الطواغيت والجاهلية. وقد صدق ابن مسعود ﷺ حين قال: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَبِسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، إِذَا تُرِكَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ تُرِكَتْ السُّنَّةُ. قَالُوا: وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: إِذَا ذَهَبَتْ عُلَمَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ جُهَلاَؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ قُرَّاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَالْتُمِسَتْ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ»[1].

إنَّ الجهاد ثقافةُ حياةٍ، وعملُ أُمَّةِ الإسلام، وهو الفارق بين منهج السنَّة ومناهج البدعة، وهو محك القلوب حين يبين فيها المنافق من المؤمن، وها هو واقعنا يُثْبِتُ هذا كلَّه، إذ كلما أتى أهل الجهاد بأعمالهم الإيمانية تكشف حقائق النَّاس، وبان لهم ولغيرهم أين هم من آيات القرآن الكاشفة لمثل هذه المراتب، فوالله لو لم يكنِ للمجاهدين إلاَّ فضيلة تعرية النَّاس أمام أنفسهم لَكفى بما يقومون به فضيلة، إذ كيف لا يستحيي رجلٌ أو أقوامٌ يتحدثون عن الخلافة التي تُطبق على الأرض، وتكسر جُمُوعَ الكفر والشرك، ويصرخون ليل نهار بمآثر الرجال الذاهبين في صناعة التاريخ الماضي لهذه الأُمة مِنْ أبي عبيدة، وخالد، وصلاح الدِّين، وهم أجبن مَنْ يتحملوا ردة فِعل الجاهلية لما تألمت من ضربات المجاهدين في حدث أو حدثين؟!.

لقد عَلِمَ النَّاس مراتب أنفسهم، ومراتب قادتهم، فاستكان منهم مَنْ استكان إلى وليٍّ له، وإمامٍ يرتضيه يُبرر له الجبن والقعود، ويحسن له مقام القاعدين والخالفين، ويتقي بما له مِنْ لسانٍ حادٍ على أهل الإيمان ما يعلمه مِنْ نفسه أنه جبانٌ بخيلٌ لا يقدر على هذه المُواجهة الشديدة القاسية، ذلك لأنه دُعي منذ أول يوم إلى جماعةٍ يرى أنَّ أقصى ما تطلب منه أنْ يحضر محاضرة، أو يصرخ صرخة تُطالب بتحسين الحال، أو ترميم الطلاء المُتهالك في بناء الجاهلية، فجاء المجاهدون ليفرضوا على المسلمين إيقاع الموت والشَّهادة والابتلاء، فأدركوا أنهم ليسوا أهلاً لهذه المُواجهة الكبرى، فبدل أنْ

[1] «سنن الدارمي» بَاب تَغَيُّرِ الزَّمَانِ وَمَا يَحْدُثُ فِيهِ. (١/٧٥-٧٦) حديث رقم: ١٨٥-١٨٦. «مصنف بن أبي شيبة» (٥٩٨/٨) حديث رقم: ٤٨. «مصنف عبد الرزاق» (٣٦٠/١١) حديث رقم: ٢٠٧٤٢. «المُستدرك على الصحيحين» (٧٢٠/٥) حديث رقم: ٨٦١٧.

يشكروا للمجاهدين صنيعهم ذهبوا يرمونهم بشتى التُّهم دفاعاً عن أنفسهم حين علموا جُبنها وخوفها من قول الحقِّ ومدح الصالحين.

لصناعة الأُمَّةِ على معنًى جديدٍ، لابدَّ مِنْ إدراك مقومات هذه الأُمَّةِ في الصدر الأوَّل، ولابدَّ مِنَ النفاذ إلى الفعلِ الذي يمثل أرقى جامعٍ لحركة هذه الأُمَّةِ، وهو في نفسه عمل إرادةٍ مُتحررةٍ، تنطلق مِنْ عِلْمٍ مهدي مُوفَقٍ، فنحن في زمنٍ لا نبحث عن إصلاح طائفةٍ، ولا تغْيِّير فئةٍ، بل إنَّ المشكلة هي مشكلة أُمَّة، وقضيتها الأعظم تتعلَّق بإطارها العام، وصُورتها الكُلية في الوجود، وحين تتفاقم الأزمة إلى هذا المستوى يكون مِنَ الجهل الحديث عن الفرعيات، بل لابدَّ مِنْ قذفِ الأُمَّةِ أمام مسؤوليتها الكُلية، وهذا فِعْلُ العظماء في كلِّ الأُمم، فحين تتعرض أُممهم للإفناء، وحين تُواجه مشكلة وُجودية كُلية فإنهم يقذفونها إلى أقصى ما يُطلب منها، وعلى هذا الأساس تبدأ حركات الانبعاث والإحياء، وهذا ما تحتاجه الأُمَّة اليوم، إذ أنَّ كلّ ما قِيلَ لإحيائها هي دعوات سكونية داخلية، ولم يُدرك القومَ أنَّ الإصلاح الداخلي لهذه الأُمَّةِ إنما يكون بتحميلها مسؤوليتها أمام الوجود والآخر، لأنَّ سبب الفساد إنما هو الركود الذي ينشئُ العفن، وحين تتحرك الأُمَّة للآخر يكون صلاحها الداخلي، ولهذا يجب إزالة معوقات هذا الانبعاث وخاصةً هؤلاء الطواغيت ومَن سار معهم مِنَ السحرة الذين يُفسدون على النَّاس دينهم، وهذه القضية ليست عقلية تخط على الورق فتُثير جمالاً لغوياً أو خِطابياً، بل هي قضية عِلْمٍ قلبيٍّ وعملٍ إرادي، تتعلَّق قضاياها بأصول عامةٍ يُدركها العالِم والعامي، ويتفاعل معها المسلمون جميعاً لأنها تُلامس قلوبهم وكافة مستويات علومهم، فالذين يُعقدون القضايا السهلة، والذين يظنون أنَّ المشكلة تتعلَّق بآلة العقل من حيث قوته وضُعفه، أو بمستوى الفهم مِنْ حيث هو قاصر أو عامل هم مخطئون، ولذلك على العلماء والمجاهدين أنْ يَدفعوا الأُمَّة إلى الفِعْلِ المُهْتَدِي، وإلى الجهاد من خلال الأُصول الكُلية، وهي التي تُدركها كافة العقول، وتتفاعل معها جميع المستويات في الأُمَّة الإِسلامية، أي ربط الجهاد بالإسلام كما هو شأن القرآن، ووضع مخالفي الجهاد في إطار النِّفاق ومرضى القلوب، ورفض إدخال هذه القضية في مسائل الخلاف العلمي، لأنها ليست كذلك أولاً، ولأنَّ إدخالها في هذا الباب يعني أنْ يصبح الجهاد قضية نخبة استطاعت فَهْمَ دقائق الخلاف الذي يطرحه الطرفان، وهذا يُعطي للأكثرين حجة الهروب من الجهاد وتكاليفه، وهو ما يسعى إليه مخالِفُو الجهاد وأتباعهم من أصحاب الإرادة المريضة.

قضية الجهاد في القرآن واضحة صريحة، وهي معروضة بحروف أكبر من التأويل والتحريف، ولذلك سيسعى المُخالفون إلى إخراجها من هذا الأُفق القرآني العظيم إلى مضايق فقه النُخبة، وإلى ألفاظ المصطلحات الخاصة ليصيروا إلى مقالتهم الجاهلة: إنَّ الجهاد مسؤولية العلماء، فهم مَنْ يعرف مصالحه، وهم أصحاب القرار فيه، وبذلك يدفعون الأُمَّة خارج الحوار الحقِّ، ويُعطلونها مِنْ أنْ تتحمل مسؤوليتها التي كلَّفها الله به، ويرفعون القرآن الكريم وهدايته مِنْ حل هذه القضية، وهذا

مِنْ أبطلِ الباطلِ، ويزيده بُطْلَاناً أنَّ هؤلاء الذين يسحبون قضية الأُمَّة وجهادها هم الجزء الأكبر من المشكلة، وهم أُصول كثيرٍ من البلاء، لأنَّ مُعوقات الجهاد هي الجبن والبخل وانحطاط الإرادة، والحال يُنبئ أنَّ هذه الأمراض لها مستقرٌ في هؤلاء الذين هم أُجَرَاءٌ وموظفون عند الطواغيت والسلاطين، وهم أعجزُ مِنْ أنْ يخالفوهم في قضايا يسيرة، فكيف في أمرٍ هو في الأصل يتوجه إلى إزالتهم وعزلهم؟!.

الجهاد في سبيل الله تعالى فعلُ أُمَّةٍ، ومقررٌ في الفقه أنَّ الحاكم إذا قصر فيه عُزل، فكيف إذا حرمه أو قاتل مَنْ يدعو إليه؟! ولذلك هناك شقان للمشكلة إنْ رُفِعَ الجهاد في أصله مِن كونه فِعْل أُمَّة إلى فتوى؛ **أولاهما**: تتعلَّق بالمرتدين وهم طواغيت الحُكم. **وثانيهما**: كلّ منافقٍ عليمِ اللسان.

هذا لا يعني أبداً أنَّ الأُمَّةَ خالية مِنَ المسؤولية إذا استجابت لهذه اللعبة، فألقت حركة الجهاد على الحاكم والمُفتي بل هي كذلك تتحمل مسؤولية الإثم في هذا التقصير، لأنَّ واقعَ الحال أنَّ استجابتها كان فِعْل هوى لا تقوى، فهناك بُؤَرٌ جهادية كان قدرُ الله فيها أنْ بانَ لها فريضة الجهاد العيني، ومع ذلك هربت من هذا التكليف، ولذلك هي تعلم أنَّ الهوى هو الذي غلبها، لا تقوى الله وبذل الجهد في تحقيق مرضاته.

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾[1].

الجهاد في سبيل الله تعالى فِعْلُ ومهمةُ الأُمَّةِ جميعها، وهو صُورتها الجامعة في الوجود وفي الحياة، وهو هيكلها العام أمام الآخر، وأما صفات هؤلاء الأفراد الذين ينتظم بهم الجهاد في سبيل الله فهي هذه التي ذُكرت في هذه الآية العظيمة، ذلك لأنَّ الجهاد في سبيل الله تعالى بناءٌ ربانيٌّ، وفِعْلٌ إيمانيٌّ، لا يستقيم فيه إلاَّ أفرادٌ لهم خُصوصية البناء، ولهم أسرار العلاقة مع الله، لأنهم يعلمون أنَّ الجهاد ليس تنفيساً للحقِّ، ولا حركةَ ثأرٍ، ولا زفرةَ غضبٍ، ولا مرضاً مُدمراً، بل هو عبادة الله، يمضي فيه المجاهد لا يبتغي دنيا، ولا يسعى لمنصبٍ، بل هو ذاكرٌ قارئٌ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَـٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾[2]، فهم مع الآخر ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾. ولكنهم إنْ خلو لأنفسهم مع ربِّهم فهم عُبَّادٌ قانتون، يُراقبون الله في حَركاتهم وسَكناتهم، قلوبهم قوية لكنها ليست قاسية، بل هم تائبون مِنْ ذنوبهم إنْ أخطئوا، ولا يصرون على ذنوبهم استكباراً وإباءً كما يفعل الجاهلون، وهم عابدون لربِّهم، لهم صلاةٌ في العلن مع الجماعة، وصلاة في السرِّ في بيوتهم وفي ليلهم، ولهم أذكارٌ وأحزابٌ يمضون بها أوقاتهم إذا خلو لربِّهم، وهم تحت لواء الحمد وراء حبيبهم محمد ﷺ، لأنه هو صاحبُ هذا اللواء العظيم يوم

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١١٢.

[2] سورة القصص، الآية: ٨٣.

القيامة، وهم صائمون راكعون وساجدون وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، لا يتعدون أوامر الله، ولا يخفرون ذمته، ولذلك همُ المؤمنون الذي يستحقون وُعُودَ الله للمؤمنين.

فلهم قِسْمَتَانِ؛ **قسمةٌ** مع أعداء الله وفي الحياة وهي الجهاد، **وقسمةُ** تقويم الذات بالطاعة والإنابة والإخبات، فهذه صورتهم إنْ رأيتهم لا يُعرفون إلاَّ بها، والذين يحاولون صناعة المرء المسلم على غير هذه الصورة هم جهلة، لن يحققوا خيراً لهذه الأُمَّةِ، لأنَّ هذه الأُمَّةَ لا يصلحها إلاَّ الدِّين، ولا يقودها إلاَّ عُبَّادٌ ربَّانيُّون، ولا يجمع الله شملها إلاَّ على قومٍ لهم سرّ الإخلاص بينه وبينهم، لأنَّ هذا هو ما يصنع الحب في القلوب، وهذا الدِّين يقوم على الحبِّ لا على أمرٍ آخرٍ بين الجنود والقادة، وبين الأئمة والأتباع، ولا يكون هذا الحبّ إلاَّ بالعبودية الخالصة لله؛ بإقامة الفرائض واجتناب النواهي والمعاصي، وكثرة النوافل، حتَّى يحبّ الله فاعل ذلك، فإذا أحبه نادى الله جبريل أني أحبُّ فلاناً فأحبه فيحبه ثم يُوضع له القبول في الأرض[1]، وهذا هو الحُكم الذي قال الله في كتابه: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ ﴾[2]. فإنَّ هذا هو حُكم القلوب، وهو الإمامة التي يحصل بها الإتباع والبذل والتضحية.

إنَّ أمام العاملين لدين الله تعالى، وإمام المجاهدين هو رسول الله ﷺ، وهو إمامهم في الإخبات والعبادة، فقد قام رسول الله ﷺ حتَّى تفطرت قدماه، فقيل له: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذَنْبك وما تأخَّر؟ قال: «**أفَلا أحبُّ أن أكونَ عبداً شكوراً**»[3]، وهو الذي يبكي إذا سمع كلام الله تعالى. قال ابن مسعود ﷺ: قال لي النَّبيّ ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ**» قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ فقال: «**فإني أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا** ﴾ قال: «**امسِكْ**»، فَإذا عَيناه تَذرِفان[4].

[1] روى الشيخان عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا أَحَبَّ اللهُ العبدَ نادَى جبريلَ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبِبْهُ، فيُحبُّه جبريلُ فينادي جبريلُ في أهل السماء: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحِبُوهُ، فيحبُّه أهلُ السماء ثمَّ يُوضعُ له القَبول في الأرض**». البخاري في «كتاب بدء الخلق» باب ذكر الملائكة. حديث رقم: ٣٢٠٩. طرفاه في: ٦٠٤٠، ٧٤٨٥. مسلم في «كتاب البر والصلة» باب إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبه إلى عباده. حديث رقم: ٢٦٣٧.

[2] سورة مريم، الآية: ١٢.

[3] البخاري في «كتاب التفسير» باب: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾. حديث رقم: ٤٨٣٧. أطرافه في: ٤٨٣٦، ١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١. مسلم في «كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار» باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة. حديث رقم: ٢٨٢٠. طرفه في: ٢٨١٩.

[4] البخاري في «كتاب التفسير» باب: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾. حديث رقم: ٤٥٨٢. أطرافه في: ٥٠٤٩، ٥٠٥٠، ٥٠٥٥، ٥٠٥٦. مسلم في «كتاب صلاة المسافرين وقصرها» باب فضلِ استماعِ القرآنِ وطلبِ القراءةِ من حافظِهِ للاستماعِ والبُكاءِ عند القراءةِ والتَّدبُّرِ. حديث رقم: ٨٠٠.

ولقد كان حِرصه على هذا الأمر في أصحابه حين ينفرون في الجهاد كما في غير الجهاد، فعن أبي هريرة ﷺ قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ. فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ[1]. فَقَالَ: «**سِيرُوا هَـٰذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**» قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيراً، وَالذَّاكِرَاتُ**»[2].

وهذه هي صفة أصحابه ﷺ. فعن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْبَيْتَ نَشَرَ الْمُصْحَفَ فَقَرَأَ فِيهِ»[3]، وهذا عثمان ذو النورين يقول: «لو أنَّ قلوبنا طَهُرت ما شَبِعْنَا مِنْ كلام ربِّنا، وإني لأكرهُ أنْ يأتي عليَّ يومٌ لا أنظرُ في المصحف»[4].

وقِيلَ لِنَافِعٍ: «مَا كَانَ يَصْنَعُ ابْنُ عُمَرَ فِي مَنْزِلِهِ؟ قَالَ: لاَ تُطِيقُونَهُ: الْوُضُوءُ لِكُلِّ صَلاَةٍ، وَالْمُصْحَفُ فِيمَا بَيْنَهُمَا»[5].

إنها صفة الربَّانيَّة كما قال تعالى: ﴿كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾[6]. فهم ينتسبون له جلَّ في عُلاه، ولذلك إنْ أردتَ أنْ تعرفَ الفارق بين الُمهتدي وغير الُمهتدي، بين الُموفق وغيره فانظر إلى علاقته مع الله، وإنْ أردتَ أنْ تنظر إلى قُرْبِ ما ترى من الجماعات والفِئات مِنَ الحقِّ فانظرْ إلى صناعة كلِّ جماعةٍ وبناءَ الفردِ فيها، فحين ترى أقواماً يتدارسون كتاب الله في سرِّهم وعَلانيتهم، ويُنقبون فيه عن حقائق الحياة والوجود، ويقرؤونه قراءة الصَّحابة الُمهتدين، ويتدارسون سنَّة رسول الله ﷺ لحلِّ مشكلات أُمَّتِهم، وحين ترى عباداً لله، يتقربون إليه إخباتاً وعبادةً، ويتقُونه في أقوالهم وأعمالهم فاعلمْ أنَّ هؤلاء هم أهلُ الحقِّ، وها أنا أُخبركَ بتجربتي في هذا الأمر، وقد قدَّر الله لي أنْ طُفْتُ بكلِّ الفِرق والجماعات الُمعاصرة، فخبرتُ بعضها خبرةَ الُمشاركة، وخبرتُ بعضها خبرةَ الُمقاربة والاطلاع عن قُرْبٍ ومُصاحبةٍ، فوالله ما رأيتُ قوماً يُعظمون كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ كما يفعلُ المجاهدون في سبيل الله تعالى، ووالله إني ما رأيتُ مثلهم في العبادة والطاعة وقراءة القرآن، ولا رأيتُ مثلهم رغبةً في الشَّهادة ولقاءِ الله، ولا رأيتُ مثلهم شجاعةً وسماحةً وبذلاً للمعروف، ولا رأيتُ مثلهم غيرة على الدِّين والعِرض، ووالله إنَّ عالمهم خير عالمٍ، وعاميهم خير عاميٍّ، وعاملهم خير عاملٍ، ووالله إنَّ طالب الدُّنيا فيهم لا يلبث أنْ يكشفَ الله سِتره وينقلب على عقبيه، وأنَّ الجبان الذي يأتي

---

[1] جُمْدان بضمِّ أوَّله، وبالدال المهملة، على بناء فَعْلان: جبل بالحِجَاز بين قُدَيْد وعُسْفَان، من منازل بني سُليم. «معجم ما استعجم» لأبي عبد العزيز البكري.

[2] مسلم في «كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب الحثُّ على ذكر الله تعالى. حديث رقم: ٢٦٧٥.

[3] «كنز العمال» للمتقي الهندي. عن ابن أبي داود. حديث رقم: ٤١٠٨. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

[4] البيهقي في «شعب الإيمان» حديث رقم: ٢٢٢٣. الجزء الثاني، الصفحة ٤٠٩. طبعة دار الكتب العلمية (٢٠٠٠م). وهذه تكملة الراوي، الذي هو الحسن رضي الله عنهما. «وما مات عثمان حتى خرق مصحفه من كثرة ما كان يديم النظر فيه».

[5] «الإصابة في تمييز الصَّحابة» للعسقلاني. الجزء الرابع، الصفحة ١٥٥. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٩٩٥م). «الطبقات الكبرى» لابن سعد. «سير أعلام النبلاء» للذهبي. الجزء الثالث، الصفحة ٣٠٢. «تاريخ الإسلام» للذهبي. الجزء الخامس، الصفحة ٤٥٣.

[6] سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

إليهم ما يلبث أنْ يُعرى فيفر كالأرنب، وما رأيتُ فيهم إلاَّ قصصاً للشَّهادة تُبهرك، وحوادث للشجاعة تُعِيدُ لكَ سيرة السلف، فلله درهم من شبابٍ هُمُ النُّور في وسط الظلمة، وهمُ الهداية وسط الضلال، وهمُ السنَّة وسط البدعة، وكفى بهم صِدْقاً أنَّ قادتهم يموتون موت الشَّهادة، ويبذلون أكثر مِنَ الأتباع، فهل غيرهم كذلك؟!.

تأملْ وانظرْ، واصدقْ مع الله قبل أن يأتي الأجل وحينها: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾[1]، فلن ينفعكَ تزويقات الألفاظ، ولن يُدافع عنكَ فقيهٌ عليم اللسانِ جاهل القلب، ولن تستركَ كلّ حجج الجهل التي يُلقيها الشيطان على ألسنة القاعدين والخالفين.

انظرْ إلى ما أنتَ فيه وأنتَ مقيمٌ مع الدُّنيا وبِدَعِ الأقوال والجهالات، فهل ترى دَمْعاً لعينيكَ حين تقوم بين يدي الله؟! وهل تحس بكلام القرآن يُلامس قلبكَ؟! وهل تحس بندمٍ شديدٍ إنْ فاتك قيام الليل؟ وهل تحسد الشهيد حين يمشي إلى ربِّه وتتمنى أنْ تكونَ مكانه؟ وهل أنتَ في ميزان الأعمال تُدرك قول الحبيب المصطفى ﷺ: «**لأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»[2]. إنْ لم تكن كذلك فكيف ترضى قلبكَ حَكَماً في ذروة سنام الإسلام التي هي أعظم الامتحانات بين حبِّ الآخرة وحبِّ الدُّنيا؟!.

اسلكْ نفسكَ مع المجاهدين، وادْفَعْهَا لمواطنِ الموتِ ثمَّ تأمل كيف سيكون قلبكَ مع الله بعد ذلك، وكيف ستكون قوالاً للحقِّ غير هيَّابٍ، وكيف ستُجاهدُ نفسكَ في كلِّ لحظةٍ ومع كلِّ مُنْعَطَفٍ، وستذهب معِ كلِّ هذه اللحظات إلى كتاب الله تتطلب الدواء الشافي، وحينها ستقرأ كتاب الله تعالى قراءةً جديدةً، وستعرف معانيه التي تجيبُ على ما أُشْكِلَ عليكَ، فتعيش في عالمٍ من المعاني الأُخروية، ويُصْبِحُ لكَ الذوق الذي كنتَ تقرأ عنه عند الصَّحابة ولا تُدركه، ذلك لأنَّ هذا الكتاب لم يُنَزَّلْ في بيئةٍ ميتةٍ باردةٍ، ولا على قلوبٍ سكنتْ إرادتها، بل نزل هذا الكتاب في بيئةِ الجهادِ ونورهِ وحياتهِ، ولن تُدْرَكَ معانيه إلاَّ في بيئته.

لقد قال الأقدمون: «إِنَّ هَذَا نَزَلَ بِحُزْنٍ فَاقْرَؤُوهُ بِحُزنٍ»[3]. فظننا طويلاً أنَّ معنى الحزن، هو حزن الصوت والترتيل، أو حزن التخشع، ولم نَدْرِ أنَّ معانيه لا تُدْرَكْ في القلوب إلاَّ إذا خاضت حياة القرآن وبيئة القرآن، ألاَ وهي بيئة الجهاد والابتلاء.

خصوم المجاهدين يكذبون عليهم، فبعضهم يتهمهم بالجهل، وأنهم شباب لا عِلْمَ عندهم، وهذه والله كذبة بَلقاء يعرفها كلّ مَنْ خَبَرَ المجاهدين وخصومهم، لأنَّ خصومهم إما مشغولٌ بكتب الآخرين من أصحاب الفكر الذي لا يقوم على أساس الكتاب والسنَّة، بل هم يفتقرون كتب

---

[1] سورة العاديات، الآية: ١٠.

[2] مسلم عن أبي هريرة ﷺ في «كتاب الذكر و الدعاء والتوبة والاستغفار» باب فضل التهليل والتسبيح. حديث رقم: ٢٦٩٤.

[3] المتقي الهندي في «كنز العمال» برقم: ٧٩٨٦. ونسبه إلى الرسول ﷺ، وقد رواه من طريق ابنُ مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

العلمانيين أو أنصاف العلمانيين، ويستهزؤون بالكُتب الصفراء كما يُسمُّونها، ولا يعرف أحدهم ما في الكتاب الكريم إلاَّ بما يستشهد به هؤلاء في قضايا عامة لا يعرفون بواطنها وما فيها من الضلال حين يقولها هؤلاء المُفكرون، وأما الذين يزعمون إحياء السنَّة والعمل بها، ويدَّعون الانتساب للسلف فهم أبعدُ النَّاس عن هذه الدعاوى إلاَّ مَن التحق بحبِّ المجاهدين والدفاع عنهم، لأنَّ هؤلاء مِنْ أجهلِ النَّاس في إعْمَالِ فقهِ الكتابِ والسنَّةِ في الواقع المُعاصر، إذ لا شيءَ عندهم إلاَّ تقليد الأقدمين في أحكامهم على قضايا زمانهم، وأما قضايا العصر - صغيرها وكبيرها - فهم لا عِلْمَ عندهم فيها البتة، بل هم جهلة أغبياء، يُرددون ما يقوله الآخرون كالبَبغاوات، وأقصى ما ينطقونه هو التهديد بسيف السلف والعلماء، ولو سُئِلَ أحدهم عن دليلِ ما يقول من الكتاب والسنَّة لما وجدتَ إلاَّ ما قاله الأقدمون من أدلة في مسائل عصرهم لا مسائل عصرنا، وهذا مِنْ أعظم الجهل الذي يقع فيه أهل عصر.

أما ما تسمعه من إعلان التحدي الذي يقوله البعض هنا وهناك للمجاهدين بأن يظهروا للمناظرات[1]، فهذه مهزلة المهازل لأنه حال هؤلاء المتحدِّين كقول الشاعر:-

وَإِذَا مَا خَلاَ الجَبَانُ بَأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَه وَالنِّزَالاَ[2]

فهو يعلمُ أين علماء هؤلاء القوم، فهل بقي واحدٌ من هؤلاء حُراً طليقاً يستطيع أنْ يجلسَ كما يجلس خصومهم قد نفش ريشه ليصرخ ويهز سيفه؟! بل هل يستطيع المجاهدون في زماننا أن يُدافعوا عن أنفسهم أمام الآلة الإعلامية الجاهلية في الكذب والتزوير عليهم؟!.

أما ما تسمعه من حوارات داخل السجون، فهذه والله مهزلة لا يقولها إلاَّ مَنْ سقط برقع الحياء عن وجهه، ثم ما ظننتُ أنَّ امرءاً في الخلق قط يقل حياؤه حتَّى يخرج للناس ليقول: ناظرنا القومَ داخل السجون فبانَ جهلهم وضعفهم، فسبحان مَنْ خَلَقَ الصفاقة في الخَلْقِ ثمَّ جعل رجالها الأبرز من يزعم الانتساب للعلم والفقه والدِّين.

أما التهمة الثانية ضدَّ المجاهدين فهي قسوتهم وغِلظتهم، وهذه أكذب من الأولى، بل هي والله لا يقولها إلاَّ المنافقون بأعيانهم، ولا يطلقها إلاَّ أبواق أهل الردة، لأنَّ هؤلاء لا يرون قسوة خصومهم، ولا يُبصرون ما يفعله المجرمون بالمجاهدين وأهلهم وذويهم، ولا ينظرون إلى قسوة

---

[1] من قصيدة «وإذا ما خلا الجبان بأرض» من الخفيف. لأبي الطيب المتنبي.

[2] لله درك يا شيخنا الحبيب، والله أنك تتكلم عن أمرٍ واقعٍ، وكأنك متابعٌ لما يحدث، وأنتَ خلف الأسوار، محروماً من كلِّ ما يربطك بالعالم الخارجي.. ثبتك الله على الحقِّ، وعجل بفك أسرك، وجميع إخوانك الموحِّدين. فلقد قام أحد أقزام آل سعود بالظهور على شاشتهم «المجد» العميلة المدعو عبد العزيز الحُميدي زاعماً الرد وتفنيد ما جاء في بعض كُتبك، وكتب الشيخ أبي محمد المقدسي - فك الله أسره - وهو يصيح بأنه مستعدٌ للمناظرة، مع علمه أن أصحاب الكتب يقبعان بسجون الكفرة والمرتدين. فيا لها من شجاعة اتصف بها هذا الخائب. فلا أدري أين كان لما كان الشيخان طليقان! مع العلم أنَّ رسائل الشيخان مرَّ على صدورها قُرابة ربع قرنٍ. فإلى المشتكى من أدعياء العلم في زماننا.

كلامهم في المجاهدين، لكنهم يتباكون نفاقاً على مجرمٍ لم يَأْلُ جُهْداً في تعذيب المسلمين، ويرفعون عقائرهم على مركز كُفْرٍ وسَلْخٍ لجُلُودِ المسلمين إنْ أصابه المجاهدون بتوفيقٍ مِنَ الله تعالى.

هذه السجون قد امتلأت بالمظلومين في بلاد المسلمين، فهل سمعتَ واحداً من هؤلاء المنافقين يبكيهم أو يذكرهم؟! بل هل سمعتَ واحداً منهم يهتم بشؤون عائلاتهم وأطفالهم؟!.

وها هي الأيام تحمل كلَّ يومٍ خبراً عن عشرات القتلى من المسلمين المظلومين فهل رأيتَ لهم من هؤلاء المنافقين باكين؟!.

لكن تأملْ لو قُتِلَ مجرمٌ، أو أُصِيبَ طاغية كيف يُسارعون إلى الصراخ ضدَّ المجاهدين، أما إنْ وقعَ خطأٌ مِنَ الأخطاءِ على يدِ المجاهدين فهناك والله تتفجرُ القاذورات مِنْ كُلِّ هذه الأفواه المجرمة، فمَن هو قاسي القلب، ومَن هو الرحيم بأُمَّةِ الإسلام؟!.

لِيُعْطَى للمجاهدين فرصة كما يُعطى للآخرين في الشرح والإبانة، سواء كان في مسائل العلم أو في الحوادث العملية، حتَّى يعرف النَّاس الحقائق، أما أنْ يكون الحال هو هذا الواقع من الميزان الملعوب، ثمَّ يتهم المجاهدون بالجهل والقسوة، فهذا إنْ قاله المرء فإما أنْ يكونَ منافقاً بُوقاً للكافرين، وإما أن يكون جاهلاً مغفلاً لا بصرَ له في الحياة، فوجبَ عليه السكوت، وإلاَّ فهو مجرمٌ مع المجرمين، مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾[2].

هناك علاقات فِطرية في الخَلق، كالأُبوة والبُنوة والأُمومة والعُمومة والخَؤولة والعَشائر، وهذه العلاقات تُنشئ سلوكاً خاصاً معها دون سائر النَّاس، وكلما كانت صلات النَّسب أقرب كان لها وضعٌ مميزٌ عن غيرها، والشرع أقرَّ هذه الأمور لقوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ ﴾[3]، وقدَّم هذه العلاقة على علاقة النُّصرة والهجرة في مسائل مُتعددة كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

---

[1] سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

[2] سورة التوبة، الآيات: ١١٣-١١٦.

[3] سورة الأحزاب، الآية: ٦.

بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ ﴿٧٥﴾ ﴾[1]، ومع هذا فقد جعل عاملَ الإيمان عاملاً مهماً في قضايا كثيرة، وخاصة في السلب إنْ عُدِمَ، أي إنَّ غياب الإيمان يعطل كثيراً من الصلات، وأما وجوده فإنه لا يُلغي ولا يقدَّم على غيره إنْ وُجِدَ، فعدم الإسلام يُلْغِي الإرث لقوله ﷺ: «**لاَ يَرِثُ الكَافِرَ الْمُسْلِمَ**»[2]، فالكفر يحجبُ الإرث حَجْباً كُلياً عن الوارث، أما هل يرث المسلم الكافر؟، فهذه مسألة خلافية، والذي أُرجحه أنه يرثه، وهو قول معاوية ﷺ، واختيار بعض أهل العلم[3]، وأما حديث: «**لا يَتَوَارَثُ أَهْلُ مِلَّتَيْنِ شَتَّى**»[4]. فهو من أغلاط الرواة كما هو الصحيح، وهو قول الدارقطني رحمه الله في «العِلل»، إذ روى بعضهم على المعنى حديث: «**لاَ يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُسْلِمَ**»، وكذلك لا يؤدي الدية إلى الولي المحارب إن قتل مسلم مسلماً وكان أولياؤه محاربين لقوله تعالى: ﴿**فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ**﴾[5]، ولم يذكر الدية.

وهذه العلاقات تُنشئ محبة خاصة بين أهلها، ولكن لما كان هذا المجتمع يقوم على الإيمان، وترسخت روابطه على أساسه وأساس الهجرة والنُّصرة، كان أمره سبحانه وتعالى بعدم اتخاذ ما هو ديني سبيلاً لهذه القضايا الخاصة، ومن ذلك الاستغفار، وقد تقدم هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾** ﴾[6]، فكان النهي

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٧٥.

[2] أحمد في «المسند» حديث رقم: ٢١٧٠٥، ٢١٧١٠، ٢١٧١٧، ٢١٦٤٩، ٢١٦٦٣. وابن خُزيمة في «صحيحه» حديث رقم: ٢٩٦٤. طبعة المكتب الإسلامي ببيروت (١٩٩٢م). والبيهقي في «السنن الكبرى» حديث رقم: ١٢٣٥٥. طبعة دار الفكر ببيروت (١٩٩٦م). والنسائي في «سننه الكبرى» حديث رقم: ٦٣٣٤، ٦٣٣٥، ٦٣٣٦. طبعة دار الكتب العلمية (١٩٩١م). وابن أبي شيبة في «مصنفه» حديث رقم: ٢٧١٧٧، ٢٧١٨١. طبعة دار الفكر (١٩٩٤م). وأبو داود الطيالسي في «مسنده» حديث رقم: ٦٣١. طبعة دار المعرفة ببيروت. والدارقطني في «سننه» حديث رقم: ٢٩٨٧، ٣٩٨٢. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (٢٠٠٣م). والطبراني في «المعجم الأوسط». وفي «المعجم الكبير» حديث رقم: ٣٩١. طبعة مطبعة الزهراء الحديثة.

[3] قال إسحاق بن راهويه يرث المسلم الكافر، ولا يرثه الكافر، وروي ذلك عن معاذ بن جبل، ومعاوية بن أبي سفيان، ومحمد بن الحنفية «المنتقى شرح الموطأ» لسليمان الباجي المالكي. «معالم السنن شرح سنن أبي داود» للخطابي. الجزء الرابع، الصفحة ٦٣. طبعة دار الكتب العلمية ببيروت (١٤١١/١٩٩١م).

لأَبِي دَاوُدَ: اخْتَصَمَ أَخَوَانِ إِلَى يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ - كان ثقة فصيحاً بصري الأصل، وكان قاضياً بمدينة مرو - يَهُودِيٌّ وَمُسْلِمٌ فِي مِيرَاثِ أَبِيهِمَا فَوَرَّثَ الْمُسْلِمَ فَقَطْ وَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو الأَسْوَدِ عَنْ رَجُلٍ عَنْ مُعَاذٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الإِسْلاَمُ يَزِيدُ وَلاَ يَنْقُصُ**».

الجمهور على أن المسلم لا يرث الكافر، وقال جماعة: إنه يرث الكافر لحديثي: «الإسلام يزيد ولا ينقص». و«الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه». مستفاد من كتاب: «التاج الجامع للأصول في أحاديث» ومعه: «غاية المأمول شرح الجامع للأصول» للشيخ منصور علي ناصف. الجزء الثاني، الصفحة ٢٥٢-٢٥٢. طبعة دار الفكر ببيروت (١٤٠١/١٩٨١م).

انظر كذلك «الجامع للأصول في أحاديث الرسول» لابن الأثير الجزري. الجزء التاسع، الصفحة ٦٠٤.

[4] أحمد في «المسند» حديث رقم: ٦٦٦٤، ٦٨٤٤. أبو داود في «سننه» - «معالم السنن شرح سنن أبي داود» للخطابي. حديث رقم: ١٣٠٢. والبيهقي في «السنن الكبرى» حديث رقم: ١٢٣٦٠، ١٢٣٩٥، ٢١٠٧٠. والدارقطني في «سننه» حديث رقم: ٤٠٠٠. وابن ماجه في «سننه» حديث رقم: ٢٧٣١. وعبد الرزاق في «مصنفه» حديث رقم: ٩٨٥٧، ٩٨٦٣، ١٩٣٠٥، ١٩٣٠٨.

« **لا يَرِثُ المؤمنُ الكافرَ، ولا الكافرُ المؤمن**» عند البخاري. حديث رقم: ٤٠٣٢.

[5] سورة النساء، الآية: ٩٢.

[6] سورة التوبة، الآية: ٩٤.

هنا عنِ الاستغفار للمشركين إنْ بانَ كُفرهم وشِركهم حتَّى لو كانوا أُولي قربى تميل النَّفس لمحبة الخير لهم، وهذه الآية تنهى عن الاستغفار مُطلقاً لهم، أي أنها تنهى عن طلب المغفرة، لأنَّ هذا الاستغفار في حقيقته غير نافع عند الله تعالى، فلو استغفر المرء للمشرك فلن يغفر الله له، وهي تنسخ ما فُهِمَ مِنْ جواز الاستغفار لهم في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[1]، وهذا نسخٌ معروفٌ في القرآن، أي نسخُ الفَهْمِ حتَّى لو لم يكنِ النص يُفيدُهُ، كما وقع في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾[2]، فقد فَهِمَ الصَّحابة ﷺ منها أنهم معذبون بما تتحدث به نفوسهم حتَّى لو لم يعملوه، فنسخ الله هذا الفهم بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[3]، فالصحيح أنَّ الآية لا تُكلفهم ما فهموا منها، لكن لما فهموا منها ذلك جاء نسخ هذا الفهم، ذلك بأنَّ الحساب غير العقاب، والله أعلم.

لكن ههنا مسألة، وهي هل يجوز الاستغفار للمشرك في حياته قبل موته على الشرك؟ ذلك بأنَّ الآية تُبَيِّنُ أنَّ إبراهيم عليه السلام كان يستغفر لأبيه في حياته، وكما قال تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾[4].

والجواب: نعم، لأنَّ الاستغفار دعاءٌ بالتوبة، وهي ممكن الوقوع ما دام الرجل حيّاً، ولذلك يجوز الاستغفار لهم في حياتهم، فإنْ ماتوا على الشرك مُنِعَ الاستغفار لهم، ولا يُقال: إنَّ استغفار إبراهيم عليه السلام كان له سببٌ خاصٌ وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾[5]، ذلك أنَّ هذا الوعد لو كان غير جائزٍ لمنعه الله منه، فإنَّ الله سبحانه وتعالى لا يُقِرُّ أنبياءه على أمرٍ لا يرضاه، فقد عقد رسول الله ﷺ صُلْحَ الحُديبية، ثم أمره الله تعالى بعدم إرجاع المُهاجرات إلى أهليهم المشركين كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[6]. وكذلك ما وقع للنَّبِيِّ ﷺ من فداء أسارى بدر كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا

[1] سورة التوبة، الآية: ٨٠.
[2] سورة البقرة، الآية: ٢٨٤.
[3] سورة البقرة، الآيتان: ٢٨٥-٢٨٦.
[4] سورة مريم، الآية: ٤٧.
[5] سورة التوبة، الآية: ١١٤.
[6] سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[1] ، فوعدُ إبراهيم عليه السلام لأبيه كان صحيحاً، ولذلك أذن الله تعالى له بالوفاء به، فيكون قوله تعالى: ﴿ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾ وصفٌ لا مفهومَ له.

أما قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[2]. فهذا يدل على أنَّ المرء إنْ مات كافراً على الظاهر، فهو كافرٌ في الباطن ولا يجوز التوقف في ذلك، وحينها يجب تسميته كافراً والحُكم عليه بالخلود في جهنَّم، وأما قولهم: «لا نحكم على أحدٍ بجنَّةٍ أو نارٍ». فهذه تُعمل لأهل الإسلام لا لغيرهم من الكفار.

وأما قوله: ﴿ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ فهي دليلٌ على الإجماع الذي يحكيه الفقهاء وهي أنَّ كلَّ كافرٍ محاربٍ في الأصل، إلاَّ أنْ يدخل في عقدٍ مع المسلمين، وأما ظن البعض أنَّ وصف المحارب يُقابل كلمة «المدني» كما هو مصطلح أهل العصر فهذا جهلٌ بلغة الفقهاء، وهو من باب حمل كلام العلماء على مصطلحات أهل العصر، بل على قوانينهم في التفريق بين المدني والمقاتل، ولذلك فقول أهل العلم عن دار الكفر أنها دار حرب يعني أنَّ كلَّ كافرٍ فيها هو محاربٌ سواء كان مقاتلاً أم غير مقاتل، وفي الآية أنَّ كلَّ كافرٍ هو عدوٌّ لله، سواء كان معاهداً أو غير معاهدٍ، لكن حِل نفسه وماله إنما يكون بالحرب وهو أنْ لا يكون معاهداً أو ذِمياً أو مُستأمناً.

ولو كانت مسائل العلم تخضع لطُرقِ جهلةِ هذه الأيام لَكان قوله: ﴿ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ دليلاً أنَّ كلَّ كافرٍ هو عدوٌّ مقاتلٌ ومحاربٌ، لأنَّ كلمة عدوٍّ هذه الأيام لا يُطلقها النَّاس إلاَّ على المُقاتل، لكن مسائل العلم لا تُؤْخَذُ بهذه الطُرق الجاهلة التي يزعمها البعض، كما يفعلُ أحدهم من تسمِّية الكفار إخواناً أخذاً من قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[3]. وغيرها من الآيات التي تتحدث عن أُخوة النسب بين الأنبياء وأقوامهم، فلا يوجد أحدٌ من أهل الأرض مسلمٌ كان أو غير مسلم لو سُئِلَ عن رجلٍ كافرٍ له إخوة مسلمون أو العكس ينفي هذه الأخوة على هذا المعنى، هذا مع أنهم يقرؤون قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[4]، و«إِنَّمَا» كما يقول أهل المعنى أداة حَصْرٍ وقَصْرٍ، أي أنها تجعل الأُخوة قاصرةً على معنى الأُخوة الإيمانية، وهذه ولا شك أُخوة خاصة، فقولهم: «إخواننا النصارى» إنما يقولونه على معنًى باطلٍ، يُوجب هذا المعنى علاقة ولاء اتخذوها بديلاً عن علاقة الإيمان كالولاء على أساس الوطن والقُطر.

---

[1] سورة الأنفال، الآيتان: ٦٧-٦٨.
[2] سورة التوبة، الآية: ١١٤.
[3] سورة الأعراف، الآية: ٦٥ / سورة هود، الآية: ٥٠.
[4] سورة الحجرات، الآية: ١٠.

والقصد هو بيان انحراف هذه الطريقة في الاستدلال، إذِ الواجب تصور المسألة على حقيقتها قبل الحُكْمِ عليها، أما اتخاذ الألفاظ العامة وسيلةً لإدخال الباطل فيها فهذه طريقة أهل الزندقة في تحريف كتاب الله تعالى والتلعب فيه.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ... ﴾[1]. دليلٌ على أنَّ شرائع الأنبياء السابقين إذا ثبتت في الكتاب والسنَّة فإنها شريعة لنا ما لم تُنسخ، ذلك بأنَّ النَّبيَّ ﷺ اقتدى بإبراهيم في استغفاره لأبيه لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[3]، وعدم القول بأنَّ شريعتهم شريعة لنا مبطلٌ لمعنى الاعتبار في ذِكر أخبارهم في الكتاب والسنَّة، ومَنْ تأملَ أخبارَ الأُمم السابقة والأنبياء السابقين في الكتاب والسنَّة يجد أنَّ عامتها يدور حول أمور لا تنسخ كالدعاء والعبادة والتوحيد، أو حول أمور قصص الأنبياء في الدعوة إلى الله في أقوامهم، ولقد وجدتُ لأحدهم كلاماً غريباً لا ينبغي أن يُقال، فهو في ردِّه على المحتجين بعمل يوسف عليه السلام وزيراً عند الملك الكافر يقول: بأنَّ هذه شريعة منسوخة، مع أنه يُقرر أنَّ عمل الوزير اليوم في ديوان ملكٍ أو حاكمٍ كافرٍ هو كفر، وعلى قاعدته هذه فإنَّ ما كان كفراً في زماننا لم يكن كفراً وشركاً في زمنٍ يوسف عليه السلام، وهذا غلطٌ شنيع لا يجوز لأحدٍ أن يقوله، لأنَّ الكفر لا يُنسخ، وما كان كفراً في زمن آدم عليه السلام هو كفرٌ وشركٌ إلى يوم القيامة، ورد أمثال هذا على جهالات أهل العصر في جواز تولي الوزارة في الدولة الكافرة لا يكون بالغلط، فإنَّ الرد الباطل يقوي المردود عليه ولا يُبطله، والصحيح أنَّ الذين أجازوا تولي الوزارة اليوم للمسلم في الطوائف المُرتدة استدلالاً بما فعله يوسف عليه السلام هم أبعد النَّاس عن الفقه، لأنَّ هؤلاء يُعلقون الأحكام على الألفاظ دون المعاني، وكيف لا يكونون كذلك وأكابرهم هم الذين قالوا بجواز تسمية الكفار إخواناً مُطلقاً استدلالاً بجواز تسمية المسلم لأخيه الكافر: أخي، فكل هذا مِنَ الجهل بتحقيق المناط، ومع ذلك فيزعمون أنهم فقهاء وعلماء، وغيرهم جهلة.

اسم الوزارة ليس علة للحُكم، لأنَّ معناه يختلف مِنْ حالٍ إلى حالٍ، فقد يكون هذا الاسم وصفاً لمجرد عملٍ من أعمالِ الإجارة، وأشبه معنى له ما كان يُسمى قديماً بوزارة التنفيذ، ولقُربه من معنى الإجارة أجاز بعض الفقهاء تولية الكتابي لها، لأنه لا ولاية له فيها على المسلمين، وقد يكون الاسم وصفاً لما هو أعظم من الإجارة، إذ يُفَوَضُ له إجراء الأحكام والاجتهاد فيها في بابٍ من أبواب الحياة، كالاقتصاد والمال، وهذه قد أجمع أهل العلم على عدم جواز تولية الكافر فيها لأنَّ معنى الولاية فيها بين ظاهر، بل يكون فيها ما هو أعظم من ذلك من اختيار الأحكام والأقضية التشريعية،

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١١٤.
[2] سورة النحل، الآية: ١٢٣.
[3] سورة البقرة، الآية: ١٣٠.

فلابدَّ من تحقيق معنى الوزارة التي يُسأل الفقيه عنها لِيُبَيِّن حُكْمَ الله تعالى، فوزير الأوقاف الذي عمله يقوم على إدارة المساجد وأعمالها لو جُرِدَ من المعنى القانوني المُعاصر لعمل الوزارة لَكان عمله إجارة في بابٍ مشروعٍ، ومثله وزير الصحة ووزير المواصلات، وأمثال هذه الوزارات التي يقوم أصل عملها على فِعْلٍ لا معصية فيه، لكن الأمر ليس كذلك في المعنى الدستوري لكلمة الوزارة، لأنَّ المسؤولية بين الوزراء اليوم مسؤولية تضامنية، فإنَّ أيَّ وزيرٍ لأيِّ وزارةٍ مِنَ الوزارات هو مسؤولٌ مباشرٌ عن أيِّ تشريعٍ تؤمنُ به أي وزارة أُخرى، وعندهم لا تصح ولايته لهذا العمل إلاَّ إذا آمن بسياسة الحكومة كلِّها، وبما تؤمن به من تشريعات، فوزير الأوقاف ووزير الصحة لا تصح ولايته في أداء عمل وزارته إلاَّ إذا آمن بتشريعات الحكومة في وزارة العدل ووزارة الخارجية، هذا أولاً، وأما الأمر الثاني، فإنَّ الوزير ـ أيّ وزير ـ يجب عليه دستورياً أداء القسم الدستوري الذي يُوجب عليه الإيمان بالدستور وأحكام القانون في البلد الذي يتولى فيه الوزارة، والذين يتحدثون عن حُكْمِ الوزارة في زماننا لا يبحثون عن شرعية هذا البتة، بل هم فقط يتعاملون مع الألفاظ، إذ يقولون: يوسف عليه السلام تولى الوزارة في دولة حاكمٍ كافرٍ، إذاً يجوز تولية الوزارة اليوم في دولة حاكمٍ كافرٍ، فلو قِيل لهم: إنَّ الوزير اليوم لا يصح توليته الوزارة حتَّى يسجد للصنم لاستهزؤوا بك، وكلّ ذلك لأنَّ القوم فقهاء مجتهدون، وبعضهم يصرخ صباح مساء أنه على منهج السلف في الاستدلال والاجتهاد.

ولمثل هذه الطُرق الجديدة في الفقه عند هؤلاء فإنهم أجازوا الدخول في المجالس التشريعية بحجة الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بحجة أنهم معارضة كما يقولون، مع أنَّ واقعهم الحقيقي في هذا الفِعل هو وُجوب الكفر والشرك حتَّى يجوز لهم الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحت هذه المؤسسة، ولإثبات ما أقول فإني أطلبُ من كلِّ طالبِ علمٍ يحترم عقله، ويحترم ما يعلم ـ ولو القليل من أصول الفقه والأحكام الشرعية ـ أن يقرأ أبحاث هؤلاء القوم، فهل يجد فيها تحقيق معنى هذه الأعمال عند أصحابها، أي كما أراد واضِعوها، وأقصد كلمة الوزارة والوزير، ومثلها ما يُقال له عضو المجلس التشريعي، لأنَّ الحُكْمَ على الشيءِ فرعٌ عن تصوره، وليتصور الشيء لابدَّ من معرفة حقيقته عن واضعيه لا كما تتخيله، لكن كلّ هذا لا يهم عند الفقهاء الجُدد، لأنَّ القوم تكفيهم الأسماء، ثم هم يضعون لها المعاني كما يتخيَّلونها، وزاد بعضهم تكرماً تذكير العاملين بوجوب استحضار النيَّة الحسنة قبل العمل حتَّى يُصبْحَ الفِعْلُ شرعياً.

ومثل هذه المسألة ما كثر الحديث فيه عن تأشيرة الدخول ـ الفيزا ـ وهل هي عقد أمان أم لا؟ فكنتُ أقول للسائل: اذهبْ أولاً وأحضر معنى ـ الفيزا ـ عند أهلها في فقهم ودينهم، ثم بعد معرفة ذلك يمكن البحث عن الحُكم الشرعي فيها، أما أنْ يتخيل «الفقيه!!!» معاني ذاتية لهذه المسائل الحادثة فيُجِيبُ عليها كما يتصورها، لا كما هي في فِقهم القانوني والدستوري، فكلّ هذا جهلٌ في طُرُقِ الاجتهاد ومعرفة الأحكام.

والغريب أنَّ أيَّ وزيرٍ أو عضو مجلس تشريعي إن اختلف في مسألة من المسائل مع حكومته أو مع النَّاس أو مع المجلس ذهب للاحتكام إلى الفقه الدستوري والقانوني لهذه الأمور، ولا يقول أبداً: أنا دخلتُ هنا بناءً على فقهٍ خاصٍ لديَّ، أو على تصورٍ ذاتيٍّ لي، لكن حين يبحث عن حُكْمِ هذه الأُمور في الشرع فإنه لا يبحث عن هذا كلّه، بل يتصور الأمر على وجهٍ خاصٍ ـ مع إضافة النيَّة الحسنة ـ ثم يجيب عن حُكْمِ هذا التخيل والتصور. وبمثل هذه الطرق الجاهلة في الاستدلال فإنَّ بعضهم ذهب ليجمع أقوال الأقدمين في جواز تولي المرء أعمالاً شرعية تحت ولاية ظالمٍ أو كافرٍ، ليقول بجواز التعامل مع الكفار المحتلين في إدارة البلاد التي احتلوها وسيطروا عليها، وذهب إلى حمل السلاح ضدَّ المجاهدين لأنهم في فقهه خوارج يقتلون أهل الإسلام، أي أولئك الذين يتعاملون مع المحتل وينفذون سياسته.

وكلّ هذه الطرق تقوم على قراءة الألفاظ وإنزالها على معاني مختلفة، لكن لأنَّ العقل المسلم اليوم قد تعطل، وأقصى ما فيه من الإبداع هو قراءة نوازل القُدماء وإدخال الحوادث الجديدة فيها، دون النَّظر إلى تحقيق المَناط، ولا إلى ما دخل في هذه الحوادث من معاني جديدة تُوجب تغير الأحكام، فهم لا يسألون هل يوسف عليه السلام أقسم على احترام الدستور الذي يقول: إنَّ الأُمَّةَ مصدر السلطات؟!! ولا يسألون هل كانت وزارة يوسف عليه السلام مُلزمة بما يدين به الملك من تشريعات؟! وهل... وهل...، كل هذا لا يعنيهم شيئاً، إنما هي الكلمات ثمَّ القياس الأرسطي ليخرجوا بمثل هذا الفقه الغريب، ولذلك صاروا إلى جواز تحليل الكفر والشرك دون أن يعلموا، وصاروا جنوداً للكفرة والمحتلين، يضربون بسيوفهم، ويبسطون سلطانهم هروباً مِنْ أنْ يكونوا خوارج!!.

ولسان حالهم يقول: خوارج... أعوذ بالله، أما جنوداً للكافر... فهذه مسألة فقهية.

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

وبيان انحراف هذا الفقه الجديد يحتاج إلى مؤلَّفٍ خاصٍ لكن القصد بيان جهالات هؤلاء الفقهاء!! في الاستدلال وإجرام الأحكام، وإلاَّ فكلّ مسألة من هذه المسائل فيها من الفروع التي يحتاج كلّ فرعٍ فيها إلى مبحثٍ فقهيٍّ مستقلٍ.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾[2].

في هذه الآية دليلٌ مع أنه لا تكليف إلاَّ بنصٍ، وأنَّ الحُكم بالضلال إنما يكون بعد بيان الهدى كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ

1 سورة الحج، الآية: ٤٦.
2 سورة التوبة، الآية: ١١٥.

﴿ جَهَنَّمَ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[1]. ولقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4].

فهذه قاعدةٌ قرآنيةٌ لا يجوز القول بخلافها كزعم البعض أنَّ الفِطرة حجة للعذاب والأحكام، أو قول بعضهم: إنَّ العقل حجة لذلك، فهذه أقوالٌ لا ينبغي الالتفات إليها، هذا مع أنَّ بعض قائليها ينتسب للسنَّة والفقه، وبسبب هذا الانتساب فقد قلدهم البعض جهلاً دون دِرايةٍ وتَبصرٍ.



[1] سورة النساء، الآية: ١١٥.

[2] سورة محمد، الآية: ٢٥.

[3] سورة الأنعام، الآية: ١٣١.

[4] سورة القصص، الآية: ٥٩.

إضاءة

ذكر أكثر المفسرين أنَّ سبب هذه الآيات هي ما وقع لرسول الله ﷺ مع عمِّه أبي طالب لما مات كافراً، وهذا الحادث متقدم جداً، والسورة هي خاتمة أحكام القتال والعلاقة مع الكافرين، وفي هذا حِكَمٌ عظيمة، وهي أنَّ قضايا العبادة النُّسكية والاعتقاد لا تتبدل ولا تُنسخ، والمقصود بالعبادة النُّسكية ههنا ما كان مقبولاً وغير مقبولٍ، فالاستغفار للمشركين له حالٌ واحدٌ لا يتغيَّر ولا يتبدل ولا يُنسخ، لأنَّ له تعلقاً بالتوحيد، وله تعلقٌ بأحكام هؤلاء القوم يوم القيامة وبعد وفاتهم، فهي مع أنها أحكامٌ إلاَّ أنَّ صِلتها بالأخبار أقوى وأشبه، والأخبار في دين الله تعالى لا تُنسخ، ثمَّ إنَّ هذا يُبَيِّنُ أنَّ ترتيب آيات القرآن ـ وهو توقيفي بالإجماع ولا قيمة للمُخالف ـ له معنى يريده الله تعالى، وأنَّ هذا الترتيب فيه حِكَمٌ ربَّانيَّة، مع بيان أهمية معرفة تاريخ الآيات لما في ذلك من فائدة النَّسخ وغيره، وهذا يدل على أنَّ الآية القرآنية تُقرأ من وُجُوهٍ متعددةٍ، فإنها تُقرأ على معنًى مستقلٍ، ثمَّ تُقرأ على معنى سياقها وسباقها، ثم تُقرأ على معنى تاريخها وسبب نُزولها، وهذا كلّه من إعجاز القرآن، ومن هدايته التي قال فيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ**»[1].

هذه القراءات التفسيرية لا يمكن أنْ تضطرب أو تتعارض مع معاني مخالفة لما استقر عليه فقه الشريعة، لكنها قراءات يُؤكد بعضها بعضاً، وتُفيد معاني علمية تجيب على أسئلةٍ متعددةٍ، وقد زعم بعض أهل الضلالة أنَّ قراءة القرآن حسب تاريخ النزول يؤدي إلى إنتاج فقهٍ جديدٍ يخالف فقه الأولين وما عليه الصَّحابة والتابعين، ولعلَّ بعضهم شرع في هذه القراءة، وهذه السُّبل هي إنتاج واقع الهزيمة، وهو واقع يُنْتِجُ حالةً مِنَ الضُّعف أمام استعلاء الآخر وعُلوه، مما يضطر المهزوم أن يسعى للتماهي مع إنتاج الغالب الثقافي والاجتماعي، فهؤلاء قد استقر في أذهانهم أنَّ مبادئ العصر هي مبادئ إنسانية متطورة، خاصة ما يتعلق بالمرأة والفقه السياسي، ولذلك هم يسعون جاهدين لمحاولة ليِّ الإسلام من داخله ليُحقق لهم مُبتغاهم في كونه يصلح للتوافق مع هذه المبادئ المُعاصرة، وإحدى السبل الشهيرة في ذلك هي قراءة القرآن قراءةً تاريخيةً، أي باعتباره منتج لعصرٍ من العصور، لا أنه كلمة الله للإنسان في كلِّ وقتٍ إلى قيام الساعة، وبعضهم يصرح بأنَّ القرآن منتج

---

[1] أخرج الحاكم في «المستدرك على الصحيحين» حديث رقم: ٢٠٧٧. عن عبد الله رضي الله عنه، عن النَّبيّ قال: «إِنَّ هذا الْقُرْآنَ مَأْدَبَةُ الله فَاقْبَلوا مِنْ مَأْدَبَتِهِ ما اسْتَطَعْتُمْ، إِنّ هذا الْقُرْآنَ حَبْلُ الله وَالنُّورُ الْمُبِينُ وَالشِّفاءُ النّافِعُ عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَنَجاةٌ لِمَنْ تَبِعَهُ لا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبُ وَلا يَعْوَجُّ فَيَقومُ وَلا تَنْقَضِي عَجائِبُهُ **وَلا يَخْلَقُ مِنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ** أُتْلوهُ، فَإِنَّ الله يَأْجُرُكُمْ على تِلاوَتِهِ كُلّ حَرْفٍ عَشْر حَسَنَاتٍ أَما إِنّي لا أَقولُ الم حَرْفٌ وَلكِنْ أَلِفٌ وَلامٌ وَمِيمٌ». وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بصالح بن عمر. وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة في «مصنفه» حديث رقم: ٢٥٧٤٤. والبيهقي في «السنن الصغرى»، وفي «شعب الإيمان» حديث رقم: ١٩٣٣، ١٩٨٥. والدارمي في «سننه» حديث رقم: ٣٣١٣. والمتقي الهندي في «كنز العمال» حديث رقم: ٢٣٥٦. وعبد الرزاق الصنعاني في «مصنفه» حديث رقم: ٥٩٨٩. والطبراني في «المعجم الكبير» حديث رقم: ٨٦٤٦.

ثقافي إنساني لا دخل لله فيه، والآخرون يتسترون بكلمات الزندقة لستر هذا المعنى، فهم يزعمون أنهم لا يُنكرون قدسية القرآن، ولا أنه كلمة الله لرسوله ﷺ، لكن بمجرد أنْ قرأه الإنسان وفسره فإنه انتقل من فضاء التقديس إلى فضاء الأسِنَّة، فكل ما قيل في تفسيره بعد ذلك، سواء كان هذا التفسير زمن رسول الله ﷺ أو بعده إنما هو إنتاج إنساني، ولذلك يحق للنَّاس أن يقرؤوه اليوم قراءة مُغايرة لما قرأه رسول الله ﷺ وفسره.

هم يلغون عربية القرآن، وأنه بيانٌ بلغة القوم الذين نزل بلسانهم، وقواعد فهمه هي قواعدهم لا قواعد غيرهم، ويلغون كذلك نبوة الرسول ﷺ، وأنَّ حياته وعمله هي التفسير الصحيح الوحيد للقرآن الكريم، ولذلك فالقول إنَّ رسول الله ﷺ فسر كلَّ القرآن هو القول الصحيح، لكن ليس على معنى ما فهمه المُخالف وهو أبو حيان الأندلسي رحمه الله حين ردَّ على ابن تيمية رحمه الله في هذه المسألة، إذ ظن أبو حيان أنَّ مُراد ابن تيمية حين قال إنَّ رسول الله ﷺ فسر لأصحابه كل القرآن هو التفسير بمعناه الاصطلاحي في زمانه، ولو فهم أنَّ التفسير هو إبانة المعنى على وجهٍ من الوجوه العلمية أو العملية لأقرَّ هذا المعنى وقَبِلَ به.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[1].

يقول أبو جعفر الطبري في تفسير هذه الآية: «إِنَّ اللهَ - أَيُّهَا النَّاسُ - لَهُ سُلْطَانُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمُلْكُهُمَا، وَكُلُّ مَنْ دُونَهُ مِنَ الْمُلُوكِ فَعَبِيدُهُ وَمَمَالِيكُهُ، بِيَدِهِ حَيَاتُهُمْ وَمَوْتُهُمْ، يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، وَيُمِيتُ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ، فَلاَ تَجْزَعُوا - أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ - مِنْ قِتَالِ مَنْ كَفَرَ بِي مِنَ الْمُلُوكِ. مُلُوكَ الرُّومِ كَانُوا أَوْ مُلُوكَ فَارِسَ وَالْحَبَشَةِ، أَوْ غَيْرَهُمْ، وَاغْزُوهُمْ وَجَاهِدُوهُمْ فِي طَاعَتِي، فَإِنِّي الْمُعِزُّ مَنْ أَشَاءُ مِنْهُمْ وَمِنْكُمْ، وَالْمُذِلُّ مَنْ أَشَاءُ.

وَهَذَا حَضٌّ مِنَ اللهِ - جَلَّ ثَنَاؤُهُ - الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ كُلِّ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنَ الْمَمَالِيكِ، وَإِغْرَاءٌ مِنْهُ لَهُمْ بِحَرْبِهِمْ.

وقوله: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يقول: «وَمَا لَكَمَ مِنْ أَحَدٍ هُوَ لَكُمْ حَلِيفٌ مِنْ دُونِ اللهِ يُظَاهِرُكُمْ عَلَيْهِ، إِنْ أَنْتُمْ خَالَفْتُمْ أَمْرَ اللهِ فَعَاقَبَكُمْ عَلَى خِلاَفِكُمْ أَمْرَهُ، يَسْتَنْقِذُكُمْ مِنْ عِقَابِهِ ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يَنْصُرُكُمْ مِنْهُ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا. يَقُولُ: فَبِاللهِ فَثِقُوا، وَإِيَّاهُ فَارْهَبُوا، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ مَنْ كَفَرَ بِهِ، فَإِنَّهُ قَدِ اشْتَرَى مِنْكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ بِأَنَّ لَكُمُ الْجَنَّةَ، تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ فَتَقْتُلُونَ وَتُقْتَلُونَ». انتهى كلام الإمام[2].

رحم الله ابن جرير، فهذا فقه الأئمة العِظام الأقدمين في وضع الآيات العامة في سِياقها وسِباقها، لتدل على معاني خاصة تؤيد الباب الذي تتحدث عنه الآيات السابقة والتالية، فحين يقول القائل إنَّ

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١١٦.

[2] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الجزء الحادي عشر، الصفحة ٥٤.

الدِّين الذي يُوجب الله العودة إليه في حديث العينة هو الجهاد كان بعض مَنْ انتسبَ للعلم يُنكر ذلك، ولو تأمل هؤلاء طريقة السلف في فَهْمِ العموميات مِنْ خلال سياقها لما أنكروا، فإنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[1]، فسياق كلمة الدِّين هي الجهاد لا غير، وكل تفسير غير ذلك هو غلطٌ على الشرع لا يُلْتَفَتْ إليه.

فهذا ابن جرير الطبري يُفسر هذه الآية العامة في بيان ملك الله للسموات والأرض، وأنه يحيي ويميت، وأنه هو ولي المؤمنين وناصرهم، أنها تحريضٌ للمؤمنين في جهاد المشركين، وعدم الالتفات إلى ولاية غيره في الجهاد، وعدم الخوف من سلطان الآخرين وقوتهم فهي على معنى قوله تعالى: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾**﴾[2]. لأنَّ سياق هذه الآية يتحدث عن الجهاد فما يُذكر هنا من العموم إنما يُفهم في تقوية المعنى المُتقدم والتنبيه إلى ما يلتحق به مِنْ أُمُورٍ.

﴿**لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾**﴾[3].

تقدم معنى التوبة هنا، وهو أنَّ معناها الحفظ مِنَ الوُقوع في المعصية، لا أنهم وقعوا في الذنب ثم غفر لهم، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعصم العبد ويحميه من المعصية فتكون هذه العصمة وهذه الحماية توبة من الله عليه، وهذه توبة ختمها الله بقوله: ﴿**إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ وما ذُكر سابقاً يُغْنِي عن العودة إليه هنا إن شاء الله تعالى.

ويُؤكد هذا المعنى ما تقدم من أنَّ حقَّ الطاعة أن لا يعذب العبد كما في حديث معاذ الذي تقدم ذكره في قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «**هَلْ تَدْرِى مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟...**»[1]. فحين يُطِيعُ العبد ربَّه فإنَّ حاله

---

[1] أبو داود في «السنن» في «كتاب الإجارة» باب في النهي عن العينة. حديث رقم: ٣٤٦٣، والبيهقي في «السنن الكبرى» حديث رقم: ١٠٧٤٩، وأخرجه أحمد في «المسند» في أكثر من موضع بألفاظ مُتقاربة، وهذه روايته عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إذا ضَنَّ النَّاس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعين، واتَّبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم بلاءً فلم يرفعه عنهم حتى يُراجعوا دينَهم**» حديث رقم: ٤٨٢٥. وقال أحمد شاكر ـ رحمه الله تعالى ـ: **إسناده صحيح.**

العينة، بكسر العين المُهملة: قال ابن الأثير: «هو أن يَبِيعَ من رجلٍ سلعةً بثمنٍ معلومٍ إلى أجلٍ مسمى ثم يشتريها منه بأقل من الثمن الذي باعها به، فإن اشترى بحضرة طالب العينة سلعة من آخر بثمن معلوم وقبضها ثم باعها المشتري من البائع الأول بالنقد بأقل من الثمن فهذه أيضاً عينة، وهي أهون من الأولى، وسُميَّت عينة لحصول النقد لصاحب العينة، لأنَّ العين هو المال الحاضر من النقد، والمُشتري إنما يشتريها ليبيعها بعين حاضرة تصل إليه معجلة».

«**وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع**» يُريد أنهم تفرغوا للزرع وأذلوا أنفسهم للأرض وتركوا الجهاد، وهذا شيء مُشاهد ظهرت آثاره في المسلمين، حين صاروا عبيد الأرض والزرع، بل هو ظاهر في كلِّ أُمة استعبدتها الأرض وقصرت نفسها على الزرع. والجهاد هو ملاك الأمر كلِّه في الإسلام، رضي عبيد أوربة أم أبواْ. من تعليق أحمد شاكر على الحديث بتصرف يسير.

[2] سورة البقرة، الآية: ٢٤٩.

[3] سورة التوبة، الآية: ١١٧.

كأنه يستغفر حتَّى لا يُعذب، فيتوب الله عليه بعمله هذا فيُعطيه حقَّه بعدم العذاب، ولهذا تُسمى الطاعات توبة، فمَن أطاع الله فقد تاب مِنَ المعصية، لأنه لو ترك الطاعة لَكان عاصياً مُستحقاً للعذاب.

فالله عزَّ وجلَّ حمى نبيَّه والمهاجرين والأنصار من المعصية، فوفقهم للاستجابة، فنفروا إلى تبوك فحصل لهم المغفرة والأجر.

وهناك معنى آخر يُفيده ظاهر الآية أنَّ العمل الصالح يُكَفِّرُ السيئات، ويُكَفِّرُ كذلك ما يحصل في الطاعات من التقصير، وذلك كما كان مِنْ فِعْلِ الرسول ﷺ مِنَ الاستغفار بعد الصلوات، وهو مأخوذٌ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[2]، فقد فسرته أُمُّنا عائشة رضي الله عنها أنَّ هذا الاستغفار يكون بعد قيام الليل مخافة تقصيرهم أو عدم قبولهم، فيكون ما عملوه من الاستجابة والنفير إلى تبوك سبباً لمغفرة الذنوب وقبول العمل.

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾.

لم يكن هروب المنافقين من النفير انتصاراً لهم، ولم يكن تخلفهم راحة لهم من هَمٍّ تخلصوا منه، ولم يكن النافرون في خسارةٍ ونَصَبٍ، فمن يحسب هذه الحسابات هم أهل الجهالة، وهم أصحاب القلوب التي لا تُبصر إلاَّ بمعيار شهواتها ورغباتها، فالراحة انتصار، وحفظ الأموال من الإنفاق ذكاءٌ وعزيمةٌ، والنَّجاة بالأنفس من الشَّهادة غنيمةٌ وتوفيقٌ، فهذه معاييرهم، ولكن معيار الحقِّ غير ذلك، إنه معيار قوله لعائشة الصِّدِّيقة وهو يسألها عن الشَّاة التي ذبحت: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا؟**». قالت: «**مَا بَقِيَ مِنْهَا إلاَّ كَتِفُهَا**». قال: «**بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا**»[3]، وههنا لقد حصلت الغنيمة الأعظم، والفوز الكبير، والأجر الجزيل لهؤلاء الذين نفروا، فأصابهم هذا الفضل الإلهي بأنْ تاب عليهم، ونجاهم من الهلكة والقعود، فهذا هو ما يرضاه الله لرسوله ﷺ وهو حبيبه ومُصطفاه وخليله، وهذا ما يرضاه للذين اتبعوه مِنْ خيرةِ الخَلق بعد الأنبياء وهمُ المهاجرون والأنصار.

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ تعني أنهم فازوا ونجحوا، وتعني أنَّ رحمة الله قد أدركتهم، وتعني أنهم استحقوا رضوان الله وولايته، فالتوبة بوابة كلِّ خيرات الدُّنيا والآخرة، لأنَّ المعصية هي باب الضنك والعذاب والذِّلَّة والخِزي والمَهانة.

---

[1] جزء من حديث أخرجه البخاري في «كتاب اللباس» باب إرداف الرَّجُلِ خلفَ الرَّجُلِ. حديث رقم: ٥٩٦٧. أطرافه في: ٢٨٥٦، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب الدَّليل على أنَّ على من مات على التوحيد دخل الجنَّة قطعاً. حديث رقم: ٣٠.

[2] سورة آل عمران، الآية: ١٧.

[3] الترمذي في «السنن» حديث رقم: ٢٥١٨. وقال: هذا حديثٌ صحيحٌ.

﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ لقد تاب الله، فهكذا حصل الفضل للأصحاب حيث قُرنوا مع الحبيب في نسقٍ واحدٍ من عطاء الله بالتوبة، لأنهم كانوا معه، ولأنهم اتبعوه وأطاعوه فانتظموا في سِلْكِ التوبة العظيم، فهذه هي المكارم، وهذه هي المراتب، وكلّ ما بعدها لا يعدلها في شيء.

﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾.

لقد امتدت غزوة تبوك خمسين يوماً، أقام فقط عشرين يوماً في تبوك، وشهراً كاملاً مضى في السفر الشديد، إذ أصابهم العطش مِراراً، واشتد عليهم الجوع، فربما أكلوا الورق حتَّى تَوَرَمَتْ شِفاههم، حتَّى كادوا أن يذبحوا عامة رواحلهم في وقتٍ من الأوقات، وهم الذين كانوا يتعاقبون على البعير الواحد، إذ ربما تعاقب عليه ثمانية عشر رجلاً، ومع كلِّ هذا سمي في كتاب الله تعالى: ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾، ذلك لأنَّ الفِعل حتَّى لو طال إنما هو إرادة جازمة في ساعة من ساعات الحياة حيث يقع الابتلاء، فيبدأ الصِّراع في داخل النُّفوس، فيحضر الشيطان، ويجلب معه وُعود الفقر والخوف، ويستعين بالنُّفوس وأهوائها ورغباتها، فتبرز لها معالم الإيمان، ووعود الحقِّ الإلهية، فتأتي الجنَّة وما معها مِنْ رضوان الله، ويقفر الحياء من الله والحياء من النَّاس، وخلال ساعة أولى مع كلِّ فتنةٍ، وكلِّ حدثٍ عظيمٍ يُبتلى فيه أهل الإيمان يكون القرار.

هنا في هذه الساعة كشف الله ما وقع في قلوب بعض الأصحاب ـ ﷺ وأرضاهم ـ فقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ لا يفضح هؤلاء العظماء الكبار، فهم عنده أحباء لا يُفضحون، بل يكشف كذلك ليُظهر مِنته ورحمته عليهم، وليُعلم أتباعهم الذين يأتون بعدهم أنَّ هذا الصِّراع الداخلي هو قدر القلوب مع حياة الإيمان والجهاد، فليحضروا أنفسهم لذلك في كلِّ موقعةٍ، فإنَّ ما سيأتيهم من كيد الشيطان لن يتوقف، ولكن ليتذكروا أئمتهم الهُداة كيف نجحوا ووردوا كيده فانتصروا فيه، ذلك لأنها قاعدة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾[1]، وقاعدة: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[2]. هي قدر الإنسان في كلِّ لحظةِ ابتلاءٍ، حيث تتراوح الإرادات والنُّفوس، فتأتي هداية الله وتوفيقه لتنشله من المعصية.

إنها ساعة يا عباد الله، إنْ نجحتَ فيها رأيتَ حَلاوة الإيمان، وعطاءَ الرحمن، ونعمةَ الفوز على الشيطان، وكذلك العزيمة إنما هي ساعة يعقبها الحسرة الطويلة، والعذاب المُقيم، وشعور الذِّلَّة والخزي أنكَ هُزِمْتَ أمام الشيطان وشهواتك.

---

[1] سورة يوسف، الآية: ٢٤.

[2] سورة الإسراء، الآيات: ٧٣ـ٧٥.

المراحل الطويلة ليست بأزمانها، ولا بأحداثها، لكن ببداياتها حين تقرر إرادة الإنسان أمراً، فتقبل عليه غير ناظرة خلفها ولا متخوفة مما هو أمامها، وفضائل النَّاس ومراتبهم في هذه اللحظة، وإلاَّ فالنَّاس بعد ذلك سواء، ولقد خبرتُ البدن فوجدته كالطفل يمكن أن يحمل كلّ ما تحمله النُّفوس وإراداتها، ولكن الفرقَ بين البشر في إراداتهم، إذ تجد الكبار منهم يضغطون على هذه الإرادات فيسبقون غيرهم، وتجد غيرهم له بدن أشدّ وأقوى لكنه ضعيف الإرادة، ما أنْ يقرع عليها قرعاً خفيفاً حتَّى تضعف وتنهار، فيسبق أصحاب العزائم بأبدانهم الضعيفة أصحاب الخور بأبدانهم القوية، ولقد صدق إمام المتقين «**اسْتَعِنْ باللهِ وَلاَ تَعْجِزْ**»[1]، ووالله لو عَلِمَ العالَم كلَّه ما في هذه الألفاظ فقط مِنْ نُورٍ وحكمةٍ، وما فيها من دليلِ نجاحٍ لكلِّ سُبل الحياة، وما فيها من تربيةٍ فريدةٍ لَعلموا أنَّ قائلها هو رسول الله ﷺ، وأنه لا ينطقُ عن الهوى بل هو وحيٌ يُوحى.

تأملْ هذا المنهج الربَّاني في دفع المسلمين رجالاً ونساءً، أطفالاً وشيوخاً إلى العمل، ورفض الخوف واليأس، والاستعلاء على ضعف الأبدان ومُعوقات الطريق، والرعب من الفشل، ثم قارِنْ هذا بما عليه المسلمون في بيوتهم من تربية، وما في مدارسهم ومعاهدهم من مناهج، وما يُلْقِيهِ الشيوخ والقادة من رُعْبٍ تُقيد نفوسهم، فيأسرونهم بالخوف، ويحبسونهم في إسار التقليد، فتجد آثار هذه الجهالات في نفوس أبنائها جبناً وخوفاً، واستسلاماً للأقدار، وتبعيةً للأغيار، ممَّا حولنا إلى غُثاءٍ كغثاءِ السيل، وإلى أعدادٍ رقميةٍ لا قيمةَ لها في مسار الحياة وحوادثها، ولولا بقية أهل الإيمان من المجاهدين الذين تمردوا على هذه الوراثة النكدة لَكان حقّاً على هذه الأُمَّةِ أنْ تذوب وتنتهي من الوجود، لذلك كان الجهاد هو حياة هذه الأُمَّةِ، فهو الذي يُربي إرادتهم، وهو الذي يكسر حواجز الخوف والجهل، وهو الذي يُربي قُدرة الأُمَّة على إدارة الحياة والأزمات والصِّراعات، وهو الذي يستفز العقل المسلم للإبداع، لأنه هو الذي يصنع حراك الحياة، فينفي خبثها ويدفعها لمواجهة التحديات.

لقد كنتُ أقول لبعضهم لو أنَّ الفلاسفة الذين شغلوا بإيجاد الإنسان الكامل على المعنى السَنني علموا هذا الحديث فقط لَرموا كل زبالات عقولهم أمام نور وهداية كلام رسول الله ﷺ، لكنهم نظروا في المسلمين فوجدوا تصوفاً مُفْسِداً للفطرة، وجبرية مُدمرة للإرادة، وإرجاءً مُلغياً للعمل فقالوا كلَّ الشرور عن هذا الإسلام، ونسبوا إليه كل الجهالات، كيف لا، وقد صار منهج القادة اليوم في تغيِّير الواقع أن يُكثروا الخضوع للطواغيت، ويعدون هذا ديناً وشريعةً، وأن يبتعدوا كثيراً

---

[1] مسلم في «كتاب العلم» باب في الأمرِ بالقوَّةِ وتركِ العجزِ والاستعانةِ باللهِ وتفويضِ المقاديرِ لله. حديث رقم: ٢٦٦٤. عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ. وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».
لقد شرح الشيخ حفظه الله تعالى، وبارك فيه وفي علمه هذا الحديث النَّبوي الشريف في رسالة مستقلة سمّاها: «أقدم حيزوم.. هداية أهل الإيمان في أنَّ «لو» تفتح عمل الشيطان» وهو منشورٌ بـ«منبر التوحيد والجهاد».

عن الواقع لأنَّ هذا أسلم لدينهم وتقواهم، وأنْ ينتكسوا إلى داخلهم حتَّى لا تؤذي مفاسد العصر إيمانهم، وحين ينشطون لعملٍ إنما ينشطون استجابةً لإغراء غيرهم، فيقاتلون ويقتلون خدمة لأعداء الله، لأنَّ عقولهم في آذانهم، فرجلٌ واحدٌ كلُورانس العرب ساق الجيوش والقبائل إلى الكفر ومُقاتلة المسلمين، وما زال لُورانس إلى يومنا هذا يعمل نموذجه عمله، لأنَّ الأُمَّةَ لم تسمع حديث رسول الله ﷺ: «**لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[1].

إنَّ التجديد الذي تحتاجه الأُمَّة يجب أنْ يبدأ من تحرير إرادتها وعقلها، ويبدأ بتنشيط المسلم ودفعه للعمل المبني على العِلْمِ السَنني، وبوجوب رفع الخوف والرعب من النتائج، لأنَّ نتائج الكسل أخطر بكثيرٍ من نتائج العمل المَبني على الاجتهادِ واستفراغِ الوسع في إصابة الحقِّ، ثم تعليم هذه العقول كيف تحكم قراراتها في النَّاس بعد أول تجربة، ففرعون لن يُسلم إلى على فراش الموت كما قال قوله: ﴿ **وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾** ﴾[2].

أما تجديد مسائل الفقه والاجتهاد فهي مجرد أحكام هداية ونور لهذه الإرادات والنُّفوس والعقول، فحين تقع هذه الأحكام على إراداتٍ ميتةٍ ونفوسٍ مُنْهَارَةٍ وعقولٍ مُعطلةٍ فإنها تتحول إلى شكل الوعاء الذي تحل فيه، ولذلك فإنَّ مدخل صناعة المسلم الصَّحابي هو الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالله يعني أوله رفض الآلهة الباطلة، لأنَّ شعار الإيمان هو كلمة التوحيد: لا إله إلاَّ الله، وشقها الأول هو الرفض، مُصارعة الواقع الجاهلي على نورِ هذا الرفض وهدايته.

هذه الحياة صارمة، ومعركتها قاسية شديدة، فالإنسان أمام تحديات كبيرة، فهو أمام نفسه وأهوائه وشهواته، وهو أمام الشيطان الذي أقسم لَيغوينَّ الإنسان ويُفسده كما قال تعالى على لسانه: ﴿ **قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾** ﴾[3]، وهو لن يَأْلُو جُهداً في سبيل تحقيق هذا الهدف ﴿ **ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾** ﴾[4]، فهو كما قال تعالى عدوٌّ للإنسان: ﴿ **إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ** ﴾[5]. وهو لن يكلَّ عن حربه ﴿ **لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا**

[1] البخاري في «كتاب الأدب» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٦١٣٣، ومسلم في «كتاب الزهد والرقائق» باب **لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ**. حديث رقم: ٢٩٩٨. رواياه عن أبي هريرة ﷺ.

[2] سورة الأعراف، الآيات: ١٣٢-١٣٥.

[3] سورة ص، الآية: ٨٢.

[4] سورة الأعراف، الآية: ١٧.

[5] سورة طه، الآية: ١١٧.

﴿قَلِيلًا ۝٦٢﴾[1]، وأولياء الشيطان أهل مكرٍ وخداعٍ، ومكرهم ليس سهلاً ولا لهواً، بل إنَّ مكرهم أشدّ من الجبال كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ۝٤٦﴾[2]. وهم في هذا المكر وهذه الحروب لا يكلون ولا يتعبون كما يفعل بعض المسلمين بل هم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ﴾[3]، وهم قد يختلفون في ما بينهم، ولكنهم واحدٌ على المسلمين كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[4]، فاللعب واللهو في هذه المعركة وهذه المسيرة غير مسموح به، والتهاون والكسل يعني الدمار والهزيمة، وأما الغباء والسذاجة وادعاء إحسان الظنِّ بالشيطان وجُنده في هذه المرة فهي تعني أنَّ فاعلها يستحق مزبلة التاريخ.

فقواعد هذه المسيرة وهذه المعركة وهذه الحياة هي: المُداومة في الليل والنهار أي على قاعدة: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾[5]، والتمسك بالحقِّ كاملاً دون المُساومة على بعضه، فإنَّ البعض في معركة الحقِّ والباطل يعني الكل ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[6]. وهذه تُقال لرسول الله ﷺ، فغيره أولى بالدخول فيها.

ومن قواعدها: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[7]. فإنَّ مجردَ التَمَلْمُلَ يعني الحرب، أما الأُمَّةَ التي تُحارَب وتُقْتَل وتُدَمَر ثمَّ تحسن الظنَّ بقاتليها ومُدمريها ومُفسديها فهي أُمَّة الموت لا أُمَّة الحياة، وهي أُمَّة الفساد لا أُمَّة الإصلاح، والخير لها أن تكف عن الحديث عن خيريتها وأحقيتها في قيادة العالم، لأنها لا تستحق الوجود أصلاً، وكيف تستحقه وهي تخالف قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝٥٦ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٥٧﴾[8].

ومن قواعدها: ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾[9]. ولذلك فأمره سبحانه وتعالى للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ

---

1 سورة الإسراء، الآية: ٦٢.
2 سورة إبراهيم، الآية: ٤٦.
3 سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
4 سورة التوبة، الآية: ٣٦.
5 سورة الحجر، الآية: ٩٩.
6 سورة الإسراء، الآيتان: ٧٤-٧٥.
7 سورة الأنفال، الآية: ٥٨.
8 سورة الأنفال، الآيات: ٥٥-٥٧.
9 سورة النساء، الآية: ١٠٢.

حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾[1]. فجعل سبحانه طريق أخذ الحذر هو الهجوم لا انتظار الآخرين، فهذا منهج القرآن، وهو المنهج السَنني في أخذ الحذر، أي إنَّ النفير هو أخذ الحذر لا غير.

نعم هذه قواعد الجهاد، لكنها قواعد الحياة، لأنَّ الجهاد هو الحياة، وإيَّاك وخداع الكلمات الجميلة، التي تقول لك إنَّ الزمان قد تغيَّر، وأنَّ هذا هو وقت السلام وإلقاء السلاح والحوار بالكلمات، فإنكَ إنْ فعلتَ ستُخرج من الحياة كما أُخرج أَبَوَيْكَ عليهما السلام مِنَ الجنَّة، ولن ينفعك الندم، لأنَّ وعظ القرآن قد جاءكَ ولم يبقَ لك عذرٌ تستتر به.

﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

هو الروؤف الرحيم، حين أمرهم بالخروج إلى تبوك في زمن القيظ وقطف الثمار.

وهو الرؤوف الرحيم، حين أكرمهم بالخروج على قِلَّةِ الطعام والماء وبُعد السفر.

وهو الرؤوف الرحيم، وهو يراهم يتعاقبون على البعير الواحد مِنْ قِلَّةِ الظَّهْرِ.

وهو الرؤوف الرحيم، وقد أمرهم بالجهاد الذي فيه الألم والشَّهادة وفَقْدِ الأحبة.

وهو الرؤوف الرحيم، لأنَّ بعد كلِّ هذا آبوا بالنَّصر والمغفرة والرضوان.

وهو الرؤوف الرحيم، حين جعلهم بعد ذلك سبباً لنشر الخير والهداية أجمع.

وهو الرؤوف الرحيم، حين ضرب في قلوب أعدائهم الوهن والخوف فلاذوا في القعار والكفور هرباً منهم.

وهو الرؤوف الرحيم، حين عصمهم من المعصية والنكوص والقعود.

فمَنِ المحروم إذاً؟ :-

إنَّهم الذين يضربون في تِيهِ الغِواية والجهالة وبِدَعِ الأقوال، حين يظنون أنهم عباقرة كلِّ الأزمان في اكتشافهم طُرُقاً من تحقيق النَّصر والعزَّة في غير الجهاد في سبيل الله.

إنَّهم الذين ظنوا أنَّ الجهاد آلاماً وموتاً وخسارةً، وأنَّ تركه سعادة وراحة وأمان.

إنَّهم الذين تألموا حين رفع الله المجاهدين في الأرض في ذِكرهم الحسن، وأما هم فإنَّ بُصاقهم حين يأوون إلى مضاجعهم يَرْتَدُّ عليهم احتقاراً لأنفسهم لأنهم عَلِمُوا أنَّ كلَّ ما قالوه إنما قالوه جُبناً وخوفاً.

إنَّهمُ المعتذرون بأنَّ الزمان زمان قيظٍ وشدَّةٍ، وزمان قلَّة الناصر وقوَّة العدوّ، فقعدوا يتعللون ويعتذرون أنهم الجبناء والبخلاء، أصحاب الألسنة الحِداد على المجاهدين، ومقطوعي الألسنة على أعداء المجرمين.

[1] سورة النساء، الآية: ٧١.

فيا لكِ مِنْ قسمةٍ لو وعيها أهل الإسلام للحقوا بالمجاهدين وهم باكين صارخين: أنْ اقبلوا بنا، لأننا لو طُردنا عن باب الجهاد لَكنا من الزائغين عن الحقِّ.

ويا لكِ من آيةٍ عظيمةٍ تكفي القلوب الطاهرة: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾.

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[1].

هذه الآية لا يمكن لقارئها إنْ أراد معناها أن يلغي ما حَدَّث الصَّحابي الجليل كعب بن مالك عن نفسه، لأني لا أظنُّ أحداً يقرأ حديث هذا الشاعر العظيم ثم لا يجد عبرات التأثر تنساح من عينيه، فدعِ الشاعر كعب بن مالك يلقي عظته للقلوب لعلَّها تلين قليلاً: قال عبد الله بن كعب بن مالك، وكان قائِدَهُ مِنْ بَنِيهِ عندما عَمِيَ: سمعتُ كعبَ بن مالكٍ يحدِّثُ حينَ تخلفَ عن قصةِ تبوكَ. قال كعب: «لم أتخلفْ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلاَّ في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أني كنتُ تخلفتُ في غزوةِ بدرٍ، ولم يُعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها، إنما خرج رسولُ الله ﷺ يُريدُ عِيرَ قريشٍ حتى جمعَ اللهُ بينهم وبينَ عدوِّهم على غيرِ ميعادٍ. ولقد شهِدْتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبةِ حين تَواثَقْنا على الإسلامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ، وإنْ كانتْ بدرٌ أذْكَرَ في النَّاسِ منها. كان مِنْ خَبَرَي أني لم أكنْ قطُّ أقوَى ولا أيسرَ حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغَزَاةِ. واللهِ ما اجتمعَتْ عندي قبلَهُ راحِلَتان قطُّ حتى جمعتُهما في تلك الغزوةِ، ولم يكنْ رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوةً إلاَّ ورَّى بغيرِها، حتى كانت تلك الغزوةُ، غزاها رسولُ اللهِ ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبلَ سفراً بعيداً ومَفازاً، وعدُوّاً كثيراً، فجلَّى للمسلمين أمْرَهُمْ ليتأهَّبوا أُهبةَ غَزْوِهِمْ. فأخبرَهُم بوجهِهِ الذي يُريد، والمسلمونَ مع رسول الله ﷺ كثيرٌ، ولا يَجمعُهُم كتابٌ حافظٌ ـ يُريد الدِّيوان ـ قال كعبٌ: فما رجلٌ يريدُ أنْ يتغَيَّبَ إلاَّ ظنَّ أنْ سيَخْفَى له، ما لم ينزِلْ فيه وحيُ اللهِ. وغزَا رسولُ الله ﷺ تلك الغزوةَ حينَ طابَتِ الثِّمارُ والظِّلالُ، وتجهَّزَ رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ معَه، فطَفِقْتُ أغْدُو لكيْ أتجهَّزَ مَعَهُم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يَزَلْ يَتمادى بي حتى اشتدَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصبح رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ معه ولم أقضِ مِنْ جَهازي شيئاً. فقلتُ أتجهزُ بعدَهُ بيومٍ أو يومين، ثمَّ ألحَقُهُمْ، فغدَوْتُ بعدَ أنْ فَصَلوا لأتجهَّزَ، فرَجَعْتُ ولم أقضِ شيئاً. ثم غدوتُ، ثمَّ رجعتُ ولم أقضِ شيئاً. فلم يَزَلْ بي حتى أسرَعوا وتفارَطَ الغزوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُمْ، وليْتَنِي فَعَلْتُ، فلم يُقَدَّرْ لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس ـ بعدَ خروجِ رسولِ الله ﷺ ـ فطُفْتُ فيهم، أحزنَنِي أني لا أَرى إلاَّ رجُلاً مَغْمُوصاً عليه النِّفاق، أو رجلاً ممن عَذَرَ اللهُ منَ الضُّعفاءِ، ولم يَذكرْني رسولُ الله ﷺ حتى بلغَ

[1] سورة التوبة، الآية: ١١٨.

تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوكَ: «**ما فعلَ كَعْبٌ؟**» فقال رجلٌ من بني سَلِمَةَ: يا رسولَ الله، حَبَسَه بُرْدَاهُ، ونظرُهُ في عِطفيْهِ. فقال مُعاذ بن جَبَل: بئسَ ما قلتَ، والله يا رسولَ الله ما عَلِمْنَا عليه إلاَّ خيراً. فَسَكَتَ رسول اللهِ ﷺ. قال كعبُ بن مالك: فلما بَلَغَني أنه توجَّه قافِلاً حَضَرَني همِّي، وَطَفِقتُ أتذكَّرُ الكذِبَ وأقولُ: بماذا أخرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غداً؟ واستعنْتُ على ذلك بكلِّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي. فلمَّا قِيلَ: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قد أظلَّ قادِماً زاحَ عني الباطِلُ، وعرَفتُ أني لن أخرُجَ منه أبداً بشيءٍ فيه كذِبٌ، فأَجْمَعتُ صِدْقَه، وأصبحَ رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدِمَ مِنْ سفرٍ بدأ بالمسجدِ فيركعُ فيه ركعتَينِ ثم جلسَ للنَّاس، فلمَّا فعلَ ذلك جاءَهُ المخلَّفونَ، فطَفِقُوا يَعتذِرُونَ إليه ويحلِفون له - وكانوا بِضْعَةً وثمانينَ رجلاً - فقَبِل منهم رسولُ الله ﷺ عَلانِيَتَهُم وبايَعَهُم واستغفَر لهم، وَوَكَلَ سَرائِرَهُمْ إلى الله. فجِئْتُهُ، فلما سلَّمتُ عليه تَبَسَّمَ تبسُّمَ المُغْضَبِ ثم قال: «**تعالَ**»، فجِئْتُ أمشي حتى جَلستُ بين يَديْهِ، فقال لي: «**ما خلَّفك؟ ألم تَكن قد ابتَعت ظَهْرَك؟**» فقلتُ: بلى، إني واللهِ لو جلستُ عند غيرِكَ مِنْ أهلِ الدُّنيا لَرأيتُ أنْ سأخرُج مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلاً، ولكنِّي واللهِ لقد علمتُ لَئِن حدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ تَرضى به عني لَيُوشِكَنَّ اللهُ أن يُسخِطَكَ عليَّ، ولئِنْ حدَّثْتُكَ حديثَ صِدقٍ تَجِدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عَفوَ الله، لا واللهِ ما كان لي مِنْ عُذْرٍ، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أَيْسَرَ مني حينَ تخلفتُ عنك. فقال رسولُ الله ﷺ: «**أما هذا فقد صَدَقَ، فَقُمْ حتى يقضِيَ اللهُ فيكَ**». فقمتُ. وثارَ رِجالٌ من بني سَلِمَةَ فاتَّبعوني فقالوا لي: واللهِ ما عَلِمْنَاكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ أنْ لا تكون اعتذرتَ إلى رسول اللهِ ﷺ بما اعتذرَ إليه المُتخلفون، قد كان كافِيكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فواللهِ ما زالوا يُؤنِّبُونَنِي حتى أردتُ أنْ أرجعَ فأُكذِّبَ نفسي. ثم قلتُ لهم: هل لَقِيَ هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجُلان قالا مثلَ ما قلتَ، فقيلَ لهما مثلُ ما قيلَ لك. فقلتُ مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بن الرَّبيعِ العَمريُّ وهِلالُ بن أُمَيَّةَ الواقِفيُّ، فذكروا لي رجُلَين صالحين قد شَهِدا بدراً فيهما أُسْوَةٌ، فَمَضَيتُ حينَ ذكروهُمَا لي. ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كلامِنا أيُّها الثلاثةُ مِن بينِ مَن تخلفَ عنه؛ فاجْتَنَبنا النَّاسُ، وتغَيَّروا لنا، حتى تَنكرَتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف. فلبِثْنَا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأمَّا صاحِبايَ فاستَكانا وقعدا في بيُوتهما يَبكيانِ؛ وأما أنا فكنتُ أشبَّ القومِ وأجلَدَهم، فكنتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ معَ المسلمين، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يُكلمُنِي أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلِسِه بعدَ الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتَيه بردِّ السلام عَلَيَّ أم لا؟ ثمَّ أُصلي قريباً منه، فأُسارِقُهُ النَّظر، فإذا أقْبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوَهُ أعرَض عني. حتى إذا طالَ عليَّ ذلك من جَفوةِ النَّاس مشَيتُ حتى تَسوَّرْتُ جِدار حائطِ أبي قَتادة، وهو ابنُ عمِّي وأحبُّ النَّاسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلام. فقلتُ: يا أبا قَتادة، أَنْشُدُكَ باللهِ، هل تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ ورسولَه؟ فسكتَ. فعُدتُ له فَنَشدْته فسكتَ. فعُدتَ له فَنَشدته فقال: اللهُ ورسولُه أعلمُ. ففاضَتْ عَيْنَايَ، وتولَّيْتُ حتى تَسورتُ الجِدار. قال: فَبَيْنَا أنا أمشي بسوقِ المدينةِ إذا نَبطيٌّ من أنباطِ أهل

الشام ممن قَدِمَ بالطعامِ يبيعهُ بالمدينة يقول: مَن يدُلُّ على كعبِ ابن مالك؟ فطَفِقَ النَّاسُ يُشيرون له: حتى إذا جاءني دَفَعَ إليَّ كتاباً مَن مَلِكَ غَّسانَ فإذا فيه: أما بعدُ فإنه قد بلغني أنَّ صاحبَك قد جَفاك، ولم يَجعلْك اللهُ بدارِ هَوانٍ ولا مَضْيعَةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِكَ. فقلتُ لما قرأتُها: وهذا أيضاً مِنَ البَلاءِ. فتيمَّمْتُ بها التَّنُورَ فَسَجَرْتُهُ بها. حتى إذا مَضتْ أربعون ليلةً منَ الخمسينَ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُرُكَ أن تَعتزِلَ امرأتكَ. فقلتُ: أُطلِّقُها أم ماذا أفعلُ؟ قال: لا. بل اعتزِلْها ولا تَقرَبها. وأرسلَ إلى صاحبيَّ مثلَ ذلك. فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلكِ فتكوني عندَهم حتى يَقضيَ اللهُ في هذا الأمر. قال كعبٌ: فجاءَتِ امرأةُ هِلالِ بن أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله، إنَّ هلالَ بن أُمَيَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادمٌ، فهل تَكرَهُ أن أخدُمَه؟ قال: «**لا، ولكنْ لا يَقرَبْكِ**». قالت: إنهُ واللهِ ما بِهِ حركةٌ إلى شيءٍ، واللهِ ما زالَ يَبكي منذُ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعضُ أهلي لو استأذَنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتِك كما أذِن لامرأةِ هلالِ بن أُمَيَّة أن تخدُمَه. فقلتُ: والله لا أستأذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْرِيني ما يقول رسولُ اللهِ ﷺ إذا استأذنتُهُ فيها، وأنا رجلٌ شابٌّ. فَلبِثْتُ بعدَ ذلكَ عشرَ ليالٍ حتى كمَلَتْ لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسولُ الله ﷺ عن كلامِنا. فلما صلَّيتُ صلاةَ الفجر صُبحَ خمسينَ ليلةً، وأنا عَلَى ظهرِ بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذكرَ اللهُ: قد ضاقتْ عليَّ نفسي، وضاقتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوْفَى على جبلِ سَلْعٍ بأعلى صوته: يا كعبُ بن مالك أبشِرْ. قال: فخَررْتُ ساجداً، وعرَفتُ أن قد جاء فَرَجٌ. وآذنَ رسولُ الله ﷺ بتوبةِ اللهِ علينا حينَ صلَّى صلاةَ الفجر، فذهبَ النَّاسُ يُبشِّرُوننا؛ وذهبَ قِبلَ صاحبيَّ مُبَشِّرون، ورَكَضَ إليَّ رجلٌ فرَساً، وسعى ساعٍ من أسْلَمَ فأوفى على الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ مِنَ الفَرَسِ. فلما جاءني الذي سمعتُ صوتَهُ يُبشرُني نزَعتُ لهُ ثوبيَّ، فكَسوتُهُ إيَّاهُمَا ببُشْراه. واللهِ ما أمْلِكُ غيرَهُمَا يومَئذٍ. واستَعَرتُ ثوبَيْن فَلَبِسْتُهُمَا، وانطَلَقتُ إلى رسولِ الله ﷺ فيتلقَّاني النَّاسُ فَوجاً فوجاً يهنُّونَني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبةُ اللهِ عليكَ. قال كعبٌ: حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول اللهِ ﷺ جالسٌ حولَهُ النَّاسُ، فقامَ إليَّ طلحةُ بن عُبيدِ الله يُهَرْوِلُ حتَّى صافَحَنِي وهَنَّاني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ منَ المهاجرينَ غيرُهُ، ولا أنساها لطلحةَ. قال كعبٌ: فلما سلمتُ على رسولِ الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ منَ السُّرور: «**أَبْشِرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليكَ منذ ولدَتكَ أمُّكَ**». قال: قلتُ: أمِنْ عندِكَ يا رسولَ الله أم مِنْ عندِ الله؟ قال: «**لا، بل مِنْ عندِ الله**». وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنارَ وجههُ حتى كأنهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وكنّا نعرفُ ذلك منه. فلما جلستُ بينَ يَدَيْهِ قلتُ: يا رسولَ الله. إنَّ مِنْ تَوْبَتِي أنْ أنخَلِعَ مِنْ مَالِي صدقةً إلى الله وإلى رسوله. قال رسولُ الله ﷺ: «**أمسِكْ عليكَ بعضَ مالِكَ، فهو خيرٌ لكَ**». قلتُ: فإني أُمسِكُ سَهْمِي الذي بخيْبَرَ. فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ اللهَ إنما نجَّانِي بالصِّدقِ، وإنَّ مِنْ توبتي أنْ لا أُحدِّث إلاَّ صِدقاً ما بَقِيتُ. فواللهِ ما أعلَمُ أحداً مِنَ المسلمين أبلاهُ اللهُ في صَدق الحديث ـ منذُ ذكرتُ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ ـ أحْسَنَ مما أبْلاَنِي، ما تَعَمْدُتُ منذُ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى

يومي هذا كَذِباً، وإني لأرجو أن يَحفظني اللهُ فيما بقيتُ. وأنزلَ اللهُ على رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

فوالله ما أنْعمَ اللهُ عليَّ من نعمةٍ قطُّ - بعد أنْ هداني للإسلام - أعظم، في نفسي مِن صِدْقِي لرسول الله ﷺ أنْ لا أكونَ كذَبْتُهُ فأهْلِكَ كما هَلَكَ الذين كَذَبوا، فإنَّ الله تعالى قال للذين كذَبوا حينَ أنزلَ الوحيَ شرَّ ما قال لأحدٍ، فقال تباركَ وتعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ ﴾ - إلى قوله - ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ قال كعب: وكنّا تخلَّفْنَا أيُّها الثلاثة عن أمرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسولُ الله ﷺ حينَ حَلَفُوا له، فبايَعَهُمْ واستغفرَ لهم، وأرْجَأَ رسول اللهُ ﷺ أمرَنا حتى قضى اللهُ فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ وليس الذي ذَكَرَ اللهُ مما خُلِّفْنَا عنِ الغزوِ، إنما هو تَخْلِيفُهُ إيَّانَا وإرجاؤُه أمرَنا عمَّن حَلَفَ له واعتذرَ إليه، فقبِلَ منه»[1] انتهى الحديث.

رضي الله عن كعبٍ وهلالٍ ومرارةٍ، فقد صدقوا الله في التوبة، ولم يذهبوا مذاهب النِّفاق في تبرير القعود، وحلف الأيمان الكاذبة، وخداع النَّاس بالمعاذير المُصطنعة، وهم بهذا عَلَّمُوا مَنْ بَعْدَهُمْ أنَّ معصية ترك الجهاد الواجب تُوجِب التوبة مع الله، فأكرمهم سبحانه وتعالى بأنْ ذكرهم في هذه الآية العظيمة، مُلحقاً إيَّاهم بالنَّبِيِّ ﷺ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسرة، فكان ذِكرهم رفعاً لشأنهم.

في هذا الأمر من جمعهم في سياقٍ واحدٍ، أي النافرين إلى الجهاد والتائبين من القعود دليلٌ أنَّ مراتب المؤمنين القادرين لا تخلو مِنْ هذين المقامين؛ إما نفيرٌ وجهادٌ، وإما استغفارٌ وإنابةٌ من معصية ترك النفير، وأما الذين ركنوا إلى أهوائهم، واطمأنوا إلى مقاماتهم بالتخلف والقعود فهم طبقة واحدة على اختلاف معاذيرهم وأقوالهم؛ هي طبقة النِّفاق لا مثنوية فيها.

ثمَّ في هذا دليلٌ آخرٌ أنَّ البلاء الذي أصاب المؤمنين بالنفير هو بلاءٌ محبوبٌ، وهو بلاءُ الرأفةِ والرحمةِ، ويُقابله البلاء الذي يُصيب الثابتين مِنْ تَقْرِيعِهِمْ لنفوسِهِمْ، ولَوْمِهِمْ على ضُعفها وذُنوبها، وبُكائها على ما اقترفتْ، فهو كذلك بلاءٌ محبوبٌ عند الله تعالى، فإذا وقع في نفس المرء دلَّ أنَّ له قلباً مؤمناً، ونفساً تقيةً، وأنَّ مآله إلى المغفرة والتوبة والإنابة، لكن المُعضلة الأكبر والشرَّ الأعظم في هذا هو مَنْ آب مُسْتَخْفِياً فرحاً أنَّ البلاء لم يُصِبْهُ، فهو فرحٌ كفرح الدابة أمام خدودها، ضاحكٌ ضَحِكَ الجاهل على جهله وغبائه، مطمئنٌ إلى ما بين يديه من نعيم المال والولد، فهؤلاء هم أصحاب القلوب الميتة والنُّفوس التي لا تستحق المغفرة والرضوان.

هذه معركةٌ واحدةٌ وإن كان لها صورتان، معركةٌ ضدَّ أعداء الله حين يطبق العدوّ عليك مِنْ كلِّ جانبٍ، ويتخلى عنك أهل الأرض جميعاً، ويصل الأمر أنْ تضيق عليك نفسك، وتضيق الأرض

---

[1] البخاري في «كتاب المغازي» باب حديث كعب بن مالك. حديث رقم: ٤٤١٨. واللفظ له. ومسلم في «كتاب التوبة» باب توبة كعب بن مالك وصاحِبَيْهِ. حديث رقم: ٢٧٦٩.

مع اتساعها فلا تجد إلاَّ أسواراً تحيطُ بك كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[2]، فيبزغ النَّصر كضوء الفجر.

ومعركةٌ أخرى مع التوبة، حين يقع المرء في معصية ما، والمعاصي قَدَرُ ابن آدم لا محالة، فيسقط الإنسان سقط يريد الله للعبد منها أن يرفع درجته، فيأتيه الشيطان داعياً له إلى الإصرار والكبر، فيُزيِّنُ له الاستعلاء على التوبة والندم والاعتراف، فيُجاهدها، فيبدأ الألم وشعور الندم، وتنساح الدموع بين يدي الله طالبةً العفو والمغفرة، ويشتدّ ضيق المرء من هذه المعصية، فما يلبث أن يحس براحة التوبة والندم والإنابة، فتأتي الدموع على قلبه كما تأتي مياه السماء على الأرض فتغسلها وتنقيها وتُزيل عنها رجسها، فتتحرر أعضاء بدنه إلى الطاعة والعبادة، فيحس بنعمة الانتصار.

كِلاهما معركةٌ، ولا يمكن أن يتحقق فيهما النَّصر إلاَّ بعد أن تبلغ القلوب الحناجر، وتُفْتَنُ النُّفوس بأمواج الابتلاءات، لأنَّ هذا ما يُؤَهِلُهَا لتحقيق النَّصر ودخول الرضوان ومقام العبودية لله ربِّ العالمين.

يقول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾[3].

والله يقول في هؤلاء الثلاثة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾[4].

وهذا يونس عليه السلام يصف الله ما جرى له لَمَا وقع منه ما وقع فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾[5].

---

[1] سورة يوسف، الآية: ١١٠.

[2] سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

[4] سورة التوبة، الآية: ٢١٨.

[5] سورة الصافات، الآيات: ١٣٩-١٤٨.

أما تسبيحه وقوله في توبته فقد قال الله فيها: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨ ﴾[1].

فهذا هو سبيل دخول رضوان الله، فللوصول إلى لحظة التوبة والقبول، هو نفس المعنى للوصول إلى لحظة الفوز والنَّصر كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾[2]. فعلى السالكين وطالبي المغفرة والرضوان، وعلى العاملين للتمكين والوراثة في الأرض أنْ يعدُّوا أنفسهم لذلك، وأن يتوقعوا هذه اللحظة.

أما الذين يُريدون الجنان في الآخرة، ويريدون الوراثة والتمكين في الدُّنيا دون سلوك هذا السبيل، ودون الوصول إلى هذه العقبة الكبرى الأخيرة في المسيرة فهم ـ والله ثم والله ـ واهمون.

ولهذا المعنى كان حديث رسول الله ﷺ يُقارن بين الإخبات في العبادة وبين الجهاد، فهو الذي يقول: «**مَقَامُ الرَّجُلِ فِي الصَّفِّ، فِي سَبِيلِ الله، أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الرَّجُلِ سِتِّينَ سَنَةً**»[3].

ويقول ﷺ: «**رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ. وَإِنْ مَاتَ، جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ**»[4].

ويُسْأَلُ الحبيب ﷺ: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «**لاَ تَسْتَطِيعُوهُ**» قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً. كُلُّ ذلِكَ يَقُولُ: «**لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ**». وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ. لاَ يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلاَ صَلاَةٍ. حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى**»[5].

ومَنْ تأملَ هذا الاقتران والمُقابلة عَلِمَ أنَّ الجهاد لا يُقْبِلُ عليه إلاَّ مَنْ هو عالِمٌ بأُجُورِ الأعمالِ، راغباً في الوصول إليها، أما الذين لا يُقِيمُونَ رأساً للأُجورِ ولا للحسناتِ، فإنَّ الجهاد لا يَعْنِيهِمْ في شيءٍ، بل هم باذلون وُسعهم لتأويله والهروب منه والتخفيف من التزاماته.

لو تأملَ المسلمون حديث كعب بن مالك ﷺ، وقبله هذه الآية العظيمة ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ..﴾ لَعلموا مِقْدَارَ ذنبِ ترك الجهاد الواجب العَيْنِي، ولَبكوا على أنفسهم أنهم يأكلون ويشربون ويتنعمون وهم تاركون للجهاد في وقتٍ غُزِيَتْ بلادهم، وامْتُهِنَ دينُهُمْ، وغُيِّرَتْ شريعة ربِّهم.

---

1 سورة الأنبياء، الآيتان: ٨٧ـ٨٨.

2 سورة النَّصر إلى آخرها.

3 الدارمي في «سننه» عن عِمران بن حُصين. حديث رقم: ٢٣٩٨.

4 مسلم من حديث سلمان الفارسي ﷺ في «كتاب الإمارة» باب فضل في سبيل الله عزَّ وجلَّ. حديث رقم: ١٩١٣.

5 مسلم عن أبي هريرة ﷺ في «كتاب الإمارة» باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى. حديث رقم: ١٨٧٨.

إنَّ هذا الذنب العظيم والكبيرة الخطيرة هي سبب غضب الله على الأُمَّةِ، وهي سبب هوانها في عين الله تعالى، فوالله لو قامت هذه الأُمَّة بأجمعها قِيام الليل، وصلت كلَّها في جماعة، وحجت كلَّها ووقفت في عرفات، وتصدقت كلَّها بما وجب عليها من الزكوات ما رفع الله عنها الذل والهوان إلاَّ إذا جاهدت في سبيل الله تعالى ضدَّ الذين غيَّروا شريعة الرحمن، وقتلوا أولياءه، ووالوا المُشركين أعداءه، وأهلكوا الحرث والنسل.

ووالله لو صارت الأُمَّة كلَّها عالمة بالكتاب والسنَّة، وتركتِ التقليد الفقهي، وطبعت كلَّ كُتب التراث فحققتها وقرأتها ما كانت لتدفع شرَّ المُشركين الذين وطئوا الديار وقتلوا الرجال وانتهكوا الأعراض إلاَّ إذا امْتُشِقَتْ سيوف الجهاد.

ووالله لو بكتْ كلَّ ذنوبها إلاَّ ذنب ترك الجهاد ما كانت لتحقق النَّصر والوراثة. لكن تذكر أيُّها المجاهد ـ والمجاهدون اليوم قلَّة وأقل بكثير من الملح في الطعام بالنسبة لعموم الأُمَّة ـ، أنَّ المجاهد هو محتاجٌ لذلك كلِّه مِنَ الأعمال الصالحة حتَّى يكون جهاده عبودية لله تعالى، وعلى نورٍ مِنَ علمِ الكتاب والسنَّة وفقه السلف الصالح.

هذه أحكام القرآن وهدايته، وهذه سنن الوجود التي تغلب كلّ مَن يقف أمامها، فدَعْ عنكَ غرور الأقوال، وبدع المذاهب وأوهام الرجال، والحَقْ بالقافلة إنْ أردتَ إرضاء الرحمن فها هو القرآن يقول:ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1].

هل بقي لأحدٍ شكٌّ أنَّ التقوى هنا هي الجهاد في سبيل الله؟.

وهل بقيَ لطالب حقٍّ يعلم منهج القرآن يشكُّ أنَّ الصَّادقين هنا همُ المجاهدون؟!.

نعم إنَّ التقوى كلمةٌ عامةٌ يدخل فيها إتيان كلِّ ما أَمر الله به، واجتنابِ كلِّ ما نهى الله عنه، وكذلك ﴿ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ وصفٌ عامٌ لكلِّ مَنْ وافقَ قوله الحقّ، ولكلِّ مَنْ وافقَ قوله فِعْله، لكن كان هؤلاء هنا هم الذين تاب الله عليهم بالنفير، وهم الثلاثة الذين تابوا من تخلفهم، فصدقوا في ندمهم وتوبتهم، فدعا الله كلّ مسلم يريد التقوى ويحبُّ أنْ يُوصفَ بالصِّدق أنْ يلحقَ بالقافلة.

هذه دعوةُ الله لكم يا رجال الإسلام، ويا شباب الإسلام، وهي دعوةٌ صريحةٌ جلِيَّةٌ لا تقبل التأويل، لأنَّ آيات الجهاد سمَّاها الله محكمة كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

[1] سورة التوبة، الآية: ٢١٩.
[2] سورة محمد، الآية: ٢٠.

هذه دعوةٌ الله لكم، وستجدون أمامها سُبُلاً كثيرة يدعوكم إليها رجالٌ رضوا بالهوان وأحبوا القعود، وآثروا دنياهم على آخرتهم، فانظروا إلى أنفسكم في أي السبيلين أنتم؟.

هذه سبيل الله تُوصِلُكُمْ إلى الجنان، ورضوان الرحمن، فإيَّاكم والالتفات وراءكم، إذ ليس هناك إلاَّ حياة الضنك والذلة، يعيش فيها قومٌ لا ينشطون لمكرمة، ولا يُدافعون عن عِرْضٍ، ولا يحققون نصراً كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾[1].

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) ۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾[2].

هذا وعظُ القرآن للمجتمع المسلم في المدينة، وكذلك هو للأطراف حول هذا المجتمع من المسلمين، وهو تفسير لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾. كما أنها تفسيرٌ لصدق الذين تابوا وقَبِلَ الله توبتهم لصِدقهم، فالآية شاملة للأمرين، أي لحال مَن تقدم من صدق الثلاثة في التوبة، ولحال الذين نفروا مع رسول الله ﷺ.

هذا وعظٌ للذين يطلبون الأجر مظانه، ويرغبون بتحصيل الحسنات، فالقلوب التي تستجيبُ له إنما هي القلوب التي تَعْلَمُ قيمة العمل الصالح، وترغب في نيله، وهي على استعدادٍ أنْ تدفع مُقابلَهُ ما يُطلبُ مِنَ الثمن، لكن لو كانت القلوب خاوية مِنْ قِيمَةِ الحسنة، وفارغة عن محبة إتيان الأعمال الصالحة فإنها لن تستجيب، لأنَّ الخطاب لن يُلامس الحبَّ الذي هو أكسير القلوب وباعث حركتها.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

هذا حالُ الجهاد، وهو قدره، ولا مفر للمجاهد منه، فهو لابدَّ ملاقٍ للظمأ والتعب والجوع، فهي فتنُ الجهاد مع البدن مهما حاول المجاهدون تأمين عدم حصول ذلك، فإنه لابدَّ واقعٌ، وهذا ردٌّ على مَنْ علَّقَ الجهاد حتَّى يتحصل المجاهدون كلّ حاجاتهم ليشرعوا فيه، ذلك بأنَّ مَنْ قال هذا فإنَّ معنى قوله أن لا جهاد.

---

[1] سورة النور، الآية: ٥٤.

[2] سورة التوبة، الآيات: ١٢٠-١٢٢.

هذه الظروف الصعبة هي بابٌ من أبواب الأُجور، وبابٌ من أبواب دخول الرضوان ورفع الدرجات، ولذلك هي فرصةُ المسلم في إثبات صِدقه مع الله، وفرصةٌ له لتحصيل ما يحبُّ مِنَ الدرجات والحسنات، فإذا كان النَّاس يكرهون البلاء، وهي كراهيةٌ فِطريةٌ في النُّفوس، فإنَّ في ما يكرهون الخير العظيم.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا ﴾.

هذه قاعدةٌ قرآنيةٌ عظيمةٌ أنَّ إيلامَ[1] الكفار بدناً ونفساً فِعْلٌ محبوبٌ في نفس الله تعالى، وأنه بابٌ مِنْ أبوابِ العمل الصالح.

القرآن يُقرر أنَّ إيلامَ نفوسهم وأبدانهم هو دين الله تعالى الذي ارتضاه لعبيده، وفقهاء العصر الجديد يرون أنَّ إرضاءهم وأخذ كلمات المدح لما يفعلون ويفتون ويقولون هو الدِّين الجديد.

إيلامُ نفوسهم وأبدانهم يعني أنَّ المسلم مهدي، وسائرٌ في الطريق الحقِّ المستقيم لأهدافه في الدُّنيا نحو النَّصر، وسائرٌ إلى هدفه في إرضاء الله، ويقترب إلى تحقيق دخول الجنان، وفقهاء زماننا الذين يخافون من إغضاب الكفار وإيلامِهم يرون أنَّ من شروط الفقه الحديث أنْ لا نقولَ قولاً يُنَفِرُ قلوب الكافرين من الإسلام، وأنْ لا نعملَ عملاً يُثير غضبهم لأنَّ هذا سيزيد درجة المُواجهة بين عباد الله وأعداء الله.

هم يُؤْلِمونَنَا في نفوسنا وأبداننا وأموالنا وديارنا... نعم، لكن علينا أنْ نصبرَ، ونتحملَ بشجاعةِ الجُبناءِ في قُدْرَتِهِمْ على تحمل الإهانات والعذاب حتَّى يسمحوا لنا بالعيش والبقاء وأخذ بعض فُتاتهم.

أما هؤلاء الذين يُؤْلِمونَ الكفار في نفوسهم وأبدانهم فهم جهلة قتلة!! لا يمثلون الإسلام في شيءٍ!! فمن يمثله إذاً؟:-

دعني أُخبِرُكَ يا أيَّها المسلم الذي يُرَادَ منكَ أنْ لا تهتدي بنُور القرآن، ولا تسير على سنن الأنبياء وأتباعهم، ولا يُرَادُ لكَ العزَّة والكرامة.

إنَّ الذي يمثل الإسلام اليوم هو الحاكم الذي يكون خادماً لمبادئ الكُفر، فيُحالفهم في قتل المسلمين وغزو ديارهم وسجن المجاهدين ومحاربتهم، فهذا مسلمٌ جيِّدٌ.

إنَّ الذي يمثل الإسلام اليوم هو الحاكم الذي سرت في دماء أبيه كما سرت في دماء جد أبيه[1] روح الحبِّ لليهود، فأُقيمت له دولة مسخ لتحمي كِيانهم في أرض الإسراء والمعراج، فهو جنديٌّ ضدَّ كلِّ مسلمٍ يفكر أو يحلم بأنْ تعود فلسطين أرضاً إسلامية.

---

[1] الإيلامُ: الإيجاعُ.

إنَّ الذي يمثل الإسلام اليوم امرأةٌ سافرةٌ، أو ممثلةٌ غانيةٌ، أو راقصةٌ فاجرةٌ تمضي حياتها باللهو والفجور، لكنها مفكرة تتحدث عن حوار الحضارات ووُجوب السلام بين الشعوب.

إنَّ الذي يمثل الإسلام اليوم صحفي مأجور لا يعرف عن الإسلام إلاَّ كما يعرف عنه أبو جهل أو أبو لهب، لكنه يفتي للمسلمين في أمْرِ جهادهم وسِلْمِهِمْ.

إنَّ الذي يمثل الإسلام اليوم شابٌ فاشلٌ في الدراسة، فذهب إلى كليات الشريعة لضعف إدراكه ثمَّ رُكِّب له أقدام خشبية، وأُطلقتْ عليه ألقابٌ رسمية فصار عالماً يُشار له بالرشوة وبيع الفتاوى.

كل هؤلاء يحملون إسلام التسامح والحبَّ والحوار، ولكنهم لا يهمهم أن تعود للمسلمين عزَّتهم بمقدار ما يهمهم أن يتكلم باسم الإسلام الذي صار مُبَاحاً لكلِّ جاهلٍ وغبيٍّ ومأجورٍ وموظفٍ يبيع الفتاوى، كما يبيع بائع الخضروات البصل والبطاطا.

فمن أعداء السلام إذاً؟ :ـ

دعني أُخْبِرُكَ أَيُّها الشاب عن أعداء الإسلام دون الرجوع للكتاب والسنَّة ولا لِسِيَّرِ الصالحين؛ أعداء الإسلام والمسلمين اليوم ليسوا هم مَنْ سرقَ الثروات، وليس مَنْ بدَّلَ الشريعة، ولا مَنْ والى الكافرين، ولا مَنْ احتل ديار المسلمين، ولا مَنْ ملأ السجون بالمؤمنين.

إنَّ أعداء الإسلام والمسلمين هم صنفٌ واحدٌ فقط، إنهمُ المجاهدون.

والحكاية يسيرة جداً :ـ

لقد كان العالَمُ ينعمُ بالرخاء والسلام، وكان العام كلَّه يؤدي الحقوق لأهلها، وكان الشرق والغرب يحترم أهل الإسلام، فيُحاورهم ويتعلم منهم، حتَّى إذا اقترب العالم كلَّه من حبِّ الإسلام والمسلمين، ومِنْ أنْ يَرُدَّ إليهم حقوقهم، وخلال هذه اللحظة خرج مجموعة من الجهلة؛ ومن الشباب العملاء تغريراً «هم عملاء لجماعةٍ موسومةٍ على أهل الأرض كلِّهم، أي من غير الأرض» فأفسدوا كلَّ شيءٍ، فأتوا بالأعمال الإرهابية الغريبة، فانقلب حبّ العالم للمسلمين بُغْضاً، واحترام العالم للمسلمين كراهيةً.

هؤلاء هم أعداء الإسلام.

لكن ماذا نقول في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌ**﴾؟ سيقول لك الفقهاء الجُدد التالي: اسمعْ يا بُنَي، هذه نزلت في قومٍ مخصوصين، في كفارٍ مخصوصين، في زمنٍ مخصوصٍ، فإنْ قُلتَ له: فسِّرْ لي يا إمام؟ فسيرد عليك:ـ

[1] المَعني هنا هو طاغوت الأردن ـ أخزاه الله في الدُّنيا والآخرة ـ إذ أنه من أوسخ وأذل خَدمة أعداء الله، وسبقه والده المقبور «حسين» ومن قبله جده «طلال». ألا لعنة الله عليهم أجمعين.

الكفار زمن رسول الله ﷺ ليسوا هم الكفار اليوم، فكفار الزمن الأول كانوا مُعادين للرسول وللإسلام، محاربين لله ولرسوله أما كفار اليوم فهم مُسالمون، محبون للسلام، غير مُعاندين، بل هم حضاريون، ويحلون كلَّ مشاكلهم بالحوار، ولذلك وضعوا لكَ ولغيرك مجالس الأمن لتشكو إليها الظلم إنْ وقعَ عليكَ، فإنْ ثبت لهم أنكَ مظلومٌ فسيهبون هبةَ رجلٍ واحدٍ لنُصْرَتِكَ وردِ الظلم عنك.

فإنْ قلتَ: لكني مظلومٌ مقهورٌ، فقد سُلِبَتْ أرضي، وسُرِقَتْ ثرواتي، وانْتُهِكَتْ حُرُمَاتِي.

فسيأتيكَ الجواب: المُشكلة فيكَ، فأنتَ لم تستطع أنْ تبيِّنَ للعالم مظلمتكَ، ولم تتقدم إليهم بالطُرقِ السليمة التي تعاقدوا عليها لقبول المظالم والشكوى، فما عليك إلاَّ أنْ تتعلمَ فنونهم وعلومهم حينها سيقبلون منك.

ثم تَنَبَهْ أنَّ هذه الآيات نزلت لَمَا كان الإسلام غير منتشرٍ، وهو يحتاج للأتباع، أما اليوم فالإسلام منتشرٌ فلا حاجة للجهاد كما كانت الحاجة إليه زمن الرسول ﷺ.

حينها ستحكَ رأسكَ مُستغرباً مِنْ هذا الجواب، وسيُدركُ شيخ «التربية الأمنية» أنكَ لم تقتنع، فسيُبادر إلى غمز شيخٍ آخرٍ ليتقدم نحوك ليقول لك:ـ

اسمعْ يا أيُّها الشاب المُتحمس، أنا أعلمُ أنكَ متألمٌ من أحوالِ المسلمين، وأنَّ الإسلام اليوم يحارب في المشرق والمغرب، وأنَّ الأخبار التي تسمعها تُتْعِبُكَ وتُؤْلِمُكَ، لكن الجهاد الذي تدعو إليه هذه الآية لابدَّ له من إذن الإمام الشرعي، فهو أدرى بمصلحة الأُمَّة والجهاد، فإنْ قمتَ بغير إذنه وآذيتَ الكفار كما تقول هذه الآية كنتَ مفسداً آثماً، ولم يحصل لك الأجر العظيم الذي ترجوه من الله تعالى.

فإنْ حككتَ رأسكَ مرةً أُخرى، فسترى نفسكَ أمام رجلٍ آخر، قد احمرتْ عيناه، وانتفختْ أوْدَاجُهُ، وسيقذفُ في وجهك السؤال «الأمني»: إيَّاكَ أن تكونَ ممن لا يرى لحاكمنا ولايةً شرعيةً؟.

فإنْ تَنَحْنَحْتَ جاءك السؤال: أجِبْ.

لكن يا شيخ هذا الحاكم عَطَلَ الجهاد، وصالح الكفار صُلْحاً أَبَدِياً، وشرع القوانين الكافرة التي تجعل دين الدولة في أُمورها الخارجية على دين الطواغيت، ومثلها في الكثير من أمورها الداخلية كتشريع الربا وغيره.

تذكرْ أنَّ لك عائلة ومصالح وأعمال، فأنا أُحذرك من الطيش وإتباع الذين يريدون البلاء لك ولأهلك ولبلدك.

فإنْ حركتَ جُفُونَكَ مُسْتَغْرِباً حينها ستخرج مِن أمامه بالضرب والتعذيب حتَّى يخرجون هذه الآيات القرآنية من رأسك.

نعم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ﴾.

ففي هذه الآية أنَّ كلَّ موطنٍ من مواطن الجهاد هو غيظٌ للكافرين، وأنَّ كلَّ خُطْوَةٍ لأهل الجهاد وهي ألمٌ لهم في أرواحهم ونفوسهم الخبيثة، وأنَّ كلَّ نَيْلٍ منهم وهمُ الأعداء هو عملٌ صالحٌ يحبه الله تعالى، فإسعادهم وإراحتهم ليست مهمة المسلمين كما يريد مشايخ الجهل اليوم من أهل الإسلام عامة وأهل الجهاد خاصة، بل مهمة المسلمين أن يملئوا حياتهم ألماً وغيظاً وإلاَّ كانت حياة المسلمين كلّها ألمٌ وغيظٌ، وسيطئون بلادنا، وسيُؤلمون أبداننا ونفوسنا، وسنكون كما نحن الآن، لأنَّ الواقع أبلغ مِنْ كلِّ الكلمات لمن كان له قلبٌ يعِي ويُبْصِرْ.

لقد كان سمتُ النَّبي ﷺ وسمتُ أصحابه معه هو تحقيق عبودية الله في الأرض، وبسط سلطان العدالة، ونشر قِيم الهُدى والنُّور، ولذلك قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾، فالسائر على سنته، والمُقتدي بأمره هو هذا الذي يحقق فيه أمر تعب البدن وإغاظة وإيلام الكفار في أنفسهم وأبدانهم، فهذا هو أعظم الأعمال الصالحة التي يأمر الله المسلمين الأخذ بها، والاقتداء برسول الله ﷺ فيها، فإنْ أطاعوا ذلك كانوا من المحسنين كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

ففي هذه الآية جمعَ الله أعظم الأوصاف في عباده الصالحين وهي:-

هم على سننه ومشاركون له في عمله وطريقته.

وهم يرون أنفسهم أتباعاً له في ما يُصيبه من شدَّةٍ وتعبٍ، فإنَّ سنته العظمى في الحياة هي الجهاد، وهو الذي فيه العَرق والتعب والجوع والعطش.

إنَّ حياتهم هي نموذج حياة الصالحين، لأنهم أينما تقلبوا فهم في عملٍ صالحٍ، فإنْ ناموا أو قاموا، وإنْ مشوا أو وقفوا، فكلّ موطئٍ لهم في الجهاد هو عملٌ صالحٌ، وكلّ نفسٍ لهم في مسيرهم هو عملٌ صالحٌ، وكلّ شربة ماءٍ على ظمأٍ، وكلَّ لقمةَ خُبْزٍ على مخمصةٍ، وكلّ فراغهم من الماء أو الطعام، كلّ هذا لهم عملٌ صالحٌ، فنفقاتهم على أنفسهم لستر أبدانهم وسدِّ جُوعِهِمْ ودفعِ عطشهم مكتوبٌ لهم فيها الأجر.

وهم مَن يستحق وصف الإحسان.

فهذه مراتبُ العِباد، فهم مسلمون، صالحون، محسنون، لأنهم حقّاً على غرز النَّبيِّ ﷺ، وهمُ السائرون على هديه، فلم يتخلفوا عن طريقته، ولم تذهب عقولهم مذاهب الجهل أنهم أصحاب فكرٍ ونظرٍ في إبداع الطُرق للوصول إلى رضى الله وتحقيق النَّصر كما يفعل أهل الجهالة في زماننا.

كانتِ الآية تتحدث عن آلامهم في أنفسهم، وآلامهم في أعدائهم، فإنْ لم يَكُنْ في الجهاد إلاَّ المسير بلا آلام، فهل لهم أجرٌ في ذلك؟.

الجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

فهذا فضلُ الله؛ إذ خطواتهم التي يمشونها محسوبة في العمل الصالح، وما يأكلونه هم، وما يشربونه هم، وما يُنفقونه على أنفسهم لهم أجرهم فيه.

فهل علمتَ الآن يا عبد الله من أين أتى حديث رسول الله ﷺ وهو يُسأل عما يعدل الجهاد في سبيل الله تعالى فيقول: «**لا تطيقونه**»؟!.

فما هو العمل الذي فيه هذه الأجور وهذه الدرجات، ولأصحابه هذه المراتب غير الجهاد في سبيل الله تعالى.



تنبيه

سيقولون لكَ: كلّ هذا حقٌّ، ولكن لابدَّ للجهاد من شروط!!.

فقل لهم: أنتم تعلمون أنَّ الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، لا يُبْطله عدل عادلٍ ولا جور جائرٍ، وأنَّ صفة الطائفة المنصورة التي لا تنقطع إنما هو بالجهاد، فأنا أريدُ الجهاد، فدلوني على هذا الجهاد الذي ترونه قد استوفى الشروط في فِقْهِكُمْ حتَّى أسيرَ إليه!!.

فسينغضون إليكَ رؤوسهم، وسيولون عنك وهم يقولون: مسكين أخذه الحماس.



حكاية

اجتمعتُ مع رجلٍ له منزلةُ الأخ الأكبر عندي، فقد مضت لي معه أيام يرعاني رعاية دينية، ثم اختلفتْ بنا السبل، فبعد سنين قدَّر الله لي وله أن اجتمعنا في بلاد الغربة، فلما آنس بنا الحديث قلتُ له :-

أيُّها الأخ الكبير، أنا أعلمُ حرصكَ على مُتابعة الرسول ﷺ، فهل تظن أنَّ رسول الله ﷺ لم يخبرنا ماذا نفعل في زماننا هذا؟.

قال: لا، بل إني أعتقد أنَّ رسول الله ﷺ علمنا وهدانا ما هو المخرج.

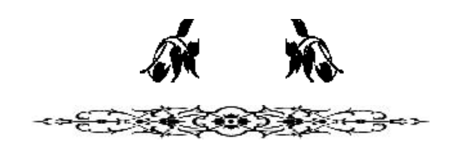
فقلتُ له: فأين تجد هذا في سنَّة رسول الله ﷺ؟.

فسكتَ، ثم قال: هاتِ ما عندك.

فذهبتُ وأحضرتُ له ورقات كنتُ جمعتُ فيها حديث الطائفة المنصورة وصفاتها، وقد نُشِرَ بعضها في رسالة مطبوعة سمَّيتها: «معالم الطائفة المنصورة في عُقر دار الإسلام بلاد الشام»[1]، فقرأتُ الأحاديث عليه، وفيها بيانٌ واضحٌ أنَّ صفة هذه الطائفة الجهاد في سبيل الله، بل فيها الوصف الصريح وهو القتال.

فلما انتهيتُ، سكتَ محدثي قليلاً ثمَّ قال لي: هل تجد في اللغة العربية معنى لكلمة القتال غير ما تقصده في كلامك؟!.

حينها سكتَ، ووجبَ عليَّ السكوت، ورُحْتُ أخدمه وأقومُ له بواجب الضيافة.



[1] لقد كان للنور للإعلام الإسلامي بالدانمارك الشرف بطباعتها عام ١٩٩٥م. كما طبعت رسالة: «فتوى خطيرة عظيمة الشأن...» وقد نفذتا. يسر الله طباعتهما مرةً ثانية.

مشكلة فقهية

أنا عاجزٌ، وكلّ مَنْ أحبَّ أنْ يدخلَ في الطائفة المنصورة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ عاجزٌ عن التوفيق بين هذا الأمر وبين شروط فقهاء العصر في الجهاد اليوم، لأنَّ شروطهم تعني وَضْعاً واحداً هو أن تنضم لجيش حاكم بلدك، فيكون جهادك الوحيد إنْ حصل جهاد أنْ تخدم جيوش الكفار حين تغزو بلاد المسلمين، أو تُقاتل بلداً آخراً فيه شابٌ آخرٌ مثلك دخل في ذلك الجيش استجابةً لمفتي بلده أنَّ الجهاد لا يكون إلاَّ مِنْ خلال جيش ولي الأمر في ذاك البلد.



تنبيه

فقهاء البلد لن يترددوا في تسميتك شهيداً إن قَتَلك هذا الشاب «المجاهد» في البلد الآخر، لكنهم لو دفعتَ لهم مال الأرض كلّها فلن يأتوا معك إلى المعركة ليُقتلوا شهداء، لأنهم يبيعون الألقاب فقط، وبائع الألقاب المُزورة لا يشتريها لنفسه ولا لأولاده.

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾.

إنَّ مِنْ عظمة النَّبيِّ ﷺ أنه جاء بالصِّدق وصَدَّقَ به، وهذا أمرٌ بالطاعات وكان إمامها، وكان يستغفرُ ربَّه وهو الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكان مِنْ شفقته على أُمَّتِه وعدم شقته عليها أن لا يذهب في كلِّ غزوةٍ تخرج إلى المشركين لما يعلم من حزن أصحاب الأعذار في عدم موافقته فكان يقول: «**والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْلاَ أَنَّ رجالاً من المؤمنينَ لا تَطِيبُ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، ولا أَجِدُ ما أَحْمِلُهُمْ عليهِ، مَا تَخَلَّفْتُ عن سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سبيلِ الله، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ في سبيلِ الله ثم أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثم أُحْيَا، ثم أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ**»[1]، ولذلك ما كان يخرج رسول الله ﷺ إلاَّ للغزوات الكِبار، والمعارك المصيرية العُظمى، ولما كان الأمر كذلك فإنَّ الله حض المؤمنين في المدينة، والمؤمنين من الأعراب أن لا يتخلفوا عن رسول الله ﷺ إذا خرج، ذلك لأنَّ خروجَهُ يعني أنَّ الأمرَ عظيمٌ، ولذلك رأينا فضح القرآن للمنافقين المُعتذرين عنه في كلِّ غزواته سوى غزوة بدر كما ذكر كعب بن مالك ﷺ في حديثه السابق.

إذا كان هذا شوقُ رسول الله ﷺ للجهاد، وهذه رغبته، وما يمنعه من الخروج مع كلِّ غُزاة إلاَّ رحمته وشفقته على أُمَّتِه، فكيف تطيب نفوس النَّاس بترك الجهاد؟! وكيف يرون أنَّ النفير مشقة تدعو للهروب والنكوص؟!.

إنَّ نفسيَّةَ النَّبيِّ ﷺ هي أعظم النُّفوس وأرقاها، وهي أدرى النُّفوس بالخير لنفسها ولأصحابها وللعالم، وهي أرحم النُّفوس على البشرية جمعاء، ومِنْ أجلِ ذلك كلِّهِ فإنه يحبس نفسه غير راغب بذلك عن المسير والنفير مع كلِّ غزوة يرسلها، هذا وإنَّ مجموع البعوث والسرايا منذ أول غزوة أرسل بها حمزة عمَّه ﷺ وأرضاه على رأس سبعة أشهر من الهجرة إلى أنْ جهز جيش أُسامة بن زيد إلى الروم في عامِ وفاته كان ثمان وثلاثين كلّها وقعت خلال وجود النَّبيِّ ﷺ في المدينة، وكان عدد ما خرج فيها على ما ذكر ابن اسحق سبعاً وعشرين غزوة، وقال الطبري: كانت غزواته بنفسه ستاً وعشرين غزوة، وسبب الخلاف في العدد هو الخلاف في خروجه من خيبر إلى وادي القرى هل هي

[1] البخاري عن أبي اليَمَانِ في «كتاب الجهاد والمغازي» باب تمني الشهادة. حديث رقم: ٢٧٩٧.

غزوة واحدة أم أُخرى، لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ منها إلى بيته، لكنه واصل فمضى إلى وادي القرى، فتأمل هذه الحياة القصيرة بزمانها، العظيمة بأعمالها، لِتُدْرِكَ ما هي حياة النَّبيِّ ﷺ، ولِتُدْرِكَ ما هي حياة أصحابه معه، وما هو حال المدينة ورجالها وأهلها، ولقد رأيتَ بعض النماذج من البلاء في غزوات النَّبيِّ ﷺ حيث البلاء الشديد، والشهداء، والظروف القاسية، مثل أُحد والخندق وحُنين وتبوك، وغيرها مما وقع لأصحابه كبئر معونة ومُؤْتَة.

فهذه حياةُ نبيِّ الإسلام، وهذه حياة أصحابه الكرام، وهذه هي بيئة القرآن، ولقد أكرم الله الأُمَّةَ على مدار تاريخها بمقدار اقتدائها بهذه الحياة، فكلما كان الإمام والسلطان قريباً من هذه الحياة هو وجُنده كان مُباركاً منصوراً مُؤيداً، وكلما كان بعيداً عن هذه الحياة كلما كان مخذولاً مهزوماً بغيضاً، وكذلك الأُمَّة، فإنَّ أُمَّةَ الإسلام في تاريخها لا يكون لها الهداية والتوفيق والعزَّة واستعلاء الإيمان إلاَّ بالسير على هدي النَّبيِّ ﷺ، أما إنْ ركنتْ للقعود، فَرَضِيَتْ بالحياة الكسولة الخاملة فإنَّ هذا يعني وفاتها وغيابها عن مكانتها التي أرادها الله لها.

هذه قضيةٌ وُجودية لا تخضع للنظر، ولا لفتوى فقيهٍ، ولا لاجتهاد مفكرٍ وقائدٍ، لأنها أعظم وُضوحاً مِنْ أن تخضع للاجتهاد والبحث والنظر، فإنْ كان هناك قضية فِطرية في حياة الإسلام وعمل المسلمين، فإنَّ هذه القضية الفِطرية هي الجهاد، لأنها الهواء للحياة، والشمس للنماء، وذهابها يعني ذهاب الحياة والنكوص إلى الفناء.

أما إنْ سأل النَّاس: كيف الجهاد، وكيف نحققه؟.

فهنا يأتي الامتحان الأكبر للذين يزعمون أنهم مفكرون وقادة، وعلى هذه الزاوية يتكشف النَّاس، فيتعرى مَن يستتر بشعارات، وجوب الإحياء بالاجتهاد وتفعيل العقل والفكر، وحين تتأمل الحال تعرف أنَّ كلَّ هذا الغثاء مِنْ مُدَّعي العقل والنظر والاجتهاد، وأنَّ كلَّ هذه الجموع التي تتسابق نحو قيادة الأُمَّة وادعاء ميزاتها في الإمامة إنما هي هباء، لا يستحقون هذه المراتب التي يزعمونها، وهنا فقط يظهر قيمة قادة الجهاد اليوم في العالم الإسلامي، لأنهم هم مَن حقق هذا الأمر، ومهد له ظروفه، وبعثه حياً رغم كلِّ الصعوبات والمشقات والموانع.

إنهم هُمْ مَنْ حَطَمَ أسار عقيدة الإرجاء التي نخرت في الأُمَّةِ منذ مئات السنين، وهُمْ مَنْ تجاوز جاهلية الجبر القدرية التي حولت المسلمين إلى صخرةٍ صماء لا تبرح مكانها، وهم الذين تحرروا من فقه الجمود والتخلف الذي عطل عقل المسلم ووعيه، وهم الذين رفضوا جاهلية الواقع إيماناً بوعود الكتاب والسنَّة، من أجل ذلك هم وحدهم مَن يستحقُ أن يُسمى مجدداً، لأنهم جددوا العلم والإرادة في كلِّ جوانب الحياة، وأما غيرهم فلبعضهم فضائل في جانبٍ لا يُنكر، لكن فيهم ظُلمة في جوانب أُخرى، ولو لحقوا بالقافلة لَكان لهم الخير الكثير، لكن أغلبهم ضعفت بهم إرادتهم، ولا أقول عِلمهم، فلم تقوى نفوسهم أن يعيشوا كما يعيش قادة الجهاد في الجبال والكهوف لِيُحققوا

اليوم قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾[1]، وهم يأملون وعد الله فيما يأتي لهم ولأُمَّةِ الإسلام بما بعد ذلك في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾[2].

لقد هدى الله طوائف الجهاد وقادتهم إلى باب الخير العظيم، وهو أنَّ الأحكام الشرعية هي خطابٌ للأُمَّةِ، فحين يتخلى عنها الحاكم أو السلطان أو يُعاديها ويُنكرها فإنها تعود للأُمَّةِ، ولذلك قاموا هم بهذه المُهمة، وكانتِ الصدمة كبيرة على المأسورين بأنماط التاريخ أو المحتلين في عقولهم بتشريعات الجاهلية المُعاصرة، فلم يستسيغوا هذه الهداية العظيمة إذ رأوا فيها ضربٌ لمناصبهم وهياكلهم التي استقر وُجودها على معنى ما داخل الجاهلية المعاصرة، فانطلقوا يصرخون في المجاهدين جهلاً في البداية، ثم تحول الجهل إلى رعبٍ مِنْ هولِ البلاء الذي يصنعه الجهاد حين يكون صداماً مع رأس الكفر الذي يبذلون هم وغيرهم الجهود لإرضائه وتسكينه، وحالهم في ذلك حال المصريين قبل الإسلام مِن رمي بناتهم في النيل طلباً لردِّ غضبه عنهم.

لِيسمع هؤلاء الذين يرون أنفسهم مجددين ومُفكرين وقادة فكر يعدون أنفسهم أئمة العصر إلى قضية يسيرة لو صدقوا مع أنفسهم: إنَّ الجهاد شريعة الرحمن، وأنَّ مُوجباته العينية اليوم قد حضرت، ولا يُنكرها إلاَّ ضالٌ قد طمس الله على بصيرته، فليقولوا لشباب الإسلام ورجاله حلاً لسؤال: كيف نجاهد؟، لأنهم حين يصرخون بخطأ المجاهدين، وحين يدَّعون أنَّ أهل الجهاد غير مهديين، فمِنَ الواجبِ عليهم أن يقولوا لهم عنِ البديل، وأقصد الجهاد البديل لا بديل الجهاد، فهنا هو معيار صِدقهم في كلِّ دعاويهم واتهاماتهم.

المجاهدون اليوم وقادتهم قدَّموا أدلتهم في كلِّ ما يأتون به علناً، ولم يَقُمْ أحدٌ قط فيما علمتُ قد ردَّ رداً شرعياً على مسائلهم، ـ وأَزْعُمُ أني أُنَقِبُ في كلِّ ما يُقال في هذا الباب، لأني أعتقدُ أنَّ هذه قضية العصر ـ لأنَّ كلَّ ما يُقال هي عمومات قومٍ يصرخون ويسبون، دون أدلةٍ بيِّنَةٍ على طريقة أهل الفقه من العلماء الذين يعرف طلبة العلم سبيلهم الذي استقر طِوال تاريخ الإسلام، ثمَّ إنَّ المجاهدين وقادتهم قد استفرغوا وُسعهم في إقامة الحجة على العلماء وغيرهم بما يستطيعون من البيان والإعذار، ثمَّ اجتهدوا طاقتهم في وضع الجهاد حقيقة عملية على الأرض، إذ استنفروا شباب الإسلام لكلِّ هَيْعَةٍ ومَوْقِعَةٍ فيها مكرمة من المكارم في ردِّ الظُلم عنِ المسلمين، ثمَّ سار الجهاد مسيرته القدرية التي وصلت إلى أن يُعاديه الكفر جميعه؛ من كفار أصليين ومرتدين، وكنتم أنتم تؤيدون من الجهاد ما هو مرضي عنه مِنْ حُكامكم، وما كان في سعة بعدم البلاء والامتحان، ثمَّ لما صارت

---

[1] سورة الأنفال، الآية: ٢٦.
[2] سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

كلمة الجهاد غالية، يدفع المرء ثمنها، نكصتم وهربتم، فالفاضل منكم مَنْ سكتَ، والضال الذي طمس الله بصيرته ودينه مَن دخل مع أعداء المسلمين في سبِّ المجاهدين، وبين هاتين المرتبتين كان منكم آخرون، فمنِ الملوم إذاً؟!.

اعلموا أنه ليس مِنْ حقِّكم أن تُغلقوا باب الشَّهادة، ولا مِنْ حقِّكم أنْ تُغلقوا باب أعظمِ الأُجور في دين الله، ولا مِنْ حقِّكم أنْ تصدوا النَّاس عن ذروة سنام الإسلام، ولا مِن حقِّكم أن تحرموا شباب الإسلام من أنْ يسيروا مسيرة رسول الله ﷺ وأصحابه، فإنْ ظننتم أنكم بتسمِّيتكم علماء وقادة قد ملكتكم الحقَّ في ذلك فأنتم كفار بلا مثنوية في دين الله تعالى.

إنَّ للأُمَّةِ عليكم حقّاً هو أن تقودوها للجهاد، وأنَّ مِنْ حقِّ كتاب الله عليكم أن تقرؤوا آياته تحريضاً للمؤمنين على الجهاد، وإنَّ مِنْ حقِّ الحياة أنْ تسلكوا فيها سبيل السنن الإلهية، فإنْ عجزتم عن ذلك كلِّهِ فإنَّ مِنْ حقِّ هؤلاء عليكم جميعاً أن لا تنتسبوا للعلم، ولا تدفعوا أنفسكم لإمامة وقيادة الأُمَّة، ولا أنْ تعملوا في أي باب من أبواب الفكر، إنما لكم سعة أنْ تكونوا ـ إن اتقيتم ـ أعراباً تعيشون مع الإبل، أو مع الغنم في شُعَبٍ مِنَ الشِعاب تعبدون الله، فإن قصَّرت بكم تقواكم عنِ العُزلة فيسع أحدكم أنْ يبيع الفواكه والخضروات في بلده.

نعم هناك سُبُلٌ أُخرى من الخير تعملونها، وهي والله عظيمة لو علمتم: خففوا الزحام فيما بينكم واذهبوا إلى القرى والبوادي وعلِّموا النَّاس القرآن والسُنن، وارحلوا إلى البلاد الفقيرة التي لا تُغْرِيكُمْ بالمال والشهرة، واجلسوا للنَّاس هناك في المساجد كما يفعل الآلاف المُبشرين، وعلِّموا الأطفال القرآن، والنَّاس الدِّين والفقه والسُنن، ودعوا المجاهدين وما نصبوا لأنفسهم له، فإنهم يقولون لكم: إنْ انتصرنا كان انتصارنا لنا ولكم، وإنْ هزمنا كُفِيتُمْ أمرنا، أما أنْ تأتوا يوم القيامة خصوماً للمجاهدين، أو تأتوا يوم القيامة أئمة للبدع والضلالات التي تحجب المسلمين عن الجهاد، لأنكم في حياتكم الدُّنيا عجزتم عن مرتبة الجهاد، فلم تذهبوا للعزلة، بل ذهبتم إلى أبواب الشرِّ التي تصف الواقع على غير حقيقته، وتفني بأعمال الكافرين من ديمقراطية وجهالات أخرى وتحسبون أنكم تحسنون عملاً، فاعلموا أنَّ القليل مِنَ السنَّة بل التقصير فيها خيرٌ مِنَ الاجتهاد في البدعة، فالمقصر معذورٌ والمبتدعُ آثمٌ مأزورٌ، وكفى بأمثال بِدعكم هذه أنها لا تُصيبكم وحدكم بل هي إضلالٌ للأُمَّةِ جميعها من ورائكم.

يا قوم! أما آن لنا أنْ نتقي الله في ديننا وأنفسنا، فلقد صرنا أضحوكة العالم، ووصلنا إلى حضيض الهوان، وصار الواعظ منا يُتاجر بعظته كما يُتاجر المرء ببضاعته، وصار النَّاس يُدعون إلى هذه العظات ويدفعون لها الأموال كما يدفع للعارضين وأهل الغناء والتمثيل، وصار الكاتب يسوِّق كتابه كما يسوِّق التجار، وصار قائد الحزب يسعى للمناصب كما يسعى أهل الدُّنيا، فوالله إنَّ المرء ليشتهي أن يرى من هؤلاء القوم زاهداً يُذكره بالنَّبِيِّ ﷺ وأصحابه.

لقد صار النَّاس يحسدون هؤلاء لا على دينهم وتقواهم وزُهدهم وذِكرهم لله وصلواتهم وقِيام الليل، بل صار هؤلاء يُحْسَدُونَ على ما معهم من دنيا كما يحسد أهل الدُّنيا على دنياهم، لكنَّ الفرق أنَّ أهل الدُّنيا اكتسبوها مِنْ طُرُقِهَا، وهؤلاء القوم أكلوا بآيات الله ثمناً قليلاً، وبضاعتهم كلمات القرآن والسنَّة وسير الأولين. فحسبنا الله ونعم الوكيل.

يا قوم! كفانا استهزاءً بدين الله تعالى، وكفانا شراءً بدين الله وآياته متاع الدُّنيا وأهوائها.

يا قوم! إنَّ هذا الدِّين أمره وعِماده رجاء الدَّار الآخرة، فأين هي اليوم من أعمال أهل العلم والوعاظ والمفتين.

لقد صدق القائلون: إنَّ هذا الدِّين عظيمٌ لكن أين الرجال؟، وإنَّ الأمر واضحٌ لكن أين العاملون؟، وإنَّ السبيل جليٌّ لكن أين الصادقون؟.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[1]، ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[2].

لقد سمى الله إيذاء أعدائه إحساناً، وسمى الله عملهم من الطاعات كالإنفاق على أنفسهم والسير والنفير أحسن ما يعمل المحسنون.

الإحسان هو أعلى درجات الدِّين كما في الحديث النَّبوي الشريف، ومبناه اللغوي يعني أنْ يتجاوز في أدائه الحقوق إلى ما هو أكثر من ذلك، وهي صفةٌ كذلك تعني أن يُلازم المرء الفِعْلَ الحسن، ولذلك هي صفةٌ لازمةٌ، وصفةٌ مُتَعَدِيَةٌ، ولفضلها فإنَّ أعظم تفسيرٍ لها هو ما فسره الحبيب المصطفى ﷺ: «**أنْ تَعْبُدَ اللهِ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يراكَ**»[3]. ذلك لأنَّ صاحبها دائم الحضور في العبودية، وهذه أعظم المراتب التي يصل إليها قلب العابد في حبِّه وخشيته ورجائه واحتسابه.

ولما كان الجهاد خروجاً عن النَّفس من كلِّ أهوائها، كما أنه عبودية لله، متواصلةٌ لا تنقطع في كلِّ لحظاتها، كانَ الجهاد هو عمل المحسنين في أنفسهم، فلذلك هو صفةٌ لازمةٌ.

وكذلك لما كان الجهاد إصلاحاً للخَلْقِ، إذ لا يستقيم الوجود إلاَّ به، ولا تنقى حياة الأُمم إلاَّ بحركته، كان الجهاد هو عملُ المحسنين في غيرهم، فلذلك هو صفةٌ مُتعديةٌ.

فلذلك كان الجهاد هو عَمَلُ المحسنين في حالة كونه إيذاءً للكافرين، ونصباً وتعباً للمجاهدين، وهو سر ذكر الإحسان في الآية الأولى.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

[2] سورة التوبة، الآية: ١٢١.

[3] أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه. البخاري في «كتاب الإيمان» باب سؤال جبريل النَّبي ﷺ عن الإيمان والإحسان وعلم الساعة، وبيان النَّبي ﷺ له... حديث رقم: . ٥٠. طرفه في: ٤٧٧٧. ومسلم في «كتاب الإيمان» باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، وبيان الدليل على التبرِّي ممن لا يؤمن بالقدر، وإغلاظ القول في حقه. حديث رقم: ٩-١٠. النسائي في «سننه» حديث رقم: ٤١٧٧، ٤٩٩٠، ٤٩٩١. أبو داود في «سننه» حديث رقم: ٤٦٩٥. ابن ماجه في «سننه» حديث رقم: ٦٣، ٦٤. أحمد في «مسنده» حديث رقم: ٣٦٩، ٣٧٦، ٩٢١٧، ١٦٧١٦، ١٧٠٤٨.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[1].

تقدم أنَّ رسول الله ﷺ لم يخرج في كلِّ البعوث والسرايا، بل خرج في بعضٍ وأرسل آخرين في أُخرى لما تقدم من السبب، لكن وجبَ على المسلمين أن ينفروا جميعاً إذا استنفرهم رسول الله ﷺ أو الإمام فيمن بعده كما هو معروفٌ في كلام أهل العلم، فتكون هذه الآية في حالتين: **أولاهما:** أن لا يخرج رسول الله ﷺ بنفسه، **وثانيهما:** أنْ لا يستنفر رسول الله ﷺ الجميع أو قبيلة أو واحداً بعينه.

وعدم النسخ هو قول جماهير أهل العلم ممن لهم اهتمام بالسير والمغازي كالأوزاعي، والفَزَارِي، والسبيعي، وعبد الله بن المبارك، وزيد بن جابر. فهذا هو وجه الآية، وليس في الأمر نسخٌ كما ذكر بعض أهل التفسير[2].

أما مَنْ هي الطائفة المُتفقهة، هل هي النافرة أم المُقيمة بإذن الإمام؟.

فهذه قد اختلف فيها أهل العلم ورجح ابن جرير أنَّ الطائفة النافرة هي المتفقهة وقال: فإنَّ أولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: «لِيَتَفَقَّهَ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ بِمَا تُعَايِنُ مِنْ نَصْرِ اللهِ أَهْلَ دِينِهِ وَأَصْحَابَ رَسُولِهِ عَلَى أَهْلِ عَدَاوَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ، فَيَفْقَهُ بِذَلِكَ مِنْ مُعَايَنَتِهِ حَقِيقَةَ عِلْمِ أَمْرِ الإِسْلاَمِ وَظُهُورِهِ عَلَى الأَدْيَانِ ـ مَنْ لَمْ يَكُنْ فَقِهَهُ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ فَيُحَذِّرُوهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ مِثْلَ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ شَاهَدُوا وَعَايَنُوا مِمَّنْ ظَفِرَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ مَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ إِذَا هُمْ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مَنْ غَزْوِهِمْ»[3] انتهى.

ثمَّ ردَّ رحمه الله القول الآخر وضعفه[4].

وابن جرير يرى أنَّ الفقه هنا ليس هو الفقه بمعناه الاصطلاحي لكن الفقه عنده هو حصول مُعاينة النافرين للنَّصر الإلهي للمجاهدين، وما يحصل من عذابٍ وخزيٍ لأعداء الله[5]، وهذا معنى حقٌّ لا

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

[2] قال القرطبي رحمه الله تعالى: «أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ ؛ قَالَ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: سَمِعْتُ الأَوْزَاعِيَّ وَابْنَ الْمُبَارَكِ وَالْفَزَارِيَّ وَالسَّبِيعِيَّ وَسَعِيدَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُونَ فِي هَذِهِ الآيَةِ إِنَّهَا لأَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَآخِرِهَا». «الجامع لأحكام القرآن» الجزء الثامن، الصفحة ٢٠٧. طبعة دار الفكر.

[3] «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» المجلد السابع، الحادي الرابع عشر، الصفحة ٥٦٦. طبعة دار المعارف.

[4] قالَ رحمه الله تعالى: «وَلاَ خَبَرَ بِالَّذِي قَالَ عِكْرِمَةُ وَالْحَسَنُ، مِنْ نَسْخِ حُكْمِ هَذِهِ الآيَةِ الَّتِي ذَكَرَا، يَجِبُ التَّسْلِيمُ لَهُ، وَلاَ حُجَّةَ نَافٍ لِصِحَّةِ ذَلِكَ. وَقَدْ رَأَى ثُبُوتَ الْحُكْمِ بِذَلِكَ عَدَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ...». «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» الجزءالرابع عشر، الصفحة ٢٥٤. طبعة دار المعارف.

[5] قال رحمه الله تعالى: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ فَإِنَّ أَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: لِيَتَفَقَّهَ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ بِمَا تُعَايِنُ مِنْ نَصْرِ اللهِ أَهْلَ دِينِهِ وَأَصْحَابَ رَسُولِهِ عَلَى أَهْلِ عَدَاوَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ، فَيَفْقَهُ بِذَلِكَ مِنْ مُعَايَنَتِهِ حَقِيقَةَ عِلْمِ أَمْرِ الإِسْلاَمِ وَظُهُورِهِ عَلَى الأَدْيَانِ ـ مَنْ لَمْ يَكُنْ فَقِهَهُ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ فَيُحَذِّرُوهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللهِ مِثْلَ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ شَاهَدُوا وَعَايَنُوا مِمَّنْ ظَفِرَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ مَنْ أَهْلِ الشِّرْكِ إِذَا هُمْ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مَنْ غَزْوِهِمْ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ يَقُولُ: لَعَلَّ قَوْمَهُمْ ـ إِذَا هُمْ حَذَّرُوهُمْ مَا عَايَنُوا مِنْ ذَلِكَ ـ يَحْذَرُونَ فَيُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، حَذَرًا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ بِالَّذِينَ أُخْبِرُوا خَبَرَهُمْ.
وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلَى الأَقْوَالِ بِالصَّوَابِ ؛ وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ الَّذِي رُوِّينَاهُ عَنْهُ». «المرجع السابق. الجزءالرابع عشر، الصفحة ٥٧٣.

شكٌّ فيه، فإنَّ هذا الفقه العظيم هو ما تحتاجه الأُمَّة في زماننا حيث اليأس في القلوب من وُعود النَّصر، كما الضعف والجبن فيها مِنْ مُواجهة الكفار وعَتادهم، فإنَّ مَنْ يسمع أخبار المجاهدين، وما يحصل لهم من التأييد الإلهي، والكرامات العظيمة لَيستيقن أنهم هم أعظم النَّاس فِقْهاً بآيات الله ووَعْدِهِ، حتَّى إنَّ أخبارهم هذه لِغَرَابَتِهَا على الجالسين حتَّى العلماء منهم لَتُرَدُّ وتُسْتَهْجَن، لأنهم لا يتصورون حدوثها.

ومما يقوي ما يقوله ابن جرير هو أنَّ الذين يريدون تحصيل الفقه «الاصطلاحي» لا يمكن تحصيلهم إيَّاه إلاَّ بالنفير والهجرة للعلم كما هو شأن عامة المسلمين من غير أهل المدينة زمن رسول الله ﷺ، وكما هو شأن سير العلماء في تاريخ الإسلام كلِّه، إذِ الهجرة والرحلة في طلب العلم أمرٌ مُلاَزِمٌ لسُننه وطريقته، فلا يُقابل النفير للجهاد هو القعود، بل يُقابله النفير لطلب العلم.

وعلى كلِّ وجوه التفسير فإنَّ هذا يبيِّنُ أنَّ الأصل في الأُمَّة الجهاد، ولا يقعد إلاَّ المعذورون أو مَنْ أذن لهمُ الإمام، وحين يتعيَّنُ الجهاد بوجهٍ من الوجوه فإنَّ القعود عنه إثمٌ عظيمٌ وجريرةٌ كبيرةٌ.

أما القول بأنَّ ما يفعله البعض اليوم من التفقه من أجل الدُّنيا ووظائفها، ومن أجل تحسين معيشة المرء وكسب ماله هو الذي يحقق معنى هذه الآية فهم واهمون مخطئون، فإنَّ الفقه الذي يأخذونه لا يُعَلِّمُ النافرين للجهاد دينهم، ولا يُفقههم ما غاب عنهم بسبب انشغالهم بالجهاد، لأنَّ عامة ما يزعمونه من فقهٍ في زماننا هذا أنهم يمنعون الجهاد، ويحرمونه، ويثبطون عنه، ويشترطون له شروطاً تعني شيئاً واحداً ألاَّ جهاد اليوم، فإنْ كان معنى الآية أنَّ المقيمين هم مَنْ يتفقهون في الدِّين لانشغال المجاهدين بالنفير والجهاد، فإنَّ معنى هذا أن يكونوا رِدْءاً للمجاهدين كما شأن العلماء في كلِّ طبقات التاريخ، يحبونهم ويدعون الله لهم، ويحرضون على اللِّحاق بهم، ويُقيمون معهم الشهور والأيام في الثغور لإقامة مجالس العِلْمِ والحديث والفقه، ولقد كان من نوادر الرحلة في طلب الحديث أنَّ بعضهم إنما كان ينفر للرباط ليسمع من الشيوخ حديثهم العالي لإقامتهم هناك السنين، فَلَيْتَ شِعْرِي أينَ مَنْ يزعمون الانتساب لأهل الحديث اليوم، هل صار مقامهم هو التجارة بالأوراق، والاكتساب بحديث رسول الله ﷺ، والتنافس بتراث السلف من أجل المال والمنصب ورغد الحياة؟! ثم يزعمون بعد ذلك أنَّ هذا هو تجديد الدِّين، وأنَّ هذا هو ما يحقق للمسلمين النَّصر والعزَّة، وأنهم بهذه السبل يحققون معنى الانتساب لوُراث حديث رسول الله ﷺ!!.

«**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1]. لأنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً، ولَكِنْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ، وإنَّ مِنْ عِلْمِ الأَنْبِيَاءِ أنَّ ما جاؤوا به هو لتحقيقِ الدَّار الآخرة، فكلُّ عِلْمٍ لا يُوصِلُ لهذا المقصدِ فهو لا يُعَدُّ مِنْ طلبِ العِلْمِ ولا مِنْ واجباته، ولذلك فإنَّ النَّاس يَرَوْنَ صِدْقَ عِلْمِ الرجل من خلال زُهده في

[1] الترمذي في «جامعه» باب ما جاء في طلب الفقه على العبادة. حديث رقم: ٢٧٥٢. الدارمي في «سننه» باب في فضل العلم والعالم. حديث رقم: ٣٤٨. أبو داود في «سننه»، «معالم السنن» للخطابي. باب في فضل العلم. ١٤٤٨. ابن حبان في «صحيحه» ذكر وصفِ العلماء الذين لهم الفضل. حديث رقم: ٨٨. ابن ماجه في «سننه» باب فضل العلماء والحث على طلب العلم. حديث رقم: ٢٢٣.

الدُّنيا، وإقباله على الدَّار الآخرة، وتركِ هوشات النَّاس حول الدُّنيا ومتاعها، فإنْ وجدوا الرجل على غير هذا الغرز والسبيل علموا أنه صاحب دعوى ليس أصيلاً في انتسابه للعلم، ولذلك كان من مثل القرآن في هؤلاء ما قاله الله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)** ﴾[1].

ففي هذا المثل جعل الله عالِم السوء كالكلب لا يتغيَّر مِنْ أمرهِ شيءٌ، فهو كما كان قبل العِلْمِ في إقباله على شهواته، ونهمته في الدُّنيا: «**أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ**»، وثاني صفاته: «**وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**»، فهُما صفتان لعالِم السوء: الرغبة في الدُّنيا، وإتباع الهوى لا ما يأمره به العلم من إتباع الحقِّ.

تأملْ هذه الآيات واجْمَعها مع قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا** ﴾[2]. ثمَّ اعملْ هذه الآيات في ما ترى من علماء السلاطين الذين يحاربون المجاهدين، ويضرب السلطان بسيفهم دين المجاهدين وأعمالهم، فاحْكُمْ بنفسكَ لتعرفَ أهؤلاء القوم أقرب إلى غَرَزِ النُّبوة ووُراثتها، أم أنهم على غرز الشيطان ومذاهبه.

ثمَّ عَرِجْ ببصركَ إلى سيرة السلف ممن نقلوا لنا كتاب الله وعلومه، وسنَّة رسول الله ﷺ وفقهها لترى كيف كانوا في أمْرِ الحقِّ وكلمة الحقِّ والزهد والإقبال على الآخرة.

إنَّ قدر العلم والعلماء هو الصَّبر واليقين، والبلاء والزهد، ولذلك قَلَّمَا تجد عالماً من علماء السلف إلاَّ وابتلي في بابٍ من أبوابِ الحقِّ، فما الذي جعل السابقين على هذه الصفة، ثمَّ صار من قدر المُنتسبين للعلم اليوم أن يُعرفوا كما يُعرف أهل الدُّنيا من النَّعيم والرخاء والخوض في الشهوات؟!.

نحن لا نحسد أهل الدُّنيا على دُنياهم، سواء كانوا قد انتسبوا للعلم أم لم ينتسبوا، فالحياة قد علمتنا أنَّ الحصول على ذهب الدُّنيا ليس صعباً، بل هو أسهل ما في الحياة، وإنَّ أشدَّ النَّاس غباءً بوُسْعِهِ أن يقتني منها ما يُغنيه، لكن الحديث عن أهل العلم في هذا الباب لأسباب منها:-

صيانة للعلم أن يحمله مَن لا يستحقه من الذين يتخذونه مَطية لأهوائهم وشهواتهم، لأنَّ ضريبة هذا الفِعل هو خيانة العلم لُزُوماً، فإنَّ المرء إنْ حرص على الدُّنيا فإنه لابدَّ أنْ يسلكَ سبيل الهوى في الفتوى والقول والعمل، وسيُعْرِضُ لزوماً عن سبيل الهُدى والحقِّ.

[1] سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥-١٧٦.
[2] سورة الزخرف، الآيات: ٣٣-٣٥.

إننا نُدَافِعُ عنِ الجهاد الذي يحاربه هؤلاء، لأنَّ وضع الجهاد والمجاهدين مقابل عِلْمِ هؤلاء خطأٌ شنيعٌ، إذ يُوهِمُ أنَّ العلماء الذين أُمرنا الله بالأخذ عنهم وإتباع وصاياهم هم هؤلاء، وهم في واقع الأمر في صفٍ يُنازِئ المجاهدين، فبهذه القِسمة يكون الجهاد خصماً للعلماء الصَّادقين، والأمر ليس كذلك، فإنَّ هؤلاء هم مَنْ أخْلَدَ إلى الأرض واتبعَ هواه، إذ لو رأى المجاهدون علماء حقٍّ، يصدقون الله في أقوالهم، ويتقون الله في أفعالهم، ولهم سَمْتُ العلماء الصَّادقين لخضعوا لأمرهم واتبعوا أقوالهم، لكنهم كيف يتبعون مَن لا يقول كلمة حقٍّ يتبعها أذىً لقائلها، وكيف يسمعون نصيحة مَن هو آكلٌ شاربٌ على موائد أعداء الله تعالى؟.

بل كيف يُلْقُونَ بالاً لقومٍ لا يسمعون منهم كلمة حقٍّ تُدافع عن أعراض المسلمين إذا انْتُهِكَتْ من مصالحة الطواغيت في السجون والمعتقلات، لكنهم إن رأوا فسحة من شرٍّ يفتحها المجرمون ضدَّ المجاهدين خاضوا فيها خوض الجاهل الذي لا يُدقق في الخير ولا في الفتوى كذلك.

إن اسم العِلْمِ قد سُرِقَ اليوم كما سُرِقَ وصفُ الشَّهادة في سبيل الله، ووصف الجهاد في سبيل الله وغيرها من الأسماء الشرعية، ومن حقِّ دين الله علينا أن نُعِيدَ هذه الأوصاف لأهلها الصَّادقين، لأنَّ العلمَ ليس اسماً يُعطى حقَّ إطلاقه لحاكمٍ من الحكام كما هو الشأن في كبار المؤسسات الإسلامية في العالم الإسلامي، إذِ الكثير بل الأغلب في هذه الهيئات التي تطلق وصف العلماء والمفتين هي حقٌّ للسلاطين والحكام، وهذا مِنْ أَبْطَلِ الباطِلِ لو كان في ديار الإسلام، فكيف هو اليوم في ديار الردة؟! لأنَّ المعلوم أنَّ المؤسسة العلمية في تاريخ الإسلام هي مؤسسة مُستقلة، ترفض دوماً الدخول في حُكْمِ السلاطين والحكام، وهذه المؤسسة واضحة بيِّنَة، يتوارثها العلماء قديماً مِنْ خلال الإجازات والإنجازات العلمية، فيدخل المرء في زُمرة العلماء من خلال هذين المنفذين، وإنْ كان أمر الإجازة قد ضَعُفَ شأنه وصار صُورِياً، فإنه كان يقوم مقامه شهادة العلماء له حتَّى من غير المجيزين والشيوخ، وبقي أمر الإنجاز الذي يحققه المرء في إنتاجه الشفهي أو الكتابي، وكلّ هذا اليوم قد دُمِّر بفعل دخول السلطة عليه الحاكمة عليه إلاَّ بقايا قليلة في الأرض.

وإنَّ من مفاسد هذا الباب هو ما قامت به بعض الأحزاب التي ليست من العلم في شيءٍ، لا في حلقاتها ولا في اهتمامها أنْ بنت مؤسسات مُوازية لمؤسسات الإفتاء والعلم التي تتبناها الدولة الجاهلية، وأدخلتْ فيها مِنَ الخَلق ما هم على طريقتها في الفهم والأداء السياسي دون اعتبارٍ للعلم وموازينه، فبدل أن يقع الإصلاح الحقيقي تجذرت صور الجهل تحت أوصاف العلم والعلماء، حتَّى إنك لَتجد فيها، بل هو من كبارها وقادتها مَن لا يعلم من الفقه شيئاً، بل هو مما يُقال له المفكر الإسلامي، أو الفقيه الدستوري على دين الجاهلية، وكلّ ذلك لأنَّ النيَّة خدمة الفكر أو الحزب الذي صار مذهباً من المذاهب عندهم، يتعصب له، فيُدافع عنه بحقٍّ أو بباطلٍ، وليست النيَّة تحقيق وصف العلم والعلماء في أصحابها الذين هم أهلها والأحقّ بها.

إنَّ أثر العلماء على واقع المسلمين أشدّ من غيرهم فالحديث الشريف علّق الفساد على الأقوال الفاسدة التي يقولونها ؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ لا يَقبِضُ العِلمَ انتزاعاً يَنتزِعُهُ من العِبادِ، ولكنْ يَقبِضُ العِلمَ بقَبضِ العُلماءِ، حتَّى إذا لم يُبقِ عالماً اتخذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً فسُئِلُوا فأفْتَوا بغير علمٍ فضلُّوا وأضَلُّوا**»[1]. ولذلك فنفي الأدعياء في هذا الباب وكشف صفاتهم للنَّاس من واجبات ردِّ التهمة عن العلماء، كما هي من واجبات ردِّ الفساد والضلال عن دين الله تعالى.

إنَّ النَّاس لابدَّ لهم من أئمةٍ يرون شخوصهم في حياتهم، بهم يقتدون في سلوكهم، وبهم يهتدون في كشف ملمات ونوازل الحياة، وهم ملاذ العالم في الحوادث الكبرى لتقوية نفوسهم وردِّها إلى يقينها بالنَّصر وحقيقة هذا الدِّين، وحين يُوسَدُ هذا الأمر إلى غير أهله كما وقع في مواطن عِدَّة فإنَّ المُدَّعِينَ الكاذبين كانوا هم أول الناكصين والهاربين، وهم أقوى مَنْ أَعْلَنَ موتَ الأُمَّةِ وانتهاء أمرها، وبذلك حرضوا النَّاس على ترك الجهاد ومُدافعة أعداء الله تعالى، وبسبب هذا فإنَّ الملايين مِنْ أُمَّةِ محمد ﷺ ذهبوا لمذاهب الكفر القومية والشيوعية والبعثية لَما رأوا أنَّ هؤلاء مَنْ حملوا قضايا الأُمَّةِ، ومن خلال هذا المسلك خرجوا من دين الله تعالى، ولو أنَّ العلماء وقادة الحركات الإسلامية تصدوا لهذه القضايا بحقٍّ وصِدْقٍ لَما حدثت هذه الظواهر التي سيطرت على العالم الإسلامي طويلاً، وهذه المسألة بالذات تحتاج إلى دراسةٍ مستقلةٍ شاملةٍ تكشفُ خيانة قادة الأُمَّةِ من علماء وقادة حركات لقضاياها العظمى، وهي الخيانة التي أدت إلى وُجُودِ فَرَاغٍ ملأه قادة الردة من أصحاب المذاهب الشركية والكفرية.

واليوم لولا أهل الجهاد الذين منَّ الله بهم على أُمَّةِ الإسلام، لَكان قادة قضايا الأُمَّة هم أصحاب المذاهب البدعية الضالة، ولَرأينا النَّاس يتبعونهم في مذاهبهم لما يرونهم قد حملوا هذه الرايات، لأنَّ عامة مشايخ أهل السنَّة على غير غرز الجهاد الذي جعله الله باب حبٍ ورغبةٍ لشبابِ الإسلام وأُمَّةِ الإسلام، فإنه لا يكرم الله أحداً برفع رايته إلاَّ وتجد حبَّ المسلمين له، وتصديقهم لما يقول، ورغبتهم باللحوق به، وهذا دليلٌ على أنَّ المجاهد هو محط محبة الله تعالى في هذا الزمن لحديث النَّبيِّ ﷺ: «**إذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنَاً فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ في أَهْلِ السَّمَاءِ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنَاً فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ**»[2].

---

[1] البخاري في «كتاب العلم» باب كيف يُقبضُ العلم. حديث رقم: ١٠٠، ومسلم في كتاب «العلم» باب رفع العلم وقبضهِ وظهورِ الجهلِ والفِتَنِ. حديث رقم: ٢٦٧٣.

[2] البخاري في «كتاب بدء الوحي» باب ذِكر الملائكة. حديث رقم: ٣٢٠٩. طرفاه في: ٦٠٤٠، ٧٤٨٥. ومسلم في «كتاب البر والصلة» باب إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبَهُ إلى عباده. حديث رقم: ٢٦٣٧.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾[1].

الآيات القرآنية تهدي المؤمنين لأقومِ السبل في هذه الحياة، وهي إذ تَهْدِيهِمْ للجهاد إلاَّ أنَّها تَهْدِيهِمْ لشروط الجهاد الذي يحقق النَّصر، كما تهديهم إلى إدارة الجهاد الصحيحة حتَّى يخف عَبؤه وتكاليفه، فهو لا يقذفهم في لُجَجِ الأمرِ دون بصيرةٍ، بل يُفصِّلُ لهم الأمور على بيِّنَةٍ وهدىً ونورٍ كما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾** ﴾[2]، والجماعة المؤمنة محكومة في أدائها لفريضة الجهاد بأمرين؛ **أولاهما**: إدارتها وقراراتها، **وثانيهما**: قدرها الحاكم عليها دون اختيارها، وقد تكلمتُ سابقاً عن رغبة رسول الله ﷺ في اتقاء مُواجهة قريش، ولكنَّ القدرَ الحاكم كان يفرضُ عليه مُواجهتها أولاً دون بقية النَّاس، وكذلك فإنَّ النَّبيَّ عاقد اليهود على قواعدٍ مِنَ السِّلْمِ داخل المدينة، فأبواْ هُمْ إلاَّ المُواجهة وخيانة العقود في ظروفٍ صعبةٍ بالنسبة للمؤمنين في المدينة.

حين أقام رسول الله ﷺ المجتمع المُؤمن في المدينة النَّبويَّة، وحصل له وللمؤمنين التمكين كان في عُزْلَةٍ تامةٍ عن مُواجهة فارس والروم، ولذلك فُوجِئَ هِرقل[3] في إِيلِيَاء[4] برسالة النَّبيِّ ﷺ بعد صُلْحِ الحُديبية يدعوه إلى الإسلام، وكذلك حصل لِكِسْرَى، مع أنَّ سلطان كِسْرَى الفارسي كان مُستقراً في اليمن، وهي في خاصرة الحجاز التي يدور فيها الحراك الإيماني، فاختيار المؤمنين للأطراف حتَّى يتكامل البناء قد ينجح في جانبٍ وقد لا تتحقق لهم رغبتهم في هذا الأمر، ولذلك فهم محكومون بأمورٍ يُدِيرُونَهَا مِنْ خلال حِكْمَتِهِمْ في تحقيق الأهداف، ومحكومون بأمورٍ خارج إرادتهم، كما هو شأن أمور الحياة جميعها.

القاعدة القرآنية في إدارة المعركة هي تحقيقٌ لقوله تعالى: ﴿ **وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ** ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ** ﴾[6]، لكن تقدَّم بعض النماذج النَّبويَّة في تمييز الكفار في هذا الباب وعدم وضعهم في مرتبةٍ واحدةٍ، فقد علمنا أنَّ خُزاعة هي عيبة نصح رسول الله ﷺ؛ مُسلمهم وكافرهم، وقد رأينا كيف كان رسول الله ﷺ يتجنب حي العرب الذي سقت المرأة لهم من مائها، وعلمنا كيف أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يقتلوا أقواماً من قريش في بدر خرجوا كرهاً، فالقواعد العامة، والعناوين الكبيرة للجهاد يجب أن لا تُلغي سنن الحياة

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٢٣.

[2] سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

[3] هِرَقِلُ: من ملوك الروم، وهِرْقِلُ، على وزن خِنْدِف: ملك الروم. ويُقال هِرَقْل على وزن دِمَشق، وهو أَول من ضَرَب الدنانير وأَوّل من أَحدث البَيعَة.

[4] إِيلِيَاءُ: بكسر أوله واللام، وياء، وألف ممدودة: اسم مدينة بيت المقدس؛ قيل: معناه بيت الله.

[5] سورة التوبة، الآية: ٣٦.

[6] سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

وواقعها، وهذا الأمر هو من نوع ما قاله العلماء من التوفيق بين القواعد والفروع، وهو سبيل لا يقدر عليه إلاَّ الكبار والعلماء والحُكماء، ومَن قرأ عِلْمَ «الأشباه والنظائر» رأى صوراً من هذا التوفيق العلمي الرائع، ومثلها كتاب: «الفُرُوق» للقَرافي، وهذا كما أنه في الفقه فهو في إدارة الحياة؛ أي إدارة الجهاد، ومَن لم يكن له قواعد يحتكم إليها لم يكن عالماً ولا حكيماً، ومن لم يُراعِ فروق الفروع كان جاهلاً مفسداً.

هذه الثنائية بين القواعد والأصول وبين الفروع ليست مُتعارضة ولا مُتناقضة، لكن فروع الحياة وإن انتظمت تحت اسمٍ واحدٍ، لكن كلَّ فرعٍ له مستويات مُتعددة، ووجود هذه المستويات المُتعددة يعني أنَّ كلَّ وصفٍ يختلط فيه غيره من المعاني الأخرى التي تُوجِبُ خصوصية التعامل، وهذا ما يجعل للطارئ تأثيراً على الاسم الغالب أي على القاعدة الكُلية.

سيوف الجهاد متعددة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وتحت كلِّ سيف واقعٌ متعددٌ، فبعضها يعترضُ طريقكَ مُرغماً إيَّاك على المُواجهة، وبعضها يكون اختيارك لأسبابٍ قدرية أو شرعية، ولابدَّ من مُراعاة كلِّ سيفٍ من هذه السيوف، ولما يُقال إنَّ الشرع يقدم مواجهة على مواجهة كمُواجهة المرتدين قبل المشركين الأصليين فلأنَّ هناك من الأسباب القدرية الحكيمة التي يُدركها العقل في هذا التقديم.

هذا الباب هو إحدى محن الحكمة التي تخوضها قيادة الجهاد، فيمكن أنْ تُصِيبَ، ويمكن أنْ تخطئَ، ولكن يجب إعمال القواعد الشرعية في هذا، فقد رأينا في أُحد كيف كان اختيار الخروج وافتراق النَّاس فيه سبباً في تخلف المنافقين ثم لومهم وتقريعهم، وكيف عَلَّمَ القرآن رسوله ﷺ ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾[١]، وقوله ﷺ: «**قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[٢]، ولكن هذا لا يمنع من المُراجعة والمُناقضة لما هو آتٍ.

وهو كذلك إحدى المحن التي ستُواجهها القيادة مع الأتباع، كما رأينا كيف اعترض البعض جهلاً على أمر رسول الله ﷺ بعدم قتل بعض الخارجين مع قريش إلى بدر، ولذلك فهناك جانبٌ قدريٌّ حاكمٌ هو من سنن الحياة لا يقدر أحدٌ دفعه قط، فوجبَ الصَّبر والحكمة وتقوى الله.

في أبواب الفقه يجب إدراك الواقع أولاً، وأي تخيل له غير واقعي هو جهلٌ في الشرع وجهلٌ بعد ذلك في حُكم الله تعالى، ولذلك من أخطاء البعض في إدراكه الفقهي أنْ يسعى لإعمال الآيات والأحاديث بإيجاب وقائع لها لُزُوماً، حتَّى لو لم تكن، ومِن ذلك إعمال هذه الآية وغيرها، فإنَّ

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

[2] مسلم في «كتاب العلم» باب في الأمرِ بالقوَّةِ وتركِ العجزِ والاستعانةِ باللهِ وتفويضِ المقاديرِ لله. حديث رقم: ٢٦٦٤. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ. وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ. احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ. وَاسْتَعِنْ باللهِ وَلاَ تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ. فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

الآية تُقدم قِتال العدوِّ القريب قبل البعيد، وهذا أمرٌ فطريٌّ يُدركه الحكماء، لكن هناك عوارض نفسيَّة تعترض البعض في إعمالها، لأنَّ القُرْبَ في بعض الأحيان مُوجِبٌ للإعذار والود والألفة، لكن لإعمال هذه الآية لابدَّ من وجود مُوجبها، بمعنى أن يكون هناك عدوٌّ قريبٌ وعدوٌّ بعيدٌ، فإنْ تلاشى هذا الوصف بسببٍ من الأسباب لا يكون لإعمالها مُوجِبٌ.

لقد مرتِ الحركة الجهادية في ظروفٍ قاسيةٍ كان أشقها هو نشر العلم في أعظم قضيةٍ وهي التوحيد، والذي لا يتحقق إلاَّ بالبراءة من المُشركين والمرتدين، وكان لابدَّ من بيان نواقض التوحيد لكشف ردة المُشرِّعين للقوانين المُضادة لشريعة الرحمن، وكان مِنَ العِلْمِ المُلازم جهاد هؤلاء المبدِّلين لشريعة الرحمن، ولَمَّا كان العائق النفسي في قتال هؤلاء، وهم من بني جِلدتنا هو أعظم عائقٍ بعد الجهل كان لابدَّ من بيان وجوب قتالهم بدل قتال غيرهم.

كان هذا اختيار المجاهدين لو اختاروا المسار، لكن القدر الحاكم، وهو رحمة إلهية، أن فرض الكفر كلَّه نفسه في هذه المعركة في قضية يطول وصفها، وبذلك تحقق قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾.

ردة الحكام المشرِّعين قد فُهِمَ عند البعض فيما يَخُصُّ قضايا الداخل في البلد الواحد، لكن وعي الكثير من المسلمين على أنَّ الطائفة الحاكمة تكفر بما تدين من تشريعات تتعلق بالأُمَّةِ وواقعها العالمي ما زال غائباً حتَّى على بعض الطوائف المجاهدة، ولذلك كانت رحمة الله تعالى في فرض هذا الواقع ـ أي حضور البعيد ليكون قريباً، وتماهي القريب مع البعيد ـ حتَّى ينتشر هذا العلم، وإنْ سارت الأُمور بما يُرجى لها من الخير، فإنَّ تساقط المركز يؤدي إلى تناثر التوابع التي تمهد للوراثة التي تحقق ذهاب الغربة الثانية.

كما أنَّ اختلاط القريب ـ وهو ملتبسٌ عند الكثيرين ـ مع البعيد ـ وهو تبيِّنٌ في فِطَرِ النَّاس ودينهم ـ يقوي مفاتيح الجهاد التي قالها الله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾[1]، فإنَّ الجهاد لابدَّ له مِنْ محرِضٍ إنسانيٍّ ـ غير التوحيد ـ يزيدُ مِنْ إقبالِ أصحابه عليه، فإنَّ الدقائق التي كان طالب العلم يحتاجها لتحريض النَّاس على الجهاد ضدَّ المرتدين صارت معالم واضحة عند المسلمين، ولم يبقَ مِنْ مخالفٍ لها إلاَّ مأجور أو منافق، أما عذر الجهل فقد تلاشى هامشه أو كاد.

هذا القدر الحاكم الذي يقع لطوائف الجهاد في اتساع دائرة الجهاد، موجبٌ لزيادة التكليف، لكنه يحقق ـ غير ما تقدم ـ تصاعد المحنَّة لأهله، وفي هذا زيادة الأُجور والدرجات، كما أنه يُصفي الصف من دخنه وأخلاطه، وهذه مقاصد إلهية لا يذهب النَّاس إليها اختياراً، وهو كذلك يزيد من كشف

[1] سورة التوبة، الآية: ١٣.

المنافقين لأنه يدفعهم إلى مزيدٍ مِنَ الضلال، فإنَّ المزيد من الخوف يعني المزيد من كشف المستور لإرضاء الأسياد، أو لدفع الثمن من أجل البقاء.

هناك قومٌ يظنون أنَّ ظروف الجهاد اختيارية، فما يصنعونه هُمْ يدفعون ثمنه، وما يأتيهم على غير اختيارهم يُسارعون إلى البراءة منه تحت دعوى حماية دعوتهم ـ كما يظنون ـ وهم في الحقيقة يسعون لحماية وُجودهم ومصالحهم، وهذا من الجهل في سنن الحياة ومعنى الابتلاء، فإنَّ الصَّحابة ﷺ دفعوا الثمن في أُحد لأفعال بعضهم، وقد سمى الله هؤلاء الهاربين من صف المؤمنين والعيب عليهم بسبب مخالفتهم بالخروج: منافقين، وهذا تعليمٌ للمؤمن أن يعتذر مما يفعلُ المؤمنون من أخطاء، ويبرأ إلى الله من أعمال الكافرين، ولكنه يمضي في مسيرته في دعمِ المجاهدين وستر أخطائهم، فإما أن يكون مُشَارِكاً معهم وإما رِدْءاً لهم في جهادهم، أما الناكصون فهم منافقون، ومثلهم كلّ واحدٍ يقول كلمة الشرِّ ضدَّ المجاهدين، إذ يُثبط النَّاس مِنَ اللحوق بهم أو يُشكك في أصل جهادهم حتَّى لو كان هذا الظرف من صنيع غيره في اجتهاده، لأنَّ الهروب من الحقيقة ليس دافعه إلاَّ الجبن لا ما يدعونه من حماية المسيرة.

الاعتقاد بالجانب القدري الحاكم في مسير الجهاد والدعوة أمرٌ لازمٌ لأنَّ فيه صدق اليقين أنَّ هذا الدِّين لله، وهو ناصره، وهو سبحانه وتعالى يقدر له خير ما يقدر له الإنسان، وعامة هذا الجانب يتعلق بالابتلاء والامتحان، لأنَّ فيهما وفي بيئتهما يتحقق النَّصر والإمامة والتمكين، فالذي يخطط لعمله على وجهٍ يتجنب الدعوة والجهاد والغمرات حتَّى يكون هو صاحب قرار المُواجهة على وجهٍ معينٍ ثمَّ تأتي له الصدمات أو ظروف خارج ما أراد فإنَّ هذا في واقع الأمر خيرٌ له لو تفكرَ فيه، لكن الأغلب من العاملين للإسلام لا يظنون هذا الظنَّ لأسبابٍ متعددةٍ؛ منها أنَّ هذا العُذر الحاكم يحقق البلاء الشديد، وقد يحقق الانسحاب أو الهزيمة، لكن لو تفكرَ هؤلاء قليلاً لَرأوا أنَّ ما حصل هو الخير للدِّين والدعوة والجهاد، لأنَّ الهزيمة أو الانسحاب ليس شرّاً، ولم يكونا قط نهاية مشاريع الأُمم، إنما الشرّ هو الاستسلام، فالمهزوم يُعاوِد الكَرة بخلاف المُستسلم، وهذا في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[1]، ثمَّ إنَّ مِنَ خطأ هؤلاء أن لا ينظروا لجهادهم في هذا المكان أنه حلقة من حلقات الجهاد في العالم الإسلامي كلِّه ـ على اعتبار شعوبه ـ، لأنك ترى أنَّ كلَّ جهادٍ قام في بُقْعَةٍ من الأرض كان زاداً لما بعده، ووقوداً علمياً وعملياً لحلقةٍ جهاديةٍ أخرى، وهذا ما يُبَيِّنُ قيمة إيمان المجاهدين بقدرية جهادهم في كثيرٍ مما يقع مِنَ الخيرات لهم رغم أُنفوهم، أي مع كراهيتهم للبلاء.

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴿١٢٣﴾﴾. هي نصٌ وظاهرٌ كما يقول الأُصوليون.

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

أما النص فهو أمر وتحريض المؤمنين لقتال القريبين، والإغلاظ عليهم، لأنَّ القُرْبَ دافعٌ للألفة والود وقد تُوجد القرابة، بخلاف البعيد فإنَّ النَّفس لا تمتنع عن قِتاله والإصابة منه، ولكن القرآن يُقرر أنَّ القريبين أولى بالقتال من الأبعدين، بل أمرَ بالإغلاظ عليهم، لأنَّ ضررهم أشدّ، ولأنَّ كونهم محاربين، مع قُربهم يعني شرّاً زائداً في قلوبهم، وسوءاً أعظم من غيرهم.

أما الظاهر فهو التخفيف عن المؤمنين في عدم وجوب مُواجهة الكافرين أجمعين، فإنْ كان مِنْ خيارٍ للمجاهدين فليبدؤوا بالأقرب، والنص في عُرْفِ الأصوليين أقوى من الظاهر، وعدم فقه البعض لهذا الأمر ظنَّ أنَّ مواجهة الأبعد لسببٍ من الأسباب إثمٌ لمخالفة القائم بالآية، وهذا جهلٌ في لغة القرآن وفقهه، ثمَّ هو جهلٌ بواقع الأمر كما تقدم إذ أوجبَ واقعاً مُتخيِّلاً غير حقيقيٍّ بوجود عدوٍّ قريبٍ وعدوٍّ بعيدٍ مع أنَّ الواقع يدل على عدم وُجود هذا الفصل، مع جهلٍ آخرٍ وهو عدم فقه قدرية الجهاد والدعوة.

الآية القرآنية لا تُفيد بنصها ولا بظاهرها قتال الأقرب قبل الأبعد وُجُوباً، لأنَّ إيجاب قتال الأقرب في الآية لا يعني عدم جواز قتال الأبعد، هذا إنْ وُجِدَ في الواقع هذا التقسيم والفصل.

ما قاله البعض من كلامٍ فيه الهروب من واقع ما وصل إليه الجهاد مِنْ مِنْحَةٍ ربَّانيَّةٍ قدرية لا دخل لهم فيها، مع ما فيها من البلاء، بسبب زعمهم مخالفة المجاهدين لهذه الآية هو نموذجٌ صريحٌ وواضحٌ لما وصل إليه هؤلاء مِنْ جهلٍ بالقرآن وفقهه، ومِنْ جهلٍ بالواقع وسياسته، ومِن عمًى عن إدراك حِكمة الله في الوجود وخاصة ما يتعلق بالجهاد، وجهل الإنسان بواحدة من هذه الأمور موجبٌ للخُسران فكيف لو اجتمعت كلّها في شخصٍ واحدٍ أو سبيلٍ واحدٍ؟!.

إنَّ من الجهل في إدراك حكمة الله في قدره، وحكمته في تدبير قدر الجهاد ومسيرته أن لا يرى عالم الإسلام كلاً واحداً، إذ كلّ حلقة من حلقات الجهاد، كما أنَّ طوراً من أطوار الجهاد هو رصيدٌ لما بعده، لكن من العمى الذي لا عمى بعده أن يظنَّ بعضهم أن قدره الشخصي هو قدر الجهاد كلّه في العالم، فموته يعني موت الجهاد، كما أنَّ سجنه هو انتهاء الجهاد، وقد كان يُعاب على الذين يظنون أنَّ الإسلام هو جماعتهم، فيحرصون عليها زعماً أنَّ بقاءها هو بقاء الإسلام، لكن جاء ما هو أشقى وأضل وهو من تماهى في غُرُورِهِ، وارتقت نفسه في تزكيتها الباطلة حين حَكَمَ على فِعْلِ المجاهدين بالفساد لأنَّ شرّاً وبلاءً وقع بهم، والله يقول: ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾** ﴾[1].

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

لقد مات رسول الله ﷺ، ومات أصحابه الأخيار من بعده، وقامت دولٌ، وسقطت دولٌ، وقام مجاهدون، وذهب مجاهدون، ودين الله باقٍ، كما أنَّ الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة، والله يقول: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[1].

إنَّ التصاقكَ بالجهاد هو حرصٌ منكَ على مصلحتكَ، فاجزعْ أن يفوتكَ هذا المقعد، ولا تجزعْ على أمرِ الدِّين، لأنَّ هذا الدِّين هو دين الله تعالى وهو ناصره، وإيَّاكَ أن تكذبَ على الله بأنَّ حرصكَ على حياتك هو حرصٌ منك على الدِّين والجهاد، لأنَّ الصِّدق مع هذا الدِّين ومع طريق الجهاد أنْ تحرصَ على الموت لتسقي بدمكَ شجرة هذا الدِّين، ولتسقي بروحكَ كلماتكَ حتَّى تكون روحاً تسري في أُمَّةِ الإسلام بعدك.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[2].

شأنُ المنافقين مع آيات الله له وجهان؛ **الأول:** هو الإنكار القلبي، **والثاني:** هو الهروب من تكاليفها، وشأن المؤمنين مع آيات الله هو الإيمان بها، فدل هذا أنَّ الإيمان إقْرارٌ وَقَوْلٌ وَعَمَلٌ، لأنَّ مقابلَ ما يفعله المنافقون هو عمل المؤمنين، ثمَّ إنَّ في هذه الآيات دليلٌ على أنَّ الآيات الكونية مهما كانت مِنَ الابتلاء والعذاب للكافرين، أو النَّصر والتأييد للمؤمنين لا تنفعُ المنافقين والكافرين في التوبة والذكرى والإنابة، بل إنَّ العظة إنْ لم تقع بالقرآن، وإنْ لم تكن هداية القلوب من خلاله فإنَّ الوقائع والتاريخ ليست نافعة للنَّاس المُعرضين، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾[3].

لقد سارت سيرة رسول الله ﷺ متهادية في الصعاب والابتلاءات، وتصاعدت قدماً إلى النَّصر الدال على رعاية الله لهذه السيرة، وهو من أكبر الأدلة على صدق نبوة الرسول ﷺ، وكان في هذه المسيرة ابتلاءات تقع على معاني متعددة لأهل المدينة، فالمؤمنون يُبتلون بالجهاد والصَّبر فينتصرون، والمنافقون يُبتلون بالخوف والجبن فيكشف الله أمرهم وسِترهم، ومع نهاية مطاف هذه السيرة التي تحقق فيها النَّصر والغلبة على الجزيرة العربية، ثمَّ انطلق بعدها لقتال أهل الكتاب فإنَّ النِّفاق بقي

[1] سورة العنكبوت، الآيتان: ٥-٦.
[2] سورة التوبة، الآية: ١٢٤-١٢٧.
[3] سورة يونس، الآية: ١٠١.

مكانه، لأنَّ مشكلته الكبرى هي مع آيات الله تعالى، فهي المحطة الأولى للمؤمنين في هدايتهم، وهي المحطة الأولى للمنافقين في ضلالهم وتكذيبهم.

المجاهدون في مسيرتهم قد يحققون النَّصر، وقد يقع عليهمُ البلاء، لكن لن يكون في واحدٍ منهما الاعتبار لخصوم المجاهدين، فقد يلحق الكفار بالإسلام خلال هذه المسيرة، لكن للمنافقين موقفٌ آخرٌ، لأنَّ ضلالهم متعلقٌ بعدم التسليم لآيات الله، وعدم الخضوع لأمرها، وعدم الاهتداء بنورها.

البداية من كتاب الله تعالى، ومن آياته، ومن التسليم لأمره، ومن الفقه به، أما القائلون: «اذهبوا فإن ثبت صِدق سبيلكم بالنَّصر التحقنا بكم»، فإنَّ هؤلاء أبعد النَّاس عن الإيمان في نهاية المسيرة كما هم أبعد النَّاس عنها قبل المسيرة، كما هو شأن المنافقين زمن رسول الله ﷺ، فإنَّ موقفهم من الآيات هو الذي أورثهم النِّفاق، وبقي فيها إلى يوم يلقونه، وأما ما وقع من النَّصر والتأييد، والابتلاءات والمحن التي انجلت بهذه الخاتمة من الفراغ من الجزيرة العربية إلى خارجها فإنها لم تغيِّرْ مواقفهم في شيءٍ.

هذه دعوةٌ للعودة إلى القرآن، فإننا في زمانٍ اختلطت فيه الدعوات والأفكار والمذاهب، بعضها فيه نفاقٌ، بناها أصحابها مهادنة للباطل مخافةً التكاليف، وحفاظاً لمصالحهم الدُّنيويَّة من الذهاب، وبعضها فيه جهلٌ بالقرآن والسنن النَّبويَّة وسنن الحياة، فإذا أراد النَّاس الهداية وتحقيق الشعار الذي يزعمه الجميع: «العودة للكتاب والسنَّة» فإنَّ الواجب أنْ نفتح هذا القرآن جميعه، ونعيه على الوجه الذي وعيه وفهمه الصَّحابة ﷺ، فمن هنا نبدأ، وأي تجاوزٍ لهذا الأمر استعجالاً للأهداف، أو انشغالاً بما ينشغل النَّاس به يعني شيئاً واحداً هو: الباطل، أي عدم تحقيق أهداف الإسلام العظمى، وسنتقدم في كلِّ حلقة نخوضها الدماء والعرق والجهود ولن نجني شيئاً لأنَّ الله يقول: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ**﴾[1]، وهذه الأُمَّة كتبَ الله لها أنْ لا تهتدي إلاَّ بهذا الكتاب العزيز، فلا مخرج لها إلاَّ به، ولا تحقيق لأهدافها إلاَّ على نوره وهُداه، فيجب عليها أنْ تسلم كلّها له، لا بعضها، ويجب أن تسلم له كلّه لا بعضه، والأمر ليس شاقاً على العقول، وإنْ كان صعباً على النُّفوس، فالذين يرون أنَّ الأُمَّةَ تحتاج إلى عقلٍ خاصٍ لِتَخْرُجَ مما هي فيه يخطئون في جانبٍ ويُصِيبُونَ في آخرٍ، أما الذي يخطئون فيه فهو ظنهم أنَّ القرآن شاقٌ عسيرٌ في كشف طريق المخرج من الهوان والذلة، وهذا جد خطأ، لأنَّ الأمر في القرآن واضحٌ جليٌّ، أما ما تحتاجه الأُمَّة من عقلٍ خاصٍ فإنَّ متعلقه في إدارة هذا الأمر القرآني الواضح.

إنَّ طريق الأُمَّةِ هو الجهاد في سبيل الله تعالى، لا شيءَ سواه، وقد حضرتْ مُوجِبَاتُهُ الشرعية لكلِّ صاحب بصيرةٍ، لكنَّ الشاق في الأمر هو إدارة هذا الجهاد، وكيفية تحقيقه في الواقع، وكيف ننظر إلى الأُمَّةِ الإسلامية في هذا الوقت شيئاً واحداً، وكيف نتخلى عن بقايا الجاهلية من نفوسنا ونحن نتعامل

[1] سورة يونس، الآية: ٨١.

مع القرآن، وكذلك ونحن نتعامل مع المسلمين الفقراء والمستضعفين والذين هم في الهوامش من سلطان الجاهلية.

القادة الكبار، وأُمناء الأُمم في بعث أُممهم كان فيهم بساطة في الشعار، لكن كانت عظمتهم في الإدارة والتفاعل مع الواقع، ولما جاء رسول الله ﷺ إنما جاء بأمورٍ جليةٍ واضحةٍ، وبقي هذا الوضوح في كلِّ مراتب حياته، لكنه ﷺ أدار معركة الإسلام مع خصومه على وجهٍ سَنَنيٍّ عظيمٍ، وقد وقع له ما وقع لكلِّ عاملٍ في ظرفه من الابتلاء والامتحان، ولو حاولتَ جمعَ عدد قتلى المسلمين في الغزوات والسرايا والبعوث وقارنتها بما وقع لقريش لَوجدتَ أن قتلى المسلمين كان أكثر، لكن صواب الدعوة أولاً، وثبات النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ثانياً هو الذي أوصلهم إلى مُستقرهم من الفتح العظيم، ولقد ابتليتِ الأُمَّة كثيراً في تاريخها حتَّى وقع فيها من الأمور ما ظنَّ البعض أنها النهاية، فقامت على سوقٍ واحدةٍ ونهجٍ واضحٍ هو الجهاد في سبيل الله، وكان تحته ومِنْ خلاله، وقَبْلَهُ وَبَعْدَهُ حركات إحياء دينية تُنقي العقيدة من شوائبها، والعبادات من بدعها، والعقول من أوهامها، والأخلاق من مفاسدها، لكن مع ذلك كلِّه كان الغطاء الجامع لذلك كلِّه، وهو معه، ومصاحبٌ له إنما هو: الجهاد في سبيل الله تعالى، يقودهم فيه أبناءٌ لهذا الدِّين أفذاذٌ عظماء، يسير العلماء في رِكابهم لا مُنفصلين عنهم، ولا داعين لهم بالجلوس حتَّى ينتهوا من إعداد الأُمَّةِ علمياً وتربوياً كما يريد البعض، فكانت عبقرية الأُمَّةِ وعبقرية قادتها في إدارة الجهاد، إذ لكلِّ واقعٍ ظروفه من الموانع التي تعيق حركة الإحياء والبعث والهداية، واليوم لنا ظروفٌ بعضها يُشبه ما فات من الحوادث، وبعضها له خصوصية، فإنْ أراد أحدهم بعث الأُمَّةِ فليسلكْ فيها هذا السبيل، أي أنْ يكون قائداً لها في هذا الباب دون غيره، أي باب الجهاد، وأما الأمور الأخرى، سواء كانت العلمية والإصلاحية، أو الخيرية الاجتماعية فكلها خيرٌ وهي تحفظ الكثير من الخير في أفراد الأُمَّةِ، لكنها لم تكنْ هذه قط سبب انقلاب الأُمَّةِ مِنَ الهزيمة إلى النَّصر، ومن الغياب إلى الشهود، ومن الذلة إلى العزَّة، فهذه أمة مسلمة، غشي إسلامها جهالات، ووقع فيها معاصي وآثام عامة تتعلق بمجموعها، فما على الجميع إلاَّ أنْ يدفعوها إلى باب عزَّتها، فإنْ قام قائمٌ - وقد حصل بفضل الله تعالى في ظروفٍ متعددةٍ - يقودها للجهاد وجبَ على الجميع مُؤازرته ودعمه وتقويته، لا كما يصنع الجاهلون من دعاة الإصلاح وأعمال الخير في زماننا مِنْ ظنهم أنَّ هذا يُفسد عليهم عملهم، أو يدفعهم دافع الحسد لعداوته والتنفير منه، لأنَّ هؤلاء لو عقلوا لَعلموا أنَّ عملهم يجب أن يكون رديفاً للأصل في العمل الذي يحقق أهداف القرآن، لا أنْ يجعلوا الفرعَ بديلاً وأصلاً، والقاعدة الأصولية تقول: «إذا عاد الفرع على الأصل بالإبطال بطل».

أما الذين انتهجوا سُبل الضلالة، وأخذوا سنن المُشركين في إصلاح الواقع فإنَّ فسادهم أعظم من أي نفعٍ يحققونه، ولو تفكرَ المرء بهم لَوجدَ أنهم يُكرسون الباطل ولا يهدمونه، ويُضلون المُهتدين ولا يأخذونهم للحقِّ، وإذا كانت بعض البدع لا يُعرف ضررها في بدايتها، فإنَّ ضلال هؤلاء قد

وصل إلى مُنتهاه، إذ كان في بدايتهم شعار الجهاد لا حلاً للمشكلة، ولا بديلاً عن الباطل، بل هو شعارٌ يتماهى مع الواقع، ويُستخدم كفرعٍ في داخل الجاهلية، ثمَّ سار هذا الشعار إلى زاوية الإرث الذي يتدثر به الأبناء من آبائهم، وقَوِيَتِ البدعة الأُخرى التي هي أصل الدعوة، والتي تقوم على شرعية الكفر الذي حلَّ في البلاد، وتصاعد خط المُهادنة حتَّى وصل إلى مُنتهاه في مواطنٍ حصل فيها الابتلاء لهذا الخط، فدخلوا مع المُشركين الأصليين، كما دخلوا مع المشركين المرتدين من قبل، وكما كانتِ الحجة سابقاً هي الإصلاح، فهي نفس الحجة الآن، ولا فرق، فإن قلتَ: ليس هذا وصفٌ للجميع، بل للبعض، فالجواب: بل هو وصفٌ للأصل العلمي الذي قاموا عليه، لأنَّ النماذج التي انتهى إليها المرضى اليوم هي فقط في الأماكن التي حصل فيها الابتلاء، أي هذا النوع من الابتلاء، فهل سننتظر حتَّى يقع هذا النوع في كلِّ البلاد لِنعرف نتيجة هذا المرض البدعي الضال؟!.

فإنْ قالوا: لكن هذا النهج يُقاتل في بعض الأماكن حيناً، فيُقال لهؤلاء: تأملوا هذا القتال وما فيه من الانحرافات، ثم قارنوه بقتال مَنْ سبق مِنْ أئمتهم، حينها ستعرفون أين مُستقره بعد حين، فالطريق واحدة، وكذلك المُستقر، ولا عصمة من هذه النتيجة إلاَّ الهداية القرآنية، وسلوك الطريق السنني الذي رفع المجاهدون في كلِّ وقتٍ، وخاصة في زماننا من هؤلاء الفِتية، وهم قليلٌ، لكن سمة الحقِّ معهم.

لِنَعُدْ إلى القرآن وبيئته، وإلى حياة النَّبيِّ ﷺ وصبغتها، وإلى حياة المجددين حين تُضرب الأُمَّة في هويتها وكِيانها ووُجودها، أما التجديد العلمي فهو سلكٌ منتظمٌ في حياة الأُمَّةِ لا يتوقف، يكون مع وُجود الأُمَّةِ، كياناً قوياً أو ضعيفاً، وعند ذهاب هذا الكيان كذلك، وليس هو حالةٌ سابقةٌ، ولا هو واقفٌ ينتظرُ تحقيقَ وجودِ الأُمَّةِ، فالعلماء عليهم حقَّ التبليغ في كلِّ وقتٍ، لكنَّ حياة الأُمَّةِ هو الجهاد في كلِّ وقتٍ كذلك، وتشتد الحاجة إليه حين يُصْبِحُ فرضاً عينياً على كلِّ أحدٍ حين يُهَدَّدُ كيان الأُمَّةِ ووُجودها، ولا أظنُّ أحداً هداه الله لأقوم أمره إلاَّ وهو يعتقد أنَّ هذا هو الواقع اليوم، أما مَنْ طَمَسَ الله ببصيرته فالتحقَ إلى صفِ الأعداءِ، يُدافع عنهم، ويُؤول لهم كفرهم وضلالهم، ويتهم المسلمين المجاهدين بالأكاذيب تحت اسم الدِّين والفقه والعلم فهؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿ **فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ** ﴾[1]، فهؤلاء الأبعدون وحسابهم عند الله تعالى.

إنْ لم نَعُدْ إلى الكتاب وآياته وسُوره فلن نهتديَ بأيِّ شيءٍ آخرٍ، لأننا نرى هذه الجماعات التي رضيت أن تكون وقوداً مُستسلماً لأعداء الله، راضيةً منهاج الجاهلية في العمل والاختيار لم يهدها تاريخها إلاَّ بالبراءة مِنْ جهادٍ قاموا فيه يوماً، وفي كلِّ مرةٍ يُسجنون ويُعذبون ويُطاردون فلا يهتدون،

---

[1] سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

لأنَّ البداية على غير نهجٍ سديدٍ صحيحٍ، فالبداية الصحيحة لتحصيل الهداية هي العودة للقرآن كلِّه على منهج الصَّحابة ﷺ.

حين يظنُّ البعض أنَّ إدراكَ السبيل للخروج مِنْ هَوَانِ ضَيَّاعِ الأُمَّةِ وكِيانها، ومِنْ سقوطها في مستنقعِ الذلة والخزي يكون بكتابة بحثٍ في شروط الحِسبة لنقول في النهاية لا حِسبة، وفي شروط الجهاد ليصل في النهاية أنَّ الجهاد لا يكون إلاَّ بإذن الطاغوت، وفي شروط الهجرة ليبدع أنْ لا هجرة إلاَّ بإذن الأبوين فإنَّ مِنْ هؤلاء لو صرحوا أنَّ لا حسبة ولا جهاد ولا هجرة ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر اليوم لَكانوا أصدق مع أنفسهم ومع النَّاس.

أما الذين سحبوا زمن عيسى عليه السلام عند خروج يأجوج ومأجوج على زماننا فأوجبوا ترك الجهاد فأظن أنَّ الأمر نفسي لا شبهة للعلم فيه، وأقول نفسياً لأنَّ اتهامهم بالخور والجبن خيرٌ من اتهامهم بأنَّ الله قبضَ منهم عقولهم، ذلك بأنَّ فتنة التتار التي قصمتْ عمود الإسلام ورُكنه، وقتلتْ مئات الآلاف لم تدفع عاقلاً في زمنِ العلم يومذاك أنْ يقول بهذا التخريف والجنون، ومثلها فتنة الشيوعية في البلاد الإسلامية ما وراء النهر وشمال أفغانستان وإيران، حيث أُبِيدَ الملايين، بل عشرات الملايين من المسلمين، حتَّى صارت قراءة القرآن في السراديب إسراراً، ولم يقل واحدٌ منهم: ماتتِ الأُمَّة فلا جهاد.

أنا أعلمُ أنَّ الخطاب العلمي حين يدب الخور والجبن في النُّفوس لا ينفعُ، وكذلك أعلمُ أنَّ الخطاب العلمي لا ينفعُ المجنون، ولا يهتدي به صاحب الهوى، لكن أقول هذا ـ وهو بعض ما يمكن للمرء أن يقوله وهو يعلمه ـ لعلَّ مَنْ فيه بقية من خيرٍ يرعوي ويهتدي.

لِنَعُدْ إلى القرآن وإلى سُوره وإلى آياته كلِّها، ولنقرؤه كما قرأه الصَّحابة ﷺ، حينها سنجتمع جميعاً تحت سقفٍ واحدٍ، وسيعلم النَّاس يومها أنَّ مَنْ يقول: إنَّ الزمان اليوم يختلف عن زمن الصَّحابة أنه منافقٌ، ومثله من يقول: القرآن نعم، لكن لابدَّ مِنْ شيءٍ آخر، ومثله مَنْ يبعدُ النجعة ويعقدُ الأمورَ حتَّى يجعل الهداية والاستبصار حِكْراً على خواص مترفين يخافون كلَّ هَيْعَةٍ تضيع عليهم مناصبهم ومكتسباتهم الدنيوية.

أنا أعلمُ أنَّ البعض سيقول: إنكَ تشيرُ بأُصْبُعِكَ إلى جهةٍ ما أنهم أهل القرآن، وأنهم أهل الحقِّ، فأقول: نعم، وهمُ المجاهدون ما داموا مجاهدين، وهمُ المُبتلون في سبيل الله، وهمُ الذين يَقتلون ويُقتلون، وهمُ الغُرباء والنُزاع من القبائل، بهم تتحقق آيات الله، وبهم تتجدد غزوات رسول الله ﷺ، وبهم يُقِيمُ الله حجته على الخَلق؛ مُسلمهم وكافرهم، وبهم تُصْنَعُ حوادث الوجود ليصيرَ النَّاس إلى منازلهم الإيمانية أو الكُفرية أو منازل المنافقين، وحين تتأمل غيرهم فإنكَ لا تجد شيئاً من ذلك، فمَنْ أهلُ القرآن إذاً يا عبد الله؟!.

اصْدُقِ اللهَ في الجواب، وقلْ لنفسكَ: مَنِ الذي يجعل آيات الله حبّه في هذا الزمان كما هو في كلِّ زمانٍ؟ أهؤلاء الذين انتهى أمرهم إلى تجار أوراق يسبُّ بعضهم بعضاً على غنائمها، ويتحاكم كبراؤهم إلى الطواغيت للفصل بينهم على حقوق الورق؟.

أم هؤلاء الذين جعلوا الجهاد ورقةٌ تُوضع في الصناديق الشركية، فأسكنوا النَّاس والأُمَّةَ أنَّ هذا هو عماد ما يُطلب منهم لتغيِّير الواقع، ثم انتهى بهمُ الأمر إلى هروب البعض إلى أعدائهم عندما عُرضت عليه وزارة أو غنيمة دنيوية، ثم انتهى بمنهجهم أن دخلوا في طوائف الكفر يحاربون المجاهدين ويُقاتلونهم؟ أم هؤلاء الذين جلسوا على شاطئ الحياة ينقدون كلَّ عاملٍ تحت دعوى الفكر والتفكير، فانتهوا إلى متكلمين لهم ألسنة دون إرادات عمل؟!.

أم أنَّ الأسلم والأصح والأعقل هو ترك شأن الأُمَّةِ كلِّها ليفرغَ كلّ واحدٍ إلى دُنياه، ومنهم طلبة العلم، حتَّى يصيرون كغيرهم في سِلْكِ الوظائف الدنيوية، يؤمون في المساجد، ويخطبون الجُمع في وجوب تنظيف الشوارع، ووجوب التقيد بقوانين السير المأمور بها، فإنْ زادوا شيئاً تكلموا عن حُرمة الرشوة، ثم يختمون كلامهم بالدعاء أن يصلح الله «الراعي» بعد أن ينصره الله على أعدائه!!؟.

لِنَعُدْ إلى القرآن كُلِّهِ لنرى مَنْ همُ الذين بهم تتحقق الآيات، فينقسم النَّاس حين يعملون إلى صابرٍ مبتلٍ، وشهيدٍ مقبولٍ، ومنتظرٍ لم يُبَدِّلْ، ومهاجرٍ ساعٍ إلى مواطنِ الحياة.

لِنَعُدْ إلى القرآن كُلِّهِ حتَّى نجيب شاباً يسألنا: أُرِيدُ الشَّهادةَ فأين أذهب من المواطن والقادة والفئات.

لِنَعُدْ إلى القرآن كُلِّهِ حتَّى نجيبُ سائلاً: أُرِيدُ أجرَ الجهاد الذي أقرأه في سورة «التوبة» فأينَ أسير.

لِنَعُدْ إلى القرآن كُلِّهِ لنَصْدُقَ مع الله ومع القرآن ومع أنفسنا.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ ﴾[1].

هناك فقهٌ تدعونا له هذه الآية، وهي كيف تزيدنا آيات القرآن إيماناً، أي كيف تزيدنا علماً وعملاً، فآيات القرآن هي بابُ الإيمان، والذين استقبلوها أولاً وزادتهم إيماناً وهم يستبشرون هم أصحاب النهج الربَّاني في التعامل مع هذه الآيات، لأنَّ هناك مَنْ يقرأ القرآن ثم ينهج فيه نهج الضلالة والبدعة، فلا تكون له الآيات القرآنية إلاَّ رِجْساً على قلبه كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ ﴾[2]، فالواجب أنَّ نأخذ القرآن على وجهٍ واحدٍ مِنَ العملِ حتَّى تحصل لنا هدايته، ألاَّ وهو منهج المُهتدين الأوائل، وكلّ زعمٍ أنَّ هناك مناهجٌ لفهم القرآن على غير هذا السبيل إنما هي مزاعم باطلة لتحريف آياته وتأويله على غير مُراد مُتكلمه ربِّ العالمين.

---

[1] سورة التوبة، الآية: ١٢٤.

[2] سورة التوبة، الآية: ١٢٥.

نعم هناك علومٌ يطلبها العلماء اليوم مِنَ القرآن لإثبات صِدقه وربَّانيته، وأنه كلام علام الغيوب، وهي علوم صحيحة تُفيد أهل الإيمان، وتزيد حُجج الله على المخالفين له، لكن لا شكَّ أنَّ مقصد القرآن أعظم من ذلك بالنسبة للمؤمنين، إذ أنَّ مقصده هو بيان المنهج السديد، والطريق الصحيح المُوافق للسنن في إحياء الأُمَّة وإعادة بعثها، وهذه غير الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأُمَّة في حياتها الاقتصادية والسياسية بله حياتها النُّسكيَّة والتَعَبُدِيَّة، لأنَّ هذه تتعلق بطريقة إحياء الأُمَّة، وبَعْثِهَا مِنْ جديدٍ، فهي تُعْطِيهِمْ قِوَامَ الصفاتِ التي يجب عليهم أن يتحلوا بها، وتُرشدهم إلى منهج النَّبِيِّ ﷺ في نوع الحياة التي عاشها، وعاشها الأنبياء مِنْ قبله، ومع هذا الإرشاد فإنها تكشف عوائق الطريق وصفاته وما سيُلاقيه السالكون فيه، فإنْ وقع لهم ذلك كانوا أتباعَ صدقٍ لمن مضوا، أما الذين يبحثون عن الطُرق التي تخفف من هذه العوائق واللوازم فهؤلاء قَطْعاً سيصلون إلى غير منهج النَّبيِّ ﷺ في هذه الحياة، ولذلك يجب ترتيب الأمر على وجهٍ صحيح، وهو تلازم هذا المنهج مع البلاء، وهذا يلزم تابعه أنْ يُربى على العبودية الكاملة لله وعلى حبِّ الدَّار الآخرة، فإنْ وقع هذا فإنَّ السالكين هم أهل الوراثة حقّاً، وهمُ السائرون على منهج الأوائل، ومِنْ غير هذا فإنَّ كلَّ ما يُقال بعد ذلك هو مجرد صور وهياكل لاسم الإسلام واسم المسلمين، لكن بلا روحٍ ولا فاعليةٍ ولا وراثةٍ، إنما خبطٌ في التِيه والانحراف ولا مخرج.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾[1].

إنَّ رحلة الجهاد التي عاشها رسول الله ﷺ، وإنَّ الحياة التي اسْتَنَّهَا لأُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ، مع ما فيها مِنَ البلاءِ والنَّصَبِ، والجوعِ والعطشِ، والخوفِ والإرهاقِ، والسهرِ والعنت إلاَّ أنها رحلة رجلٍ عظيمٍ، وهو بأُمَّتِهِ رءوفٌ رحيمٌ.

هذا الرسول العظيم وهو يقود أصحابه مِنْ غزوةٍ إلى غزوةٍ، ومِنْ بعثٍ إلى بعثٍ، ومِنْ رحلةٍ إلى رحلةٍ، هو في كلِّ هذا عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ، إذ أنَّه ﷺ لا يرضى العَنَت والتَّعَبَ لأُمَّتِهِ.

إنه في كلِّ هذا رءوفٌ رحيمٌ بكم، لأنَّ هذه السيرة العظيمة هي سيرة الرحمة، وسيرة الرأفة مهما بدت لكم شاقة وتعبة، لأنَّ غيرها سيكون فيه كلّ هذه الآلام والمتاعب، وستُصابون فيها بكلِّ المشقات والأهوال، لكنها آلام ومتاعب الذل والخزي والعار.

إنكم مع غير سنته وسيرته وحياته وشريعته ستدفعون الكثير مما خِفتم منه حين هربتم من حياته وطريقته، لكن شتان بين ما تُلاقونه وأنتم أعزة كُرماء، وبين ما تدفعونه وأنتم أذلة مخزيين.

مع رسول الله ﷺ في جهاده وحياته وغزواته أنتم خير الأُمم، وأعزّ الأُمم، وقادة الأمم، فإنْ توليتم فلن تجدوا إلاَّ الهوان والضيَّاع، ولن تكونوا إلاَّ غثاءً كغثاء السيل.

---

[1] سورة التوبة، الآيتان: ١٢٨-١٢٩.

إنكم إنْ خُضْتُمْ ما خاضَ مِنَ الحياة ستصلون إلى ما أراده منكم، وما أحبَّه لكم، وما وعدكم الله تعالى، وإلاَّ فما أنتم إلاَّ هباءً وغثاءً، وقصعة يتناوشها اللئام فلا تستطيعون لهم دفعاً.

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

هذه لقلبِ رسول الله ﷺ، وهي لقلبِ كلِّ رجلٍ يدعو النَّاس لطريقته وحياته وسُنته فيُعرِضُ النَّاس عن دعوته، ويصيرون إلى غيرها.

فقُلْ حَسْبِيَ الله: لأنه الكافي لعبده في كلِّ حينٍ، ولأنَّ الذي يُعرِضُ إنما يُعْرِضُ عن فَضْلٍ يحتاجه هو، والله هو الغني الحميد.

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ هي حصدُ المؤمن في الملمات، يقولها حين تفرغ يده من كلِّ شيءٍ، فيتوجه بقلبه إلى مولاه الذي بيده كلّ شيءٍ، فيُنَجِّيهِ ويُمُدُّ له يد النَّصر والتأييد والرحمة.

قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلْقِيَ في النَّار فقال الله للنَّار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾[1]، وقالها ابنه محمد ﷺ حين قال له النَّاس: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[2]. فكان لهم ما طلبوه: ﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾[3].

هذه كلمات الله التي تتفجر من قلوب الصالحين لتُعْلِنَ أنها بالله ولله وفي الله، لأنها كلمات الحقائق والمعاني لا كلمات الشعارات.

يُعلِّمها الله لحبيبه محمد ﷺ أنَّ النَّاس إنْ أعرضوا عن نُصْرَتِكَ فإنَّ الله حسبك، وإنْ عاداكَ كلّ أهل الأرض فإنَّ الله كَافِيكَ، وأما إنْ جاء معك المؤمنون فإنكَ وإيَّاهم تقولون ما قال الله لك قبل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾[4]. ذلك بأنَّ الله حسبك وحسبهم في نُصرتكم وتأييدكم.

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ سلاحُ الصابرين والثابتين على الطريق، وعُدَّةُ السالكين في طريق الحبيب المصطفى، حين يُعْرِضْ عنهمُ النَّاس، ويخلون بينهم وبين أعدائهم.

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يقولها هؤلاء ليُعْلِنُوا أنهم حين قاموا مجاهدين في سبيل الله فإنَّهم لم يطلبوا نصرَ قوةٍ أرضيَّةٍ، ولا توكلوا على عقارٍ ماديٍّ، ولا على كثرةِ عددٍ، بل توكلوا على الله لأنه حسبهم وحده جلَّ في عُلاه.

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.
[2] سورة الأنبياء، الآية: ١٧٣.
[3] سورة الأنبياء، الآية: ١٧٤.
[4] سورة الأنفال، الآية: ٦٤.

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ يقولونها لأنهم يؤمنون بقوله سبحانه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾[1].

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ لأنه لا إله إلاَّ هو، إذ كلّ الآلهة التي يطلبون مددها هي كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾[2].

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ عندها تُلقى الأحمال، وعلى عتباتها تذهبُ الهموم، وبنورها تنقشعُ ظلمات الباطل وسطوته وإرهابه.

﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ هي قذيفةُ المؤمن التي لا تخُطئ، وهي رصاصته التي لا تخيب، كما أنها مهاده الذي يركن إليه.

﴿فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

كلماتٌ توزعت على دعوات رسول الله ﷺ، فقال بعضها في الخندق، وكان إذا أهمه أمرٌ قال: «**لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، رَبُّ السَّموَاتِ، وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**»[3]، فهي سلاحٌ يُعالج ما يطرأُ مِنَ الخارجِ، وسلاح ما يرد من هموم الداخل، فالحمد لله ربِّ العالمين.

هنا أضعُ القلمَ لأختمَ هذه الورقات التي أردتُهَا على أَمْرٍ، فجاءتْ على أَمْرٍ لم أتوقعه، قلتُ فيها كلمات لم أُزَيِّنْهَا في نفسي قط وهي الأكثر، وما أردتُ أنْ أقوله عندما شرعتُ في الكتابة هو القليل مما كتبته فيها، وكنتُ كلما انتقلتُ من آيةٍ إلى أُخرى أحس أني تركتُ الكثير من المعاني التي تلوح لي فيعجز القلم عن وصفها، ومرات كان العجز يأتي من خوفِ أنْ يتضخم الكتاب أكثر مما هو عليه، لأني أعلمُ حال النَّاس اليوم من القراءة والصَّبر عليها، وأنا مع قضية العصر التي هي كما قال عليّ رضي الله عنه: «العلمُ نقطة صغيرة كبرها أهل الجهل» فاضطرَ المرءُ أنْ يُلاحِقَ ما يقولون.

لقد أردتُ أنْ أرفعَ آيات القرآن مَرَايَا لهذا الواقع، ليدخل كلّ العالم فيها، وليبصر النَّاس منازلهم مِنْ هذه الآيات، وقد كان يَلُوحُ في ذهني وأنا أكتبُ أنَّ الذين أعنيهم إنما هم فئةُ الإيمان المجاهدة، فهم قصدي أولاً مِنْ هذه الورقات، وكنتُ في مضايقَ عِدة أتصورُ أنَّ مَنْ جَهِلَ الحقَّ مِنْ مخالفيهم

---

[1] سورة الزمر، الآيتان: ٣٦-٣٧.

[2] سورة الحج، الآيتان: ٧٣-٧٤.

[3] البخاري في «كتاب التوحيد» باب قولِ اللهِ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ وقوله جلَّ ذِكره: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾. حديث رقم: ٧٤٣١، ومسلم في «كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار» باب دُعاءِ الكَرْبِ. حديث رقم: ٢٧٣٠.

هم أمامي، لعلَّهم يهتدون برفع هذه المرَايَا في وُجُوهِهِمْ، وقد كتبتُ هذا الكتاب، ورافقني به قصة قصيرة أقولها لإخواني :-

لقد بدأتُ بمقدمة الكتاب وأنا بين أهلي عندما أُطْلِقَ سراحي مِنْ بعد ست سنواتٍ سجيناً في سجون المجرمة بريطانيا، وخلال أسبوعٍ كاملٍ وأنا مع أهلي لم أَسْتَطِعْ أنْ أكتبَ مِنَ المقدمة ثلاث ورقاتٍ مِنَ القِطَعِ الكبير، مع أنَّ محاولاتي تتم كلَّ يومٍ، دون جَدوى، هذا مع سابق ظني أني سأسيرُ فيه سَيْراً واضحاً في ذهني، ولكن لم يتمْ لي شيءٌ من ذلك، فجأةً وبلا مقدمات هجمتِ الشرطة البريطانية واقتادتني إلى السجن مِنْ جديدٍ، في أجواءٍ أشدّ قسوةٍ مِنْ كُلِّ ما عاينته في السنوات الماضية، وقد أخذتُ معي الورقات التي كتبتها، وبعض الورقات البيضاء، ظاناً أنَّ الكتابة لن تكون طويلة، وما أنْ وُضِعْتُ في الزنزانة وحيداً، إذ لا يُوجد فيها إلاَّ القلم والورقات البيضاء والقرآن الكريم حتَّى شرعتُ بالكتابة، وعجبتُ كيف يَسِيرُ القلم، فما كنتُ أعصرهُ بمشقةٍ، يأتيني الآن هنا الهُوَيْنَا، وفرحتُ فرحاً شديداً، حتَّى إني أخذتُ أوراقاً بيضاء معي إلى المحكمة مِنَ الزنزانة لحرصي أنْ لا تضيعَ هذه الأجواء مني، وبالفعلِ كتبتُ بعض الورقات عندما كنتُ أُرَدُّ من قاعة المحكمة إلى الزنزانة الانفرادية خلال فترة الاستراحة، ولا أعلمُ يوماً فاتتني الكتابة فيه منذ أول يومٍ لسجني إلى هذا الوقت الذي أكتبُ فيه هذه الكلمات إلاَّ يومين أو ثلاثة لأسبابٍ تتعلق بترحيلي مِنْ سجنٍ إلى آخرٍ، أو من حالةٍ إلى أُخرى، فها أنا الآن أكتبُ هذه الكلمات من تفسير آخر آيتيْنِ من براءة في سجن إنفرادي، لا أرى فيه أحداً خلال اليوم إلاَّ سَجَّانِي عندما يُقدم الطعام، إذْ أُخِذْتُ إليه عقوبةً لأني قُلْتُ لمسؤولٍ في السجن الأول: هَذِهِ حَرْبٌ، وَأَنْتُمْ سَتَخْسِرُونَ.

لقد كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي، وكما أسررتُ بذلك لأحدِ الإخوان، كيف سيكون اليوم الأخير، وأنا أكتبُ آخرَ كلمةٍ في هذا الكتاب، لأني كنتُ أرى كرامةَ الله لي وأنا أخطُ كلماته، فلما حضرتْ نهاية الكتابة كان الجواب؛ لقد سُقْتُ إلى السجن الانفرادي - أو العقوبة كما يُسمُّونها، لأكتبَ وأنا هنا آخر كلمات هذا الكتاب، ولأكتبَ عن هذه الكلمات العظيمة، وأنا بأمس الحاجة إليها: «حسبي الله ونعم الوكيل» و«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله ربَّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربَّ السموات وربّ الأرض وربَّ العرش الكريم».

نعم، هذا هو مشهدُ كتابة هذه الكلمات، وإني لأرجو أن يكون هذا بشارةَ خيرٍ في قبولِ هذا الكتاب عنده على ما فيه من الخطأ والزلل والنقص، وأن يكون بشارةَ خيرٍ بأنْ ينصرَ الله المُستغيث به سبحانه وتعالى.

اللهم أنت حسبي ونعم الوكيل.

اللَّهمَّ إنك حسب المجاهدين في سبيلك ونِعْمَ الوكيل لهم.

اللَّهمَّ إنك حسب المبتلين في سبيلك في السجون والمعتقلات ونعم الوكيل لهم.

اللهم انصرني وانصرهم، وأيدني وأيدهم.

اللهم إن الطواغيت ينجدون عبادهم، ونحن عبيدك فنجنا وانصرنا.

اللَّهمَّ اجعلنا من أهل القرآن في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

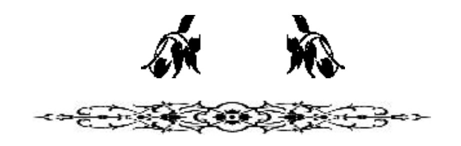
اللهم ألحقنا بالحبيب محمد ﷺ وأصحابه الكرام.

اللهم العن الكَفرة المشركين، الذين يصدون عن سبيلك، ويقاتلون أولياءك ويعادون دينك ورسلك، إله الحق.

آمين، آمين، آمين

وكتبه/ **أبو قتادة عمر بن محمود أبو عمر**

ليلة الجمعة ١٩ جمادى الثانية ١٤٣٠ للهجرة النَّبويَّة الشريفة
١٢/ تموز / ٢٠٠٩ ميلادية
العزل الانفرادي في السجن البريطاني/ لونغ لارتن



A


تم تنزيل هذا الكتاب من:
منبر التوحيد والجهاد
http://www.tawhed.ws
http://www.almaqdese.net
http://www.alsunnah.info
http://www.abu-qatada.com
http://www.mtj.tw
منبر التوحيد والجهاد